

جغرافية العالم المعاصر

جغرافية الدول الكبرى

الدكتور عبد الرحمن حميدة

دار الفكر

جغرافيه الدول الكبرى

جغرافية العالم المعاصر

جغرافية الدول الكبرى

الدكتور عبد الرحمن حميدة

تصوير ١٩٨٧
عن الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير ،
كما يمنع الاقتباس منه ، والترجمة إلى لغة أخرى ،
إلا بإذن خطي من دار الفكر بدمشق

طبع بأجهزة (C. T. T. السويسرية) للصف التصويري ،
وبالأنفست في دار الفكر هاتف (٢١١٠٤١/٢١١٦٦) ، برقياً (فكر)
ص.ب (١٦٢) دمشق - سورية Tx FKRMGS 411745 Sy



بين يدي الكتاب

يتصدى هذا الكتاب لدراسة جغرافية الدول الكبرى في العالم أخذاً بعين الاعتبار وزنها الاقتصادي أو عدد سكانها أو كليهما معاً ، دون الاهتمام كثيراً بأبعادها بحيث يضم بين دفتيه بحوثاً تشتمل أكثر دول العالم أهمية على الصعيد الدولي ومن هذه الزاوية فقط لم أعمد لتسميته « جغرافية الدول العظمى » التي تعني الدول المتقدمة الكبيرة .

هذا وقد حاولت أن تكون دراسة الدول المذكورة من زوايا مختلفة ، أو بالأصح حسب مدارس جغرافية متعددة ، دون التقييد والالتزام بمنهج واحد اتقيد به عند دراسة كل دولة ، وذلك تجنباً للرتابة المملة والمخططات الصلدة التي لم تعد مستساغة في مطالعة الكتب الجغرافية التقليدية .

وقد عمدت إلى إغناء كل مبحث بأكبر قدر ممكن من الخرائط والأشكال ، بعضها معرب وبعضها نصف معرب ، كي أترك فرصة للقارئ لمعرفة أسماء المواقع والمعالن والمدن بأسمائها الحقيقية ، كما تكتب وتلفظ باللغة الإنكليزية أو الفرنسية .

ويصدر هذا الكتاب كطليعة لسلسلة « جغرافية العالم المعاصر » والتي تشتمل على المؤلفات التالية :

- ١ - جغرافية الدول الكبرى
- ٢ - جغرافية أوروبا الغربية
- ٣ - جغرافية أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي

٤ - قارة آسيا

٥ - الوطن العربي في آسيا

٦ - الوطن العربي في أفريقيا

٧ - أفريقيا السوداء

٨ - العالم الجديد : امريكا وأستراليا .

والله أسأل التوفيق للنهوض بمثل هذه المهمة وتحقيق هدي المنشود ، وهو
تقديم بضعة مؤلفات توفر المعلومات الرصينة عن العالم الذي نعيش فيه وتفاعل
معه بأشكال متفاوتة .

المقّمة

كل ما في العالم في حركة دائبة . فبين عام وآخر ، لا تتغير المعطيات العددية فحسب ، بل هناك البنى الدولية التي تتبدّل ، فإذا اقتصرنا على شريحة ما عبر اللحظة الحالية ، فإن ذلك سيقودنا إلى أكثر التقاويم وقيّة وسأماً

ومن الأفضل أن تقدم الوقائع ضمن منظورها التطوّري ، وأن نستخلص الخطوط الكبرى المتحكّمة في كل شعب والمستمدّة من ماضيه ، وأن نُحلّل جهده لمواءمة تراثه مع العصر الحاضر ، وهكذا يكون الطالب الجامعي أفضل استعداداً وتهيئة لإدراك الأصالة العميقة لدى كل شعب ، وأن يفهم ، من خلال عالم الأمس واليوم ، عالم الغد .

ولن نخفي رغبتنا الشديدة في تفسير وتبسيط ، وتخفيف العرفيّة والإحصائيات . ولكن في هذا الربع الأخير من القرن العشرين ، ولد عصر جديد . فبعد البجوحة التي كانت تسود فيه ، بعد الحرب العالمية الثانية ، لدى الدول الغنية المتقدمة ، ظهر الإحساس بالحقائق القاسية ، وظهر قلق مفاجئ على مصير العالم . وقد أصبح بؤس التخلف أكثر إيلاماً ، وعلى الجانب الآخر من الأفق ، ظهر أن الآليّة المتزايدة الإحكام ، لدى الدول الغنيّة ، قد أصيبت فجأة بالسقم . ويتمخّض العالم الآن عن يقظة عسيرة ، كانت أزمة النفط في ١٩٧٣ نذيرها العنيف ، والذي كانت ترجمته على شكل ارتفاع في الأسعار ، وتضخم ،

وبطالة بلغت ١٠٪ لدى عدة دول متقدمة عظمى ، وإحساس بأن الوقت قد حان للكفّة عن هدر مجتمع الاستهلاك ، ورفض التقنية التي لا يكون الإنسان هو المسيطر عليها ، وأشكال الرعب المنتظرة من عام ٢٠٠٠ ، أمام تهديدات المجاعة ، والتلوث الجوي والمائي المتعاضم ، وتخريب التوازنات البيولوجية ، والخوف من قيام قيامة نووية .

وتطرح في كل مكان أسئلة رهيبة ، كما أن الإجابة تكون باستمرار عسيرة ، شاقة ، عويصة . ومنذ عهد قريب ، كان يبدو من العبث ، بالنسبة لبلد صناعي ، كانت الطبيعة شحيحة عليه ، أن يستغل دون مصاعب موارد أرضه ذاتها : غير أن اليابان أقامت قواعد ثروتها الباهرة فوق ركائز « التقسيم الدولي للعمل » . ويعزّو مصدّرو المواد الخام كل مشكلاتهم إلى هذا الكيان الهش . . . ومن الميسور تعداد أمثال هذه الملاحظات .

ومنذ بداية القرن العشرين ، أي خلال فترة لا تمثل أكثر من مدة حياة إنسان ، تغير العالم كثيراً . فقد نكب بحروب عديدة ، كانت اثنتين منها حربيين عالميتين ، لا تنفصلان عن بعضها بأكثر من عشرين عاماً ، وأدت إلى تغيرات عميقة ، فانحطت دول كبرى أو تلاشت ، وصعدت أخرى . ولكن ذلك يعود ، على الخصوص ، إلى التقنيّات الوثّابة ، وراح العالم يتطور بصورة مفرطة في عمقها وفي سرعتها حتى لقد دعيت هذه الفترة « فترة تسارع التاريخ » . وهكذا ظهرت في عالمنا مشكلات على درجة من الخطورة ، طرحت مسألة وجود الإنسان ذاته على بساط البحث . ويتعلق المستقبل ، الذي يسوده السلام ، أو الحروب الخارجية ، أو الأهلية ، بكل هذه المشكلات ، التي لم يتفق عليها بنو الإنسان بعد .

تلك هي التوضيحات الجديدة ، التي سنجهّد في أن نجعلها محسوسة ، في دراسة المشكلات الكبرى في العالم المعاصر ، كشكلات الطاقة ، وفي دراسة

أوروبا ، وفي حيرتها وترددها ، ودراسة العالم الثالث وحاجاته الذاتية الملحة ، وفي دراسة اليابان المنخورة بالتلوث ، والمهددة في أساسات قوتها الصاعدة ، وفي البروز التظاهري الذي تجلّى فيه العملاق البرازيلي الناشئ ، وفي المشكلات المؤلمة التي تعاني منها بنغلادش التي تنوء بسكانها ، وفي اللولب المعقّد للتنمية الصينية . . إلخ .

ذاك هو منحى سعيينا الحثيث ، ونتنى أن يكون القراء الكرام على مستوى الإحساس بالمسؤولية الجماعية لبني الإنسان .

ويؤلف هذا الكتاب الذي نضعه في طليعة سلسلة « جغرافية العالم المعاصر » ، بداية متواضعة لعدة كتب جغرافية إقليمية ، تلقي نظرة موضوعية وشاملة على العالم الذي نعيش فيه ، وستجد دراسة الوطن العربي مكانها اللائق ، قبل الفراغ من التعرف على العالم القديم الذي تؤلف واسطة عقده : **﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾** [البقرة : ١٤٣] .

وعلى الله التكلان وهو نعم المولى ونعم النصير .

عبد الرحمن حميده

رئيس قسم الجغرافيا في كلية الآداب بجامعة دمشق سابقاً

دمشق في ١٥ / ٣ / ١٩٨٤

دكتوراه الدولة في الآداب من السوربون

الفصل التمهيدي

أولاً - العالم في ١٩٨٠

يوجد في العالم ١٧٠ دولة .

ولكل دولة حيز ذو ثلاثة أبعاد :

رقعة أرضية ، شديدة التباين ، فأكبر دولة هي الاتحاد السوفيتي الذي يمتد على ٢٢,٤ مليون كم^٢ ، وأصغرها دولة الفاتيكان ومساحتها ٠,٤٤ كم^٢ .

وهناك بين الدول العظمى دول واسعة ، عدا الاتحاد السوفيتي :

الولايات المتحدة	٩,٣٦ مليون كم ^٢	البرازيل	٨,٥١ مليون كم ^٢
كندا	٩,٧٨ مليون كم ^٢	الهند	٣,٢٧ مليون كم ^٢
الصين	٩,٥٦ مليون كم ^٢	الأرجنتين	٢,٧٨ مليون كم ^٢

وهناك أصغر رقعة بكثير مثل :

اليابان	٠,٣٧ مليون كم ^٢	المملكة المتحدة	٠,٢٤ مليون كم ^٢
جمهورية ألمانيا الاتحادية	٠,٢٥ مليون كم ^٢	بلجيكا	٠,٠٣ مليون كم ^٢
إيطاليا	٠,٣٠ مليون كم ^٢	هولندا	٠,٠٣ مليون كم ^٢

رقعة بحرية لكل الدول التي تملك واجهة ساحلية. ففي السبعينات امتدت المياه الإقليمية إلى ٣ أميال ثم إلى ٦ ، ثم إلى ١٢ وأخيراً إلى ٢٠٠ ميل بحري ، أو ٣٧٠ كم ، مع حقوق صيد خاصة بها . هذا كما تمت السيطرة على الأرصفة القارية Schelfs حتى عمق ٢٠٠ م ، أو حتى تخوم حدودية مع دول أخرى واقعة تجاه سواحلها ، مثلاً حدث في بحر الشمال أو في الخليج العربي ، بالنسبة لحقوق النفط البحرية .

مجال جوي لا يحق للطائرات الأجنبية أن تعبره إلا بعد اتفاق يتم بعد تعاقد متبادل .

ولم يبق في العالم سوى منطقتين غير مقسومتين بين الدول :

- القارة القطبية الجنوبية ، التي أصبحت بموجب معاهدة ١٩٥٩ ولمدة ٣٠ سنة قارة مجردة من السلاح ومفتوحة أمام البحث العلمي الدولي .

- المساحات البحرية التي تقع فيما وراء ٢٠٠ ميل بحري . وترى بعض الدول جعلها مجالاً دولياً يعهد بتسييره للأمم المتحدة ، من أجل استغلال موارده من جديد ، معادن القاع ، والبحث عن النفط والغاز ، في حين تفضل دول أخرى أن تظل هناك (حرية الوصول) إلى ثرواته .

تطور عدد سكان الأرض

العام	عدد السكان	العام	عدد السكان
١٦٥٠	٤٧٥ مليون نسمة	١٩٦٤	٣٢٠٠ مليون نسمة
١٧٥٠	٦٩٠ مليون نسمة	١٩٧٥	٤٠٠٠ مليون نسمة
١٨٥٠	١٠٨٦ مليون نسمة	١٩٧٨	٤٢٠٠ مليون نسمة
١٩٠٠	١٥٥٠ مليون نسمة	١٩٨٠	٤٣٣٦ مليون نسمة
١٩٢٥	١٩٠٧ مليون نسمة	١٩٨١	٤٥٠٨ مليون نسمة
١٩٥٠	٢٤٩٧ مليون نسمة		

أكثر دول العالم سكاناً بالملايين في ١٩٨١

٦٨٤	٢ - الهند	٩٥٠	١ - الصين
(١٠٢٥ في ١٩٨٢)			
٢٣٠	٤ - الولايات المتحدة	٢٦٨ (١٩٨١)	٣ - الاتحاد السوفيتي
٢٧١ (مطلع ١٩٨٣)			
١٢١	٦ - البرازيل	١٥٠	٥ - أندونيسيا
٩٠	٨ - بنغلادش	١١٧	٧ - اليابان
٨٠	١٠ - نيجيريا	٨٤	٩ - باكستان
٦١	١٢ - ألمانيا الاتحادية	٧١	١١ - المكسيك
٥٦	١٤ - المملكة المتحدة	٥٧	١٣ - إيطاليا
٥٥	١٦ - فيتنام	٥٤ (١٩٨٢)	١٥ - فرنسا
٤٨	١٨ - تايلاند	٤٩	١٧ - فيليبين
٤١ (٤٤ في ١٩٨٢)	٢٠ - مصر	٤٦	١٩ - تركيا
٣٧	٢٢ - إسبانيا	٣٨	٢١ - كوريا الجنوبية
٣٦	٢٤ - بولونيا	٣٩	٢٣ - إيران
٣٣	٢٦ - أثيوبيا	٣٦	٢٥ - بيرمانيا
٢٨	٢٨ - زائير	٣٠	٢٧ - أفريقيا الجنوبية
٢٨	٣٠ - كولومبيا	٢٨	٢٩ - الأرجنتين

مجموع الأقطار المذكورة ٣٦٣٦ أو ٨٠٪ من سكان العالم

مجموع العالم ٤٥٠٨

ثروة الدول حسب الناتج القومي الخام بمليارات الدولارات

(حسب تقديرات البنك الدولي) في ١٩٨٠ :

٥٠١	٤ - ألمانيا الاتحادية	١٨٧٤	١ - الولايات المتحدة
٣٨٧	٥ - فرنسا	٧٨١	٢ - الاتحاد السوفيتي
٣٤٦	٦ - الصين	٦٤٢	٣ - اليابان

٧٤	١٩ - بلجيكا	٢٤٧	٧ - المملكة المتحدة
٧١	٢٠ - المكسيك	١٩٧	٨ - كندا
٦٣	٢١ - سويسرا	١٩٥	٩ - إيطاليا
٦١	٢٢ - تشيكوسلوفاكيا	١٥٨	١٠ - البرازيل
٤٧	٢٣ - تركيا	١١٦	١١ - إسبانيا
٤٦	٢٤ - النمسا	١١٠	١٢ - بولونيا
٤٦	٢٥ - العربية السعودية	١٠٣	١٣ - أستراليا
(١٩٨٢ في ١٠٠ و ١٩٨١ في ٨٦)		٩٩	١٤ - هولندا
٤٥	٢٦ - الأرجنتين	٩٧	١٥ - الهند
٤٣	٢٧ - يوغوسلافيا	٨٣	١٦ - ألمانيا الشرقية
٤١	٢٨ - الدانمارك	٧٦	١٧ - السويد
٤١	٢٩ - أندونيسيا	٧٥	١٨ - إيران
٣٦	٣٠ - أفريقيا الجنوبية		

مجموع الأقطار المذكورة ١٦٧٠٠ أو ٨٨٪ من ثروة العالم
مجموع العالم ٧٥٠٠

الإحصائيات العالمية في ١٩٨٠

٤٢٦ مليون طن و ٤٥٨ في ١٩٨١	إنتاج القمح
٣٧٩ مليون طن و ٤٠٣ في ١٩٨١	إنتاج الرز
٩١ مليون طن و ٩٢ في ١٩٨١	إنتاج السكر
٧١ مليون طن و ٧٣ في ١٩٨١	إنتاج الصيد البحري
١٢١٢ مليون رأس و ١٢٢٥ في ١٩٨١	قطعان الأبقار
٦٦٤ مليون رأس	قطعان الخنازير
١٠٣٢ مليون رأس	قطعان الأغنام
٣٥٠٠ مليون طن	إنتاج الفحم الحجري
٨١٣٤٠٠٠ مليون ك و س	إنتاج الكهرباء

إنتاج البترول	٣٠٥٦ مليون طن و ٢٨٥١ في ١٩٨١
إنتاج الغاز الطبيعي	١٤٩٠ مليار متر مكعب و ١٥١٣ في ١٩٨١
إنتاج خامات الحديد	٤٧٣ مليون طن و ٤٨٢ في ١٩٨١
إنتاج الفولاذ	٦٧٣ مليون طن و ٧٥٥ في ١٩٨١
إنتاج الألمنيوم	٨٥ مليون طن و ٨٨ في ١٩٨١
إنتاج الذهب	١٤١١ طن و ١٢٧٠ في ١٩٨١
إنتاج السيارات	٤١ مليون و ٣٧ في ١٩٨١
عدد السيارات في العالم	٣٥٦ مليون و ٤١٢ في مطلع ١٩٨١
قيمة التجارة الدولية	١٢٩٥ مليار دولار
حمولة البحرية التجارية	٣٩٤ مليون طنة حمولة خام و ٤٢٠ في ١٩٨١/٧/١
الحمولة المنقولة بالسفن	٣,٥ مليار طن
عدد الطائرات المدنية	٨٨٨٧

ثانياً - الكتل العالمية الكبرى

لقد انقسم العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بصورة تقريبية ، إلى ثلاثة مجموعات : « الكتلة الأمريكية » ، « الكتلة السوفياتية » ، والعالم الثالث .

وقد عملت الثروة الديموغرافية على تسهيل صعود أمريكا . فقد تلقت الولايات المتحدة موجات من المهاجرين المتشوقين لتحسين أوضاعهم ، والذين يترك لهم النظام الاقتصادي الليبرالي أكبر قدر من المبادرات والتطلعات إلى النجاح . وقد كان التاريخ مفيداً للولايات المتحدة : فقد أمكن التغلب بسهولة على الصدمات الداخلية وعلى نزاعات الحدود مع المكسيك في القرن التاسع عشر ، مثلما عملت الحربان العالميتان على إثرائها وعلى تقويتها صناعياً أكثر مما

أضعفتها ديموغرافياً لأن ميادين المعارك كانت بعيدة عن أراضيها ، كما كان تدخلها متأخراً ، وفي خلال ربع القرن الذي أعقب نهاية الحرب الأخيرة ، أي بين ١٩٤٥ - ١٩٧٠ ، أصبح نفوذها العالمي أمراً واقعياً . ويستند هذا النفوذ على بعض الأسلحة الناجعة :

- المظاهر الإيجابية في الليبرالية الاقتصادية ولا سيما تلك الإرادة الخارقة في الإقدام والتجديد .

- الدولار ، الذي عرف الأمريكيون كيف يعملوا منه أداة قدرة ، وذلك عندما كان عملة صعبة ، حتى نهاية الستينات ، أو بعد أن أصبح وافراً للغاية في الأسواق العالمية .

- سبق تكنولوجيا لا مرية فيه لا ينافيها عليه سوى اليابان .

- أسلحة اقتصادية حيث يكون للفوائض الزراعية قيمة أكبر ، ما دامت حالات العوز الغذائي متزايدة في الأقطار المتخلفة ، أو في الدول الاشتراكية .

- صورة إيديولوجية عن ديمقراطية متعددة الأحزاب وحرية .

- وسائل عسكرية ذات امتداد من مستوى عالمي استناداً إلى معاهدات متعددة الجوانب مع حماية نووية وقواعد استراتيجية .

وقد كان بلوغ الاتحاد السوفيتي مستوى دولة عظمى أكثر تأخراً وأكثر صعوبة ؛ فقد حصل في دولة شديدة التأخر اقتصادياً وذات بني اجتماعية غير مشجعة . وقد كان للتاريخ هنا دور مناهض بكل جلاء : فقد كانت السنوات الثلاثون ، بين ١٩١٤ و ١٩٤٥ حافلة بالمجازر الديموغرافية : الحرب العالمية الأولى ، الحرب الأهلية التي أعقبت الثورة ، ضحايا السياسة الستالينية التي تلت جماعية الأراضي والتصفيات الجسدية ، وأخيراً الحرب العالمية الثانية ،

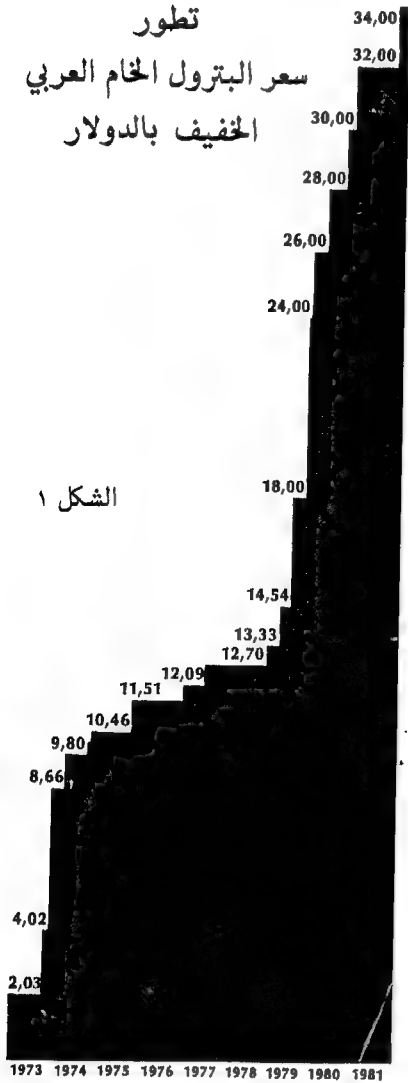
مما كلف هذه البلاد أكثر من ٣٠ مليون قتيل . كما لم تكن التخريبات المادية وانعدام النظام بأقل أضراراً . ولكن وجود انضباط ايديولوجي صارم ، يرمي لجعل الاتحاد السوفيتي أول بلد في التجربة الاشتراكية ، والمدعوم بسلطة الحزب الشيوعي المهيمنة سواء في الداخل أم في الخارج ، وتكوين قوة عسكرية جبارة ، سمح لهذه البلاد بأن تخرج من اقتصادها المتأخر .

ولقد استطاع النظام السوفياتي أن يفرض نفسه معتمداً على مصادر معدنية وطاقة ضخمة ، وهادفاً لجعل التقدم عن طريق التصنيع ، وماغماً للأفضلية لأنشطة التجهيز أكثر من سلع الاستهلاك الدارجة . وكان ربع القرن التالي لموت ستالين ، في الوقت نفسه فترة تحسين مستوى المعيشة الداخلي ، وانتشار النفوذ العسكري والايديولوجي على مستوى عالمي ، ولكن وحدة العالم الشيوعي تعرضت للتصدع : فقد أصبحت الصين قطباً آخر للنفوذ وللتوجيه الشيوعي .

أما عبارة العالم الثالث فقد ظهرت لأول مرة على قلم العالم الفذ (ألفرد سويفي كي يشير) ، في نهاية الأربعينات ، إلى الدول التي ترفض الانخراط في حلبة تنافس الدول العظمى ، تلك هي دول الحياد في المجموعة الأفريقية ، وبلدان أمريكا الجنوبية والهند . وهناك علامة أخرى تستخدم أحياناً لتعريفه : وهي أن العالم الثالث يتألف ، في غالبيته ، من دول ذات قاعدة اقتصادية هزيلة وناقصة النمو ، أي متخلفة . وفي هذا المعنى فهي تتنافر نوعياً مع الأقطار المتصّنة ، أو الصناعية ، وذات المستوى المعاشي المرتفع . ولكن تعرّض كل من هذين المعيارين لشوّه عميق خلال ثلث القرن الأخير .

فقد أصبح عدد الدول التي استطاعت أن تحتفظ بحيادها المبدئي زهيداً جداً : فقد أدت المواجهات الايديولوجية والنزاعات المسلحة بين هاتين الدولتين الامبرياليتين المسيطرتين إلى اضطرار الكثير من الدول الصغرى إلى الانضمام ،

بصورة أو بأخرى ، إلى هاتين الكتلتين . وقد كشف مؤتمر هافانا في عام ١٩٧٩ للعيمان ، ذلك الانشطار بين الاتجاه الموروث عن الأصول ، أي عن (مقررات باندونغ) في عام ١٩٥٥ ، والذي كان يمثله مارشال يوغوسلافيا الراحل « تيتو » ، وبين مجموعة (عدم الانحياز) التي تسير خلف موسكو وراء « كاسترو » زعيم كوبا .



هذا كما أن زيادة الإنتاج النفطي وارتفاع أسعاره بشكل استعراضي ، عملا على تهشيم وحدة العالم الثالث ، المعروف بأنه عالم متخلف . فقد أصبحت بعض الدول القليلة السكان وذات الإنتاج الضخم كدول الخليج العربي ، وفي مقدمتها المملكة العربية السعودية ، أصبحت غنية خلال عدة سنوات (شكل ١) في حين كانت الدول الأخرى ، المحرومة من هذا المن تتخبط في فقر متزايد أيضاً ، حتى لقد ظهرت عبارة العالم الرابع ، التي تشمل الدول المتخلفة المتوسطة الفقر ، مثل سورية وتونس وإيران وتركيا ، وبوليفيا ، ودول العالم الخامس مثل الصومال وأيشوييا وموريتانيا وبنغلادش .

هذا في حين حققت بعض الدول عملية الإقلاع وخرجت من مستنقع

التخلف مثل كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة ، كما أن البعض من الدول تتراوح بين بين مثل يوغوسلافيا وإسبانيا والبرتغال والبرازيل .



أعلاقان فوق ساقين من طين ؟!

١ - « لقد أصبحت حركات التمرد في العالم المتأمر ك - أي العالم الواقع مباشرة تحت وصاية الولايات المتحدة - هي التي تثير حفيظة هذه الدولة - فابتداءً من كندا إلى أمريكا اللاتينية ، ومن أوروبا حتى اليابان ، أخذت الشعوب الخاضعة بشكل واضح أو مَقْنَع للنفوذ الأمريكي ، أخذت تتجرأ لترفع رأسها لتحاول استرداد شخصيتها . وهكذا أخذ المجال الأمريكي - أي العالم - الذي تسلك إليه نفوذ أمريكا بمحذ ، وانتظم حسب إرادتها ، راح يتصدع بنيانه ، ويطمح إلى الاستقلال الذاتي ، وأحياناً إلى الاستقلال التام .

ترى هل يستغل العالم الاشتراكي هذا الوضع ، كما سبق أن توصل إليه ، كي يمد هيئته بزيادة أكبر ؟ لقد انتشرت بقعة الزيت التي انطلقت من روسيا لتغطي أوروبا الشرقية ، والشرق الأقصى بما في ذلك الصين وجنوب شرق آسيا ، إلى أن بلغت إفريقية الشرقية بما في ذلك كوبا ، التي أصبحت تشكل تهديداً للقارة الأمريكية ذاتها . وفي سبيل توقيف هذا الزحف ، تكرس الولايات المتحدة كل قدرتها العسكرية كما فعلت في كوريا وفي فيتنام .

وفي هذه المعركة المكتومة الصوت ، تكون المهارة أحياناً أفضل من القوة ، كما قد يلعب الحظ دوره . ويبرهن على ذلك انقسام العالم بين هذين الجبارين . وقد أصبح ذلك ممكناً ، وسيصبح ضرورياً أكثر في أعقاب تصاعد قوة الصين . وإذا كانت الصين قد أصبحت ورقة رابحة ، ولوقت ما ، في اللعبة الأمريكية ، فإن هذا لا يجوز أن يحجب عنا المشكلة الأساسية : أي هل ستستطيع قوة أمريكا ، المرتكزة على الاقتصاد الحر ، أن تظل دوماً قادرة ، رغماً عن جهازها العسكري الهائل ، على احتواء اندفاع اشتراكية ، تبرهن اختلافاتها الداخلية ذاتها على ضعفها ، مثلما تدل أيضاً على حيويتها . »

٢ - تعتبر أعناق الاختناق الجرح الدامي في الاقتصاد السوفيتي . . . والواقع أن كل منظومة التخطيط هي التي تقف في قصص الانهيار . وهذا التخطيط نفسه يتخذ صفة عنصر لا يقهر في الاشتراكية السوفياتية ، وياله من معضلة تواجه المسؤولين ! ترى هل يستدعي الانفلات من التخلف إعادة نظر موجعة للطرائق المتبعة نظراً لتعذر التخلي عن النظام كله ؟

وها هي الصين تنادي بأن الاتحاد السوفياتي قد خان الاشتراكية . والواقع لقد كبّل الاتحاد السوفياتي نفسه في العقائدية ، والبيروقراطية وفي نهاية المطاف في « التبرجس » . وقد حصل « التعايش السلمي » على حسابه مما أنعش الغرب ، وساعد الامبريالية الأمريكية بطريقة مباشرة ، وهكذا قيل : « الدب الروسي يكسر الجوزة ، والنسر الأمريكي يأكلها » . وقد قفزت التجارة بين البلاد الرأسمالية الفنية من ١٥٪ في ١٩٥٥ إلى ٣١٪ في ١٩٧٤ . وهذا يعني وقوع الاتحاد السوفياتي تحت تبعية هذه الدول في تموينه بالغذاء أو بالمواد الصناعية^(١) . وعندما يشتري الاتحاد السوفياتي مصانع « مفتاح باليد » فلا يعني ذلك الاعتراف بتأخره التكنولوجي ، بل يدل ذلك أيضاً على تبعية في تجهيزه لرغبة الرأسماليين . وقد اضطر الاتحاد السوفيتي للاستدانة من الأقطار الليبرالية ومن سوق الأورو دولار .

وفي الوقت الذي يخضع لضرورات التضخم الغربي ، حيث يتجه نحو الولايات المتحدة للحصول على حاجته من الغذاء ، أو نحو الولايات المتحدة واليابان ، للاستعانة بها من أجل استغلال موارده النفطية في سيبيريا ، ونحو الدول المذكورة أو أوروبا ، كي يحصل على التجهيزات التي لا غنى له عنها ، ألا يحق لنا أن نطرح السؤال التالي : هل يمكن اعتبار الاتحاد السوفيتي سيد مصائره الاشتراكية ؟

(عن تروتينينون . عالم القرن العشرين . دار فايار ١٩٧٨)



(١) وأكبر دليل على ذلك حاجته للماسة لأنابيب نقل الغاز السيبيري إلى أوروبا الغربية في ١٩٨٢ ومناهضة دول أوروبا الغربية لسياسة أمريكا التي تمارس ذلك .

تقلبات الظروف في أوروبا

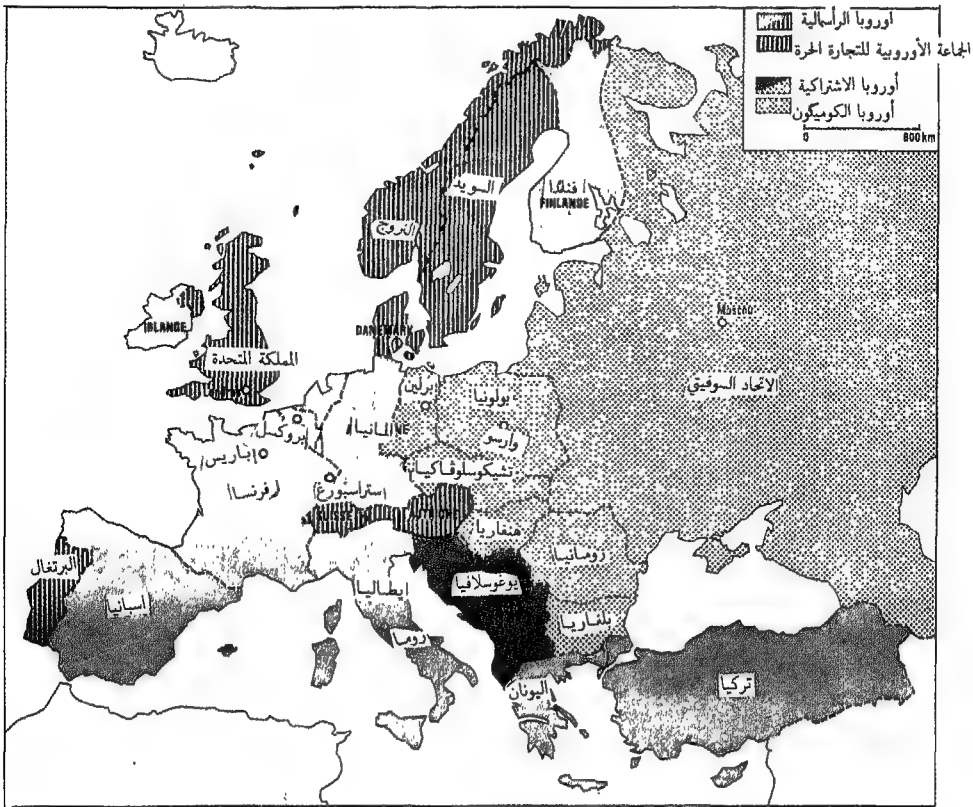
لقد وهب التفوق التجاري ، والثورة الصناعية ، من بعده ، قارة أوروبا ، وضعاً مهيئاً وذلك منذ مطلع الأزمنة الحديثة حتى فجر القرن العشرين . فقد أصابت الحربان العالميتان ، اللتان دارت معاركهما في الغالب ، فوق الأراضي الأوروبية ، بويلاتها معظم دول هذه القارة . فتعرضت قوى الدول المتحاربة إلى خسائر جسيمة في الأرواح ، فضلاً عن تخريب مادي رهيب أصاب وسائل الإنتاج .

وهكذا ظهر منافسان جديدان : ففي الربع الأول من هذا القرن ظهرت الولايات المتحدة كدولة صناعية جبارة ، كي تنافسها اليابان ، بعد قليل ، على الزعامة الصناعية .

كما تواترت المصاعب في الامبراطوريات الاستعمارية الأوروبية انتهت بتلاشيها وتحل محلها المستعمرات ، حرباً أو سلماً . فلم تخسر الدول الاستعمارية السابقة الإشراف السياسي على مستعمراتها السابقة ، التي نالت استقلالها بشتى الوسائل من ثورية ودبلوماسية ، بل حرمت أيضاً من امتيازاتها الاقتصادية ، كالأسواق المحمية ، كي تحل مكانها أشكال جديدة من التنافس ، كمحاولات التنمية ، هذا رغم بقاء الكثير من الارتباطات ، من مالية وثقافية ، والتي يسميها الكثيرون : الاستعمار الجديد .

ولقد تمخّض انهيار روسيا القيصرية عن نشوء أول دولة اشتراكية ماركسية في عام ١٩١٧ ، هي الاتحاد السوفيتي ، وتشكلت بين عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ في أقطار أوروبا ، التي اجتاحتها جحافل الجيوش الروسية ، جمهوريات جديدة ، هي الديموقراطيات الشعبية .

وهكذا أدت الحربان العالميتان إلى انشطار أوروبا إلى قسمين : فبعد الكتل التي كانت قائمة قبل حرب ١٩١٤ على أساس من منافسات قومية ، قامت مكانها اليوم كتلتان مرتكزتان على خصومات ايديولوجية (شكل ٢) .



الشكل ٢

أوروبا المنقسمة على نفسها

وخرجت أوروبا من الحرب في ١٩٤٥ مدمرة : فقد قضى على ثلث قدرتها الصناعية . كما أصيبت طرق المواصلات بالشلل ، ولم يعد الإنتاج الزراعي كافياً لتأمين تموين صحيح . أما التجارة الخارجية فقد منيت بعجز ضخم ، وتعرضت العملات الأوروبية إلى تخفيض في قيمتها . وقد شعر سكرتير الدولة الأمريكية ، (مارشال) ، بخطورة الوضع ، فاقترح بتاريخ ٥ حزيران ١٩٤٧ تقديم معونة كثيفة لأوروبا ، لم تقبل بها سوى دول أوروبا الغربية ، في حين قابل الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية هذا العرض برفض جماعي .

وهكذا نشأت المنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادي OEEC لإعداد برنامج لاستخدام المعونة الأمريكية على الصورة الأفضل . وبعد توزيع هذه المعونة أمكن إنقاذ أوروبا اقتصادياً في سنة ١٩٥٢ . وظلت هذه المنظمة تعمل لتشجيع تنمية أعضائها : كحرية التجارة عن طريق تخفيض الرسوم الجمركية ونظام الحصص ، وتحرير المدفوعات بفضل الاتحاد الأوروبي للمدفوعات ، وبفضل بنك التسديدات الدولية ، وابتداء من أعوام الستينات ، تخلّت المنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادي عن مكانها لمنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OCDE ، وهي جماعة من دول متقدمة وجدت دول أوروبا ضمنها مكانة سامية .

هذا كما ضاعف الأوروبيون الغربيون جهودهم في التنظيم ، سواء على الصعيد السياسي (المجلس الأوروبي) ، أو على المستوى الاقتصادي (الجماعات) ، وذلك لرد شيء من الإشعاع السابق لهذه القارة القديمة .

أما دول الديمقراطيات الشعبية ، فقد تبنت أهدافاً وطرائق سوفياتية . وأصبح مجموع أوروبا الوسطى يؤلف كتلة سياسية وعسكرية (حلف وارسو) واقتصادية ، وذلك منذ أن أصبح كل أعضائها شركاء في مجلس التعاون الاقتصادي المتبادل ، الذي أنشئ في عام ١٩٤٩ ، والذي يحاول جاهداً التنسيق بين مختلف البرامج الوطنية وتحسين التعاون الاشتراكي .

منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية

بتاريخ ٣٠ ايلول ١٩٦١ ، حلت منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية مكان المنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادي ، والتي أصبحت تضم الولايات المتحدة وكندا ، والتي انضمت إليها اليابان في ٢٨ نيسان ١٩٦٤ . وأخذت هذه المنظمة الجديدة على عاتقها كل التزامات المنظمة السابقة ، واتخذت لنفسها رسالة ترمي لتبني اقتصاديات أعضائها ، وذلك بإقامة علاقات تبعية متبادلة فيما بينها . ولكنها تختلف عن المنظمة السابقة بنقطتين : أولاً اهتمامها بالتنمية وليس بإعادة بناء ، وثانياً بإنشائها لجنة العون على التنمية ، لتشجيع نمو الأقطار الناقصة النمو (الدول المتخلفة) والذي يندر أن يتجاوز ٨٪ من دخلها الوطني وغالباً ما يكون عوناً عسكرياً أو غذائياً لا يسد الرق والهدف منه الدعاية قبل كل شيء.

وهكذا لا تلعب منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية دوراً أساسياً في الميدان التجاري ، لأن تسعة أعشار المنتجات أصبحت حرة التبادل ، ليس بين الأعضاء الأوروبيين فحسب ، بل بين الأعضاء المذكورين وبين الولايات المتحدة . وتلعب المنظمة على الخصوص دور تنسيق وإعلام واستشعار . وتنشر بصورة منتظمة دراسات عن وضع أعضائها الاقتصادي ، وتحتمن تطور الأوضاع المستقبلية ، وتوصي بالعلاجات ، وتلعب دور موزع للاستثمارات ، أو تقديم العون للبلاد القليلة التصنيع .

مجلس العون الاقتصادي المتبادل

لم يعمل الرفض الذي قوبل به برنامج (مارشال) من جانب الاتحاد السوفيتي ، ومن خلفه الجمهوريات الشعبية ، أكثر من التأكيد على انفصام قارة أوروبا إلى كتلتين : فقد رفضت كل هذه الدول الاشتراك في المنظمات الاقتصادية المتعلقة بمنظمة الأمم المتحدة ، مثل مؤسسة الغذاء والزراعة F.A.O ، والبنك الدولي لإعادة التعمير والتنمية . وقام الاتحاد السوفيتي بتأسيس مجلس (العون الاقتصادي المتبادل) ، كجواب مباشر على خطط مارشال الأمريكي ، وذلك بتاريخ ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩ . وهكذا التف حول الاتحاد السوفيتي كل من بولونيا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا وبلغاريا ، ورومانيا ثم ألبانيا ، وانضمت ألمانيا الديمقراطية في عام ١٩٥٠ . ولا يبدو أن هذا المجلس قد قام ، حتى عام ١٩٥٩ على الأقل ، فوق أنظمة واضحة ، كما لم يحاول أن يخلق مؤسسات متعددة الجنسيات . ويتألف المجلس من ممثلي الأقطار الأعضاء ، ولم يلعب أكثر من دور استشاري وتنسيقي ، دون أن يفكر مطلقاً بتخطيط شامل مفروض . وكل ما قام به في البداية هو تعاون حقيقي ، كما أن شدة تباين القوى بين الاتحاد السوفياتي وبقية دول أوروبا الشرقية أدت بصورة لا محيد عنها ، إلى نوع من وصاية سوفييتية .

من أمبروازي « التاريخ والجغرافيا الاقتصادية للدول العظمى » نشر دولاغراف ١٩٦٧

الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية

من المؤلف موازنة الأقطار الرأسمالية مع البلدان الاشتراكية الماركسية . فبعد أن كانت المركنتيلية^(١) هي السائدة ، ظهرت الرأسمالية مع الثورة الصناعية في أقطار أوروبا الغربية ، ثم في أمريكا الشمالية حيث استقرت فيها ووطدت أركانها ، ولكنها انتقلت لمناطق أخرى ، هذا إذا لم يمنعها النظام الاشتراكي الماركسي : وهكذا تحولت روسيا إلى الاشتراكية في عام ١٩١٧ ، وأقطار أوروبا الاشتراكية في سنة ١٩٤٥ ، والصين في ١٩٤٩ ، وتقوم هذه الموازنة على نظريات اقتصادية متخاصمة .

الرأسمالية والاشتراكية الماركسية : مخططان نظريان لعلم الاقتصاد

لما كانت الحرية هي أساس الديمقراطية السياسية ، فإن الرأسمالية تطالب بالحرية ذاتها في المجال الاقتصادي ، سواء بالنسبة للأفراد ، أو بالنسبة للجماعات . وتؤلف المنشأة أو المؤسسة entreprise قلب هذا النظام . فهي التي تعمل على تلاقي مختلف الأطراف الاقتصادية ، مثل المقاول الذي يقدم الخدمات والممتلكات ، والمقرض الذي يقدم الأموال ، والشغيلة الذين يقدمون قوة العمل . وتقوم المؤسسة بتوزيع عوائد العمل ، أي الأجور ، وعوائد رأس المال ، أي الأرباح ، وتقتطع أرباحها الخاصة . وتؤدي المنافسة الحرة إلى مجابهة المؤسسات فيما بينها ، وقد يؤدي صراع القوى الاقتصادية إلى تلاشي أضعف المؤسسات وإلى تركزها . وليس من الضروري أن يحدث ضمّ جغرافي لوحداث الإنتاج ، بل

(١) نظام اقتصادي نشأ في أوروبا خلال تفسخ الإقطاعية لتمييز ثروة الدولة بتنظيم الاقتصاد واعتبار المعادن الثينة ثروة الدولة الأساسية ، أو المذهب التجاري .

يحدث تركز اقتصادي لوسائل الإنتاج ، وضمّ أفقي إذا كان للمؤسسات النشاط ذاته ، وضم عمودي (شاقولي) إذا كانت الأنشطة متكاملة ، وعندها يسمى الوضع الجديد دمجاً . ولكن قد تنبثق مؤسسات جديدة ، دون توقف ، وتحتفظ بطابع متعدد الأقطاب بين المبادعات الاقتصادية .

وعندما تكون الأرجحية لحرية المبادعة والتعاقد ، يدعى النظام ليبرالياً . أما إذا كانت الأرجحية لامتلاك رأس المال في إدارة المؤسسات ، فيدعى النظام رأسمالياً .

أما الاقتصاد الاشتراكي فيستند على نظريات ماركس ولينين . ويبدو كردّ فعل ضد الرأسمالية المتهمة باستغلال الشغيلة . ويرغب دعاة الاشتراكية في إقامة اقتصاد وخدمات مكان اقتصاد الكسب ، مثلما يحلّ مكان الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ملكية جماعية لتجعل منها رأسمالية الدولة . ويصدر التنظيم الاقتصادي عن الحزب الوحيد المسيطر هو الحزب الشيوعي الذي يعتبر الممثل الديمقراطي للطبقة الحاكمة - أي البروليتاريا أو الطبقة الكادحة - . وتعتبر الاشتراكية كمرحلة انتقالية نحو مجتمع جديد هو الشيوعية . ولكن يجدر بنا أن نوضّح الاشتراكية الماركسية أو الجماعية ، لتحاشي أي التباس مع « الاشتراكية على النمط الغربي » ، التي تحل بقيام ديموقراطية اقتصادية دون التضحية بالديموقراطية السياسية المتعددة الأحزاب .

ولكن الحقيقة الرأسمالية تبدو متباينة جداً . ففي كل الدول العظمى أوجدت التنمية الاقتصادية الثراء ورفع مستوى معيشة الناس . ولم يحدث الافتقار الجماهيري المتزايد ، بل حدث تشكل طبقة وسطى . وتستطيع غالبية الناس أن تقوم بالتوفير ، وبالتالي توظيف أموالها .

ولا تقوم الفوارق الكبرى بين الطبقات ، بل بين المؤسسات ، وبين المنتجين

والمستهلكين ، وبين الناس الذين يمارسون عملاً وبين العاطلين عن العمل ، وتقوم الدولة بالتدخل أكثر فأكثر لتقوم بدور الحكم الذي يحسم النزاعات . فضلاً عن ذلك تقوم بدور رب العمل ، وبدور المؤسس الصناعي ، حتى لتحتل أحياناً دور أكبر رب عمل في البلاد . ويؤلف هذا التنظيم ما يدعى بالليبيرالية الجديدة . وتكون المشكلة الاجتماعية الرئيسة هي مشكلة تأمين العمل وليست مشكلة تأمين الموارد . وتلجأ بعض المؤسسات للتخلص من وصاية الدولة ، لإقامة مقرها في نوع من « جنة ضرائبية » حيث تدير منها فروعها المبعثرة في العالم : ذاك هو نظام تعدد الجنسيات transnationale أي ما وراء الوطنية .

هذا وتكون الحقيقة الاشتراكية متعددة الأشكال أيضاً . ففي عام ١٩٢٨ دخل الاتحاد السوفيتي فعلاً في عصر التخطيط ، بيد أن محتوى المخططات ، وتشغيل المؤسسات خضعا للكثير من التطور . هذا ويكون التردد كبيراً بين الإدارة المتمركزة والموحدة للاقتصاد وبين الحاجة للمرونة وروح المبادرة تجاه البيروقراطية .

وقد اقتفت الديمقراطية الشعبية مثال الاتحاد السوفيتي . غير أن الفلاحين البولونيين نجحوا في الاحتفاظ بأراضيهم . أما في يوغوسلافيا فقد قامت تجربة التسيير الذاتي وتطورت ، وذلك على خلاف التمرکز المستبد في النظام الستاليني . واستطاعت الصين ، في خلال ثلاثين عاماً أن تنتقل عبر ثلاث مراحل مختلفة جداً . فقد ظلت تقلد النمط السوفيتي مدة عشرة أعوام ، وبعد عام ١٩٥٨ ظهرت الطريقة الماوية التي تقوم على تحقيق التوازن بين الزراعة والصناعة في إطار الكومونات الشعبية ، وظهر اتجاه جديد جداً بعد عام ١٩٧٧ راحت تتفوق فيه آراء رجال الاقتصاد على أرباب ايدولوجية الثورة الثقافية .

وهكذا يبدو الواقع الاقتصادي شديد التنوع ، ويتمخض كل نظام عن صيغ متباينة . ففي كل كتلة توجد أنظمة اقتصادية مهيمنة وأنظمة أخرى خاضعة ،

وهذه المفارقات على المستوى العالمي هي تعبير عن حقيقة جوهرية أخرى هي :
اختلافات في مستويات التنمية .



الرأسمالية الجديدة

إن الانصهار والامتصاص هو أصل التروستات الأمريكية . فقد توسعت شركة فورد بالقضاء على المنافسين الصغار ، وتشكلت شركة جنرال موتورز G.M.C ، عن طريق تشارك بويك وباكوار وأولدزمويل وهونتيك . وقد أصبحت هذه التروستات الآن مستقرة ، ولكن رغبة منها في الحفاظ على منافسة حرة ، فقد عمدت لجنة التجارة الفيدرالية إلى منع توسعها عن طريق القوانين المعادية للتروستات . وهكذا يبدو التركيز الأفقي والعمودي الآن من خصائص الشركات الصغيرة والمتوسطة . غير أن التركيز المالي من غط هولدفنغ أو شركة المستندات ، فإنه يقاوم بشكل أفضل لأن مكافحته تبدو أكثر صعوبة . ومن المؤكد أن بعض المجموعات المالية الضخمة مثل مورغان وروكفلر ودويون نيور وميللون وكليفند ، التي تدعها أم المصارف ، هي التي تسيطر على أكبر المؤسسات الأمريكية ؛ وهكذا نجد أم المؤسسات الأمريكية وعددها ٣٢٤ تخضع لإشراف ثمانية مؤسسات مالية .

ولكن الظاهرة الأكثر جِدّة هي الكونغلوميرا والشركات المتعددة القوميات . فالكونغلوميرا هي شركة صناعية خاضعة لإدارة واحدة ، ولكنها ذات أنشطة متعددة وشديدة التنوع . فأضخم كونغلوميرا هي I.T.T (التلغراف والتلفون الدولي) ، والتي كانت تستخدم في عام ١٩٧٢ / ٤٢٨٠٠٠ شخصاً . ويجب البحث عن أسباب نمو هذه الكونغلوميرات : أولاً في الرغبة في التحايل على القوانين المعادية للتروستات . ولكن هناك أيضاً فكرة التخفيف من مخاطر المؤسسة وذلك بتنويع أنشطتها إلى الحد الأقصى . وأخيراً هناك ، على الخصوص ، حاسة القرن العشرين ، وهي أنه يجب إشباع رغبات المستهلك . . . أي أن الكونغلوميرا هي ظاهرة مدنيّة .

وقد كانت هناك شركات ضخمة ، أمريكية أو غير أمريكية ، توظّف بالخارج على شكل شبه استعماري . أما الشركات المتعددة الجنسيات فهي أكثر من ذلك ، حتى ولو كنا نطلق هذا الاسم في اللغة الدارجة ، على كل شركة ذات مصالح في الخارج . والليزة الأكثر وضوحاً في الشركة المتعددة القوميات هي الاستراتيجية العالمية ، فهي تباع عالياً ، في قلب السوق ، وهي طريقة طيبة للتخلص من الرسوم الجمركية ، وتناور بحذق من بلد لآخر ، في سبيل الاستثمارات المالية ، وفي استخدام الأيدي

العاملة الرخيصة كما في هونغ كونغ مثلاً ، وفي الصيرفة ، وكل ذلك حسب المصالح الحالية أو المستقبلية .

وهناك ظاهرة أكثر حداثة أيضاً وهي أن الرأسمالية الجديدة تجعل من المؤسسة القطعة الرئيسية في « البنية التقنية technostructure » ، كما أظهر ذلك غلبريت في كتابه « الدولة الصناعية الجديدة » ، ذلك أن المؤسسة الحديثة الكبرى لا تحوي أيّ شبه مع الشكل الذي يمين فيه رب العمل ، ولا مجال هنا للرواد العصاميين من أمثال روكفلر أو للمنظمين من أمثال فورد ، من الذين كانوا يفرضون آراءهم . ومن الآن فصاعداً لم يعد البحث عن الربح الأقصى في المؤسسة العصرية هو الحافز ، بل تكون التقنية هي المهينة ، ففي داخل المؤسسة هذه يعمل البحث العلمي والاستثمار المالي والتخطيط في خدمة هذه التقنية .

عن تروتسكيين « القرن العشرين الأمريكي »

دار نشر بورداس ١٩٧٤

الاقتصاد الاشتراكي والتخطيط : على قدر ما يكون إغفال موقف كارل ماركس في موضوع مبدأ التخطيط واضحاً ، بقدر ما يكون من العسير أن نجد في كتابه ، مستندات واضحة في هذا الموضوع . وكل ما تسمح به تفاسير مؤلف ماركس هو مشروعية التخطيط في المجتمع ، دون أن يكون من المستطاع توضيح النمط الذي يجب أن يكون عليه التخطيط المذكور : متركزاً ، لا مركزياً ، أو يتم بالاستعانة بمخطط وحيد إلخ . . .

وقد اقتضى الأمر أن يشهد العالم توسع الاقتصاد السوفيتي السريع ، في الوقت الذي كانت الأقطار الأخرى تتعرض لشللٍ لا مثيل له في أعقاب الأزمة الاقتصادية الكبرى في عام ١٩٢٩ ، كي يمكن أخيراً طرح مشكلة الإدارة العقلانية بصورة جذية ورسينة .

ومنذ فترة شيوعية الحرب ، تبنى الحزب الشيوعي مبدأ المخطط الوحيد في عام ١٩١٩ ، وكان لينين ضد ذلك . . . ففي مقالة نشرتها جريدة البرافدا في ٢٢ شباط ١٩٢١ عنوانها « مخطط وحيد للاقتصاد » راح ينتقد فيه انعدام الواقعية لدى دعائه ، ومفاهيمهم الأدبية والبيروقراطية والتقليدية التي تفتقر لأي عمل حي .

ولكن في عام ١٩٢٤ أي بعد موته مباشرة ، شاعت فكرة المخطط الاقتصادي الوحيد . . . وابتداءً من هذه الفترة ، أي ابتداءً من الوقت الذي أصبحت فيه البرامج الاقتصادية من النمط السوفيتي عبارة عن برامج تصنيعية ، راح التخطيط السوفياتي النمط يصطدم بمشكلات ستكون متشابهة ، سواء

في الاتحاد السوفيتي ذاته أو في تشيكوسلوفاكيا ، أو في هنغاريا وبولونيا الخ . . . والاتجاه الطبيعي (للنط) يكون ، في الواقع ، هو تبني طرائق مفرطة في تمركزها ، والاستسلام لبيروقراطية معتدة برأها وسادة فيه ، ومتشعبة ، على أمل أن تحل أوائل المصاعب الكبرى التي ستجابهها .

ومهما كان عليه الأمر فإن مبدأ التخطيط المتمركز يظل هو الساري المفعول ، حتى أنه ليعتبر كأداة من صميم الاقتصاد الاشتراكي ، ولكنه ليس بالقانون الاقتصادي كما لفت ستالين الأنظار إلى ذلك .

عن بو بروسكي « نشوء النظام السوفياتي في التخطيط »

دار نشر موتون ١٩٥٦ ، وعن شامبر في كتاب « الاقتصاد المخطط » P.U.F ١٩٦٨



مستويات التنمية

في جملة الأسباب التطويرية المتعددة في مجال التنمية ، هناك مُعْطِيتان يُنظر إليهما على أنها أساسيتان : وهما الوضع الديموغرافي ومستوى التنمية العلمية والتقنية .

لقد تجاوز عدد سكان العالم قمة ٤,٥ مليارات نسمة في عام ١٩٨١ ، ويتزايد سكان الأرض حالياً بمقدار ٦٥ مليون نسمة كل عام . وقد أصبح سكان الكرة الأرضية اليوم ثمانية أضعاف ما كانوا عليه عام ١٦٥٠ ، وقد تضاعف عددهم ثلاث مرات منذ قرن واحد ، وتسارع هذا التقدم حسب وتيرة هندسية خلال القرن العشرين . فبين عام ١٩٠١ وعام ١٩٢٥ كان تزايد سكان العالم بمعدل ٨ بالألف سنوياً ، وارتفع إلى ١١ بالألف بين عامي ١٩٢٦ و ١٩٥٥ ، وإلى ٢٠ بالألف بين ١٩٥١ و ١٩٧٥ ، وإذا استمر سكان العالم في تزايدهم حسب النسق الحالي ، فإن

سكان عالمنا سيتضاعفون خلال ٢٥ سنة فقط . أما سكان البلدان العربية فسيضاعف عددهم في مدة لا تزيد عن ٢٥ سنة ، أي سيبليغ عدد سكان الأقطار العربية ٣٠٠ مليون نسمة في نهاية القرن العشرين ، منهم ٨٠ مليوناً في مصر لوحدها دون أن يرافق ذلك نمو مواز في التنمية ولا سيما في الإنتاج الغذائي .

وينجم هذا الانفجار الديموغرافي عن هبوط شامل في نسبة الوفيات ، التي بلغت وسطياً ١٣ بالألف . ولكن في الوقت الذي تهبط فيه نسبة الولادات في البلدان الصناعية بنسبة لا تقل عن معدل هبوط الوفيات ، لأن عدد سكان هذه الأقطار الذي يبلغ ١١٠٠ مليون ، أو أكثر من ربع سكان العالم بقليل ، لم تسجل أكثر من ١٧ مليون ولادة في سنة ١٩٧٥ أو ١٥٪ من مواليد العالم في تلك السنة ، فإننا نجد أن الدول الأخرى لا تزال تحتفظ بنسبة توالد شديدة جداً ، إذ كان عدد المواليد فيها في تلك السنة ٩٤ مليون أو ٨٥٪ من مواليد العالم كله .

وقد أدى هذا النمو السكاني إلى تفاسير متشائمة ، كتلك التي صدرت عن أعضاء « نادي روما » ولا سيما عن منظمة الغذاء والزراعة الدولية في ١٩٨١ (تشرين الأول) ، إذ ظهر أن العالم العربي يستورد نصف المواد الغذائية التي يستهلكها ، لأن ٧٪ من أرض الوطن العربي هي المنتجة زراعياً : أي هناك تكاثر

الدولة العام	بلجيكا	فرنسا	المملكة المتحدة	الاتحاد السوفييتي	الولايات المتحدة	إيطاليا	هولندا	ألمانيا الغربية
١٩٥٧	١٧	١٨,٥	١٦,٦	٢٥,٤	٢٥	١٨,١	٢١,٢	١٧
١٩٦٨	١٤,٨	١٦,٦	١٧,١	١٧,٤	١٧,٤	١٧,٦	١٨,٦	١٩,٧

تطور النسبة الخام للتوالد في الأقطار الصناعية : عدد الولادات لكل ألف من السكان بين ١٩٥٧ و ١٩٦٨

مفرط في أعداد الناس بالموازنة مع المواد المتوفرة في كرتنا الأرضية ، مما يجعل المستقبل أمام الأقطار الفقيرة حالاً . ومع ذلك يبدو الآن نوع من تباطؤ في النمو الديموغرافي أخذت ملامحه تظهر للعيان ، فبعد أن كان نحو سكان العالم بمعدل ٢٤ بالآلاف عام ١٩٦٠ إذ به يهبط إلى ٢٨ بالآلاف في ١٩٧٥ . وتعتبر الصين المسؤولة الرئيسة عن ذلك الانخفاض ولكنها ليست الوحيدة ، لأن الأسرة الصينية الجديدة لم يعد مسموحاً لها بإنجاب أكثر من مولود واحد ، ويتعرض المخالفون للغرامات المالية كحسم نسبة محددة من مرتب الزوجين وهكذا هبطت نسبة تزايد سكان العالم في فترة ١٩٧٥-١٩٨٠ إلى ١,٧٥ بالمائة سنوياً مقابل ٢٪ بين ١٩٦٠-١٩٦٥ .

وهكذا أصبح معدل النمو السكاني في الأقطار المتخلفة ، نتيجة تحسن الأوضاع الصحية انفجارياً . ففي السلفادور ، التي تخوض حرباً أهلية ، يبلغ هذا النمو السنوي ٣٧ بالآلاف ، و ٣٥ بالآلاف في المملكة المغربية والجزائر وأكثرية الأقطار العربية والمكسيك وكوستاريكا ، كي يضرب الرقم القياسي العالمي في الكويت وهو ٦,١ بالمائة عام ١٩٧٥ و ٧,٩ بالمائة في ١٩٨١ أو ٧٩ بالآلاف .

جدول التزايد السكاني زمنياً حسب النمو السكاني الخام

التزايد الطبيعي السنوي %	عدد السنوات اللازمة لتضاعف عدد السكان	في قرن واحد ١٠ ملايين نسمة يبلغون
٠,٥	١٣٩	١٦ مليون
١	٧٠	٢٧ مليون
١,٥	٤٧	٤٤ مليون
٢ (المعدل العالمي)	٣٥	٧٢ مليون
٢,٥	٢٨	١١٨ مليون
٣	٢٣	١٩٢ مليون
٣,٥ (العالم العربي)	٢٠	٢١٢ مليون
٧,٩ (كويت)	١٠	٢٦٠٠

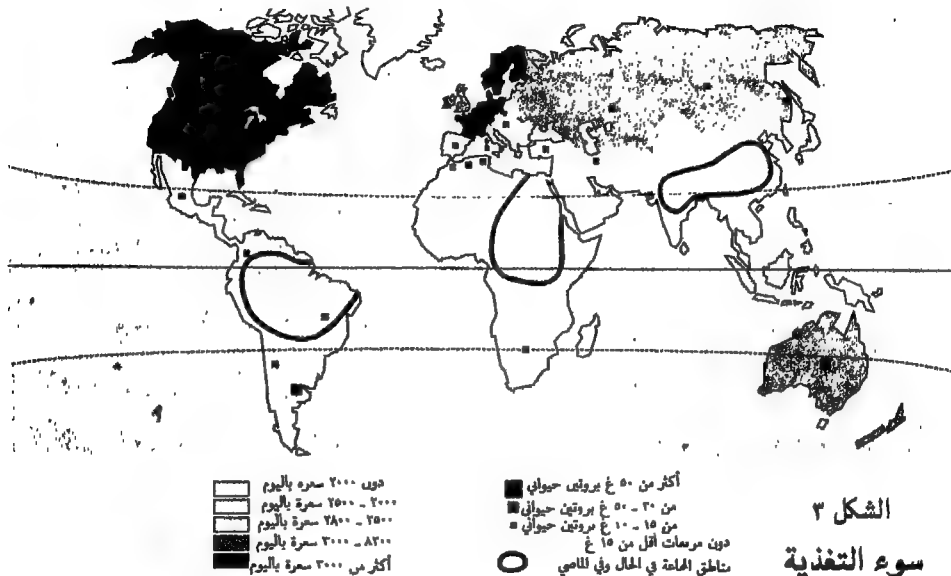
أما في الأقطار الصناعية في أوروبا الغربية ، فيتراوح بين ٢ بالألف كما في الأقطار الاسكندنافية وألمانيا الاتحادية والنمسا و٧ بالألف كما في إيطاليا .

وإذا كان من العسير معرفة أيّ من الاختراعات هو الذي كان له الأهمية العظمى في تاريخ البشرية ، فإن من المؤكد أن نسق المكتسبات التقنية ، قد تسارع خلال القرنين الفائتين . فقد كان النصف الثاني من القرن الثامن عشر متميزاً في بريطانيا بأول ثورة صناعية على أثر اكتشاف الماكينة البخارية واستخدام الفحم الحجري الخ .. وقياساً على ذلك راح العلماء يتكلمون عن ثورات ، مثل ثورة الكهرباء ، وثورة المحرك الانفجاري ، وثورة الطاقة النووية والالكترونيك . والحقيقة نحن نعيش عصر الاكتشافات وأشكال التقدم التقني المستمر . وإذا كان الاختراع في الماضي نتيجة مصادفة ، فإن اكتشافات اليوم تكون منسقة حتى أنها لتحدث في عدة أقطار راقية في وقت متقارب : فقد أصبح العالم أكثر من أي وقت مضى مرتبطاً بنو البحث التطبيقي .

هذا ولا يمكن فصل هذا التقدم التكنولوجي عن التكوين الثقافي وعن الوسائل المالية المخصصة للبحث العلمي ، أو بعبارة أخرى ، ينحصر هذا التقدم بشكل خاص في الأقطار التي تتمتع بصورة مسبقة بوضع اقتصادي متميز ، مما يزيد في استفحال اختلال التوازن بين الأقطار الفقيرة والأقطار الغنية ، أي هناك بلدان تزداد ثراءً كاليابان التي يقل النمو السكاني فيها سنوياً عن ١٪ مقابل تلبية اقتصادية تزيد عن ٧٪ وبلدان يكون النمو الاقتصادي فيها معدوماً كالسودان ، أو متقهقراً مثل الصومال مع نمو سكاني يزيد عن ٣٪ .

ولقياس الثراء الاقتصادي في قطر معين وغنى سكانه ، يمكن استخدام قرائن لها قيمة الروائز tests مثل : قرينة المتوفّرات الغذائية وتحسب بالسعرات (حريرات) شكل (٣) ، واستهلاك الطاقة ، واستهلاك الفولاذ ، ولكنها تكون قرائن جزئية . ومنذ أن أصبحت الحسابات القومية تسمح بتقدير مداخيل الدول فقد

أصبح الاعتماد أكثر فأكثر على قرينة إجمالية ، وهي دخل الدولة الموزع على سكانها . وهكذا نجد أن الناتج الخام للفرد يكون في اتحاد الإمارات العربية وهو ٣٠٠٠٠ دولاراً في عام ١٩٨٠ أكثر ارتفاعاً من مثيله في الحبشة (إثيوبيا وهو ١٥٠ دولاراً) بمقدار ٢٠٠ مرة . ولا يبدو أن التطور يسير في اتجاه توازن قريب منظور ، لأننا كثيراً ما نجد أن الأقطار التي يكون النمو الديموغرافي فيها وثاباً ، هي التي يكون التقدم الاقتصادي فيها بطيئاً جداً ، باستثناء دول الخليج الصغيرة التي لا تمثل أكثر من رقعة من الحمل البراق ، فوق ثوب من الأسماك ، هو رداء الفقر الذي ترتديه معظم الأقطار العربية . وقد أشار إلى ذلك الأستاذ (بيار جورج) ، رئيس المؤتمر العالمي للسكان الذي عقد في بخارست عام ١٩٧٤ ، والأستاذ في السوربون ، عندما ذكر في محاضرة له عام ١٩٥٦ : لاتسير الأقطار المتخلفة نحو الفقر الذي بلغته منذ زمن طويل ، بل تسير قُدماً نحو التسوّل ، أو كما يقول المثل الأوربي : الأغنياء ينتجون المال والفقراء ينتجون الأطفال . وإذا كانت نظرية ماركس عن دكتاتورية الطبقة العاملة لم تتحقق في البلدان الصناعية ، فإن نظرية مالتوس قد تحققت في الدول المتخلفة . وتكون موازنة نسقي التطور هي أساس تصنيف مستويات التنمية أو مستويات المعيشة :



فالأقطار المتقدمة تتصف بتقدم اقتصادي أعلى من نسق توسعها الديموغرافي ، فهنا تكون السلع الاستهلاكية وفيرة فيها وجيدة التوزيع نسبياً ، مما يدفع بعض العلماء إلى القول بأن نبض عن « نوعية أو كيفية المعيشة » أكثر من البحث عن النمو الكمي .

أما الأقطار السائرة في طريق النمو فقد تعرّفت على التقنيات الحديثة متأخرة ، ولكن وضعها أخذ في التحسن بمجرد أن يكون التقدم الاقتصادي أكثر تسارعاً من النمو الديموغرافي . وقد حقق كل من اليابان والاتحاد السوفيتي ، ضمن إطار نظامين اقتصاديين مختلفين ، مثالين ناجحين عن عملية « الإقلاع » ولحقت بهما كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة ، وربما تكون تلك هي حالة الأقطار النفطية القليلة السكان مثل ليبيا ودول الخليج العربي .

أما البلدان الناقصة النمو أو المتخلفة أو الأمم الكادحة أو أمم الجنوب ، فتميز بحيوية ديموغرافية عداءة تتقدم كثيراً على التنمية الاقتصادية . وهنا نلاحظ أن الكفاح في سبيل التقدم يكون عسيراً ، حتى ولو كانت هناك ثروات قابلة للتصدير ، كحال الجزائر التي تنفق نصف قيمة نفطها وغازها على استيراد المواد الغذائية ، وحال إيران وفنزويلا والمغرب ، وإذا ظلت الأمور على هذا المنوال فيها فإن وضعها سيأخذ في التدهور بسرعة .

وهكذا نجد العالم اليوم في حالة سباق بين خلق الثروات وبين التطور الديموغرافي . ومنذ القرن الثامن عشر كان العلماء يرتعدون فرقاً من هذا المصير . وهذا ما دعا مالتوس (١٧٦٦ - ١٨٣٤) البريطاني إلى تخفيض عدد المواليد . وهكذا تكون المجابهة ليست بالجديدة بين « أنصار تكاثر السكان » وبين « المالتوسيين » الذين رجحت كفة آرائهم حتى في أكبر قطر ماركسي ؛ هو الصين الشعبية .

التقدم التقني ومجالات الاستخدام

بعد أن كان الجهد التقني يستهدف في البداية زيادة الإنتاجية ، عن طريق تدخل الآلة ، أصبح يقوم بالتالي على تحسين وسائل العمل : كالمعمل المتسلسل ، أو البساط الدائر ، والتأيلورية في الولايات المتحدة ، والاستاخوانوفية في الاتحاد السوفيتي ، والأتمتة ، والتي كانت تمثل المراحل الكبرى في طريق هذا التطور ، في العمل الصناعي واليدوي . وقد أصبح هذا التحول فيما بعد يدخل حيز التطبيق في القطاع الثلاثي ، أو قطاع الخدمات ، من خلال الحاسب الألكتروني والحرك من بُعد . télématique

غير أن هذه الإنجازات العلمية لا تغلو من محاذير . وندين للعالم الفرنسي الكبير ألفرد سوفي بالتمييز بين أشكال التقدم (التقدمي) التي تزيد في المواد المتوفرة أمام الإنسان ، كاستخدام المواد الأولية بصورة اقتصادية أكثر ، واستغلال تمديني أكثر نجاحاً ، واستصلاح الأراضي البور ، والحماية ضد انحراف التربة والملوحة ، وبين أشكال التقدم (التراجعي) كإحلال الآلة مكان الإنسان دون أن توفر له مجالات عمل أخرى ، والأتمتة ، والتي تقلص مجالات الاستخدام ، بحيث قد تؤدي لنتائج اجتماعية مأساوية . ومنذ أكثر من قرن أصبحت الزراعة في البلدان المتقدمة تنتج أكثر مع أيدي عاملة أقل ، ففي الولايات المتحدة لا تزيد نسبة العاملين في الزراعة عن ٦٪ من الأيدي العاملة . وقد كان هذا قليل الخطورة ما دامت الهجرة الريفية تجد في مجالات العمل الحضرية ضمن القطاعين الثانوي والثلاثي وظائف جديدة . ولكن هذه الحالة ليست صحيحة تماماً الآن إذا لم يبلغ النمو الاقتصادي نسبة مرتفعة . وهكذا نجد منذ عام ١٩٧٤ أن هناك أزمة في مجالات العمل ، أو بطالة ، في الأقطار المتقدمة ، إذ ارتفع عدد العاطلين عن العمل في بريطانيا إلى أكثر من مليونين في عام ١٩٨٠ ، لأن النمو الاقتصادي يتراوح في الأقطار الصناعية بين ٢ و ٤٪ سنوياً ، ولكنه يصل إلى ٧٪ في اليابان ، في حين يكون دون الصفر كما في الصومال والسودان ونيبال كما سبق ورأينا ولكن البطالة لاتعفي في البلاد المتقدمة البؤس المطلق.

تسمية غير دقيقة : الأقطار السائرة في طريق النمو : لقد ظل خبراء الأمم المتحدة يرجحون دوماً في تقاريرهم الكلام عن « الأقطار السائرة في طريق النمو » ، بالمقابلة مع الأقطار المتقدمة أو المتطورة ، عوضاً عن القول : الأقطار الناقصة النمو أو المتخلفة . ولكن يبدو أنه من التناقض أن نطلق عبارة بلد سائر في طريق النمو ، على قطر تتناقص فيه الموارد ، بالنسبة للواحد من السكان بمعدل ٢ أو ٤٪ في كل عام ، مثل بنغلادش وموريتانيا والسودان والحبشة ولا سيما إذا كان هذا الاتجاه مستمراً منذ فترة طويلة نوعاً ما .

عن لامبير في « القرن العشرين الثاني » دار نشر كولان ١٩٧٧

اكتظاظ السكان والمالتوسية الجديدة

قبل بضعة أعوام خلت ، كانت الأوضاع العالمية تدفع للاعتقاد بأن سكان العالم يتجهون نحو جموح انتحاري . وراجعت الأمم المتحدة إسقاطاتها السكانية الصاعدة لعام ٢٠٠٠ ، وقدمت رقم ٦٤٩٤ مليون نسمة . وسار على دربهم رجال الفكر والإعلام ، دون تردد ، والذين دعيتهم الأطروحات الايكولوجية ، ذات الرواج المتصاعد ، حتى ولو كان ذلك على حساب تقريبات خارجية واهية ، فقدموا رقماً يثير الذعر ، وهو ٧ مليارات إنسان في نهاية القرن العشرين ، وعلى أساس تضاعف سكان العالم كل ٣٠ سنة تقريباً ، فإن البشر سيبلغون ١٠٠ مليار نسمة في مطلع القرن الثاني والعشرين ، وستصل الكثافة إلى نسمة واحدة في كل آر من الأرض العائمة (١٠٠ م^٢) في عام ٢٢٢٥ أو كثافة تصل إلى ١٠٠٠٠ نسمة في الكيلو متر مربع ، أو عشرة أضعاف ما هي عليه الآن ، في أكثر دول العالم ازدحاماً . ويصل الأمر إلى درجة تقشعر لها الأبدان ، عند تصور عدد من السكان يمثل هذا التكديس ، بحيث لا يمكن لهم العيش إلا في محطات شاقولية . وقد تمّ تنويع هذا التيار بنشر تقرير نادي روما في عام ١٩٧٢ ، والذي يقول أن استنزاف معظم المصادر المعدنية من سطح الأرض سيقع قبل ١٠٠ عام ، ويقترح غواً مقداره صفر على الصعيد الاقتصادي والديموغرافي ، على أساس أنه السبيل الوحيد لإنقاذ المدنية الغربية . وعلى أساس هذا الاندفاع فقد كان من المنطقي أن تدعو الأمم المتحدة كل أقطار الأرض للتوقيع سوية على نصٍ تتعهد فيه أكثر الدول تكاثراً بتحديد نموها السكاني . وعلى هذا الأساس ظهرت ورقة العمل ، التي اقترحت في مؤتمر بخارست لعام ١٩٧٤ . غير أن معظم الأمم الفقيرة ثارت على هذه الرؤية المالتوسية : أي أن السيطرة على التوالد لا يجوز أن يكون شرطاً مسبقاً للتنمية ، بل على العكس « فالتنمية الاقتصادية والاجتماعية هي العامل الحاسم في حل المشكلات الديموغرافية » . وهكذا أجابت الأقطار المتخلفة على القومية وعلى الأنانية الاقتصادية بقومية أخرى ، وبترك الحبل على الغارب على الصعيد الديموغرافي ، وهو جواب لا يقل غموضاً عن اقتراح الدول المتقدمة .

ج . فيريير « السياسات السكانية »

١٩٧٨ P.U.F

العلاقات الاقتصادية الدولية

على تقيض سياسة الحماية الجمركية المتشددة خلال الثلاثينات من هذا القرن ، فإن دول العالم دخلت تدريجياً ، وذلك بعد الحرب العالمية الثانية ، في عصر الانفتاح الاقتصادي وتسارع المبادلات التجارية .

وقد قامت بلدان الاقتصاد الليبرالي بتهديد الطريق . فقد انضمت على شكل مجموعات كبرى ، كي تؤلف مناطق التجارة الحرة ، تمنح الدول الأعضاء بعضها بعضاً شروط الأفضلية التجارية على منتجاتها : سواء كان ذلك بين الدول المتقدمة (الرابطة الأوروبية للتجارة الحرة التي أنشئت في أعقاب اتفاق استوكهولم في عام ١٩٦٠) أو بين دول العالم الثالث (الرابطة اللاتينية الأمريكية للتجارة الحرة ، التي تأسست في العام ذاته على أساس معاهدة مونتيفيديو) . واندفع هذا الاتجاه لأبعد من ذلك أحياناً ، لأن صيغة السوق المشتركة ، هي عبارة عن اتجاه جمركي حقيقي ، مع أهداف اقتصادية منسجمة ، كالسوق المشتركة للسوق الأمريكية الوسطى ، والاتحاد الاقتصادي والنقدي ، وهو هدف اللجنة الاقتصادية الأوروبية ، وهو المرحلة النهائية لمثل هذا التطور .

أما على الصعيد العالمي ، فقد أنجز مؤتمر جنيف لعام ١٩٤٧ ، الذي كان مؤتمراً تحضيرياً لمنظمة التجارة الدولية ، وبمبادرة من منظمة الأمم المتحدة ، أقول أنجز نظاماً دعي « الاتفاق العام على التعريفات والتجارة » .

وتحت كنفه جرت المفاوضات التجارية الكبرى ، مثل اتفاق (كندي) لفترة ١٩٦٤ - ١٩٦٧ ، واتفاق (طوكيو) ابتداءً من عام ١٩٧٣ .

وبعد أن ظلت الأقطار الاشتراكية مترددة لفترة طويلة ، راحت تنفتح

تدريجياً فيما بينها ، بموجب اتفاقات مثل مجلس العون الاقتصادي المتبادل (كوميكون) ، أو مع دول العالم الثالث ، كاتفاق يوغوسلافيا ومصر والهند في عام ١٩٦٧ ، أو ثنائياً مع العديد من الدول الرأسمالية المتقدمة .

وكانت حصة مثل هذا التطور ، بلوغ مستوى عالمي في المبادلات لم يسبق له مثيل إطلاقاً : فقد بلغت قيمة المبادلات العالمية ١٢٩٥ مليار دولار في ١٩٧٨ . ويعود النمو السنوي الذي بلغ ١٣٪ ، إلى زيادة في الحجم بلغت ٤٪ وإلى غلاء أسعار المنتجات بمعدل ٩٪ سنوياً ، والتي ازدادت على الخصوص منذ عام ١٩٧٣ . وتكون حصة كل كتلة شديدة التفاوت : فالأقطار المتقدمة ذات الاقتصاد الليبرالي ، تحقق أكثر من ثلثي التجارة العالمية أو ٦٧,٤٪ يعود ٤٢,٣٪ إلى أوروبا الغربية لوحدها . أما الأقطار الاشتراكية فلا تقوم بأكثر من عشر التجارة العالمية أو ٩,٧٪ ، في حين تقوم دول العالم الثالث بأقل من ربع التجارة المذكورة أو ٢٢,٩٪ ، مع أن شعوبها تؤلف ثلاثة أرباع سكان الأرض ، لأن « المتسولين لا يؤلفون سوقاً » كما يقول رجال الاقتصاد . وتندر المجموعات ذات الوضع التجاري المتوازن ، فلأوروبا الغربية معدل تغطية للمستوردات عن طريق الصادرات يبلغ ٩٢,٤٪ ، والولايات المتحدة ٧٦,٧٪ ، والأقطار غير النفطية في العالم الثالث ٨٨٪ ، والبلدان الاشتراكية بنسبة ٩٣,٩٪ ، ولكن اليابان وألمانيا الغربية ولا سيما الأقطار المصدرة للبترول ، والقليلة السكان ، هي التي تكون ذات فائض تجاري كبير . ولاختلالات التوازن هذه صداها على قيمة النقد ، الذي تم بواسطته هذه المبادلات .

ويفترض نمو المبادلات التجارية وجود تنظيم للتسديدات الدولية ، يعمل ضمن إطار منظمة نقدية . وقد ظلت هذه المنظومة المتفق عليها في (بريتنو نوودس) في عام ١٩٤٤ معمولاً بها ، وظلت هي السائدة خلال ٣٠ سنة من قبل ٤٥ دولة ، لأن الاتحاد السوفيتي لم يكن فيها أكثر من مراقب . وكانت هذه

المنظومة استقراراً لمنظومة السعر الثابت للصرف الذهبي ، التي أنشئت في عام ١٩٢٢ والذي كان ينصّ على وجوب تسديد فائض وعجز ميزان المدفوعات بالذهب أو بعملة قابلة للتحويل إلى ذهب . وقد كانت كل العملات مرتبطة بتعادلّات ثابتة ، وكان الدولار يلعب دور العملة « المرجع » على أساس أن الأونصة من الذهب تعادل ٣٥ دولاراً . ومن ثم أنشئ صندوق النقد الدولي ، الذي تغذّيه مساهمات الدول الأعضاء ، ومهمته التحكيم ومنح حقوق السحب .

ولما أصبح الدولار بدءاً من نهاية الستينات يفقد استقراره بسبب العجز المستمر في ميزان المدفوعات الأمريكي ، فإن هذه المنظومة لم تعد قادرة على الاستمرار . وقد زاد التضخم العالمي الناتج ، بعد عام ١٩٧٣ ، عن ارتفاع أسعار النفط ، وأدى ذلك إلى تعميق الهوة بين العملات النادرة القوية ، كالفرنك السويسري والمارك الألماني والين الياباني وبين العملات الأخرى ، وهكذا جاءت اتفاقيات جامايكا في سنة ١٩٧٦ كي توجد منظومة جديدة تقتضي بأن :

- العملات لم تعد مرتبطة بالذهب وعلى صندوق النقد الدولي أن يتخلّص من مخزونه من هذه المادة .

- تصبح القاعدة « المرجع » هي حقوق السحب الخاصة ، وهي عملة حسابية تعتمد لعام ١٩٦٩ ، ومحدّدة بالنسبة إلى « سلة » من العملات لايشكل الدولار فيها أكثر من الثلث ، والتي تلعب دوراً مزدوجاً ، أي دور وحدة قيمة قياسية وأداة ادّخار .

تحل أسعار العملات القائمة مكان التعادلّات الثابتة . إذن تتغير أسعار العملات من يوم لآخر . وقد سمح لبعض الدول بأن تقيم بين عملاتها تعادلّات مستقرة وقابلة للتسوية . وذلك هو مبدأ المنظومة النقدية الأوروبية .

وعلى كل حال فإن دور الذهب لا زال هاماً ، والاعتمادات بالدولار التي

يحتفظ بها الأوروبيون الغربيون (أورو دولار) ، ولدى الدول المصدرة للنفط (بترودولار) ، لاتزال عملياً بمعزل عن أي إشراف أو رقابة .

☆ ☆ ☆

التجارة العالمية لعام ١٩٧٧ بمليارات الدولارات الأمريكية

الصادرات الواردات

٧١٠	٧٣٦	١ - المناطق المتقدمة
		يخص منها أوروبا الغربية :
٣٨٢	٣٧٥,٧	الجماعة الاقتصادية الأوروبية
١١٨,٨	٨٦,٩	الأقطار الأخرى
٥٠٠,٨	٤٦٢,٦	المجموع
١٥٦,٧	١٢٠,٢	الولايات المتحدة
٤٢	٤٣,٢	كندا
٧٠,٧	٨٠,٥	اليابان
٢٨	٢٩,٥	الأقطار الأخرى
٢٤٠	٢٨١	٢ - الأقطار السائرة في طريق النمو :
٨٩	١٤٨	يخص الأقطار المصدرة للنفط
١٥١	١٣٣	الأقطار الأخرى
١١٤	١٠٧	٢ - الدول الاشتراكية
١١٥٢	١١٢٤	المجموع العام

التيارات الكبرى للمبادلات التجارية الدولية

بلغت قيمة التجارة ١١٢٢ مليار دولار في ١٩٧٧ ، مقابل ١٢٩٥ مليار دولار في ١٩٧٨ ، وكانت المنتجات الأساسية تؤلف ٣٩٪ منها ، منها منتجات زراعية ١٧٪ ، ومنتجات معدنية ٢٢٪ ، ومجموعها ٤٢٧ مليار دولار ، والمنتجات المصنوعة ٦١٪ أو ٦٧٦ مليار دولار .

الذهب

هناك ٢٤٩٠٠ طن من الذهب مملوكة بصورة خاصة شخصية . ويملك الفرنسيون ١٨٪ أو ٤٦٠٠ طن ، أي أكثر من كل الأوروبيين الآخرين ، الذين يتصرفون بمقدار ٤٤٠٠ طن ، أو ما يعادل تقريباً كل ما يملكه سكان القارة الآسيوية ، الذين يحتزنون مقدار ٥٣٠٠ طن ، ويكتنز الأفارقة ٣٢٠٠ طن ، والأمريكيون ٤٩٠٠ طن .

وتبلغ الاحتياطات العامة مقدار ٣١٩٠٠ طن في الأقطار غير الاشتراكية ، مودعة في خزائن الدول والبنوك المركزية وفي صندوق النقد الدولي . ويعتقد بأن وزارة الإشراف tutelle في الاتحاد السوفيتي تشرف على إنتاج سنوي يقارب ٤٤٠ طن ، وتستهلك الصناعة من الكترونية وفضائية مقدار ٣٠ إلى ٥٠ طن ، ويبيع في سوق لندن مقدار ٣٤٠ ، ويذهب مقدار ٦٠ طن لخزائن الدول لدعم تقدها ، وقد تبلغ هذه المدخرات مقدار ١٠٠٠٠ طن ، أي تعادل ما لدى الولايات المتحدة.

وإذا جمعنا الاحتياطات العامة وهي ٣١٩٠٠ طن ، والخاصة هي ٢٤٩٠٠ طن لدى البلاد الغربية ، والاحتياطات المحتملة لدى الاتحاد السوفيتي وهي ١٠٠٠٠ طن ، ولدى بعض دول شرق أوروبا فإننا نصل إلى مقدار إجمالي من الذهب يزن ٧٠٠٠٠ طن من أصل ١١٠٠٠٠ طن ، استخرجت من أحشاء الأرض منذ فجر الأزمنة التاريخية .

أما الباقي وهو ٤٠٠٠٠ طن فقد تحول لأغراض صناعية ، وفنية ، وطبية ، وأسنان واختفى الباقي في المدافن أو في قيعان المحيطات مع السفن التي كانت تحمله .

وعلى كل يظل ثلثا الذهب محفوظاً وعقياً .

عن ر . سيديو . باريس . ١٩٧٨



عالم متعطش للطاقة

لقد ظلت الحياة الاقتصادية العالمية ، خلال آلاف السنين ، تجري حسب نسق بطيء ، بقدر ما كانت تسمح به مصادر الطاقة الضئيلة المتوفرة . فاستخدام الفحم الحجري الذي عرفته أوروبا ، والصين منذ العصر الوسيط ، لم يأخذ مكانته الحقيقية إلا بعد ظهور الآلة البخارية . وعندئذ بدأ عصر الطاقة الذي شهد عدة مراحل فيما بعد على أثر اكتشاف واستغلال النفط ، ثم إنتاج وازدهار الكهرباء ، ثم الهيمنة على الطاقة النووية الانشطارية ، وأخيراً بدء الخطوات الأولى نحو استغلال الطاقة الشمسية والحرارية الأرضية والريحية الخ . . .

وإلى جانب موارد الطاقة الضعيفة المردود كالخشب ، وروث الحيوانات ، والنباتات ، التي تبدو مساهمتها ضئيلة ، فقد أصبح الاعتماد من الآن فصاعداً ، على ثلاثة مصادر حرارية هي : الفحم الحجري ، والوقود السائل ، والكهرباء الأولية ، من كهرومائية ونووية . وقد كان التقدم في هذا المجال مذهشاً : ففي عام ١٩٠٠ كان الإنتاج يعادل ٧٦٠ مليون طن من معادل الفحم (ط.م.ف) ، وفي عام ١٩٢٠ بلغ ١٥٠٠ ، وفي ١٩٥٠ بلغ ٢٨٠٠ وتضاعف الإنتاج في خلال ١٥ سنة ، فبلغ ٥,٨ مليار عام ١٩٦٥ ، ويقارب الإنتاج مقدار ٩,٢ مليار في ١٩٨٠ . بيد أن إنتاج هذه المصادر الثلاثة لم يتطور بصورة متوازية : فبين ١٩٦٠ و ١٩٨٠ تضاعف مقدار إنتاج الفحم ، ولكن تزايد إنتاجه يبدو الآن ضعيفاً نسبياً ، هذا مثلاً تباطأ أيضاً إنتاج الفحم الأبيض في حين إنتاج الكهرباء النووية بشكل مثير للإعجاب . أما إنتاج النفط فقد تعرّف على اندفاع كالسهم . فبعد انتظار بلغ القرن وصل الإنتاج إلى ملياري طن سنوياً في عام ١٩٦٠ ، ولكن منذ ١٩٦٩ تجاوز الإنتاج ملياري طن ثم تباطأ بعد ١٩٧٤ ، ويتوازى إنتاج النفط مع إنتاج الغاز الطبيعي .

ويعتبر استهلاك الطاقة كميّار لدرجة التنمية والرفق . وتكون الفروق في هذا المجال مذهلة ومذهلة ، إذ تتراوح بين ١ و ١٠٠ . فالأقطار الفقيرة لا تستهلك من الطاقة أكثر مما يستهلكه الفرنسي في أواسط القرن الماضي ، أو ما يعادل ١٥٠ كغم من (ط م ف) ، في حين يستهلك الفرد الأمريكي قرابة ١٢ طن . وهكذا تستهلك الولايات المتحدة ٣٠٪ من الطاقة العالمية المستهلكة سنوياً ، مع أن سكان الولايات المتحدة لا يؤلفون سوى ٦٪ من سكان الأرض . وهكذا نغز ثلاث فئات من الأقطار في العالم من هذه الزاوية :

- الأقطار المفترسة للطاقة : وهي أمريكا الشمالية وأوروبا الشمالية الغربية ، والتي تستهلك ٥٠,٥٪ من الإنتاج العالمي ، مع أن عدد سكانها لا يزيد عن ١٢٪ من سكان العالم أي نسبة ٤ إلى ١ .

- الأقطار المتوسطة الاستهلاك : وتمثلها بقية دول أوروبا والاتحاد السوفيتي واليابان وأستراليا ونيوزيلندا وتستهلك ٣٤٪ من الطاقة ، مقابل ١٧٪ من سكان العالم أي نسبة ٢ إلى ١ .

- الأقطار الضعيفة الاستهلاك : التي تنال ١٥,٥٪ من الطاقة مع أن سكانها يعادلون ٧٠,٥٪ من سكان العالم ، أي نسبة ٠,٢٢ إلى ١ وتظل متأخرة جداً في هذا المجال .

هذا وتختلف نسبة أنواع الطاقة المستهلكة من قطر لآخر بدرجة عظيمة . فكل دولة تمنح أنواع القدرة الأربعة الأساسية درجة مختلفة جداً ، حسب ثرواتها الخاصة أو حسب شروط تموينها . وهذا هو أحد مظاهر الحصيللة الطاقية وتمنح الحصيللة العالمية حالياً مقدار ٣٣٪ للفحم ، و ٤٤,٥٪ للنفط ، و ١٥,٥٪ للغاز الطبيعي و ٧٪ للكهرباء الأولية .

هذا وعلى الرغم من وجود أنواع فحم حديثة كفحم الليغنيت الثلاثي ،

وفحم الطورب (الحث) الرباعي فإن أهم المكامن الفحمية هي العائدة للعصر الفحمي (الكاربونيفير) ، أي في عصر الالتواءات الهرسينية .

ولهذا السبب نجدها موزعة في الكتل الجبلية العائدة للحقب الأول في نصف الكرة الشمالي ، أي أمريكا الشمالية ، وعلى الأخص ، في الولايات المتحدة ، وفي أوروبا الشمالية الغربية ، وأوروبا الوسطى ، والاتحاد السوفيتي والصين وتقدم جميعاً ٩٠٪ من الإنتاج العالمي .

هذا وهناك ٣٠ سنة من التأخر بين نهضة إنتاج النفط ، وبين تقدم إنتاج الغاز الطبيعي . فبعد أن كان إنتاج النفط محدوداً ، في مطلع القرن الحالي ، بدولتي الولايات المتحدة وروسيا ، أصبح إنتاج النفط عالمياً غداة الحرب العالمية الأولى . وهكذا أضافت الأقطار الجديدة في منطقة البحر الكاريبي والشرق الأوسط أسماءها إلى لائحة منتجي النفط التي أصبحت طويلة جداً في الوقت الحاضر ، في حين أصبح التكرير والاستهلاك شاملين في الأقطار المحرومة من مصادر نفط وطنية . وهكذا أصبحت جغرافية النفط عالمية بعد أن استفادت من سهولة النقل البري بواسطة الأنابيب أو البحري بواسطة الناقلات العملاقة التي بلغت حمولة البعض منها نصف مليون طن .

وعلى خلاف ذلك فقد ظل إنتاج الغاز الطبيعي حتى عام ١٩٤٠ إنتاجاً أمريكياً بحتاً ، حيث كان إنتاجها يعادل ٩٦٪ من الإنتاج العالمي . أما في المناطق الأخرى فكان يتم إحراق الغاز في مشاعل جهنمية أو يعاد حقنه للحفاظ على ضغط النفط في المكامن المختلطة . أما الآن فقد انضمت أوروبا الغربية والاتحاد السوفيتي وكندا والجزائر وليبيا ودول الخليج إلى قائمة منتجي الغاز . وبعد أن كانت تجارته محدودة جداً خلال فترة طويلة ضمن مسافات محدودة ، فقد أصبحت الآن ممكنة بفضل تمديد أنابيب هائلة feeders بعيدة المدى ، مثل الأنبوب الذي يمتد من الاتحاد السوفيتي حتى فرنسا مروراً بدول أوروبا الشرقية

والخط الذي يمتد من إيران إلى الاتحاد السوفيتي ، وأخيراً بفضل تمبيع الغاز ونقله بالسفن الناقلة للغاز أو méthaniers .

وبينما لا تكون الكهرباء الحرارية أكثر من تحويل طاقة استخرجت من مكان آخر كالفحم أو المازوت (سولار . فويل) والغاز المحروق في مراكز حرارية ، فإن الكهرباء الكهرومائية والذرية (النووية) أصبحت تضيف مساهمتها إلى الحصة الطاقية العالمية . وعلى كل فإن الدول الصناعية تحتل هنا مكاناً مهماً في كلتا الحالتين ، نظراً لضخامة الاستثمارات ومتطلبات التكنولوجيا ، لأنها تملك شبكات نقل بعيدة المدى ومترابطة .

الفحم في العالم : الاحتياط العالمي ١٠٧٥٤ مليار (بليون طن)

الاحتياط : الاتحاد السوفيتي	٥٢%	الإنتاج في ١٩٨٠
الولايات المتحدة	٢٧%	٢٦,٨%
الصين	٩%	٢٤,٩%
أوروبا	٥,٥%	٢٢,١%
بقية العالم	٦,٥%	٢٠,٣%

ملامح تطور مزدوج في الأحواض الفحمية

- من ناحية ، هناك المناجم الفحمية « المريضة » في أوروبا الغربية ، وهي مناجم مستغلة منذ فترة طويلة وذات بنية غير ملائمة ، واستغلت على عمق كبير ، وتسير هذه الأحواض نحو الانحطاط . ولا يتجاوز مردود العمل اليومي ، وهو ٨ ساعات ، مقدار ٤ طوننات إلا فيما ندر ، وغالباً ما يكون المردود نصف هذا الرقم . ورغم جهود التحديث المبذولة ، وإعادة تنظيمها ، فإن الفحم الناتج غير أهل للمنافسة في السوق العالمية .

- ومن ناحية أخرى ، هناك مناجم فحم « في صحة طيبة » كما في الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة والصين ، والتي تعتمد على ذخركم يكون أحياناً في بداية استغلاله . وهنا لا يجري سوى استغلال المكامن القليلة العمق ، وأحياناً على المكشوف بواسطة جرافات جبارة . وهكذا يبلغ مردود العامل في اليوم ١٤,١ طن في المناجم الباطنية و ٢٥ طن في المناجم المكشوفة ، أما في الاتحاد السوفيتي ، حيث يكثر الفحم القرم ، فإن اقتلاع الفحم يتم بواسطة دفعات المياه المضغوطة .

الذهب الأسود يفرض قانونه

تغطّي كل دولة حاجاتها من الطاقة ، بصورة شديدة التفاوت ، وذلك حسب نوعية وطبيعة مواردها الخاصة ، وتؤلف النسبة التي يجب طلبها من الخارج درجة التبعية الطاقية . فقد تكون هذه التبعية كلية ، كحال الدانمارك أو المملكة الأردنية ، أو معدومة مثل الكويت ، كما يمكن أن تختلف كثيراً في الزمان ، كالولايات المتحدة التي كانت من مصدري الطاقة في الماضي ، والتي أصبحت اليوم أكبر مستورد للبترو ل .

وقد أدّى الانفتاح المتزايد ، الذي شهدته التجارة الدولية ، إلى توسيع أبعاد المبادلات الطاقية . فالدول التي تصدر الفحم لا تستطيع تصدير سوى النوعيات الجيدة ، وبسعر مرتفع ، مما يسمح بتغطية نفقات النقل . ولا زالت هذه التجارة على مستوى عام ١٩١٣ ، إذ لا يدخل تيار التجارة العالمية سوى ١٠٪ من الإنتاج العالمي ، أو ٢٠٠ مليون طن ، تقدم ثلثها الولايات المتحدة باتجاه أوروبا واليابان ، ويتألف الباقي من مبادلات قصيرة المدى أو متوسطة ، صادرة من بولونيا ومن الاتحاد السوفياتي وأستراليا وأفريقيا الجنوبية .

أما الغاز الطبيعي والنفط : فيتم نقلهما لمسافات بعيدة بالأنابيب فوق مسارات قارية ، وبواسطة الناقلات على الطرق البحرية ، ولكن نظراً لشدة انخفاض كلفة نقل النفط ، مع تعادل المردود الطاق ، ونظراً إلى أن السيطرة على التقنيات التي استدعاها الغاز لم تكتمل إلا في وقت متأخر ، لأن أول عملية نقل للغاز المميع بواسطة ناقلات الغاز لم تتم إلا في عام ١٩٥٧ بين الولايات المتحدة وبريطانيا ، فإن التجارة العالمية للنفط ، تظل ، ولمدى بعيد ، هي الأكثر نمواً بالموازنة مع المادتين المذكورتين أي الفحم والغاز ، وتشمل ٥٥٪ من الإنتاج العالمي للنفط .

وقد ظل النفط حتى مطلع السبعينات يباع بأسعار بخسة جداً . وبذلك استطاع استبعاد كل مصادر الطاقة السابقة ؛ التي يمكنها أن تحل مكانه ، ولا سيما الفحم . هذا كما سد اندفاع النقل بالسيارات والاعتماد عليها ، وازدهار صناعة البتروكيماويات ، على نجاح النفط في المنافسة على نطاق واسع . وهذا ما برّر نشوء أسطول نفطي قفزت حمولته من ٣٠ مليون طن في عام ١٩٥٢ إلى ٢٨٢ مليون طن . كما ساعد تزايد حجم السفن الناقلة الذي أعقب أول إغلاق لقناة السويس في عام ١٩٥٦ ، بعد العدوان الثلاثي ، على هبوط سعر نقل الطن الواحد . وهكذا أصبح عدد متزايد من الأقطار في حالة تبعية تجاه مصدري النفط .

ولقد ظل السوق العالمي للنفط ، ولمدة طويلة ، تحت هيمنة كارتل دولي مؤلف من الشركات الخاصة الكبرى ، مؤلف من شركات تجارية أمريكية : ثلاث من مجموعة ستاندارد أويل هي : نيوجرسي ، وكاليفورنيا وموبيل ، وتكساس أويل غولف ، ومن شركتين : إنكليزية هولندية هما : رويال دوتش شل ، وبريتيش بتروليوم . ولكن في الوقت الذي كانت هيمنة كبريات الكارتل تتعرض في الولايات المتحدة ذاتها للنهش من قبل شركات أخرى ، هي الشركات المستقلة ، وفي الأقطار الأوربية من جانب شركات حكومية ، مثل شركتي : شركة البترول الفرنسية ، والف إيراب ، وشركة ينّي الإيطالية ، كانت الأقطار السائرة في طريق النمو والغنية بالنفط تحاول استلام أمور استغلال مواردها الخاصة ، إلى أن استطاعت في عام ١٩٦٠ أن تؤلف كارتل جديد مَدُونَن étatique ، هو منظمة الأقطار المصدرة للنفط (الأوبك) . وفي نهاية عام ١٩٧٣ وبداية ١٩٧٤ ، قررت هذه المنظمة فجأة مضاعفة سعر بترولها الخام أربع مرات ، مما أدى إلى زعزعة الاقتصاد العالمي ، ولا سيما بالنسبة للدول الفقيرة المستوردة للنفط كالهند ، حتى أن بعض دول إفريقيا السوداء عجزت عن شراء البنزين اللازم لسيارات الإسعاف . فضلاً عن ذلك لجأت الدول العربية المصدرة للنفط (أوبيپ) ودعماً لحرب رمضان (تشرين ١٩٧٣) ، إلى فرض حظر كلي

أوجزئي على تصدير نفطها ، أو حدثت من مجال الامتيازات النفطية الممنوحة للشركات الأجنبية من أمريكية وإنكليزية وفرنسية ، أو أممتها ، وهكذا أصبح النفط سلاحاً اقتصادياً أكثر من أي وقت مضى .

وقد كان لهذه القرارات نتائج عظيمة ، لأنها قذفت العالم قاطبة ، بما في ذلك الأقطار الاشتراكية ، في أزمة التضخم ، وعزلت الأقطار المتخلفة نهائياً ، وزادت من ضعف أقطار العالم الرابع ، في حين وفّرت لأعضاء منظمة البلدان المصدرة للنفط ، الوسائل المادية اللازمة للإقلاع ، ولكن كان لذلك مخاطر اقتصادية وسياسية ، بسبب فجائية العملية وتكدس البترو دولار لدى البعض ، دون أي استعداد مسبق لتوظيف هذه الأموال الهائلة ، حتى لقد بلغت ودائع الأقطار العربية في بنوك أمريكا وأوروبا الغربية أكثر من ٢٠٠ مليار دولار في ١٩٨٠ . أو أدى ذلك إلى زعزعة كيان بعضها ، مثل إيران التي لجأت إلى « عصرنة » مفرطة في تسارعها ، أو إلى تبذير سفيه ، وهدر ، واهتزاز في القيم الأخلاقية نتيجة الثراء الفجائي . وفي عام ١٩٧٤ كانت كل الظروف مواتية لرفع الأسعار بزيادة ، وبما أن الدولار هو العملة التي يتم بها شراء النفط ، فإن أي انخفاض في سعر هذه العملة الأمريكية يؤدي فوراً إلى « تعويض » ذلك بارتفاع سعر النفط ، وبالتالي إلى ارتفاع أسعار المواد المصنوعة المستوردة من الدول المتقدمة ، وراحت الدول المنتجة تزيد من إنتاجها أحياناً لتمويل مشاريعها ، مثل إيران والمملكة العربية السعودية في حين لجأ البعض لتخفيضه ، حفاظاً على هذه الثروة المحدودة والسريعة النفاد . وأخيراً أتخمت الأسواق العالمية بعد أن أخذت الدول المتقدمة تجنّد قواها العلمية والتكنولوجية لتخفيض استهلاكها وترشيده ، واللجوء لمصادر طاقة أقل كلفة ، إلى أن اتفقت دول الأوبك أخيراً على تخفيض أسعارها في خريف ١٩٨١ ، وتوحيد سعر البرميل وجعله ٣٤ دولاراً . كما راحت تحاول تثبيت إنتاجها عند مستوى معين ، أو تخفيضه تدريجياً ، حفاظاً

على احتياطيتها لأطول مدة ممكنة ، لأن معظم الدول المصدرة للنفط ستعرض لنضوب مخزونها في نهاية القرن العشرين ، إذا استمر الإنتاج على هذا المنوال ، باستثناء المملكة العربية السعودية التي تملك ٤٧,٥ ٪ من الذخر النفطي العربي ، والتي سيستمر إنتاجها ، حسب المستوى الحالي ، حتى منتصف القرن القادم ، وجاءت الحرب العراقية الإيرانية لتعمل على تخفيض إنتاج الدولتين بنسبة ٧٠ ٪ عما كانت عليه سابقاً .

هذا وقد ارتفعت أسعار كل مصادر الطاقة الأخرى ، دون أن يكون ذلك موازياً للنفط . وهكذا طويت صفحة جوهريّة في التطور الاقتصادي ، فبعد حقبة من نمو سريع قائم على طاقة رخيصة ، جاءت حقبة الطاقة الغالية ، التي تحث على الاقتصاد حتى أقصى حد ممكن في الاستهلاك والتبعية ، مما لا يسمح بأكثر من تنمية بطيئة وحذرة .

استهلاك النفط وإنتاجه في ١٩٧٩ بملايين الأطنان

المنطقة أو الدولة	الاستهلاك	الإنتاج	الاستهلاك	الإنتاج
أمريكا الشمالية	٩٨٢	٥٥٤	آسيا الجنوبية الشرقية	١٨٠
أمريكا اللاتينية	١٩٤	٢٤٠	أوروبا الشرقية	٩٥
أوروبا الغربية	٧١٢	٨٣	الاتحاد السوفيتي	٤٢٠
إفريقيا السوداء	٦٨	٢٧٧	الصين	٨٠
الشرق الأوسط	٦٠	١٠٦٢	اليابان	٢٦٠
				١٣٧

الأقطار المنتجة للبتروول في ١٩٧٩ ملايين الأطنان

الولايات المتحدة	٤٨٥	ليبيا	٩٥	الاتحاد السوفيتي	٥٧٢
كندا	٦٩	مصر	٢٤	الصين	١٠٥
المكسيك	٦٣	المملكة العربية السعودية	٤١٠	أندونيسيا	٨٢
فنزويلا	١٠٨	العراق	١١٥	أستراليا	٢٠

الأرجنتين	٢٣	الكويت	١١٠	سورية	٨
الجزائر	٥٧	الإمارات العربية	١٢٧	المملكة المتحدة	٥٤ (١٠٠ في ١٩٨٢)
نيجيريا	٩٥	إيران	٢٥٥	النرويج	١٨
				رومانيا	١٥

١٩٦٠ - ١٩٧٠ بروز منظمة الأوبك

لقد تمخضت فكرة تنظيم مشترك للأقطار المصدرة للنفط عن أول مؤتمر عربي للبترول ، انعقد في القاهرة في شهر نيسان (إبريل) من عام ١٩٥٩ مع وجود مراقبين غير عرب ، ولا سيما من إيران وفنزويلا . وجاء حدث آخر كي يؤدي إلى تسارع ردود أفعال الدول المنتجة ، ففي عام ١٩٦٠ قررت الشركات الدولية تخفيض أسعار النفط المعلنة ، بسبب هبوط أسعار السوق ، والناجمة عن المنافسة الحادة التي كانت تقوم بها الشركات المستقلة الأمريكية ، تجاه شركات البترول العملاقة الأمريكية ، وتجاه الشركات الحكومية الأوربية . ففي خلال الستينات كان العرض من النفط أكثر من الطلب ، وكانت أسعار النفط لا تكف عن التدني .

وعندما وصل العقيد معمر القذافي إلى الحكم في الفاتح من أيلول ١٩٦٩ ، بدأ عصر جديد في العلاقات البترولية . فقد طالب النظام الجديد شركات البترول برفع الأسعار المعلنة بصورة محسوسة ... كما كانت قناة السويس مغلقة منذ حرب ١٩٦٧ بين العرب واليهود ، كما توقفت شركة التابلاين ، التي تفرغ شطراً من البترول الخام السعودي حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط ، عن الضخ . وقد حصلت ليبيا على مطالبها . وعلى كل يمكن القول أن « الانتصار » الليبي على الشركات المستغلة يؤلف توقفاً تاريخياً .

عن ميخائيلو فيتش وبلوشار

كتاب : الطاقة العالمية ، الاستراتيجيات الجديدة

دار نشر آرمان كولان ١٩٧٨

المستقبل الطاقى

إذا كان ينظر إلى الخشب وماء السدود الكهرومائية على أنها من مصادر الطاقة القابلة للتجدد ، فإن الغالبية العظمى من أنواع الوقود الطاقى ، تنتسب إلى الطاقات المستحاثية (الاحفورية) وغير المتجددة . هذا وبينما تكون بعض الصناعات ، كالتعدين ، أو العداة ، قادرة على استرداد جزء من المواد الأولية بعد الاستعمال ، كالخردة ، فإن هذه الحالة لا تنطبق على فرع الطاقة . وهكذا تطرح مشكلة الاحتياطيات ، أو الذخر ، إذن ، على مستوى مزدوج : قومي وعالمي .

ولا يمكن توضيح هذا المفهوم المعقد إذا لم يكن مصحوباً بنعت . فالذخر أو الاحتياطيات الجيولوجية تتعلق بدرجة معرفة فنون التنقيب : فنقول هناك احتياطيات مؤكدة بالنسبة لما هو معروف ، ومحتملة بالنسبة لما ينتظر العثور عليه ، والممكنة بالنسبة للتقريب الخارجى extrapolation ، ولكن لكي يمكن أن يكون أحد مصادر الطاقة قابلاً للاستغلال ، فلا يكفي أن يكون موجوداً ، بل يجب أن يكون مربحاً ، وذلك حسب السعر المتوسط للطاقة الذي يمكن أن يتبدل بسرعة كبيرة جداً . وهكذا يمكن تعريف الاحتياطيات الاقتصادية .

ومن وجهة النظر هذه ، فإن للزيادة الكبيرة في سعر الطاقة نتائج إيجابية . فهي تسمح بتغطية نفقة تنقيبات وأبحاث باهظة التكاليف عن مصادرها ، فضلاً عن أنها تزيد حجم المدخرات الاقتصادية ، مثلما تجعل مصادر الطاقة الجديدة ذات عائدية اقتصادية ، والتي كان لها دور ضئيل في التنمية والتطوير بسبب كلفتها المرتفعة .

كيف يمكن أن يحصل التوافق مع المرحلة الطاقية الجديدة :

- أولاً بكبح جماح الاستهلاك ، أو ترشيده ، أو إنقاذه . وإذا كان من العسير مواجهة نقص في الفعالية الاقتصادية إرادياً ، فإن من المؤكد أن إبطاء النمو الاقتصادي يرتبط بغلاء الطاقة . فاتباع سياسة « الاقتصاد في الطاقة » هي سياسة بناء أكثر من سواها ، رغم أنها لا تجلب أي نفع في البداية بسبب تكاليف العزلة ، والنفقات التكنولوجية .

- ومن ثم بتحسين استغلال مصادر الطاقة التقليدية : فكثيراً ما يجري استغلال ٣٠٪ فقط من ذخر مكامن البترول . ومن المأمول التوصل إلى نسبة تبلغ ٦٠٪ وسيصبح من الممكن قريباً تجنب خسارة مقادير هائلة من الغاز المحروق في مشاعل الغاز الهائلة عند تجهيز المكامن المختلطة . كما سيكون من الممكن استغلال مناجم الفحم العسيرة ، عن طريق السيطرة على إحراق الفحم تحت الأرض وتحويل الطاقة الناتجة إلى غاز .

- وعن طريق توسيع مجالات التنقيب والاستغلال : فبالنسبة للفحم فهناك أقطار كالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، لا تستغل مكامن الجبال الصخرية ، أو مكامن سيبريا الوسطى التي تعتبر مع ذلك أغنى بكثير من المناجم المستثمرة في جبال الأبالاش ، أو في أوكرانيا . أما بالنسبة للوقود السائل ، فإن استغلال العتبات القارية ، الذي ابتدأ في خليج المكسيك وفي فنزويلا ، وفي بحر الشمال ، وفي بحر قزوين ، وفي أندونيسيا ، يمكن أن يبلغ ٣٠٪ من إنتاج حقول النفط المستغلة في العالم ، كما أن استغلالها حالياً يقدم خمس إنتاج العالم من النفط .

- وباستغلال الثروات المعروفة والتي ما زالت مهمة حتى الآن : إذ تستطيع الصخور البيتومية والزفتية في الولايات المتحدة أن تقدم ما يعادل ١٢٥ مليار (بليون) طن من النفط ، أو ٣٠ مرة احتياط هذا القطر من النفط أو

ثلاثة أمثال الاحتياط العالمي من البترول ، وإذا أضفنا إلى ذلك الموارد المماثلة التي تم اكتشافها في كندا وفي البرازيل ، وفي فنزويلا وفي السويد وفي سيبيريا ومنشوريا ، فإن من المتوقع حدوث ثورة ثانية في ميدان أنواع الوقود السائل .

- كما حظيت الطاقة النووية باندفاع عظيم نتيجة غلاء الطاقة : فإلى جانب استعمالاتها الثانوية ، في مفاعلات السفن ، إنتاج البخار ، فإنها برزت في ميدان الإنتاج الكهربائي . وعلى الرغم من طابعها الحديث فإنها اجتازت عدة مراحل تقنية . ويستخدم اليورانيوم الطبيعي في عملية الانشطار كوقود ، والذي لا يفتقر العالم لفلزاته لوفرتها ولرخص سعرها على المستوى العالمي ، أو يستخدم البلوتونيوم المشتق منه ، غير أن تشغيل المراكز الحرارية يطرح مشاكل بالنسبة للبيئة ، وخاصة مشكلة التخلص من الفضلات المشعة . أما تقنية الصهر ، التي ستؤدي لتجنب هذه المحاذير فلم تزل عاجزة عن السيطرة على درجات الحرارة العالية . وعلى كل فإن الطاقة النووية توفر الآن أكثر من ٢ بالمئة من الطاقة العالمية ، كما أن البرامج الجارية ، أو المتوقعة ، سترفع هذه النسبة إلى ١٥٪ في عام ٢٠٠٠ .

- وهناك أيضاً الطاقات « الكامنة » : من العسير القول بأن الطاقة الريحية أو طاقة المد والجزر ، التي كانت الطواحين الريحية أو المائية تستغلها منذ قرون عديدة ، هي مصادر طاقة جديدة ، أو طاقات جديدة . ففي هذه المجالات لا تزال النتائج المكتسبة مخيبة للآمال . هذا كما أن الطاقة الحرارية الأرضية لا تقدم أكثر من موارد محدودة جداً مكانياً كما في إيطاليا . غير أن الطاقة الشمسية لوحدها ، نظراً لاحتياجاتها المذهلة ولشموليتها على سطح الأرض ، تستطيع أن تؤلف قاعدة لثورة في الطاقة ، ولكن لا تزال مشكلة عائديتها اقتصادياً تنتظر الحل .

ولا يبدو أن مستقبل الطاقة يشتمل على خطر الشح الكمي على المدى

المتوسط وعلى مستوى الكرة الأرضية . غير أن ضمان سلامة توفيرها لكل الناس ؛ فهو أمر أقل توكيداً بكثير . غير أنه يبدو من الواضح أن كل مصادر الطاقة الحالية تكلف غالباً : نعم لقد مضى وانقضى عصر الطاقة الرخيصة .



هل هناك ندرة في الطاقة : لقد كان نادي روما ، هو أول من كشف للبيان المشكلات والمخاطر الطاقية التي لا بد أن يقود إليها النمو الاقتصادي الجموح . ولكن ظهر فيما بعد أن دراسات نادي روما قد ساهمت كثيراً في دعم الأقطار المنتجة للبترول في رغبتها بتخفيض إنتاجها ، للاحتفاظ باحتياطيتها لأطول مدة ممكنة ، ولكي تستفيد مالياً من ثروتها أكثر بكثير مما استفادت فيما سبق .

وطبعاً لن تكون ندرة النفط ، التي يخشاها الناس على المدى البعيد، اصطناعية ، لأن مدخرات النفط تقدر بحوالي ٣٠٠ مليار طن ، منها ١٣٥ تحت سطح البحار ، مقابل استهلاك سنوي يبلغ ٢ مليارات طن ، والذي قد يبلغ ٤ مليارات طن في نهاية القرن الحالي . إذن سيظل هناك نفط يغطي الحاجات خلال بضعة عشرات من السنين ، ولكن كلما اقتصد الناس في استهلاكه ، كلما أمكن الاحتفاظ به لاستعمالات ذات أرجحية فيما بعد كالنقل والبتروكيماويات .

وإذا كان من الصحيح القول بأن البحث عن مصادر طاقة بديلة يجب أن يبدأ من الآن ، فليس من الضروري ترويع الناس ، فهناك الكثيرون الذين عرفوا الكتاب المتشائمين ، في الموقف الذي سارع في انخراط مكانة الفحم ، بسبب انخفاض سعر النفط عام ١٩٦٠ ، هذا في حين أن مدخرات الفحم تبلغ خمسة أو ستة أضعاف احتياطي النفط ، هذا فضلاً عن كونها ، على العموم ، موزعة بشكل أكثر عدالة على سطح الأرض ، وقابلة للاستغلال بصورة تنافسية ، أي تقبل المزاومة . ويجب علينا أن نقبل الآن بأن الصعوبة هي سياسية قبل أن تكون تقنية .

عن ل . لامر

« الطاقات » كانون أول ١٩٧٨

يبدو استعمال الطاقة الشمسية قديماً قدم العالم . وإذا كان أرخيدس قد استطاع إحراق الأسطول الروماني في سيراكوزة ، فأصبح أكثر الأبطال شهرة في هذا المضمار ، فإن هناك استعمالات سلمية شهدت بعض النجاح على كثر القرون . فقد أمكن صنع مكائن بخارية شمسية في أوروبا ، وفي الولايات المتحدة في نهاية القرن التاسع عشر ، كما أمكن تشغيل مضخات شمسية بهدف ري الأراضي في

ولاية أريزونا وفي مصر ، في حدود العام ١٩٠٠ . ولكن العلماء لم ينكبوا فعلاً على ترويض هذا المصدر إلا منذ عام ١٩٧٤ ، أي على هذا المورد للتجدد ، والذي لا ينضب له معين ، والحجاني ، وغير الملوّث .

وجهة نظر عربية عن تزويد العالم بالنفط :

تعني عبارة « استقرار التوازن النفطي » بالنسبة للأقطار المستهلكة ، استمرار منظمة الأقطار المصدرة للنفط (الأوبك) بالقيام بدورها التقليدي ، كوردة للبترو لإشباع حاجات العالم . أما من وجهة نظر الأوبك ، فإن الدور الموكل إليها يكون على خلاف الاستقرار لأنه يستدعي استجابة هذه المنظمة إلى انخفاض الأسعار وإلى زيادات طلب العالم الصناعي ، دون أي اعتبار للنتائج التي قد تتمخض عن مثل هذه التبدلات على المصلحة الوطنية للأقطار الأعضاء في هذه المنظمة .

الواقع ليست منظمة الأوبك ملتزمة بالاستمرار في تقديم الكمية التي يطلبها العالم من هذه المادة . فالمصلحة الخاصة للأقطار المنتجة تلي عليها وجوب عدم تقديم كمية من البترول لا تستدعيها حاجاتها المالية . وعلى كل حال إذا كانت لهذه المقاربة معنى من وجهة النظر الاقتصادية ، فإنها تثير من وجهة النظر العلمية مشكلات اجتماعية وسياسية ضخمة ، ذلك أن تخفيضاً فجائياً وعنيفاً في التوازنات النفطية قد تكون لها آثار خطيرة على الاقتصاد العالمي - وعلى منظمة الأوبك بحسبانها عنصراً في الاقتصاد العالمي - وعلى ازدهار العالم في التنمية مستقبلياً .

وقد حان الوقت الآن كي يعقد المستهلكون والمنتجون اتفاقاً جديداً . وإذا كان من الممكن تحاشي أزمة عالمية في الطاقة ، فذلك يعود لفضل استمرار منظمة الأوبك في القيام بوظيفتها كمصدر عالمي للنفط ، ولكن إذا كانت منظمة الأقطار المصدرة للنفط ، تعطي ضماناً - مع كل النتائج التي ستنتج عن هذا التعهد على نسق نضوب احتياطياتها النفطية - فإن على المستهلكين قبول بعض المسؤوليات الجديدة . كضرورة زيادة الأسعار ، ونقل التكنولوجيا ، وإعادة الاستقرار النقدي العالمي .

عن : آيت لاوسين ، الجزائري .

بريس . آذار ١٩٧٩



الفصل الأول

أمريكا الأنكلوسكسونية

أو أمريكا شمال ريوغانده

تؤلف الولايات المتحدة وكندا في شمال نهر ريوغانده مجموعة تختلف عن الأقطار الأمريكية الأخرى ، فهما دولتان غنيتان ، صناعيتان ، وعلى مستوى تكنولوجي عالٍ ، تخضعان لثقافة أنكلوسكسونية طاغية .

وتغطي أمريكا الشمالية مساحة تبلغ ١٩,٥ مليون كيلو متر مربع ، أو ٢٠ مرة مساحة جمهورية مصر العربية ، وقد تكونت حسب مخطط بسيط وفضفاض ، ولكن تكون من الشمال مغلقة بقساوة المناخ ، كما تبدو عسيرة المدخل من الشرق أو من الغرب ، حيث تتعثر المصبّات النهرية الخليجية estuaires بعوائق تضريبية . أما الأراضي الواقعة إلى الشمال من خط يمتد من نيويورك وشيكاغو وسيتل فقد غشيتها خلال الدور الرابع جموديات واسعة ، تركت بصماتها بعمق على شكل توضعات مورينية وبحيرات وشلالات .

فالترس الكندي shield الذي يقع في الشمال الشرقي ، يتألف من صخور قديمة متعدنة ، ويحمل شبه السهل pénéplaine المشوّه هذا تأثير الجموديات بشكل خاص : فتكون تضاريسه مشوّشة ، وصرف المياه غير منتظم . وتؤلف البحيرات الكبرى أكبر رقعة من المياه العذبة في العالم ، غير أنها تنفصل مستوياتها بشلالات مثل شلالات نياغارا وسولت سانت ماري (شكل ١) .

وتؤلف السهول الوسطى ميزاباً بين المحيط المتجمد الشمالي وبين خليج المكسيك . وتتألف من توضعات لحقية ومن صخور رسوبية تنهض بلطف نحو الغرب حتى ارتفاع ٢٠٠٠ متراً . ويخترقها نهران من أكبر أنهار العالم ، هما الميسيسيبي ونهر ماكنزي اللذان تنتشر دلتاهما على شكل لاغونات ومستنقعات .

وتتألف الأراضي العليا في الغرب من سلسلتين : جبال الروشوز « الروكي » في الشرق ، وسروات نيفادا والسلاسل الساحلية في الغرب . وتطيف هذه الجبال بهضاب وحوضات حيث يقع كل من البحيرة المالحة الكبرى وخائق الكولورادو . وتنتسب جبال الغرب إلى « حزام النار » الباسيفيكي ، وتحمل براكين ناشطة باتجاه الشمال ، وتخترقها صدوع مثلما تعترقها الزلازل (شكل ٢) .



صعوبة فتح الرقعة الأمريكية : عندما اقتحم الملاحون القارة الأمريكية من الشمال الشرقي ؛ لم يستطيعوا أبداً أن يجتازوا الممرات الكندية في الشمال الشرقي باتجاه الباسيفيكي . أما في الجنوب فقد كانت الأراضي أو الممتلكات الأسبانية في الشرق ، أي التكساس ، وفي الغرب ، أي كاليفورنيا ، مفصولة بصحاري يستحيل اجتيازها . ولقد اصطدم المعمرين الإنكليز ؛ الذين أقاموا في السهول الساحلية في الشرق ، أقول اصطدموا في أثناء اتجاههم غرباً بالحاجز الأبلاشي الذي تحاشوه مروراً بنهر المهدسن ، وبالبحيرات الكبرى . غير أن الفرنسيين ، الذين احتلوا وادي السان لوران ووادي الميسيسيبي ، عثروا على أفضل الممرات نحو الأراضي الطيبة في السهول الكبرى وفي اتجاه الغرب حيث سبقوا الإنكليز ، ومن هذا نشبت الحروب الإنكليزية الفرنسية .



أبعاد الرقعة المائلة : يسمح لنا رسم خطوط مزدوج لكرة أرضية منبسطة من مرتسم مركاتور ، أقول يسمح لنا بمقارنة أبعاد وموضعي قارتي أوروبا وأمريكا . فضلاً عن اتساع الرقعة الأمريكية نجد أن أكثر الملامح جذباً للانتباه هي زحزحة أكثر المناطق كثافة سكانية في أمريكا نحو

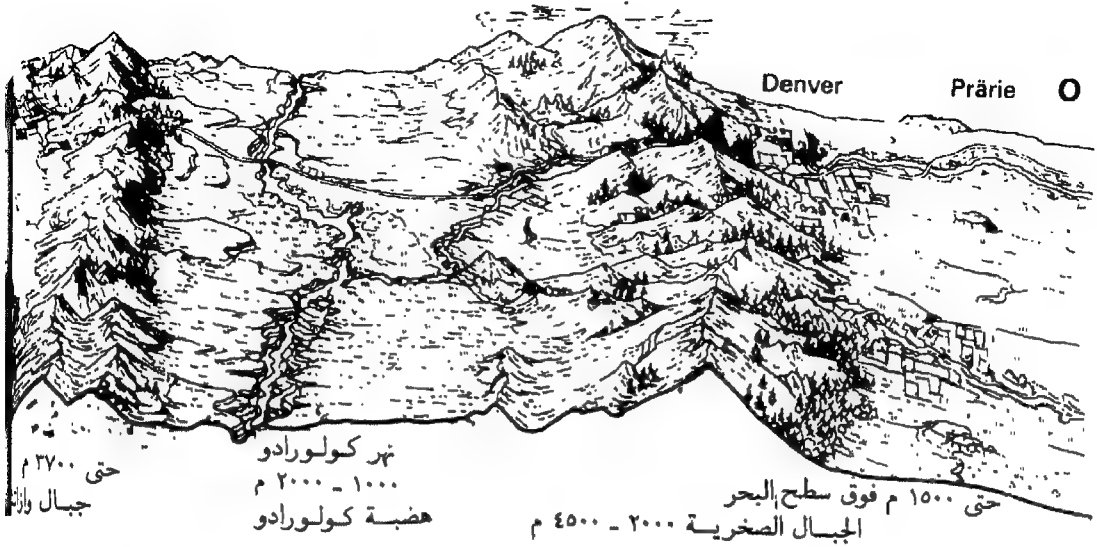
الجنوب : فتقع لندن على عرض الشمال الكندي ، في حين تقع ميامي على عرض بغداد . ولقد طرح اتساع الرقعة مشكلات عسيرة أمام الاستعمار ولا تزال حتى اليوم أيضاً ، لأن اختراق أراضي الولايات المتحدة من الشرق إلى الغرب بالسيارة على مسافة ٦٠٠٠ كم يعتبر نوعاً من مغامرة باهرة .

☆ ☆ ☆

المناخ : يتصف المناخ الأمريكي بالقارية . فعلى درجة عرض واحدة تكون فصول الشتاء أكثر برداً والصيف أكثر حراً مما هو عليه في أوروبا . وهكذا يمر خط العرض ٤٥ من بوربدو ومن مونتريال ، التي تصور أنها واقعة إلى الشمال من ذلك ، وحيث يتجمع نهر السان لوران شتاءً ، مع أن معدل كانون الثاني في بوربدو في الحرارة يماثل متوسط الشهر المذكور في حلب الواقعة على عرض ٣٦° تقريباً .

☆ ☆ ☆

ويسرّ اففتاح القارة شمالاً وجنوباً أيضاً سبب صعود المؤثرات الجنوبية بعيداً نحو الشمال صيفاً ، في حين تهبط المؤثرات الشمالية في الشتاء حتى خليج المكسيك . وهكذا يزرع القطن حتى عرض مدينة فينيبيغ في كندا ، ولكن يحدث الصقيع في مدينة أورليشان الجديدة الواقعة على درجة عرض القاهرة وأغادير ، اللتين يقصدهما الكثير من الأوروبيين للتمتع بدفء الشتاء فيها .



الشكل (٢)

مقطع مجسم للولايات المتحدة الغربية

المجموع أو المتوسط	٢٤ ش	آ	ن	أ	ح	ت	آ	إ	ت	١	٢	٣
١٠,١	٥,٩-	٣,٩-	١,٧-	٩,٩	١٦,٦	٢٢,٢	٢٥	٢٣,٦	١٨,٨	١٢,٦	٣,٢	٣,١-
٧٧١	٢٣	٢٨	٥٣	٦٤	١٠٣	١٢٠	٧٨	٩٣	٧٣	٥٢	٤٥	٢٩
١٧,٢	١٣,١	١٣,٧	١٤,٧	١٦,١	١٧,٥	١٨,٧	٢٠,٩	٢١,٥	٢٠,٨	١٨,٧	١٦,٣	١٤,٢
٢٦٤	٥١	٥٥	٤٠	٢٠	٤	١	—	٢	٤	١٢	٢٣	٥٢
٢٠	١٢,٢	١٣,٤	١٥,٨	١٤,٤	٢٣,٢	٢٦,٤	٢٧,٢	٢٧,٤	٢٥,٤	٢١,١	١٥,٣	١٢,٧
١٣٧١	٩٨	١٠١	١٣٦	١١٦	١١١	١١٣	١٧١	١٢٦	١٢٨	٧٢	٨٥	١٠٤

ح = حرارة م = مطر

مقاييس أمريكية ١ فدان = ٠,٤ كم^٢

١ ميل = ١,٦ كم

ميل مربع = ٢,٥٨ كم^٢

غالون أمريكي = ٣,٧ لترات

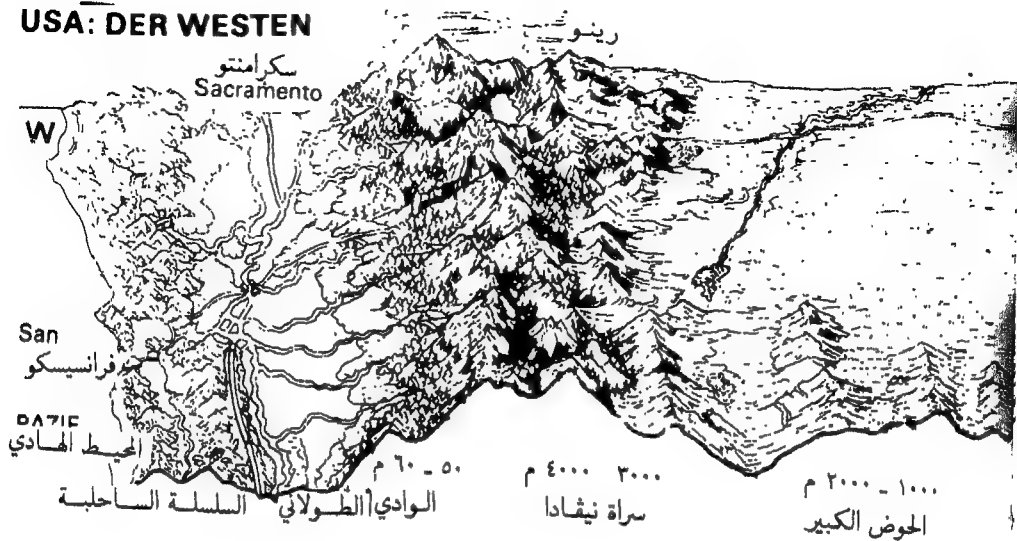
صاع قمح = ٢٧ كغم

صاع ذرة صفراء = ٢٥ كغم

طن قصير = ٩٠,٧ كغم

برميل نفط = ٤٢ غالون أمريكي أو ١٥٨,٩ لترات

USA: DER WESTEN



البيئة والقصر المناخي الأمريكي

لا تزال نطاقات الغطاء النباتي الطبيعي الكبرى تستر رقعاً واسعة ، ظلت ، ولمدة طويلة ، تترك انطباعاً عن الاتساع وعن الغنى . أما في المناطق التي تكون أكثر مواءمة للمؤسسات البشرية ، فقد تم القضاء على الغطاء النباتي بواسطة فأس ونيران معمري الأراضي . ومع هذا علينا أيضاً أن نأخذ بعين الاعتبار ، تطرف المناخ الذي يفرض العديد من أشكال القصر على الإنسان . وتفسر تأثيرات هذه العوامل المتناقضة ، المنظر الحالي للمشاهد الطبيعية .

ولكن لا تزال هناك نطاقات مناخية طبيعية ، أولم يظهر عليها تأثير الإنسان كثيراً :

التوندرا : وتكون الأرض متجمدة هنا أبدياً بالعمق . وينكش النبات على شكل حزازيات وطحالب وأشجار قزمية .

الغابات : لم تعد الأشجار الكبرى في الغابة الباسيفيكية ماثلة إلا في كندا ، كما أن أواخر أشجار السيكويا تحاط بعناية فائقة وحماية وكأنها أوابد تاريخية . غير أن الغابة الشمالية لا تزال تشغل مساحات شاسعة في كندا . أما في الشرق فإن الأشجار النفضية مثل شجر القيقب الكندي تختلط مع الراتنجيات .

وتؤلف سهب الصبّاريات أو ذات دغيلات الشيح بهجة جنوب غرب الولايات المتحدة وتكون هنا متوائمة مع فحولة المناخ .

أما المناطق التي أخضعت للزراعة ، فلم تكفّ عن التوسع منذ قدوم الأوروبيين ، وذلك في المناطق التي تكون التربة والمناخ فيها أكثر مواءمة .

فالغابة الأطلنطية ذات الأوراق الساقطة ، لم تعد موجودة إطلاقاً إلا في

جنوب كندا . أما في الولايات المتحدة فقد تلاشت أمام الأراضي المحروثة والتي استفادت من الترب الرمادية الجيدة النوع .

وكانت المروج تحتل مناطق أكثر جفافاً . وكانت تربها المتنوعة والتي كانت أحياناً من النوعية الممتازة ، لا تطرح أمام إخضاعها للزراعة أية مشكلة . بيد أن هذه الترب كانت أحياناً سريعة العطب أمام ظاهرة الانجراف .

وتتراجع مستنقعات النطاق شبه المداري ، كما في فلوريدا ودلتا الميسيسيبي وساحل الخليج بسرعة أمام الاستغلال الحالي ، كمزارع الفراسكين « الكريفون » Grapefruit والتصنيع والسياحة .

غير أن القسر المناخي عمل على تحديد التوسع البشري وأوجد حدوداً للمعمور :

فالبرد يمنع أي نشاط زراعي في الجبال الصخرية « الروشوز » وعلى القسم الأعظم من الأراضي الكندية حيث تكون التربة جافة ومتجمدة شتاءً .

كما أن الجفاف ، وذلك في المناطق التي تنال أقل من ٤٠٠ مم من المطر في العام ، في ولايات الجنوب الغربي مثل أريزونا والمكسيك الجديدة ، يكون عائقاً أمام أي نشاط زراعي باستثناء المناطق الخاضعة للري .

وتجعل التقلبات المناخية ، كمخاطر البرد الشديد ، والتهطالات المتفاوتة بين عام وآخر ، تجعل من الزراعة ممارسة غير مضمونة وذلك على مساحات واسعة ، واقعة غرب خط الطول ١٠٠ أو « خط الكوارث » ، هذا كما لا تنجو ولايات الجنوب من موجات برد تدمر حقول القطن .

وقد أعطت أشكال القسر المناخي هذه ، شعور التحدي الذي تقيمه الطبيعة في وجوههم ، وتفسر ما يمكن أن تكون عليه النفسية الرائدة . وعلى كل فإن المساحة المزروعة تظل واسعة جداً ، بحيث تستطيع أن تؤمن غذاء ٤٠٠ مليون نسمة دون صعوبة تذكر شكل (٣) .

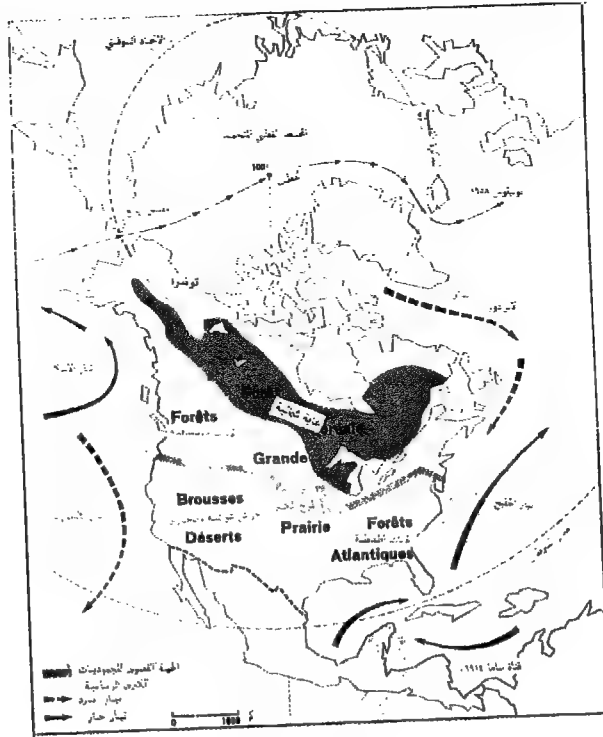
مشكلات المياه

أ - موارد غير كافية

ب - مخاطر فيضانات كارثية أو خطيرة

ج - عدم انتظام الموارد

هذا ويؤلف العنف أكثر السمات بروزاً في البيئة الطبيعية الأمريكية . وتظهر الوثائق الجرائية أن منطقة ما قد تتعرض للجفاف ، وللفيضانات ، وللبرد ، ولعدم انتظام مقادير المطر . وتم السيطرة على المجال الزراعي من خلال استخدام تقنيات متخصصة كالري والصرف والجرائة حسب خطوط التسوية (كنتورية) والزراعة الجافة dry farming ، ولا سيما اصطفاء الأنواع النباتية المتوائمة ، مثل قمح مانيتوبا الريمي ، وتطرح قساوة برد الشتاء أيضاً مشكلات خطيرة أمام المواصلات والتدفئة المنزلية .



الشكل (٣)

أمريكا الشمالية : الموقع والشاهد الطبيعية

الإعمار السكاني : بلد استقبال المهاجرين

في خلال ٤٠٠ سنة أصبحت هذه القارة شبه الخالية ، أكثر بؤر العالم قوة .
فقد وفد إليها الناس على شكل موجات متعاقبة ضمن حركة فضفاضة بسيطة .

الهنود الحمر والأسكيمو : وهم الأمريكيون الأصليون الذين قدموا من
آسيا منذ ٤٠.٠٠٠ عام . ولما كانوا عبارة عن قنّاصين وصيادي أسماك ، فقد كانوا
بحاجة لمساحات شاسعة . بيد أن هذه المجموعات القليلة العدد سرعان ما تعرضت
للغمر العددي ، ولقوة الوافدين الجدد وكذلك بسبب تلاشي نمط حياتهم . ولا
يعيشون الآن إلاّ على شكل أقليات ، محصورة غالباً ضمن « محتجزات » خاصة .

عصر المعمّرين : لقد بدأ قدوم الأوروبيين ابتداءً من القرن السادس
عشر ، فوصل الفرنسيون إلى لويزيانا وإلى ضفاف نهر السان لوران ، والإسبان
إلى فلوريدا ونحو الجنوب ، في حين استوطن الهولنديون والإنكليز الساحل
الشرقي . ولما كان هؤلاء الآخرون أفضل مساندة من قبل حكوماتهم فقد استطاعوا
التخلص من منافسيهم ولا سيما من فرنسي كندا ، الذين تخلت عنهم حكومتهم في
سنة ١٧٦٣ . أما المستعمرة الإنكليزية فقد استقبلت جماعات مختلفة جداً من حيث
عقليتها وآرائها ، وعلى غرار ما فعله آباء مايفلوور^(١) الحجاج ، في ١٦٢٠ ، فقد
حملت هذه الجماعات الصغيرة ، المبعثرة ، والمتسكة بإيمانها ، حملت معها مثالية
الحرية . ولكن مما يثير الاستغراب ، هو أن بعض هؤلاء هم الذين استقدموا

(١) Mayflower (أو زهرة أيار أو الزعرور) هو اسم سفينة انطلقت من پلايموث في ٦ أيلول ١٦٢٠ ، وحملت
إلى أمريكا المعمّرين أو « الحجاج » الذين أسسوا أول مدينة في ولاية إنكلترا الجديدة ، وهي نيوبلايموث
(٢١ / ١٢ / ١٦٢٠) وكتبوا قبل نزولهم إلى البر ما يسمى Covenant أو أول دستور أمريكي .

الرقيق الأسود في القرن السابع عشر إلى مزارع التبغ والقطن التي كانت تزدهر وتتوسع في الجنوب .

عصر المهاجرين : منذ ١٨٢٠ وحتى أيامنا هذه دخل الولايات المتحدة أكثر من ٤٥ مليون منهم ٥ ملايين من كندا . فبعد أن قذفتهم أوروبا العاجزة عن توفير فرص العمل ، والغذاء ، والكرامة لهؤلاء ، فقد راحوا يبحثون عن الأراضي ، وعن الأجور الأكثر ارتفاعاً ، عن كيان المواطن . وكان معظمهم من اللاجئين السياسيين ومن فلاحين بلا أرض ، أو من حرفيين ممن قضت الآلة على مصادر رزقهم .

وهكذا اندفعوا في رحلة عسيرة دون أمل في العودة على شكل ثلاث موجات متعاقبة من المهاجرين :

- ١٨٥٠ قدم الإيرلنديون الذين اجتاحتهم المجاعة الناجمة عن أزمة البطاطا ، والإيقوسيون ومن سكان بلاد الغال في جنوب غرب بريطانيا .
- ١٨٦٥ - ١٨٩٠ وفد الإنكليز والألمان والاسكندنافيون .

- ١٩٠٠ - ١٩١٠ جاءت أقوام من أوروبا الجنوبية كالطليان ، ومن أوروبا الشرقية ، كالروس والبولونيين والمجريين . وكان بين هؤلاء حوالي مليوني يهودي من الذين هربوا من المذابح في روسيا أو Pogroms .

عصر الحصر : وفي عصر مبكر ظهرت أشكال تمييز صحي أو عرقي ، كالآسيويين ، وهكذا عمد الجمهوريون في الولايات المتحدة عام ١٩٢٠ ، إلى تحديد الهجرة متخذين أساساً لذلك التوزيع النسبي للوافدين الجدد ، وحسب الوضع القائم في ١٨٩٠ (قانون الكوتا) . وزاد تقليص عدد المهاجرين بسبب أزمة عام ١٩٢٩ الاقتصادية وبسبب الحرب .

وفي الوقت الحاضر يدخل إلى الولايات المتحدة سنوياً ما بين ٣٠٠ ٠٠٠ و ٤٠٠ ٠٠٠ مهاجر ، ولكن يجب أن ندخل بالحسبان الهجرة غير الشرعية القادمة من المكسيك . أما كندا فهي أكثر انفتاحاً ، ولكنها لا تكون أحياناً أكثر من نقطة عبور إلى الولايات المتحدة . ومنذ ١٩٦٥ جاء التشريع الجديد في الولايات المتحدة ، والذي يشجع على الخصوص دخول العمال المختصين المؤهلين .

☆ ☆ ☆

قدماء المهاجرين والجدة : أخذت المكائن البخارية في التحسن والإحكام ، يوماً بعد يوم ، مما جعل شروط العمل لدى أصحاب المصانع الصغيرة متردية بسرعة في بلدة دنفرملين الإيقوسية . وبدأت فترة عسيرة بالنسبة لنا . وأخيراً قررنا كتابة رسالة إلى خالتي المقيمتين في بيتسبورغ في الولايات المتحدة لإعلامهما عن عزمنا على اللحاق بهما . وكان الجواب مشجعاً ، وقررنا بيع أثائنا وأموالنا بالمزاد العلني وكان والذي ينشد :

To the west, to the west, to the land of free
where the mighty Missouri rolls the sea

عن ديل كارنيجي . السيرة الذاتية . بوسطن ١٩٢٠
وقد غادر كارنيجي إيقوسيا عام ١٨٤٨ وعمره ١٢ سنة

☆ ☆ ☆

لقد أصبح بلدي . محظوراً عليّ . أما إنكلترا فهي بالنسبة لي أرض أجنبية . إذن إلى أين الذهاب ؟ قلت لنفسي إلى أمريكا . فهناك ساجد المثل الأعلى الذي أحلم به والذي من أجله ناضلت ، إنه عالم جديد ، عالم حر ، عالم مليء بالأفكار والأهداف الرائعة .

ك . شوتز . نيويورك ١٩٠٧

وشوتز هو ثوري ألماني في ١٨٤٨ وهاجر إلى الولايات المتحدة

، في سنة ١٨٥٢ .

☆ ☆ ☆

إن اتساع مدى تدفق المهاجرين المكسيكيين يسبب القلق للسلطات الأمريكية . وقد خصصت مجلة « أخبار الولايات المتحدة » مجالاً فسيحاً للكلام عن السكان « التهريب » الحاليين . والذين يتراوح عددهم بين ٣ و ١٢ مليون نسمة ، ويؤلف المكسيكيون ٦٠٪ منهم . ويبدو أن رقم ٥ ملايين مقبول عموماً ، وتقدر المجلة أن المهاجرين غير المسجلين يبلغون ٨٠٠٠٠٠ مهاجراً أكثرهم مكسيكيون ، دخلوا الولايات المتحدة عام ١٩٧٨ . وتبدو أوضاعهم المعاشية ، إلا فيما ندر ، مثيرة للرتاء ، فهم يعيشون في خوف دائم من الإبعاد ، ومن البطالة ومن الوشاية بهم إلى السلطات الحكومية .

عن دومينيك دومبر . جريدة لموند

١٦ / ٤ / ١٩٧٩

☆ ☆ ☆

توزع المهاجرين في الوقت الحاضر ونسبتهم المئوية في كل ولاية

بعض الأمثلة :

ماين	١٤٪ من كندا	كاليفورنيا	٦٪ من المكسيك
رود آيلند	٧,٧٪ من إيطاليا	أريزونا	٦,٧٪ من المكسيك
	٧٪ من كندا	فلوريدا	٧٪ من كوبا
	٢,٦٪ من المملكة المتحدة	داكوتا الشمالية	٦,٣٪ من النرويج
نيويورك	٧,٣٪ من إيطاليا		٥,٣٪ من الاتحاد السوفيتي
	٣,١٪ من الاتحاد السوفيتي		٣,٤٪ من ألمانيا
	٣,١٪ من بولونيا	ميشيغان	٤٪ من كندا
نبراسكا	٤,٢٪ من ألمانيا	مونتانا	٣٪ من كندا
	١,٣٪ من تشيكوسلوفاكيا	واشنطن	٤٪ من كندا
	١,٢٪ من السويد	هاواي	١٤٪ من اليابان
تكساس	٦,٩٪ من المكسيك		٢٪ من الصين

☆ ☆ ☆

الحدود : تكوين رقعة أرضية

لا تعني كلمة حدود لدى الأمريكيان تخماً بين قطرين ، بل هامشاً طلائعياً .
فمن الممكن متابعة تنقلات الهامش الطلائعي الأمريكي على الخارطة . فقد
كان التقدم بطيئاً حتى نهاية القرن الثامن عشر ، كما أن حدود « الغرب القديم » لم
تكن تتجاوز السطح الغربي من جبال الأبالاتش في عصر (دافني كروك) .
وابتداءً من عام ١٨١٢ ، انقطعت كل العلاقات مع أوروبا ، أصبحت الحركة أكثر
سرعة نظراً إلى أن وادي المسيسيبي والمروج « البراري » تقدم تسهيلات أكبر أمام
المواصلات . ومنذ ١٨٨٠ حصل تقدم مزدوج قادم من سواحل الأطلنطي ومن
ساحل الباسفيكي ، وعلى الأخص من كاليفورنيا ، تمخضت عن احتلال كل رقعة
الولايات المتحدة الحالية : تلك هي نهاية الحدود وخاتمة مغامرة كبيرة . أما في
كندا فقد كانت الحركة أكثر تأخراً ، ولا تزال حتى الآن مستمرة في زحفها نحو
الشمال .

وقد كانت أسباب هذا التوسع عديدة :

- أسباب اقتصادية : ففيما عدا الأزمات الاقتصادية والضغط الديموغرافي
الأوروبي ، كان الافتقار إلى الأراضي الخصبة في الشرق سبباً في نزوح المزارعين
الشبان ، كما أدى اكتشاف مناجم الذهب والفضة ؛ إلى حصول هجمات كما حدث
في عام ١٨٤٨ في كاليفورنيا ، وأخيراً فإن استغلال أراضي جديدة وإعمارها كان
عبارة عن صفقة ممتازة بالنسبة للمصارف ولشركات الخطوط الحديدية .

- أسباب سياسية : وقد كانت هامة جداً لدى الولايات المتحدة مع ظهور

فكرة « أمريكا للأمريكيين » والرغبة في تنظيم الاستمرارية الإدارية والسياسية من ساحل لآخر . وجاء قانون هومستيد Homestead Act في عام ١٨٦٢ ، كي يسارع في عملية الاستغلال الزراعي والذي كان ينص على منح ٧٥ هكتاراً بالمجان لمن يقوم باستغلالها مدة خمسة أعوام متواصلة .

ـ أسباب عقائدية : هناك الكثيرون الذين رأوا في الغرب أرضاً جديدة ، حيث كان من الممكن للإنسان أن يعيش فيها على هواه . كما كان ذلك أيضاً أرض حرة للمغامرين . وأخيراً عملت طائفة المورمون Mormons^(١) من الغرب أرض ميعاد . وجعلوا من مدينة سولت ليك سيتي عاصمة لهم ولا زالت .

ويفسر هذا التنوع في الدوافع شدة تنوع الجبهات الطلائعية : من جبهة زراعية مثل انفتاح أوكلاهوما في ١٨٨٩ ، وتعدينية كالهجات نحو الذهب في كاليفورنيا أو الكولورادو ، وغايية في كندا ، وعسكرية في التكساس ، وقلعة آلامو في ١٨٣٦ . وقد تدخل أشخاص مختلفون في الملحمة الأمريكية كالحطّاب الكندي ، والمزارع ، والباحث عن الذهب ، وحتى قاطع الطريق ورجل القانون . وكانوا جميعاً في معركة مع « الهندي الخبيث » الذي لم يرد اعتباره إلا في وقت متأخر جداً .

وقد كان دور طرق المواصلات أساسياً : فقد استخدمت الأنهار مثل سان لوران والميسيسيبي في وقت مبكر جداً ، ثم تكاملت بالقنوات . أما في الغرب فقد كانت العربات والدروب هي الوسيلة الأولى مثل Pony Express ، ودرب

(١) لقد ظهر مذهب المورمون في ١٨٣٠ في الولايات المتحدة ، على يد جوزيف سميث ، الذي نشر كتاباً منسوباً إلى نبي يهودي يحمل اسم مورمون « كتاب مورمون » ، باعتباره كتاباً سماوياً ، وكان ينسب الهنود الحمر لأصل يهودي . وتكون العقيدة المورمونية مزيجاً قريباً من عناصر بوذية ، غنوصية ، وإسلامية ونصرانية . وبعد أن اغتيل في ١٨٤٤ ، خلفه بريغهام يونغ ، الذي أسس مستعمرة على ضفة البحيرة الكبرى المالحة . وهذه المستعمرة التي اتخذت اسم أوتا تحولت إلى ولاية في عام ١٨٤٩ ، ومات يونغ في ١٨٧٧ وتلاشت من بعده نهضة هذه الحركة ، وصدر مرسوم في ١٨٩٠ بمنع تعدد الزوجات على أعضاء هذا المذهب .

سانتافيه ، ثم دعمتها وحلت الخطوط الحديدية مكانها ولاسيما خط Union Pacific و Canadian Pacific إلخ .

كما لعبت فكرة الحدود دوراً جوهرياً في تكوين العاطفة القومية الأمريكية . ويعتبر الكثيرون تلك الفترة نوعاً من العصر الذهبي ، متناسين مدى قساوة تلك الحقبة ، ويردد العديد من رؤساء أمريكا في خطبهم . « روح الحدود » هذه .



حقيقة كوخ مهاجر نروجي في ١٨٢٨ : « يجب أن نضيف إلى كل تلك المحن مشكلة الكوخ المفتوح لكل الرياح ، إذ لا يمكن أن يجد الإنسان فيه الدفء والعزاء ، إلا بالاتصاق بالنار . وليس هذا الكوخ أكثر من ملتقى لتيارات الرياح . ومع هذا يجد الإنسان نفسه سعيداً عندما يعثر على سقف في هذه المنطقة الخالية من البشر . فقد بنى كل منا كوخه بنفسه وقدر استطاعته ، مستعيناً بالبلطة وعلى العموم دون نوافذ .

ت . بليغن : أرض اختاروها مطابع جامعة مينسوتا : ١٩٥٥

العصر الذهبي : الغرب : كما يظهر في كتاب وزعته دوائر الإعلام الأمريكية في عام ١٩٥٢ :
كلما ازداد التقدم في هذه المناطق التي كانت في حالة وحشية ، يتحوّل المعمّر إلى مزارع وصياد في الوقت ذاته . وعوضاً عن الكوخ البسيط فقد راح يبني بيتاً بديعاً من جذوع الأشجار مع نوافذ وزجاج ، ومدخنة جيدة ، وغرف منفصلة عن بعضها بعضاً . وحفر بئراً بدلاً من أن يعتمد على النبع . وجاء الأطباء بعد المزارعين ، ثم التجار والمحامون والمبشرون ، أي كل الذين كانت الحاجة ماسة إليهم لبناء هيكل اجتماعي صلب . ومن هذا الشعب ينحدر أبراهام لنكولن الذي ولد في كوخ من جذوع الشجر في ولاية كنتوكي .

مخطط تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية

الحدود الجديدة : أقول لكم إننا أمام حدود جديدة سواء أردنا ذلك أم لا . ففيما وراء الحدود تمتد مجالات بكر لم تكتشف بعد هي مجال العلم والفضاء ، ومشكلات لم يتم حلها بعد ... وأعتقد أن عصرنا يتطلب العزم ، والتجديد ، والتصور والقرار . أطلب منكم أن تكونوا الرواد الجدد ، أمام الحدود الجديدة .

الرئيس جون كينيدي تموز ١٩٦٠

الولايات المتحدة

تلعب أمريكا الشمالية وخاصة الولايات المتحدة ؛ دوراً متزايد الأهمية منذ مطلع القرن الحالي في الحياة الاقتصادية العالمية .

ففي خلال (٧٥) عاماً استطاعت الولايات المتحدة أن تؤكد سبقها وتفوقها في مضار الإنتاج والعلم والتقنية . وكان دورها خلال الحربين العالميتين وخاصة خلال الثانية أروع برهان على ذلك .

وتؤلف سعة أراضيها ، ووفرة وتنوع مواردها ، وشعبها « الديناميكي » العناصر الأساسية في ازدهارها وفي قوتها . وتشتمل الولايات المتحدة على مناطق واسعة جداً سبق أن فتحها واستعمرها الإنكليز والهولنديون والفرنسيون والإسبان . فبعد أن كانت مقتصرة على (١٣) ولاية بريطانية ، أعلنت استقلالها في ١٧٧٦ ثم ضمت إليها تدريجياً مناطق شاسعة :

١ - المنطقة الواقعة بين جبال الأبلاش والبحيرات الكبرى والميسيسيبي وقد تخلت عنها بريطانيا في عام ١٧٨٣ .

٢ - لويزيانا التي باعها فرنسا عام ١٨٠٣ مع كل المناطق الواقعة بين الميسيسيبي والروشور .

٣ - فلوريدا التي تخلت عنها إسبانيا في سنة ١٨١٩ .

٤ - المناطق الشمالية الغربية الباسفيكية ، وحصلت عليها الولايات المتحدة عندما اعتبرت بريطانيا خط العرض (٤٩) كحد جنوبي لكندا .

٥ - المناطق الممتدة من المكسيك حتى المحيط الباسفيكي (تكساس ، المكسيك الجديدة وكاليفورنيا) ، التي انتزعتها من المكسيك بعد حرب (١٨٤٦ و ١٨٤٨) ، فاضطرت المكسيك أن تقلص حدودها حتى نهر ريوجرانده .

٦ - آلاسكا وقد اشترتها من روسيا عام ١٨٦٧ .

وبعد أن تشكلت (١٣) ولاية ألفت الاتحاد عام ١٧٨٨ ، أضيفت إليها تدريجياً الأراضي الواقعة إلى الغرب من جبال الأبلاش ، بعد أن أعمرت بالسكان وقامت فيها ولايات جديدة . وهكذا نجد أن للولايات المتحدة الأميركية تنظيمًا سياسيًا اتحادياً (فيديرالياً) ، يضم خمسين ولاية ، لكل منها تشريعها ، وحكومتها ، وعاصمتها ، ومحافظة اتحادية (تدعى محافظة كولومبيا) حيث تقع العاصمة واشنطن ، وحيث يقوم الكونغرس المؤلف من مجلسين تشريعيين والمقر الرئيسي لرئيس البلاد .

الولايات المتحدة كقارة

تحتل الولايات المتحدة حوالي خمس مساحة أمريكا الشمالية أو (٩,٣) ملايين كم^٢ مع آلاسكا ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مناطق كبرى .

أ - الأبلاش :

وهي جبال تمتد على مسافة (٢٥٠٠) كم من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي ، أي من جزيرة الأرض الجديدة حتى جوار خليج المكسيك . ويعود تاريخها لآخر الزمن الأول ، مثل السلاسل الهرسينية الأوروبية ، وقد تعرضت للتسوية تماماً ، ولكنها نهضت من جديد في الزمن الثالث ، واستأنف الحث عمله فيها ، وترتصف سلاسلها حسب اتجاه الطيات القديمة المتوازية ، وتنتج عن بروز شرطان من الصخور القاسية والمفصولة عن بعضها بمنخفضات محفورة في الصخور الطرية .

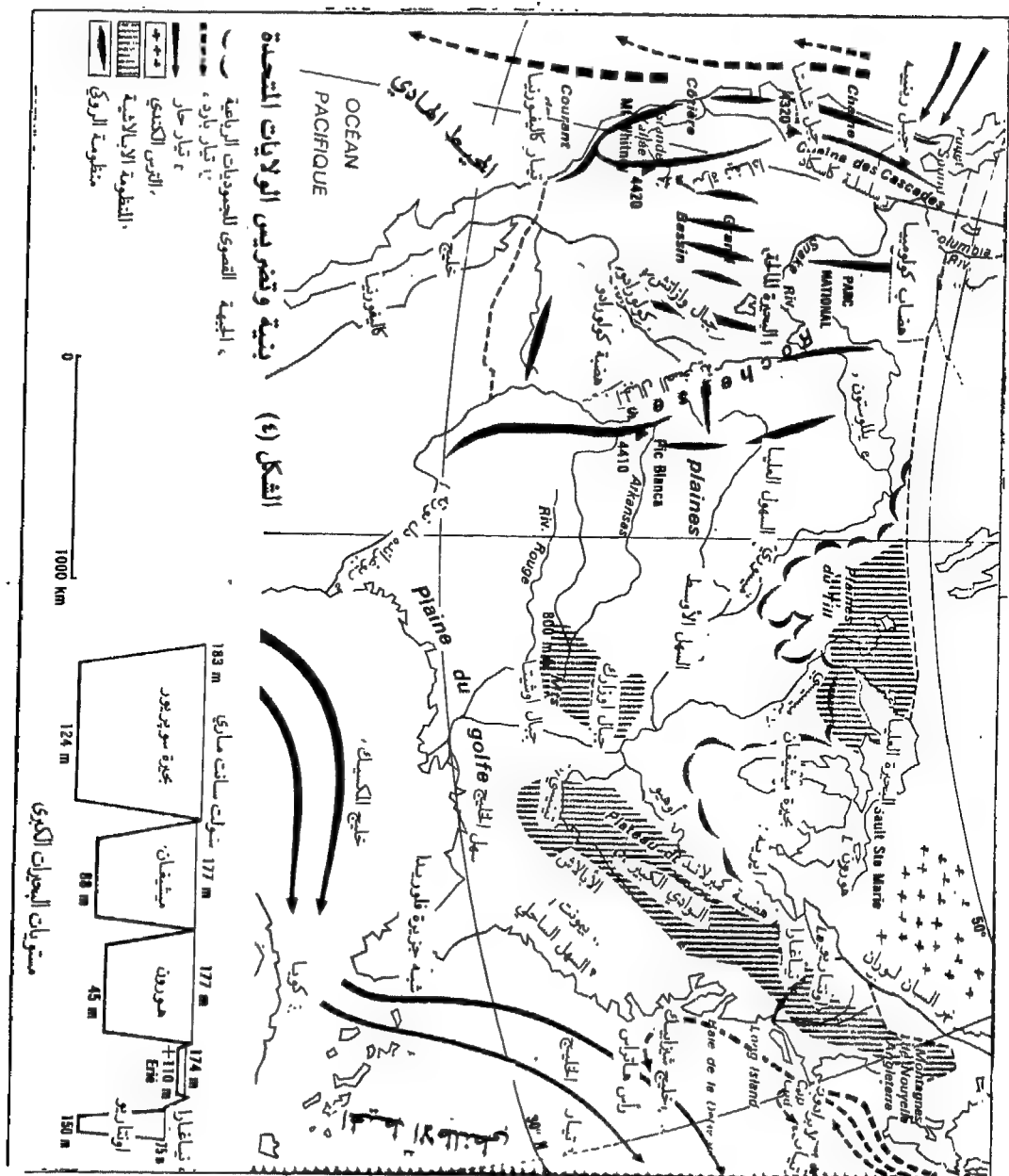
والتضريس الجبلي القديم الذي انبعث بفعل الحت ، أصبح شكلاً تقليدياً نموذجياً تحت اسم التضريس الأبالاشي . ولا تؤلف جبال الأبالاش أكثر من عارض نسبي أمام المواصلات لأن ارتفاعها يندر أن يتجاوز (٢٠٠٠ م . كما أن الأنهار التي تصب في الأطلسي أو ترفد نهر الميسيسيبي استطاعت أن تحفر ودياناً عميقة عرضانية تسمح باجتياز السلسلة الجبلية بسهولة ، كما أن هناك سلسلة من المنخفضات الطولانية التي استخدمها أوائل الأميركيين أثناء توسعهم نحو خليج المكسيك . وإلى الشرق من جبال الأبالاش نجد سهلاً ساحلياً يبدأ من جنوب نيويورك ويتسع باتجاه الجنوب حتى خليج المكسيك (شكل ٤) .

ب - السهل الأوسط :

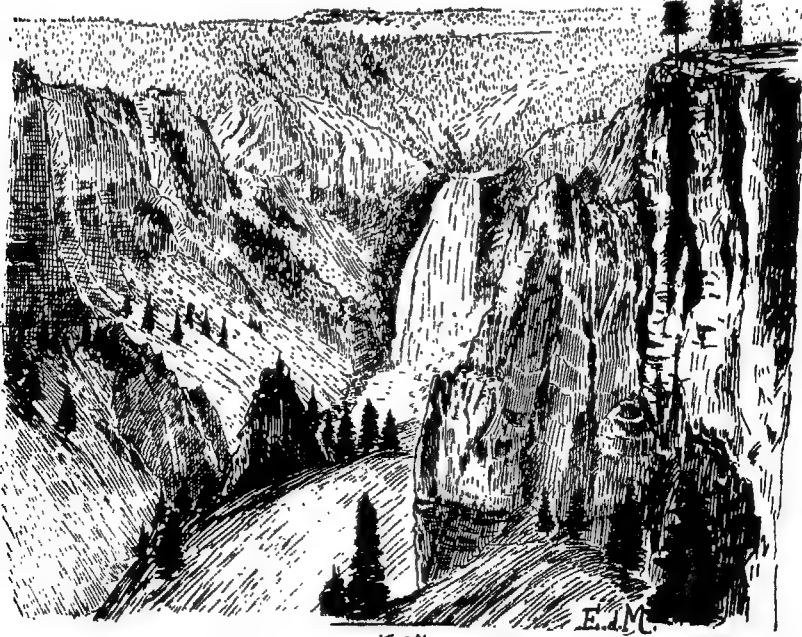
ويتألف من صخور رسوبية تراكت فيه ، ابتداء من الدور الثاني حتى الآن . ويحتوي هذا السهل على جانبي نهر الميسيسيبي سهلاً ضيقاً نسبياً بالشرق ، وسهلاً أكثر سعة بكثير في الغرب ، يصعد على شكل درجات عريضة متعاقبة كي يصل إلى ارتفاع ١٨٠٠ م عند أقدام جبال الروشوز . واستطاعت الأنهار التي تأتي من هذا السهل أن تحفر أخاديد عميقة وعريضة متوازية وأن تؤلف بالتعاون مع نهر الميسيسيبي ، عند خليج المكسيك ، سهلاً لحقياً واسعاً جداً استطاع أن يربط شبه جزيرة فلوريدا الكلسية بالقارة . وإلى الغرب من النهر تظهر جبال أوزارك ذات الصخور الأولية ، على شكل هضبة متفاوتة التضاريس المتروحة بين (٧٠٠ و ٨٠٠ م) ، وهي تشابه الكتلة المركزية في أواسط فرنسا .

ج - الجبال الغربية :

وقد تشكلت بفعل سلسلة من الحركات التي تعاقبت منذ أواسط الدور الثاني حتى نهاية الدور الثالث . وكل المظاهر تشهد هنا على أهمية الحركات الشاقولية والبركنة ، لأن أعلى القمم هي عبارة عن مخاريط بركانية ، كما تغطي أغشية



اللابات الكثير من الهضاب . وتبدو النافورات الحارة إحدى عجائب البارك الوطني في يلستون (شكل ٥) وتشابه هذه الجبال المتكتلة في آسيا الوسطى أكثر من شبهها للقوس الألبى . وتتألف من ثلاث حزم من السلاسل تطيف بهضاب عالية أو بحوضات داخلية .



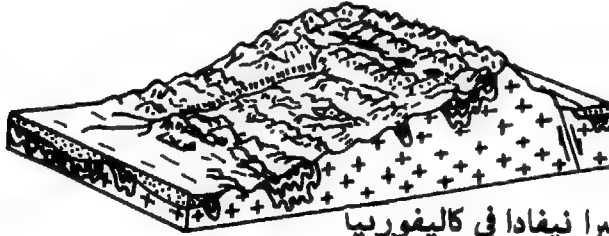
الشكل ٥

خانق نهر يللوستون (الولايات المتحدة ، المنتزه الوطني) عن ديمارتون

ففي آلاسكا تنتشر الجبال على شكل مروحة ، وتبلغ ارتفاعات شديدة جداً مثل جبل القديس إيليا (٥٤٨٦ م) ، على حافة الباسفيكي وجبل ماك كينلي وارتفاعه (٦١٨٧ م) ، حيث تثقب الاندفاعات البركانية المنطلقة من قمته الإطار المحيط به والمؤلف من درع من الجليد والثلوج .

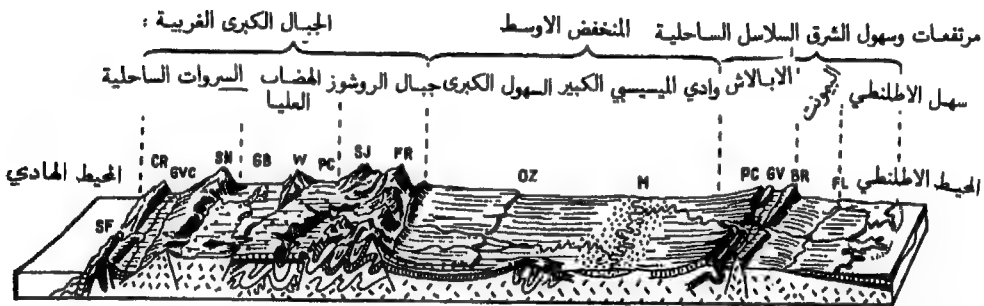
أما في الولايات المتحدة فإن المنظومة الجبلية تأخذ أكبر اتساع لها ، فعلى مسافة تبلغ (١٥٠٠) كم من الشرق إلى الغرب نجد أربع سلاسل :

- آ - الروشوز الرئيسية وفيها جبل هارفارد (٤٣٨٣) م .
 ب - جبال وازاتش الممتدة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي .
 ج - سلسلة الكاسكاد وهي عبارة عن تعاقب براكين جسيمة خامدة مثل جبل ريبييه (٤٣٧٧) م ، شاستا (٤٣٨٣) م ، وتمتد جنوباً بجبال سييرا نيفادا (شكل ٦) التي يسو فيها جبل ويندي وارتفاعه (٤٤١٩) م .



مجم لجزء من جبال سييرا نيفادا في كاليفورنيا

ونجد بالداخل حجرات واسعة قد نهضت بالماضي إلى ارتفاع يزيد عن (٢٠٠٠) م ، وتظهر على شكل هضاب أفقية تقريباً مثل هضبة الكولورادو ، التي يحفر فيها نهر كولورادو خانقاً رائعاً عمقه (١٨٠٠) م على مسافة (٣٠٠) كم طولاً ، أو على شكل أحواض تتعاقب فيها سلاسل جانحة (مثل الحوض الكبير) . بينما انهارت حجرات أخرى على شكل منخفضات مثل وادي كاليفورنيا الكبير أو على شكل حفر دون مستوى سطح البحر كما في وادي الموت (شكل ٧) .



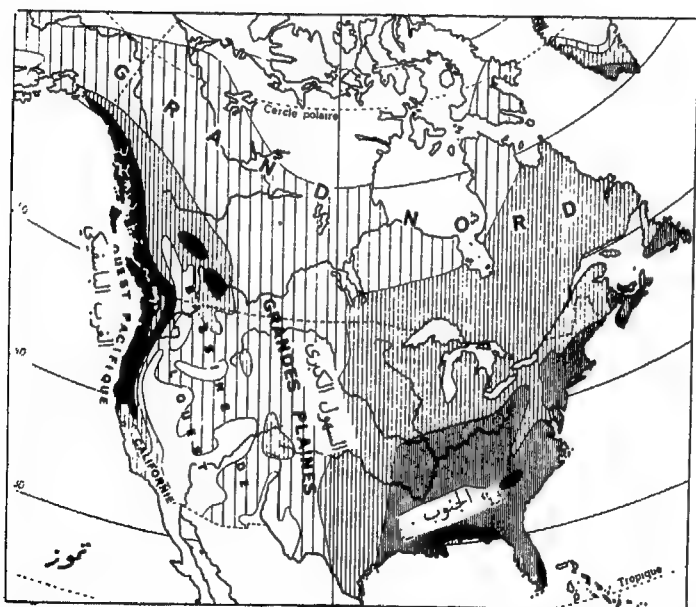
تضريس أمريكا الشمالية . مقطع من الشرق للغرب

الشكل ٧

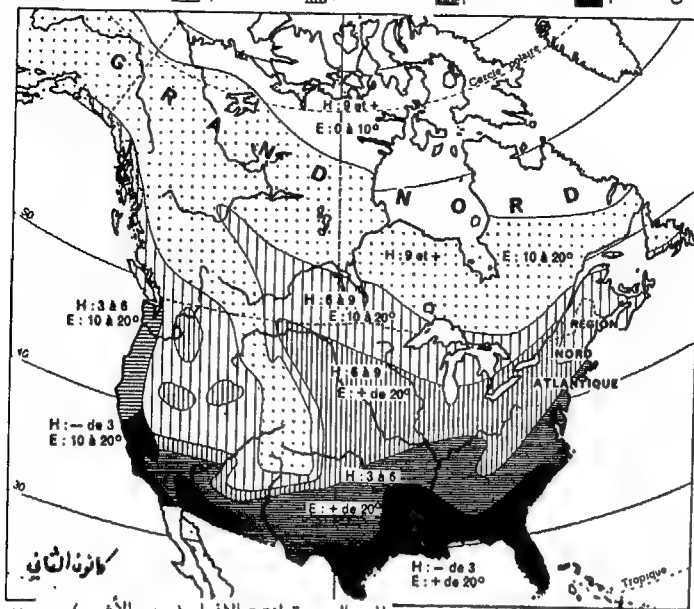
الشرائط المناخية العامة

إن الشكل المتكامل للولايات المتحدة ؛ يفرض عليها قساوة المناخ القاري مع حدوده القصوى الحرورية وأمطاره العاصفية القليلة العدد ، ولكنها عنيفة . كما يجب أن نأخذ بعين الاعتبار مفعول مراكز العمل الجوي الكبرى ، الواقعة فوق المحيطات ، ففي الشتاء تتقدم الضغوط المنخفضة شبه القطبية نحو الجنوب في حين تتقهقر الضغوط المدارية الشديدة . أما فوق القارة المتبردة فيتشكل مركز ضغوط قوية تنطلق منه رياح شمالية غربية جافة وباردة تهب على المنطقة الأطلنطية ، وتبعث أحياناً طليعة لها حتى خليج المكسيك تدعى موجات البرد Cold Waves . أما على السفح الباسفيكي فيحدث العكس ، إذ تأتي من الجنوب الغربي رياح بحرية دفيئة ورطبة . أما في الصيف فإن مراكز الضغط الشديد شبه المدارية تتمدد باتجاه الشمال ، في حين تظهر ضغوط خفيفة واضحة في داخل القارة المتسخنة ، فتهب على الشرق من البلاد رياح مدارية قادمة من الجنوب الشرقي ، وتكون حارة ورطبة ، بينما يتمتع غرب البلاد برياح قادمة من الشمال الغربي ، منعشة . وهكذا نجد هنا التضاد المناخي ذاته الملحوظ في العالم القديم ، أي في آسيا ، إذ تجنح العوامل اللطيفة للمناخ نحو التفوق على الواجهة الغربية للقارة ، بينما تتفوق المؤثرات المناخية القارية على الواجهة الشرقية (شكل ٨) .

وتزيد التيارات البحرية شدة هذا التضاد بين الواجهتين ، فنجد في المحيط الأطلنطي تيار الخليج (Gulf Stream) الحار بالجنوب ، كما نلاحظ تيار لايرادور بالشمال . أما في الباسفيكي فهناك تيار يؤدي إلى تسخن سواحل كندا وآلاسكا وتيار بارد يحاذي ساحل كاليفورنيا .



دون ٢٥ سم
 ٥ إلى ٢٥ سم
 ٥٠ - ١٠٠ سم
 ١٠٠ - ١٥٠ سم
 أكثر من ١٥٠ سم



H: المدة السنوية لفترة الانجماد (عدد الأشهر)
 E: الحرارة الوسطى لأكثر الأشهر حرارة .

الشكل ٨
 التهطلات والحرارة في أمريكا الشمالية

بيد أن مؤثرات الباسفيكي اللطفة ، تتوقف فوراً بفعل التضاريس الناتجة عن السلاسل الغربية المرتفعة . فبعد السفوح الغربية الممطرة والمستورة بغابات رائعة ؛ تأتي وبسرعة بعدها ، باتجاه الداخل ، هضاب شديدة الجفاف تتحول جنوباً إلى صحارى حقيقية مع نباتات متباعدة شوكية من نوع الصباريات الضخمة . ولاستطيع السهول الشرقية المفتوحة الصدر للشمال أن تصد زحف المؤثرات القطبية باتجاه الجنوب بالشتاء ، أو اندفاع المؤثرات المدارية خلال الصيف . وبفعل هذين الاجتياحين المتناوبين يتضاءل النطاق المعتدل إلى حده الأدنى .

المناخات

نجد في الغرب مناخات تشابه أوروبا الغربية ، ولكن مجالها ينحصر في شريط ساحلي ضيق ، فنجد المناخ النروجي في آلاسكا ، والمناخ الرومي أو المتوسطي في كاليفورنيا .

وفي الشرق يمتد على رقعة (٢٠٠٠) كم من الشمال للجنوب مناخ معتدل ولكنه قاري موائم لقيام الغابة والمراعي ، فمدينة نيويورك الواقعة على درجة عرض نابولي ، تتعرض لفصول شتاء أشد قسوة من شتاء برلين ، وإلى عواصف ثلجية أكثر عنفاً من موسكو ، وإلى فصول صيف أشد حرارة من صيف مدينة الجزائر ؛ مع موجات حر أكثر ثقلاً من التي تحدث في دكار بالسنغال .

وتكون كل المنطقة الجنوبية الشرقية شبه مدارية . فنحو الغرب تنحط هذه المناخات تدريجياً فتصبح درجات الحرارة شاذة إذ تهبط الحرارة في فينبيغ بالشتاء إلى مستويات سيبيرية (- ٢٠ °) ، وتندر الأمطار وتتخلل الغابة عن مكانها للمروج ، وبعدئذ إلى الصحارى الحقيقية بجوار جبال الروشوز (الروكي) .

البحيرات والأنهار

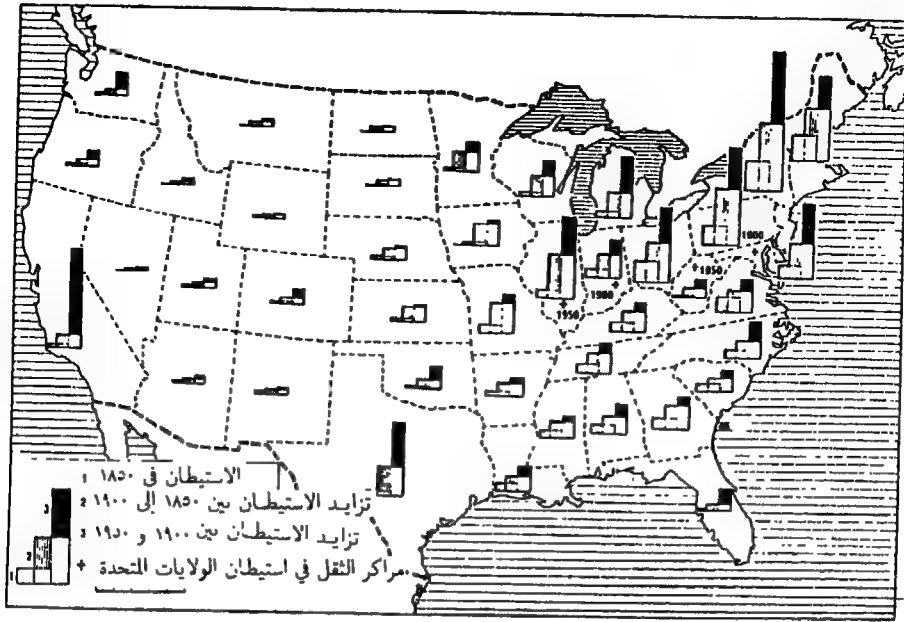
يضم السهل الأوسط أهم البحيرات والأنهار ، فتشكل البحيرات الخمس الكبرى في قلب أميركا الشمالية بجزراً داخلياً حقيقياً مساحته (٢٥٠٠٠٠ كم^٢ ، أو ما يعادل مساحة سورية والأردن . ويؤدي وجود شلالين هامين ناتجين عن بروز صخور قاسية بفعل الحت الجودي الرباعي ؛ إلى تجزئة مياه البحيرات إلى ثلاثة مستويات ، فنجد شلالات سولت سانت ماري بين البحيرة العليا وهورون ، وشلالات نياغارا بين بحيرتي ايري وونتاريو . وبعد أن أصبحت الألفية تتحاشى الشلالات ، أضحت البحيرات الكبرى تؤلف على مسافة (١٥٠٠) كم من الغرب للشرق ؛ طريقاً ملاحياً داخلياً رائعاً ينفتح على المحيط الأطلسي بواسطة نهر السان لوران . والمأخذ الوحيد عليه هو تجمده خلال الفترة الواقعة بين منتصف كانون الأول حتى أواسط نيسان .

ويقوم نهر الميسيسيبي بتصريف مياه كل المنطقة الوسطى بين الأبالاتش والروشوز . ويبلغ طوله لوحده (٤٠٠٠) كم ولكنه يمتد برفاد نهر الميسوري ، فيؤلف طريقاً نهرياً لا مثيل له بالعالم من حيث الطول (٦٨٠٠) كم ، ويتغذى هذا النهر بالربيع من روافد تنحدر إليه من الروشوز ، مثل الميسوري ، إركنساس والنهر الأحمر ، وفي الخريف يدعاه نهر الأوهيو وطوله (٢٠٨٠) كم والذي يعادل صيبه صبيب الدانوب ، وبذلك يقذف نهر الميسيسيبي الغزير (٢٠٠٠٠) متر مكعب بالثانية أو أكثر من ٢٥ مرة من غزارة الفرات . وهو نهري سهل ذو جريان بطيء ، فلا يؤلف بذلك طريقاً ملاحياً ممتازاً . ويتباطأ جريانه على شكل عقفات ضخمة وينتهي بدلتا غير مستقر . ويتعرض هذا النهر لفيضانات خفيفة بالربيع ، تنفرش على مسافة مئات الكيلو مترات بالسهل ، وذلك عندما تتضخم مياه نهر الأوهيو فجأة بتأثير الأمطار العاصفية الهائلة فوق الأبالاتش ، بالإضافة إلى موجة مياه عارمة تقدمها في الوقت نفسه أنهار الغرب .

الزحف نحو الغرب

في مطلع القرن التاسع عشر كان معظم سكان أمريكا الشمالية متركزين في وادي السان لوران وفي النطاق الساحلي الأطلسي . وفي وسط القرن العشرين ظلت هذه المناطق أكثر مناطق الولايات المتحدة سكاناً ، ولكن كان السكان يتكاثرون في الوسط وفي الغرب بسرعة أكبر .

ويميز الزحف نحو الغرب الاستيطان الأمريكي منذ (١٧٠) عاماً ، ذاك أن ملايين المهاجرين تحولوا إلى رواد بفضل تمديد الخطوط الحديدية ، فاستغلوا وأحيوا مساحات شاسعة في الغرب الأوسط ، أي منطقة البحيرات الكبرى والميسيسيبي ، والغرب البعيد Far West وحق الجبال والنطاق الباسفيكي (شكل ٩) .



الشكل ٩

تزايد الاستيطان في الولايات المتحدة بين ١٨٥٠ إلى ١٩٥٠

المدن الكبرى

يحتج عدد سكان المدن هنا نحو التفوق على عدد سكان الريف الذين لا يشكلون حالياً أكثر من ٨٪ من المجموع ، أو (٢٠) مليون ، ولكن كل مزارع أمريكي ينتج من الغذاء ما يكفي لأربعين شخصاً .

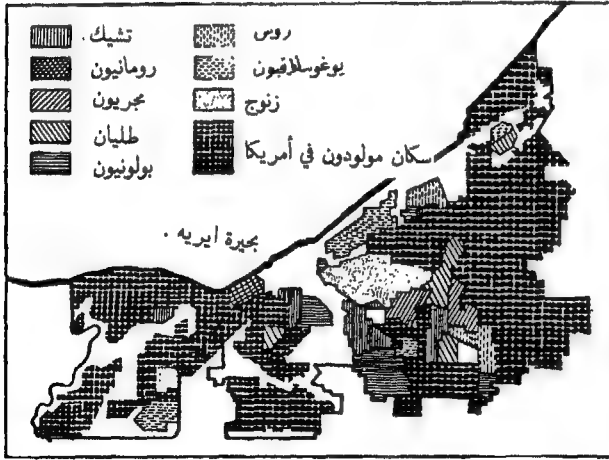
أما في المناطق الصناعية الكبرى أو مناطق التجارة الناشطة وخاصة حول البحيرات الكبرى ووادي السان لوران وفي النطاق الأطلسي وحتى على الساحل الباسفيكي فإن سكان المدن يتجاوزون ثلاثة أرباع مجموع السكان .

ويجتمع في المدن التي يزيد تعداد سكانها عن (١٠٠٠٠٠) نسمة ، أكثر من ربع سكان الولايات المتحدة . ويبلغ عدد هذه المدن في الولايات المتحدة حالياً (١٧٠) . وأصبحت بعض هذه المدن عبارة عن تجمعات هائلة من البشر مثل نيويورك التي تضم أكثر من (١٦,٧) مليون نسمة ، أي ما يعادل سكان العراق ولبنان معاً ، في حين يزيد عدد سكان محافظة نيويورك عن (١٩,٥) مليون أي ما يزيد عن عدد سكان كل شبه جزيرة العرب .

وهناك (٢٠) مدينة تتجاوز المليون وأهمها شيكاغو وفيها (٧,٦) ملايين نسمة ، وفيلادلفيا ٥,٦ ملايين وديترويت ٤,٧ ولوس انجلوس ويسكنها (١٠,٤) ملايين ، كيفلند ٣ ملايين (شكل ١٠) وسانت لويس ٢,٤ وبيتسبورغ ٢,٣ إلخ ، وتضم جميعاً أكثر من (٦٠) مليون أمريكي وحوالي (٣٠) مدينة يزيد عدد سكان كل منها عن نصف مليون .

وكثير من هذه المدن لم تكن قبل قرن مضى أكثر من مدن صغيرة أو لم تكن قائمة أبداً . ففي ١٨٣٠ لم تكن شيكاغو تضم أكثر من بضعة بيوت ولكنها تجاوزت (١٠٠٠٠٠) عام ١٨٦٠ ، ووصلت إلى المليون عام ١٨٩٠ وإلى المليونين في ١٩١٠ ،

وتضم الآن مع ضواحيها أكثر من (٧) ملايين . لذلك يطلق الأميركيان على مثل هذه المدن اسم المدن الفطور Villes Champignons أي تنمو بسرعة كنبات الفطور أو « عش الغراب » .



الشكل ١٠

مدينة كليفلند
واستيطانها

وتقدم المدن الأميركية نموذج المدن الحديثة بشوارعها المتقاطعة بزوايا قائمة وبأحياء البساتين « غاردن سيتي » الواسعة على أطرافها وخاصة في أواسطها ، وبناطحات السحاب Skyline فيها ، وهي عبارة عن خلايا هائلة من المكاتب ، وهي مدن حقيقية باتجاه الأعلى ، حيث يعيش بين الساعة ٩ والساعة ١٨ في كل منها عدد يتراوح بين (١٥ - ٢٠) ألف نسمة ، ولكنها لا تحوي سوى الحرس ليلاً . وأضخم هذه الناطحات هي عمارة امباير ستايت في نيويورك ، التي تضم (١٠٢) طابقاً يثقبها (٦٤٠٠) نافذة ، وترتفع (٣٨٥) متراً ، أي أكثر ارتفاعاً من برج إيفل ، ويستعمل سكانها (٦٣) مصعداً كهربائياً تساعد على المواصلات الداخلية فيها والصعود إلى السطوح وإلى الحدائق المعلقة والمطاعم ومشارب الشاي في الطوابق العليا .

كما تكون ناطحة السحاب عبارة عن مدينة تحت الأرض لأنها تحوي عدة طوابق تحت الأرض ، تضم المكائن ومواقد التدفئة المركزية والقاعات الفسيحة ،

التي تحتلها المخازن الحاوية على كل السلع والبضائع . وقد بدأ ظهور ناطحات السحاب في نيويورك المحصورة في جزيرة مانهاتان ، وحيث كان المكان ضيقاً فبحث الناس عن المكان باتجاه الأعلى . ولكن تتمتع كل المدن الأميركية الآن بأرض فسيحة ومع هذا تملك عدداً من ناطحات السحاب .

أسلوب الحياة الاميركية

تدهش الحياة الأميركية الغريب نظراً لعصريتها والاستعمال المنهجي للأدوات والآلات الميكانيكية والأتماتيكية ، ولتطبيق أحدث المخترعات فيها على نطاق واسع . فالبساطة العملية في كل تفاصيل الحياة اليومية والعلاقة المباشرة في المعاملات العامة تثير عجب القادم من أقطار العالم القديم . وهكذا لا يضطر الإنسان للانتظار الطويل أمام كوات المراجعة التي يقبع خلفها موظفون مرهقون . ويكفي للركوب في القطار الأرضي أن يدس الإنسان قطعة معدنية سبق له أن اشتراها في فتحة صغيرة كي تفتح له الأبواب التي قد لا يجد خلفها أي موظف .

ويبلغ متوسط المعيشة في أميركا مستوى لا تزال تجهله معظم المجتمعات الأوروبية ، بل سكان العالم الثالث مما يسمح بالحصول على أجور مرتفعة ، والاستفادة من القروض بشكل ميسور وعلى نطاق واسع فالأميري المتوسط ، والعامل أو المستخدم في المكاتب ، يسكن في بيت صغير خشبي مطلي بلون أبيض وتتقدمه حديقة ومرج أخضر رائع ، يبتعد نوعاً ما عن المدينة المزدهجة أو Downtown ، ويعيش في بيته الحاوي على الرفاهية كإنسان ميسور . فهو يعتني بقص مرجه الأخضر ، وينظم بيته ويتابع برامج التلفزيون ، كما تستخدم زوجته عدداً لا يكاد يحصى من أجهزة المطبخ الكهربائية وغير الكهربائية .

ويملك الشعب الأميركي ، الذي يشعر جيداً بوضعه المادي الممتاز بين شعوب

العالم ، ثقة مطلقة تلامس الغرور في التقدم الذي يخفف متاعب الإنسان ، كما يعتمد إلى زيادة إنتاجيته مثلاً يعتمد إلى رفع مستوى رفاهيته فنجدته يتصدى لأعقد مشاكل عصرنا بثقة لا تعرف التردد .

ويظهر استخدام الطاقة الذرية للرأي العام الأميركي بالنهاية كأداة للتقدم شأنه شأن استعمال المكائن الألكترونية تماماً .

ولكن هذا لا يجب أن يخفي عنا وجود طبقات فقيرة بائسة ، مثل البيض الفقراء وغالبية الزنوج وذلك لسوء توزيع الثروات . وشدة غرور أمريكا التي تنتج (٣٠ ٪) من الإنتاج الصناعي العالمي ، يجعلها تشعر بأنها المسؤولة عن شؤون الدول الأخرى ، فراحت تتخذ لنفسها وظيفة الشرطي العالمي وتتدخل في قضايا الدول الأخرى ، وتشن الحروب على بعض الشعوب المستضعفة ، مثل كوريا وفيتنام ، مما أثار سخط شعوب العالم والمواطن الأميركي العادي نفسه .

المواصلات

تبلغ المسافة بين نيويورك وسان فرانسيسكو (٥٠٠٠) كم ، فضلاً عن ضرورة اجتياز جبال الأبلاش ، لاسيا سلاسل جبال وهضاب الغرب ، كي يمكن الوصول إلى الباسفيكي . وهكذا ندرك أهمية وجود وسائل هامة لتأمين المواصلات والصعوبات الضخمة التي تعرض لها الأميركيان خلال فترة بناء هذه الخطوط . غير أن السفر في الولايات المتحدة يعتبر أسهل ما يكون بالعالم بفضل تأمين شروط الرفاهية ووجود أسرع القاطرات .

آ - شبكة الملاحة الداخلية : تضم شبكة الملاحة الداخلية طريقين رئيسيين :

أولاً : من الشرق للغرب : وهي شبكة السان لوران والبحيرات الكبرى ،

التي تؤلف أهم طريق ملاحى بالعالم ؛ إذ تصعد السفن البحرية فيه حتى مدينة مونتريال الواقعة على مسافة (١٠٠٠) كم في داخل القارة . وبين المدينة المذكورة وصدر البحيرة العليا يتجول أسطول من البواخر ، تزيد حمولته عن مجموع الأسطول الفرنسي التجاري . ويبلغ وزن البضائع المنقولة على البحيرات الكبرى أكثر من (١٥٠) مليون طن بالسنة ، أي تقارب حركة الملاحة على كل من قناتي السويس وبناما ، بالرغم من أن الجمد الشتوي يحول دون المواصلات فوقها مدة خمسة شهور كاملة . وإلى هذه الشبكة يجب أن نضيف نهر الهدسن وقناة إيريه ، اللذين يصلان بين نيويورك والبحيرات الكبرى ، وتتراوح حولة السفن التي تعمل في الشبكة الداخلية بين (٥٠٠ و ٣٠٠٠) طن وتسير على شكل قوافل عدد كل منها (١٢) تدفع من الخلف بواسطة towboats تزيد قوته عن ٣٠٠٠ حصان .

ثانياً : من الشمال للجنوب : أي فوق نهر الميسيسيبي الذي هو نهر سهلي ويصلح للملاحة حتى مدينة اورليان الجديدة . ويرتبط بشبكة البحيرات الكبرى بفضل رافديه ايللينوا ونهر أوهيو وثلاث أقنية . وهنا تكون الملاحة محدودة بفعل منافسة الخطوط الحديدية ، فضلاً عن أن اتجاه النهر يعاكس اتجاه تيارات المواصلات الكبرى الداخلية المتجهة من الشرق للغرب ، فبينما يبلغ وزن النقلات على نهر الأوهيو (٢٥) مليون طن ، نلاحظ أن كل البضائع المنقولة فوق نهر الميسيسيبي لا تزيد عن (١٠) ملايين من الأطنان .

ب - الخطوط الحديدية العابرة للقارة :

يعود فضل فتح ولايات الغرب وأوائل المواصلات العابرة للقارة إلى الخط الحديدي . فقد سبق الخط الحديدي أحياناً الاستيطان البشري ، وسمح بفتح « الغرب البعيد » . ومنذ ١٨٦٩ أمكن ربط نيويورك بسان فرانسيسكو ، وبعد قليل تم مد أربعة خطوط عابرة للقارة في الولايات المتحدة . وهناك خطوط

حديدية هامة تؤمن الربط بين الشمال والجنوب ، وبذلك تؤلف شبكة الخطوط الحديدية الأميركية شبكة واسعة متصالبة يبلغ طولها (٣٤٥٠٠٠) كم ، أي أكثر طولاً من مجموع الشبكة الحديدية الأوروبية أو ثلث الشبكة العالمية . وتستعمل معظم قطاراتها القاطرات الديزل أو المكهربة ذات السرعة الوسيطة (١٥٠) كم / ساعة وتدعى Aerotrain .

ج - السيارات :

تتعرض الخطوط الحديدية اليوم لمنافسة السيارات والطائرات . وكل عائلة في أميركا تقريباً تملك سيارتها ويبلغ مجموع السيارات في الولايات المتحدة أكثر من (١٠٧) مليوناً أو سيارة لكل ثلاثة أشخاص ، أو سبعين بالمئة من سيارات العالم ، تتجول فوق شبكة الطرق المعبدة التي يزيد طولها عن (٦,١) ملايين كم ، أو (١٢٠) مرة طول محيط الأرض عند خط الاستواء ، وأصبحت السيارة هناك من ضرورات الحياة العادية في المدينة أو في الريف .

وهناك شبكة من الطرق الجوية فضلاً عن وسائل المواصلات الآتفة الذكر . ففي خلال (٦) ساعات فقط يقطع المسافر المسافة الفاصلة بين نيويورك وسان فرانسيسكو . كما تملك الولايات المتحدة أكبر أسطول جوي تجاري يؤمن المواصلات على ثلاثة اتجاهات رئيسية هي :

١ - مع الشرق عن طريق أوروبا وآسيا .

٢ - مع الشرق الأقصى عن طريق آلاسكا ، أو بواسطة الباسفيكي (هاوائي) .

٣ - مع أمريكا الجنوبية نحو ريودوجانيرو وبونس آيرس أو نحو باناما أو نحو ليا وسنتياغو في الشيلي .

هذا ويتزايد استعمال الطائرة أكثر فأكثر . فالخطوط الجوية تنقل عدداً من

الركاب يعادل ضعف ركاب الخطوط الحديدية أو أكثر . كما أن المؤسسات الصناعية والتجارية والزراعية تملك أسطولاً جوياً أكبر من عدد الطائرات العاملة على الخطوط المنتظمة . والواقع نلاحظ في المطارات الأميركية حركة كثيفة لاتعرفها مطارات أوروبا .

إن مواصلات كهذه تنقل كتلة من البضائع هائلة وجماهير من الركاب كبيرة ، وتكون مصحوبة باستخدام عام لكل وسائل الاتصال الحديثة (كالهاتف والتلغراف والإذاعة والتلفزيون والسينما) . كما تساهم في توزيع « طريقة الحياة الأميركية » في كل مكان وتمنح الولايات المتحدة طابع انسجام وتجانس يدهش الأوروبي ، كما يدخل الدهول في نفس القادم من أقطار العالم الثالث .

المناطق الطبيعية :

أ - المنطقة الأطلسية الشمالية :

وهي منطقة جبلية قاسية . فهنا نجد جبال الأبلاش التي تعرض باتجاه الجنوب الغربي ، وحيث تحتوي على خطوط ذرى متوازية يتراوح ارتفاعها بين (١٥٠٠ و ٢٠٠٠) م ، ويغطيها من ناحية المحيط الأطلسي هضبة ييمونت (Piemont) وسهل ساحلي يضيق باتجاه الشمال الشرقي ، وهنا تهين جبال الأبلاش على وادي نهر السان لوران ، الواقع إلى الغرب منها وتشرف شرقاً على المحيط مباشرة . كما أن الطيات الأبلاشية ترسم هنا حركة انعطاف حول جبال أديرونديك ، التي هي عبارة عن كتلة متقدمة من الجبل الكندي بجنوب نهر لوران . وفي هذه المنطقة تنفتح الممرات الرئيسية عبر هذه السلسلة التي وسّعها حت الأنهار والجوديات الرباعية ، مثل وادي كونكتيكوت ووادي هدسن الذي يمتد شمالاً بحفرة شامبلان ، وفي الغرب بواسطة وادي موهاوك المؤدي لبحيرة إيريه .

وسواء أكان الساحل يلامس الجبل أو السهل ، فإنه يبدو ساحلاً شديداً التقطيع ، تنفتح فيه مصبات خليجية عميقة (مثل وادي هدرن) التي تصبح ، عبر السهل الساحلي ، عبارة عن خلجان طويلة متشعبة مثل خليج ديلاور ، وخليج شيزايك الذي لا يقل طوله عن (٢٠٠) كم وتؤلف بذلك مواقع رائعة لقيام الموانئ الممتازة .

وهي منطقة قاسية من ناحية مناخها الشديد البرودة بالشتاء ، والمصحوب بعواصف ثلجية مفاجئة وعنيفة ، وحار جداً صيفاً حيث تسود أحياناً ، وخاصة على الساحل ، حرارة رطبة شبه مدارية . وتكثر بالمنطقة الغابات المؤلفة من مخروطيات بالشمال الشرقي ، ومن أشجار بلوط وكستناء وحوار بالجنوب الغربي ، وتقطعها البحيرات والأنهار وحيث لم تستطع الزراعة أن تحتل الأراضي المتوسطة الخصوبة إلا بصعوبة كبرى .

ولكن سواحل المنطقة هذه كانت أقرب المناطق في أمريكا إلى أوروبا ، وهنا نزل في عام ١٦٢٠ أوائل المعمرين . وهنا استقرت وتشبثت أول « جمعية من المتطهرين » ، التي استطاعت بفضل روحها التقية والعملية ، وبفضل قوة إرادتها وتعشقها للحرية أن تمنح العبقريّة الأميركية بعض صفاتها الثينة وأكثرها خصباً . إذ وجب الأمر وجود عرق من الرجال الأقوياء والشديدي التنظيم ، للتغلب على المصاعب واستغلال الموارد ولجعل تلك المنطقة من العالم بؤرة حضارية حقيقية في القرن العشرين . وهكذا تؤلف هذه المنطقة المجال الرئيسي الحضري والصناعي والتجاري في الولايات المتحدة .

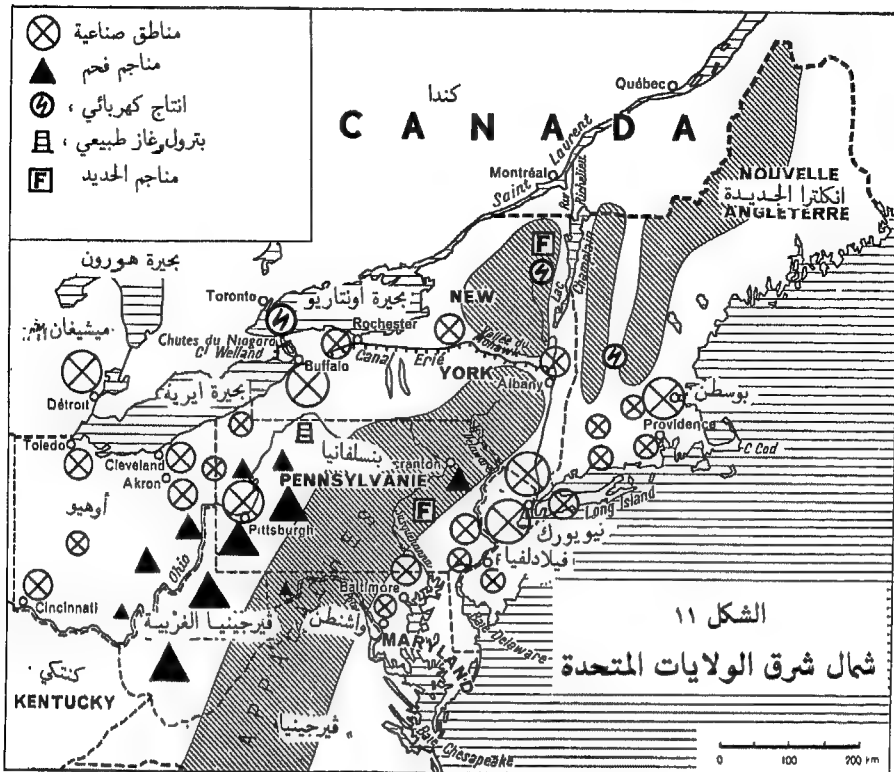
موارد المنطقة : تبدو موارد المنطقة المذكورة متعددة . فنذ قرن مضى أخذ الريف يفقد سكانه تدريجياً لفائدة المدن الساحلية . وترك الناس زراعة الحبوب التي هاجرت نحو الجنوب ونحو السهول الغربية فتخصصت المنطقة في تربية الماشية الكبيرة لإنتاج الألبان كما اهتمت بزراعة البستنة (الخضار) .

وإذا كانت الأرض هنا قليلة الخصب فإن البحر المجاور الذي تختلط فيه مياه تيار الخليج وتيار لابرادور ، يحتوي على ثروات لا ينضب معينها : كالأسماك الطرية ، وسمك المورو والرنجة والمحار . كما تقدم الخلجان ومصبات الأنهار ملاجئ ممتازة بالنسبة للملاحة . وقد نتجت ثروة نيويورك وفيلادلفيا وبوسطن من التجارة البحرية ، ولا زالت هذه الموانئ اليوم أكبر موانئ الولايات المتحدة . وتؤلف الوديان عبر جبال الأبلاش مروحة من طرق مؤدية إلى بلاد الغرب . وهكذا أصبحت تلك الواجهة الأطلسية باب دخول للبلاد والمنفذ الجوهري لحاصلات المناطق الوسطى .

وأضيفت إلى موارد التجارة هنا موارد الصناعة بفضل الرساميل المتكدسة بواسطة التجارة البحرية ، وبفضل موارد الغابات والقوة المحركة لأنهار الجبل أو خط الشلالات Fall Line ، وبفضل حوض فحم الانتراسيت قرب سكرانتون في قلب الأبلاش ، وحوض الفحم البيتوميني الواقع على الطرف الآخر من الجبل ، وقامت هنا الصناعات التحويلية المتنوعة جداً ، والمشهورة بجودة صناعتها مثل صناعات نسيج القطن والصوف والحرير ، ومصانع الألبسة والأحذية ، ومعامل قاطرات الخطوط الحديدية وشاحناتها ، وترسانات بناء السفن ، ومختلف الصناعات الميكانيكية وماكينات النسيج وآلات الكتابة والحساب وأجهزة التصوير والراديو والتلفزيون والأسلحة والساعات الخ ..

وتتصف هذه المنطقة بكثافة سكانها نظراً لأنها كانت أول منطقة أمريكية تطوَّرها أقدام غالبية المهاجرين الأوروبيين . فهي تحوي أشد الكثافات البشرية في أمريكا . ويبدو أنها لا تمثل سوى رأساً متقدماً باتجاه الشرق ، تزيد مساحته قليلاً عن (٤٠٠٠٠٠) كم مربع أو (٦ ٪) من مساحة البلاد ، ولكن يتركز فيه (٦٠) مليون من السكان أو حوالي ربع سكان الولايات المتحدة الذين بلغ عددهم ٢١٨,٤ مليون في ١٩٧٧ ويقاربون حالياً ٢٣٢ مليوناً .

وتشتد الكثافات فوق مناجم فحم الأبالاش ، وفي المنخفض المؤلف من وادي الموهاوك حتى بحيرة إيريه ، فوجد مدناً هامة مثل ، أوتيكا ، روشستر ١ مليون ، سيراكوزة ٦٥٠.٠٠٠ نسمة ، وعلى طول الساحل الممتد بين واشنطن ٣ ملايين نسمة ومدينة بورتلاند (١ مليون) (ولاية ماين) . وكل هذه المدن المذكورة ، عدا واشنطن ، التي هي عاصمة سياسية واقعة على التخم الفاصل بين الشمال والجنوب ، يقارب سكانها المليون ، هي عبارة عن موانئ ومراكز صناعية وتجارية من الدرجة الأولى ، وخاصة بالتبوير ٢,٢ ملايين وفيلادلفيا وعدد سكانها (٥,٦) ملايين ، بوسطن ٣,٦ ملايين ونيويورك ١٦,٧ مليون نسمة (شكل ١١) .



ولانجد بالعالم مدينة كمثل المدينة الأخيرة تطورت بسرعة واحتلت مكانة رفيعة في شق الميادين . وتقع في صدر خليج فسيح وتبعد عن عرض البحر حوالي (٣٥) كم ، أي في موقع رائع عند مخرج وادي الهدسن حيث تهيم وتشرف على أهم طريق يوصل إلى السان لوران والبحيرات الكبرى . وتلعب دور عاصمة في كل المجالات باستثناء الوظيفة السياسية .

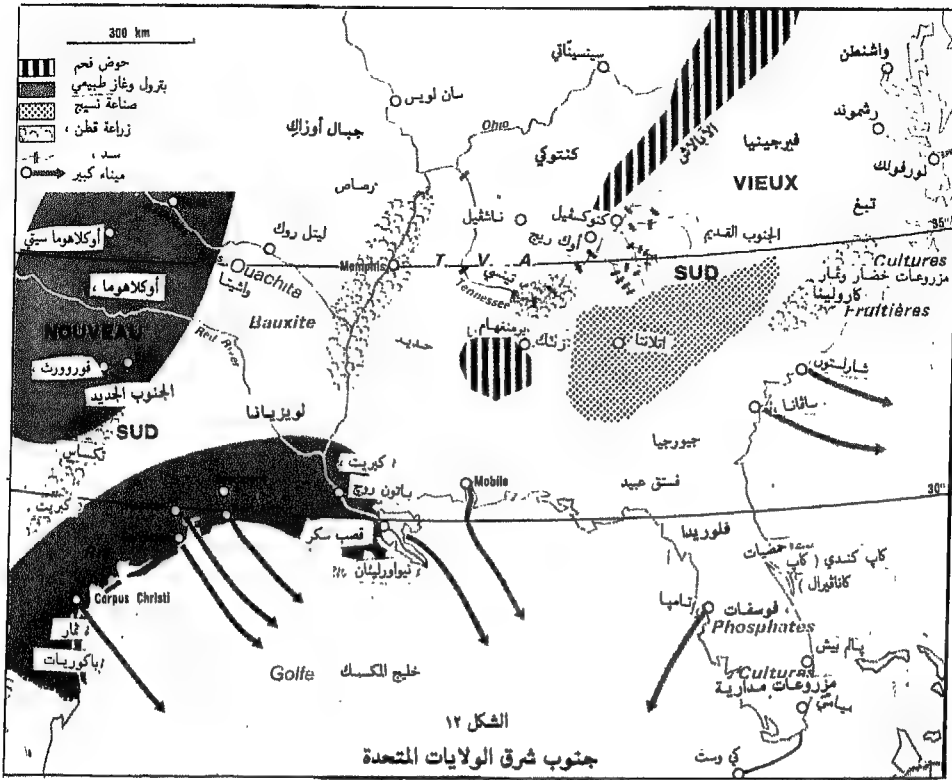
فهي عاصمة اقتصادية من حيث كثافة طرقها البرية والحديدية والنهرية والخطوط الجوية التي تتلاقى فيها ، وبمبناها الذي يعتبر بحق أهم ميناء بالعالم (حوالي ١٦٣ مليون طن بضائع بالسنة و ٣٣ مليون طن من مشتقات النفط وتدخلها سنوياً أكثر من ١٠٠٠٠ باخرة) . والذي انتزع من لندن وظيفتها السابقة ، بحسبانه أول عنبر للبضائع . وهي عاصمة صناعية بفضل معامل الصناعات الحديدية والكماوية والنسيجية والغذائية ، وبمصانعها المتنوعة النشاط جداً . وهي عاصمة ثقافية بجامعاتها إذ فيها أكبر جامعتين في أمريكا . وبمتاحفها ، ومكتباتها ومسارحها ودور السينما . وهي تطمح أن تكون عاصمة العالم ، لاسيا بعد أن آوت إليها منظمة هيئة الأمم المتحدة .

وفي ١٨٥٠ كان عدد سكانها نصف مليون نسمة ، وبعد قرن واحد بلغ (٧,٥) ملايين ، كما أنها أصبحت تضم مع ضواحيها في العام نفسه (١٢) مليوناً . وقد قامت بالبدء عام ١٦٢٩ فوق جزيرة مانهاتان ، التي أصبحت اليوم بؤرة ناطحات السحاب وحي الأعمال ، ثم أخذت أحيائها الصناعية وأحياء السكن فيها تتمدد حسب خطوط المترو الهوائي والأرضي وبفضل الجسور وعددها (٧) والأنفاق وعددها (١٧) ، ولاسيا التي تمر من تحت ومن فوق نهر الهدسن وإيست ريفر ، والتي يزيد طول بعضها أحياناً عن الكيلو مترين وبفضل السفن والسفن الناقلة للقطارات إلى أن أصبحت مع أحيائها تشغل رقعة تعادل ثلث لبنان .

ب - الجنوب :

وتكون تضاريسه متنوعة لأنه ليس عبارة عن سهل منسجم . ويؤلف وادي الميسيسيبي اللحقي محوره ، والذي يبلغ عرضه (١٠٠) كم ، والذي تجري فيه الروافد الموازية للنهر المذكور مسافة طويلة قبل أن تصب فيه ، وذلك في تيه من العصائب الجانبية والمنخفضات والبحيرات والمستنقعات . وفي شماله تنتصب تلال الأوزارك وسلسلة الأبلاش (شكل ١٢) .

وفي الشرق تنخفض هذه السلسلة باتجاه السهل الساحلي ، على شكل هضبة تدعى هضبة البيدمونت ، والتي تحتازها الأنهار الغنية بالمساقط المائية (وتسمى المنطقة خط الشلالات) على شكل وديان عميقة . وأخيراً على الحاصرة الجنوبية الشرقية من السهل نجد شبه جزيرة مؤلفة من صخور كلسية ملتصقة بحجم



الجنوب ، وهي ذات أرض متشققة حيث تظهر فيها الأغشية المائية الكارستية على شكل بحيرات في المناطق المنخفضة . وعلى الساحل الشرقي المعرض لموجات الأطلسي العاتية ، نجد جبلاً ساحلية تضم خلفها لاغونات متطاولة (بحيرات ساحلية مالحة المياه) ورصيف من المرجانيات يمدد شبه الجزيرة المذكورة بمقدار (١٥٠) كم باتجاه كوبا .

وتزيد حرارة المناخ تدريجياً باتجاه الجنوب ولكن موجات البرد الشتوية تؤدي لتخفيض ميزان الحرارة فجأة ، ولا ينجو من الصقيع سوى شبه جزيرة فلوريدا . وتسود الرطوبة الثقيلة في كل مكان هنا وتضفي أمطار الربيع والصيف على هذه المنطقة طابعاً شبه مداري .

وقد استطاعت طبقة أرستوقراطية بيضاء مؤلفة من كبار المزارعين ، والتي كانت تستخدم الزوج الرقيق أن تهين مدة طويلة على الجنوب . ولكن بعد إلغاء الرق وحرب الانفصال ١٨٦٠ - ١٨٦٥ ، تجزأت المزارع وأصبح الزوج عمالاً زراعيين أو ملاكين صغار . ويبلغ عددهم اليوم أكثر من ٢٣ مليون ويمثلون ٣٠ وحتى ٦٠ بالمئة من مجموع السكان في بعض المناطق ، وتعتبر المشكلة الزنجية « صدام » الولايات المتحدة ، ولا يعرف الزوج طريقة للتخلص من هذا التمييز ، اللهم إلا إذا حدث تطور في العقلية يقبل التهجين ، أما لجوؤهم إلى الملائكة أو إلى الموسيقى الجاز فلا يسمح لهم بالانعتاق من عقدهم النفسية ومعاناتهم لمركب الخطيئة .

لقد كان عنده ابن يحبه حباً جماً . غير أن هذا الولد لم يلبث أن توفي ، فقرر أن يذهب به ليدفن هذا الجسم الصغير في الشمال ، حيث تكون النزاعات العرقية أخف حدة : « بينما كنا نعلمه إلى المحطة كان الرجال والنساء يتزاحون بالنواكب ، شاحبي الوجوه ، في قلب المدينة الصاخب ، وكانوا يلقون علينا نظرة عجلى قائلين : « إنهم زنوج ... وفي خلال كل الوقت الذي أعقب ذلك ، كان قلبي مبتكراً بفرح شنيع . لا تلوموني ... فقد كانت نفسي لا تنفك تهمس قائلة لي : إنه لم يميت ، نعم ، إنه لم يميت ، ولكنه نجا ... لم يعد مكبلاً ، بل أصبح حراً طليقاً »

(أدوين امبري Against the odds) .

وقد ظل الجنوب مدة طويلة زراعياً بالدرجة الأولى ، فكان يقدم الحاصلات المدارية قبل كل شيء . ونمى ابتداء من الشمال أربع مناطق متتابعة :

أولاً - نطاق التبغ : ويقع رأساً جنوب نطاق الذرة ولكن إلى الشرق من نهر الميسيسيبي فقط في ولايات كنتوكي ، وتينيسي ، ولاسيا ماريلاند وفيرجينيا . ويكون الإنتاج كبيراً لدرجة يعادل ٢٠ مرة إنتاج فرنسا من التبغ ، وتصدر الولايات المتحدة نصف محصولها على شكل تبغ أوسكائر .

ثانياً - نطاق القطن : ويمتد من كارولينا ومن جورجيا حتى التكساس ، حتى أصبحت الولايات المتحدة بفضلها أكبر منتج بالعالم . ولما كان مجال القطن يتسع تدريجياً نحو أراض يتزايد جفافها فقد اكتسب صفة مقاومة الحشرات والطفيليات ، ولكن مردوده ونوعيته في تناقص . وهكذا تنتج الولايات المتحدة أليافاً من النوع المتوسط تقع بين الأنواع المصرية الممتازة والأصناف الهندية الرديئة . وهناك عوائق عديدة تضر بالإنتاج مثل تعرض المحصول للحشرات وقلة الأمطار التي قد تخفض المحصول إلى النصف ، والأسعار العالمية التي قد تتفاوت بنسبة ٣ إلى ١ وهكذا أدت زراعة القطن الوحيدة في الجنوب إلى بؤس كما أوجدت غنى . ومنذ ١٩٣٠ تناقصت المساحات المزروعة قطناً بنسبة ٣٥٪ لفائدة زراعة فستق العبيد وزراعات الخضار ومزارع الخوخ والشمش . ولكن لاتزال الولايات المتحدة تنتج أكثر من ٤٠٪ من قطن العالم أو ٢,٢ مليون طن من الألياف و ٣,٥ مليون طن من بذرة القطن كما لاتزال أكبر دولة مصدرة له .

ثالثاً - وعلى حافة ساحل خليج المكسيك تمتد حقول الرز ، ٥,٢ ملايين طن وقصب السكر .

رابعاً - فلوريدا وتمتلك مزارع واسعة للأناناس ، فضلاً عن حقول واسعة شاسعة تنتج مقادير هائلة من الحمضيات (الموالح في مصر والقوارص في تونس) ، وخاصة الليمون والبرتقال والكريفون .

هذا وتحتاج غابات الصنوبر كل منطقة الجنوب الواقعة إلى الشرق من الميسيسيبي . وبعد أن تفصد الشجرة كي تعطي الراتنج إلى أن تموت ، يقطعها الحطابون والعاملون في نشر الأخشاب . وهذه الصناعة تؤدي إلى استنزاف الغابات بسرعة ، حيث يستخرج منها الراتنج الذي يقطر ليعطي روح التربينين .

الصناعة بالجنوب : لقد انتبه صناعيو الشمال إلى الفائدة الكامنة والتي يمكن استخدامها بالجنوب نفسه ، وخاصة الموارد الأولية فضلاً عن اليد العاملة الزنجية الرخيصة . وهكذا قفز الإنتاج الصناعي قفزات جبارة منذ نهاية القرن الماضي في هذه المنطقة . ففي أسفل هضبة البيدمونت تستثمر مساقط المياه من أجل غزل ونسج القطن ، وهكذا أصبحت أتلانتا عاصمة هذه الصناعة المبعثرة على شكل معامل صغيرة ومتوسطة ، ابتداء من كارولينا حتى آلاباما . وفوق مناجم الحديد والفحم المتقاربة عند النهاية الجنوبية لجبال الأبالاش ولدت مدينة هامة تعدينية اتخذت اسم بيرمنغهام ، ٨٠٠٠٠٠ ، نسمة وهو اسم شقيقتها البريطانية الكبرى . أما على ساحل الخليج فقد تضاعف عدد الترسانات البحرية . هذا كما يستخرج من فلوريدا أكبر كمية من الفوسفات بالعالم ، كما يستثمر الكبريت من لويزيانا وفي التكساس والبوكسيت من جبال اوزارك ومن الأبالاش الجنوبية .

أما في غرب الميسيسيبي ، من الكنساس إلى خليج المكسيك ، فقد أدى البترول إلى جذب عنيف للسكان مماثل ما أحدثه الذهب بالماضي ، فقامت مدن جديدة مثل تولزا ، وهي المقر العام للشركات البترولية والتي تضم حالياً أكثر من ٥٠٠٠٠٠ نسمة ، في حين لم يكن بها أحد عام ١٩٠٠ ، ومدينة أوكلاهوما سيتي وفيها ٧٥٠٠٠٠ نسمة وقد تزايد سكانها أكثر من ٣٥ مرة منذ مطلع القرن الحالي . ففي عام ١٩٠٠ اكتشفت طبقة من البترول على عمق ٢٠٠٠ متر تحت المدينة ، وبعد قليل أصبحت أرض المدينة مثل الغربال ، وحتى في أواسط أعرض الشوارع

المؤدية إلى قلب المدينة . وهكذا كانت البلدة تحتوي عام ١٩٥٠ (١٣٠٠) بئر مع أبراجها المعدنية . ويرسل البترول للمصافي الجبارة على الساحل . ولكن القسم الأعظم يرسل بواسطة الأنابيب إلى الولايات في الشمال الشرقي . وهكذا يقدم الجنوب ٦٠٪ من إنتاج البترول في البلاد .

وقد أعطت تجارة القطن لهذه المنطقة فعالية بحرية كبرى في حين انحطت موانئ الساحل الأطلسي ، مثل شارلستون وسافاناه . بيد أن موانئ الخليج الأحسن تجهيزاً تعتمد على موارد وفيرة للتصدير ، وهكذا أصبحت تامبا ميناء الفوسفات ، موبيل : ميناء القطن ، وأصبحت هوستون ٢ مليون نسمة والتي تبعد عن البحر بمسافة ٨٠ كم ومينائها غالفستون مهتمتين بتصدير القطن والكبريت ولاسيما البترول نحو نيويورك وفيلادلفيا . لكن مدينة نيواورليان تظل العاصمة السياسية والاقتصادية للجنوب وفيها ١,٥ مليون نسمة . وينافس سوق القطن فيها سوق نيويورك أو ليفربول . أما مينائها الذي يبعد مسافة ١٧٠ كم عن البحر فيصدر القطن والحبوب والبترول ويستورد السكر والبذور الزيتية والقهوة والنترات .

وقد اختار الأميركيون الأثرياء منذ ١٩٢٥ فلوريدا كبلد سياحة شتوية ، وبذلك نالت كل من ميامي ٢,٣ مليون نسمة وبالم بيش شهرة عالمية . وقد تمكن مهندس أميركي أن يصل بين الجزر المرجانية المتناثرة باتجاه كوبا ، بواسطة جسور من الإسمنت المسلح فوق طريق (فريد من نوعه بالعالم من حيث تقدمه في البحر) حتى جزيرة كي وست وهي ميناء يتجه نحو كوبا وميناء صيد إسفنج وسلاحف وقاعدة بحرية بمثابة قاعدة جبل طارق .

ج - منطقة الميدل وست :

ينحصر سهل الميدل وست بين نهري ميسوري وأوهيو على شكل هلال واسع حول البحيرات الكبرى .

فقد تركت المجموديات الرباعية فيها سلاسل تلال من المورينات ، كما حفرت وعمقت فيها حوضات البحيرات الكبرى ، وبذلك أوجدت على حافتها جروف الضلوع الكلسية (الجالات) التي يجتازها مصرفا البحيرة العليا وبحيرة إيرييه ، على شكل شلالين هما سولت سانت ماري وشلالات نياغارا . ويكون المناخ هنا عسيراً ، شديد البرد بالشتاء ، وحاراً جداً بالصيف ولكنه يتلطف بجوار البحيرات الكبرى التي تلعب دوراً معدلاً وكأنها بحر صغير داخلي . وكانت غابة المخروطيات في الشمال وذوات الأوراق بالجنوب تستر كل هذه المنطقة الجديدة التي نهضت منذ أواسط القرن الماضي نهضة جبارة بفضل استصلاح الطرق المائية ومد الخطوط الحديدية . ويعتبر الميدل وست أكبر منطقة زراعية بالاتحاد . وينقسم إلى ثلاثة نطاقات متميزة بوضوح :

أ - نجد حول البحيرات الكبرى نطاق الشوفان والعلف المزروع المخصص لتربية الماشية بشكل كثيف ، سواء من أجل الذبح أو من أجل إنتاج الحليب والزبدة والجبن .

ب - وإلى الجنوب من ذلك أي بين ذراعي الميسوري والأوهيو يمتد نطاق الذرة حيث يكون الصيف حاراً ورطباً . وبعد أن يتم قطاف عرائيس الذرة في تشرين الأول والثاني يعمد المربون إلى إدخال أبقارهم كي ترعى سوق الذرة . وتستخدم حبوب الذرة لتسمين الخنازير . وهنا تتزايد زراعة الصويا تدريجياً .

ج - أما القمح فقد هاجر نحو المناطق الغربية الأكثر جفافاً ، وهنا نجد نطاق القمح الذي ينقسم إلى شطرين : شطر شمالي (أي داكوتا الشمالية والجنوبية) ، حيث يكون الشتاء قارساً جداً فلا يسمح إلا بزراعة القمح الربيعي ، وشرط جنوبي (كانساس وأوكلاهوما) ، حيث يمكن زراعة القمح الشتوي . وهنا يأتي المزارعون بقمحهم إلى الصوامع (سيلو) وهي مخازن شيدتها شركات الخطوط الحديدية أو مؤسسات تجارية قرب المحطات .

الصناعة في الميديل وست : يعتبر الميديل وست منطقة صناعية من الطراز الأول . وإذا كان بترول المنطقة قد نضب معينه فإن العامل الكهربائية المقامة بجوار نياغارا وعلى نهر الميسيسيبي الأعلى تقدم الكهرباء الوفيرة . كما أن هضاب السفح الغربي لجبال الأبلاش تملك مكن فحم واسع يمتد على مسافة (٢٠٠) كم ، أي من بنسلفانيا حتى آلاباما . وهنا تجد طبقات سمكة تتراوح بين متر ونصف و (٢) أمتار ، ومنتظمة تتتابع بلا صدع على مسافة تتراوح بين (٨٠ وحتى ١٠٠) كم . ويمكن استغلال هذه الطبقات بسهولة من سفوح الوديان التي يكفي حفر أنفاق مائلة نحو الخارج فيها لتسهيل تصريف المياه وتفريغ الفحم وتم عمليات الاقتلاع ميكانيكياً والنقل كهربائياً ، وهكذا يتم إنزال الفحم مباشرة من فوهة المنجم إلى الباخرة النهرية أو إلى عربات القطار . وبذلك يكون مردود عامل المنجم في أمريكا أعلى مردود بالعالم فيتراوح بين (٥ أو ٦) طونوات باليوم ، أي ما يعادل (٤) مرات مردود العامل البريطاني و (٥) مرات مردود العامل الفرنسي ، والإنتاج السنوي الذي يبلغ (٦٠٠) مليون طن وهي ثاني منتج بعد الصين يحتوي على كل أصناف الفحم الصناعي . أما في أحواض ايلينوا ، في الغرب ، فيتم الاستخراج من آبار قليلة العمق أو من مناجم مكشوفة ويبلغ حوالي (١٥٠) مليون طن بالسنة .

هذا كما تملك هذه المنطقة أهم مناجم الحديد بالعالم ، الواقعة في منطقة سلاسل من التلال على ضفاف البحيرة العليا . وهنا يستخرج نوع من الهيماتيت ، يكاد يكون نقياً ، غني جداً بالمعدن إذ تعادل نسبة غناه (٦٠ ٪) في مدرجات واسعة مكشوفة تسير فوقها خطوط حديدية ، وتعمل هناك جرّافات جبارة من أجل تحميل العربات التي تهبط نحو الموانئ التي يعتبر ميناء دولوث أهمها .

أما الطريق الملاحي فوق البحيرات الكبرى فيسمح بنقل كثيف لفلزات الحديد نحو الفحم ، مما ساعد على نمو الصناعة التعدينية الثقيلة بجنوب

البحيرات ، وخاصة في بيتسبورغ (٢,٥) مليون نسمة الملقبة بعاصمة الفولاذ وفي بوفالو (١,٤) مليون نسمة وكليفلند (٢,٢) مليون وديترويت التي تسمى عاصمة السيارات بفضل معامل فورد وجنرال موتورز الضخمة ، ويزيد سكانها عن (٤) ملايين وغاري وشيكاغو وتضم ٧,٧ ملايين نسمة . هذا وتنتج الصناعات الميكانيكية إنتاجاً ضخماً من السيارات والطائرات في منطقة ديترويت وتجهيزات السكك الحديدية والمكائن الزراعية في شيكاغو وميلووكي وفيها مليون ونصف نسمة وسانت لويس ، التي تضم (٢٥٥٠.٠٠٠) من السكان ، وتعتبر شيكاغو أهم مدينة في الميدل وست . فيألى جوار أرصفة الميناء ، القائمة على ضفاف بحيرة ميشيغان والتي تستقبل الفحم والبترول والفلزات والأخشاب والحبوب ، تتعاقب معامل صهر الفولاذ ومصافي النفط والمطاحن ومعامل الورق . وشيكاغو هي أول عقدة للخطوط الحديدية وأهمها . فهي تقوم بوظيفة سوق كبير للحاصلات الزراعية وعاصمة لحم (مجازر ومعامل معلبات) ، وبوظيفة مركز تجاري وصناعي متزايد الأهمية .

هذا ويمتد معمل فورد في مدينة ديترويت على مساحة تزيد عن (٥٠٠) هكتار ويستخدم حوالي (٦٥٠٠٠) عاملاً . ويضم هذا المعمل أفراناً عالية ومصانع فولاذ وصفائح حديدية ومصاهر ومعامل زجاج ومركزاً كهربائياً فضلاً عن سلسلة من المعامل التي تنتج كل لوازم السيارة . وقد كانت هذه المؤسسة مدرسة لأنجع طرائق الإنتاج الصناعي .

أما الصناعات الكيماوية فتصفي البترول وتصنع الأسمدة في كليفلند وشيكاغو ، والمطاط الطبيعي والاصطناعي في آكرون وكليفلند . هذا وتتنوزع الصناعات الغذائية في كل أنحاء الميدل وست ، وهكذا تعتبر سان بول وفيها (١,٥) مليون نسمة ومينابوليس وفيها أكثر من مليون عاصمتي الدقيق ، وكانساس سيتي وفيها مليون نسمة ، وسان لويس وسكانها أكثر من (٢,٥) مليون

وشيكاغو عاصمتي اللحم البقري ولحم الخنزير الناتج عن حيوانات تربي على مستوى الصناعة الكبيرة .

وأخيراً ليس هناك من مدينة كبيرة أو صغيرة إلا وتملك معملاً لإنتاج الأدوات الزراعية ، ومعمل قرميد ، ومصنع للسجاير ومطحنة ومعمل صابون الخ . .

هذا ويتصف الميدل وست بأنه منطقة ذات كثافة سكانية متوسطة ومدن كبرى لأنه يلعب ، بصفته عبر الولايات المتحدة وبؤرة صناعية كبرى ، دوراً عظيماً في الحياة الاقتصادية وفي الحياة السياسية أيضاً لأنه يصوّت تارة لجانب الديموقراطيين وتارة لجانب الجمهوريين فيؤدي لترجيح الميزان الانتخابي . وإذا كانت مساحة المنطقة تعادل (٢٠ ٪) من الولايات المتحدة ، فإن السكان يؤلفون (٣٣ ٪) من المجموع أي كثافة تعادل (٥٥) نسمة في الكيلومتر المربع . ولكن المنطقة جيدة العمران حتى في المناطق التي تتفوق فيها الفعالية الزراعية فنجد أن المدن قد اتخذت أهمية كبرى على ضفاف البحيرات وعند المواصلات الرئيسية النهرية والأرضية على نهري الأوهيو والميسيسيبي ، وعند تخوم الميدل وست مع السهول العليا مثل مدينة أوماها ومدينة كانساس سيتي . وعلى كل نجد هنا حوالي (٦٤) مدينة في كل منها أكثر من (١٥٠.٠٠٠) نسمة منها (١٠) مدن تزيد عن نصف مليون مثل بوفالو ، وكليفلند ، وميلووكي الواقعة على ضفاف البحيرات وبيتسبورغ على الأوهيو ، وسان لويس والمدينتين التوأمتين مينابولس وسان بول على نهر الميسيسيبي . وهناك مدينتان تتجاوزان المليون هما ديترويت وشيكاغو التي تعتبر عاصمة الميدل وست والتي قفز عدد سكانها من (٤٠.٠٠٠) إلى أكثر من (٧) ملايين في خلال مدة (١٣٥) سنة .

د - السهول العليا أو الفاروست (الغرب البعيد) :

تعتبر السهول العليا امتداداً للميدل وست حتى سفوح جبال الروشوز .

وابتداء من خط الطول (٩٩) نحو الغرب يتلو السهول منطقة هضاب تتزايد ارتفاعاً من (٣٠٠ حتى ١٨٠٠) م ، وكأنها منحدر لطيف حتى جبال الروشوز . وهنا يشتد برد الشتاء إذ تهبط الحرارة حتى (- ٢٠ أو - ٣٠) درجة ما عدا حافة جبال الروشوز ، حيث تهب رياح الشينوك الساخنة فترفع الحرارة في أواخر الشتاء وفي مطلع الربيع . وتكون فصول الصيف حارة فترفع درجة الحرارة فيها وسطياً حتى (٢٥ °) . وتأخذ الأمطار بالتناقص تدريجياً حتى يصبح الغطاء النباتي عبارة عن عشب قصير سهبي يستر الهضاب . ويؤدي الجفاف إلى تخريب مناطق برمتها ، وعندما أخضعت الأرض للزراعة هنا أضحت الرياح العنيفة تثير الغبار وتحمل التربة الزراعية الجافة كي تحول الأراضي إلى حقول مقفرة جرداء أو ما يسمى (bowl dust) . وهكذا تجد هنا صحارى حقيقية تسمى الأراضي الرديئة (بادلاندس) تتألف من كتل من الصخور الكلسية المارنية التي تجزأت إلى تلاع وإلى أهرامات وإلى خشوم وإلى مسلات تكون قاعدتها على شكل مصاطب متعاقبة .

وتعتبر السهول العليا مجال التربة الواسعة للماشية ذات القرن والأغنام قبل كل شيء . لكن زراعة الحبوب والنباتات العلفية تزدهر فيها بفضل أساليب الزراعة الجافة (دراى فارمينغ) ، التي تقضي بحراثة الأرض وعزقها بعد كل زخة مطر ، بحيث تتسرب الرطوبة للتربة وكيلا يتشكل على سطحها قشرة قاسية أو شقوق تلائم التبخر . ونجد هنا أنهاراً عديدة تغذيها ثلوج الجبال الصخرية وتجري في وديان عريضة أخضعت للزراعة بفضل الري وأصبحت خصيبة تنتج الحبوب والعلف والشوندر السكري .

ويسود في السهول العليا انطباع العزلة والوحشة ، لأن كل مزرعة تبعد عن الأخرى أكثر من (٣٠) كم وكلها تتأثر بصوامع قمحها المبنية على شكل أسطوانات جبارة ، وبمخطائر ماشيتها ، وبمعاملها الصغيرة التي تصنع اللحوم المحفوظة ، ونجد بين منطقة وأخرى مدينة يتراوح سكانها بين (٥ حتى ١٠) آلاف نسمة عدا مدينة

هامة وحيدة هي دنفر (١,٣) مليون نسمة ، وهي مدينة تماس عند أقدام جبال
الرشوز تؤلف مرحلة على طريق الباسفيكي .

هـ - الجبال الغربية :

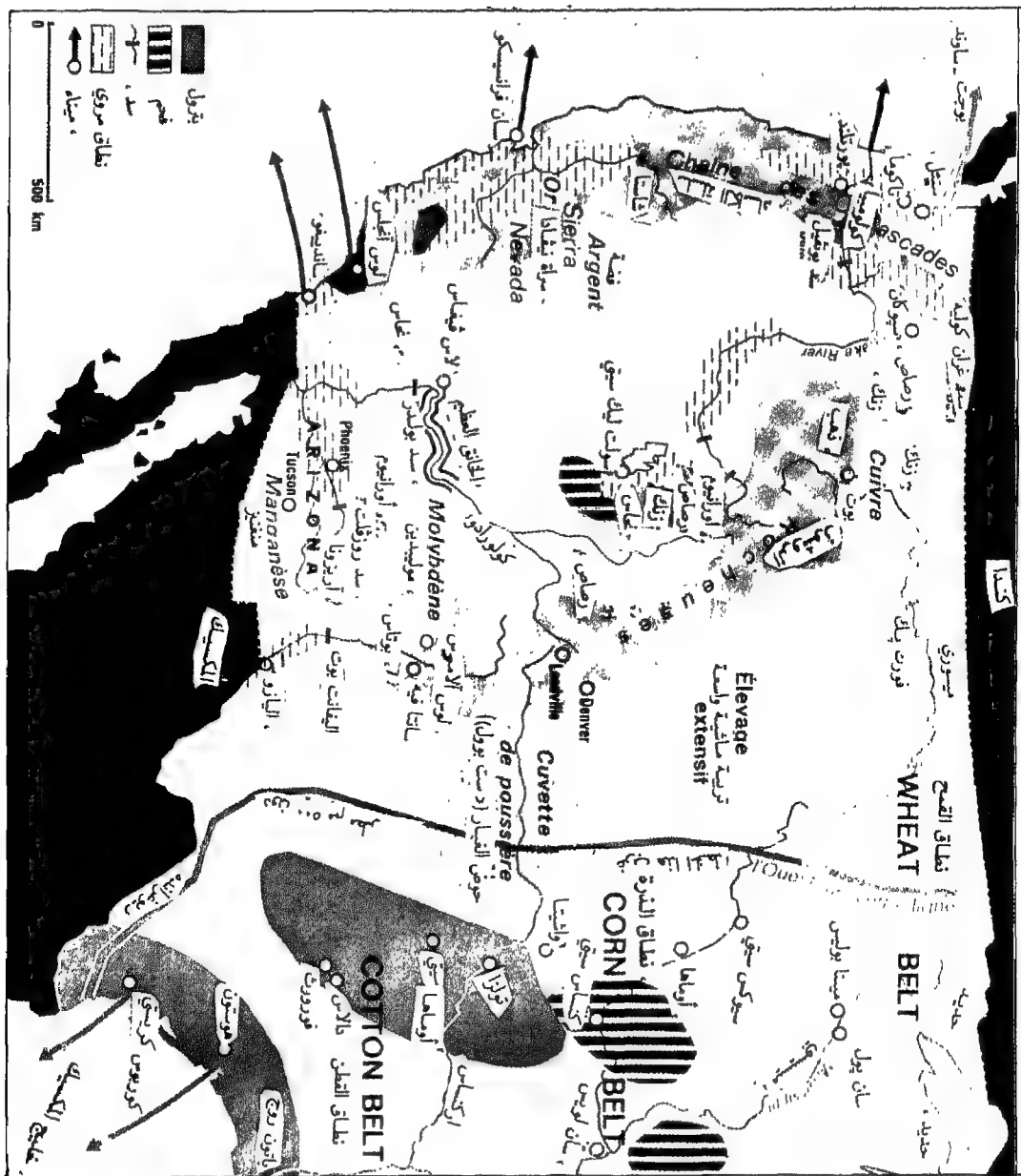
تؤلف الجبال الغربية منطقة العقبات الكبرى المعادية للإنسان . فعلى
مساحة قدرها (٢,٥) مليون كم^٢ أي تعادل مساحة شبه جزيرة العرب كلها
لا نجد سوى (١٠) ملايين نسمة . وتتألف العقبة الكبرى من سلاسل جبلية
متتابعة على مسافة (١٥٠٠) كم عرضاً ، واقعة بين السهول العليا وبين المحيط
الباسفيكي . وهناك عقبة المناخ أيضاً لأن قحولة الهضاب الداخلية تتزايد باتجاه
الجنوب الغربي حتى الوحشة الصحراوية .

ورغم كل شيء فقد استطاعت مناجم الذهب والفضة المبعثرة في كل الأمكنة
ومناجم النحاس في ولايات مونتانا ، أوتاه ، أريزونا ، ومناجم الرصاص
والتوتياء في نيفادا وأريزونا أن تجذب الناس . وبغية تأمين أقاتهم وجب اللجوء
إلى ري الأراضي أو ممارسة الزراعة الجافة . (شكل ١٣)

ويمكن تمييز ثلاثة نطاقات هامة :

١ - عند أقدام السفح الغربي لجبال وازاتش ، في شمال و جنوب بحيرة سولت
ليك سيتي . تمتد على مسافة (٣٠) كم واحدة مساحتها (٣) ملايين هكتار
وهناك نفق محفور تحت الجبل من أجل جر مياه الري القادمة من السفح
المقابل .

٢ - بالجنوب ، في أريزونا ، يملك وادي (جيلا) المراعي وحقول القطن
البديعة ومزارع الأشجار المثمرة والخضار . أما مياه نهر الكولورادو المجهزة خلف
سد (بولدردام) ، فقد حولت وادي الموت (Death valley) الذي ينخفض إلى
(٨٠) م دون مستوى البحر ، إلى مزارع متواصلة .



الشكل ١٣
غرب الولايات المتحدة

٢ - وفي الشمال الغربي أي في ولاية كولومبيا وفوق الهضاب البركانية الخصيبة والجافة في الوقت نفسه سمحت الزراعة الجافة بقيام حقول القمح الفسيحة ، ونلاحظ هنا القاطرات الهوائية وهي تهبط بأكياس القمح حتى الموجودة في الوديان ، التي تزيد أعماقها عن (٦٠٠) م . وأهم المدن هنا سيتل (١,٥) مليون نسمة وتاكوما ويزيد سكان كل منهما على المليون . وقامت هنا صناعة الألمنيوم والفولاذ بعد قيام سد (غران كوليه) على نهر كولومبيا الذي ساعد أيضاً على ازدهار الري وتوسيع الزراعة .

و - منطقة الباسفيكي :

على خلاف منطقة الجبال الصخرية نجد أن كل العوامل المشجعة تتجمع هنا لتجعل من الساحل الباسفيكي أحد أجمل المناطق وأغناها في الولايات المتحدة ، مثل جمال وعظمة الجبل والبحر ، وعذوبة المناخ وتنوع الموارد . ويعتبر ازدهار هذه المنطقة حديثاً . حقاً لقد حدث هنا في أواسط القرن الماضي إقبال بشري شديد على ذهب كاليفورنيا ، ولكن الازدهار الحقيقي والازدهار العام يعود للقرن العشرين ، وكان التطور سريعاً ، ابتداءً زراعياً وتجارياً ثم تحول إلى تعديني وصناعي . ولا تحتل ولايات الشرق أو الميدل وست قصب السبق في سرعة تزايد السكان بل منطقة الساحل الباسفيكي بحيث تضاعف عدد سكانها (٢) مرات بين (١٩٠٠ و ١٩٥٠) . وتعتبر كاليفورنيا أول ولاية أميركية من حيث عدد السكان .

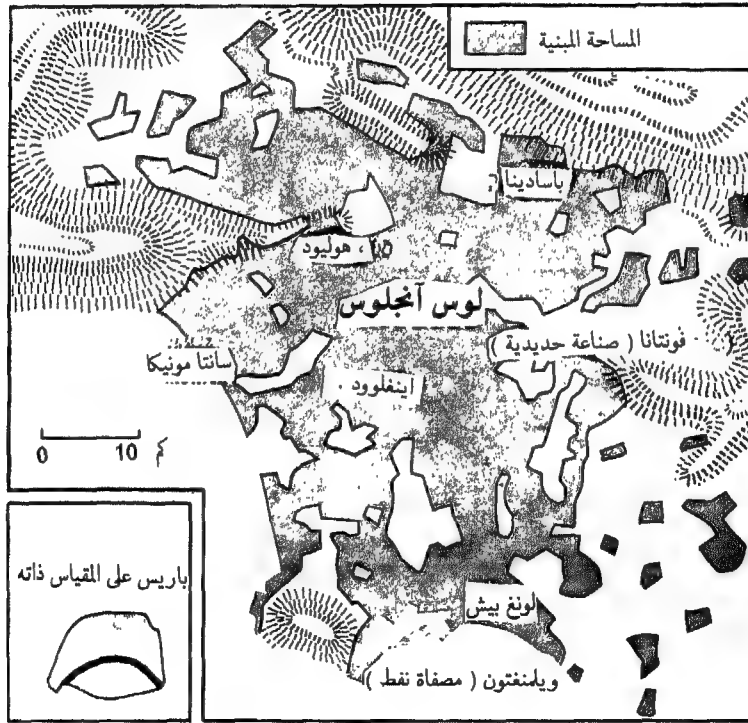
وهناك منخفض يفصل سلسلة جبال الكاسكاد عن السلسلة الساحلية ، ولكنه يغيب في الشمال ويغرق في خليج بوجت ساوند Puget Sound ، وهنا يسود مناخ محيطي ، ذو درجات حرارة متقاربة ، قليلة التفاوت وذو أمطار سخية ، فتقوم غابة رائعة من شجر الشوح والايبيسيئاً والأرز فتغطي السفوح الجبلية . أما ميناء سيتل Seattle وبورتلاند فيعيشان من صناعة الخشب ومن التجارة مع الشرق الأقصى وآلاسكا .

وإلى الجنوب من ذلك ، أي بين سلسلة سيرا نقادا وبين السلسلة الساحلية يتسع المنخفض ، لأن وادي كاليفورنيا الكبير يمتد على طول قدره (٧٥٠) كم وعلى عرض يتراوح بين (٤٠ و ٨٠) كم . ولا تستمد كاليفورنيا رخاءها من ذهبها بل من مناخها الحار المضيء والجاف ومن زراعتها المروية التي تمتد على أكثر من مليوني هكتار . كما أصبحت جنة من أعناب ومن أشجار مثمرة ، وقد استوردت فسائل التين والنخيل من إفريقيا الشمالية لزراعتها هناك . وتقوم القاطرات المبردة وحتى الطائرات بنقل الثمار الطرية نحو المدن الكبرى بالشرق ، ولكن قسماً كبيراً من الإنتاج يتوجه نحو معامل التجفيف مثل العنب والخوخ والشمش ونحو معامل المحفوظات .

هذا وتساهم حقول البترول الغنية في ثراء المنطقة أيضاً . كما أن الصناعات التعدينية والكماوية والترسانات البحرية تقوم هنا على قدم وساق . وهكذا أصبحت مدينة لوس أنجلوس مع ضاحيتها الفخمة هوليوود عاصمة العمليات المالية والسياحة والسينما ، وفيها (٧) ملايين نسمة وفيها أعلى مستوى معاشي في أمريكا لأن فيها (٣,٥) ملايين سيارة أو سيارة لكل شخصين (شكل ١٤) . ولكن سان فرانسيسكو الواقعة عند مخرج الوادي الكبير والمطلّة على الباسفيكي والحارسة لباب الذهب Golden gate الرائع ، لا تزال رغم أن عدد سكانها أقل من لوس أنجلوس عاصمة كل الساحل الباسفيكي ، فهي مدينة صناعية وميناء عظيم تشع منه التجارة الأميركية نحو الشرق الأقصى ونحو كل الباسفيكي ويسكنها أكثر من (٤,٦) ملايين نسمة .

ز - الملحقات الخارجية : آلاسكا :

وقد اشترتها الولايات المتحدة عام ١٨٦٧ من روسيا ، وتتميز بتضاريس جبلية وبموقع شمالي جداً جعلها مجال استغلالها محدوداً على صيد أسماك السومون



الشكل ١٤

لوس أنجلوس - نمط من المدن العملاقة (مينا بوليس)

واستثمار بعض مناجم الذهب والنحاس ومكامن النفط والغاز . ومن هذا كان عدد سكانها قليلاً لا يتجاوز (٣٥٠٠٠٠) نسمة منهم (٥٥٠٠٠) من الأسكيمو . وقد أدت الحرب العالمية الثانية فجأة إلى دخولها في تيارات المبادلة العامة الكبرى إذ يمر ، بواسطة ساحلها الجنوبي وجزر ألوشيان ، الطريق الجوي المتجه نحو الشرق الأقصى ، لأنه طريق أقل طولاً وأكثر ضماناً بسبب أن السماء هنا تكون أقل ضباباً من سواه ، وهكذا يمر الخط الجوي المنطلق من ادمنتون في كندا في مطاري هوايت هورس ومن فيربانكس كي يتجه نحو سيبيريا ومنشوريا .

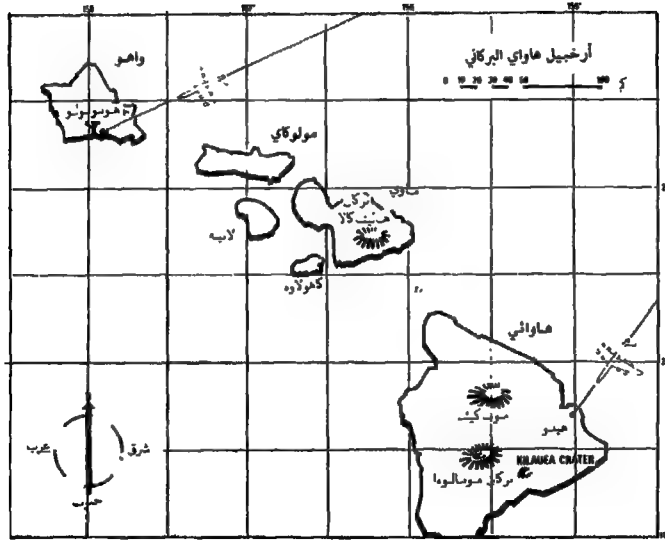
ورغبة من الولايات المتحدة في الإشراف على طرق التجارة العالمية ، فقد وضعت يدها على ممتلكات أخرى كي تجعل منها نقاط استناد بالنسبة لتوسيعها

السياسي والاقتصادي . وهكذا وجدت نفسها بحاجة إلى الإشراف على قناة بناما ، وهي طريق حيوية بالنسبة للمواصلات بين الساحل الباسفيكي والساحل الأطلسي للولايات المتحدة ذاتها . وفي عام ١٩٠٠ تنازلت دولة بناما عن منطقة عرضها عشرة أميال على جانبي القنال . وفي خلال حرب قصيرة مع إسبانيا عام ١٨٩٨ استطاعت أن تحتل جزيرة بورتوريكو ، التي يسكنها (٣,٥) مليون نسمة من أصل إسباني والتي تنتج السكر والقهوة والتبغ والفواكه . وفي ١٩١٧ اشترت من الدانمارك الجزر العذراء المجاورة . وبذلك وبفضل هذه الجزر الواقعة في وسط القوس المؤلف من جزر الآنتيل استطاعت أن تراقب مداخل بحر الآنتيل وقناة بناما .

كما استحوذت الولايات المتحدة أيضاً على قواعد ضرورية على طريق الشرق الأقصى ، فاحتلت جزر هاواي (شكل ١٥) عام ١٨٩٨ التي يقطنها اليابانيون والصينيون والفيليبينيون وعدد سكانها (٨٥٠.٠٠٠) نسمة وفي عاصمتها هونولولو (٧٠٠.٠٠٠) نسمة وتنتج مقادير ضخمة من السكر والأناناس والتي تحتل مركزاً ممتازاً في وسط المحيط الباسفيكي (فيها ميناء هونولولو وقاعدة بيرل هاربور البحرية) . كما احتلت جزر وايك وغوام عام ١٩١٨ وتعتبر مفتاح الشرق الأقصى ، وجزر صاموا وهي مفتاح أستراليا . وعلى أثر الحرب العالمية الثانية انتزعت من اليابان جزر ماريان ، بالو ، كارولين ، مارشال وضمتها إلى ممتلكاتها .

وفي عام ١٩٦٠ اعتبرت جزر هاواي ولاية ، وشبه جزيرة آلاسكا ولاية أخرى من الوطن ، وهكذا أصبحت الولايات المتحدة تتألف من خمسين ولاية ممثلة بخمسين نجمة على العلم الأمريكي .

وإجمالاً يبلغ مجموع مساحة الأراضي الأميركية في خارج الولايات المتحدة (١,٥) مليون كيلو متر مربع .



الشكل ١٥

الولايات المتحدة كدولة اقتصادية عظمى

تملك هذه الدولة (٦٪) من مساحة القارات وتضم (٦٪) من سكان الأرض . ولكنها تنتج على أرضها (٢٠٪) من قمح العالم أو (٥٨) مليون طن و (٦٦٪) من الإنتاج العالمي للذرة أو (١٥٨) مليون طن و (٣٠٪) من القطن و (٣٥٪) من الفحم الحجري و (٢٠٪) من البترول و (٣٥٪) من الحديد و (٥٠٪) من النحاس .

وإذا كانت الولايات المتحدة لا تملك بعض المنتجات بصورة كافية فذلك يعود لاستهلاكها الهائل وخاصة من الصوف والكتان والخشب ومعجونة الورق ، لأنها تستهلك (٦٠٪) من إنتاج العالم من المعجونة ، والسكر لأن إنتاجها منه لا يزيد عن ثلث الاستهلاك وحتى البترول لأن إنتاجها منه لا يزيد عن نصف استهلاكها . ولكن عندما تكون محرومة من بعض المنتجات كلياً ، فذلك يعود لأسباب مناخية محلية مثل المطاط والقهوة والكاكاو والأناناس والموز ، وهي مواد

تستوردها من الأقطار الاستوائية ، أو لأسباب اقتصادية مثل الحرير والشاي وهي من حاصلات الأقطار المزدهمة السكان كالشرق الأقصى ذات اليد العاملة الرخيصة وذلك لأن الولايات المتحدة هي قطر غني جداً ، وصناعاته وزراعته آلية واليد العاملة ذات أجور باهظة . وهكذا نجد أن الفرد الأميركي استطاع أن يحتل في كل المجالات : أي الزراعية والصناعية والتجارية مستويات معيشة لا مثيل لها بالعالم .

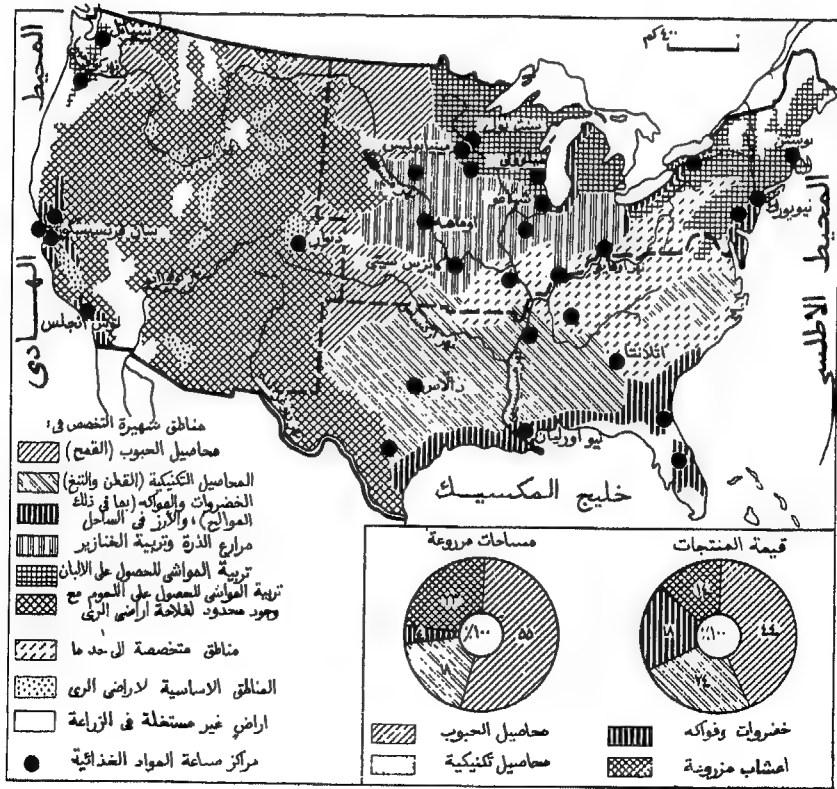
أ - الزراعة :

لا تحتل المكانة الأولى في الاقتصاد الأميركي لأن ٦٪ من السكان العاملين فقط ينصرفون إليها . ولكنها تعتبر مع ذلك أكبر دولة زراعية بالعالم يليها الاتحاد السوفياتي ، وإذا استثنينا ملكية الأرض الجماعية في الاتحاد السوفياتي ، فإن الزراعة في هذين القطرين تتصف بصفات مشتركة هي :

١ - تنتج الولايات المتحدة حاصلات المناطق المعتدلة والمناطق المدارية (شكل ١٦) ، وتكون هذه الحاصلات ، شأنها في الاتحاد السوفياتي ، ضخمة ومتنوعة بأن واحد .

٢ - غير أن المردود يكون هنا ضعيفاً لأن إنتاج القمح في الهكتار هنا لا يزيد عن (١٣) كنتالاً مقابل (٢٠) في فرنسا و (٢٦) في إنكلترا و (٤٦) في الدانمارك ، كما أن مردود القطن يبلغ كنتالين بالهكتار مقابل خمسة كنتالات في مصر ، أي أن الزراعة هنا تنصرف بمساحات هائلة ولا تزال زراعة واسعة .

لقد سخت الطبيعة على الولايات المتحدة بالوفير من التربة الخصبة ، بالإضافة إلى المناخ الذي هو في معظمه معتدل ، وتقدر نسبة الأراضي التي تزرع بـ (٦٠٪) من مساحة الولايات المتحدة القارية . ويستخدم (٢٥) بالمئة من هذه المساحة أي (١٦٠) مليون هكتار في زراعة المحاصيل كما أن نصفها يشكل



الشكل ١٦ المناطق الزراعية الرئيسية في الولايات المتحدة الأمريكية

أرض مراعى دائمة . وفي الولايات المتحدة (٤٧٥٠٠٠٠) مزرعة بمعدل (٩٧) هكتار للمزرعة الواحدة ولكن مساحة المزارع في القسم الشرقي من البلاد أصغر من ذلك بكثير . ومعظم المحصولات تغلها مزارع عائلية صغيرة يقوم بها أفراد العائلة بجانب كبير من العمل .

٣ - لقد اندفع الأميركيون نحو الميكانيكية . ففي ١٩٢٠ كان لديهم (٢٥٠٠٠٠) تراكتور و (٢٢) مليون حصان ، وحالياً يبلغ عدد الجرارات (٤) ملايين والخيول (٣) ملايين . ولا تقوم الحاصدات الدراسات (كومباين) بأكثر من قطع السنابل وتدرسها وهي سائرة . وعندما يتم حصاد الحقل توقد النار في

الحصيد ثم يعقب ذلك المحراث المتعدد السكك الذي يجره التراكثور ، وذلك استعداداً للموسم القادم .

٤ - هناك تخصص في الإنتاج الزراعي حسب المناطق . فعلى المزارع الواسعة التي تتراوح بين (١٠٠ و ٤٠٠) هـ . تصبح الزراعة زراعة وحيدة صناعية . ففي نطاق القمح تعتبر المزرعة كمعمل قح ، وفي منطقة نطاق الذرة تبدو المزرعة كمعمل ذرة ولحم وفي نطاق القطن معمل قطن . أي أن المزارع الأميركي يتعلق إذن بشكل وثيق وكلياً بالتجارة ، فالأسعار المرتفعة تغنيه بسرعة وإنهيار الأسعار يدمره اقتصادياً بسرعة أكبر . وشدة الأزمات الاقتصادية المعاصرة أوجدت بعض العلاجات . وهكذا ظهر الكتان في مجال القمح ، كما بدأت زراعة الشوندر السكري في منطقة الشوفان ، والصويا وفستق العبيد في مجالي القطن والذرة الصفراء ، والخضار في كل مكان تقريباً .

٥ - أخذت الزراعة تتقدم تدريجياً أو تتوسع باتجاه الغرب ، مثل زراعة القمح التي استقرت حالياً إلى الغرب من نهر الميسيسيبي وزراعة القطن المزدهرة كثيراً بالتكساس .

٦ - لقد نتج عن التخصص في الزراعة وميكانيكيتها ، وعن هجرتها نحو النرب ، تلاؤم مع شرائط التضاريس والمناخ اللذين يتصفان بالتنوع والوضوح في أمريكا . وهكذا أصبحت المناطق الزراعية متميزة ومتباينة وتضم الولايات المتحدة منطقتين زراعتين أساسيتين ، الأولى معتدلة وتشمل مناطق الوسط الشمالي أو الميدل وست ، والأخرى مدارية وتشمل الجنوب . وهناك مناطق ثانوية مثل الشمال الشرقي والجبال الصخرية والساحل الباسفيكي .

المزروعات : يمكن اعتبار الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي أكبر عنبرين في العالم للحبوب ، ولكن الولايات المتحدة أول سوق عالمي للمحاصيل الزراعية ، فالأميركان يزرعون كل أنواع الحبوب ، مثل الشوفان والشعير وحتى

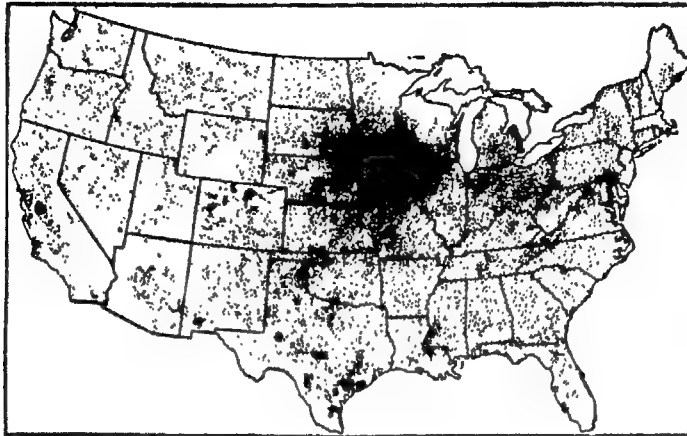
الذرة البيضاء لكن الذرة الصفراء والقمح يحتلان المكانة الأولى . وتضارع الولايات المتحدة الاتحاد السوفييتي تقريباً في إنتاج القمح وذلك في منطقة نطاق القمح وفي هضبة كولومبيا وقد أصبحت ثاني مصدر للقمح بعد كندا ، ولكن كمية الحبوب أو الدقيق القابلة للتجارة العالمية تتبدل بشكل كبير بين عام وآخر ، لأن القمح الذي أصبح يزرع في تخوم المناطق المزروعة قد يتعرض للجفاف المتطاوّل الأمد . وتنتج الولايات المتحدة ثلث المحصول العالمي من الذرة ، ولكن صادرات الأرجنتين من هذه المادة تتفوق لأن تسمين الأبقار والخنازير يستهلك كميات كبيرة من الذرة .

ومنذ القرن الثامن عشر أخذ الجنوب على عاتقه توين الصناعات النسيجية بالعالم بالقطن ، ولكن ظهر الآن منافسون جدد صدعوا التفوق الأمريكي في هذا المجال ، مثل الهند والباكستان ومصر والبرازيل والصين والاتحاد السوفييتي ، ولكن لا تزال الولايات المتحدة أكبر مصدر للقطن . هذا ويمثل محصول التبغ الأمريكي حوالي ثلث الإنتاج العالمي ويجود في ولايات تينيسي وكنتوكي وماريلاند وفيرجينيا .

وفي الوقت الذي تظل فيه المزروعات التقليدية مثل الحبوب والقطن ثابتة أو تتقهقر قليلاً فإن زراعات أخرى تتقدم بشكل كبير . وبالنسبة لفترة (١٩٣٥ - ١٩٣٩) توسعت زراعة الكتان في منطقة القمح بنسبة (٤٠٠ ٪) . والصويا في منطقة الذرة بنسبة (٤٥٠ ٪) وفستق العبيد بنسبة (٢٠٠ ٪) بالجنوب . ويبدل الأميركيون جهوداً جبارة للتوسع في زراعة الحبوب الزيتية . كما يلاحظ أيضاً توسع في زراعة الخضار في الشمال الشرقي وفي الجنوب ، وفي زراعة الأشجار المثمرة والفواكه في الجنوب وفي كاليفورنيا . وتملك جورجيا اليوم أجمل مزارع الخوخ بالعالم ، ولكن نصف وزن الفواكه الأمريكية هو من الحمضيات . وأخيراً بعد أن ظلت الولايات المتحدة مستوردة للسكر من الأقطار المدارية أصبحت اليوم من أكبر منتجي سكر الشوندر في الميدل وست .

تربية الماشية : إذا كانت الولايات المتحدة لا تحتل المرتبة الأولى اليوم بالنسبة لعدد رؤوس الماشية ، فهي تحتل أول مكانة بالنسبة للنوعية فهي تحتل الدرجة الثانية بالنسبة لعدد خنازيرها (٥٠) مليون ، والأبقار التي يقارب تعدادها (١٢٨) مليون رأس (شكل ١٧) . ففي الوسط والشرق والجنوب يمكن اعتبار تربية الأبقار والخنزير ؛ كحصولها لزراعة الحبوب ولا سيما الشوفان والشعير وخاصة الذرة الصفراء . وبعد أن كانت الولايات المتحدة منتجة للحم تتجه اليوم أكثر فأكثر نحو منتجات الألبان .

ويقدم الغرب والسهول العليا والجبال مراعي واسعة لتربية الأبقار والأغنام . ويتم تسمين الثيران والأبقار المولودة في منطقة الفاروست في منطقة نطاق الذرة . ويجب أن نشير إلى التناقص العظيم في عدد الخيول والبغال بسبب توسع نطاق استعمال الميكانيك في الزراعة .



الشكل ١٧

توزيع الأبقار في الولايات المتحدة
كل نقطة في الشكل ترمز إلى (٢٠٠٠) رأس من البقر

ب - القوى المحركة :

الفحم الحجري : تعتبر الولايات المتحدة أكثر أقطار العالم غنى بالقوى المحركة ، وقبل كل شيء الفحم الحجري . فهي تملك ثلاثة أحواض فحمية تقل جودتها من الشرق نحو الغرب تدريجياً :

أولاً - حوض الانتراسيت في سكرانتون على السفح الشرقي لجبال الأبلاش . وينتج وسطياً بمحدود (١٥٠) مليون طن في السنة .

ثانياً - حوض بنسلفانيا وفيرجينيا وآلاباما على السفح الغربي لجبال الأبلاش ، وهو أغزر الأحواض إنتاجاً وينتج حوالي (٤٠٠) مليون طن بالسنة . وقد نتج عن ثخانة عروق الفحم ، وعن الاستغلال السهل للمكامن على عمق قريب ، واقتلاع الفحم بصورة ميكانيكية بحتة ، مردود شديد الارتفاع ، أي أن العامل ينتج هنا باليوم أكثر من أي عامل آخر بالعالم ، فضلاً عن إنتاج عام ضخم جداً يقارب (٢٢٪) من إنتاج العالم أو ٦١٦ مليون طن من مجموع ٢٧٥٥ مليون طن في ١٩٨١ . ورغم بعد مناجم بنسلفانيا عن البحر فهي ترسل الفحم بواسطة القطارات حتى ميناء هامبتون رودس ، المعد خصيصاً لتصدير الفحم نحو الموانئ الأميركية في شمال الأطلسي ونحو موانئ أوروبا وأميركا الجنوبية .

وعلى كل يتراوح إنتاج الفحم في الولايات المتحدة حالياً بين (٥٠٠ و ٦٠٠) مليون طن .

البتترول : منذ أكثر من (١٢٠) سنة أخذ إنتاج البترول يزحف نحو الجنوب الغربي ونحو الأعماق . ففي عام ١٨٥٩ نبع البترول لأول مرة في بنسلفانيا على عمق (٢٠) م . وفي أواخر القرن الماضي أصبحت أهم حقول البترول هي الواقعة في الميدل وست ، وبين (١٩٠٠ - ١٩١٠) ظهرت أهمية ولاية كنساس ، وبعد ١٩٢٠ انتقل مركز الثقل نحو تكساس وكاليفورنيا ، واليوم تستغل حقول ساحلية تحت مياه الباسيفيكي . وزاد عمق بعض الآبار عن (٥٠٠٠) م .

وهكذا يعطي الشمال الشرقي أي ولايتي أوهيو وإيلينوا حوالي (٣ ٪) من الإنتاج ، والوسط أي كنساس وأوكلاهوما والتكساس (٥٠ ٪) والباقي تقدمه كاليفورنيا وما جاورها . وهناك حوالي (٢٥٠.٠٠٠) كم من خطوط الأنابيب تربط بين حقول البترول في الوسط مع المناطق الصناعية بالشمال الشرقي ، التي تستهلك معظم إنتاج البترول والتي احتفظت بالمصافي التي شيدت منذ البداية في شيكاغو وكليفلند وفيلادلفيا ونيويورك وتقذف بعض الأنابيب البترول الخام والبعض منتجات بترولية بعد التصفية والبعض الآخر الغاز الطبيعي .

ويمثل الإنتاج الكلي للولايات المتحدة ٣٠ ٪ من إنتاج العالم أو ٤٦٨ مليون طن وتحتل المكانة الثانية بعد الاتحاد السوفيتي . ولكن في هذه الدولة التي يتجول فيها ١٢٤ مليون سيارة سياحية ، يكون استهلاك المواد البترولية هائلاً بحيث تضطر الولايات المتحدة لاستيراد البترول من الخارج ، مما أدى لظهور امبراطورية حقيقية قائمة على البترول ، تتمثل في شركات هائلة جبارة ، مثل ستاندارد أويل هدفها السيطرة على المنطقتين العظيمتين لإنتاج البترول في العالم ، وهما منطقة خليج المكسيك وتضم المكسيك وكولومبيا وفنزويلا ومنطقة الشرق الأوسط ، وتشمل إيران والعراق وكل شبه جزيرة العرب ، أي السعودية والكويت والمنطقة المحايدة واتحاد الإمارات العربية (الشارقة ، دبي ، أبو ظبي) والجزائر وليبيا ، عدا الامتيازات التي حصلت عليها للبحث عن البترول في صحراء مصر الغربية . وقد أنتجت الولايات المتحدة عام ١٩٦٢ مقدار ٣٥٩ مليون طن بترول ، وفي عام ١٩٧٣ (٤٥٣) مليون طن ، و ٤٠١ في ١٩٧٦ و ٤٦٨ في ١٩٨١ وسينضب بترولها خلال ٢٠ عاماً إذا استمر الإنتاج على هذا المنوال وتستورد الآن ما يقارب خمسي ونصف استهلاكها من النفط .

الكهرباء : وهنا أيضاً تحتل الولايات المتحدة المكانة الأولى بالعالم ، وتنتج حوالي ٢١١٤ مليار كيلواط ساعي عام ١٩٧٦ و ٢٣٦٨ مليار في ١٩٨١ أو ٧٦ مرة إنتاج الهند ، أو ما يعادل ١٠ مرات إنتاج فرنسا و ٦ مرات إنتاج بريطانيا ، التي

تحتل المكانة الثالثة بالعالم وه مرات إنتاج كندا ، التي تحتل المكانة الرابعة بالعالم . وليست الصناعة وحدها هي التي تستهلك الكثير من الطاقة الكهربائية ، بل دخلت هذه في كل الاستعمالات المنزلية المألوفة ، كالتدفئة والمطبخ والمكانس والبرادات وعصارات الفواكه وطواحين القهوة الخ .. ويلاحظ الإنسان بالليل أن المدينة الأميركية تكاد تلتهب من الأنوار المنطلقة من الإعلانات الكثيرة الألوان . ومن الطبيعي أن يصدر نصف الإنتاج الكهربائي من المعامل الحرارية التي تتحرك على الفحم والمازوت والغاز الطبيعي . ولكن الولايات المتحدة تملك في الأبالاش وفي الجبال الغربية احتياطات ضخمة من الفحم الأبيض ، لم يستعمل إلا قسم ضئيل منها وأصبحت تنتج من الطاقة النووية قسماً من استهلاكها الكهربائي .

١ - في الشرق : حيث توجد الوديان العميقة والأنهار الغزيرة في جبال الأبالاش ، تكون المنطقة ملائمة جداً للمنشآت الكهرمائية . وفي عام ١٩٣٣ لجأت حكومة الولايات المتحدة إلى مكافحة البطالة ، فأوجدت مشروع استغلال وادي نهر التينيسي وذلك ببناء ٢٦ سداً مع منظومة لشبكات الري تروي ٧٠٠٠٠ هـ . أو ما يعادل مساحة الغاب وإنتاج هذه المعامل يعادل إنتاج فرنسا كله من الكهرباء .

٢ - في الوسط : أمكن استثمار مساقط البحيرات الكبرى مثل شلال سانت ماري ونياغارا ومساقط الميسيسيبي الأعلى ، وخاصة عند مدينة مينابوليس وروك آيلاند وكيوكوك .

٣ - في الجبال الغربية : وهنا نجد مجال السدود الكبرى والخزانات التي تقدم المياه لري الأراضي البعيدة ولتحريك المعامل المشيدة عند أسفلها . وهنا تتزايد قوة المعامل المنشأة تدريجياً . وقد تم بناء سد بولدر على نهر الكولورادو الأدنى ، الذي يبلغ ارتفاعه ٢٢١ م ويخزن ٤٠ مليار متر مكعب من المياه في بحيرة ميد Mead الاصطناعية ويروي ٨٠٠٠٠٠ هـ . أو ٢٠ مرة مساحة الغاب ، ويبدو

معمل بولدردام بانتاجه البالغ ٥ مليار كيلواط ساعي ، أول معمل وسد من نوعه بالعالم ولا يفوقه إلا السد العالي الذي ينتج ١٠ مليارات ك وس بالسنة وسد أنغارا في سيبيريا ، ويوفر سد بولدردام مياه الشرب لمدينة لوس أنجلوس على مسافة ٤٢٤ كم ، كما أوجد حديقة وطنية يمارس فيها صيد السمك وسباق القوارب والاصطياف في المعسكرات . كما تم بناء سد على نهر كولومبيا يروي ٥٠٠٠٠ هكتار . كما تم بناء سد آخر على النهر المذكور يجعل من النهر طريقاً ملاحياً طوله ٦٠٠ كم .

جـ - الصناعة :

يمكن تفسير جبروت الصناعة الأميركية وقوتها قبل كل شيء بضخامة سوق الإنتاج الذي تؤلفه الولايات المتحدة . فهي أول قطر زراعي ، وأول قطر في إنتاج القوة المحركة بمختلف أشكالها ، كما تملك أكثر مناجم المعادن إنتاجاً وتنوعاً بالعالم .

ف نجد الحديد في جبال الأبالاش وخاصة في الجنوب (آلاباما) وفي جبال الروشوز ، ولكن فلزات البحيرة العليا هي أكثر مثيلاتها أهمية . كما احتلت الولايات المتحدة المكانة الأولى في إنتاج البوكسيت ٢ مليون طن الذي يستخرج من جنوب الأبالاش ومن جبال أوزارك غرب الميسيسيبي ، بحيث أصبحت الولايات المتحدة تقدم ٣٦٪ من إنتاج الألمنيوم بالعالم . كما أصبحت مناجم النحاس في منطقة البحيرة العليا ابتداء من ١٨٥٠ ومناجم الروشوز منذ مطلع القرن الحالي (من مونتانا ، أوتاها ، أريزونا) ، تؤمن للولايات المتحدة إنتاجاً ضخماً يعادل ربع إنتاج العالم أو ١,٥ مليون طن .

كما تحتل الولايات المتحدة الذروة في إنتاج التوتياء ٤٠٠٠٠٠ طن والرصاص الذي تؤمن منطقة جبال أوزارك نصف الإنتاج والباقي من جبال الروشوز . كما تكثر لديها المعادن النادرة التي تلعب دوراً عظيماً في الصناعة المعدنية الحديثة ، وخاصة في صنع أنواع الفولاذ الخاصة ذات المقاومة الشديدة والمرونة الكبيرة مثل

الكروم والموليبيدين والفاناديوم والتنغستين . ولا تفتقر إلا إلى المنغنيز والنيكل والقصدير . وإذا كانت الولايات المتحدة تأتي بالدرجة الرابعة في إنتاج الذهب (من جبال الغرب وكاليفورنيا) والدرجة الثانية في إنتاج الفضة (جبال الغرب) ، فهي تملك احتياطاً تقديماً من هذين المعدنين الثمينين يعادل ثلاثة أخماس الموجود بالعالم .

هذا كما تقدم منطقة خليج المكسيك للصناعة الكيماوية الفوسفات ٤١ مليون طن (من فلوريدا) والكبريت (لويزيانا وتكساس) ٨ مليون طن والمنغنيزيوم . ويستخرج الملح من مناجم مبعثرة بالبلاد أو من بحيرات مالحة في الجبال الغربية أو من ممالح البحر في كاليفورنيا بإنتاج يزيد على ٤٢,٢ مليون طن .

الولايات المتحدة كسوق استهلاكي عظيم : تؤلف هذه الدولة التي تضم ٢٣٢ مليوناً من السكان ، الذين بلغوا مستوى من المعيشة رفيعاً جداً سوقاً استهلاكياً هائلاً . ففي هذه الدولة التي يكون من المألوف أن يملك الإنسان فيها بيته المجهز بحمام ، وسيارته وبراده وكل الأدوات الكهربائية من تلفزيون وسواه ، تستطيع المعامل معها كثر عددها ومهما كانت ضخامتها أن تنتج بشكل كتلي . وهناك عوامل ثلاثة تحث على الإنتاج الضخم .

١ - التجانس - لأن الولايات المتحدة الأمريكية متماثلة . فعلى مساحة ٨ ملايين كيلو متر مربع يعيش ٢٣٢ مليون من البشر ، الذين يتكلمون اللغة ذاتها ولهم نفس العادات المعاشية . وتجهد الصناعة كي تنتج لكل شيء عدداً قليلاً من النماذج ولكن بكميات ضخمة .

٢ - الدعاية والإعلان - وهي موجودة في كل مكان ، في الصحف ، وعلى الجدران وفي اللوحات الملونة ، أو المطبوعة ، أو اللوحات المنيرة . وهكذا يجذب الإنتاج المشتري بصورة مستمرة ويزيد الاستهلاك .

٣ - الإقراض : ويستطيع الأميركي أن يشتري ما يشاء ولو لم يكن مالكا للعدد الكافي من الدولارات لأن البيع بالتقسيط هو المألوف^(١) .

وهكذا تجد الصناعة الأميركية في وطنها ذاته أساساً اقتصادياً عريضاً ومتيناً يساعد على الإنتاج والاستهلاك . وقد نتج عن ذلك نهضة جبارة . فضلاً عن ذلك ظهر في أمريكا نوعية فريدة من رجال الاقتصاد الأفذاذ والجريئين ، فأصبحوا رواد الصناعة أمثال كارنيجي وروكفلر وبيربونت ومورغان ، واستطاعوا أن ينشئوا مؤسسات ضخمة هي التروستات ، التي تحاول دوماً توسيع مجالها . فهي تضم تحت إدارة اقتصادية ومالية واحدة سلسلة كاملة من المعامل المختلفة ، وحتى مناجم عديدة مما يسمح لها أن تشرف على صنع منتج معين ، من الوقت الذي يكون فيه عبارة عن مادة خام حتى يصبح مادة استهلاكية جاهزة .

الصناعة المعدنية والصناعات الميكانيكية : تظهر منطقة البحيرات الكبرى وكأنها نطاق الصناعة المعدنية الأولى . فإلى الشرق منها والجنوب أي في جبال الأبلاش وفي ولاية إيللينوا تقع أكبر أحواض الفحم ، وفي الغرب على ضفاف البحيرة العليا تقع أغنى مناجم فلزات الحديد وبينهما يقع أجمل طرق المواصلات المائية المؤلف من البحيرات الكبرى ، وإلى الجنوب من الأبلاش تقع ولاية آلاباما التي تملك الفحم والحديد والأفران العالية ومعامل الفولاذ وابتداء من ١٩٤٤ ظهرت معامل جديدة لصناعة المعادن في الجبال الصخرية ولاسيما في أوتاه وكاليفورنيا.

(١) لا ينجو الفرد الأميركي المتوسط من هموم الميزانية العائلية : فإذا كان الغذاء والكساء لا يكلفان كثيراً ، فإنه من اللازم تسديد الأقساط الشهرية مع فوائد ، أي أقساط البيت والسيارة والبراد وجهاز التلفزيون الخ .. كما يجب دفع أقساط التأمين ، وحتى إلى متعهد الجنائز إذا أراد الأميركي أن يكون موكب جنازته محترماً . وهكذا تجد أن الرفاه الأميركي يتطلب الكثير من النفقات وفي عام ١٩٨٠ كان دخل الفرد الأميركي المتوسط ٢٠٠٠ دولاراً ينفق منها ٥٠٠ على الطعام و ٤٦٠ على المواصلات و ١٨٠٠ للملابس و ١٢٠٠ للعناية الطبية و ١١٨٠ كأمين اجتماعي وضرائب ضد المعجز والشيخوخة و ١٢٥٠ دولاراً على الدخل الشخصي و ٣٠٠ للعناية الشخصية والترفيه والباقي نثرات أخرى .

ومنذ ١٩١٠ تفوقت الصناعة المعدنية الأميركية على ألمانيا التي كانت أقوى دولة بهذه الصناعة في أوروبا ، وساعدت الحربان العالميتان على زيادة تفوق أميركا ، وهكذا أصبحت تنتج حالياً حوالي ٣٥ بالمئة من صهير وفولاذ العالم إذ أنتجت ٨٩ مليون طن فولاذ عام ١٩٦١ و ١٢٥ مليون طن في عام ١٩٧٢ و ١١٦ مليون في ١٩٧٦ و ١٠٨ في ١٩٨١ . كما عرف إنتاج الألمنيوم فيها نهضة مثيرة وبعد أن كانت ألمانيا تفوق الولايات المتحدة قبيل الحرب العالمية الأولى ، أخذ إنتاج هذه الدولة يتضاعف كل سنة إلى أن أخذ بالوقت الحاضر يزيد عن ٤ ملايين طن بالسنة .

وفي شرائط كهذه نستطيع أن ندرك لماذا تكون الصناعة الميكانيكية الأميركية متصدرة مثيلاتها بالعالم . فهي تتركز في منطقة البحيرات العليا مثل شيكاغو وديترويت وكليفلند وبوفالو ، وفي شمال شرق البلاد حيث يقع مركز الرساميل ومهد الصناعة القديمة كما في مدينة بيتسبورغ وبوسطن ونيويورك وفيلادلفيا وبالتيمور . ومن هذه المعامل الأميركية الرائعة التجهيز والنظام ، تخرج الماكينات الصناعية المتنوعة والماكينات الزراعية كالجرارات ٧٥٠,٠٠٠ والآلات الكتانية ٨٠٪ من إنتاج العالم ومكائن وأدوات السكك الحديدية ، فأنتجت أكثر من ٢٠٠٠ قاطرة و٧٥٠٠٠٠ عربة عام ١٩٦١ . وتخصصت منطقة ديترويت في صناعة السيارات وتعادل ٤٠٪ من إنتاج العالم أو ٩ ملايين سيارة بالسنة عام ١٩٧٦ والطائرات ٦٠٪ من إنتاج العالم . وقد صنعت الترسانات البحرية على الساحل الأطلسي والباسفيكي في أحد أعوام الحرب عدداً من السفن حولتها تعادل كل الأسطول التجاري . وتقضي كل صناعات العالم بصناعة الولايات المتحدة من أجل التجهيز واستمداد ما تحتاج إليه من آلات (شكل ١٨) .

الصناعات الكيماوية : وتتركز في الميديل وست والشمال الشرقي وهي مناطق تنتج الفحم وصناعية أي أنها تقدم نصف إنتاج الحامض الكبريتي بالعالم ،

والصودا ، والأسمدة أو ٤٠٪ من إنتاج السوبر فوسفات بالعالم والمواد الملونة . وهي تعالج الخشب كي تصنع منه الورق الذي تستهلكه الصحف والمجلات بمقادير عظيمة . وتصنع مئات الملايين من الكيلومترات من الأفلام التصويرية والسينمائية . كما تنتج حوالي ٤٠٪ من كاوتشوك العالم وخاصة في مدينة آكرون بولاية أوهيو ، ومنذ عام ١٩٤٠ أخذت تستعين بفحم الشمال الشرقي وبيترول التكساس وكاليفورنيا لصنع المطاط التركيبي الذي فاق كثيراً إنتاج المطاط الطبيعي .

الصناعات النسيجية : لقد احتفظت إنكلترا الجديدة خلال مدة طويلة بحصر الصناعة النسيجية . ففيها تتركز تقريباً كل صناعة الصوف ولاسيما في مدن (بوسطن ، لورنس ، لول ، بروفيدانس) . أما نيويورك وبارتسون وفيلادلفيا فهي مدن الحرير والحرير الاصطناعي . وكانت صناعة القطن متركزة كلياً في منطقة بوسطن مع أنه يزرع بالجنوب . وبعد حرب الانفصال أخذ صناعيو الشمال ببناء معامل بالجنوب بمحاور الشلالات المنحدرة من سفوح الأبلاش الشرقية ، بغية الاستفادة من القطن المحلي ومن اليد العاملة السوداء الرخيصة . وتنتج صناعة النسيج الأميركية أكثر من الصناعة البريطانية التي لاتزال تحتفظ بمكانة هامة بالنسبة لتصدير الأصواف والقطنيات .

الصناعات الغذائية : على الحاصلات الغذائية أن تجتاز آلاف الكيلو مترات ، قبل أن تصل أسواق الاستهلاك ، مثل لحم ومنتجات ألبان الميديل وست وفواكه الجنوب وكاليفورنيا مثلاً ، وذلك قبل أن تصل مدن الساحل الأطلسي . ومثل ذلك الإنتاج الضخم بالنسبة للمحفوظات الغذائية . وتستخدم هذه الصناعة حوالي مليون عامل أو أكثر من صناعة السيارات .

ويملك الميديل وست الصناعات الرئيسية كالمطاحن وصناعة الألبان واللحم .

ويتمثل غنى كاليفورنيا بمحفوظات الفواكه والخضار . وتصنع الولايات المتحدة جزءاً من السكر الذي تستهلكه بفضل شوندر منطقة الميديل وست ، ولكنها تستورد كميات ضخمة من السكر من كوبا ومن جزر هاواي ومن الفلبين .

د - تجارة الولايات المتحدة الخارجية :

لقد ظلت أوروبا تحتل المكانة الأولى في ميدان التجارة الخارجية العالمية حتى عام ١٩١٤ . ولكن الحربين العالميتين سمحتا للولايات المتحدة بانتزاع الدرجة الأولى ، فضلاً عن ذلك كانت أوروبا التي خربتها الحرب تتركز قواها في ساحة المعارك فبقيت الولايات المتحدة سليمة واندفعت لتقدم لدول العالم ما تحتاج إليه ^(١) .

وهكذا تملك الولايات المتحدة كل الشرائط الضرورية للمهينة تجارياً على العالم :

أولاً - إنتاج ضخمة .

ثانياً - أسطول تجاري من الدرجة الأولى تعادل حملته ١٨٪ من الأسطول العالمي أو ١٥ مليون طنة ، فضلاً عن بواخر ترفع أعلام دول مختلفة مثل باناما وليبيريا وهندوراس وغيرها .

ثالثاً - قروض تجعل الدول المستقرضة تلغي حواجزها الجمركية أمام البضائع الأمريكية .

(١) لاتلمب التجارة الدولية في الفعاليات الاقتصادية الأميركية الدور نفسه الذي تلعبه في دول أوروبا ، لأن التجارة الداخلية في السوق الداخلي الأميركي تفوق بعشر مرات التجارة الخارجية الأميركية . ومع هذا فإن الولايات المتحدة تقدم ٢٠٪ من الصادرات العالمية وتنازل ١٥٪ من الاستيراد العالمي . وبعد أن أصبحت الولايات المتحدة عبارة عن عملاق صناعي راحت تصدر السلع المصنوعة ابتداء من مسحوق الحليب حتى الماكينة الإلكترونية . كما تستورد في غالب الأحيان المواد الخام مثل الحاصلات الزراعية المدارية ، والمطاط الطبيعي ، وممجنة الورق ، والصوف ، والفلات ، والبترو .

ومع أن التجارة الخارجية الأمريكية لا تمثل أكثر من عشر الإنتاج والاستهلاك الأمريكي غير أنها أهم تجارة خارجية بالعالم .

إنها تجارة قطر صناعي عظيم يستورد بعض المحاصيل الغذائية والمواد الخام كالنفط ويصدر أشياء مصنوعة ومنتجات نصف مصنوعة .

وتتجه هذه التجارة نحو التصدير باتجاه أوروبا وأمريكا الجنوبية وآسيا ، ولا تلعب أفريقيا أكثر من دور ضعيف جداً وتزداد التجارة الأمريكية باضطراب مع تزايد قروضها ومساعداتها للدول المتخلفة أو الدول المتحالفة معها عسكرياً . ولا ريب في ذلك لأن معظم شعوب الأرض تنجح لتقليد نمط الحياة الأمريكي ولو في الأشياء الظاهرية على الأقل ، لأن هذه الشعوب إذا كانت أحياناً تعجز عن الاقتداء بالولايات المتحدة من حيث الازدهار العلمي والتفوق الصناعي والإنتاج ، فهي تقلدها بنجاح من حيث محاولتها مجازاة الأمريكيين في حياتهم واستهلاكهم ولباسهم ولهومهم وهذا مما يزيد شعورها بفقرها النسبي أو المطلق ولكن أخذ الأمريكيون يعانون من أزمة الثاينينات والركود الاقتصادي ففي آخر عام ١٩٨٢ كان هناك ١٢ مليون عاطلاً عن العمل أو ١١٪ من القوى العاملة في البلاد .



هل توجد مدنيّة أمريكية ؟

هناك جواب جاهز فوراً يقدمه أولئك الذين يلعنونها ، سواء في « اليسار » الدولي أو « أحزاب اليمين » الوطنية . فهم يتبارون في شجب أمريكا ، ومنجزاتها وفخفتها وتخريبها للثقافات التي تحيط بها سواء في كندا أو في أمريكا اللاتينية ، ونشر تلوثها في أوروبا وحتى في العالم الثالث والبلدان الشيوعية . صحيح أن الأمريكي عندما يهبط من طائرة جامبوجت في مطار رواتي قرب باريس ، ويستأجر سيارة فورد من مكاتب هرتز أو آفيس ، ويقود في الطريق العريض كي يبلغ

فندق هيلتون ، حيث ينطلق منه بعد قليل من أجل موعد في ناطحة سحاب في حي الديفانس ، ويلتهم عند عودته وجبة هبرغر في مطعم ماكدونالد في شارع الشانزليزيه ، قبل أن يشهد فيلماً من إنتاج هوليوود في فيديو ، أقول أنه لن يشعر بالغرابة في باريس .

والواقع سيعثر الأمريكي على المعايير ، والتسويق والسوقية Vulgarité والاضطراب والعنف . وتفترق المدنية الأمريكية ، كما تظهر ، للمثل الأعلى . ففيها الكثير من مظاهر القبح : غير أن هذه العيوب ليست الوحيدة التي تقدم تعريفاً عنها ، فالعرقية وعدم المساواة ، والبطالة ، وانعدام الأمن ، والمتاجرة ، والفساد والعنف هي أمور توجد في أماكن أخرى ، وربما كانت أسوأ مما هي في الولايات المتحدة . ولكن لا نجد في أي مكان آخر ذلك النسيج من القيم المتصالية على شكل سدى ولحمة .

المدنية الأمريكية . أ . كاسبي . P.U.F.



الولايات المتحدة أو أمريكا تملك أهم نظام اقتصادي في العالم : لنعرف كيف نحدد تدخلات الحكومة وكيف يعطي هذا النظام فرصة للتحرك والعمل .

لقد ساهمت الحكومة بدعم من الشعب الأمريكي ، وذلك خلال العقود الأخيرة ، في القضاء على الحواجز العرقية ، كما قدمت عوناً للعاطلين عن العمل والمتقاعدين ، كما قدمت الغذاء للذين يفتقرون للغذاء ، ودافعت عن الأمن ، والصحة ، وحقوق العمال في التفاوض ، مثلما ساهمت في الحفاظ على التراث الطبيعي . . .

ولقد استرد بلدنا مكانته المتميزة الذي هو أهل لها على رأس أولئك الذين يكافحون في سبيل حقوق الإنسان في العالم . وعمد الأمريكيان البواسل في سبيل فرض هذه القيم خلال الجيل الحالي وقبل قرنين إلى المخاطرة بأموالهم وبوضعهم الاجتماعي وحتى بحياتهم . ونحن ورثتهم . وهم يوجهون لنا رسالة خلال القرون .

ولا نجد الكلمات التي كانت تعطي مثل هذا البريق اليوم ، إلا صدى ضئيلاً لأن هذه الكلمات لا ينصت الناس إليها في كثير من الأحيان . وتذكرنا هذه الكلمات : عدالة ، مساواة ، وحدة ، تضحية ، حرية ، إيمان ، حب بأن المهمة الملقة على عاتق الأمريكيان اليوم هي إحياء الآمال الواثقة في أمتنا والتي لا يجوز أن تتركز فقط على الكفاح ضد التهديدات الأجنبية ، بل مكافحة الأنانية والصفافة والحول .

مقتبس من رسالة « عن وضع الاتحاد »

جيمي كارتر ٢٣ / ١ / ١٩٧٩

عندما تنجز أمريكا ما وعدت به . فإني أتنبأ بنصر العدالة .
وأتنبأ بالحرية وبالمساواة بلا تحديد . وأتنبأ بتبرير الإخلاص وتبرير الفخار ، وأتنبأ بأن هوية
الولايات المتحدة ستكون هوية واحدة وحيدة .
وأتنبأ بأن الاتحاد سيكون أكثر تلاحماً أكثر فأكثر بين الدول ولن تنقسم عراه . وأتنبأ بحب
الناس للناس ، وأقول بأنه سيكون بلا حدود ولا تحفظ .
وأقول بأنك لا زلت قادراً على أن تجد الصديق الذي تبحث عنه وأتنبأ بحياة ستكون
رغبة وفيرة ، ملتزمة ، مليئة بالروحانية ، وجريئة .
أناشيد الوداع . ويت وإيمان .
دار نشر فلاماريون . باريس



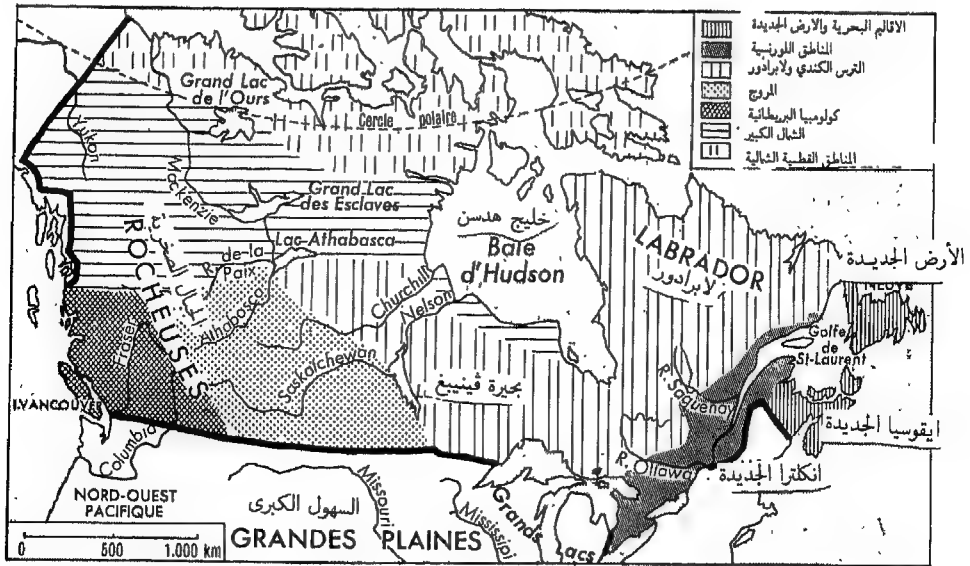
الولايات المتحدة والمدنية الأمريكية

تتألف القوة الأمريكية من ٥٠٪ من سكان العالم ولكنها تمثل :
٢٥٪ من الناتج القومي الخام العالمي
٣٠٪ من الكهرباء الناتجة في العالم
٤٠٪ من حظيرة السيارات العالمية
٨٥٪ من الحاسوبات (الكومبيوتر)
- أول مصدر ومستورد عالمي من البضائع والخدمات
- أول مصدر عالمي للمنتجات الزراعية
- انخفاض نسبي تدريجي ناتج عن المنافسة اليابانية والأوروبية
- الدرجة العاشرة من حيث الناتج القومي الخام لكل مواطن
- تبعية متزايدة نحو الخارج ٤٢٪ من النفط مستورد
- عملة مزعومة : أونصة الذهب = ٨٢٠ دولاراً عام ١٩٨٠ و ٣٢٠ دولاراً في ١٩٨٢ و ٥٠٠ دولاراً

في ١٩٨٣

- تضخم يعادل ١٣,٨٪ في عام ١٩٧٩





الشكل ١
 المناطق الجغرافية في كندا

كندا

على تخوم المعمورة

لا تبدو المساحة الزراعية في هذا القطر الواسع كبيرة جداً ، فهي تبلغ ٦٤ مليون هكتار ، مقابل ٣٢ مليون هكتار في فرنسا ، أو ٦٤٠.٠٠٠ كيلومتر مربع ، أو ٦,٥% من مساحة البلاد . وتقف الكوابح المناخية دون أي توسع زراعي إضافي ، بالرغم من التقنيات المتوائمة كالقمح الربيعي والزراعة الجافة (شكل ١) .

ويؤلف المزارعون ، الذين يشكل الملاكون المستغلون ٧٠% منهم ، أقل من ٥% من السكان العاملين وعددهم في تناقص . ولا يوجد في هذه البلاد أكثر من ٣٠٠.٠٠٠ مزرعة ، ارتفعت مساحتها الوسطى من ١٥٠ هكتار عام ١٩٦٧ إلى أكثر من ٢٠٠ هكتار في عام ١٩٧٧ ، هذا في الوقت الذي زادت فيه إنتاجية الزراعة الكندية بفضل ارتفاع مستواها التكنيكي .

المشاهد الزراعية القديمة والجديدة :

البلاد اللورانية : بعد أن ظلت منطقة كيبيك متأخرة لمدة طويلة فقد حسّنت إنتاجيتها . وينصرف المستغلون الذين تبلغ المساحة الوسطى لمزارعهم ٨٣ هكتاراً نحو منتجات الألبان ، وتقدم منطقة مونتريال نصف إنتاج الحليب واللحم والثمار والخضروات . بيد أن الزراعة تتفهم في أراضي الشمال .

ويكون إقليم أونتاريو متميزاً بسبب جودة تربته ومناخه اللطيف ، لوجود كتلة المياه البحرية المجاورة ، فهنا يمكن زراعة الفواكه الحساسة كالدرّاق

والأعشاب . وتكون الزراعة هنا متنوعة وحيثية وذات أرباح عالية ، وتتجه نحو الأسواق الحضرية في الولايات المتحدة المجاورة.

أما أراضي البراري المؤلفة من دبال أسود ، والمتصفة بجفافها النسبي فتناسب زراعة الحبوب التي تتناوب مع البور المحروث حسب أسلوب الزراعة الجافة dry farming فوق مستغلّات كبيرة الأبعاد . وبعد أن عزفت منطقة البراري عن زراعة الحبوب الوحيدة ، أصبحت الآن تنمي تربية الأبقار والزراعات المهيأة للماشية ، كالشعير والأعلاف ، والذرة الصفراء العلفية .

أما كولومبيا البريطانية فتأرس على الخصوص تربية الأبقار الواسعة Ranching فوق الهضاب العليا الداخلية . ولكن تظهر مزارع الأشجار المثمرة ، البديعة المنظر في الأراضي المروية .

المحاصيل الكبرى :

القمح : وتتجه ثلاثة أرباع محصوله للتصدير . وتنظم الحكومة التسويق والتخزين وفتح أسواق خارجية . ويلعب القمح الكندي دوراً استراتيجياً هاماً على الصعيد العالمي . وتكون تربية الأبقار الحلوبة في تراجع . بيد أن تربية أبقار اللحوم والتي تباع من الولايات المتحدة فتتقدم على الخصوص في إقليم البراري .

ولا تقدم تربية الحيوانات ذات الفراء (الثعلب الفضي والفيزون) سوى ٤٠٪ من إنتاج الفراء . وتنتج كندا ربع جلود الفرو في السوق العالمية ، ولكن الحكومة نظمت حملات الصيد للحفاظ على الوحش faune المعرض للتهديد بالفناء مثل صغار الفقمة .

ولا يزال الصيد البحري حريفاً على السواحل الأطلنطية ، ولكنه أصبح

ضمن إطار الصناعة الراقية على سواحل المحيط الهادي ، مما جعل مردوده يتناقص بسبب الإفراط في استغلال قيعان البحار . وتمارس الحكومة سياسة نشيطة للحفاظ على الوحش البحري . ويصدر قسم كبير من الأسماك المصادة نحو الولايات المتحدة .



الصادرات الزراعية في ١٩٧٦ بملايين الدولارات : البذور الزيتية ٣٣١ ، الشعير ٥٤٢ القمح ١٧٠٨ ، حبوب أخرى ٤٢٥ ، لحوم ٢٠٧ ، فراء وجلود ١٢٤ ، حيوانات حية ١٢٠ ، خضار ١١٥ ، تبغ ٦٣ ، منتجات ألبان ، وتثل جميعها ١٢٪ من جملة الصادرات الكندية .

الإحصائيات الزراعية لعام ١٩٧٧

المادة	المجموع بالآلاف الأطنان	كولومبيا البريطانية	البرتغال	ساسكاتشوان	مانيتوبا	أونتاريو	كيبك	الأقاليم البحرية
القمح	١٩٦٥١	٠,٥	١٦	٦٥	١٤	٤	٠,٥	—
الشعير	١١٥١٥	١,٥	٤٦	٣١	١٨	٢	١	٠,٥
الصويا	٩٣٠٠	—	—	—	—	١٠٠	—	—
بذور زيتية	٣٦٢٤	١٥	٣٣	٢٣	٢٨	—	—	—
ذرة صفراء	٤٣٠٢	—	—	—	١٥	٩١	٤	—
شوندر سكري	١٠٠٨	—	٥٣	—	٤٤	—	٣	—
أبقار (مجموع)	١٣١٥٤	٧	٣٤	١٠	١٣	٢٥	٢٠	٢
منها حلوبة	٢٠٤٨	٦	—	١٤	—	٣٠	٥٠	٤
حليب	٨٠١٧	٦	—	١٥	—	٣١	٤٤	٤
بطاطا	٢٤٨٧	٥	٦	٢	١٠	٢٠	١٤	٤٣
دجاج	—	—	—	—	—	٤٠	—	—



كندا : الموارد الطبيعية (مصدرة كبرى للمواد الأولية)

تمثل كندا ، باعتبارها قطراً واسعاً ، وقليل السكان ، تماثل السويد ، أو سيبيريا ، من حيث شدة ثرائها بالموارد الطبيعية الخاصة بالعروض العليا ، كالأخشاب وبالتروس shields القديمة المتعدنة ، أي الفلزات . ويمثل استغلال هذه الموارد ٦ ٪ من الناتج القومي الخام و ٣٠ ٪ من قيمة الصادرات في الوقت الذي تسمح فيه بنو الصناعة في البلاد ، بيد أن وضع هذه الثروة الكامنة في موضع الاستغلال يكون عسيراً .

فالمسافات الكبيرة بين مواقع الإنتاج وأمكنة الاستغلال كالمحطات والموانئ ، أو مراكز الاستهلاك ، تتطلب استثمارات جسيمة في سبيل إنشاء البنية الأساسية من طرق ، وخطوط حديدية ، ممددة خصيصاً لذلك وأنابيب . هذا كما أن المسافات لا تسمح إطلاقاً بتنظيم توزيع الموارد بصورة عقلانية بين شرقي البلاد وغربها . وتكون هذه المشكلة محلولة جزئياً بالتعاون مع الولايات المتحدة ، فيباع بترول البرتا في كاليفورنيا ، في حين تشتري البلاد الواقعة على نهر السان لوران فحم الأبالاش من الولايات المتحدة .

وتعيق قساوة المناخ عملية الاستغلال ، وتقصر أحياناً على إغلاق المناجم الواقعة في أقاصي الشمال من البلاد

ويتعلق الإنتاج بالأسواق الخارجية وبتقلباتها ، ومنذ مدة قريبة أدى كساد النيكل إلى إغلاق مناجم منطقة سادبوري (شمال بحيرة هورون) .

كما أن الاستثمارات الضرورية لاستغلال ثروات البلاد تكون من الجسامة بحيث تضطر كندا للاستعانة برؤوس أموال أجنبية ، ولا سيما الأمريكية منها ، وينتج عن ذلك نوع من تبعية اقتصادية وسياسية .

وقد لعبت وفرة الموارد الطاقية دوراً حاسماً في استغلال ثروة كندا ، حيث تكون الحصيلة الطاقية فائضة . غير أن ذلك يستدعي حلّ مشكلات عويصة .

فالطاقة الكهربائية تقدم طاقة متجددة ، بيد أن الإنتاج يتقلص في فصل الشتاء ، بسبب تجمد الأنهار ، لا سيما وأن المواقع الكبرى التي هي قيد التجهيز حالياً ، مثل خليج جيمس ، مانيكواغان ، ونهر السلام Peace ، تكون واقعة في الشمال ويجب تحقيق ارتباطها بمناطق الاستغلال بواسطة خطوط نقل ذات توتر عال . وتشكل هذه المشاريع أيضاً محذوراً لأنها تؤدي لاختلال التوازن الايكولوجي الضار بالهنود الأصليين . وتزدل هذه المصاعب بالاستعاضة بمراكز حرارية يكون معظمها من النمط النووي .

كما أن الموارد النفطية الواقعة في ولاية ألبرتا محدودة المخزون على خلاف ما كان يؤمل منها قبل بضعة أعوام ، كما تكون نفقات الإنتاج مرتفعة جداً ، مثل حوض الماكيزي مثلاً .

ولا تمثل الموارد المعدنية المستغلة سوى قدراً ضئيلاً من المدخرات . والواقع تملك كندا على الخصوص احتياطاً من اليورانيوم يضعها في المرتبة العالمية الثانية .

ويؤلف الخشب ثروة عظيمة لأن ربع رقعة كندا تعتبر منتجة ، أو ٢,٥ مليون كيلومتر مربع ، ولكنها ثروة سريعة العطب بسبب الحرائق واستئصال الغابة ، وتنظم الدولة عملية الاستغلال والإشراف على عملية التحريج .

ويؤلف استغلال الثروات المعدنية ، أو الطاقة ، أو الغائية ، جبهة طلائعية تظل غير متصلة . فهي تتألف في أغلب الأحيان من خلايا منعزلة ، وتجهد الدولة حالياً لفك طوق عزلتها بإنشاء الطرق أو بالاستعانة بشبكة من الخطوط الجوية .

☆ ☆ ☆

مصادر الثروة الكندية في عام ١٩٧٧

المجموع	المرتبة العالمية	الإنتاج العالمي	
١٧٠	-	-	إنتاج الطاقة الأولية
١٥٥	-	-	استهلاك الطاقة الإجمالية
٣١٦	٥	-	الكهرباء الكلية . مليار ك و س
٢٢٠	٢	-	الكهرباء الهيدروليكية مليار ك و س
٢٦	-	-	الكهرباء النووية مليار ك و س
٢٣	١٣	-	الفحم : ملايين الأطنان
٧٣	١٣	-	البترو
٧٤	٤	%٥	غاز طبيعي : مليار م ^٣
٥,٧	٢	%٢٠	أورانيوم
٧٨٠	٥	-	نحاس
٣٣٢٠٠	٦	-	حديد
٢٣٥	١	%٢٣	نيكل
٥٣	٣	%٢,٦	ذهب (طن)
٣٢٧	-	-	رصاص
١٣٠٠	١	%١٨	زنك
١٥٣٦	٢	%٢٩	أميانت
١٣٠٠	٣	%١٣	فضة (طن)
١٢٢٥٠	٢	-	استهلاك الفرد من الكهرباء بالعام
٦,٥٨	٢	-	استهلاك الفرد طن معادل بترو

الصناعة والمواصلات

كيف يمكن بعث النشاط في الرقعة الكندية ؟

تطرح تنمية مجال اقتصادي على مقياس كندا مشكلات قد تستعصي على الحل : فالمناطق النشطة شديدة التباعد عن بعضها بعضاً ، كما أن بؤر النشاط الصغيرة المنعزلة تكون عديدة ، ومن ناحية أخرى ، تتعرض كل المناطق الكندية لجذب المناطق المجاورة للولايات المتحدة . ويعاني الاقتصاد الكندي الكثير في سبيل إثبات ذاته تجاه جارة قوية للغاية .

المواصلات : استثمار ضروري ومرتفع الكلفة

تجعل قساوة الشتاء الكندي ، كالأنهار المتجمدة ، والمدن والمطارات المحاصرة بالعواصف الثلجية ، والطرق الخافسة خلال الربيع ، تجعل من الخط الحديدي الوسيلة الوحيدة للنقل الدائم . بيد أن هذا الخط فقد بعض أهميته بحيث لا يحقق الآن سوى ٣٠٪ من حركة نقل البضائع ، مقابل ٤٠٪ للطرق المائية ، و ٢٠٪ للأنابيب . أما الطائرة فلا تحقق نشاطاً هاماً على خطوط منتظمة فحسب ، بل تقوم أيضاً بفك طوق عزلة المراكز الصغيرة المنعزلة في الشمال .

صفات الصناعة الكندية :

لقد ظلت كندا ، ولدة طويلة ، عبارة عن دولة تصدر المواد الخام بعد معالجة بسيطة . ولم يتم التجهيز الصناعي فيها إلا خلال الحربين العالميتين بفضل رؤوس الأموال الأجنبية ، ولا سيما الأمريكية منها . ولكن نظراً لافتقارها إلى التقاليد الصناعية فقد كانت الإنتاجية فيها دون مثيلتها في الولايات المتحدة ، كما

كانت الأجور فيها متدنية بالتالي . أما في الوقت الحاضر فتوفر الصناعة العمل لحوالي ٢٨٪ من السكان العاملين ، وهذه نسبة لا تزال منخفضة نسبياً ولا تقدم سوى ٣٢٪ من الناتج القومي الخام PNB .

لائحة صناعات كاملة نوعاً ما :

تحتل الصناعات المرتبطة بالثروات الوطنية مكانة هامة : فتستغل الطاقة الكهربائية لإنتاج الألمنيوم حيث بلغ إنتاجها منه مليون طن ، مما يؤهلها المرتبة الثانية في العالم ، اعتماداً على البوكسيت المستورد ، والخلائط الحديدية ، ومعجونة الورق وورق الصحف الذي منحها الدرجة الأولى في العالم . وبلغت كندا في مضمهر إنتاج الصناعة الحديدية أهمية دولية إذ أصبحت تنتج ١٥ مليون طن في ١٩٨١ حيث تقوم المصانع في الموانئ البحرية أو الداخلية . وقد أدى تطور الإنتاج البترولي البالغ ٧٢ مليون طن حديثاً إلى قيام صناعات كيمياوية طلائعية .

هذا وتكون الصناعات التحويلية متفاوتة في تطورها : فتقوم كندا بتجميع سيارات ولكنها لاتصنع سوى سيارات ثلجية auto-neiges . ويكون إنتاج الصناعات الجوية دقيقة التخصص أيضاً ، وتمثل في شركة هافيلاند كنادير ، شأن صناعات الأدوات الكهربائية كالعنفات والأفران الكهربائية . هذا ويقوم فيها أيضاً عدد من مصانع سلع الاستهلاك المبعثرة فوق رقعة أرضها ، وتصنع منتجات استخدام عادي من أجل السوق المحلية (شكل ٢) .

مشكلات إقليمية :

تظل الصناعة في كل الغرب والوسط الكندي صناعة شديدة التخصص مثل صناعة الألمنيوم الحرارية في كيتيمات Kitimat على ساحل المحيط الهادي ، أو لا تصنع سوى ما هو ضروري للحاجات المحلية . وعلى العكس فإن أونتاريو

الكنديون

كثافات ضعيفة :

لا تعني الكثافة الوسطية وهي ٢,٥ نسمة في الكيلومتر المربع شيئاً تجاه اتساع رقعة الأراضي الشاغرة . فعظم السكان أو ٢٤,٥ مليون نسمة ، يقيمون في شريط جنوبي يدعى كندا المفيدة . غير أن شبه الجزيرة الأونتارية ، ووادي السان لوران هما الوحيدان اللذان يتصفان بكثافة شبه أوروبية .

استيطان سكاني نشيط :

لقد تضاعف سكان كندا أربع مرات منذ ١٩٠٠ ، ولكن نسبة النمو لا تتوقف عن الاسترخاء منذ ١٩٦٠ . ويبلغ النمو الطبيعي حالياً ٨,٤ بالألف أو ٠,٨ ٪ مقابل ٧,٩ ٪ في الكويت في ١٩٨١ ، أي عشرة أضعاف كندا . وتكون نسبة الوفيات ضعيفة جداً ، ٧,٣ بالألف ، وهو طبيعي في قطري ذي مستوى صحي عال . ولقد تعرضت نسبة التوالد إلى انخفاض عظيم : فبين ١٩٥٥ و ١٩٧٨ هبطت من ٢٨ بالألف إلى ١٥,٧ بالألف . ولم نعد نلاحظ ، كما في الماضي ، خصوبة أكثر شدة لدى الكنديين الفرنسيين بالموازنة مع الكنديين الناطقين بالإنكليزية . وتكون حصيلة الهجرة إيجابية أيضاً لأن عدد الداخلين كان ١٥٠.٠٠٠ سنة ١٩٧٦ مقابل ٨٠.٠٠٠ من المغادرين . ولكن حركة الهجرة إلى كندا تبدو أقل نشاطاً مما كانت عليه قبل الحرب العالمية الثانية ، لأن كندا تحاول اجتذاب العمال المختصين الذين يستقر نصفهم في ولاية أونتاريو .

حركات داخلية معقدة :

هناك ثلاث حركات تحدث في وقت واحد :

من الأرياف نحو المدن : ففي عام ١٩٠١ كان ٣٧ ٪ من الكنديين يعيشون

في المدن . أما الآن فإن المدن تضم ٧٧٪ من سكان البلاد . وهناك ثلاث مدن مليونية عملاقة تستفيد أكبر استفادة من هذا التركيز وهي : تورنتو وفيها ٢ ملايين نسمة حالياً ، ومونتريال ٣ ملايين أيضاً ولكن بسرعة أقل تسارعاً ، وأخيراً فانكوفر وهي المدينة الكبيرة الوحيدة في الغرب الكندي وفيها ١,٣ مليون نسمة .

ومن سائر أنحاء كندا باتجاه ولاية أونتاريو : ذلك أن الاقتصاد الشديد الحيوية في هذا الإقليم ، ومناخه الأكثر عذوبة ، لأن الكرمة تجود على ضفاف البحيرات الكبرى ، ومجالات العمل في مدينة تورنتو ، تتضافر جميعاً على جذب المهاجرين الجدد ، والريفيين ، وحتى من أهل منطقة كيبيك . وتحوي ولاية أونتاريو حالياً ٨ ملايين نسمة مقابل ٦ ملايين في مقاطعة كيبيك ، بعد أن كانتا متعادلتين في بداية هذا القرن .

ومن مختلف القطاعات الاقتصادية نحو القطاع الثلاثي : والذي يضم حالياً ٦٣٪ من العاملين مقابل ٤٤٪ في عام ١٩٥١ .

إعمار سكاني متنوع : يميز على المستوى الرسمي أربع مجموعات عنصرية هي :

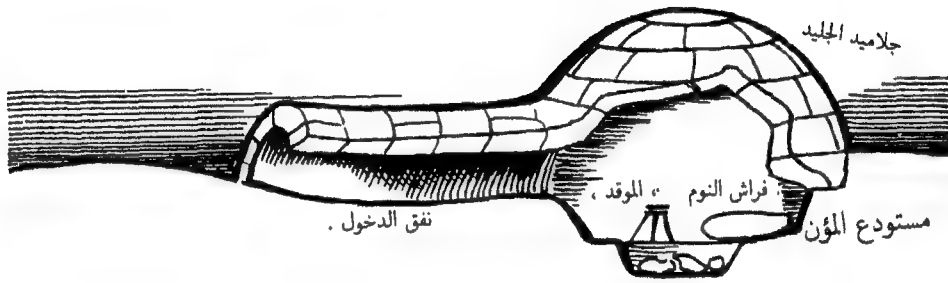
البريطانيون : وكانوا يؤلفون ٤٤,٦٪ من السكان عام ١٩٧٦ .

الفرنسيون : ويشكلون ٢٨,٧٪ .

الكنديون الجدد : ٢٥,١٪ منهم ٢٣٪ من أصل أوروبي .

الأسكيو (شكل رقم ٣) والهنود الحمر : ١,٥٪ .

والواقع هناك كتلتان تحاولان التشكل والتكتل ، وهما الناطقون بالإنكليزية ، ويؤلفون ٧١٪ من السكان والناطقون بالفرنسية ٢٩٪ . ولا تبدو



مخطط للإيفلو : بيت الأسكيمو

الشكل ٣

ازدواجية اللغة التي يريدها الفرنسيون غير ذات معنى بالنسبة للكنديين الجدد ،
الذين يفضلون تعلّم الإنكليزية التي تمثل الثقافة السائدة في القارة الأمريكية .

☆ ☆ ☆

تطور نسبة السكان العاملين حسب القطاعات الثلاثة

السنة	القطاع الأولي	القطاع الثنائي	القطاع الثلاثي
١٩٥١	٢٠	٣٦	٤٤
١٩٦١	١٢	٣٦	٥٢
١٩٧١	٨	٣٢	٦٠
١٩٧٦	٦	٢٨	٦٦

المدن الكندية :

إذا تفحصنا أوضاع الحياة ، السائدة في المدن الكندية ، استطعنا أن نغيز ، وذلك استناداً إلى الدراسات الحديثة التي تمت لحساب وزارة الدولة للشؤون العمرانية ، أربعة نماذج من الأحياء :

- الأحياء المتقهقرة : وهي الواقعة في قلب أكبر المدن الكندية ، وتكون مأهولة بمجاعات من الفقراء . وتكون المساكن فيها غاصة وهرمة ، ويكون الجنوح فيها منتشر ، ولا سيما بين الشبان ، كما أن حالة السكان الصحية تكون ، بكل وضوح ، دون مثيلتها في الأحياء الأحسن حالاً .

الأحياء المستقرة : وتعطي صورة مختلفة تماماً ، مع أنها مأهولة بأناس من ذوي الدخل المتواضع . وهي وإن كانت أبعد من أن تكون موسرة ، فلديها ما يكفي من الجاذبية على الصعيد الفردي وعلى المستوى الاجتماعي ، مما يجعل سكانها متعلقين بها ، وقلما يبدلون مساكنهم . ويبدو على السكان أنهم معجبون بالحياة الهادئة السائدة فيها .

- أما الأحياء المتجددة ، فهي أحياء قلب المدينة ذات الكثافة السكانية الضعيفة : ففي هذه الأحياء الكثير من البيوت الصغيرة الخاصة ، التي توفر إمكانات هامة للترميم والتي تبدو مرغوبة أكثر فأكثر من قبل العائلات القادرة على شراء مساكنها ، مع أنه لا يزال الكثير من العائلات من الذين يرغبون العيش في دارة « فيلا » في الأرباض « الضواحي » حسب المثل الأعلى الأمريكي . وهكذا نجد حركة شبه مستمرة ، وهي أن الناس الميسورين من مستوى ثقافي مرتفع ، أي أعلى من المتوسط ، يحاولون ، على العموم ، أن يملأوا مكان العائلات الفقيرة التي كانت تقطن في هذه الأحياء منذ زمن طويل .

- وهناك قطاعات أخرى في المدن الكبرى ، أصبحت هدف تطوير على مقياس كبير ، بسبب نمو وتطور المدن ذاتها . فقد قامت فيها أبراج سكنية على شكل موجات متعاقبة ، مثلما حدث في تورنتو على طول خط مترو شارع يونج . ويستطيع هذا التطور أن يقدم فرصة تصايب العمارات ، بيد أن غط الحياة قد تبدل ، ذلك لأن الأبراج العالية تؤلف بيئة لا تستجيب دائماً مع الحاجات الإنسانية .

كندا اليوم . نيسان ١٩٨٠



الإنسان الكندي

من الواجب أن يؤلف الكنديون شعباً يجهل المشكلات الخطيرة : ففي عالم يضيق ذرعاً بسكانه لا يفتقر الكنديون إلى المكان الرحب الفسيح ، كما أنهم أغنياء لأن دخلهم الوطني الخام PNB بلغ ٩٦٦ مليار فرنك فرنسي عام ١٩٧٧ ، مما يضعهم في المكانة الثالثة بالعالم ، كما أن الناتج الوطني الخام الفردي يبلغ ٤١٥٠٠ فرنك أو ٨٣٠٠ دولار أي يحتلون المرتبة السادسة للدخل الفردي . كما يكون مستوى استهلاكهم عالياً ، فلديهم ٣٧٤ سيارة سياحية لكل ١٠٠٠ مواطن ، كما أن نسبة الوصول إلى التعليم العالي تعتبر من أعلى مثيلاتها في العالم ، إذ تبلغ ٤٩,٨٪ أو نصف طلاب الثانوي تقريباً . وإذا استثنينا أزمة عام ١٩٧٥ فإن الدخل القومي الخام يتقدم حسب نسق يبلغ ٣,٧٪ في العام . غير أن المصاعب والمشكلات لا تكون معدومة .

ثروات غير مستغلة كما يجب :

إذا كان الميزان التجاري فائضاً لأن الصادرات بلغت في عام ١٩٧٧ مقدار ٤٣,٢ مليار دولار كندي ، مقابل ٤٢ مليار دولار للاستيراد ، فإن ميزان المنتجات المصنوعة يكون عاجزاً ، بينما تباع كندا معظم صادراتها بحالة خام . ومن ناحية أخرى فإن ميزان المدفوعات خاسر بسبب الفوائد المدفوعة للمستثمرين الأمريكيين أو سواهم . وكان الدين الخارجي يمثل ٥٠٪ من الناتج القومي الخام عام ١٩٧٨ . ويدل هذا الوضع على أن الكنديين يفتقرون للمبادعات ولرؤوس الأموال اللازمة لاستغلال بلدهم . وأخيراً تستأثر الولايات المتحدة بنسبة ٧٠٪ من المبادلات الكندية . وربما يكون من المزعج وجود جار يمثل هذه القوة ، وقد قررت الحكومة الإشراف على الاستثمارات الأجنبية وتحديدها .

ثروة غير عادلة التوزيع :

يختلف الدخل العائلي حسب معدلات كبيرة جداً بين إقليم وآخر : فهو يبلغ ١٨٠٠٠ دولار أي يقارب دخل الفرد الكويتي أو القطري في أونتاريو في حين لا يزيد عن ١٣٥٠٠ دولار في المقاطعات البحرية الشرقية . ففي هذه المقاطعات ذاتها تكون البطالة عالية جداً فبلغت ١٢٪ عام ١٩٧٧ مقابل ٦,٢ في أونتاريو ، و ٨,٧ في كيبيك وعلى كل أصابت البطالة في مطلع عام ١٩٨٣ ١,٥ مليون نسمة أو ١٢,٨٪ من القوى العاملة . غير أن هذه الفوارق تكون معوضة على كل حال بعون فيديرالي إلى المناطق الأقل رخاءاً .

إقليم كيبيك ومشكلة الوحدة الوطنية :

يعتبر أبناء مقاطعة كيبيك أنفسهم مختلفين عن سائر الكنديين . فقد كانوا أول من دخل البلاد ويفتخرون باحتفاظهم بثقافة ذات أصالة بلغتها وبإيمانها الكاثوليكي . وقد خضعوا لوضع استعماري خلال أمد طويل ، فقد جرى استبعاد « هؤلاء الزنوج البيض الأمريكيين » لمدة طويلة عن الحياة الاقتصادية وعن وظائف المسؤولية كالإطارات والوظائف السياسية الخ .. ولا يزال دخلهم حتى الوقت الحاضر أقل ارتفاعاً من دخل الناطقين بالإنكليزية ، كما أن فرص ارتقائهم تظل أقل ، وإذا كانوا قد حصلوا على حق ازدواجية اللغة في عام ١٩٦٩ في كل كندا فإن هذا القانون لا يجري تطبيقه إلا في مقاطعة كيبيك حيث يؤلفون الأكثرية .

وقد استفحل شعورهم القومي منذ بضعة أعوام مما أدى إلى تشكل حزب كيبيكي راح يطالب بالاستقلال مما دعا لإجراء استفتاء في عام ١٩٨٠ . ولكن إذا حصلت كيبيك على الانفصال فما هو مصير الأقليات الفرنسية في المقاطعات الأخرى كالأكاديين في إقليم نيوبرنسويك ؟ كما يمكن التفكير إذا حصل وتفكك الاتحاد الكندي فإن المقاطعات التي لا يميزها شيء عن الولايات المتحدة على المستوى الاقتصادي والثقافي ستشعر بنفسها وكأنها مجذوبة من طرف قطب

أمريكي جاذب . ترى ما هو مصير كندا في مثل هذه الحالة ؟ وعلى كل ظلت كيبك جزءاً من الاتحاد الكندي نتيجة الاستفتاء لأن مصالح الغالبية كانت في ذلك .



منشور الحزب الكيبكي من أجل استفتاء عام ١٩٨٠ :

يتم التطور الاقتصادي على حساب مصالح كيبك ، في حين تكون هذه المقاطعة في أمس الحاجة لأن يكون اقتصادها مزدهراً وحركياً ، لضمان بقاء ثقافة الغالبية العظمى من سكانها على المدى الطويل . وقد برهن النظام الاتحادي بأنه كان يلعب دوماً تقريباً ضد مصالح أبناء كيبك . ولم يعد هناك وقت للانتظار من أجل وضع حد لمثل هذا الوضع . ولا تستطيع أية جماعة أن تقبل إلى ما لا نهاية أن تمهد بمصيرها الخاص للآخرين دون أن تخسر كرامتها ودون التعرض لخطر قاتل لبقائها .

وذلك مقاطعة كيبك كل الموارد المادية والبشرية الضرورية لأن تمارس سيادتها السياسية . ولكنها لا تدعي بأن لديها القدرة لأن تعيش ضمن العزلة أكثر من أية جماعة عصرية أخرى . فهي تشعر بالعديد من الشبكات المؤلفة من العلاقات المتبادلة التي توحد مختلف الجماعات فيما بينها ، وهي مستعدة لأن تحتل مكانها كشريك مسؤول ونشط فعال ، ولا سيما فيما يتعلق بهذه الارتباطات المتميزة الناجمة عن التاريخ والجغرافيا .

وبالتالي فإن حكومة ناشئة عن الحزب الكيبكي ستتعهد بتحقيق السيادة السياسية بالطرق الديمقراطية ، وتعرض على كندا مشاركة اقتصادية مفيدة للجانبين .

الشعور بالذات الكندية :

إن هذا الشعور الذاتي الذي يجب علينا تعليه ونشره ، هو الشعور بالولاء لشيء يتجاوز الإقليم أو المدينة التي يحيا فيها الإنسان حياته ، ويجب أن يجد أساسه في جماعة حقوق المواطن الجوهريّة ، وفي وصول هذا المواطن إلى حقه في قدر من وفرة الثروات الكندية وفي ثراء وتنوع قوانين البلاد . وفي هذا المعنى يجب أن تتفوق المصلحة الوطنية على المصلحة الإقليمية ، مهما كان ذلك عسيراً أحياناً بالنسبة لبعضنا ، من الذين يصعب عليهم تناسي انتابهم إلى مدينة أو إلى مقاطعة ، لأن الحكومات الإقليمية والجماعات الأخرى تحاول أن تجعل الغلبة لمصالحها .

خطاب رئيس الوزراء بيير ترودو ١٩٨٠/٤/٢٠

أمريكا اللاتينية

جزء من العالم الثالث

تضم أمريكا اللاتينية مجموعاً جغرافياً فسيحاً يؤلف ١٦٪ من مساحة الأرض العائمة ، إذ تشتمل على أرخبيل الأنطيل وبرازخ أمريكا الوسطى والمكسيك ، وتتألف بالأصل من فتوحات قام بها الإسبان والبرتغاليون على حساب هنود أمريكا خلال القرن السادس عشر ، ثم تحولت إلى مستعمرات تشبعت « باللاتينية » التي تتجلى بالديانة الكاثوليكية وبانتشار اللغتين الإسبانية والبرتغالية ، ماعدا شطر من جزر الآنتيل ودويلات غويانة الثلاث . ولقد تحررت في بداية القرن التاسع عشر ، ولكنها ظلت مشتتة على شكل دول صغيرة ، وبعضها في طريقه إلى « التخلص من الاستعمار » بحيث أصبحت أمريكا اللاتينية تؤلف ثلاثين وحدة سياسية ما بين دولة مستقلة وأراض تابعة ، متفاوتة الأبعاد ، وذات أوضاع سياسية أو اقتصادية على درجة كبيرة من التنوع ، دول تتقاسم « شبه القارة » ، التي ظلت خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين عرضة لاضطرابات حدودية أو لحروب أهلية شديدة الفتك ، تتلاعب في مقدراتها مصالح الدول العظمى ، لأن الحرب الأهلية في نيكاراغوا ، في عهد الديكتاتور سيموزا ، كلفت البلاد قرابة ٤٠٠٠٠ قتيل في بلد لا يزيد تعداد سكانه عن ٢,٥ مليون نسمة . وفي هذه الجمهوريات الاتحادية ، كالمكسيك ، وفنزويلا ، والبرازيل والأرجنتين ، أو « الموحدة » تشهد الفترات الثورية والديكتاتوريات ، التي تقوم على أيدي عسكريين Caudillo ، أو رجال الأعمال Compradors ، تشهد على غليان

سياسي مستمر . وقد أصبحت كوبا منذ عام ١٩٥٩ قطراً اشتراكياً وعضواً في الكوميكون ، وتكون البنى الاقتصادية والاجتماعية التي تحمل الطابع العتيق الموروث عن المرحلة الاستعمارية هي المسؤولة عن ذلك ، مما يساعد على هيمنة الرأسمالية الأجنبية و « زعامة » الولايات المتحدة ، والتي أصبحت بموجب مبدأ مونرو ١٨٢٣ الذي نادى بشعار « أمريكا للأمريكيين » ، أصبحت تضم « نصف الكرة الغربي » ضمن نطاق نفوذها ، وهكذا اتخذت منظمة الدول الأمريكية ، التي أنشئت في عام ١٩٤٨ من العاصمة واشنطن مقراً لها .

وتجابه كل أمريكا اللاتينية مشكلات التخلف بدرجات متباينة . ففي بعض الحالات نجد أن الناتج الداخلي الخام الفردي عالياً نوعاً ما ، ويعود ذلك إما لدعم الدولة المسيطرة ، مثل بورتوريكو التابعة للولايات المتحدة ، ٣٣٠٠ دولار ، أو نصف الدخل الفردي في الولايات المتحدة ، أو بسبب الثروة النفطية ، مثل فنزويلا التي يرتفع الناتج الداخلي الفردي الخام فيها إلى ٢٨٠٠ دولار . هذا ويكون لأكثر دول أمريكا اللاتينية تطوراً ، مثل الأرجنتين والأوروغواي ، اللتين يتصف اقتصادهما بالركود ، أو البرازيل والمكسيك اللتين تشهدان نهضة محسوسة ، دخلاً فردياً يتراوح بين ١٠٠٠ و ٢٠٠٠ دولار ، أي دخلاً يماثل البرتغال وإسبانيا ، في حين لا يتجاوز لدى أكثرية الدول الأخرى خمسمئة دولار ، أي يماثل الدخل في أقطار المغرب العربي أو متوسط الدول العربية غير النفطية . ولكن دولة هايتي لوحدها ، هي التي يهبط الدخل الفردي فيها إلى ٢٥٠ دولاراً ، تدخل في زمرة أقطار أفريقيا السوداء وآسيا المدارية ، أو تندمج في زمرة أكثر دول العالم فقراً وجهاً وأمراضاً ، أو العالم الخامس .

ويمثل القطاع الثانوي « الصناعي » على العموم ما بين ١٥ إلى ٣٠٪ من السكان العاملين (شكل ١) ، بما في ذلك العاملين في الصناعة

الاستخراجية ، أما القطاع الثلاثي فيكون أكثر اتساعاً . ويكون أحياناً « قطاعاً ثلاثياً بدائياً » ، حيث تحتل الخدمات المنزلية والمهن الصغرى مكانة واسعة . أما حصة العاملين في الزراعة (شكل ٢) ، التي تتجه للتناقص بصورة صريحة ، فتتراوح بين ٣٠ و ٦٠٪ وأحياناً دون ٢٠٪ ، كما في الأرجنتين والأوروغواي ، أي تقل عن نسبتها في الأقطار الآسيوية الفقيرة أو الأفريقية .

وتسود في هذه المنطقة من العالم الملكيات الزراعية الكبرى وقد جرت محاولات لتطبيق الإصلاح الزراعي ولكنها نادراً ما أنجزت تماماً ، اللهم إلا في كوبا ، وفي المكسيك حيث تم استهلاك ٢٥ مليون هكتار ، بعد ١٩٣٣ ، وجرى توزيعها على الجماعات القروية التي شكلت ما يسمى آجيدوس ejidos ، ولكنها أصبحت في أيدي فلاحين فقراء ، محرومين من الوسائل التقنية ، مما جعل هذه الملكيات الصغرى لا تنتج سوى ما يكفي لمعيشة العاملين فيها . ويظهر انعدام المساواة في كل مكان من أمريكا الجنوبية . ففي البرازيل ، كما هو الحال في الأرجنتين ، يتأثر ٥٪ من العائلات ، وهي الغنية ، بربع الدخل الوطني ، في حين يكفي أكثر قطاعات الشعب فقراً ، وهم ٢٠٪ من السكان ، بنسبة ٥٪ من الدخل المذكور .

وتنتسب أمريكا اللاتينية ، من حيث وجهة النظر إلى وتيرة نموها الديموغرافي ، إلى العالم الثالث . فابتداءً من الفترة الواقعة بين ١٩٢٠ و ١٩٤٠ ، كان الفائض الطبيعي يقارب ٢٪ سنوياً ، كي يبلغ ٣٪ بين ١٩٥٠ و ١٩٧٠ . وهكذا تضاعف عدد السكان ثلاث مرات في خلال نصف قرن فقفز من ١١٥ مليون نسمة في ١٩٣٠ إلى ٣٦٠ مليوناً في ١٩٨٠ .

ويؤلف الذين تقل أعمارهم عن ١٥ سنة في معظم دول أمريكا اللاتينية ٤٠٪ وحتى ٥٠٪ من مجموع السكان هذا مقابل ٤٪ إلى ٦٪ من الذين تزيد أعمارهم عن ٦٥ سنة ، هذا بينما لا تزيد نسبة الذين تقل أعمارهم

عن ١٥ سنة عن ٢٣٪ في السويد . أما في الأرجنتين والأوروغواي ، وحتى الشيلي ، حيث ينتمي جميع السكان تقريباً لأرومة أوروبية ، فإن الفائض السكاني يكون أقل من ذلك ، بحيث تمكن مقارنته مع إسبانيا أو ١٪ . ويقوم التوسع الديموغرافي بتغذية تحضر عمراني فوضوي . ويكفي في هذا المجال أن نشير إلى أحياء القصدير في العواصم^(١) . وحتى الآن لازالت الموارد الغذائية تواكب ، رغم ضعف المردود الزراعي ، النمو السكاني ، وعلى خلاف ما يحدث في آسيا الجنوبية الشرقية ، أو في أفريقيا ، فإن المجاعات تكون استثنائية ، وإن كان سوء التغذية ملحوظاً في الكثير من مناطق أمريكا اللاتينية .

ولم تأخذ تبعية أمريكا اللاتينية اقتصادياً تجاه الدول الصناعية بالتناقص ، إلا منذ عهد قريب جداً ، تلك الدول التي تجدد هنا المواد الأولية والسلع الغذائية الرخيصة ، وأسواقاً لتصريف منتجاتها الصناعية ، وأمكنة رحبة لاستثمار رؤوس أموالها . وإذا كانت المكسيك قد عمدت إلى تأمين حقول نفطها في ١٩٣٨ ، فإن فنزويلا وهي إحدى أعضاء منظمة الدول المصدرة للنفط ، لم تسيطر على مواردها إلا منذ ١٩٦٧ . ولقد استطاعت الدول التي تملك عائداً نفطياً ، أو بعض الدول الغنية نسبياً ، مثل البرازيل والأرجنتين ، لوحدها ، أن تتحرر جزئياً من رؤوس الأموال الأجنبية كي ترسي قواعد صناعة وطنية . وتظل كل هذه الدول مصدرة للمواد الأولية الخام ، من معدنية وزراعية ، والتي تتعرض أسعارها لمضاربات شديدة . إذن يتعلق الازدهار الاقتصادي بمحصول واحد وبسوق واحدة . هذا مثلاً نلاحظ أيضاً أن نسبة النمو الاقتصادي تحوم منذ بضعة أعوام حول ٥٪ في حين أن التضخم المزمن يحتل رقماً قياسياً في البرازيل ، وفي الأوروغواي ، وفي الشيلي ، وعلى الخصوص في الأرجنتين ، مما يعرض هذه الأقطار لهزات اجتماعية وسياسية مؤلمة .

(١) وهي أحياء بائسة غير منظمة تسكنها جماعات وافدة من الريف ، وتدعى العشش في مصر ، والصرايف في العراق والصادق في دول الخليج العربي ، والبراكات في سورية .

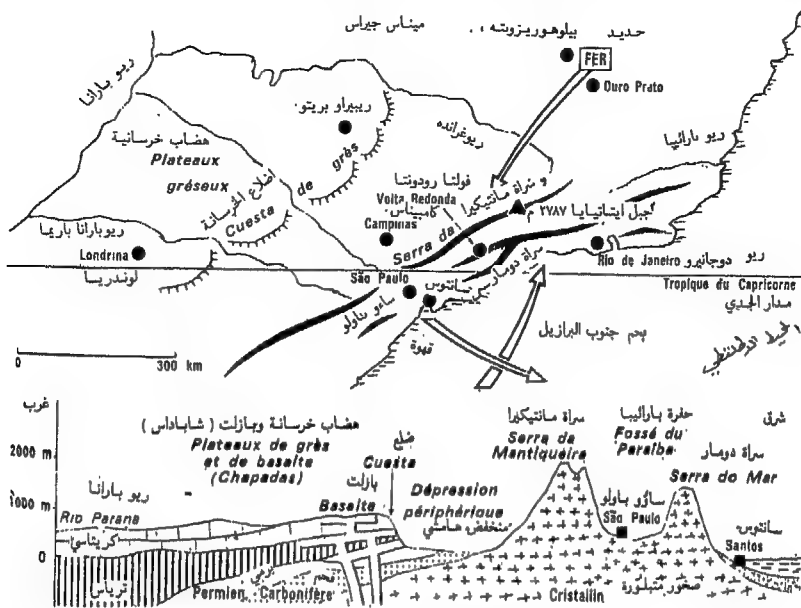
البرازيل

« القارة البرازيلية »

تكون البرازيل ، التي تبدو وكأنها تتقدم في المحيط الأطلنطي لملاقاة أفريقيا ، تكون معزولة في أمريكا الجنوبية بواسطة فيافي الأمازون وماتوغراسو . ونظراً لوقوع عرضها الأعظم فوق خط العرض ٥ جنوباً ، أي على عرض رأس ساءوروك ، ولوقوع معظمها في نطاق ما بين المدارين ، فهي تمتد على مساحة تبلغ ٨,٥ ملايين كيلو متر مربع ، أو ما يقارب مساحة الصين ، أو نصف مساحة الوطن العربي الكبير . وتغطي « الهضبة البرازيلية » الفسيحة ثلثي مساحتها (شكل ٣) . وهي عبارة عن ترس shield قديم ، تعرض لخفض في الشمال الغربي ، ولنهوض في الجنوب الشرقي . أما من طرف المحيط الأطلسي فهناك صدوع تجزئ هذا الترس إلى كتل جبلية جانحة basculés ، تؤلف جبال سراة مانتيكيرا (شكل ٤) ، والممتدة بين مدينة رسييف وپورتو آليقرو ، والتي ترتفع إلى ٢٧٨٧ م . وتواكب « قوالب السكر » الغرانيتية سبعة من سهول ساحلية ، مفرّضة بخلجان واسعة مثل خليج ريودو جانيرو . أما في اتجاه الداخل فتسود سطوح منبسطة ، هي عبارة عن أشباه سهول Pénéplaines متبلورة تنبثق فوقها بعض الأعراف المؤلفة من صخور أكثر مقاومة ، مثل موائد الصخر الرملي المسماة شاپاداس chapadas ، أو تكون عبارة عن لابات بازلتية . غير أن حوض الأمازون الذي اعتراه خفض بسيط ، أدى لتراكم أكثر من ٣٠٠٠ م من رسوبات ناعمة (غرين) فيه ، ويتعرض لالتواء انكسائي subsidence على شكل مقعر



الشكل ٣ التوزيع والمناطق الطبيعية في البرازيل



الشكل ٤ الشرق: المنطقة الحيوية في البرازيل

فضفاض ، بين الهضبة البرازيلية من جهة وبين هضبة الغويانة من الشمال ، من جهة أخرى ، وهو يؤلف منخفضاً ، لا يزيد ارتفاعه في أي مكان عن ٣٠٠ م ، وبعد أن يتخذ شكلاً شبه دائري عند حضيض جبال الآند غرباً ، نراه وقد أصبح ضيقاً عند الاقتراب من المصب العريض . ويكون حوض الأمازون النهري غير متناظر . فالنهر يجري في محور المقعر synclinal مع انحدار غير محسوس ، وذلك حتى في « ممر » أوبيدوس Obidos ، ولا تصل إليه أكثرية روافده من الضفة اليمنى إلا بعد أن تقفز من فوق الجنادل والشلالات عند منحدر الهضبة البرازيلية . وتملك البرازيل أيضاً شطراً من سهول پاراغواي المستنقعية والتي تسمى پانتانال . Pantanal

ويعمل كل من ارتصاف التضريس والموقع على درجات العرض على جعل المناخ نطاقياً ، والذي يكون بسيطاً من الناحية الحرارية ، ولكنه يضطرب بشذوذات مطرية . فالبرازيل الاستوائية تتجاوز مهد سهول الأمازون المنخفضة . وتتراوح درجات الحرارة الشهرية بين ٢٥° و ٣٥° ويكون الحر ثابتاً وعالياً في حين تزيد كمية الأمطار السنوية عموماً عن المترين . غير أن النظام الاستوائي ، الذي يتميز بمحدين أقصيين في الاعتدالين ، لا يسود إلا في غرب الحوض ، حتى أن لمدينة ماناؤوس فصل جفاف خلال الشتاء الجنوبي ، أي من تموز إلى أيلول . وهكذا يميز أهل البلاد فصل « Verão » ربيع وفصل أمطار طويل ومرهق هو « الشتاء hivernage » .

وتستفحل الملامح المدارية فوق الهضبة البرازيلية : فتكون الساعات الحرارية أكبر ، وفصل الجفاف أكثر وضوحاً . ولكن هناك برازيل شبه قاحلة شاذة تقع على درجات عرض منخفضة ، بين درجة العرض ١٧ ، أي في الحوض الأعلى لنهر ساؤو فرانسيسكو ، ودرجة العرض ٣ جنوباً عند مدينة فورتاليزا شمال رأس ساء وروك . ذاك هو إقليم « نوردسته Nordeste » أو

الشمال الشرقي الذي يدين لعوامل مناخية معقدة بأمطار تقل وسطياً عن المتر ، أو تقل عن ٥٠٠ مم أحياناً كما في « مضلع الجفاف » ، كما تكون عديمة الانتظام في المكان والزمان . أما الساحل الأطلنطي ذو الجروف القائمة فيظل بين سلفادور وسانتوس ، على العكس ، مصحوباً بتيار بحري من مياه استوائية ، وبالتالي حاراً ورطباً . غير أن لمدينة ساءو پاولو ، التي تبعد عن البحر مسافة ٥٠ كيلو متراً والتي تقع على ارتفاع ٨٠٠ م ، فصل شتاء أكثر برودة ، لأن حرارة تموز لا تقل عن ١٤ درجة ، هذا مثلاً تتعرض أحياناً شجيرات القهوة للصقيع . وتظهر البرازيل شبه المدارية فيما وراء خط العرض ٢٥ ابتداء من مدينة كوريتبا ، أو بالأحرى البرازيل المعتدلة مع فصل شتاء جنوبي لا يزال لطيفاً .



تتألف البرازيل من ثلاث مجموعات كبرى قليلة التضاريس ، هي سهل الأمازون الشديد الاتساع ، و « الهضبة البرازيلية » والتي هي أكثر اتساعاً أيضاً ، وأخيراً حافتها الجبلية المطلة على المحيط الأطلسي ، والتي لا يتجاوز عرض سهولها الساحلية عن ١٠٠ كيلو متر . إذن تحتل الأراضي المنخفضة التي يقل ارتفاعها عن ٢٠٠ متر مقدار ٤١٪ من مساحة البلاد ، والهضاب المنخفضة ، أي بين ٢٠٠ و ٨٠٠ م أكثر من نصف مساحة البلاد أو ٥٢٪ . وهناك نسبة تزيد عن ٦٪ مؤلفة من هضاب عالية تصل إلى ١٢٠٠ م ، أما البقاع الجبلية الحقيقية فلا تشكل أكثر من ١٪ من رقعة البلاد .

تظهر المنحنيات المطرية الحرارية الأنظمة المناخية الأربعة التي تتميز بها البرازيل

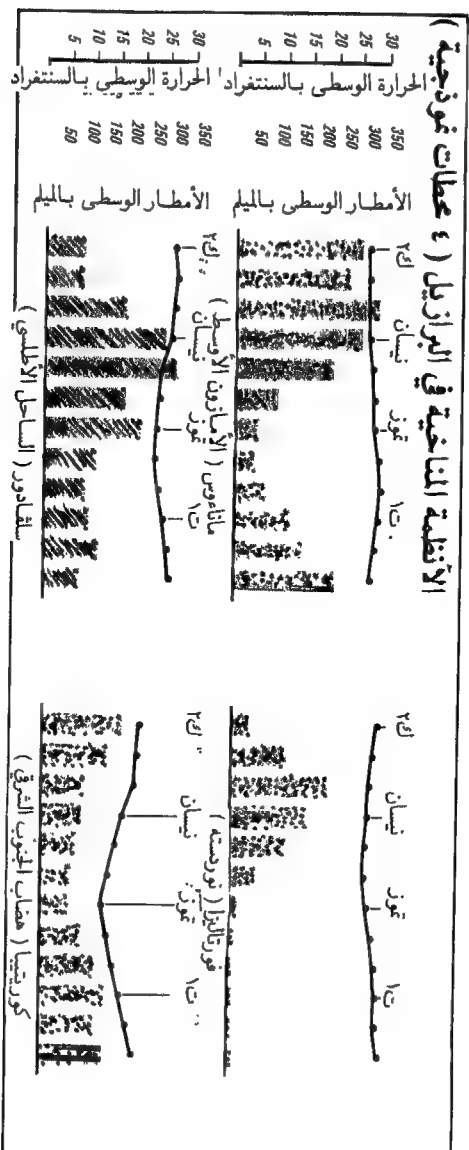
- مناخ سهل الأمازون الأوسط ومثاله مدينة ماناؤوس

- مناخ الشمال الشرقي ونموذجه فورتاليزا

- مناخ الساحل الأطلنطي الرطب ومثاله مدينة سالفادور

- مناخ هضاب الجنوب الشرقي كما في كوريتبا حيث تصبح السعة الحرارية ملحوظة . ولكن

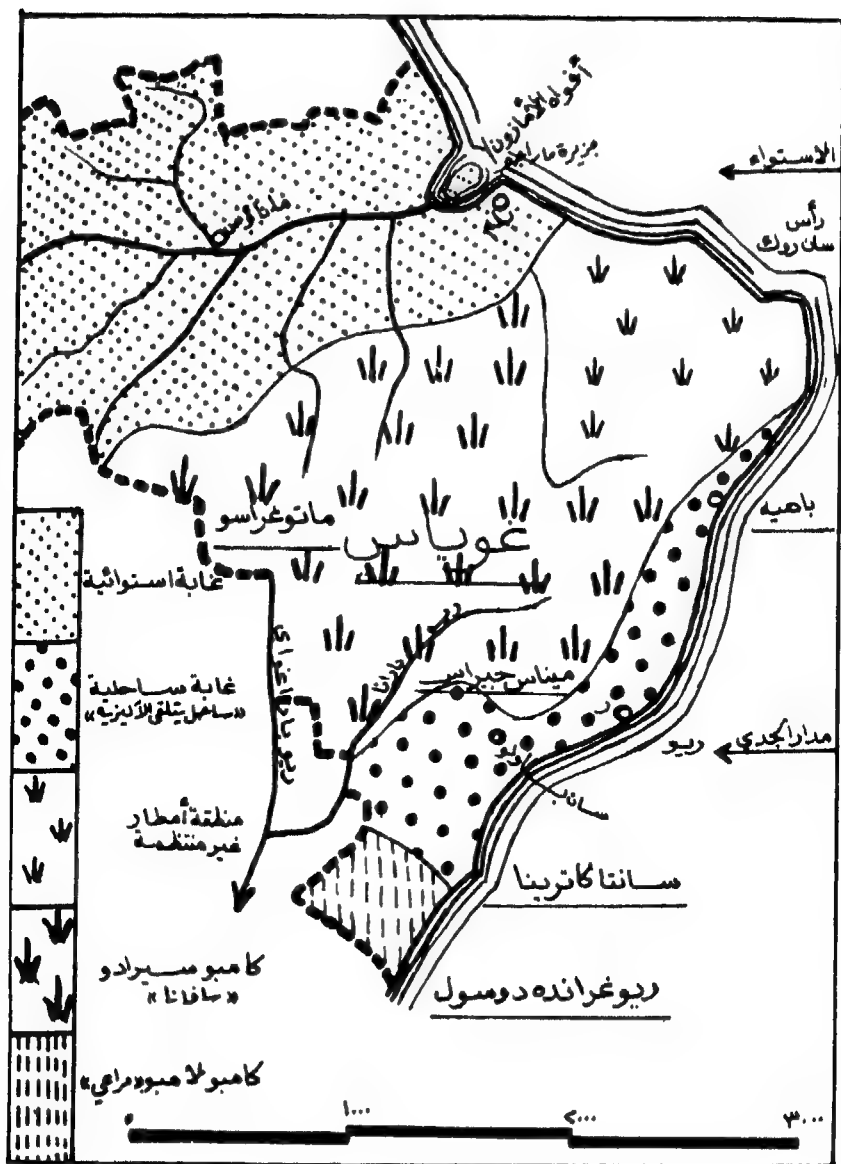
يظل الشتاء لطيفاً ، وتكون الفروق المطرية محسوسة أيضاً ، فبينما يكون متوسط الأمطار السنوية ٢١٠٠ مم في ماناؤوس ، يهبط إلى ٧٦٠ في فورتاليزا ، ويبلغ ١٨٤٠ مم في سلفادور ، و ١٢٨٠ في كوريتبا . بيد أن فصل الجفاف لا يكون قاسياً حقاً إلا في فورتاليزا ، حيث يمتد على ستة أو ثمانية شهور (شكل ٥) .



الشكل ٥

البرازيل : المناطق الطبيعية

تتوزع الرقعة البرازيلية بين ثلاث مجموعات جغرافية كبرى : فالمشرق الأطلنطي ، هو المنطقة الطبيعية الوحيدة التي تأثرت بعمق بالعمل الإنساني . أما الداخل فهو بالنسبة للبرازيليين إقليم الأدغال Sertão ، أو الغابة الأمازونية (شكل ٦) . وتتألف هذه الغابة أكبر كتلة غابية كثيفة في عروض ما بين المدارين . وعند النظر إلى السلخا Selva من الطائرة ، فإنها تعطي انطباع الكثافة والاستمرارية ، وهكذا لا يكون « الجحيم الأخضر » مقطّعا إلا بواسطة الأنهار ، أو بقع الرمال والوحول ، التي يشكلها نهر الأمازون الذي يبلغ طوله ٦٤٠٠ كيلومتراً وروافده ، ويتحول هذا النهر عند مصبه إلى خليج بحري حقيقي يمتد على عرض ٣٠ كيلومتراً . ويسكب في المحيط كمية من المياه العذبة تعادل خمس مياه أنهار العالم قاطبة . وعند دخول النهر إلى بلاد البرازيل يجري على ارتفاع ٦٠ م ، فيكون إذن عبارة عن نهر سهلي ، ذي ميل ضعيف ومنتظم وذي صبيب مدعوم مستقر ، لأن الصبيب في ماناوس لا يقل عن ٦٠٠٠ م^٣ / ثا ، ويصلح للملاحة البحرية حتى مدينة ماناوس . ويغمر الفيض الشتوي نطاقاً واسعاً هي « القارزيتا » ، المؤلفة من غابة رواقية منخفضة نوعاً ما ، ولكنها شديدة الكثافة ، ويسود فوق « الأرض الصلبة » أي فوق الفواصل النهرية ، غابة عالية ، وتحتغابة « نبت الحراج » فاتحة . وتساهم غابة السلخا الأمازونية ، التي هي نوع من اسفنجية واسعة ، في دعم التوازن الهيدرولوجي على الكرة الأرضية . وعندما تصبح الأمطار أقل غزارة ،



الشكل ٦

نبات البرازيل

يكون الجفاف واضحاً للعيان ، والترب شديدة الفقر ، وتتلشى الغابة « الدائمة الخضرة » أمام تشكيلات نباتية أخرى ، هي السافانا أو المروج Prairies ، وهي الكامبوس campos مثل كامپو سَرادو campo cerrado في إقليم ماتوغراسو ، والذي يتغطى برداء من النجيليات القاسية وباقات الشجيرات ، أو مثل كامپوليمبو campolimpo في إقليم ريو غرانده دوسول ، والمؤلف من بساط عشبي مستمر ومن مراعى ممتازة .

يبد أن قحولة « النوردسته » تفرض نوعاً من أحراش هي « الكاتينغا » caatinga وهو تشكّل نباتي مفتوح ذو نباتات شوكية وشحمية .

وقد كان قسم كبير من البرازيل مستوراً بغابة كثيفة غير أن المستزرعين لم يتركوا منها سوى الأجزاء التي تشبثت فوق أكثر السفوح وعورة ، أو في القيعان الرطبة . وهكذا تحول السهل الساحلي ، بين رأس ساءوروك حتى خليج سلفادور ، ذي الأراضي السوداء اخصيبة ، إلى مزارع قصب السكر . ففي منطقة ميناس جيريس Minas Gerais أخذت السلطات من جديد تقوم بتحريج الأراضي بأشجار الأوكالبتوس ، الأسترالية الأصل ، ذات النمو السريع ، بعد أن تم اجتثاث الأشجار بشكل جائر لتأمين الوقود لأفران صهر المعادن . وإلى الجنوب من المدار ، تعرضت غابة صنوبر أروكارياس ، والخاصة بنصف الكرة الجنوبي ، والشديدة التجانس ، تعرضت بدورها لقطع شديد جعلها غابة مفتوحة حتى ضفاف نهر پارانا .

ولم تحدث عمليات استزراع الأرض في البرازيل فعلاً ، إلا على حساب الغابة ، وذلك حيثما كانت هذه الغابة في متناول اليد . وما أن يتم تحريج الغابة المنتجة للدبال humus حتى تتعرض التربة ، التي تكون أحياناً غنية جداً ، كالأراضي البنفسجية terras roxas في ولاية ساءوپاولو ، والناشئة فوق البازلت ، ولكنها ترب سريعة العطب دوماً ، أقول حتى تتعرض للغسل

والافتقار ، ويحل مكانها درع من لاتيريت عقيم يدعى كانغا Canga أو يجرفها الحت تماماً ونهائياً .

وهكذا ندرك كيف أن البرازيل ذات الزراعة من النمط المداري ، والتي تكون هدامة وواسعة ، لاتزرع أكثر من ٥% من مساحتها الهائلة . وهكذا أصبحت تنمية حوض الأمازون الذي ظل مهجوراً لمدة طويلة ومعتبراً كمحتجز réserve خاص بالقبائل الهندية ، قضية الساعة . بيد أن الإعمار الرسمي الذي ابتدأ منذ عام ١٩٦٧ تحت إشراف إدارة الأمازون العليا S. U. D. A. M ، لا يتم دون التسبب في أخطار اجتماعية ، كإبادة أواخر الهنود من قبائل برافوس bravos ولا سيما الأخطار الأيكولوجية ، كإبادة الغطاء النباتي وانجراف التربة إلخ ..



الغابة الأمازونية : يجتاز نهر الأمازون وروافده ، التي تتجاوز أطوال ٢٠ رافداً منها ١٥٠٠ كم إلى ٢٥٠٠ كم ، تجتاز قسماً كبيراً من الغابة العذراء وهي تغمر مساحات واسعة منها . ويميز السكان بين الأنهار ذات المياه الراكدة rios brancos وبين الأنهار السوداء rios negros ، ذات المياه القاتمة والمشحونة بالدبال . « ويتألف النبات البدائي بالطبع من الغابة الكثيفة أو الحجة للمياه ، أو الحجة للظل ، وتلك جميعها صفات نوعية : دورة نباتية مستمرة ، أوراق دائمة ، كبر حجم الأشجار ، أنواع عديدة وشديدة التبعثر ، طبقات متنضدة ، غنى الغابة بالنباتات الراكبة والمتسلقات ، غياب ماتحت الغابة ، رقة طبقة الأوراق الميتة فوق الأرض لسرعة تفسخها ، ترب عميقة ولكنها فقيرة ، وقد كتب الكثير عن أشكال الخطر في هذا العالم الموحش ، وكما هو الحال في سائر الأمكنة ، فإن الغابة الكثيفة سرعان ما يتم استبدالها ، بعد استئصالها بغابة ثانوية أقل ارتفاعاً ، وعرومة من تحتغابة كثيفة . بيد أن الغابة الأمازونية تتصف أيضاً بصفات نوعية : فهي أقل ارتفاعاً من الغابة الأفريقية ، غير أنها أكثر اتساعاً بكثير . ولها أنواعها الشجرية الخاصة بها ، ولا سيما الكثير من أنواع النخيل ، مثلما تحوي عالماً حيوانياً أكثر فقراً بكثير من شقيقتها غابة أفريقية .

عن ديمانجو « القارة البرازيلية »

دار SEDES ١٩٧٢

جغرافية الدول الكبرى (١١)

البرازيل : بوتقة عرقية

تمتد رقعة البرازيل على نصف قارة أمريكا الجنوبية ، حيث تحتل مكاناً أصيلاً استناداً إلى ثقافتها البرتغالية . تلك هي جمهورية اتحادية ، اسمها الولايات المتحدة البرازيلية ، وتتألف من اثنتين وعشرين ولاية ، فضلاً عن محافظة العاصمة الجديدة ، برازيليا ، وبعض المناطق الحدودية (شكل ٧) . غير أن أبعاد الولايات تكون غاية في التفاوت ، فتكون صغيرة أكثر في البرازيل القديمة الاستعمارية ، بالموازنة مع ولايات الغرب أو الشمال ، حيث يكون السكان مبعثرين . وتضم ولاية ميناس جيريس ، غوانابارا ، ريودوجانيرو ، ساءوپاولو التي تؤلف عشر المساحة العامة ٤٠٪ من البرازيليين .

وعلى خلاف المكسيك أو الأقطار الآندية ، لا يمكن الكلام هنا عن استيطان سكاني ذي أساس هندي أمريكي ، غير أن البيض ليسوا أيضاً هم الغالبية العظمى كما في الأرجنتين . فقد عمل التهجيين على اختلاط الدماء ، كما أن انصهار العروق هو ركيزة الأمة البرازيلية (شكل ٨) .

وإذا كانت الإحصائيات الرسمية تعتبر ٦١٪ من البرازيليين في عداد البيض ، وأن ٢٨٪ منهم « رماديون » ، أي هجناء على درجات مختلفة ، فإن البرازيل بالواقع هي « رمادية » أكثر مما تؤكد الإحصائيات . وإذا لم يكن هناك تمييز حقوقي ، فإن الزيجات تتم فعلاً بين أناس ذوي بشرة من لون متقارب . ويعكس التسلسل الاجتماعي نوعاً من تسلسل لوني : فلون الجلد القاتم جداً يؤلف عقبة حقيقية . غير أن عناصر السكان تختلف في الحقيقة من منطقة لأخرى . ولم يبق في إقليم ماتوا غراسو في حوض الآمازون سوى قرابة ٦٠٠٠٠٠

هندي « متوحشون » ومهددون بالانقراض بسبب الجائحات والجماعات أو المجازر . ولكننا نلاحظ في كل داخل البرازيل نموذجاً بشرياً شديد الانطباع بالاختلاطات القديمة بين البرتغاليين والنساء الهنديات ، أي نموذج « كابوكلو » وتعني الفلاح ، وهما عبارتان مرادفتان لكلمة هجين . أما الزوج الذين جلبوا في القرن السابع عشر إلى المزارع التي يعمل بها الرقيق في



الشكل ٧

تتألف البرازيل التي يبلغ تعداد سكانها ١٢٥ مليون نسمة من إحدى وعشرين ولاية ودائرة اتحادية وأربع مناطق اتحادية



الشكل ٨

عناصر السكان بالبرازيل

النوردسته ، فقد أصبحوا كثيرين بين مدينتي رسييف وسلفادور على الساحل ، وكذلك في ريودوجانيرو ، وفي إقليم ميناس جيريس ، حيث انتشروا قبل إلغاء نظام الرق في عام ١٨٨٨ . ولاتزيد نسبتهم في الأمة البرازيلية عن العشر ، ولكن هناك عدداً أكبر من الخلاسين mulâtres وبعد أن كانت الهجرة الأوروبية إلى البرازيل برتغالية حصراً ، أخذت في التنوع خلال القرن التاسع عشر ، وقدمت على شكل عدة موجات كانت آخرها أكبرها حجماً لأن الرقم القياسي لأعداد المهاجرين كان في عام ١٨٩١ .

وقد كان المهاجرون من حوض البحر الأبيض المتوسط هم الأكثرية دوماً . فقد جاء الطليان ليعملوا في مزارع fazendas القهوة في منطقة ساءوپاولو حتى أنهم شكلوا الأكثرية بين المهاجرين في وقت من الأوقات ، بيد أن التيار البرتغالي ، الأكثر استمراراً ، هو الذي حفظ وحدة البلاد الثقافية . هذا كما ساهمت أوروبا الوسطى والشرقية بنصيبها ، فتشكلت جاليات حقيقية في

الجنوب ، فهناك حوالي ٢٥٠.٠٠٠ ألماني ، ومثلهم من البولونيين تقريباً . أما المشاركة ولاسيما التجار اللبنانيين ، الذين انتشروا في حوض الأمازون ، أو في إقليم ساءو باولو فقد جاؤوا متأخرين ، مثل اليابانيين ، الذين استقبلوا بترحاب في البرازيل ابتداءً من عام ١٩٠٨ وشكلوا أقلية كبيرة تتألف من ٦٠٠.٠٠٠ نسمة ، ويعملون في زراعة الخضار والرز أو كحرفيين ، وهي أقلية نشيطة ومحترمة ، تسير في اتجاه التمثل . وقد دخل البلاد حوالي ٥,٢ ملايين مهاجر بين عام ١٨٢٢ و ١٩٦٢ ، واستقروا غالباً في البرازيل . أما تيار الهجرة حالياً فهو ضعيف جداً لا يتعدى ٦٠٠٠ نسمة في العام . ولقد تبنت البرازيل منذ عام ١٩٣٤ سياسة اصطفاء ، فقد حدد الدستور نسبة ٢٪ لعدد المقبولين بين ١٩٢٦ و ١٩٤٢ ، باعتبارها حصة « كوتا » سنوية لكل قومية ، مع استثناء البرتغاليين لوحدهم . ولذا لا يعود النمو الديموغرافي إلا لفائض المواليد .

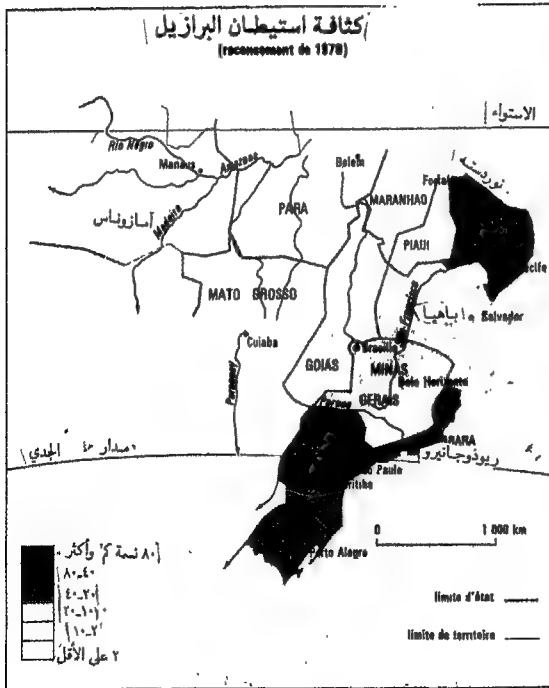


لقد تشكلت البرازيل ابتداءً من عدة جبهات استيطانية : ففي القرن السابع عشر كان مزارعون برتغاليون يقومون بزراعة الزاوية الشمالية الشرقية من البلاد ؛ وهي المنطقة الأولى التي هبط فيها أوائل المهاجرين ، فزرعوا قصب السكر اعتماداً على أيد عاملة من الرقيق ، الذي جيء به من أفريقيا . وفي القرن الثامن عشر حصلت الهجمة على المنطقة التمدينية (ميناس جيريس) ، الغنية بالذهب وبالأحجار الثينة . أما المتود القليلو العدد ، والذين لازالوا في مرحلة القطف وصيد الأسماك ، فقد كانوا يبادون بشن غارات منظمة عليهم . وكانت المزارع الواسعة « فازنداس » الرعوية تقدم اللحوم المجففة وحيوانات النقل للمناجم والمزارع ، وبعد عام ١٨٢٠ وعلى الخصوص بعد ١٨٨٨ ، أي على إثر إلغاء الرق ، قام معمرين أوروبيون باستغلال السواحل ، الواقعة بين ريو دوجانيرو وپورتو آليغرو والمضاب حتى پارانا ، بمزروعات مدارية كالقهوة أو بحاصيل المناطق المعتدلة . وانتقل مركز ثقل البرازيل نحو الجنوب . وفي الوقت ذاته وصل إلى حوض الأمازون الباحثون عن المطاط . وهكذا انتهى الأمر بجبهات الاستيطان في البرازيل الأطلسية إلى التلاقي على شكل شريط لا يزال مأهولاً بصورة متفاوتة ، بين سيارا ceara وريوغرانده دوسول على عرض ٦٠٠ كم . ولكن تظل بقية البرازيل دائماً شبه خالية . وعند تماس البرازيلتين قامت برازيليا ، العاصمة الجديدة ، لترمز إلى السياسة الحالية الرامية إلى فتح كل الرقعة البرازيلية .

استيطان الرقعة البرازيلية

لم تكن البرازيل تضم من السكان أكثر من ٤ ملايين نسمة في عام ١٨٠٠ ، وقارب عددهم ١٠ ملايين في إحصاء ١٨٧٢ ، كي يبلغ ١٧,٥ مليون نسمة في ١٩٠٠ . وقد وصل عدد البرازيليين إلى ١٢٢ مليوناً في عام ١٩٨٠ ويزدادون بمعدل ٣ ملايين في كل سنة ، أي أن نسبة الفائض السنوي تبلغ ٢,٨٪ ، أي أن عددهم في نهاية ١٩٨٢ سيبلغ ١٢٨ مليوناً . وتتجلى هذه الحيوية الديموغرافية في هرم الأعمار : لأن ٤١٪ من السكان تقل أعمارهم عن ١٥ سنة ، في حين لا تتجاوز نسبة الذين تزيد أعمارهم عن ٦٥ سنة ٣٪ .

وتبدو نسبة الوفيات البالغة ٨ بالآلف منخفضة نوعاً ما . ولكن أمل الحياة عند الولادة يتراوح بين ٤٤ سنة في إقليم الشمال الشرقي ، النوردسته ، وبين ٥٨ سنة في منطقة ساء وپاولو . ويموت مولود واحد من عشرة قبل بلوغ العام ، أي أن نسبة الوفيات تصل إلى ١٠٠ بالآلف مقابل ١٢٥ في الجزائر . أما في حوض الأمازون وفي الشمال الشرقي فتكون الأوضاع الصحية في حالة يرثى لها . ويشكو ثلث السكان من هزال ناجم عن الطفيليات المعوية ، مثلما تنهك البرداء (الملاريا) عشر السكان ، ويتسبب سوء التغذية على الخصوص في ٤٠٪ من الوفيات ، أما نسبة الولادات البالغة ٣٦ بالآلف ، أو خمسة أطفال في كل أسرة ، فلا تنخفض مطلقاً ، اللهم إلا في الأوساط الموسرة في المدن ، وتصطدم فكرة تحديد النسل بحكومة تهتم بإعمار الداخل بالسكان ، واكليروس كاثوليكي شديد النفوذ ، هذا فضلاً عن الرأي العام في قطر ضعيف الكثافة ، والتي لا تزيد حالياً عن ١٣,٥ نسمة في الكيلومتر المربع (شكل ٩) .



وإذا كانت البرازيل تبدو ناقصة الاستيطان ، لأن بعض المناطق تكون خاوية تماماً ، فإن بعضها تكون مرهقة بثقل سكانها ، إذ يعيش ٩٠٪ من البرازيليين فوق ٣٦٪ من المساحة ، وحتى الآن كان يجري الاستيطان في الغرب وفي حوض الأمازون على شكل هجمات فوضوية ووقتية . وكان تأسيس العاصمة « برازيليا » في عام ١٩٥٨ ، على مسافة ١٠٠٠ كم من الساحل ، كان عبارة عن استباق لرحلة مركز الثقل الديموغرافي عن موضعه السابق . أما توجيه هجرة أهل الشمال الشرقي Nordeste الريفية نحو النطاقات الرائدة في حوض الأمازون ، فلن تحل مشكلة ملكية الأراضي الزراعية في الشمال الشرقي . وهكذا لا يتعرقل استغلال البرازيل لنقص في عدد الرجال بل لافتقارها لرؤوس الأموال . وتفترض عملية استزراع أراض جديدة أمام الاستيطان توفر استثمارات ضخمة . وهكذا لا تعمل الهجرات الداخلية أكثر

من تصريف بعض سكان مناطق فقيرة مكتظة بالسكان نحو ولايات
كثيفة السكان ولكنها أكثر غنى مثل ساءو پاولو ونحو المدن العملاقة .

وتتضم البلديات الحضرية ٤٥٪ من سكان البرازيل . فهناك عشر
مدن ، يتجاوز سكان كل منها ٥٠٠٠٠٠٠ نسمة . ويكون مركز كل منها في حالة
تحول مستديم ، كما تعمل ناطحات السحاب الفخمة على طمس معالم البقايا
النادرة من عصر البرازيل المستعمرة ، هذا في حين تتكدس على الأطراف ، وفوق
الوهاد المعرضة للفيضانات ، وعلى أكثر السفوح وعورة ، أكداس من أكواخ
متداعية تتكون من صفائح خشب وصفيح تؤلف أحياء القصدير ، أو أحياء
فاقيلاس في ريودوجانيرو . أما مدينة بيلم أو (پارا Para) ، الواقعة على
عتبة حوض الأمازون ، وسلفادور (باهيا) التي تضم ١,٥ مليون نسمة وحتى
رسييف التي يبلغ تعداد سكانها ٢,٢ مليون ، فهي مدن فقيرة بالصناعة ، وعلى
خلاف مدينة بيلوهورنيزنته (٢ مليون) عاصمة إقليم ميناس جيريس أو
پورتو آليغره (١,٩ مليون) ، أو ريوجرانددوسول ، أما ثروة ساءو پاولو
فقد نتجت عن القهوة . وبعد أن كانت هذه المدينة لا تحوي سوى ٢٥٠٠٠
نسمة في ١٨٧٢ ، ارتفع عدد سكانها بعد قرن واحد إلى ١١ مليون نسمة ، بعد أن
ضمت إليها ميناء سانتوس والتي لاتزال ، بمصارفها التي تبلغ ٧٠٠ ، وبمؤسساتها
الصناعية التي تصل إلى ٤٠٠٠٠ عدداً ، عاصمة البرازيل الاقتصادية ، بعد أن
تخلت ريودوجانيرو في عام ١٩٦٠ عن وظيفتها كعاصمة اتحادية لمدينة
برازيليا ، ولكنها احتفظت بهيبتها وزادت من دورها الصناعي . وعلى خلاف
مدينة ساءو پاولو ، التي تتوسع بكل راحة فوق هضبتها ، فإن لمدينة
ريودوجانيرو طبغرافية عسيرة مما قسر السلطات العمرانية فيها على حفر
أنفاق ، أو على اجتثاث تلال برمتها ، ولاكتساب أراضي مردومة على حساب مياه
الخليج . ويبلغ عدد سكان هذه المدينة حالياً ٨,٥ ملايين نسمة .

النمو الديموغرافي لسكان البرازيل

السنة	عدد السكان بالملايين
١٩٢٠	٢٠,٦
١٩٣٠	٢٥
١٩٤٠	٤١,٢
١٩٥٠	٥١,٩
١٩٦٠	٧٠,١
١٩٧٠	٩٣,١
١٩٧٩	١١٥
١٩٨٢	١٢٤

وهكذا يتضاعف عدد سكان البرازيل في ربع قرن . وسيصل عددهم إلى ٢٠٥ ملايين في نهاية القرن .

إن للبرازيل الأطلنطية لوحدها استيطاناً كثيفاً نوعاً ما : فلا يزال « خزان » الشمال الشرقي مفصلاً عن المناطق الكثيفة الاستيطان في جنوب ميناس جيريس ، ومنطقة ريو باتقطاع حقيقي يمتد على ٥٠٠ كم . أما في الداخل فنجد نويات صغيرة ، تتبعثر على طول محاور المواصلات . وتجنح مدينتا ساءو پاولو وريودوجانيرو ، اللتان تبعدان عن بعضهما بمسافة ٤٠٠ كيلو متر بوادي پاريبا Paraíba لتكوين النطاق العمراني ، أو ميغناپوليس البرازيل المسماة پارانغوا (المؤلفة من حروف من كلمات ساءو پاولو ، سانتوس : ميناء ساءو پاولو وغوانابارا) وهم اسم خليج ريودوجانيرو) .

مناطق البرازيل : المساحة ، السكان ، الثروة

المساحة	السكان (١٩٧٠) %	الدخل	الهجرة السنوية	حصيلة
٤٢	٤	٢	١٠,٣ +	الشمال (حوض الأمازون)
٢٢	٥,٥	٣,٥	١٣٦,٤ +	الوسط الغربي (باتوغراسوبرازيليا)
١٨	٣٠	١٤	٢٤٦,٨ -	الشمال الشرقي (نوردسته)
١١	٤٢,٥	٦٣	٦٣,٦ +	الجنوب الشرقي (ميناس ريودوجانيرو)
٧	١٨	١٧,٥	١٣٦,٥ +	الجنوب (پارانا ، ريوغرانده دوسول)

البرازيل : الاقتصاد والمجتمع

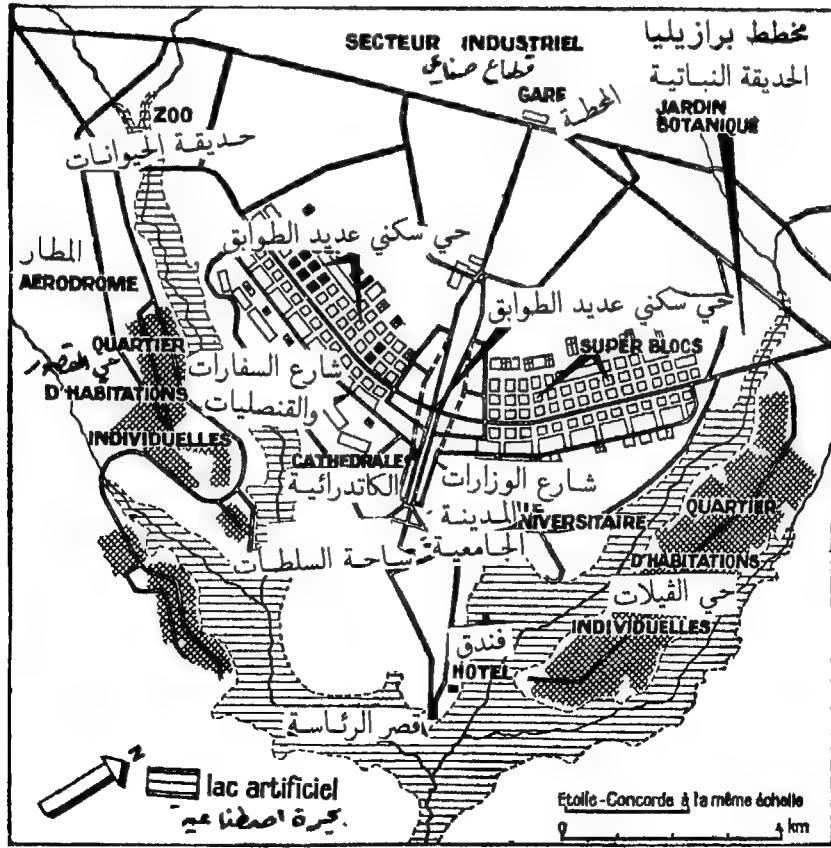
لقد شهدت البرازيل بالتعاقب دورات « خشب البرازيل » وهو خشب صباغي فرض اسمه على البلاد ، ودورة السكر ، ودورة الذهب ، ودورة المطاط ، ودورة القهوة ، واليوم عصر الصويا ، وقد بددت شطراً من مواردها الطبيعية في هذه المحاصيل التجارية . ومع ذلك لا تزال امكانياتها كبيرة عندما تتخلص من « لعنة المسافة » . وقد عمل اندفاع البرازيل نحو التصنيع القوي إلى اجتذاب الرساميل الأجنبية . وتكون نسبة التنمية الاقتصادية ، العالية عموماً ، غير منتظمة إذ كانت ١٤٪ سنوياً في ١٩٧٣ ، مقابل ٥٪ في ١٩٧٨ . ففي العالم الثالث حيث تتقابل الأمم الثرية ، بفعل النفط ، مع الأمم الكادحة ، تبدو البرازيل ، مع ناتج قومي خام يعادل ٤٠٪ من ناتج فرنسا ، كأمة عائمة تسعى لإنجاح عملية « الإقلاع » الاقتصادي . وقد بلغ الناتج القومي الخام الفردي ١٧٠٠ دولار للفرد عام ١٩٧٨ ، مقابل ٥٠٠ في ١٩٧١ و ١٨٠ دولاراً في سنة ١٩٦١ . بيد أن الفوارق الاجتماعية تكون ضخمة ، أي بين ثروة المميزين ، إذ يستحوذ ٥٪ من البرازيليين على ٢٧٪ من الدخل القومي ، وبين الفقر المأساوي لدى الجماهير ، ففي هذه البلاد ٤٠ مليون من الأميين والجياع ، وهم ضحايا التضخم الذي يبلغ ٤٠٪ سنوياً . وتهبط قيمة الكروزيرو وسطياً ١٥٪ في العام ، بالموازنة مع الدولار ، هذا فضلاً عن تخفيض قيمته رسمياً مرات متكررة .

غير أن سياسة البرازيل الاقتصادية لا تتقدم دون تناقضات . ففي عهد رئاسة فارغاس Vargas وخلفائه قبل ١٩٦٤ ، كانت السياسة المذكورة ذات طابع وطني ؛ لأنها كانت ترفض منح امتيازات تعدينية للشركات الأجنبية ،

وأنشأت شركة وطنية للبترول Petrobas وللصناعة الحديدية C.S.N ، وشراء شركات الكهرباء والمواصلات الخاصة . غير أن الإفراط في المعونات كدعم سوق القهوة ، أو المشاريع التبذيرية ، إقامة العاصمة برازيليا ، أدت إلى استئدانة الدولة وإلى تقليص الاستثمارات المفيدة . ولكن قام النظام العسكري فيما بعد ليفتح البلاد أمام رؤوس الأموال الأجنبية ، غير أن الاقتصاد البرازيلي الذي لا يزال دوماً سريع العطب ، هشاً ، يتمتع ، بالحقيقة ، بالإحاطة وبالحماية (لوجود الحواجز الجمركية ولتقنين الاستيرادات) .

ويكون الميزان التجاري على العموم خاسراً ، لأن أسعار المنتجات الزراعية والمواد الأولية ، التي تؤلف معظم مبيعات البلاد ، تصعد بصورة تقل انتظاماً عن أسعار سلع التجهيز ، ولا سيما النفط التي عليها أن تستورده . وتحاول البرازيل أن تنوع صادراتها: ففي عام ١٩٧٧ لم تمثل القهوة رغب سعرها المرتفع جداً ، أكثر من ٢٢٪ مقابل ٥٦٪ من قيمة صادراتها في عام ١٩٦٠ .

غير أن هناك ثلاث مجموعات من المنتجات وهي : القهوة ، خضراء أو ذؤابة ، والصويا من زيت أو كسبة ، والفولزات ، لا تزال تمثل ٤٥٪ من قيمة مبيعات البرازيل الخارجية . وأصبح العملاء التجاريون أكثر عدداً أيضاً . ففي ١٩٥٩ كان ٤٢٪ من الصادرات و ٣٤٪ من الاستيرادات تتعلق بالولايات المتحدة . أما في ١٩٧٦ فقد هبطت هاتان النسبتان المئويتان بالتعاقب إلى ٢٥٪ و ٣٢٪ لفائدة المبادلات مع أوروبا الغربية ، وعلى الخصوص مع ألمانيا الاتحادية وإيطاليا ، ومع اليابان ، والأرجنتين ، ومع فنزويلا وإيران اللتين تقدمان البترول ، الذي أصبح يؤلف ٣٤٪ من قيمة مشتريات البرازيل في ١٩٧٨ . وإذا كان الميزان التجاري يجنح نحو التوازن ، فإن ميزان المدفوعات يكون دائماً عاجزاً ، لأن فوائد الدين الخارجي ، البالغ ٥٠ مليار دولار في ١٩٧٩ ، يتص ما يعادل مبيعات القهوة .



الشكل ١٠

برازيليا :

لقد تم بناؤها في خلال ثلاثة أعوام ١٩٥٨ - ١٩٦٠ ، فوق هضبة غوياس Goias ذات التربة الحمراء ، وأصبحت تضم ٦٠٠٠٠٠ نسمة ، ومعظمهم يسكنون أحياء سكنية رديئة التجهيز . ويرسم المخطط الرائد على حافة بحيرة اصطناعية قوساً سكنياً معقوفاً ، مقطوعاً بحور وظيفي ، يقود من المحطة إلى قصر الرئاسة . وتكون العمارات الرسمية التي أشرف عليها المهندس العمراني (نايير) غاية في العصرية ، كقصر التشريع الذي يضم مجلس النواب ومجلس الشيوخ ، وكان الرئيس السابق (كوبيتشك) يتصور أن إقامة الدوائر الاتحادية في هذه « الصحراء » ، بعيداً عن تأثير مدينة ريودوجانيرو المرهق سيساهم في منح الولايات المتحدة البرازيلية بنية جديدة .

الفوارق الإقليمية وتنظيم استغلال الرقعة

يقف خلف الفوارق الإقليمية الكبرى في البرازيل تنوع البيئات الطبيعية ، شأن التقلبات التاريخية في مراحل الاستغلال . فقد يختلف الدخل الفردي بين ولاية وأخرى من ١ إلى ٧ . ويبلغ التباين أقصاه بين الجنوب الأكثر تقدماً وتنمية ، مثل ولاية ساءو پاولو التي تسمى نفسها « قاطرة قطار البرازيل » ، وبين الشمال الشرقي (الشكlin ١١ ، ١٢) ، ذي المستوى المعاشي الآسيوي ، حيث لا يزيد الدخل الفردي المتوسط لدى عشرين مليوناً من الريفيين عن ١٨٠ دولاراً . ولكن الفوارق في داخل الولايات المزدهرة هي السائدة أيضاً فيكون لسكان مدينة ساءو پاولو دخل متوسط يعادل ضعف الدخل الفردي الوطني أو ٣٤٠٠ دولار ، أي يعادل دخل الفرد في بريطانيا . غير أن نصف العمال يتقاضون فيها أجراً أدنى لا يزيد عن ٥٠٠ ليرة سورية في الشهر أو ١٠٠ دولار ، وهو مبلغ زهيد للغاية تجاه نفقات المعيشة ، التي تعادل أسعارها مستوى فرنسا ، كما أن نصف العائلات يشكو من رداءة السكن ومن نقص التغذية ، مثلما ارتفعت نسبة وفيات الأطفال بنسبة ٤٥٪ خلال عشرين عاماً ، وكثيراً ما يكون هؤلاء الكادحون السانباوليون ، عبارة عن وافدين من الشمال الشرقي ، حيث يكون بؤسهم هناك أكثر عمقاً .

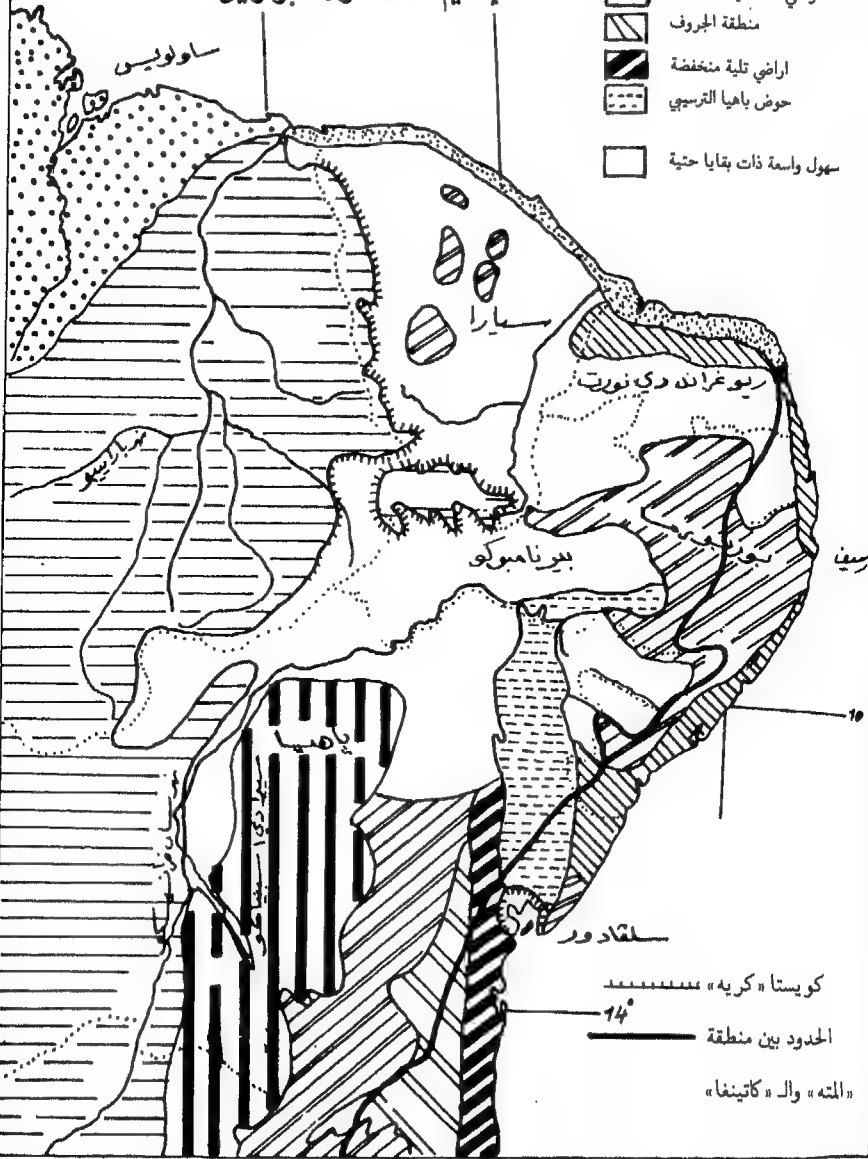
هذا وينال « النوردستي » جناية غذائية مقدارها ١٧٠٠ سعرة « حريرة » يومياً ، مع أن المتوسط الوطني للبلاد هو ٢٥٠٠ سعرة . وإذا كان سكان سرتاءو Sertao وهو الحوض الأوسط لنهر ساءو فرانسيسكو ، خلف مدينتي رسييف و سلفادور ، يشكون من قلة الماء ، فإن سكان الساحل يشكون من قلة الأرض . وتبدو مشكلة ملكية الأرض جادة . فكل سياسة ترمي لتنظيم رقعة

الشكل ١١

أشكال التضاريس

« إقليم شمال شرق البرازيل »

-  اراضي مائدية
-  مرتفعات تلية
-  مرتفعات مائدية
-  جبال منخفضة
-  الريكونكاو
-  الاراضي الساحلية المنخفضة
-  منطقة الجروف
-  اراضي تلية منخفضة
-  حوض باهيا الترسبي
-  سهول واسعة ذات بقايا حثية



الشكل ١٢

اقتصاديات

« إقليم شمال شرق البرازيل »

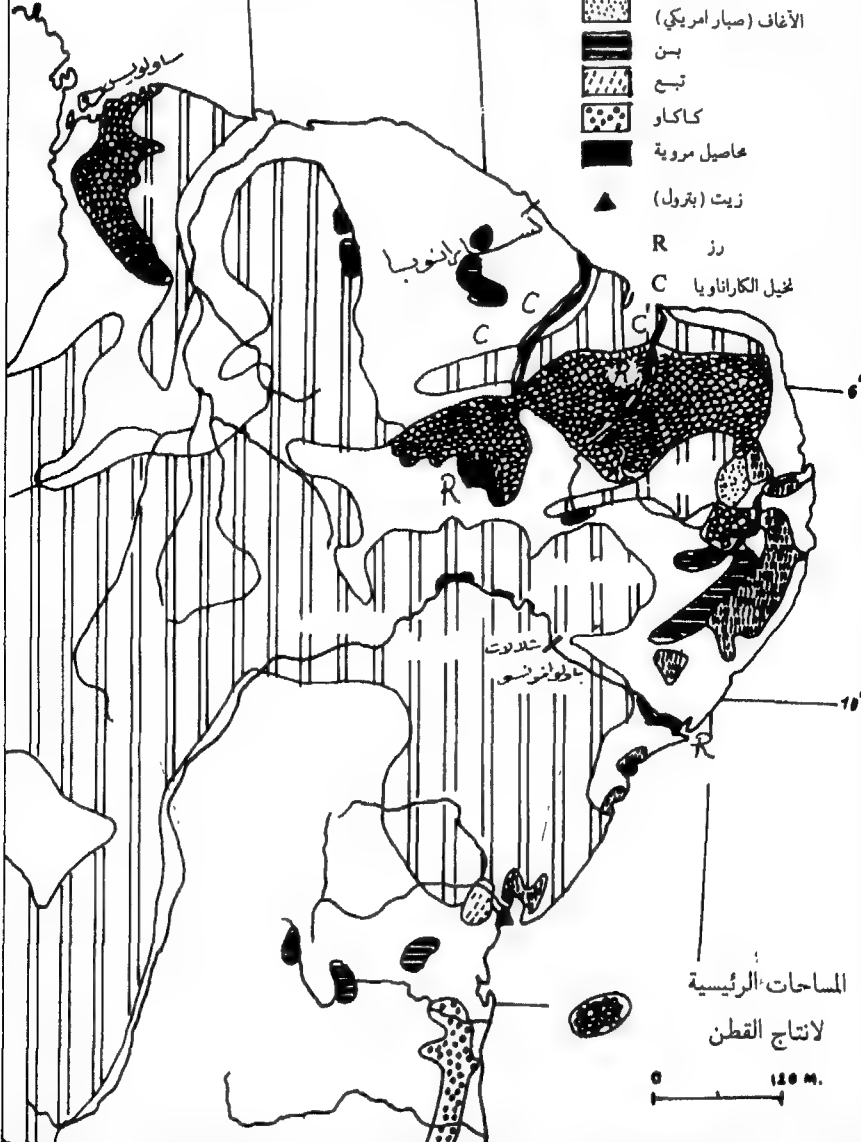
- مزارع لتربية الحيوانات دون زراعة
- أراضي ذات دورة وتعاقب (رعي وزراعة متنقلة)

المزروعات التجارية

- قصب سكر
- الأغاف (صبار أمريكي)
- بن
- تبع
- كاكاو
- محاصيل مروية
- زيت (بترول)

R رز

C نخيل الكاراناويا



البلاد تصطدم بمصالح كبار ملاكي الأراضي، الذين يملكون نصف مساحة أراضي البرازيل المفيدة، وكذلك بجشع الأوساط المالية، وبالفساد، أي الرشوة . وتفيد مشاريع التجهيز أرباب الملكيات الكبرى Fazendeiros ، وهم سادة الأرض وسادة السياسة . وليس لدى مؤسسة التخطيط الإقليمي S.U.D.E.N.E ، أو الإدارة العليا لتنمية الشمال الشرقي ، التي أنشئت في عام ١٩٥٩ ، وذلك بعد تمرد « الرابطات الفلاحية » ، وبعد جفاف عام ١٩٥٨ ، أي برنامج لإعادة النظر في توزيع الأراضي الزراعية ، كما لا توجد أية فكرة مماثلة ، لدى لجنة نهر ساؤفرانيسكو المكلفة بتنظيم النهر المذكور ، ببناء السدود واستغلال الطاقة . أما مياه الآبار التي تم حفرها ، فتستخدم لسقاية قطعان كبار ملاكي قطعان الماشية أكثر من ري حقول الفلاحين الهجناء ، أو الكابوكلو Caboclos . أما الملكيات الصغرى التي لا تزيد مساحة الواحدة منها عن ١٠ هكتارات في الشمال الشرقي ، فتمتد على ٥% من الأراضي ، هذا في الوقت الذي يستمر فيه ، فوق الملكيات الكبرى ، نوع من استرقاق مقنع بالنسبة لمستأجري الأراضي . وهكذا اضطر ٣,٥ ملايين من النوردستيين للهجرة في مدة عشرين عاماً رغم بداية التصنيع ، إذ أمكن إيجاد ١٣٠٠٠٠ فرصة عمل في الصناعة لاسيما في ميناء رسييف .

ويبدو حوض الأمازون بالنسبة للشمال الشرقي المهذب دوماً بالجفاف وبالمجاعة ، كمصرف طبيعي . فعندما كان لهذا الحوض الاحتكار العالمي للمطاط كان المستنزفون Seringueiros ، الذين كانوا يقومون بفصد أشجار الهيفيا الوحشية يأتون من الشمال الشرقي . غير أن كل المحاولات لإنشاء مزارع مطاط حديثة ، مثل مؤسسة فورد لاندنيا على نهر ريو تاباجوز ، باءت بالفشل في موطن الهيفيا الأصلية ، وهذا مثار الاستغراب .

وقد قامت مؤسسة سودام S.U.D.A.M أو « المؤسسة العليا لتطوير حوض

الأمازون » ، عن طريق فتح الطرق من خلال الغابة العذراء ، بفتح غابة السلخا أمام المستزرعين . ونظراً لعجز « البرنامج القومي للإدماج » بحل مشكلة الأراضي الزراعية محلياً في منطقة « النوردسته » ، فهو يرمي منذ عام ١٩٧٠ إلى توجيه هجرة الفلاحين بلا أرض نحو هذه المناطق الرائدة . غير أن الكثير من هؤلاء لا يستطيعون ، رغم القانون ، أن يحصلوا على صكوك التملك ويتم طردهم بفضاضة من قبل وكلاء الملاكين المتغيّبين ، أو من وكلاء الشركات التي حصلت على امتيازات واسعة للغاية .



الجفاف في « النوردسته » الشمال الشرقي

تصلب الأرض وتتشقق على شكل شقوق عميقة في « مضلع الجفاف » ذي النبات الضامر وذلك عندما لا تتخض رياح الأليزة « الرياح التجارية الجنوبية » عن الأمطار المنتظرة ، كما حدث في ١٩٥٨ ، وفي ١٩٧٠ .

وعندها يضطر السكان للزواج نحو الساحل بحثاً عن الماء (صورة رقم ١) . وهكذا يكون إقليم « سيرتاءو » مناسباً لتربية الماشية الواسعة ، وتتغذى الماشية ، ولا سيما الأبقار ، وكذلك الأغنام والماعز ، بالقش أو أوراق النبات ، خلال الفصل الجاف التي تمت في إقليم الكاتينغا Caatinga غرب رسييف وجنوب بيلم خلال الفصل الرطب ، والتي يشرف عليها القليل من الرعاة الفرسان أو فاكيروس vaqueiros .

ومن المعتقد أن كل رأس من الأبقار يحتاج إلى ٥ هكتارات كي يحصل على غذائه . ولكن هناك أيضاً مزروعات ، وهي بالطبع عبارة عن زراعة فوق حريق ، ودون أية دورة زراعية أو تسميد ، تقوم على زراعة القطن والذرة الصفراء والفاصولياء . ولا تمكن ممارسة هذه المزروعات البعلية في حالة الجفاف . وتسيطر هنا الملكية الكبرى ، أو « الفازنداس » التي تمتد على أكثر من ١٠٠٠ هكتار ، والتي تحتل ما بين ٢٥ و ٥٠ ٪ على إقليم السرتاءو ، وعلى الخصوص في جنوب عكس نهر ساءو فرانسيسكو ، حيث تصل النسبة حتى ٧٥ ٪ ، ولكن من الحق القول أن مفهوم المساحة يجب أن نقرنه بمفهوم النوعية . ويتم استغلال الأرض عموماً بشكل مؤاجرة أو مشاركة . ومن الطبيعي أن تكون كثافة السكان ضعيفة ، فهي تتراوح بين ٤ إلى ٢٥ نسمة في الكيلو متر مربع . ومع ذلك تعتبر كثافة عالية جداً أيضاً .

عن دومانجو « القارة البرازيلية »

سيوس ١٩٧٢

« وعندئذ تدمي الماشية أشداقها بحثاً في أشواك تين الصبار ، عما يمكن أن يروي ظمأها ، وهي تجر أقدامها نحو الآبار التي نضب معينها ، وأصبح مأوها غوراً منذ زمن بعيد . . . وأخيراً تظل السماء ثابتة ممعنة في زرقة قاتمة ، تلك هي الهجرة . . . وعندئذ يقصد الناس الساحل ، يائسين ، وهم يترنحون ويتمايلون ، بحثاً عن الماء »

ب . رونديير



رسيف عاصمة النوردسته

توحي أحياء رسيف القديمة ، بكنائسها الباروكية ، وبيوتها المبرقشة ، والبديعة والمزدحمة ، توحي برخاء فترة السكر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . غير أن نصف السكان يعيشون في الضواحي المحيطة بها ضمن أحياء الموكامبوس mocambos ، وهي أحياء قصدير ، قذرة ، وأحياناً تكون في وسط المستنقعات ، حيث يعيش البؤساء منهم اعتماداً على السرطانات ، التي تتغذى بدورها من برازهم . وهنا تبلغ نسبة المساكن ذات المياه الجارية ٥٥٪ ولكن مع ضغط غير كافٍ ، بينما لا تزيد نسبة المساكن التي تتصل بالمجاري العامة ١٥٪ . وهنا تضرب نسبة وفيات الأطفال الرقم القياسي العالمي ، لأن ٢٣٠ رضيعاً بين كل ١٠٠٠ لا يحتفلون بعيد ميلادهم الأول.



صورة (١)

البرازيل : مشكلتا المواصلات والطاقة

تعتبر وسائل النقل غير الكافية أو غير المتوائمة ، عائقاً أمام استغلال البرازيل . ففي البلاد ٢٨٠٠٠ كم من الخطوط الحديدية ، ذات الامتداد العشوائي ، مع أجهزة عتيقة ، ولكن الجنوب الشرقي هو الجزء الوحيد المجهز بشبكة حقيقية ، ممددة لخدمة نطاق القهوة ، أما الاتصال مع النوردسته ، من بيلو هوريزونته إلى سلفادور ، فهو حديث ، كما تقع العاصمة برازيليا في رأس الخط . ولم تقم البرازيل ببناء أكثر من قطاعات من خطوط حديدية عابرة للقارة ، يصل قطاع منها حتى نهر پاراغواي عند كورومبا Corumba . أما في الداخل فتظل الأنهار هي الشريانات التي لاغنى عنها للتنفوذ لداخل البلاد . ولكن شدة تبدل صبيبها ، وكثرة الجنادل في مجراها ، لا تسمح بأكثر من ملاحه نهريه فصلية ، فوق بعض القطاعات الواقعة بين جندل وآخر . أما نهر الأمازون فهو صالح للملاحه على الدوام حتى ماناءوس ، وحتى مدينة ايكيتوس Iquitos في البيرو بواسطة سفن بخارية ذات دواليب جانبية ، وتعتمد على الخشب كوقود ، وتنقل المواشي والركاب والبضائع . وتحقق المساحلة البحرية ١٠٪ من النقلات الداخلية .

هذا وتملك البرازيل العديد من الموانئ ، ولكنها رديئة التجهيز ، ولا تعتمد على أكثر من ظهير محدود ، باستثناء بيلم بالنسبة لحوض الأمازون . أما الأسطول الذي تصل حمولته إلى ٣ ملايين طنة من الحمولة الخام فهو غير كاف . وتمر التجارة الدولية على الخصوص بميناء ريو دوجانيرو ، الذي تصل حركته السنوية إلى ٣٨ مليون طن ، وسانتوس وحركته ١٩ مليون طن ، وملحقه البترولي ميناء ساءوسيبا ستياءو التي تصل حركته إلى ٤٥ مليون

طن ، وفكتوريا توباراءو ، وحركته ٥٩ مليون طن ، وهو ميناء تعديني يصدر خامات الحديد .

هذا وتنقل شبكة الطرق البرية ٧٠٪ من البضائع . وقد حلت الشاحنات مكان العربات التي تجرها الثيران ، أو مكان قوافل البغال المرسجة . وقد استطاعت البرازيل خلال ٢٠ عاماً أن تمد ٤٠.٠٠٠ كم من الطرق الاتحادية ، مزودة بكسوة زفتية أو تكون عبارة عن دروب بسيطة ، وذلك في البرازيل الأطلنطية ، كالطريق الدولية بين ساءوپاولو وريو دوجانيرو ، والطريق الذي ينطلق من برازيليا ويجتاز حوض الأمازون شمالاً . أما الطريق العابر لحوض الأمازون فقد تم افتتاحه في عام ١٩٧٣ . غير أن الطريق الهامشي الشمالي فهو مازال قيد التنفيذ . بيد أن الطائرة تظل أكثر وسائل النقل سهولة ، حتى أن الحركة الجوية تعتبر من أكثر مثيلاتها نشاطاً في العالم . ومن وجهة النظر هذه ، تظل البرازيل قطراً فتياً جديداً .

غير أن مصادر الطاقة لا تظهر على مقياس البرازيل ، علماً بأن شطراً كبيراً من البلاد لا يزال ينتظر التنقيب . وفي ١٩٧٧ لم تنتج البرازيل أكثر من ٣١ مليون طن معادل بترول ، مقابل استهلاك بلغ ٧٣ مليون ، ولديها القليل من الفحم ، ومن نوعية رديئة في الجنوب ، ويصل إنتاجه إلى ٣ ملايين طن ، يغطي نصف الاستهلاك ، لأن فحم الكوك يستورد من الولايات المتحدة . ولا تزال صناعة الحديد التقليدية والخطوط الحديدية تعتمد على الحطب ، ولم تنتج من البترول سوى ٨ ملايين طن ، وأفضل حقل وهو الذي تم اكتشافه في ١٩٤٠ قرب سلفادور ، أخذ بالنضوب ، كما أن التنقيبات في حوض الأمازون كانت مخيبة للآمال ، أما التنقيب على الرصيف القاري على الساحل الأطلنطي فقد بدأ مؤخراً ، ولما كانت الوسائل التقنية والمالية لدى شركة بتروباس ، التي كان لها حق احتكار الأبحاث محدودة ، فقد أخذت شركات أجنبية

منذ ١٩٧٧ بالاشتراك في عمليات التنقيب . وتشترى البرازيل من فنزويلا ، ومن بلدان الشرق الأوسط مقادير ضخمة من النفط ، تصل إلى ٥٠ مليون طن ، تعالجها كلياً في مصافيها ، وتظل فاتورة البترول ثقيلة جداً على الرغم من خلط الوقود بالغول المستمد من القصب ، أو من المانيوق .

أما أفضل ورقة رابحة في يد البرازيل في ميدان الطاقة ، فهي القوة الكامنة الكهرمائية العظيمة ، والتي تقدر بحوالي ٥٠٠ مليار و س ، وهي قيد التجهيز ، كحوض ساءوفرانسيسكو ونهر پارانا ، أما سدّ ايتيپو Itaipu الذي يجري بناؤه على نهر پارانا بالاشتراك مع جمهورية الباراغواي ، والذي سيفرغ العمل فيه عام ١٩٨٣ بطاقة قائمة تبلغ ١٢٦٠٠ كيلواط ، فسيكون أول سد في العالم . وإذا كانت البلاد تنتج ٩٦ مليار و س من الكهرباء (أو ٨٠٠ ك و س لكل نسمة) ، فإن هذا « الفحم الأبيض » يقدم منها ٨٩ ، مما جعل البرازيل تمثل المكانة الرابعة في إنتاج الطاقة من المياه منذ وقت قريب (شكل ١٣) .



مصادر الطاقة البرازيلية

في مقابل تفاوت الاستيطان والتنمية الاقتصادية في البرازيل . هناك اختلال في التوازن بالنسبة للموارد الطاقية المستغلة : فالوقود المستحاث ، أي البترول ، يقع على الهامش في « النورده » ، وعلى الهامش الجنوبي بالنسبة للفحم ، وكلاهما في مكامن ذات مخزون متواضع ، في حين تقع مصافي البترول قرب موانئ الاستيراد . أما الإنشاءات الهيدروليكية ، التي شيدت في البداية في سرة دومار Serro do Mar على يد شركة لايت Light الكندية ، ثم قامت باتجاه الداخل ، على يد شركة الكتروبراز الوطنية ، والتي قامت لخدمة المثلث الصناعي ، ساءوپاولو ، بيلوهوريزونته ، ريو دوجانيرو ، عوضاً عن الشمال الشرقي القاحل ، هذا في حين أن القوة الكامنة لحوض الأمازون لم يبدأ بعد استغلالها بشكل واسع ، هذا كما أن أكثرية مدن الداخل ، تعتمد على مؤسسات صغيرة لتوليد الكهرباء الحرارية .



ولازال الاستهلاك الوطني من الطاقة معتدلاً بالواقع ، فهو يبلغ بالنسبة للفرد وخلال العام ١٢٠٠ كغم من معادل الفحم ، هذا مع أن الحطب وفحم الحشب والغول تشكل جميعاً حوالي الربع تقريباً .

شلال ايفواسو : إن لمعظم الأنهار عند هبوطها من الهضبة البرازيلية جنادل ، أو شلالات ، ويبلغ ارتفاع شلال ايفواسو ٨٠ متراً عند مقرن نهر ايفواسو مع نهر پارانا ، ولاتزال الطبيعة عند شلالات ايفواسو في الحالة البدائية ، وهناك القليل من السواح الذين تتاح لهم فرصة التمتع برؤية هذه الأعجوبة ، فليس هناك من قناة التفاف ، ولا مركز كهربائي . أما في المناطق الأخرى فقد عمدت البرازيل إلى تجهيز هذه القوة المحركة الثمينة ، كما فعلت على نهر ساءوفرانسيسكو ، حيث استغلت شلالات باولو الفونسو ، وخزان ترس مارياس ، وعلى روافد پارانا ، حيث بنت خزان فورناس وعلى النهر ذاته مركز ايتيبو Itaipu . وهكذا استمدت البرازيل في عام ١٩٧٧ ٦٠٪ من مواردها من الطاقة الوطنية ، وهي في الواقع محدودة ، وبذلك وقفت خلف الولايات المتحدة وكندا والاتحاد السوفيتي في إنتاج الطاقة الكهربائية .

☆ ☆ ☆

البرازيل : زراعة مدارية

يعيش ٤٠% من سكان البرازيل من خيرات الأرض ، مقابل ٥٥% في عام ١٩٦٠ ، ولكنهم لا يساهمون بأكثر من ١٥% من الناتج القومي الخام P. N. B ، وتكون الرقعة البرازيلية غير مستغلة كما يجب ، كما أن ثلثها فقط هو الذي يعتبر خاضعاً للتملك والمسح العقاري ، أي للكادسترو : فالمساحة المزروعة تبلغ ٤١ مليون هكتار أو ٥% من المساحة العامة ، وأربعة أضعاف ذلك هي القسم المتروك للمراعي ، أما الباقي أو ٦٠% فتغطيه الغابات ، أو يكون عقياً ، وتكون البنية العقارية من تركة الحقبة الاستعمارية . وتتألف الملكيات الكبرى من ٣٠.٠٠٠ مزرعة كبرى ، أو Fazendas ، تتجاوز مساحة كل منها ١٠٠٠ هكتار ، وتنتشر على ٤٥% من المساحة الزراعية المفيدة . أما صغار الملاكين ، والذين يزرعون بأنفسهم قرابة ١٠ هكتارات فهم أقلية ، ولا يزيد عددهم على المليونين ، في مقابل طبقة كادحة زراعية من الكابوكوس caboclos ، الذي يبلغ عددهم ٣ ملايين مابين شريك أو مستثمر بلا صك تمليك ، والمهددين دوماً بالطرد ، هذا فضلاً عن ٦ ملايين من العمال المياومين ، الذين كثيراً ما يقاسون من البطالة .

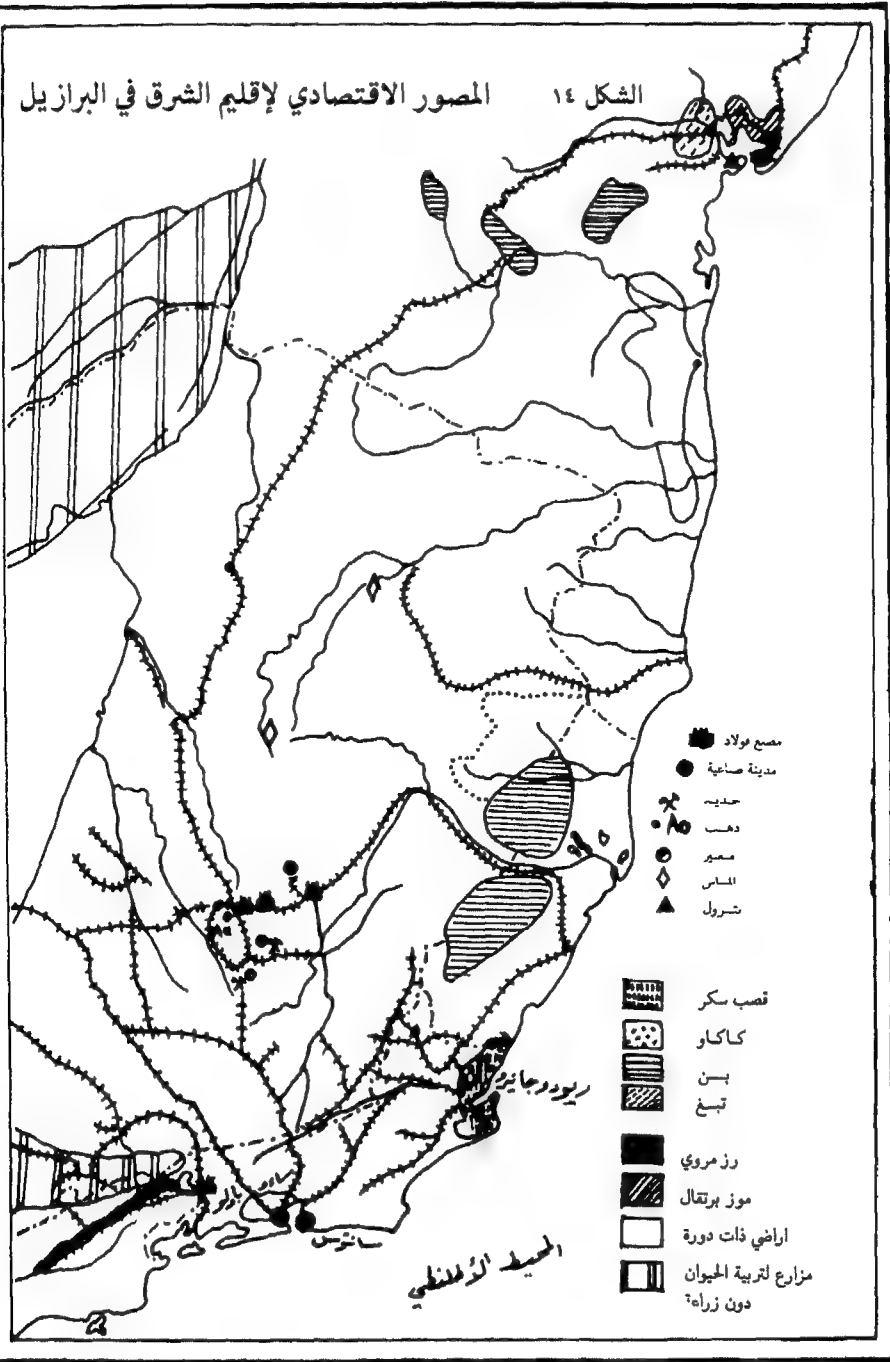
وفي عام ١٩٦٤ ظهر « قانون الأرض » الذي هدّد بفرض ضريبة على كبار الملاكين المتغيبين ، الذين يتركون أراضيهم بوراً ، وقد يصل الأمر إلى نزع ملكيتهم . وكان يقضي بتوزيع مقاسم إعمار على الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً ، وهذا المشروع الذي لم يكن إصلاحاً زراعياً بالمعنى الصحيح ، أدّى مع ذلك إلى انقلاب عسكري ، صحيح أنه تمّ توطيئ بضعه آلاف من عائلات الفلاحين من إقليم « نوردسته » في قرى زراعية agrovilas في حوض الأمازون ،

ولكن شركة لودفيغ Lodwig الأمريكية نالت مقابل ذلك امتيازاً ، مساحته مليوناً هكتار .

وهكذا لا تزال قضية ملكية الأرض في حوض الأمازون تنتظر التسوية والحل ، شأنها في الشمال الشرقي . وفي كل عام يتم إحراق مليون هكتار من الغابات ، واستزراع أرضها ، لأن نظام الزراعة الذي يكون متوائماً مع بيئة ما بين المدارين ، يظل بدائياً على العموم . وينتسب إلى « الزراعات المتنقلة » دون حراثة ودون سماد . ولهذا يكون المردود منخفضاً ، إذ يبلغ وسطياً ١٥ كنتالاً « قنطاراً » في الهكتار من الجيوب ، أي ١٥٠٠ كغم . وتم زراعة الرز في البرازيل دون شتل ودون ري ، وتستنزف مدخرات خصوبة الأرض في الملكيات الكبرى « فازانداس » حتى النهاية ، حتى أن الغابة لا تستطيع العودة إلى ما كانت عليه ، وبعد مرور « دورة زراعية » فوق أرض نضب معينها ، يأخذ أصحاب مشاريع آخرون باستغلالها في زراعة أكثر قناعة ، أو يتركونها لتربية الماشية الواسعة .

ويكون هذا التطور ملحوظاً فوق هضبة ساء وپاولو (شكل ١٤) ، فابتداءً من عام ١٨٧٠ تحولت « الفازاندا » الساء وپاولوية إلى مزرعة قهوة Catezal : ذلك أن التربة البنفسجية تناسب كثيراً شجرة القهوة العربية Arabica وتكون الأرض مقسمة إلى مقاسم ، يقوم المعمرين ، الذين كانوا في البداية من الطليان ، والمرتبطين بعقد باستصلاحها ، باقتلاع النباتات الأصلية ، ومن ثم زراعتها بشجيرات البن ، مثلاً يزرعون بين صفوفها الفاصولياء والذرة الصفراء ، لتأمين غذائهم . وبعد خمسة أعوام ، تدخل الشجيرات مرحلة الإنتاج ، ويستغل المالك مزرعته مباشرة بالاستعانة بالعمال ، وعندما يأخذ المردود بالانخفاض يبيع المزرعة ، كي يقيم مزرعة جديدة بعيداً عنها . وقبل ١٩٣٠ كان زحف القهوة ينهش غابة هضاب پارانا فوق ترب رملية

الشكل ١٤ المصور الاقتصادي لإقليم الشرق في البرازيل



هزيلة ، وكانت الجبهة الرائدة تتقدم مع تديد الخطوط الحديدية ، فتتقدم بمعدل ٢٠٠ كم في كل عشرة أعوام ، مما أدى لنشوء مدن جديدة مثل : ماريليا ولوندرينا . أما الآن فقد أدركت شجرة القهوة حدّها الايكولوجي : فعندما يزيد الارتفاع عن ٨٠٠ م ، يستفحل خطر الصقيع الشديد . وتجاه إفقار الترب ، وأمام التقلبات المناخية والاقتصادية الناجمة عن زراعة وحيدة هي القهوة ، أخذت الزراعة الساء وپاولية بالتنوع ، فاستعاضت عن شجيرات القهوة بحقول القطن ، ومزارع قصب السكر ، والذرة الصفراء ، وفول الصويا ، مثلما أخذت تدمج تربية الماشية مع الزراعة (شكل ١٥) .

مساهمة البرازيل في الصادرات الزراعية (١٩٥٥)

قهوة	٤٤٢
موز	٤٢٥
كاكاو	٢٢٠
قصب السكر	١٢٢
لبنان	٢١١
برتقال	٩١
سيرة	١٢
قطن	٦١٠

الشكل ١٥

☆ ☆ ☆

تحتل الغابة القسم الأعظم من البرازيل ، أو يستخدم على شكل مراعي : فنذ سبعة عشر عاماً ارتفعت المساحة المزروعة من ٢٩ مليون هكتار إلى ٤١ مليون هكتار ، وعلى الرغم من إخضاع أراضٍ جديدة للزراعة ، على حساب الغابة في حوض الأمازون ، فإن التطور يتجه نحو التكثيف في الملكيات الكبرى Fazendas الرعوية ، في الجنوب وفي الوسط . فقد سمحت الحراثة بواسطة الجرار « التراكتور » ، واستخدام الأسمدة الكيماوية ، ومبيدات الأعشاب ، بقيام زراعة قح كبرى ، وريز ، وذرة صفراء ، وفول الصويا ابتداءً من عام ١٩٧٠ . أما الماشية التي تحسّن غذاؤها ، فقد تصالبت مع ثيران مستوردة من أوروبا ، غير أن التربية الواسعة لازالت قائمة في ماتوغراسو ، وفي

سرتاءو في الشمال الشرقي : ففوق مزرعة تمتد على ٢٥٠٠ هكتار : يعيش أحياناً ٥٠٠٠ رأس من الأبقار ، شبه الوحشية ، تتجول في مراعيها تحت حراسة بعض الرعاة الحَيَّالة « فاكيروس » ، وعلى الرغم من تنظيم نهر ساءوفرانيسكو من حيث السدود وبحيرات التخزين ، فإن المساحات المروية في إقليم « نوردسته » لاتزال محدودة ورديئة الاستغلال . أما حول رسياف فتسود زراعة قصب السكر الضعيفة المردود ، والتي لم تتطور منذ عصر مزارع الرقيق في القرن السابع عشر معتمدة على أيدي عاملة بائسة ، مأجورة ، تعيش في أوضاع مماثلة جداً لأوضاع رقيق الماضي .



قطاف القهوة : يستدعي قطاف ثمار القهوة المربية « آرايكا » في مزارع البن في ولايات ساءوپاولو ، پارانا ، ميناس جيريس ، وهي الثمار التي تسمى « الكرز » ، لأن كلاً منها يشتمل على نواتين ، تؤلف كل منها حبة القهوة الخضراء ، أقول : يستدعي قطافها الاستعانة بأيدي عاملة فصلية ، تأتي غالباً من الشمال الشرقي . وتسبق عملية التجفيف بالشمس ، فوق مساطيح كبيرة من الأجر الأحمر ، غريبلية « الكررات » ، ويتم الحصول على ١٥ كغم قهوة خضراء ، من كل ١٠٠ كغم من ثمار القهوة .

ويقع مركز ثقل إنتاج القهوة حالياً ، على مسافة ٤٥٠ كم من الساحل . وهذا الانتقال نحو الغرب يكون مصحوباً بتحول طارئ على هذه الزراعة الوحيدة ، الحساسة بالأزمات ، إلى زراعة متعددة ، أي هناك توافق الزراعات مع المواقع ومع التربة . وتنتشر مزارع البن عموماً ، فوق منبسطات الفواصل النهرية ذات الصخور الباطنية البازلتية ، في حين تنتشر مزارع القطن على هوامش الفواصل النهرية Inter fluves . أما المزروعات المتنوعة من فستق عبيد ورز ، فتحتل سفوح الأودية . أما مراعي تسمين المواشي ، فتقع في قيعان الأودية ، المعرضة لضربات الصقيع ، والتي لاتصلح بالتالي لزراعة القهوة . وتكون مراعي التسمين ، أو invernadas ، مأهولة بأبقار ، وصلت سيراً على الأقدام من ساقانات ماتو غراسو (غرب برازيليا) . أما المزارع التي هجرتها شجيرات القهوة فوق الهضبة ، فغالباً ماتغرس بأشجار الأوكاليتوس . ويجلب هذا النموذج من الاستغلال ، الأكثر مرونة من زراعة القهوة السابقة ، يجلب الرخاء إلى الغرب ، من ولاية ساءوپاولو ، وإلى شمال ولاية پارانا ... أما في الشرق الأوسط من ولاية ساءوپاولو ، فإن العودة لاستخدام الأراضي التي أنهكتها موجة زراعة القهوة ، لم تحصل على النجاحات ذاتها في كل مكان . وقد كانت النجاحات ناجحة في الغالب ، عن دور اليابانيين ، الذين انضموا إلى تعاونيات ، ويمارسون أساليب زراعة متقنة ، مما يؤدي لتحويل المشهد الزراعي كلياً .

عن ج . دوماغو « القارة البرازيلية »

١٩٧٢ SEDES

البرازيل والمضاربات الزراعية

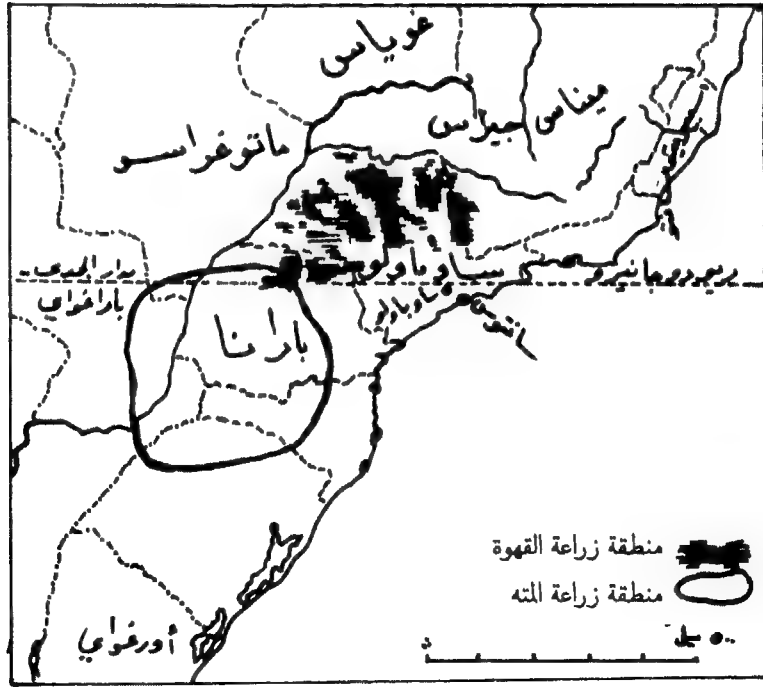
تحتل البرازيل بعد الولايات المتحدة ، المكانة الثانية كدولة تبيع منتجات الزراعة وتربية الماشية ، بحالة خام أو مصنعة ، تلك المنتجات التي تؤلف ثلثي صادراتها ، وتبدو اللائحة الزراعية مدهشة . وتعتبر البرازيل مصدرة كبيرة للمنتجات المدارية ، ذات فائدة تتفاوت فعلاً حسب الأسواق العالمية ، وحسب التقلبات المناخية .

فهناك بالنسبة للقهوة ، على الخصوص ، فرط إنتاج وكساد تارة ، وتارة أخرى ندرة وصعود شديد في الأسعار . وقد كان « الذهب الأخضر » بارومتر ازدهار البلاد ، ولا زال البن يسيطر على توازن الميزان التجاري ، وبين ١٩٤٩ و ١٩٧٥ ، وهو العام الذي أدى فيه الانجماد إلى تلف قسم عظيم من شجرات القهوة ، وبداية دورة جديدة ، كان السوق رديئاً ، وبلغت المخزونات خلال عام واحد ما يعادل الاستهلاك العالمي . وقظّل البرازيل أول دولة منتجة للقهوة ، ولكن حصتها هبطت منذ عام ١٩٢٩ : من ثلثي الإنتاج العالمي إلى الخمس ، وذلك لمصلحة المنافسين الآخرين في أمريكا الجنوبية ، مثل : كولومبيا ، أو الأفارقة أما في ميدان التصدير ، فقد انكمش مكان القهوة من ٧٥٪ إلى ٢٢٪ في عام ١٩٧٧ وصدرت في ١٩٧٨ من البن ما بلغت قيمته ٢,٣ مليار دولار .

أما مزارع الكاكاو ، الممتدة في جنوب ميناء سلفادور ، تحت غطاء غابيّ شبه مفتوح ، والتي تشكو من هرم الأشجار ، ومن المرض ، فلا تزال تقدم ١٥٪ من الكاكاو العالمي ، وتحتل البرازيل المرتبة العالمية الثالثة بعد غانا ونيجيريا ، وتقدم ٤٪ من الصادرات ، لأن إنتاجها يبلغ ٢٣٠.٠٠٠ طن .

وتحقق مزارع الموز ، وتحتل أول مرتبة بالعالم ، ومزارع البرتقال التي تشغل المرتبة الثانية في العالم ، كفاية الاستهلاك المحلي ، وتترك فائضاً للتصدير . غير أن مزارع قصب السكر التي تؤلف زراعة وحيدة حول رسييف ، أو يدخل في دورة زراعية ، في ولاية ساءو باولو ، لا تتوقف عن التوسع ، حتى لقد بلغ إنتاج السكر ٨,٥ ملايين طن ، مما يؤا البرازيل المرتبة الأولى في العالم ، وكذلك بالنسبة لإنتاج الغول . وعلى خلاف ذلك فإن محصول القطن ، العديم الانتظام ، لا يستخدم إلا في الصناعة البرازيلية ، مع أن إنتاجه يصل إلى ٤٠٠٠٠٠ طن من الألياف ، أي يعادل إنتاج مصر ، ويندر أن يكون القطن مروياً في « النوردسته » ، ولا تلقى زراعته عناية كبيرة في بارانا ، ولهذا يكون ضعيف المردود ، ومن نوعية رديئة . وتظل الزراعة التصديرية الكبرى الآن هي الصويا ، إلى جانب القهوة . (شكل ١٦) وتكون زراعة فول الصويا ، مختلطة مع الذرة الصفراء ، أو مع القطن ، وتمتد من نهر بارانا حتى ريو غرانده دوسول ، بحيث تغطي مساحة حقوله ٧ ملايين هكتار ، مع إنتاج يصل إلى ١٢ مليون طن ، وهو يعادل إنتاج الصين ، أو ١٥٪ من الإنتاج العالمي . وتكون زراعة هذا الفول الغني بالبروتين ، والمرغوب جداً في الغذاء الحيواني على شكل كسبة ، والإنساني على شكل زيت ، تكون مربحة جداً . ويقدم فول الصويا المصدّر بحالة خام ، أو بعد تحويله إلى كسبة أو زيت ، يقدم للبرازيل من الدخل مثل ما تقدم لها القهوة .

هذا وتكون مكانة الزراعات الغذائية أقل بريقاً ، ومع ذلك يخصص لها ٦٠٪ من الأراضي بيد أن المردود يكون منخفضاً ، ومتفاوتاً حسب السنين . ففي عام ١٩٧٦ بلغ محصول الحبوب ٣١ مليون طن ، وهبط في ١٩٧٨ ، وهو عام قحط إلى ٢٤ مليون طن فقط . وتتوسع زراعة الرز ، على شكل زراعة بعلية واسعة أكثر من القمح المحصور في أقصى الجنوب ، ويصل محصوله إلى ٩



الشكل ١٦

أهم مناطق نمو المنة والقهوة في البرازيل

ملايين طن ، فوق مساحة تبلغ ٥,٥ ملايين هـ ، مثلما تتوسع زراعة الذرة الصفراء (شكل ١٧) ، التي تمتد من ميناس جيريس إلى بارانا ، ويصل إنتاجها إلى ١٩ مليون طن فوق مساحة تبلغ ١٢ مليون هكتار . وتعطي زراعة المانيوك ، (شكل ١٨) الذي يؤلف دقيقه مع الفاصولياء ، أساس الغذاء الشعبي في النصف الشمالي من البلاد إنتاجاً يتراوح بين ٢٥ و ٣٠ مليون طن ، مما يجعل البرازيل أول دولة منتجة لهذه المادة في العالم . وإذا كان ٤٠٪ من البرازيليين يشكون من سوء التغذية ، فيجب أن نعزو ذلك إلى العادات الغذائية ، وللفقر ، أكثر من عدم كفاية الموارد الغذائية التي تزداد



الشكل ١٧

توزع الذرة في البرازيل

كل نقطة تمثل مليون بوشل (مكيال إنكليزي يعادل ٣٦,٥ لتر)

بسرعة تفوق سرعة النمو الديموغرافي . وتقدم تربية الماشية البروتينات النبيلة ، على خلاف الأقطار الآسيوية . ويستهلك البرازيلي وسطياً ٣٠ كغم من اللحم في العام ، أو أقل من نصف الأمريكي الشمالي أو الأوروبي الغربي . بيد أن اللحم المجفف يكون على الغالب غالياً جداً بالنسبة للنوردستين Nordestinos . وفي الواقع تصدر البرازيل مقادير ضخمة من اللحوم المجمدة والرز ، في حين تشتري ٣ ملايين طن من القمح الأرجنتيني .



الشكل ١٨

توزع زراعة المانيوق الطعام النشوي الرئيسي في البرازيل

القطيع البرازيلي : بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الخيول ، تبلغ ٥ ملايين رأس ، ومثلها من الحمير والبغال ، وهي حيوانات لا غنى عنها في المواصلات وفي الأعمال الحقلية ، ولتقل الأثقال المحلية ، فإن قطيع البرازيل يضم ١٠٦ ملايين رأس من الأبقار ، و ٢٨ مليون من الخنازير ، و ١٧ مليون من الأغنام ، في إقليم ريوغرانده دوسول و ٧ ملايين رأس من الماعز في الشمال الشرقي . وتزيد قيمة هذا القطيع من الناحية الاقتصادية تدريجياً . ويتم تسمين الماشية الهزيلة القادمة من الداخل ، فوق مراعي التسمين المسماة *invernadas* الأكثر قرباً من الساحل ، والمدن الكبرى ، ولكنها تتغذى أيضاً على الذرة الصفراء والصويا ، التي تقدم علفاً للأبقار الحلوبة ، وللخنازير ، في الجنوب الشرقي .

البرازيل قطر حديث العهد بالتصنيع

لم تكن البرازيل قبل عام ١٩٤٠ ، تحوّل صناعياً ، سوى المواد التي تقدمها الزراعة وتربية الماشية ، باستثناء صناعة حديدية صغيرة في منطقة ميناس جيريس ، وذلك بالاستعانة برؤوس أموال أجنبية غالباً . غير أن مهاجراً إيطالياً كنيته ماثارازو Matarazzo ، استطاع مع ذلك أن ينشئ صناعة ذات تركيز شاقولي ، انطلاقاً من مصنع لإنتاج دهن الخنزير ، فأصبح ينتج الدقيق ، وأكياس التغليف ، ونسيج الجوت ، ثم نسيج القطن فالحريز الاصطناعي ، فالورق وأخيراً دخل ميدان الصناعة الكيماوية . ولكن لا يزال ٦٠٪ من الأنشطة الصناعية تتعلق بالتغذية ، وبصناعة الجلود والمنسوجات . ولكن الدولة الاتحادية ، هي التي أطلقت العنان للتصنيع خلال الحرب العالمية الثانية ، بظهور شركة الصناعة الحديدية الوطنية ، التي أقامت مصنع الفولاذ في مدينة فولتا رودوندا ، الواقعة على منتصف الطريق بين ساءو باولو وريودوجانيرو . ومنذ خمسة عشر عاماً راحت الصناعة البرازيلية تتقدم بسرعة ، وتغطي معظم الحاجات ، باستثناء السلع التجهيزية .

وإذا كانت البرازيل فقيرة بالطاقة ، فلديها المواد الخام ، وإذا كانت لا تحصل على أكثر من ٢٠٠٠٠ طن من المطاط الطبيعي من غابتها ، فإن صناعها البتروكيماوية تقدم لها عشرة أضعاف هذا الرقم من المطاط التركيبي ، كما أن ثروتها المعدنية تشكل كنزاً أسطورياً حقيقياً : فلديها النحاس في ولاية باهيا ، والنيكل في ولاية غوياس وتنتج منه ٣٥٠٠ طن ، والبوكسيت في ولايتي ميناس جيريس وبارا وتنتج حوالي المليون طن ، ولا سيما المنغنيز الذي تحتل بإنتاجه الدرجة الرابعة في العالم ، في ولايتي ميناس وأپاما وإنتاجه

١,١ مليون طن ، وخام الحديد : الذي تحتكر البرازيل ربع احتياطيها العالمي ، ويتكشف « مربع الحديد » حول مدينة بيلو هوريزنته ، عن ذخير مقداره ٢٥ مليار طن من الخامات . وقد بلغ الإنتاج ٦٠ مليون طن ، من المحتوى المعدني في عام ١٩٧٤ ، مقابل ٤٥ مليون طن عام ١٩٧٨ ، وذلك حسب الطلب عليه في أسواق التصدير ، في أوروبا والولايات المتحدة واليابان ، والذي يتم تصديره عن طريق ميناء فيتوريا ، شمال شرق ريودوجانيرو . وتصيب صناعة الحديد البرازيلية مقدار ١٤ مليون طن من الفولاذ ، وأخذت بتصديره ، وستصل قدرتها الإنتاجية في ١٩٨٢ إلى ٢٢ مليون طن بفضل المركب البحري الجديد في ميناء فيتوريا ، حيث دخلت رؤوس أموال يابانية وهولندية . وبعد أن كانت صناعة السيارات ، عبارة عن تجميع بسيط في ١٩٧٥ ، ومن ثم صناعة مع قطع من إنتاج برازيلي ، أخذت تقدم مليون سيارة سياحية في عام ١٩٧٨ ، تصدر قسماً منها . ترى هل ستصبح البرازيل يابان جديدة ؟

وتشرف الدولة على قطاع الطاقة ، وعلى قسم من الصناعة الثقيلة ، غير أن الشركات المتعددة القوميات ، تهيمن على الفروع الحديثة : كصناعة السيارات (فولغسفاكن) ، وصناعة الأجهزة الكهربائية ، والخيوط الكيماوية ، والصيدلة . وفيما عدا الشركات الأمريكية مثل Exxon وفورد ، هناك المجموعات الألمانية ، وتمثلها فولغسفاكن ، والإيطالية وتمثلها فيات وبيربيلي ، والفرنسية : مثل شركة رون بولنك ، وسان غوبان ، وبونتاموسون ، أو شركات يابانية ولقد بلغت ديون البرازيل الخارجية ٩٠ مليار دولار في عام ١٩٨٢ .

وترهق هذه التبعيّة ميزان المدفوعات ، بسبب شراء البراءات ، والسماح بخروج الأرباح . ففي مصنع سيارات فولغسفاكن في ساءو باولو ، تكون أجرة العامل في الساعة ٠,٦ دولار مقابل ٥,٦٥ دولار في جمهورية ألمانيا الاتحادية . وعلى الرغم من انخفاض الأجور ، فإن صناعة البرازيل

الفتية ، ذات المصانع الصغيرة جداً ، والعتيقة أحياناً ، أو ذات الموقع الرديء ، تتطلب سياسة حماية صارمة . وتتركز معظم المصانع ، في « المثلث الصناعي » ، الواقع بين المدن الثلاث : ساءو پاولو ، بيلوهوريزنته ، وريودوجانيرو . وتضم ولاية ساءو پاولو لوحدها ، نصف المصانع ونصف العمال .

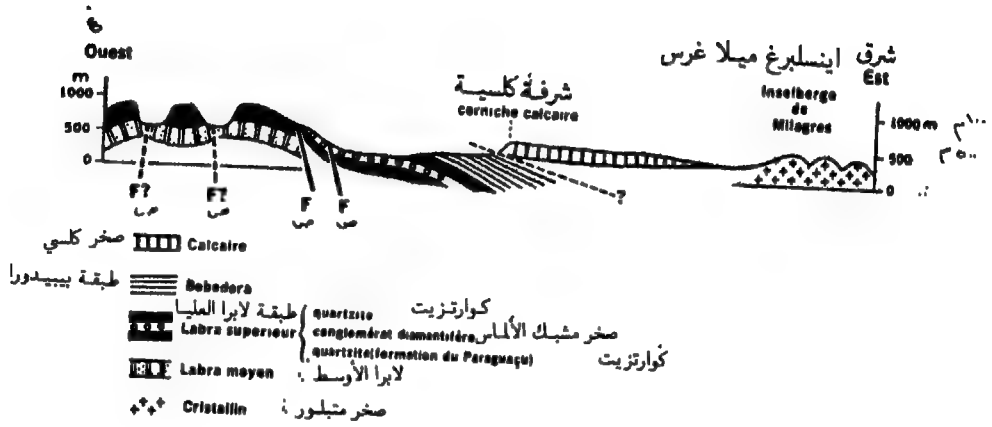
أما أنشطة الجنوب ، فغالباً ما تكون أنشطة غذائية أو نسيجية . في حين يكون إقليم النوردسته ، محروماً من الصناعة ، باستثناء صناعة البتروكيماويات في سلفادور ، والصناعة القطنية في رسييف . ومع ذلك بدأ تطبيق سياسة لامركزية صناعية ، إذ يقوم مصنع لصهر الألمنيوم قرب بيلم ، كما يبنى مركب صناعي ساحلي في موقع سواپيه Suapé قرب رسييف .



مصانع الفولاذ في فولتا رودوندا : وقد أنشأتها الدولة في وادي پاريبا ، بين ساءو پاولو وريودوجانيرو . وتعتمد هذه المصانع على الخط الحديدي في تمويلها بالفلزات وبالفحم المستورد . أما مصانع الحديد الأحدث ، فقد استقرت فوق خامات الحديد ، مثل مصنع أوزيميناس Usiminas ، أو على قرب من ميناء مثل كوسيبيا Cosipa قرب سانتوس . وتركز مؤسسة سيدبربراز Siderbras أسهم الدولة في صناعة الحديد ، وهي شركات وطنية ، وشركات مختلطة ، تدخل فيها رؤوس الأموال الأجنبية وعلى الأخص اليابان ، كما هو الحال في شركة أوزيميناس .



لا يزال التنقيب الجيولوجي في البرازيل ناقصاً : ومع ذلك أمكن التعرف على مكان هامة أحياناً لمعظم الفلزات المفيدة . ولكن تبدو البرازيل غنية على وجه الخصوص بخام الحديد وبالبوكسيت ، وكذلك بالمعادن الاستراتيجية : كالمغنيز والنيكل والتنجستين وتنتج منه ١٧٠٠ طن ، وتظل الولاية التعدينية الحقيقية هي ميناس جيريس ، المعروفة منذ القرن السابع عشر بثرواتها من خامات الذهب في موقع Ouro Preto (أورو پريتو) . ولكن بدأ استغلال الموارد الأقرب والأسهل ، كما في ولاية پارا وآميا . أما البقية فقد تركت كاحتياطي وقامت مدينة ديامنتينا فوق مناجم الألماس في شمالي مدينة بيلوهوريزنته (شكل ١٩) .



مكامن الماس في البرازيل

الشكل ١٩

النهضة الصناعية في البرازيل

لقد اختارت البرازيل ، منذ أزمته الكبرى في ١٩٦٣ - ١٩٦٧ الاستراتيجية التالية :

- تقوم كل تنمية البرازيل ، بما في ذلك التنمية الزراعية ، على نمو متسارع لصناعة الوسط الجنوبي وليس هناك من حاجة لأي إصلاح بنيوي .

- يتطلب هذا النمو الصناعي السريع ، أكثر من ١٠٪ في العام ، إلغاء أي عائق في وجه حركية المؤسسة الخاصة .

- لن يتخذ أي تدبير تفضيلي ، تجاه رؤوس الأموال الأجنبية ، ولكن السياسة الصناعية ، ستحاول عقلنة بنى الصناعة الوطنية ، بأن تفرض عليها الحجم الأدنى ، وذلك في مؤسسات الفروع الجديدة وحمايتها من سياسة غمر الأسواق dumping .

وهذه الاستراتيجية ، لن تحمل على الفور مشكلات الاستخدام ولا مشكلات اختلال المبادلات .

- سيتم الاعتماد على تنمية صادرات المنتجات الأولية ، غير التقليدية كفلزات الحديد ، وأخشاب حوض الأمازون ، والمنتجات المصنوعة القادرة على المنافسة في الأسواق الخارجية .

عن د. س. لامبوز وج. م. مارتان

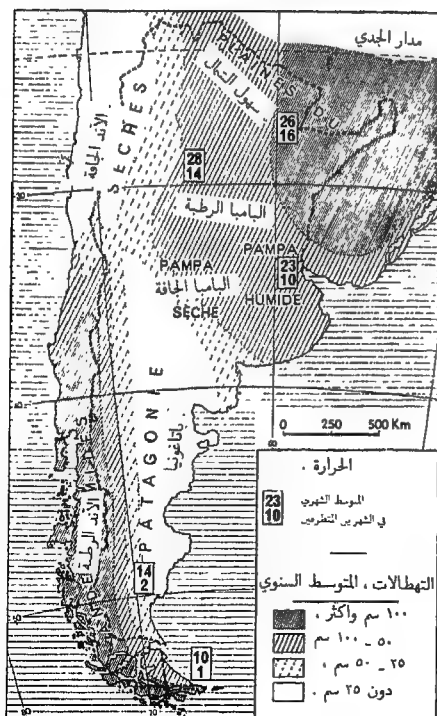
« أمريكا اللاتينية : اقتصاد ومجتمعات »

دار آ كولان ١٩٧١

الأرجنتين

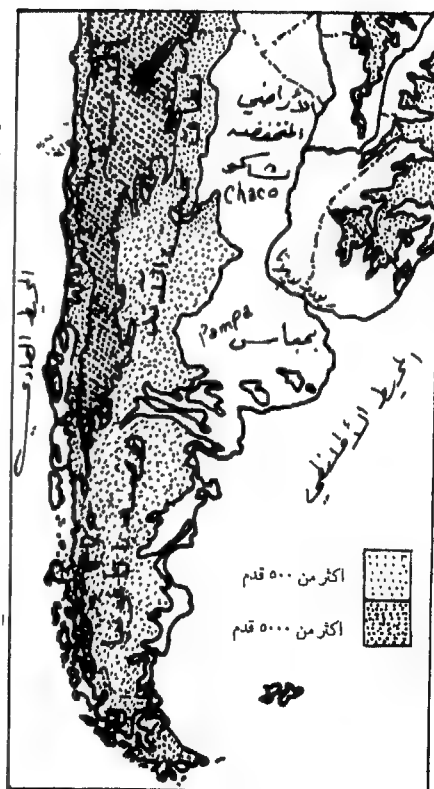
البيئة والسكان

تمثل جمهورية الأرجنتين في القرن الجنوبي للقارة الجديدة ، والتي تبلغ مساحتها ٢,٨ مليون كم^٢ ، والممتدة من سروات جبال الأنديز حتى المحيط الأطلنطي ، تمثل مجموعاً جغرافياً شديداً التنوع . ففي الشمال الغربي ، يقع الپيمونت Piémont والسلاسل الأمامية ، أي سرة قرطبة ، التي تؤلف طليعة سلسلة الأنديز ، ثم يظهر حادور glacis شاكو اللحيقي . أما في الشمال الشرقي ، فيتألف من ميزاب « ميزوپوتاميا الأرجنتينية » ، الواقع بين نهر پارانا ونهر أوروغواي ، اللذين يشكلان نهر ريودولاپلاتا ، بعد التقائهما (شكل ١) ، وإلى الجنوب من هذا المصب العريض ، تمتد سهول الپامپا الفسيحة ، وهي سطح قليل التموج ، مؤلف من غرين Limons ريحي ، أي من اللوس ، ويخلو من المياه الجارية ، ومن الأشجار في الحالة الطبيعية ، ومن ثم ، أي إلى الجنوب ، تظهر هضاب پاتاغونيا الرتيبة . هذا كما يكون المناخ بمحد ذاته متنوعاً (شكل ٢) : ذلك أن مدار الجدي ، يلامس إقليم الشاكو من الشمال ، بيد أن رأس هورن في نصف الكرة الجنوبي ، يقع على عرض مماثل لدرجة عرض موسكو . هذا وتكون حرارة أكثر الشهور دفئاً في جزر أرض النار ، تعادل حرارة أكثر الشهور برودة في بوينوس آيرس ، أي ١٠ درجات (شكل ٢) . وتهب من جبال الأنديز على پاتاغونيا ، وحتى على سهول الپامپا ، في الشتاء ، ریح جافة ، تكون أحياناً قارسة ، هي ریح پامپيرو Pampero . ويخترق الأرجنتين من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي ، أي من پونسادو



مناخ الأرجنتين

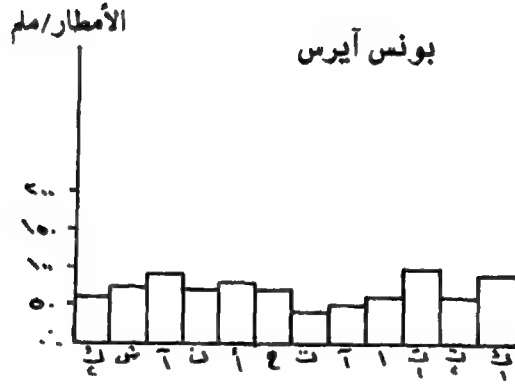
الشكل ٢



الخريطة الطبيعية للأرجنتين

الشكل ١

أتاكاما ، التي يمر مدار الجدي من شمالها ، حتى أرض النار ، يخترقها حزام شبه قاحل ، يتلقى أقل من ٤٠٠ مم من الأمطار ، ويقطع الأرجنتين على شكل وتر ، وهكذا تتعرض سهول الپامپا ذات الأمطار الصيفية غير المنتظمة ، إلى سنوات عجاف . وهكذا يتعاقب من الشمال إلى الجنوب ، السافانا الشجرية ، والدغيات الشوكية (بروس) أو monte ، ثم المروج أو البراري ، وأخيراً السهب steppe (شكل ٤) .

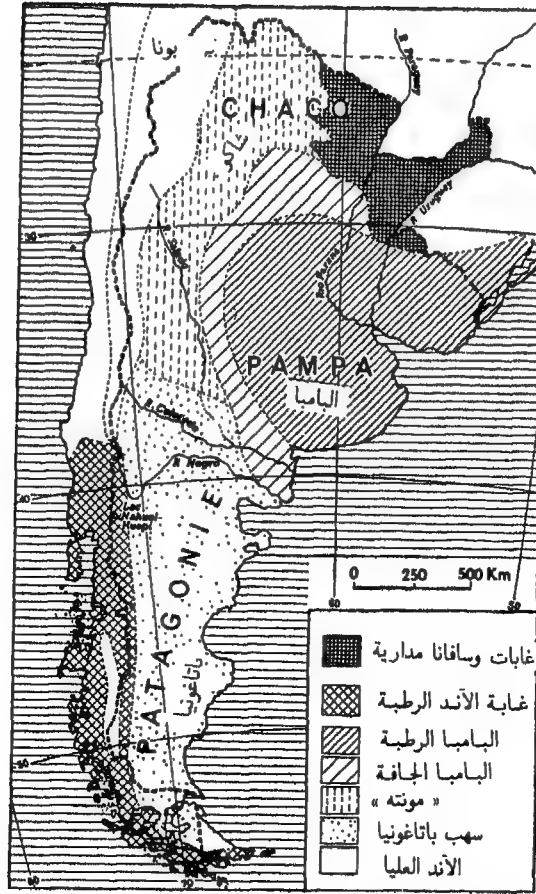


نموذج المناخ : صيني
 العرض : ٣٤,٣٧° جنوب خط الاستواء
 الارتفاع : — م
 المعدل السنوي للحرارة ١٦,٦°
 معدل أحر شهر كانون ثاني ٢٣,١°
 معدل أبرد شهر تموز ١٠,١°
 الأمطار السنوية ٨٦٧ مم

الشكل ٢

وبعد أن ظل الإسبان قابعين في مراكزهم ، في وادي لابلاتا ، أو في غوطات حضيض جبال الآند ، أخذوا في استيطان سهول الپامپا ، وإقليم پاتاغونيا ابتداءً من النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وذلك بعد القضاء على السكان الهنود المحليين القليلي العدد .

وإذا كان المهجاء عديدين بين العمال الزراعيين Peones ، أو بين رعاة الماشية غوشوس gauchos ، فإن ٨٦% من سكان الأرجنتين ، هم من البيض الخلصاء . وينحدر هؤلاء ، أي كريوللوس criollos ، من مهاجرين قدموا من



نبات الأرجنتين

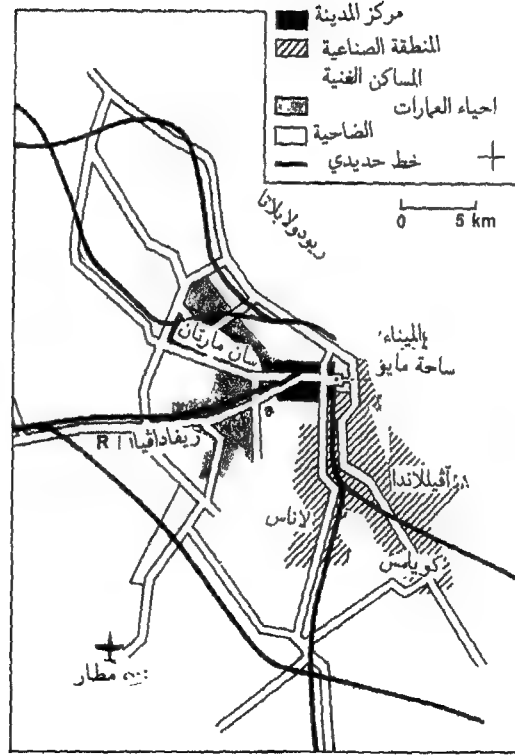
الشكل ٤

أوروبا ، على شكل موجات متعاقبة بين ١٨٨٠ و ١٩١٤ ، وكان ثلاثة أرباعهم من الطليان ، أو ٤٤% ، ومن الإسبان أو ٣٣% . وكان بين هؤلاء الأرجنتينيين الجدد ، فرنسيون من إقليم الباسك ، ومعمرون ألمان ، استقروا في إقليم الشاكو ، كما استقر في باتاغونيا أعداد من الإنكليز ومن اليوغوسلافيين . ولم تعد الأرجنتين تستقبل مهاجرين جدد ، سوى من الأقطار المجاورة ، أي من الأوروغواي ومن بوليشيا . هذا ويظهر التوسع الديموغرافي مكبوحاً ،

لانخفاض نسبة التوالد وهي ٢٢ بالآلف . وتكون نسبة الوفيات معتدلة ، وهي ٩ بالآلف ، أي أن الفائض السنوي يعادل ١٣ بالآلف أو ١,٣ بالمائة ، ولكن هرم السكان يتجه نحو الشيخوخة ، لأن عدد الذين تتجاوز أعمارهم ٦٥ سنة ، يشكلون ٨% ، بينما لا يشكل الأولاد الذين تقل أعمارهم عن ١٥ سنة سوى ١٨% من السكان . وللأرجنتين كثافة سكانية لا تزيد عن ١٠ في الكيلومتر المربع ، نظراً إلى أن عدد سكانها كان في عام ١٩٧٩ يعادل ٢٦,٧ مليون نسمة و ٢٨ مليوناً في ١٩٨١ .

هذا ويكون الاستيطان السكاني رديء التوزيع ، لأن ٨٠% من الأرجنتينيين يعيشون في المدن الموزعة عند حضيض الأنديز ، وعلى حافة سهل الهامبا النهري البحري . ولدينتي قرطبة وروزاريو اللتين يزيد سكان كل منهما عن ٨٥٠.٠٠٠ نسمة دور إقليمي . ولكن تتلاقى في هذا « القطر المروحي » ، كل الطرق والخطوط الحديدية باتجاه العاصمة ، التي يحقق ميناؤها ٧٠% من التجارة الخارجية .

ويتمركز في بوينوس آيرس وأرباضها (شكل ٥) ، ثلث السكان في هذه الدولة ، ذات الرأس المتورم . هذا وتكون المفارقات بين العاصمة والأقاليم ، وبين الأرياف والمدن ، حادة ولا تزال الأراضي الزراعية تحت احتكار ٢٠٠ عائلة من كبار الملاكين ، أو terratenientes ، في حين تزحف الطبقة الكادحة الزراعية نحو المدن . وقد دعم هؤلاء « المحرومين من القمصان descamisados » من عام ١٩٤٥ إلى ١٩٥٥ ، السياسة الاقتصادية الوطنية ، و « العدالة » التي نادى بها الرئيس بيرون . أما الأرجنتين التي تخضع لديكتاتورية عسكرية منذ ١٩٧٦ ، والتي يكون نموها الاقتصادي ضعيفاً لا يتعدى ١% في العام ، مقابل ٦% في اليابان ، فلا يزيد الناتج الداخلي الخام للفرد عن ٢٠٠٠ دولار ، ويبدو عليها بعض الاستقرار ، ما عدا حربها الفاشلة ضد الإنكليز ، في



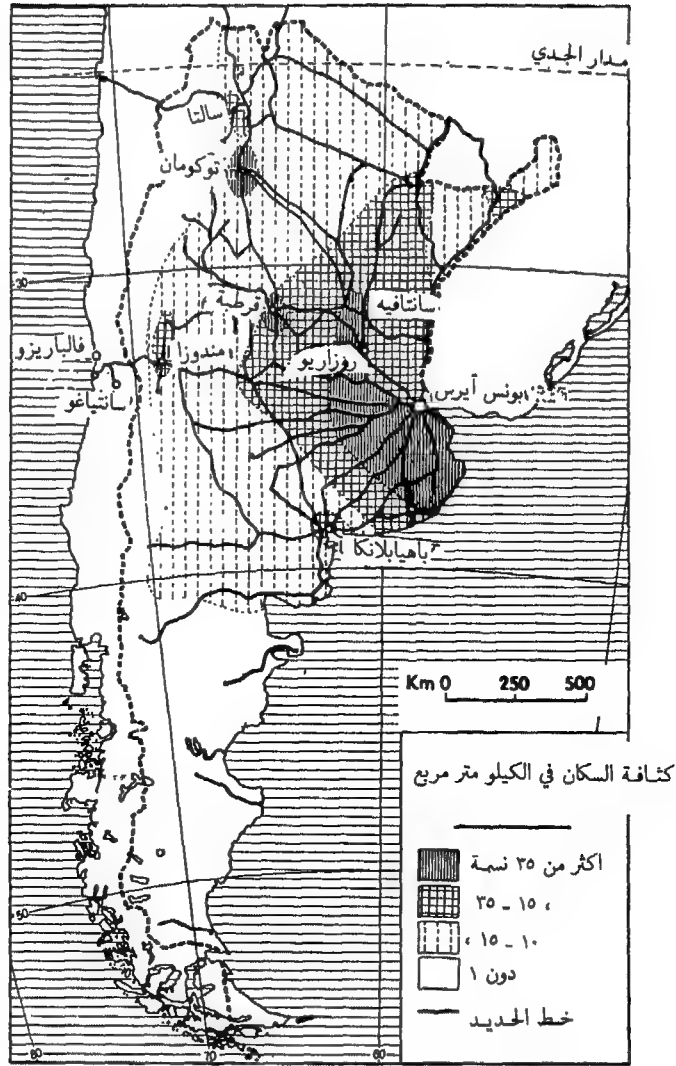
بوينوس آيرس

الشكل ٥

صيف ١٩٨٢ ، في سبيل الاستيلاء على جزر فولكلاند (مالوين) ، ولكنها
تضرب الرقم القياسي العالمي في نسبة التضخم .

☆ ☆ ☆

توزع سكان الأرجنتين : يتكدس المهاجرون الجدد في العاصمة ، أو بجوارها (شكل ٦) .
ويعيش في الأقاليم الشمالية الغربية ثلث سكان الأرجنتين ، مقابل ٧٠٪ في بداية القرن التاسع عشر .
أما في پاتاغونيا الشاسعة ، فيتبعثر ٧٥٠٠٠٠ نسمة . هذا كما تكون أرياف الهاميا شبه خالية ، إذ تتناثر
فيها المزارع الضخمة estancias ، الشديدة التباعد ، لأن مساحة الواحدة تمتد على آلاف الهكتارات .
وتقوم بضع دكاكين حول الكنيسة ، في حين نجد قرب محطات السكك الحديدية ، المخازن التي تتكدس



الاستيطان وشبكة الخطوط الحديدية في الأرجنتين

الشكل ٦

فيها المحاصيل . وقد شهدت الأرجنتين ، بفضل الهجرة ، شأن الأقطار المجاورة الجديدة ، اندفاعاً استيطانياً شديداً ، فارتفع عدد السكان ، من أقل من مليونين من الأهالي في ١٨٧٠ ، إلى أكثر من ٨ ملايين في ١٩١٤ . بيد أن سكانها من الأصل الأبيض ، والشديدي التحضر ، قد حدثوا من خصوبتهم في

وقت مبكر . فكانت نسبة التوالد تقل عن ٢٥ بالألف منذ ١٩٣٠ . ومنذ ذلك الحين والنمو الطبيعي ثابت تقريباً بمحدود ١٪ في العام ، أي يتضاعفون مرة كل ٧٥ سنة ، أي نجدهم أكثر قرباً من إسبانيا مما هو الحال عليه في أقطار أمريكا اللاتينية الأخرى ، باستثناء جارتها الأوروغواي والشيلي .



بوينوس آيرس ، الميناء والمدينة : لا يتمتع موقع هذه المدينة بأية ميزة تلفت النظر : فهي تقع على حافة سهل منبسط ، إلى جانب مياه نهر ريودولا بلاتا العكرة ، والتي تطل عليها خط من ناطحات السحاب ، التي تؤلف حي الأعمال ، الذي يبدو وكأنه ينبثق من السهل والنهر . ويتطلب الميناء حماية ضد الإطماء . ويعود أصل ومنشأ بوينوس آيرس إلى عام ١٥٥٦ . وكانت عاصمة نائب ملك إسبانيا في دولا بلاتا في عام ١٧٧٦ ، ثم عاصمة للأرجنتين في ١٨١٦ . وظلت مدينة متواضعة ، حتى قبل قرن مضى ، حيث لم يكن عدد سكانها يتجاوز ٢٧٠٠٠٠ نسمة . أما اليوم فيبلغ عدد سكان المدينة هذه ٣,٧ ملايين . غير أن هناك ٢٥ ناحية تزحف نحو دائرة العاصمة الاتحادية ذاتها ، وتؤلف مع بوينوس آيرس مدينة عملاقة ، يزيد عدد سكانها عن ١٠ ملايين ، وشديدة امتداد الرقعة . ويتألف مركزها من مخطط شطرنجي ، ذي شوارع ضيقة ، تتقاطع بزاوية حادة في كل ١١٧ م ، ويكون السير فيها عسيراً . أما على الأطراف فتتد خطوط الأبنية المنخفضة على طرفي محاور الطرق ، مثل ريفادافيا وفيها ١٨٠٠٠ شقة . أما في الشرق فتقع الأحياء الصناعية ، مثل حي أفيلانيدا وحي كيلس والأحياء العالية . وتقع الأحياء السكنية في الشمال ، على ضفاف ريودولا بلاتا . ويتمركز في العاصمة نصف الصناعة الوطنية .

ويعمل المستوى الثقافي المرتفع ، والكثافة العليا في الدوائر الحكومية ، من بوينوس آيرس العاصمة الكبرى في أمريكا الشمالية ، وإحدى كبريات المدن العملاقة العالمية . ويمكن وضع هذا التميز في خدمة تبنية منتظمة للمجال الأرجنتيني ، وذلك بالارتباط مع المناطق القريبة في الأقطار المجاورة .

عن ر. غينيار « أمريكا اللاتينية »

تحت إشراف كولان دولافو . دار نشر بورداس ١٩٧٣



الأرجنتين

اقتصاد قيد البناء

لقد عملت استثمارات أوروبا الصناعية ، بدءاً من عام ١٨٨٠ ، وكانت على شكل خطوط حديدية ومستودعات تبريد ، عملت من الأرجنتين مورّدة متميزة للّحوم والصوف والحبوب ، مزدهرة نسبياً . ولكن عندما استحوذ النظام البيروني على احتكار التجارة الخارجية لتمويل التصنيع ، عن طريق الشراء بئمن بخس ، كي يبيع بسعر مرتفع ، خسرت الأرجنتين زبائنها ، وأصبحت الزراعة مفككة الأوصال منذ ١٩٤٩ .

وتظل الأرجنتين مع ذلك قطراً زراعياً ، يصدر ثلاثة أرباع إنتاجه بحالة خام ، أو بعد تحويله . وتتألف مبيعاتها بصورة أساسية من حبوب ، ومن بذور زيتية ، ومن الصوف واللحوم . بيد أن حجم المحاصيل ، يكون عديم الانتظام جداً ، شأن الأسعار العالمية . وهكذا وبالرغم من سيطرة القطاع الأول ، على الاقتصاد الوطني ، فهو لا يحقق أكثر من ١٢٪ من الناتج القومي الخام ، مثلاً لا يوفر العمل لأكثر من ١٤٪ من العاملين . ويعتبر نصف مساحة البلاد صالحاً للزراعة ، ولكن المزروع فعلاً لا يتجاوز ١٢٪ ، بيد أن المراعي تكون أكثر امتداداً بأربع مرات ، وتشكو الترب ، وغالباً ما تكون غنية ، من ظاهرات الانجراف . أما المزارع الكبرى أو الاستانسياس estancias ، فهي ملكيات خاصة واسعة ، تكون مستغلة جزئياً بواسطة عمال مأجورين ، من أجل تربية الماشية ، في حين يكون القسم الآخر ،

مقسماً بين المشاركين الذين يأخذون على عاتقهم زراعتها . غير أن الملكيات الصغرى ، أو غرانجهه granja في تقدم ، ولا سيما في البقاع المروية ، وهي واسعة نوعاً ما ، وكذلك على جبهة شاكو الطلائعية .

وتؤلف تربية الماشية ، أكثر الأنشطة الاقتصادية ازدهاراً : ففي منطقة الپامپا الجافة ، يعيش فوق المراعي الهزيلة المسورة بالأسلاك الشائكة ، قطع يجري إعداده كي يساق فيما بعد إلى الپامپا الرطبة ، التي تقوم بفضل المزروعات العلفية ، بتسمين الحيوانات قبل أن تقدمها إلى مخازن التبريد Frigorificos . أما پاتاغونيا ، فقد اقتصت بالتربية الواسعة للأغنام . غير أن عدد قطع الأغنام ، يتناقص ، فهبط خلال ثلاثين عاماً من ٥٠ مليون رأس إلى ٢٤ مليون ، ينتج ١٦٠٠٠٠ طن من الصوف ، في حين يزداد قطع الأبقار ، الذي قفز تعداده من ٤٠ مليون إلى ٦٠ مليون رأس .

وعادت الأرجنتين من جديد ، لتكون منتجة كبيرة للحم المبرد والمجمّد ، أو ٤ ملايين طن الذي يشكل ١١٪ من الصادرات ، ولا سيما باتجاه إيطاليا . ويستهلك معظم إنتاج الحبوب محلياً ، ولكن الذرة البيضاء ، التي يصل منتوجها إلى ٨ ملايين طن ، والذرة الصفراء ، التي يبلغ منتوجها ١٠ ملايين طن ، تتركان فائضاً للتصدير . وبعد أن كان القمح يؤلف تصديراً رئيسياً تقليدياً ، أصبح يعطي الآن محصولاً شديد التفاوت ، بين عام وآخر ، فبعد أن بلغ ١١ مليون طن في عام ١٩٧٦ ، هبط في العالم التالي إلى ٥,٣ ملايين طن ، بسبب الجفاف ، ولهذا لا يقدم دوماً أرباحاً كبيرة . أما زراعة البذور الزيتية ، مثل بذرة الكتان ، وعباد الشمس في سهل الپامپا ، وفستق العبيد والصويا ، فهي أكثر ربحاً ، مثل الزراعات المخصصة للسوق لداخلية : كزراعة الرز والتبغ ، وقطن شاكو ، وقصب السكر ، وهي الزراعة الوحيدة في واحة توكومان ، وتفتح المزارع المروية على نهر ريونيغرو ، والبرتقال ، ولا سيما

الكرمة المزروعة على البيمونت الأندي . وتعتبر الأرجنتين منتجة كبيرة للخمور والتي يبلغ إنتاجها وسطياً ٢٥ مليون هكتولتر .

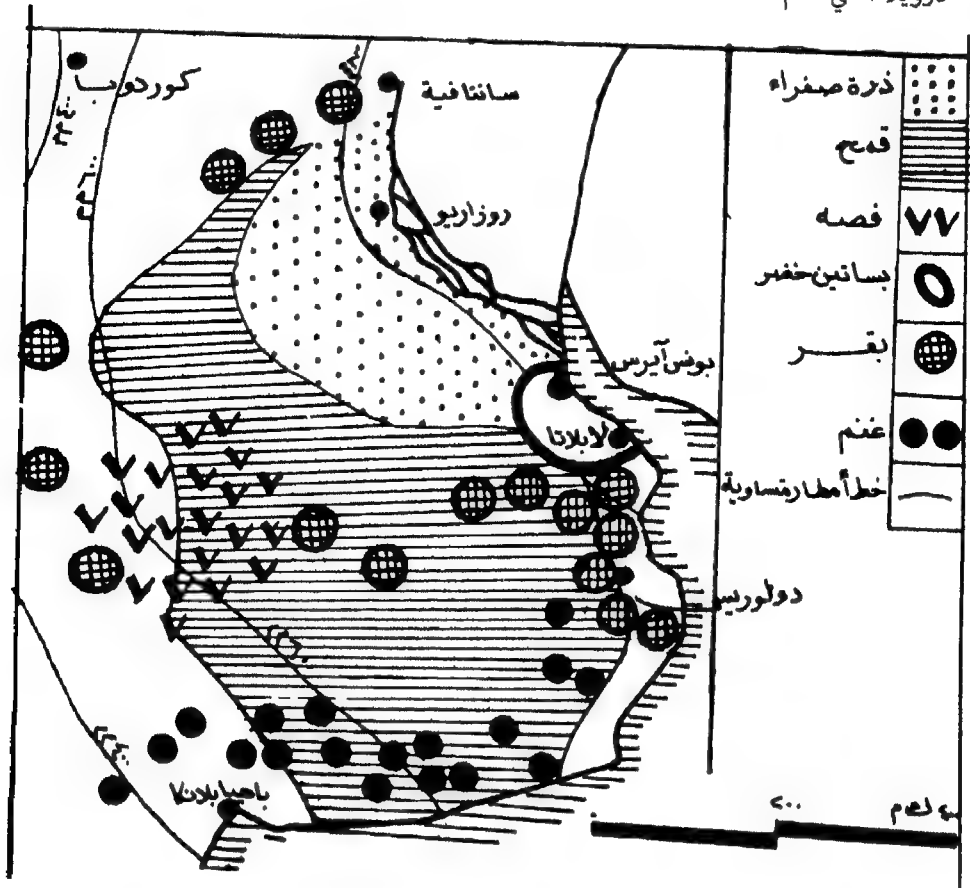
هذا وتكون الصناعات الزراعية الغذائية ، التي تؤمن ٤٠% من مجالات العمل ، قديرة : كالمطاحن ومعاصر الزيت ومصانع الجعة ، ولا سيما « مصانع اللحوم » ، التي لا تزال في أيدي الشركات الأمريكية الكبرى ، مثل شركة سويفت وآرمور . غير أن « سياسة التصنيع الإرادي » الرامية إلى تجهيز البلاد بصناعات استهلاكية ، كالنسيج والسيارات ، ثم بالصناعات الأساسية ، فقد عانت من الاضطرابات السياسية والاجتماعية ، كدعاة أجور العمال ، علماً بأنهم منخرطون في نقابات منظمة ، ولا يزيد إنتاج الحديد الوطنية عن ٣ ملايين طن من الفولاذ ، أي نصف حاجة السوق ، وينال مصنع سان نيقولا ، في سافلة روزاريو ، الفلزات والفحم ، من مكان واقعة في پاتاغونيا ، وهناك مصنع آخر قيد التنفيذ ، أكثر عقلانية ، يقوم في باهيا بلانكا ، بيد أن الأرجنتين ، تتميز باستقلال طاقي نسبي ، باستخراجها من پاتاغونيا ، ومن حضيض جبال الآند ٨٠% من الوقود السائل ، أي النفط والغاز ، اللذين تحتاج إليهما .



تجارة الأرجنتين

ليس لدى الأرجنتين الكثير من الفحم ، إذ لا يزيد إنتاجها كثيراً عن نصف مليون طن من موقع ديوتوريو ، كما لا تملك سوى فلزات حديدية فوسفورية ، من مناجم جبال سرة غرانده أو ١١٥ ألف طن . ولهذا تكون صناعة الحديد ، التي أقامت الدولة في سان نيقولا ، في سافلة مدينة روزاريو ، قليلة القدرة على المنافسة .

ولكن الأرجنتين ، حتى بعد تصنيعها ، لا تجد ما تبيعه ، سوى منتجات أرضها وقطيعها ، من لحوم وأصواف ، وحبوب وبذور زيتية على الخصوص ، والفائض الذي سجلته في عام ١٩٧٧ كان استثنائياً نوعاً ما ، ويعود إلى ضخامة صادرات الحبوب التي تنتج سهول البامبا معظمها (شكل ٧) ، والتي بلغت ١٦ مليون طن مقابل ١٠ ملايين في ١٩٧٦ ، على أثر مواسم طيبة ، ولكن أيضاً لتقنين الاستيراد بصورة صارمة . وتتصدر الولايات المتحدة ، بقية عملائها التجاريين ، سواء في ميدان التصدير أو الاستيراد ، في حين نكصت الدول الأوروبية متراجعة ، غير أن البريطانيين واليطاليان يشترون اللحوم المبردة ، وكذلك الذرة الصفراء وفول الصويا والصوف . ولكن المبادلات تنو بشكل خاص مع الأقطار المجاورة ، كالشيلي والبرازيل ، التي تشتري القمح وتبيع منها القهوة ، وكذلك مع فنزويلا ، التي تقدم لها النفط .



الباما الأرجنتينية

الشكل ٧

وقد بلغت صادراتها في ١٩٧٦ مقدار ٧٤٢ مليار بيزوس ، وكانت تتألف من الحبوب واللحم والصوف والثمار والخضار ، وبلغت استيراداتها في العام ذاته ٤٥٤ مليار بيزوس ، وكانت تتألف من مكائن وسيارات ومنتجات كهاوية وصيدلانية ، وحديد ومعادن ووقود .



الطاقة في الأرجنتين : لم يتدفق النفط في الأرجنتين لأول مرة إلا في عام ١٩٠٧ في باتاغونيا في موقع كومودور ريفادافيا (شكل ٨) . ولا يزال هذا الحقل منتجاً ، ولكنه ينتج الغاز على الخصوص . وقد اكتشفت حقول أخرى يكون فيها الغاز على العموم مختلطاً بالنفط ، عند أقدام جبال الأنديز ، وفي شمال الشاكو ، كحقل كامبودوران ، وحتى في أرض النار ذاتها . ويعود احتكار التنقيب والاستخراج لشركة حكومية هي Y.P.F . وفي عام ١٩٥٥ لم تكن الأرجنتين تنتج سوى ٤ ملايين طن من الزيت الخام . لكن هذا الإنتاج بلغ ٢٥,٥ مليون طن في ١٩٨١ ، إلى جانب ٨ مليارات متر مكعب من الغاز ، مما كان يغطي تقريباً حاجة البلاد ، وكانت تكل استهلاكها باستيراد ٣ ملايين طن ، من بترول فنزويلا ، و٢ مليار م^٣ من الغاز من بوليفيا . وتبلغ قدرة مصافيها ، وأهمها الواقعة في لابلاتا وقرب روزاريو ، ٤٠ مليون طن . ونظراً للموقع المتطرف لحقول النفط ، فإن الأنابيب تتلاقى في منطقة العاصمة . وهناك تقع مراكز توليد الطاقة الحرارية التي تحرق زيت الفويل ، والمركز النووي في أتوشا ، الذي يستخدم الأورانيوم الطبيعي من منجم في جبال الأنديز . وتنتج الأرجنتين ٣٥ مليار ك و س أو ١٣٠ ك و س لكل مواطن ، ولكنها لا تستمد من طاقتها الهيدروليكية الكامنة العظيمة ، مثل سد شوكون ، سوى سبع كهربائها .



التوزيع المئوي للأرض الأرجنتينية

١٤%	مساحات غير منتجة
٢٢%	غابات
٥٢%	المراعي
١٢%	الأرض المزروعة



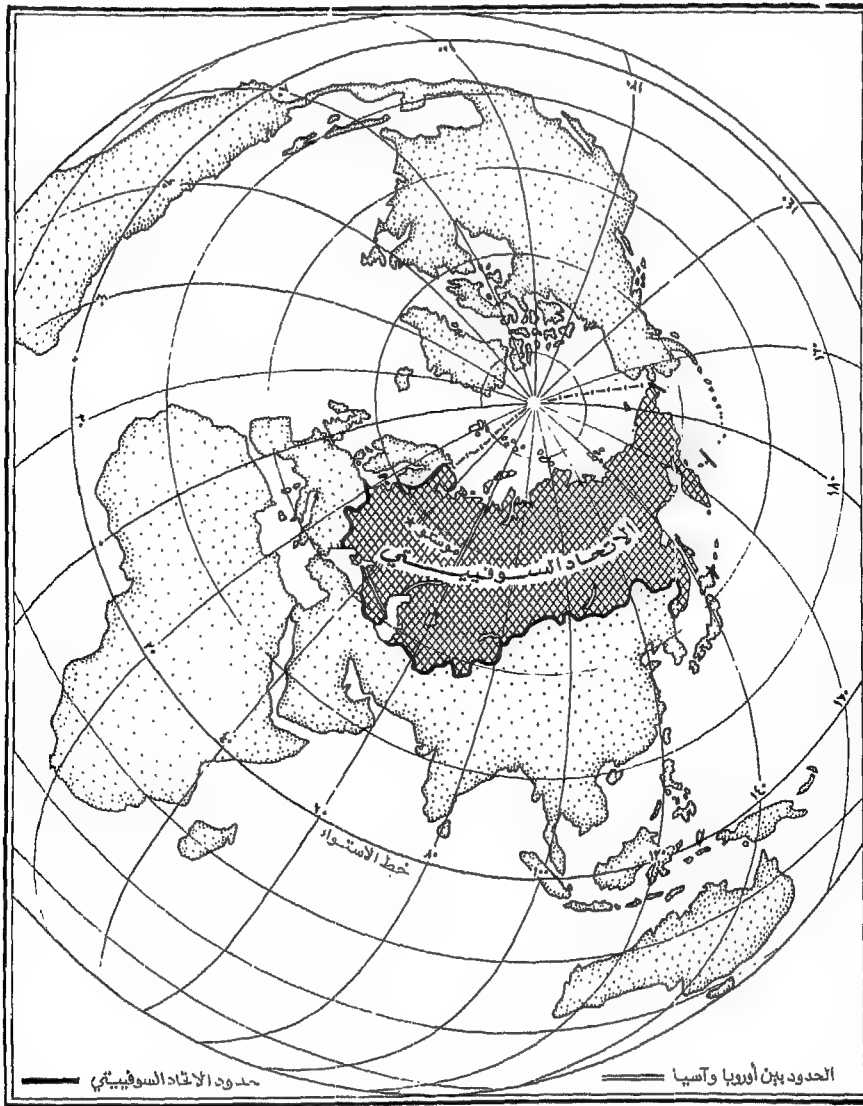
الفصل الثاني

الاتحاد السوفييتي

الاتساع :

تشغل رقعة الاتحاد السوفييتي سدس مساحة الكرة الأرضية (شكل ١) .
فمن كل أصقاع الاتحاد ، تنطلق قطارات تحمل في واجبتها أسماء مدن بعيدة ،
مثل : أوديسا ، مورمانسك ، عشقباد ، فلاديفوستوك ، كي ينتهي بها المطاف في
موسكو . فالمسافات التي قطعنها ، والأيام التي قضتها في الطريق ، تعطي فكرة
عن اتساع بلاد السوفييت . وحتى لو ركب المسافر القطار السريع ، فإن الرحلة
بين فلاديفوستوك وموسكو ، تستغرق أكثر من أسبوع ، لأن المسافة الفاصلة بين
هاتين المدينتين ، تعادل المسافة التي تفصل مدينة نيويورك عن باتاغونيا في
أقصى الجنوب الأرجنتيني ، أو بعبارة أخرى بين القطب وخط الاستواء أو أكثر
من / ١٠٠٠٠ / كيلومتر . فبين مورمانسك ، الواقعة على بحر بارانتز ، وبين
موسكو ، لا تقل المسافة طويلاً عن المسافة بين السويد وجزيرة صقلية . والمسافر
من أوديسا إلى موسكو يضطر لأن يظل في عربة القطار ضعف المدة اللازمة كي
يقطع فرنسا بين مرسيليا وبحر المانش .

هذا ويمتد الاتحاد السوفييتي من الغرب إلى الشرق على / ١٧١ / درجة
طول ، أي ما يقارب نصف محيط الكرة الأرضية . فأقصى نقطة غربية فيه ، تقع
عند التخوم البولونية ، قرب مدينة كالينينغراد ، الواقعة على بحر البلطيك ،



الشكل ١

وتنتهي حدوده شرقاً عند رأس دجنيف ، الذي تنتهي به شبه جزيرة تشوكش ، ولكن أبعد ممتلكات الاتحاد هي جزيرة رامانتوف ، الواقعة في وسط مضيق هرنغ الفاصل بين قارة آسيا وقارة أمريكا .

وهكذا تأخذ أبعاد الاتحاد السوفييتي درجة تجعل الشمس لا تغيب عن حدوده . فبينما تكون الساعة الخامسة صباحاً في شبه جزيرة تشوكش ، يكون الليل في منتصفه على بحيرة بايكال ، في حين لا تتجاوز الساعة السابعة مساءً في موسكو .

وأقصى النقاط الجنوبية في الاتحاد السوفييتي تقع في تركمانستان ، على الحدود الأفغانية ، قرب مدينة كوشكا أي على درجة عرض ٣٥ وهو عرض مدينة حماة السورية ، بينما تقع أبعد تقاطع الشمال في ما وراء الدائرة القطبية ، عند نهاية أرس تشيليوسكين ، في سيبيريا ، بحيث تبلغ المسافة الفاصلة بين جنوب تركمانستان وشمال سيبيريا / ٤٠٠٠ / كم .

وهكذا نجد أن النخيل الذي يعود أصله لجزيرة العرب ، يحمل ثماره في الواحات التركمانية ذات المناخ شبه المداري ، في الوقت الذي تقذف فيه الرياح الشمالية بقطع الجليد ، على سواحل رأس تشيليوسكين حتى في قلب الصيف .

ففي تركمانيا الجنوبية ، يأتي الربيع في مطلع العام الجديد تقريباً . والشتاء الذي تتجاوز حرارة كانون الثاني الوسطى فيه درجة الصفر ، يكون هنا قصيراً جداً . والثلج النادر الذي قد يهطل في بلاد التركمان الجنوبية ، يذوب قبل أن يلامس الأرض .

لهذا تبدأ أعمال الحراثة والبذار هناك في أواسط كانون الثاني . وعليه يبدأ الربيع زحفه ابتداءً من الحدود الجنوبية باتجاه الشمال . وإليك بعض مراحل مسيرته : تزهر أشجار التفاح في موسكو في أواخر شهر أيار ، أي متأخرة مدة

شهرين عن تركمانستان ، ولكنها لا تزهر في شمالي سيبيريا إلا في شهر حزيران ، أي في الوقت الذي تتخلص فيه الأنهار من جدها ، وتغطي أرض التوندرا ببساط مستمر من الزهور ، ولكن الصقيع يحتمل وقوعه في أي يوم من الصيف ، الذي سرعان ما يترك مكانه للخريف الذي يفاجئه الشتاء .

المساحة والحدود :

تبلغ مساحة الاتحاد السوفييتي ٢٢,٤ مليون كيلو متر مربع ، أو سدس مساحة المعمورة وهكذا تعادل مساحته ثلاثة أضعاف مساحة الولايات المتحدة . ومجموع مساحة انكلترا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا لا يتجاوز $\frac{1}{14}$ من مساحته . وتمتد حدود الاتحاد على مسافة / ٦٠.٠٠٠ / كيلو متر تقريباً . وتستغرق طائرة سرعتها الوسطية ٥٠٠ كم بالساعة مدة خمسة أيام بلياليها كي تحلق فوق الحدود المذكورة .

وللإتحاد السوفييتي جيران عديدون : فله حدود مشتركة مع النرويج وفنلندا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا وتركيا وإيران وأفغانستان والصين ومنغوليا وكوريا .

أولاً - التضاريس

تتصف تضاريس الاتحاد السوفييتي بشدة بساطتها . فهي تنقسم إلى مجموعتين :

أولاً - رقعة فسيحة من الأراضي المنبسطة ، قليلة النتوءات أو عديماتها .

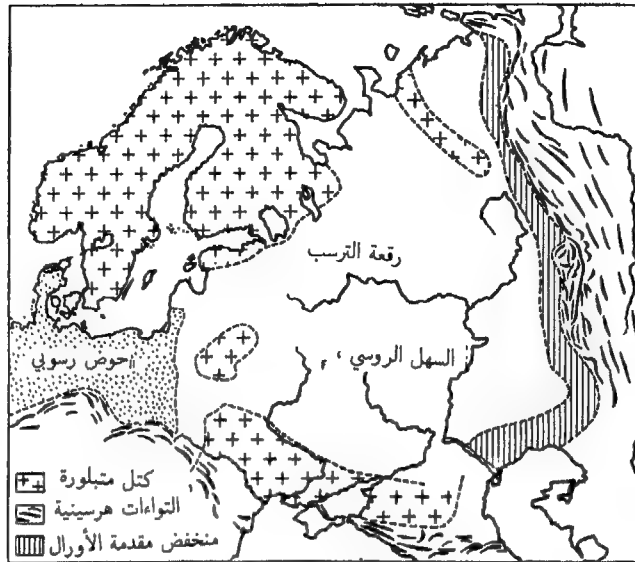
ثانياً - يهيمن على هذه الرقعة من الجنوب الغربي ، ومن الشرق ، قلادة جبلية طويلة متفاوتة في شدة ارتفاعها ، مؤلفة من سلاسل عالية ، فضلاً عن منبسطات عالية مائدية ، مثل هضبة بامير التي تدعى سقف العالم .

١ - نطاق الهضاب والسهول :

يتألف معظم هذا النطاق من العتبة الروسية السiberية ، التي تتحدد في جنوب الأورال ، بواسطة منخفض آسيا الوسطى .

هذا وتنقسم العتبة الروسية السiberية بواسطة جبال الأورال ، ونهر ينيسي إلى ثلاثة أجزاء ، ابتداء من الغرب نحو الشرق وهي : السهل الروسي (شكل ٢) ، سهل سيبيريا الغربية ، وهضاب سيبيريا الوسطى .

ولا يتجاوز ارتفاع السهل الروسي عموماً ٣٠٠ م . وتستد الأنهار ينابيعها من مرتفعات متواضعة (الفولغا ٢٢٣ م ، الدينير ٢٥٣ م) كما تظهر خطوط تقسيم المياه بينها لاطئة جداً .



الشكل ٢

العتبة الروسية في العصر الهرسيني

يبدو القسم الشمالي من هذا السهل ، والذي يتكئ بالغرب على الكتلة الكاريلية الفينية ، التي ترتفع إلى ١٢٤٠ م في شبه جزيرة كولا ، يبدو أكثر أجزاء السهل الروسي هدوءاً ؛ فبين نهر الفولغا الأعلى ونهر بتشورا ، نجد تلال أوفالي وتلال تيان ، التي لا يتجاوز ارتفاعها ٣٠٠ م . ولكن أواسط هذا السهل وجنوبه ، تكون أكثر غنى بالبروزات ، فنجد زمرة من الهضاب المتزايدة الارتفاع باتجاه الشمال الشرقي ، وتبين أحياناً بشكل شرفة قائمة على الضفاف اليمنى للأنهار ، مثل هضبة الفولغا ٣٦٥ م التي تمتد على مسافة تزيد عن ١٠٠٠ كم بمحاذاة هذا النهر . وإلى الغرب من منخفض الدون - اوكا نجد هضبة روسيا الوسطى ، وهي مركز تبعثر الشبكة النهرية ، وتتحدد بهضبة فالدائي وهضبة مينسك ٣٥٦ م ، وتتجاوز مدينة خاركوف جنوباً . وأخيراً تصادف فيما وراء وادي الدينير ووادي البريت مرتفعات فولينيا - بودوليا ، التي تسو إلى ٤٣٥ م قرب التخوم البولونية .

وترتفع جبال الأورال إلى الشرق من السهل الروسي ، وهي عبارة عن حدود تقليدية بين أوروبا وآسيا ، ولكنها بالواقع ليست أكثر من سلسلة جبال متواضعة ، ضيقة وقليلة الارتفاع ، رغم أن طولها يتجاوز ١٨٩٤ م في قبة نارودنايا الواقعة في القسم الشمالي . ولا تؤلف هذه السلسلة حاجزاً حقيقياً بين السهل الروسي وبين سيبيريا الغربية نظراً لسهولة عبورها .

هذا ولا يزيد ارتفاع سهل سيبيريا الغربية ، الذي يربو طوله من الشمال للجنوب على ٢٤٠٠ كم وعن ٨٠٠ كم من الغرب للشرق ، عن ٢٠٠ م . كما لا يزيد ارتفاع رصيف كازاخ الذي يصل هذا السهل الكبير بآسيا الوسطى ، عن ١٦٠ م فقط . ونظراً لانعدام الانحدار تقريباً نجد أن جريان المياه يكون عسيراً ، فتكثر هنا الأذرع النهرية والبحيرات والمستنقعات .

هذا وتمتد بين نهري ينيسي ولينا هضاب سيبيريا الوسطى ، التي تتراوح ارتفاعاتها الوسطى بين ٥٠٠ و ٨٠٠ م مع بعض القطاعات العالية المحدودة في الشمال الشرقي ٢٠٣٧ م . وتكون مجاري الأنهار هنا عميقة . وفي الشمال تنفصل الهضاب عن المحيط المتجمد الشمالي بسهل خاتنغا الأسفل ، وبشبه جزيرة تايمير الجبلية وهي أبعد رأس في أوراسيا .

وتنفصل آسيا الوسطى المنخفضة ، الواقعة في خارج نطاق العتبة الروسية السiberية ، عن سيبيريا الغربية ، بظهرة أرضية عريضة هي كازاخستان .

ويبدو هذا الحوض الكبير المدعو بالمنخفض الآرالي - الخزري ، شديد التقعر ، إذ يبلغ عمق أخفض تقاطعه ١٢٢ م دون سطح البحر ، وتكون بعض أجزائه عبارة عن صحارى حقيقية من الرمال والحجارة . وحيثما لا تكون الرمال مثبتة ، نجد كثباناً ترتفع إلى مترين وحتى خمسة أمتار ، وتدعى البرخانات ، تتعرض لتبديل أشكالها بصورة مستمرة بفعل الرياح العاتية ، ويرتفع هنا المنخفض على شكل حدود glacia نحو الجبال الواقعة إلى الجنوب منه ، أو نحو الجنوب الشرقي .

٢ - الحافة الجبلية :

وتختلف اختلافاً عنيفاً عن النطاق الآنف الذكر ، فهنا يكون تفاوت الارتفاعات جسيماً بين الأراضي المتجاورة ، إذ يتفاوت الارتفاع بين منخفض فرغانة وبين ذرى جبال آلاني بحوالي ٥٠٠٠ م ، مع أن المسافة الفاصلة بينهما لا تتجاوز ٥٠ كم فقط . وإلى الجنوب من السهل الروسي الكبير تتعاقب عدة نطاقات جبلية :

أولاً - جبال الكريبات الشرقية ، وتتصف ذراها بالاستدارة ، ولا يزيد ارتفاعها عن ٢٠٠٠ م .

ثانياً - السلسلة الطورية الصغيرة في شبه جزيرة القرم ، وتسمو إلى ١٥٤٥ م .

ثالثاً - حاجز القوقاز الكبير الذي يمتد على مسافة ١٢٠٠ كم طولاً و ٨٠٠ كم عرضاً . وهنا لا تقل الارتفاعات عن ٢٠٠٠ م مطلقاً . وتكثر القمم التي تزيد عن ٥٠٠٠ م مثل قمة البروز ٥٦٥٣ م . ونظراً لحدائث هذه السلسلة ، التي جزأها الحث الشديد ، نجدها تؤلف سوراً عالياً عسير الاجتياز ، إذ لا تخترقه أية سكة حديدية عدا ثلاثة طرق معبدة ، تخترق مرات يزيد ارتفاعها عن ٢٤٠٠ م في داخل السلسلة .

رابعاً - وإلى الجنوب من منخفض ما وراء القوقاز ، الذي يشكل حوضات متتالية ، تنتصب جبال أرمينيا المرتفعة المحاذية للحدود التركية الإيرانية .

وإلى الشرق من بحر الخزر ، تظهر جبال عالية متفرعة عن جبال آسيا الوسطى : فهضاب بامير العليا ، تحمل ذراً شديدة الارتفاع (قمة الشيوعية ٧٤٩٥ م ، وهي أعلى نقطة في الاتحاد السوفييتي) . وفي الشمال الشرقي نجد مروحة جبلية عريضة ، تدعى قيمان شان ، التي تنهض إلى ٧٤٣٩ م ، وتحيط فروعها بمنخفضات عميقة مثل (فرغانة أو الوادي الأعلى لنهر سيرداريا وحفرة بحيرة ايسيك كول) وتمتد هذه المروحة من جبال آلائي حتى بحيرة بالخاش .

وإلى الشرق من بحيرة بالخاش ، تتعاقب أشكال جبلية ثقيلة ، تسمو إلى ٤٥٠٠ م في جبال آلائي وإلى ٣٥٠٠ في جبال سايان ، ثم تنخفض بعد بحيرة بايكال (التي ينخفض قاعها إلى ١٧٤١ م دون سطح البحر) في كتل سيبيريا الوسطى ، مثل جبال يابلونوئي وجبال ستانوفوئي .

وإلى الشمال الشرقي والجنوب الشرقي من هذه الكتل المدورة القمم ، تقدم سيبيريا الشرقية والشرق الأقصى السوفييتي أشكالاً جبلية ، لاتزال دراستها ناقصة حتى الآن .

وعلى كل هناك أقواس جبلية متزايدة الارتفاع ، تتعاقب باتجاه الشرق ، مثل جبال فيركوهيانسك وقوس كامشاتكا كوريا كسكي ٤٨٥٠ م على حافة المحيط الهادي ، وسلسلة سيخوتا ألين في المقاطعة البحرية .

تشكل التضاريس :

تشكل التضاريس الحالي في الاتحاد السوفييتي على مراحل كبرى ؛ والعنصر الأساسي في البنية يتألف من ركيزة من صخور قديمة جداً تمتد ، رغم أنها غير مرئية في أكثر الأحيان ، على قسم كبير من رقعة البلاد ، وخاصة في سيبيريا الوسطى .

وتظهر هذه الركيزة أحياناً عند السطح ، وذلك حول السهل الروسي ، ويتشكل هذا السهل في معظم رقعته ، من تراكم توضعات بحرية في قاع حوضه ، تؤلف صخورها المتبلورة ، في فنلندا وفي الكتلة الأوكرانية وكذلك في جبال الأورال وفي تيان ، الحافة المرئية لهذه الحوضه .

ومنذ العصر الهرسيني ، حيث نهض النطاق الالتوائي الجسيم في الأورال وفي سلاسل آلتائي وجبال سايان وما وراء بايكال ، لم تتعرض هذه المناطق لأي التواء ، بل إلى فعل الحت الذي يراها ، كما اجتاحتها البحر وتخلّمت في بعض الأصقاع في عصر الالتواء الألبى .

هذا ويبدو أن هذه الركيزة ، والكتل المتبلورة أو الهرسينية التي تحيط بها ، والأراضي الرسوبية التي تغطيها ، تلعب جميعاً دوراً أساسياً في اقتصاد الاتحاد السوفييتي ، فهذه المناطق تضم بالواقع احتياطات هائلة من الفحم : كالفحم العائد للدور الأول في منطقة الدونتز ، وفي حوض موسكو ، وفي حوض كاراغاندا ، والطبقات العائدة للدور الأول والثاني في منطقة كوزباس ، بالإضافة إلى مكامن عديدة غنية بالمعادن المختلفة (كما في شبه جزيرة كولا ، وفي روسيا الوسطى ، والأورال ، وعتبة كازاخ) .

وقد وقعت حركات أحدث من السابقة ، مصحوبة بظواهر بركنية كما في القوقاز والشرق الأقصى ، وقد حدثت أعنف هذه الحركات في الدور الثالث ، حيث أدت إلى نهوض القسم الأعظم من الحافة الجبلية .

وتبين الكتل الالتوائية في الغرب ، كما في الكربات والقوقاز ، وفي الشرق الأقصى مثل السلاسل التي تتشكل حالياً في كامتشاتكا ، والتي تستمر في جزر كوريل ، في حين تميز الكسور التي تطيف برقع كبيرة ناهضة أو منهزمة ، تميز القسم الأكبر من الحافة الجبلية ، التي تبدأ من جبال التائي حتى كتلة أنادير .

ولقد أدت صدمة الحركات الألبية ، إلى نهوض بعض الكتل الهرسينية ، حيث أوجد تجدد الحت تضاريس من النموذج الآبالاشي ، ذات أعراف طويلة قاسية منفصلة عن بعضها بوديان طولانية . وهذا التضريس هو الذي جعل جبال

الأورال مثلاً ، سهلة العبور منذ زمن قديم ، وساعد على استغلال العروق والاندساسات المعدنية الوفيرة جداً في مثل هذه التضاريس .

ومن ناحية أخرى ، تشكلت في المنخفضات الداخلية وفي مشارف التواءات بعض السلاسل الجبلية ، وتخزنت احتياطات بترولية من الدور الأول ، كما في سفوح الأورال الغربية ، أو من الدور الثالث والرابع كما في القوقاز وتركمانيا .

هذا وتعرضت التضاريس لتأثير الجحوديات الرباعية :

ولقد كان امتداد الجحوديات عظيماً جداً في الجزء الأوربي من الاتحاد السوفيتي ، وهو أكثر المناطق رطوبة ، حيث اندفع لسانان عظيمان من الجليد ، بين هضاب روسيا الوسطى في سيبيريا الغربية . وتظهر علام هذا الزحف الجحودي في المناطق السهلية هذه ، على شكل تلال مورينية وبحيرات مثل (لادوغا واويناغا وبيبوس وإيلمن) ومستنقعات .

أما في المناطق الجبلية ، فقد ظهرت قبعات جليدية فوق الكتل المرتفعة . ففي آسيا الوسطى ، انطلقت من هذه القبعات جحوديات الوادي الواسعة ، مما أدى لنشوء معاليف جحودية جسيمة ، ذات حواف متدرجة جانبياً ، تنحدر من هضبة بامير العليا ومن جبال تيان شان .

ثانياً - المناخ

يكون للظواهرات المناخية في الاتحاد السوفيتي ، أكثر من الوقائع الجيومورفولوجية ، اتساع لامثيل له في الأقطار الأوروبية الأخرى . وتكون الرقابة هي أكثر الصفات بروزاً للعيان في المناخ السوفيتي . كما أن القساوة هي الطابع الآخر لهذا المناخ .

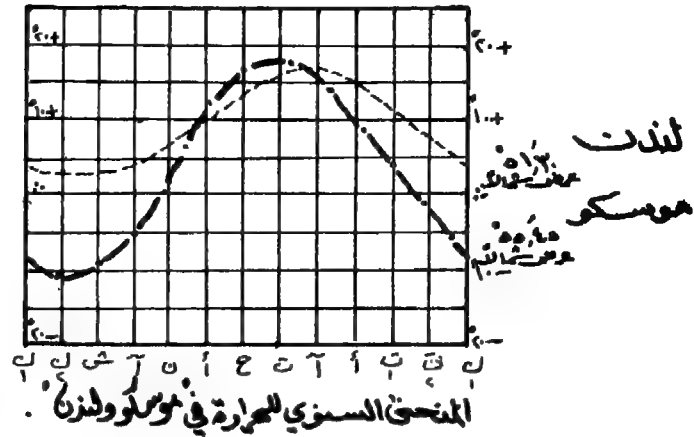
ففي مدينة موسكو الواقعة على درجة عرض كوبنهاغن ذاتها (٥٥,٥ درجة عرض شمالاً) ، يبلغ المدى الحراري ٣٠ درجة ، فيكون معدل كانون الثاني (- ١٠,٨ درجات مقابل ١٨,٥ في تموز) ، ويغطي الثلج الأرض خلال ١٤٠

يوماً ، كما يتردد الانجذاب في ١٧٢ يوماً من العام ، أو حوالي نصف السنة (شكل ٢) .

ويشتمل مناخ الاتحاد السوفييتي على أنواع كثيرة :

ففي شمال سيبيريا كما في المنخفضات ، التي تطيف بها جبال فرخويانسك ، تهبط الحرارة أحياناً إلى (٨٠) درجة تحت الصفر ، لدرجة أن بخار زفير الإنسان ، يتحول فوراً إلى غبار من الجليد . ولكن في الوقت نفسه ، تتفتح الورود في جورجيا الغربية .

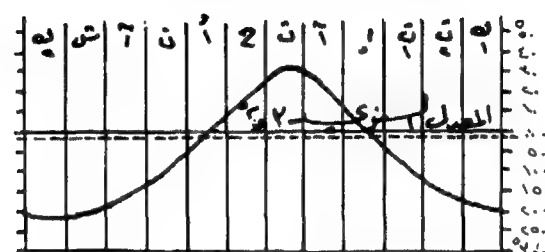
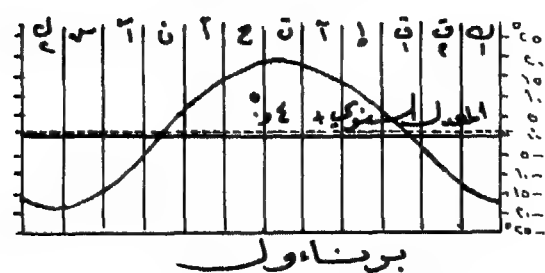
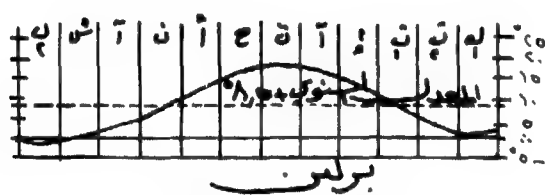
ولكن مناخ الاتحاد السوفييتي ، يكون إجمالاً معتدلاً أو قارياً . ففي كل مناطق الاتحاد تقريباً يكون الشتاء بارداً والصيف حاراً أو حاراً جداً .



الشكل ٢

وتزداد الفروق الحرارية كلما ابتعدنا عن المحيط الأطلسي باتجاه الشرق ، لأن مياه هذا المحيط ، تشكل عاملاً ملطفاً بالنسبة لفصول الشتاء ، في حين تجعل الصيف أقل حرارة . ففي لينينغراد التي لا تبعد كثيراً عن المحيط الأطلسي ، يكون الشتاء فيها لطيفاً نوعاً ما ، والصيف معتدل الحرارة ، في حين يكون

الشتاء قاسياً في سيبيريا ، والصيف لاهباً ، مما يساعد على نضج الحبوب والخضار والبطاطا بسرعة وبنجاح (شكل ٤) .



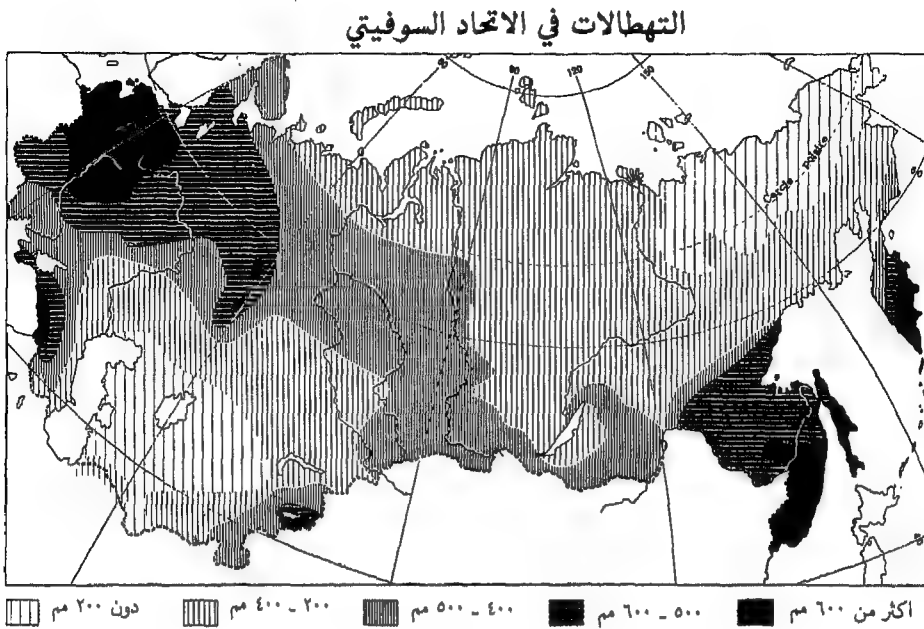
نيتولايفسك
أنظمة الحرارة في المناخ القاري
الشكل ٤

عناصر المناخ :

الحرارة : يلاحظ بالنسبة لمجموع رقعة الاتحاد ، أن متوسطات الحرارة ، تدل على وجود فصول شتاء شديدة البرد ، وعلى فصول صيف شديدة الحرارة وأحياناً محرقة .

فتوسط شهر كانون الثاني يهبط إلى - ١٢,٨ درجة في مدينة كوبيشيف الواقعة على درجة ٥٣ شمالاً في وسط القسم الأوربي ، وإلى مادون - ٥٠ درجة في حوض نهر ليننا الأوسط ، في حين أن متوسط تموز يصعد إلى ٢١,٣ في كوبيشيف ، وإلى أكثر من ٣٠ في آسيا الوسطى المنخفضة . وإجمالاً تتعرض تسعة أعشار مساحة البلاد إلى الصقيع خلال ١٢٠ يوماً بالسنة .

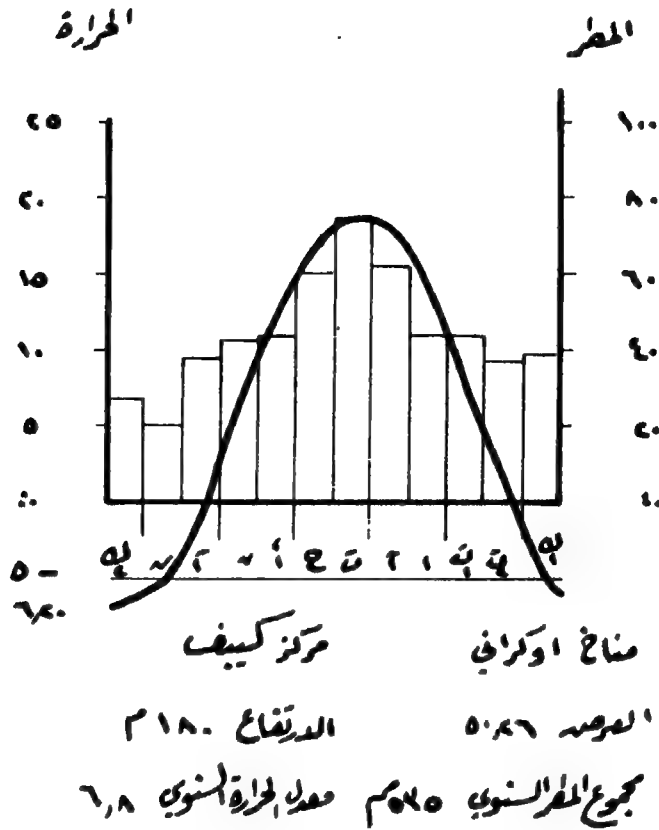
التهطال : يبدو مجموع التهطال ضعيفاً على العموم (شكل ٥) .



الشكل ٥

فكيسة التهطال تتراوح بين ٦٠٠ و ٧٠٠ مم في الشمال الغربي ، ولكنها تهبط إلى ٣٠٠ مم في فولنوغراد (ستالنغراد سابقاً) ، وتقل عن ٤٠٠ مم في حوض نهر ينيسي ، وإلى أقل من ٢٠٠ مم في الشمال الشرقي ، وتؤدي حرارة الصيف في المنطقة المحصورة بين بحر آرال والخزر ، إلى امتداد مفعول الجفاف .

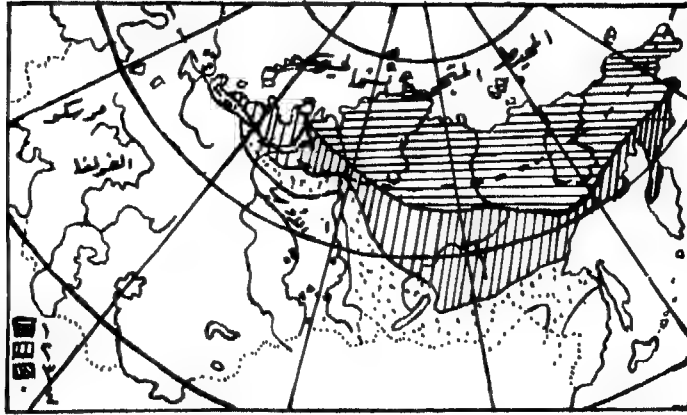
وتسقط هذه التهطالات غالباً على شكل زخات عاصفية في الصيف ، وهي الفترة الإنبائية ، ولكنها فترة التبخر الأقصى . ففي موسكو يسقط ٥٨,٧% من مجموع الأمطار بين أيار وأيلول وكذلك في كييف (شكل ٦) ، أما في الشتاء فتظل طبقة الثلج على الأرض مدة طويلة ولكنها تكون عادة رقيقة .



الشكل ٦

هذا ويكون نسق الفصول ، وهو أمراً أساسياً لفعالية الإنسان ، متميزاً بضمور فصلي الربيع والخريف . ففي الشتاء يكون البرد قارساً جداً ، وخاصة في شرقي البلاد ، ولكنه يكون محتملاً بفضل الجفاف وركود الهواء ، ولا سيما في سيبيريا .

ولا تكون طبقة الثلج التي تغطي الأرض أكثر من ١٤٠ يوماً في القسم الأعظم من الاتحاد السوفييتي ، كافية للحيلولة دون تجمد التربة حتى عمق لا بأس به ، وخاصة في أشد المناطق برداً . وتدعى التربة المتجمدة هذه مرزلوتا أما الطبقة المتجمدة أبدياً فتدعى تيال (شكل ٧) . وتظل الأنهار مدة طويلة متجمدة ، حيث تكون المواصلات حينئذ ميسورة على الطرق وفوق الأنهار المتجمدة .



الشكل ٧

توزيع التيال (الأرض المتجمدة أبدياً) .

- ١ - نطاق الأرض المتجمدة المستمرة (دون ٥ درجات على عمق ١٠ - ١٥ م) .
- ٢ - نطاق يكون توزيع الأرض المتجمدة فيه غير متصل (بين ١,٥ درجة و - ٥ درجات) .
- ٣ - نطاق متقهقر (الحرارة تزيد عن ١ درجة في المتوسط السنوي) .
- ٤ - بقاع من أرض متجمدة .

هذا ويكون الربيع القصير بحد ذاته عبارة عن فصل مضطرب ، إذ تتقطع فترة الدفء بعودة البرد . ولكنه يعتبر فترة انحلال الجمد أو الراسبوتيتزا ، حيث تتحول التربة إلى وحل ، فتطغى الأنهار على السفوح الفسيحة وعلى مساحات واسعة مما يجعل المواصلات عسيرة .

ويأتي الصيف بسرعة كبيرة ، وتزايد حرارته نحو الشرق والجنوب ، فيكون الحر في مدينة استراخان في تموز أقصى مما هو في طنجة . أما في الشمال لا ينفك تجمد التربة على عمق يزيد ٥٠ سم أو ٢ م . وتهطل زخات مطر فجائية تؤدي إلى تخديد السهب ، فضلاً عن قدوم رياح عنيفة من الجنوب الشرقي تثير عواصف الغبار . ولا نجد فصل خريف حقيقي ، لأن البرد يعود بسرعة كبيرة جداً ابتداءً من نهاية آب في سيبيريا ، وابتداءً من نهاية أيلول في موسكو ؛ لدرجة أن الشتاء البارد والجاف يتفوق ابتداءً من أواسط تشرين الثاني .

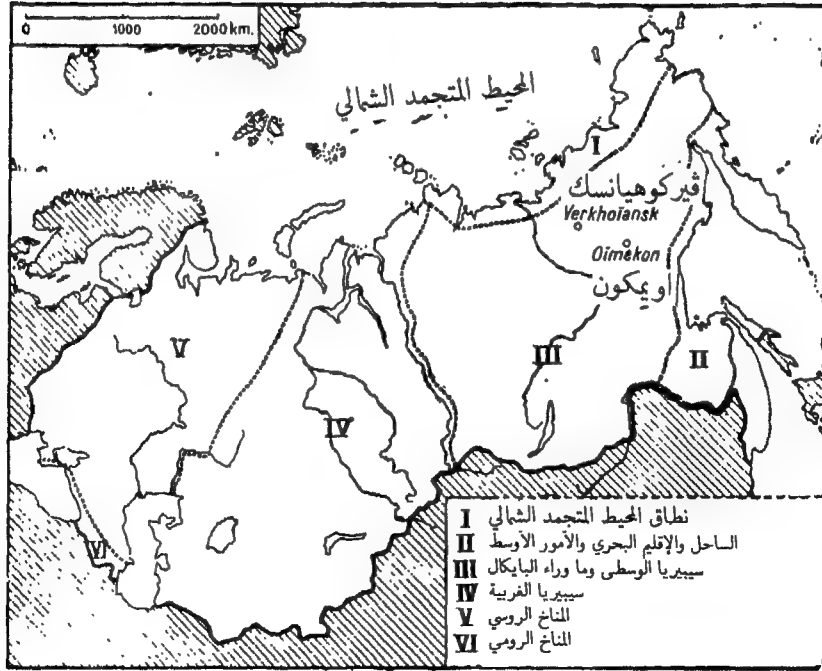
عوامل المناخ :

يمكن تفسير المناخ السوفييتي أولاً بتأثير درجة العرض ، إذ أن أكثر من أربعة أخماس البلاد تقع إلى الشمال من درجة العرض ٥٠ (أي درجة عرض بلجيكا) ، وهذا ما يجعل الشتاء شديد القساوة .

والعامل الثاني في قساوة المناخ هو البعد عن البحر ، أي الطابع القاري للبلاد ، رغم امتداد الواجهات البحرية (شكل ٨) .

فالبحر المتجمد الشمالي الذي يتجمد خلال تسعة شهور بالعام ، لا يقدم لبلاد السوفييت الدفء ولا الرطوبة . كما أن تأثير المحيط الهادي الذي تجري فيه تيارات باردة (مثل تيار أوياشيفو المائل لتيار لابرادور) ، يبدو قليل التلطيف ، فضلاً عن أن هذا التأثير ينحصر بمجوار الساحل ، بسبب وجود الجبال . أما في الغرب فإن الرياح المحيطية الأطلسية لا تدرك الاتحاد السوفييتي إلا بصعوبة ، بسبب وجود السلاسل الاسكندنافية والجبال الهرسينية في أوروبا الوسطى . بينما ينحصر تأثير البحر البلطي والبحر الأسود في سواحلها فقط .

وهكذا يمكن تفسير ضعف التهطلات وشدة سمات الفروق الحرارية وضمور الفصول الانتقاليين .



الأقسام المناخية الكبرى في الاتحاد السوفييتي : إمكانات التنمية والتوقع القاري

الشكل ٨

كما أن وضع التضاريس يجعل القسم الأوربي من البلاد وسيبيريا الغربية والوسطى عرضة للرياح القارسة أو المحرقة ، التي لا يعترضها أي حاجز أو عائق . وهكذا تدخل مؤثرات المحيط المتجمد الشمالي حتى أواسط آسيا الوسطى المنخفضة ، بحيث يتعرض بحر آرال الواقع على درجة عرض مدينة بوردو الفرنسية إلى التجمد مدة لا تقل عن خمسة شهور بالعام ، مع أن متوسط الحرارة في كانون الثاني في بوردو لا يتجاوز ٧° فوق الصفر .

وأخيراً لا يجوز أن نهمل مفعول نظام الضغوط ، وتأثير كتل الهواء اللذين يلعبان دوراً هاماً .

ففي الشتاء نجد في أواسط الضغوط الشديدة (بين ٧٧٤ إلى ٧٨٠ مم) ، التي تغطي على سيبيريا الشرقية والوسطى وأحياناً حتى روسيا ، كتلاً هوائية قطبية قارية ينجم عنها طقس جاف وبارد ، هادئ ومشمس ، وهو فصل الشتاء السيبري النموذجي . غير أنه تتجول منخفضات محيطية من الغرب نحو الشرق ، على طول الجهة القطبية مما يؤدي في بعض المناطق إلى هطول الأمطار ، وخاصة على جبال القوقاز الغربية . كما يتعرض غرب روسيا وشمالها الغربي أحياناً لهبوب رياح غربية رطبة وأكثر دفئاً .

أما في الصيف فيحل عل الضغوط العالية الشتوية ضغوط منخفضة ملحوظة ، مما يسبب أحياناً هبوب رياح حارة وهطول أمطار عاصفية . وتدخل بعض المنخفضات الغربية أحياناً حتى روسيا بمحاذاة الجهة القطبية .

المناخات الاستثنائية :

إن الفروق الطفيفة بين مناخات الاتحاد السوفييتي ، تنجم فقط عن تفاوت مدة دوام البرد ، أو عن تاريخ بدء أو نهاية الشتاء . بيد أن هناك بعض المناطق التي تشذ عن هذا الانسجام .

فمناخ آسيا الوسطى المنخفضة ، يبدو مضيئاً وجافاً ومتطرفاً ، أي هو عبارة عن مناخ صحراوي . فهنا تتراوح الأمطار بين ٨٠ و ٢٠٠ مم ماعدا جوار الجبال ، كما أن الصيف جاف . بالإضافة إلى شدة السعة الحرارية في التبدلات اليومية والسنوية ، ففي وادي نهر سيرداريا الأدنى ، تتراوح الحرارة الوسطى بين ٢٦,٦ درجة في تموز وبين - ٩٠ في كانون الثاني .

هذا ويسود على سواحل البحر الأسود وفي جنوب القرم وعلى السفح الغربي لجبال القوقاز ، وكلها محمية من الرياح الشمالية بسبب وجود الجبال ، يسود مناخ من النموذج الرومي ، ومضئ وعذب (فتوسط كانون الثاني في يالطا يبلغ ٢,٧ درجات) ورطب شتاء ، ومعتدل الحرارة صيفاً (لأن متوسط تموز في يالطا ٢٤,١) ، ولكنه يصبح أكثر رطوبة في ما وراء القوقاز الغربية ، لأن مدينة باطوم تنال ١٤٦٥ مم من الأمطار .

أما في الشرق الأقصى السوفييتي ، فإن الرياح الصيفية القادمة من البحر تكون رطبة ، والصيف منخفض الحرارة (متوسط حرارة مدينة بتروفلوسك ١٢,٥ درجة) ، كما أن الرياح الشتوية القارية تكون باردة (متوسط كانون الثاني - ١٢,٥) وجافة . وهنا تكثر كمية التهطل كما يكثر الضباب .

ثالثاً - النبات

تكون الترب والنبات في الاتحاد السوفييتي موزعة حسب مجموعات كبرى ، كما هو الحال بالنسبة للمناخ والتضاريس .

الطوندر :

وتغطي المناطق التي تظل متجمدة على عمق قريب في الصيف ، أي المناطق الساحلي الشمالي مع الجزر ، وتمتد جنوباً تقريباً حتى خط الحرارة المتساوية ١٠ درجات في تموز (شكل ٩) .

تكون الطوندر الحقيقية عديدة الأشجار هذا في الوقت الذي تكون كل نباتاتها - من أعشاب وشجيرات - معمرة . والسبب هو أن الفترة الإنشائية تكون غاية في القصر ، مما لا يسمح للنباتات الحولية بأن تنتج ثمارها وبالتالي بذورها .



الشكل ٩

المناطق الطبيعية في الاتحاد السوفييتي

ويكون النبات هنا غير مستمر . وقزماً وقيئاً ، ويتألف من أعشاب وأشنيات وطحالب وتؤلف الغذاء الرئيسي لقطعان الرينة .

وينمو النبات ببطء شديد (من ١ إلى ٣ مم بالنسبة للحزازيات Lichens . وإلى الجنوب تظهر الطوندرة « الشجيرية » ، حيث تنمو أشجار السندر القزمة والصفصاف القطبي على شكل دغيلات متشبثة بسطح الأرض ، ثم ندخل الطوندرة « الحراجية » حيث تقع الغابات في الأودية ، وتؤلف المرحلة الانتقالية إلى الغابة .

نطاق الغابات :

ويغطي حوالي نصف مساحة الاتحاد السوفيتي منها ٢,٢ مليون كم^٢ في المنطقة الأوربية . وتشغل الطايغا حيزاً كبيراً فيها ، وهي غابة مؤلفة من الصنوبريات (مثل الصنوبر والمليز والايبيسيسيا) ، التي تختلط بها أحياناً أشجار السندر . وتكثر في هذه الغابة المستنقعات ، وتغشاها سحب البعوض بالصيف ، كما تكثر فيها الأشجار اليابسة ، لهذا تشتهر بأنها عسيرة المواصلات .

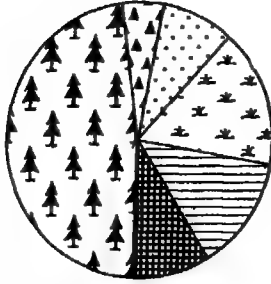
وتكون الطايغا في السهل الروسي حاوية على الكثير من الفسحات (بولييه) ، التي وسّماها السكان وأقاموا فيها منذ عهد بعيد بمعزل عن غارات بدو السهب . والواقع يبدو أن ترب الطايغا الرمادية (البودزول) ، رغم أنها فقيرة بتأثير غسل المواد المخصبة بفعل مياه التسرب ، تصلح للزراعة بشرط أن تضاف إليها الأسمدة والكثير من العناية . وتعتبر غالبية مدن روسيا القديمة مدن بولييه قامت فيها أول دولة روسية .

وتتحول الطايغا من أطرافها : ففي الشمال تكون أقل كثافة وقيئة نوعاً ما ، وفي الجنوب تتقهقر الغابة لتتحول إلى سهب حرشي . وفي الغرب نجد نطاقاً انتقالياً (مخروطيات وذات أوراق) ، تؤدي إلى غابات ذات أوراق (بلوط ، دردار ، سندر) . وأخيراً نجد في الشرق الأقصى أن الأمطار القادمة من المحيط الهادي تروي غابات كثيفة مختلطة (حوض نهر الآمور) ، حيث تهين أشجار المخروطيات ، والنشم ، والبلوط ، والزيزفون ، والجوز ، والكرز البري ، فوق غابة منخفضة مؤلفة من شجيرة الكرمة الوحشية « والهيون » والسرخسيات الشجرية .

السهوب^(١) :

يمتد إلى الجنوب من السهب الحرشي ، ابتداء من جبال الكربات حتى الطائي ، الشريط الطويل المستمر من السهوب . وهذه العبارة تعني كل أشكال النبات في المناطق غير الحراجية ضمن النطاق القاحل الجنوبي . وتنتهي حدود السهب باتجاه الجنوب بجوار خط الحرارة الوسطي ١٥ في تموز .

وأفضل منطقة فيها هي نطاق السهوب فوق التربة السوداء ، وهو عبارة عن شريط طويل يمتد من أوكرانيا حتى أقدام جبال سايان ، وتبلغ مساحته ٢,٥ مليون كم^٢ (شكل ١٠) .



الشكل ١٠
توزيع النطاقات النباتية

(١) وترد خطأ على شكل استبس في العديد من الكتب الجغرافية ، وقد عربت بكلمة سباسب والأصح سهوب ومفردتها سهب وهو السهل المشي كما ورد في كتاب « وصف أفريقيا » للحسن الوزان « ليون الأفريقي » ترجمة المؤلف .

والسهوب عبارة عن « براري أو مروج » مماثلة للبراري الأميركية ، التي تنبت وتزدهر بسرعة كبيرة جداً في الربيع (وتتألف قبل كل شيء من نباتات معطرة كالزنبق والشقائق والسوسن والنجليات) ، ثم تجف في الصيف . وينتج عن تفسخ هذه الأعشاب الدبال ، الذي يختلط بالتربة بشكل وثيق وهي تربة لوسية غالباً ، مما يجعل تربة التشرنوزيوم ، أو التربة السوداء ، سوداء اللون لأن نسبة الدبال ترتفع فيها إلى ١٥ ٪ ، وهي أغنى تربة زراعية بالعالم حينما تكون أمطار الصيف كافية ، ولكنها تتعرض لتهديد الحت والرياح ومياه الأمطار العاصفية التي تؤدي لتمرير أخاديد المسيلات .

وباتجاه الجنوب تتناقص نسبة الدبال بالأراضي السوداء ، كما تتناقص ثخانتها . وهنا تظهر الترب الكستناوية والحمرة ، ثم تظهر السهوب الرمادية التي تنمو عليها النجيليات ، ثم تظهر السهوب البيضاء ذات الترب الحاوية على الملح ، حيث تتباعد النباتات النجيلية عن بعضها ، كي تترك بقعاً جرداء مما ينذر بالاقتراب من الصحارى .

الصحارى :

عندما يصبح المناخ شديد الجفاف ، في آسيا الوسطى المنخفضة ، تعجز الترب ، الفقيرة جداً بالدبال ، عن تغذية النبات عدا النباتات الموقته المتوائمة مع الجفاف والجد . فبحوار بحر آرال تمتد صحارى حقيقية ، حجرية ، غضارية أو رملية . وفي هذه الصحارى تنمو شجيرات الساكساوول ذات الأغصان المعقدة والفقيرة بالأوراق وذات الخشب القاسي .

لا يكون انتظام هذه النطاقات تاماً في أي مكان . فالجبال العالية تشذ عن هذه القاعدة ، إذ تحوي على سفوحها (مثل جبال القوقاز وجبال آسيا الوسطى) طبقات نباتية شديدة التنوع ، وفضلاً عن ذلك يكون هذا التعاقب ، الذي يكون كاملاً على طول خط الطول ٦٠ ، مقتصرأ بالشرق على النطاقين الأولين ، لأن الغابة تبلغ الحدود الجنوبية ، في حين نلاحظ إلى الغرب من خط الطول ٤٠ أن الطوندرا تكون محدودة جداً ، ويختفي النطاق الصحراوي كما يحل محل الطايغا غابة ذات أوراق أو مختلطة أي ذات أوراق ومخروطيات .

ومها كان ارتصاف هذه النطاقات ، فإن نطاق الغابة والسهب يستران ٧٠٪ من مساحة البلاد ويؤلفان المشهدين الرئيسيين . فالغابة ، وهي منطقة ملجأ وفحات مزروعة ، لعبت دوراً رئيسياً في تاريخ الدولة الروسية . أما السهب وخاصة الأرض السوداء على الأقل فلم تعد ، كما كان بالماضي ، منطقة خوف وغزو بل أصبح منطقة ذات إنتاج زراعي غني .

رابعاً - الأنهار والبحار والبحيرات

الأنهار : صفاتها :

تكثر الأنهار في الاتحاد السوفييتي نظراً لاتساع رقعته ، فبعضها مثل نهر أوب ، تكون عبارة عن أنهار سهول ذات مجرى هادئ وبطيء ، في حين أن بعضها مثل نهر أنغارا وكاتون ؛ تكون أنهاراً هائجة تكثر فيها المساقط . وبعضها يفيض بالربيع بسبب ذوبان الثلوج مثل نهر الفولغا ، بينما يفيض نهر الآمور ، الذي يكون تساقط الثلوج في حوضه ضئيلاً ، في فصل الصيف الذي هو فصل الأمطار هناك . وإذا كان نهر كوليا الذي يصب في المتجمد الشمالي يتجمد خلال ثمانية شهور بالعام ، فإننا نجد أن نهر ريون في جيورجيا لا تتجمد مياهه مطلقاً .

وتستمد الأنهار الرئيسية في القسم الأوروبي من الاتحاد السوفييتي ينابيعها من أواسط السهل الروسي الكبير ونذكر منها : نهر الدينير ، والدون ، والدفينا الغربي . وأطول أنهار أوربا هو الفولغا ، حوالي ٣٧٠٠ كم .

وتجري أهم أنهار سيبيريا من الجنوب نحو الشمال . وهذه الأنهار هي ، نهر الأوب وطوله ٥٧٠٠ كم مع رافده ايرتيش اللذان يمتد حوضهما على مساحة ٢,٩ مليون كم^٢ ونهر ينيسيئي ، ونهر انغارا ولينا . ويبلغ طول نهر ينيسيئي ٥٩٤٠ كم ، وذلك إذا أضفنا إليه طول رافده سيلنغا . أما الشرق الأقصى فيجري فيه نهر الآمور الغزير .

وتصلح معظم أنهار الاتحاد السوفييتي للملاحة ، وهكذا نجد أن نهر الفولغا

ورافده الكاما ، يحملان على طول مجراهما أطواف الخشب والمراكب التي تنقل القمح والملح والبترو ل . وهكذا يؤلف الفولغا أكبر شبكة صالحة للملاحة في الاتحاد .

ويؤمن الفولغا وروافده ثلثي النقل المائي الداخلي . أما الأنهار السiberية فتبدو وسيلة المواصلات الوحيدة بين المساحات الفسيحة التي تفصل بين المحيط المتجمد الشمالي وبين الخط الحديدي العابر لسيبريا .

وتكون غالبية أنهار آسيا الوسطى عبارة عن أنهار مؤقتة وتنتهي نحو حوضات مغلقة لا تنصرف إلى البحر . ويستثنى من ذلك نهر سirdاريا ونهر آموداريا ، اللذان يعتمدان على غزارة ذوب الثلوج والجموديات ويدركان بحر آرال حتى في قلب الصيف ، على الرغم من استفحال التبخر في الصحارى التي يخترقها .

البحيرات :

نصادف في جنوب الاتحاد أكبر بحيرة بالعالم أي بحر الخزر ، الذي أطلق عليه اسم بحر نظراً لأبعاده الكبيرة ، التي تقارب مساحتها البحر الأسود . فهو مثل البحر المذكور من ناحية العمق والأمواج والأسماك أي يتصف كبحر حقيقي . ويحتل بحر الخزر المكانة الأولى من ناحية كثافة النقلات .

وإلى الجنوب أي في نطاق الصحارى والسهوب ، تقع بحيرة آرال الكبرى التي تسمى بحر آرال أحياناً ، وبحيرة بالخاش فضلاً عن زمرة بحيرات أصغر مساحة تكون أحياناً غنية جداً بالأملاح .

ولكن المنطقة الشمالية الغربية من الاتحاد ، تكون غنية جداً بالبحيرات التي تكون متصلة ببعضها ، بواسطة أنهار ذات مساقط كثيرة مما يجعلها موائمة لبناء المراكز الكهرمائية . وأهم هذه البحيرات لادوغا ، وأونيغا ، وبيبوس وإيلمن .

أما البحيرات الجبلية فهي غالباً ما تكون عبارة عن حفر سحيقة مليئة بمياه نقية وشفافة ، وأهم هذه البحيرات هي بايكال في سيبيريا . وهي أعرق بحيرات

الدنيا (أكثر من ١٧٤٠ م) ، وتبدو للناظر كأنها محفورة وموضوعة في الجبال العليا المستورة بالغابات . ويضطر الخط الحديدي الذي يحاذيها لاختراق حوالي خمسين نفقا . ونذكر من بين بحيرات المرتفعات بحيرة ايسيك كول في قيرغيزيا وبحيرة سيفان في أرمينيا . وتقع البحيرة الأخيرة على ارتفاع كبير ، لدرجة أن نهر رازدان الذي ينبع منها ، يضطر لأن يحفر لنفسه واديا منتصب الجوانب كي يصرف مياهه السيلية . وتستغل مياه هذه البحيرة لري حقول القطن والكرمة في أرمينيا .

وتعتبر بحيرة ساريز في بامير أحدث بحيرات الاتحاد . فقد نشأت في عام ١٩١١ على أثر انهيار سد طريق مجرى نهر المورغاب . ومنذ ذلك الوقت أخذت تتوسع بانتظام ، وحالياً يزيد طولها عن ٨٠ كم وعمقها عن ٥٠ م .

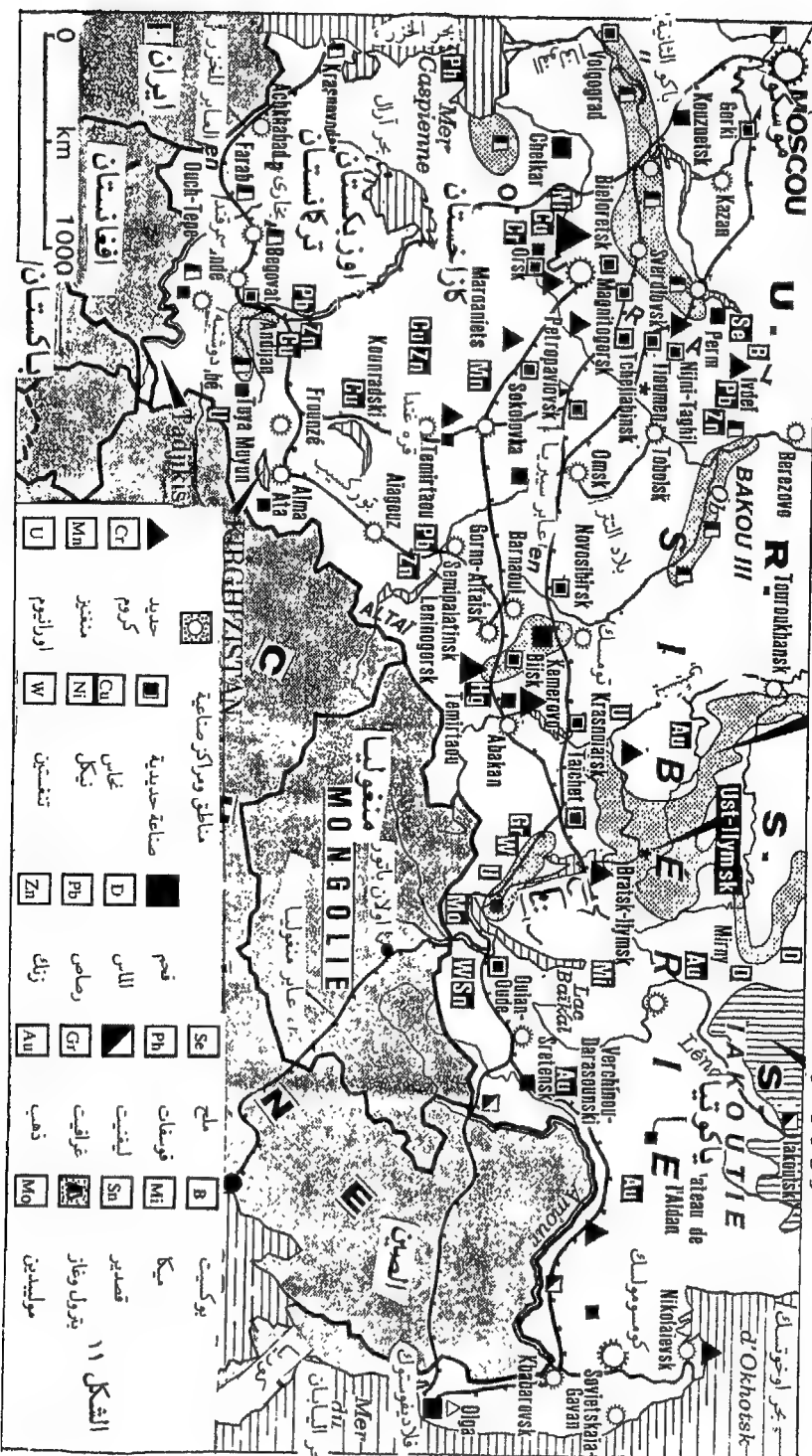
البحار والسواحل :

لا تبدو الواجهات البحرية موائمة للملاحة في الاتحاد السوفيتي . فهذه السواحل تبدو قصيرة نسبياً ، إذ ينحصر كل ١٣٢٧ كم^٢ مقدار ١ كم من الساحل مقابل ١ كم ساحل لكل ١٧١ كم^٢ في فرنسا ، ويبلغ مجموع طولها ١٨٠٣٤٦ كم بما في ذلك الجزر ، التي يبلغ مجموع طول سواحلها ٦٠٠٨٥ كم .

كما تكون هذه السواحل قليلة التعاريج وغالباً منخفضة ، فتكون على شكل سواحل ذات ليمان ، كسواحل البحر الأسود وطولها ٢٩٢٨ كم أو رملية ، كسواحل البحر البلطي التي يبلغ طولها ٧١٩٠ كم ، أو مستنقعية كسواحل شمال سيبيريا . كما يكون ظهور بعض هذه السواحل قليل الفعالية ، كما تتعرض غالبية هذه السواحل إلى التجمد شتاء ، ماعدا ميناء مورمانسك (في شبه جزيرة كولا) ، الذي يظل حراً كل السنة . ومجموع طول الساحل من رأس دجنيف Degnev حتى الحدود الصينية ٢٦٧٥١ كم .

وتم العلاقات البحرية مع أوروبا في الغرب عن طريق بحرین ها البلطیک ، الذي يتعرض

حوض المغنيت لينا



للتجمد بسبب قلة نسبة ملوحته ، ويقع مخرجه تحت إشراف الدانمارك ، كما أن البحر الأسود هو بحر مقفل أيضاً ، لأن المضائق تقع تحت هيئة الأتراك .

ويحتوي ساحل المحيط الهادي على بعض الملاجئ ، ولكن البحر يتعرض هنا للتجمد ، فمدينة فلاديفوستوك التي تقع على نفس درجة عرض مرسيليا ، تتعرض لتجمد مياهها خلال ١١٠ أيام في السنة . أضف إلى ذلك أن كثرة الضباب تعيق الملاحة كثيراً .

أما في الشمال فيمتد الساحل الشاسع للمحيط المتجمد الشمالي . ولا ينجو من التجمد على هذا الساحل سوى قطاع الساحل المورماني الذي يظل سالكاً طيلة العام . أما في المناطق الأخرى فلا يكون هذا الساحل سالكاً إلا في خلال الصيف ، كما يلاحظ أن انفكاك الجليد لا يكون تاماً في أواسطه . بيد أن الحكومة السوفييتية بذلت جهوداً جبارة لإيجاد الارتباط البحري على الساحل الشمالي ، وقد تمت أول رحلة دون توقف بفضل كاسحة الجليد سيبرياكوف عام ١٩٣٣ ، ومنذ ذلك الوقت أنشئت خطوط منتظمة تربط بين مصبات نهر أوب وينييسي ولينا وذلك خلال بضعة أسابيع بالعام .

وهكذا يظهر من خلال دراسة الجغرافيا الطبيعية للاتحاد السوفييتي أن لديه امكانيات هائلة من أجل التنمية الاقتصادية على نطاق واسع : كالأحواض الفحمية ، والمناطق البترولية ، والمكامن المعدنية (شكل ١١) ، فضلاً عن أراضٍ زراعية غنية وشاسعة ، وشبكات ملاحية واسعة . ولكن استخدام هذه الموارد يبدو عسيراً بسبب شروط الاستغلال الصعبة ، كقساوة المناخ واتساع الأراضي الفقيرة ، وبعد المسافات ، وقلة الانفتاح الطبيعي على الخارج (شكل ١٢) .

وهذا ما يساهم في زيادة أهمية الجهد الإنساني وتنظيمه من أجل استغلال واستثمار هذه الموارد الطبيعية .

سكان الاتحاد السوفييتي وطريقة العمل فيه

تنص الفقرة الأولى في الدستور السوفييتي على ما يلي : « أن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية هو دولة اشتراكية قائمة على العمال والفلاحين » . وعبرة الاتحاد السوفييتي لاتدل على أي مغزى جغرافي ، بل ترمز إلى الفكرة القائلة أن الاتحاد السوفييتي هو مجموعة شعوب اتخذت النظام السياسي والاجتماعي ذاته .

وعلى الصعيد السياسي يظهر تعريف هذا النظام كما يلي : « يختص عمال المدن والريف بكل السلطة الذين تمثلهم مجالس النواب » ، بالإضافة إلى مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي . ويمثل هذا المجلس الجهاز الأعلى لسلطة الدولة في الاتحاد السوفييتي ، ويتألف من مجلس الاتحاد الذي ينتخب على أساس نائب واحد عن كل ٣٠٠٠٠٠٠ نسمة ، ومن مجلس القوميات المنتخب ضمن إطار مختلف المجموعات القومية .

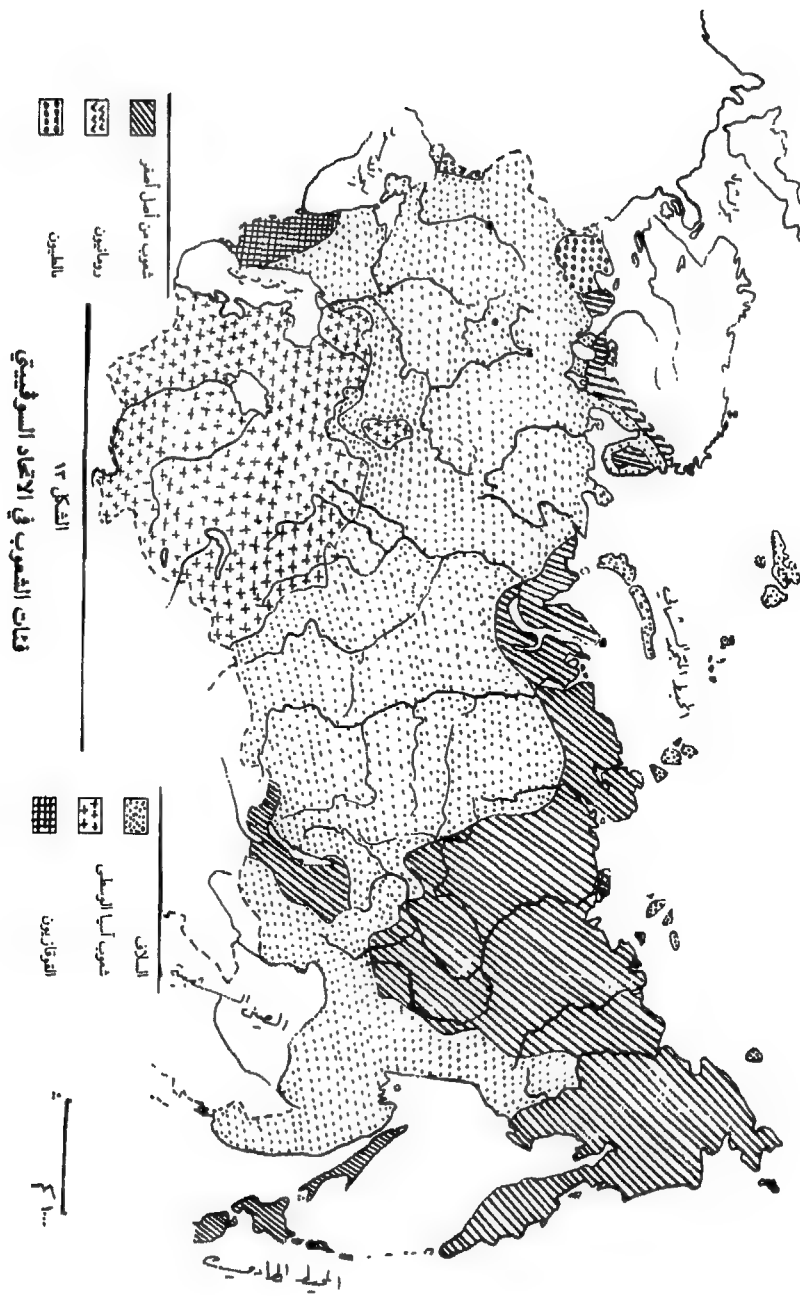
أما على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي فيتميز النظام السوفييتي « بتصفية النظام الرأسمالي في الاقتصاد وإلغاء الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج . وإلغاء استغلال الإنسان للإنسان » ، وبذلك تصبح أدوات ووسائل الإنتاج « ملكية اشتراكية » في حين يضمن القانون حق المواطنين في الملكية الشخصية للمداخيل والتوفير ، الناجمة عن عملهم وملكيتهم بيت السكن بالإضافة إلى حق الإرث للملكية الشخصية .

أولاً - شعوب الاتحاد السوفييتي

تنوع الأجناس وتفوق الروس :

غير أن على النظام السوفييتي الشديد التركيز أن يأخذ بعين الاعتبار شدة تنوع الشعوب ، لأن الخارطة القومية للاتحاد تبدو كبيرة الاختلاف ، وهذا الوضع لا يفسر إلا بالجغرافيا ، لأن هذا القطر الشاسع ، والحاوي على المشاهد المتتابعة والسهلة التواصل ، كانت تساعد دائماً على الهجرات البشرية ، كما يفسر بالتاريخ القديم جداً والمعقد للغاية (شكل ١٣) .

إن العنصر الرئيسي في هذا التاريخ ، هو التفوق الذي اكتسبه عنصر قومي هو سلافي الشرق وتكوين الدولة الموسكوفية ، وبعد أن كانت موسكو مدينة متواضعة ، أخذت تتسع في القرن الرابع عشر بصورة وطيدة ، وفي القرن السادس عشر بلغت الامبراطورية الموسكوفية ضفاف بحر الخزر في عهد ايثان الرهيب ، وفي القرن الثامن عشر ، أي في عهد كاترين الثانية . وصلت بحر آزوف جنوباً على حساب السلطنة العثمانية وليتوانيا غرباً . وأخيراً وفي القرن التاسع عشر حصل استعمار مزدوج لسبيريا ، أولاً عن طريق النفي حول طريق العربات القديمة باتجاه منشوريا (هيلونغ يانغ حالياً) أو خط التراكت Trakt ، وثانياً بواسطة الاستعمار الحر بعد إلغاء نظام الأقنان والرق في ١٨٦١ . وعندئذ حصلت هجرة حقيقية باتجاه الأراضي السيبيرية ، وتوسع في بداية القرن التاسع عشر في إثر تمديد الخط الحديدي العابر لسيبيريا . وفي الوقت ذاته راحت الامبراطورية تمتد في اتجاه آسيا الوسطى ، أي نحو دويلات التركستان الإسلامية ، ونحو بلاد



القفقاس ، ونحو ضفاف المحيط الهادي حتى آلاسكا الأمريكية . وفي أعقاب معاهدتي اقتسام النفوذ مع بريطانيا في آسيا الوسطى ١٨٨٥ - ١٩٠٧ ، ومع اليابان في مناطق المحيط الهادي بعد انكسار الروس في البر والبحر أمام اليابانيين في ١٩٠٥ ، تثبتت نهائياً حدود روسيا القيصرية عند سواحل المحيط الهادي شرقاً ، وحافة آسيا الوسطى الجبلية وإيران جنوباً . وبعد هزيمة ألمانيا واليابان في ١٩٤٥ ، أخذت حدود الاتحاد السوفياتي تضم الدول البلطية ، وقسماً من بروسيا الشرقية التابعة لألمانيا ، والمناطق الشرقية من بولونيا القديمة وجزءاً من بسلاريا التابعة لرومانيا وتابع المعمرين الروس استزراع الأراضي الصالحة للزراعة في سيبيريا .

وتضم حدود الاتحاد حالياً السلاف الذين يقاربون ١٨٥ مليون نسمة ، وهم الذين قاموا بأكبر حركة هجرة . وينقسمون إلى زمرة الروس الكبار ، وهم الأكثر عدداً ، وأصلهم من بلاد الغابات ، والروس الصغار وموطنهم الأصلي أوكرانيا والروس البيض (منطقة مينسك وفيتبسك) .

ثم تأتي مجموعة الشعوب غير السلافية ، وتضم فئات جنسية مختلفة جداً . ففي الشمال الغربي يقطن البaltيون والفينيون المبعثرون ابتداءً من شبه جزيرة كولا حتى الأورال وهم اللابون والماري وموراف الفولغا . ونجد في التوندرا مجموعات متنوعة ولكن متماثلة في نمط حياتها ، مثل الكوريالك بجوار بحر اوخوتسك ، والصاموئيد والتشوكش . كما تقطن الطايغا شعوب قديمة مثل الطونغوز وخاصة الياقوت الذين استوطنوا حوض اللينا ، ويقطن السهوب شعوب كانت بدوية بالماضي اتجهت حالياً نحو الحياة المستقرة : مثل التتركان والكازاخ والأوزبك والقرغيز والطاجيك . ويجب أن نضيف إلى هذه القائمة الشعوب المهاجرة لهذه البلاد ، مثل اليهود وألمان الفولغا ، عدا الأقوام

الشديدة التنوع في جبال القوقاز ، كالشراكسة والداغستان والكرج والأرمن والأكراد والأتراك .

سياسة القوميات :

يخلق هذا التنوع الشديد لشعوب الاتحاد وبالتالي تنوع اللغات والثقافات ، مشكلات عديدة . فقد تجاهل القياصرة ذلك عن عمد ورفضوا منح المجموعات الجنسية ، باستثناء الروس ، أي مساهمة في إدارة الدولة . ويجهد النظام السوفييتي بوضع حلول مرنة لتلك المشكلات .

وهكذا أوجد تجاه التفتت القومي تنظيماً إدارياً معقداً ، فأصبح الاتحاد السوفياتي دولة متعددة القوميات ، مؤلفاً من ١٥ جمهورية اتحادية كان عدد سكانها كما يلي :

١٩٧٩	١٩٦٦	١٩٦٢	
١٣٧,٦ مليون	١٢٦,٠٠٠,٠٠٠ نسمة	١١٢,٦٠٠,٠٠٠ نسمة	جمهورية روسيا
٤٩,٨ مليون	٤٥,٥١٦,٠٠٠ نسمة	٤٠,٦٠٠,٠٠٠ نسمة	جمهورية اوكرانيا
٩,٦ مليون	٨,٦٣٣,٠٠٠ نسمة	٨,٠٠٠,٠٠٠ نسمة	جمهورية بيلوروسيا
٣,٤ مليون	٢,٩٨٦,٠٠٠ نسمة	٢,٧٠٠,٠٠٠ نسمة	جمهورية ليتوانيا
٦ مليون	٤,٦٦٠,٠٠٠ نسمة	٣,٤٠٠,٠٠٠ نسمة	جمهورية أذربيجان
٣ مليون	٢,١٩٤,٠٠٠ نسمة	١,٦٠٠,٠٠٠ نسمة	جمهورية ارمينيا
١٥,٦ مليون	١٠,٥٢٤,٠٠٠ نسمة	٧,٣٠٠,٠٠٠ نسمة	جمهورية اوزبكستان
١٤,٥ مليون	١٢,١٢٩,٠٠٠ نسمة	٨,٥٠٠,٠٠٠ نسمة	جمهورية كازاخستان
٢,٥ مليون	٢,٢٦٣,٠٠٠ نسمة	٢,٠٠٠,٠٠٠ نسمة	جمهورية ليتوانيا
١,٤ مليون	١,٢٨٥,٠٠٠ نسمة	١,١٠٠,٠٠٠ نسمة	جمهورية استونيا
٥ مليون	٤,٤١٥,٠٠٠ نسمة	٤,٠٠٠,٠٠٠ نسمة	جمهورية جورجيا
٤ مليون	٣,٣٦٨,٠٠٠ نسمة	٢,٧٠٠,٠٠٠ نسمة	جمهورية مولدافيا
٣,٥ مليون	٢,٦٥٢,٠٠٠ نسمة	١,٩٠٠,٠٠٠ نسمة	جمهورية قيرغيزستان
٣,٨ مليون	٢,٠٧٥,٠٠٠ نسمة	١,٨٠٠,٠٠٠ نسمة	جمهورية طاجيكستان
٢,٨ مليون	١,٩١٤,٠٠٠ نسمة	١,٤٠٠,٠٠٠ نسمة	جمهورية تركمانستان

وتؤلف كل من هذه الجمهوريات بحد ذاتها اتحاداً فيديرالياً ، يضم من ناحية مناطق ومقاطعات تحكمها مباشرة ، ومن ناحية أخرى - هذا إذا كانت هناك ضرورة - مقاطعات وجمهوريات ذات استقلال ذاتي . وتساير التخوم بين الجمهوريات قدر الإمكان التوزيع القومي ، أما إذا كان ذلك معقداً كما في جمهورية أوزبكستان ، فإن الحدود الإدارية تصبح متعرجة جداً ، وتتبدل بالواقع باستمرار ، مسايرة التحولات الاقتصادية والديموغرافية .

وهكذا أمكن الحفاظ على أصالة القوميات ، المصانة بهذا التنظيم ، الذي يحاول جاهداً تنمية الثقافات القومية :

مثل انتشار الجرائد والمسارح والمدارس التي تنشر لغة وأداب وفن كل قومية . وهكذا صار الرقص الاوزبكي والدراما الجيورجية والشعر القيرغيزي ، تؤلف جميعاً جزءاً من التراث السوفييتي . كما فتحت التقاليد الشفوية وسائل التعبير فأوجد العلماء الأحرف الهجائية لحوالي ثلاثين مجموعة جنسية لم يسبق لها أن عرفت الكتابة .

وهذه الجهود المبذولة في سبيل احترام هذا التنوع ساعدت مع ذلك على إيجاد شكل جديد للوحدة بين شعوب الاتحاد السوفييتي .

لقد توسع مجال اللغة الروسية بسبب التوسع في التعليم ، وتدرس العقيدة الشيوعية في كل مكان . ولكن وحدة البنى الاقتصادية بشكل خاص ، التي تمخضت عن تحولات عميقة في مختلف مناطق الاتحاد السوفييتي ، هي التي عملت بدورها على توثيق العلاقات المتبادلة : فقد أسندت لكل منطقة مكانة محددة في نظام وحيد من الإنتاج والتوزيع ، حسب تقديرات مخطط وحيد . فضلاً عن ذلك فقد عملت الحياة العصرية على تلاشي الخصائص المحلية في سائر البلاد ، وهكذا اضطرت النسوة المسلمات إلى التخلي عن الحجاب إلا فيما ندر ، مثلما تراجعت البداوة واختفى تقريباً تعدد الزوجات .

كما ساهمت الهجرة الداخلية نحو المناطق الصناعية والأراضي العذراء في خلق نموذج سوفياتي وعاطفة التضامن ، برهن عليها الدفاع المشترك عن أراضي الاتحاد السوفياتي خلال الحرب العالمية الثانية .

الأوضاع الديموغرافية

السكان : لقد بلغ عدد سكان الاتحاد رقم ٢٦٠ مليون نسمة في عام ١٩٧٧ و ٢٧١ مليون في مطلع عام ١٩٧٩ (أي الدرجة الثالثة بالعالم بعد الصين والهند) . ولا تزيد الكثافة عن ١٢ شخص بالكيلو متر المربع ، وهي نسبة ضعيفة نسبياً ، تعود لاتساع المساحات ذات الطبيعة القاسية ، وقد ارتفع العدد عام ١٩٨٢ إلى حوالي ٢٧٠ مليون ، أي بزيادة قدرها حوالي ٢٠ مليون خلال عشرة أعوام . ويتزايد سكان الاتحاد بصورة متسارعة : فبين عام ١٩١٣ و ١٩٦٢ ارتفع عدد السكان بحوالي ٥١ مليون نسمة ، ويقارب التزايد السنوي حالياً حوالي المليونين سنوياً مقابل ١٢ مليون بالهند ، وهو نسق تزايد يقل عن نسبة التزايد في الولايات المتحدة مثلاً ، والتي تزايد سكانها بمقدار ١,٨ مليون سنوياً بين فترة ١٩٠٠ و ١٩٦٠ .

وتتضافر عدة عوامل لتفسير البطء النسبي في التزايد الديموغرافي ، لأنه لم تتعرف البلاد إلى أية هجرة تزيد في نسق التزايد . كما تعرض الاتحاد السوفياتي منذ ١٩١٣ إلى عدة فترات مضطربة ، وهي الحرب العالمية الأولى والحرب الأهلية خلال الثورة والحجاعة التي أعقبتها ، وأخيراً الحرب العالمية الثانية التي خسر الاتحاد خلالها ١٨ مليوناً من السكان ، كما أن خسارة مليون شاب منهم ؛ لن تكون دون نتيجة مباشرة على رقم المواليد الحالي .

ورغم هذه العقبات لا يزال التزايد الطبيعي للشعب السوفياتي هاماً جداً . فالفائض السنوي للمواليد يصل إلى (٩ بالألف) ، وترتفع نسبة المواليد إلى (١٨ بالألف) مقابل ١٤ في فرنسا ، كما هبطت نسبة الوفيات إلى (٩ بالألف) مقابل ١٠ في فرنسا .

وقد نشرت مجلة الحوليات الجغرافية بتاريخ تموز - آب ١٩٧٩ ص ٤٩١ مايلى :

تبلغ نسبة التوالد ١٥ بالآلف في روسيا السوفياتية و ١٥,٤ بالآلف في اوكرانيا ولكنها تبلغ ٣٥ بالآلف في اوزبكستان و ٣٧ بالآلف في طاجيكستان و ٣٥ بالآلف في تركمانستان .

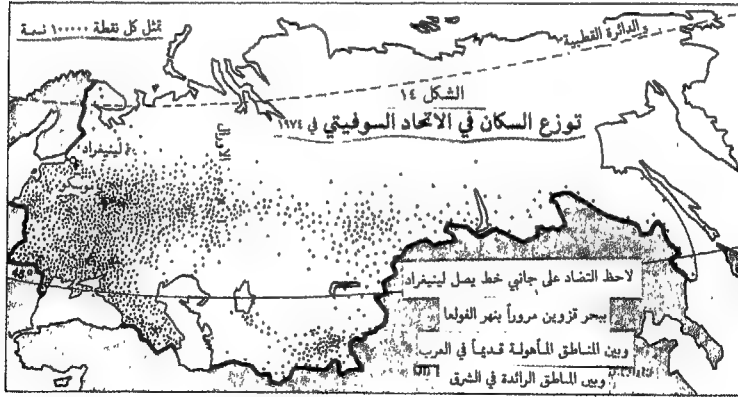
وإذا كان السكان الروس قد تزايدوا بنسبة ١٢٪ بين ١٩٥٩ و ١٩٧٠ فإن أبناء الجمهوريات الإسلامية السوفياتية كالاوزبكيين والطاجيك تزايدوا في الحقبة ذاتها بنسبة ٥٣٪ .

توزيع السكان : يدل الرقم المتوسط للكثافة ، وهو ١٢ بالكم^٢ ، على تفاوت مدھش في الكثافة الإقليمية ، فأشد الكثافات تلاحظ في القسم الأوروبي الذي يقطنه ثلثا السكان . وعلى كل ففي شمال شرق المائدة الروسية ، شأن بعض السهوب المجاورة لبحر قزوين ، لاتزيد الكثافة فيها عن (١) نسمة بالكيلومتر المربع . ومأن نجتاز الأورال شرقاً ، حتى نجد نطاقات قليلة السكان تمتد على رقعة هائلة (شكل ١٤) . والمنطقة الوحيدة الكثيفة السكان ، هي الشريط الذي يقطنه الروس والذي يمتد من جبال الأورال حتى الباسفيكي على طرفي الخط الحديدي العابري لسبيريا وعلى أطراف فروعها الجديدة . كما نجد مناطق كثيفة في القسم الجنوبي فيما وراء القفقاس وعند سفوح جبال آسيا الوسطى وحول بعض الوديان الكبرى ، التي تجتاز الصحارى مما يتنافر مع نقص الكثافة العام .

وتكن عوامل هذا التباين في الكثافة في المناخ القاسي والترب العاتية على الزراعة ، مما حال دون استيطان الناس . وحتى في المناطق الموائمة ، نلاحظ أن السكان لا يزالون مجتمعين على شكل جزر استيطانية ضمن القفار الخالية .

ويلاحظ ابتداء من فترة ١٩٢٥ - ١٩٣٠ أن التوزيع يجنح نحو التطور ، فالقسم الآسيوي من البلاد ، الذي كان يضم في عام ١٩١٧ سبع السكان ، أصبح يحوي عام ١٩٣٩ الربع ، ويضم الآن حوالي الثلث . ففي هذه المناطق يكون التكاثر أسرع بكثير من القسم الأوروبي . فبينما زاد العدد الكلي للسكان بمقداره بالمائة بين ١٩٤٠ و ١٩٥٦ ، نجد أن عدد سكان الجمهوريات الآسيوية قد زاد بنسبة ٢٥ بالمائة ، كما تضاعف سكان أراضي الشرق الأقصى بعد ١٩٢٦ . وهذا الإعمار والاستيطان الجديد إنما تم على حساب المناطق الريفية في روسيا الأوروبية ، حيث حرر دخول الآلات الزراعية عدداً كبيراً من الفلاحين ، الذين اجتذب الأورال وسبيريا الغربية قسماً كبيراً منهم ، سواء لحاجات الصناعات

الجديدة ، أو لرفع الإنتاج الزراعي في هذه المناطق . أضيف إلى ذلك أن الحرب العالمية الثانية أدت إلى تهجير ١٢ مليوناً نحو الشرق ، والكثير منهم استقروا في مواطنهم الجديدة . وهكذا نجد أن مركز الثقل السكاني ومركز ثقل الأراضي الصالحة للزراعة يجنحان نحو التقارب مع بعضهما .



المدن والأرياف : لا يزال الريفيون يشكلون خمسي السكان تقريباً . فكان عددهم عام ١٩٥٩ (١٠٨,٥) مليون أو (٥٢ بالمئة) تقريباً ، وهبطت نسبتهم إلى ٣٨ ٪ في ١٩٧٧ ، وهي نسبة لا تزال مرتفعة بالنسبة لدولة صناعية عظمى . وطريقة الاستيطان الريفي الغالبة هي المسكن المتجمع . فالتقاليد الروسية القديمة (نظام المير) وقلة الأمن والمياه في السهوب تتحالف جميعاً لتكوين القرى . وجاء النظام الاشتراكي ليزيد أيضاً في شدة تركز السكان .

والواقع نلاحظ أن أبنية الاستغلال الزراعي (عنابر للمكائن ، الاسطبلات ، الصوامع) ، التي يضاف إليها الأبنية العامة (قاعات الاجتماعات ، المدرسة ، الحزن الجماعي) ، تكون كلها جماعية ومتميزة عن بيوت السكن . فالاختلاف الجوهري عن قرى أوروبا الغربية ، هو انفصال المسكن عن مكان العمل . فكل قرية تضم مجموعة بنايات كبرى متجمعة عادة ، وبيوت صغيرة فردية محاطة بمحاثها ، مرتصفة بموجب نظام متباين حسب العادات المحلية ، وهناك اتجاه حديث يدخل ضمن إطار تحسين الشرائط الزراعية (تجميع الأراضي لأقصى حد ممكن) ، يرمي إلى تركز المسكن ونشوء ما يسمى بالمدن الزراعية (أغروغراد) ، التي هي عبارة عن مدن سكن للعمال الزراعيين تحوي على كل مكتسبات النموذج الحضري .

ويحتل الخشب في بيوت مناطق الغابات المكانة الأولى ، وتتألف الجدران من ألواح وجذوع فوق أساس من الأحجار ، ويتألف السقف من صفائح خشبية

أيضاً ، وفي الداخل يوجد موقد ضخيم يؤمن الدفء لكل الغرف . وفي السهوب يؤدي فقدان الخشب إلى تغير منظر المسكن . فالمسكن الأوكراني المدعو « خايتا » ، يتألف من جدران مبنية من اللبن ، سقفه من القش الذي يتجاوز الجدران ويؤلف نوعاً من سقيفة . وتطل جدرانها بالكلس وتضاف إليه ألوان صارخة . أما في المناطق الأخرى ، فنجد النماذج الإقليمية التقليدية ، فتكون البيوت في القفقاس مبنية بالحجارة . وأخيراً نلاحظ في كثير من القرى الجديدة السهبية ظهور القرميد في الجدران والسقوف وأحياناً ألواح الاسمنت .

غير أن توسع المدن في هذا القطر الذي لا يزال يحمل الطابع الريفي يبدو مع ذلك سريعاً . فالامبراطورية الروسية كانت دولة متأخرة من وجهة النظر إلى عدد مدنها وضخامة هذه المدن بسبب بطء النمو الصناعي . وفي خلال ٣٠ عاماً ، أدت النهضة الصناعية التي لم تبدأ إلا في أواخر القرن الماضي في بعض المناطق (الأورال ، الدونetz ، منطقة موسكو) إلى تضخم عدد سكان المدن بحوالي ٦٠ مليوناً ، كما يدل على ذلك الجدول الآتي :

١٩٢٦ كان في الاتحاد ٣١ مدينة ، يزيد سكان كل منها على ١٠٠٠٠٠ نسمة منها ٣ أكثر من ٥٠٠٠٠٠ .

١٩٣٩ كان في الاتحاد ٩٠ مدينة ، يزيد سكان كل منها عن ١٠٠٠٠٠ منها ١١ أكثر من ٥٠٠٠٠٠ .

١٩٥٦ كان في الاتحاد ١٣٥ مدينة ، يزيد سكان كل منها عن ١٠٠٠٠٠ منها ٢٢ أكثر من ٥٠٠٠٠٠ .

وفي ١٩٧٩ ارتفع عدد المدن التي يزيد عدد سكانها عن نصف مليون إلى ٣٨ مدينة ، وهي : موسكو ٨ ملايين وتحتل المرتبة الخامسة بين أكبر مدن العالم أي تأتي بعد بكين ومكسيكو وطوكيو وسيئول ، لينينغراد ٤,٦ ملايين ، كييف

٢,١ ، طشقند ١,٨ ، باكو ١,٦ ، خاركوف ١,٣ ، غوري ١,٢٧ ، نوفوسيبيرسك ١,٢٦١ ، كوبيشيف ١,٢ مليون ، سفردلوفسك ١,١ مليون ، مينسك ١ مليون ، أوديسا : مليون ، تفليس : مليون ، دونتسك ١ مليون ، تشليابنسك : مليون ، قازان ٨٦٩ ألف ، دنير بروتيفوفسك ١ مليون ، بيرم ٨٥٠ ألف ، أومسك : مليون ، فولغوغراد ٨١٨ ألف ، روستوف الدون ٧٨٩ ألف ، أومسك ٧٧٣ ألف ، أريفان : مليون ، ساراتوف ٧٥٨ ألف ، ريغا ٧٣٣ ألف ، ألتا ٧٣٠ ألف ، فورنيج ٦٧٠ ألف ، زابوروزيه ٦٥٨ ألف ، كراسنويارسك ٦٤٨ ألف ، كريفيروغ ٥٧٣ ألف ، لفوف ٥٥٣ ألف ، قره غندا ٦٢٢ ألف ، ياروسلاف ٥١٧ ألف . أي هناك ١٨ مدينة يزيد عدد سكانها عن المليون .

ولكن لهذا النمو العمراني بعض الاستثناءات ، مثل المدن القديمة التجارية الأوربية التي لم تدخلها الصناعة (سمولنسك ، أوريل ، غومل ، فيتبسك) . كما أن بعض المدن التي نكبت بمعارك ضارية خلال الحرب ، ظل عدد سكانها ثابتاً ، مثل لينينغراد التي فقدت وحدها ٧٥٠.٠٠٠ شخص قضا من الجوع والبرد . وعلى العكس نجد أن التزايد الشديد منذ ١٩٣٩ كان أولاً : من نصيب المناطق الصناعية ، كما في أوكرانيا الصناعية ، فبعد أن كان عدد سكان مدينة غورلوفكا ٢٤٠.٠٠٠ ازداد بنسبة ١٢٢ ٪ ، كما قفز عدد سكان غوري على نهر الفولغا من ٦٤٤.٠٠٠ إلى ١٢٧٠.٠٠٠ ، كما نجد أن مدينة تشيليا بنسك في الأورال ، التي كان عدد سكانها ٦١٢.٠٠٠ ، قد ازداد بنسبة ١٢٤ ٪ . وفي سيبيريا زاد عدد سكان مدينة ستالينسك بنسبة ١٠٥ ٪ فوصل إلى ٢٤٧.٠٠٠ نسمة ، وزاد عدد سكان نوفوسيبيرسك البالغ ١٢٦١.٠٠٠ بنسبة ٩٠ ٪ .

ثانياً : كما أدت النهضة الصناعية إلى ارتفاع عدد سكان المدن القديمة ، فأصبحت كييف تضم مليونين من السكان ، وباكو ١,٦ مليون ، كما تغلفت بعض المدن بمدن ثانوية مثل موسكو .

ثالثاً : هذا وقد انبثقت مدن جديدة من العدم منذ ١٩١٧ ، فتضخمت بشكل مذهش ، فبعضها عبارة عن مدن صناعية مثل ماغنيتوغورسك ، وفيها ٤٠٠.٠٠٠ نسمة . أو كاراغندا وتضم ٦٢٢.٠٠٠ ، أو مدن إدارية مثل ستالين آباد (وتدعى فرونزة) عاصمة تاجيكستان وتحتوي ٢٥٠.٠٠٠ نسمة .

ويخلق هذا النمو المتسارع مشاكل عمرانية مستعجلة كالتموين الذي يستدعي

تحسين المواصلات الداخلية ، والسكن الذي لا يزال يؤلف مشكلة عويصة رغم الجهود المبذولة .

لقد زاد عدد سكان موسكو مثلاً ، خلال المخطط الخمسي الخامس بحوالي ٣٠٠٠٠٠٠ نسمة بسبب تدفق وافدين جدد . وخلال الفترة ذاتها ، تم بناء ٤,٢ ملايين متر مكعب من المساحة السكنية . ونتج عن ذلك نشوء أبنية إيجارية امتدت على نطاق واسع ، ولكن الحاجة للسكان لم تتناقص كثيراً . وكانت التدابير المتخذة لتلافي هذه الأزمة عديدة : فتم « الاستغناء عن التزيينات غير المفيدة والعالية الكلفة » والتي كانت ترهق أحياناً المهندسة العمرانية السوفياتية ، واللجوء إلى عقلانية صناعة البناء ، والكف عن إقامة مؤسسات صناعية جديدة في المدن الكبرى ، وإقامتها على العكس في « المدن الصغرى الحسنة التخطيط » والتي قامت حول المدن الكبرى ، وللقصود منها تخفيف الضغط عن المدن الضخمة .

جدول بتشييد المساكن في الاتحاد السوفييتي بين ١٩٥٠ - ١٩٧٩

السنة	عدد الشقق المبنية (بالآلف)	عدد الأفراد الذين حصلوا على شقق (ملايين)
١٩٥٠	١٠٧٣	٥,٣
١٩٦٥	٢٢٢٧	١٠,٨
١٩٧٠	٢٢٦٦	١١,٢
١٩٧٥	٢٢٢٨	١١
١٩٧٩	٢٠٠٠	١٠

كما نلاحظ أن بنية المدن السوفيتية ذاتها ، تتميز باتساع أبنيتها الجماعية . مثل جامعة موسكو ، ومحطات القطار الأرضي ، وقصور النقابات ، وكذلك الحال بالنسبة للمؤسسات الجماعية في الأحياء السكنية (مغاسل ثياب جماعية ، حدائق أطفال مخازن كبرى) .

ومن جهة أخرى ونظراً لهيمنة الوظيفة الصناعية حالياً ، لا سيما بالمدن الجديدة ، فإن المدينة تشطر إلى عنصرين أساسيين هما : أحياء المعامل وأحياء السكن . وإذا كانت البنايات الضخمة هي المتفوقة أحياناً ، فهي مخصصة في

بعض المدن الجديدة للجهاز الإداري والاجتماعي ، بينما نجد في الأحياء السكنية البيوت الفردية الصغيرة .

لا يزال الكثير من المدن القديمة تحمل ملامح المراحل الكبرى من تاريخها : تلك هي حالة عواصم آسيا الوسطى الإسلامية . ففي طشقند ، لا يزال الاهتمام الاستراتيجي ماثلاً في شبكات الطرق ، التي تتخذ شكلاً مروحيًا ، وتشهد عن ماضي المدينة العسكري ، وقد انبثقت مدينة عصرية من ناحية أخرى ، مع مصانعها الواسعة ، ومحطة هامة ، ودور تحرير جرائد ومجلات ، ومسرح يتسع لمقدار ٢٥٠٠ شخصاً . وأخيراً لا تزال المدينة القديمة تحتفظ بمنازلها ذات السقوف المستوية والمدينة النوافذ على الطريق ، وأزقتها ذات مناهات الأزقة ، والزقنات ذات الغبار ، والتي تفوح منها روائح الزهور ، والجلود ، والعفونة ، والأبنية الطينية ، وأسواقها المسقوفة ، وسواقها التي ينطلق منها خربير المياه .

تقع طشقند عاصمة أوزبكستان ومركز محافظة طشقند في حوض نهر تشيرتشيك . وتأتي من حيث عدد السكان (مليون و ٨٠٠ ألف نسمة) في المرتبة الرابعة في الاتحاد السوفيتي وتبلغ مساحتها ٢٥٠ كيلومتراً مربعاً وهي تعتبر من أقدم المدن السوفيتية وبدأت تتشكل كمدينة في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد . وكانت تسمى تشاتش وكانت ملتقى طرق التجارة بين الشرق والغرب . وسميت فيما بعد بينكينت . أما أول ذكر للمدينة كطشقند فيعود إلى القرن الحادي عشر .

عانت المدينة في القرون الوسطى من الغارات المتوالية والتخريب وكانت تنتقل من سيطرة لأخرى وتشتت السكان بين المدن الأخرى وحول تيمورلنك طشقند بعد الاستيلاء عليها ، إلى قلعة منيعة ولكن ذلك لم ينقذها من الغارات والتخريب في القرون اللاحقة .

تحولت طشقند في منتصف القرن المنصرم إلى مركز هام للتجارة مع روسيا . وتم في عام ١٨٦٥ إلحاقها بالامبراطورية الروسية . وأصبحت بعد عامين مركزاً لولاية تركستان .

وابتداءً من عام ١٩٣٠ بنيت في طشقند المنشآت الصناعية ، وشيدت أول جامعة في كل آسيا الوسطى وأحيط بالعناية التامة ماتبقى من آثار معمارية ترجع للقرنين الخامس عشر والسادس عشر .

إن الأحياء الجديدة تضيي لوناً خاصاً على الطابع المعماري للمدينة ومن بينها أحياء تحمل أسماء « موسكو » « لينينغراد » ، « اوكرانيا » وغيرها ويكن الأمر في أنه حدث هنا عام ١٩٦٦ هزة أرضية عنيفة ، سببت أضراراً فادحة لبعض الأحياء وخاصة للمركز وهرعت كل البلاد لمساعدة المدينة : فجاء البناء من موسكو ولينينغراد واوكرانيا والمناطق الأخرى وبني خلال السنوات الخمس اللاحقة فقط ،

مماسحته (٥,٥) مليون متر مربع من المباني السكنية وكذلك المسارح ودور السينما والفنادق وجامعة ومعاهد دراسية اخرى .

تعتبر طشقند مركزاً لاقامة المعارض الفنية واللقاءات والندوات ذات الأهمية العالمية . وتحترق المدينة العديد من الخطوط السياحية .

فمدينة موسكو التي تعتبر رمز النظام الجديد ، تشتمل على مختلف مشاهد المدن السوفيتية . فهي عقدة طرق تجارية ، وكانت مقر الأمراء الروس منذ القرن الثالث عشر ، ثم ما لبثت أن أصبحت بسرعة عاصمة تجارية وسياسية حول الكرملين ، وهو قصر القياصرة . ورغم منافسة سان بطرسبورغ (لينينغراد) التي أصبحت عاصمة جديدة ، أوجدها بطرس الأكبر ، ثابرت موسكو على غوها بصفتها مركز ثقافي ولا سيما بعد عام ١٨٥٠ بصفتها مركز صناعي ، فبلغ عدد سكانها عام ١٩١٣ (١,٧) مليون نسمة . وكان الكثير من شوارعها بلا بلاط ، وكانت تكثر فيها البيوت الخشبية بحيث كانت تبدو كمدينة غير كاملة . ولكن الثورة اختارتها من جديد كعاصمة سياسية في قلب البلاد ، كما اختار الأتراك أنقرة بعد القسطنطينية بعد ثورة مصطفى كمال . ولا تزال تحتفظ بوظائفها التقليدية ، كما أن تطورها الصناعي أخذ بالتسارع ، ففي عام ١٩٧٩ (شكل ١٥) كان فيها ٨ ملايين نسمة بعد أن كانوا ٥ ملايين عام ١٩٦١ .

لا يزال قسم من موسكو القديمة باقياً : وهو الكرملين المحاط بسور من قرميد أحمر مع كنائسه وقصوره ، وهو مقر الحكومة ومتحف تاريخي في الوقت ذاته . وبالقرب من الميدان الأحمر ، وهو قلب المدينة ، حيث شيد فيه قبر لينين ، تنتصب كاتدرائية القديس باسيل الشهيرة .

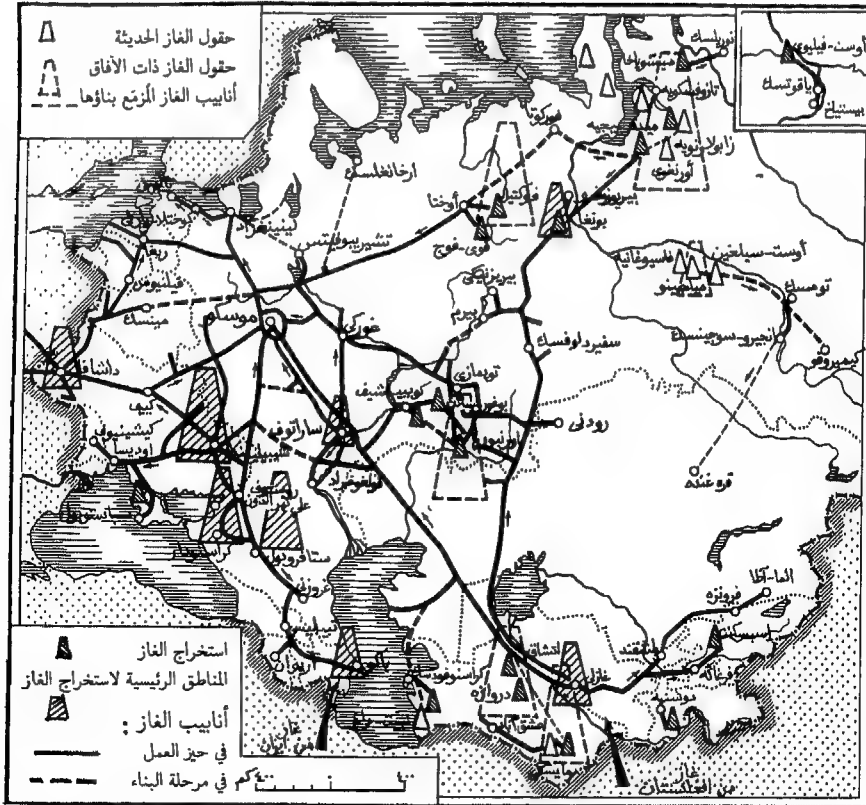
وقد تواءمت المدينة مع الحياة المصرية : فقد تم هدم جزء من الأحياء القديمة كالحي الصيني والمدينة البيضاء ، ومدينة الأرض ، والتي كانت محدودة بشوارع دائرية . أقول : هدمت لكي تترك مجالاً لشوارع عريضة فسيحة ، تطيف بها عمارات ضخمة حديثة ، تتجاور مع الأبنية القديمة . وتمتد المدينة المصرية ، فيها وراء آخر شارع خارجي ، بمحطاتها ، ومصانعها ومطاراتها ، والجامعة الجديدة وملعب دينامو .. إلخ . وقامت أحياء سكنية تنتشر فيها الحدائق العامة كي تحمل مكان البراكات

مدينة موسكو



الشكل ١٥

الخشبية التي قامت في أواخر القرن الماضي ، ولكي تحيط بالمصانع الجديدة . وقد تم بناء القطار الأرضي عام ١٩٣٥ لمجز وسائل النقل الجماعي السطحية ، ويبلغ طول الشبكة الحالية أكثر من ٦٠ كم وتحتوي ٤١ محطة ، تحوي كل روائع الهندسة ، وسيبلغ طول هذه الشبكة حسب المخطط ٢٥٠ كم . وفضلاً عن ذلك فقد اقتضت الحاجات المعقدة ، كالتزويد بالمواد الأولية والمنتجات الغذائية ، والحاجة للماء والكهرباء ، اقتضت بناء قناة موسكو - الفولغا ، وإقامة ميناء نهرى كبير . وتكل المراكز الحرارية الحضرية المعتمدة على حوض ليفنيت موسكو ، والمصانع الكهرمائية القائمة على نهر الفولغا بتوفير الباقي من حاجة موسكو للكهرباء ، في حين يأتي الغاز الطبيعي بواسطة أنبوب ساراتوف - موسكو ، وابتداءً من عام ١٩٥٦ من أنبوب ستافروبول (في القفقاس) الشمالي حتى موسكو ، وأخيراً بواسطة أنبوب الغاز القادم من سيبيريا والمتجه نحو أوروبا الشرقية والغربية (شكل ١٦) .



الشكل ١٦
 صناعة الغاز في الاتحاد السوفييتي

ثانياً : إطارات الاقتصاد السوفييتي

المبادئ :

لقد خلفت الامبراطورية الروسية للنظام السوفييتي اقتصاداً متأخراً جداً . حقاً كانت روسيا تبدو في عام ١٩١٣ كدولة عظمى زراعية ، ومصدرة للقمح والبطاطا والسكر والكتان والقنب . ولكن المستوى المعاشي البائس الذي كان عليه الفلاحون الروس ، هو الذي كان لوحده يسمح بوجود هذه الصادرات .

فرغم اتساع روسيا وسكانها وثروتها الطبيعية ، لم تكن تقدم عام ١٩١٣ أكثر من ٢٠,٦٪ من الإنتاج العالمي . ومثال الفحم الحجري يعطي فكرة معبرة جداً . فكانت تنتج عامئذ ٣٠ مليون طن مقابل ٥٠٠ مليون في الولايات المتحدة ، وما يقارب ٣٠٠ مليون طن في إنكلترا . كما كانت الصناعات الأساسية وليدة ومحدودة بالجزء الأوروبي ، وتعملها الرساميل الأجنبية بحوالي ٧٥٪ ، وكذلك الحال بالنسبة للسكة الحديدية . وهكذا كان الاقتصاد السوفييتي اقتصاداً شبه استعماري في « بلد جديد » ومرتبطة بشدة بالدول العظمى الصناعية . وبعد الحرب العالمية الأولى ، جاءت سني الحرب المدنية والتدخل الأجنبي ، مما أدى إلى إنهاء هذا الاقتصاد البسيط بحد ذاته ، فكان هناك الكثير من الأراضي المهجورة ، والمعامل المتخربة والطرق الحديدية غير الصالحة للاستخدام .

ترى ما هي الأهداف والمبادئ الاقتصادية للنظام الناجم عن ثورة اكتوبر ؟ إن الهدف المعلن هو تأمين نهضة اقتصادية سريعة ، ورفع مستوى حياة الشعوب السوفيتية . ولبلوغ هذا المرمى كان المبدأ الاقتصادي الأساسي هو النظام الجماعي collectivisation .

وتنص الفقرة ٦ من الدستور على ما يلي :

« إن الأرض ، وباطنها ، والماء والغابات والمصانع ، والعمال ، ومناجم الفحم والفلزات ، وخط

الحديد ، ووسائل النقل المائي والجوي ، والبنوك ، ودوائر البريد والهاتف واللاسلكي ، والمؤسسات الزراعية الكبرى التي تنظمها الدولة . . . ، وكذلك المؤسسات البلدية والكتلة العظمى من المساكن في المدن والمدن الصناعية ، هي جميعاً ملك للدولة ، أي ملك الشعب قاطبة »

وكانت هذه الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج ، ضرورة كي تسمح في الوقت نفسه بتطور الاقتصاد الوطني بشكل عقلائي ، لتجنب التنافس وفوضى الإنتاج . فالدولة إذن هي التي تدير الاقتصاد وتحدد الأهداف التي يجب بلوغها ، وتنسق كل مؤسسات وفروع الإنتاج ، وهذا ما يسمى التخطيط . ولتأمين نجاح الاقتصاد مادياً في مجموعه ، ولجعله مستقلاً ، كان من الضروري الإلحاح على تصنيع البلاد ، مع تأمين الأفضلية لتطور الصناعة الثقيلة ، التي تقدم لمختلف قطاعات الاقتصاد ما يلزمها ، بما في ذلك الزراعة ، كالمكائن والتجهيزات (التي كانت تستورد حتى ذلك الوقت) والوقود والطاقة الكهربائية .

أساليب التطور الاقتصادي :

تتعلق هذه التحولات قبل كل شيء بتهيئة المخططات ، وأشهرها المخططات الخمسية التي راحت تنسق الحياة السوفيتية منذ ١٩٢٨ ، والتي لم تتوقف إلا خلال الحرب العالمية الثانية . ويحدد كل مخطط ، إحصائياً ، ولمدة خمسة أعوام ، الأهداف التي يجب أن يبلغه كل فرع من فروع الاقتصاد ، وكل منطقة من المناطق ، ويقدر التنمية الصحيحة التي يجب أن تنالها قطاعات الاستهلاك (المساكن ، التغذية ، التجهيز المنزلي ، المدرسي ، الثقافي) ويوزع الاستثمارات المالية . إن مجموعاً كهذا ينظم الإنتاج والاستهلاك بالتوازي ؛ عليه أن يقضي على كل مخاطر الأزمات .

وتشارك في تهيئة المخطط الاقتصادي ، وهو مهمة طويلة وشديدة التعقيد ، كل الأمة . فيعمل فيها التقنيون المختصون بالمخطط ، وكذلك العمال والكوخوزيون عن طريق « لجان المخطط » المنتخبون . ومنذ ١٩٥٥ عمدت الدولة إلى تخفيف جهاز التخطيط الضخم : أي الغوسبلان في الاتحاد

السوفييتي (لجنة المخطط) الذي يظل دائماً الجهاز الأعلى . ولكن هذه المخططات ذاتها لا تشكل إطاراً صلباً إذ يمكن تعديلها في أية لحظة .

ولتنفيذ هذه المخططات يستند الاقتصاد السوفييتي على تقدم تكنولوجي (تقني) متسارع يساعد عليه البحث العلمي ويدعمه فعلاً تركز الأراضي الزراعية والمعامل على شكل وحدات كبرى . وتخصص قروض طويلة الأجل لفعالية مخابر عديدة جداً ومعاهد علمية . وقد أعطى هذا الجهد العلمي ثماره في التنقيب عن ثروة البلاد الطبيعية ، التي لم تكن متقدمة في عام ١٩١٧ . وهكذا أمكن تكوين آلاف الجيولوجيين ، الذين ينقبون عن ثروة الأرض في طول البلاد وعرضها . كما تضاعفت الدراسات المتعلقة باستخدام الطاقة النووية ، كاستخدامها في المراكز الكهربائية ، وفي وسائل النقل . وفي الوقت نفسه يجري تشجيع العاملين في المعامل بحثاً عن كل التحسينات التقنية المفيدة لفعاليتهم . وهدف كل هذه الأعمال وكل مؤتمرات المخترعين والعقلانيين والمجددين ، هو التوصل إلى المكننة Mécanisation المتزايدة في كل المجالات وحتى إلى الأتمتة العامة Automatisation في الإنتاج . كما لم تحرم الزراعة ذاتها من هذا الجهد . ففي عام ١٩٥٥ كان في الاتحاد السوفييتي ١٤٣٩٠٠٠ جرار بقوة ١٥ حصان وصعد عددها في ١٩٨٠ إلى أكثر من ٢٥٠٠٠٠٠ جرار (تراكتور) ، كما كانت المحركات الميكانيكية تؤلف ٩٤٪ من القوة المحركة المستعملة ، وكان القطاع الزراعي يستخدم ٤١٣٠٠٠ اختصاصي متخرجين غالباً من معاهد التعليم العالي ، التي خُرجت عام ١٩٥٦ (٨٥٠٠٠) مهندس مقابل (٣٥٠٠٠) في الولايات المتحدة في العام نفسه و (٥٠٠٠) في فرنسا .

« إن الغالبية العظمى من الأطباء هم من النساء . ففي مصنع ليكاتشوف للسيارات في موسكو تؤلف النساء ٤٢٪ من المهندسات . أما في معهد بوليتكنيك لينينغراد فإن ٣٠٪ من الطلاب هم من الإناث » .

مجلة بوبولاسيون .. رولان بريسا . عدد نيسان حزيران ١٩٦١ .

لقد وزعت ثالنتينا على كل الكوئوزات خارطة الترب التي أنجزتها ، وسجلت فوقها نتائج كل التحاليل ونوعية الأسمدة الموائمة . وقد استقبلت هذه الوثيقة في البداية بالريب ثم أخذ هؤلاء الفلاحون بالاعتياء عليها ، وتذوقوا فوائدها . وراح رؤساء الفرق الزراعية ينقلون عنها ما يتعلق بالأراضي التي يشرفون عليها ، وبمعدئذ ظهرت مقولة ، غير مفهومة في الأمكنة الأخرى . ولكنها سحرت قلب ثالنتينا ، عبارة ظهرت في معظم الكوئوزات تقول : « نحن نقوم بتنفيذ الخارطة » .

وأخيراً نلاحظ أن هذه الطرائق تطبق ضمن مناخ إنساني ذي أصالة . لأن تحقيق المخطط أو البرنامج يستدعي من قبل العمال الكوئوزيين والمهندسين تعهدات علنية بانجازها قبل الموعد ، كما يخلق التسابق بين المعامل والمؤسسات مما يولد ما يسمى بالتنافس الاشتراكي . ومن جهة أخرى فإن الستاخانوفيين يقتبسون من ستاخانوف ، وهو عامل منجم في الدونتر ، أسلوب زيادة الإنتاجية أو إنتاجية فرقهم دون زيادة الجهد الطبيعي ، وذلك بأن يستخدموا أدواتهم بشكل أفضل وأنجح ، وبتنظيم عملهم عقلاً . وتهدف أشكال التشجيع الرسمية إلى خلق (العامل الطلائعي) . وتجد هذه الصوفية في العمل الجماعي أجلاً أشكالها في المشاريع الكبرى ، التي ترمي لتحويل الطبيعة كتحويل الأنهار وري الصحارى الخ . .

تنظيم القطاعات الاقتصادية الكبرى :

تنظيم الزراعة : بعد أن جرى تقسيم الأراضي في عام ١٩١٧ ، تراءى بسرعة للعيان أن الفلاحين الفقراء الذين لا يملكون أدوات زراعية ، كانوا يستغلون أرضهم بشكل بدائي جداً ، في حين أن فئة الفلاحين الميسورين (كولاك) ، كانوا يستحوذون على أراضي الفلاحين المديونين . ولحل هذه المعضلة الاجتماعية الجديدة ، عمدت الحكومة السوفياتية إلى إصدار زمرة من القوانين الزراعية ، ودعت فلاحى كل قرية لاستغلال أرض قريتهم جمعياً ، ومنحت ميزات كبرى لهذه التعاونيات .

والكولخوز : هو عبارة عن اتحاد بين الفلاحين ، تكون فيه كل وسائل الإنتاج مشتركة . كما أن أرض الكولخوز ملك للدولة التي تمنحهم حق استغلالها مجاناً ، ولأجل غير محدود . وينتخب مجلس الكولخوزيين العام الذي يجتمع بصورة دورية ، مجلس إدارة ورئيساً . وتنظم هذه المجالس العمل ، وتقوم بعمليات مالية جماعية : كدفع الضرائب ، وإنفاق ما يلزم على الإدارة والمشتريات المختلفة ، وتوزيع الأرباح بين الكولخوزيين حسب مقادير الإنتاج ، ونوعية العمل . وفضلاً عن هذه المداخل ، يملك كل كولخوزي بيتاً مع أرض شخصية ، وقطيعاً صغيراً (بقرة ، خنزير ، أغنام ، طيور داجنة) . ومنذ ١٩٥٦ قررت الكولخوزات جميعاً بكل حرية ، توسيع هذه الملكيات الشخصية .

وفي الوقت الحاضر لا يحوي الاتحاد السوفييتي سوى ١٠٠٠٠٠ مزرعة فردية ، مقابل ١٩,٧ مليون عائلة ريفية منضمة إلى ٧٨٠٠٠ كولخوز ، وتستغل مساحة ٤٦٣ مليون هكتار ٦٥٪ منها تستخدم الطاقة الكهربائية ، ولا يتوقف عدد الكولخوزات هذا عن التناقص منذ بضعة أعوام ، لأنه يجري تجميع الكولخوزات الصغيرة بفضل تزايد القوى المحركة والمكننة . ويستخدم الكولخوزيون أدوات زراعية متزايدة دوماً ، ففي عام ١٩٥٨ استفاد هذا التجهيز الميكانيكي من إلغاء ٨٠٠٠ محطة للمكائن والجرارات ، وهي مؤسسات حكومية كانت تؤجر خدماتها للكولخوزات ، إذ جرى في ذلك العام توزيع أدواتها (وكان فيها أكثر من مليون جرار مثلاً) وأخصائيتها على الكولخوزات . وقد بلغ عدد الجرارات العاملة في الزراعة ١٩٦٥ مقدار ١٦٥٠٠٠٠ جرار ، أي بزيادة ٢١١٠٠٠ جرار عن عام ١٩٥٥ وبلغ ٢,٥ مليون حالياً .

والواقع ورغم الجهود الجبارة الحالية ، لا تزال هناك مظاهر عوز تقنية هامة : « فجني البطاطا مثلاً لم يصبه التحديث إلا بنسبة ٦٠٪ والحلب الآلي ٣٠٪ وهناك ٧,٢ جرارات لكل ١٠٠٠ هكتار محروث مقابل ٤٠ في الولايات المتحدة و٥٠ في فرنسا وإنكلترا ٧٠ وأكثر من ١٢٠ في ألمانيا الغربية . وهناك أيضاً نقص في الأسمدة ففي ١٩٦٥ كان الهكتار ينال ١٢٢,٧ كغم من السماد مقابل ٢٢٩ في

الولايات المتحدة و٧١٩ في فرنسا و٨٦٢ في بريطانيا و١١٣٩ في ألمانيا الغربية . وهناك أيضاً نقص في المستودعات ، وغرف التبريد والصوامع (عن بوجوغارنييه . صور اقتصادية عن العالم نشر (S.E.D.E.S) .

أما السوفخوزات فهي مزارع حكومية يعتبر المشتغلون فيها كعمال .

وقد تكونت السوفخوزات في أوائل أعوام الثورة من أملاك النبلاء والكنيسة المصادرة لتأمين تموين المدن والجيش الأحمر . وتقدم حالياً مقادير كبيرة من السلع الغذائية للسوق الحكومي ، ولكنها تلعب دور « مزارع نموذجية » تدخل الآلات فيها لأقصى حد ، وتطبق طرائق علمية متقدمة جداً . ويوجد حالياً ٥٨٠٠ سوفخوز ، تملك مساحات واسعة من الأراضي ، فتتراوح كل منها بين ٢٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ هكتار ، أي ما يعادل مساحة سهل الغاب كله ، وغالباً ما تكون مختصة بفرع معين لإنتاج الحبوب أو تربية الماشية أو زراعة الخضار أو التبغ أو الشاي . ولكن هذا التخصص لا يكون مطلقاً أبداً فنجد مثلاً أن السوفخوز المختص بالحبوب المسمى (الجبار) في منطقة روستوف ، والذي تبلغ مساحته ٤٠٠٠ هكتار ، يملك أيضاً ٢٠٠٠ رأس بقر و٢٠٠٠ خنزير و١٠٠٠٠ رأس غنم . وتستغل السوفخوزات ربع المساحة المزروعة بالاتحاد .

بنية الصناعات : - يقع كل مصنع تحت سلطة مدير ، تعينه مديرية الاقتصاد التي يرتبط بها العمل . فهو مسؤول أمام الدولة ، كما يكون مسؤولاً أمام « مؤتمر الإنتاج » ، الذي تدعو إليه نقابة المؤسسة ، والذي يدرس توجيهات المخطط ، وسير العمل ، وتوزيع أرباح العمل . ويبلغ عدد مؤسسات الصناعة الحكومية ٢١٢٠٠٠ ، تقدم ٩١,٨٪ من الإنتاج الصناعي ، ويوجد فضلاً عن ذلك أكثر من نصف مليون مؤسسة تقدم ٨,٢٪ من الإنتاج السوفييتي ، تدعى « مصانع تعاونيات الحرفيين » ، تعمل في صناعات الألبسة وصناعة الموبيليا والأحذية .

وتكون هذه ، من ناحية ، متجمعة في كوبيينات ، تضم ضمن منطقة واحدة الصناعات المتكاملة كنتاج الفحم ومناجم الحامات المعدنية . قره غنده - بلخاش : وهو شكل من تمركز شاقولي ، وتضم من ناحية أخرى في التروستات ، مؤسسات التبركز الأفقي ، التي تتجمع في منطقة معينة ، المؤسسات التي تمارس الفعالية ذاتها مثل مناجم الفحم .

وفيما عدا مؤسسات الدولة هذه ، هناك مؤسسات أخرى يفوق عددها ٦٠٠٠٠٠ تقدم ٨,٢% من الإنتاج السوفييتي . وتتألف هذه على الخصوص من ورشات تعاونيات الحرفيين ، التي تقدم تكلفة هامة للصناعة الخفيفة الحكومية ، ولا سيما في صناعة الملابس والخياطة وصناعة الأثاث ، وصنع المعادن ، والمهن الجلدية كالأحذية .

وتتميز الصناعة السوفييتية بتمركزها . ففي عام ١٩٥٤ كان الملاحظ في الصناعات التحويلية السوفييتية أن العامل الذي يزيد عدد عمال كل منها عن ١٠٠٠ بين عامل ومستخدم ، كانت تستقطب ٦٤% من الأيدي العاملة ، وتقدم ٧٢% من الإنتاج الكلي ، في حين نجد بالولايات المتحدة أنه في عام ١٩٥٢ ، كانت الأرقام المقابلة هي ٣٣% و ٣٦% .

تنظيم المبادلات التجارية : - تتخذ التجارة الداخلية ثلاثة أشكال أساسية في الاتحاد السوفييتي ، وهي : تجارة الدولة التي تلعب دوراً حاسماً وخاصة في المدن ، وفي المناطق الصناعية (٦٣% من تجارة المرفق) وثانياً : التجارة التعاونية (تعاونيات الاستهلاك) ، نجدها خاصة في الريف ٢٧% من تجارة المرفق . وإلى جانب هذين القطاعين الداخليين في إطار التخطيط ، نجد التجارة الكولخوزية (منتجات الاقتصاد الفردي الكولخوزي) ، التي لا تخضع لأي تخطيط والأسعار حرة ، وتؤمن ١٠% من تجارة المرفق . أما التجارة الخارجية فتخضع كلياً لهيمنة الدولة ، إذ عليها أن تقدم للاقتصاد السوفييتي كل ما تفتقر إليه لتحقيق أهدافه ، كما أن الصادرات ترمي قبل كل شيء لتأمين تمويل المشتريات الأجنبية .

هذا وتكون الأهداف التي ترمي شعوب الاتحاد السوفييتي التوصل إليها ، والوسائل المحددة لبلوغ ذلك كما يلي : « تأمين الحد الأقصى من تحقيق الحاجات المادية والثقافية المتزايدة باستمرار لدى كل المجتمع ، وذلك بتطوير وتحسين الإنتاج الاشتراكي فوق قاعدة التقنية العليا » . ويكون أحد عوائق تحقيق هذا الشرط كامناً في تجزئة وتفاوت استغلال مناطق الاتحاد السوفييتي ، إذن هناك سعي حثيث للقضاء على هذا التفاوت لتحقيق نهضة منسجمة وقيدية في الاقتصاد .

المناطق الإنتاجية الكبرى في الاتحاد السوفييتي

لا تقوم الدراسة الإقليمية للاتحاد السوفييتي على التقسيم إلى مناطق طبيعية بقدر ما تقوم على توزيع المناطق الإنتاجية التقليدية ، أو الجديدة التي تتعدل دائماً بفضل التطور الاقتصادي السريع .

لقد كانت روسيا القديمة تشتمل على قطاعات نشيطة من عهد يعود لما قبل الثورة ، ولكنها تحولت بعد غموها الصناعي الحديث مثل منطقة الغرب ، ومنطقة موسكو وأوكرانيا ، أما في اتجاه الجنوب الشرقي والشرق من هذه المنطقة ، كبلاد الفولغا - الأورال وسيبيريا الغربية ، فقد تعرفت على الحياة الصناعية العصرية بحيث أصبحت الآن مراكزها الأساسية . وأخيراً وعند تخوم هذه المناطق ظهرت البلاد الهامشية فالشمال الأقصى السوفييتي ، وبلاد بايكال والشرق الأقصى وبلدان آسيا الوسطى وكازاخستان ، وبلاد القوقاز ، وهي بلاد راحت تستثمر ثرواتها بصورة منهجية حتى أن بعضها لم يكتشف إلا منذ وقت لا يتجاوز الربع قرن من الزمن .

أولاً - تطورات روسيا القديمة

الغرب : - لاتزال مشاهد الغرب (روسيا البيضاء ، الجمهوريات البلطية ، منطقة لينينغراد ، كاريليا) تحمل الطابع الجمودي ، حيث تتبعثر فيها البحيرات والمستنقعات التي تصلها أنهار تكثُر فيها الشلالات ، وأماكن الجنادل . فالغابة تغطي في هذه المنطقة مساحات شاسعة وتغذي صناعات عديدة في كل المدن القائمة فيها (مناشر ، صناعة عيدان الثقاب ، السيللوز) . وتعتبر هذه المنطقة ريفية بالأساس ، فالمناخ هنا أقل حرارة بالصيف وأكثر رطوبة من مناخ المناطق الوسطى ، حيث يناسب النباتات العلفية أكثر من زراعة الحبوب . وأهم الزراعات هنا تقوم على زراعة الجاودار والبطاطا وخاصة الكتان . كما تزدهر

تربية الأبقار بشكل خاص في الجمهوريات البلطية وحول لينينغراد التي تطيف بها هالة من بساتين تنتج الخضار .

وتعتبر ثروات الأرض الباطنية هنا ضئيلة ، إذ لا تحوي سوى مكن بسيط للغاز الطبيعي في أستونيا ، تستمد منه مدينة لينينغراد حاجتها بواسطة أنبوب . ولكن وفرة المياه الجارية ساعدت على استغلال الطاقة الكهربائية كمراكز نهر النيفا وسفير وفولخوف إلى حد كبير ، مما يوفر لمنطقة لينينغراد الطاقة الوفيرة التي تسمح بمعالجة فلزات معدنية محلياً مثل الحديد والنيكل ولا سيما البوكسيت الذي يعطي الألمنيوم ، كما في مركز تيخفين في جنوب بحيرة لادوغا .

ولكن المدن تتطور هنا بشكل متفاوت . فلا زالت مدينة لينينغراد الميناء الكبير المطل على البحر البلطي ، وتضم مع ضواحيها أكثر من ٤ ملايين نسمة . وبعد أن أنشأها بطرس الأكبر في عام ١٧٠٣ كي تكون عاصمة روسيا ونافذتها على الغرب ، أخذت في النمو السريع ، وهكذا أصبحت في عهد القيصرية أكبر مركز صناعي في البلاد ، بفضل الصناعات المعدنية والنسيجية التي قامت فيها . ورغم أنها فقدت بعد الثورة وظيفتها كعاصمة ، فقد ظلت أكبر ميناء سوفيتي فضلاً عن علاقاتها مع المحيط المتجمد الشمالي بفضل قناة البلطيك - البحر الأبيض - كما لا زالت مركزاً ثقافياً كبيراً . ونظراً لتوفر الأيدي العاملة الخبيرة فيها ، نجد أن الصناعات المختصة تنمو فيها بسرعة ، كبناء السفن ، والصناعات الميكانيكية والكهربائية ، وصناعة أدوات القياس ، والصناعات الكيماوية ، وصناعة الألمنيوم .

ولا تزال لينينغراد اليوم ، وهي سان بطرسبورغ الأمس ، لا تزال تلك المدينة الفخمة ذات المشاهد الماثلة لقصور فرساي ، وذات السماء الصدفية حيث تطير فيها مواكب طيور النورس ، وذات القنوات الخضرة بسبب إهمالها نوعاً ما ، والحفوفة بفنادق قديمة تذكرنا تارة بأمستردام وتارة بلوحات الرسام كوررو الفرنسي ، ونهرها الذي تصطف فوقه السيارات ، وتحت جسوره ، وبين جلاميد الجليد ، وتمتد لينينغراد الجديدة خارج المدينة القديمة الفخمة على شكل زمرة من المدن التابعة ، حول المصانع الفخمة ، التي تخربت في معظمها خلال الحصار الألماني لها في الحرب العالمية الثانية وفقدت

مليوناً من سكانها . وبعد أن أعيد بناء لينينغراد من جديد استردت ازدهارها الذي كانت عليه قبل الحرب وراح أول خط قطار أرضي « مترو » يعمل بها منذ ١٩٥٥ ، بطول مقداره ١١ كم .

منطقة موسكو : - تمتد منطقة يتراوح نصف قطرها بين ٢٥٠ و ٣٠٠ كم حول موسكو ، وغير واضحة الحدود ، يطلق عليها الجغرافيون السوفيات اسم المركز الصناعي ، ويخترقها نهر الفولغا وأوكا . تلك هي منطقة انتقالية تدريجية بين مشهد جمودي إلى مشهد سهلي إذ تتناقص كمية التهطال باتجاه الجنوب ، كما تكثر الفسحات في الغابات تدريجياً في نفس الاتجاه .

وتعكس الحياة الزراعية هذه الصفات ، فرغم وجود زراعة الجاودار والبطاطا والكتان تأخذ زراعة القنب والقمح بالتزايد ولا سيما في القسم الجنوبي كمنطقة تولا . ويساعد تزايد سكان المدن بسرعة على تطور ونمو قطاعين اقتصاديين هما : زراعة الأشجار المثمرة والخضار وثانياً تربية الأبقار لإنتاج الحليب ومشتقاته واللحوم .

وعلى كل نجد أن الفعاليات الصناعية والعمرانية ، هي التي تؤمن العمل لأغلبية سكان المنطقة ، ولكن لا نجد هنا سوى القليل من الموارد المعدنية . فعلى مسافة ١٠٠ كم من موسكو إلى الجنوب ، بين مدينتي تولا وريازان يقع حوض موسكو الفحمي ، الذي يحتوي على احتياطات هامة من الفحم الرديء ، وخاصة الليغنيت ، ولكن يتميز بسهولة استخراج بصوره ميكانيكية . ويبلغ الإنتاج السنوي ٢٥ مليون طن من الفحم الذي يستخدم بكثرة خام في الصناعة الكيماوية ، وفي المراكز الكهربائية المحلية . ولكن الدور التجاري والسياسي السابق لهذه المنطقة ، بالإضافة إلى كثرة الناس المتكدسين هنا نتيجة ذلك ، ساعد على نشوء وتطور الصناعات منذ عهد القيصرية .

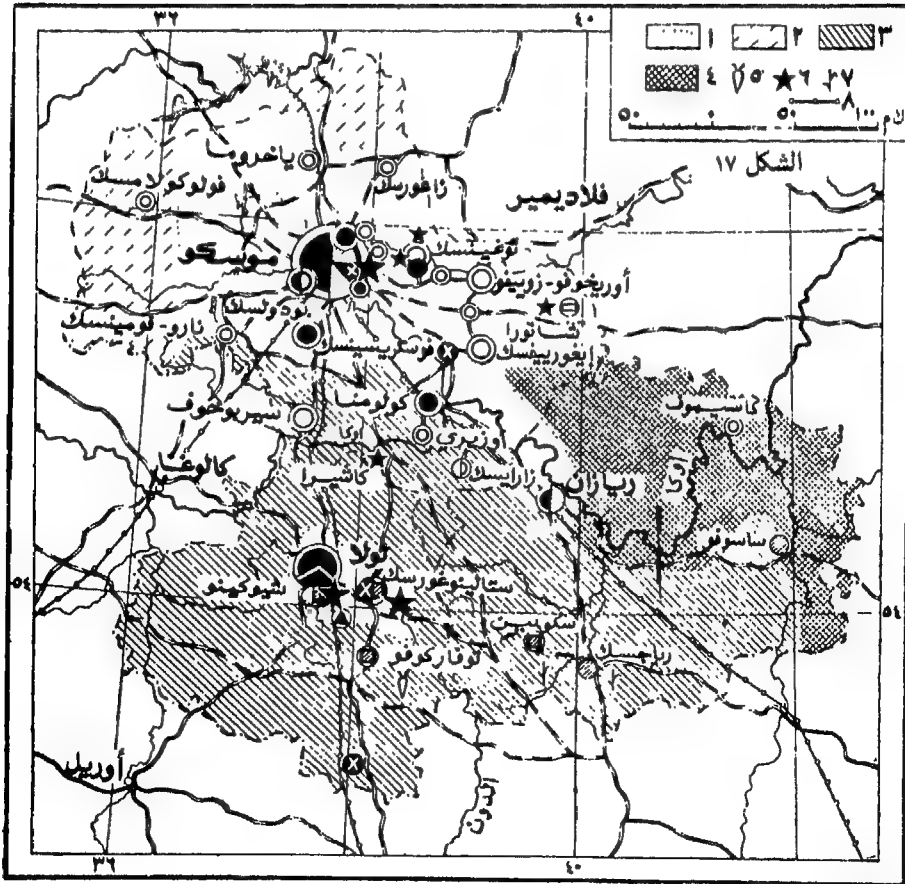
وقد تسارع تطور المنطقة منذ ١٩١٧ ، فشبكة الطرق الحديدية والمعبدة كثيفة جداً وحديثة . فبذ افتتاح قناة موسكو - الفولغا أصبحت بواخر نهر الفولغا تتردد على موانئ موسكو النهرية الثلاثة ، التي أصبحت اليوم تتصل بالبحار الخمسة ، وهي البحر الأبيض والبلطي والخنزر وأزوف

والأسود . كما أن أعمال تنظيم نهر الفولغا تؤدي إلى تحسين مواصلات المنطقة ، مثلما تقدم مقادير متزايدة من الطاقة الكهربائية .

وتحتل الصناعة النسيجية التقليدية مكانة هامة ، فتشتهر مدينة رجييف وكوستروما وستشرباكوف بصناعة الكتان والقنب ، بينما تنصرف مدينة سبيربوخوف نحو صناعة الصوف ، في حين تهتم مدينتا ايفانوفو وياروسلاف بصناعة النسيج القطني ، وكأنها تحتكرانها . كما قامت في معظم هذه المدن مجدداً الصناعة المعدنية : كصناعة الجرارات في كولومنا وبرادات الشاي النحاسية (ساموفار) في تولا ، وعربات القطارات الحديدية في كالينين والسفن البحرية في ستشرباكوف . ومع أن الصناعة الكيماوية تكون نشيطة في ياروسلاف (مصافي بترول ، مطاط تركيبي) نجدها أيضاً هامة في سنتالينوغورسك بفضل فحم الليغنيت المحلي (شكل ١٧) .

وتستقطب مدينة موسكو التي تضم قرابة ٨ ملايين نسمة مع المدن الملحقة بها ، كل هذه الفعاليات . ففيها الصناعات المعدنية (سيارات من ماركة موسكوبا ، والجرارات ، والروملانات ، وبناء الطائرات) والصناعات الكيماوية (سوبر فوسفات والمطاط والحريير الصناعي) ونسيج وغزل القطن والألبسة والصناعات الغذائية ، بحيث أن عدد العاملين والعاملات في الصناعة يتجاوز المليون ونصف . وقد أدت النهضة الصناعية في المنطقة الوسطى ، إلى غو عمراي عظيم ويسترغو « المركز الصناعي » دوماً ، ولكن بصورة أقل وضوحاً من المناطق الأخرى .

أوكرانيا : - وهي منطقة تاريخية خضع وجودها القومي للتهديد زمناً طويلاً . وتحتوي أوكرانيا على مشاهد متنوعة ، ففيها الفسحات أو السهب الغابي في الشمال والشمال الغربي ، والأراضي السوداء ، والسهب القاحلة بالجنوب والجنوب الشرقي ، حيث يصبح الصيف تدريجياً أكثر تشمساً وجفافاً وحرارة .



توزع الصناعة والمناطق الزراعية في المنطقة الوسطى حول موسكو :

أ - المناطق الزراعية : ١ - نطاق ضواحي المدن . ٢ - زراعة الكتان والأبقار الحلوبة . ٣ - زراعة الحبوب والبطاطا وتربية المواشي الحلوبة ومن أجل اللحم . ٤ - استغلال الخشب وزراعة البطاطا وتربية الأبقار الحلوبة والخضار على ضفاف الأنهار أو « الرقات » . ٥ - أهم مناطق زراعة الشوندر السكري . ٦ - المحطات الكهربائية الرئيسية . ٧ - مناطق زراعة التبغ . ٨ - أنابيب نقل الغاز .

وتلعب أوكرانيا في الاقتصاد السوفييتي أولاً دور عنصر غذائي ، إذ تقدم ٤٠٪ من القمح الشتوي و ٧٠٪ من الشوندر السكري . وفي الشمال الغربي تنتج أوكرانيا الجاودار والقمح ، كما تسمح الرطوبة بوجود المراعي الطبيعية والزراعات العلفية ، مما يسمح بقيام تربية ماشية بصورة حيثة . ولكن القسم الأعظم من القمح الأوكراني (١٠ ملايين طن) تنتجه الأراضي السوداء .

حتى عام ١٩١٧ كانت تقوم هناك زراعة واسعة تحقق فوق مساحات شاسعة محاصيل غزيرة . وقد اتجهت جهود التحسين نحو مكثنة الزراعة التي زادت المردود بنسبة كبيرة بالنسبة للفرد العامل وكذلك بالنسبة لوقت العمل ، دون تطور محسوس من حيث إنتاجية وحدة المساحة ، وحل تدريجياً مكان الزراعة الواسعة زراعة حثيثة ذات دورة زراعية ، وزاد المردود بفضل الاعتماد على الأسمدة ، وعلى اصطفاء البذور ، ودخلت في الدورة الزراعية زراعة الذرة الصفراء ، والمزروعات العلفية ، والمعزوقة كالبطاطا ، والصناعية كالشوندر السكري والتبغ ، . غير أن مشكلة الحفاظ على التربة طرحت نفسها فوق الأراضي السوداء « تشرنوزيوم » التي تتطاير بفعل الجفاف والحراثة المتكررة ، والتي أصبحت فريسة للرياح ومياه ذوب الجليد وزخات المطر الربيعية . وهكذا ظهر خطط تنظيمي دخل مرحلة التنفيذ منذ ١٩٤٨ ، يشتمل على زراعة أحزمة من الغابات ضد الرياح الجففة القادمة من الجنوب الشرقي ، مثلما قامت خطوط من الأشجار الداخلية حول المزارع من نوع « الحواكير » المتراخية .

وفي أقصى الجنوب من المنطقة ، تظهر المزروعات المدارية التي تزداد مساحتها بسرعة كالرز (في حوض الدينير الأدنى) والقطن ، كما تتوسع زراعة الخضار في منطقة أوديسا .

ولكن تعتبر أوكرانيا ، فضلاً عن ذلك نظراً لتجهيزها الصناعي ، الذي بدأت طلائعه في أواخر القرن الماضي ، كأم منطقة صناعية سوفيتية قوية ، تماثل أهميتها وتنوع إنتاجها دولة عظمى في أوروبا الغربية . وتقوم هذه القوة على الموارد الوفيرة في الطاقة والفلزات ، ففيها أحواض فحم الدونباس التي تشتمل على فحم الأنتراسيت ، وفحم الكوك ، مع احتياطات كبيرة ، وبعد أن تخربت هذه الأحواض كلياً خلال الحرب ، أعيد تجهيزها بشكل حديث جداً ، وتنتج حالياً ما يزيد عن ١٦٠ مليون طن . كما يعتبر الاستغلال الكهربائي للأنهار متقدماً مثل سد دينيروغيز الشهير ، الذي تم بناؤه عام ١٩٣٢ ، والذي غمر أماكن جنادل نهر الدينير . كما تقدم مناجم كويثوئيروغ حوالي ٤٠ مليون طن من فلزات الحديد سنوياً ، والذي ستعقبه بعد نضوبه مناجم كورسك بلغورود الواقعة في الشمال الشرقي فوق أرض الجمهورية الروسية . كما تحتوي المنطقة على

المنغنيز في جوار نيكوبول بالإضافة إلى احتياطات البوكسيت التي تكمل الموارد الطبيعية ، والتي تفسر تفوق الصناعة المعدنية هنا .

هذا وتكثر هنا المدن الصناعية . ففي منطقة الدونباس حيث تبدو شبكة الخطوط الحديدية كثيفة جداً ، نجد فعاليات متنوعة مثل استخراج الفحم ، والصناعة المعدنية في فوروشيلوفسك وماكييفكا وستالينو ٧٥٠.٠٠٠ نسمة ، والصناعات الميكانيكية الثقيلة (قاطرات فوروشيلوفغراد) ، والصناعات الكيماوية الملحقة . ففي عقفة الدينير قرب مناجم الحديد نجد أن توفر الطاقة الكهربائية يساعد على نشوء الصناعة المعدنية الكهربائية (أنواع الفولاذ الخاصة ، الخلائط alliages والألمنيوم) وأهم مراكز الصناعة هي دينيبوروتروفسك (أكثر من مليون) نسمة وزوبروجيه وكريفوثيروغ ودينيبروجيرزينسك .

وتعتبر مدينة خاركوف الواقعة في الشمال ، ثالث مدينة صناعية في الاتحاد ويعود غوها السريع ، إذ تضم ما يربو على المليون نسمة وثالث ، إلى الصناعات الميكانيكية (جرارات ، قاطرات ، تجهيزات منجمية) . وفي الشمال الغربي تقع مدينة كييف وسكانها ٢,٢٥ مليون نسمة ، وهي عاصمة الجمهورية ومدينة تاريخية وعقدة أساسية لشبكة الخطوط الحديدية الأوكرانية . ويأتيها غاز داشافا الطبيعي بواسطة الأنابيب كما تعتبر الصناعات التحويلية ناشطة جداً فيها .

وتلك مدينة أوديسا على الساحل فضلاً عن الترسانات البحرية ، صناعات تعليب الأسماك والخضار والمطاحن ، ومصانع المكائن الزراعية ، وتقوم مدينة جدانوف ، على بحر آزوف ، بنقل الفحم وخامات الحديد ، ولكن يظل ميناء الدونباس هو روستوف ، وهو مركز صناعي هام . أما المدن القديمة في الغرب مثل لقوف ، كيشينيف ، وتشرنوفتسي فهي مراكز إقليمية يقوم نشاطها على الصناعات الغذائية .

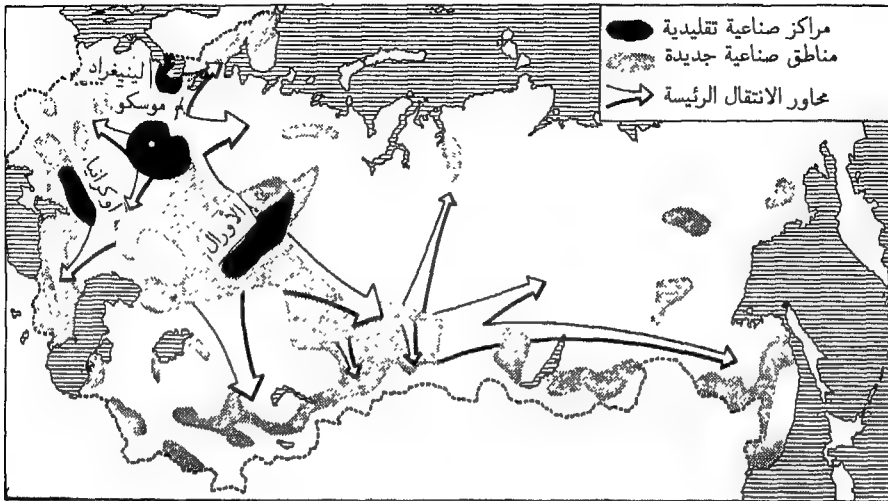
وإجمالاً تعتبر أوكرانيا منطقة عمرانية كثيفة جداً ، إذ تضم ٢٥ مدينة يزيد عدد سكان كل منها عن ١٠٠.٠٠٠ نسمة . ومجموع سكانها يتجاوز سكان فرنسا .

أما شبه جزيرة القرم التي ألحقت بأوكرانيا منذ حوالي ١٥ سنة ، فلها سهوب قاحلة تبذل الجهود لريها بواسطة قناة القرم الكبرى الشمالية ، كما تملك نطاقاً ساحلياً يتكئ على سلسلة جبلية طورية تعتبر الساحل اللازوردي الروسي بزارعته الرومية ، كزراع الأشجار المثمرة والكروم والمحطات السياحية الترويحية مثل يالطا . وفيها مدينة كرتش وهي مركز استخراج خام الحديد ، وقاعدة ستافروبول البحرية ، ومركز سيفريبول الصناعي في الداخل ، وهي أم مدن القرم .

ثانياً - المناطق الصناعية الجديدة

سهوب الجنوب ومنطقة الفولغا : ابتداء من جنوب شرق موسكو تتخلى منطقة الغابات تدريجياً عن مكانها إلى سهول فسيحة ، تمتد حتى أعضاء جبال القفقاس وبحر الخزر . وكان نهر الفولغا يؤلف بالنسبة لهذه المناطق الزراعية التقليدية المحور التجاري ، ولكن بعد الحرب العالمية الثانية تحولت إلى نطاق صناعي أساسي (شكل ١٨) .

امتداد النطاقات الصناعية في الاتحاد السوفيتي



الشكل ١٨

لقد عملت الزراعات كالقمح والجاودار والشوندر السكري والتبغ والكتان والقنب . وكذلك تربية الماشية في المناطق العديدة الأودية ، والتي لا تزال غنية بالغابات في الشمال ، عملت على خلق حياة ريفية متنوعة . واحتفظت المدن ، وهي مراكز تجارية سابقة ، بدورها كأسواق للمحاصيل الغذائية ، ولكنها اتجهت أيضاً نحو التصنيع : كالمنسوجات ، والمطاحن ، وصناعة الجرات والمكائن الزراعية ، مثل ثورونيج وفيها ٦٧٠٠٠٠ نسمة .

أما في منطقة الأراضي السوداء الممتدة من أوكرانيا حتى الأورال حيث يقل عرضها تدريجياً ، ولا سيما بين ثورونيج وساراتوف في الجنوب ، فتظهر الأراضي الرمادية التي تعتبر خصيبة نوعاً ما . وتكون هذه مناطق الزراعة المتصفة بقلة الكثافة السكانية ، حيث تلعب الآلة الزراعية الدور الجوهري ، حيث يمكن للزراعة أن تقوم على عاتق عدد قليل من الناس ، إذ تتم كل العمليات الزراعية خلال فترة إنباتية محدودة بفعل الجفاف والفصل الحار ، ويكون القمح هو الغالب . ولكن تربية الماشية تحتل مكانة هامة ، لا سيما في الجنوب حيث يستفحل الجفاف ، كتربية الأغنام . ويتم مكافحة هذه القحولة الخطيرة على المزروعات وعلى التربة بزراعة أحزمة حراجية وتنفيذ مشاريع الري . وكانت أول شطيرة تم إنجازها هي بناء قناة الدون الفولغا وخزان تسيليانسكايا ، حيث تنطلق منه أفنية الري نحو كل ضفة نهر الدون اليسرى .

وعند الاقتراب من بحر الخزر تختفي تربة التشنوزيريم ، وتتزايد القحولة : لهذا تعتبر سهوب الفولغا الأدنى وسهوب تيريك بوادي رعوية لقطعان الأغنام . ولكن الري وحده يستطيع أن يرد لها الحياة ، وقد أصبحت أودية نهر تيريك وكوما والفولغا الأدنى ، تشهد قيام زراعات كثيفة مروية كالخضار والثار والقطن . أما في سهوب الكوبان ، حيث تكون التربة أكثر خصوبة والمناخ أكثر رطوبة ، فتقوم زراعة قمح من النوع الواسع .

وهكذا تتعرض هذه المناطق لنهضة عمرانية وصناعية ، تظهر في قطاعين أولهما السطح الشمالي للقفقاس الذي تتزايد أهميته بفضل الإنتاج البترولي .

لقد ارتبط حقل غروزيني البترولي بواسطة خط أنابيب ببحر الخزر ، وكذلك بالبحر الأسود حيث يتلقى ميناء توابسه بترول حقل مايكوب ، ويغذي حقل الغاز الطبيعي الهام في مايكوب مدينة موسكو بفضل أنبوب تم إنجازه في كانون الأول ١٩٥٦ . أما بقية المراكز العمرانية فهي ميناء نوغوروسيسك على البحر الأسود ، وكراسنودار ، وهي عقدة مواصلات ومدينة صناعية ، وأورجونيكيده الواقعة عند مدخل مر يقود إلى تبيليسي (تفليس) التي تقع بجوار بعض مناجم الرصاص والزنك .

والقطاع الثاني هو منطقة الفولغا أو البوثلجية وهي المنطقة الممتدة من مدينة غوركي إلى استراخان عند المصب ، وهو أهم أجزاء هذه المنطقة . فالمدن التي ظلت تجارية حتى ١٩١٧ تعرضت لنهضة صناعية ازدادت كثيراً خلال الحرب بفضل تحويل الصناعة الغربية باتجاه الشرق . وتتزايد هذه النهضة حالياً لسببين أولهما : البدء باستغلال مكامن البترول الغنية ، الواقعة على الضفة اليسرى من الفولغا (باكو الثانية) . وثانياً : الاستغلال المائي (للفولغا الكبير) إذ تحول إلى درجات من بحار اصطناعية كبيرة لتنظيم مياه النهر وروافده ، ولتأمين ري مناطق واسعة ، ولتسهيل الملاحة ، ولإنتاج الطاقة الكهربائية بكثرة . وبعد أن تم بناء سد غوركي أشرف اثنان آخران على الانتهاء . ويقدم معمل سد كوبشيف لوحده ما يعادل ثلثي إنتاج بلجيكا من الكهرباء .

على طول هذا الشريان الحيوي تتتابع مدن نشيطة جداً مثل غوركي ١,٢ مليون نسمة ، وكان اسمها نيجني نوفغورود قديماً ، الشهيرة بمعارضها والتي أصبحت عاصمة صناعة السيارات ومركزاً صناعياً متكاملًا تماماً إذ تقوم فيه صناعة تكرير النفط والصناعات الكيماوية ، والصناعة المعدنية وصناعة الورق والجلد ، وقازان التي تقوم فيها صناعة المعادن ، والمنسوجات والجلود ، وكويبيشيف ١,٢٥ مليون نسمة ، وهي مركز مواصلات نهري وحديدية ، إلى جانب صناعة الشاحنات ومصافي النفط والصناعات الكيماوية ، وساراتوف ، وهي رأس خط أنابيب يغذي العاصمة بالغاز الطبيعي ، ومركز تكرير نفط وصناعات متنوعة ، وفغولغوغراد ، وكانت تدعى ايكاتيرينبورغ في العهد القيصري ، وستالينغراد حتى عام ١٩٥٦ ، وقد دمرت كلياً خلال الحرب العالمية الثانية ، فأصبحت رمز المقاومة في وجه الاجتياح النازي ، والتي زادت أهميتها على أثر افتتاح قناة الدون - الفولغا ، والتي أصبحت مجهزة بصانع حديثة للغاية للجرارات والشاحنات ، واستراخان أخيراً التي تؤمن عملية ترانزيت البضائع بين حوض الفولغا وبحر قزوين وتظل مركزاً هاماً لصيد السمك وتعليب الكافيار .

الأورال وسيبيريا الغربية : لقد أصبحت المنطقة الممتدة من نهر كاما إلى جبال الطائي ، بما في ذلك جبال الأورال وسيبيريا الغربية خلال بضعة أعوام ، وذلك بفضل مواردها المعدنية ، من المناطق الصناعية الكبرى في الاتحاد السوفييتي . وتبدو الثروات المعدنية هائلة هنا .

ففي جبال الأورال تستغل مناجم فحمية عديدة منذ القرن الثامن عشر . ورغم قلة أهميتها وشدة تكسر طبقاتها ، فإنها تنتج سنوياً ما يقارب ٤٥ مليون طن ، كما يكثر الحديد في جوار ماغنيتوغورسك خاصة حيث يستغل بصورة مكشوفة . كما تشتمل جبال الأورال على ريع احتياطي الاتحاد من النحاس ، فضلاً عن مكامن البلاتين والكروم والمنغنيز والنيكل . كما يمتد على سفوحه الغربية حوض « باكو الثانية » البتروليب الذي يغطي رقعة مساحتها ٧٥٠٠٠ كم^٢ ، وينتج أكثر من ٥٠ ٪ من البترول السوفييتي ، وأهم بقاع إنتاج النفط تقع في منطقة باشكيريا وبلاد التتر .

هذا ويعتبر حوض كوزباس في سيبيريا الغربية ، من أهم مناطق الفحم بالعالم ، لأن احتياطيه يبلغ ٥٠٠ مليار طن ، فحم سهل الاستغلال جداً ، لأن سمك الطبقات يبلغ أحياناً ١٥ م ، وينتج سنوياً أكثر من ٧٥ مليون طن . وهناك مكامن فحم لم تستغل بعد على نطاق واسع كحوض نهر ينيسيي الأعلى . كما تكثر الفلزات المعدنية في منطقة الكوزباس ولا سيما عند أعضاء جبال ألتائي : كالحديد والزنك والنحاس . كما ارتبط منجم حديد جديد عند نهر ينيسيي الأعلى بمنطقة كوزباس ، بعد إتمام تمديد الخط الحديدي بين ستالينسك وأباكان ٣٦٠ كم ، ويدعى خط يوغ سيب . وهناك خط أنابيب يمتد بين مدينة تومازي وأومسك حتى الكوزباس يقدم البترول لسيبيريا الغربية .

وفي كلتا المنطقتين يجري تجهيز حثيث في القوى الكهربائية ، وخاصة على نهر ايرتيش وكاما ، وأوب ، وينيسيي .

وبعد أن كان تجهيز المنطقة صناعياً بسيطاً جداً قبل ١٩١٧ (في الأورال) ، أخذت بالتطور بقوة منذ البرنامج الخمسي الأول (معامل أورال كوزنتسك) ولا سيما على أثر الحرب العالمية الثانية ، إثر نقل معامل الغرب إلى الشرق .

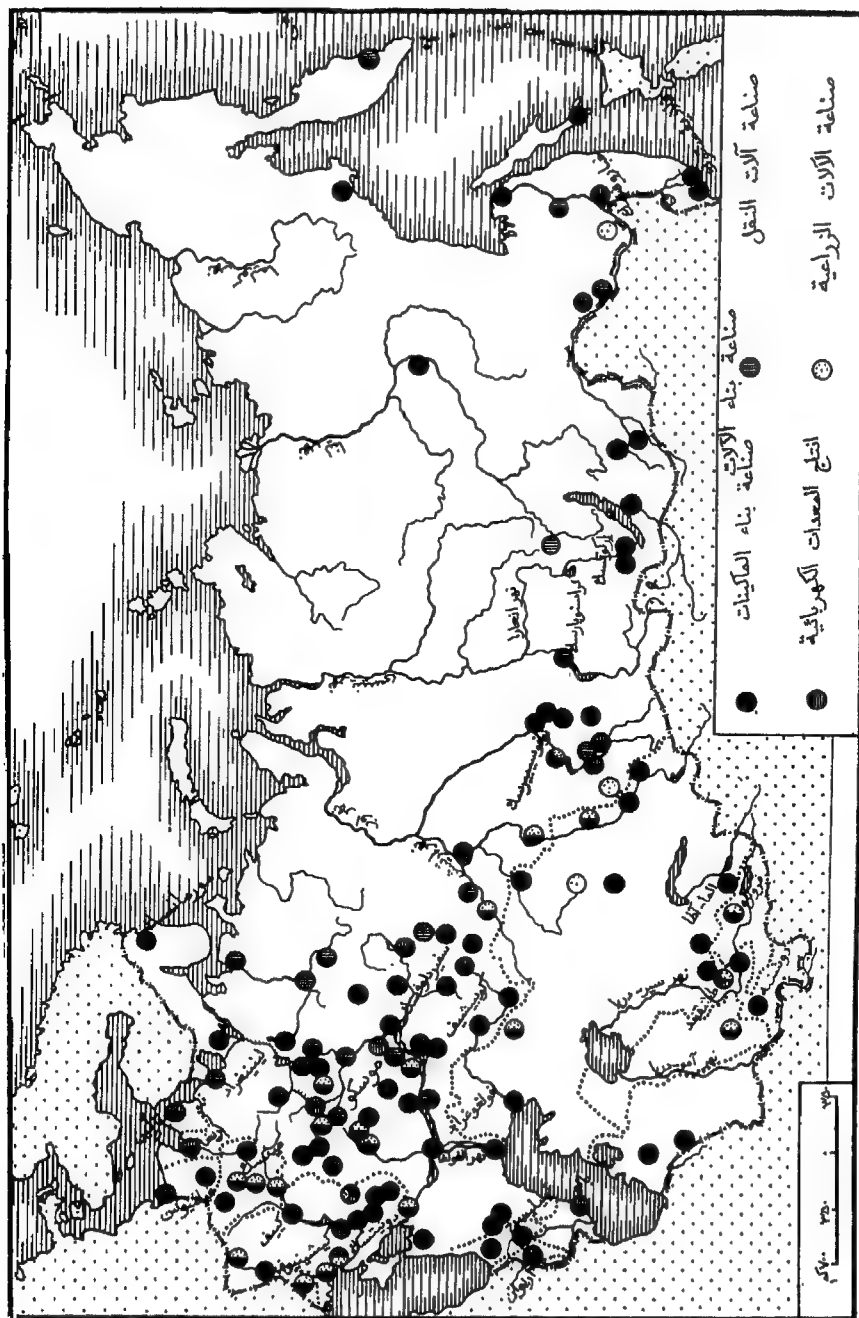
أما في الأورال فتتوزع الصناعات الثقيلة على بضع مجموعات جبارة ، حيث تهيم دوماً الصناعة الحديدية ، والتي تكملها صناعة المعادن الأخرى غير الحديدية ، والصناعات الميكانيكية ، والصناعة الكيماوية ، وأهمها مجموعة تشوسو فوسيروف في مدينتي نيجني تاغيل وسفرد لوفسك (١,١ مليون نسمة)

حيث يتم بناء العنفات والطائرات وتجهيزات السكك الحديدية . كما تشتهر مدينة تشليا بينسك وزلاتوست التي تحوي أكبر معامل فولاذ في أوروبا^(١) .

وتعتبر مدينة ماغنيتوغورسك من أكبر مراكز الصناعة الحديدية بالاتحاد ، التي أنشئت بها لأول مرة عام ١٩٣٢ وأضيف إليها حالياً مصاهر الرصاص والزنك ، ومعامل مطاط تركيبي ، وأضيف إليها في جنوب المنطقة مركز صناعي حديدي وكياوي جديد هو أورسك خيلوفو . ونجد على السفوح الغربية للأورال زمرة من المراكز الصناعية المنعزلة ذات فعاليات أكثر تنوعاً ، مثل مركز بيرم (مولوتوف) الذي يحوي معملًا للألومنيوم ومصفاة للنفط ، ومصنع طائرات . كما يصنع في مدينة أوبا وأورنبورغ (تشكالوف) الجرار والقاطرات والطائرات والمكائن الزراعية (شكل ١٩) .

أما في سيبيريا فنجد مركز كوزباس ، الذي يحوي على أكبر مجموعة صناعية بالمنطقة إذ ينتج أكثر من سبعة ملايين طن من الفولاذ . فضلاً عن صناعة المعادن غير الحديدية . ففي هذه المنطقة التي كانت شبه خالية من السكان قبل ٥٠ عاماً ، أخذ توسع المدن فيها تسارعاً أكبر بكثير مما هو في الأورال . والمدن الرئيسية الأربع هي ستالينسك ولينينسك ولم يكن فيها سوى ٧٠٠٠٠ نسمة عام ١٩٢٦ فارتفع العدد إلى ٤٥٠٠٠٠ عام ١٩٣٩ وإلى المليون ونصف عام ١٩٧٦ . وارتفع عدد سكان مدينة نوفوسيرسك إلى ١,٢٥ مليون نسمة ، وتحوي على معامل سيارات وجرارات ، وتجهيزات منجمية . وكراسنويارسك وفيها صناعة السيللوز والمكائن الزراعية وقد كانتا بالماضي عبارة عن مدن تجارية إقليمية ، تحولتا إلى عقدي مواصلات حديدية ومن ثم إلى مدينتين صناعيتين .

(١) إن بناء مصنع ينتج سنوياً مقدار مليون طن من الفولاذ يكلف ما يزيد عن ٥٢٥ مليون دولار أو ٣٠٠٠ مليون ليرة سورية .



الشكل ١٩

صناعة بناء الآلات في الاتحاد السوفيتي

ونذكر أخيراً مدينة أومسك الحاوية على مصفاة بترول جبارة ، ومدينة تومسك وبارناؤل ، وتحتويان على صناعة كبيرة لغزل القطن ونسجه بفضل أقطان آسيا الوسطى .

لقد تم هذا التطور الحضري والصناعي في مناطق قليلة الزراعة أو غير مزروعة سابقاً ، باستثناء هضبة ما قبل الأورال الغربية وبعض الأراضي السوداء السيبيرية ، حيث كانت أولى عمليات الاستيطان ريفية . وقد أعاقَت الحاجة للأيدي العاملة في الميدان الصناعي ، ولمدة طويلة ، توسع المساحات المزروعة ، ولكن الزراعة أخذت تتوسع بفضل مكثنة الأعمال الحقلية . وقد اتجهت الجهود أخيراً نحو تنمية القطاع الريفي . فظهرت أساليب زراعية كثيفة ومزروعات متنوعة أكثر ، كالقمح والشوندر ودوار الشمس والأعلاف ولا سيما استزراع عدة ملايين الهكتارات من الأراضي العذراء بين جبال الأورال ووادي اليانيسي الأعلى .

ثالثاً - البلاد الهامشية

الشمال الأقصى السوفييتي : - يمتد الشمال الأقصى على حافة المحيط المتجمد الشمالي ، ابتداء من شبه جزيرة كولا إلى بحر بهرنغ . وتهبط حدوده الإدارية في سيبيريا حتى درجة العرض ٦٢ ، فتضم مدينة ياكوتسك وعقفة نهر لينا ، وشبه جزيرة كامتشاتكا ، وضاف بحر اوخوتسك . فهذه المنطقة الفسيحة لا تؤلف بالواقع وحدة جغرافية حقيقية . على أن المشهد الموحش المؤلف من توندرا ومستنقعات تعقبها غابة الطايغا باتجاه الجنوب ، ويخلق المناخ القاسي ، وتبعثر السكان الشديد في هذه المنطقة نفس الشروط الحياتية العسيرة في كل مكان بارد ، كما توجد مشاكل متاثلة أمام استغلال الثروات الطبيعية . وهذه الوحدة ظهرت في عام ١٩٣٣ على شكل منظمة وحيدة ، تدعى المديرية العامة للطريق البحري الشمالي ، التي تمتد سلطتها على جميع المسائل القطبية ، كوسائل النقل والتنقيب عن المعادن والاستغلال . وتحتل قضايا النقل في هذه المناطق الشاسعة أهمية رئيسية .

لقد جعلت الأرض المتجمدة أزلياً والبرد الزمهرير من بناء الطرق والخطوط الحديدية معضلة شائكة . وفي الوقت الحاضر لا يوجد حالياً فيما عدا الدروب سوى بعض الوصلات من الطرق والخطوط الحديدية . فضلاً عن السكك الحديدية الممتدة من مورمانسك إلى اركانجلسك قامت سكك جديدة حتى أوكستا ، والتي وصلت الآن إلى فرخوتا ومصب نهر الأوب . وبعد أن تغلبت الخطوط الجوية على العديد من المشكلات التقنية أصبحت تحمل مكان الموصلات الأرضية فربطت بصورة منتظمة بين الشرق الأقصى وموسكو ونوفوسيبيرسك وإيركوتسك . ولكن أكثر الجهود روعة أنجز من ناحية المواصلات البحرية التي كانت تحول دونها الحواجز الجليدية . وفي سبيل جعل ذلك مستطاعاً تمت تعبئة علماء الخرائط والمكتشفين ورجال علم الأنواء ، وإقامة مراكز للمحروقات على طول السواحل لتوئين السفن بالوقود ، وبناء كاسحات جليد وطائرات مائية تقوم بمهمة الحفر ، وأخيراً كان من اللازم التنسيق بين كل هذه الجهود . وهكذا أمكن تحقيق ارتباط صيفي منتظم بين مورمانسك وفلاديفوستوك على المحيط الهادي ، والذي يخفف العبء عن كاهل الخط الحديدي العابري لسيبريا ، وتؤمن على الخصوص عملية الارتباط بين مصبات الأنهار الكبرى التي تلعب دور مخارج لمنتجات مناطق الظهير الجنوبي .

وهكذا ترتسم بالنسبة لهذه المناطق الغنية جداً بالمعادن ، شروط استغلال منهاجي ، وتعتبر شبه جزيرة كولا أكثر المناطق تصنيعاً ، فهي تنتج النيكل والحديد ولا سيما الفوسفات . كما وصل الخط الحديدي عام ١٩٥٠ إلى منطقة بتشورا الحاوية على حوض فحمي في Vorkouta وحوض أوكتا البترولي . كما دخل التصنيع بسرعة إلى حوض نهر ينيسيئي الأدنى الغني بالفحم (كما في حوض نوريلسك) ، وبالنحاس والنيكل والكوبالت . ويتزايد استغلال مكامن الذهب حول نهر كوليا . كما أن الطريق البحري الشمالي أصبح عامل إقامة مناشر هائلة للخشب في المدن الساحلية ، التي تتون من الأخشاب العائمة فوق مياه هذه الأنهار الكبرى .

هذا كما انفتحت الأنشطة التقليدية بدورها على الحياة المصرية . فقامت كولوجوزات الصيد على بحر بارنتز وعلى بحر أوكوتسك والتي نالت أجهزة متقنة : وغماس مزارع تجريبية التربية الحديثة لحيوان وعل الرينة ، كما قامت محطات قنص بتدريب السكان المحليين على طرائق وتجهيزات حديثة لمعالجة جلود الفراء .

وأدى هذا التطور إلى توسع مدن متفاوتة الأهمية ، فمدينة أرخانجلسك القديمة أصبحت تعيش من صناعة الخشب ، وتحوي على ما يقارب ٣٥٠.٠٠٠ نسمة . كما أن الطريق البحري وصيد الأسماك ، أوجدا مدينة مورمانسك التي تحوي الآن على ما يقارب ٢٥٠.٠٠٠ نسمة . وانبثقت مدن صناعية جديدة مثل كيروفسك ، مدينة الفوسفات . ونوريلسك ، مدينة النيكل قرب مصب نهر ينيسي ، وماغادان على بحر أوخوتسك ، وهي مدينة الذهب . كما قامت موانئ مثل ميناء ديكسون في شمال مصب نهر ينيسي ، ومدن إدارية مثل ياكوتسك على نهر لينا .

وظهرت الحاجة لتوطين سكان المدن . فجرت تجارب الزراعة القطبية وذلك في البداية في شبه جزيرة كولا أو خبيني . فظهرت مزارع الملفوف والبطاطا ، سواء في حقول مكشوفة أو إذا تعذر ذلك في أقفاص تحت الأرض . وتمت تجارب لموامة زراعة القمح مع البرد . وفي الوقت الحاضر تزرع وتثمر في شبه جزيرة كولا وفي ياكوتيا أشجار الكرز والتفاح .

بلاد بايكال والشرق الأقصى : - ابتداء من شرق نهر ينيسي ، يصبح المناخ السيبري شديد القساوة ولكن في الوقت نفسه يصبح غالباً أكثر رطوبة من الغرب ، لذلك تكثر هنا الغابات التي لا تظهر الفسحات فيها إلا في الجنوب ، كما في منطقة ما وراء البيكال ووادي نهر الآمور .

ويتعلق الاستيطان بشكل وثيق بالخطوط الحديدية أي بخط عبر سيبيريا وفروعه الشمالية ونحو بكين ومنشوريا ، أي منطقة هيلونغ يانغ الصينية ، وبخط بايكال آمورسكي ماجسترا ، وهو خط استراتيجي أنشئ خلال الحرب ، وخط تايشت إلى كومسومولسك ، وهكذا أصبحت الفسحات الغابية دوائر زراعية ، تزرع القمح وتمارس تربية الماشية ، كما في حوض إيركوتسك وبلاغوفتشنسك وخابارتسك على نهر الآمور ، وعلى ضفاف رافده نهر الإيسوري . ومن ناحية أخرى فالصيد أصبح نشيطاً جداً وناله التحديث : كالصيد البحري ، ولا سيما في منطقة شبه جزيرة ساخالين ، حيث يصاد السرطان وسمك الرنجة وسمك التن ، وسمك سليمان وسمك الحفش ، الذي يستخرج منه الكافيار .

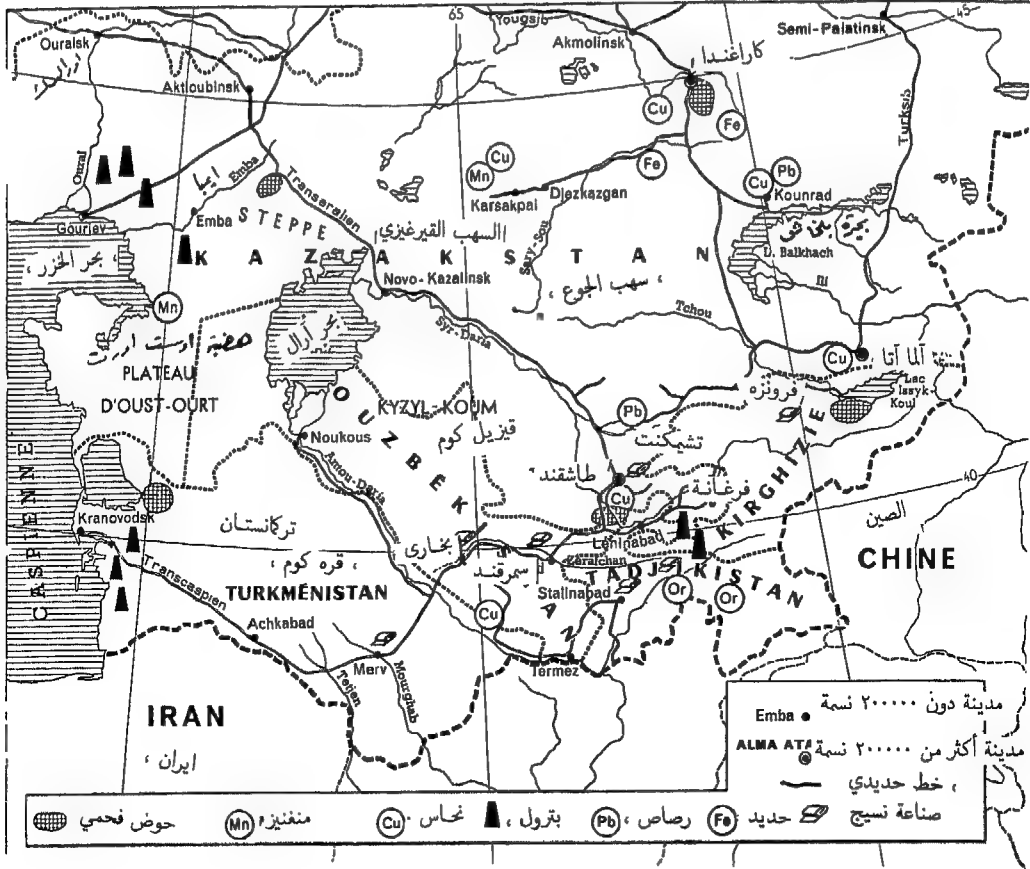
وقد نجم عن استغلال الموارد المعدنية وقيام الصناعات في المنطقة

تسارع في عدد سكانها بسرعة منذ ٥٠ عاماً . وأهم المناجم الفحمية تقع في حوض ايركوتسك تشيريمخوفو (غرب بحيرة بايكال) ، وفي حوض بوريا على طرفي نهر بوريا رافد الأمور ، وفي جزيرة ساخالين الحاوية على آبار بترولية غزيرة أيضاً . كما يستغل الحديد على حوض نهر الأمور الأوسط ، والذهب في كل منطقة ، بالإضافة إلى مكامن معدنية متنوعة كالتصدير والرصاص ، وإلى الشرق من بايكال وفي سلاسل سخوتا ألين الممتدة شمال ميناء فيلاديفوستوك . كما قامت مراكز كهرومائية هامة ولا سيما على نهر أنغارا الذي يخرج من بحيرة بايكال .

وفيا عدا الميناء البحري فيلاديفوستوك ومدينة كومسومولسك ، التي أنشأتها الشيبة الشيوعية ، والتي يبلغ عدد سكانها ٢٥٠.٠٠٠ نسمة ، نجد أن المدن الرئيسية هي عبارة عن عقد مواصلات حديدية آخذة بالتصنيع ، مثل ايركوتسك على ضفة بحيرة بايكال وتشيتا الواقعة إلى الشرق من البحيرة ، وأولان أوديه المرتبطة بالصين بخط حديدي ، ومدينة خاباروفسك التي هي ميناء نهري وسوق كبيرة للفراء .

آسيا الوسطى وكازاخستان (شكل ٢٠) : - تؤلف آسيا الوسطى وجمهورية كازاخستان مجموعة كبيرة تتشكل من سهوب ومن صحارى يتيق بها من الجنوب والشرق جبال شديدة الارتفاع . ففي شمالي كازاخستان يعتبر السهب امتداداً لسهب سيبريا الغربية الذي ينال أمطاراً لا بأس بها . ولكن يتلوه في الجنوب فيافي رملية ، يفيض فيها معظم مياه الأنهار . وهكذا تصبح المياه نادرة جداً فلا ينبت سوى بعض الشيح والنباتات الصحراوية المتباعدة كما يغدو المناخ قاسياً . غير أن الشرائط البشرية عملت في هذا المجموع الجغرافي على إيجاد منطقتين متميزتين عن بعضها . ففي الشمال نجد بلاد كازاخستان ، وهي عبارة عن قطر جديد وصناعي يختلف عن المناطق الجنوبية التي تضم جمهوريات آسيا الوسطى الأربعة ، والتي لا تزال تقليدية ريفية وصناعاتها حرفية إلى حد كبير .

Fig. 7. — L'Asie centrale soviétique et le Kazakhstan.



آسيا الوسطى السوفياتية وكازاخستان

الشكل ٢٠

ويكون التطور المشترك لكلا المنطقتين بالواقع متأثراً بتطور الشبكة الحديدية . فخط ترانساراليان يصل الأورال بطاشقند ، أما خط توركسب فينطلق من طاشقند نحو الكوزباس مروراً بالمناطق التعدينية بجوار بحيرة بلخاش . أما خط عبر الخزر فيحاذي الحدود الجنوبية . وأخيراً فإن خط يوغسبب الذي انتهى عام ١٩٥٨ يخدم كازاخستان الشمالية باتجاه الأورال وكوزباس .

فبعد أن كانت كازاخستان عبارة عن بلاد البداوة والترحال ، أصبحت تعتبر اليوم كمنطقة كبيرة تبشر بمستقبل عظيم . ويعود هذا إلى غناها بالمعادن التي كشفت عنها أعمال التنقيب الحديثة . فأرضها تحتوي على الفحم الحجري والنحاس والرصاص والبتروول والمنغنيز والمعادن النادرة . وقد عرفت بعض مناطقها تطوراً فريداً وهكذا قامت مدينة كازاغندا من العدم في مدة ٢٠ عاماً ، وأصبح فيها أكثر من ٦٠٠٠٠٠ نسمة ، بالإضافة إلى عدة معامل تنتج أصناف الحديد . وقد ابتداء استغلال الفحم هنا منذ عام ١٩٣٠ ، كما تم اكتشاف حوض ثان للفحم يمكن استغلاله بسهولة أكبر خلال الحرب العالمية الثانية ، وهكذا أصبح إنتاج جمهورية كازاخستان من الفحم يتزايد بسرعة كبيرة جداً ، فارتفع بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٥ من ١٧ مليون إلى ٢٨ مليون طن . وأخذت مدينة كونراد تنمو على ضفة بحيرة بالخاش ، حيث تكثر فلزات النحاس بجوارها . كما يتكشف حوض نهر ايمبا Emba ، الذي يصب في شمال بحر الخزر عن مقادير ضخمة من النفط . هذا ويستثمر النحاس والرصاص والحديد بجوار مدينة تشيكنت . كما سمح وجود الحديد والنحاس والمنغنيز بمنطقة مدينة جزخازكان ، الواقعة بين بحر آرال وبحيرة بالخاش بنهضة سريعة . وتعتبر مدينة آلماتا عاصمة جمهورية كازاخستان ، التي ارتفع عدد سكانها إلى أكثر من نصف مليون ، مركز صناعات ميكانيكية بعد أن كانت مدينة قديمة عند أبواب الصين .

وقد أوجد قيام الصناعات وبناء المدن في قلب السهب القاحل مشاكل عديدة :

١ - مشكلة الأيدي العاملة : ولحلها نشرت نداءات في كل الاتحاد ، من أجل الهجرة نحو هذه الجمهورية ، التي تعادل مساحتها مساحة جزيرة العرب والتي لا يسكنها أكثر من ١٥ مليون نسمة .

٢ - مشكلة المواصلات .

٣ - مشكلة الغذاء : ولحلها جرت أبحاث عن إمكانيات كازاخستان الزراعية . فسهوب الشمال الرطبة نسبياً ، أصبحت من أهم عنابر قمح الاتحاد ، وقامت سوفخوزات جديدة فوق أراضيها العذراء . كما استفادت السهوب القاحلة من مشاريع الري حيث يكون الماء متوفراً . وهكذا ظهرت زراعة الحبوب والقطن لتأمين حاجة السكان المتكاثرين .

أما آسيا الوسطى السوفياتية فهي منطقة أكثر تعقيداً ، تشتمل بآن واحد على صحارى مثل قره كوم وقيزيل قوم (الرمال السوداء والرمال الحمراء) ، حيث تكون حياة البداوة ممكنة كما تنتشر الغوطات بمحاذاة الأنهار وعند أقدم الجبال ، حيث قامت حياة ريفية أصيلة .

وقد كانت مشكلة المياه دوماً هي المشكلة العويصة في هذه المناطق كما تذكر ذلك كتب التاريخ . كما زادت المشكلة تعقيداً منذ أن عهدت البرامج الخمسية إلى آسيا الوسطى بالوظيفة الرئيسية ، وهي تأمين القطن اللازم للاتحاد السوفيتي .

والواقع تسام الشروط الطبيعية ونظام المياه على ازدهار هذه الزراعة ، لأن ٢٢ إلى ٤٠٪ من مياه الأنهار ، تجري بين تموز وشهر آب ، وهي فترة الري الحثيث لمزارع القطن . وعلى كل يجب تقوية شبكة الري المتباعدة ، وهكذا تم بناء أقنية عديدة ابتداء من نهر سيرداريا وفي وادي فرغانة الفني ، وكذلك ابتداء من نهر تشو ، الذي يصب في بحيرة بلخاش ومن نهر زارفشان المار من مدينة سمرقند . ومن جهة أخرى يتم حالياً بناء قناة جبارة ابتداء من نهر آموداريا باتجاه الغرب ، لتكوين نهر مورقاب ونهر تيجن ، وهما نهرا ن هزيلان يستنزف الري مياهها بسرعة وتستمر حتى مدينة عشقباد قرب الحدود الإيرانية . وقد أدت هذه المشاريع المختلفة إلى انتزاع مئات الآلاف من المكتسبات على حساب الصحراء ، وأصبحت تزرع قطعاً بالتناوب مع البرسيم لتغذية الماشية . ولا تزال زراعات تقليدية تزدهر إلى جانب القطن وخاصة زراعة الأشجار المثمرة ، مثل الجوز والشمش والتفاح ، والمزروعات الحقلية كالبطيخ والحمص والبراليا والبندورة . وتظل قيرغيزنا منطقة هامة لتربية الماشية ولا سيما الأغنام .

وهكذا أدى التجهيز الحديث وتطبيق الطرائق العلمية الزراعية ولا سيما توسيع شبكات الري إلى تثبيت الطابع الريفي للمنطقة ، التي تعتبر المنطقة الزراعية الوحيدة التي يتزايد سكانها الريفيون بسرعة في الاتحاد .

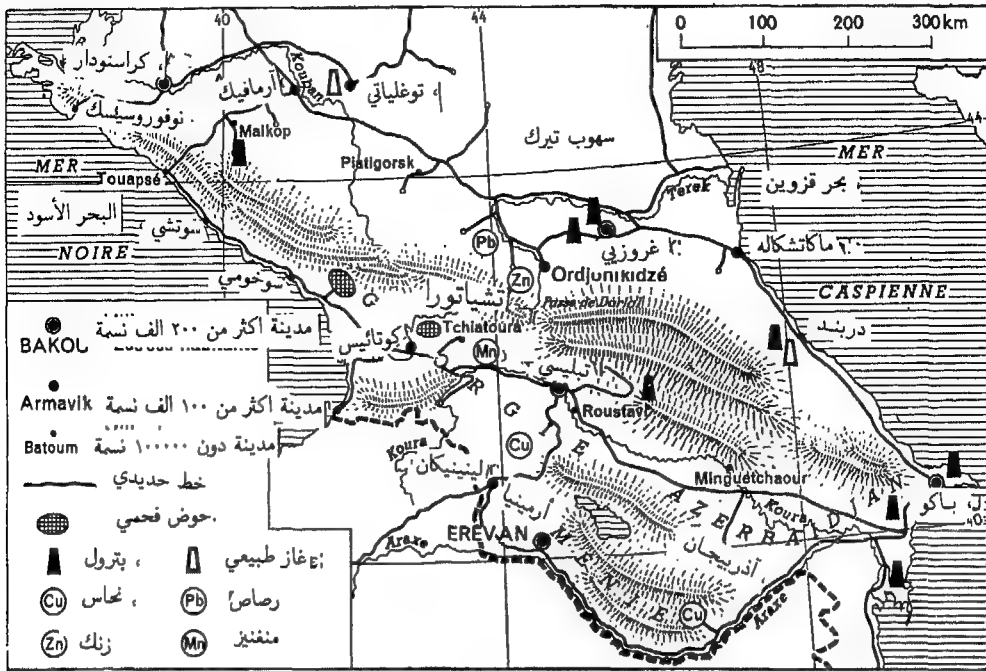
وتكون الموارد الصناعية هنا متنوعة ولكنها مبعثرة وعسيرة الاستغلال أحياناً : فيوجد بالمنطقة مكان من فحم صغيرة ونحاس وزنك . كما يوجد البترول في أوزبكستان ، ولا سيما في تركمانستان إلى الجنوب من كراسنوفودسك الواقعة على الضفة الشرقية لبحر الخزر . ولكن الصناعة الرئيسية هي صناعة النسيج ، التي تؤدي إلى توسع المدن الإسلامية القديمة . فمدينة طاشقند عاصمة أوزبكستان التي يزيد عدد سكانها على المليون ، والتي أصابها الزلزال عام ١٩٦٦ وخرب شطراً كبيراً منها ، تعتبر عقدة مواصلات هامة وعاصمة ثقافية ، تصنع قطن منطقتها محلياً ، وعلى كل تحتل جمهورية أوزبكستان المكانة الخامسة بالاتحاد من حيث أهمية إنتاجها الصناعي . كما تنسج مدينة فرونزة عاصمة جمهورية قيرغيزيا الجوت . كما يجري غزل الحرير الطبيعي في دوشنبه ولينيناباد في جمهورية تاجيكستان . كما قامت مجدداً صناعة حرير طبيعي نامية في مدينة عشقباد العاصمة التركمانية . كما لا تزال هناك صناعة حرير رفيعة وسجاد ممتاز في بعض المدن التقليدية ضمن إطار صناعة حرفية شرقية ، كما في بخارى وسمرقند .

بلاد القفقاس : لقد كانت جبال القفقاس خلال مدة طويلة تلعب دور حاجز هائل يعيق الاتصال بين الشمال والجنوب ، وظلت مدة طويلة ملجأ لشعوب المناطق المنخفضة ، إذ لا نجد فيها سوى ممراً واحداً هو ممر داريال على ارتفاع ٢٣٧٩ م ، يصل بين مدينة أورجونيكيدزه (فلاديقوقاز) وبين مدينة تبليسي (تفليس) . وتنتشر هنا القرى المحصنة التي تسمى « عاويل » على السفوح الصخرية وتزرع حقولها الصغيرة بالحبوب والأشجار المثمرة . كما تنتشر

تربية الماشية فوق المراعي الجبلية وفي المراعي المروية في الوديان ، كالأبقار بالغرب والأغنام بالشرق . ولا تزال صعوبة المواصلات تحول دون استغلال الغابات على نطاق واسع .

هذا ويجدر بنا أن نغيز بين القوقاز الشمالي والقوقاز الجنوبي . فالشمالي غني جداً بالفحم والغاز والنفط ، وبالمعادن غير الحديدية كالرصاص والزنك والتنجستين والموليبدين (شكل ٢١) .

وينتج القوقاز الشمالي ٣٥ مليون طن فحم معظمها من الانتراسيت . كما تنتج مصانع روستوف الجارات والحصادات الدراسات ، كما تنتج الصناعة



بلاد القفقاس

الشكل ٢١

الكماوية في شمال القوقاز الأسمدة الكماوية والبارافين والأحماض الدهنية التركيبية والمواد البلاستيكية إلخ . كما تنتج مدينة نوفورودسيسك من الإسمنت ما يعادل عشر إنتاج جمهورية روسيا الاتحادية كلها . ولكن ميزة القوقاز الشمالي تكمن في زراعته ، فهو يقدم للبلاد الكثير من القمح واللحم والحليب والمنتجات الغذائية الأخرى .

وإلى الجنوب من السلسلة الجبلية الرئيسية نجد منخفض ما وراء القفقاس ، وهو أكثر سكاناً ونشاطاً رغم تجزؤ التضاريس . ففي الشرق تقع جمهورية أذربيجان (شكل ٢٢) وجمهورية جيورجيا (الكرج) بالغرب . وتلك أذربيجان مكامن حديد ، ولا سيما البترول بجوار مدينة باكو .

ففي هذه المدينة التي لعبت دوراً ثقافياً رائعاً في العلوم الثقافية والإسلامية ، والتي تضم الآن أكثر من مليون ونصف نسمة ، نجد اليوم فيها مركزاً تكنولوجياً وعلمياً رئيسياً لصناعة البترول . ولكن احتياط حوضها البترولي في تناقص وإنتاجه في تناقص أيضاً ، إذ لم ينتج سوى ١٥,٢ مليون طن عام ١٩٥٥ و ٢١,٤ مليون طن عام ١٩٦٥ عدا عن ٥,٨ مليار متر مكعب من الغاز الطبيعي ، ولكن استغلال البترول أخذ يمتد في عرض بحر قزوين ، إذ قامت مدينة عائمة ٢٠٠٠ نسمة فوق جزيرة اصطناعية على مسافة ٧٠ كم من الساحل ، تحيط بها أبراج آبار النفط المرتكزة على جزر معدنية .

والجدير بالذكر أن أذربيجان تنتج من الكهرباء أكثر من تركيا وإيران والباكستان وأفغانستان جميعاً ، مع أن عدد سكانها لا يزيد عن ٦ ملايين نسمة .

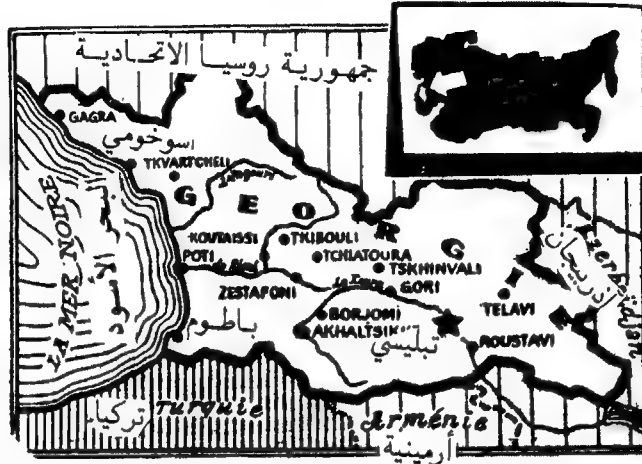
ويزرع السهل اللحقي الذي يشكله كل من نهر آراكس ، المحاذي للحدود التركية ونهر كورا الذي يصب جنوب باكو ، بالقطن والرز حالياً بعد إنجاز مشاريع الري ، بينما كان بالماضي عبارة عن منطقة تربية ماشية بسيطة .

وتقع جمهورية جيورجيا (الكرج) في الغرب وتتمتع بمناخ عذب ورطب . وهنا يكون السكان الريفيون كثيفين فوق التلال التي تزرع فوقها الأشجار المثمرة والكرمة والشاي والتوت ، كما تم تجفيف مستنقعات الكولشيد جزئياً ، حيث

يزرع مكانها القطن والمحاصيل . هذا وتتوسع الصناعات بفضل القوى الكهربائية الوفيرة والمناجم التي تنتج الفحم والمنغنيز بجوار مدينة تشياتورا . وينتج أول معمل للحديد والذي تم بناؤه عام ١٩٥٠ مقدار ٦٠٠٠٠٠ طن من الفولاذ . وتنتشر على الساحل محطات السياحة كما في سوخومي ، حيث يقصدها الكثيرون في كل الفصول . وتصدر مدينة باطوم البترول القادم إليها بالأنابيب من حوض باكو . وتتوسع العاصمة تفليس (أكثر من مليون نسمة) بسرعة بفضل صناعاتها الميكانيكية : كالمكائن النسيجية والتجهيزات الكهربائية والنسيج .

أما جمهورية أرمينيا فتقع إلى جنوب المنخفض المذكور آنفاً ، وهي منطقة مرتفعة وجافة .

وهنا تمارس المزارع المروية في الأحواض الصغيرة وفي الوديان كزراعة العلف والقطن والتبغ ، كما نجد تربية الأغنام فوق المرتفعات . وقد ساعد استغلال الفلزات كالنحاس وموارد القوى الكهربائية على قيام صناعات حديثة ، تنشط في المدن مثل العاصمة أريفان (مليون نسمة) ، حيث نجد المعامل الغذائية والنسيجية والكياوية .



الشكل ٢٢

قوة الاتحاد السوفييتي الاقتصادية

لقد انتقل الاتحاد السوفييتي خلال نصف قرن ، بفعل حركة التصنيع السريعة ، من دولة ثانوية في عام ١٩١٧ - فيما عدا إنتاجها الزراعي - إلى ثاني دولة بالعالم من ناحية القوة الاقتصادية . فهي تنتج ١٧,٢ ٪ من الإنتاج الصناعي العالمي مقابل ٢,٦ ٪ في عام ١٩١٣ . غير أن هذه القوة لا تخلو من نقاط الضعف والنواقص .

أولاً - الإنتاج الزراعي :

لقد ظل تقدم الإنتاج الزراعي في خلال ٥٠ عاماً بطيئاً في معظم القطاعات ، ولكن الآن وبفضل تقدم الصناعة السريع وخاصة إنتاج الأسمدة والمكائن أصبح هذا التقدم سريعاً : فالمردود في ارتفاع ، كما تتوسع الرقعة المزروعة بسرعة ، إذ بعد أن كانت لا تمتد على أكثر من ١١٨ مليون هكتار عام ١٩١٣ ، ارتفعت إلى ١٤٨ في ١٩٥٠ ، ثم قفزت إلى ٢٠٥ ملايين عام ١٩٦١ أو حوالي عشر رقعة البلاد أو ضعف مساحة مصر .

المزروعات : تحتل الحبوب المكانة الأولى في هذه المساحة المذكورة أو ٦٧ ٪ من إنتاج قدره ١٧١ مليون طن عام ١٩٦٦ ، و ٢٢١ مليون طن عام ١٩٧٨ مقابل ٨٠ مليون ١٩١٣ . ويعتبر القمح العنصر الأساسي في زمرة الحبوب ، ويمنح الاتحاد السوفييتي المكانة الأولى بالعالم ، إذ قارب إنتاجه ١١٥ مليون طن في ١٩٧٨ كي يهبط إلى ٨٨ مليون طن في ١٩٨١ (شكل ٢٣) . وبفضل التقدم التقني والعلمي لم يعد القمح محصوراً بالأرض السوداء ، بل توسع على حساب الجاودار الذي ظل النوع الوحيد من الحبوب في الشمال والغرب ، ولكن يظل الاتحاد السوفييتي أول منتج عالمي للجاودار ، كما يؤمن الشعير والشوفان أيضاً المكانة الأولى للاتحاد .

وقد بذلت جهود كبيرة منذ بضعة أعوام ، من أجل التوسع في زراعة الذرة الصفراء بقصد دعم تربية الماشية فتوسعت رقعة الذرة حتى جبال القفقاس الشمالية وفي المناطق الشمالية حتى جوار موسكو . كما يزرع الرز إلى الجنوب من جبال القفقاس وفي آسيا الوسطى ولكنه في تقهقر .

ويحتل القطن بين الزراعات الصناعية مكانة الصدارة في اهتمام الحكومة باستمرار . فتقدم لدرجة أصبح يتجاوز حالياً ٥,٦ ملايين طن من القطن الخام . ولكن هذا الرقم يظل دائماً دون الحاجات . لهذا هناك اتجاه نحو زيادة المردود في المناطق القطنية التقليدية ، فارتفع مردود الهكتار من ١٩ كنتال عام ١٩٥٥ إلى ٢٢ كنتال بالعام التالي في أوزبكستان التي تنتج ٧٠ ٪ من القطن السوفييتي ، أو ما يعادل إنتاج البرازيل والباكستان وتركيا وإيران من هذه المادة . وبلغ المردود في تركيا النسبة نفسها في عام ١٩٦٦ إذ أنتجت ٥٠٠٠٠٠ طن^(١) .

(١) يعتبر القطن مادة أولية ذات قيمة كبيرة بالنسبة لفروع صناعية عديدة . فمن طون واحد من القطن الخام يمكن صنع ٣٠٠٠ متر من النسيج ومقدار ١٠٠ إلى ١١٥ كغ من الزيت و ٢٠٠ إلى ٢٥٠ كغ من الكسبة و ٣٠ كغ من الصابون . هذا كما يصنع من ألياف القطن أنسجة لمجلات السيارات ، وحرير اصطناعي ، وصباغات ومواد بلاستيكية ، ولباد . كما تقدم أعواد نبات القطن الغول الاتيليكي والورق والسليلوز والأغذية للماشية .

وقد توسعت زراعة القطن بالاتحاد السوفييتي بشكل خاص منذ استلام السوفييت زمام السلطة . ففي ١٩١٢ كان القطن لا يغطي في روسيا القيصرية سوى ٦٩٠٠٠٠ هكتار ، وكان مردود الهكتار وسطياً ١٠,٨ كنتال . وحالياً تشغل مزارع القطن أكثر من ٢,٤ ملايين هكتار . وفي عام ١٩٦٥ أنتج الاتحاد السوفييتي ٥٦٦٠٠٠ طن من القطن الخام ، أي سبعة أضعاف إنتاج ما قبل الثورة . وفي الوقت الحاضر يحتل الاتحاد السوفييتي الدرجة الثانية بالعالم في إنتاج القطن وأول مكانة من ناحية المردود . ففي عام ١٩٦٤ كان مردود الهكتار في الولايات المتحدة ٥٧٨ كغ من شعرة القطن مقابل ٧١٥ كيلو في الاتحاد السوفييتي .

ويقطف حالياً نصف الإنتاج السوفييتي من القطن الخام بواسطة الماكينات القاططة ، التي كان يزيد عددها عام ١٩٦٦ عن ٣٠٠٠٠ ماكينة ، واستطاعت هذه الآلات أن تقطف ٦٨٠٠٠٠ طن قطن خام عام ١٩٦٣ ، ولكنها في العام ١٩٦٥ قطفت ربع الإنتاج السوفييتي تقريباً أو ١,٢ مليون طن مما يعادل ٢٢,٣ ٪ من الإنتاج الكلي . وارتفع عدد ماكينات التقطف ٤٠٠٠٠ عام ١٩٧٠ .

كما ازدادت المساحات المزروعة قطناً حتى في خارج آسيا الوسطى ، فأصبح القطن يزرع بعلاً في السهوب المجاورة للبحر الأسود . ولكن الاتحاد السوفيتي يحتل المكانة الأولى في إنتاج الكتان ، الذي يقسم الأرض مع البطاطا في روسيا البيضاء وفي المنطقة الوسطى وإنتاجها الوسطى ٨٥ مليون طن . كما يحتل نفس الدرجة في مزارع زراعة الشوندر السكري الذي بلغ إنتاجه ٩٤ مليون طن في عام ١٩٧٨ ، التي كانت زراعته في أوكرانيا قد تقدمت خلال الحرب حتى القفقاس الشمالي وآسيا الوسطى وسيبيريا . وبعد أن كان عبّاد الشمس يزرع منذ القديم في الحدائق الروسية ، أخذ يمتد في أوكرانيا وفي قيرغيزيا حيث أخذت زراعة الصويا بالظهور .

وهناك الزراعات الخاصة التي تتطلب عناية فائقة والمختصة بالمناطق الحارة ، وهي الشاي والكرمة والمحاصيل التي تزرع في شبه جزيرة القرم وعلى سفوح القفقاس المشمس ، وفي الواحات الواقعة عند أقدام جبال آسيا الوسطى ، ويتقدم مجال هذه المزروعات مع تقدم علم البيولوجيا .

تربية الماشية وصيد الأسماك : - يملك الاتحاد السوفياتي ما يقارب ١١٥ مليون رأس من الأبقار في مناطق الغابات ولاسيما في روسيا البيضاء وفي منطقة لينينغراد ، فضلاً عن ١٤٠ مليون رأس غنم في سهوب الجنوب وهي الأراضي التقليدية لتربية الماشية ، وفي الجمهوريات الإسلامية ، حيث لازال الانتجاع نحو الجبال ملحوظاً . ولكن هذه الأرقام لا تستجيب لحاجات السكان من المنتجات الحليبية ومن اللحم ، وهي حاجات ازدادت مع توسع المدن ومع تزايد القوة الشرائية . ويقول السوفييات أن هناك عدة عوامل تؤدي إلى هذا النقص : فقد أدت الحرب إلى فناء القطيع كما أن قطاع تربية الماشية لا يخضع كغيره للمكننة وللجماعية لحد كبير (لأن تربية الماشية الفردية الكولخوزية لا تزال تجريبية وتحتل مكانة كبيرة) ، كما يلاحظ في كثير من المناطق عدم توسع زراعة العلف ، ويعتمد لحد كبير على استيراد العلف من المناطق الأخرى . ولتلافي هذه النواقص

اتخذت عدة حلول كتوسيع زراعة الذرة الصفراء ، وحتى في المناطق التي لاتنضج فيها باعتبارها علفاً ممتازاً ، وزيادة عدد الخنازير بشكل مدهش إذ قفز عددها من ٢٢ مليون عام ١٩٢٢ إلى ٧٣ مليون عام ١٩٨١ ، وخاصة استغلال مراعي واسعة في كازاخستان وفي سيبيريا وإقامة سوفخوزات متخصصة .

ويحتل الاتحاد السوفياتي الدرجة الثانية : ٩ ملايين طن ، في مضار وزن الأسماك التي يصطادها خلف اليابان مقابل ١٠,٧ ملايين طن أو ١٢٪ من صيد سمك العالم . ويمارس الصيد منذ عهد طويل في بحر الخزر وبحر آزوف (سمك الرنجة والسردين الخ) ، ولكنه أخذ يمتد إلى بحر اوخوتسك وفي المصببات الكبرى . كما أن هناك مشاريع لاستغلال الثروة السمكية بالأنهار ، ولاسيما في البحار الاصطناعية المتشكلة خلف السدود . وأصالة الصيد في الاتحاد السوفياتي تعود لسعة البلاد وصعوبة توصيل الأسماك للمدن ، لهذا تحتل معامل تعليب السمك مكانة جوهريّة ، وتقوم معامل جديدة وخاصة في المناطق النائية كضفاف المحيط المتجمد الشمالي وسواحل الشرق الأقصى .

ثانياً : الإنتاج الصناعي :

الطاقة - كان على الاتحاد السوفياتي كي يتحول إلى دولة صناعية عظيمة أن يعتمد أولاً إلى زيادة إنتاجه من الطاقة ، ومن ثم توزيع هذه الطاقة في كل البلاد .

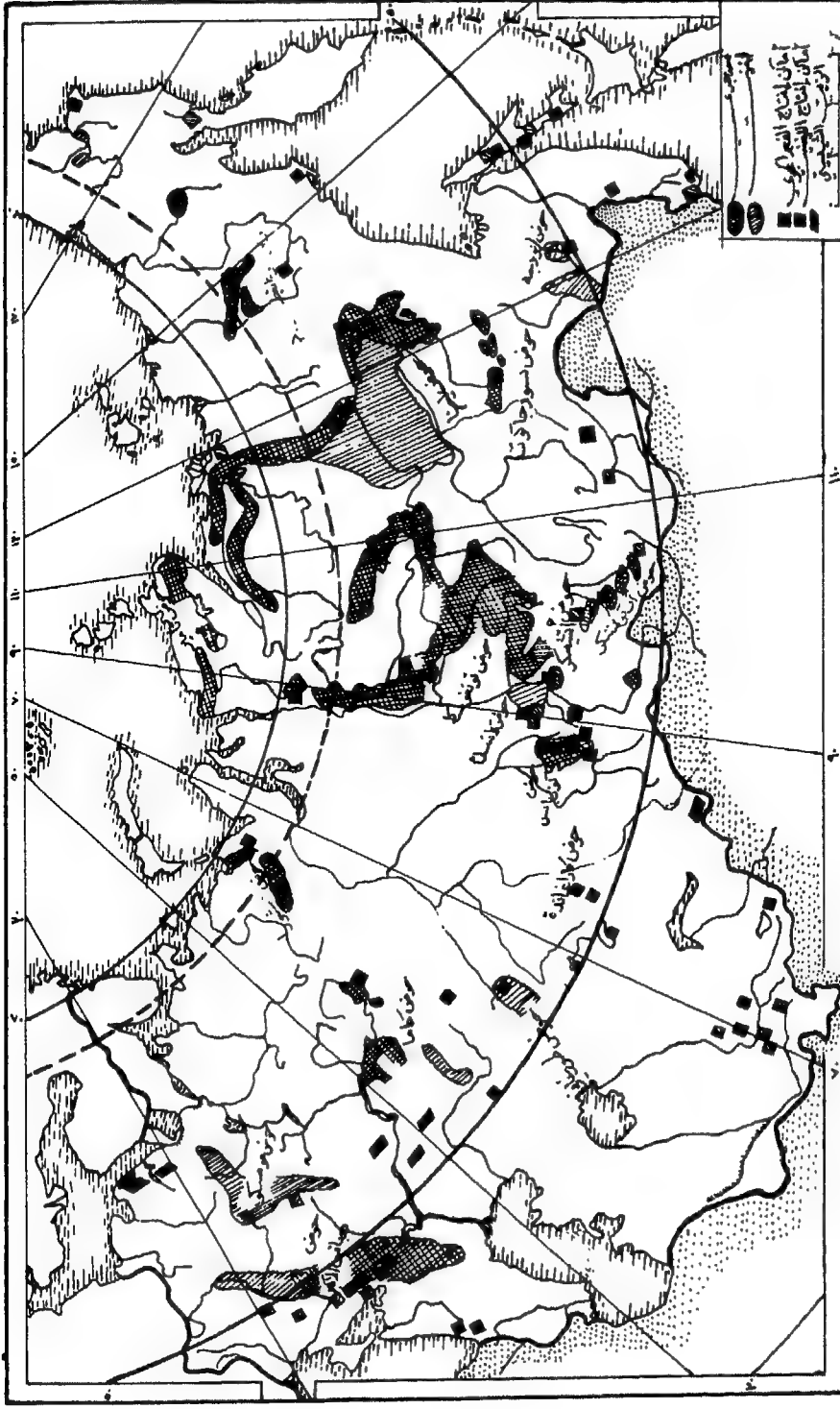
ولا يزال الأساس الرئيسي لإنتاج الطاقة هو الفحم ، الذي ينتشر ذخيره الهائل على سائر المناطق ويعادل ٢٠٪ من الاحتياطي العالمي مع ظهور عدم التوازن بين القسم الأوربي الذي لا يحوي أكثر من ٨٪ وبين القسم الآسيوي الذي يحتوي على ٩٢٪ من الاحتياطي السوفياتي . وبعد أن كان الإنتاج الكلي يتجاوز ٢٩ مليون طن عام ١٩١٣ ، ارتفع إلى ٤٦٣ مليون طن عام ١٩٥٧ ، كما ارتفع في عام ١٩٧٨ إلى ٥٠٠ مليون طن و ١٦٠ مليون طن من فحم الليغنيت ويقدر إنتاج الفحم عموماً بـ ٨٠٠ مليون طن في ١٩٨٠ . وهكذا أصبح الاتحاد السوفياتي أول دولة منتجة للفحم بالعالم منذ ١٩٥٩ ، ويعتقد الآن أن الصين الشعبية تحتل المكانة الأولى .

لا يزال حوض الدونتز ، الذي تناقصت أهميته النسبية من ٧٧٪ من الإنتاج في ١٩٢٨ و ٣٠٪ في ١٩٦٥ و ٢٠٪ حالياً ، لا يزال يحتفظ بدور جوهري لإنتاجه المؤلف من فحم انتراسيت ومن فحم الكوك الممتاز ، واستطاعت البحوث الأخيرة أن تحدد هذا الحقل حتى منطقة الدينبيير . أما في بقية المنطقة الأوروبية فإن الإنتاج يكون أقل أهمية ، مثل حوض موسكو الذي يحوي فحاً رديئاً ولكنه يستهلك عالياً ، وحوض بتشورا في الشمال ، الغني بفحم الكوك ، وأحواض الأورال ، ذات الذخر المحدود والعسيرة على الاستخراج ، ولكنها تسمح باستغلال العديد من الخامات المعدنية محلياً .

وقللك المناطق الشرقية احتياطات هائلة ، بعضها لم يبدأ استغلاله إلا منذ عهد قريب جداً كحوض تونغوزسكا وحوض نهر لينا . أما حوض كوزباس الواقع عند أقدم جبل الطائي ، فيحوي ما لا يقل عن ٤٥٠ مليار طن من فحم الانتراسيت ومن فحم الكوك ، كما أن استغلاله يكون ميسوراً ، وأحياناً في حقول مكشوفة ، وكذلك شأن حوض قراغندا الذي يقع بجوار المكامن المعدنية في كازاخستان ، والذي ينتج قرابة ٥٠ مليون طن بالعام . ومنذ عشرين عاماً بدأ استغلال عدة مكامن فحم هامة في سيبيريا الوسطى والشرقية : كأحواض ايركوتسك - تشيرخوفو ، وزيابوريا ، وساخالين . أما في ما وراء الدائرة القطبية ، كما في ياقوتيا وفي شمالي كازاخستان ، فقد امتدت يد الاستغلال لمناجم جديدة كلما تقدمت عملية التصنيع نحو الأمام .

وقد أخذ مركز الثقل في الإنتاج الفحمي بالانتقال نحو الشرق بسرعة أكبر من سرعة الصناعات ، وهذا يخلق مشاكل عديدة في مجال التوزيع والنقل ، أضف إلى ذلك تركز ثلثي الإنتاج في أربعة أحواض وهي : الدونتز وموسكو وكراغندا وكوزنتسك (شكل ٢٤) .

وقد تسارع إنتاج النفط منذ ١٩٥٠ لتأمين الحاجات المتزايدة إليه ، ولا سيما مكننة الزراعة . وقد ساعد على هذا التزايد ، استغلال مكامن جديدة . وبلغ الإنتاج عام ١٩٧٣ / ٤٢١ / مليون طن فاحتل الاتحاد الدرجة الثانية بإنتاج يعادل ١٥,٣٪ من الإنتاج العالمي مقابل ٩٨,٣ مليون طن عام ١٩٥٧ ، وصعد هذا الإنتاج إلى ٥٧٣ مليون طن في ١٩٧٨ وإلى ٦٣٠ مليون طن في ١٩٨٠ فاحتل الدرجة الأولى بالعالم .



الأحواض الفصحية في الاتحاد السوفيتي

لقد أخذت أهمية حوض باكو النسبية المطلقة في التناقص فأصبحت الآن تعادل ٥% مقابل ١٠% في ١٩٦٤ و ٧١% في ١٩٤٠ . ويستقر إنتاجه حول ١٥ مليون طن بفضل إستغلال الاحتياطات العميقة والطبقات الممتدة تحت مياه بحر قزوين . وإلى الشمال من جبال القفقاس ، تنتج مناطق مايكوب وغروزيني وداغستان عدة ملايين من الأطنان . ولكن حوض أورال - الفولغا « أو باكو الثانية » فقد شهد نهضة تظاهرية . ويقدم الآن أكثر من نصف إنتاج الاتحاد . ويكمل حوض بتشورا ، وحوض ايما ، وحوض أقدام جبال الكاربات ، أي حوض بوريسلاف مصادر النفط في الجزء الأوروبي من الاتحاد . وقد تكشفت المناطق الشرقية عن ثروات ضخمة من الغاز والنفط ، ولا سيما في سيبيريا الغربية ، وتنتج أحواض خاتنغا السفلى في الدائرة القطبية ، وأحواض ساخالين ، وأحواض آسيا الوسطى « تركستان » مثل فرغانة ونفط داغ على بحر الخزر ، قرابة ٢٠ مليون طن بالعام .

ويتزايد إنتاج الغاز الطبيعي لحد كبير رغم العقبات الشديدة ، كعدم كفاية إنتاج الأنابيب فبلغ الإنتاج عام ١٩٦٢ مقدار ٦١ مليار متر مكعب و ٣٧٢ مليار م^٣ في ١٩٧٨ مقابل ٢٠,٢ مليار م^٣ عام ١٩٥٧ استخرجت من مكامن استونيا وغاليسيا وأوكرانيا الشرقية وساراتوف وسيبيريا الغربية . وتشير التقديرات إلى أن الاتحاد ينتج مقدار مليون طن من زيت الشيست ، ومليون طن من الوقود السائل التركيبي من الفحم الحجري .

ومنذ بدء النظام السوفييتي كان الانتباه متجهاً نحو إنتاج الكهرباء ، فارتفع إنتاجها من ٢ مليار كيلواط ساعي عام ١٩١٣ إلى ٢٠٩,٥ مليار عام ١٩٥٧ وإلى ٩١٤ مليار في عام ١٩٧٣ وإلى ١٣٢٥ مليار ك و س في ١٩٨١ .

لا يزال نصب المراكز الكهربائية الحرارية التي يكون بناؤها سريعاً ، لا يزال هو المسيطر إذ يقدم حوالي ٧٥% من الطاقة . ويسمح إنتاج الكهرباء الحرارية باستغلال بعض مصادر الطاقة القليلة القدرة الحرارية : كالطوب ، الواقع بعيداً عن مناطق أحواض الفحم الكبرى ، في الوسط وفي الشمال الغربي ، والخشب الذي لا زال يلعب دوراً لا يستهان به .

وعلى كل فإن إنتاج الطاقة الكهربائية في تزايد . والواقع تبدو الاحتياطات جسيمة بفضل غزارة الأنهار ووجود قلادة جبلية جنوبية ، كما تكون كلفة إنتاجها أقل بموالي ٨٠% عن إنتاج الطاقة الحرارية . وقد تم بناء أول مركز في ١٩٢٦ وهو مصنع فولخوف الصغير ، ثم راحت المراكز الكهربائية

تزايدت وأصبحت أكثر جسامه بكثير . وهكذا ينتج معمل كويبيشيف في كامل دورانه ١١ مليار ك و س بالعام أو ١٥ مرة إنتاج سد الفرات . أما المناطق التي يتسارع تجهيزها فهي المناطق الجبلية في الشمال الغربي ، ومناطق التضريس الألبى كما فيما وراء الكاربات والقوقاز وجبال أرمينيا ، والأنهار الكبرى في القسم الأوروبي كنهر الدنيستر والدينيبر ولا سيما « نهر الفولغا » وحافة آسيا الوسطى .

وتتجه الجهود اليوم نحو أنهار سيبيريا : مثل نهر ايرتيش ، أوب ، ينيسيئي وأنغارا الذي يصرف مياه بحيرة بايكال ، حيث تم بناء مركز براتسك ، بعد سد ابركوتسك ، وهو أكبر سد في العالم .

ويهتم الاتحاد السوفياتي في الوقت الحاضر بإقامة منظومة طاقة كبيرة موحدة بالنسبة للقسم الأوروبي أولاً ، وذلك بربط شبكات الأورال بالمركز والجنوب بخطوط ذات توتر عال . ولكن يجب أن نشير إلى أن ميزانية الطاقة بالاتحاد السوفياتي لا تزال تتعادل مع الفحم ، الذي يقدم ٥٠% من الطاقة . غير أن التطورات الحالية تخرج نحو تغير هذا التوازن بفضل الإنتاج البترولي المتزايد ، وكذلك إنتاج الغاز الطبيعي والاستعمال الكثيف للطاقة الذرية ، لأن هناك مركزاً كهربائياً يعمل بالطاقة الذرية منذ عام ١٩٥٤ .

الفلزات المعدنية : - يتجاوز ذخر الاتحاد السوفياتي من فلزات الحديد ٥٠% من الاحتياطي العالمي المعروف . فالقسم الأوروبي يحوي على ممكن كريفوفيروغ الكبير ، فضلاً عن أن ذخر منطقة كورسك بلغورود حيث تؤدي الكتلة المتكدسة إلى شذوذ مغناطيسي ، ومكامن الأورال في ماغنيتوغورسك وفي كيرتش وفي كولا . كما أدت الاكتشافات الجديدة إلى إغناء المناطق الآسيوية كما في كازاخستان حول ايركوتسك ، وفي الشرق الأقصى في منطقة ياكوتيا . ويبلغ الإنتاج الكلي ١٥١ مليون طن من الفولاذ في ١٩٧٨ أي الدرجة الأولى بالعالم ، وأصبح الاتحاد السوفياتي أول دولة في العالم في إنتاج الفلزات الحديدية .

وتبدو مكامن النحاس هامة كما في مناجم بلخاش وكاراغندا والأورال . ويحتل الاتحاد المكانة الأولى في إنتاج المنغنيز وفي الاحتياط لأن إنتاجه يعادل ٥٠% من الإنتاج العالمي ، ويتركز ذلك في

أوكرانيا ، وفي ما وراء القفقاس . ويستخرج البوكسيت من منطقة لينينغراد والأورال وكازاخستان وتكثر المعادن الأخرى غير الحديدية في القفقاس والأورال وجبال ألتاي وسواحل المتجمد الشمالي (كالنيكل في منطقة نوريلسك) . ويعتقد أن إنتاج الاتحاد من الذهب يعادل نصف إنتاج العالم من هذه المادة .

وإليك مركز الاتحاد السوفيتي في العالم في مضار صناعة المعادن غير الحديدية :

المعدن	الفلزات	
المنيوم	الرابع	الثاني
النحاس	الثاني	الثاني
الرصاص	الأول	الأول
الزنك	الثاني	الأول

وتستخدم الصناعة الكيماوية مكامن الفوسفات الضخمة في شبه جزيرة كولا والبوتاس في الأورال وآسيا الوسطى ، كما تستغل أكبر احتياطات العالم من ملح الصودا من خليج قره بوغاز على بحر الخزر .

الصناعات : - لقد قامت الصناعات الثقيلة والتحويلية بصورة تقليدية في المناطق الغنية بموارد الطاقة أو المعدنية ، كمنطقة موسكو وأوكرانيا والأورال ، في الكوزباس ، ومنطقة كاراغندا . أما الآن فإن الصناعة تتجه نحو مناطق لم تكن تنتج بالماضي سوى الطاقة أو المواد الخام ، كما في منطقة الفولغا ومنطقة بايكال والشمال الأقصى وياكوتيا . كما نلاحظ أخيراً أن المناطق الهامشية تقوم بمجهود كبير نحو التصنيع .

وتعتبر **الصناعات التجهيزية** الشغل الشاغل للحكام السوفيت ، الذين يعتقدون أن نهضتها الكبرى هي التي تؤمن للبلاد قوة اقتصادية متينة . كما أن صادرات أدوات التجهيز الصناعي نحو الأقطار الاشتراكية كالجumonيات الشعبية ونحو الأقطار المتخلفة ، كإهند والبلاد العربية تساهم في منح الأولوية للصناعات الثقيلة . وقد أنتجت الصناعة الحديدية عام ١٩٦١ مقدار ٦١ مليون طن من

الفونت (الصهير) مقابل ٣٧ مليون طن عام ١٩٥٧ و ١٥١ مليون طن من الفولاذ عام ١٩٧٨ مقابل ٥١ مليون عام ١٩٥٧ ، وتقدم منطقة الأورال وأوكرانيا (دونباس والدنيبير وسواحل بحر آزوف) والمنطقة الوسطى وكوزباس القسم الأعظم من هذا الإنتاج ، فضلاً عن مناطق إضافية جديدة مثل لينينغراد بالنسبة لأنواع الفولاذ الكهربائية ، وما وراء القفقاس ، وسبيريا الوسطى والشرق الأقصى .

أما بالنسبة لصناعة المعادن غير الحديدية ، فإن الإنتاج كان أيضاً سريعاً ، ويضع الاتحاد السوفييتي بين أكبر المنتجين ويعادل ٧٠٠٠٠٠ طن من النحاس وأكثر من ٢ مليون طن من الألمنيوم . لأنه أنتج ١,١ مليون طن ألنيوم عام ١٩٦٤ و ٤,٥ مليون طن بوكسيت ، أي الدرجة الثانية بعد الولايات المتحدة التي أنتجت عام ١٩٦٤ مقدار ٢,٣ مليون طن ألنيوم . وتقع مصاهر النحاس في أماكن الاستخراج كما في الأورال التي تفوقت عليه منطقة كازاخستان وكوزباس ، كما أن الاستحصال على الألمنيوم يرتبط بإنتاج الكهرباء الرخيصة ، فيكون ذلك هاماً في منطقة لينينغراد والدنيبر في سبيريا حول المراكز الكهربائية الجديدة .

إن أكثر القطاعات تطوراً هي الصناعة المعدنية التحويلية ، التي تساهم في تجهيز البلاد . فصانع آلات وتجهيز الصناعة التي كانت متركزة قبل الحرب في المناطق الأوربية ، أخذت تنتشر في سبيريا الوسطى كما في نوفوسيبيرك وكراسنويارسك وفي الشرق الأقصى . وفي ١٩٨١ أنتجت صناعة السيارات مقدار ١٣٢٤٠٠٠ سيارة سياحية و ٨٧٣٠٠٠ سيارة نفعية مقابل ٥٥٣٥٠٠ سيارة عام ١٩٦٢ كان ٧٥٪ منها عبارة عن سيارات نفعية .

ورغم أن هناك رغبة في تجنب المركزية في الإنتاج ، فإن المعامل الرئيسية لا تزال موجودة في المنطقة الوسطى ولا سيما موسكو ، التي تحوي على معامل سيارات موسكو فيتش الصغيرة . وعلى نهر الفولغا (غوري) وفي الأورال وقد اتفق الاتحاد مع شركة فيات الإيطالية لإقامة معمل ينتج سنوياً ٦٠٠٠٠٠ سيارة ابتداء من عام ١٩٦٨ وتدعى « لادا » . ويبلغ إنتاج الجرارات ٥٨٤٠٠٠ وحدة

عام ١٩٨٠ مقابل ٢٠٤٠٠٠ جرار عام ١٩٥٧ (في خاركوف وستالينغراد والأورال) ، ويتبعثر إنتاج المكائن الزراعية في المراكز الصناعية في أوكرانيا وعلى الفولغا وفي الأورال وحالياً في سيبيريا . وتصنع تجهيزات القطارات في المناطق الصناعية القديمة . كما تصنع الطائرات في منطقة الأورال الغربية كما في مدينة بيرم وأوفا وتشكالوف .

أما الترسانات البحرية فتضع الاتحاد السوفييتي في المكانة الخامسة بالعالم بإنتاج سفن تبلغ حمولتها ٣٥٠٠٠٠ طنة بالسنة ، يتم بناؤها في موانئ البلطيق والبحر الأسود ، وفي مورمانسك (من أجل سفن المحيط المتجمد الشمالي) وفي ميناء فلاديفوستوك .

هذا وتحتل الصناعة الكيماوية الدرجة الثانية بالعالم ، وقد كانت نهضتها واضحة جداً بالنسبة للإسمنت ، إذ تضاعف إنتاجه تسع مرات بين ١٩٥٠ و ١٩٧٨ حيث بلغ إنتاج ذلك العام ١٢٧ مليون طن حيث قارب إنتاج الولايات المتحدة . وقد ازداد إنتاج الأسمدة أيضاً رغم أنه دون الكفاية . ونظراً إلى أن الجهود التي بذلت لتوسيع زراعة نباتات المطاط (كوك ساغيز) لم تعط النتيجة المرجوة ، اتجهت النية نحو التوسع في إنتاج المطاط التركيبي ، الذي يزيد عن ٢٥٠٠٠٠ طن ، ولكن النجاح كان أقل أهمية في مضمار إنتاج مواد البلاستيك والأصبغة والألياف الاصطناعية (كالحرير الاصطناعي والنايلون الخ) .

أما صناعات المواد الاستهلاكية ، فقد كان تقدمها بطيئاً ، ولكن الفارق بين إنتاجها وإنتاج صناعات التجهيز ، يحنج تدريجياً للتضاؤل . وهكذا أنتج الاتحاد ٧,٣ ملايين جهاز تلفزيون عام ١٩٧٩ مقابل ١,٢٧ مليون عام ١٩٥٩ و ٥ مليون ماكينة غسيل ١٩٧٦ .

وتحتل الصناعة القطنية المكان الأول بين الصناعات النسيجية ، وتتركز حول موسكو وبالدرجة الثانية في لينينغراد . وقد امتدت لمناطق أخرى

مثل آسيا وما وراء القفقاس . أما بالنسبة لمنسوجات الكتان والحرير ، فإن التزايد كان واضحاً جداً منذ بضعة أعوام فبين ١٩٥٠ و ١٩٥٦ تضاعف إنتاج الأنسجة الحريرية عشر مرات . كما أن الصناعة الصوفية انتقلت جزئياً من المنطقة الوسطى نحو المناطق المنتجة مثل أوكرانيا الجنوبية وقفقاسيا وآسيا الوسطى .

ونذكر صناعة الأحذية ضمن عداد الصناعات الجلدية ، وهي غير كافية ، ولكن إنتاجها يتجاوز مع ذلك ٥٠٠ مليون زوج بالعام ، هذا عدا أحذية المطاط واللباد مقابل ٢٠٠ مليون زوج في ١٩٥٠ ، أما في مجال الصناعات الغذائية فإن الاتحاد السوفييتي يحتل المكانة الثانية بعد الولايات المتحدة ، فهي تأتي في الطليعة في إنتاج سكر الشوندر والمطاحن . وأخيراً شهدت عدة صناعات استهلاكية دفعة جديدة نشيطة مثل : الراديو ، والتلفزيون ٧,٣ ملايين ، والبرادات ٦,٢ ملايين (١٩٧٩) ، ومكائن غسيل الثياب وأجهزة التصوير .

أما صناعة البناء فتتجه أكثر فأكثر نحو إنتاج العناصر الجاهزة الصنع ، ولا تزال تعجز عن مواكبة حركة العمران ، أما صناعة الخشب فهي قديرة بفضل ثروات الطايغا ولكن لا يزال إنتاج بعض القطاعات كالورق دون حدود الكفاية .

ثالثاً : وسائل النقل والمبادلات التجارية :

المواصلات : - تبدو مشكلة النقل شائكة في قطر فسيح الأرجاء ذي شرائط طبيعية قاسية ، كالاتحاد السوفييتي . ومع هذا تضاعفت عمليات النقل الإجمالية عشرين مرة بين ١٩١٣ و ١٩٧٥ مما استدعى تمديد شبكة المواصلات واستخدامها بشكل أفضل .

وتؤمن شبكة الخطوط الحديدية حوالي ٨٣٪ من المواصلات الداخلية ، بعد أن كانت لا تزيد عن ٥٧٪ في ١٩١٣ . وتكون هذه الشبكة كثيفة في القسم الأوربي ، فيما عدا الشمال . وتكون متراخية في الشرق فيما عدا حول الخط العابر سيبيريا ، حيث أخذت تتفرع عنه خطوط عديدة ، ويبلغ طول الخط المذكور ٩٣٤٠ كم بين موسكو وفلاديفوستوك . ويوازي هذا الخط جنوباً خط حديدي

يدعى يوغسب ، تم إنجازه منذ بضعة أعوام في القسم الغربي من القسم الآسيوي . ويرتبط بهذين الخطين فروع عديدة بالإضافة إلى خطوط آسيا الوسطى مثل : خط عبر الخزر ، وخط عبر آرال ، وخط كاراغندا - بلخاش ، وخط توركسب . وفي الشرق نجد خط بايكال آمورسكي ماجيسترال ، الذي يوازي عابر سيبيريا من الشمال . ولتسهيل المواصلات مع الصين تم تمديد خط مباشر من بايكال إلى بكين . كما تمديد خط آخر ابتداء من ألما آتا باتجاه التركستان الصينية أو سيكيانغ . ورغبة في سرعة المواصلات وتوفيراً للفحم الحجري ، يجري حالياً إدخال الكهرباء للقاطرات ، كذلك محركات ديزل . ويبلغ طول الخطوط التي يستعمل فيها هذان النوعان من الجرما يقارب ٣٥٠٠٠ كم .

كما تجري دائماً المحاولات الرامية لزيادة دور الملاحة النهرية الرخيصة نسبياً رغم عقبات التجمد الشتوي ، ويعادل دور الملاحة الداخلية ١٢٪ من مجموع المواصلات و يتزايد بسرعة . وقد تمت إعادة بناء الطريق القديمة مثل منظومة ماري بين لينينغراد والفلوفا . كما تم إيجاد طرق جديدة تؤلف منظومة البحار الخمسة ، وهي : قناة البلطيك - البحر الأبيض - قناة موسكو - الفولوفا - قناة الفولوفا - الدون التي تمت في عام ١٩٥٢ والتي تفتح أمام المنطقة الوسطى ، وبلاد الفولوفا طريق البحر الأسود . هذا ويتزايد دور نهر الفولوفا بفضل « البحار الاصطناعية » وتجهيز موانئ نهرية كبرى مثل ياروفسلافل وغوري وكازان . أما نشاط الأنهار السiberية فيقتصر على تعويم الأخشاب وتفريغ الفلزات المعدنية باتجاه الشمال .

ولا تزال شبكة الأنابيب الناقلة للنفط والغاز محدودة ، فلا تؤمن أكثر من ٢٪ من النقلات ، وستؤدي سرعة بنائها إلى تخفيف أعباء النقلات النهرية ، وخاصة الحديدية وأهمها أنبوب سيبيريا الممتد حتى تشيكوسلوفاكيا .

أما دور النقلات البرية فلا يزال ضعيفاً ، إذ لا تنقل السيارات أكثر من ٨٪ من البضائع و ١٦٪ من المسافرين ، إذ لا تزال السيارات الخاصة قليلة ومعظمها من النوع المائد للنفع العام .

وتساهم الشروط الطبيعية في جعل بناء الطرق الحديثة عسيراً ، لهذا تظل الشبكة محدودة . وأهم طرق السيارات العريضة نجدها حول موسكو . ولا يمكن اعتبار النقل البري أكثر من عامل مساعد للنقل على الخطوط الحديدية .

وعلى خلاف ذلك نلاحظ أن المواصلات البعيدة المدى ، أي النقلات الجوية ، تكون ناجعة . فيبلغ طول الخطوط الجوية ٢٧٥٠٠٠ كم التي ازدادت حركة الطيران عليها بحوالي عشرين مرة منذ ١٩٤٠ . وأكثر هذه الخطوط نشاطاً هو خط الشرق الأقصى الذي يربط موسكو بمدينة خاباروفسك بواسطة الطائرات النفاثة لمدة ٩ ساعات . فضلاً عن الخطوط الجوية الكبرى التي تنطلق من موسكو ، نجد خطوطاً ثانوية بين المدن الرئيسية وخاصة الخطوط التي تصل بين مدن ساحل المحيط المتجمد الشمالي . كما تنشط خطوط الطيران الدولية مثل موسكو - بكين وموسكو - نيويورك . وموسكو - باريس عبر براغ . وخط موسكو - دمشق الخ .

وينمو الأسطول التجاري ببطء ، وتقارب حولته ستة ملايين طنّة (الطنة ٢,٨٣ م^٣) . ولا يزال الاتحاد السوفياتي يعتمد على أحواض بناء السفن الأجنبية لإمداده بالسفن الجديدة . وهناك خطوط ملاحية وطنية تربط موانئ البلطيق والأسود والمتجمد الشمالي ، وتهتم السلطات بتوسيع الموانئ وتحسينها بغية تنشيط التجارة فيها .

التجارة الخارجية : - بالرغم من قوة الاقتصاد السوفييتي فهو لا يحتل أكثر من مكانة ضامرة في المبادلات الدولية ، إذ لا يحتل سوى الدرجة السادسة بالعالم ، كما لا تزيد قيمة تجارته عن ٦٪ من التجارة العالمية . ولكن يجب أن نتذكر أن هذه المبادلات قد تضاعفت أربع مرات منذ ١٩٣٩ حيث كان الاتحاد السوفياتي يحتل المكانة السادسة عشرة .

وبعد نهاية الحرب الثانية واحتدام الحرب الباردة ، أصبح الاتحاد السوفييتي - كما حصل له في فترة ١٩١٧ - ١٩٢٥ - منعزلاً عن الدول الصناعية الكبرى الغربية ، لأن الولايات المتحدة قررت عام ١٩٥١ عدم تصدير مواد معينة للاتحاد السوفييتي وحلفائه . فاضطر الاتحاد لتبني علاقاته مع الجمهوريات الشعبية ، التي كانت بحاجة قصوى لسلع التجهيز الصناعي ، لهذا تمتص هذه الجمهوريات ٦٥٪ من التجارة الخارجية السوفيتية ، ولكن منذ ١٩٥٥ أخذت المبادلات بين الشرق والغرب بالتزايد فضلاً عن اتساع التجارة السوفيتية مع أقطار العالم الثالث في الشرق الأوسط وجنوب آسيا وأميركا الجنوبية .

وأهم الصادرات السوفيتية التقليدية هي : البترول والخشب والفراء والفلزات كالمغنيز والكروم . وأضيف إليها صادرات جديدة منذ ١٩٤٥ مثل : القطن وقد صدر منه عام ١٩٦٤ مقدار ٤٠٠٠٠٠ طن ، ويعادل إنتاج مصر ، ومكائن الصناعة المنجمية ، والمنسوجات والمواد الغذائية وآلات التنقيب عن النفط ، والمكائن الزراعية ، والروملانات ، وحتى المعامل الكاملة مثل معامل الفولاذ إلى الهند ويؤلف النفط والغاز ٣٧٪ من قيمة الصادرات في ١٩٨٢ .

أما الاستيراد فيتألف من مصنوعات تجهيزية قادمة من الجمهوريات الشعبية ، بالإضافة إلى آلات قادمة من الدول الرأسمالية : كالمكائن ، وسفن صيد الأسماك ، وسفن الشحن ، ومعامل سيارات كاملة ، مثل فيات وفورد وسواها . كما يستورد الاتحاد مواد أولية : كالمطاط والقصدير والصوف والجوت . هذا وأخذ الاتحاد يشتري مواد استهلاكية كانت محظورة أو محدودة في فترة التصنيع مثل : المنسوجات الرفيعة والرز والفواكه المدارية والقهوة والكاكاو والسكر والأحذية والسجائر .

وأهم الدول التي يتعامل معها الاتحاد السوفياتي هي : الصين التي كانت تمتص لوحدها ٢٠٪ من الصادرات قبل النزاع الأخير في مطلع الستينات ، وألمانيا الشرقية وبولونيا . ومن بين الأقطار الرأسمالية نذكر : فنلندا وبريطانيا والسويد وإيطاليا وفرنسا وعدد كبير من دول العالم الثالث : كالهند وأندونيسيا وإيران وأفغانستان وسوريا والعراق .

مشكلات الاقتصاد السوفييتي الحالية

المصاعب :

إن أول مشكلة هامة هي النواقص الزراعية . والواقع أن تزايد السكان ، واتجاه السكان نحو التركز في المدن ، وارتفاع القدرة الشرائية ، أظهرت كلها

ضعف إنتاج عدة مواد غذائية : كالحبوب ، ومشتقات الحليب ، كالزبدة ، والأجبان ، واللحم ، الذي بلغ ٥,٧ مليون طن عام ١٩٦٦ ، أي يستهلك الفرد ٢٥ كيلو لحم بالسنة مقابل ٧٥ كغم في أوروبا الغربية وأمريكا ، والخضار . أضف إلى ذلك أن بعض الصناعات التجهيزية تخلق مظاهر اختناقية رغم ارتفاع انتاجها . ففي مجال الطاقة تكثر الشكوى من عدم كفاية إنتاج الفحم ، وخاصة في المناطق الأوربية ، لأن ذلك يؤدي إلى توقف دوران المعامل عدة مرات بالسنة ، بالإضافة إلى عمليات النقل غير العقلانية : فالمنطقة الوسطى تجلب الفحم من منطقة الكوزباس الواقعة على مسافة ٣٠٠٠ كم . كما ينتقد أيضاً عدم كفاية إنتاج الأنابيب ، مما يؤدي إلى قلة الاستفادة من الغاز الطبيعي الوفير الذي يعتبر مصدر قوة سهلة ورخيصة . كما أن الكثير من المعامل ، لاتنال سوى القليل من أنواع الفولاذ الخاصة ، والمعادن غير الحديدية ومن الأخشاب مما يحد من إنتاجها .

كما أن انتاج السلع الاستهلاكية - فيما عدا المنتجات الزراعية - لا يزال غير كاف بالنسبة للطلب المتزايد : كالأقشة الصوفية ، والأحذية الجلدية ، حيث لم يزد الإنتاج في عام ١٩٦٧ عن ٤١٥ مليون زوج ، والمحفوظات الغذائية ، وزجاج النوافذ ، التي لاتزال كمياتها غير كافية . ومن جهة أخرى فإن بعض مؤسسات الصناعة الخفيفة أنتجت سلعاً لا يقبل عليها الجمهور بسبب رداءة صنعها . كما لا يزال قطاع بناء المنازل في وضع دون المرغوب .

كما أن هناك ثغرات ملحوظة في وسائل النقل : بطء القطارات . ضعف ميكانيكية عمليات الشحن والتفريغ ، رداءة التنسيق بين الخط الحديدي والباخرة في الموانئ البحرية والنهرية .

وينسب السوفيات بعض هذه النواقص إلى عيوب تنظيم اقتصادهم الضخم . والعيوب الرئيسية حسب نظرهم هي : تفاوت العمل بين مختلف مؤسسات الفرع

نفسه ، وإذا كان البرنامج الحسي يتحقق عادة ، أو يتجاوز حده ، فذلك يعود لإنتاج المؤسسات « الطلائعية » التي تخفي تأخر مؤسسات عديدة أخرى . كما ينتقدون « روتين الأوراق » والإفراط في التوجيهات الصادرة عن المكاتب ، ويمتد هذا الانتقاد حتى التنظيم الزراعي . وبصورة إجمالية يبدو جهاز التخطيط ثقيلًا جدًا ، وقليل المرونة ، وضخمًا هائلًا .

المخطط السباعي والمشاريع الكبرى :

لقد أخذ المخطط السباعي ١٩٥٨ - ١٩٦٥ بعين الاعتبار كل النواقص المذكورة آنفًا . ففي المجال الصناعي ، كان الهدف هو زيادة الإنتاج بحوالي ٨٠٪ وكانت القطاعات المفضلة هي : الطاقة ولاسيما الغاز الطبيعي والبترو ، والصناعات التي تجهز الزراعة كإنتاج : الجرارات والمكائن والأسمدة ، وإنتاج القاطرات الكهربائية ، والألياف الصناعية وبناء المساكن ، كما أصبحت المكننة في الفروع الصناعية ولاسيما الناحية الأتوماتيكية نامية جدًا . ولدعم هذا التطور الصناعي تم تحقيق المشاريع الكبرى ، رغم صرف النظر عن بعض المشاريع الضخمة جدًا .

وتتجه بعض هذه المشاريع الكبرى نحو الزراعة مثل : ري مناطق الدينيير الأدنى والفولغا الأدنى وفي آسيا الوسطى . كما كان المقرر إنهاء المخطط التنظيمي لغابات القسم الأوربي كزرع شريط حراجية ضد الرياح الجففة ، وتسييج مزارع واسعة واستنباط المياه وبناء برك اصطناعية . كما ازدادت محاصيل القطن والشوندر السكري والبطاطا إلى حد كبير . وكذلك الأمر بالنسبة لمنتجات تربية الماشية بفضل توسيع المراعي الاصطناعية وزراعة الذرة الصفراء . كما تم إخضاع الكثير من الأراضي الواسعة العذراء للزراعة لأول مرة ، لتأمين إنتاج متزايد ومحسوس في الحبوب وقد صاحب كل التطورات الزراعية الآفة الذكر مكننة زراعية متزايدة وخاصة في مجال الحصاد والقطف لتجنب الخسائر .

وأخيراً طرأت بعض التعديلات على تنظيم الاقتصاد والتخطيط . فمن جهة انصب الاهتمام على زيادة الإنتاجية . ومن أجل هذا كان من اللازم تركيز الجهود فوق أهم ورشات العمل ، وتجديد التجهيزات المهرمة وتجنب صنع نماذج مكائن تتفوق عليها الأقطار الرأسمالية والجمهوريات الشعبية ، وزيادة تخصص الصناعات كي يمكن تعميم أتمتة العمل . وتزايد الإنتاجية هذا ساعد على متابعة وتسارع تناقص ساعات يوم العمل الذي ابتدأ منذ ١٩٥٦ .

ومن جهة أخرى تستهدف هذه القرارات نحو لامركزية الجهاز الاقتصادي ومنحه المرونة . وقد تم أولاً خلق مائة وخمسة مناطق اقتصادية « سوفارخوز » أكثر كفاءة في إدارة الإنتاج من الوزارات المتباعدة والمرققة . كما أن السلطات المشرفة على المؤسسات الزراعية منها أو الصناعية ، والتي كانت تتعرقل في سيرها بسبب أنظمة ضيقة جداً ، أصبحت أكثر توسعاً وتم تخفيض جهازها الإداري .

والأهداف الاقتصادية التي يؤكدتها الاتحاد السوفياتي هي اللحاق بأول دولة اقتصادية بالعالم أي الولايات المتحدة ، ثم رفع مستوى الحياة لكل فرد من المواطنين بحيث يعادل ما هو عليه الحال في أكثر الأقطار الرأسمالية تقدماً .

ولتحقيق ذلك تمت الموافقة في عام ١٩٦١ على برنامج لعشرين عاماً ١٩٦١ - ١٩٨٠ . والجدول التالي يعطي المقارنة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة حسب النسبة المئوية من المجموع العالمي وذلك استناداً لحسابات منظمات الأمم المتحدة لعام ١٩٧٦ .

الاتحاد السوفياتي الولايات المتحدة

المساحة (٪ من أراضي العالم)	٪ ١٦,٥	٪ ٥
السكان	٪ ٦,٥	٪ ٥,٤
القمح	٪ ٣٣,٣	٪ ١٤
الذرة الصفراء	٪ ٣	٪ ٤٧,٢
البطاطا	٪ ٣٠,٥	٪ ٥,٤
السكر	٪ ١٠,٧	٪ ٧,٦
ألياف القطن	٪ ٢١	٪ ١٧,٧
صوف	٪ ١٨	٪ ١,٩
أبقار	٪ ٩,١	٪ ١٠,٥
لحم	٪ ١٢	٪ ١٩,١
حليب	٪ ٢١,٣	٪ ١٢,٣
فحم حجري	٪ ٢٠,٤	٪ ٢٥,٤
نفط خام	٪ ١٨,٢	٪ ١٤
طاقة التكرير	٪ ١٢,٨	٪ ٢١,٣
الكهرباء	٪ ١٦,٢	٪ ٣٠,٩
خام الحديد	٪ ٢٨,٧	٪ ٩,٢
فونت و خلاط حديدية	٪ ٢١,٦	٪ ١٦,١
فولاذ	٪ ٢١,٦	٪ ١٧,١
بوكسيت	٪ ٨,٣	٪ ٢,٤
النيوم	٪ ١٦,٨	٪ ٢٩,٤
نحاس	٪ ١٤,١	٪ ١٨,٢
منغنيز	٪ ٢٨,٩	٪ ٠,٣
ورق صحف	٪ ٦,٥	٪ ١٤,٨
منسوجات صناعية	٪ ٢٤	٪ ١٣,٨
إسمنت	٪ ١٦,٧	٪ ٨,٧
سيارات نفعية	٪ ٩,٩	٪ ٣٧,٧

☆ ☆ ☆

بلاد السوفيات في ١٩٨٢

قوام الاتحاد السوفييتي ١٥ جمهورية متحدة ، و ٢٠ جمهورية ذات حكم ذاتي ، و ٨ مقاطعات ذات حكم ذاتي ، و ١٠ دوائر ذات حكم ذاتي .

ويبلغ عدد سكان الاتحاد السوفييتي ٢٧١ مليون نسمة . نسبة سكان المدن ٦٥٪ وسكان الأرياف ٣٥٪ ونسبة الذكور ٤٦,٨٪ ونسبة الإناث ٥٣,٢٪ .

ويعيش في الاتحاد السوفييتي أكثر من ١٠٠ أمة وقوم ، أكثرها تمثيلاً الروس ، ثم الأوكرانيون ، الأوزبكيون ، الروس البيض ، الكازاخ ، التتر ، الآذربيجانيون ، الأرمن ، الكرج ، المولداف ، الطاجيك ، الليتوانيون ، التركمان ، الألمان ، القيرغيز ، اليهود ، التشوفاش ، اللاتفيون ، المورديون ، البولونيون ، والأستونيون .

أولاً : جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية

تأسست في ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ . وتشغل المكان الطبيعي بين سائر الجمهوريات ، سواء من حيث عدد السكان أم من حيث المساحة ، أم من حيث الثروات الطبيعية ، أم من حيث القدرة الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية . مساحة الجمهورية ١٧ مليوناً و ٧٥٠٠٠ كيلو متر مربع ، أو ضعف مساحة الولايات المتحدة تقريباً ، ويبلغ عدد سكانها ١٤٠ مليون نسمة .

وهذه الجمهورية عبارة عن اتحاد مؤلف من جمهوريات ومقاطعات ودوائر قومية ذات حكم ذاتي . وموسكو عاصمة الاتحاد السوفييتي وكذلك عاصمة روسيا الاتحادية التي تضم ١٦ جمهورية ذات حكم ذاتي و ٥ مقاطعات ذات حكم ذاتي و ١٠ دوائر ذات حكم ذاتي .

وتملك روسيا الاتحادية احتياطات كبيرة من الماء العذب ومن الموارد المائية الطاقية ، ومن موارد الخامات المعدنية . وتشغل المرتبة الأولى بين جمهوريات الاتحاد السوفييتي من حيث الاحتياطات الجيولوجية العامة من الفحم والبتروك والغاز . وفي غضون ٦٠ سنة زاد إنتاج الطاقة الكهربائية في روسيا الاتحادية أكثر من ١٦٠٠ مرة . وازداد المنتج الصناعي إجمالاً في روسيا الاتحادية أكثر من ٥٠٠ مرة في غضون ٦٠ سنة .

وتقدم حقول روسيا أكثر من نصف المنتج الإجمالي في عموم الاتحاد السوفييتي من الحبوب

والمرزوعات العلفية . وتؤمن مزارعها زهاء ثلثي مشتريات الدولة من البيض ونصف مشتريات اللحوم ومشتريات الحليب والبطاطا . وتكون الأعمال الزراعية الأساسية ممكنة كلياً .

وفي جمهورية روسيا الاتحادية زهاء ٥٠٠ مؤسسة للتعليم العالي و ٢٥٠٠ ثانوية متخصصة . وفي موسكو وحدها مثلاً ٨٦ مؤسسة للتعليم العالي و ١٣٩ ثانوية متخصصة تعد الاختصاصيين في ٢٤٩ اختصاصاً .

ثانياً : جمهورية أوكرانيا

تقع في الجنوب الغربي من سهل أوروبا الشرقية أو السهل الروسي . عاصمتها كييف . مساحة رقعتها ٦٠٣,٧ آلاف كيلو متر مربع بحيث تشغل المرتبة الثالثة بعد روسيا الاتحادية وكازاخستان . عدد سكانها ٥٠,٣ مليوناً وتأتي بعد جمهورية روسيا الاتحادية من حيث عدد السكان والقدرة الاقتصادية . وتنتج أوكرانيا اليوم زهاء خمس المنتج الصناعي والزراعي في الاتحاد السوفيتي . وأوكرانيا هي بلد التعليم الشامل . ويعمل فيها أكثر من ٢٠٠٠٠٠ من العاملين العلميين ، بينهم ٥ آلاف يحمل لقب دكتور في العلوم و ٦٠٠٠٠ مرشح (كانديدات) في العلوم . وتقوم أكاديمية العلوم الأوكرانية بعمل علمي كبير .

ثالثاً : جمهورية بيلوروسيا

وتقع على حدود الاتحاد السوفيتي الغربية . مساحتها ٢٠٧,٦ آلاف كيلو متر مربع وعدد سكانها ٩,٧٤٤ ملايين نسمة ، عاصمتها مينسك . وتنتج بيلوروسيا من المنتجات حالياً في نصف يوم قدر ما أنتجته في كل عام ١٩٢٢ .

وتتحدد سياؤها الصناعية بالمؤسسات الكبيرة في صناعة بناء الآلات وصناعة الراديو - الإلكترونيك والصناعة الكيميائية وصناعة توليد الطاقة الكهربائية . ويتألف خمس الإنتاج الإجمالي لصناعة بناء الآلات في بيلوروسيا من السيارات الشاحنة الكبيرة التي تنتجها مؤسسة « بيلافتوماز » ثم إن هناك ٦٨ بلداً تشتري الجرارات من طراز « م ت ز . بيلاروس » وتغطي الغابات أكثر من ٣٠٪ من أراضي الجمهورية ، وعلى أساسها تعمل مؤسسات عديدة لصناعة الأخشاب وصناعة معالجة الخشب وصناعة الورق والصناعة الكيماوية وغيرها من الصناعات . والعالم الحيواني في بيلوروسيا غني ومتنوع .

وتعتبر بيلوروسيا من مناطق الاتحاد السوفيتي الزراعية المتطورة . وتشغل المرتبة الثانية بين الجمهوريات المتحدة من حيث زراعة الكتان ، والمرتبة الثالثة من حيث زراعة البطاطا وإنتاج الحليب ، والمرتبة الرابعة من حيث إنتاج اللحم والبيض .

ويؤمن تطور الصناعة والزراعة ، وأبعاد البناء الشاسعة ، غو مداخيل السكان غواً كبيراً ، والنجاحات في تطوير التعليم العام والعلم والفن ورعاية الصحة ، ويدعم مركز الجمهورية العلمي - أكاديمية العلوم البيولوجية - حيث يعمل أكثر من ٥٠٠٠ عالم يدرسون ويحلّون قضايا الساعة في ميادين الرياضيات والسيبرنيتيك والآلات الحاسبة والطاقة الذرية وبناء الآلات وبناء الأجهزة والكيمياء والبيولوجيا . ويروى بمجمل عدد العاملين العلميين على ٣٩٠٠٠ شخص .

رابعاً - جمهورية أوزبكستان

في الجنوب الشرقي من الاتحاد السوفييتي بين نهري سirdاريا وأموداريا (سيحون وجيجون) تقع أكبر جمهورية إسلامية في آسيا الوسطى السوفيتية وهي جمهورية أوزبكستان التي تأسست في ٢٧ تشرين الأول ١٩٢٤ . مساحتها تقارب مساحة العراق أو ٤٤٧,٤ ألف كيلو متر مربع ويزيد عدد سكانها عن سكان العراق أو ١٦,٥٨٢ مليون نسمة . عاصمتها طشقند . وفي قوامها تدخل جمهورية قره قلباقتا ذات الحكم الذاتي .

وتؤلف اوزبكستان قاعدة القطن الأساسية في الاتحاد السوفييتي ، وبالموازاة مع عام ١٩٢٢ فقد ازداد مجمل محصول القطن الخام ١٥٠ مرة . وتنتج اوزبكستان زهاء ثلثي محصول هذه المادة الأولية الثمينة في الاتحاد السوفييتي .

كما بلغت تربية دود القز وتربية غنم قره قول (فراء استراخان) والبستنة وزراعة الرز مستوى رفيعاً . ويشكل توليد الطاقة وبناء الآلات وصناعة الحديد والفولاذ والمعادن غير الحديدية والكيمياء ، ملامح وجه الجمهورية الصناعي . واوزبكستان اليوم هي جمهورية صناعية زراعية تحوي أكثر من ١٥٠٠ مؤسسة صناعية كبيرة مزودة بأحدث منجزات التكنولوجيا . وينطوي باطن الأرض الأوزبكية على البترول والفحم . وتشغل هذه الجمهورية إحدى المراتب الأولى في الاتحاد السوفييتي من حيث احتياطات الغاز الطبيعي .

هذا وقد أحرزت اوزبكستان نجاحات كبيرة في تطوير التعليم العام والثقافة والعلم . ويعمل فيها أكثر من ٣٦٠٠٠ من العاملين العلميين . وتحوي المؤسسات التابعة لأكاديمية العلوم الأوزبكية أكثر من ٤٠٠٠ عالم . ويقال إن هذه الجمهورية عبارة عن فردوس حقيقي في نظر المؤرخين وعلماء الآثار حيث يدرسون آثار الثقافة الإسلامية العريقة في خوارزم وإمارة خيوه وعصر آل تيور . وقد أنجز كليا ترميم التحف المعمارية في كل من سمرقند وبخارى ..

ويتم في هذه الجمهورية استصلاح ١٠٠٠٠٠ هـ سنوياً على حساب الصحراء . وتحوي خزانات يتكدس فيها زهاء ٣٥ مليار م^٣ من الماء العذب أو ما يعادل بحيرة الأسد على سد الفرات ، لأن كل طن

واحد من القطن يتطلب ٦٠٠٠ م^٢ من الماء العذب وهكذا أصبح مردود القطن من أفضل أمثاله في العالم لأن كل هكتار يعطي هنا ٣١٠٠ كغم من القطن .

خامساً : جمهورية كازاخستان

كازاخستان هي الجمهورية الثانية من حيث المساحة بعد جمهورية روسيا الاتحادية أو ٢,٧١٧ مليون كم^٢ . وعدد سكانها ١٥,٥٦٢ مليون نسمة . وقد تأسست في البدء جمهورية كازاخستان في ٢٦ / ٨ / ١٩٢٠ كجمهورية ذات حكم ذاتي ضمن إطار جمهورية روسيا الاتحادية . ولكن فيما بعد وبالتحديد في ٥ / ١٢ / ١٩٣٦ ، أصبحت جمهورية كازاخستان المتحدة وعاصمتها آلا آطا .

وفي عهد السلطة السوفييتية تحول قطر البدو هذا إلى جمهورية ذات صناعة متنوعة الفروع ، وزراعة وتربية للمواشي متطورتين ، ومستوى ثقافي رفيع ، وقامت صناعة عصرية كبيرة تنتج حالياً خمسة أمثال ما كانت تنتجه روسيا كلها قبل الثورة . وقد اكتشفوا في باطن أرض كازاخستان جميع الخامات النافعة المعروفة في الطبيعة تقريباً . وتصدر كازاخستان إنتاجها إلى ٧٠ بلداً من آلات وأدوات معقدة وأجهزة وفلزات وصفائح المعادن غير الحديدية والفراء ومعلبات اللحوم .

وقد رفع استصلاح الأراضي البكر اقتصاد كازاخستان إلى درجة جديدة نوعياً وجعل منها أكبر مرعى في الاتحاد السوفييتي . تبلغ مساحة الأراضي البكر والبور المفلوحة في كازاخستان ٢٥,٥ مليون هكتار . وتشتهر كازاخستان كنطقة كبيرة لتربية المواشي في شرق الاتحاد السوفييتي . وبعد أن كان الذين يعرفون القراءة والكتابة بين السكان الأصليين المسلمين الذين يشكلون نصف سكان الجمهورية لا تتجاوز نسبتهم ٢ ٪ أصبح التعلم الثانوي إلزامياً حالياً .

سادساً : جمهورية جورجيا (الكرج)

وهي جمهورية أخذت شكلها الحالي بتاريخ ٥ / ١٢ / ١٩٣٦ . وتدخل ضمن كيان جمهورية أبخازيا ذات الحكم الذاتي وجمهورية آجاريا ذات الحكم الذاتي ومقاطعة أوسيتيا (قوشة) ذات الحكم الذاتي . ومساحة جمهورية جورجيا ٦٩٠٠٠ كيلومتر مربع وعدد السكان ٥,١ ملايين . وعاصمتها تبليسي أو تفليس .

وفي هذه الجمهورية تنوع كبير من الحيوانات والنباتات والثروات الطبيعية والأحوال المناخية ولاسيما الساحلية . وقد كبحت السدود جماع الأنهر الجبلية الغزيرة المياه ، وقامت إلى جانبها المحطات الكهربائية الموحدة في الشبكة العامة للمنظومة الطاقية فيها وراء القفقاس (جورجيا وأرمينيا وأذربيجان) . ويكون باطن الأرض غنياً بالفحم والمرمر والنحاس والنفط والمنغنيز الذي تعتبر مؤسساته في تشياتورا من أكبر المؤسسات في العالم لاستخراج الفلز الرفيع النوعية . وتنتج جمهورية

جورجيا في يوم ونصف قدر ما أنتجته في كل عام ١٩٢٢ من المنتجات الصناعية .

وتضفي المناطق شبه المدارية ، الاصاله على زراعة جورجيا ، والشاي والمحاصيل من أهم المزروعات شبه المدارية ، وتعتبر الكروم وبساتين الأشجار المثمرة وزراعة التبغ وزراعة النباتات الزيتية الأثرية من الفروع الأساسية في الزراعة وتغطي منتجعات ساحل البحر الأسود والمنتجعات الجبلية في جورجيا بشهرة عالمية .

وترقى منابع ثقافة الشعب الجورجي الروحية إلى الماضي البعيد ، لأن جورجيا من أقدم بلدان العالم ، ويستهل « أبو التاريخ » هيرودوت مؤلفه بوصف العلاقات المتبادلة بين اليونان وكولخيدا أي جورجيا الغربية . وتعود معلوماته إلى الألف الثاني قبل الميلاد . وهناك أصداء عن أحداث أقدم عهداً ، هي الأساطير عن الأرغونوط الذين زاروا كولخيدا بحثاً عن الصوف الذهبي . وأسطورة بروجمته - أميرافني العظيم الذي حصل على النار من أجل الناس فسمرته الآلهة عقاباً على ذلك في جبال القفقاس .

سابعاً : جمهورية أذربيجان

ويعود كيانها الحالي إلى ٥ / ١٢ / ١٩٣٦ حيث أصبحت جمهورية متحدة . وتشغل جمهورية أذربيجان المرتبة الأولى بين جمهوريات ما وراء القفقاس من حيث المساحة ٨٦٠٠٠ كم^٢ ومن حيث عدد السكان ٦,٣ ملايين نسمة . وتدخل جمهورية ناخيشيفان ذات الحكم الذاتي ، ومقاطعة قره باخ الجبلية ذات الحكم الذاتي ، ضمن إطار جمهورية أذربيجان ، وعاصمتها باكو .

وإذا كان المثل القفقي يقول : « ما تعطيه هو لك » فإن العلاقات الاقتصادية بين هذه الجمهورية والجمهوريات السوفييتية الأخرى أضفت على هذا المثل مغزى خاصاً ، ذلك أن أذربيجان تقدم للجمهوريات المجاورة الطاقة الكهربائية والبتروك والغاز الطبيعي ، ومنها تمتد خطوط أنابيب الغاز إلى تبليسي ويريقان عاصمة أرمينيا . ومن جورجيا تصل سكائب الفولاذ إلى مصنع سومغايت لتصفيح الأنابيب ، التي ترسل بدورها ، إلى أوكرانيا وجمهوريات آسيا الوسطى ومختلف المناطق في روسيا الاتحادية . وتتلقى أذربيجان الحديد الصب « الفونت » والصقائح من أوكرانيا والأورال وسيبيريا .

وأكثر الفروع تطوراً في زراعة أذربيجان هي زراعة القطن والكروم وبساتين الأشجار المثمرة وتربية المواشي في المراعي . وكانت نسبة المتعلمين في هذه البلاد لا تتجاوز ٩,٢ ٪ في عام ١٩٢٠ ، ولم يكن في البلاد مؤسسات للتعليم العالي ، أما الآن فإن التعليم بجميع أنواعه ودرجاته يشمل في أذربيجان مليونين و ٤٠٠ ألف شخص . ويصيب كل ١٠٠٠٠ نسمة من السكان في أذربيجان ١٧٠ طالباً مقابل

١٦١ في فرنسا و ١٠٦ في ألمانيا الاتحادية و ٩٨ في بريطانيا و ١٠٤ في اليابان . ويعمل في أكاديمية العلوم الآذربيجانية ٤٠٠٠ شغل علمي . وقد أنشئ فيها معهد البحوث الكونية للموارد الطبيعية . ولغة سكان البلاد تركية وهم من المسلمين الشيعة .

ثامناً : جمهورية ليتوانيا

تقع جمهورية ليتوانيا على الساحل الجنوبي الشرقي من بحر البلطيق . وتتفوق هذه الجمهورية على جارتها الشماليين لاتفيا وأستونيا من حيث المساحة ٦٥٠٠٠ كم^٢ وعدد السكان ٣,٥ ملايين نسمة .

وليتوانيا هي الوطن الأول للقبائل البلطيقية التي تعيش هنا منذ الألف الثاني قبل الميلاد كالبروس والاتفاغ والكورس وغيرها . وظهر كيان هذه الدولة في حزيران ١٩٤٠ ، وعاصمتها فيلنوس ، ومن ثم تحولت الجمهورية من زراعية إلى صناعية . ففي خلال ستة أيام تنتج حالياً من المنتجات الصناعية قدر ما أنتجته في كل عام ١٩٤٠ . وتنافس الأقمشة الليتوانية الأقمشة الإنكليزية العالمية الشهرة وتتفوق عليها أحياناً من حيث النوعية وتباع منتجات مؤسسات النسيج في كاوناس وفيلنوس وشاوبولاي في أكثر من ٨٠ بلداً . وترسل ليتوانيا الآلات الحاسبة وغير ذلك من المنتجات الصناعية إلى جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي وترسل الجمهوريات الأخرى إلى ليتوانيا ما لا تنتجها ليتوانيا . وقد اشترك الاختصاصيون والعمال في تصميم وبناء خط أنابيب الغاز الطبيعي إلى ليتوانيا من داشافار في أوكرانيا ، وقدموا من أوكرانيا وبييلوروسيا ولافيا وليتوانيا ذاتها . وقد تعاونت كل الجمهوريات في بناء محطة كاوناس الكهربائية بصورة فعلية .

وتوائم الظروف الطبيعية والمناخية في ليتوانيا تكثيف الزراعة المختصة بتربية الماشية من أجل اللحم والحليب وتربية الخنازير وزراعة بعض النباتات الصناعية والعلفية . ونصف مواطني هذه الجمهورية حصلوا على التعليم العالي أو الثانوي .

تاسعاً : جمهورية مولدافيا

في الطرف الأقصى من جنوب غرب الاتحاد السوفيتي ، حيث ينتهي السهل الروسي ، تقع جمهورية مولدافيا ومساحتها ٣٣٠٠٠ كم^٢ يسكنها ٤,٠٢٤ مليون نسمة . وفي ٢ آب ١٩٤٠ توحدت مع بيسارابيا ذات الحكم الذاتي وتحولت إلى جمهورية مولدافيا المتحدة وعاصمتها كيشينيف . وكانت معظم أراضي هذه الجمهورية تابعة لرومانيا قبل ١٩٤٣ .

وتتصف مولدافيا بكثافة السكان الكبيرة وتتوفر فيها الأيدي العاملة لأن متوسط كثافة السكان ١١٩ نسمة بالكيلو متر المربع وهذا أكبر متوسط بين كل جمهوريات الاتحاد السوفيتي .

وهناك أغنيات وأساطير كثيرة عن جمال الأرض للمولدافية وسخائها . وتفطى التربة السوداء

- وهي خير تربة في العالم - أراضي مولدايا كلها تقريباً . وفي تربة كهذه يمد غصن وقع صدفة من عربة جنوره في الأرض الهشة ، أو بذرة كرز رماها سائر في حوش ما ، أو جوزة سقطت من متقار طائر في الأرض المحروثة ، ويؤمن المناخ الحار ووفرة الشمس امكانيات موائمة لتطوير زراعة متعددة الفروع . ومن أهم ثروات هذه الجمهورية العنب .

ومنذ ٥٠ سنة كانت كلمتا « مولدايا الصناعية » تبدوان غريبتين . أما اليوم ، فإن مؤسساتها تنتج الجارات والآلات الحاسبة والأجهزة الكهربائية . وتنتج مولدايا الآن في أقل من نصف يوم من المنتجات الصناعية أكثر مما كانت تنتج في كل عام ١٩٢٢ .

وتعود شهرة مولدايا إلى صناعة الخمر وتشغل مولدايا المرتبة الثالثة في الاتحاد السوفيتي في مضار إنتاج خمر العنب والمعلبات والسكر الناعم .

عاشراً : جمهورية لاتفيا

تقع هذه الجمهورية الاشتراكية في الشمال الغربي من الاتحاد السوفيتي على سواحل بحر البلطيق . مساحتها ٦٢٧٠٠ كم^٢ وعدد سكانها ٢,٥٥١ مليون نسمة . وللأرض اللاتفية تاريخ حافل وتذكر أنقاض القصور القديمة بالحروب المدمرة كما تحفظ الآثار الجلييلة مجد مآثر الشعب . ونشأت هذه الجمهورية في ٥ / ٨ / ١٩٤٠ لتدخل في كيان الاتحاد السوفيتي .

عاصمتها ريفا التي لا تعتبر مركزاً ثقافياً صناعياً في الجمهورية فحسب بل أيضاً مركزاً ثقافياً عريقاً تقوم فيه أكاديمية العلوم اللاتفية التي تضم ١٧٠٠ من العاملين العلميين ، و ١٠ مؤسسات للتعليم العالي . وفي الجمهورية ٦٨ متحفاً ، بينها متحف كاتدرائية دومسكي وهو عبارة عن إنشاء معماري تاريخي بارز .

وقد ازداد الإنتاج الصناعي فيها ٤٦ مرة بالموازنة مع عام ١٩٤٠ . وتتخصص زراعة لاتفيا في تربية الماشية للحليب والمواشي الأديلة والخنائير . وتلعب لاتفيا دور « بوابة بحرية » مهمة للاتحاد السوفيتي وعبر مرافئها يتاجر الاتحاد مع دول عديدة .

حادى عشر : جمهورية قبرغيزيا

أخذت هذه الجمهورية كيانها الحالي في ٥ / ١٢ / ١٩٣٦ بعد أن كانت جمهورية ذات حكم ذاتي ضمن كيان جمهورية روسيا الاتحادية . مساحتها ١٩٨٥٠٠ كيلو متر مربع ، أي تعادل مساحة سورية ولبنان ، وعدد سكانها ٣,٧٢٣ ملايين نسمة أكثرتهم من المسلمين عاصمتها فرونغزه .

وفي الشمال الشرقي من آسيا الوسطى السوفيتية تمتد سلاسل جبال تيانشان على مئات الكيلو مترات ، وفي باطن أرض تيانشان اكتشف الجيولوجيون في أرض قبرغيزيا مكامن الكثير من الفلزات

النافعة . ولكن أكبر ثروات الجمهورية هي المراعي في سفوح جبال تيانشان ، التي تؤمن الملف الملايين الرؤوس من المواشي التي تؤلف فرعاً من أهم فروع الاقتصاد الوطني فيها .

وقيرغيزيا الحالية ذات صناعة متطورة تضم أكثر من ١٣٠ فرعاً . وتقوم قيرغيزيا بدور منطقة منتجة للمعادن غير الحديدية والآلات الزراعية والمصنوعات الكهربائية والأجهزة . ولكن لا تزال قيرغيزيا ، رغم كل هذا ، منطقة زراعة متنوعة وتختص في تربية الأغنام الناعمة الصوف . والخيول الأصيلة ، وفي زراعة القمح والشندر السكري والتبغ والحشخاش الطبي والقطن والكروم .

وقد احرزت قيرغيزيا نجاحاً كبيراً في تطوير ثقافتها فبعد أن كان الشعب أمياً أوشك الآن أن ينتقل إلى التعليم العام الثانوي الإلزامي . وفي قديم الزمان بلغ الإبداع الشعبي الشفوي للشعب القيرغيزي ذرى رفيعة . وقد سجل بحاثه الأدب ملحمة « ماناس » التي تضم أكثر من مليون بيت من الشعر ، ويمكن تصنيف هذه الملحمة دون مبالغة ، في عداد أعظم تحف أدب القروسطي العالمي .

الثاني عشر : جمهورية طاجيكستان

وتقع في جنوب الاتحاد السوفيتي . مساحتها ١٤٣١٠٠ كيلو متر مربع وعدد سكانها ٤,١١٩ ملايين نسمة غالبيتهم مسلمون . وتأسست في ١٢ / ١٠ / ١٩٢٤ كجمهورية ذات حكم ذاتي ضمن إطار جمهورية أوزبكستان . وفي ١٦ / ١٠ / ١٩٢٩ تحولت إلى جمهورية متحدة . عاصمتها دوشانبه . ويتصف اقتصادها المعاصر بالزراعة الممكنة المتعددة الفروع ، والصناعة المتطورة وقامت لصناعة توليد الطاقة ، وقامت محطة نوريك الكهرمائية .

وطاجيكستان هي المنتجة الأساسية في الاتحاد السوفيتي للقطن الرفيع التيلة ، المادة الأولية المهمة للصناعة الخفيفة . وتحتل طاجيكستان المرتبة الثالثة في الاتحاد من حيث إنتاج القطن الخام . وقد قامت في الجمهورية منظومات فريدة للري ، وأنشئت خزانات مائية ، وشبكة واسعة من قنوات الري والصرف تقي التربة من التلح ومن الفرق .

وغدت طاجيكستان بلد التعليم الشامل . أما قبل الثلاثينات ، على حد قول مؤسس الأدب الطاجيكي صدر الدين عيني ، فقد كان الناس المتعلمون والثقفون نادرين كندرة الأشجار المثمرة في صحراء مالحة التربة . وتوجد الآن في طاجيكستان أكاديمية للعلوم يحل علماءها قضايا الفيزياء الفلكية وعلم الزلازل والجيولوجيا والجيوفيزياء .

الثالث عشر : جمهورية أرمينيا

عاصمتها يريفان . ومساحتها أقل بكثير من أية جمهورية متحدة أخرى ، أي زهاء ٣٠,٠٠٠ كيلو متر مربع أي تعادل بلجيكا أو هولندا ، وعدد سكانها ٣,١٦٧ ملايين نسمة ، ويطلق على أرمينيا لقب

بلد الشمس والجبال ، لأن تسعة أعشار أراضيها تقع على ارتفاع يربو على ١٠٠٠ م فوق سطح البحر ، وبلد الصخور والعنب ، وبلد الأودية السبعة . وقد تحولت أرمينيا المعاصرة إلى بلد صناعي زراعي ذي صناعة عالية التطور تنتج الآلات الحاسبة الإلكترونية والأجهزة ، وذي زراعة ممكنة .

وقد حددت خصائص الأحوال الطبيعية والاقتصادية الاتجاهات الأساسية في الزراعة الأرمينية ، ذلك لأن التضاريس الجبلية قد حددت من رقعة المساحات الصالحة للزراعة ، ولهذا لا تتيح الامكانيات المتوفرة في الزراعة « سعة » أي استصلاح أراضي جديدة بل يتيح التطور « عمقا » أي تكثيف الإنتاج الزراعي وزيادة المردود عن طريق أساليب الهندسة الزراعية وأعمال الاصطفاء .

وبما يلفت النظر تلبية القاعدة الطاقة في أرمينيا التي تفتقر لموارد الوقود والطاقة افتقاراً كلياً تقريباً . ورغم ضالة الموارد المائية فقد شكلت المحطات الكهرمائية التي بنيت على نهر أرمينيا ، وخاصة سلسلة محطات رازدان قاعدة أنجزت عملياً على أساسها كهرية الجمهورية كهرية تامة . وصارت ثروات الوقود في الجمهوريات المجاورة مصادر جديدة للطاقة في أرمينيا ، وهكذا بنيت المحطات الكهرمائية على نهر فوروتان والمحطة الكهروحرية الأرمينية ، وجمع خامات الذهب في زود ، واوتوستراد يريشان - سيفان وغير ذلك .

الرابع عشر: جمهورية تركيا

وقد تأسست في ٢٧ / ١٠ / ١٩٢٤ . مساحتها ٤٨١١٠٠ كيلو متر مربع وعدد سكانها ٣ ملايين نسمة . عاصمتها عشق آباد ، وتركيا بلد حضارة عريقة كانت تقوم فيها الزراعة المتطورة والمدن ، وفيها كانت تتلاقى طرق التجارة النشطة في الأزمنة القديمة والقرون الوسطى ، والتي تربط الصين والمهند بأوروبا الغربية وروسيا . وقد استهوت ثروات تركيا ، من قديم الزمان ، الفاتحين ، وفيها مرت قوات ملوك فارس القديمة والاسكندر المقدوني إلى أن فتحها العرب ونشروا فيها دينهم واجتاحتها جحافل المغول بقيادة جنكيزخان كما دمرتها عام ١٢٩٧ قوات تيمورلنك ودارت في هذه الأرض خلال عدة قرون رحى نضال ضار بين شاهات إيران وأمراء بخارى وخانات خيوة ، إلى أن اجتاحتها قوات القياصرة الروس في الربع الأخير من القرن الماضي وضمتها إلى الامبراطورية الروسية .

وتشغل صحراء قره كوم ، وهي من أكبر صحارى العالم ، قسماً كبيراً من أراضي الجمهورية ، ومع ذلك فإن تركستان منطقة غنية ذات صناعة متطورة . وقد أنشأت مشاريع كبيرة لاستخراج الغاز وتكرير النفط . وعلى أساس من الصناعة المتنامية نشأت وكبرت مدن جديدة عصرية مثل نبط داغ ، وتشليكن ، وهما مركزان لصناعة استخراج البترول ، ويبرم علي وهي منطقة صناعة الغاز المتنامية وبزمين وهي مركز لصناعة مواد البناء .

وقد جعلت ممكنة الزراعة ، وتغيير بنيتها بصورة عقلانية ، ولا سيما زيادة المساحات المزروعة

بالقطن ، أقول جعلت من تركانستان منطقة زراعة متقدمة وتربية للماشية ذات أهمية تشمل الاتحاد السوفييتي كله .

وفي هذه الجمهورية أكاديمية للعلوم التركانية والمدارس التركانية للرسم والنحت مما سمح بنهضة الشعب التركاني الثقافية .

الخامس عشر : جمهورية استونيا

وهي أبعد جمهوريات البلطيق الثلاث إلى الشمال . وتقع على ساحل بحر البلطيق بين خليج فنلندا وخليج ريغا . مساحتها ٤٥١٠٠ كيلومتر مربع ، وهي أقل جمهوريات الاتحاد السوفييتي سكاناً إذ لا تحوي سوى ١,٥ مليون نسمة . عاصمتها تالين . وفي استونيا ١١٥٠ بحيرة وخزان مائي و ٢٠٠ نهر وأكثر من ١٥٠٠ جزيرة ولا غرابة فقد مرت من فوقها الزخوف الجمودية وتركت عليها بصماتها . وكان أجداد الاستونيين « القبائل الاوغرو - فينية » يتعاطون الصيد بنوعيه وتربية المواشي والزراعة ويتاجرون مع اللفيين والاسكندنياف ومع الجيران الشرقيين السلاف . وتشكلت هذه الجمهورية السوفييتية خلال الحرب العالمية الثانية في ٦ / ٨ / ١٩٤٠ .

وفي استونيا السابقة كان الاقتصاد يتسم بطابع ريفي وكان الإنتاج الصناعي لا يمثل سوى خمس المنتوج الإجمالي . أما الآن فإن سيماء الجمهورية تحددها الصناعة التي يشكل منتوجها ثلثي الإنتاج الإجمالي .

ويؤلف الست البيتومي الثروة الرئيسية في باطن أرض استونيا . وقد اكتشف منذ أكثر من ٢٠٠ سنة في حوض كوخولا وتبلغ الاحتياطات الصناعية المنقب عنها ٦ مليارات طن .

وتعتبر محطة البلطيق الكهربائية الإقليمية هي أكبر محطة حرارية تعمل بالشت كما أن مصنع كرينغوله في نارفا هي من أكبر مؤسسات الأقمشة القطنية في الاتحاد السوفييتي .

وتعطي فروع اللحم والزبدة والألبان ، التي تنسم ، مع فرع السمك ، بأهمية تشمل الاتحاد السوفييتي كله ، تعطي زهاء نصف منتوج الصناعة الغذائية في استونيا .

وقد حدد البحر من قديم الزمان ، إلى حد كبير ، نشاط الاستونيين العملي ، وينطلق اليوم صيادو السمك الاستونيون على سفن - برادات كبيرة لصيد السمك ، والتي تشكل أساس صيد السمك في استونيا .

وتعتبر جامعة الدولة في تارنو من أقدم مؤسسات التعليم في الاتحاد السوفييتي كما أن معهد تالين البوليتكنيكي أكبر مؤسسة للتعليم العالي في استونيا . وتبدو شعبية الغناء الجوقي الحارقة الأهمية من خصائص الثقافة الأستونية .

الفصل الثالث

الشرق الأقصى

عملاقا آسيا : الصين واليابان

بيئة طبيعية متناقضة

يؤلف الشرق الأقصى الذي يكون على العموم معزولاً بالجبال المرتفعة وبصحراء الرمال وبالسهب أو بالغابة ، ولكنه ينفتح على المحيط الهادي ، أقول يؤلف رقعة استيطانية ومدنية مذهشة بسبب استمراريتها وبوحدتها . ويستطيع هذا الوضع الجغرافي أن يفسر مركزية الصينيين العنصرية ، الذين يعتبرون بأن الصين كانت دائماً بلداً وسطاً « زهونغ غوو » ، بيد أن المشاهد وأنماط الحياة لا بد أن تكون متنوعة جداً فوق رقعة تغطي مساحة ١٢ مليون كيلومتر مربع .

فهضبة التيبب التي تتكئ على جبال هيمالايا ، والتي يبلغ ارتفاعها الوسطي ٤٠٠٠ متراً ، تنتصب وكأنها « سقف العالم » الذي تنحدر عنه أنهار آسيا الشرقية والجنوبية الكبرى . وتهين على درجة وسيطة من جعدات جبلية ، متجمدة أو معرّة ، وعلى حوضات فسيحة استطاع الريح أن يكسّر فيها كئبناً رملية في حوض تاريم وطبقات من اللوس ، كما في حوض النهر الأصفر « هوانغ هو » ، وذلك ضمن منخفضات مغلقة ، أو تنصرف مياهها نحو النهر المذكور . تلك هي الصين العليا القارية ذات الواحات والبدواة الرعوية ،

والتي كانت تدعى في الماضي الصين الخارجية ، بالمقابلة مع الصين البحتة ، أو الصين الامبراطورية ذات الأقاليم الثانية عشرة . أما باتجاه المحيط الهادسيكي ؛ فلا نجد أي صحراء تفصل النطاق المعتدل عن المناطق المدارية الرطبة . وقد نشأت المدنية الصينية الزراعية القديمة في المنطقة المعتدلة ، في بيئة مفتوحة مؤلفة من سهول لحقية خصيبة ، ومن تلال قليلة الغابات ، تحت تهديد الجفاف والفيضان بصورة دورية . وقامت المدنية المذكورة على السيطرة على المياه والزراعة الحثيثة ، وزراعة الذرة البيضاء صيفاً والقمح الشتوي ، مما يتطلب جهداً جماعياً واستمراراً ، مما كان له تأثيره على طرائق التفكير .

ولقد فرضت هذه المدنية المتفوقة ذاتها شيئاً فشيئاً ، وتبنت زراعة الرز ، في بيئة جغرافية مختلفة من حيث التضريس والمناخ ، وذلك في الصين الجنوبية وفيتنام وفي شبه جزيرة كوريا والأرخبيل الياباني .

ولقد سمحت الأمطار الموسمية الصيفية لزراعة الرز ، وهو أحد حبوب الهند ، والذي يتطلب الحر والرطوبة ، بأن يمتد من الصين المدارية ، وذلك قبل ٤٠٠٠ سنة إلى كوريا ومنايا اليابان . ولما كان حقل الرز يتطلب أشغال تمهيد الأرض وري ، فإنه يستدعي بالتالي وجود جماعات كثيفة من الفلاحين ، كما أن مردوده المرتفع وقيمه الغذائية العالية ؛ يسمح بوجود كثافات سكانية شديدة ، هذا ولاسيما إذا كان من الممكن الحصول على محصولين في العام بفضل الشتل والأنواع المبكرة من البذار في النصف الجنوبي من الصين ، وفي أقصى الجنوب من الأرخبيل الياباني .

وإجمالاً فإن الشرق الأقصى ، وهو جزء من آسيا الموسمية ، يتصف بوجود شتاء جاف وبارد نسبياً وصيف مطير وحار ، غير أن فصل الأمطار يكون طويلاً نسبياً ، هذا فضلاً عن أن بعض المناطق تتلقى أيضاً تهطالات شتوية كما في شمال غرب اليابان . بيد أن ارتصاف خطوط التضريس

من عرضية وطولية ، تجعل من الصين العليا ، مع ذلك ، ولاسيا فيما وراء النهر الأصفر ، منطقة قاحلة .

وتفسّر المفارقات المطرية ، أكثر من المفارقات الحرارية ، ذلك التوزع في أنماط الحياة التقليدية ، كزراعة الرز ، وزراعة الحبوب « الجافة » ، وتربية الماشية البدوية ، وزراعة الغوطات^(١) .



وتتعلق آلية الموسميات في الشرق الأقصى على الخصوص بالفارق الحراري بين الفصول ، أي بين كتلة الهواء القارية المفرطة البرودة في آسيا ، وبين هامشها البحري . ففي الشتاء يسود على منغوليا نطاق من ضغوط عالية ، ينساب منها هواء بارد وجاف ، وهي الموسميات الشتوية ، والتي تصل حتى خليج الطونكين . ولكن في حزيران ، يحتاج الهواء المداري ، الحار والرطب ، الصين الجنوبية ، حتى ليلامس منشوريا والأرخبيل الياباني ، الذي ينضغ غالباً لهواء مداري بحري مترطب فوق المحيط الهادي . إذن نميز أحياناً موسميات صينية ذات أمطار صيفية غير منتظمة في الصين الشمالية ، وموسميات يابانية أكثر انتظاماً . ويزداد هذا المخطط الشديد البساطة تعقيداً بالاضطرابات الجبهية . ففي الشتاء تجلب المنخفضات الناجمة عن الجبهة القطبية بعض الأمطار إلى الصين الوسطى ، والثلوج إلى اليابان الشمالية الغربية ، كما تلطم التيفونات ، وهي سيكلونات مدارية ، سواحل الصين الجنوبية والسفح الشرقي من اليابان .

(١) وهي الواحات بلا نخيل .

النموذج الياباني والطريق الصيني

لقد اختار الشرق الأقصى في علاقاته مع بقية العالم سياسة الانفتاح تارة أو الانغلاق تارة أخرى ، وذلك حسب صروف التاريخ . فقد كان على علاقة مع الهند والشرق العربي ومع سهوب أوروبا الشرقية والبحر الأبيض المتوسط ، بواسطة الطرق البحرية عبر المضائق الماليزية ، أو بواسطة دروب قوافل آسيا الوسطى مثل « طريق الحرير وطريق الشاي » . ويدين العديد من الاختراعات كالورق والبارود والبوصلة بنشئها وبيانتشارها إلى هذه المبادلات التي كانت كثيفة على الخصوص بين القرن الثالث عشر والسادس عشر . ولكن بعد أوائل الاتصالات مع الملاحين والمبشرين الغربيين القساة ، تفوقعت كل من الصين في عهد الأسرة المنشورية ، واليابان في عهد الشوغون ، على نفسها خلال قرنين كاملين من الزمن .

وفي وسط القرن التاسع عشر لم يكن رد فعل اليابانيين والصينيين واحداً تجاه الدول الأوروبية العظمى والولايات المتحدة التي كانت تبحث عن الأسواق . وجاء عصر الميجي « عصر النور » عام ١٨٦٨ ، ليدخل اليابان في طريق التحديث ، على غرار أوروبا ، ثم الولايات المتحدة . وفي عام ١٩٣٩ كانت صناعة اليابان تعادل صناعة فرنسا ، وأصبح « لليابان الكبرى » مستعمرات واسعة ، ظلت تستغل خيراتها حتى عام ١٩٤٥ .

وما إن تحررت من قيود هزيمتها بموجب معاهدة سان فرانسيسكو عام ١٩٥١ ، حتى استطاعت اليابان الجديدة ، رائدة الرأسمالية الليبرالية ، أن تصبغ

في العيد المئوي للميجي ثالث قوة اقتصادية في العالم . وأول دولة في التكنولوجيا وفي عدد المهندسين ، بالنسبة للسكان وأكثر الدول استعمالاً للإنسان الآلي robot إذ كانت في عام ١٩٨٢ تملك نصف هذا النوع من الآلات في العالم . وللنموذج الياباني أنصاره . ففي تايوان وفي كوريا الجنوبية عملت المساعدات الأمريكية والاستثمارات اليابانية على تعجيل التنمية الصناعية ، فقامت الصناعات الخفيفة ، ثم تلتها مركبات بحرية للصناعات الثقيلة ، على غرار اليابان . وفي خلال بضعة أعوام ، استطاعت مجموعة هيونداي الكورية أن تفرض نفسها في الأسواق العالمية حسب الطريقة اليابانية^(١) ، وأصبحت سيارات كوريا الجنوبية معروفة بمجودتها في العديد من الأقطار .

أما الصين التي كان مجتمعا الزراعي والعسكري يمقت التجديدات التقنية ، فقد ظلت تتخبط خلال قرن كامل في الفوضى والبؤس وذل « المعاهدات غير المتكافئة » . ومنذ « تحريرها » في عام ١٩٤٩ ، أعيد تكوين السلطة المركزية التي أعلنت عن نشوء « الصين الثورة » بعد قياس مدى التأخر الاقتصادي ، وأبعاد البلاد ، والتضخم الديموغرافي ، وذلك ضمن تجربة تنظيم اجتماعي اقتصادي مستوحاة في البداية من السوفيات ، ثم أصبحت ذات أصالة كلية .

وقد كان لهذا « الطريق الصيني » أزماته الحادة كالقفزة الكبرى للأمام بين ١٩٥٨ - ١٩٦٠ ، والثورة الثقافية بين ١٩٦٦ و ١٩٦٩ . واستناداً إلى استراتيجية تنمية اقتصادية قائمة على المساواة المطلقة والمواضعة على الجهد الجماعي ، وكان الطريق الصيني يرمي إلى إرساء قواعد إنسان جديد ، متضامن ، متعدد الكفاءات ، متفانٍ ، أو حسب فكرة ماوتسي تونغ ، هو « أحمر وخبير » في

(١) لقد عدت كوريا منذ ١٩٤٦ إلى تحويل ٩٠٪ من المدارس الثانوية إلى معاهد مهنية تكنولوجية بصورة تدريجية ، وهكذا تحول شعبها من أمة كلام إلى أمة عمل ومهارة ، حتى أن عدد العمال المؤهلين الكوريين وصل إلى رقم ٩٠٠٠٠ في أقطار الخليج العربي خلال عام ١٩٨٠ والمكلفين بتنفيذ المشاريع الكبرى .

جغرافية الدول الكبرى (٢١)

الوقت ذاته . ولكن بعد عهد ماوتسي تونغ تأكد الفشل الجزئي على الأقل ، سواء في تغيير العقليات ، مثلما كان في النتائج الاقتصادية . وهنا رجحت آراء الواقعيين على العقائديين : وتبين أن رصيد مليار صيني من الناتج القومي لا يتجاوز ناتج ٥٣ مليون فرنسي ، الذي يقل عددهم عن الصينيين بمقدار ١٨ مرة ، أو أن مستوى الفرد الفرنسي الواحد أعلى بمعدل ١٨ مرة من مستوى المواطن الصيني .

ومنذ ١٩٧٦ استعاضت عن « الاعتماد على قواها الذاتية » بسياسة اقتصادية تقبل العون المالي والتقني من الدول الأجنبية ، ولا سيما من جارتها ، ورائدة شعوب آسيا في معارج الحضارة ، وهي اليابان ، التي تقدم العون التكنولوجي للاتحاد السوفياتي في استغلال ثروات سيبيريا والتكنولوجيا الحربية للولايات المتحدة في أواخر ١٩٨٢ .



الامبريالية اليابانية

لقد استولت اليابان في عام ١٨٧٦ على جزر كوريل وريوكيو « او كيناوا » . وفي ١٨٩٥ انتزعت جزيرة فورموزا « تايوان » من الصين ، وفرضت حمايتها على كوريا ، ثم ضمتها نهائياً في ١٩١٠ . وفي أعقاب الحرب الروسية اليابانية التي دمرت فيها الأسطول الروسي في معركة تسوشيما بتاريخ ٢٧ / ٥ / ١٩٠٥ ، استحوذت على النصف الجنوبي من جزيرة ساخالين ، مع ميناء بورت آرثر ، ومنطقة نفوذ في منشوريا ، التي أصبح اسمها في عام ١٩٣٤ منشوكو ، وأصبحت امبراطورية تدور في فلك اليابان ، التي نالت حق الانتداب من جمعية الأمم على الممتلكات الألمانية السابقة . في المحيط الهادي . ولكن لما رغبت في الاستحواذ على الصين وجنوب شرق آسيا وإدخالها في « نطاق الازدهار المشترك » ، خسرت اليابان نهائياً كل هذه الملحقات باستثناء جزر ريوكيو التي ردها الأمريكيون في عام ١٩٧٢ .



الصين

تضريس على شكل درجات

تمتد أرض جمهورية الصين الشعبية على رقعة تبلغ مساحتها ٩,٦ ملايين كيلومتر مربع ، أو ما يعادل عشرة أضعاف مساحة مصر . ويتألف ثلثا هذه المساحة من جبال أو من هضاب ينوف ارتفاعها عن ١٠٠٠ م . في حين لا تمثل السهول المنخفضة أكثر من عشر هذه البلاد . فهناك الصين العليا في الغرب ، ذات الملامح المورفولوجية والمناخية العائدة لآسيا الوسطى ، والتي تتنافر مع الصين الشرقية ، أو صين الموسميات . فن ناحية نجد أراضي مرتفعة وأحواضاً ذات آفاق واسعة متجانسة ، ومن ناحية أخرى منطقة مجزأة ، مؤلفة من جبال ومن أودية ومن سهول لحقية (إطمائية) كبيرة .

وتتألف التيبب ، التي تحوم ارتفاعاتها الوسطى حول ٤٠٠٠ م ، من تعاقب منخفضات وسلاسل ضيقة ، ترتفع السلسلة الجنوبية منها ، وهي هياالايا إلى ٨٨٨٢ متراً ، والتي تشرف على أخدود يجري فيه ، في اتجاه معاكس ، المجاري العليا لنهري الهندوس وبراها بوترا . ونجد في الشرق حزمة جبلية ملتوية ، ذات اتجاه طولاني ترتفع إلى ٧٥٩٠ م ، وحيث تعمل خنادق نهري الميكونغ ويانغزي على عزل المعقل التيبتي . وتقوم في الشمال سلسلة مقووسة على مثل الارتفاع المذكور تسمى إلى ٧٧٢٤ م تفصل التيبب عن إقليم سينجيانغ (التركستان الصينية) وعن منغوليا .

ويتألف حوض سينجيانغ (التركستان) من حوضات ذات كُثبان وسبخات ملحية ، تهبّط أحياناً لما دون مستوى البحار ، كحوض تورفان الذي يهبّط إلى - ١٥٤ م ، بيد أن جبال تيانشان القديمة التي نهضت إلى ٧١٣٩ م تنتصب بين حوض تاريم وظنغاريا ، والتي تتصل بالصين بواسطة ممر غانسو .

وتمتد منغوليا الداخلية على الهوامش الجنوبية لصحراء غوبي ، حيث يرسم النهر الأصفر (هوانغه) عقفته الكبرى ، وهي عبارة عن شبه سهل Pénéphine متبلور الصخور ، ينهض في اتجاه منشوريا .

وبين هذه الحافة الصلعاء ، المؤلفة من جبال خينغان والكتل الجبلية الغاية ، التي كثيراً ما تتعمّم بالثلوج شتاءً ، والتي تؤلف التخوم الكورية ، والتي ترتفع إلى ٢٧٤٤ متراً ، يمتد السهل المنشوري ، أو هيلونغيانغ .

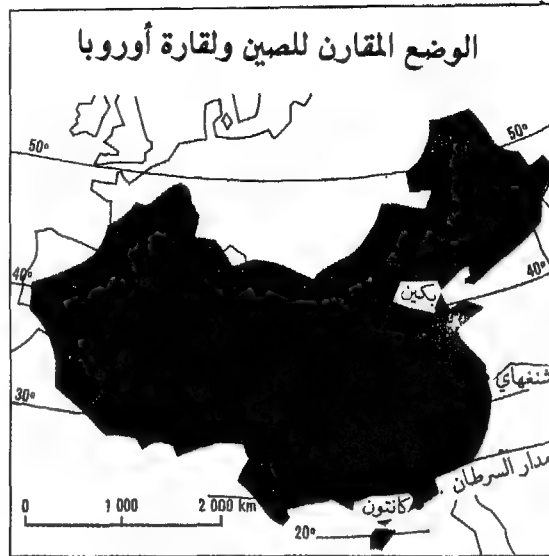
وتقوم شبه جزيرة ليادونغ وشبه جزيرة شاندونغ المتقابلتان ، والمتصفتان بكثرة تضاريسها ، وبخلجانها العميقة ، تقومان بإغلاق بحر بوهاي Pohai ، وهو البقية الباقية من خليج كان أكثر اتساعاً في القديم . وقامت لحققات النهر الأصفر المتراكمة بتشكيل السهل الكبير الذي يحده جرف من الغرب . وإلى الغرب منه تمتد هضاب اللوس Loess ، وهي توضعات نهريّة ريمية تحجب تفاصيل التضريس المدفون ، ولكنها تكون محزّزة بمسيلات ذات جوانب عمودية . وإلى الجوانب يمتد حاجز كينلينغ الجبلي ، الذي يرتفع إلى ٤١٦٦ م ، والذي ينخفض كي يسمح للسهل الكبير بالاتصال بمر اليانغزي اللحي .

ويجري نهر يانغزيجيانغ تارة في حوضات ، حيث تقوم البحيرات بتنظيم صيبه ، إذ تردّ له في موسم الشح الشتوي بعض المياه التي تختزنّها في فصل الفيضان الصيفي ، وتارة في خنادق وحشية . ويقوم بحزّ مجراه في حوض سيشوان الأحمر ، الذي اشتق اسمه من لون الصخور الرملية التي حوّلتها الحت

إلى تلال . والواقع تظهر كل الصين الجنوبية بالفعل ، على شكل متاهات من سلاسل جبلية صغيرة ومن منخفضات ، مع ساحل ذي جروف وشديد التحزّز باستثناء دلتا نهر كسيجيانغ ، الذي يصب عند كانتون . ولقد استطاع الكارست المداري في منطقة غوانغسي ، والناتج عن تحلّل شديد في الصخور الكلسية ، أن يقدم مشهداً غريباً مؤلفاً من أبراج صخرية ومن سهول صغيرة رطبة ، مشهداً يتكئ على مائدة منبسطة أكثر ارتفاعاً ، هي هضاب يونان .



تمتد الصين من الشرق إلى الغرب على مسافة ٥٠٠٠ كيلومتر ، أي تعادل المسافة بين لشبونة وإستراخان عند مصب نهر الفولغا ، أو ما يعادل خمس حزم ساعية . وتعادل المسافة بين نهر أمور (هيلونغيانغ) ، الواقع على درجة العرض ٥٤ وبين خليج طونكين ، الواقع فيا وراء مدار السرطان ، البعد بين موسكو والخرطوم أو ٤٠٠٠ كم . وبالموازنة مع أوروبا تبدو الصين مزحزحة نحو الجنوب ، ولهذا يكون وضعها الجغرافي أكثر شبهاً بموضع الولايات المتحدة ، وعند تساوي درجات العرض فإن لشرقي الصين وشرقي الولايات المتحدة صفات مناخية متشابهة إلى حد كبير (شكل ٢) .



الشكل ٢

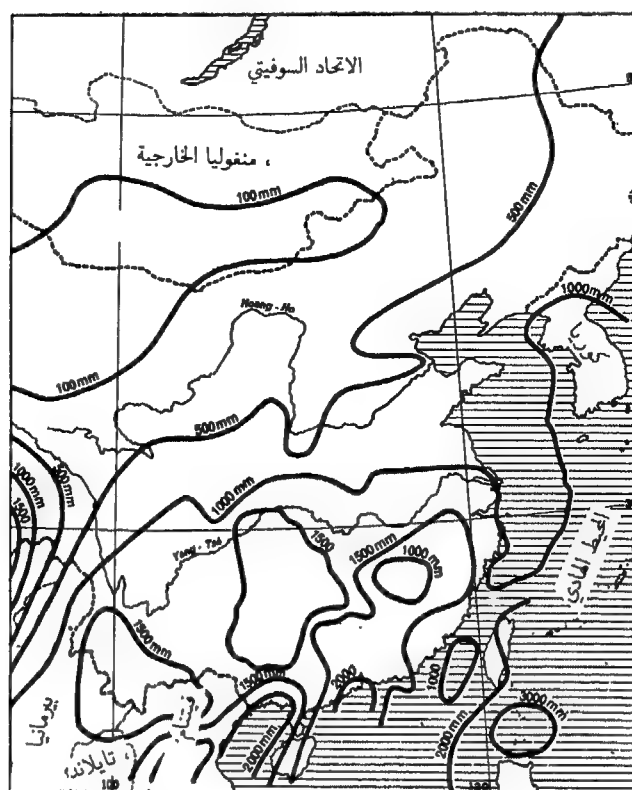
الصين : أرض النكبات الطبيعية

تزخر الحوليات الصينية بأخبار الكوارث القتالة : فالزلازل تصيب سائر البلاد المتصفة بشدة فقرها للاستقرار التكتوني : مثل إقليم يونان ، التيب ، سينجيانغ ، غانسو ، هضاب اللوس أو السهل الكبير ، حيث وقع آخر زلزال في عام ١٩٧٦ وأودى بحياة ربع مليون نسمة في المنطقة الواقعة بين العاصمة والبحر . غير أن الخطر يصدر على الغالب من نزوات المناخ ، التي تسبب سنوات القحط أو الفيضانات .

ويكون عدم انتظام المناخ ، الطابع المميز للصين الموسمية . أما الصين العليا فتتصف بشدة الفروق الحرارية ، اليومية والفصلية ، ففي طرفان يكون متوسط كانون الثاني - ١٠° ومتوسط تموز ٣٣° ، ولكن تسود قحولة ثابتة ، لأن كاشغر لا تنال وسطياً أكثر من ٥٥ مم من المطر .

ويسود على الصين الشمالية مناخ قاري ذو شتاء بارد ، وحتى قارس جداً في منشوريا . فيهب متوسط حرارة شهر كانون الثاني في خاريين إلى - ٢٠° ، في حين يكون الصيف حاراً . ففي بكين يستمر الانجماد الربيعي في كل مرة تهب فيها رياح الشمال الغربي القادمة من منغوليا المحملة بغبار اللوس . ويكون هذا الفصل البارد هو الفصل الجاف أيضاً : فبين تشرين الأول وأيار لا تتلقى مدينة تيانجين ، وهي ميناء بكين ، سوى ٨٩ مم من مجموع مقداره ٥١٦ مم . غير أن أمطار الموسميات الصيفية تكون شديدة التبديل بين عام وآخر .

وإذا كان معدل الأمطار السنوية في بكين هو ٦٣٠ مم ، فقد أمكن تسجيل حد أدنى هو ١٦٨ مم وحد أقصى ١٠٨٦ مم ، أي اختلاف بنسبة ١ إلى ٦ . وربما تؤدي فروق أقل إلى تلف الموسم الزراعي . ففي السهل الكبير تسكب الأمطار الموسمية عادة ٦٠ مم في شهر حزيران ، حيث تتم الحراثة الصيفية ، ولكن في خلال عشر سنوات ، وُجد أن هناك أربعة أعوام شديدة الجفاف ، أي أقل من ٤٠ مم ، واثنين مفرطي الرطوبة ، أي أكثر من ٢٠٠ مم ، وعندها تتأخر أعمال الحراثة ويضيع المحصول (شكل ٣) .



التهطالات في الصين

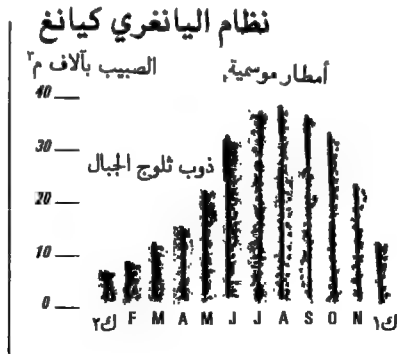
الشكل ٣

ويكون السهل الكبير أيضاً واقعاً تحت تهديد النهر الأصفر ، الذي شيدته من وحوله الحصيبة . والواقع يكون نهر الهوانغفه نهراً غريب الأطوار ، فيكون صبيه المتوسط ضئيلاً والشح الشتوي شديداً ، بعد أن يقوم بانعطافه الطويل في منغوليا . ولما كان هذا النهر يتصف بشدة حملته التي تبلغ ٢٤ كغم في المتر المكعب . فقد استطاع أن يبني عند مصبه في السهل مخروطاً ، يمنح النهر إلى التآرجح فوق خاصرتيه : فبعد أن غيّر مصبه مبتعداً بمقدار ٨٠٠ كم في عام ١١٩٤ ، عاد فاحتل سريره القديم في سنة ١٨٥٣ . ويكون (النهر الهوائي) المرفوع فوق عصبية لحقية ، محفوفاً بمحاجب تنهار أحياناً أمام فيضان شهر آب . وكانت أول مهمة أمام السلطة الثورية هي إصلاح هذه الحواجب .

أما الصين الجنوبية فتحظى بمناخ شبه مداري ذي فصول شتاء لطيفة وأمطار أكثر سخاء وانتظاماً . فإذا كانت شنغهاي تتعرض لبعض موجات البرد ، لأن متوسط كانون الثاني فيها ٣,٣° ، فإن الفصل الإنباتي يتجاوز الأحد عشر شهراً في الحوض الأحمر . كما تجهل مدينة غواندونغ الواقعة في جنوب غرب كانتون الانجماد . وهنا ينطبق فصل الأمطار على الموسميات الصيفية ، ولكنه يتمدد بالتيفونات ، التي كثيراً ما تلطم سواحل مضيق فورموزا . وفي كانتون تتلقى أربعة أشهر صيفية أكثر من ٢٠٠ مم ، بين أيار وآب ، وأربعة أشهر أخرى أكثر من ٨٠ مم . ولكن الاضطرابات الجوية الناجمة عن انتقال الجبهة القطبية ، تجلب أيضاً بعض الزخات الشتوية ولا سيما في الوادي الأدنى لنهر اليانغزي (شنغهاي) .



نظام نهر يانغزجيانغ : يتميز نهر يانغزى بصبيب وفير ونظام منسجم . فعند مصبه ، وبعد أن يقطع مسافة ٥٦٠٠ كم ، يصب وسطياً ٢٩٠٠٠ م^٣ / ثا ، أو أكثر غزارة من الفرات بمقدار ٢٨ مرة ، وأكثر من النيل باثنتي عشرة مرة . ويكون فيضان الصيف الواقع بين تموز وأيلول مخفّضاً بسبب انسكاب الكثير من المياه في البحيرات الكبرى المنظمة ، وفوق ٢٠٠٠٠ كيلومتر مربع من الأراضي المنخفضة على طرفي مدينة ووهان . ولكن يظل انقطاع السدود الجانبية مع ذلك ، كما حدث في ١٩٣١ تهديداً مصلتهاً فوق رقعة تمتد على ١٢٠٠٠٠ كيلومتر مربع وسهول غاصة بالسكان (شكل ٤) .



الشكل ٤

☆ ☆ ☆

المنحنيات المطرية الحرارية في ست محطات صينية : تدل الأعمدة في مثل هذه المنحنيات على ارتفاع التهطلات الشهرية . أما المنحنى فيدل على الحرارة الوسطى الشهرية . ويندر أن تنطبق هذه القيم على الحقيقة ، بسبب شدة الاختلاف في الحرارة بين السنين ولا سيما بالنسبة لكيفية التهطلات (شكل ٧) .

وإذا حسبنا مجموع درجات الحرارة للأيام التي يكون معدلها الحراري أكثر من ١٠ ، أمكننا أن نغيز في الصين خمسة مجالات مناخية كبرى :

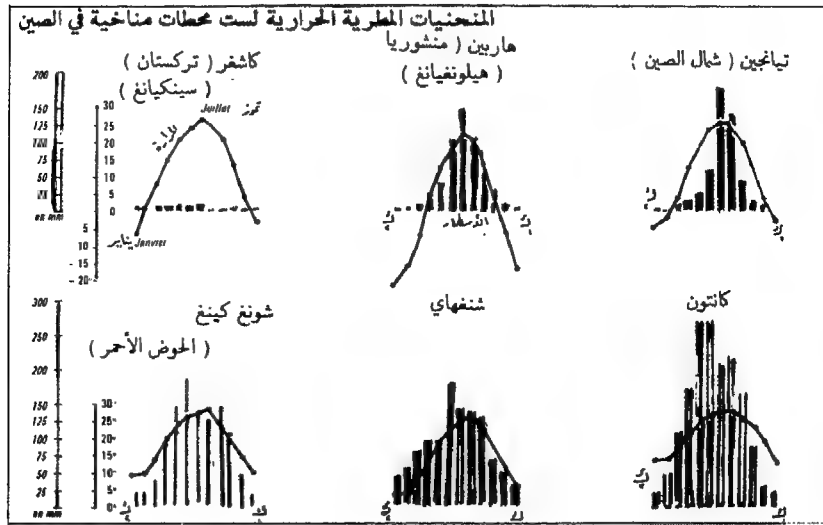
- فعندما يكون المجموع السنوي بين ٩٥٠٠ و ٨٠٠٠ درجة حرارة سنتفراد فهذا نطاق مداري محدود بالجنوب الأقصى .

- وعندما تتراوح بين ٨٠٠٠ و ٤٥٠٠ درجة حرارة مئوية في الصين شبه المدارية حيث لا تمنع حوادث الانجماد الشتوي النبات ذا الأوراق الدائمة فوق التربة المغسولة الحمراء .

- أما المناخ المعتدل الدافئ ، ومثاله مدينة تيانجين ، فيتراوح المجموع الحراري فيه بين ٤٥٠٠° و ٣٢٠٠° درجة ، وهنا يكون الشتاء بارداً والصيف حاراً . ويتألف النبات الطبيعي من غابة أشجار ذات أوراق نفضية أو من أشجار مخروطية ، أو مروج فوق ترب سمراء فاتحة ، معتدلة أو قلوية .

- وعندما يكون المجموع بين ٣٢٠٠ و ١٧٠٠ فالمناء معتدل بارد ، ذو شتاء شديد البرودة ، ولكن يظل الصيف حاراً يسمح بقيام المزروعات ويكون المشهد النباتي متناسباً مع مقادير التهطال ، فيما أن يكون غابة شمالية من راتنجيات (طايغا) أو سهب أو صحراء .

- وعندما ينخفض المجموع عن ١٧٠٠ درجة فالمناء قطبي . ففوق ترب متجمدة مدة تقارب نصف السنة ، كما في شمال منشوريا والتبت لا تكون هناك زراعة ممكنة .



الشكل ٥

الصين : إحصاء عسير

لقد انقضى حين طويل من الدهر دون أن يجري تعداد الجماهير الصينية اللهم ، إلا بصورة تقريبية ، كاستهلاك الملح ، والرسائل المنقولة ، والعائلات المكلفة بدفع الضرائب . ولكن كان من المتفق عليه منذ ٢٠٠٠ عام بأن الصين تؤوي إجمالاً ربع بني الإنسان ، وبعد أن كان عدد الصينيين ستين مليوناً حتى القرن الثاني عشر ، بلغ ١٢٠ مليوناً في أواسط القرن السابع عشر ، بفضل انتشار نوع جديد من الرز المبكر ، سمح بحني محصولين في العام في جنوب البلاد . وبعد ورود مصادر أقوات جديدة ، قادمة من أمريكا ، كالذرة الصفراء والبطاطا الحلوة ، تضاعف عدد السكان بين ١٧٥٠ و ١٨٥٠ كي يبلغ ٤٥٠ مليوناً . وقبل ظهور مالتوس بخمسة أعوام ، أبدى أحد المثقفين الكبار تخوفه من هذا الرقم^(١) .

ولقد حدثت ثورة ديموغرافية كما في أوروبا ، ولكن دون ثورة صناعية ، مما أدى إلى اكتظاظ السكان ، وكان قتل الأطفال شائعاً ، ونسبة الوفيات عالية ، واستفحال الكوارث الطبيعية ، والتدخلات الأجنبية ، والحروب الأهلية ، مما يدفعنا للافتراض بحدوث ركود عددي في عام ١٩٤٩ .

وكانت نتائج أول إحصاء جرى في عام ١٩٥٣ باعثة على الدهشة . إذ كان في الصين القارية ٥٨٣ مليوناً من السكان ، ورقماً مدوراً بلغ ٦٠٠ مليون إذا حسبنا معهم سكان الصين الوطنية في تايوان ، و « الجاليات الصينية » في وراء

(١) كان نابوليون الأول يقول : الصين جبار نام ، ويل للعالم إذا استيقظ .

البحار ، وهو رقم مقبول من الجميع . وتستند التقديرات التالية دوماً على هذا الإحصاء . ولكن الوضع الديموغرافي تطور بعد هذا التاريخ .

ذلك أن التعليقات المشددة التي فرضها النظام ، واستئصال شأفة « الآفات الأربع » وهي الذباب ، والبعوض ، والبراغيث والجرذان ، وحملات التلقيح والتطهير قد عملت جميعاً على تحديد الأمراض المستوطنة كالبرداء والجائحات . وقد انخفضت نسبة الوفيات إلى ٨ بالآلف ، ولا سيما وفيات الأطفال التي هبطت إلى ٦٥ بالآلف ، أي نصف نسبتها الوسطية في العالم العربي ، كما أن الأجل المتوسط بلغ ٦٥ سنة . غير أن تخفيض نسبة الولادات كان أكثر صعوبة ، ذلك أن التقلبات الایدولوجية كانت تؤثر على السياسة الديموغرافية . وقد كانت حملة تحديد التوالد ، التي بدأت في ١٩٥٦ ، والتي نشطت من جديد في ١٩٦٢ ثم في ١٩٦٩ كانت تستهدف تحديد النمو السكاني بمقدار ١٪ في المدن و ٢٪ في الأرياف . وكانت في البداية محرّضة توصي بالعفة وبالزواج المتأخر . كما أن الإجهاض وتعميق الذكور كان من الأمور الشائعة ، غير أن منع الحمل ، كما في تايوان ، وهونغ كونغ أو سنغافورة ، وهي أيضاً مأهولة بصينيين ، هي التي تستطيع تفسير الانخفاض الحالي الواضح في الولادات . ومع ذلك تبدو النسبة الرسمية وهي ٢٠ بالآلف منخفضة جداً .

ومنذ ٢٥ سنة ، ومع نسبة تزايد طبيعي سنوي متوسط تعادل ٢ بالمائة ، أي أن هناك تزايداً سنوياً يتراوح بين ١٢ و ١٧ مليون نسمة ، فعنى ذلك أن عدد الصينيين سيكون محدود ٩٦٦ مليون في ١٩٧٧ أو مليار كي يبلغ ١٠٤٠ مليون في نهاية ١٩٨٢ . مما حدا بالحكومة الصينية إلى التدخل رسمياً في السياسة الديموغرافية ، والسماح للأسرة بولدين فقط ، ولكن مع تفضيل الولد الواحد ، ذكراً كان أو أنثى ، وفرضت عقوبات مادية على الزوجين اللذين ينجبان أكثر من ولدين .

السن الأدنى للزواج

بنات	شبان	
١٨ سنة	٢٠ سنة	حسب قانون ١٩٥٠
مع التوصية :		
٢٣ سنة	٢٥ سنة	في الأرياف
٢٥ سنة	٢٧ سنة	في المدن

وهناك بعض العوامل المشجعة على الزواج المتأخر ، وبالتالي على انخفاض الخصوبة ، تستطيع أن تلعب دورها أيضاً : مثل شدة الضغط الاجتماعي ، ارتفاع المستوى الثقافي ، تحسين وضع المرأة ، ولا سيما مساهمتهم في النشاط الاقتصادي . وفي تايوان ، وفي سنغافورة ، حيث يكون السكان من الصينيين ، تكون الظاهرة مماثلة ، وعفوية أكثر ، وقد ساهمت بمقدار الثلث في انخفاض نسبة المواليد المحسوسة جداً في خلال ١٥ عاماً فقط .

الأوضاع الديموغرافية الرسمية أو التقديرية بالنسبة لكل ألف مواطن

١٩٧٨	١٩٦٨	١٩٥٧	١٩٥٣	
٢٠	٣٣	٣٤	٣٧	نسبة التوالد
٨	١٠	١١	١٧	نسبة الوفيات
١٢	٢٣	٢٣	٢٠	النمو الطبيعي

هرم الأعمار لسكان الصين حسب إحصاء ١٩٥٣

على الرغم من أن الأرقام الإجمالية تبدو مقبولة ، فإن إحصاء عام ١٩٥٣ أصبح مدعاة للشك . فالمنطق الهامشية ، ذات الأقليات القومية ، اكتفت بتقديرات إدارية ، إذ يمكن تفسير القلة الواضحة جداً في جنس الإناث بين ٥ - ٣٠ سنة بممارسة قتل الأبناء قبل ١٩٤٩ .

عناصر هرم الأعمار

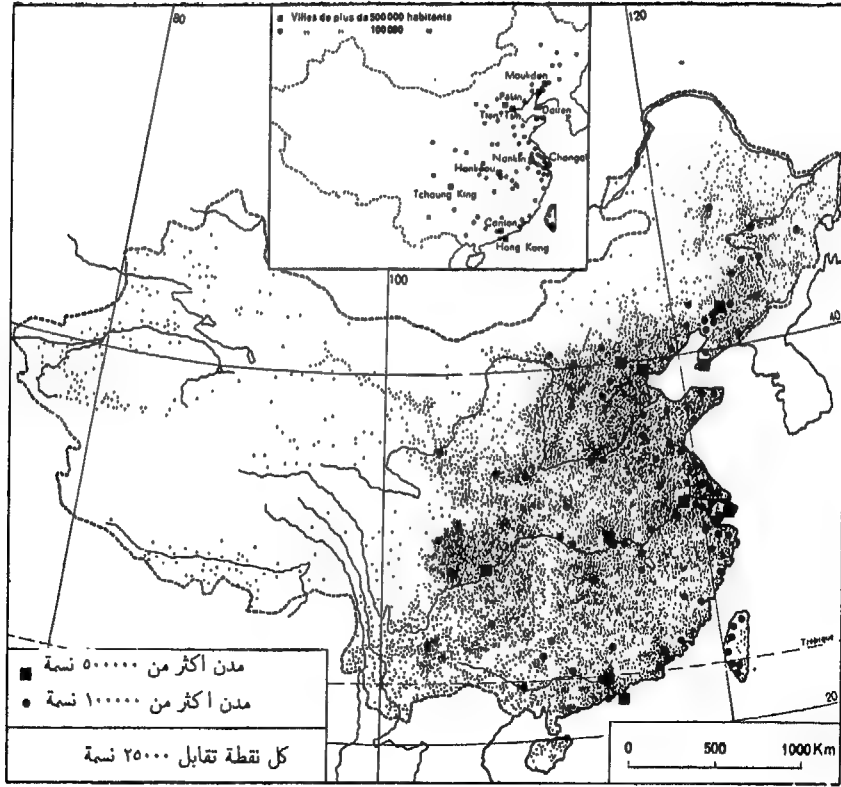
أكثر من ٦٥ سنة	دون ١٥ سنة	النسبة المئوية
٤,٤	٣٥,٩	في ١٩٥٣ حسب الإحصاء
٣	٣٩	حسب ديموغرافي أمريكي
٥	٣٥	في ١٩٧٨ (إحصاء الأمم المتحدة)

الصين : تفاوت الإعمار السكاني

يحمل المشهد الصيني التأثير البشري بصورة عميقة ، وذلك على الأقل في « الصين القديمة » ، التي تضم ١٨ إقليماً « مقاطعة » ، والتي طوّرتها أجيال متعاقبة من الفلاحين ، لأن الطبيعة تسترد حقوقها عند الاقتراب من الصحارى والجبال في « الصين الخارجية » . ويكون توزيع الإعمار السكاني شديد التباين . فإذا كانت الكثافة الوسطى تعادل ١٠٨ نسمة في الكيلو متر المربع ، فإن الحدود القصوى تتراوح فيها بين ١ و ١٠٠٠ ، وهكذا لا يعيش في النصف الغربي من البلاد سوى ٦٪ من السكان .

أما أكثر المناطق سكاناً فهي السهل الأصفر الكبير ، وشبه جزيرة شاندونغ ، وسهل اليانغزي الأسفل والأوسط ، والحوض الأحمر في سيشوان . ويضم إقليم شاندونغ ٦٥ مليون نسمة على مساحة ١٥٠.٠٠٠ كيلو متر مربع ، مثلاً يحوي إقليم سيشوان ٩٠ مليون فوق رقعة تعادل مساحة فرنسا ، أو أكثر بقليل من نصف مليون كيلو متر مربع . وتكون الكثافات مرتفعة في الصين الجنوبية ، وذلك في مناطق زراعة الرز كالدلتا وقيعان الأودية ، ولا تكون التلال المعرّة من غاباتها بأقل كثافة بكثير وذلك بفضل زراعة شجيرات الشاي . بيد أن الجبال قد أخلاها الفلاحون الصينيون لأقوام مطرودة مؤلفة من رعاة أو فلاحين يمارسون زراعة متنقلة (شكل ٦) .

أما السواحل الجنوبية فقد كانت مصدر هجرة لما وراء البحار . فند عام ١٨٥٠ كان الأنكلوسكسون يحشدون في كانتون طواير الشفيلة للعمل في مزارع المطاط في أوقيانوسيا وفي مد الخطوط الحديدية العابرة لأمريكا . ولكن



كثافة سكان الصين

الشكل ٦

التيار الرئيسي هو الذي اتجه نحو آسيا الجنوبية الشرقية . وبعد عدة موجات من المهاجرين إلى تايوان ، وآخرها كانت في عام ١٩٤٩ ، أصبحت تايوان « فورموزا سابقاً » صينية تماماً تقريباً . كما أن مستعمرة هونغ كونغ البريطانية تضم أكثر من أربعة ملايين ، وُلد ٥٨٪ منهم في الصين القارية . أما في سنغافورة فيؤلفون ثلاثة أرباع السكان . ويتألف الصينيون في المهجر من مزارعين وصيادين أو عمال مناجم ، ولا سيما من تجار ، لا مثيل لنجاحهم الاقتصادي ، ولكن يظل تماسكهم الاجتماعي والثقافي حقيقياً . ولكن إذا كان

لا زال بعض الصينيين يهاجرون دوماً عن طريق هونغ كونغ ، فإن هناك صينيين يعودون للوطن على أثر طردهم ، نتيجة حركات معادية للأجانب ، كما في أندونيسيا وفيتنام ، وهكذا تستقبل الصين بعض مغتريبها .

ولقد وجدت الصين الشمالية متنفساً لها في السهوب التي تحتاج إلى الاستزراع فيما وراء سور الصين الكبير . ففي خلال العشرينات استقر الكثير من المعمّرين في وادي هوانغه الأوسط الصالح للري ، أو سكنوا في منشوريا (هبلونغيانغ) . وقد بلغ عدد هؤلاء الآن ٩٠ أو ١٠٠ مليون في المدن ، وفوق رقعة من سهول خصيبة تمتد على مساحة تبلغ ٣٥٠٠٠٠ كم^٢ . وبعد أن جرى تقسيم منشوريا إلى ثلاثة أقاليم ، خسرت اسمها السابق ، وأصبح اسمها دونغبيه أي الشمال الشرقي .

أما في منغوليا الداخلية فإن عدد الصينيين ارتفع إلى ٩ ملايين أو ضعف عددهم في ١٩٥٣ ، إلى جانب مليون واحد من المنغول البدو . وبعد الفراغ من بناء الخط الحديدي الجديد في اتجاه الشمال الغربي ، وصل بضعة ملايين من الرّوَّاد إلى إقليم تركستان الصينية أو سينجيانغ ، وأصبح الصينيون يؤلفون ٤٠٪ ، بعد أن كانوا لا يزيدون عن ١٥٪ قبل ثلاثين عاماً . وهكذا تعمل إعادة توزيع الإعمار السكاني على تخفيف الحناق عن « الصين القديمة » .

غير أن هذا الاستعمار الحقيقي للرقعة الصينية ؛ لا يجري بالضرورة دون نزاعات مع الأقليات القومية ، أو امتعاضها المكبوت على الأقل ، والتي تخشى على نفسها من الغمر .



لقد تزايد سكان الصين بالموازنة مع عام ١٩٥٣ من حيث العدد ، وذلك على الأقل بمعدل ٥٠٪ ، في حين أن بعض الانتشار السكاني المنظم أو العفوي ، يتم باتجاه الشمال الغربي والشمال الشرقي . ولكن يبدو من المحتمل أن التوزيع الجغرافي للسكان يظل منسجماً إلى حد ما مع هذه الخارطة ، مع

وجود أهم الكشافات السكانية في السهل الكبير والحوض الأحمر ، ووادي اليانغز به وسواحل الصين الجنوبية .

ويظل التنافر في توزيع السكان بين « الصين القديمة » الشرقية ، مجال الزراعة المستقرة القائمة على الماء وبين الصين الغربية ، المنصرفه نحو البداوة الرعوية ، باستثناء بعض الغوطات المروية . فقد جرى تقسيم إقليم سيشوان الشديد التباين ، بين الحوض الأحمر وجبال التخوم التيببئية . وقد أمكن دمج منشوريا ، وهي المنطقة الوحيدة من « الصين الخارجية » ، التي أمكن دمجها مع الصين القديمة بعد قرن من الاستعمار وذلك في نصفها الجنوبي ، على الأقل .



استناداً إلى دراسة قام بها (جنتل) في عام ١٩٧٤ ، في كتابه « الصين » .
أورد المفارقات القائمة بين جزأي الصين والتي تتجلى في الصفات التالية :

الشرق	الغرب
السكان	كثيفون
القوميات	هان
التاريخ المكتوب	طويل
المدنية	وحيدة
النسبة المئوية من	
الأراضي المزروعة	مرتفعة
تربية الماشية	ثانوية
الأراضي القابلة للاستزراع	نادرة
صناعة	متقدمة
مواصلات	سهلة إلى حد ما
	عسيرة



الشعب : الهان والأقليات القومية

يؤلف الصينيون بالمعنى العرقي للكلمة ، أي الهان ، ٩٤٪ من السكان . ويعبر التجانس الاجتماعي والثقافي ، الفريد إلى حد كبير ، عن تجربة مجتمع ريفي يعود لآلاف السنين ، استطاع كفاحه ضد نواب الطبيعة أن يتمخض عن تضامن مزدوج : ضمن الأسرة والقرية ، كما تضيف التعاليم الكونفوشية احترام الامبراطور البعيد المنتدب من طرف السماء . كما يعمل استعمال كتابة رمزية ، جرى الآن تبسيطها إلى حد كبير ، وتعليم لغة مشتركة هي « بيهوا » المشتقة من لغة « مانداران » في بكين ، يعمل على تلافي ظاهرة كثرة اللهجات .

ولا يمكن ملاحظة اختلافات طفيفة بين الصين الشمالية وبين الصين الجنوبية في نمط الحياة إلا بصعوبة . ففي الشمال ذي الشتاء القارس ، تبرز الحاجة إلى ضرورة تدفئة المساكن ، ويأكل الناس أرغفة من الخبز أو حساء الذرة البيضاء ، في حين تسير على الدروب العربات التي تجرها البغال ، أو قوافل الجمال . أما في المدن ذات المخطط المنتظم الذي أملتة قواعد التنجيم ، فتهب الرياح القادمة من منغوليا حاملة معها دوامات الغبار . أما الجنوب اللطيف والرطب ، فهو مجال زراعة الرز والوحل الذي تتمرغ فيه الجواميس . وتتم عمليات النقل فوق ظهور الحمالين ، ويستخدمون على الأنهار القوارب والسناييك . أما المدن فهي عبارة عن متاهات من القنوات ومن الأزقة التي تقطعها المداخل الحجرية . ونلاحظ أيضاً وجود اختلافات انثروبولوجية بين أبناء الصين الشمالية ، وهم على العموم أكثر بسطة في الجسم وبين أبناء جلدتهم أهل الجنوب .

أما الأقليات القومية « مينزو » والذين يبلغ عددهم ٦٠ مليوناً ؛

فلا وزن كبير لهم أمام الهان Hans ، إذ لا يؤلفون أكثر من ٦ أو ٧٪ من مجموع السكان ، ولكنهم يشغلون ٦٠٪ من رقعة البلاد . وتقوم هذه القوميات على اللغة ، كاللغات التركية أو المنغولية في الشمال الغربي ، واللغات التيبيرية البرمانية ، والوحدات المقطع كالصينية ، في الجنوب الغربي ، وعلى الدين : فهناك البوذية واللامائية لدى التيبين أو الشامانية لدى المنغول ، والإسلام لدى الناطقين بالتركية مثل الويغور في التركستان ، وكذلك الهوي Hui وهم من المسلمين الصينيين في إقليم نينغكسيا في الوسط ، وفي يونان في الجنوب ، وعلى العرق لأن التاجيك والديغور ينتسبون إلى شعوب آسيا الوسطى البيضاء ، وبكل بساطة على نمط الحياة كالزراعيين المتنقلين ومربي الماشية المنتجين في الجبال ، ومربي الماشية البداة في السهوب .

وتجاه هذه الأقوام « البرابرة » فقد تخلّت بكين رسمياً عن سياسة « التصيين » الرسمية ، فأنشأت معهداً مركزياً للأقليات القومية والمناطق أو النواحي ذات الاستقلال الذاتي .

وتسير بعض المجموعات في طريق التمثل مثل الزوانغ في إقليم غوانغشي ، الذي كان يؤلف إقليماً ذا استقلال ذاتي في السابق . ولكن البعض الآخر يبدو أكثر عتوّاً على التمثل ، مثلما لم تعد الحكومة تجبر الفلاحين المسلمين على تربية الخنازير في إقليم يونان . ولقد أدى إلغاء منصب « اللاما » في لهاسا عاصمة التبت والالتزامات الإقطاعية ، وإعادة توزيع الأراضي ، وتحديد أراضي الرعي لدى البداة ، إلى اضطرابات وخاصة في التيب و منغوليا الداخلية . وقد عمدت الحكومة المركزية إلى تقليص رقعة جمهورية منغوليا ذات الاستقلال الذاتي بشدة في عام ١٩٦٩ ، وربما يعود ذلك للخوف من حركة وحدة منغولية ، تدعّمها جمهورية منغوليا المجاورة وربما الاتحاد السوفيتي .

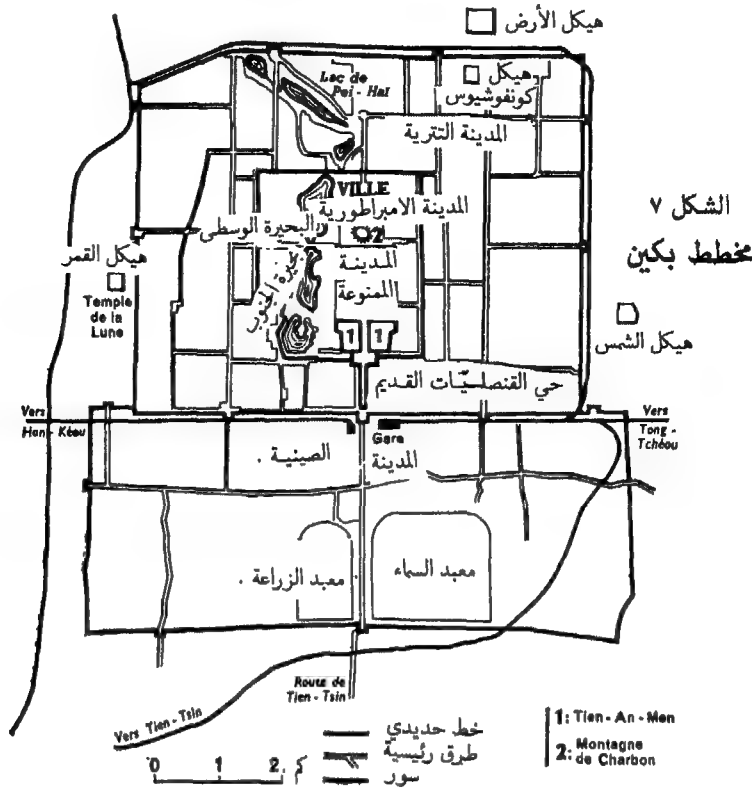
بعض العبارات الصينية لفهم الأسماء الجغرافية

xi	كسي	غرب
dong	دونغ	شرق
nan	نان	جنوب
bei	بيه	شمال
shan	شان	جبل (كتلة)
gin	كين	جبل (سلسلة)
ling	لينغ	مر
	هيه	
	جيانغ	نهر
	شوان	
Hu	هو	بحيرة
hai	هيه	بحر
guo	غوه	قطر
huang	هوانغ	أصفر
hong	هونغ	أحمر
Pei	بيه	أسود
san	سان	ثلاث
si	سي	أربع
ti	تي	أرض
tian	تيان	سما
an	آن	سلام
men	من	باب
long	لونغ	تنين
Jing	جينغ	عاصمة

☆ ☆ ☆

المدن : بكين وشنغهاي

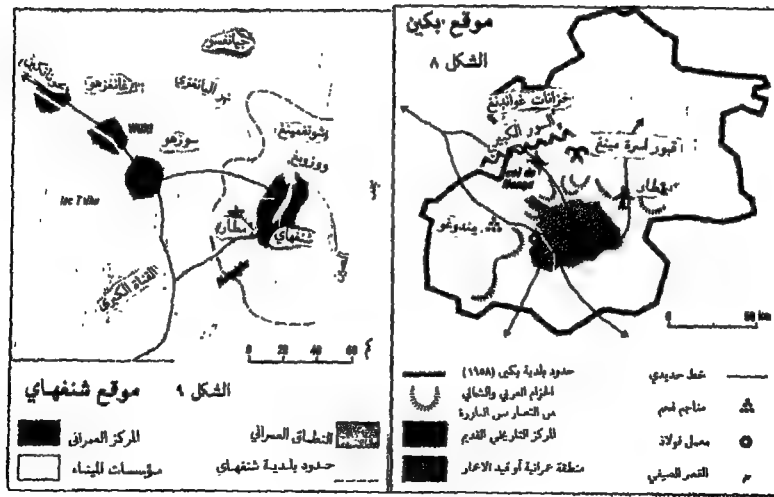
لقد كان ٨٦٪ من الصينيين من سكان الأرياف حسب إحصاء ١٩٥٣ ، والآن يعيش ٣٢٪ منهم في المدن . غير أن للصين مع ذلك تقاليد حضرية : فقد كانت هناك مدن ما قبل العصر الصناعي ذات المخطط الهندسي ضمن أسوارها (شكل ٧) ، وذات وظيفة إدارية عالية ، وكانت بكين تمثل نموذجاً عنها (شكل ٨) . غير أن انفتاح الصين بعد عام ١٨٤٠ ؛ دفع لنشوء موانئ ذات امتيازات أجنبية مثل شنغهاي (شكل ٩) ، أما في منشوريا التي استعمرها



الروس ثم اليابانيون ، فقد قامت فيها مدن عند تلاقي الخطوط الحديدية ، وقرب المناجم ومدن صناعية . وعند ظهور أول مخطط خماسي بين ١٩٥٣ - ١٩٥٧ أصبح الاندفاع العمراني محسوساً ، فأصبح في الصين ١٦ مدينة كبرى تتجاوز المليون من السكان ، وفي بضعة أعوام زاد عدد سكان آنشان ، مدينة الفولاذ في منشوريا ، خمس مرات ، كما حدث لمدينة لانتزهو ، عاصمة الغرب الصيني الواقعة على النهر الأصفر .

وقد عمدت الحكومة إلى الحد من الهجرة الريفية لتحاشي المساوئ الناجمة عن « تحضر وحشي » ، يؤدي حتماً لمشكلات ومصاعب في السكن والاستخدام ، وذلك بتنظيم « كومونات الشعب » ، التي ترمي إلى انسجام إطار الحياة ، وتصنيع البلاد في العمق ، مثلما عمدت إلى إطلاق « هجرة حضرية » أصيلة ، عن طريق إرسال شبان المدن المتعلمين إلى الأرياف المتأخرة أو النامية .

ولكن من المشكوك فيه أن يكون أكثر من ٢٢٪ من الصينيين يقيمون في دوائر حضرية ، والتي توسعت كثيراً كي تضم أرياض البساتين ، لأن رقعة بكين تمتد على ١٧٨٠٠ كيلومتر مربع ، أو ما يعادل محافظة حلب كلها ، أو نصف أراضي مصر الزراعية . وإذا كانت شنغهاي الكبرى تضم ١٢ مليون نسمة فذلك مع المدن التابعة . وتعتبر شنغهاي من صنع الأجانب عند مصب وادي يانغزي في بحر الصين . وبعد أن كانت الصين الجديدة مرتابة تجاه هذه المدينة ذات الأجناس المتنوعة والفاسدة ، والغاصة بالسكان نتيجة الرأسمالية ، لم تستطع الاستغناء عن مشتل الأطر (الكوادر) والعمال الذي تمثله هذه المدينة . وعادت شنغهاي لتحتل مكان الميناء الأول « ٥٠ مليون طن » ، وأكبر مركز صناعي في الصين : وفيها أكثر من مليوني عامل و ١٥٪ من الإنتاج ، مع بؤرة جديدة من صناعات ثقيلة عند مقرن نهر هوانغفو والنهر الكبير .



أما بكين التي أنشأها الفاتحون المنغول في القرن الثاني عشر والثالث عشر ، فتقع عند مدخل السهل الكبير وتتحكم بطرق السهوب . وبعد أن كانت عاصمة أسرة مينغ الصينية ، التي شيدت القصر الامبراطوري ابتداءً من القرن الخامس عشر ، ثم عاصمة الأسرة تسنغ المنشورية بين ١٦٤٤ و ١٩١١ ، اضطرت بكين لأن تتخلى عن دورها مؤقتاً لمدينة تانكين عاصمة الجنوب ، والواقعة على نهر اليانغزي الأسفل من عام ١٩٢٧ إلى ١٩٤٩ . وتدين لماضيها العريق ولموقعها الاستراتيجي ، الذي كان دوماً رائعاً ، في عودتها إلى دورها كعاصمة ببادرة من الصين الثورية . ويقع ميدان تيان آن تحت سور « المدينة المحظورة » ، التي تحولت إلى متحف ، والذي يلعب دور إطار لاستعراضات النظام القائم .

ولكن على الرغم من وظيفتها الإدارية ، لا تخلو بكين من وجود صناعة هامة ، ففيها ١,٨ مليون عامل ، مثلما تنمو بكين بصورة مدروسة ، فإذا كان فيها ٩ ملايين نسمة فإن أربعة منهم يسكنون في الأرباض الريفية . ومن العسير دوماً على أي صيني أن يحصل على رخصة إقامة أو على مسكن في بكين .

إحصاءات المدن الكبرى الصينية تقدير عدد السكان بالملايين

شنغهاي	١٠,٨	شونغكينغ	٣
بكين (بيجينغ)	٧,٦	كسيان	٢,٨
تيانجين (نيانسن)	٤,٣	لودا (دايرن)	٢,٦
شنيانغ (موكدن)	٣,٨	هاربين (خاربي)	٢,٤
كانتون (غوانغزو)	٣,٢	تانتين (نانجينغ)	٣
وو هان	٣,٢		

لا تزال بكين تحتفظ بكل جمال قصور وحدائق « المدينة المحظورة » ، التي كان يقطنها الأباطرة . ولكن اختفى قسم من السور القديم ، كما تم شق شوارع عريضة في أحياء البيوت الواطئة المحتجة خلف جدرانها المبنية بالطابوق النيع . وقامت على هذه الشوارع عمارات كبيرة حديثة . وتمتد المدينة نحو الشمال الغربي باتجاه التلال ، بواسطة مجموعات عديدة سكنية وجامعية في حين تتكاثر في المناطق الأخرى المصانع الرائدة ، والتي يدعى الأجانب لزيارتها .

أما ميناء شنغهاي فقد نما على مسافة ما ، بعيداً عن وحول دلتا نهر يانغزي على نهر هوانغبو ، ذي المياه العميقة ، وكانت مناطق الامتيازات الأجنبية تنفتح على الميناء . وظلت شنغهاي حتى الاحتلال الياباني في عام ١٩٣٧ تحقق ثلثي تجارة الصين الخارجية ، وبذلك أصبحت البؤرة الكبرى للصناعة النسيجية الصينية . وقد نجم عن رحيل الرأسماليين الأجانب أو الوطنيين في عام ١٩٤٩ باتجاه هونغ كونغ وتايوان ركود اقتصادي متداول .

ثورة في الأرياف

لقد ظلت الزراعة الصينية تقليدية جداً حتى عام ١٩٤٩ : فكانت كل عائلة تحصل على أكبر قدر ممكن من الفائدة من حقولها ، مع تطبيق تقنية بستنة متوائمة مع المستغلة القزمة والمصحوبة بعناء منهك مضى ، لأن كل هكتار مزروع قحاً يتطلب ٨٠ يوم عمل ، ولم تكن الأرض تعرف الراحة . فكان نصف الحقول في الشمال و ٧٠٪ من حقول الجنوب تعطي محصولاً مزدوجاً ،

بفضل شتل الرز بعد بذره في مشاتل ، مما يترك حقل الرز شاغراً مدة طويلة كافية لقيام زراعة بعلىة شتوية . أما الري فكان مستعملاً بمحذق في الجنوب حيث يزرع الرز ، وفي وادي الهوانغه الأوسط ، بفضل السكور الاشتقاقية ، أو السدود التحويلية والدواليب الرافعة ، وحتى السهل الكبير اعتاداً على مياه الآبار .

ولكن وعلى الرغم من استعمال « التسييد الصيني » المؤلف من السماد البشري ، فقد كان المردود هزياً ، أي ٧ إلى ٨ كنتالات بالهكتار من القمح و ١٥ إلى ٢٠ كنتال من الرز ، وكان الفلاح يقف مكتوف اليدين أمام النكبات الطبيعية ومتطلبات ملاكي الأرض .

هذا كما كانت الأراضي موزعة بصورة رديئة ، لأن ٧٠ إلى ٨٠٪ من الأراضي كانت تخص ١٠٪ من المالكين ، وقد قضى الإصلاح الزراعي على طبقة الملاكين الغائبين ، واسترد ٤٧ مليون هكتار ووزعها على ٧٠ مليون أسرة . غير أنه كان هناك ١٠٧ ملايين هكتار صالحة للزراعة كانت مفتتة بين ١١٠ ملايين من المستغلات . وفي ١٩٥٣ تحققت اشتراكية الأرض وكان كل فلاح ينال إيجاراً حسب حصته وجرى ضم القطع المفتتة (remembrement) ونظمت فرق التعاون : تلك هي التعاونيات شبه الاشتراكية . وتم تنفيذ اشتراكية الأرض collectivisation بالكامل في عام ١٩٥٧ ، مع ظهور التعاونيات الاشتراكية التي بلغ عددها ٧٤٠.٠٠٠ وهو عدد القرى ذاته ، المنقولة حرفياً عن الكولخوزات السوفياتية ، واحتفظت كل أسرة فلاحية بمنزلها وحديقتها ، وصار كل شغل يعمل على أساس ١٥٠ يوماً في العام . كما قامت ٤٠٠٠ مزرعة حكومية في المناطق الطلائعية .

ومع انطلاق القفزة الكبيرة إلى الأمام في ١٩٥٨ ، ظهرت « كومونة الشعب » أو « غونغ شه » ، وهي وحدة إنتاج زراعي وصناعي ، وهي

خلية الحزب والميليشيا ، التي تعبى أعضاؤها في جو من التقشف والتضحية ، في خدمة الحقول و « الأفران العالية » القروية . وكان الرجال والنساء يعملون في ٢٦٥٠٠ كومونة ، مدة ٢٥٠ يوم عمل لوقت غير محدود ، وكانوا يأكلون في مقاصف ، وينامون في مهاجع ، في حين كانت دور الحضانة والمدارس تهتم بشؤون الأطفال .

ولقد فشلت الكومونة ، ولكنها لا زالت باقية على أنها إطار إداري واجتماعي ، وتتوزع الكومونات الحالية وعددها ٥٠.٠٠٠ مقدار ٩٥٪ من الأراضي ، لأن الباقي يشكل مزارع الدولة .

وعادت العائلات الفلاحية إلى مساكنها وإلى قطع أراضيها . وأصبح العمل على الأراضي الجماعية منظماً ومأجوراً من فرقة الإنتاج ، وهو ما يعادل التعاونية الإنتاجية سابقاً . ولقد ورد ذكر فريق دازهي (وهي ناحية فقيرة في جبال شانسي) كثال على ذلك . وتضم كل فرقة وسطياً ٤٠٠ شغيلة (ضمن ٢٠ فريقاً) ، غير أن الحدائق العائلية المحدودة بنسبة ٨٪ من المساحة المزروعة في الكومونات ، تعطي حالياً ٢٠٪ من الدخل الزراعي ، وتنتج الخضار والمواشي الصغيرة والدواجن .



يجري الاعتماد في الزراعة على الفقر لزيادة كمية العمل المبذول فوق الوحدة المساحية ، مثلما يتم اللجوء إلى تنوع الأنشطة الريفية للحيلولة دون انتقال السكان باتجاه المدن . فالكومونة الشعبية لا تقتصر على زراعة الرز أو القمح ، أو تربية الخنزير والأوز ، بل ينصرف العمل نحو كل شيء على المقياس المحلي ... ، فإذا كان الفلاح يسير خلف المحراث في الخريف ، فهو يعمل في الشتاء على صنع محرك مضخة مائية ، وإذا كان يقود جاموسة أثناء النهار ، فهو يلعب دوره في المساء في تمثيلية مسرحية .

عن ب . جنتل « الصين »

نشر الطباعة الجامعية الفرنسية ١٩٧٤

الكفاح ضد النكبات الطبيعية

منذ عام ١٩٤٩ أصبحت جماهير فلاحى الكومونات و (جيوش البناء) ، من مدنيين وعسكريين ، تحت إشراف وزارة الحفاظ على المياه ، ومنهمكة في الكفاح ضد الكوارث الطبيعية وإصلاح الرقعة الزراعية المتضررة كثيراً ، وكانت ترمي المشاريع الكبرى والصغرى إلى إعادة التحريش والحد من شدة الفيضانات ، وإلى ريّ الأراضي واستزراع أخرى ، وفي إنتاج الكهرباء . وتبدو نتائج هذا الجهد الجبار في السيطرة على الطبيعة غير متساوية ، فلا تزال الأرض الصينية خاضعة للجفاف وللفيضانات .

وفي سبيل الوقاية من ربح منغوليا ، ومن زحف الرمال على (الأراضي العذراء) التي تم إخضاعها للزراعة الطلائعية ، فقد تمت زراعة (الحاجز الغابي) أو (السور الأخضر العظيم) ، وذلك ابتداءً من حدود منشوريا حتى شمالي التركستان أو سينجيانغ . وتمتد أعمال التحريش إلى التلال وإلى السفوح التي تخذلت بمفعول حت التربة الشديد في الصين الشمالية ، في منطقة اللوس ، كما هو الحال في الصين الجنوبية .

ومنذ عام ١٩٤٩ تضاعفت المساحة المروية ثلاث مرات ، فأصبحت ٨٥ مليون هكتار من أصل ١٣٣ مليون هكتار قابلة للحراثة ، منها ٥٥ مليون تروى بصورة منتظمة . وتم إصلاح منشآت الري القديمة . وتم حفر قنوات جديدة ، وتضاعفت مخزونات المياه مرات عديدة ، كما جرى حفر مليوني بئر ، وجهزت بمضخات ذات محركات .

أما في الجنوب فقد سمح الري بغمر حقول الرز عندما تتأخر أمطار الصيف ،

وبالحصول على محصول ثانٍ خلال الشتاء إذا كان شديد الجفاف . أما في السهل الكبير ، فقد أصبحت الأقنية ، التي تجر المياه من النهر الأصفر ومن الآبار ؛ تسمح بريّ ٢٠ ٪ من الأراضي . وفي منغوليا الداخلية وفي سينجيانغ تكون كل الأراضي المزروعة مروية ومساحتها ٥ ملايين هكتار ، وكذلك الحال في الغوطات التقليدية وعلى الأراضي الجديدة المستصلحة والمستزرعة .

وقد قام الصينيون بتنظيم شامل لأحواض أنهارهم الكبرى ، ذلك أن التحريج وبناء سدود تخزينية في الجبال ، وحفر حوضات في الأودية يمكن أن تنصرف إليها مياه الفيضان ، أدّى إلى تخفيف خطر التهديد الجاثم على سدود اليانغزي والفيضانات . وكثيراً ما يرد ذكر مثال عن ذلك التنظيم الهيدروليكي في حوض هوييه ، وهو نهر هدام في جنوبي السهل الكبير . ولكن لا زال السهل الكبير في نصفه الشمالي عرضة لنزوات النهر الأصفر . فلم يعد كافياً رفع سوية حواضه الجانبية بتقويتها ودعمها ، هذا فضلاً عن فتح سرير اصطناعي آخر له مع (قناة النصر) . فلا زال الحث في منطقة اللوس يقتلع دوماً من التربة الخصبة ما يعادل سنتيماً واحداً في كل عام ، كما أن حمولة نهر الهوانغهي من اللحقيات لم تتناقص إطلاقاً . وهناك برنامج لبناء ٤٦ سداً ، كي يمكن تحويل هذا النهر الذي (لا يمكن إصلاحه) إلى نهر مؤلف من درجات وصالح للملاحة . وقد تم إنجاز اثنين من أكبر هذه السدود مع بعض التأخير ، وهما سد ليوشا في العالية ، والذي يسمح بري وادي نهر الهوانغهي الأوسط ، ويقدم عند مدينة لانزهو ١٠٠٠ ميغاواط من الطاقة الكهربائية ، وفي سامن ، عند مخرج الخوانق ، حيث تم بناء خزان سعته ٣٦ مليار م^٣ ، أي يزيد قليلاً عن سد الفرات السوري ، مما أدى إلى انخفاض الفيضان الأقصى من ٢٧٠٠٠ م^٣ / ثا إلى ٨٠٠٠ م^٣ / ثا . غير أن هذا السد سيكون مردوماً كلياً بالظمي قبل ثلاثين عاماً .

تنظيم حوض نهر هوي هوي Hui :

لقد ظل القسم الجنوبي من السهل الكبير الواقع بين المخروط اللحي للنهر الأصفر ، الذي يمكن ملاحظة سريره القديم ، أو الذي عاد إليه النهر بين ١٩٣٧ و ١٩٤٥ ، بعد أن جرى نصف سدوده الجانبية على أثر الغزو الياباني ، وبين المجرى الأدنى لنهر اليانغزي ، أقول : ظل على الدوام خاضعاً لكوارث دورية ، على شكل جفاف قاس شديد أو بسبب فيضانات نهر هوي هوي . ولكن بين ١٩٥٣ و ١٩٥٧ خضع الحوض النهري لتنظيم رائع : فقامت سدود تخزينية على هامشه الجبلي ، الشديد العراء من الغابات ، مثلما تم حفر بحيرات لاستقبال مياه الفيضان في السهل ، وتم تمديد ١٤٠٠٠٠ كيلومتر من القنوات من شق الأنواع ، تستخدم للري وللصرف ، والتي تقوم إحداها بفتح مصرف عريض مباشر إلى البحر لنهر هوي هوي ذاته . غير أن جَوّ التهافت الذي جرت فيه هذه الأشغال والتي استمرت خلال حملة (قفزة كبيرة إلى الأمام) ، لم تستبعد خيبات الأمل التقنية فيما بعد .

وأخذت كل كومونة على عاتقها بناء سدود صغيرة ، وبحفر قنوات وإقامة مضخات . وقد أذى هذا الجهد أحياناً إلى كارثته ، هذا في الحالة التي يؤدي فيها فرط الري إلى صعود الغشاء المائي الباطني ، وبالتالي إلى تليخ التربة . وقد كان تسيير المؤسسات الجديدة على العموم عاجزاً . ويشير تقرير جرى في عام ١٩٦٢ ، قام بمقارنة ناحية مروية منذ ثلاثة قرون ، وأخرى منذ سبع سنوات فقط إلى أن الثانية تشكو من تسيير غير كاف وفاشل .

عن ييزو ماسابو

« الصين » دار . آ . كولان ١٩٧٠

المناطق الزراعية

يعمل كل من التضريس والمناخ على تحديد المساحة المزروعة بنسبة ١٤ ٪ والمراعي ١٩ ٪ والغابات ١٠ ٪ . وهناك خط يحاذي جبال كينلينغ ، يتوقف إلى الشمال قليلاً من شنغهاي يقطع الصين الشرقية ، حيث يقع ٩٠ ٪ من الأراضي الصالحة للزراعة ، إلى شطرين . وهذا الخط ينطبق على خط الحرارة المتساوية صفر في شهر كانون الثاني ، مثلما ينطبق على خط الأمطار المتساوية الذي يعادل متراً واحداً من الأمطار في العام . وأخيراً على الانتقال من التربة الحامضة والمغسولة في الصين شبه المدارية إلى التربة القلوية ، الغنية

بالأملاح المعدنية في الشمال . أو بعبارة أخرى تقع صين الرز في جانب ،
وفي الجانب الآخر ، أي الشمالي ، صين القمح .

وتطبع زراعة الرز المشاهد الزراعية في الصين الجنوبية : ولا سيما
في حوض نهر سيجيانغ ويانغزي ، وكذلك في الدلتا والسهول اللحية ،
وتكون هذه الزراعة كثيفة intensive بصورة متفاوتة ، حسب الارتفاعات
والفروق المناخية . وإذا كان من المتعذر جني أكثر من محصول واحد من الرز
الصيفي في حقول الرز المرتفعة في يونان ، فإن من الممكن حصاد ثلاثة مواسم في
دلتا كانتون الذي لا يعرف الصقيع ، وذلك في بداية الصيف ، وفي الخريف وفي
قلب الشتاء ، هذا إذا لم يكن شديد الجفاف . أما في الحوض الأحمر ، في
سيشوان ، ذي المناخ الرطب واللطيف ، فيمكن الحصول على موسمين فوق حقول
الرز الصغيرة على شكل مصاطب : أي رز صيفي ، والقمح أو الشعير في الشتاء ،
كما أن سهول اليانغزي الأوسط والأسفل ، حيث يكون الفصل الإنبائي ، أقل
طولاً يمتد على ٣٠٠ يوم ودون انجماد خطير ، ولكنه يتمتع بمطار أفضل توزيعاً .

ويمنح استعمال أنواع مبكرة إلى تعميم موسمين سنويين من
الرز ، ذي مردود أفضل . ولكن فوق التلال ، على الترب الحمراء ، فإن الحقول
تحمل مزروعات غذائية أخرى ، وأقل عناية ، كالذرة الصفراء والبطاطا الحلوة .
غير أن المناطق الزراعية في الصين الجنوبية تتميز أيضاً ببعض المحاصيل
التجارية التقليدية أو الجديدة . فهناك اختصاصات زراعية أصيلة في إقليم
غواندونغ المداري : كقصب السكر ، والموز ، والجوت وحتى القهوة أو الهيشيا
في جزيرة هاينان . وتنتشر شجيرات الشاي فوق التلال إلى الجنوب من
يانغزي . ويكون تنوع مزروعات الحوض الأحمر مدهشة ، حيث يزرع
التبغ والكولزا (اللفت الزيتي) ، والتوت ، ومزارع الأبرازان (وهو شجيرة
تعطي زيتاً صناعياً) . وهناك أخيراً حقول القطن والقزازة (تربية دود
القز) ، التي تنتشر حول شنغهاي .

أما في السهل الكبير من الصين الجنوبية فإن الزراعة المزروجة هي القاعدة ، ولكن تتألف من زراعة القمح الشتوي الذي يندر أن يستفيد من الري ، ومن محاصيل صيفية متنوعة ، مثل الذرة البيضاء (غاوليانغ) والذرة الصفراء والقطن وفستق العبيد . ويفيد الري على الخصوص زراعة البساتين والأشجار المثمرة .

أما في منشوريا فلا يمكن الحصول على أكثر من زراعة صيفية هي الذرة البيضاء والصويا ، التي تتعاقب فوق التربة السوداء العميقة ، لأن الرز يحتل القيعان الرطبة أو المالحة . أما حقول المصاطب في إقليم اللوس فتحمل زراعة الدخن والذرة الصفراء ذات المحاصيل المتفاوتة باختلاف جودة المواسم السنوية . وإلى الجنوب من ذلك ، تتباين حقول القمح الربيعي الكبرى في مزارع الدولة مع الغوطات المروية في الوادي الأوسط من النهر الأصفر ، حيث تزرع البطاطا ، والشوندر السكري والأعلاف ، أو في سينجيانغ حيث يزرع القطن الطويل التيلة والفواكه . وقد أمكن استصلاح بضعة ملايين من الهكتارات في السهوب منذ ١٩٤٩ ، بيد أن الصين العليا تظل على الدوام مجال الرعاة من منغوليين وتيبتيين .



لقد نشأت المدينة الزراعية في الصين ، قبل ثلاثة أو أربعة آلاف من السنين ، في الحوض الأدنى من نهر الهوانغهي (النهر الأصفر) ، حيث يسود مناخ معتدل قاري ، متوسط الرطوبة إذ تتراوح مقادير التهطل بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ مم ، مستندة على موارد غذائية كالدخن ، ثم القمح الذي اقتبست زراعته من آسيا الوسطى . ولكن عندما امتدت الزراعة إلى الجنوب شبه مداري تبني الصينيون الرز ، وهي زراعة عملية بلا ريب ، وذلك بعد تحسين تقنيات زراعة الرز كبناء حقول الرز ونظام الري ، وابتدعوا الشتل ، واصطفوا الأنواع ذات النمو السريع .

ولدى الصين اليوم ٣٣ مليون من الهكتارات المزروعة بالرز أو ربع المساحة الزراعية المفيدة .

وإذا استثنينا منشوريا حيث تسمح الحرارة الصيفية بنضج سنابله ، فإن الرز لم يتجاوز أبداً مجاله التقليدي ، إلى الجنوب من خط العرض ٣٤ . ولكن تعميم المحصول السنوي المزدوج من الرز يمدد المساحة المنتجة على مساحة ٥٠ مليون هكتار ، أو نصف مليون كيلومتر مربع ، أو ما يعادل مساحة العراق والأردن تقريباً .

هذا ويعتبر القمح الذي هو من الحبوب الحضارية ، كالرز ، الزراعة الكبرى الغذائية في الصين الشمالية ، ولكنه يكون هنا متشاركاً مع حبوب أخرى في زراعة بعلية شأن القمح : مثل الشعير الشتوي ، والدخن ، والذرة البيضاء ، والذرة الصفراء التي دخلت زراعتها للبلاد في القرن السابع عشر فقط على شكل زراعات صيفية . أما في حوض اليانغزي فإن القمح الشتوي ذا المردود الضعيف ، يتخلّى عن مكانه حالياً للرز (المحصول السنوي الثاني) . وعلى العكس تمتد في الشمال الغربي مزارع القمح في بيئة مناخية شديدة البرد ، حيث يقل الفصل الإنباتي عن ٢٠٠ يوم في العام ، وشبه قاحل ، لأن كمية التهطل تتراوح بين ٥٠٠ و ٢٥٠ مم من الأمطار السنوية . أقول : تمتد زراعة القمح الريعي على جبهة رائدة في السهوب ، ولكن الصقيع المتأخر ، أو الجفاف المستديم قد يؤدي لخسارة المحصول كلية . وعلى الرغم من الحواجز الغائية أو (الأحزمة الخضراء) فإن التذرية الربحية déflation تعمل على إفقار هذه الأراضي العذراء .

مزارع الشاي :

تتألف شجيرة الشاي من نبتة مدارية ذات أوراق دائمة ، تعود أصلاً للصين الجنوبية . وقد دخلت في التشكل النباتي الطبيعي للتلال التي تجردت من غاباتها ، وذات الترب الجانحة نحو الحرة ولكنها ليست لاتيريتية . وقد نقل الصينيون هذا المشروب للعالم قاطبة ، وحتى اسمه العالمي (شا)^(١) . بيد أن مزارع الشاي الصينية ، التقليدية كثيراً ، تتناقص مع المزارع الاستعمارية في سيلان وأسام ، أو مع المزارع اليابانية ذاتها ، التي تزرع في صفوف متراسة . ويتم جني الأوراق دائماً بالأيدي ، على ثلاثة مواسم في العام ، وتكون الأولى أكثرها غزارة وأفضلها نوعية . ولا تصدر الصين إطلاقاً قوالب الشاي الأسود ، المحمص والمتلاصق بدم الثور ، بواسطة (طريق الشاي) القديم ، باتجاه روسيا . بيد أن الشاي الأخضر ، ذي النكهة المستحبة ، والذي يوجد فوق تلال جنوب اليانغزي ، هو المستهلك في الصين ، والذي يتم تصدير قسم منه نحو الأقطار العربية .

(١) ويسمى تاي في المغرب ، وشاي في سورية ، وجاي في العراق ، وشاهي في جزيرة العرب وليبيا .

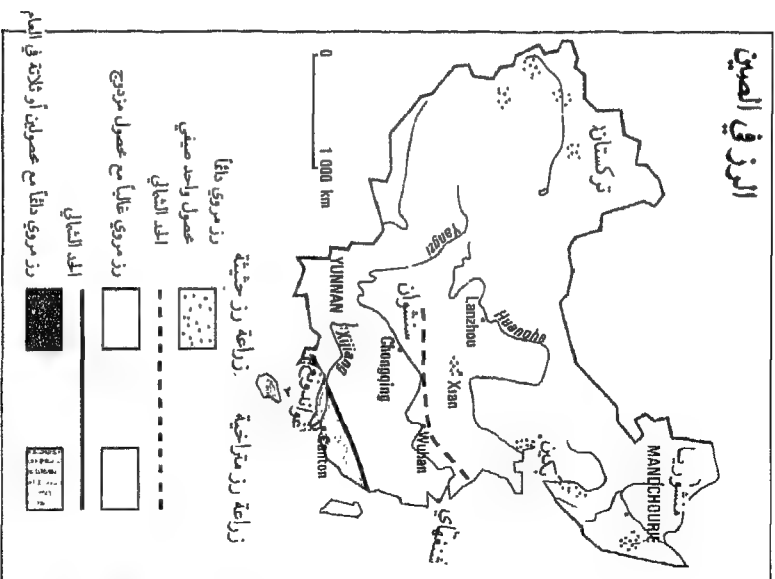
المنتجات الزراعية

لقد أفلحت الزراعة الصينية منذ ١٩٤٩ في زيادة مقادير منتجاتها كثيراً ، مثلما زادت إنتاجيتها بتوسيع المساحة الزراعية المفيدة من ١٠٧ إلى ١٣٣ مليون هكتار ، أو ١,٣٣ مليون كيلومتر مربع ، أو ما يعادل مساحة مصر وسورية والأردن ، وكذلك بتوسيع حدود النطاقات القابلة للري ، التي أصبحت تؤلف على الأقل نصف المساحة الزراعية العامة ، أو ٦٧ مليون هكتار أو ٠,٦٧ مليون كيلومتر مربع ، وذلك عن طريق المحصول السنوي المزدوج ، الذي شمل كل الرقعة الواقعة إلى الجنوب من نهر اليانغزي ، وفي الحوض الأحمر ، وحتى في السهل الكبير . وقد ارتفع استهلاك الأسمدة الكيماوية من مليونين إلى ٣٥ مليون طن . كما أدخلت أنواع جديدة من البذور (التقاوي) ، وتحسّنت الطرائق الزراعية ، كما ساهمت مجالس (ميثاق النقاط الثمانية) في زيادة المردود ، رغم توالي النكبات الطبيعية .

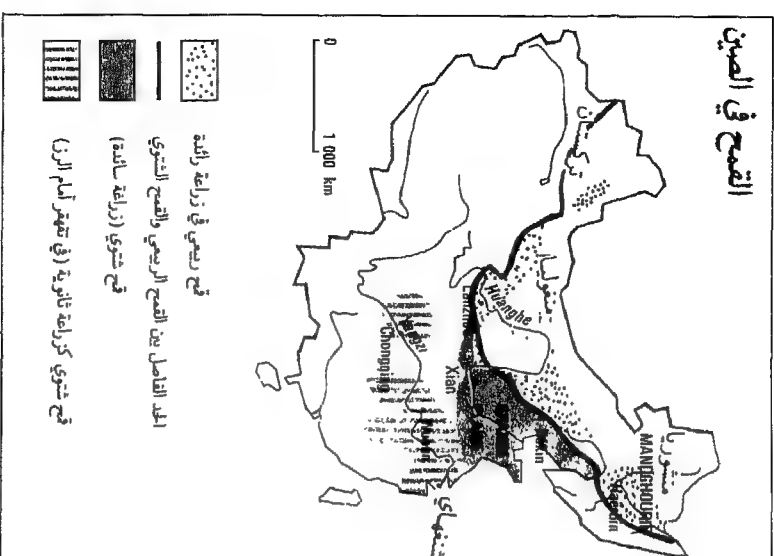
هذا ويكون استعمال المكائن في الحراثة ، وفي الحصاد ، مقصوراً على الزراعة الرائدة ، ولا سيما في شمال منشوريا حيث يعوّض إنتاش البذار مسبقاً ، في مناقع ، شدة قصر الفصل الإنباتي ، كما أن البور المحروث في كل سنتين (الزراعة الجافة) ، يصون احتياطي رطوبة التربة .

هذا وتخصص ثلاثة أرباع المساحات للحبوب الغذائية : وهي قاعدة غذاء الصينيين . وتقدم الصين ثلث محصول العالم من الرز ، أو حوالي ١٣٠ مليون طن ، مع مردود متوسط يعادل ٢٦ كنتال بالهكتار ، مقابل ٦٠ في سهل البو الإيطالي وفي سهول الأندلس ، لأن الرز الشتوي يكون قليل

الرز في الصين



القمح في الصين



الشكل ١٠

الإنتاجية . أما إنتاج القمح ، فيقارب ٤٠ مليون طن ويعطي محاصيل غير منتظمة ، مع مردود ضعيف يتراوح بين ١٠ و ٢٠ كنتالاً بالهكتار^(١) ، وعلى أثر دخول الأنواع الهجينة ، فقد أصبحت الذرة الصفراء تتوسع على حساب الدخن والذرة البيضاء .

ويكون إنتاج (الحبوب) في السنين العادية ، الأول في العالم ، غير أن الإحصائيات تدمج في هذه القائمة مقدار الربع المؤلف من الدرنات كالبطاطا والبطاطا الحلوة ، التي يقارب إنتاجها ١٥٠ مليون طن . وفي عام ١٩٧٨ بلغ الإنتاج ٣٠٤ ملايين طن مقابل ١٨٥ مليون طن في عام ١٩٥٧ . غير أن الصين تشتري (تكملة) من الحبوب ، من شعير وقمح ، من السوق العالمية بلغ مقدارها ١١ مليون طن في عام ١٩٧٨ ، هذا في الوقت الذي تبيع فيه مقدار مليوني طن من الرز . ويبدو أن الأزمة الغذائية التي كانت مزمنة في الصين قد أمكن التغلب عليها ، إذ يتصرف كل صيني بمقدار ٢٧٠ كغم من الحبوب مقابل ٢٢٠ كغم للمواطن الهندي (شكل ١١) .

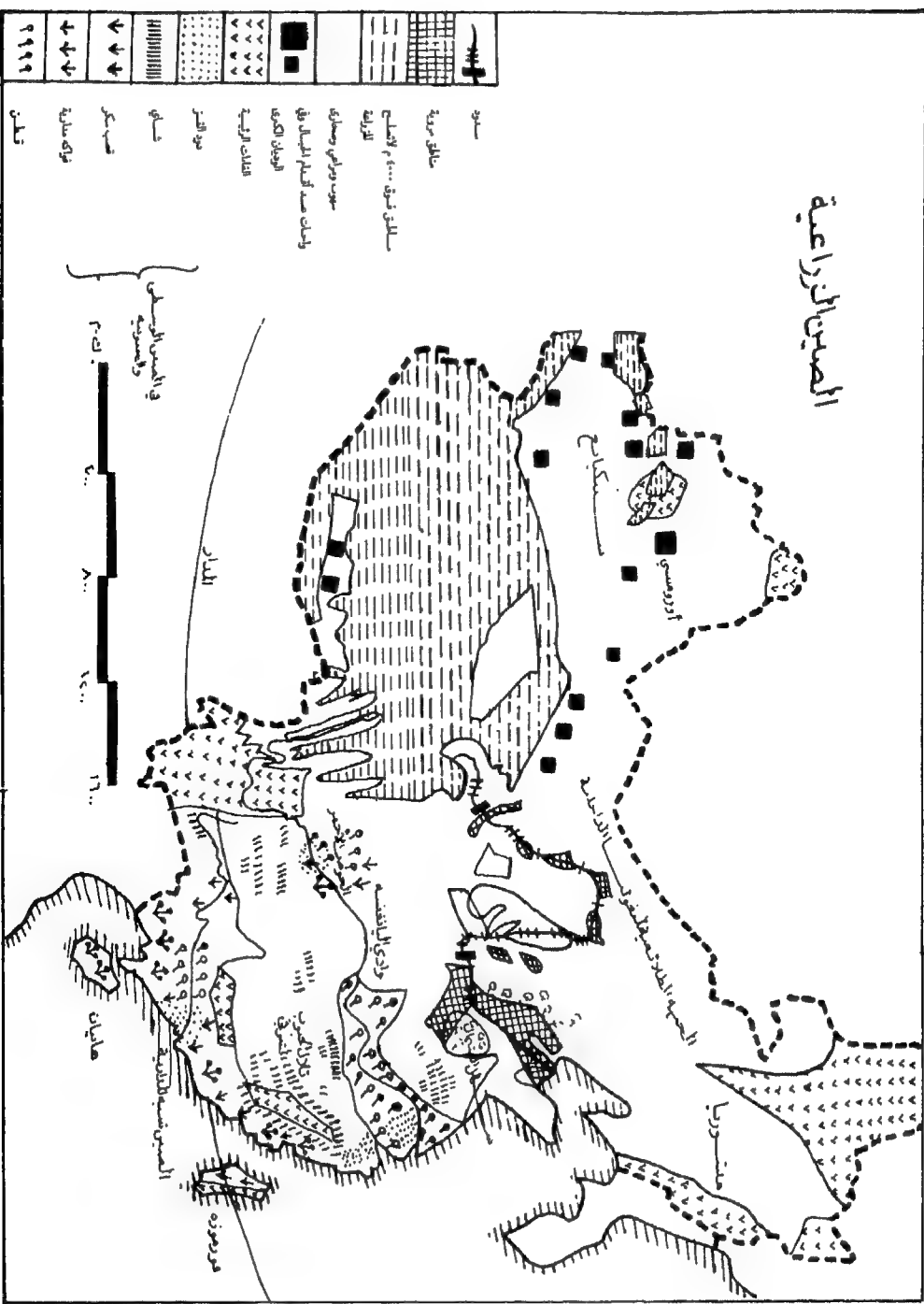
وتكتمل الموارد الغذائية بالخضار التي تؤكل طازجة كالبطيخ الأحمر^(٢) ، أو مملحة أو محفوظة كالملفوف والخيار ، والثمار وهي أقل وفرة باستثناء إقليم غواندونغ أو التركستان الصينية (سينجيانغ) ، والنباتات السكرية والزيتية .

وقد كان قطع المواشي في (الصين القديمة) ملحقا بالزراعة . وترعى الصين ٢٤٠ مليون خنزير ، اعتماداً على تربية الماشية العائلية وفي الورشات الخارجة عن الكومونات ، فضلاً عن عدد لا حصر له من الطيور الأهلية ، ولا سيما الأوز

(١) أو نصف المردود في الدانمارك وهولندا ، أو ضعف المردود في العالم العربي .

(٢) ويسمى الرقي في العراق ، والجبس في سورية الشمالية ، والدبشي في وادي الفرات ، والدلاع في بلدان المغرب والحجب في الحجاز وجب في نجد .

الصين الراعية



الشكل ١١

والبط والدجاج ، وتصدر لحم الخنزير ومسحوق البيض . وتربي منغوليا الداخلية وسينجيانغ والتبت مقدار ٧٥ مليون رأس من الأغنام ، ولكن الصين لا تصدر سوى الأصواف والجلود وأحياناً لحوم الأغنام المبردة أو المعلبة ، لأن استهلاك اللحم واللبن يظل محلياً على الغالب .

ويستمد الصينيون بروتيناتهم على الخصوص من الصويا على أشكال مختلفة ، ومن تربية الطيور والدواجن الصغيرة ، التي تعتمد على الفضلات المنزلية ، ومن صيد الأسماك من الأنهار ومن البحر ، حيث يبلغ مقدار الصيد ٧ ملايين طن من الأسماك ، ورغم الوسائل التي لا تزال تقليدية ، فإن المصائد الساحلية عند مصب نهر اليانغزي ، تنتج الأسماك المجففة ، وسواحل الجنوب في غواندونغ حيث يصاد سمك المرجان والروبيان .

المصاطب المزروعة في هضبة اللوس :

لقد استطاع العمل المضي الممتد على آلاف السنين ، أن ينظم المنحدرات المستورة باللوس المتفاوت في ثخانتته على طرفي العقفة الكبرى للنهر الأصفر ، وتكون هذه التربة خصيبة طبعاً ، ولكنها منفذة ولا يمكن إخضاعها للري إطلاقاً ، وبما أنها هشة جداً فهي لا تناسب زراعة الأشجار . وانطلاقاً من الأودية العميقة ، في هذه البلاد المترسة ، فإن الحت يصعد وهو يحفر أخاديد عميقة في اللوس . ويحتاج هذا المشهد الزراعي الرائع إلى الترميم باستمرار . تلك هي أول منطقة في الكوارث الطبيعية والمجاعات في الصين ، فالدخن والذرة الصفراء تكونان تارة (محروقة) بالجفاف ، وتارة مجروفتين بالمسكوبات الوحشية . ويطبق هنا أكثر من أية منطقة أخرى (ميثاق النقاط الثانية) وهي : السيطرة على المياه والحفاظ عليها ، إغناء التربة ، الحراثة العميقة ، اصطفاء البذور ، أبذر بصورة متراسة ، لزوم حماية البذار ، تحسين الأدوات الزراعية ، اتباع قواعد التسيير الصحيح .

وبين ١٩٥٧ و عام ١٩٧٠ لم ينشر الصينيون أية إحصائيات . أما أرقام المحاصيل المنشورة على أثر (قفزة كبيرة إلى الأمام) ، فقد كانت غير موثوقة ، وتعرضت لتصحيحات فيما بعد . أما منحني نمو الإنتاج الغذائي فيبدو أنه ينطبق تقريباً على المنحنى الديموغرافي ، غير أن الأزمة الغذائية كانت عسيرة في ١٩٦١ - ١٩٦٣ ، إذ حدثت مجاعات محلية ، ولم يمكن التغلب عليها إلا باللجوء للاستيراد الكثيف في حدود عام ١٩٧٠ . ومنذ بضعة أعوام كانت المواسم أكثر وفرة وأكثر انتظاماً . أما الناتج القومي الخام

PNB في الصين ، الذي يكون من العسير جداً تخمينه ، فإن الإنتاج الزراعي يحتل فيه الربع مقابل النصف في ١٩٥٧ . كما انخفضت حصة الزراعة في الصادرات ، فأصبحت ٤٠ ٪ مقابل ٧٥ ٪ ، بيد أن دورها الاجتماعي والاقتصادي يظل جوهرياً . وتستمد الدولة دوماً من الكومونات الزراعية الشطر الأكبر من مواردها ، لأن الزراعة تظل ذات الأولوية .

إحصائيات زراعية لعام ١٩٧٩			
	الصين	اليابان	الهند
رز غير مقشر	١٣٤,٥	١٥,٩	٧٨,٥
قمح	٤٤	٠,٢	٣١,٢
فول الصويا	١٣,٣	٠,١	٠,١
فستق العبيد	٢,٩	—	٦,١
سكر	٥٠٠٠	٥٤٠	٥٣٠٠
شاي	٣٥٦	١٠٨	٥٦٥
ألياف قطن	٢٣٣٠	—	١١٥٠
حرير خام	١٦	٢١	٣

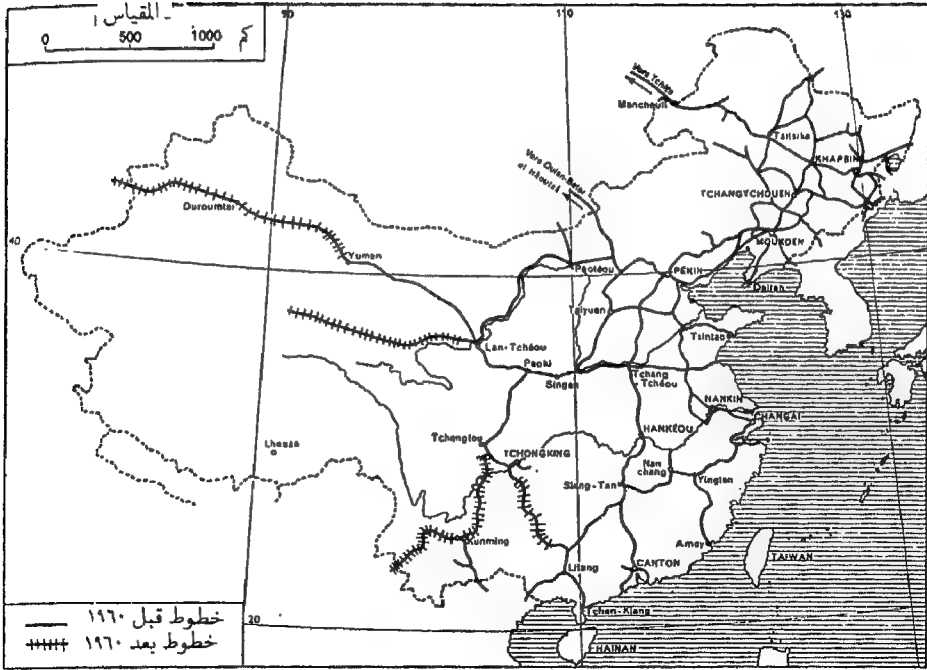
ولا تكون المزروعات الصناعية زراعات وحيدة إطلاقاً ، بل مشتركة ومندمجة في منظومة زراعة الحبوب ، حسب المناطق ، من قمح ورز ، ذرة بيضاء أو صفراء ، ولا تشذ عن ذلك المزروعات الشجرية كالشاي .

ومنذ ١٩٤٩ توسعت زراعة القصب السكري في غواندونغ (أقصى الجنوب) ، والشوندر السكري في منغوليا . ولقد ارتفع إنتاج السكر الذي كان ٥ ملايين طن عشر مرات . وتحتل الصين المرتبة الأولى في إنتاج الزيت النباتي ، ولا سيما زيت الصويا ، وهي أول منتجة للتبغ . أما الشاي الذي يبلغ إنتاجه ٣٠٠٠٠٠ طن ، أي يقل قليلاً عن الإنتاج الهندي ، فيخصص للاستهلاك المحلي . وقد بذلت جهود خاصة في سبيل المواد النسيجية ، فدخلت زراعة الجوت إلى إقليم غواندونغ ، وجري تحديث تربية دودة القز في المناطق التقليدية لزراعة التوت كجوار شنغهاي وكانتون ، كما هو الحال في شانغونغ حيث يجمع (الحرير البري) من فراشة البلوط . وتوسعت زراعة القطن ، فبلغ إنتاج أليافه ٢,٥ مليون طن وأصبحت الصين ثالث دولة منتجة له بالعالم ، في وادي يانغزي ولا سيما في السهل الكبير وإقليم سينجيانغ ، حيث يزرع القطن الطويل التيلة مروباً . ولكن لهذه الجهود حدودها ، وها هي الصين مستوردة للحبوب ، وأصبحت منذ عدة سنوات تشتري مقادير متزايدة من الصويا ومن القطن من السوق العالمية ، وحتى من الولايات المتحدة .

المواصلات : عنق الاختناق

لا تزال الوسائل التقليدية في النقل شائعة الاستعمال ، في القسم الأكبر من الرقعة الصينية ، كالقوارب والفلوكة على قنوات وأنهار الصين الجنوبية ، وقوافل حيوانات الحمل على دروب الغرب . ولا تزال شبكة الخطوط الحديدية ، وحتى شبكة الطرق المعبدة متراخية جداً . فلا زال ربع الكومونات ، الواقعة بمعزل عن الطرق المرصوفة ، يتطلب إخراجه من العزلة . ورغم النجاحات التظاهرية ، فإن منظومة النقل الداخلي لا تزال تؤلف نقطة الضعف في الاقتصاد الصيني . وتنقل الخطوط الحديدية ٧٨ ٪ من مجموع حركة البضائع . وقد تم بناء أوائل الخطوط بمجهود الأجانب ، حسب مصالحهم الاستراتيجية أو التجارية ، كخط يونان-البهلواني الممتد إلى هايفونغ وإلى الطونكين شمال فيتنام . أما الخط الحديدي الرئيسي الذي يربط هونغ كونغ بالعاصمة بكين مروراً بووهان ، فقد كان يفتقر إلى الجسور على نهر اليانغزي (اليانغتسي) . وفي عام ١٩٤٩ كانت الشبكة محدودة بمقدار ٢٧٠٠٠ كم ، كان نصفها يقع في منشوريا ، مع اتصال كبير على الخط العابر لمنشوريا ، وهو إنجاز روسي ، وخط جنوب منشوريا ، وهو ما حققه اليابانيون خلال احتلالهم لمنشوريا حتى عام ١٩٤٥ (شكل ١٢) .

وقد خطط النظام الجديد لبناء ١٦٠٠٠٠ كيلومتر من الخطوط الحديدية خلال ٤٠ عاماً ، وقد أضيفت إلى الشبكة السابقة في المناطق الهامشية ، خطوط بلغ طولها ١٨٠٠٠ كم وهو الخط العابر لمنغوليا ، الذي يحقق الاتصال المباشر مع الاتحاد السوفييتي ، ولكن حسب العرض الروسي ، أي ١,٥٣ م ، والخط العابر للقارة في الشمال الغربي أو لانسين ، أي بين لانزهو (وسط الصين) إلى



الشكل ١٢ الخطوط الحديدية في الصين

التركستان . والخط الغربي الذي يربط الخطين السابقين بالخطين الذاهبين إلى سيشوان وإلى كانتون . وقد تحول المحور الكبير من الشمال للجنوب إلى خط مزدوج بين بكين ووهان . وتمت كهرة قطاعات مثقلة بالحركة أو ذات مرتسم شديد التعقيد . وقد أصبحت الخطوط الحديدية والطرق البرية تتجاز نهر اليانغزي من الآن فصاعداً ، من فوق جسور في مدينة شنوغكنغ ، ووهان ، ونانكين .

وحيثما كانت البلاد تفتقر تماماً للخط الحديدي ، كما في التبت ، فقد تم شق طرق نفوذ . ولدى الصين حالياً ٢٨٠٠٠٠ كم من الطرق المزفتة ، مقابل ٧٠٠٠٠ كم في عام ١٩٤٩ ، ولكن حظيرة السيارات الشاحنة البالغة ٨٠٠٠٠٠ وحدة لا تساهم حتى الآن بأكثر من ٢ ٪ من حركة البضائع على مسافات طويلة ، وتخدم الشبكة الجوية الداخلية مئة مدينة .

وهكذا تلعب الملاحة الداخلية إذن دوراً كبيراً ، وذلك على الأقل في الصين الجنوبية في كل الفصول ، وفي منشوريا ، خلال الصيف فقط . وتر على نهر اليانغزي رغم خوانق ايشانغ ، أكبر حركة نقل في إقليم سيشوان . وقد تمت أعمال تعميق وتعريض وأقيمت منجنيقات لجر السفن بالحبال ، وإشارات مضيئة لتحسين قابلية هذا النهر الكبير للملاحة .

وبعد أن تلاشى الأسطول البحري الذي لا غنى عنه لتنمية التجارة الخارجية ، استطاع أن يرفع حمولته من ٠,٥ مليون طننة حمولة خام إلى ٤ ملايين منذ ١٩٦٣ ، ويتألف من سفن مستعملة أو جديدة ذات غاطس ضعيف . وتفتقر الموانئ للأعماق وللتجهيزات الرافعة . ويمر قسم من تجارة الصين الدولية على شكل ترانزيت من هونغ كونغ ، ويمر الباقي على الخصوص من سبعة موانئ ، كالجبوب في الاستيراد ، والفحم والنفط في التصدير ، وتأتي شنغهاي ولودا ، وهي دايرن القديمة ، وهي بوابة منشوريا ، في طليعة الموانئ النشيطة .

تقاليد الصينيين في التجارة البحرية : كانت السفن الشراعية الصينية تتردد في القرن الخامس عشر على سواحل إفريقيا الشرقية . ولكن خلال قرن استطاع الأجانب أن يحتكروا النشاط التجاري في موانئهم على الساحل الصيني مثل هونغ كونغ ، كينغداو ، أو دايرن (لودا اليوم) ، أو في موانئ امتيازاتهم مثل شنغهاي . ومن المتوقع أن تكون الشروط الملاحية متفاوتة على سواحل تمتد لمسافة ١٤٠٠٠ كم . فعند مصب نهر سيجيانغ ، ونهر يانغزي ، وهو المنفذ الوحيد إلى الحوض الأنر ، سشوان ، تقع هونغ كونغ وشنغهاي في موضع ممتاز لتأمين خدمة ظهريين واسعين ، وهما من إنشاء أجنبي . أما كينغداو ولودا فينفتحان على خليجين شبه مغلقين ولا بأس بعمقها . بيد أن خليج بوهيه يتعرض للانجراف الشتوي . ومنذ بضعة أعوام أصبح نو البحرية الصينية باعثاً على الدهشة . كما تستخدم الصين أيضاً سفناً تحمل رايات وهمية كسفن ياناما وليبيريا ، مثلاً تستأجر سفناً يملكها مجهزو سفن armateurs من هونغ كونغ . ويجري تجهيز الموانئ على قدم وساق . وتسمح فرضة لودا باستقبال ناقلات فقط من حمولة ١٠٠٠٠٠ طن ، مما يسمح بشحن بترول منشوريا في كل الفصول . بيد أن نشاط الموانئ الصينية لا يتجاوز ٢٠٠ مليون طن من البضائع ، منها ٨٠ مليون طن تخص التجارة الدولية .

ولا تزال وسائل الاتصالات ناقصة : إذ لا تملك الصين سوى ٥٠ متراً من السكك الحديدية ، مقابل كل كيلومتر مربع من المساحة و ٣٠٠ م من الطرق المعبدة . وليس هناك من خط حديدي يواكب وادي اليانغزي . أما مدينتا شونغكينغ و ووهان ، فهما قبل كل شيء عبارة عن مرفأين نهريين ومركزين للمسافنة Transbordement . وتختلف كثافة شبكة الخطوط الحديدية بشدة . وهناك بعض المحاور الكبرى التي تكون ذات خط مزدوج ، وعلى المسافر من أجل القيام برحلات طويلة نوعاً ما ، أن يقضي ٣٦ ساعة بين كانتون وبكين ، وثلاثة أيام حتى الحدود الصينية السوفياتية في منشوريا ، وأن يختار بين ثلاثة أنواع من العربات حسب نوعية المقاعد والمرتبات : مقعد قاس ، مرتبة قاسية ، مرتبة طرية . وهناك بعض الخطوط القليلة التي تزيد سرعة قطاراتها عن ١٠٠ كم ساعة ، لأن التفضيل هو للسلامة أكثر من السرعة ، وهكذا تتخذ انطلاقة القطارات دوماً نوعاً من مظهر احتفالي .

عن م . جان « الحياة الصينية »

١٩٧٦ P.U.F. Que Sais-Je ?

حركة الموانئ الصينية الكبرى في عام ١٩٧٨ مقدرة بملايين الأطنان

٥٠	شنغهاي
٢٥	لودا
٢٠	كينغهاو نفداؤ
١٨	كينغداؤ

الطرق المائية النهرية : تملك الصين شبكة من الطرق المائية تمتد على ١٢٠.٠٠٠ كم ، والتي تصلح للقوارب والغلوكة ، و ٣٠.٠٠٠ كم تصلح للصنادل ذات المحرك . وتحقق الملاحة النهرية ٢٠ ٪ من النقلات الداخلية ، أو عشرة أضعاف النقل بالشاحنات ، وتكاد تنحصر هذه الحركة بالصين الجنوبية . أما في المناطق الأخرى فإن شح المياه في الشتاء والانجذاب يعملان على شل حركة الأنهار . أما (القناة الكبرى) التي تم بناؤها في الماضي لنقل رز حوض اليانغزي حتى بكين ، فلم يتم بعد تنظيفها من الوحول إلا جزئياً .

مصادر طاقة كبيرة

لقد دخلت الصين عصر الطاقة الحديث منذ برهة وجيزة : إذ لا يتجاوز ما يصيب الفرد فيها أكثر من ٨٠٠ كغم من معادل الفحم . ولكن ثروتها من مصادر الطاقة ، من مستحاثات (حفرية) ومتجددة ، هي أفضل فرصة متاحة للتصنيع لديها .

ولا يمكن مقارنة المدخرات الجيولوجية في الأحواض الفحمية ، والتي تبلغ على أقل تقدير ١٠٠٠ مليار طن ، إلا بتلك الموجودة في أمريكا الشمالية أو في الاتحاد السوفييتي . ويمكن العثور على مكامن الفحم في سائر أنحاء الصين ، ولكن الأحواض الكبرى وأجود أنواعه هي الواقعة في منشوريا وفي الصين الشمالية ، ولا سيما في شانسي (شكل ١٣) ، إذ يتوفر الأتراسيت ، وفحم الكوك على شكل طبقات سميكة ، قليلة التشويه التكتوني ، ويمكن استغلالها على عمق قريب ، أو على المكشوف ، كما هو الحال في جبال الأبالاش الأمريكية ، أو في حوض الكوزباس الروسي في سيبيريا الغربية . وإذا تركنا جانباً بعض الاستثناءات في الصين الجنوبية ، فإن كل المناجم الحديثة الكبرى ، تكون ممكنة ، وتعمل في منشوريا ، حيث جرى اكتشاف حقل فوشون ، الذي بدأ اليابانيون استغلاله ، والذي تتوضع فيه طبقات الشيست البيتومينية ، التي يستخرج منها النفط فوق الفحم الدسم ، وفي شمال شانسي ، في حقل داتونغ ، وفي أطراف السهل الكبير ، وفي تانغشان في ولاية هوينان Huainan ، التي تؤمن استهلاك العاصمة ، ووهان وشنغهاي . ولكننا نجد في العديد من الأمكنة مناجم الكومونات الصغيرة التي تقدم ٤٠ ٪ من الإنتاج الكلي ، مع كثير من النفايات ، والتي توفر الطلب المحلي .



ولكن وعلى الرغم من عدم دقة الإحصاءات ، فمن المؤكد أن إنتاج مناجم الفحم الصينية بلغ في ١٩٧٨ مقدار ٦١٨ مليون طن ، أي يتساوى مع إنتاج كل من الاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة . وظل الفحم المستخرج حتى عام ١٩٧٦ يقدم ٨٦ ٪ من الحصة الطاقة (شكل ١٤) .



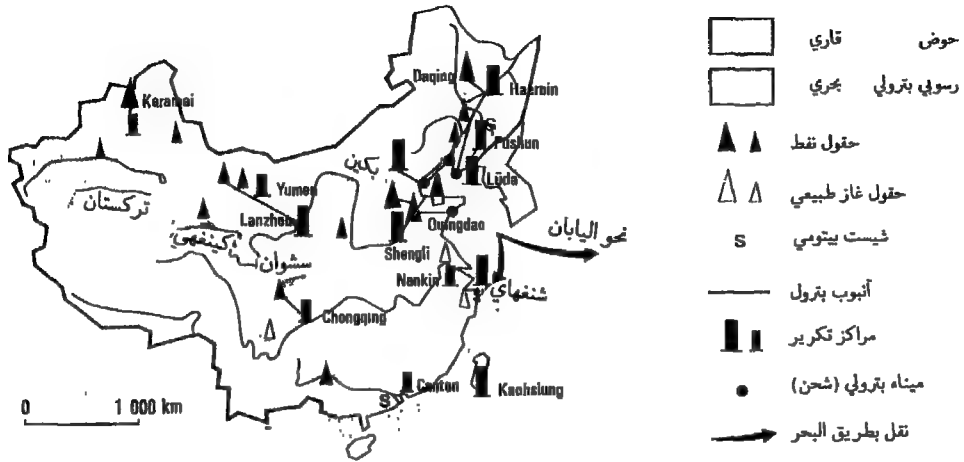
الشكل ١٤

وتقدم المراكز الحرارية العاملة على الفحم ثلاثة أرباع الطاقة الكهربائية . غير أن الطاقة الهيدروليكية الكامنة ، تكون عظيمة لأن تجهيز نهر اليانغري لوحده ، يستطيع أن يقدم ثلاثة أضعاف طاقة فرنسا الكهربائية ، ولكن هذا النوع من الطاقة لم يكد يدخل حيز الإنتاج بعد ، لأن دوره لا يمثل سوى ٣ ٪ من الطاقة الكهربائية . فضلاً عن السدود المنشورية التي خلفها اليابانيون ، تضاف الآن سدود نهر الهوانغهي ، هذا عدا عن العديد من المراكز الجمهورية في الصين الجنوبية ، والتي تقدم الكهرباء لمضخات الري . وعلى كل لا تتصرف الصين بأكثر من ٢٥٠ مليار ك و س ، أي ما يعادل إنتاج فرنسا تقريباً التي يقل عدد سكانها عن الصين بعشرين مرة . ولديها خامات

اليورانيوم في سينجيانغ « التركستان » ويتم إغناؤه في لانزهو على النهر الأصفر الأعلى ، ويقتصر استعمال الطاقة النووية لغايات عسكرية بحتة .

وقد كان استغلال أغشية النفط معروفاً منذ القدم في ستشوان ، واتساع الأحواض الرسوبية مصدر الفأل الحسن . ولكن التنقيب عن النفط واكتشافه في الغرب في البداية ، في غانصو وسينجيانغ ، على شكل مكامن نائية ، كان عسيراً لصعوبة تصريفه نحو الشرق ، وهذا كان يكبح من تقدم الاستغلال . غير أن اكتشاف حقل داكينغ في عام ١٩٥٩ في منشوريا (شكل ١٥) ، والذي دخل مرحلة الاستغلال في ١٩٦٥ بواسطة مدينة زراعية يسكنها التقنيون الفلاحون ، ومن ثم مكامن خليج پوهيه وتمديد أنبوب ، ومعامل تكرير ، سمحت جميعاً باستخراج ٢٩ مليون طن من النفط اعتباراً من عام ١٩٧٠ ، كي يرتفع إلى ١٠٤ ملايين طن في ١٩٧٨ . ويبدو الاحتياطي جسيماً ، ولكن لم يمكن بعد تقديره بشكل جيد ، إذ تتضارب التقديرات بين ٣ أو ٥٠ مليار طن ومعظمه فوق الجرف القاري off-shore .

النفط في الصين



الشكل ١٥

إنتاج البترول في الصين : قبل ١٧ سنة كان يتم في الصين استغلال حقول نفط وغاز طبيعي صغيرة في شوان في موقع يومن Yumen ، وموقع كاراميه : Karamai في التركستان ، وذلك للحاجات المحلية . أما الصين الشرقية ، فكان الاستهلاك الضئيل من أجل التنوير أكثر من الاستهلاك في النقل والصناعة ، وكان يتحقق عن طريق معالجة صخور الشست البيتومي ، حيث يستخرج طن واحد من النفط من كل ٢٠ طن من الصخور ، أو بواسطة استيراد البترول السوفياتي . غير أن اكتشاف حقل داكينغ قلب هذه المعطيات فقامت الصين بتجهيز نفسها بصورة محومة ، وضاعفت أطوال أنابيبها مرات عديدة فوصلت إلى بكين وإلى ميناء لودا ، وزادت من طاقتها التكريرية فبلغت ٨٠ مليون طن ، واشترت آلات الحفر ، التي تسد قبتها من مبيعات البترول الخام ، المؤلف من نفط كثيف وكبريتي ، يوافق أصحاب معامل التكرير اليابانية ، وبلغ تصديرها ١٠ ملايين طن . ولكن تقع أكبر مدخراتها النفطية تحت مياه خليج پوهيه ، وفي الرصيف القاري ، في البحر الأصفر وبحر الصين .

ويتعلق استغلالها باتفاقات دبلوماسية شاقة مع تايوان وفيتنام أكثر من صعوبة الحصول على تكنولوجيا معقدة من اليابانيين .



الحصيلة الطاقية لدى الصين

استهلاك مصادر الطاقة الأولية (نسبة مئوية)

١٩٧٨	١٩٥٧	
٪٨٠	٪٩٤	الفحم
٪١٨	٪٢	بترول
٪٠,٥	٪٠,٤	غاز طبيعي
٪١,٥	٪٢,٦	طاقة كهربائية

هذا وتكون المعطيات الإحصائية عن صناعة استخراج الفحم ، من أكثرها غوضاً حتى اليوم ، وما لا ريب فيه أن الأرقام المتوفرة تشير إلى كميات المستخرج الخام ، قبل الفرز والفسل ، وليس الفحم التجاري . غير أن النجاحات تظل رائعة بلا ريب .



وتبلغ القوة المحركة المتوفرة ١٣٠٠ مليار ك و س بالنسبة لمجمل الأنهار ، ولكن إنتاج الطاقة الكهربائية لا يتجاوز ٦٠ مليار ك و س أو ربع الإنتاج الصيني من الطاقة الكهربائية . أما المراكز الحرارية في الأحواض الفحمية ، أو في المدن الكبرى ، فنتج الباقي ، ولأكثر المؤسسات الكهربائية أو الحرارية دور محلي صرف .

وتظل شبكة النقل جنينية embryonnaire ، اللهم إلا في منشوريا ، وحول بكين وشنغهاي ، حيث يحقق ترابط المراكز مرونة أكبر في التوزيع . ولا زال هناك الكثير من الكومونات بانتظار الكهرباء . ويظل استهلاك الكهرباء الفردي ضعيفاً ، أو حوالي ٢٧٠ ك و س بالعام للفرد الواحد .



هذا ويضم باطن أرض الصين احتياطات هائلة من الفحم ، ذات قدرة حرارية قوية في الصين الشمالية ، ومن نوعية أقل جودة في منشوريا ، ولا سيما في الصين الجنوبية ، حيث يكون عمر الفحم جوراسياً أو من الحقب الثالث . ويكون توزع المدخرات على الشكل التالي : ١٩٪ من الأنتراسيت و ٣٥٪ من الفحم الصالح لصنع الكوك ، و ٤٢٪ من الفحم الدسم ذي البخار ، و ٤٪ من الليغنيت . غير أن المناجم الباطنية تكون عرضة للكثير من الكوارث ، ناتجة عن ضربات غاز الغريزو^(١) ، والفيضانات والزلازل ، كما حدث في مناجم تنغشان في تموز ١٩٧٦ وعلى الرغم من تحسين طرائق الاستخراج ، وتقدم المكننة فإن إنتاجية المناجم الصينية لا زالت ضعيفة .



(١) غاز سريع الالهب ينطلق من مناجم الفحم ، وهو غاز ميثان مختلط بالآزوت بصورة متطاولة وبغاز الفحم وبالهواء الجوي . ويتكون في مساحات الفحم على أثر تقسغ المادة النباتية ويتكدس في جيوب طبيعية موجودة في سقف الطبقات . وعندما يخترق معول عامل منجم أحد هذه الجيوب ، يحدث انبعاث غاز الغريزو ، وعند اختلاطه بالهواء المادي تحدث فرقة يكفي لهب مصباح عادي لحدوث الانفجار والحريق .

السياسة الصناعية

كانت الصين لا تزال حتى عام ١٩٤٩ في المرحلة الحرفية : واعتاداً على وسائل حاذقة وبدائية ، كان الصينيون يستخرجون من كل الأمكنة مقادير ضعيفة من الوقود ومن الفلزات المعدنية . وكان التنغستين والأثمد للتصدير ، في حين ظل الفن الصيني في صناعة الأقمشة الحريرية ، أو البورسلان والبرنيق laque الصيني ، محافظاً على سمعته . أما المصانع الحديثة ، ذات الرأس المال الصيني ، فقد كانت نادرة ، باستثناء شنغهاي ، حيث قامت مغازل القطن ، وهي أول صناعة تنشأ في قطر متخلف عادة إلى جانب صناعة الأسمنت . أما الأساس الوحيد لصناعة ثقيلة ، والذي كان من صنع اليابانيين في منشوريا ، فقد قام السوفييات بتفكيكه ، كغرامة حرية دون أن يخوضوا هذه الحرب فعلاً ، لأن الأمريكيان هم الذين أجهزوا على اليابان في عام ١٩٤٥ .

ومن ثم قام السوفييات بتمويل ١٥٦ مشروعاً كبيراً في أول مخطط خماسي (١٩٥٣ - ١٩٥٧) ، تعطي الأفضلية لقطاع الدولة أي لسلع التجهيز والمواصلات ، وأهل الصناعة الخفيفة ، تاركاً مهلة وفرصة « للرساميل الوطنية » وإلى تعاونيات الحرفيين . ومن ثم تضاعف الإنتاج : ولكن الصين ظلت تنتج من الفولاذ أقل من فرنسا بثلاث مرات، ومن الكهرباء بخمس مرات ، ولم ينصبّ الاهتمام إلا على منشوريا (هيلونغيانغ) ، التي سبق لها أن كانت أفضل تجهيزاً ، وعلى الصين الشمالية الغنية بالفحم .

ولما أطلق النظام الحاكم شعار « القفزة الكبيرة للأمام » ، فإنه كان يرغب في تسارع التنمية عن طريق تعبئة الطاقة البشرية الكامنة ، ونشر

التصنيع في طول البلاد وعرضها عن طريق تنظيم « الكومونات الشعبية » ، وهي وحدات ذات استقلال ذاتي ، زراعية وصناعية في الوقت نفسه ، وكان الهدف من البعثة والاستقلال الذاتي حل مشكلة النقل . ويستطيع فرن عالٍ فلاحٍ أن يسكب بضعة أطنان من الفونت باليوم ، وهكذا تم بناء ٣٧٠.٠٠٠ فرنًا ، وفي خلال عام واحد ، ازداد الإنتاج المعدني إلى أكثر من الضعف . وحلّت الأوامر اليومية مكان المخطط ، ومكان المخطط السوفياتية لأرقام الإنتاج ، وكان الفشل : لأن الأرقام كانت خداعة ، والنوعية غير مضمونة ، فضلاً عن إنهاك قوى الشغيلة . وأدى رحيل الخبراء السوفيات إلى الضربة القاضية لأن البلبلية انتقلت إلى الورشات الصناعية الكبرى .

وبعد أن أصبحت الصين الماوية لا تعتمد إلا على « قواها الخاصة » ، فقد عادت في عام ١٩٦٠ إلى منح الأفضلية للزراعة ، وللصناعات التي تعمل للزراعة مثل صناعة الأسمدة ، ولكنها ظلت دوماً تفكر في إقامة الصناعة في « أعماق البلاد » و« أن تسير على ساقين » ، إقامة الصناعة الكبرى والصناعات المحلية ، وأنتجت الكومونات ٢٠٪ من الفولاذ ، ٤٠٪ من الأسمنت والفحم و ٦٠٪ من الأسمدة .

ويقوم « ميثاق أنشان » على إشراك الأطر بالإنتاج والعمال بالتسيير ، وعلى إلغاء العلاوات ، ويقلص مروحة الأجور غير أن التعميم الإحصائي ظل يحجب النتائج ، التي تبدو متفاوتة للغاية وذلك حتى عام ١٩٧٠ (شكل ١٦) .

ومع دخول المخطط الرابع (١٩٧١ - ١٩٧٥) تطورت السياسة الصناعية : فبعد أن أصبح لدى الصين كميات نفط للتصدير ، زادت من مبادلاتها ، وراحت تشتري التجهيزات ، وكُرست فترة ما بعد الماوية القطيعة ، إذ أصبح للخبر الأرحجية على رجل السياسة . وشجعت الإنتاجية بعلاوات المردود . أما على الساحل فقد تمّ بناء الوحدات البتروكيمياوية ،

سياسة اقتصادية أكثر واقعية :

لقد كانت الأسباب الرئيسية لإعادة النظر . لخطط العشري (١٩٧٦ - ١٩٨٥) ، الذي تم نشره في آذار (مارس) ١٩٧٨ ، هو الطابع الطوبائي للأهداف المقترحة ولاختلاف التوازن الناجم عن هيمنة الصناعة الثقيلة بصورة مفرطة ، ولا سيما الصناعة الحديدية . فلم يحفز العوز إلى الطاقة وكثرة أعناق الاختناق في وسائل النقل ، مما أدى إلى عرقلة نشاط المؤسسات ، فكان من الواجب تنمية إنتاج الكهرباء ، وتقليص بعض مشاريع التجهيز الهامة . وهكذا كان مخطط « التعديل وإعادة البنية restructuration والتتين والإصلاح » يستدعي الاهتمام بالنقاط التالية :

- زيادة إنتاج الحبوب والمحاصيل الزراعية الأخرى ، واستناداً إلى الحملة الرسمية « بناء الصين » : « الزراعة هي ركن الاقتصاد الوطني . والتنمية الكاملة للزراعة هي التي تستطيع أن تسمح بتقديم الغذاء الوفير لسكان المدن ، وكذلك المادة الخام الضرورية للصناعة الخفيفة ، ولا سيما النسيجية ، سواء للحاجات المحلية وللتصدير . وعندما يبلغ الفلاحون وعددهم ٨٠٠ مليون نسمة مستوى الرفاهية فإن السوق الداخلية تستطيع أن تنمو من نفسها .

- تنمية الصناعات الخفيفة والصناعات النسيجية كي يمكن تزويد الجماهير بما يكفي من سلع الاستهلاك والتي ستزداد رواجاً مع تزايد القدرة الشرائية ، وأيضاً لزيادة حجم الصادرات .

- عدم الاكتفاء بتحسين الكمية فحسب ، بل وجوب تحسين النوعية ، وتنويع منتجات الصناعة الثقيلة .

- بذل الجهود لتحقيق زيادة منتظمة في دخل العمال والفلاحين .

- إعادة النظر في بنية التسيير الاقتصادي الذي يجب أن يمنح مختلف وحدات الإنتاج العاملة في الصناعة والتجارة والزراعة والمواصلات والنقل أكبر سلطة ممكنة للحسم وتخصاً أكثر تقدماً .

- ضرورة أن تبذل المؤسسات جهدها لتحسين الإنتاج والتسيير والمستويات التقنية .

- نشر وتعميم التخطيط العائلي .

كما تم الإلحاح على ضرورة رفع السوية المعاشية أيضاً ، وذلك بتنشيط صناعة الخدمات وتبنيها .

عن مجلة قضايا اقتصادية ، ومجلة الشرق الأقصى الاقتصادية . هونغ كونغ ٥ تشرين أول ١٩٧٦

بناء مصفاة بترول في يومن (غانصو)

لقد كانت أعمدة التقطير الجوي ذات أبعاد متواضعة . وتعالج مصفاة يومن Yumen بترول حقل يقع في الغرب الصيني . وهو أول حقل على قدر لا بأس به من الأهمية تم اكتشافه . ولكن دوره ينحصر بتوين إقليم غانصو . وهناك أنبوب ينقل النفط إلى مصفاة لانزهو على نهر الهوانغنه أو « هوانغهو = النهر الأصفر » وهي كمية أكبر من نقت يومن . وقد كوّن الصينيون جيولوجيهم بأنفسهم ، وكذلك فرق الحفر . غير أن صناعة التكرير تواكب مع بعض التأخير نجاحات التنقيب واستغلال البترول في الصين . غير أن النجاحات التكنولوجية في الصين لا تكون مع ذلك أقل دهشة .

« ففي خلال أول مخطط خماسي ، كانت الصين تستطيع أن تحقق بنفسها إنتاج ٥٥% من المكائن التي كانت بحاجة إليها ، أما الباقي فكان يجب تقليده حرفياً أو استيراده . وفي نهاية المخطط الثاني ، ومع تزايد الحاجات ، فإن نسبة المستوردات ارتفعت إلى ٨٥% . كما أن انتشار المهارة التقنية ، كانت تسير موازية مع نمو طلائعي في بعض وحدات الإنتاج ، وفي ١٩٧٢ كان المستوى التكنولوجي في بعض الفروع الصناعية لا يزيد تأخراً بأكثر من ١٥ سنة عن أفضل المستويات في الأقطار المتقدمة .

عن ب . جنتل . الصين

١٩٧٤ . P.U.F

مركبة الصناعة الحديدية في ووهان :

وهنا يبلغ التضاد حده الأقصى بين هندسة الأفران العالية ، وبين وسائل النقل اليدوي ، إذ قد نجد عاملة تحمل رافعة حديدية على كتفها ، أو تقوم بأعمال الحفر والردم . وقد كان إنشاء هذا المركز على نهر اليانغزي ، في سافلة مدينة ووهان ، في القلب الجغرافي للصين القديمة ، واختيار موقع مصنع الصناعة الحديثة هذا ، حسب أسلوب سوفيائي ، أقول : كان تقليدياً تماماً ، بجوار منجم فلزات الحديد ، وعلى مسافة معقولة من منجم فحم حجري . غير أن أعمال بناء هذا المصنع استغرقت مدة عشرة أعوام ، تطورت التكنولوجيا خلالها . وينتج مركب ووهان اليوم ١٠% من الفولاذ الصيني ، الذي بلغ ٣١,٥ مليون طن ١٩٧٨ ولكنه أصبح من نمط قديم ، إذ يتم الآن في الصين بناء مركبات صناعة حديدية ، كما في شنغهاي مثلاً ، يكون موقعها ومؤسساتها مستوحاة من النمط الياباني . ومنذ عام ١٩٧٠ تقدم إنتاج الصين بموالي ٥٠% ، ولكنه يظل أدنى ، من حيث القيمة ، من إنتاج فرنسا (التي يقل عدد سكانها عن الصين بموالي ١٩ مرة) . ولكن يظل التقدم الكمي أقل إثارة للإعجاب من التحسينات التقنية ، المرتبط « بانفتاح » الصين ، التي أصبحت تتخذ مظهر دولة صناعية كبرى .

البنى الصناعية وأماكن توطيئها

كانت المناطق المفتوحة أمام النفوذ الأجنبي ، خلال النصف الأول من القرن الحالي ، هي الوحيدة التي شهدت بداية تصنيع ، فكانت الصين والهند المستعمرة في مرحلة واحدة . وإذا كان الاهتمام منصرفاً في بداية النصف الثاني من القرن العشرين نحو ترميم وإصلاح النواة الصناعية في الشمال الغربي ، فقد كان من المناسب تحديد إمكانية الأقطاب الجديدة ، استناداً إلى وجود المواد الأولية ، وإمكانات النقل والحاجات الإقليمية .

وهكذا كان التخطيط واللامركزية يسيران جنباً إلى جنب . وكانت هناك ثلاثة قطاعات تساهم في الإنتاج الصناعي . فلم يكن على الكومونات الريفية إلا الانقياد لتوجيهات الخطط العامة ، وأن تتحمل على عاتقها كل الاستثمارات ، وكان العمل الصناعي الخاضع لضرورات التقويم الزراعي ، مأجوراً كالعمل في الحقول . وكان لدى الكومونات ، حسب موقعها ، فوائض إنتاجية كالفحم والإسمنت ، أو تكتفي بصيانة الأدوات الزراعية ، وبتحضير السماد . ويبدو أن نصيب الصناعة الريفية يتجه للتناقص . أما في المدن فإن مؤسسات الصناعة الخفيفة ، وهي التي يقل عدد عمال الواحدة منها عن ٢٠٠٠ عامل مهما كانت طبيعة المصنوعات ، فقد دخلت في الإنتاج المبرمج ، لأن الدولة هي التي تقدم الاستثمارات التحويلية ، وتتلقى الأرباح ، غير أن وزارة الصناعة الخفيفة ، تترك مهمة التسيير فيها للبلديات أو للتعاونيات العمالية . ولكن المؤسسات الكبرى في الصناعة الثقيلة هي التي تتعلق كلياً بالدولة .

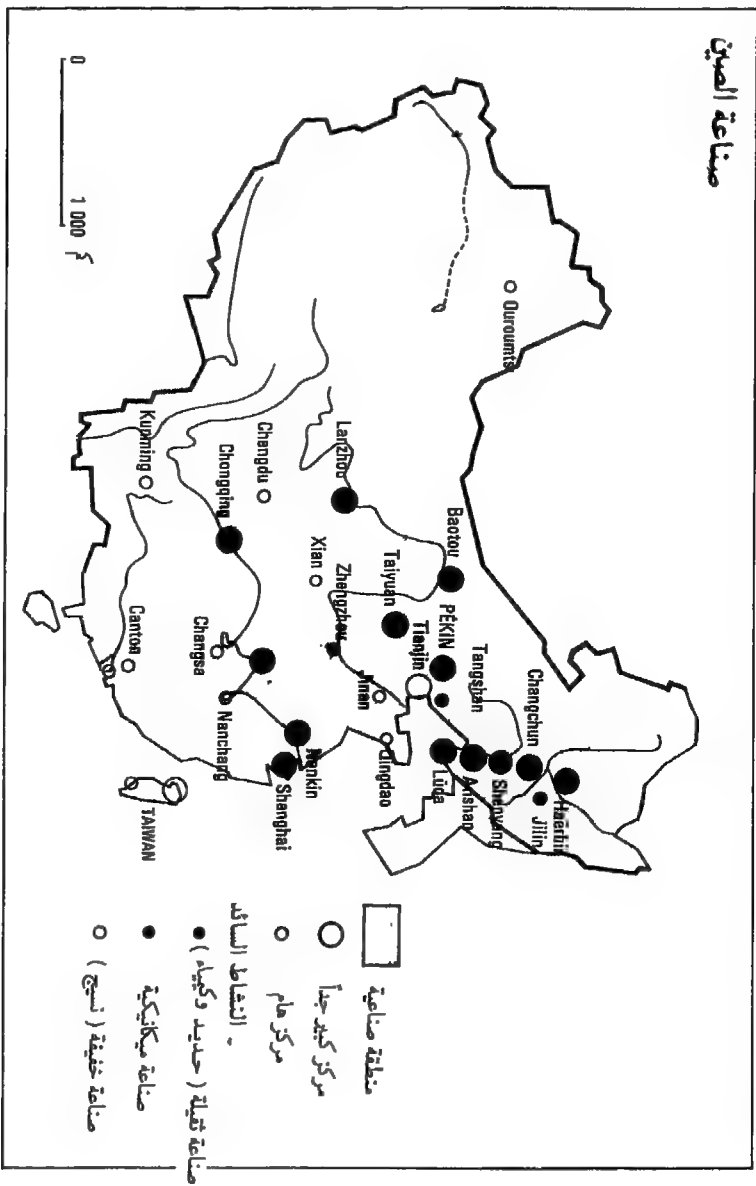
ويبدو أن الإنتاج الصناعي المخطط هو الذي يحتل مثلثاً تتألف قاعدته من مجرى نهر اليانغزي ، أي يمتد من شونغكينغ إلى شنغهاي ، وتقع قمته في هايرين في منشوريا (شكل ١٨) .

أما في الغرب فلا نجد شيئاً سوى المراكز النووية وبعض الصناعات الأساسية كالصناعة الحديدية في باؤتو Baoutou والبتروكيميا في لانزهو . ويحتوي الجنوب على مناجم مبعثرة وصناعة حرفية نشيطة ، ولكن القليل من المصانع الحديثة ، وذلك حتى في كانتون ذاتها . أما الحوض الأحمر فلم يتخلص بعد من عزلته ، ولهذا لا يستفيد كل الاستفادة الممكنة من ثروته الطاقية الكبرى ، كما أن موقع مدينة شونغكينغ الكثير التضاريس لا يكون مناسباً للصناعة الثقيلة .

وعلى العكس من ذلك يستأثر الوادي الأوسط والأدنى لنهر اليانغزي بما يعادل ٢٩٪ من الصناعة الصينية ، ولا سيما في ووهان ، عند تقاطع محور الخط الحديدي ، الذي يربط كانتون بكين ، مع الطريق الصالح للملاحة ، حيث تقوم الصناعة الحديدية والميكانيكية ، وفي نانكين التي ازدهرت بالصناعة البتروكيمياوية والألكترونية وأخيراً في شنغهاي التي عادت فأصبحت أكبر بؤرة للصناعات ، ولأكثر الأنشطة تنوعاً وأكثرها ديناميكية .

أما النمو الصناعي في الصين الشمالية ، التي تقدم ١٧٪ من الإنتاج ، فهو أكثر سرعة أيضاً ، وهو يقوم على الصناعات الاستخراجية وعلى النسيج ، والصناعة الحديدية والميكانيكية والكيمياوية . أما مثلث بكين - تيانجين - تانغشان (مناجم فحم) فهو الذي يحظى بكل صنوف الرعاية ، لأنه يعتبر الموازن لمنطقة اليانغزي الأدنى ، ويظل الشمال الشرقي الذي يقدم ٢٤٪ من الإنتاج وهو « حَرَم » منشوريا ، يظل مع ذلك « الرور الصيني » ، فالمنطقة الصناعية تمتد فيه من شينانغ شمالاً إلى ميناء لودا جنوباً ، هذا فضلاً عن مناجم فحم فوشون ، ومصانع الفولاذ في آنشان .

صناعة الصين



الشكل ١٨

تظل الصناعات الحديثة ، على مقياس الصين ، متمركزة نسبياً على المستوى الجغرافي . فقد تعرضت سياسة اللامركزية لمشكلات قاهرة متنوعة : كواقع مصادر الطاقة ، و ثغرات منظومة النقل ، والافتقار إلى الأيدي العاملة المؤهلة . وهكذا تمّ نقل تجهيزات بعض المفازل من شنغهاي نحو مدن السهل الكبير ، وإلى حقول القطن ، وفوق مناجم الفحم . ولكن ظلت قوانين العطالة *inertie* تلعب دورها إجمالياً : فقد احتفظت مراكز الصناعة القائمة في عام ١٩٤٩ مثل شنغهاي ، أو مدن منشوريا بمزية اسبقيتها . كما أن الاهتمام بالهبة هو الذي يفسّر ، إلى حدّ ما ، النمو الصناعي في مدينة بكين .

فوشون :

لقد قام اليابانيون باستغلال مناجم الفحم « على المكشوف » الواقعة هنا في وسط السهل المنشوري ، مثلاً استغلوا طبقات الشيست البيتومي التي تمتطي طبقات الفحم . وقد عمل أول مخطط خماسي ١٩٥٣ - ١٩٥٧ بمعونة من السوفيات ، على جعل هذه المنطقة قاعدة قوية للصناعات الثقيلة ، والتي استوحت بشكل خاص من العمران الصناعي في مدن سيبريا . ولا يزال الشمال الشرقي يقدم نصف البترول من آبار داكينغ ، وربع الفحم ، وثلاث الفولاذ من أنشان ، مثلاً يصنع أكثر آلات التجهيز تعقيداً . فضلاً عن مراكز الصناعة الوحيدة كما في أنشان ، فإن المدن الكبرى مثل هايرين (خاربين) وشانغشون ، ولود (دايرن) ولا سيما شنغيانغ ، والتي تضم ٢٠٠٠ مصنع ، تحوي أكثر الصناعات التحويلية تنوعاً : لإنتاج زيت الصويا ، والورق ، والنسيج والكماويات .



الصناعات الثقيلة والصناعات الخفيفة

تحتوي الصين معظم المواد الأولية الضرورية للصناعة . ولكن الخشب يكون نادراً إلا في منشوريا ومع هذا تصنع السيللولوز أيضاً والورق اعتماداً على أقصاب البامبو ، أو من قفل قصب السكر بعد عصره . وتضطر الصين لاستيراد المطاط من سيلان . ومنذ قليل راحت تستورد بعض القطن من باكستان أو ما يعادل عشر حاجاتها منه . أما باطن أرضها ، الذي لم يتم بعد التنقيب عن كل مكنوناته ، فهو ليس غنياً بالمحروقات فحسب ، بل تكشف عن وجود الملح في

سشوان ، والفوسفات والكاءولان ، ومعظم الفلزات المعدنية . هذا كما تستغل الصين من أجل التصدير الأئمد والتنفستين لأنها تقدم نصف إنتاج العالم من الصين الجنوبية ، مثلما تستثمر من أجل الاستهلاك الوطني ، الذي لا زال ضعيفاً ، القصدير والنحاس من يونآن ، والرصاص والزنك من منشوريا وكذلك المنغنيز . ولكن الصين تفتقر للبوكسيت ، ولكنها تستمد الألمنيوم من طبقات الشيست الألومينية ذات المحتوى الفقير .

هذا وتعتمد الصناعة الحديدية على كل فلزات الحديد المحلية التي تعالج في أفرانها العالية . وتكون مناجم خامات الحديد عديدة وجيدة التوزع . فهناك جيوب من الفلز الجيد قرب ووهان ، وفي إقليم شانسي ، ولكنها تكثر في منشوريا ، وفي منغوليا الداخلية ، وفي جزيرة هاينان حيث تتوفر أكداً من الخامات أكثر غزارة على شكل طبقات سميكة ، مؤلفة من فلزات فقيرة ، سهلة الاستخراج ، ولكنها تكون عسيرة المعالجة .

وتجسد نهضة الصناعة الحديدية خلال الخطط الأول ، ثم أثناءه « القفزة الكبرى إلى الأمام » مثلما تمثل نجاح الصين الجديدة . وبعد عشرة أعوام من خيبة الأمل التقنية ، أصبحت النجاحات محسوسة : فبلغ الإنتاج ١٨ مليون طن في ١٩٧٠ ، وصعد إلى ٣١,٧ مليون طن في ١٩٧٨ و ٣٥ مليون طن في ١٩٨١ . وقد خمدت نيران « الأفران العالية الفلاحية » ، ولكن لا تزال مصانع الفولاذ المحلية الصغيرة تسكب نسبة لا بأس بها من هذا المعدن . غير أن للمجمعين الجديدين في ووهان وباوتو ، القريبين من الفلزات ، والأكثر بعداً عن فحم الكوك ، مسيرة غير منتظمة ، في حين يكون لمجمع أنشان ، الموروث عن اليابانيين والذي تجهز من جديد ، قدرة أكبر بكثير ، إذ يبلغ إنتاجه ٦ ملايين طن من الفولاذ ، ويتمتع بوسائل نقل أفضل تتمثل بشبكة كثيفة من خطوط حديدية ، في منشوريا ، وتنتج بالتضافر مع مصانع الفولاذ الحديثة في بكين وفي

شنغهاي ، فولاذاً أفضل كالكسك الحديدية وصفائح أنابيب النفط . ولكن إذا نظرنا إلى استهلاك الفرد الصيني للفولاذ والبالغ ٣٠ كغم تقريباً وجدناه أقل من الياباني بعشرين مرة . كما تنتج الصين من الإسمنت حوالي ٦٢ مليون طن ، أي أقل من اليابان التي يقل سكانها ثماني مرات عن الصين . ومنذ ١٩٧٠ تكاثرت وحدات صناعة البتروكيماويات ، كالنسوجات التركيبية والبلاستيكية ، كما تقدم صناعة الأسمدة للزراعة ٤٨ مليون طن تنتج ورشات الكومونات منها نسبة ٤٠٪ .

ويشيد الصينيون في منشوريا وفي شنغهاي تسلحهم وبيع تجهيزهم : كالمكائن الصناعية والعنفات ، وكل تجهيزات الخطوط الحديدية ، مثلما ينتجون ١٠٠٠٠٠ جرار « تراكتور » وشاحنات ، ولكن القليل من السيارات السياحية^(١) . ويتطور إنتاج سلع الاستهلاك حيث تقدم المؤسسات الحرفية التعاونية ٢٠ ٪ ، بسرعة كبيرة تلبية لطلب سوق وطنية تزداد انفتاحاً ، كالدراجات وأجهزة الراديو ، والساعات وللتصدير . وتستطيع الصناعة النسيجية ، وهي الأولى في العالم بلا ريب ، أن تؤمن كساء الجماهير الصينية ، مثلما تحقق للصين ١٧ ٪ من مبيعاتها الخارجية على شكل ألبسة جاهزة خارجية وداخلية انتشرت الآن في أقطار الخليج بشكل كاسح لرخص أسعارها التي تقل بحوالي ٥٠ ٪ عن مثيلاتها التي تنتج في البلاد العربية المجاورة .

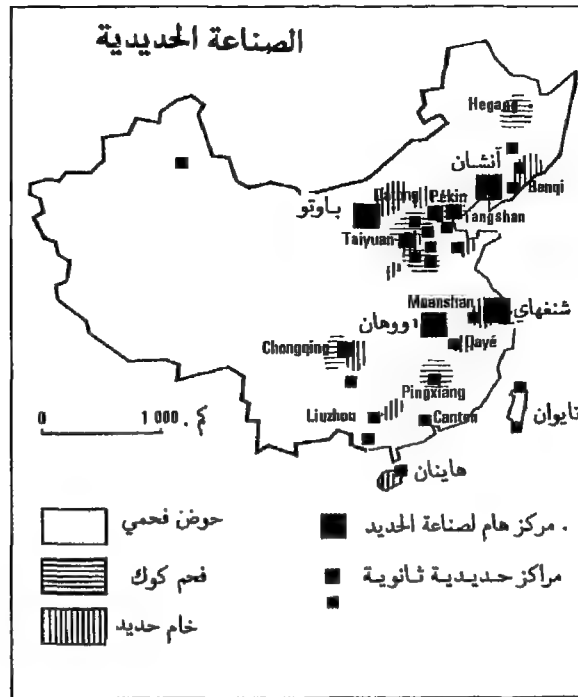
(١) لا يزال الشعب الصيني الانضباطي يمارس سياسة « شد الأحزمة على البطون » إذ لا وجود للترف ولا للسيارات الخاصة السياحية ، بل دراجات للجميع ، وباصات متوفرة ونظيفة ، وكل ذلك في سبيل تحقيق رفاهية الجيل القادم والقضاء على « مفعول التظاهر » والحسد والنزاع الطبقي الكادب .

النمو المقارن للصناعة الحديدية والصناعة النسيجية : بعد أن جرت التضحية بالصناعة الخفيفة خلال المخطط الأول ، ولاسيما خلال القفزة الكبيرة إلى الأمام ، تبدو اليوم وهي تنمو بصورة أفضل من السابق . فالصناعة النسيجية ، التي كانت هامة في ١٩٤٩ حتى أنها كانت تقوم بالتصدير للخارج ، لاتزال في معظمها متركزة في المراكز الحضرية الكبرى التقليدية ، حول شنغهاي التي تنتج ٣٠ ٪ وفي تيانجين . غير أن المصانع الحديثة قامت في مناطق زراعة القطن كالسهل الكبير ، وفي معظم المدن الكبرى مثل سيان وبكين . وتبدو الصناعة القطنية أكبر مستهلكة لألياف القطن في العالم . غير أن المحصول السنوي الصيني من القطن والذي يبلغ وسطياً ٢,٥ مليون طن قد أصبح غير كاف . وتستورد الصين ٥٠٠,٠٠٠ طن من الأقطان الطويلة التيلة ، أي أكثر من إنتاج مصر كله ، مثلما تدمج فيها الخيوط الاصطناعية والتركيبة أكثر فأكثر . فلم يعد الصينيون الذين زاد عددهم بنسبة ٥٠ ٪ منذ ١٩٥٢ يكتسبون بصورة أفضل فحسب ولكن الصناعة تزيد من صادراتها من الأقمشة المصنوعة ومن الألبسة الجاهزة ، كالألبسة الداخلية والتريكو والملبوسات الجاهزة التي تحمل أحياناً ماركة هونغ كونغ ، أو ماكاو البرتغالية .

هناك الكثير من المكامن المعروفة والمستغلة بصورة تقليدية منذ زمن بعيد . وإذا استثنينا خام الحديد فإن الصين الجنوبية تبدو أكثر غنى بالمعادن المتنوعة ، وعلى الخصوص إقليم هونان ، سيشوان ويونان ، ولكن هناك الكثير من المكامن المعدنية البعيدة النال . وإذا كانت مروحة الثروات المعدنية التي لاغنى عنها في صناعة المعادن ، وفي الكيمياء ، تبدو كاملة نوعاً ما ، فإن احتياطياتها تبدو محدودة . ولا زالت هناك مناطق واسعة تنتظر التنقيب كالتيت . ولا تنتج الصين حالياً أكثر من ٢١٠,٠٠٠ طن من الألمنيوم و ١٧٥,٠٠٠ طن من النحاس أي أقل من جارتها اليابان بست مرات .

وتبدو مواقع مصانع الحديد (شكل ١٩) خاضعة لقوانين تقليدية : كوجود المواد الأولية ، ومنظومة المواصلات . أما خام الحديد ، الذي يتوزع على مكامن عديدة ، تكون على العموم ذات محتوى ضعيف ، فينقل إلى مسافات أقصر من الفحم الصالح لصنع الكوك ، والنادر نوعاً ما في الصين الجنوبية . وتكون أكثرية المصانع ذات قدرة ضعيفة بالموازنة مع المعايير العالمية ، وتشكو من تأخر تقني حقيقي . ولا تنتج الصين سوى القليل من أنواع الفولاذ الخاصة ، مثلما تفتقر لمصانع الفولاذ العاملة على الأوكسجين ولبعض وسائل التصفية اللازمة لصنع الأنابيب . وقد ظهرت صناعة الحديد الساحلية عند مصب نهر اليانغزي في مشروع باؤوشان Baoshan ، والتي تعتمد على الطريق البحري في تمونها ، وربما كان ذلك على خامات الحديد المستوردة .

هذا وقد استقرت صناعات الميكانيك الدقيقة في الصين الشمالية : ذلك لأن الأيدي العاملة الصينية ، من ذكور وإناث ، مشهورة منذ القديم بحذقها ، الذي يعتبر عامل نجاح في سياسة التصنيع . وبما أن الصين كانت معروفة منذ زمن طويل في الخارج بنوعية وبقيمة منتجات صناعتها الحرفية على الصعيد الفني ، كالأقمشة الحريرية والسجاد والبورسلان ، فقد أخذت الآن تسير على خطى هونغ كونغ وتايوان لكي تتحول إلى دولة مصدرة ومنافسة في صنع سلع الاستهلاك الدارج ، الذي يستدعي الكثير من الشغل والقليل من المواد الخام : كأجهزة الراديو والترانزستور والساعات . وستصبح الصين قريباً وبعد تأخر مقداره نصف قرن ، عبارة عن يابان من نوع آخر على الأسواق العالمية .



الشكل ١٩

بعد ثلاثين عاماً من الثورة : حصيلة إيجابية

يعتبر الصينيون التخلف ناتجاً عن البنى الاجتماعية التقليدية ، ومن تنظيم اقتصادي رديء لوجود الرأسمالية والهيمنة الأجنبية . وكانت الصين الماوية تعتمد في تنميتها على الذات ، مستمدة استثماراتها الاقتصادية والاجتماعية من منتجات زراعة تتمتع بالأفضلية . ولا ينظر إلى تفوق القطاع الأولي ، على أنه قرينة تخلف في بلد يؤلف الفلاحون فيه ٧٥ ٪ من العاملين ، والذين لهم دور متعدد الأنشطة في الكومونات الريفية . ويأكل كل صيني مافيه الكفاية لكي يعيش وأن يعمل بجحاسة . وتوزع الأقوات حسب حصص تتناسب مع السن ومع نوعية العمل ، فتتراوح بين ١٥ و ٢٢ كغم من الحبوب شهرياً توفر وسطياً مقدار ٢٢٠٠ سمرة (كالوري في اليوم) أو ثلثي جرایة الأمريكي الشمالي : وتكون الأجور زهيدة ، بيد أن الغذاء والسكن ، حيث يخصص لكل مواطن أربعة أمتار مربعة ، رخيصان ، ولا يمتصان أكثر من ٣٠ ٪ من دخل الأسرة الوسطى ، ذلك الدخل الذي يتقدم بمعدل ٥ ٪ في العام .

وتظل الصين قطراً فقيراً ، ولكنها استطاعت على الأقل في خلال ثلاثين عاماً أن تقضي أو تخفف المشكلات المألوفة في العالم الثالث المتخلف مثل : الأمية ، سوء التغذية ، العوز الصحي ، التأخر التقني ، ولا سيما النمو الديموغرافي الوثاب ، الذي يعتبر عنصر ضعف مع الفقر ، لأن ٣٠ المآل والبئون زينة الحياة الدنيا .

وقد قدرت قيمة إنتاج السلع المادية بمبلغ ٣٠ مليار دولار للزراعة و ٩٠ مليار دولار للصناعة . ويقدر الناتج القومي الخام الحالي للصين ، والذي يبدو

من المتعذر حسابه بدقة ، بحوالي ٤٠٠ مليار دولار^(١) ، أي تعادل مرتين ونصف دخل الهندي المتوسط . ومنذ عام ١٩٧٦ أصبح الإصلاح والتعديل الاقتصادي ، الذي يستهدف تطبيق قوانين « الإصلاح الموضوعي » ، يرمي إلى رد الاعتبار للعائدية ، وإلى الربح ، وإلى قيمة البضائع ، ولا سيما حقيقة الأسعار . وتحفظ الزراعة « حسب مميزات القطر » بأرجحيتها ، ولكن سيخصص المزيد من الاستثمارات للصناعة الخفيفة التي تقدم مواد التصدير . أما في الصناعة الثقيلة ، فإن الجهود كلها يجب أن تتجه نحو بعض المشاريع الرئيسية . ويرمي المخطط الحالي إلى استثمار ٦٠٠ مليار دولار قبل عام ١٩٨٥ ، منها ٨٥ مليار على شكل تجهيزات وتقنيات مستوردة من الخارج .

ولم تحقق الصين حتى الآن سوى ١٪ من المبادلات الدولية ، مع أنها تضم ضمن حدودها ربع سكان الأرض تقريباً ، فهي توازن بين مشترياتها ومبيعاتها خلال فترة المخطط الخماسي إن لم يمكن تحقيق ذلك في كل عام . فهي لاتزال تعتمد دوماً على صادراتها التقليدية ، أي الحرير الخام ، الشاي ، مسحوق البيض ولحم الخنزير ، والزيوت النباتية ، المعادن الاستراتيجية ، ولكنها أصبحت تصدر المزيد من المنتجات المصنوعة ، والبتروول منذ فترة وجيزة . وتسيطر سلع التجهيز طبعاً في قائمة المستوردات ، ولكن الصين زادت كثيراً من مشترياتها الغذائية .

وقد تبدّل عملاء الصين بشكل جذري خلال العشرين سنة الأخيرة . فبعد أن كانت ثلاثة أرباع تجارتها تتحقق مع الاتحاد السوفياتي ، ودول أوروبا الشرقية ، راحت تتجه نحو الأقطار الرأسمالية الصناعية . وهكذا تمتص هونغ كونغ واليابان ٣٤ ٪ من صادراتها ، مثلما أصبحت اليابان أول مصدرة للصين أو ٢٦ ٪ فسبقت جمهورية ألمانيا الاتحادية بمسافة بعيدة .

(١) أو أربعة أضعاف الناتج القومي الخام في المملكة العربية السعودية في ١٩٨١ والتي يقل سكانها عن الصين مئة مرة .

لم تخضع طبيعة المستوردات حتى ولا الصادرات ذاتها إلى تحولات جذرية ، فإذا نظرنا إلى مجموعات المنتجات الكبرى لانجد أنها قد خضعت لتحولات جذرية . ويتجلى تصنيع الصين على شكل انكماش خفيف في المنتجات المصنوعة ، وزيادة نصيبها في الصادرات . ولكن العملاء التجاريين طرأ عليهم التغيير . ففي عام ١٩٥٥ كانت الصين تقوم بثلاثة أرباع تجارتها مع الأقطار الاشتراكية ، ولاسيا مع الاتحاد السوفياتي ، الذي كان يقدم التجهيزات الصناعية وكان يتقاضى أثمانها سلعاً غذائية ومواد أولية ، كانت الصين في أمس الحاجة إليها . ومنذ قطيعة ١٩٦٠ أصبحت المبادلات مع الكتلة الاشتراكية ورومانيا على رأسها ، محدودة جداً . وتعتبر اليابان اليوم أول عميل تجاري للصين ، والمشتري الوحيد لنفطها . ويمر قسم من الصادرات الصينية عبر هونغ كونغ ، والتي تشتري أقواتها من الصين ، مما يؤدي إلى اختلال في المبادلات مع المستعمرة البريطانية .



إحصائيات غير مؤكدة

حبوب بلايين الأطنان	قطن (ألياف) بآلاف الأطنان	
١٩٥٧	١٦٢	إحصاء رسمي
١٩٥٨	٣٧٥	أول تقدير للقفزة الكبرى إلى الأمام
١٩٥٨	٢٥٠	تصحيح إحصائي
١٩٥٨	٥٢٥	الهدف الأصلي
١٩٥٩	٢٧٥	الهدف المراجع
١٩٦٢	٢٥٠	الهدف المحدد لعام ١٩٦٢
١٩٧٠	٢٤٠	أرقام شبه رسمية
١٩٧٨	٣٠٤	إحصاء رسمي

وبين عامي ١٩٦٠ و ١٩٧٠ لم ينشر الصينيون شيئاً من المعطيات الإحصائية ، إلا نسبة النوالثوية بالنسبة لقيم مشكوك فيها أو متناقضة ، أذيعت في ١٩٥٨ و ١٩٥٩ . وقد أمكن الحصول على بعض الأرقام من خلال الخطاب الرسمية ، أو خلال الحوادث الخاصة . ولأول مرة منذ ٢٠ عاماً ، في ١٩٧٩ ، أعلنت الصين عن أرقام وعن نسب مئوية عديدة ، كانت على علاقة ضئيلة مع التقديرات السابقة التي نشرها المراقبون الأجانب المختصون بالاقتصاد الصيني .



أبواب الصين : هونغ كونغ ، تايوان ، مكاؤو

تضم مستعمرة هونغ كونغ البريطانية جزيرة تنازلت الصين عنها في عام ١٨٤١ بعد حرب الأفيون ، « والأراضي الجديدة » فوق القارة المؤجرة إلى بريطانيا حتى عام ١٩٩٨ . وقد بنت مدينة عملاقة ضمن إطار من الجبال الصلحاء (شكل ٢٠) ، والخلجان المتقطعة تجاه مكاؤو ، الميناء التجاري البرتغالي منذ القرن السادس عشر ، وذلك حول ميناء هونغ كونغ . وتتساهل الصين في وجود هذا الجيب الأجنبي المأهول بالصينيين ، ولكنه تابع بكليته للصين ، ولاسيما في تموينه بمياه الشرب وبالمواد الغذائية . وتستخدمه الصين كحلقة اتصال مع الأقطار الرأسمالية ، أو مع « الجاليات » الصينية في جنوب شرق آسيا ، ومنه تستأجر سفن الشحن . وتهيمن بنائة مصرف الدولة الصيني على حي الأعمال في هونغ كونغ .



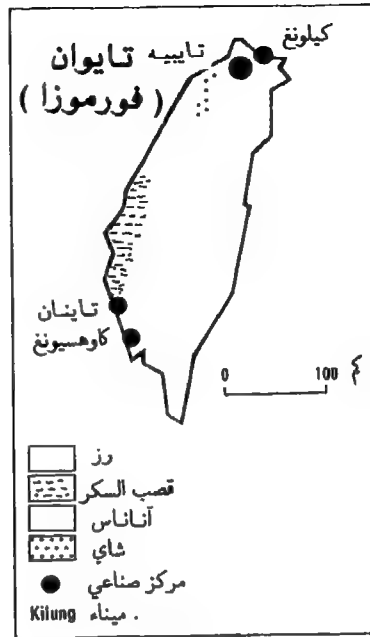
الشكل ٢٠

وتبلغ تجارة الترانزيت التي تمر من مستودعات الميناء الحر فيها ٢٠ مليون طن . ولكن تزدهر كل أنواع التجارة في هونغ كونغ ، حيث يقوم مخرجو الأفلام والسواح بالبحث بشغف عن صور « الصين القديمة » الملونة والصاخبة والساغبة . وقد كان تزايد السكان في هونغ كونغ خارقاً ، فضلاً عن تضخمه بأفواج اللاجئين ، فبعد أن كان عددهم ١,٨ مليون في ١٩٤٨ بلغ اليوم ٥,٢ ملايين نسمة . وعلى الرغم من تكاثر العمارات الضخمة على التلال فإن المدينة تشكو من الاختناق ، لأن الكثافة السكانية تصعد فيها إلى ٢٠٠٠ نسمة في الهكتار ، كما أن أحياء العشش أو أحياء المراكب لا تتوقف عن الامتداد .

ويجد الرأسماليون الصينيون هنا الأيدي العاملة الوفيرة والقانعة بأجور الجياع والعاملة في مصانعهم ، التي تنتج الأقمشة القطنية والمطرزات ، والمصنوعات البلاستيكية والألكترونيات . ويبدو الدخل الفردي الخام لكل مواطن في هونغ كونغ والبالغ ٢٤٠٠ دولار دخلاً عالياً ، لأنه يزيد بستة أضعاف عن دخل الفرد الصيني ، بيد أن الثروات تكون رديئة التوزيع للغاية . وعلى مسافة ١٥٠ كم إلى الشرق من الصين ، تقع جزيرة تايوان ، أو فورموزا ، وهي جزيرة جبلية يكون انعدام التناظر فيها شديداً : فالسفح الباسفيكي يكون وعراً يتخذ شكل جرف ، أو شفا ، تخضع للتيفونات ، ويكون بالتالي كثير الغابات وقليل السكان (شكل ٢١) . ويتكدس السكان الذين وفدوا من الصين على شكل عدة موجات في الغرب فوق السهول والتلال المشرفة على مضيق فورموزا . وتنوء الجزيرة من كثرة سكانها المكتظين : فعلى مساحة تبلغ ٣٦٠٠٠ كيلو متر مربع يعيش ١٨ مليون من السكان بحيث تزيد الكثافة فيها عن ٥٠٠ نسمة في الكيلو متر المربع ، بعد أن كانت ٨ أشخاص فقط في ١٩٤٩ . وقد عملت أفواج الوطنيين الصينيين ورؤوس أموالهم ، والتجهيزات التي خلفها اليابانيون ، والمعونة الأمريكية ، أقول : عملت جميعاً على تسهيل

التطور الاقتصادي . ولهذا يكون الدخل الفردي فيها ١٢٠٠ دولاراً أي أعلى بثلاث مرات من دخل الفرد الصيني في الصين الشعبية ، وتعتبر الصين الوطنية وكوريا الجنوبية وسنغافورة من الدول التي خرجت من مستنقع التخلف ، وحققت عملية الإقلاع .

وقد عمل الإصلاح الزراعي ، الذي أوجت به الولايات المتحدة ، على تحسين أوضاع الفلاحين الذين أصبح ٧٠ ٪ منهم ملائكين ، ولكن المستغلات الزراعية في تايوان تكون صغيرة للغاية ولهذا يحظر البناء فوق الأراضي الصالحة للزراعة ، كما أن عقود الزراعة مع مصانع السكر والمعلبات قليلة الأرباح . ونظراً لإنعدام مصادر الطاقة لأن الجزيرة لا تحوي سوى القليل من الفحم والنفط ، والمراكز الكهربائية ، فإن الصناعات الخفيفة هي الغالبة ، وتتألف من مصانع نسيج



الشكل ٢١

والكترونيات وبلاستيك ، وهي التي تقدم أهم الصادرات حتى أن حصة سكر القصب هبطت من ٦٠ ٪ إلى ٢ ٪ فقط . بيد أن مركّب كاوهسيونغ ، الذي يحوي على مصانع البتروكيماويات وصناعة الحديد وإصلاح السفن يجذب الاستثمارات اليابانية : وتبدو وتيرة نمو الصناعة في فورموزا من أكثر أمثالها سرعة في العالم ، إذ بلغت ٢٥ ٪ في عام ١٩٧٨ .

وتضم العاصمة تايبيه (صورة ١) حوالي ٢,٥ مليون نسمة ، والمدن الشهيرة هي كاوهسيونغ وفيها أكثر من مليون وتاينان ٦٠٠,٠٠٠ ، وتايشونغ ٦٠٠,٠٠٠ نسمة . وتنتج من الرز ٣,٧ ملايين طن ومن القمح ١,٣ مليون طن ومن البطاطا الحلوة ١,٧ مليون طن فضلاً عن الصويا وفستق العبيد . أما المزارع التجارية فتتألف من قصب السكر والقمح والرز والتبغ والموز والأناس . ويكون الصيد البحري فيها نشيطاً ، إذ تصيد ما يعادل زنته ٨٦٠,٠٠٠ طن من الأسماك . وتنتج أرضها من الفحم الحجري ٣ ملايين طن بالعام .



على الرغم من طابع جزيرة تايوان الجبلي ، إذ ترتفع أعلى قمة فيها إلى ٣٩٠٠ م ، فإنها مستغلة بشكل يثير الدهشة . ولقد استغلها اليابانيون إلى أقصى حد ممكن بين ١٨٩٥ وعام ١٩٤٥ ، فاستدوا منها الرز والفواكه المدارية ولاسيما السكر . ويشتمل السهل الغربي على مزارع الموز ، بينما تنغطي التلال بشجيرات الشاي وبمزارع الأناس . وتحوي الجزيرة صناعة تعليب قوية تعالج ثمار الأناس ، وأنشأت مزارع رأسمالية جديدة لإنتاج الفطور والمليون ، والتي أصبحت تنافس المنتجات الفرنسية في أوروبا ذاتها . وقد أنشأت تايوان التي تقلد اليابان ، حذو النعل بالنعل ، أسطولاً لصيد سمك التّن (تون) وأوجدت تنوعاً كبيراً في صناعاتها بحيث تنفذ مشاريع صناعية هامة في دول الخليج العربي وتنافس بذلك كوريا الجنوبية . أما الزراعة التي يعمل فيها ٣٧ ٪ من العاملين فلا تقدم سوى ١٤ ٪ من الناتج القومي الخام . وتعيش تايوان من مبادلاتها التجارية ، وعلى الخصوص مع اليابان والولايات المتحدة اللتين تتقاسمان ٦٠ ٪ من التجارة الخارجية للجزيرة . وتصدر تايوان نصف ناتجها القومي الخام ، وهي نسبة مئوية مذهلة للغاية . ولقد استفادت جمهورية الصين الوطنية من عزلتها الاصطناعية . ولكنها بعد أن خسرت مقعدها في الأمم المتحدة في عام ١٩٧٢ ، لم تعد دولة كبيرة الوزن السياسي . وتايوان هي إقليم صيني وعليها أن تعود عاجلاً أو آجلاً إلى أمها الصين بصورة حتمية .

لقد استردت الصين كل الامتيازات الأرضية الأجنبية التي تنازلت عنها في الماضي بموجب « معاهدات غير متكافئة » خلال القرن التاسع عشر ، باستثناء مساحة ١٠٣٢ كم مربع من الأرض البريطانية في هونغ كونغ المؤلفة من جزيرة ومن شبه جزيرة . وهناك نفق بحري ربط منذ مدة وجيزة بين جزيرة فكتوريا وكولون ، حيث تمتد مؤسسات البناء والمناطق الصناعية والمطار الذي امتد شطر من أرضه على حساب الخليج .

وأم مدن مستعمرة هونغ كونغ هي العاصمة فكتوريا وفيها ١,٢ مليون نسمة ، وكولون Kowloon وفيها ١,٨ مليون نسمة .

وتنتج صناعتها النسيجية ٢٠٠٠٠٠ طن من غزل القطن ، وبلغت صادراتها في عام ١٩٧٦ ٣٢,٨ مليار دولار هونغ كونغ مقابل استيراد مبلغ ٤٣,٢ مليار دولار مما يؤلف ١٢ ٪ من مجموع التجارة الصينية العامة .

وهناك مستعمرة ماكاو مساحتها ١٦ كيلو متر مربع وسكانها ٣٥٠٠٠ نسمة وهي ميناء توقف أي عطة ، وترانزيت فتعرض لمنافسة قاتلة من هونغ كونغ وتصدر ألبسة ومنسوجات تشكل ٧٩ ٪ من صادراتها .

☆ ☆ ☆

تايوان

أو (فورموزة)

يبلغ عدد سكانها ١٧,٣ مليون نسمة (١٩٧٩) و ١٨,١ مليون في (١٩٨١) منهم ١٠٠٠٠٠ جبلي قرييون في عاداتهم ولباسهم من سكان جبال بيرمانيا ولاوس وفيتنام الشمالية . ويبلغ دخل الفرد المتوسط فيها ٢٠٠٠ دولار ، أو خمسة أضعاف دخل المواطن في الصين الشعبية . ولدى كل أسرة جهاز تلفزيون ، وفيها ٣ ملايين مشترك بالهاتفون ، وبلغت نسبة كهربة المساكن ٩٩,٩ ٪ . وقد طبقت حكومة تايوان إصلاحاً زراعياً استفاد منه نصف مليون أسرة فلاحية ، ويملك كل المزارعين اليوم الأرض التي يزرعون ، ويمنع القانون امتلاك مساحة تزيد عن ٣ هكتارات ، وقد اشترت الحكومة المساحة الزائدة وزعتها على الفلاحين المحرومين بالتقسيم بعد أن عوضت على الملاكين الكبار نسبياً .

وقامت الدولة بتطبيق سياسة ناجحة تدعو « الأغنياء الجدد » لتوظيف أموالهم في الصناعة المتوسطة وهذا ما فعله كلهم تقريباً . فبين ١٩٥٢ و ١٩٧٩ زادت التجارة الخارجية أكثر من ١٠٠ مرة من حيث الحجم فقفزت من حيث القيمة من ٣٠٣ ملايين دولار إلى ٣١ مليار دولار أمريكي .

وعلى الصعيد الزراعي فقد منعت الحكومة البناء فوق الأراضي الصالحة للزراعة ، ويجب على مخططي المدن الجديدة أن يقيموها فوق الأراضي الوعرة أو فوق مناطق لا تصلح للزراعة . ويشمل الري معظم السهول الصالحة للزراعة خلال بضعة أعوام ، ولحماية الجزيرة ، المعرضة دوماً لتهديد التيفونات والفيضانات الساحلية ، فقد تقرر بناء ٥٢٢ كيلومتر من السدود أو الحواجز وقد تم الآن بناء ١٥٢ كيلومتر منها .

وقد شملت المكتنة كل المستغلات الزراعية في ١٩٨٢ ، وقفزت محاصيل الرز من ٦٤٠٠٠٠ طن في ١٩٤٥ إلى ٢,٥ مليون طن في ١٩٧٩ .

وتايوان اليوم التي تصل الكثافة فيها إلى ٤٧٦ نسمة في الكيلومتر المربع تماثل هولندا في أوروبا (٣٨٠) أو رواندا في أفريقيا (١٨٠) . ويخصص للجيش الذي يضم ٦٠٠٠٠٠ رجل وامرأة ٤٠ ٪ من الميزانية وتحتل المكانة الثانية في آسيا ، بعد اليابان ، من حيث احتياطياتها من العملات الصعبة . وتتراوح صناعاتها بين لعب الأطفال الرخيصة إلى الألكترونيات مروراً بالنسيج . ولا يوجد فيها بطالة ، كما لم تقتض قرشاً واحداً من البنك الدولي . ويقصدها سنوياً ٢٠٠٠٠ صيني للزيارة والسياحة من البرازيل وأوروبا ومدغشقر وسائر أفريقيا والأمريكتين . ولم تكن تمثل المحاصيل الزراعية المصدر في ١٩٨٠ أكثر من ٥ ٪ من التجارة الخارجية وتتجه كل الجهود لتصدير المنتجات الصناعية . وتصدر معلبات الأناناس والخضار بملايين الأطنان . وفي عام ١٩٧٩ كانت اليابان والولايات المتحدة تستأثران بأربعة أخماس تجارة تايوان الخارجية . وأجور العمال فيها عالية وتأتي بالدرجة الثانية بعد اليابان . فتصل أجور الشغيلة شهرياً إلى ٩٠٠ أو ١١٠٠ ليرة سورية ، ولكن العامل المختص في مصانع الفولاذ تصل إلى ٢٠٠٠ وحتى ٢٥٠٠ ليرة سورية .

وتهيمن الدولة على الصناعة الثقيلة ولا تقل نوعية عن الدول الصناعية العريقة . فهناك مركب لين يوان Lin Yuan ، الذي قامت إلى جانبه مصفاة نفط ، الذي يمتد على مدى البصر ، وهو من أحدث أمثاله في العالم .

وهناك أيضاً الترسانات البحرية ، مع حوض جاف طاقته مليون طن ، والتي تكون قادرة على إنتاج سفن عملاقة مرغوبة في دول الغرب ، ويكون دفتر الطلبات مملوءاً لمدة عامين مسبقاً ، فقد طلبت حكومة الكويت بناء ٤ ناقلات نفط ، وواحدة لحساب الولايات المتحدة .

وتقوم مصانع الأسمنت على شكل سلسلة عند حافة الجبل وتقتض أطرافه . وتحوي البلاد ستة مصانع لإنتاج سيارات التجميع ، وهي سيارات أمريكية ويابانية غالباً وتعمل بكامل طاقتها . وقد أنتجت هذه المصانع في عام ١٩٧٩ ، ١٥٠٠٠ سيارة ، واستيراد السيارات الأجنبية محظور . كما أنتجت مصانع ييجو هناك ١٠٠٠ سيارة في العام ذاته .

وقد قامت في تايوان أكثر مصانع الحديد حداثة في العالم ، ولهذا تحقق أفضل الأرباح في هذه الصناعة . ويمكن تصوّر « المعجزة الاقتصادية » إذا عرفنا أن الجزيرة لا تملك أية مادة خام ولا أي مادة طاقية . ويتم الآن في مدينة هسينشو Hsinshu ، الواقعة على مسافة ١٠٠ كم من العاصمة تايبيه ، بناء « البارك العلمي الصناعي » الذي سيتحول إلى مدينة تكنولوجية متقدمة في الغد ، وتضم جامعات ومختبرات ومدن وقرى منضمة إلخ ..

وتتجه الجهود حالياً لاستغلال الطاقة الحرارية الأرضية ويدير المجلس القومي للعلوم هذا المجموع وتصل ميزانية البحث المدني إلى ٧٥٠ مليون فرنك فرنسي تقدم الدولة ٥٢ ٪ من هذا المبلغ . ويعمل في ميدان البحث العلمي ٢٢٠٠٠ باحث .

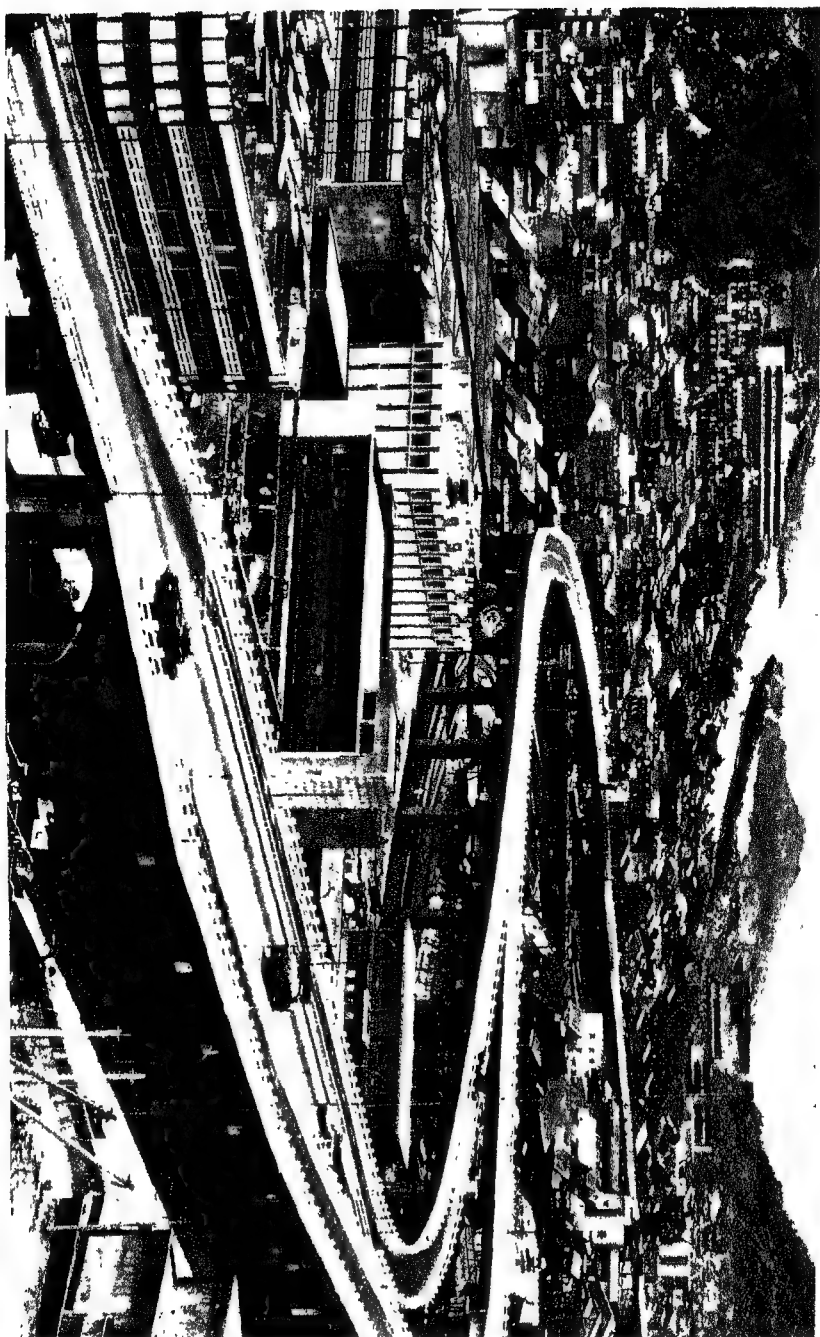
هذا وقد ازدهرت زراعة الأسماك في الأحواض فصدرت في عام ١٩٧٩ مقدار ٥٠٠٠٠٠ طن من سمك الحنكليس ومثلها من الروبيان . وتمثل المكاثر الصانعة ذات التحكم العددي الحديث جداً ٢٥ ٪ من قيمة الصادرات الصناعية وبلغت ٥٢ ٪ في ١٩٨٠ ، وأنتجت البلاد أول أوتوبوس « باص » كهربائي في كانون الأول من عام ١٩٨٠ وستنتج الصين الوطنية أول سيارة كهربائية . كما أنتجت البلاد أول طائرة وطنية تماماً ، وطائرات عسكرية للتدريب . ويجري بناء مركز طاقة حرارية محيطية وستنتج ٣٠ إلى ٤٠ ميغاواط من الكهرباء . ويقوم المصنع على استرداد الطاقة الناتجة عن اختلاف الحرارة بين المياه الساخنة التي يقذفها مركز نووي وبين مياه البحر .

وستنتج البلاد في ١٩٨٢ مقدار ١٣٥٠٠٠ طن من المطيلة tôles غير قابلة للصدأ وهو أكبر مصنع في جنوب شرق آسيا بعد اليابان .

ويدين ٢٠٠٠٠٠ من سكان البلاد بالكاثوليكية والعدد نفسه من البروتستانت ، مثلما تضم قرابة نصف مليون مسلم . ولا يعثر الإنسان في هذه الجزيرة السعيدة على أي متسول أو متشرد ، ولا أكواخ من ألواح خشب أو الصفائح الصدئة ، ويسير على غرارها كل من هونغ كونغ وسنغافورة وكوريا بشطريها وهي الأمم التي خرجت ، منذ عام ١٩٧٥ ، من حظيرة دول العالم الثالث .

ملخص عن « پاري ماتش »

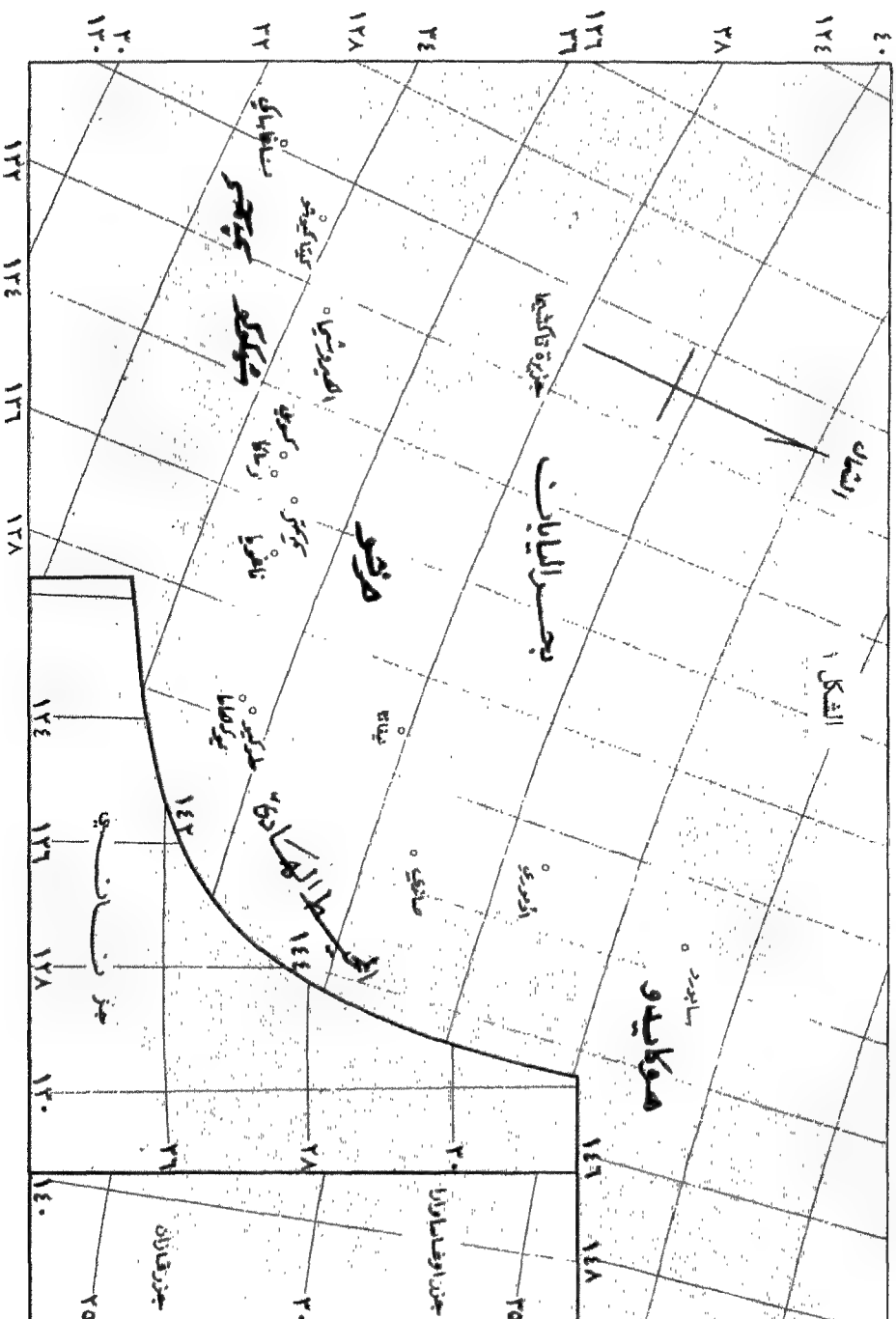
١٩٨٠ / ١٢ / ٢٦



صورة (١)

لقد أصبحت تاييه محاذية للمواصم الكبرى في الغرب وقد تم الفراغ من إنجاز
أول برنامج للمشاريع الكبرى في عام ١٩٧٠

الاسـاداتـان



اليابان

تكون الضفة الشرقية من آسيا ، مصحوبة بأرخبيلات ترتصف على شكل قلائد متميزة . ونجد في وسط هذه القلائد قوساً (شكل ١) تؤلف جزره الأربعة الرئيسية ، التي تصاحبها / ٤٠٠٠ / جزيرة صغيرة ، ما يسمى باليابان . ويتألف هذا القوس من جزيرة رئيسية هي هوندو أو هونشو مساحتها لوحدها / ٢٣٠.٠٠٠ / كيلو متر مربع أو حوالي ثلثي مساحة اليابان ، يتجه قوسها المحذب نحو المحيط وتتحدد بالشمال بجزيرة هوكايدو وبالجانب بواسطة جزيرتي سيكوك وكيوسيو .

ولا تغطي هذه الأراضي التي تمتد على مسافة / ١٦ / درجة عرض أو على مسافة / ٢٣٠٠ / كم من الشمال للجنوب ، أكثر من مساحة / ٣٦٩٦٦٠ / كم^٢ ، أو ضعف مساحة سورية في حين يعيش فوقها عدد من السكان كبير جداً بلغ عدده / ١١٨ / مليون ، أو كثافة تعادل / ٣١٧ / نسمة بالكيلومتر المربع .

أولاً - الإطار الطبيعي

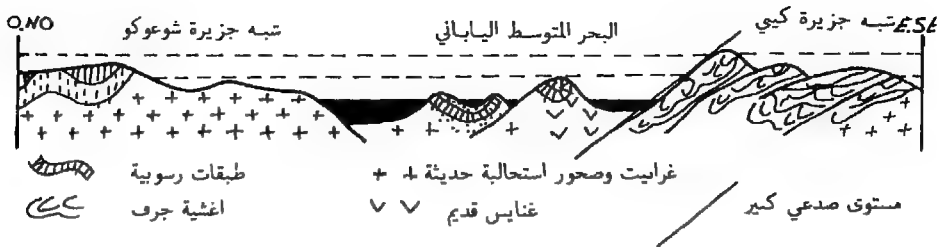
اليابان بلاد جبلية قبل كل شيء ، فلا تشتمل على أكثر من سهول صغيرة قليلة . وتضاريس اليابان ، التي تعود للدور الثالث ، ثم تعرضت لحركات تالية ، لا تزال مستمرة ونشيطة حتى اليوم ، ويمكن اعتبارها تضاريس شابة أو متصاوية على الأقل . وهذا الشباب في التضاريس هو الذي يفسر لنا الطابع العصبي وأحياناً الكثير الزوايا للأشكال التضاريسية ، كما يفسر الجروف الكبيرة التي تشابه الجدران والتي تبدو كأنها حديثة جداً ، كما تشرح لنا ضالة رقعة السهول اللحفية ، المحدودة بانهدامات ضيقة ، ووضوح السواحل الصخرية ، حيث تهبط

الجبال منها مباشرة فوق البحر دون درجات ولا بلاج ، ويبلغ طول هذه السواحل / ٢٨٠٠٠ كم^٢ .

وتبدو تضاريس اليابان إجمالاً كثيرة التجزئة وغامضة .

وتظهر غالباً على شكل سلسلتين جبليتين ، تحاذيان السواحل الشرقية والغربية وتنفصلان عن بعضهما بسلسلة متطاولة من الشمال للجنوب مؤلفة من سهول صغيرة انهدامية . وتنقطع هاتان السلسلتان والسهول ، بالوسط ، بواسطة حفر عرضانية ، أهمها هي التي تقع في أواسط جزيرة هونشو واسمها « ماغنافوسا » . وتدفقت في هذه المناطق المنهدمة لابات أدت الى تشكل مخاريط بركانية . فوجد في حفرة ماغنافوسا المذكورة أعلى قمة في اليابان وهو بركان فوجي ياما ، الذي تعدم الثلوج ذروته التي ترتفع إلى ٣٧٧٣ م ، وهو محل تقديس الشعب ، وبركان آساما وهو أنشط براكين اليابان .

كما حصلت حركات بعد الدور الجيولوجي الثالث ، أدت إلى نهوض مجموع الأراضي وإلى انكسارات وإلى انهيار بعض أجزاء الأرض (شكل ٢) . وقد أدى نهوض القاعدة الأرضية إلى إثارة حث عنيف قامت به الأنهار القصيرة ، ولكنها غزيرة المياه ، وشديدة الانحدار لدرجة أنها تجرف مقادير هامة من الأتقاض ، وتوضّعها في السهول الحقيقية في الأجزاء السفلى من وديانها أو عند مصباتها .



الشكل ٢ مقطع عبر جزيرة هونشو والبحر الداخلي

وقد منحت الكسور والانهدامات التضاريس اليابانية مشهد الشطرنج ، حيث تنعزل حوضات صغيرة بين كتل لا تزال بارزة وخاصة في الجنوب الغربي من جزيرة هونشو . ونجد في أقصى الجنوب من جزيرة هونشو منطقة منخفضة اجتاحتها قشرة رقيقة من مياه البحر لا تزيد ثخانتها عن ٥٠ م لتؤلف ذلك البحر الداخلي أو البحر المتوسط الياباني ، الذي يربط ، أكثر مما يفصل ، بين شواطئ هونشو وسيكوك وكيوسو .

وقد صاحب هذه الانكسارات ظواهر البركنة . وهكذا تحوي اليابان / ٢٠٠ / بركان منها / ٥٤ / بحالة اشتعال وتغطي الأرض الاندفاعية ثلث مساحة اليابان . وتكثر الينابيع الحارة التي يستحم فيها اليابانيون رغم أن حرارة مياهها تتراوح بين / ٥٤ و ٥٥ / درجة مئوية والتي أصبحت تستغل في إنتاج الطاقة الكهربائية الحرارية الأرضية .

كما تميز اليابان بزلزلاتها . ففي بعض بقاع حفرة ماغنافوسا يحدث وسطياً بالسنة حوالي ٥٠٠ زلزلة ، يشعر بها الإنسان . وتكون بعض الزلازل هدامة مثل زلزال عام ١٩٢٣ الذي دمر مدينة يوكوهاما والعاصمة طوكيو ، ومات من جرائها حوالي ١٠٠٠٠٠ نسمة . كما لا يكون غزو المد البحري المسمى « تسونامي » بأقل خطراً من الزلازل . وتفتقر هذه الارتجاجات الكثيرة بوضع اليابان على حافة الأغوار الباسيفيكية السحيقة ، والتي تهبط إلى ٨٠٠٠ وحتى ١٠٠٠٠ م . وتقع على حافة هذه المناطق المنهارة اليابان أي على طرف العتبة الآسيوية ، أي أنها تمثل منطقة غير مستقرة من القشرة الأرضية ، التي كثيراً ما تتعرض للحركات الاهتزازية الأرضية .

ينتج الشكل المقوس للقلادة الجزرية اليابانية عن التواءات وعن تخلعات deslocations شديدة التعقيد . وترسم هنا عصيتان جبليتان ، الأولى أكثر استقراراً وتنتصب في الغرب ، والأخرى أكثر تفككاً ، وتتعاقب على حافة المحيط الهادي وتطيف بسهول أكثر اتساعاً بقليل ، ولا سيما السهل الذي امتدت فيه مدينة طوكيو . ويستقر البحر المتوسط الياباني الذي يفصل جزيرة هونشو عن جزيرة شيكوك ، بين هذين النطاقين تقريباً . وتتناثر في هذا البحر الجزيرات الصغيرة ، بحيث لا يشابه بحراً قدر ما يشابه عذبة بحرات ضمن ديكورستارة .

ولما كانت أرض اليابان مهشمة بالكسور وتحاذي حفراً غائرة في قيعان المحيط الهادي ، فهي تشتهر بأنها بلد البركنة ، والينابيع الحارة والزلازل ، فهي تحوي ٢٠٠ بركان لا يزال ربعا ناشطاً وتقع أكثر هذه البراكين في جزيرة كيوشو وفي غرب هونشو ، ولكن الحفرة الانهدامية الكبرى الممتدة من الشمال للجنوب والتي تقطع جزيرة هونشو في وسطها ، تكون أيضاً مصحوبة بخاريط جسمية ، ولا سيما بركان فوجي ياما قرب العاصمة طوكيو ، والذي يحوي أعلى قمة في الأرخبيل وهي ٣٧٧٦ م والذي قدمت خطوط سفوحه المنسجمة الرسوم المفضلة في طباعة الأقنشة واللوحات . وهذه الحفرة الانهدامية العظيمة Fossa magna تكون عبارة عن نطاق عدم استقرار مذهل فقد حدثت فيه زلازل رهيبية يزيد مداها هولاً غزو المد وقد كانت أكثر الكوارث تفتيلاً تلك التي حدثت في ١٩٢٣ والتي أدت إلى هلاك ١٠٠٠٠٠ نسمة في طوكيو ويوكوهاما والتي خربت ٥٧٦٠٠٠ منزلاً .

البحار والسواحل :

يقع قوس الجزر اليابانية بين بحار جانبية لا يزيد عمقها عن / ٤٠٠٠ / م بالغرب ، وبين المحيط الهادي الذي تتجاوز أعماق أغواره قرب جزيرة هوندو مقدار / ٨٠٠٠ / م ويحاذي السواحل الجنوبية الشرقية تيار حار ذو مياه قائمة اسمه كوروشييفو حتى درجة العرض / ٣٨ / شتاء وحتى درجة العرض / ٤١ / صيفا . وهناك تيار بارد اسمه أوياشيفو يندس بين التيار الحار المذكور وبين ساحل جزيرة هونشو درجة العرض ٣٧ مما يؤدي لتشكيل ضباب كثيف مماثل لضباب جزيرة الأرض الجديدة في شرق كندا . وفي المنطقة التي يقترب فيها التياران من بعضهما البعض يكثر البلانكتون « الهائمات » ، كما أن الأسماك التي يجذبها التياران تكثر هنا ، فتكون هذه المنطقة من أغنى بقاع العالم بالصيد البحري .

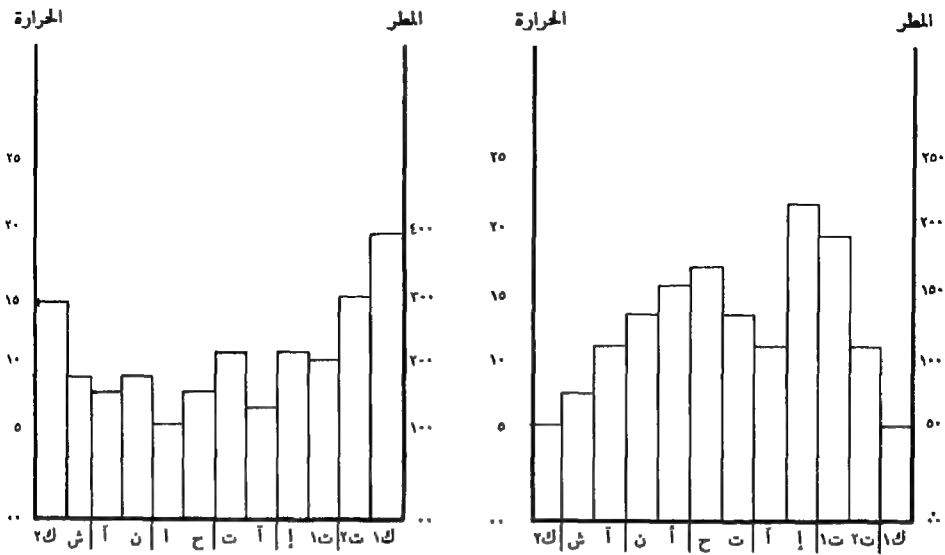
أما سواحل اليابان فتتيز بكثرة تسننها فيصيب كل / ١٣,٥ / كم^٢ من الأرض مقدار كيلو متر واحد من السواحل (مقابل ١ كم لكل ٢٠ كم^٢ في إنكلترا) . فتكون بعض السواحل صخرية والأخرى تحترقها الخلجان العريضة والرؤوس . أي أن هذه السواحل موائمة جداً للملاحة الصغيرة واستخدمت فترة طويلة من أجل المواصلات بين مدن السواحل ، كما في اليونان القديمة وكانت أكثر ضماناً من المواصلات بالطرق البرية في هذه المناطق الجبلية . ولكن هذه السواحل لا تحوي الكثير من الملاجئ العميقة أو الخلجان الآمنة ، ولا تدوم الموانئ الحالية إلا بفضل أشغال تحسين وصيانة لا تتوقف .

المناخ:

يتميز على مناخ اليابان ، مثل مناخ الصين المجاورة ، تأثير تناوب الرياح الشمالية الغربية القادمة بالشتاء من الآنتسيكلون السيبيري ، وتأثير كتل الهواء المداري القادمة صيفا من منطقة الضغوط العالية المستقرة فوق المحيط الهادي .

وينتج عن ذلك فصول شتاء باردة نسبياً ، فتكون درجة الحرارة في طوكيو الواقعة على خط عرض مدينة الجزائر في كانون الثاني ماثلة لدرجة حرارة باريس ، كما يكون الصيف فيها حاراً نسبياً فيكون متوسط حرارة غوز في طوكيو ٢٥,٤ درجة في حين لا تتجاوز في سان فرانسيسكو الواقعة على العرض نفسه مقدار ١٥,٢ درجة . ولكن هذا المناخ أكثر اعتدالاً من مناخ الصين الشمالية لأنه يتلطف بتأثير جوار البحر (شكل ٣) .

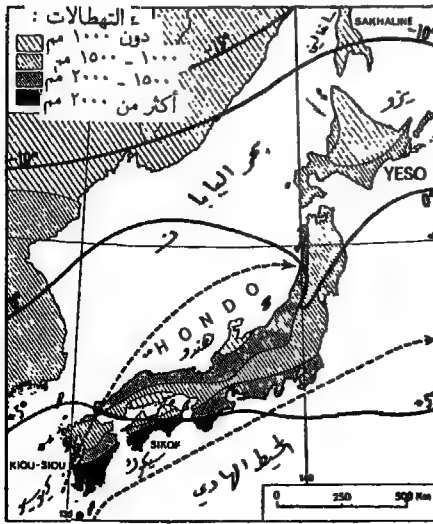
وتمنح الرقع البحرية التي تحيق باليابان للبلاد مناخاً أكثر رطوبة بكثير من مناخ القارة المجاورة (شكل ٤) . فهي لا تنال صيفاً الأمطار التي تأتيها بها الرياح الحارة القادمة من المحيط الباسفيكي ومن السيكلونيات الناشئة في منطقة فورموزا والتي تروي السواحل الغربية ولا سيما الشرقية في أيار وأيلول فحسب ،



الشكل ٣

مركز كانزاوا	مناخ ياباني	مركز طوكيو	مناخ ياباني
الارتفاع ٣٠ م	العرض ٣٦,٣٣	الارتفاع ٢١ م	العرض ٣٥,٤١
معدل الحرارة السنوي ٥١٣,١ مم	مجموع المطر السنوي ٢٥١٦ مم	معدل الحرارة السنوي ٥١٣,٨ مم	مجموع المطر السنوي ١٤٧٦ مم

بل وتأتيها رياح شتوية مارة فوق بحر اليابان حيث شحنت بالرطوبة فتعطي تهطالاً سخياً يكون أحياناً ثلجياً على السواحل والجبال الغربية . وحتى في العاصمة طوكيو الواقعة على الساحل الشرقي ، ينال كانون الأول ، وهو أجف الأشهر أمطاراً بكية تعادل ٥٤ مم من التهطال . وإذا استثنينا جزيرة هوكايدو (يزو) فإن الأمطار تتجاوز المتر دائماً بالبلاد .



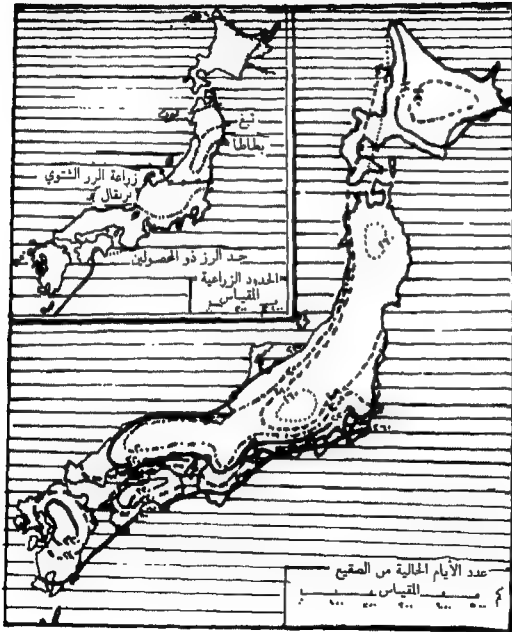
الشكل ٤

الأمطار في اليابان

وتشير الأسهم المقطعة إلى الطرق التي تسلكها المنخفضات السيكلونية مثلما تشير الخطوط السوداء إلى خطوط الحرارة المتساوية لشهر كانون الثاني

وهناك فروق مناخية تنتج عن درجة العرض وعن التضاريس . فخطوط الحرارة المتساوية تدل على أن الشمال هو أكثر برودة بكثير لأن متوسط شهر كانون الثاني هو صفر . ويساهم التيار البارد الذي يحاذي الساحل الشرقي حتى درجة العرض ٣٧ في هذا التبرد . ومع أن السواحل الشمالية لجزيرة هوكايدو تقع على عرض مدينة بورديو الفرنسية ، فإنها تتعرض لتجمد مياهها البحرية . ولكن الجنوب الذي يكون أكثر حراً ورطوبة وأكثر مواءمة للحياة ، فإنه يتعرض لتخريب العواصف البحرية (تيفون) (شكل ٥) .

وتتم التضاريس عن وفرة التهطال على السواحل الغربية المعرضة لرياح الشتاء ، وللمنخفضات السيكلونية الصيفية وعلى السواحل الجنوبية الشرقية المعرضة للرياح الصيفية . ويكون للبحر الداخلي الذي تحميه التضاريس سواحل أقل أمطاراً ، ولكن درجات الحرارة فيه أقل تعرضاً لعنف الرياح . أما الداخل فأكثر جفافاً .



الشكل ٥

الحدود الزراعية باليابان

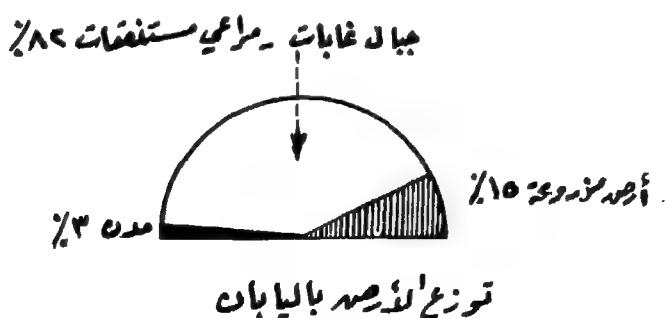
النبات :

لا يكون النبات هنا كما في الصين مفصلاً بين الشمال والجنوب بواسطة الصحارى ، ذلك لأن النبات المداري والنبات المعتدل يختلطان في أواسط البلاد . وتبلغ وفرة النبات هنا حدها الأقصى فنجد ١٦٨ فصيلة نباتية تقابل ٨٥ في أوروبا . وتغطي الغابة ٦٨٪ من مساحة البلاد ويستغل تسعة أعشارها بشكل منتظم ، ٣٦٪ للتدفئة و ٢٧٪ في الصناعة (شكل ٦) .

وإلى الجنوب من خط العرض ٣٨ ، يشتمل النبات شبه المداري على عدة فصائل ذات أوراق دائمة الخضرة . وهكذا يبلغ ارتفاع أشجار الكاميليا ١٠ م كما يكون نبات ما تحت الغابة وفيراً وكثيفاً ، والأزهار كثيرة مثل الاوركيديا وسواها ، وهذا ما يجعل اليابانيين من عشاق الأزهار الأوائل بالعالم . ففي جزيرة هونشو تتخلل الغابات الجميلة أحياناً عن مكانها لأنواع من ذوات الأوراق الساقطة ، ثم إلى الصنوبريات وأخيراً إلى أشجار البامبو ذات الأدغال التي تبلغ ٢٠ م ارتفاعاً .

أما نبات النطاق المعتدل ، والذي نجده على جبال الجنوب فيتميز بسقوط أوراقه شتاءً . وهكذا تسود أشجار الزان والقيقب مع البلوط والحوور والسندر والكستناء . ولكن هذه الغابة المعتدلة تتميز بشدة غزارة ماتحت الغابة وبالملتفات وبالنباتات المتسلقة ، أما على سفوح الجبال المرتفعة والمعرضة لرياح الشمال فتسود المخروطيات .

تغطي الغابة أكثر من ٦٠٪ من مساحة اليابان ولكن مشاهدتها تختلف من الشمال إلى الجنوب : ففي هوكايدو تكون الغابة شالية شبه قطبية غنية بالراتنجيات وتحتل ٧٠٪ من مساحة الجزيرة . أما في هونشو فتكون الغابة غنية بالفروق ، حيث تميز أشجار القيقب التي تقرر سائلاً سكرياً والمتعددة الألوان حسب الفصول بسبب أوراقها والسرو والصنوبر ولاسيا كرييتوميريا Cryptomerias ، وتسود في كيوشو غابة السنديان والبامبو والكافور وحيث تزدهر السحليات والكاميليا العملاقة وأشجار الجلوة المتسلقة . ولكن تتداخل في العديد من المناطق الأنواع المدارية والمعتدلة ، فتتجاور أشجار السندر مع النجيليات وقد تكون أشجار البلوط مغلقة أحياناً بالمتسلقات .



الشكل ٦

ثانياً - سكان اليابان

لقد تعرض السكان القدامى الذين كانوا يستوطنون الأرخبيل الياباني إلى عملية طرد من الجنوب باتجاه الشمال ، ويصادف الإنسان بقاياهم في الجبال الداخلية من جزيرة هوكايدو ، وهم قرييون من العرق الأبيض إذ يكثر الشعر في وجوههم وهم الآينو .

وقد نتج هذا الطرد عن مجيء أقوام مختلفة ينتسبون إلى عنصرين رئيسيين : الأول من أصل منغولي قدموا عن طريق كوريا خلال عصور متفاوتة ، والثاني من أقوام بحرية ، من أصل ماليزي أو من جزر بولينيزيا المحيط الهادي ، قدموا مباشرة من جزيرة لجزيرة أو بعد أن أقاموا فترة ما في

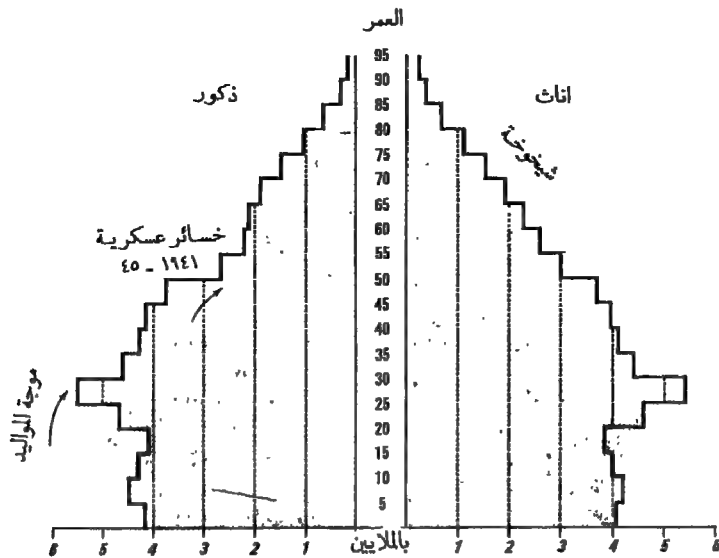
الصين الجنوبية . ولكن انعزال اليابان الجغرافي سمح بازدهار حضارة منسجمة صهرت هذه العناصر المختلفة عرقياً في أمة واحدة مثالية .

وفي عام ١٨٦٨ ألغى الامبراطور النظام الإقطاعي ودشن عصراً جديداً اسمه عصر الميجي (النور) ، وبذلك فتح اليابان للمؤثرات الخارجية وبدأ تجديد صاحبه تزايد شديد في عدد السكان .

تزايدهم : بعد أن كان عدد سكان اليابان ٣٢ مليون عام ١٨٧٢ في مطلع عصر الميجي ، قفز إلى ٥٥ مليون في ١٩٢٠ وإلى ٧٢ في ١٩٤٥ وإلى ١٠٨ في ١٩٧٣ وإلى ١١٦ مليون في ١٩٨٠ . وقد تعرفت إنكلترا في عصر توسعها الصناعي في القرن الفائت ، على ثورة ديموغرافية مماثلة . ولكن هذا الاندفاع الديموغرافي الياباني ، ظل مستمراً حتى أيامنا هذه ، إذ يتزايد عدد سكان اليابان سنوياً أكثر من مليون نسمة مع أن العمر الوسطي ارتفع فيها إلى ٧٢ سنة مقابل ٤٩ في الهند و ٣٨ في أثيوبيا .

ويعود هذا التزايد إلى نسبة التوالد المرتفعة جداً من ناحية ، وإلى نسبة الوفيات المنخفضة جداً . فقد كانت نسبة التوالد بين ١٩١٢ و ١٩٤٠ تزيد سنوياً عن ٣٠ بالآلف . ولكن نسبة الوفيات هبطت من ٢٠ بالآلف عام ١٩٠٠ إلى ١٦,٥ بالآلف عام ١٩٤٠ . وابتداء ١٩٥٠ انخفضت هذه النسبة بفضل تقدم الطب ، والعناية الصحية إلى أن وصلت حتى ٧,٤ بالآلف عام ١٩٦١ وإلى ٦ بالآلف في ١٩٧٧ . ولكن بنفس الوقت أخذت نسبة التوالد بالانخفاض ، فكانت ١٧ بالآلف عام ١٩٦١ و ١٦ بالآلف في ١٩٧٧ ، وهي نسبة مماثلة للنسبة الموجودة في أوروبا الغربية أي التزايد السنوي يعادل (١) بالمئة في ١٩٧٠ ، ولكن لوحظ عام ١٩٥٩ أن ثلثي النساء الحوامل كن يلجأن إلى الإجهاض في المستشفيات الحكومية . وقد أدى هذا الإجراء الذي فسرتة عقول متحررة إلى ارتفاع هائل في عدد حالات الإجهاض المقنعة ، قفز بها من ١٠١٦٠١ في عام ١٩٤٩ إلى أكثر من مليون و ١٧٠ ألفاً في عام ١٩٥٥ ، والفضل في نجاح خطة التخفيض يعود للوعي الذي يتمتع به

الفرد الياباني ، ولوفرة عدد الأطباء والمستشفيات ، وهذا ما لا يتيسر في حالات أمم مماثلة كالهند وسواها . وهكذا أدت المصاعب الناجمة عن الحرب ، وعن انكسار اليابان أمام الأميركيين ، والبؤس الناتج عن الهزيمة ، وعن عودة كل اليابانيين المغتربين قسراً إلى جزرهم إلى سياسة تحديد النسل ، أو التخطيط العائلي ، وأصبحت الأمم الراغبة في اتباع سياسة مماثلة تلجأ لاقتباس نظريات الدكتور أوجينو الياباني . وعلى كل سيظل فائض الولادات على الوفيات كبيراً حتى مستقبل قريب وفي ١٩٨٠ كانت نسبة التوالد ١٣,٧ بالألف مقابل ٦,١ للوفيات بالألف أي نسبة التزايد السنوي أصبحت ٠,٧,٦ بالمئة وهكذا يتضاعف اليابانيون مرة كل قرن تقريباً في حين تزيد نسبة التزايد السنوي في الوطن العربي عن ٣ بالألف أو أربعة أضعاف اليابان (شكل ٧) .



هرم الأعمار لسكان اليابان

— في ١٩٦٥
- - - في ١٩٧٥

الشكل ٧

- ٤٠٤ -

سكان اليابان يبدؤون في التناقص بعد ٢٨ عاماً

- اليابان تشترك مع سويسرا كأكثر المجتمعات تقدماً في السن بعد ٢٥ عاماً ..

سوف يرداد عدد سكان اليابان إلى ١٣٠ مليوناً في أوائل القرن الحادي والعشرين من ١١٧ مليوناً اليوم ، ثم يبدأ في الانخفاض حتى يستقر عند ١١٨ مليوناً في عام ٢٠٧٥ ، بعد حوالي قرن من الآن . وخلال ذلك الوقت ، سوف يستمر السكان في مواصلة التقدم في السن بسرعة . وسيشكل الذين يبلغون الخامسة والستين فما فوقها أكثر من ٢٠ ٪ من كل السكان بعد ٢٥ عاماً من الآن ، مقابل ٩ ٪ اليوم . وعندما يحدث ذلك ، فإن سكان اليابان يحتمل أن يكونوا أكثر سكان العالم تقدماً في السن .

ماسبق ، هو السبيل الذي يتوقع أن يتخذه سكان اليابان في المئة سنة القادمة ، وفقاً لتقرير عن تقديرات المستقبل للسكان اليابانيين أعده حديثاً معهد مشكلات السكان بوزارة الصحة والشؤون الاجتماعية من بيانات الإحصاء القومي لعام ١٩٨٠ .

أطول متوسط لامتداد الحياة في العالم

منذ ٣٠ عاماً فقط كانت اليابان تتهيز بمعدلات عالية للمواليد والوفيات . وفي عام ١٩٥٠ كان متوسط مدى الحياة ٥٧,٩١ للرجال و ٦١,١٣ عام للنساء . وقد زاد طول العمر زيادة ملحوظة منذ ذلك الحين ، بفضل تحسين أنظمة الضمان الاجتماعي ، وما تم من تقدم في علوم الطب وغير ذلك من التطورات . ويعد اليابانيون بين أطول الشعوب عمراً في العالم ، حيث بلغ متوسط مدى العمر ٧٣,٥٥ عام للرجال ، ٧٨,٩٧ عام للنساء في عام ١٩٨٠ ، ومن المتوقع أن يصل إلى ذروته ليكون ٧٥ عاماً للرجال و ٨٠ عاماً للنساء في وقت ما في القرن القادم . كما أنه من المتوقع حدوث عودة معتدلة إلى الوضع في معدل المواليد ، مما يؤدي إلى مستوى ثابت للسكان في عام ٢٠٢٥ .

وبناء على هذين الافتراضين ، فإن التقديرات الجديدة تفترض ثبات عدد سكان اليابان من خلال معدلات منخفضة للولادة والوفيات . وسوف تتغير الأمة ككل بسرعة من مجتمع متوسط العمر إلى مجتمع للكهول . وأكثر النقاط الجديدة بالذكر في تقدير هذه الاحتمالات الجديدة هو توقع أن يمضي تقدم السكان في العمر بسرعة أكبر مما توقعته إحصائيات وتقديرات سابقة .

تكاليف عالية للضمان الاجتماعي

في الوقت الحالي يشكل الأشخاص الذين في الخامسة والستين من أعمارهم فما فوق ، ٩ ٪ من كل السكان ، أو حوالي واحد من كل ١١ شخصاً . ولكن بعد ٣٤ عاماً من الآن ، سوف يشكلون أكثر من ٢٠ ٪ من السكان ، أو واحد من كل خمسة ، وستصل نسبة العجائز إلى ذروتها - ٢٢,٢ ٪ - أو واحد من كل ٤,٥ شخص في عام ٢٠٤٣ . ووفقاً لتقديرات الأمم المتحدة للسكان لعام ٢٠٢٥ فإن لوكسمبورج وسويسرا فقط سيكون لديهما نسبة أكبر من العجائز في سكانها عن نسبة اليابان في ذلك العام وهي ٢١,٣ ٪ ، وسيكون سكان اليابان عندئذ أكبر سناً من سكان السويد ، وإيطاليا ، وجمهورية ألمانيا الاتحادية ، التي سيكون لديها هي الأخرى نصيب أكثر من ٢٠ ٪ من الكهول في سكانها .

وفضلاً عن ذلك ، فإن السكان في سن التناسل (١٥ إلى ٦٤) سوف يستمرّون في التناقص . وفي الوقت الحالي يعول سبعة أشخاص في سن العمل شخصاً كهلاً عن طريق نظام الضمان الاجتماعي . وبعد ٣٥ عاماً من الآن ، سوف يكون ثلاثة أشخاص في سن العمل يعولون واحداً من الكهول . ولكن الظروف ستكون بالنسبة للسكان في سن التناسل أكثر قسوة في الحقيقة منها من الناحية النظرية لأنه لن يكون كل شخص من هذه المجموعة من العمر يعمل فعلاً ويسهم بذلك في أموال الضمان الاجتماعي لكل عجز .

وفي مواجهة هذا التقدم في السن للسكان الذي لا مفر منه ، والزيادة الناجمة عن ذلك في عبء الإعالة على كاهل السكان العاملين ، فإن الحكومة مضطرة إلى أن تجري مراجعة أساسية في سياساتها الخاصة بالشؤون الاجتماعية والعمالة ، إذ أنها ترتبط بالمعاشات والرعاية الصحية للشيوخ ، والعمالة للسكان في منتصف العمر . وقد وجه نقد لمشروع ميزانية سنة ١٩٨٢ المالية لزيادته الضخمة في اعتمادات الدفاع على حساب مصروفات الشؤون الاجتماعية . وستصبح المناقشات حول الميزانية القومية أكثر ضراوة بعد ٥٠ أو ١٠٠ عام من الآن ، حيث سيصبح ضغط إعالة سكان متقدمين في السن أكثر حدة ، ويتشابك مع عوامل أخرى مثل نمو اقتصادي منخفض ، وقيود على إمكان الحصول على الطاقة ، ومتطلبات دفاعية أكبر . وسوف تتحد هذه العوامل لكي تجعل الإدارة المالية في المستقبل أكثر صعوبة مما هي الآن .

« نشرة أخبار اليابان »

توزع هؤلاء السكان :

تبلغ الكثافة المتوسطة للشعب الياباني حالياً حوالي ٣١٥ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد . ولكن السكان شديداً التفاوت من حيث التوزيع ، لأن السهول أكثر كثافة بكثير من الجبال ، وتبلغ الكثافة فيها أحياناً ١٠٠٠ نسمة في الكم^٢ (تبلغ حالياً في وادي النيل والدلتا ١٢٢٢) . وهكذا يسكن في سهل طوكيو (كوانتو) ومساحته ١٣٠٠٠ كم^٢ ، أي أكثر من مساحة لبنان بقليل ، حوالي ٢٣ مليون من مجموع السكان .

أما الجنوب الذي يتمتع بمناخ أكثر دفئاً ومواءمة للزراعة ، فيحتوي على عدد من السكان أكثر كثافة من الشمال الأكثر برداً وفقراً . وابتداءً من شمال طوكيو تكون الكثافات في كل مكان متوسطة أو ضعيفة بالنسبة للمتوسط الوطني . وهكذا نلاحظ أن القسم الشمالي من جزيرة هونشو وجزيرة هوكايدو ، اللذين يعتبران باليابان مناطق من الممكن زيادة استيطانها ، لا يجذبان إلا القليل من المهاجرين من باقي الجزر ، بسبب قساوة المناخ وقلة وفرة الموارد الزراعية .

الأرياف والمدن :

لقد ظهر تزايد السكان بالبداً أكثر شدة بالمدن ، رغم أن التوالد فيها أقل ارتفاعاً مما هو في الريف . ورغم وجود بعض المدن الكبرى القديمة ، فإن العنصر الريفي كان خلال مدة طويلة العنصر السائد بين السكان ولكنه يجنح اليوم للبقاء مستقراً . ففي ١٩٢٠ كان في اليابان ٥٥ مليون نسمة منهم ٣٧ مليون ريفي ، أي يسكنون في قرى يقل عدد سكانها عن ١٠٠٠٠ نسمة . وفي ١٩٥٠ صعد عدد سكان اليابان إلى ٨٣ مليون ، منهم ٣٨ مليون ريفي . وهذا التبدل نتج عن هجرات داخلية جسيمة ، أدت إلى مغادرة السكان الريفيين المناطق الفقيرة نحو المدن ، وخاصة الكبرى منها . وهكذا صعد عدد السكان الإجمالي للمدن التي

يزيد عدد سكان كل منها عن ٥٠.٠٠٠ نسمة ، بين ١٩٢٠ إلى ١٩٥٠ ، من ١٠ ملايين إلى ٢٨ مليون وتسجل هذه الحركة خطوات جديدة منذ ١٩٥٠ ، وهكذا تحوي اليابان حالياً ٨ مدن يزيد سكان كل منها عن مليون نسمة . ويعيش ٧٧% من اليابانيين في المدن وليست الحياة الحضرية لوحدها مع ما يتبعها من تسليات ، هي التي تجذب الريفيين نحو المدن الكبرى مع مصانعها وتجارتها ومكاتبها ، بل الأمل في خلاصهم وخلص عائلاتهم من العزلة الريفية وتلبية لنداء الصناعة. الوثابة في المدن المتكاثرة (شكل ٨) .

وقلما نجد في الأرياف سكاناً مبعثرين . ولتوفير أكبر ما يمكن من الأرض الزراعية فإن البيوت الخشبية المؤلفة غالباً من طابق واحد ، تصطف على طول الطريق الحالي من الطرق المعترضة على مسافة عدة كيلو مترات أحياناً .

أما في المدن فإن الكثير من الأحياء تحتفظ بمظاهر القرى الكبرى مع بيوتها المؤلفة من مساكن صغيرة جداً ذات سقائف جانبية مزدوجة ، والتي تجاور الطرق المتصالبة كما في المدن الجديدة في المناطق الصناعية ، وتارة تجاور طرقاً مسدودة غير سالكة ، أو تنتشر على طرفي شارع عريض ، بحيث يتساءل الإنسان كيف يستطيع في هذا التيه أن يجد إنساناً يجهل عنوانه . أما في المدن القديمة فإن هذا التيه من الشوارع ، يطيف غالباً بقصر قديم إقطاعي . ولكن تظهر في المدن الحديثة أو في الأحياء الجديدة من المدن القديمة ، شوارع عريضة مستقيمة ، أكثر عرضاً ، تحف بها العمارات الأوروبية الطراز .

الحضارة اليابانية :

وتعتبر في معظمها من أصل صيني ، ولكنها اتخذت مظاهر خاصة بها انتقلت من جيل لآخر حتى أيامنا هذه . وقد بذلت اليابان القديمة منذ حوالى قرن وربع من الزمن جهداً جباراً للتقدم وهو جهد كان أكثر شدة بعد انكسار عام ١٩٤٥ وبعد الاحتلال الأميركي .



الشكل ٨
توزيع المدن اليابانية في ١٩٧٥

ولقد تبني اليابانيون الاتجاه الغربي في الحضارة .. وهكذا كَوَّنوا جيشاً وبحرية قويتين ، وشيدوا مصانع على الطراز الأوروبي ومخازن كبرى وعمارات ضخمة أميركية الطراز . ويقصدون السينما بأعداد كبيرة ، وأكثرهم يملكون أجهزة راديو وتلفزيون وسيارة . وتعتبر طوكيو أكبر مدينة تحدث فيها المحادثات الهاتفية . وتكثر المدارس المختلفة المستويات في كل أرجاء القطر . ومعظم النساء والرجال يتخذون الألبسة الأوروبية في الشارع والمعمل .

ولكن تحت هذه المظاهر الحديثة ، تظل اليابان وفية على مقياس كبير لتقاليدها . لأن دستور عام ١٩٤٧ الرامي إلى تنظيم البلاد على أساس ديمقراطي ، يعتبر الامبراطور دائماً على أنه « مقدس ومحرم » . ولا تزال « الشنتوية » : وهي عبارة عن نظام نصف ديني ونصف فلسفي ، لا تزال مزدهرة دوماً ، وتصور تقديس الإمبراطور والأجداد العظام والأسرة والعشيرة والقوى الأساسية في الطبيعة . ولا يزال مفهوم الشرف العسكري من عهد حكم الطبقة العسكرية (الساموراي) والدايو باقياً ، أو « البوشيدو » وهو الانتحار بطريقة الماراكيري ، أي بشق البطن بالسكين أمام الجمهور ، في حالة الهزيمة العسكرية أو الفشل ، إلى جانب مفهوم الإخلاص الكلي للوطن ، مثل فرق « الكاميزاكة » أو الفدائيين ، الذين لعبوا دوراً كبيراً في أواخر أيام الحرب العالمية الثانية . وإلى جانب عمال المصانع للنضمين إلى نقابات ، لا تزال كتلة الفلاحين وأرباب الحرف التقليدية تماماً . ولا يزال الفن ذا أصالة ، ولا زال يعبر عن حب عتيق للطبيعة . ويعمد الياباني إلى التقليد أولاً ، ريثما يكتسب المهارة ، ثم يشرح ويعيد التفكير فيما قلده حسب طبائعه الخاصة وتقاليده . ويزداد نجاح الفيلم السينمائي والإذاعة والمسرح كلما كان المعروض يمثل أكثر فأكثر الصوفية القومية والآلهة ، الأبطال . واليابانيون واليابانيات الذين يتجولون خلال النهار بلباس أوروبي ، يعمدون فور دخولهم بيوتهم إلى خلعهما ، وأخذ حمام ساخن جداً ، ومن ثم يلبسون الكيمونو . وتم حفلة الشاي دوماً حسب طقوس ثابتة ، وكلها روحية ، لذا يكون لها دوماً نفس طابع البساطة والجمال . كما أن فن الباقات يعتبر دائماً في الصدارة في كل البيوت ، إذ يوجد في طوكيو لوحدها ٢٠٠٠٠ أستاذ لتعليم فن ترتيب باقات الزهور .

ثالثاً - المناطق الكبرى

تؤدي تجزئة البلاد بين أربع جزر كبرى وخاصة كثرة الامتداد من الشمال للجنوب على مسافة ١٥ درجة عرض ، إذ تمتد اليابان من عرض بخارست إلى عرض القاهرة ، تؤدي إلى اختلافات مناخية محسوسة تسمح بتمييز خمس مناطق في الأرخبيل الياباني :

١ - هوكايدو :

وهي الواقعة في أقصى الشمال ، وأقل الجزر سكاناً . مساحتها ٧٨٥٠٠ كم^٢ . وكثافة السكان فيها ٧٦ نسمة في الكم^٢ ومجموع سكانها ٦ ملايين نسمة . ومعظم تضاريسها بركانية كما هو الأمر في سائر أنحاء الأرخبيل . ولكن المناخ أكثر قساوة لدرجة تقارب المناخ السيبيري . وقد ظلت الجزيرة مدة طويلة كملجأ لسكان بدائيين هم الآينو ، الهاريين من وجه اليابانيين باتجاه الشمال . وقد استوطن اليابانيون الجزيرة مجدداً ، وخاصة بعد هزيمة عام ١٩٤٥ ، إذ استقبلت مهاجرين جديداً يمارسون الزراعة الميكانيكية .

وتنحصر مواردها الرئيسية في الغابات والصيد البحري ، لأن موقعها مماثل لموقع الأرض الجديدة في شرق كندا ، ومناجم الفحم وخاصة الزراعة . وتزرع بها نباتات المناطق المعتدلة مثل القمح والجاودار والشعير والبطاطا كما دخلت زراعة الرز مجدداً على الساحل الجنوبي .

ويمثل الريفيون حوالي ٢٢٪ من سكان الجزيرة ، والباقي يتبعثر في عدد كبير من المدن الصغرى التي تعتبر مدينتا سابورو وهاكوداته أهمها .

٢ - شمال جزيرة هونشو « هونشو » :

لهذه المنطقة تضاريس شديدة التجزؤ ، وشتاء أقل قساوة من شتاء هوكايدو ، ولكن تتعرض لحوادث صقيع شديدة وكثرة تهطل الثلوج . وتماثل حقولها حقول أوروبا الغربية ، ويزرع بها الذرة البيضاء والشعير والذرة الصفراء والفاصوليا والصويا . أما على السفح الشرقي فتزدهر زراعة القمح والبطاطا ، كما تتكاثر مزارع الرز . وتنمو أشجار التوت بالسهول لأن هذه المنطقة أكثر مناطق اليابان إنتاجاً للحريز .

ونصف السكان ريفيون تقريباً ، وتقل الكثافة العامة عن ١٥٢ شخصاً في الكيلومتر المربع ودون المعدل الوسطي للبلاد ، ويعيش فيها أكثر من ١٢ مليون نسمة .

٣ - وسط هونشو :

تبلغ الجزيرة أكبر عرض لها بين سهل سندائي وبحيرة ييوا . وهنا تصبح الجبال أكثر ارتفاعاً كما يحتوي بعضها على مخاريط بركانية ، تعتبر من أهم مثيلاتها بالبلاد مثل آساما ، وفوجي ياما الذي خد منذ ١٧٠٨ . وتكون هذه السهول والمصاطب والتلال القابلة للزراعة أكثر عدداً . كما أن كثرة الأمطار وارتفاع الحرارة خلال الفترة الإنبائية تجعل النبات وفيراً وبيجاً . وهنا تتنوع المزروعات ، وتحتل حقول الرز مساحة كبيرة . وتتراوح كثافة السكان بين ٢٠٠ و ٥٠٠ شخص في الكيلومتر المربع ، وأكثر من ذلك في سهل طوكيو . أما الساحل الجنوبي المحصور بين ناغويا وطوكيو فيعتبر من أكبر مناطق العمران باليابان (شكل ٩) .

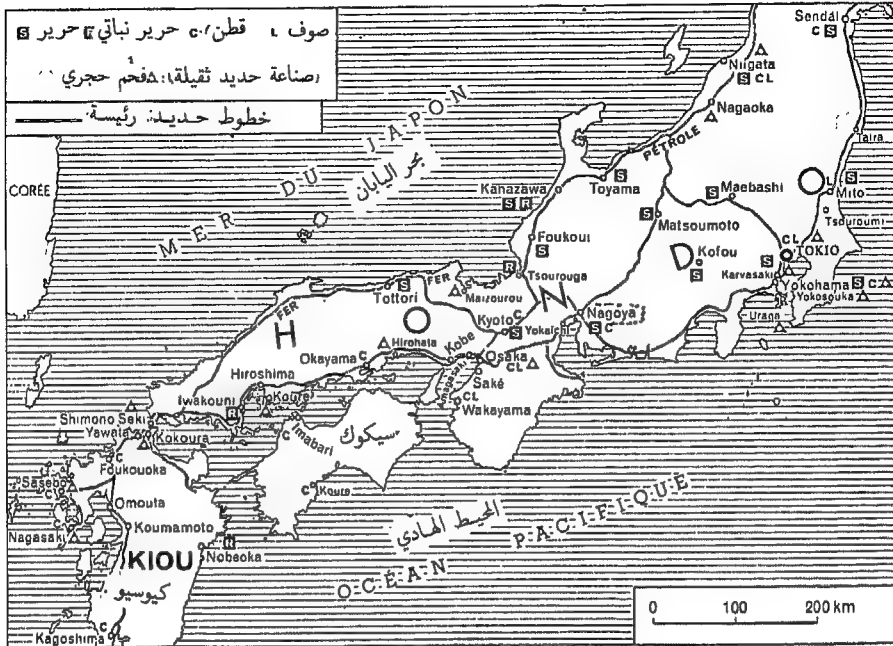
ومدينة ناغويا التي يبلغ عدد سكانها أكثر من مليوني نسمة ، تحتل قلب منطقة يزيد عدد سكانها عن ٢,٥ مليون تقدم ١٠٪ من إنتاج اليابان الصناعي .



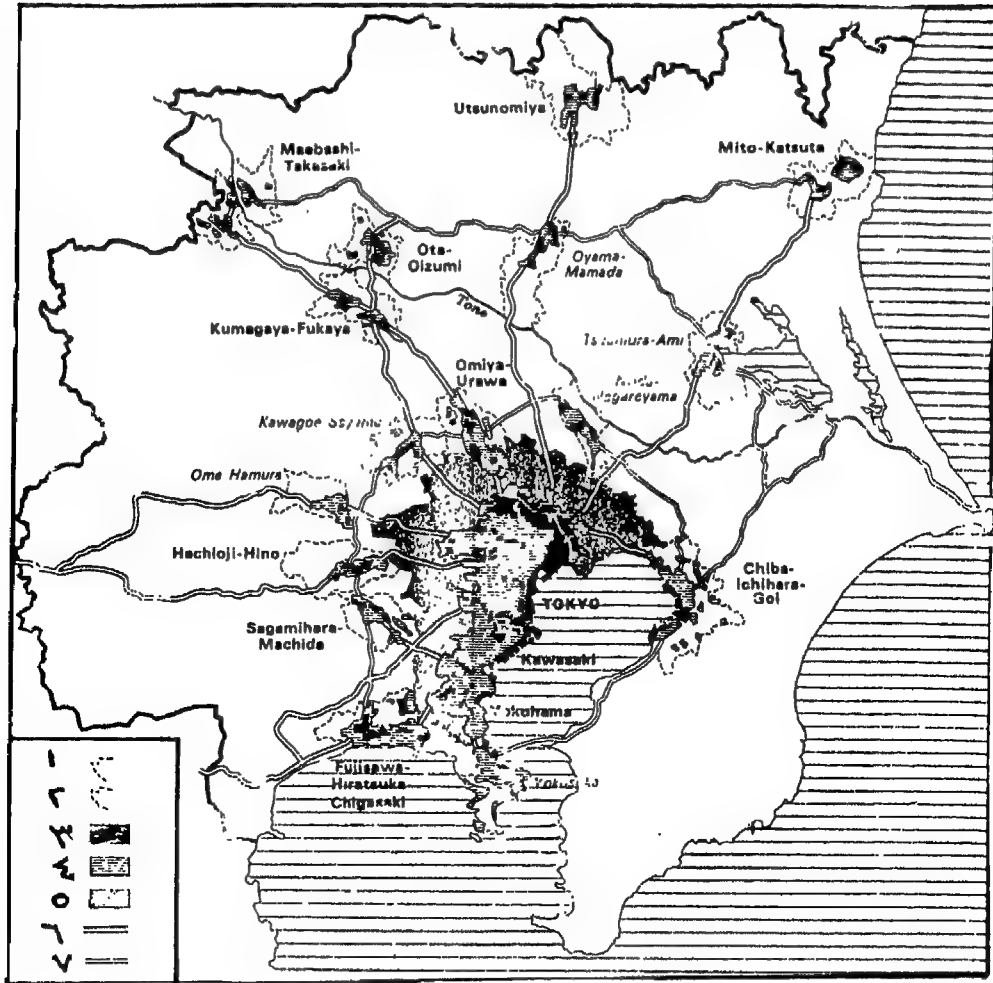
الشكل ٩

وتتفوق هنا الصناعة النسيجية إلى جانب صناعة الحديد . أما بؤرة النشاط الأكثر أهمية سواء من الناحية الزراعية أم من الناحية الصناعية فتقع حول طوكيو مع يوكوزوكا Yokosuka وميناء يوكوهاما (شكل ١٠) . واتخذت طوكيو كعاصمة منذ ١٨٦٨ وهي مبنية فوق سهل لحقي كبير . وتضم اليوم مع ضواحيها أكثر من ١١ مليون نسمة و ٨,٤ ملايين ضمن حدودها البلدية ولذا تعدّ ثالث مدينة في العالم من حيث كثرة السكان بعد شنغهاي ومكسيكو (شكل ١١) . ومساحة هذه المدينة ٢٥ ألف كم^٢ ، وتمتد على رقعة واسعة ، إذ ضمت بين بيوتها عدداً من البساتين ومزارع الرز لدرجة أن حدودها كمدينة تبدو غامضة . وتكاد تكون هذه المدينة جديدة بكل معنى الكلمة ، إذ أعيد بناؤها بعد زلزال ١٩٢٣ الذي هدمها وبعد تدميرها بقنابل الطائرات الأميركية عام ١٩٤٥ .

اليابان الوسطى والجنوبية وصناعاتها الرئيسية



الشكل ١٠



مشروع التوسع الحضري في إقليم طوكيو

- ١ - مدن جديدة
 - ٢ - مدن جديدة تحت الدراسة
 - ٣ - مناطق صناعية
 - ٤ - مناطق احتياطية للتوسع
 - ٥ - الحزام الأخضر
 - ٦ - طرق رئيسية
 - ٧ - طرق ثانوية
- يلاحظ وجود مدن تابعة لطوكيو بعد الحزام الأخضر مباشرة ، ومدن تابعة بعيدة عن الحزام الأخضر

الشكل ١١

وقد تم حفر قناة تسمح لطوكيو باستقبال سفن البحر الكبرى ، ولكن يوكوهاما التي يزيد عدد سكانها عن ٢,٤ مليون تظل الميناء الأول للشركات الملاحية الكبرى . والمجموع المؤلف من طوكيو والمدن المجاورة يضم ١٤ مليون نسمة . وهنا أكثر مراكز البلاد نشاطاً ، إذ تنتج ٣٠٪ من مجموع الإنتاج وتضم أكثر الصناعات تنوعاً ، وهي أول مدينة صناعية بالعالم لأن فيها ٢,٥ مليون عامل صناعي .

٤ - جنوب هونشو وسيكوك :

يتميز القسم الواقع إلى الغرب من بحيرة بيوا (في جزيرة هونشو) بنشاط كبير في جوار البحر الداخلي ، الذي تشرف عليه أيضاً الضفاف الشمالية من جزيرة سيكوك ، وهنا تكثر غابات البامبو . أما داخل جزيرة هونشو الجنوبية ، فهو منطقة زراعة رز كبيرة كما تكثر مزارع الشاي والقصب بجوار الساحل .

ويكون للبحر الداخلي ساحل منبسطة تارة وتارة محفوف بحقول منتزعة من البحر « بولدر » وتارة جبلي وبركاني . وتقدم الجزر الصغيرة والسواحل هنا ملاجئ كثيرة للمراكب الصغيرة . لذلك لعب البحر الداخلي دوراً هاماً في تاريخ اليابان . فعلى ضفافه الشمالية تزدهم معظم المدن الكثيفة السكان في الأرخبيل ، مثل أوزاكا ٣,٢ ملايين نسمة وهي ثاني مدينة باليابان ، وأهم مركز فيها للصناعة القطنية ، وسوق كبير للرز والسكر . وكوبه ١,٢ مليون نسمة ، وهي مركز لصناعة الحديد ، ورابع ميناء بالعالم قبل الحرب العالمية الثانية . وهيروشيما وكان سكانها ٢٥٠ ألف نسمة قبل انفجار أول قنبلة ذرية فوقها عام ١٩٤٥ ، وعاد بناؤها ببطء بعد ذلك ، وتضم أكثر من نصف مليون نسمة . وشيمونوسيكي وسكانها ٦٠٠ ألف نسمة ، وتقع بمواجهة المنطقة الصناعية في جزيرة كيوسيو . ومن جهة أخرى تقع مدينة كيوتو على مسافة ٥٠ كم إلى الشمال من أوزاكا بجوار بحيرة بيوا

وسكانها ١,٥ مليون نسمة ، وهي العاصمة القديمة للامبراطورية ومدينة معابد وأديرة ومركز جامعي وفني ، ولكنها مدينة صناعية أيضاً ، تشتهر بصناعة الخزف ونسج الحرير الطبيعي .

٥ - جزيرة كيوسيو :

وهي الجزيرة الرابعة الواقعة في أقصى الجنوب ، وتقع على مسافة ثمانى درجات من المدار على عرض مدينة شنغهاي ، لهذا تتمتع بمناخ شبه مداري ، حار ورطب ، مع غابات ذات نبات بهيج غالباً وحقول رز تعطي موسمين بالعام أحياناً ، ومزارع شاي ، وبعض حقول قصب السكر والقطن . ونجد في الشمال أي في مدينة فوكوكا Fukuoka وسكانها ٨٦٠,٠٠٠ نسمة مناخ هامة لإنتاج الفحم ، وأصبحت مركز صناعة حديد ثقيلة وصناعات كيمياوية . وتقدم هذه المنطقة ١٠٪ من الإنتاج الصناعي الياباني لذا تكون كثافة السكان هنا مرتفعة جداً . ويتميز ميناء ناغازاكي الواقع على بحر الصين ، بترساناته النشيطة لبناء السفن وسكانه ٤٥٠ ألف نسمة .

تحتوي هذه المناطق المختلفة ، كما رأينا ، تنوعاً كبيراً في المشاهد . ولكن في نظر الإنسان البعيد عن جو الشرق الأقصى ، يشعر بوجود مشهد ياباني متميز ، انتشر عالمياً بواسطة الصور أو الطوابع ، والذي نجد فعلاً عناصره في معظم جزر الأرخبيل : فهنا نجد أجمة من أشجار ، تكون من صنوبر أحياناً ، وهناك شبح غريب لمبعد مع بوابته الخشبية المغرقة بالألوان ، ومجذباته وبقنواته الصغيرة التي تمتطيها جسور ذات خطوط منسجمة ، وحوله دغيلات من أشجار الكرز أو المانيوليا ، أو من الشجيرات الصغيرة ، وفي الأفق يترأى لنا مخروط بركاني ذو سفوح منتظمة ، أو زاوية من جدار ذي صخور ضخمة ومراكب صغيرة . وهكذا يكون الانسجام والأناقة هما أبرز ملامح هذا المشهد التقليدي ، والذي لا يجوز ، مع ذلك ، أن يجعلنا ننسى حقول الرز مع فلاحها ، ولا المصانع التي تشبه خلايا نحل بشرية .

رابعاً - الاقتصاد الياباني

التحديث :

في عام ١٨٦٨ كانت امبراطورية الشمس المشرقة تعيش من زراعتها ، في حين كان ينصرف قسم صغير من سكانها نحو الحرف الراقية ، وكانت التجارة محدودة جداً بالنسبة للجزر اليابانية الأربع . وعند مطلع عصر الميجي ، أخذ الامبراطور ومستشاروه على عاتقهم تحويل اليابان إلى دولة حديثة .

ولتحقيق ذلك وجب النهوض بالزراعة لتأمين غذاء السكان المتزايد من ناحية ، ومن ناحية ثانية لإنتاج المواد الأولية للصناعات الوطنية وللتجارة الخارجية ، كالحرير مثلاً . ولهذا جهدت السلطات الامبراطورية في توسيع رقعة الأراضي المزروعة ، وهي مهمة عسيرة في بلاد ذات أبعاد ضئيلة ، وذات تضاريس معقدة جداً ، وتربة قليلة الخصب أحياناً حتى في السهول . ولكن أمكن بين عامي ١٨٧٧ إلى ١٩٣٩ بعد جهود جبارة توسيع الرقعة المزروعة بنسبة ٣٥ ٪ .

ولكن النهضة التي أحرزتها الصناعة الكبرى والتجارة الدولية ، كانتا الشغل الشاغل الرئيسي لحكومة طوكيو ، التي كانت تتصرف بأيدي عاملة وفيرة ودؤوبة على العمل وقنوعة . وقد استقدمت لأجل ذلك خبراء تكنولوجيين من أميركا وبريطانيا ، وخاصة من أجل إنشاء الصناعات الرئيسية . وأقامت موانئ حديثة في حين كان الأسطول التجاري يتزايد من أجل زيادة الملاحة الشاطئية والتجارة الخارجية . وأخذت الخطوط الحديدية تتمدد لتربط المدن الرئيسية ببعضها البعض .

ولأجل إنجاح هذا المشروع الجبار ، لم تعتمد الحكومة أبداً لاستدعاء رساميل أو مساعدات أجنبية ، بل فرضت ضرائب باهظة على الفلاحين وأصبحت هي ذاتها مالكة لعدة مؤسسات ، وخاصة في مجال الصناعة الثقيلة وفي صناعة السلاح . ولكنها كانت تشجع في الوقت نفسه المؤسسات الخاصة وخاصة تلك التي تهتم بالتصدير وبالسوق الخارجية . وهكذا ظهرت بعض الشركات (أو إخوان الثراء) الضخمة مثل شركات زيباتسوس Zaibatsus التي أصبحت قوية جداً .

ورغم فقر البلاد بالمواد الخام ورغم الأزمات والقفزات غير المتزنة ، أصبحت اليابان في عام ١٩٤١ عند مهاجمتها للقواعد الأميركية في المحيط الهادي ، إحدى أكبر الدول الصناعية والتجارية بالعالم ، ولكنها استطاعت قبل ذلك في عام ١٩٠٥ أن تدمر الأسطول الروسي بالشرق الأقصى .

الامبريالية اليابانية :

رغبة من اليابان في تأمين المواد الخام لصناعاتها الوطنية ، والتي تفتقر إليها في بلادها . ومن أجل الحصول على أقطار ، يمكن أن تستخدم كصرف لسكانها الكثيرين جدا ، عمدت اليابان إلى زيادة قوتها العسكرية في الوقت نفسه الذي زادت من قوتها الاقتصادية ، وأخذت تقتطع لنفسها امبراطورية على حساب جيرانها . وعلى أثر حرب مع الصين احتلت اليابان فورموزا « تايوان » وجزر بسكادور عام ١٨٩٥ . وفي ١٩٠٥ بعد حرب مع روسيا احتلت النصف الجنوبي من جزيرة سخالين وكوريا وميناء بورت ارثور . وفي ١٩٣١ إلى ١٩٣٢ ، اجتاحت المقاطعات الصينية في منشوريا وفي جيهول jahol . وفي ١٩٣٧ أعادت الكرة على الصين فاحتلت الجيوش اليابانية كل الصين الشمالية والساحل الجنوبي . وأخذت هذه الامبراطورية ترسل المواد الخام للمصانع اليابانية كما استقبلت الأراضي المفتوحة في مدة ١٠ سنوات ، مليونين من المهاجرين اليابانيين في حين هاجر للأقطار الخارجية مليون واحد .

ولكن هذا الاستعمار المتزايد والمستفحل ، قاد البلاد نحو الكارثة بسبب حسد وخوف الأقطار الاستعمارية الأخرى من خطر العرق الأصفر الذي تمثل كل منجزات المدنية الغربية . وهكذا أصبحت اليابان في أواخر الحرب العالمية الثانية ، مقتصرة على جزرها الأربع فقط ، بعد أن استولت على كل جنوب آسيا وخسرت ثلاثة أرباع قوتها الإنتاجية الصناعية ، ولكن اقتصادها عاد بعد انهيار عام ١٩٤٥ إلى ازدهار جبار ، من جديد ، وهو ازدهار لم تعرفه اليابان من قبل أبداً ، لتتحول إلى ثالث قوة في العالم ، وكان ثأرها علمياً تكنولوجياً واقتصادياً .

الزراعة :

منذ نهاية الحرب ، بذلت اليابان جهوداً كبيرة لتوسيع المساحات المزروعة ، ولكن الأراضي المزروعة حالياً ، لا تتجاوز ١٥٪ من مساحة البلاد . ولا يعمل بالزراعة أكثر من ١٥٪ من السكان العاملين . وتبدو معظم المزارع ضئيلة

الرقعة ، ومقسمة إلى قطع صغيرة . وقد فرضت سلطات الاحتلال الأميركية عام ١٩٤٦ الإصلاح الزراعي ، فتضاعف عدد الملاكين المستغلين والرقعة التي يستغلونها . ولكن تطبيق هذا الإصلاح لم يكن كما يبدو دقيقاً جداً ، ولم يؤد إلى أي تغيير يذكر في بنية المزارع نفسها . وعلى كل أصبح ٧٠٪ من الفلاحين اليابانيين مالكيين صغار ، يستغل الواحد منهم وسطياً أقل من هكتارين .

لا تتعرض الأرض للبور إطلاقاً فوق هذه المستغلات المفرطة في تفتتها . ويجمل ثلث الأراضي المزروعة ، على الأقل ، محصولين في العام . وإليكم كيف تكون الأرض مستخدمة في جنوب خط العرض ٣٨ : فبعد حصاد مزارع الرز المغمورة ، في نهاية الصيف ، يزرع نوع آخر من الحبوب أو زراعة صناعية كالكلوزا « الشلغم » أو أسمدة خضراء ، تحصد في نهاية الشتاء ، أما فوق الأراضي البعلية (أو الإعذاء أو الديم) فتأمر زراعة محاصيل متداخلة ، بحيث تنتج خلال العام خمسة محاصيل فوق الأرض ذاتها .

وبفضل كثرة اليد العاملة ، تمارس اليابان نوعاً من زراعة ، تماثل زراعة الحدائق بسبب العناية المفرطة المبذولة للأرض : كالري المنتظم بدقة ، والحراثة ، والعزق المتكرر . ولا تستخدم الزراعة الكثير من الماكينات الزراعية ، باستثناء جزيرة يوزو ، وأحياناً لا تستخدم الحيوان . وتبذل جهود كبيرة من أجل تحسين البذار ، واستخدام الأسمدة المختلفة الأنواع ، من طبيعية وكبائية ، جهود لا تنفك عن التزايد . وهذه الزراعة الكثيفة تعطي مردوداً مرتفعاً .

والمحصولان الرئيسيان هما الرز والحرير . فمزارع الرز المغمورة بالماء ، تحتل نصف مساحة الأراضي المزروعة البالغة ٦ ملايين هكتار . وتبلغ القيمة الاجمالية لمحصول الرز حوالي ٦٠٪ من القيمة الكلية للإنتاج الزراعي . ويبلغ مجموع المحصول ١٧ مليون طن ، أي تعتبر اليابان ثالث منتج عالمي للرز ، ومردود الهكتار يبلغ ٦٠ كنتال من الرز ، وهو رقم عالمي ، ولكن هذا المقدار لا يكفي الاستهلاك الوطني بسبب تزايد السكان . كما أن تربية دود القز التي تمارس بعناية فائقة وبطريقة عملية ، تتراجع بسبب المزاخمة المتزايدة الناجمة عن المواد

النسيجية الاصطناعية . وقد بلغ إنتاج شرائق الحرير بعد الحرب العالمية الأولى ، حوالي ثلثي إنتاج العالم وكان يغذي نصف الصادرات اليابانية . ومع أن الإنتاج كان لا يزال كبيراً إلا أنه ينحدر بسرعة .

ومن بين الزراعات الأخرى ، نذكر : الشعير ٢٠٠٠٠٠ طن ، والقمح ٢٠٠٠٠٠ طن . والشوفان ، والذرة البيضاء والصفراء ، والبطاطا والبطاطا الحلوة ١,٥ مليون طن ، ومختلف أنواع الفاصولياء ، وأخيراً البقول والأشجار المثمرة ، والشاي ١٠٥٠٠٠ طن . كما يزرع القطن والقصب السكري في الجنوب على رقعة صغيرة ، كما أن تربية الماشية لا تلعب أكثر من دور هزيل في الفعاليات الزراعية . وعلى كل لوحظ منذ أعوام حدوث تقدم محسوس في ميدان تربية الأبقار الحلوبة ، ٣,٧ ملايين رأس ، بحيث أصبحت اليابان تصدر الحليب المكثف وسمن الغنم ، وتربية الخنازير ٨ ملايين والطيور الداجنة .

وتقدم الغابات المستغلة عقلانياً خشب النجارة وحطب التدفئة وقصب البامبو وفحم الخشب ، الذي يستهلك بكثرة في المنازل للتدفئة والحطب اللازم لمعجونة الورق لأن الغابة تستر ٦٧٪ من رقعة البلاد وتعطي ٤٣,٤ مليون م^٢ من جذوع الخشب ٩,٩ ملايين طن من المعجونة و١٥,٧ مليون طن من الورق . وإذا كان سدس سكان اليابان يعملون بالزراعة فإن هذه الزراعة تقدم حوالي ١٣٪ من الدخل القومي ، كما تقدم أكثر من ثلاثة أرباع الحاجات الغذائية الوطنية .

الصيد البحري :

تتمتع اليابان بسواحل طويلة جداً ، ويقرب القيعان البحرية الغنية بالأسماك ، لذا تحتل الدرجة الأولى بالعالم في هذا المجال ، إذا يعمل بالصيد ١,٣ مليون عامل مقابل ٧٢٠٠٠ في بريطانيا ، أو عشرة أمثال فرنسا . ويستهلك معظم الإنتاج في جزر الأرخبيل ذاته ، كالأسماك والأشنيات . كما يستخدم قسم منه كأسمدة أو يصدر للخارج مثل السلاطين وسمك الطون واللاكي المزروعة . . . كما يكون الصيد الساحلي نامياً جداً ، ولكن قلما تستخدم فيه مراكب ذات محركات ، ويقدم هذا الصيد

الكثير من الأسماك المتنوعة وخاصة السردين . وبالإضافة إلى ذلك تملك اليابان سفن صيد ضخمة بخارية أو ذات محرك تخر البحار من مضيق بهرنغ حتى خليج البنغال وكل المحيط الباسفيكي وحتى المتجمد الجنوبي . وبعض هذه السفن عبارة عن معامل حقيقية ، تنتج على ظهرها المعلبات من السلاطين لكل أنحاء العالم ، وزيت حوت البالين . وبذلك أصبحت اليابان أكثر أمم العالم تصديرا للمأكولات البحرية . ويعمل في الصيد الساحلي ٧٠٪ من الصيادين .

وتنتج اليابان حوالي ١٠.٦ ملايين طن من الأسماك في ١٩٧٧ أو ١٥.٥٪ من الصيد العالمي وتأتي بالدرجة الثانية بالعالم بعد البيرو .

الصناعة :

لم تتوقف الصناعة عن التوسع والنمو منذ ثورة ١٨٦٨ ، وتشغل اليوم نسبة من السكان العاملين أكبر بكثير من العاملين بالزراعة . وهكذا تبدو اليابان أقوى دولة صناعية وأكثرها اعتماداً على الآلة في كل آسيا الموسمية وثالث دولة في العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي .

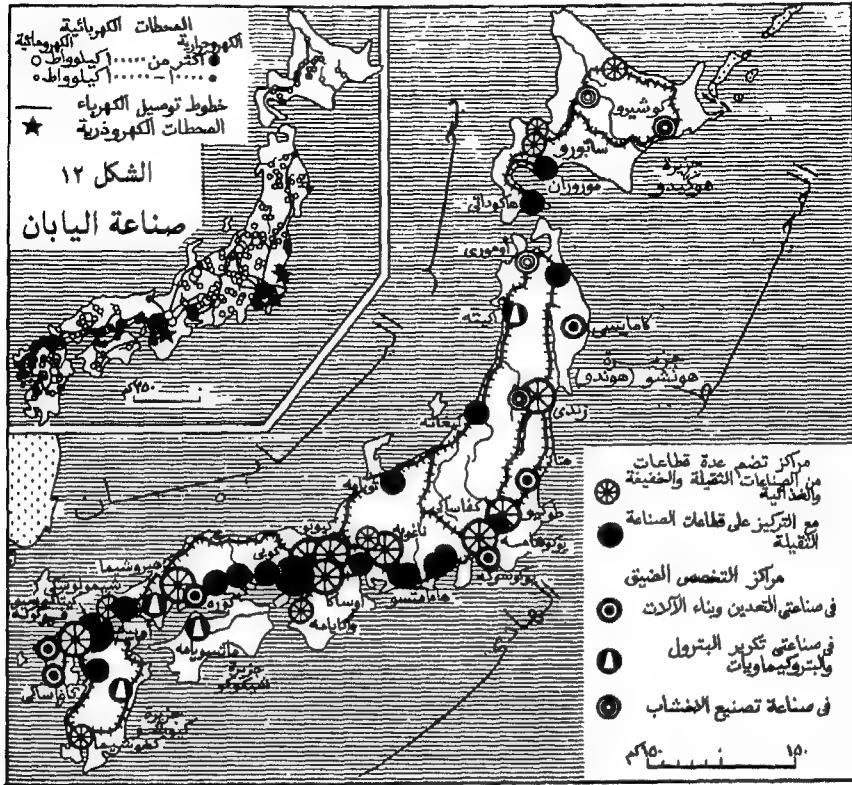
اليابان في الطليعة

هناك جيش « الأوام الآلية » Robots . ويشير تقرير جمعية « الأوام الصناعية » (جيرا) أنه كان في اليابان في اواخر عام ١٩٧٩ / ٥٦٨٠٠ إنسان آلي عاملين في البلاد وأكثر من ثلث هؤلاء كانوا يعملون في صناعة السيارات أو ٢٨٪ وفي الصناعة الكهربائية المنزلية ١٨٪ أما الباقي فكانوا يتوزعون في صناعة اللدائن ١١٪ ، والصناعة الميكانيكية ٨٪ ، والصناعة الحديدية ٤٪ وفي صناعة معالجة المعادن ٣٪ .

وهذه النهضة تعود قبل كل شيء إلى وفرة اليد العاملة ، وإلى تقاليد لها في القناعة وبساطة العيش ، مما يجعل عمالها قليلي المطالب والشطط . وعلى كل ارتفع دخل عمال الفولاذ الشهري إلى ما يعادل أمثالهم في ألمانيا الغربية وعمال الصناعات اليدوية إلى أمثالهم في أمريكا فضلا عن علاوات وفوائد لا يستهان بها .

وتتفوق في اليابان العامل الصغيرة شبه الحرفية ، إذ أن ٥٠٪ من معامل البلاد لا تشغل أكثر من ١٠٠ عامل ، وهذه ظاهرة لا ترى في الصناعات النسيجية بصورة خاصة ، حيث يعمل فيها عدد

من العمال الحرفيين بالتعهد (القبالة) لحساب أرباب العمل الذين يقدمون لهم المواد الخام ، لهذا لا تكون الإنتاجية بالنسبة للعامل الواحد مرتفعة . وتوجد إلى جانب هذه المؤسسات الصناعية الصغيرة ، مراكز كبرى على شكل معامل ضخمة جداً ، وهنا تكون الأجور أكثر ارتفاعاً والتقنية technicité أكثر تقدماً بكثير . ونلاحظ في الصناعة الصغرى كما في الكبرى ، وجود تركز مالي شديد . وبعد أن بدا للناس أن التروستات كادت تنهار بعد هزيمة ١٩٤٥ ، عادت الآن للنمو وأشهرها تقوم على أساس عائلي مثل عائلة ميتسوي وتروست ميتسويشي التي تنتج السيارات والاسمنت والمعلبات الغذائية والمراوح كما تبني مصانع كاملة « مفتاح باليد » الخ . . . التي تملك كل منها فروعاً عديدة من الصناعة والتجارة والبنوك . أضف إلى ذلك أن الدولة ذاتها أصبحت منذ ١٨٦٨ كقوة صناعية . وتخرج الجامعات اليابانية وعددها ٢٣٩ عدداً هائلاً من الفنيين . فأصبح في اليابان اليوم من المهندسين أكثر من أي قطر آخر عدا الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي . ولكن اليابان تحتل الدرجة الأولى من حيث النظر إلى عدد المهندسين بالنسبة إلى عدد السكان إذ لديها ٣٠٠ جامعة تكنولوجية والقليل من الجامعات النظرية التي تخرج أرباب الكلام .



أما فيما يتعلق بمصادر القدرة فلا نجد باليابان سوى القليل من الفحم الحجري ومن البترول ولكن تحوي البلاد الكثير من الشلالات . وقد بلغ إنتاج الفحم في عام ١٩٨١ مقدار ١٧,٦ مليون طن استخرجت خاصة من مناجم جزيرة كيوسو الشمالية ومن مناجم جنوب هوكايدو . واستخراج هذا الفحم عسير ونوعيته هزيلة . أما فحم الكوك فيستورد كلياً . أما إنتاج البترول فهزيل ورغم أن حملة كبيرة قامت في اليابان للتنقيب عن النفط ، فهي تضطر لاستيراد كمية سنوية تزيد عن ٩٠ مليون طن ، وتعتبر ثالث دولة مستوردة للنفط بالعالم لأن إنتاجها يزيد قليلاً عن نصف مليون طن ما يكفي استهلاك يوم واحد في السنة مقابل مليارين ونصف متر مكعب من الغاز الطبيعي . وتعتبر ثالث دولة بالعالم في ميدان تكرير النفط لأنها تكرر حوالي ٢٧٥ مليون طن بالعام ، ولكن اليابان غنية نسبياً بالقوى الكهربائية بفضل مناخها المطير وخاصة لعنف تباينات التضاريس ، ولوجود البحيرات . ويتجاوز إنتاج الكهرباء المائبة ١٧٪ من الإنتاج الكلي للكهرباء البالغ ٦١٢ مليار كيلواط ساعي وذلك عام ١٩٨٠ أو ثالث دولة في إنتاج الكهرباء ويقدم النفط المستورد خمسي الطاقة الكهربائية ويفوق استهلاك الفرد الياباني ما يستهلكه الفرد السوفياتي ، أو ٤٥٥٠ كيلواط ساعي .

أما بالنسبة للمواد الخام ، فلا تملك اليابان ما يكفيها تقريباً من المعادن سوى النحاس ٨١٠٠٠ طن ، والرصاص ٥١٦٠٠ طن ، والزنك ٢٧٥٠٠٠ طن ، أما الباقي فتستورده . فالحديد نادر بالبلاد وإنتاجها من خاماته لا يزيد عن ٣٥٨٠٠٠ طن وكل الحديد المستهلك مستورد تقريباً وخاصة من استراليا كذلك الأمر بالنسبة للقطن والصوف ما عدا الحرير الطبيعي الذي تنتجه البلاد .

ورغم هذا الفقر بالوقود والمواد الخام الأولية ، فإن الصناعة اليابانية حصلت على نجاحات رائعة . فالصناعات الحديدية الثقيلة تجاوزت إنتاج ما قبل الحرب العالمية الثانية بكثير إذ قدمت عام ١٩٨١ أكثر من ١٠٢ مليون طن من الفولاذ و ٨٨ مليون طن من الفوننت فأصبحت ثالث دولة بالعالم . وتقع الأفران

العالية خاصة في شمال جزيرة كيوسيو التي تقدم ٣٥٪ من الإنتاج وفي أواسط جزيرة هونشو ولا سيما في مدن أوزاكا وكوبه وطوكيو ويوكوهاما . أما أهم الصناعات المعدنية فهي صنع كل أنواع الماكينات والمحركات وتجهيزات معامل النسيج والسيارات (تويوتا ، نيسان ، ورنس وداتسون ومتسويشي الخ ... وكانت تنتج سنوياً حوالي ٦ ملايين سيارة إلى أن بلغ ١١,٧ مليون في ١٩٨٢) . هذا وتبدو صناعة بناء السفن في أوج ازدهارها لدرجة أنها احتلت المكانة الأولى ببناء السفن بالعالم عام ١٩٦١ ، وسبقت إنكلترا ، إذ أنتجت ما يعادل حولة ٩,٩ مليون طنّة . وتنتج حالياً ٤٢٪ من سفن العالم .

الصناعة الجوية اليابانية ١٩٧٩ : لم تستطع الصناعة الجوية اليابانية أن تستأنف أنشطتها إلا في عام ١٩٥٢ ولا تمثل حالياً أكثر من ربع مثيلتها الفرنسية ، وتود أن تتلافى تأخراً تكنولوجياً في هذا المضمار مقداره ٣٥ سنة كي تصبح ثاني دولة في الصناعة الجوية العالمية لأن حسابات خبرائها تشير إلى أن كغم من الطائرة يساوي ٣ أضعاف ثمن كيلو غرام من التلفزيون الملون و ٨٠٠ مرة أكثر من كغم السفينة التجارية . ولا يعمل في هذه الصناعة حتى العام المذكور أعلاه سوى ٢٥٠٠٠ نسمة . وتمارس مؤسساتها الرئيسية المندمجة ضمن المجموعات الصناعية الكبرى ، ميتسويشي ، كاوازي ، ايشي كاواجيا ، هارومايجي ، وشين ميوا ، تمارس حالياً سياسة تعاون مع شركة بوينغ ، فتمارس ١٥٪ من برنامج بوينغ ٧٦٧ ، ومع شركة فوكر ، روكول ، رولس رويس ، وترمي إلى المساهمة بنسبة ٢٠٪ في مشروع طائرة « الباص الجوي » Airbus ، وقد أخرجت في عام ١٩٧٩ أول طائرة تجارية هي طائرة دياموند ١ التي صنعتها مؤسسة ميتسويشي ، في مدينة سان أنجلو ، في ولاية تكساس .

كما توسعت صناعة الأجهزة الكهربائية فبلغت ٢٢ ضعفا عما كانت عليه قبل ١٠ سنوات : وتنتج حالياً أيضاً ٦٠٠ ألف طن من الألمنيوم .

وتظهر في طليعة الصناعات النسيجية : صناعة القطن المتوجهة للتصدير ، والشديدة التركيز (أوزاكا ، ناغويا) . أما صناعة الحرير فتعرض لمزاحمة داخلية قاسية من قبل المنسوجات الاصطناعية ، وعلى كل تقدم منسوجات الحرير أقشة من نوعية ممتازة . وقبلت اليابان دخول ميدان الأنسجة الجديدة ، فاحتلت المكانة الثانية بالعالم بعد الولايات المتحدة في صناعة خيوط الحرير النباتي ، وأول مكانة في خيوط الفيبران والخيوط التركيبية . أما الصوف المستورد من استراليا فيصنع في مدينة ناغويا (شكل ١٣) .

هذا وتبدو الصناعات الكيماوية في ازدهار سريع ، وخاصة صناعة الحمض الكبريتي والأسمدة . كما تتقدم صناعة المطاط المستورد والتركيب . كما لاتزال صناعة البورسلين والخزف القديمة جداً ، مزدهرة للغاية . كما تزدهر فيها صناعة المصابيح الكهربائية والزجاج المتنوع ، فضلاً عن صناعات حرفية عديدة مثل الورق وألعاب الأطفال ، والأشياء البلاستيكية والأمواس والأقلام الخ ، وتنتج ٦ ملايين من حمض الكبريت و ٧ ملايين طن من الإسمنت ... والخلاصة تتقدم صناعتها وتنمو بنسبة ١٧٪ في العام وسطياً في السبعينات وهبط إلى ٢,٥٪ في ١٩٨٢ .

التجارة ووسائل النقل :

تستفيد التجارة الداخلية من شبكة طرق برية طولها ٣٠٣٨٠٠ كم ، وحديدية ممتازة يبلغ طولها ٢٨٠٠٠ كم . وهكذا تملك اليابان أكبر حظيرة للسيارات وعددها ١٥ مليون سيارة وللقطارات في كل آسيا الموسمية ، فالقطار السريع الياباني يقطع المسافة بين طوكيو وأوزاكا البالغة ٥١٥ كم بمدة ثلاث ساعات . وكان الأسطول التجاري يحتل قبل الحرب الأخيرة الدرجة الثالثة بالعالم ، وحولته كانت أكثر من ٥ ملايين طنة قبل الحرب . وبعد تخريب معظمه خلال الحرب العالمية الثانية ، استطاعت اليابان أن تعيد بناءه بسرعة ،

وبلغت حملته اليوم ٤٥ مليون طنة . وعاد العلم الياباني يظهر من جديد فوق كل البحار والمحيطات .

أما التجارة الخارجية فتجاوزت مكانتها التي كانت عليها قبيل الحرب العالمية الثانية بكثير ، ولكنها لا تزال في تقدم مستمر . وتتألف المواد المستوردة قبل كل شيء من الفحم والبتروول والحديد والقطن . وتحتل المواد الغذائية المكانة الثانية ، وتبلغ قيمة المستوردات ١٩ مليار ين . أما الصادرات فيأتي الفولاذ بالطليلة ثم المنسوجات . إذ تعادل حوالي ٣٠٪ منها وتحتل الأقمشة القطنية بينها مكان الصدارة . ولكن الأنسجة الاصطناعية احتلت المكانة الثانية بعد الأقمشة الحريرية . وأخذت صادرات المصنوعات المعدنية تؤلف حالياً ثلث الصادرات كالسيارات والساعات وأدوات التصوير والمراوح والمصنوعات الألكترونية وتبلغ قيمة الصادرات ٢٢ مليار ين ، أي تحقق اليابان فائضاً تجارياً يزيد عن ملياري ين .

وكان الميزان التجاري عاجزاً ، إذ بلغ عجز عام ١٩٦١ أكثر من مليار دولار إلى أن تفوق التصدير عن الاستيراد بكثير منذ ١٩٦٥ . ولكن التصدير أصبح بالنسبة لليابان قضية حيوية لذا تنتظر بفارغ الصبر انفتاح السوق الصينية أمامها ، التي تمثل زبوناً ممتازاً لليابان ، إذ كانت الصين تبتلع ٢٠٪ من صادرات اليابان قبل الحرب . كما أن تطور الصين الحديثة يتطلب شراء أدوات وآلات ومصانع « مفتاح باليد » تستطيع اليابان أن تقدمها لها وقدمتها فعلاً مقابل البترول الخام .

والمزاحمة اليابانية التي شعر العالم بها قبل الحرب الثانية ، وخاصة في مضار صناعة بعض المصنوعات مثل الدراجات والساعات والأغراض الرخيصة ، عادت للظهور من جديد في الأسواق العالمية (على شكل سيارات ومراوح وترانزستور وتلفزيونات ، راحت تغزو أسواق الولايات المتحدة وأوروبا بشكل مذهل) . وتعتمد المؤسسات اليابانية لتوسيع شبكتها من الوكالات حتى في الولايات المتحدة ذاتها وفي أمريكا اللاتينية وفي كل جنوب شرق آسيا حتى أوروبا نفسها .

ملامح المستقبل :

إن الحماس في العمل ، والقناعة ، والعناد ، والواقعية ، والإبداع ، والشعور بالواجب والإحساس بوجوب الاستمرار بالحياة الوطنية والقومية ، تؤلف بالطبع كلها ضمانات بالنسبة للاقتصاد الياباني . وقد قال أحد مهندسي اليابان : « إن كل ياباني يعمل ضمن اختصاصه ولا ينفك عن تحسين اختصاصه » . ولعل هذا هو سر نجاح هذا الشعب المذهب الانضباطي .

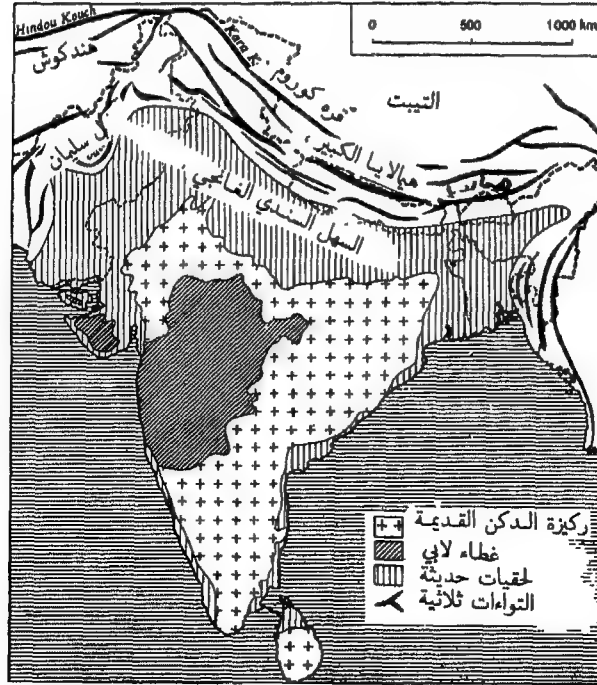
ولقد استفادت اليابان من الازدهار العابر الناتج عن كثرة طلبات الأميركيين خلال حربهم في كوريا في فترة ١٩٥٠ - ١٩٥٣ ، ولكنها الآن عادت لوضعها الطبيعي .

ولفطرط السكان في هذه البلاد نتائج خطيرة . لأن الجزر لا تستطيع أن تؤمن غذاء أكثر من ثمانين بالمئة من غذاء شعبها ، كما لا يبدو من المستطاع توسيع رقعة الأراضي الزراعية كثيراً . أضف إلى ذلك أن اليابانيين لا يهاجرون إلا مكرهين ، لأن كل الامبراطورية الواسعة التي استطاعت حكومة طوكيو أن تكونها على حساب جيرانها ، مثل فورموزا وكوريا ومنشوريا والصين ، لم تستقبل أكثر من ٣ ملايين ياباني بين موظف وتاجر ، عادوا جميعاً بعد هزيمة اليابان . كما أن معظم الأقطار الواقعة على الضفة الشرقية من المحيط الهادي ، حيث استقر بضع مئات الألوف من اليابانيين في مطلع هذا القرن ، مثل كندا والولايات المتحدة اتخذت تدابير قاسية ومنعت هذا النوع من الهجرة . وبعد أن فتحت البرازيل أبوابها أمامهم عادت فأغلقتها ، كما أن استراليا لا تزال مصرة على عدم استقبال أبناء العرق الأصفر ولكن اليابان أثبتت نجاحها في كبح جماح الاندفاع الديموغرافي كما سبق ورأينا .

ويبدو الاستمرار بالتصنيع من أجل تشغيل أكبر عدد ممكن من اليد

العاملة من جهة ، للتمكن من تصدير كميات متزايدة من السلع من أجل تحصيل القطع النادر (العملة الصعبة) اللازم لشراء المواد الغذائية الضرورية ، أقول : يبدو كل ذلك عبارة عن ضرورة حيوية لليابان ، لأن هذه الدولة ستصبح أول دولة في العالم ، إذا ما استمر نسق نموها الصناعي الحالي والبالغ ٧٪ بالعام ، من حيث دخل الفرد الذي سيصل إلى ٤٨٥٠ دولاراً في عام ١٩٨٥ . ولكن يظهر هنا أول تناقض ، وهو أن هذه السياسة تستدعي دائماً المزيد من المواد الخام مع أننا رأينا أن معظم هذه المواد يجب استيراده وأحياناً من مناطق بعيدة جداً ، مما يزيد كثيراً من سعر الكلفة . والتناقض الثاني هو من أجل صنع سلعة رخيصة السعر لا يمكن تخفيض أجور العمال ، المرتفعة بحذاتها ، دون التعرض لهبوط خطير في مستوى معيشة العمال ، إذن يجب تجديد المعامل للتوصل إلى إنتاجية أفضل ، ولكن ذلك سيؤدي إلى استخدام عدد أقل من العمال مما يؤدي لاستفحال البطالة الموجودة حالياً والتي تبلغ ٧٪ من القوة العاملة .

وعلى كل حال يظل التصدير قضية أساسية بالنسبة لليابان وهذا ما يقلق كل دول الغرب وعلى رأسها الولايات المتحدة . وتستطيع الأقطار المتخلفة ، في جنوب شرق آسيا ، أن تؤلف بالنسبة لليابان أسواقاً لتصريف منتجاتها بالرغم من أن بعض هذه الدول اتجهت نحو التصنيع . ولكن يجب على الدول العظمى أن تقبل بعودة اليابان كمنافسة ليس في الأسواق الآسيوية فحسب ، بل في أسواقها ذاتها ولذلك يجب عليها أن تقبل بتخفيض حواجزها الجمركية . وإذا لم تسلك هذه الدول الكبرى هذا السبيل ، فإن اليابان قد تضطر مكرهة إلى الدخول في أزمة قد تؤدي إلى اضطرابات اجتماعية وسياسية ، قد تدفع لمصاعب وحروب عالمية . لأن المثل يقول « الجوع يطرد الذئب من الغابة » . وقد قال نابليون : « الجيوش تزحف على بطونها » لا سيما إذا كان الجائع يجيد استعمال وصنع السلاح كالياباني والمهم أن اليابان فرضت احترامها على كل الدول العظمى وظل امبراطورها هيروهيتو موضع الاحترام سواء كان مغلوباً أو مسالماً.



الشكل ١

بنية العالم الهندي

الفصل الرابع

العالم الهندي

يعيش قرابة ٩٠٠ مليون نسمة فوق ٤,٧ ملايين كم^٢ مع كثافة تقارب ١٩٢ نسمة في الكيلومتر المربع .

وهكذا يضم العالم الهندي خمس سكان الأرض ، فوق رقعة تقل عن ٣٪ من مساحة كرتنا الأرضية .

وتبدو شبه القارة الهندية مرهقة بالبؤس ، كما يظهر الفكر الهندي مشبعاً بعاطفة لا تؤمن بمجدوى العمل .

تعايير

بلاد الهند : كل الأقطار التي كانت تؤلف امبراطورية الهند الإنكليزية حتى ١٩٤٧ .

الهندوسي : هو الذي يعتنق الديانة الغالبة أو الهندوسية .

دول العالم الهندي : الاتحاد الهندي . الباكستان . بنغلادش . سريلانكا . نيبال . كمبوديا .

إفراط الطبيعة وقسوتها

وهكذا يؤلف العالم الهندي شبه جزيرة فسيحة ، حيث تبدو الطبيعة وكأنها تسحق الإنسان . فالعالم الهندي يمتد من درجة العرض ٣٧ حتى درجة العرض ٨ شمالاً ، أي من درجة عرض الحدود السورية الشمالية ، أو الساحل الجنوبي لبحر الخزر ، ومدينة إشبيلية في الأندلس ، حتى عرض خليج غينيا في إفريقيا .

وهكذا تبدو الأقطار الهندية أكثر أشباه جزر آسيا الجنوبية اتساعاً ، فتبلغ مساحتها ٤,٦٩ ملايين كيلومتر مربع ، أي تزيد مساحتها عن ثلثي مساحة أوروبا . ويمتد العالم الهندي من الغرب إلى الشرق ، أي من دلتا نهر الهندوس إلى دلتا نهر براهما بوترا شرقاً ، على مسافة ٣٠٠٠ كم ، مثلما يمتد على ٣٠٠٠ كم من الشمال للجنوب ، أي من قم هيمالايا إلى رأس كاموران . وبلاد الهند هي أكثر من شبه جزيرة ، فهي تكاد تؤلف قارة وتسمى بالإنكليزية شبه قارة subcontinent ، تنعزل عن سائر آسيا بحاجز مؤلف من أضخم وأعلى سلسلة جبلية في العالم ، وتلامس من الغرب بحر عمان ومن الشرق خليج البنغال .

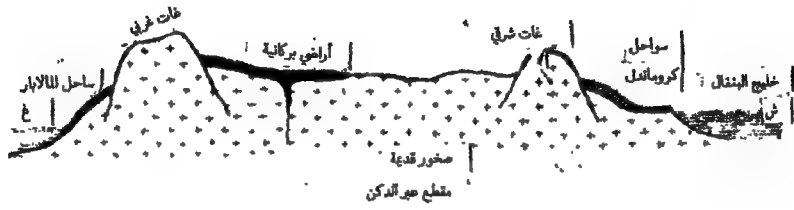
وليست بلاد الهند عالماً مغلقاً ، فقد استقبلت المدينة الهندية روافد غريبة قدمت من ممرات الشمال الغربي ، أو من المرافئ البحرية . وفي خلال الألف الثاني قبل الميلاد ، ظهر الآريون في الهند ، وهم أعضاء العائلة اللغوية الهندية الأوروبية الكبرى ، وكانت الفيدا هي كتبهم المقدسة ، وأصبحت اللغة السنسكريتية لغة ثقافتهم . ووفدت بعد الآريين عناصر فارسية وإغريقية وعربية وتركية ومغولية ، وساد الإسلام على شطر كبير من العالم الهندي . ولكن بلاد الهند نشرت اثنتين من أكبر الديانات العالمية ، وهما البوذية والبراهمية . وبعد أن تأثرت الحكمة الهندية بالفكر الإغريقي ، وصلت إلى عالم البحر الأبيض المتوسط ، مثلما شملت قسماً من الهند الصينية وأندونيسيا . وهكذا هيمنت بلاد الهند على العاطفة الدينية والجمالية لدى حوالي نصف البشر .

ولكن الطبيعة تبدو معادية للإنسان ، ذلك أن فترات الجفاف الطويلة ، تتناوب مع الأمطار الطوفانية التي تجلبها الرياح الموسمية . وهكذا تتجاوز السهول القاسية باتساعها ، والتوجات العارية في هضابها اللاتيريتية مع العالم النباتي والحيواني البهيح في أدغالها الشمالية ، ومع جسامة التضاريس الهيمالاية .

الهند وشبه القارة الهندية

نشكل شبه القارة الهندية ، الملتصقة بجسم آسيا على مساحة ٤,٥ ملايين كيلومتر مربع ، تشكل مجموعة جغرافية ثلاثية العناصر هي : حفرة الهندوس والغانج اللحقية ، وحافة السلاسل الالتوائية ، وشبه جزيرة الدكن المثلثة الشكل . ولكن الاتحاد الهندي يترك للباكستان أكبر قسم من حوض الهندوس ، مثلما تحتفظ بنغلادش بأفضل جزء من دلتا الغانج وبراها بوترا . ولكن شبه جزيرة الدكن تختص بها الهند لوحدها (شكل ١) .

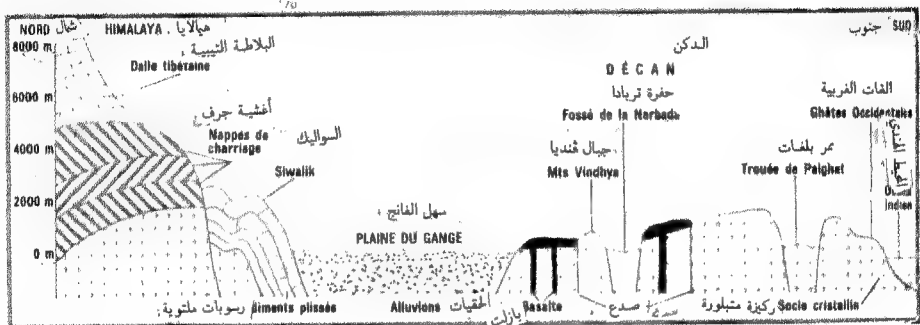
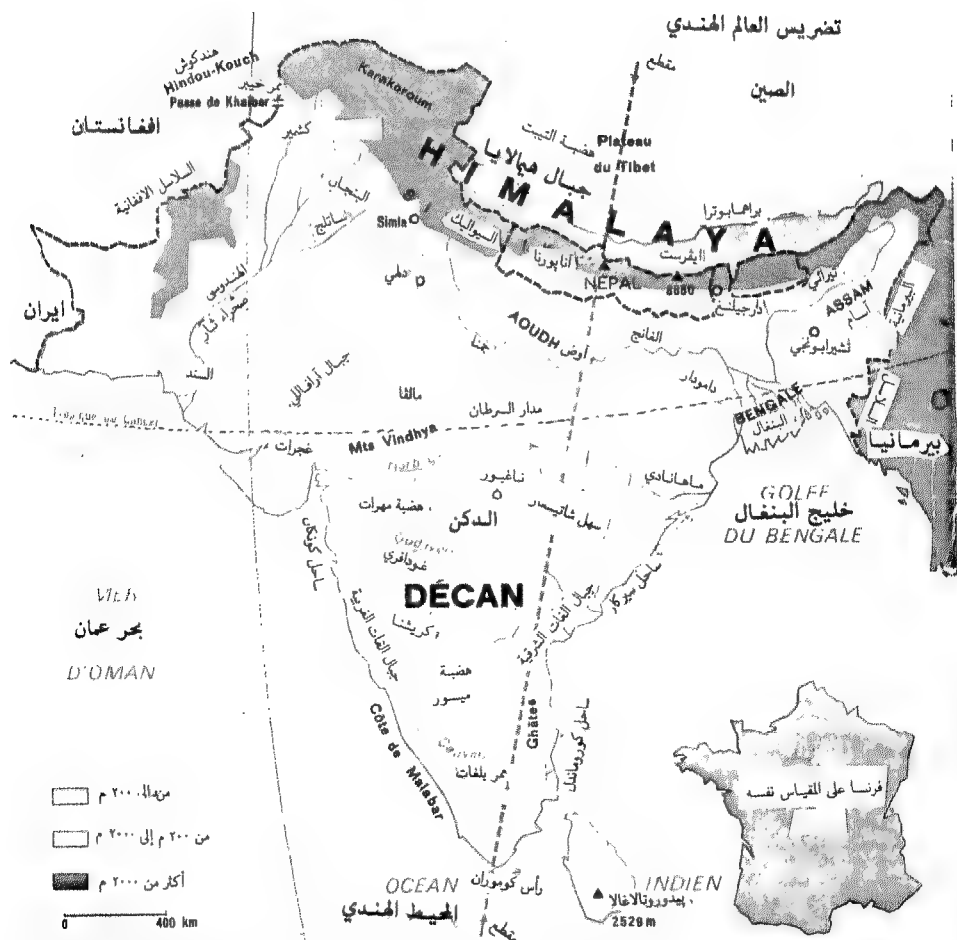
وتتألف الدكن من هضبة غير متناظرة . ففي الغرب أي من جهة بحر عمان ، تشطر عقبة جبال الغات الركيزة القديمة وغطاءها البازلتي . (شكل ٢) وهكذا تجري الأنهار نحو الشرق ، كي تصب على شكل دلتات في خليج البنغال . وقد استطاعت توضعات سميكة حطامية ولحقية أن تردم الحفرة الهندوسية الغانجية ، الواقعة بين شبه جزيرة الدكن وسلسلة هيمالايا . وإلى الغرب من عتبة دلهي ، يقع البنجاب ، الذي تمتد أراضي الاتحاد الهندي على جزء منه ، وهو « بلاد الأنهار الخمسة » التي ترفد نهر الهندوس من اليسار . وفي الشرق تقوم السيول الهيمالاية بدفع نهر الغانج نحو الجنوب ، ويعمل الإطماء على عرقلة عملية الترافد ، ولهذا يكون السهل مقسوماً إلى فواصل نهريّة طويلة ، يدعى الواحد منها دوآب ، كما هو الحال بين نهر الغانج ونهر جنا . ويعتبر دلتا البنغال الناجم عن العمل المشترك لنهري الغانج وبراها بوترا أوسع دلتا في العالم . ومنذ القرن السابع عشر أصبحت مياه النهرين تنحرف نحو الشرق ، ولهذا أصبح البنغال الهندي « دلتاميتاً » رديء الصرف .



الشكل ٢

ولا يملك الاتحاد الهندي سوى قطاع من قوس هيمالايا ، والذي تختص مملكته نيبال ، وهي دولة مستقلة ، بقسمه الأوسط . ولكن هيمالايا ومعناه « مسكن الثلوج » ، وهو عبارة عن سور يعزل شبه الجزيرة عن الرياح الزمهريرية الشمالية ، ويجرف الموسميات الصيفية نحو الغرب . وبين خوانق نهر الهندوس وبين عكس نهر براهما بوترا ، أي على مسافة ٢٤٠٠ كم لا تقل الارتفاعات مطلقاً عن ٤٥٠٠ م ، وهي كتلة جبلية لا تدين بوجودها لقوة الالتواءات بقدر ما تدين لحركة نهوض إجمالية حديثة . وهذه السلسلة الضيقة التي لا يزيد عرضها عن ٣٠٠ كم ، تكون مسبقة جنوباً بسلاسل السواليايك ، وهي جبال من صخور رملية ، أو ببيوننت حطامي ، حيث تتسرب فيه المياه لتؤلف في حضيضه مستنقعات تدعى « تيرائي » . ويضم هيمالايا بعض الأحواض (سرينغار) غير أن الأودية العرضانية هي عبارة عن طرق مسدودة تطل عليها ممرات شديدة الارتفاع . أما في أسام تطيف طيات من نمط جوراسي بترس قديم (شكل ٣) .

وتتفاوت الترب بدرجة خصوبتها ، فأحياناً تكون مفتقرة أو نالتها عوامل الانجراف والحت ، لأن النبات الطبيعي تعرض لانحطاط شديد . أما في شبه الجزيرة ، فإن الأرض السوداء « ريفار » ولا سيما فوق صخور البازلت في الشمال الغربي ، تكون هشة ، تحتفظ بالماء بصورة جيدة ، في حين تسيطر الترب الحمراء



الشكل ٣

الرملية في المناطق الأخرى ، أو تكون غضارية ، وأحياناً لاثيريتية . أما اللحيقيات فهي عبارة عن غضاريات ناعمة (غرين) ، كما في السهول الفيضية ، أو تكون عبارة عن رمال غرينية ، كما في الفواصل النهرية . وقد تحولت الغابة الأصلية إلى بقايا شاهدة ، فنجد الغابة الدائمة الخضرة فوق جبال الغات ، أما غابة الموسميات وأهم أشجارها ، التلك ، فتسقط أوراقها خلال الفصل الجاف . وتسيطر غابة Jungle جونكل في سفوح السواليك : فتكون تارة عبارة عن نجليات عالية أو من أدغال البامبو ، وتارة أخرى عبارة عن أحراش السنط الشوكية ، التي تكون هزيلة جداً في صحراء ثار .



يتألف القسم الأعظم من مساحة الاتحاد الهندي البالغة ٣,٢ مليون كم^٢ ، من هضبة شبه جزيرة الدكن « الجنوب » ، المؤلفة من رسوبات قديمة ، التوت عدة مرات وتحولت إلى شبه سهل ، ومن صخور متبلورة ، ولكن تظهر في الشمال الغربي أغشية من لابات بازلتية انساحت في مطلع الحقب الثالث . وتسيطر هنا المساحات المنبسطة ، مؤلفة من أشباه وسهول متبلورة ، ومن موائد بازلتية « ميزا » ، أو من صخور رملية « خرسان » . ولكن حدثت انكسارات كبيرة تمخضت عن عقبة جرف جبال الغات « السلام » ، التي تظهر فيها حفرة ناربادا في الشمال الغربي والمحروفة نحو بحر عمان ، وحدود آرافالليس المطل على صحراء ثار . وفي أقصى الجنوب تظهر كتلة جبال نيلجيري التي تسمو لارتفاع ٢٧٠٠ م بين كيرالا وبين تاميل نادو (مدراس) .

وفضلاً عن ذلك تملك جمهورية الاتحاد الهندي سهولاً لحقية فسيحة كالسهول الساحلية ، وهي سهول ضيقة ومتباعدة تطل على بحر عمان ، أو تكون أكثر عرضاً وذات دلتات على خليج البنغال ، وممر براهما بوترا ، وعلى الخصوص سهول الفانج والبنجاب وذلك فيما وراء عتبة دلهي باتجاه الشرق ، حيث تكون الركيزة غير عيقة تحت العتبة المذكورة .



الموسميات الهندية

يدين المجال الهندي في شخصيته وأصالته المناخية إلى موقعه في القسم المداري من آسيا الموسمية وإلى غلافه الجلي . فبين كانون الأول وشباط تسود الضغوط العليا على شبه الجزيرة . ذاك هو الفصل الجاف ، باستثناء شمال غرب البنجاب ، الذي يتلقى بعض الأمطار النادرة ذات الطابع الرومي (المتوسطي) مع قليل من أيام الانجاء . وبين آذار وأيار يأخذ الآتيسيكلون ، أي الضغط العالي ، بالتقهقر نحو نهر الهندوس . ويصبح فصل القيظ خانقاً ، فيبلغ متوسط الحرارة في شهر أيار ٣٦ درجة في صحراء ثار . ويمكث الفلاح بجوار حقوله ينتظر قدوم الرياح الموسمية .

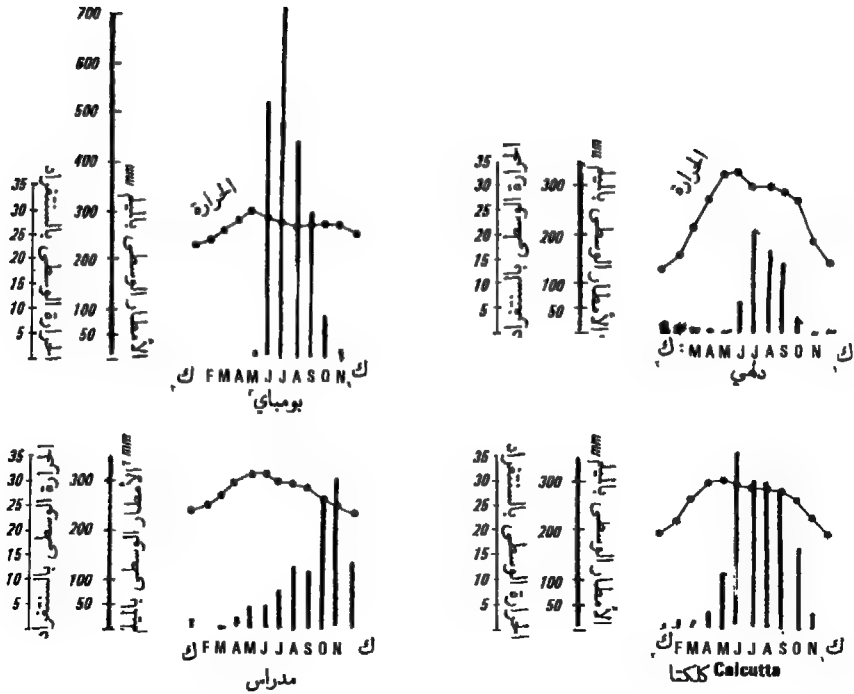
وفي أواخر شهر أيار ، يجتاز تيار الهواء الحار والرطب ، القادم من المحيط الهندي ، جبال الغات ، كي يقتحم بعدئذ خليج البنغال . ذاك هو « انفجار الموسميات » ، وهي أمطار طوفانية تهطل على الجبال المواجهة لهذه الرياح ، في حين تكون السفوح الواقعة في ظل المطر عرضة لفترات صحو متطاولة . وبعد أن تحاذي الرياح الموسمية سلسلة هيمالايا لا تصل لمنطقة البنجاب إلا في تموز ، بعد أن خسرت معظم رطوبتها .

وابتداءً من أيلول يبدأ تقهقر الموسميات الصيفية . وتنحبس الأمطار إلا باتجاه خليج البنغال ، الذي لا يزال شديد التسخن ، وحيث تتشكل سيكلونات هدامة تؤدي لفيضانات ولكوارث . وهكذا يكون شهرا تشرين الأول وتشرين الثاني أكثر الشهور أمطاراً ، على ساحل كورومانديل كما في مدراس .

وتكون السعة الحرارية ضئيلة . ففي جنوب خط يمتد من بومباي إلى كلكتا ، لا نجد شهراً واحداً تكون حرارته الوسطى دون ٢٠ درجة .

وتكون النطاقات المناخية متميزة هنا بغزارة الأمطار ، وبنظامها ، أي بتوقيتها ، وبانتظامها من حيث التفاوت السنوي . وهكذا نجد ، رغم الفارق في درجات العرض بين البنغال وكيرالا الواقعة في أقصى الجنوب الغربي ، أنها متشابهان لأنها ينتسبان إلى « هند النخيل » ، مثلما نجد أن أسام وصحراء ثار عالمان مختلفان ، رغم وقوعهما على درجات العرض ذاتها .

ويقطع « وقر الجفاف » شبه الجزيرة الهندية ابتداءً من رأس كاموران إلى البنجاب . فإلى الغرب نجد الشريط الرطب الضيق ، الذي ينال أكثر من متر من المطر ، أي بين بحر عمان وقفا جبال الغات . أما في الشرق فينتشر الشريط المطري خلف خليج البنغال ، باستثناء غرب مدراس ، كي يضيق عند الاقتراب من هيا لايا باتجاه البنجاب ، ويتخذ شكل قمع . وينال مركز تشيرابونجي ، الواقع عند أوائل سفوح جبال أسام ، ١١,٩ متراً من المطر ، وتشتهر هذه البلدة في أنها أكثر نقاط الأرض أمطاراً . وهكذا تكون الموسميات الصيفية بالنسبة للمجال الهندي طاعية ومنعشة ، ذلك أن المعدلات المطرية تحجب اختلافات كبرى . فقد يتعرض كل من إقليم البنغال أو كيرالا إلى سنوات جفاف . وفي أي مكان آخر ، ابتداءً من مدراس حتى البنجاب ، قد يحدث أن تنحبس الأمطار أو تتأخر كثيراً مما يؤدي لاضطراب مواعيد زراعة المحاصيل ، مما يؤدي إلى تقلب مردودها دون ري . ولكن قد تؤدي الفيضانات إلى إغراق ١٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع من السهول اللحية في البنغال وتلف المحاصيل . ويعتبر استئصال الغابة في سائر أنحاء شبه الجزيرة وإطباء السرر النهرية ، وعنف فيضانات نهر الغانج وروافده الهائلة بسبب ذوبان الثلوج والأمطار الموسمية ، والسيكلونات المدارية ، هي المسؤولة جميعاً عن الكوارث التي تكون متعددة وقاتلة في دلتا خليج البنغال ، كما حدث في صيف ١٩٧٨ .



الشكل ٤

الأنظمة المطرية في الاتحاد الهندي

شرح المخططات المطرية الحرارية في العالم الهندي

لا تدل الخطوط الحرارية المطرية في المراكز المناخية الهندية على اختلافات كبيرة في الحرارة ، بقدر ما تدل على مفارقات في حجم الأمطار وتوزعها . فتكون الأمطار هزيلة في دلهي حيث تبلغ ٧١٢ مم ، وقليلة نوعاً ما في مدراس ١٢١١ مم ، وتصل أوجها في نهاية فصل الأمطار ، ولكنها تكون أكثر غزارة في كلكتا ، حيث تبلغ ١٦٧٧ مم ولا سيما في بومبي حيث تصل إلى ٢٠٩٨ مم ، حيث تمتد الأمطار على أكثر من أربعة أشهر تتلقى لوحدها ٩٤٪ من الأمطار السنوية .

☆ ☆ ☆

مناطق الجفاف في الهند

تتباين شطيرة الأمطار الوسطى السنوية من ١ إلى ١٠٠ . ويكون القسم التبيقي من كشمير ، أو لاداخ ، هو الأكثر قحولة ، إذ يتلقى دون ١٠٠ مم . غير أن صحراء ثار لا تنال أكثر من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ مم . كما أن هناك نطاقاً واسعاً في داخل شبه الجزيرة ، يقع في ظل جبال الغات لا يتلقى أكثر من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ مم . غير أن التبخر يكون مستفحلاً في هذه المناطق . وبين خط المطر ٥٠٠ و ١٥٠٠ مم من الأمطار السنوية ، تكون الرطوبة عادة كافية لقيام زراعة صيفية غير مروية . ولكن نزوات الرياح الموسمية تستطيع أن تجعل المحصول تافهاً ، مما يؤدي إلى المجاعة ، كما نرى من النص التالي :

« في هذا العام لم تصل الموسميات ، فقد مر أسبوع ، ثم اثنان . وكانت أبصارنا متعلقة بسماء شرسة ، هادئة زرقاء غير حساسة بمجائتنا . وخرجنا لنتفحص السماء الصاحية والمتصفة بجبال قاتل ، دون أن تكون فيها سحابة واحدة تعكر صفوها . وخرج آخرون ليتأملوا السماء وتمتوا : ربما غداً . وجاء الغد ، والكثير بعد الغد ، ولكن دوماً لا مطر . وكان مستوى الماء ينخفض يوماً بعد يوم ، كما كانت رؤوس السنابل تنخفض باستمرار . وانكشف النهر ، حتى أنه لم يعد أكثر من خيط من الماء . أما الآبار فكانت جافة تماماً . وبعد قليل تحول لون سيقان النباتات إلى اللون الأسمر ، وكانت الاستحالة تجري تحت أبصارنا كأنها المرض الساري ، ماسحة تلك الخضرة التي كانت بالنسبة لنا هي الحياة » .

عن كامالا مارخنديا

« الرز والموسميات . دار نشر لافون »



أولاً - تضاريس الهند

تقسم التضاريس والبنية الرقعة الهندية إلى أربع مناطق طبيعية هي : هيمالايا ، والسهل السندي الغانجي ، هضبة الدكن ، وجزيرة سيلان . وللعالم الهندي بنية بسيطة ، فهي تضم سلاسل ملتوية في الشمال ، وسهلاً لحقياً في الوسط ، وأشباه سهول ناهضة وجانحة في الجنوب ، أي تماثل وضع جبال الألب إلى جانب الأخدود الروداني ، والكتلة المركزية في فرنسا الجنوبية الشرقية .

أما جبال هيمالايا أو « مقر الثلوج » في اللغة السنسكريتية ، فهي عبارة عن مجموعة سلاسل متقوّسة ، ملتحمة بسلسلة قره كوروم في الشمال الغربي ، مثلما تلتصق بها من الشرق السلاسل البرمانية في الجنوب الشرقي ، والسلاسل الأفغانية في الجنوب الغربي ، والتي تقوم جميعاً بالإحاطة بشبه القارة الهندية . وتملك هيمالايا تضاريس أكثر مثيلاتها ارتفاعاً على وجه الأرض ، فهي تحوي أربعين قمة تتجاوز كل منها ٧٥٠٠ متراً ، وأكثرها ارتفاعاً هي قمة ايفرست التي تسمو إلى ٨٨٥٠ متراً ، والتي لم يكن الارتقاء إليها لأول مرة إلا بمجهود الكولونيل البريطاني هنت بتاريخ ٢٦ أيار ١٩٥٣ .

وقد نتجت شدة الارتفاع عن شباب الالتواءات التي يشهد عليها تكرار الزلازل ، كذلك التي حدثت في ١٨٩٧ و ١٩٥٠ . وقد تعرضت للحقيقت ذاتها عند حضيض هيمالايا إلى الالتواء في نهاية الحقب الثالث ، كي تشكل جبلاً منخفضة هي جبال السيواليك . ويكون مجموع السلاسل الهيمالاية من ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ متراً مؤلفاً من رسوبات ترتبط بعملية انكباس subsidence محلية ، هذا فضلاً عن أغشية جرف معقدة ، مسكوبة نحو الجنوب ، أقول يكون مدفوناً تحت طبقات صخور هضبة التبيت الرسوبية . وتكون التضاريس غير متناظرة ، إذ تنتصب بعنف من الجنوب في حين يكون الانحدار أقل حدة باتجاه هضبة التبيت شمالاً . وفي هذه السلسلة جموديات تمتد أحياناً لأكثر من مئة كيلومتر ، تصل عُنانة الجليد فيها إلى ٧٠٠ م ، وترفدها عشرات الجموديات الثانوية ، مثلما تحوي خوافق سحيقة ، كخانق نهر المهندوس أو براهما بوترا ، اللذين يخترقان هذه السلسلة من طرف لآخر ، واللذين تطل عليها قم ذات أشكال ثقيلة ، لأن الحتّ الحالي لا يزال غير متكامل بعد . ويكون النبات متعلبّقاً . فعلى سفوح هيمالايا تتعاقب الغابة الكثيفة حتى ١٥٠٠ متراً ، وغابة الزان والكستناء والسندر والراتنجيات بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ متراً ، والمروج الألبية فوق ذلك ، وأخيراً تظهر الثلوج الخالدة حوالي ٤٣٠٠ متراً على السفح الجنوبي . أما عند أقدام السلسلة ، فتقع غابة التيرائي الكثيفة المستنقعية ، حيث تظهر للعيان المياه المتسربة من خلال الحصويات التي تطيف بالجبل من الجنوب .

وهكذا تحمي جبال هيمالايا ، باعتبارها حاجزاً مناخياً بلاد الهند من الرياح القارية ، مثلما تعمل على استفحال أمطار الموسميات الصيفية .

أما دور جبال هيمالايا كحاجز بشري فقد تجلّى في انكماش العلاقات بين العالم الصيني والعالم الهندي ، حتى أن الطائرات ذاتها تلاقي صعوبة في الطيران فوق هذه السلسلة الجسية .

أما المنخفضات الطولانية فقد ناسبت قيام دول جبليّة مثل : بهوتان ، ونيپال ، ولا سيما كشمير التي تبدو في عيني السائح كجنة أرضية تضم حقول الرز ومزارع الأشجار المثمرة والمزروعات المتدرجة ، فوق أرض خصيبة في أحضان القمم المعمة بالثلوج .

أما السهل السندي الغانجي ، فهو عبارة عن شذخ كبير في القشرة الأرضية ، يصل عمقه إلى بضعة آلاف من الأمتار ، ومردوم بالرسوبات وبالأنقاض الجسية التي تأتي بها الأنهار الهابطة من جبال هيمالايا ، وهو يماثل إلى حدّ ما سهل ما بين النهرين بين بغداد والبصرة . ويؤلف هذا السهل الذي يصلح كله للزراعة قلب العالم الهندي ، وهو أكثر السهول اللحية في العالم المداري اتساعاً ، وهو عقدة الطرق التي نشأت فيها المدنية الهندية . وهناك عتبة لا يزيد ارتفاعها عن ٢٠٠ م تشرف عليها العاصمة دلهي ، تفصل سهل الهندوس في الغرب عن سهل الغانج في الشرق .

ويبتعد نهر الهندوس ، في الغرب ، الذي يبلغ طوله ٣٢٠٠ كم ، والذي ترفده أنهار البنجاب الخمسة ، لأن كلمة بنجاب تعني « الأنهار الخمسة » ، يبتعد عن الجبل ، ويحفر سريره في حادور Glacis من اللحيات التي وضّعها ، ويصيبه الهزال في منطقة السند شبه الصحراوية ، وذلك قبل أن ينتهي عند دلتا فسيحة ، تتمدد في البحر بواسطة حفرة تحتائية سحيقة .

أما في الشرق فإن نهر الغانج الذي يصل طوله إلى ٣٠٠٠ كيلومتر ، فهو على العكس ، يحاذي سلسلة هيمالايا ، ويدعمه العديد من الروافد التي تجعل

صبيبه قوياً ، فيصل إلى ١٥٠٠٠ متر مكعب ثانية ، أو أكثر من مياه الفرات بعشرين مرة مثلما تدفع بجراه باتجاه الجنوب . ويغوص هذا النهر في اللحيقات القديمة التي تؤلف مصاطب فوق سريره . ويقوم أخيراً بردم منخفض تختلط فيه مياهه مع مياه نهر براهما بوترا ، فيشكلان مستنقعا شاسعا خصيباً ، هو بلاد البنغال التي تغطي مساحة تبلغ ١٤٠٠٠ كيلومتر مربع . ويؤدي ذوبان ثلوج هيمالايا ، مثلما تعمل الأمطار الصيفية ، على التسبب بفيضانات هدامة يقوم بها كل من نهر الهندوس والغانج .

وقد كتب جواهرلال نهرو في وصيته عام ١٩٦٤ يقول : إن نهر الغانج ، على التحديد ، هو نهر الهند ، الذي يحبه شعبها ، والذي تندمج حوله ذكرياته المشتركة ، وآماله وخاوفه ، وأناشيد انتصاراته ، وهزائمه . ولقد كان الغانج رمز الزراعة والمدنية الهنديتين عبر القرون ، في تغير دائم ، وفي جريان دائم ، بيد أنه يظل هو ذاته . ويذكرني الغانج بالقمم المغطاة بالثلج ، وبأودية هيمالايا السحيقة التي أحبها كثيراً ، وكذلك بسهولة الغنية الفسيحة التي كانت مسرح حياتي وعملي . ويكون باسمًا ومتراقصاً تحت شمس الصباح ، وقائماً ، حزيناً وملئاً بالأسرار عندما يهبط الليل . ويظهر في الشتاء على شكل شريط ضيق متباطئ وملئ بالجمال في الشتاء ، وعلى شكل كتلة مزججة خلال الموسميات . ويكاد يكون في مثل عرض البحر وفي مثل قدرته الهدامة ، ولقد كان الغانج بالنسبة لي رمزاً وذكراً عن ماضي الهند ، يتدفق في الحاضر ويجري في محيط المستقبل اللاحق .

أما شبه جزيرة الدكن أو « بلاد الجنوب » ، فهي عبارة عن هضبة منهضة ومتخلعة بالكسور ، محفوفة بسهول ساحلية .

ويتألف من ترس قديم متبلور ، تعرض منذ أقدم الدهور الجيولوجية للحت ، ومغطى بصخور رملية وشيستي وكسبية أفقية تعود للحقب الأول ، ومن مسكوبات بازلتية تعود للدور الثالث ، واتخذت شكل طبقات تدعى طراب trapps ، انساحت على رقعة كبيرة تزيد عن مساحة العراق والكويت معاً . وقد قامت حركات شاقولية بإنهاض هذه الركيزة القديمة . وتؤلف حوافها عقبات شديدة تدعى « جبال الغات » أي « السلام » أو « الدرجات » . وترتفع جبال الغات الغربية إلى ٢٦٣٠ م في الجنوب ، في حين تكون جبال الغات الشرقية أقل ارتفاعاً واستقراراً . وتتجاوز الارتفاعات في الهضبة ٥٠٠ متراً وسطياً . وقد تزيد أحياناً عن ١٠٠٠ متراً . وتبدو جانحة باتجاه الشرق ، أي تميل

في اتجاه خليج البنغال . وتتألف أنهارها الرئيسية من نهر ماهانادي ، وغودافري ، وكريشنا ، وكوفيري ، مثلما تكون هذه الهضبة مهتمة بصدوع ضخمة تتجه نحو الشرق ، تمخضت عن نشوء أغوار وأنجاد (هورسات) كجبال فيندهيا . ويقوم بحر بلغات في الجنوب بعزل بقية البلاد عن مثلث الهند الجنوبي .

ولقد كشف الحت عن أضلاع من الصخور الرملية وعن منخفضات شيستية وعن أعراف كوارتزيتية تؤلف تضاريس أبالاشية ، مثلما أوجد سهولاً لحقية صغيرة قرب ساحل مالابار على بحر عمان في الغرب ، ودلتات واسعة قرب ساحل كورومانل ، وعلى ساحل سيركار ، على خليج البنغال .

وهناك نوعان من الترب يقتسمان أراضي الهضبة . فهناك اللاثيريت ، وهو نوع من تربة أكثر انتشاراً ، وقليل الخصوبة لأنها تربة مغسولة بفعل الأمطار المدارية ، وتربة الريفور Rigur المتشكلة ، على العكس ، تحت مناخ قاحل ، وتكون بالتالي غنية بالكلسيوم وبالفوسفات . وتشبه تربة الريفور في خصوبتها تربة التشرنوزيوم .

وإلى الجنوب من مضيق پالك ، تؤلف الركيزة المتبلورة ذاتها جزيرة سيلان . وتنهض هنا هضبة الغرانيت والغنايس في جنوب البلاد إلى أكثر من ٢٥٠٠ متراً في جبل آدم . وتكون الجزيرة محفوفة أيضاً بسهول ساحلية .

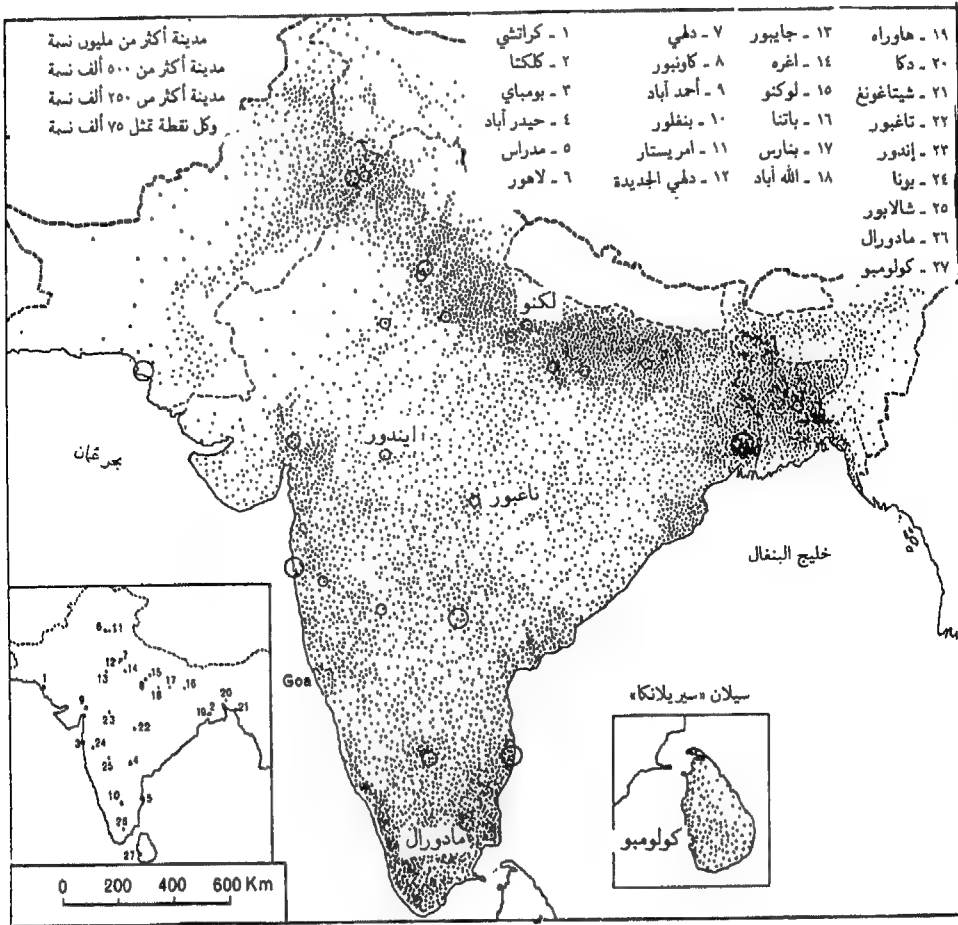
وتحوي عتبة الدكن القديمة ثروات الهند المعدنية ، كالصمغ والحديد والمعادن غير الحديدية والثوريوم والأحجار الثينة .

ثانياً - كثرة الناس وتنوعهم

تظهر شبه القارة الهندية ، التي تؤلف خلية بشرية هائلة ، وكأنها تضم حوالي خمس البشر أو ٩٠٠ مليون نسمة ، مؤلفين من سيفساء من عروق ولغات وأديان وطبقات .

وهكذا نجد أن أكثر من سدس سكان الكرة الأرضية قد تجمهروا في

العالم الهندي ، وكان عددهم ٨٨٧ مليوناً في ١٩٨١ . وتبلغ الكثافة الوسطى أكثر من ١٩٠ نسمة في الكيلومتر المربع ، ولكنها تتجاوز ١٠٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع في البنغال وفي جنوب شرق الدكن وفي ولاية كوشان وتراڤنكور ، حيث تصل الكثافات إلى درجة تعادل الكثافة السكانية في مصر المأهولة (شكل ٥) .



كثافة السكان والمدن الرئيسية في العالم الهندي

الشكل ٥

وتقوم المدنية هنا بفرض الانسجام على مجموعات عرقية شديدة الاختلاف : مثل أشباه المنغوليين في همالايا ، والزنوج الدرافيديين ذوي القامة المتوسطة ، والقوام الرشيق ، والتقاطيع الدقيقة ، والذين يربو عددهم على ١٠٠ مليون نسمة في جنوبي شبه الجزيرة ، والبيض الآريين الذين تربطهم صلات القرى بالفرس من سكان بلاد فارس ، أو إيران الحالية . وقد قدم الآريون عبر ممرات الشمال الغربي واحتلوا واستوطنوا السهل السندي الفانجي بين عام ١٧٠٠ والعام ١٠٠٠ قبل الميلاد ، وقد امتزجوا في الجنوب مع الدرافيديين ، بحيث يؤلفون أكثر المجموعات الهندية عدداً .

ويقدر عدد اللغات أو اللهجات في الهند بحوالي ٨٥٥ ، منها ١٨ لغة رئيسية ، بالإضافة إلى العديد من الأبجديات ، و ١١ نوعاً من الكتابة في اللغات الثقافية كالسنسكريتية أو اللغات العامية . وتسود في الجنوب اللغات الدرافيديية مثل لغة تاميل ، أو تامول ، وتتكلم غالبية الهنود العظمى لغات هندية أوروبية كالهندي ، التي يتكلمها حوالي ٢٧٥ مليون نسمة ، والأوردية التي تكتب بحروف عربية ، والبنغالي .

أما تنوع الأديان فليس بأقل من ذلك أي من تنوع العروق واللغات . وتاريخ العالم الهندي هو تاريخ تفكيره الديني ، شأن الفرنسية في أقطار إفريقية الغربية بسبب تعدد اللغات المحلية .

فالبراهمية ، التي انبثقت منها الهندوسية ، ليست عبارة عن مجموعة عقائد ، بل هي حكمة انتشرت على الهند انطلاقاً من همالايا حتى سيلان ، وترى أن النفوس المهذبة هي كالأرواح البسيطة . وتضم فكرتين جوهريتين : فكرة هجرة الأرواح ، أي التناسخ ، أو التقمص ، أي أن الإنسان يمر من وضع لآخر حسب العدالة الثابتة المطابقة لثواب أعماله ، وفكرة الخلاص : وهي أن روح كل إنسان يمكنها أن تشارك في الألوهية ، وفي المطلق وذلك عن طريق الزهد والتضحية

بالذات . هذا ويعتمد الهندوس في مياه نهر الغانج إلى ممارسة الاغتسال المطهر . وتعد الهندوسية الخلود لبعض الناس ، أي الزهاد ، ولكنها تحقر العمل وشخصية الآخرين . وهي تدعو بل تحث على وجود تسلسلات اجتماعية ، هي الطبقات ، كما تحذف المعنى الاجتماعي ذاته ، باعتبار البؤس نتيجة لذنوب سابقة . أما الفرد الذي لا بداية له ولا نهاية فهو نقطة ضئيلة تمتصها الروح الشمولية .

أما ديانات الخلاص ، وهما البوذية والجينية ، فقد ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد . ويريد البوذيون تحقيق النصر على الذات ، والنجاة من دورة الهجرات والعودة ، وتحقيق خلود الأنا ، أي النيرفانا . ولم تحتفظ البوذية في العالم الهندي بأكثر من بضعة ملايين من الأتباع ، وعلى الخصوص في سيلان ، ولكنها انتشرت في آسيا الشرقية ابتداءً من يبرمانيا حتى اليابان .

أما الجاثيون وعدمهم يربو على المليونين فيعيشون في منطقة بومباي ويندفعون في احترامهم للحياة الحيوانية حتى التطرف ، ويعيشون عراة دون أن يملأوا مع ذلك تعاظم التجارة وممارسة الربا .

والديانة التوحيدية التي استطاعت أن تنجح في الهند ، هي الإسلام الذي دخل العالم الهندي مع الفاتحين العرب منذ أيام محمد بن القاسم في القرن الثامن الهجري ، ثم على أيدي الفاتحين المنغول ، ويبلغ عدد معتنقيه اليوم أكثر من ٢٠٠ مليون نسمة ، وهنا نجد أكبر تكتل إسلامي في العالم ، أو مركز ثقل العالم الإسلامي .

غير أن الشيخ وعدمهم قرابة ٩ ملايين قد حاولوا تحقيق تركيب بين الإسلام التوحيدي وبين الهندوسية التي تقبل بهجرة الأرواح ، ويؤلفون شعباً محارباً استطاع أن يؤلف قوة عسكرية مرهوبة في مطلع القرن العشرين .

ويعيش الجوس في منطقة بومباي ، وهم من عبدة النار كقدامى الفرس ، ويطرحون موتاهم في أبراج الصمت كي تفترسهم النور . والجوس قبل كل شيء هم أهل تجارة ورجال صناعة ، بحيث لا يتناسب عدمهم الضئيل مطلقاً مع دورهم الاقتصادي ويزيد عدمهم عن ١٤٠٠٠٠ نسمة .

وتتقدم النصرانية ببطء ولا سيما بين أكثر الناس فقراً عن طريق نشر التعليم التبشيري . وتنتشر هذه الديانة بين ٦ ملايين كاثوليكي يعيشون في الجنوب الغربي حول غوا ، المستعمرة البرتغالية

السابقة ، وقرب ماهيه المستعمرة الفرنسية السابقة ، بالإضافة إلى ٦ ملايين آخرين من البروتستان .
ولا تزال عبادة الأرواح قائمة في أقل المناطق تطوراً ، وهكذا تظل الأقليات من عبدة
الأرواح ، التي يقارب تعدادها ٢٥ مليوناً ، مثل جماعات الناجا في أسام ، رديئة الاندماج في العالم
الهندي .

هذا ويكون الانقسام إلى طبقات من صنع البراهمة ، ولكنه تسلك حتى
بين صفوف المسلمين أنفسهم . ولا يكون أصل الطبقات دينياً فحسب ، بل هو
عنصري أيضاً . وهكذا ظهرت الطبقات وكأنها كبح أمام تهجين الآريين
بالدرايديين ، مثلما يكون لها أيضاً مدلول اقتصادي ، فالطبقة Caste هي
زمرة اجتماعية مغلقة ، وراثية ، ترتبط بدرجة محددة من النقاوة بحيث تقيم
تضامناً وثيقاً بين أعضائها .

وتؤلف الطبقات أربع مجموعات رئيسة :

البراهمان : وهم طبقة كهنوتية محترمة جداً ، تعرف بلون بشرتها الفاتح ، وتتألف من
المزارعين ، والتجار وأخيراً من الشغيلة (سودرا) . أما الهنود المطرودون من طبقتهم
أو الذين يتعاطون بعض المهن التي ينظر إليها على أنها مهن نجسة ، كالخلاقين ، والبرادعية ،
والدباغين ، والكناسين ، فهم المنبوذون أو الذين لا تجوز ملامستهم ، والأصح تسميتهم الذين لا يجوز
الاقتراب منهم ، ويبلغ تعدادهم ٧٥ مليوناً ، وهم محترقون ولديهم شعور بانحطاطهم الذاتي ، بحيث
لا يجرؤون على الخروج من أكواخهم إلا في الليل ، كما لا يمكن قبول أولادهم على مقاعد الدراسة . وعلى
الرغم من تعاليم غاندي وإلغاء نظام الطبقات رسمياً ، فلا يزال الاحتقار التبادل بين طبقة وأخرى
قائماً ، ففي طائرات السفر يفضل البراهمي أن يتناول الملعبات كيلا يأكل من يدي مضيعة جوية من
طبقة أدنى ، ويعتبر الانقسام إلى طبقات عائقاً كبيراً أمام وحدة العالم الهندي وتقدمه .

هذا وتدمج الديانات والطبقات الأفراد في بيئة اجتماعية ،
ولكنها تؤلف بالنسبة للعالم الهندي قوى تمييز عنصري مفككة .
فهناك هوة سحيقة بين الهنود من ديانات مختلفة أو من طبقات متباينة ، كما بين
الهندوسي والمسلم . فهم لا يستطيعون التزاوج فيما بينهم ، أو أن يتناولوا المآكل
ذاتها . وبذلك تكون الرابطة الدينية أقوى من الرابطة الوطنية . وقد نسي أكثر

الهنود ماضيهم ، كنسيان الملك العظيم آسوكا ، الذي وُحِدَ الهند في القرن الثالث قبل الميلاد ، مثلما كثيراً ما يكون مفهوم الوطن المادي ، أرض الأجداد ، مفهوماً غريباً عن الهنود .

أما اليوم فإن استخدام الخطوط الحديدية واقتصاد المبادلات ، والنشاط التجاري ، والحياة الحضرية ، تعمل جميعاً على تحطيم الإطارات التقليدية ، وتخلط كل الهنود ببعضهم البعض ، وتهدم بكل تأكيد الطبقات أكثر مما تفعله الإصلاحات التشريعية .

ثالثاً - تقسيم العالم الهندي

لقد وضع الحكم البريطاني الذي دام قرابة قرنين من الزمن ، أي بين ١٧٥٧ - ١٩٤٧ المدنية الهندية على تماسّ مع الغرب الحديث .

فقد كتب المؤرخ الروماني بلين القديم (٢٣ - ٧٩ م) وأعرب عن أسفه لذهاب مبلغ ٥٥٠ فلس روماني باتجاه الهند في كل سنة قيمة مواد مستوردة منها . وقد أعجب الكثير من الرحالة بثراء بلاد الهنود ، وبرخاء سكانها ، وبرواج تجارتها . ولقد شهدت البلاد الهندية فترات طويلة من الازدهار التي تعاقبت مع حقبة سادت فيها الفوضى والبؤس . وفي القرن الثامن عشر خرج العالم الهندي من العصر الوسيط كي يتجه نحو عصر الصناعة ، وجاء الاستعمار البريطاني ليعمل على تجميد العالم الهندي في التقاليد الدينية وفي الحياة الريفية البحتة .

وقد بسطت إنكلترا هيمنتها على العالم الهندي في نهاية القرن الثامن عشر ، بعد أن قامت بتدمير إمبراطورية الهند الفرنسية . وهكذا فرضت إشرافها على « طرق الهند » وعلى المواضع الساحلية وعلى القواعد البحرية الواقعة على الطريق الرئيسي إلى إمبراطوريتها . وقد استطاع بريطانيون قليلو العدد لا يتجاوز عددهم ١٥٠٠٠ أن يخضعوا لإرادتهم ولصالحهم مئات الملايين من الهنود ، اعتماداً على انقسام هؤلاء إلى إمارات وإلى طبقات وإلى ديانات متخاصمة .

وقد أصبحت بلاد الهند في القرن التاسع عشر القطعة الجوهريّة في الامبراطورية

البريطانيّة . وقد برهن الإنكليز على قوتهم التنظيميّة الرائعة ، فقد احترموا التقاليد أو المدينيّات الهندية ، وظلّوا بمنأى عن العالم الريفي ، وذلك بالإقامة في المدن ، ضمن أحياء منعزلة ، مؤلفة من منازل ريفية أنيقة ومن حدائق . وأقاموا في الهند شبكة من خطوط حديدية ، هي أفضل شبكة في آسيا ، مثلما أنجزوا مشاريع ري كبيرة أوجدت الحياة في مناطق قاحلة ، وأدخلوا مزروعات تجارية كالقطن والجوت ووسعوا مجال زراعتها إلى حدّ كبير . ونالت الهند حظاً من التعليم ، ولكنه تعليم محصور بالطبقات العليا من المجتمع ، مثلما تمتعت بإدارة ممتازة وبطمأنينة وبالسلام البريطاني . وبذلك وصلت هذه الدولة إلى مفهوم الدولة الحديثة . وتطورت البلاد باتجاه الوحدة ، مثلما تلقت في الوقت نفسه تجهيزاً اقتصادياً ، وأصبحت تقاوم القهر البريطاني ، وذلك بتطوير شعور وطني على أثر التماس مع الفاتحين .

وكانت بريطانيا تعمل لمصلحتها ، فاستنزفت ثروات العالم الهندي ، ولا سيما الابتزاز والسلب الذي قامت به شركة بلاد الهند ، وأرباح الرساميل التي كانت في بعض الأعوام ، تعادل قيمة الأسهم ذاتها ، بالإضافة إلى السلع الغذائيّة والمواد الأولية الضروريّة للصناعة البريطانيّة . ولم تكن بلاد الهند تقوم بدور مناطق تصدير فحسب ؛ بل كانت تؤلف أيضاً إحدى أهم أسواق منتجات بريطانيا العظمى . وهكذا انهارت الصناعة التقليديّة ، ولا سيما النسيجية ، بسبب ضياع أسواقها ، وبسبب التعرّفات الجبركيّة الباهظة ، لأن أقشة مانشستر القطنية حلت محل الأقشة القطنية الهندية في العالم الهندي ذاته . كما أن الثورة الصناعية التي لم تستطع أن تتحقق إبان الحقبة الاستعماريّة ، عجزت عن أن تتم في الوقت الحاضر . وهكذا كانت بلاد الهند عبارة عن مزرعة كبرى مدارية تعمل لمصلحة بريطانيا ذاتها .

لقد حصل الهنود على استقلالهم في عام ١٩٤٧ ، ولكنهم عجزوا عن تحقيق وحدتهم السياسيّة : فقد كانت بلاد الهند خاضعة على الدوام تقريباً لسادة أجانب ، ولم تتوحد سياسياً إلا فيما ندر . وفي القرن العشرين حاول الزعيم الروحي للحركة الوطنيّة غاندي أن يحرر الهند وأن يمنحها وحدة معنوية . وهكذا منحت إنكلترا ، التي خرجت مرهقة من الحريين العالميّتين ، بلاد الهند استقلالها في عام ١٩٤٧ .

وقد ظهر عندها أن الصلات الدينيّة أقوى من الروابط الوطنيّة . وهكذا

أدت النزاعات الدينية إلى وقوف المسلمين ضد الهندوس ، وأصبح من المستحيل قيام أية وحدة سياسية في الهند . وانطلقت الغرائز البدائية لتعمل بكامل طاقتها : فوقعت أعمال نهب ومذابح وحرائق ، كانت ضحاياها كثيرة في صفوف المسلمين والهندوس . وقد تمكن وزير هندي أن يتكلم في شهر كانون الثاني من عام ١٩٤٨ عن « ثمار الحرية المرة » ، التي أدت إلى وقوع ضحايا أكبر عدداً من عهود العبودية الأجنبية . وعجز أبناء البلاد عن صنع كيانهم بأيديهم ، فقام نائب الملك اللورد مونتباتن وترأس عملية تقسيم الهند في ١٥ آب من عام ١٩٤٧ .

وهكذا أصبحت الرقعة الهندية مؤلفة من ثلاث دول هي : الباكستان والجمهورية الهندية « بهارات » ، وسيلان أو سريلانكا التي ظلت مرتبطة بالملكة المتحدة كأعضاء في الكومنولث البريطاني .

غير أن الكثير من المشكلات لم يتم حلها بعد تقسيم عام ١٩٤٧ .

فقد تنازلت فرنسا عن موانئها الهندية في عام ١٩٥٤ عنوة من البرتغال ، وقام الجيش الهندي بانتزاع ميناء غوا في عام ١٩٦٢ . غير أن كشمير الواقعة في الشمال الغربي والتي تقطنها أكثرية مسلمة ظلت موضع نزاع بين باكستان والاتحاد الهندي ، وأصبح القسم الأعظم من هذا الإقليم تحت حكم الهند التي سارعت لاحتلاله عند التقسيم .

غير أن التقسيم والهجرات ، التي كانت أكبر مثيلاتها في كل العصور التاريخية ، والتي أدت إلى طرد ١٧ مليون نسمة باتجاه الهند أو الباكستان . أقول : لم تستطع أن تحل كل المشكلات الدينية ، فقد ظل في الباكستان في عام ١٩٧٠ حوالي ١٠ ملايين هندوسي ، مثلاً ظلت الجمهورية الهندية تحوي أكثر من ٥٠ مليون مسلم في العام ذاته ، أي أكثر من سكان مصر والسودان حينذاك . ولهذا تعد الجمهورية الهندية من أكبر الدول الإسلامية . هذا ولا تكون الحدود

السياسية دائماً عبارة عن حدود دينية . وكان التعصب الديني ومشكلة كثير
يثيرا توتراً منهكاً لاقتصاد القطرين . وفي ١٩٧٠ كانت النفقات العسكرية تمتص
نصف ميزانية الهند وثلثي ميزانية باكستان ، إلى أن نشبت الحرب بسبب مشكلة
باكستان الشرقية في عام ١٩٧٢ ، وتدخلت الهند لمصلحة ظهور بنغلادش مكان
باكستان الشرقية .

وتحاول كل دولة أن تحقق نوعاً من وحدة لغوية ، فاعتمدت الهند اللسان
الهندي ، مثلما تبنت باكستان الغربية اللغة الأوردية ، واتخذت بنغلادش اللغة
البنغالية ، ولكن المقاومة الإقليمية كانت على الدوام شديدة للغاية . وهكذا لم
يستطع أي لسان هندي أن يرقى لمستوى اللغة الرسمية .

وهكذا وبعد نشوء ثلاثة أنظمة اقتصادية في العالم الهندي ، نجد التقسيم قد
عمل على تعميق مشكلات التخلف .

رابعاً - تخلف شبه القارة الهندية

يتألف ثلاثة أرباع سكان شبه القارة ؛ من فلاحين يعيشون في
مستوى معاشي منخفض جداً . يبدو مجتمع البلاد الهندية غنياً بالمفارقات
الاجتماعية . فالطبقة العليا تضم قرابة ٤ ملايين نسمة ، من الهنود الذين يملكون
دارات « فيلات » أنيقة ، ويتكلمون الإنكليزية بلهجة أهل أوكسفورد . ولا زال
في الهند بعض الإقطاعيين الكبار ، وهم المهراجات بين الهندوس ، والنواب
بين المسلمين ، الذين كانوا يستحوذون في الماضي على ثروات الدولة ، والذين كانوا
يعيشون في بذخ جنوني وأبهيّ ، هذا فضلاً عن شذوذهم . ولكن طبقة جديدة
حاکمة ناتجة عن التجارة والصناعة أخذت في الظهور : مثل عائلة قاتا في ميدان
الصناعة المعدنية ، وبيرلا في صناعة النسيج ، ودالميا في صناعة الإسمنت ، وأما
في المدن ، فقد تكونت طبقة وسطى يقدر عددها بحوالي ٦٠ مليون نسمة ،

تعمل وكأنها تستنفذ طاقاتها في حل مشكلات السكن والغذاء . أما ٧٥ ٪ من الهنود ، فيؤلفون كتلة هائلة من الفلاحين المتجمعين في ٨٠٠٠٠٠ قرية .

وقد كان المسكن المنظم Groupé هو القاعدة قبل قدوم الآريين . ويقع البازار والهيكل في وسط القرية ، في حين يقوم إلى جانبها خزان الماء ، أو التانك ، وتقوم حول ذلك بيوت منخفضة مبنية بالطين ، دون نوافذ أو مداخن ، وحيث يقطن الحرفيون والفلاحون . ونجد أخصاص المنبوذين في معزل عن القرية ، وقد بنيت من أغصان الأشجار . وتعيش الماشية طليقة ، مما يزيد الازدحام في الأزقة الضيقة . وتنتج القرية تقريبا كل ما هو ضروري لحياتها . ففيها تصنع الأدوات : فتقوم بجوار القرية المزروعات الغذائية فوق أكثر الأراضي عناية ، ثم المحاصيل النقدية ، في حين تنتشر على الأطراف ، الحقول غير المروية ذات الإنتاج غير المضمون ، إلى جوار المراعي التي تعيش الماشية فوقها حرة طليقة .

هذا وتكون الطرائق الزراعية لدى الفلاح الهندي ، أقل دقة وعناية مما هي لدى الفلاح الصيني ، مما يجعل العالم الهندي أكثر قرابة لحضارات إفريقية السوداء . ولا يجهد العالم الهندي تربية الماشية ، ولكن هناك عدد هائل من قطيع الأبقار يبلغ ٢٠٠ مليون رأس ، عدا الخيول والجواميس والأغنام الرديئة التغذية ، لندرة المراعي الحقيقية ، بحيث لا تعطي أكثر من إنتاج زهيد للغاية . هذا كما يمتنع معظم الهندوس عن استهلاك اللحم بسبب الورع الديني . أما الحليب الذي تنتجه الأبقار الموجودة في داخل المدن ، فهو أغلى سعراً من الحليب في فرنسا . إذ لا تعطي البقرة خلال العام كله أكثر من ٢٠٠ أو ٣٠٠ لتر في العام . أما الثيران الضامرة فتقوم بالعمل بشكل رئيسي ، كما أن روثها مرغوب كوقود أو من أجل كسوة حواجز المساكن الداخلية ، وتتمتع بالحب « مثلما نحب قططنا وكلابنا » وتموت من الهرم . ويبلغ احترام الحيوان درجة تحول بين الناس وبين

مكافحة الحشرات ، أو مكافحة زحف أرجال الجراد . كما يضيع ٧٥ ٪ من مياه
أمطار الموسميات سدى ، عوضاً عن استخدامها في الري . وتكون الحقول صغيرة
مفتتة تنتظر التجميل والضم ، مثلما تكون البذور من نوعية رديئة ، وفترات
البور مفرطة الطول ، كما يجهل أكثر الفلاحين استعمال الأسمدة . أما الأدوات
الزراعية فتكون بدائية للغاية ، لا تساعد على اختصار تعب الإنسان .

وهناك أسباب اجتماعية تعتبر مسؤولة عن عدم استقرار وضع
الفلاحين الهنود . فالفلاح المغفل ، الجاهل ، يتلف موارده الهزيلة في
الاحتفالات العائلية ، أو لدى الزهاد الفقراء والسحرة ، ومطربي الأفاعي . وهو
يرهن أرضه كي يصبح فريسة المالك الكبير والمراي ، أي البانيا الذي يشتري
منه محصوله عندما تكون الأسعار منخفضة ، مثلما يقدم له السلع التي يفتقر إليها
بأعلى الأسعار . وكثيراً ما ينوء تحت كاهل الديون ، ويضطر أحياناً إلى
التنازل عن ملكيته ، أي عن « المهكتارين من الأرض » . ولم تتوقف أبعاد
الملكيات الفلاحية عن الانكماش باستمرار خلال القرن العشرين . ولا يؤلف
الملاكون من الفلاحين الهنود المستقلين أكثر من ٣٠ ٪ مقابل ٣٥ ٪ من الشركاء
الأكارين ، و ٣٥ ٪ من العمال الزراعيين .

وتكون العائلة الهندية ، من حيث المبدأ ، غير قابلة للقسم ، ولذا تستغل الأرض بصورة
مشاعة ، ولكن كان للملوك السابقين الحق الاسمي على الأرض ، فكانوا يتقاضون الضريبة العقارية ،
مثلما كان بمقدورهم إقطاع الأرض ، للتعويض عن خدمات معينة ، وهكذا أوجدوا إقطاعية
حقيقية . أما الإنكليز فكان اهتمامهم يتركز على تقاضي الضرائب العقارية ، وليس منح الزراعة الهندية
أساساً اقتصادياً واجتماعياً سليماً . ففي القسم الأعظم من الهند ، عهد الإنكليز للزامندار بمهمة جباية
الضرائب ، واعترفوا بهم كلاكين عقاريين ، فكان هؤلاء يحصلون من الفلاحين على عوائد عقارية ،
تعادل أكثر من ٤٠ ٪ من المحصول ، ويؤلفون نوعاً من طبقة نبلاء صغار . أما في المناطق الأخرى مثل
البنجاب ومنطقة بومباي ومدراس ، فقد كان كبار الملاكين يقومون بزراعة أراضيهم بأنفسهم مباشرة ،
أو يعمدون بها لمستأجرين ويدفعون الضرائب بأيديهم ، وهذا هو نظام الريوتقاري ، أما البؤس
والعوز فيكون شديداً في المدن المتورمة .

لقد تزايد السكان الحضر بشكل مفرط منذ ١٩٣٠ ، ويقدر سكان المدن في العالم الهندي حالياً بحوالي ٢٠٠ مليون نسمة . ففي داخل البلاد نجد مدناً قديمة كمدن الحج مثل بنارس ، ومدناً حصينة ، ومدن أمراء ، وعواصم سياسية مثل دلهي وحيدرآباد . أما على الساحل فتقوم مدن تجارية تطورت عن مستودعات تجارية أوروبية : مثل كلكتا ، وبومباي ، ومدراس ، وكراتشي .

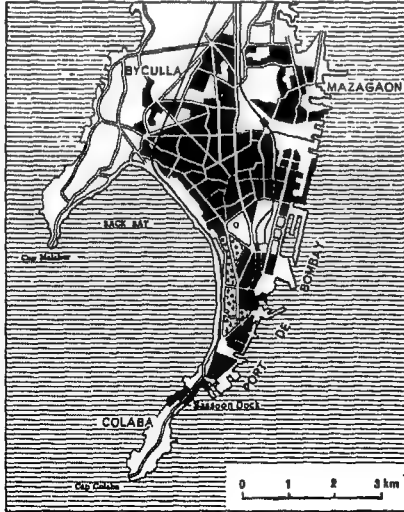
وقد تزايد عدد هذه المدن بشكل جامح ، بفضل تطور الصناعة ، وتدفق اللاجئين بعد التقسيم والفلاحين المعدمين ، ولتكاثر الوظائف العامة في دول حديثة العهد بالاستقلال وتورم الجهاز الإداري . وتضم أكثرية مدن العالم الهندي أحياء تجارية من نمط أوروبي ، وقصور ، وهياكل ، وأضرحة أمراء وملوك ، تمتاز بثناء تزييني وزخرفي مدهش . وأحياء كريهة هي عبارة عن محيطات من بيوت واطئة مترصة على جوانب أزقة ضيقة ، وهي متاهات من عشش ومن أزقة مسدودة ، مليئة بحفر القاذورات والقمامات ، ومأهولة « بقطعان بشرية مقتلعة من جذورها » .

أما كلكتا « مدينة الليل المرعب » ، فيكفي أن يتجول الإنسان في شوارعها المركزية كي يغطس في حمام من الحسرة ، ويتقن لو لم يكن قد زار ما يسمى bustes ، أي الأحياء البائسة ، حيث تعيش في وسط سواقي المراحيض والمجاري ، وضمن الأخصاص ، جاهير من السكان الجياع العراة ، تنهش أجسادهم حمى البرداء ، والسل ، والبريبري والكوليرا . وهذا ما دعت إليه إحدى الحكومات الإنكليزية « أوضاع ما تحت الإنسانية » .

أما بومباي (شكل ٦) فلا يوجد في بعض أحيائها أكثر من مرحاض واحد لكل ١٠٠٠٠ نسمة ، وحنفية واحدة لكل بضع مئات نسمة ، وغرفة صغيرة لكل ٢٠ نسمة . أما في الليالي القاتطة ، فيذهب كل واحد للنوم على الأرصفة ، التي تبدو عند الفجر وقد تبعثرت عليها الأجساد البشرية ، كجثث القتلى بعد معركة شوارع حامية . وتكون الأحياء الفقيرة والأرياض في العديد من المدن في أقصى التعاسة ، حيث يكون مشهد البؤس أكثر بلاغة مما تذكره الإحصائيات ، والتي تمنح الهند الرقم القياسي في وفيات الأطفال أو ١٢٩ طفل بالألف (١٩٧٧) - (ولكن الواقع يتفوق عليها لين بشطريه

حيث تبلغ ١٥٥ بالآلف في السنة المذكورة) - والسل والطاعون ، وفي عدد الأمهات اللواتي يهلكن من « التسمم بروث البقر » ، وأسبوع السبعين ساعة عمل في ورشات على شكل أعشاش ، وفي الأمية ...

« روبير غولان »



الشكل ٦
مخطط بومباي

ولكن تكون أزمة السكن أكثر مأساوية من أي مكان آخر في العالم . ففي بومباي لوحدها ٦٠٠٠٠٠ نسمة بلا مسكن ، مثلما تتألف ثلاثة أرباع المساكن من غرفة واحدة تضم عشرة أشخاص وسطياً . أما محطات القطارات فهي مهاجع فسيحة خلال الليل . وعلى كل فإن المدن تمنح سكانها دخلاً أكثر ارتفاعاً من الريف ، وتقوم على مخض الهنود على مختلف طبقاتهم ولا تكون ممتنعة تماماً على التقدم .

لماذا يسيطر مثل هذا البؤس على مثل هذا الجزء الضخم من البشرية ؟

كتب أحد علماء الاقتصاد ما يلي : « لا يكفي الدخل المتوسط للفرد في العالم الهندي ، إلا بصعوبة ، لتأمين غذاء شخصين من ثلاثة ، أو لإطعام كل الناس وجبتين من ثلاث ، هذا على شرط أن يعيشوا في الهواء الطلق طيلة العام ، وألاً يتمتعوا بأية تسليّة ، وألاً ينشدوا شيئاً آخر سوى الطعام » .

ويهدئ الهندي جوعه بمضغ التنبول bétel ، ونرى في كل مكان بصقاته المائلة للحمرة . ولكن

لا يشكو العالم الهندي من إنتاج غذائي دون حاجة سكانه ، بل عليه أن يقدم الغذاء لقطع لا يكاد ينتظر منه أي نفع ، فضلاً عن ١٥٠ مليون من القردة ، التي تتغذى بطريقتها الخاصة ، ونجدها في كل مكان ، وتدّس كل شيء . أما الجرذان فلا حصر لها . وإذا مرض الهندي فعليه أن يشارك سواه في سرير المستشفى ، هذا إذا أفلح وحصل على قبول في أحد المشافي ، كيلا يقضي نحبه في الشارع . وفي عام ١٩٧٠ كان هناك طبيب واحد لكل ٩٠٠٠ هندي ، وفي العام ذاته لم يكن في مملكة نيبال التي كانت تضم ٨ ملايين نسمة أي طبيب . وفي عام ١٩٨١ كان ١٢٠٠٠٠ طبيب هندي يعملون في خارج وطنهم ، ومعظمهم في بريطانيا والولايات المتحدة ودول الخليج العربي إلخ ..

ونستطيع أن نردّ ذلك دون مبالغة إلى قساوة المناخ ، وإلى الماضي الاستعماري لعالم استغله المنغول ، ومن ثم الإنكليز من بعدهم ، وإلى عقلية الهنود ، المكبتين ضمن طبقاتهم ، أو المفتونين بالنقاوة ، والعديدي الاهتمام بإقامة اقتصاد حديث . ويمكننا أن نقول بأن الأمية والربا ، واستغلال الشركات الفلاحين والمستأجرين من قبل البورجوازية الريفية ، وبطالة الفلاحين خلال الفصل الجاف ، أقول : إن كل عيوب التخلف هذه ، تجعل أي تقدم في حكم المستحيل .

ويحق لنا أن نتساءل أخيراً : هل يحكم تكاثر السكان على العالم الهندي بالبدس وبالفوضى ، بالتالي ؟ من المعتقد أن العالم الهندي كان يحوي ١٠٠ مليون نسمة سنة ١٨٠٠ و ٢٥٠ مليون في ١٩٢١ ، ولكن توسعاً ديموغرافياً خارقاً ، جعل العالم الهندي يضم حوالي ٦٠٠ مليون نسمة في ١٩٦٠ ، و ٧٩٠ مليون عام ١٩٧٦ ، و ٩٠٠ مليون في ١٩٨٢ .

وبعد أن ظل الأجل المرتقب قصيراً ، ووفيات الأطفال جسيمة لمدة طويلة ، انخفضت نسبة الوفيات إلى ١٤ مقابل ١٠ في فرنسا التي يعتبر سكانها بالطبع أكثر شيخوخة لكثرة المتقدمين في السن ، لأن الذين تزيد أعمارهم عن ٦٥ سنة يؤلفون ١٤ ٪ من السكان ، مقابل ٣ ٪ لا غير في دول العالم الهندي . ولكن ارتفاع نسبة المواليد هي التي سمحت للعالم الهندي بالبقاء على مدى عشرات

القرون ، فضلاً عن شمولية التزاوج ، الذي يعتبر واجباً دينياً يحث على التناسل . ولا تزال نسبة الولادات اليوم تزيد عن ٣٤ بالآلف في الهند ، و ٤٤ بالآلف في الباكستان ، كي تبلغ ٤٧ بالآلف في بنغلادش . وهذا ما يفسّر وجود فائض ينوف عن ١٠ ملايين نسمة في كل عام في ١٩٥٠ و ١٥ مليون حالياً . وتشجع حكومة الهند وباكستان على تحديد النسل ، كما تعتمد لتعقيم الرجال والنساء بصورة وقتية أو دائمة ، ولكن ذلك يلقي مقاومة جماهيرية يستغلها الديماغوجيون ، ويخضع لمزايدات سياسية تستغل شقاء الشعب .

أما الهجرة الخارجية فقد كانت ضئيلة للغاية دائماً ، ولكنها أبعد من أن تقدم العلاج الشافي . فهناك قرابة ٥ ملايين من أصل هندي يعيشون في الخارج ، أي في بيرمانيا ، وماليزيا ، وفي جزر المحيط الهادي والهندي ، وفي إفريقيا الجنوبية وفي جزر الأنتيل وغويانة .

دول العالم الهندي

لا تزال أوروبا شديدة التجزؤ السياسي ، مثلما يحتوي « الوطن العربي » على ٢٥ دولة ودويلة ، لهذا لا داعي للاستغراب من انقسام العالم الهندي في الوقت الحاضر . ويتخبط هذا العالم المذكور في عدد من الاختلافات ، مما يبعث على الخشية من يقظة الحساسيات الدينية والعنصرية أو اللغوية في المستقبل .

الجمهورية الهندية : ومساحتها ٣٢٦٨٠٩٠ كيلومتر مربع ، كان يسكنها ٥٠٠ مليون نسمة في ١٩٦٨ و ٦٥٠ مليون في ١٩٧٩ ، وأكثر من ٧٠٠ مليون في ١٩٨٢ ، أي تزيد الكثافة فيها عن ٢١٨ نسمة في الكيلومتر المربع . وهي أكثر دول العالم سكاناً بعد الصين ، وهي عالم الهندوسية .

الباكستان : ومساحتها ٨٠٣٩٤٤ كيلومتر مربع . كان عدد سكانها ٧٢,٣٧ مليون نسمة عام ١٩٧٦ ، وأكثر من ٨٣ مليون في ١٩٨١ ، أي ذات كثافة تزيد عن ١٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع . وهي ثالث دولة إسلامية في العالم بعد أندونيسيا وبنغلادش .

بنغلادش : ومساحتها ١٤٣٠٠٠ كيلومتر مربع ، سكانها ٧٦,٨٢ مليون في ١٩٧٥ و ٨٦,٦٥ مليون في ١٩٧٩ ، وحوالي ٩٠ مليون في ١٩٨٢ ، وهي ثاني دولة إسلامية من حيث عدد السكان في العالم . وتصل الكثافة فيها إلى أكثر من ٦٣٠ نسمة في الكيلومتر مربع .

سريلانكا : مساحتها ٦٥٦١٠ كيلومتر مربع ، وهي سيلان سابقاً ، وكان عدد سكانها في ١٩٧٦ / ١٤,٢٧ مليوناً ، و ١٥ مليون في ١٩٨٠ ، وتصل الكثافة فيها إلى ٢٣٠ نسمة في الكيلومتر المربع .

نيبال : مساحتها ١٤٠٧٩٧ كيلومتر مربع ، أي تقارب بنغلادش ، وسكانها ١٢,٨٦ مليون في ١٩٧٦ و ١٣,٧ مليون عام ١٩٧٩ و ١٥ مليون في ١٩٨١ ، وتصل الكثافة فيها إلى ١٠٠ نسمة / كيلومتر مربع .

بھوتان : ومساحتها ٤٧٠٠٠ كيلومتر مربع ، وسكانها ١,٠٣ مليون نسمة سنة ١٩٧٦ ، و ١,٣ مليون عام ١٩٧٧ ، وتقارب الكثافة الوسطى فيها ٢٥ نسمة في الكيلومتر المربع .

كشمير وجامو : ومساحتها ٢٢٢٨٠٠ كيلومتر مربع ، وسكانها ٤,٦ ملايين في ١٩٧٦ وقراءة ٥ ملايين حالياً والكثافة ٢٣ نسمة كم^٢ .

جمهورية الاتحاد الهندي

فسيفساء بشرية

يعتبر الاتحاد الهندي الوريث الرئيسي لامبراطورية الهند البريطانية ، التي ما إن تخلصت من الاستعمار في عام ١٩٤٧ حتى تعرضت للتقسيم . وإذا كان « التقسيم » قد حلّ المشكلة الدينية ، بمنح الباكستان المناطق ذات الأثرية المسلمة ، فإنه قد تمخض عن تقسيم منطقتين متجانستين هما البنغال في الشرق ، والبنجاب في الغرب ، مما أدى لهجرة ١٧ مليون نسمة في كلا الاتجاهين وإلى نشوب ثلاثة حروب بين الدولتين . وكان الخوف من الهند ، هو الذي يوحد الباكستان الشرقية أي « بنغلادش الحالية » مع الغربية ، أكثر من الإسلام ، إذ كان شطرا الباكستان السابقة ، ينفصلان عن بعضهما بمسافة ١٥٠٠ كم جواً ، كما كان ميناء كراتشي ، يبعد بمسافة ٢٤٠٠ كم عن بنغلادش بالخط الحديدي أو بمسافة ٤٨٠٠ كم بحراً ، هذا كما تنفصل كراتشي نفسها عن أراضي البنجاب الطيبة بمقدار ١٠٠٠ كم من الصحاري ، وهكذا كان انفصال بنغلادش متوقعاً في عام ١٩٧١ ، والتي أصبحت عبارة عن جيب ضمن أراضي الاتحاد الهندي ، وذات اقتصاد ضعيف ، تتعلق حياتها بحسن نوايا جارتها الكبرى أو بالعكس حيث شقاؤها .

ولكن الاتحاد الهندي صمد أمام التمزقات السياسية والنزاعات اللغوية ، على خلاف ما كان متوقعاً له ، وتبلغ رقعة هذه الجمهورية مساحة تعادل مساحة أوروبا الغربية أو ٣٢٦٨٠٩٠ كم^٢ ، ولكنها أكثر سكاناً ، وهي عبارة

عن « متاهة اجتماعية » لا تستطيع التناقضات العديدة فيها ، من عرقية وطبقية ولغوية ودينية أن تنفي وجود صلات نسب عميقة .

ويبدو الاتحاد الهندي خليطاً على كل المستويات الثلاثة : العرقي واللغوي والديني وإذا استثنينا الأقوام شبه المنغولية عند تخوم التبت وبيرومانيا ، فإن الهنود ينتسبون إلى مجموعتين عرقيتين . فهناك الزوج من ذوي التقاطيع الدقيقة ، وهم من السكان الأصليين بلا ريب ، والذين زحزحوا تدريجياً من السهل السندي الغانجي ، فاستوطنوا لوحدهم القسم الجنوبي من شبه الجزيرة ، في حين يشكلون الطبقات الدنيا في المناطق الأخرى . أما البيض فقد وفدوا على شكل موجات متعاقبة من الممرات الشمالية الغربية ، بحيث أوجدوا استيطاناً تقياً إلى حد كبير في البنجاب ، ويتميزون بطول قامتهم ، وبلون بشرتهم الفاتح ، ولكنهم يتعرضون للتهجين فيما وراء ذلك بدرجات متفاوتة اللهم إلا في الطبقات العليا . وهكذا تصدّى التزاوج الداخلي لخض العروق دون أن يمنعه تماماً .

ومن الممكن العثور على علاقات متبادلة بين العروق واللغات ، فأشباه المنغول ، في الشمال الشرقي ، يستعملون في مخاطبتهم لهجات تيبيرية بيرمانية . أما الهنود الزوج في الجنوب فيتكلمون لغات درافيدية تكتب بحروف « پالي » . أما المجال اللغوي الهندي الأوروبي فينقسم إلى اثني عشرة لغة متمايزة ، يكتب أكثرها بحروف « ناغاري » الموروثة عن السنسكريتية ، ويكون لحكومات الاتحاد عموماً أساس لغوي .

وإذا كان ٨٢ ٪ من سكان الاتحاد ينتسبون إلى الهندوسية ، فإن للهند أقليتها الدينية . فهناك مذاهب قريبة من الهندوسية ، ولكنها ترفض نظام الطبقات ، مثل الجائيين في الغرب ، أو السيخ في البنجاب الذين يربو عددهم على ١٤ مليون نسمة . أما المسلمون ، على خلاف ماسبق فهم مبعثرون

ويؤلفون رغم التقسيم أقلية هامة عددياً وثقافياً ، ويشكلون ١٢ ٪ من السكان أو ٩٠ مليون نسمة .

غير أن النصرانية التي دخلت جنوب الهند في القرن الثالث ميلادي فقد انتشرت بين العديد من أبناء الطبقات الدنيا ، من فلاحين وصيادي أسماك . أما في العهد الاستعماري البريطاني ، فقد استطاعت البعثات التبشيرية أن تنشر النصرانية بين القبائل القاطنة في أسام ، في أقصى الشرق وفي داخل شبه الجزيرة . غير أن البوذية التي ولدت في الهند في القرن السادس قبل الميلاد ، فليس لها بين سيلان « سريلانكا » وبين التبت سوى القليل من الأتباع .



الديانات في الاتحاد الهندي

عدد أتباعها بالملايين في ١٩٧١

الهندوسية	٤٥٣,٣	مليون
الإسلام	٦١,٤	مليون
النصرانية	١٤,٢	مليون
السيخ	١٠,٤	مليون
البوذية	٣,٨	مليون
الجينية	٢,٦	مليون
المجوس	٠,١	مليون



يعتبر الاتحاد الهندي استناداً إلى دستوره جمهورية علمانية اتحادية ، مؤلفة حالياً من ٢٢ ولاية ، متطابقة تقريباً مع الحدود اللغوية ، ومن مناطق : كالماصمة دلهي ، والملحقات الجزرية ، مثل جزر لا كديش في الغرب ، وجزر أندامان في الشرق ، والمناطق الحدودية ، والممتلكات البرتغالية القديمة « غوا » أو الفرنسية مثل بونديشيري وماهيه وكاريكال .

ولا زال الاتحاد الهندي يعاني ، ضمن حدوده الاصطناعية من التقسيم الذي وقع في عام ١٩٤٧ ، والذي قسّم رقعة جغرافية متأسكة طبيعياً ، وفصل بين مناطق ذات اقتصاد متكامل ، وضاعف من أسباب النزاعات .

وعلى أثر نزوح ٦ ملايين هندوسي وسيخ ، عن منطقة البنجاب الغربي ، الذي أصبح تابعاً للباكستان ، فقد تركوا وراءهم ٢,٧ مليون هكتار من الأراضي التي شغلها ٦ ملايين مسلم لجؤوا من البنجاب الشرقي ، تاركين وراءهم ١,٩ مليون هكتار . أما في البنغال فقد نزح مليون مسلم نحو الباكستان الشرقية « بنغلادش » مقابل ٤ ملايين هندوسي تركوا بلاد الباكستان الشرقية كي يتكدسوا في كلكتا . أما البنغال الباكستاني ، أو بنغلادش الحالية ، فقد أصبحت معزولة عن مينائها الوحيد ، أي عن كلكتا .



هذا وليس هناك من علاقة بين اللغات الدرافيدية الأربع ، وبين اللغات الهندية الأوروبية : ذلك أن لغة التامول تستعمل كلفة أدبية لدى الدرافيديين ، الذين حاولوا أحياناً تشكيل دولة « درافيدستان » . هذا وتبني لغة الماراتي والبنجابي ولاسيا البنغالي ، المعدودة من جملة اللغات الهندية الأوروبية ، عن الهندي بشكل صريح ، والذي أصبح اللغة الرسمية للاتحاد الهندي ، علماً بأن الناطقين بهذه اللغة لا تتجاوز نسبتهم ٤٠ ٪ فقط من سكان الاتحاد الهندي . ويستعمل المسلمون اللغة الأوردية القريبة من لغة الهندي ، ولكنها تكتب بحروف عربية ، لأن الأوردية هي اللغة الرسمية في الباكستان . أما الإنكليزية التي يجهلها سواد الجماهير فلا تزال ضرورية للغاية في الصفقات التجارية ، أو في الحياة السياسية وفي المبادلات الدولية .

اللغات الرئيسية في الاتحاد الهندي

والمتكلمون بها بالملايين

الزمرة الهندية الأوروبية

٢١٠	الهندي
٤٠	بنغالي
٤٠	ماراتي
١٣	بنجابي

الزمرة الدرافيدية

٤٥	تيلوغو
٣٦	تامول

الهند في مواجهة المشكلة الديموغرافية

لقد كانت شبه القارة الهندية تحمل دائماً خمس سكان الأرض . ففي خلال الفترة الاستعمارية ، كانت الجائحات والمجاعات تعمل على تقليص النمو الديموغرافي ، وقد كان في الاتحاد الهندي ضمن حدوده الحالية ٢٣٦ مليون نسمة في عام ١٨٩١ و ٣١٩ مليوناً في ١٩٤١ . ولكن قفز عدد السكان بين ١٩٥١ و ١٩٧١ وذلك بناء على الإحصائيات من ٣٦١ إلى ٥٤٨ مليون . ويقدر عدد السكان في ١٩٧٩ بحوالي ٦٦١ مليون و ٧٠٠ في ١٩٨٢ . وليس في نسبة التزايد السنوي وهي ٢ ٪ أي شيء استثنائي لأن نسبة التوالد ٣٤ بالآلف ونسبة الوفيات ١٤ بالآلف ، ولكنها تترك فائضاً في الولادات على الوفيات مقداره ١٤ مليون نسمة سنوياً ، أي يزيد سكان الهند سنوياً بما يعادل سكان العراق .

ولا تزال نسبة الوفيات شديدة ، وتصل إلى ١٢٩ بالآلف ، أي يموت ١٣ ٪ من الأطفال قبل أن يكملوا عامهم الأول ، ولا يزال البؤس الفيزيولوجي عميقاً بسبب الطفيليات وسوء التغذية . ولكن أمكن درء الجائحات بفضل حملات التلقيح ، كما أن ضحايا الأمراض المستوطنة ، أصبحت أقل من الماضي كالبرداء . وإذا كانت الكثرة من الهنود يشكون من الجوع ، فإن الهنود الذين تصرعهم المسغبة أقل من الماضي . وقد انخفضت نسبة المواليد قليلاً فهبطت في خلال ربع قرن من ٠٤٥ ٪ إلى ٠٣٤ ٪ .

وقد أصبحت الكثافة الوسطى في الهند تتجاوز الآن ٢١٤ نسمة بالكيلومتر المربع . وهذا يؤلف اكتظاظاً سكانياً في أرض مدارية ذات ترب غالباً ما تكون ناضبة الخصوبة ، والتي يتألف ٧٠ ٪ من سكانها من فلاحين خاضعين لنزوات المناخ ، وأسرى نظام ملكية زراعية يتميز بعبويه الاجتماعية وبعناصر التفكك الاقتصادي . وهكذا لا ينمو الإنتاج الغذائي ، مثلما لا يتزايد الدخل القومي بصورة تزيد عن سرعة نمو السكان . أما المناطق المكتظة بسكانها فليس أمامها سوى اللجوء إلى الهجرة . وهكذا يقصد البنغاليون بلاد آسام في الشمال الشرقي ، حيث أصبحت الأراضي الصالحة للاستزراع نادرة ، هذا وتجذب المدن ريفيين يبحثون عن عمل محتمل ، بيد أن ١٠ ٪ من الهنود يعيشون في مدن ضخمة يزيد سكانها عن ١٠٠٠٠٠ نسمة ، ولا تؤثر الهجرات الداخلية كثيراً على توزيع السكان ، كما أن الهجرة الخارجية لا تمس سوى بعض المناطق الساحلية .

وابتداءً من عام ١٩٥١ ، ظهرت ضرورة تحديد الموالييد ، فتم رفع سنّ الزواج القانوني للفتيات من ١٦ سنة في ١٩٥٦ إلى ١٨ سنة في ١٩٧٦ . وابتداءً من عام ١٩٦٥ حاولت وزارة الصحة والتخطيط العائلي أن تفرض بواسطة وسائل الإعلام صورة أسرة سعيدة مع طفلين فقط ، ولكن دونما طائل .

ويعرقل الفقر والجهل طريقة منع الحمل أكثر من التقاليد ، فعدد القرى التي تحوي على مستوصف لا يزيد عن ٥ ٪ وفي مثل أوضاع كهذه ظهر بأنه من الأفضل من أجل تخفيض الخصوبة ، تعقيم الراغبين من المتطوعين والمتطوعات مع تعويض نقدي ، وهكذا أمكن إجراء العملية الجراحية الصغرى لحوالي ١٢ مليون رجل و ٤ ملايين امرأة ، وكلهم في عمر متوسط قدره ٣٦ سنة ، ولكن بعد حدوث العديد من الانحرافات ، والاضطرابات ، صدر الأمر الديماغوجي بإغلاق معسكرات التعقيم السيارة في عام ١٩٧٧ . ولتحاشي

حدوث قطيعة حتمية بين النمو الديموغرافي ، وبين نمو المصادر الغذائية ، يقتضي الأمر التوصل إلى القضاء على الحواجز النفسية ، فضلاً عن ضرورة تحقيق تقدم في مضمار تربية سواد الجماهير ، وتغذيتهم وتحسين حالتهم الاجتماعية .



بعد أن ظل تكاثر سكان الهند لمدة طويلة محدوداً بسبب فرط الوفيات ، لا زال يعتبر معتدلاً بالنسبة لقطر من العالم الثالث ، وحالياً من الخامس بعد التصنيف الجديد . ولكن هذه النسبة تبدو عظيمة ضمن كتلة بشرية تزيد عن ٧٠٠ مليون نسمة غالباً ، أي بتزايد سنوي يبلغ ١٤ مليون نسمة .

كما يتصف سكان الهند بتفوق نسبة الذكورة ، فهناك ٩٤٠ أنثى مقابل كل ١٠٠٠ ذكر ، مما يؤدي لانخفاض الأجل المرتقب المتوسط ، والذي يبلغ ٥٠ سنة عند الولادة ، وإلى فرط نسبة الوفيات بين النسوة بسبب الزيجات المبكرة . وهكذا يكون هرم الأعمار ، هو هرم قطري جداً لأن ٤٢ ٪ من السكان تقل أعمارهم عن ١٥ سنة ، ولكن نسبة الذين تقل أعمارهم عن ٢٠ سنة تصل إلى ٥١ ٪ ، في حين تقل نسبة الذين تزيد أعمارهم عن ٦٠ سنة عن ٦ ٪ مقابل ١٤ ٪ في اليابان . وفي ١٩٧٩ انخفضت نسبة الأولاد المئوية قليلاً فبلغت نسبة الذين تقل أعمارهم عن ١٥ سنة ٤١ ٪ . ويرى الدكتور جوزيه كاسترو مؤلف كتاب « جغرافية الجوع السياسية » أن الغذاء النباتي هو المسؤول جزئياً عن ارتفاع الخصوبة لدى النسوة ، لأن الكبد يزيد من إفراز مادة الجريبين مما يزيد احتمالات الحمل لديهن ، بينما نجد ضعف في الخصوبة لدى الشعوب التي تكثر من استهلاك اللحم والبروتينات النباتية الحيوانية تماماً ، كالحوانات اللاحمة كالذئاب والنمر على خلاف الحيوانات النباتية كالأرانب ، وقديماً قال شاعرنا العربي :

بفثا الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقلات نـزور



وليست الهندوسية ديانة موانيدية على الخصوص . فهناك تقاليد لا تزال محترمة ، وتمتثل لها أكثرية الجماهير ، مثل منع زواج الأرامل من النسوة ، تعمل على تخفيض الخصوبة ، وهكذا يكون لدى النصارى ولا سيما المسلمين عدد وسطي من الأبناء أكثر من الهندوس .

بيد أن ممارسة منع الحمل ، على مختلف طرائقه ، لا يكون معروفاً أبداً أو مقبولاً لدى أكثر من عشر العائلات ، وغالباً ما يكون ذلك بعد حياة خصيبة أي عندما يكون لدى الزوجين أربعة أولاد أو أكثر ؛ ولهذا يقال في الهند : مائدة الفقير فقيرة ، ولكن فراشه خصيب .

وتلاحظ اختلافات كبيرة بين ولاية وأخرى ، بحسبان البنجاب وولاية كيرالا هما أكثر الولايات الهندية تطوراً ، أو بين الأرياف والمدن حيث تكون نسبة الأولاد أقل ، وذلك بالتناسب مع النمو الاقتصادي ولا سيما مع درجة التعليم . ورغم كل أبعاد الضغوط والوسائل الموضوعة تحت تصرف الجماهير ، فإن التخطيط العائلي لم ينجح إلا بصورة نسبية جداً . بيد أن انخفاض التوالد في الهند لا يكون بطيئاً إلا بالموازنة مع أهداف غير واقعية ، كتخفيض التوالد إلى ٢٥ بالآلاف ابتداء من عام ١٩٨٠ ، أو بالنسبة لنتائج حصلت في أقطار أقل اتساعاً وأقل سكاناً .



هذا وتتباين الكثافة الكيلومترية كثيراً من ولاية لأخرى ، ومن منطقة لأخرى . فولاية كيرالا التي تزيد مساحتها قليلاً عن مساحة بلجيكا ، تحوي ٢٥ مليون نسمة ، وكثافة تزيد عن ٦١٠ نسمة في الكيلومتر المربع . وهكذا تعكس صورة الاستيطان عموماً الثروة الزراعية وإمكاناتها . وعليه تكون الكثافة شديدة جداً في أطراف شبه الجزيرة ، وفي السهل الغانجي ، وتقل عن ذلك في الداخل ، وضعيفة إلى حد ما في الشمال الغربي ، اللهم إلا في النطاقات المروية . وتكون ولاية راجستان التي تمتد مع ذلك فوق صحراء ثار ، تكون ذات كثافة تزيد عن ٧٥ نسمة في الكيلومتر المربع .

أما الهجرة للخارج فلا يؤبه لها : فقبل عام ١٩٣٠ ، وضمن إطار الامبراطورية البريطانية ، هاجر بضعة ملايين من الهنود على شكل أفواج العمال الزراعيين coolies ، أو كتجار واستقروا في بلاد المزارع الاستعمارية في جنوب شرق آسيا ، وسيلان وماليزيا ، وفي جزر مزارع قصب السكر في المحيط الهندي والمحيط الهادئ ، وفي جزر الآنتيل والغويانة وترينيداد ، وفي الناتال وأفريقيا الشرقية ، حيث لا زالت هناك جالية حقيقية من الهنود ، والتي تخلق مشكلات سياسية خطيرة بسبب سياسة التمييز العنصري . غير أن أكثرية البلاد المستقبلية ، والتي أصبحت مستقلة ، أغلقت أبوابها أمام الهجرة بل وراحت تطردهم مثل أوغندا . وقد هاجر العديد من الهنود المختلطين مع الباكستانيين إلى المملكة المتحدة ، وذلك قبل الاضطرابات العرقية فيها بين ١٩٦١ و ١٩٨١ ، وقبل تحديد هجرة أبناء الكومونولث الذي أعقب ذلك . ولا يزال يهاجر بعض الهنود على شكل مهاجرين مؤقتين إلى الأقطار النفطية في الخليج العربي ، ولكن يهاجر أيضاً الكثيرون من حملة الشهادات العليا من الأطباء والتكنولوجيين ، لأن عشر أطباء الهند يمارسون عملهم في الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا والبلاد النفطية العربية . ويقدر عدد الأطباء الهنود في الخارج عام ١٩٨٠ بأكثر من ١٢٥٠٠٠ طبيب .



عيوب المجتمع الهندي

تقوم الهوية الهندية على صهر عناصر ثقافية دراويدية وهندية آرية في نظام فلسفي ديني ، هي الهندوسية ، والتي تؤثر طرائقها في التفكير والبنى الاجتماعية ، وكذلك على الديانات الواردة إلى البلاد كالإسلام والنصرانية . والهندوسية هي سلوك أكثر منها ديانة أفسدت الأساطير الشعبية . كما يؤثر احترام الحياة الحيوانية ، القائمة على الاعتقاد بالتقمص ، على العادات الغذائية وعلى التقنيات الزراعية ، مثلما يهين الاهتمام بالطهارة الطقوسية على العلاقات الاجتماعية .

وتؤلف الطبقات هيكل المجتمع الهندي ، ويمكن تفسيرها بالتمييز العرقي ، لأن كلمة فارنا التي تعني المجموعات الأربع من الطبقات وهي : البراهمة ، والنبلاء العسكريين ، والتجار ، والفلاحين ، مدلولاً على اللون . وفي الهند ٣٠٠٠ طبقة (جاتي) ، وهي جماعات متضامنة بواسطة الدم (تزواج داخلي) والعمل (مهنة تقليدية) و ٨٠ مليون نسمة خارج الطبقات أو « المنبوذون » الذين يختصون بمهن تعتبر مهينة كمنظفي الشوارع واللباقين ، أو الأقوام القبلية . وعلى الرغم من عمليات غاندي الذي كان يرى في « المنبوذين » « مخلوقات الله » ، ورغم إلغاء الطبقات في الدستور ، فإن المنبوذين لازالوا يعيشون دوماً في أطراف القرى . أما في المدن المزدهرة ، الشديدة الاختلاط ، فن الصعوبة بمكان تحاشي التماس مع « الأنجاس » كما أن الحواجز الاجتماعية تتخلل عن مكانها للحركة المهنية . فهناك العديد من المنبوذين الذين يعملون في التعليم ، أو الذين وصلوا للثراء العريض .

ويعود تشنج البنى الاجتماعية قبل كل شيء إلى الجهل ، لأن ٧٠ ٪ من

السكان لازالوا من الأميين ، وللعزلة ، لأن ٨٠ ٪ من المنود يعيشون في ٥٧٦٠٠٠ قرية ، على صورة مساكن متجمعة ، في السهول اللحيية ، أو فوق الهضاب وبجوار موارد الماء . ويتألف المجتمع من جماعات متسلسلة منطوية على نفسها ، أو منفتحة على التقدم في حالات نادرة ، كما في البنجاب أو كيرالا في أقصى الجنوب الغربي مثلاً .

ويكون التفاوت الاجتماعي صارخاً في أكثر المدن ، التي تلعب دور ملاجئ لأفواج بلا جذور ، وأكبر المدن هي أكثرها جاذبية . وهناك ٢٠ مدينة يتجاوز سكان كل منها ٥٠٠٠٠٠ نسمة ، وهي مدن تقليدية ، أو مدن حج مثل بنارس Vanarasi ، أو عواصم مخلوعة ، غنية بالقصور مثل أغرا ، أو مراكز صناعية ، ولا سيما الموانئ الثلاثة الناشئة عن التجارة الاستعمارية وهي : مدراس (٢,٥ مليون نسمة) ، بومباي (٦ ملايين) وكلكتا وفيها ما لا يقل عن ٧ ملايين مع أرباضها الواقعة على ضفاف نهر هوغلي . أما النمو الأكثر سرعة فقد كان نمو دلهي ، العاصمة التي تضاعف عدد سكانها ثلاث مرات منذ الاستقلال ، وهذا مع تزايد الدوائر الاتحادية ويسكنها قرابة ٣ ملايين نسمة .

ونجد اكتظاظ السكان في كل مكان وفي المدن يسير هذا بصورة متوازية مع عجز الخدمات العامة ، كتوفر المياه . وهكذا تبدو كلكتا حيث تؤدي مصاعب حركة الميناء وصناعة الجوت إلى استفحال البطالة ، وهي عاصمة البؤس نظراً لكثرة « الباسي » فيها ، وهي متاهات من دروب نتنة ، وحيث تكثر العشش الترابية ، أو من الأغصان ، أو من صفائح خشبية عتيقة ، وفي كلكتا « جماهير غفيرة ، تولد على الرصيف وتزوج على الرصيف وتموت على الرصيف » .

بقرة جواله في شارع من بومباي :

قد تزعج هذه البقرة النائمة حياة السوق ، ولكن ليس هناك من يجرؤ على طرد هذا الحيوان

المقدس . وتنح التعاليم الهندوسية دوماً استهلاك لحم الأبقار وحتى ذبح الحيوانات المحرمة أو المريضة . وتساهم هذه المحظورات الدينية ومخلفات نظام الطبقات جميعاً في كبح تطور الهند الاقتصادي . وكل من يحاول الخروج من الوضع الذي اكتسبه عند ولادته فإنما يعرض نفسه لعداوة الرأي العام . كما أن التوقير الذي تنتع به الطبقات التي تتبوأ سدة التسلسل الاجتماعي ، والتي تتألف غالباً من العاطلين عن العمل ، أو من الذين ينفرون من العمل اليدوي ، لا يكون أبداً من عوامل التحريض على التقدم . ويعمل أكثرية البراهمة اليوم في التعليم ، أو كوظفي مكاتب ، وأرباب فنادق أو مطاعم . لكن الجزائريين هم من المسلمين . أما نجاحات الرأسمالية الهندية فهي من صنع الفئات غير الهندوسية ، فؤسسة بيرلا قامت بجهود أحد الجائئين ، أما شركة تاتا الضخمة فهي ثمرة مبادأة أسرة من محوس بومباي .

هذا ولا يؤلف البراهمة بالضرورة طبقة مهيمنة ، فهذه تكون محلياً هي الطبقة التي تدمج السلطة الاقتصادية مع درجة عالية نوعاً ما في تسلسل الطبقات . وتتمارض هذه المنظومة من القيم بصورة جذرية مع المدنية الصناعية . كما أن التضامن القائم بين أعضاء طبقة ما يسمح لهؤلاء بفرض إرادتهم على الطبقات الأخرى . فدير مؤسسة ما لا يختار أعوانه من أكثر الناس كفاءة بل أفراداً من طبقته ، وهذا هو إكسبر التخلف .

عن شارل بلهايم « الهند المستقلة »

دار . آ . كولان ١٩٦٢

احصائيات

المدن الهندية الكبرى حسب إحصاء ١٩٧١

اسم المدينة	عدد السكان	اسم المدينة	عدد السكان	اسم المدينة	عدد السكان
كلكتا	٧٠٠٥٠٠٠	حيدرآباد	١٧٩٩٠٠٠	ناغبور	٨٦٦٠٠٠
بومباي	٥٩٦٨٠٠٠	بنغلور	١٦٤٨٠٠٠	بونا	٨٥٣٠٠٠
دهلي	٣٦٢٩٠٠٠	أحدآباد	١٥٨٨٠٠٠	لكنو	٨٢٦٠٠٠
مدراس	٢٤٧٩٠٠٠	كانبور	١٢٧٣٠٠٠		

يكون موقع دهلي ، حيث تقرر أكثر من مرة مصير الهند وفاتحها المتعاقبين ، عند تلاقي بلاد حوض الهندوس مع بلاد حوض الغانج . ولقد كانت دهلي القديمة عاصمة الأسر المالكة الإسلامية ، وكانت آخرها ، أسرة المغول ، التي حكمت بين القرن ١٦ والقرن ١٨ . وفي ١٩١١ قرر البريطانيون أن ينقلوا إليها المقر الإداري لامبراطورية الهند بعد مفادرة كلكتا . وبعد أن أصبحت نيودلهي عاصمة الاتحاد الهندي ظلت عبارة عن شكل مضلع رباعي ذات شوارع عريضة جداً تنفتح على عمارات ضخمة من الصخر الرملي الوردي ، كالقصر الجمهوري والبرلمان والوزارات .

مشكلة الأرض الزراعية

لقد كانت الضريبة العقارية في الهند ، الإنكليزية سابقاً ، تدفع مباشرة حسب المناطق ، من قبل مالك الأرض ، صغيراً كان أو كبيراً ، أو تحبى بواسطة « الأكارين العموميين » أي « الزامندار » الذين كانوا يعمدون لمصادرة أملاك المتلكّثين عن الدفع ، لمصلحتهم . وعند حلول الاستقلال ، كان الملاكون المتغيبون يملكون نصف المساحات الزراعية . وكان ثلث الفلاحين من الذين لا يملكون أرضاً ، على شكل عمال زراعيين يشتغلون ما بين ١٣٠ إلى ١٨٠ يوماً في العام ، وكان الثلث يزرع الأرض بطريقة المؤاجرة مساحات صغيرة جداً ، تاركين للمالك نصف المحصول على الأقل . وكانت أكثرية المالكين المستغلّين ، ذاتها ، لا تملك أكثر من هكتارين ، وهو الحد الأدنى الحيوي لمعيشة أسرة واحدة ، وبالتالي كانت تضطر للاستقراض من الدائنين أو من بقالية القرية . وكانت مسيرة الافتقار المتزايد هي القدر المحتوم ، كما قال أستاذنا بيبير جورج : « لا تسير الشعوب المتخلفة نحو الفقر المتزايد الذي بلغته منذ زمن بعيد ، بل تسير الآن قُدماً نحو التسول » .

وقد أخذ الاتحاد الهندي بتطبيق الإصلاح الزراعي على مراحل ، غير أن كيفية تطبيق قوانين عام ١٩٥٠ كانت من اختصاص الولاية المحلية وليس من اختصاص السلطة الاتحادية . وهكذا تخلّى « الزامندار » عن الأراضي التي لم يكونوا « يزرعونها » مقابل تعويض تقدي ، إذ يكفي لأن يعتبر الإنسان « مزارعاً » إذا كان يقيم محلياً دون أن يمارس بالضرورة زراعة حقوله مباشرة . وهكذا كانت المساحة المصادرة والخاضعة للتوزيع محدودة . كما أن التشريع ، الذي كثيراً ما انحرف عن غرضه ، كان يحدد سقفاً لمساحة

المستغلات ، يختلف باختلاف الولايات ، فكان هذا السقف ٧ هكتارات في كيرالا ، و ١١ في كشمير ، و ٢٥ في أسام . وأصبح المستأجرون أفضل حماية ضد الطرد ، كما أصبح اقتسام المحصول أقل إجحافاً بالمستأجر . غير أن الملاكين انتقلوا إلى مرحلة الاستغلال المباشر بالاستعانة بعمال مأجورين . وهكذا تشكلت طبقة من كبار المستغلين التي استفادت من « الثورة الخضراء » في البنجاب وفي تاميلناد ، وفي ماهاراسترا « منطقة بومباي » وذلك باستعمال البذور المصطفاة ، والأسمدة الكيماوية والري بالتنقيط ، وحتى المكننة . وقد أعقب تركز الملكيات تركز في المستغلات وإذا كان ٨٠ ٪ من المساحة الزراعية المفيدة مزروعة الآن مباشرة من قبل نسبة مماثلة من الملاكين المستغلين ، فإن ٧٢ ٪ من هؤلاء لا تصل ملكياتهم إلى هكتارين .

وهكذا تظل مشكلة الأرض الزراعية مطروحة ، ويعتمد المزارعون الصغار ، من ضعاف التجهيز ، أحياناً إلى تأجير الثور والمحراث . وينوء ثلث هؤلاء تحت نير القروض ، كما أن حقولهم مرهونة . أما العمال المياومون فهم عاطلون عن العمل مدة ثمانية أشهر خلال العام ، ويتزايد عددهم يوماً بعد يوم . كما لا يجد نداء « هبة الأرض » الموجه إلى الأغنياء من طرف حركة « غرامدام » الكثير من الآذان الصاغية .

غير أن المجتمع الريفي يتطور مع ذلك . فهناك أكثر من ٤٠٠٠٠٠ قرية تنتسب إلى تجمع التطوير الجماعي . فالتعاقد يسمح بتعبيد الطرق بالإضافة إلى مشاريع الري الصغرى . وهناك مرشدون ، موظفون لدى الدولة ، يعلمون الفلاحين أفضل التقنيات ، ويوزعون عليهم البذور والمحاصيل . وهكذا فإن إقامة منظومة ناجعة للإقراض الزراعي ، وإيجاد تعاونيات فلاحية للتموين وللتسويق ، فضلاً عن تعاونيات الإنتاج ، ستؤدي جميعاً إلى تحسين أوضاع

المزارعين ، دون أن تحل ، مع ذلك ، مشكلة الملكية الزراعية ، لأن ٤٠ ٪ من الفلاحين في هذا اليوم من الذين لا يملكون أرضاً .

إن نصف مساحة الهند مزروعة بصورة متفاوتة ، وهي نسبة ممتازة تعادل النسبة في فرنسا ، مع أنها لا تزيد عن ٣,٥ ٪ في مصر وعن ٢ ٪ في المملكة العربية السعودية ، والتي تعني أيضاً أن هناك القليل من الأراضي الجديدة القابلة للاستزراع . وللحفاظ على ثروة غائية ضاع منها الكثير وانخفضت ، لأن ١٣ ٪ منها عبارة عن غابة حقيقية ، فإن على قبائل شبه الجزيرة ومنطقة أسام في الشرق أن يكفوا عن الزراعة المتنقلة فوق الحريق ، وأن ينحسروا في رقعة محدودة . أما المزارع الحديثة ، ولا سيما مزارع الشاي ، والتي لا زال الإنكليز يحتفظون ببعضها ، فلا تغطي سوى مليون هكتار في أسام وفي كيرالا ، في أقصى الجنوب الغربي ، وإذا كانت المساحة الزراعية المفيدة تمتد على رقعة تبلغ ١٦٥ مليون هكتار ، فإن ٢٣ مليون هكتار من الحقول هي التي تعطي محصولاً مزدوجاً في العام ، ولكن تظل رقعة ذات مساحة مماثلة بحالة بور .

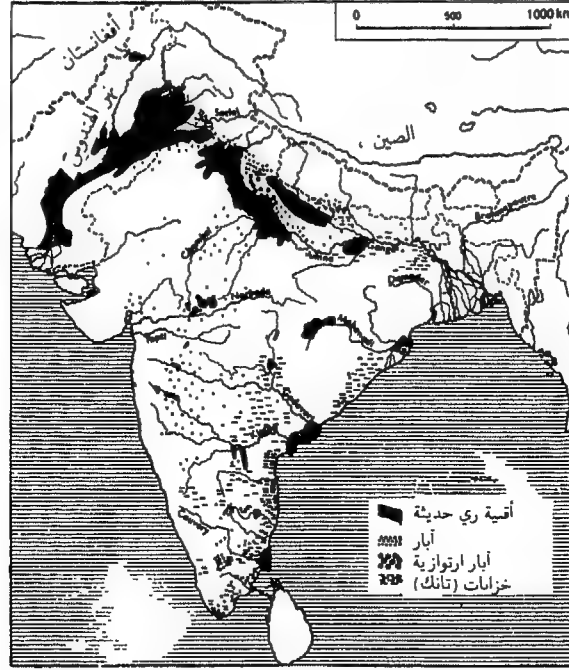
الحَيِّز المروي في البنجاب : تتصف الحقول في البنجاب بتقسيم هندي ، وتتألف من لحقيات خصيبة . ولكن تكون الحقول إجمالاً قليلة المساحة . كما أن المستغلين الذين يقطنون في قرى بعيدة ، يزرعون حوالي ٢٠ قطعة شديدة التبعثر شبيه بنظام المشاع الثابت في بلاد الشام . بيد أن البنجاب الهندي أو الباكستاني يؤلف منطقة متميزة . تلك هي المنطقة التي انحازت إلى « الثورة الخضراء » التي حققت نجاحات تقنية ، مثلما شهدت صدمات اجتماعية . وقد كتب رينيه دومون في جريدة لموند الدبلوماسية في ٢٠ حزيران ١٩٧٠ ما يلي : « لقد أصبح المالك ، الذي كان يبتزّ العائد العقاري من مستأجره ، راعياً في زراعة أرضه مباشرة ، بعد أن أغرته الأسعار المرتفعة الناتجة عن المجاعة وارتفاع مردود النوعيات الجديدة من الحبوب . وإذا اشترى أدوات حديثة فإنه يكتفي بنصف مستأجره ، الذين سيعملون كأجراء ، وسيطرد الزائدين ، وهكذا سرعان ما يحتكر المزارع الكبير الأسواق ويمعز الفلاح الصغير عن بيع فوائض الزهيدة ، كما أن من العسير عليه الوصول إلى المصادر الرسمية للإقراض ، أما المرابي فطالبه باهظة جداً . وهكذا أدت الثورة الخضراء إلى استفحال تمركز الأراضي ولا سيما البطالة ، وينصح الخبراء بتركيز وسائل التقدم على المناطق الغنية أي الخصيبة ، أو المروية ، أو الغزيرة الأمطار ، مثلما يرون الاهتمام بالمزارع التي تزيد مساحتها عن هكتارين ، لأنها هي الوحيدة القادرة على توظيف الأموال لانطلاق تنية استغلال ذاتي . أما إذا ظل الآخرون راكدين ، ومحرومين من العمل ، أو من القدرة الشرائية ، اللهم إلا إذا كان هناك عون حكومي ، فن سياكل الإنتاج المتزايد يا ترى ؟ » .

الزراعة : نجاحات متفاوتة

ليس في الهند منطقة تتوقف فيها الحياة النباتية بسبب البرد الشتوي ، حتى ولا في البنجاب ، هذا إذا استثنينا سفوح هيمالايا فوق ارتفاع يزيد عن ١٥٠٠ م . وإذا كانت هناك مزاروعات صيفية ومزاروعات شتوية ، فذلك حسب حاجتها للماء . وهكذا تكون الزراعة الصيفية « خريف » عامة : فتبذر الأرض عند هطول أوائل الأمطار الموسمية كي تجنى المحاصيل ابتداءً من أيلول حتى كانون الأول . فالذرة البيضاء والقطن والجوت وفستق العبيد « قول سوداني » هي مزاروعات « خريف » . أما قصب السكر فيكث في الأرض ما بين ١٢ إلى ١٨ شهراً وتقطع سوقه على دفعتين . ويبذر القمح في أواخر الموسميات الصيفية كي يحصد في شهر آذار أو نيسان . أما البقول كالحمص والبرسيم والأعلاف ، فهي مزاروعات شتوية أو « ربيع » بعلىة وبالتالي غير مضمونة . بيد أن المحصول السنوي المزدوج فوق الحقل ذاته يكون محدوداً إذ لا يتجاوز خمس المساحة المزروعة . ويقتضي الجفاف أو الفيضان ، وقلة الأسمدة في المناطق الأخرى ، وجود البور الفصلي أو السنوي .

وتكون ممارسة الري مرغوبة في أي مكان ، حتى ولو كانت كمية الأمطار الوسطية لا تستدعي ذلك ، وذلك من أجل زيادة المحاصيل وتنظيم إنتاجها . ولكن كثيراً ما يعتمد هذا الري على تقنيات بالية وبدائية (شكل ٧) . ففي جنوب شرق الدكن ، تقوم البرك الخازنة بالاحتفاظ بمياه فصل الأمطار ، ولكنها سرعان ما تجف أو تتردم بالوحول . أما في المناطق الأخرى فيعتمد على الآبار ذات الشادف التي ترفع المياه الباطنية . وفي آخر القرن

التاسع عشر ، أخذ البريطانيون بتنفيذ برنامج مشاريع هيدروليكية تجعل الري ممكناً في كل فصول السنة ، فأقاموا السدود التخزينية التي تحجز مياه الأنهار ومددوا الأقنية بين الأنهار التي توزعها بالراحة « على السارح » ضمن منظومة متشعبة من السواقي . ومن الصحيح القول أن « حرب المياه » بين



الري في العالم الهندي

الشكل ٧

الباكستان والهند استدعت فيما بعد حفر أقنية عرضانية تجتاز الفواصل النهرية لتغذية المجالات المروية ، التي توسعت من جهة أخرى بفضل السد الجديد على نهر ستلج ، وهو سدّ بهاكرا ، وبفضل قناة راجستان التي تمتد باتجاه صحراء ثار وطولها ٨٠٠ كم . وعلى كل فقد سمح تنفيذ مشاريع كبرى متعددة الأهداف ، أي أروائية أو كهرومائية ، والمشاريع الصغرى ، وحفر الآبار

الأنبوبية وإقامة مضخات ديزل أو كهربائية ، أقول : سمح بتنفيذها في كل الأمكنة بزيادة رقعة المساحات القابلة للري ، فقفزت من ٢١ مليون هكتار في عام ١٩٤٧ إلى ٣٤ مليون هكتار حالياً أو أكثر من ٢٠٪ من المساحة الزراعية المفيدة ولا يزال متوسط المردود ضعيفاً فيصل إلى ١٢ كنتال بالنسبة للحبوب ، وذلك بسبب نزوات المناخ والافتقار إلى التسميد ، ونظراً لفقر الفلاح فهو لا يعتمد أبداً لشراء الأسمدة الكيماوية ، ونظراً لحاجته للوقود فهو يقوم بحرق روث قطيع بقري عديد للغاية فعلاً ، بل هو أكبر قطيع بقري في العالم .

ومع ذلك تتحسن التقنيات . ففي فترة عشرين عاماً ، ارتفع استهلاك المخصبات الكيماوية عشرين مرة . ويتألف عشر البذار من نوعيات عالية المردود ، مثل قمح « المعجزة » والرز « الفيليبيني » . بيد أن « الثورة الزراعية » تظل محدودة مع هذا ، ضمن أكثر المناطق تطوراً أو مقتصرة على أقل الفلاحين فقراً .



الري : يعتمد الري الذي يسمح بتصحيح نظام مطري شديد التفاوت ، في المكان وفي الزمان ، يعتمد على تقنيات مختلفة :

- آبار لري حقول قريبة ، لا سيما في الفصل الجاف .

- سدود سطحية (تانك) تقوم خلف عصابة تحجز وادياً صغيراً ، وتمتلئ بمياه الأمطار ، وتستخدم لتنظيم الموارد المائية في فصل الأمطار ، ولكنها تكون جافة على العموم في بقية العام .

- قنوات الفيضان التي تستمد مياهها من الأنهار خلال الزؤد (الفيضان) دون أن تكون لها أية فائدة في أوقات الشح (الصيهد ، التحاريق) .

- قنوات دائمة تتغذى من سدود خازنة من أجل الري الدائم بالراحة في نطاق مروي منظم (السواقي ، محطات الضخ) . وهنا تستطيع المزارع أن تعطي محصولين في العام مع مردود مضمون طيب .

هذا وقد تتجاوز هذه التقنيات المتنوعة جنباً إلى جنب . وتفتقر معظم أرجاء الهند لوسائل الري ، وإذا ما وجدت فكثيراً ما يكون أسلوب استخدامها رديئاً . وقد أعجزت الهند بعد استقلالها ، مشاريع أروائية كبرى كتنظيم وادي نهر دامودار المهدي بالفيضانات ، وذلك حسب أسلوب نظام نهر التينيسي في الولايات المتحدة . وهناك مشاريع أخرى قيد التنفيذ . أمّا سد فاراخا ، على نهر الفانج ، فالمنتظر منه إنعاش دلتا البنغال الغربي « الميت » ، وربما كان ذلك على حساب بنغلادش ، التي ترفض استنزاف مياه هذا النهر بصورة مفرطة .



تقنيات ري عتيقة : يضطر معظم الفلاحين المنود للاعتماد في ري حقولهم على وسائل تقليدية ، لا تكون نجاعتها وفائدتها وجدواها متناسبة مع الجهد المضي ، فلا زالت تستعمل هناك « النصب » أي « الدلو » المصنوع من جلد ثور والذي يجره زوج من الأبقار الهزيلة من فوق بكرة ، كي ينصب الماء في قناة الري غير أن مضخة ري حديثة تكلف ٦٠٠٠ روبية ، أي ما يعادل الدخل المتوسط لمزرعة متوسطة في الاتحاد الهندي لمدة ٤ سنوات . وقد بطل هذا الأسلوب في وادي الفرات والخابور في سورية وفي المملكة العربية السعودية منذ أكثر من ٣٠ سنة .



وهناك حقول مروية على شكل مصاطب في كشمير : إذ يحوي حوض سريناغار مشهد حقول رز على شكل مصاطب من نمط الشرق الأقصى ، وهي ظاهرة نادرة جداً في الاتحاد الهندي . وهنا يوزع ماء السيول ، الذي يتم احتباسه بواسطة سكور صغيرة ، على الحقول المتدرجة ، ذات الحواف العشوائية كأنها خطوط كنتورية . غير أن صيانة الجدران الصغيرة والسواقي يتطلب عناية شديدة الدقة .



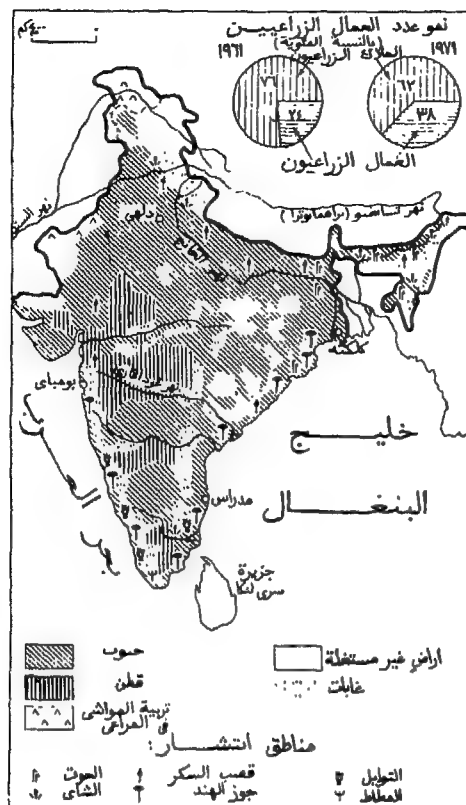
الزراعة الغذائية والتجارية « النقدية »

تستأثر المحاصيل الغذائية بأربعة أخماس المساحات المزروعة ، وتتألف من بقوليات ، ودرنيات ، كالمانيق في كيرالا ، والبطاط في البنجاب ، ولا سيما الحبوب وهي الغذاء الوحيد تقريباً لدى الفقراء ، إذ يستهلك القمح على شكل أرغفة وأقراص ، مثلما تستهلك الذرة البيضاء على شكل حساء أكثر من الرز الذي بلغ إنتاجه ٥٤ مليون طن في عام ١٩٨١ الذي يبدو غالياً للغاية (شكل ٨) . ولقد تضاعف إنتاج الحبوب خلال ثلاثين عاماً ، ولكن المحصول الذي يبلغ ١٣٢ مليون طن في ١٩٨١ لا يوفر أكثر من ٢٠٠ كغم لكل مواطن هندي . ونظراً لعدم توفر وسائل تخزين ، فإن التلف يصيب ما بين ١٠ إلى ٢٠٪ من المحصول بسبب الحشرات والقوارض . وبعد السنوات العجاف التي قد تستدعي شراء كميات كثيفة من القمح ، بلغت ٦ ملايين طن في عام ١٩٧٨ ، فإن المحاصيل تبدو أكثر وفرة وأكثر انتظاماً حالياً . ولكن الجراية الغذائية الوسطى ، لا تبلغ ٢٠٠ حريرة (سعة) في اليوم للفرد ، مقابل ٣٦٠٠ في الولايات المتحدة .

ولا يزال استهلاك السكر والمواد الدسمة هزياً ، مما يسمح بتصدير بعض الفائض . وتتصدر الهند الدول المنتجة لقصب السكر الذي يستخرج منه عصير حلو « غور » . وتزرع الهند أكثر المحاصيل الزيتية تنوعاً مثل السمسم والكويزا . أما السمن النباتي « مارغرين » Vanaspati فيصنع أساساً من النارجيل « جوز الهند » ، ولا سيما من أشجار نارجيل ولاية كيرالا ، أو من فستق العبيد « الفول السوداني » الذي يبلغ إنتاجه ثلث المحصول العالمي

والذي يصدر قسم منه من ميناء مدراس ، وبلغ إنتاج الهند من الزيوت النباتية ١١ مليون طن في ١٩٨١ .

أما المواد النسيجية فتكون ، على خلاف ما سبق ، مخصصة للصناعة الوطنية . فقد توسعت زراعة الجوت لتأمين حاجة مصانع كلكتا في البنغال وفي ولاية أوريسا ، جنوب غرب كلكتا . ولكن الهند تضطر لاستيراد بقية حاجتها من « الليف الذهبي » من بنغلادش ، ويزرع القطن فوق مساحة تزيد على ٨ ملايين هكتار في ظهير منطقة بومباي ، ولكن زراعته تتراجع القهقرى أمام الحبوب ، وتكون الأنواع المزروعة من الأصناف الرخيصة الرديئة ،



الشكل ٨
زراعة الهند

كما يكون المردود متفاوتاً في الزمان والمكان ، لأن ١٠٪ من الحقول مروية وتشترى الهند الأقطان الممتازة من مصر .

وإذا كان ميزان المبادلات التجارية فائضاً نوعاً ما ، فذلك يعود للشاي الذي تنتجه مزارع آسام وكيرالا والذي يصدر نصفه للخارج ، وهو محصول تضاعف إنتاجه بعد أن حصلت البلاد على استقلالها ، إذ تنتج الهند ٣١٪ من إنتاج الشاي العالمي وتقدم ٤٠٪ من الشاي التجاري في العالم . وتعادل أصناف الشاي الهندية الأنواع السيلانية ، ولكنها دونها شهرة . أما المحاصيل الزراعية الأخرى مثل البهار والقهوة ومطاط كيرالا ، فتباع للخارج أيضاً ولكن دورها أقل أهمية .

ويتراوح إنتاج الهند من الشاي بين ٣٥٠.٠٠٠ طن كما في ١٩٦٠ و ٣٧٥.٠٠٠ طن كما في ١٩٦٤ (وقراءة ٦٠٠.٠٠٠ طن حالياً . وتعتبر صناعة الشاي هامة جداً للهند لأنها توفر ربع دخلها من العملة الصعبة ، كما أنها أكثر الصناعات استخداماً للأيدي العاملة أو حوالي ١,٥ مليون شخص . وتقدم مقاطعة آسام نصف الإنتاج ولكن أجود الأنواع هي التي تنمو فوق سفوح هيمالايا قرب مدينة دارجيلينج . وعلى كل تقدم المقاطعات الهندية الشمالية لوحدها ٧٥ ٪ من الإنتاج . وتستحوذ مدينة كلكتا على بورص الشاي العالمية . وقد احتفلت هذه المدينة سنة ١٩٦١ بمرور ١٠٠ عام على تأسيسها ، وخطب رئيس الوزراء حينذاك وهو جواهر لال نهرو قائلاً : « لم يكن الشاي فقط شرباً للمشروبات الأخرى ، بل لعب دوراً حيوياً إذ ساهم في تكوين تاريخ وحضارة عدد من أقطار جنوب شرق آسيا ، كما عمل القطن في أجزاء أخرى من العالم » . وفي الهند حوالي ٧٠٠٠ مزرعة للشاي مساحتها تقارب ٢٥٠.٠٠٠ هكتار ، ويقع ثلثا هذه المساحة في مقاطعتي آسام والبنغال الغربي والباقي في الجنوب .

وعلى الرغم من أن الهند هي أول دولة تصدر الجلود والعظام ، فليس لتربية الماشية من أهمية اقتصادية . ومع ذلك تحوي البلاد قرابة ٢٠٠ مليون رأس من الأبقار ، والثيران ذات السنام « زيبو » والجواميس ، وهي حيوانات ملحقه لاغنى عنها لأعمال الحراثة والنقل . غير أن هذه الحيوانات الرديئة التغذية ، والتي تقتات بالقش اليابس فوق الأراضي البور ، أو في الأراضي الحصيد « الفراز » ،

يجعلها حيوانات هزيلة لا تعطي سوى القليل من الحليب ، إذ لا تعطي البقرة الهندية أكثر من ٢٠٠ لتر بالعام مقابل ٤٥٠٠ لتر في هولندا .

غير أن لدى الهند مربى ماشية مهرة ، كما تم نقل الثور الهندي المتوائم مع البيئة المدارية إلى ولاية تكساس والبرازيل . وحيثما تكون المزارع العلفية ممكنة ، كما في البنجاب ، فإن القطيع يتحول إلى ثروة حقيقية ، وعندما تكون الحقول أفضل تسميداً وفيما عدا ذلك لا توجد سوى ثيران مقدسة وبقرات تائهات .

وفي الهند حوالي ٤٥ مليون رأس من الأغنام يقدر إنتاجها السنوي من الصوف بمقدار ٣٤٠٠٠ طن سنوياً يستهلك أكثر من نصفه في معامل غزل ونسج الصوف المحلية والباقي يصدر للخارج ، ولديها مثل هذا العدد من الماعز التي ساهمت في تجريد البلاد من غطاءها الغابي ، وفي منحها منظرها الكالنج الأجرد وفي انجراف التربة .



من الممكن أن نميز في المجال الهندي ثلاثة نطاقات زراعية كبرى يتميز كل منها بنوع خاص من الحبوب . فهناك نطاق القمح ، وهو محصول شتوي ، وينطبق على البنجاب وشمال غرب الدكن ، وحيث يتناوب مع القطن ، وهو المحصول الصيفي ، وفوق سهول الغانج العليا حيث يشترك مع قصب السكر . أما الرز فيزرع على الخصوص في السهول الساحلية بين بحر عمان وخليج البنغال ويمتد فوق كل الهند الرطبة ، أي في شرق شبه الجزيرة وآسام ، وعلى وادي الغانج الأوسط وحتى كشمير . أما في البنغال فيتنافس مع الجوت ، وفي المناطق الأخرى مع قصب السكر . أما الذرة البيضاء الصيفية والدخن فينتشران في النصف الغربي من الدكن ، أما دخن « باجرا » ذو المردود الهزيل جداً فيزرع في أكثر الأراضي قحولة أو أقلها خصوبة ، ويجد في المناطق الأخرى الذرة البيضاء « جوار » والتي تتداخل مع محاصيل تجارية ، كالقطن فوق الأراضي السوداء ، ومع فستق العبيد فوق الرمال الحمراء . أما الشعير والذرة الصفراء ، فليس لهما أكثر من دور محلي كما في البنجاب وفي أودية هيمالايا .



منذ ربع قرن تقريباً يستجيب نمو الموارد الوطنية من الحبوب ، وسطياً ، مع الحاجات المتزايدة بفعل النمو الديموغرافي . بيد أن الهند ، وعلى الخصوص المناطق الشمالية الشرقية كالبنغال الغربي ، وبيهار ، وأوريسا ، شهدت أعواماً عجافاً على أثر انحباس الأمطار . ففي ١٩٦٦ مات نصف مليون هندي من الجوع خلال الصيف ، واضطر ١٠٠ مليون منهم أن يقيموا أودهم بجرية يومية لا تزيد عن ١٥٠ غراماً من الرز . وبالإضافة إلى الكوارث الطبيعية ، فإن نواقص التخزين ، لأن ملايين أطنان الحبوب تتلفها القوارض والحشرات والطيور ، وقلة وسائل النقل ، وضعف القدرة الشرائية لدى جاهير الهنود ، تؤلف جميعاً أسباب المجاعات المحتملة الوقوع دائماً . ومع هذا تتزايد مقادير الحبوب المتوفرة بسبب ارتفاع المردود وتوسع المساحات . وقد بلغ إنتاج شعير الرز ٧٨ مليون طن في ١٩٧٨ ، وهو في تقدم مستمر ، ولكن القمح هو الذي يقدم أفضل المحاصيل ، ويبلغ إنتاجه ٣١ مليون طن . فضلاً عن الأصناف المحلية من القمح القاسي المتوائمة مع الجفاف في الزراعة الشتوية ذات المردود الضعيف ، فقد حلت في البنجاب أصناف طرية مختارة ، تعطي بعد الري ٦٠ كنتالاً بالهكتار ، وهي أرقام قياسية عالمية .



تؤمن الزراعة الاستهلاك الذاتي في القسم الأعظم من الهند ، أي من أجل غذاء وكساء العائلات الفلاحية ، والتي يكون الفائض الذي يدخل الدارة التجارية منها هزيراً . ولكن المستغلين في المناطق الأخرى ، ولا سيما أغنام بالأرض ، يمارسون زراعات البيع cash-crops من أجل الصناعة والتصدير . وقد شجع البريطانيون ، أو فرضوا أحياناً ، هذه الزراعات التي تأتي في رأسها زراعة النباتات النسيجية ، كالقطن ، والجوت ، وقصب السكر ، وفستق العبيد ، ولكن لم تكن زراعة وحيدة ، إلا بالنسبة لمزارع آسام (شاي) وكيرالا (هيفيا وشاي) في مناطق تلال أوجبال .



إحصائيات
المحاصيل التجارية (النقدية) في الاتحاد الهندي
آلاف الأطنان

١٩٥٧	١٩٦٧	١٩٧٧	١٩٨١	
٢٠٤٠	٣٦٣٣	٥٢٣٩	٥٥٨٧	سكر القصب
٤٣٣٩	٥٧٣١	٦٠٨٤	٦٢٠٠	فستق العبيد
٩١٥	١١٥٦	١١٥٠	١٣٦٠	قطن (ألياف)
٧٤٢	١١٤٦	١٢٦٢	١٤٥٠	جوت (ألياف)
٣٦	٧٨	١٠٣	١٣١	قهوة
٣٠٣	٣٨٣	٥٦٥	٥٦٥	شاي
٢٤	٦٣	١٥٨	١٥٠	مطاط

أسس الصناعة في الاتحاد الهندي

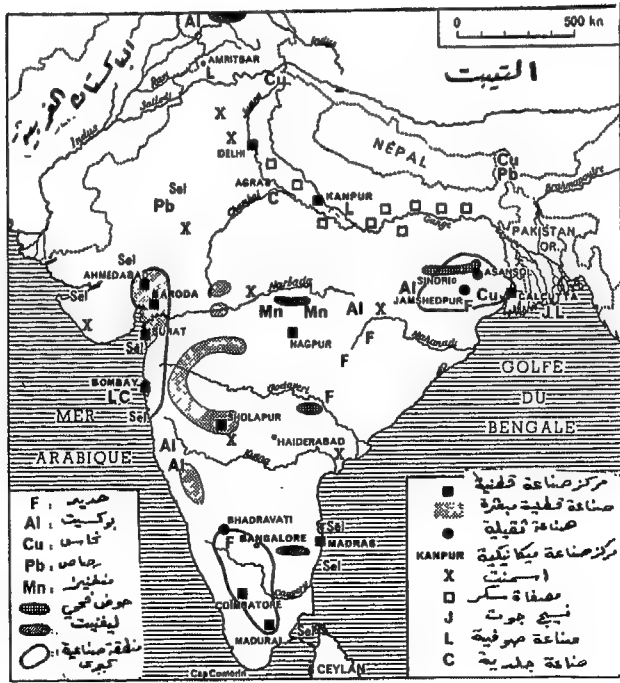
على الرغم من شهرة الهند قديماً بمنسوجاتها الحرفية التقليدية ، مثل أقمشة مدراس وكاليكوت والكشميري (الشال) فقد اضطرت البلاد ، بموجب « العقد الاستعماري » إلى تقديم القطن الخام إلى مصانع لانكشاير في بريطانيا . غير أن الهند الإنكليزية ، شهدت مع ذلك بداية تصنيع . فقبل عام ١٨٧٠ كانت مناجم الفحم في دامودار ، ومصانع الجوت في كلكتا ، والتي أنشأها الأيقوسيون ، والصناعة القطنية في بومباي والتي كانت في أيدي أثرياء الجائين أو المجوس . وقد تمكّن المجوسي (تاتا) في ١٩١١ أن ينشئ صناعة الحديد الهندية في مدينة جمشيدبور الصناعية قرب كلكتا . ولكن ظلت الصناعة الحديثة بعد الاستقلال محدودة تقريباً بصناعة الغزل والنسيج .

وحصلت بعد ذلك التاريخ نجاحات حقيقية . فقد تضاعف إنتاج الفحم

الحجري ثلاث مرات منذ ١٩٥٠ ، مثلما زاد إنتاج الفولاذ سبع مرات ، هذا رغم ضعف الإنتاجية والتنظيم الهزيل . ويتألف رؤساء المؤسسات الصناعية من رجال المال ، الذين يميلون لاكتناز المال أو توظيفه في المضاربات العقارية أكثر من استثماره في الصناعة . ويجد وكلاؤهم المهندسين الأكفاء ، ولكنهم يستأجرون من المتعهدين « المقاولين » مستخدمين ناقصي التدريب أو كثيري التغيب ، أو يجلبون شغيلة من أبناء قبائل شبه جزيرة الدكن الذين يقبلون بأجور البؤساء . وإلى جانب الشركات المؤممة ، تفرض التروستات العائلية وجودها مثل شركات بيرلا إخوان التي تملك ٢٩١ مشروعاً صناعياً في قطاعات غاية في التنوع ، ومؤسسات قاتا وأولاده ، والتي يعمل في مصانعها ١٢٠٠٠٠ مستخدم في مدينة جمشدبور ، والتي تهتم بالصناعة الحديدية والميكانيكية . وكذلك في المشاريع المتعددة ، الشديدة التبعض جغرافياً ، كالصناعات الكيماوية والمواد الدسمة ، والمنسوجات وصناعة السينما أو الصناعة الفندقية ، أي تقدم صورة مصغرة عن شركة ميتسوبيشي « المعينات الثلاثة » اليابانية التي تنتج الشاحنات والسيارات والمراوح والبرادات والمشروبات المعلبة وعصير الفواكه والإسمنت ومصانع تعليب الأسماك وسفن الصيد في أعالي البحار الخ (شكل ٩ و ١٠) . . .

وتقوم وسائل النقل على شبكة خطوط حديدية لا بأس بكشافتها ، يعود ظهورها لأول مرة لشهر نيسان ١٨٥٣ تمتد على ٦١٠٠٠ كيلومتر ، وتحقق ٨٠٪ من نقلات البضائع أو ٢٢٠ مليون / طن و ٧٪ من نقل المسافرين أو ٣٦١٢ مليون مسافر في عام ١٩٨١ ويعمل فيها ٦٠٠٠٠٠ موظف وفني وعامل . وتسير على الطرق عربات تجرها الثيران أكثر من الشاحنات ، ولا تكون الملاحة الداخلية على نهري الغانج وبراها بوترا نشيطة . وتستغل الخطوط الجوية الهندية خطوطاً دولية أكثر بكثير من نشاطها الداخلي . ولدى الهند

أسطول تجاري جديد حملته ٥ ملايين طن^(١) يرفع الراية الهندية ، غير أن حركة الموانئ الإجمالية لا تزيد عن ٨٠ مليون طن .



الشكل ٩

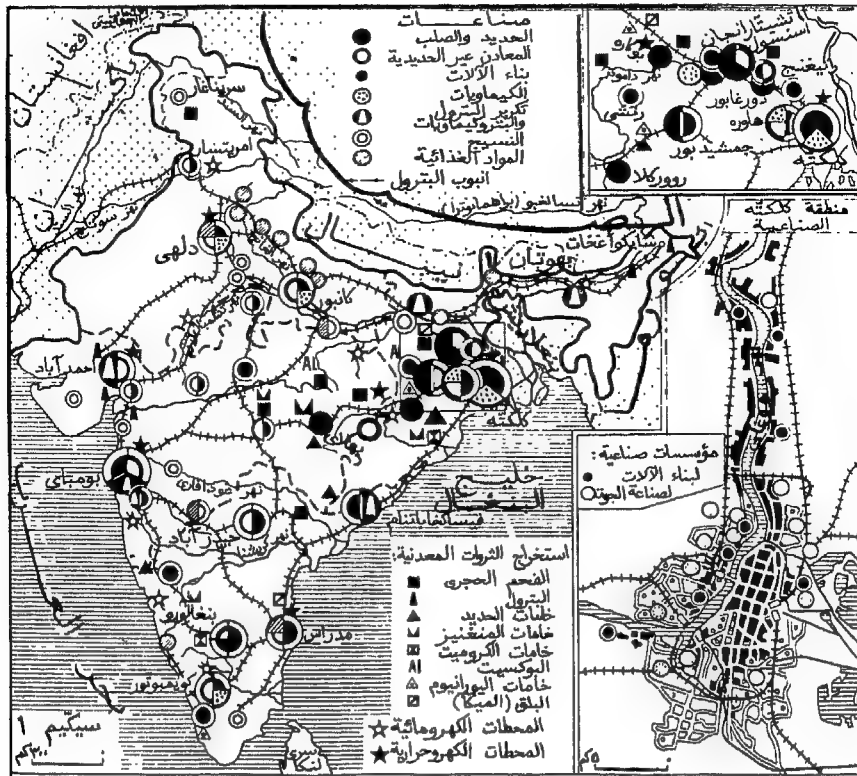
الثروات المعدنية والصناعات الرئيسية في الاتحاد الهندي

أما الهند التي تنتج ٩٠ مليون طن معادل بترول « طمب » وتستهلك ١٠٥ فتعتبر فقيرة بمصادر الطاقة . فالفحم فيها من نوعية رديئة ويوجد في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة ، ولكن إنتاجه الذي ارتفع إلى ١٠٥ ملايين طن بين فحم وليغنيت في ١٩٧٨ و ١١٤ مليون طن في ١٩٨١ لا يساير ارتفاع الطلب . هذا وتكون احتياطات النفط والغاز محدودة . فهناك حقول

(١) طنة مقياس دولي لسعة السفن يعادل ٢,٨٣ متر مكعب .

نפט آسام التي تتصل بواسطة أنبوب بمصفاة باروني Barauni على نهر الغانج ،
ومكان من كجرات والآبار البحرية تجاه ساحل بومباي ، والتي تبدو واعدة
أكثر من سواها . وقد أنتجت الهند في عام ١٩٨١ مقدار ١٥ مليون طن من النفط
مما يغطي ٤٠% من حاجاتها ، والتي تحاول الهند تقليصها إرادياً ، وتثقل
مشترياتها من البترول ولا سيما من إيران ٣٠% من مجمل استيرادها مقابل ١٠% فقط
في عام ١٩٧٣ .

وتنتج المراكز الحرارية ٦٠% من الكهرباء أو ١٠١ مليار و س أي أقل من



الشكل ١٠

صناعة الهند

ثلث إنتاج كندا التي يقل سكانها عن سكان الهند ٣٠ مرة . وهناك الكثير من القرى التي تنتظر الكهرباء ، ولا يزيد الاستهلاك الفردي في الهند من الكهرباء في العام عن ١٥٠ ك و س مقابل ١٤٣٦٣ ك و س لكل فرد كندي . ولما كان معدل استهلاك الفرد الهندي من الطاقة من معادل الفحم ، يساوي ٢٢٥ كغم فهو ينم عن تخلفها الصارخ ، لأن استهلاك الفرد الياباني يبلغ ٤٢٥٠ في العام أو ١٩ ضعفاً .



لقد أورث البريطانيون الاتحاد الهندي شبكة خطوط حديدية ، تعتبر شاذة في قطر مستعمر . ولا زالت هذه الشبكة بعد تأميمها تخوم حول مثلث كلكتا بومباي دلهي . وقد تمت كهربة أكثر الخطوط ازدحاماً (صورة رقم ٦) أو أقلها ربحاً . أما الموانئ البحرية فقليلة العدد وورديّة التجهيز ، ولهذا لا تكون قادرة على تحقيق المبادلات الدولية ضمن شروط طيبة ، ولا سيما بالنسبة للمواد التي لا يمكن نقلها إلاّ بحراً . وأكبر ميناء وهو بومباي لا يزيد نشاط حركته عن ١٨ مليون طن من البضائع منها ١٢ مليون للاستيراد بين نقط و قح .



وتملك الهند مكاناً واسعة من الفحم الدهني والليغنيت على شكل عروق سميكة غير متأثرة كثيراً بالحركات التكتونية ، وعلى عمق قريب . ولكن عيبها هو وقوعها غالباً في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة وتقديمها وقوداً رديء النوعية ، كثير الرماد ، وضعيف القيمة الحرارية ، ويصعب تحويله إلى فحم كوك ، باستثناء فحم دامودار ، ولكن يصلح استعماله في المراكز الحرارية . ويتألف عمال المناجم من فلاحين يهودون صيفاً إلى حقولهم ، والاستخراج قليل المكننة لأن الإنسان أرخص كلفة من الآلة .



هذا ولم يتكشف التنقيب البترولي عن أكثر من جيوب صغيرة . ولا تكون جيولوجية البلاد مشجعة بسبب شدة اتساع ترس shield الدكن القديم . ولكن البحث في عرض البحر قد يجنب بعض المفاجآت . ويتناسب التكرير الذي تبلغ طاقته ٢٦ مليون طن ، والذي يعالج خامات نقط الشرق الأوسط ، مع الحاجات الوطنية . وتكون معامل التكرير الساحلية في أيدي مجموعات أجنبية مثل شركة شل وشركة كالتكس . ويعتبر اقتصاد الهند من أكثر أمثاله تأثراً بارتفاع سعر « الفاتورة النفطية » بعد عام ١٩٧٣ .

وتبدو الطاقة الهيدروليكية الكامنة ضخمة ، ولكنها تشكو من عدم انتظام الأمطار الفصلي الذي يجبر على بناء سدود تخزينية عالية الكلفة . وتعمل المراكز الواقعة في جبال الغات ، عند أقدم هذه السلسلة ، اعتماداً على مياه مخزونة إلى الخلف منها . وتقع أكبر المراكز الكهرمائية في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة ، مثل هيراكود ، جنوب غرب كلكتا ، وعند أفواه الخوانق الهيمالائية ، كما في بهاكرا نانغال ، وتستخدم كذلك للري . أما المراكز التي تعمل على فحم الليغنيت ، مثل نيثلي ، قرب مدراس ، وعلى الفحم في دامودار ، أو على الفويل كما في بومباي ، فتعمل بصورة أكثر انتظاماً . وتعتبر الهند أول دولة بين دول العالم الثالث تملك مراكز كهربائية نووية ، شالي بومباي ، ولكن لا تستمد من هذا من الطاقة سوى ٣٪ من كهربائها .



صورة (١)

قطار الحجاج إلى بنارس ، قرب إيندور (وادي ناربادا) ويحب الهندي السفر بالقطار وتعرض القطارات إلى ازدحام رهيب وفوضى تميز العالم المتخلف

الاتحاد الهندي : دولة صناعية عظمى مستقبلية

إن الهند التي تحوي على هضبة الدكن ، إنما تملك ترساً قديماً جيد التمدن^(١) فهي تضم مليارات من أطنان خامات الحديد العالية المحتوى ، والتي أمكن تقديرها في الشمال الشرقي بين دامودار وناغبور ، وكذلك في غوا ، على الساحل الغربي . ويصدر نصف الفلزات المستخرجة بصورة رئيسية نحو اليابان ، أما الباقي فتستهلكه الصناعة الحديدية الهندية . هذا كما يستخرج من المناطق المذكورة ذاتها المنغنيز والبوكسيت الذي يشكل مخزونات ضخمة . وتستغل الهند أيضاً الإلمينيت ، وهو خام التيتان ، من منطقة كيرالا ، والرصاص والزنك من راجستان .

غير أن مصاعب النقل والافتقار إلى رؤوس الأموال تكبح من تطور الصناعات الاستخراجية مثلاً تعيق تطوير الصناعة الحديدية . وهناك مؤسسة قومية تعمل على تسيير مصانع الفولاذ المنضمة ، التي قامت منذ حوالي ربع قرن فوق مناجم الفحم الحجري في دامودار أو حول « الحزام الحديدي » ، الذي يمر من دورغابور بمعونة بريطانية ، وفي بوركلا بمساعدة ألمانية ، وفي بهيلائي و ثم في بوكارو بدعم سوفياتي ، وهناك مصنع ساحلي قيد الإنشاء في ميناء فيزاغاباتام يقوم بفضل المال والخبرة اليابانيين . وقد سكبت صناعة الحديد الهندية ١٠,٥ ملايين طن من الفولاذ في ١٩٨١ ولكن الاستهلاك الفردي من هذا المعدن لا يزيد عن ١٥ كغم مقابل طن واحد للفرد في بلجيكا .

(١) كلمة ترس أو عجن تقابل كلمة shield بالإنكليزية و bouclier بالفرنسية ، وهناك خطأ دارج وشنيع في الترجمة ، لأن ترجمتها بكلمة درع يدل على جهل عميق بالمدلول الأجنبي والعربي .

وتتفوق الصناعة النسيجية دوماً من حيث عدد العاملين فيها ،
وتمثل عشرين في المائة من الصادرات ، وتحتكر كلكتا صناعة نسج الجوت التي تنتج
٥٠٪ من الصناعة العالمية لمنسوجات الجوت والأكياس والتي تتعرض للمنافسة
بفعل ظهور طرائق أخرى للتغليف والتعبئة مثل أكياس « غرات » خيوط
النايلون ؛ المستعملة في تعبئة الدقيق وسواء من السلع . هذا وتتبوأ الهند
المرتبة الرابعة العالمية في صناعة الأقطان ، ولا تزال المراكز الكبرى واقعة
في بومباي وأحمد آباد . غير أن الصناعة القطنية ولا سيما النسيجية ، التي هي
حرفية ، تظل غالباً مبعثرة في مناطق زراعة القطن على الخصوص . وأمام قلة
الأقطان المحلية ، فقد اضطرت هذه الصناعة إلى أن تدمج في أقمشتها قطناً
مستورداً بمقادير متزايدة ، أو خيوطاً اصطناعية . كما أن عليها أن تجابه في
الأسواق الخارجية منافسة هونغ كونغ أو منافسة باكستان .

أما الصناعات الخفيفة الاستهلاكية الأخرى ، فتكون على العكس في
عنفوان تطورها : فتصنع الهند الدراجات ، وماكينات الخياطة ،
وأجهزة الراديو وتأتي في رأس دول الجنوب في هذا المضمار ، ومبيدات
الحشرات ، والمضادات للحيويات أو للعطور . أما بالنسبة لسلع التجهيز ؛
فإن شراء براءات الاختراع ، أو الاشتراك مع شركات أخرى منتجة أجنبية ،
يكون ضرورياً . ولكن الهند تجاوزت مرحلة التجميع بإنشائها صناعة سيارات
يقارب إنتاجها ١٠٠٠٠٠ سيارة ، وتبني آلات الخطوط الحديدية ، مثلما تباع
مكائن صانعة ذات تكنولوجيا بسيطة .

ولا تزال الصناعة الهندية إلى جانب الصناعة الحرفية ، عاجزة
عن تأمين العمل لأكثر من ١٢٪ من الأيدي العاملة . وهي تشكو من
مظاهر قصور كقدم آلتها ، ومن توزع جغرافي غير متوازن . وتقع
الصناعات الثقيلة في معظمها في الشمال الشرقي ، حيث يوجد حوض

دامودار الذي يلقب « الرور الهندي » مثلاً نجد مشاهد الاكتشافات المنجمية ومعسكرات العمال في قلب الغابة الكثيفة في نطاق التيرائي ، أي في السفوح الدنيا لجبال هيمالايا . وإذا استثنينا البنجاب ، حيث تقوم بعض الورشات الصناعية الريفية : كصناعة الآلات والأصواف أو راحات كرة المضرب « تينيس » ، فإن المصانع تقع في بعض المدن ذات التقاليد الصناعية مثل كانبور ، أحمدآباد ، بانغالور ، غربي مدراس ، والتي هي مركز الصناعات الدقيقة ، ولا سيما حول بومباي وكلكتا .



الصناعة النسيجية : تحتل الصناعات النسيجية الهندية ، التي هي وريثة تقاليد قديمة جداً ، والتي تدعمها دوماً صناعة حرفية نشيطة ، تحتل من حيث حجم إنتاجها المرتبة الرابعة في العالم بعد الصين والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة ، وتتقدم على اليابان ، مثلاً تحتل المرتبة الأولى في ميدان الصادرات بلا منازع ، وخاصة الأقمشة القطنية وأقمشة الجوت . ويكون توزع هذه الصناعات جغرافياً خاضعاً بصورة متفاوتة لاعتبارات قرب المواد الأولية ، مثل الجوت في البنغال ، والقطن في الدكن أو في البنجاب ، والأصواف في هيمالايا كما في كشمير .

غير أن استمرار الصناعة الحرفية يطرح عدداً لا بأس به من المشكلات . وفي مقدمتها مشكلة بقائها على مدى الزمن . ويمكن تفسير ذلك بالحماية الجغرافية التي تلعب دورها بالنسبة لبعض السلع الثقيلة الوزن ، كالخزفيات ، وبقاء الأذواق التقليدية ، التي تأخذ الصناعة الحرفية على عاتقها مهمة إرضائها كالمجوهرات والحلي . ويعمل تمثل التقنيات الجديدة ، في بعض الحالات ، على دعم الصناعة الحرفية : كاستخدام صناعة الألبسة مكائن الخياطة . غير أن العامل الجوهري في بقائها يبدو كامناً في ظاهرة نقص الاستخدام التي تسمح ببقاء الأجور المنخفضة ، واستغلال الأولاد من جانب البالغين ، وعدم استمرارية العمل ، وهكذا ندرك كيف تستطيع الصناعة الحرفية البقاء على قيد الحياة ، وأن تظهر ناجمة جداً أحياناً باعتبارها مؤسسة قائمة . في حين أن العمال الحرفيين يشكون أشد أنواع الإملاق .

عن ج دوپوي . « آسيا الجنوبية »

نشر P.U.F . ١٩٦٩

إحصائيات آلاف الأطنان

الهند	بنغلادش	باكستان	غزول القطن	غزول المجوت
١٩٥٧	١٩٦٧	١٩٧٧	٧٦٠	٧٨
			٨٩٥	١١٤٠
			٨٤٧	١٠٥٥
			٣٧	٥٤٠
			٢٨٨	—



تتحدد مواقع الصناعة الثقيلة بوجود المواد الأولية ، ومصادر الطاقة . وتقع كل مركبات صناعة الحديد الكبرى في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة . ولهذا يكون نقل الفولاذ نحو بومباي والبنجاب أو الجنوب ، بواسطة قطارات مزدحمة بطيئاً وعالي التكلفة .

ولدى الهند صناعة ألنيوم تنتج حوالي ٢٠٠٠٠٠ طن ، ومركبات صناعية كإيوية تنتج الأسمدة الآزوتية فوق مناجم فحم دامودار أو فحم ليفنيت حوض نيڤيلي Neiveli ، وبجوار المراكز الكهربائية أو مصافي النفط . وإذا قارنا مستوى الصناعات الثقيلة مع الإنتاج الفرنسي وجدناه لا يزال متواضعاً لأن الهند تنتج ٤٥٪ من إنتاج فرنسا من الفولاذ ، وثلاث إنتاج فرنسا من الأسمدة أو ٦ ملايين طن ، وثلاث الإسمنت الفرنسي البالغ ٢٠ مليون طن .

إحصائيات ملايين الأطنان

خام الحديد

فحم	وليفنيت (محتوى من الحديد)	الفولاذ
١٩٥٠	٣٢,٨	١,٩
١٩٦٠	٥٢,٧	٦,٩
١٩٧٠	٧٧,٨	١٩,٦
١٩٧٦	—	٢٧,٢
١٩٧٨	١٠٥,١	٢٢,١

الاتحاد الهندي : في طريقه إلى التنمية

لقد كان على الاتحاد الهندي ، حسب قول مؤسسه جواهر لال نهرو ، أن يبني اقتصاداً حديثاً ومجتمعاً اشتراكياً « بصورة منسجمة مع عبقرية الشعب الهندي خاصة » . وتشرف الدولة على القطاعات الحساسة : الطاقة ، المواصلات والنقل ، الصناعات الأساسية والتجهيز ، ولكنها تتفاوض على أهداف الخطة مع شركاء اجتماعيين ، أي مع أرباب العمل والنقابات . وترمي المخططات الخمسية ، وهي مؤشرات وليست ملزمات ، إلى زيادة الدخل القومي ، وتقليص الفوارق الاجتماعية ، وعلى الخصوص منح البلاد الاستقلال الاقتصادي .

وكان المخطط الأول ١٩٥١ - ١٩٥٥ ، يتمحور حول المشاريع الهيدروليكية ، وقد كان عبارة عن نصف نجاح ، أما الثاني ١٩٥٦ - ٦١ فقد عمل على تنمية الصناعة الثقيلة ولكن دون أن يحقق أهدافه . وقد ساهم تعاقب المواسم الزراعية الرديئة ، وعبء النفقات العسكرية ، والتنافس بين الولايات ، والاندفاع الديموغرافي ، على كبح النمو ، الذي كان في حد ذاته بطيئاً وغير منتظم . ومنذ ثلاثين عاماً ارتفع الدخل المتوسط للفرد الهندي بحوالي الثلث ، أو بمعدل دولار واحد في السنة ، ليلبلغ ١٧٠ دولاراً . في حين تضاعف الدخل الفردي في أقطار أوروبا الغربية أكثر من ثلاث مرات في نفس الفترة ليصل وسطياً إلى ٥٠٠٠ دولار ، وهذا على الرغم المساعدات والهبات الغذائية الوافدة من الغرب والشرق ، بحسبان الهند زعيمة دول العالم الثالث ومن المؤسسين لكثرة دول عدم الانحياز .

ولا يزال الناتج القومي الخام PNB ، الذي تقدم الزراعة ٤٦ ٪ منه دون

مثيله في اسبانيا ! أما بالنسبة للفرد الواحد ، فلا يزيد عن ١٧٠ دولار كما ذكرنا ، ومنذ ١٩٧٠ لا يزيد الارتفاع السنوي لهذا المعدل وسطياً عن ٠,٥ ٪ وإذا كان الاتحاد الهندي لا يغطس في مستنقع الفقر أكثر ما هو عليه ، مثل بنغلادش ، أو ، الصومال ، أو السودان وسواها من دول العالم الخامس ، فإن الاتحاد الهندي يظل النموذج الأمثل لقطر فقير في طريقه إلى التنمية .

ومع ذلك يعبر تنوع المبادلات التجارية عن تقدم اقتصادي . فقبل ٢٠ سنة كانت نسبة صادراتها من المنتجات الزراعية ومن تربية الماشية تعادل ٣٠ ٪ والفلازات ٦ ٪ والمنسوجات الجاهزة ٣٥ ٪ . وكان الشاي والجوت والقطن لوحدها والتي كانت تصدر بحالة خام أو مصنعة تمثل حينذاك ٥٥ ٪ من الصادرات . أما الآن فإن قيمة المكائن المصدرة يعادل صادرات المنسوجات ، كما أن الفولاذ أصبح مساوياً لحامات الحديد من حيث القيمة في ميزان الصادرات . ولا تزال الهند تشتري دوماً سلع التجهيز بنسبة ٢٠ ٪ والحبوب ، وكذلك المواد الأولية ، ولا سيما النفط والذي أصبح يعادل ٣٠ ٪ من قيمة استيرادها رغم التخفيضات التي منحتها إياها الدول العربية المصدرة للنفط . ويعاني ميزان المبادلات عجزاً خفيفاً ، ولكنه يتعوض بمصروفات السواح الأجانب وتحويلات الشغيلة المهاجرين والمعونة الدولية .

وفي خلال الخططين الأوليين كان ٢٠ ٪ من الاستثمارات تأتي من العون الخارجي كما كان الاتحاد السوفيتي يمنح الهند الحياضية أكثر مما كان يعطي للصين الشيوعية . وبعدئذ تشكل « نادي معونة الهند » الذي سمح لها بتخفيف أزمته الغذائية وبتجهيز نفسها . وفي كل عام تتلقى الهند ما يعادل ٢ ٪ من ناتجها القومي الخام على شكل هبات وقروض ، حتى أن فوائده الدين الخارجي تمتص ٢٠ ٪ من قيمة صادراتها ، . وقد كان هذا الدعم الخارجي مفيداً لاقتصادها ففي خلال الخطط السادس ١٩٧٨ - ١٩٨٣ ، ترمي الهند إلى أن توظف كل سنة ١٦ ٪

من ناتجها القومي الخام ، ولاسيما من أجل تحسين إنتاجيتها الزراعية ولتشجيع صناعاتها الريفية .



منظر من أحد شوارع كلكتا : لقد اجتذبت بداية التصنيع العديد من الريفيين باتجاه المدن بحثاً عن عمل محتمل . بيد أن التجهيزات العمرانية تعجز عن الاستجابة لمثل هذا التدفق البشري . ففي كلكتا التي يقدر عدد سكانها بين ٧ أو ١٢ مليوناً ، فإن الأحياء المجهزة بالمياه الجارية ومجاري المياه البوسة ، لاحتوي أكثر من مليون نسمة . وفي المدن الهندية حوالي ١٠ ملايين رجل بلا عمل منتظم ، في حين يرتفع عدد هؤلاء في الريف إلى ٥٠ مليون . وهكذا ندرك أن الهند لاتتخلص من فقرها المدقع إلا بصورة بطيئة جداً ، كما يبدو أن مسيرتها نحو الحياة الأفضل ستكون طويلة جداً ، وربما دون منفذ نجاة محتمل إذا لم تجد المشكلة الديموغرافية حلاً ناجحاً كما فعلت الصين في ١٩٨١ إذ لم تسمح للأسرة الواحدة بأكثر من مولود واحد .

تم طبيعة المبادلات الخارجية عن قطر يسير في اتجاه التصنيع السريع . فقد أصبح أكثر من نصف الصادرات عبارة عن منتجات مصنعة ، كسلع الاستهلاك ٣٧ ٪ ، وسلع التجهيز ١٧ ٪ مقابل ٢٣ ٪ للمواد الأولية و ٢٢ ٪ للمنتجات الغذائية . وليس بعيداً عن الهند أن تعادل مشترياتها وبين مبيعاتها من المواد التجهيزية ، كأن تباع مصانع « مفتاح باليد » ، كصانع السكر مثلاً من بلاد العالم الثالث . وتبدو الهند بالموازنة مع جارتها المسلمتين ، باكستان ، وبنغلادش ، ذات مستوى تصنيع عال . هذا كما نجحت الهند في تنويع عملاتها التجاريين . فقد أصبحت إنكلترا ، وهي الدولة المستعمرة السابقة ، تأتي بعد اليابان التي تشتري القسم الأعظم من الخامات المعدنية ، والولايات المتحدة وحتى الاتحاد السوفيتي الذي أصبح أول زبون للشاي الهندي .

الطفل الهندي : يمكن تصنيف الاتحاد الهندي ، بين أمم العالم الثالث ، على أنه يدخل في الأمم « الطافية émergente » نظراً لنجاح صناعاته ومستواه التكنولوجي . ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار فقره الجماهيري أو شدة فوارقه الاجتماعية ، والامية المستفحلة ، وسوء التغذية ، ووضع المرأة المتدني ، ووضع الأطفال ، فهو يظل دوماً أمة « كادحة » وأكثر الأمم الفقيرة سكاناً .

وفي الهند ١٦,٥ مليون طفل يعملون في شروط وأوضاع لا إنسانية . فهناك مجموعة مصانع عيدان الثقاب^(١) تستخدم ما بين ٢٠٠٠٠ و ٢٨٠٠٠ طفل ، لاتتجاوز أعمار بعضهم خمسة أعوام ، والذين يعملون من الساعة ٣ صباحاً حتى الساعة ١٩ ليلاً .

(١) أو الكبريت في بلاد الشام ، والشخاط في العراق ، والوقيد في المغرب العربي

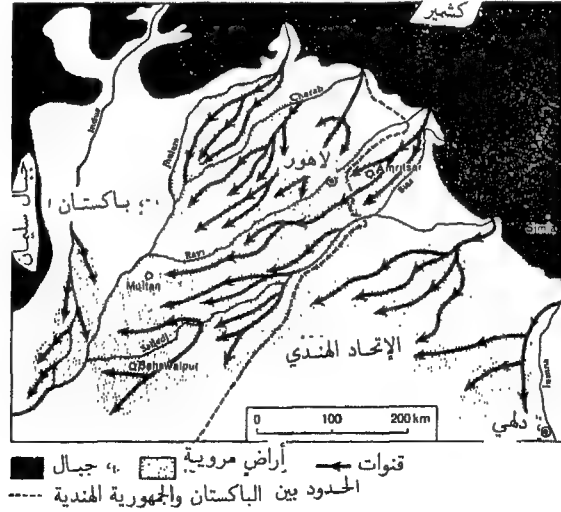
الباكستان

إنها دولة قامت على أساس ديني بحت ، فقد تطلع شاعر كبير هو (محمد إقبال) في عام ١٩٣٠ ، إلى إنشاء دولة إسلامية منفصلة عن الهند ، دولة تتحدى الجغرافيا والاعتبارات الاقتصادية . وقد نشأت باكستان فعلاً نتيجة رغبة عدد قليل من الرجال السياسيين ، فكان أبوها زعيم الرابطة الإسلامية (محمد جنته) . وتكون باكستان التي هي دولة إسلامية ، أي دولة الأَطْهَار ، لأن كلمة باك بالفارسية تعني الطاهر ، شديدة التعلق بالإسلام ، ويذكرنا عليها المؤلف من هلال ونجمة بيضاء ، فوق أرضية خضراء ، بالأصول الدينية وبيقظة الإسلام في آن واحد ، والتي تخصّ جزءاً من عالمنا الحالي ، هذا كما تحتفظ الباكستان بالتقاليد العسكرية الإنكليزية ، مثلما تبقى اللغة الإنكليزية هي اللغة الرسمية تقريباً .

وعاصمة هذه الدولة إسلام آباد ، وهي مدينة حديثة ، قامت في ١٩٦١ في شمال غرب البلاد يسكنها ١٠٠٠٠٠ نسمة ، قرب بلدة راولبندي العسكرية التي تحوي ٧٥٠٠٠٠ نسمة . ولكلمة باكستان مدلول جغرافي وسياسي في الوقت ذاته . فقد اقتبست حروفها من أسماء بعض مناطق ، كان يطمح مؤسسو هذه الدولة الفتية إلى توحيدها . فكلمة ب = تعني بنجاب وآ = أفغانستان وك = كشمير ، و س = السند ، وتان = المقطع الأخير من كلمة بلوتشيستان . ولكن أفغانستان وكشمير ، ظلتا في خارج الحدود الحالية لجمهورية باكستان . كما عملت الهند على فصل جناحها الشرقي الذي كان يدعى باكستان الشرقية فظهرت دولة فقيرة جديدة هي بنغلادش .

الباكستان بلاد القمح والقطن : وكان يسكنها ٤٦ مليون نسمة في ١٩٦٨ ، وارتفع عددهم إلى ٧٢,٣٧ مليون في ١٩٧٦ وإلى ٧٦,٨ في ١٩٧٧ . وبالتأكيد أكثر من ٨٤ مليوناً في ١٩٨٢ . وتنتسب مشاهدتها الجغرافية إلى الهند الغربية الجافة ، أو بالأحرى إلى أقطار الشرق الأدنى مثل إيران والعراق . ويسود فيها كبار الملاكين ، الذي يعيشون على حساب صغار الفلاحين والشركاء . ويجعل تضاريسها منها ، ثغراً حدودياً حقيقياً . فتنتصب جبال عالية في الشمال وفي الغرب ، تتمثل بسلسلة هندكوش ، وجبال سليمان ، وسلاسل بيلوتشستان (شكل ١) ، والتي تعمل جميعاً على حماية الباكستان . ولكن هناك ممرات عديدة ، مثل ممر خيبر الذي تحرسه مدينة بيشاور ٢٥٠.٠٠٠ نسمة وممر كيّتا ، تجتازها طرق سحيقة تقود إلى الاتحاد السوفيتي ، وإلى أفغانستان وإلى إيران . ويعيش بجوار هذه البوابات الشمالية الغربية ، قبائل متنوعة حتى أن بعض القرى الحصينة هناك ، تختص بصناعة الأسلحة الخفيفة . ويؤدي ابتعاد المحيط ، ووجود ضغوط عالية شبه مدارية خلال القسم الأعظم من العام من باكستان منطقة قاحلة ، فالأمطار لا تزيد عن ٥٠٠ مم إلا في بعض المناطق المحدودة وكثيراً ما تقل عن ٢٠٠ مم ، وهكذا لا تنجو الباكستان من الصحراء إلا بفضل الأنهار الوافدة من هيمالايا ، إذن هي هبة نهر الهندوس وروافده ، مثلما كانت مصر ولا تزال هبة النيل . ولقد أدمج القسم الأعظم من البنجاب ضمن الدولة الجديدة ، والذي يؤلف أغنى أرض زراعية أو « لومبارديا المدارية » ، والبنجاب هو بلاد الأنهار الخمسة الرافدة لنهر الهندوس . ولقد شكلت مخاريط انصبابها بيمونت حقيقياً ، نتيجة تلاحمها ، يمتد إلى الجنوب من هيمالايا . ولقد استطاعت منظومة هائلة من قنوات الري ، أنشأها الإنكليز إبان حكمهم ، أن تحوّل مياه الأنهار الجبلية نحو الفواصل النهرية الفسيحة (شكل ٢) ، مما سمح بري خمسة ملايين هكتار . وينتج البنجاب القمح والدخن والقطن والبذور الزيتية

كالمسم وقصب السكر ، أي ما يكفي لتغذية ٧٠ مليون نسمة من السكان . غير أن مفتاح منظومة الري برغبات الدولة المجاورة .

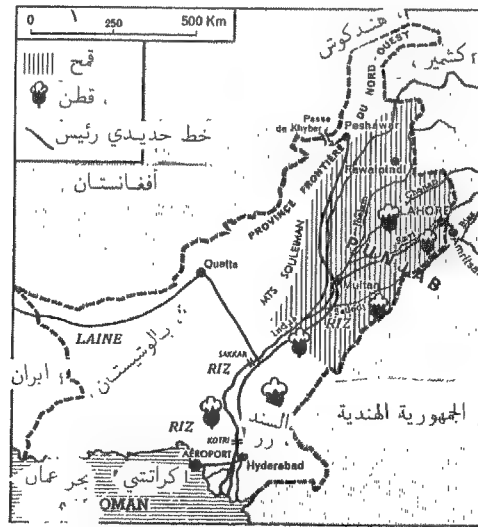


نظام الري في البنجاب

الشكل ٢

وتضم مدينة **لاهور** التي أصبحت مدينة حدودية ، قرابة ٢,٥ مليون نسمة ، وهي أكبر سوق في البنجاب الباكستاني ، وهي أكبر مركز ثقافي إسلامي ، وغنية بالأبنية الأثرية التي شيدها أباطرة المنغول المسلمون . أما في الجنوب فتكون بلوشستان ، والسند عبارة عن صحارى حقيقية رملية ، تتجول فيها قطعان الجمال والأغنام بحثاً عن كلاً هزيل . وتقوم في بلوشستان قنوات باطنية ، تجمع مياه الجبال ، وتقوم عليها بعض الواحات . أما في السند ، فقد سمح سد **سوگور** (شكل ٣) ، الذي أضيف إليه سد **كوتري** أن يروي مساحة تعادل أرض مصر الزراعية ، تقوم عليها زراعة الرز والقطن . أما دلتا نهر السند فلا زال رقعة خاوية . وقد تحول ميناء الصيد في **كراتشي** الذي يسكنه ٤ ملايين نسمة ، إلى ميناء كبير لتصدير القمح والقطن في القرن الماضي ، ويقوم فيه حالياً

بازار شرقي كبير فضلاً عن مرسى بحري كبير وميناء جوي . وبعد أن كانت هذه المدينة عاصمة مؤقتة بعد ١٩٤٧ تضخمت بسبب تدفق اللاجئين . ومن المدن الشهيرة في البلاد : ملتان الواقعة في البنجاب ، ويقطنها ٦٠٠٠٠٠ نسمة ، وحيدرآباد في شمال كراتشي وفيها ٧٥٠٠٠٠ نسمة وليالپور وفيها ٩٠٠٠٠٠ نسمة وبالپور . هذا وتعتبر اللغة الأوردية اللغة القومية ويؤلف المسلمون ٩٧٪ من السكان ، ولا تزيد نسبة النصارى عن ١,٣ ٪ .



الباكستان

الشكل ٣

وتعاني الباكستان بصفتها دولة متخلفة من الأمية ، التي بلغت نسبتها ٨٠٪ في ١٩٥١ وتبلغ حالياً ٧٠٪ ، مثلما تعاني من مشكلة السيخ الذين يقارب عددهم ١,٥ مليون ، ولا يتحملون حكم دولة الباكستان بسهولة . وهناك الباتان وهم قبائل تنتسب إلى الأفغانين ، وظلوا حتى عام ١٩٧٧ يحاولون الانضمام إلى أفغانستان المجاورة . ولما كانت الباكستان تتمتع بوضع استراتيجي عند ملتقى

العالم الإسلامي مع آسيا الوسطى السوفياتية أي التركستان ، وآسيا الصينية ، والعالم الهندي فهي تكابد من حياة عسيرة ، ولا سيما بعد لجوء ٢,٥ مليون أفغاني إليها بعد أحداث عام ١٩٨٠ وتدخّل القوات السوفياتية .

وعلى أثر التقسيم في ١٩٤٧ أصبح اقتصاد الباكستان زراعياً صرفاً لأن مصانع القطن والخبراء أصبحوا في الاتحاد الهندي . هذا ويبلغ إنتاج البلاد من القمح ٤ ملايين طن وقراءة ١,٥ مليون طن من الرز . ولما كان إنتاج القطن الطويل التيلة ، يصل إلى ٤٠٠٠٠٠ طن ، فإن الباكستان تحتل مكانة مرموقة بين الدول المصدرة للقطن ، أي تعادل مصر في إنتاجها كما وتخصص مساحات كبيرة من أراضيها لإنتاج البذور الزيتية كالكولزا والجرذل والمحّص والأشجار المثمرة كالفتق في الشمال وأخيراً قصب السكر في الجنوب .

هذا وقد حققت هذه الدولة رغم خوض الباكستان حربين ضد الهند ، كانت آخرها في ١٩٧١ والتي تمخضت عن ظهور دولة بنغلادش في مكان باكستان الشرقية ، أقول : حققت بعض النجاحات . فنذ ١٩٥٨ سمح تطبيق الإصلاح الزراعي بالقضاء على الملكيات الكبرى مع تعويض كبار الملاكين لمصلحة الفلاحين المستأجرين أو الشركاء . وتوسعت الأراضي المروية ، كما أصبح الفلاحون يقومون بأنفسهم باتخاذ التدابير المؤدية لتحسين أوضاعهم . غير أن تبديل العقليات والعادات لا يتم بين عشية وضحاها . وقامت الدولة بوظيفة المتعهد المقاول والصناعي والمخطط ، واستدعت رؤوس الأموال الأجنبية ، التي أصبحت تشكل ٤٠٪ من الاستثمارات الموظفة في البلاد ، حتى أن تسديد القروض الأجنبية يمتص ١٠٪ من موارد البلاد من العملة الصعبة .

وأخذت باكستان باستغلال مناجم الملح ، ومكامن الكروم . أما إنتاج الفحم الحجري والنفط فلا يكفي حاجة البلاد ، وإن كان قد حقق بعض التقدم ، فتنتج البلاد ١,٥ مليون طن من الفحم ، وقراءة مليون طن من النفط ،

هذا كما يكثر الغاز الطبيعي في إقليم السند في موقع سوي Sui ، حيث ينطلق منه خط أنابيب ، يتفرع نحو لاهور في الشمال الشرقي ، ونحو كراتشي في الجنوب الغربي . وهكذا تعتبر الطاقة الكهربائية إلى جانب الغاز ، أهم مصادر الطاقة في مستقبل البلاد . وقد قامت مراكز لإنتاج الطاقة الكهربائية ، ومصانع الغزل والنسيج القطني ، والمنتجات الكيماوية وترسانات البناء البحري ، مثلما دخلت مصانع الإسمنت مرحلة الإنتاج . مثلما أنتجت البلاد مقدار ١,٢ مليون طن من الفولاذ في ١٩٧٠ .

وتتجاوز حركة ميناء كراتشي ٥ ملايين طن بالعام . ولكن العجز في التجارة الخارجية يظل من أكثر المشكلات مرارة ، لأن ٨٠٪ من الصادرات تتألف من القطن ، في حين أن ٦٠٪ من المستوردات يتألف من منتجات مصنوعة ، وتنال باكستان معونة لا بأس بها من دول الخليج العربي ، ولا سيما من المملكة العربية السعودية ومن البنك الإسلامي .

ويتعلق اقتصاد باكستان بعلاقاتها مع الهند . وقد أمكن التوصل لمعاهدة لاقتسام مياه نهر الهندوس في ١٩٦٠ ، تحتفظ الهند بموجبها بمياه الروافد الثلاثة الشرقية ، في حين تتصرف باكستان بمياه الأنهار الثلاثة الغربية ، وهي الهندوس وجهلام وشناب ، وتنظمها من أجل الري وإنتاج الطاقة الكهربائية .

غير أن تزايد السكان العشوائى ، هو الذي يفرض تدابير تحديد النسل في بلد إسلامي ، أي تماثل تركيا ومصر وتونس وبنغلادش . ويبدو بقاء وتماسك باكستان رغم كل ما انتابها باعثاً على الدهشة . وتدين بحياتها بلا ريب لوجود نخبة إدارية وعسكرية ، تشكلت على أيدي البريطانيين . ولكن قبل كل شيء إلى شدة التماسك الذي حققه الإسلام .

☆ ☆ ☆

بنغلادش

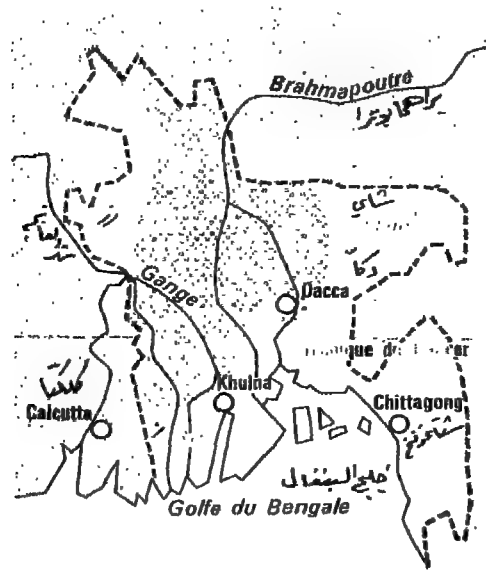
مساحتها ١٤٢٠٠٠ كيلومتر مربع ، وكان عدد سكانها ٥٦ مليون نسمة في ١٩٦٨ و ٨٥ مليون في ١٩٧٧ وأكثر من ٩٠ مليون في ١٩٨٢ بحيث تزيد الكثافة عن ٦٣٠ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد .

وهي بلاد رطبة ، ذات أرض منبسطة وخصيبة ، تنتسب في مشاهدتها لآسيا الجنوبية الشرقية . وهي تحتل بالواقع القسم الأعظم من أوسع دلتا في العالم ، هو البنغال . وقد قام هنا نهر الغانج وبراها بوترا بدم منخفض تكتوني بكتلة جسية من لحقيات « طمي وغرين » حديثة وخصيبة . هذا وينجذب نهر الغانج نحو شرقي الدلتا الأكثر انخفاضاً ، حيث تجنح إلى التلاقي والتلاحم مع براهما بوترا ، بحيث يتخلل في غربي البنغال ، أي في أراضي الاتحاد الهندي (شكل ١) ، عن أراضي سيئة الصرف ، وحيث تستفحل البرداء « الملاريا » بينما يروي بفيضاناته أراضي بلاد بنغلادش ، التي تحشى اتساع المستنقعات في الشرق ، وتصاعد الملح إلى سطح التربة في الجزء الغربي من البلاد .

هذا وتكون الأمطار غزيرة ومنتظمة ، تبلغ المترين وسطياً في العام ، وتعرض البلاد لفيضانات الأنهار التي تسمح للفلاحين البنغاليين بالحصول على موسمين من الرز في العام ، وبالقيام بزراعة الجوت في الفصل الرطب ، والذي تستخدم أليافه في صناعة الأكياس والبسط والقلوع .

ولما كان الجوت يمثل الزراعة التجارية الكبرى ، فهو الذي يجعل الميزان

التجاري إيجابياً في بنغلادش ، بيد أن جمهورية الهند عمدت بعد تقسيم الهند في ١٩٤٧ إلى التوسع في زراعة الجوت في أراضيها وأصبحت منافسة لزراعة الجوت في بنغلادش . وعلى كل يمثل إنتاج بنغلادش من الجوت ٧٥ ٪ من المحصول العالمي أو أكثر من مليون طن . وتنتشر مزارع الشاي فوق التلال . وتبنى البيوت فوق العصيات اللحية التي تواكب ضفاف الأنهار ، للتخلص من مخاطر الفيضان ، وذلك بين أشجار المانجة والبامبو والأشجار المثمرة الأخرى فوق مستوى المستنقع الفسيح المزروع بالرز . وتمثل الزراعة ٦٠ ٪ من الناتج القومي ويعمل فيها ٧٥ ٪ من السكان العاملين .



الشكل ١

غير أن انطباع الغنى الطبيعي ، يبدو خداعاً ، فالفلاحون شديداً الفقير ويتعلق مصيرهم بأسعار محصول تصديرى وحيد هو الجوت . وتنتج البلاد ما يزيد على ١٢٠٠٠ طن من السكر من القصب .

أما الصناعة الريفية التي كانت مزدهرة في القرن الثامن عشر ، فقد انحطت ويكون محصول الرز أحياناً غير كاف لتغذية سكان تصل كثافتهم في بعض البقاع إلى أكثر من ٧٠٠ نسمة في الكيلو متر المربع ، وتعرض البلاد للمجاعات بصورة دورية .

هذا ولا تختلف بنغلادش عن شقيقتها الباكستان من حيث ارتفاع نسبة الأميين إذ تصل إلى ٧٥ ٪ كما كان التقسيم ضاراً جداً بها لأن مصانع غزل الجوت ونسجه كانت تقع في أراضي الجمهورية الهندية ، ولذا يكون مصير زراعته تحت رحمة مصانع كلكتا . وأقامت هذه البلاد خلال وحدتها مع الباكستان مصانع هامة لغزل القطن ونسجه نظراً لرتوبة جو هذه البلاد ، بحيث تغزل من القطن مازنته ٤٠.٠٠٠ طن في العام . وقد توسعت المساحات المروية بعد أن قامت شركات تعاونية بتنفيذ مشاريع ضخمة للقطاع العام .

هذا وقد بدأ اكتشاف مكن غاز هام في هذه البلاد ، يقدر احتياطيته بحوالي ٣٠٠ مليار متر مكعب منذ بضعة أعوام ، ودخل مرحلة الاستغلال .

هذا وتعمل الدولة على تحسين تجهيز ميناء شيتا غونغ ، التي يبلغ مقدار سكانها المليونين . أما العاصمة دكا فيبلغ عدد سكانها ٢,٥ مليون نسمة . كما أقامت بنغلادش ميناءً جديداً في خولنا في الغرب ، كي تصبح بنغلادش مستقلة تماماً عن سيطرة كلكتا .

وتصدر البلاد الجوت والشاي والجلود ، وتستورد تجهيزات النقل والحديد والفولاذ والإسمنت . ويؤلف المسلمون ٨٠ ٪ من سكان البلاد ، والهندوس ١٥ ٪ والبوذيون ، والنصاري ٥ ٪ .

☆ ☆ ☆

أندونيسيا

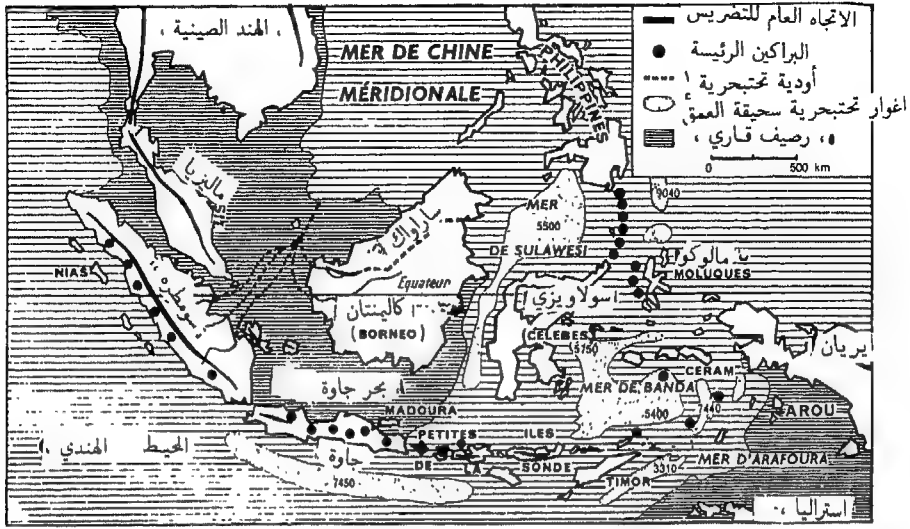
ترتصف على طرفي خط الاستواء ، بين جنوب شرقي آسيا ، وبين القارة الأسترالية ، وذلك على مسافة تقارب المسافة الواقعة بين نواكشوط ، عاصمة جمهورية موريتانيا الإسلامية ، وبين مسقط ، عاصمة سلطنة بلاد عمان ، أو أكثر من ٥٠٠٠ كيلومتر ، أقول ترتصف قلائد من جزر يؤلف مجموعها أوسع أرخبيل في العالم . وكانت تدعى آنسولند ، أو جزر الصوند . ويقع القسم الأعظم من هذا الأرخبيل تحت سلطة دولة فتية ، ولدت من مستعمرة هولندية شاسعة ، كانت تدعى جزر الهند الشرقية ، والتي حصلت على استقلالها في عام ١٩٤٩ بعد كفاح مرير ، وأصبح اسمها أندونيسيا . وهذه الدولة التي هي أكثر دول آسيا الجنوبية الشرقية اتساعاً ، إذ تمتد مساحتها على قرابة مليوني كيلومتر مربع ، أو ١٩١٩٢٧٠ كيلومتر مربع بعد أن ضمت إليها النصف الغربي من جزيرة غينيا الجديدة في عام ١٩٦٣ ، واستردتها من هولندا ، والنصف الشرقي من جزيرة تيمور في عام ١٩٧٦ ، وكان يسكنها ١٥٠,٢ مليون (في ١٩٨١) ، بعد أن كانوا ٩٦ مليوناً في ١٩٦٢ ، وتعتبر أكبر دولة إسلامية ، لأن أكثر من ٨٠٪ من سكانها مسلمون ، ويؤلفون سدس مسلمي العالم .

أولاً : الملامح الطبيعية الكبرى

الأرخبيل الأندونيسي : ويضم قرابة ٣٠٠٠ جزيرة منها ٣٥٠ جزيرة ، تتجاوز مساحة كل منها ١٠٠ كيلومتر مربع . وعلى العموم يستفحل تفتت الجزر في الوسط ، ومن الشمال إلى الجنوب . فبعد الأراضي المتكتلة في جزيرة صومطرة غرباً وجزيرة كاليمنتان (بورنيو) شمالاً ، تتعاقب جزر متوسطة الأبعاد مثل : جاوا و سولاويزي ، أو سيليب سابقاً ، ومن ثم ، وإلى الشرق من جاوا ، يظهر ثثير من جزر الصوند ، أهمها بالي ، فلوريس ، تيمور وجزر مالوكو ، أو مولوك سابقاً ، وتنبثق من الشرق من الأرخبيل ، جزيرة غينيا الجديدة التي تدعى إيريان الغربية .

البنية والتضريس

ينتسب القسم الغربي من الأرخبيل ، أي جزر سومطرة ، جاوا ، كالمنتان ، إلى قارة آسيا وتتألف من أجزاء عائمة من عتبة تحتائية ، تدعى الصوند لا يتجاوز عمقها المتوسط ٥٥ متراً والتي لا تزيد أعماقها عن ٢٠٠ م إطلاقاً (شكل ١) . وترتبط هذه الجزر الكبرى بسلاسل ثلاثية ملتوية ، نذكر منها القوس الممتد من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي في كالمنتان ، والممتد من جزيرة مندناو ، في الفيليبين . أما القوس الماليزي الصرف ، والذي نهض مع سائر السلاسل الألبية ، فينعطف من الشمال الغربي نحو الشرق منطلقاً من بيرمانيا ويمر من صومطرا ، وجاوا ، ويستمر في جزيرة بالي وفلوريس . وقد عامت هذه العتبة كلياً خلال حقبة الزحف الجودي ، وشكلت ما يدعى « أرض الصوند » فكانت امتداداً للقارة الآسيوية ، وبعد ذوبان الجليد في نهاية آخر



مخطط البنية والتضريس في اندونيسيا

الشكل ١

زحف جمودي في شمال أوروبا وأمريكا ، تعرضت هذه العتبة للخفس وتجزأت إلى هذه الجزر الكبرى الحالية .

أما في الجزء الشرقي الأقصى من الأرخبيل فإن بحر آرافورا يجلب تحت مياهه الرقيقة عتبة أخرى تدعى عتبة ساهول ، والتي تتألف منها جزيرة غينيا الجديدة ، والتي تختص أندونيسيا بنصفها الغربي ، وهو إيريان ، ويتألف نصفها الشرقي من جمهورية بابوازيا المستقلة ، أو غينيا الجديدة الشرقية ، و ثم قارة أستراليا .

و يمتد بين هاتين العبتين ، وكذلك على الحافة الجنوبية الشرقية من عتبة الصوند ، أي عند التقاء قطاعين قليلي المقاومة من القشرة الأرضية ، يمتد نطاق كان مسرحاً لزلزلات شديدة ، ولانهيارات ولانكسارات . ويكون هذا النطاق كثير الأثلام البحرية السحيقة ، الضيقة تارة ، والعريضة تارة أخرى ، وذات حواف عديدة الانتظام ، وتهبط هذه الحفر إلى حوالي ٧٥٠٠ م . جنوب جزيرة جاوا وفي بحر باندا ، شرقي جزيرة سيلانيزي .

وقد نهضت أطواق الآتول atoll المرجانية كلما هبط قعر البحر ، وغطست التشكلات المرجانية ذات السفوح الشديدة الانحدار ، والتي تتوج تلك « الآتولات » إلى أكثر من ٢٠٠٠ م ، كما يمكن العثور على مرجانيات ميتة على ارتفاعات مختلفة ، مثل تلك المصاطب الساحلية التي تنهض حتى ١٢٠٠ م في وسط جزيرة تيمور ، ومن جهة أخرى كانت تلك الكوارث التحتائية مصحوبة بنشاط بركاني كثيف .

البركنة

يتجلى عدم استقرار أرض أندونيسيا على شكل ظواهر بركانية عديدة ، وبالكثير من الزلازل . وتشتمل البلاد على ٣٠٠ بركان ، منها حوالي ٥٠ بركاناً ناشطة . وتحوي جزيرة جاوا لوحدها ، فوق ركيزتها المؤلفة من الصخور الرسوبية الثلاثية الملتوية ، مقدار ١٢٠ بركاناً ، منها ٣٢ بركاناً ناشطاً . ويعود معظم هذه البراكين للحقب الجيولوجي الرابع . وتنتسب هذه البراكين إلى نماذج متنوعة جداً : فهناك مخاريط منتظمة تنهض أحياناً حتى ارتفاع يناهز

٤٠٠٠ م ، وهناك أيضاً مخاريط مشدوقة ذات فوهات « كراتر » أطلالية المظهر ، هذا فضلاً عن هياكل بركانية متكثلة تثقبها « كالديرات » واسعة يتجاوز قطرها ١٠ كيلومترات أحياناً ، ونتيجة عن انفجارات ، أو عن انهيارات أعقبت ثوراناً عنيفاً ، هذا عدا عن المداخل البركانية « فوميرول » ، التي تنبثق خواصرها ، أو تملؤها مياه بحيرات ، مثل بحيرة توبا في صومطرة ، وهي أكثر البحيرات البركانية اتساعاً في البلاد ، كما نجد في هذه الجزر براكين ذات فوهة مزدوجة ، أو تحمل على خواصرها براكين إضافية ، هذا فضلاً عن مساحات واسعة منسجمة ، مؤلفة من لابات بركانية ، ومن الطف Tufs . أما بعض الجزر فليست أكثر من براكين بسيطة .

« تكاد تكون كل الثورانات الحالية تقريباً من النمط الانفجاري . وأشهرها هو ثوران بركان كراكاتوا ، الذي أطاح في عام ١٨٨٣ بإحدى جزر مضيق الصوند وفتتها . وقد بلغت أصوات الانفجار ، مسامع كل سكان الأرخيبيل وتلوثت طبقات الجو العليا بالرماد فوق كل سطح الكرة الأرضية ، وبلغ عدد الضحايا ٣٦٠٠٠ قتيل ، هلكوا غالباً نتيجة غزو المد raz de mareé ، الذي نتجت عن موجة اندفعت نحو كل السهول المجاورة ، فاندفعت الموجة المذكورة نحو الخلجان العميقة في المضيق ، ورفعت مستوى المياه لمقدار ٢٣ متراً فوق المستوى العادي ، وحملت المراكب الراسية في الموانئ لمسافة بعيدة داخل الأراضي . ولا يزال الإنسان يعثر في المنطقة على طبقة من رماد سمكها ١٠ سم تحت لحقيات السفوح .

عن روبكان « العالم الماليزي »

وإذا كانت هذه الكوارث نادرة نوعاً ما ، فإن من المؤلف كثيراً رؤية مسكوبات اللابة ، ولا سيما المسكوبات الوحلية ، أو لاهار ، وهي عبارة عن انزلاقات مواد بركانية مشبعة بالمياه الناجمة عن أمطار غزيرة ، أو عن تفريغ فجائي لمياه بحيرات الفوهات « كراتر » .

غير أن منافع البركة تفوق مخاطرها . فالترب ذات الأصل البركاني تمتد في

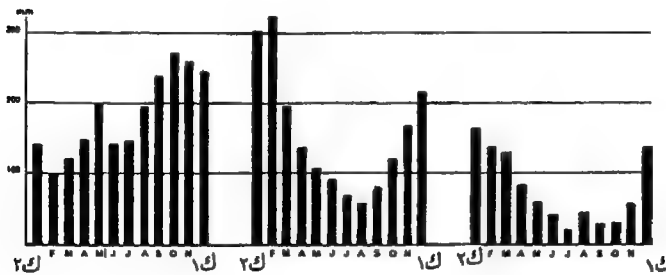
أندونيسيا على مساحات واسعة ، وتمتع بخصوبة فريدة ، كما تؤلف التضاريس بفضل نفاذية معظم صخورها خزانات طبيعية لمياه ثينة جداً ، من أجل ري المناطق الواقعة في أسفلها ، لأن الماء ، كما قيل : « أرخص موجود وأغلا مفقود »

المناخ والنبات

تقع أربعة أخماس أندونيسيا جنوب خط العرض العاشر شمال خط الإستواء وجنوبه . وهكذا يكون المناخ متميزاً بحرارة منتظمة مرتفعة نوعاً ما . وتتراوح متوسطات درجات الحرارة حول ٢٦ درجة ، كما تكون الفروقات ضعيفة جداً خلال العام . ففي جاكرتا لاتزيد السعة عن درجة واحدة بين أكثر الشهور حرارة وهي ٢٦,٤ وبين أقلها حرارة أي ٢٥,٤ . ونظراً للتأثير البحري لا يكون الحر متطرفاً أبداً ، ولا يتجاوز الحد الأقصى للحرارة المطلقة ٣٥ درجة ولكن الحر يظل ثقيلاً مستمراً . وجبال نصف الكرة الجنوبي هي وحدها التي تتعرض للانجماد خلال الفصل الجاف .

أما نظام الأمطار فيحوي على تنوع أكبر وتكون الأمطار على العموم غزيرة ، لأن أندونيسيا لاتقع ضمن النطاق الاستوائي الرطب بحد ذاته فحسب بل تكون محاطة بمساحات محيطية شاسعة للغاية . وهكذا تتجاوز شطيرة الأمطار الهائلة سنوياً في بعض النقاط ٦ أو ٧ أمتار ، كما في مدينة بادانغ على الساحل الغربي من جزيرة صومطرة ، أو في وسط جزيرة جاوا (شكل ٢) .

سومبا (٨١٠ مم) جاكرتا (١٨٣١ مم) ميدان: صومطرة (٢٢٢٠ مم)



الأمطار في

أندونيسيا

الشكل ٢

وفيما عدا الاختلافات الناجمة عن فوارق درجات العرض ، فإن نظام الرياح هو الذي يفسر تفاوت هذه الأمطار . فنظراً لوقوع أندونيسيا ضمن نطاق آسيا الموسمية ، فهي تخضع بالتالي لرياح متناوبة : أي تتعرض لرياح أليزة « تجارية » نصف الكرة الشمالي خلال فصل الشتاء الشمالي وتكون مطيرة ، ولرياح أليزة نصف الكرة الجنوبي خلال الصيف الشمالي . هذا وتكون رياح أليزة نصف الكرة الجنوبي المدعومة بوجود أنتيسايكلون ، مستقر حينئذ فوق أستراليا ، في فصل الشتاء الجنوبي ، في الشرق ، أقول : تكون بالتالي ، عبارة عن رياح جافة .

وإذا كانت كمية الأمطار وتوزعها خلال العام متبدلة باختلاف المواقع ، فيمكن القول بأنها أكثر انتظاماً في توزعها بجوار خط الاستواء . ونجد في مدينة ميدان الواقعة في شمال صومطرة ، أن كل الأشهر تكون مطيرة ، مع وجود حدّين أقصىين عند مرور الشمس في السمّت ، أي في الاعتدالين . وتقل هذه الأمطار تدريجياً باتجاه الشرق . وهكذا تنال سومبا ٨١٠ مم مثلاً تطول فترة الجفاف . وهكذا تهطل أكثر الأمطار على السفوح المعرضة للرياح ، كما تسقط الحدود القصوى فوق جبال صومطرة وجبال جاوا ، حيث تصل كمية المياه الهاطلة إلى ٧ أمتار ، وكذلك في داخل جزيرة كالمنتان « بورنيو » .

ونظراً إلى كون معظم هذه الأمطار ذات طابع طوفاني ، فإن أكثرية الأنهار تكون غزيرة التغذية ، وبالتالي ذات انحدارات شديدة ، وتنقل نتيجة ذلك مقادير كبيرة من الطمي . وهي ذات فائدة كبيرة للري . مثلاً تكون قطاعاتها السفلى صالحة للملاحة أحياناً . وأخيراً يوائم تحالف الحر مع الرطوبة انتشار الغابات التي لا تزال تغطي ، رغم عمليات الاستزراع ، وممارسة الزراعة فوق الحريق « لادانغ » ، ثلاثة أرباع مساحة جزيرة كالمنتان ، و ٧٠٪ من جزيرة سولاويزي ، ومالاكو ، و ٦٠٪ من جزيرة صومطرة ، و ٢٥٪ من جاوا ، ومعظم إيريان الغريبة أو ١٢٠ مليون هكتار ، أو ثلثي مساحة البلاد ، منها ٤,٢ ملايين هكتار صالحة للاستغلال الاقتصادي . وتتألف الغابات من أشجار ضخمة ذات خشب ثمين ، ومن الملتفات ، ومن النباتات الراكبة ، ومن أقصاب البامبو التي يصل قطرها إلى ٧٥ سم . وتتقهقر هذه الغابات في العديد من المناطق وتتحول أحياناً إلى السافانا التي تسود في جزر الصوند الصغرى ، الأكثر جفافاً ، وعلى كل لا تمثل صادرات الخشب حتى الآن سوى ١,٥٪ من قيمة الصادرات الكلية في البلاد .

المساحات والسكان والكثافة في الجزر الرئيسية في الأرخبيل الأندونيسي

جزيرة أو أرخبيل	مساحة كم ^٢	%	ملايين السكان	%	كثافة نسمة/كم ^٢
كالمنتان	٥٤٠.٠٠٠	٢٨,٥	٥	٤,٢	٩
صومطرة	٤٣٥.٠٠٠	٢٢,٩	٢١	١٨	٤٤
إيريان بارات	٤٢٣.٠٠٠	٢٢,٢	١	٠,٨	٢
سولاويزي	١٩٠.٠٠٠	١٠	٨,٥	٧	٤٥
جاوا	١٣٠.٠٠٠	٧	٧٦	٦٣	٥٧٦
نوزانتغارا	١٠٠.٠٠٠	٥,٣	٦,٥	٥,٥	٦٥
مالوكو	٧٥.٠٠٠	٤	١	٠,٨	١٣

ثانياً : السكان والتطور السيامي

لقد ظل عدد السكان راكداً تقريباً أو يتزايد بسرعة بطيئة جداً حتى نهاية الثلث الأخير من القرن الماضي . فكانت نسبة التوالد القريبة من الحدود الطبيعية المفروضة حسب وتيرة الخصوبة ، وهي ٤٥ بالآلف ، كانت مصحوبة بنسبة عالية من الوفيات ، الناجمة عن أوضاع معاشية منحطة جداً . وابتداءً من عام ١٩٣٠ ، وبفضل التقدم في الشروط الصحية وتحسن الغذاء ، حصل هبوط متسارع في نسبة الوفيات دون تعويض مرافق في وتيرة الولادات . وراح عدد السكان يتكاثر ابتداءً من ذلك التاريخ بصورة أكثر تسارعاً ، وتبلغ حالياً نسبة النمو الطبيعي ٢,٤٪ في العام ، أي يتضاعف عدد السكان مرة كل ٣٠ سنة . وبلغ سكان أندونيسيا أكثر من ١٥٠ مليون نسمة في ١٩٨١ .

توزعهم :

من الواضح في مثل هذه الأوضاع أن البلاد تتجه نحو أزمة خطيرة جداً ، لا سيما وأن السكان يتركزون في بعض الجزر مثل جاوا و بالي ، حيث يزدحم

السكان والموارد محدودة . وربما تصبح حالة هاتين الجزيرتين مأساوية على المدى القريب . ففي عام ١٩٠٠ كانت الكثافة تقل عن ٢٠ نسمة في الكيلومتر المربع ، وفي عام ١٩٨٥ ستصل الكثافة في جاوا إلى أكثر من ٧٠٠ نسمة في كم^٢ ، مع أن الكثافة الوسطى في البلاد لن تتجاوز ٨٥ نسمة كم^٢ .

ويعتبر الشعب الأندونيسي في أيامنا شعب فلاحين ، لأن نسبة الذين يعيشون في مدن يزيد تعدادها من ٢٠٠٠٠ نسمة لا تزيد عن ٢٠٪ . إذن يبدو من الإنصاف في حالة كهذه أن تحسب كثافة السكان استناداً إلى المساحة المزروعة . ففي عام ١٩٧٠ بلغت في جاوا وفي مادورا وفي بالي وسطياً ٨٣٣ نسمة في الكيلومتر المربع وتقارب الألف حالياً ، ولكنها وصلت في مصر إلى ١٢٢٥ في ١٩٨٢ ، هذا في حين أن بقية جزر أندونيسيا أقل استيطاناً وبالأحرى ، تبدو وكأنها صحارى خضراء خالية من السكان .

حلول الأزمة الديموغرافية : هجرة ما بين الجزر :

لقد تراءى للمسؤولين أن استيطاناً أكثر انسجاماً لجزر الأرخبيل هو الحل الأمثل . ولكن ذلك يصطدم بمصاعب لم يمكن التغلب عليها حتى الآن . وفي الواقع لاشيء يغري جماهير الريفيين الجاويين بالذهاب لإعمار مناطق شحيحة حيث لن يجدوا سوى الغابة العذراء ، أو سافانات فقيرة ، نضب معين تربتها بسبب المعاملة القاسية التي خضعت لها بسبب نظام زراعة الحريق « لادانغ » التي تستفحل في كل الجزر باستثناء جاوا . ومن ناحية أخرى ، فإن الفلاح الجاوي الذي اعتاد على زراعة متقنة ، دقيقة للغاية ، تتخذ شكل زراعة بستنة لا يستطيع أن يتواءم مع عمل مرهق ، ومضن ، من أجل الاستزراع ، ومع تقنيات زراعية هي تقنيات الجبهات الطلائعية .

وأخيراً فإن استيطاناً طلائعياً يتطلب غالباً عون الدولة المادي ، هذه

الدولة التي لا تبدو حالياً قادرة على أن تقدمها لأن عمليات الهجرة الداخلية فيما بين الجزر لم تعط سوى نتائج هزيلة . ومن ناحية أخرى ، إذا كان هناك ٢٠٠٠٠ عائلة تغادر جاوا وسطياً في العام كي تقيم في الجزر الأخرى ، ولا سيما في صومطرة ، فإن عائلات كثيرة أيضاً تأتي لتجرب حظها في جاوا . وبين عام ١٩٦٠ و ١٩٦٥ غادر الجزيرة ٢٠٥٣٠٠٠ نسمة ، ولكن في مقابل ذلك وفد عليها ٣٢٨٣٠٠٠ شخص ليقموا فيها ، وأخيراً فإن تهجير أسرة واحدة كي تقيم في جزيرة أخرى يكلف أكثر من ٢٥٠٠٠ دولار على الأقل .

تحديد النسل :

لقد تعرقل تطبيق برنامج تحديد المواليد حتى الآن لأسباب سياسية ، نظراً لسياسة التوسع التي دعا إليها الرئيس سوكارنو لاعتبارات ديمغوجية غير مسؤولة ولا مدروسة ، غير أنه يبدو من الواضح أكثر فأكثر بأن الاتجاه يذهب نحو هذا الحل بعد تلاشي المعارضة الرسمية . بقي على الدولة أن تقوم بتكوين أشخاص مهنيين كي ينشروا التعليم ، وللتغلب على لامبالاة وبلادة جماهير الريفيين الشديدة العزلة . وهكذا ينطلق برنامج مراقبة التوالد ببطء شديد . ولا بأس من أن نذكر أن نسبة التوالد ٣٨ بالآلاف والوفيات ١٤ بالآلاف ووفيات الأطفال ١٣٧ بالآلاف مقابل ٩ في اليابان ومتوسط العمر ٤٨ سنة . وتحتل أندونيسيا المرتبة الخامسة في العالم في عدد سكانها .

ثالثاً : الاقتصاد

لاتزال الزراعة هي الفعالية الاقتصادية السائدة . فهي تقدم ٥٦٪ من الناتج القومي الخام ، وتوفر العمل لثلاثة أرباع السكان . ومع ذلك فإن الرقعة المزروعة لا تزيد عن ١١,٦٪ من مساحة البلاد . ويتم استغلال الأرض بواسطة فلاحين من الملاكين الصغار ، وتكون المساحة الإجمالية أكبر بست مرات من المساحة المغطاة بالمزارع الكبرى الرأسمالية الحديثة .

المزروعات :

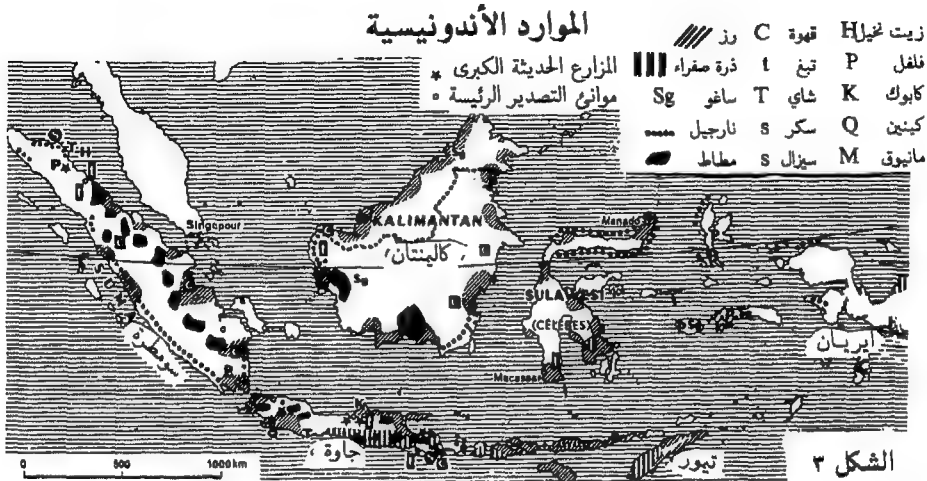
من المنتظر أن يكون للمزروعات الغذائية التي تنتشر على ١٤ مليون هكتار أكبر الأهمية . وتحتل المكانة الأولى بين هذه المزروعات زراعة الرز ، والواقع يكون الرز أساس التغذية . فهو يزرع على مساحة تبلغ ٨ ملايين هكتار ، كما أن معظم الأراضي المخصصة للرز تقع في جاوا ويتراوح الإنتاج بين ١٥ و ٢٣ مليون طن ويكون المردود الذي يصل إلى ٢٠ كنتال بالهكتار من أعلى مثيلاته في الأقطار الآسيوية الأخرى ولا تتفوق عليه سوى اليابان طبعاً . ومع ذلك توجد أحياناً فترات مسغبة ، ولا سيما في بعض أقاليم الأرخبيل (وسط وشرق جاوا ، وجزيرة لومبوك) . ويختلف استهلاك الرز حسب المناطق ، وتقوم محاصيل أخرى غذائية بتكامل دور الرز أو تحل محله أحياناً كالذرة الصفراء ، والمانيق الذي يبلغ إنتاجه ١٣ مليون طن ، والبطاطا الحلوة ويصل إنتاجها إلى أكثر من ٣ ملايين طن ، وفستق العبيد الذي يزيد إنتاجه عن ٦٠٠٠٠٠ طن والصويا وإنتاجه ٥٥٠٠٠٠ طن . وهناك محاصيل غذائية أخرى نذكر منها قصب السكر وإنتاجه يفوق ١,٩ مليون طن وزيت النخيل ٥٠٠٠٠٠ طن ، والشاي ٧٥٠٠٠ طن أو خمس الإنتاج الهندي والقهوة ٢٠٠٠٠٠ طن والتبغ ٩٠٠٠٠ طن (شكل ٣) .

هذا وعندما تكون المشكلات الغذائية أقل حدة فإن المستغلات الصغيرة تستطيع أن تنصرف لمزروعات تقدية : فهي تنتج على السواحل جوز النارجيل « جوز الهندا أو الكوپرا » ، والكابوك ، وقدرأ كبيراً من المطاط والقهوة . أما المزارع الرأسمالية فتمر بأزمة طويلة بسبب الانخفاض العام والمستمر في الأسعار العالمية . فضلاً عن ذلك تضررت هذه المزارع ومنشآتها الملحقمة نتيجة التخريب الناتج عن معارك الحرب العالمية الثانية وحرب الاستقلال والاحتلال الياباني لأن فترة الكفاح من أجل الاستقلال امتدت حتى ١٩٤٩ .

وقد أدت هذه الاضطرابات إلى إهمال نهائي لمساحة ٣٥٠.٠٠٠ هكتار والتي احتلت جزئياً من قبل معمرين جدد لا خبرة كافية لديهم . وتقهر وضع المزارع الكبرى أيضاً في أعقاب التأميمات في ١٩٥٧ والتي اشتملت ٥٤٢ مزرعة كبرى حديثة ، مما أدى لنزوح الأخصائيين الهولنديين والذين هبط عددهم من ٦٠.٠٠٠ مهندس إلى حوالي العشر فقط .

هذا ولا يكون الأخصائيون الأندونيسيون على المستوى التقني ذاته ، مما أدى لهبوط المردود ، وإلى ما هو أكثر خطورة عن ذلك وهو انخفاض نوعية المنتجات المهيأة للتصدير . وهكذا تضررت أوضاع السلع التصديرية الأندونيسية في الأسواق الخارجية . أما فيما يتعلق بالتبغ فإن وضعه قد هبط بصورة قاضية بسبب المقاطعة الهولندية . فضلاً عن ذلك فإن التضخم قد دفع بالمزارعين إلى تخصيص مزارعهم كلياً أو على الأقل أعطوا الأرجحية للمزروعات المستهلكة محلياً .

غير أن أندونيسيا تظل مع ذلك ثاني منتج عالمي للمطاط الطبيعي أو ٨٠٠.٠٠٠ طن ، وتحفظ بمكانتها بين العشرة الأوائل في إنتاج القهوة أو الشاي وزيت النخيل . وهكذا نستشف أن اقتصاد أندونيسيا يظل زراعياً صرفاً ، ولا



يسد حاجاتها ، كما أن المحاصيل النقدية تبدو عاجزة عن تعديل الميزان التجاري ، كما أن تربية الماشية التي لا يلائمها المناخ تكون قليلة الفائدة .

تربية الماشية :

لا تزال تعتبر نشاطها زهيداً في أندونيسيا لأن عدد الأبقار لا يزيد عن ٧ ملايين رأس والأغنام ٣,٢ ملايين والخنازير التي يحول الإسلام السائد دون انتشار تربيتها ، والتي يصل عددها إلى ٤,٤ ملايين ، ويشجع عليها المبشرون الذين استفلوا فقر سكان المناطق المنعزلة وجهلهم وأخرجوا أكثر من مليوني مسلم من دينهم . وهكذا نجد أن وضع تربية الماشية أشبه ما يكون بوضع مصر وبنغلادش بسبب اكتظاظ السكان ، فتغذية الماشية ترمي لإهمال الأراضي الزراعية ، وهنا يدخل الإنسان والحيوان في تنافس ، لأن ما يُخصّص للحيوان يحرم منه الإنسان ، ولا سيما في الجزر التي تكون الكثافة السكانية فيها عالية حيث لا يكون هناك مكان لتربية الماشية وينجم عن ذلك عوز في استهلاك اللحم ضمن النظام الغذائي لدى الأندونيسيين الذين لا يستهلك الفرد منهم وسطياً سوى ٥ كغ من اللحم في العام ، أو نصف استهلاك الفرد في البلاد العربية غير البترولية أو سبع ما يستهلكه الفرد في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية .

صيد الأسماك :

على الرغم من الموارد الهائلة من الأسماك في البحار الأندونيسية ، فإن استهلاك الأسماك لا يزال ضعيفاً جداً ، أو ٤,٥ كغ للفرد في العام مقابل ٥٠ كغ للفرد الياباني . ويصل مجمل إنتاج الصيد البحري إلى ١,٢ مليون طن بالعام . ويعود سوء استغلال ثروة البحر إلى حالة أسطول الصيد العتيقة ، والذي لا زال يعمل في المرحلة الحرفية .

أقل تلويثاً من بترول الشرق الأوسط ، لأن محتواه من الكبريت ضئيلاً . وهذه النوعية تستجيب للاهتمامات المتزايدة في الأقطار الصناعية ، وأخيراً فإن الإنتاج يستجيب لأهداف سياسية ، ولا سيما رغبة الأقطار المستهلكة بتنويع مصادر توينها . وبفضل هذه الظروف المشجعة جداً ، فقد أنتجت أندونيسيا في عام ١٩٧٥ مقدار ٦٢ مليون طن نفط وصعد إلى ٩٩ مليون طن عام ١٩٨١ من حقول كالينتان وصومطرة ، في حين لم تنتج البلاد سوى ٣٠٠٠٠٠ طن في عام ١٩٤٦ ، وعلى عكس ذلك تبدو مواردها من الفحم الحجري هزياً إذ لا يزيد إنتاجها من هذا النوع من الوقود عن ٢٥٠٠٠٠ طن سنوياً وعلى الخصوص من مناجم صومطرة (شكل ٥) .

أما فيما يتعلق بالكهرباء فليس هناك أي أوجه شبه بين الموارد الكامنة وبين الوضع الحالي للاستغلال . فهناك مشاريع كبرى قيد الدراسة لتجهيز الشلالات ولا سيما في صومطرة على نهر آزاهنت Asahant في حين تم تنفيذ مشاريع أخرى مثل مركز جاتيلوبور Jati Lubur على مسافة ١٠٠ كم من العاصمة جاكرتا بالتعاون مع فرنسا . ولا تتميز هذه المشاريع في أنها تزيد الإنتاج الكهربائي فحسب وهو ٣ مليار ك و س في ١٩٧٣ ، والذي يمكن زيادته أيضاً باستخدام النفط كوقود بل سيسمح أيضاً بزيادة المردود الزراعي ، عن طريق توسيع رقعة المساحة المروية ، وتأمين تنظيم صبيب الأنهار في سافلة السدود ، مما يخفف بذلك من أثر الفيضانات الهدامة التي تهدد في كل عام السهول الدنيا . وأخيراً ستسمح الكهرباء للقرى بترية الأسماك الحوضية على نطاق واسع .

أما بالنسبة للغاز الطبيعي فيزيد إنتاجه عن ٣ مليارات م^٣ وكان ٢,٤ مليار عام ١٩٧٧ ويكون إنتاجه على نطاق واسع مشتركاً مع إنتاج الوقود السائل . وتتجاوز مخزونه ٤٠٠ مليار م^٣ .

وفيا عدا المنتجات التقليدية كالقصدير فإن أندونيسيا تملك مخزونات هائلة من فلزات معدنية غير حديدية كالنحاس والنيكل والبوكسيت .

فالقصدير كان معروفاً منذ أمد طويل باعتباره الثروة الرئيسية في البلاد ، ويمثل مكانة لا بأس بها في قائمة الصادرات . ويتمركز إنتاجه نسبياً في نطاق يقع إلى الجنوب من سنغافورة أي في جزيرة بانفكا ، وجزيرة بيليتونغ Belitung ، وسنغكب Singkep ، وكذلك في البحار الضحلة التي تنبثق منها هذه الجزر .

وتحتوي المكامن التحتائية ثلثي الاحتياطات . وفي عام ١٩٤٠ كان القصدير أحد أوائل صادرات البلاد وظل حتى عام ١٩٥٣ - ٥٤ وهو التاريخ الذي بلغ فيه الإنتاج ٣٥٠٠٠ طن ، ومن ثم حصل هبوط شديد ، ثم استقر الإنتاج حوالي ٢٠٠٠٠ طن في ١٩٧١ كي يبلغ ٢٥١٠٠ طن في ١٩٧٤ فاحتلت المكانة الرابعة في العالم ، ويعود هذا الانخفاض لنقص الخبرة التقنية لدى الكادرات وصعوبات النقل وتراكب مسؤوليات الإدارة والتسيير بين الدوائر الوطنية الكبرى المكلفة بهذا الاستخراج .

أما البوكسيت فيستغل من جزيرة بانتان Bintan في أرخبيل ريو Riau جنوبي سنغافورة . غير أن التجهيز الآلي يعود رغم شدة العناية به إلى الفترة الاستعمارية . وتحتوي الخامات على ٥٥% من الألومين وتتراوح المدخرات بين ٢٠ إلى ٢٥ مليون طن ، وقد تجاوز الإنتاج ١,٢ مليون طن في ١٩٧٤ وارتفع إلى ١,٣ مليون طن في ١٩٧٧ .

هذا ويستغل النيكل حالياً من منجم واحد في جزيرة پومالو Pomalu جنوب شرق جزيرة سيليب Célèbes . وبلغ إنتاج هذا المنجم المكشوف ٢٠٠٠٠٠ طن في عام ١٩٧٢ من الخامات مقابل ٢١٠٠٠ طن من المعدن في ١٩٧٧ ، ولكن عثر على مكن آخر شمال پومالو قدرت مدخراته بحوالي ١٠٠ مليون طن من

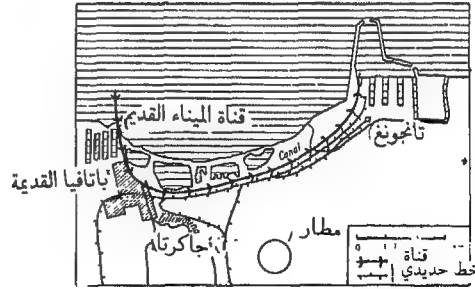
فلزات غناها بالمعدن ٢٪ . وهناك الكثير من الموارد الأخرى التي تنتظر الاستثمارات المالية الضرورية للتنقيب عنها ولاستغلالها كالتحاس الذي قدرت مخزوناتة بحوالي ٢٥ مليون طن من فلزات تصل نسبة محتواها المعدني إلى ٣٪ في ايريان الغربية ، والذهب والفضة والمنغنيز والألماس والكبريت والاسفلت الخ .

ويذكر استاذنا روبكان Robequain أن إنتاج أندونيسيا من السكر كان في ١٩٦٠ يؤلف ٥٪ من الإنتاج العالمي ، وكانت تصدر ٧٠٪ من ألياف الكاپوك ، و ٧٩٪ من البهار ، و ٣٨٪ من المطاط و ٣٠٪ من مسحوق النارجيل ومن زيتته ، و ٢٣٪ من السيزال ، و ١٧٪ من الشاي و ٢٠٪ من زيت النخيل و ٦٪ من القهوة العالمية .

الصناعات الخفيفة والمنتجة لسلع الاستهلاك : يعود قيام أوائل المؤسسات الصناعية في أندونيسيا لعام ١٩٢٠ ، وكانت بالأساس عبارة عن صناعات تحويلية لمنتجات زراعية كمنارب الرز ، ومصانع المطاط ، والشاي ومصانع تجميع القهوة ، وصناعة السكر إلخ .. وقامت صناعات أخرى بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٤٠ لتكمل تلك الصناعات الجينية ، ولكنها كانت تقوم دائماً على عائق استثمارات أجنبية غالباً . فقد قام مصنع عجلات (إطارات . كفترات) شركة غودير الأمريكية في بوغور Bogor عام ١٩٣٤ . وجاءت شركة أونيلقر Unilever وقررت أن تطور إنتاج المرغرين ، وزيوت الاستهلاك والصابون . وظلت كل هذه الأنشطة ولا زالت متركزة في معظمها في العاصمة جاكارتا (شكل ٦) ، ثم قامت مصانع جعة ومولتها رؤوس أموال ألمانية وبلجيكية . وبدأت صناعة الأدوات الكهربائية بمبادرة من شركة ايفريدي Eveready وصناعة الأحذية بمبادرة من شركة باتا ، وصناعة الأصبغة والورنيش بواسطة شركة Lindeteves و Reynault والخبر بواسطة شركة Talens و Gimborn ، وأنشئت شركة لتجميع الدراجات على يد شركة Bersumij ، كما حصلت أندونيسيا على

ترخيص بصنع القليل من الأدوات الزراعية . أما في مجال الصناعة النسيجية ، فقد أنشئت مجموعة مؤلفة من ٥٠ مؤسسة هولندية عام ١٩٣٣ شركة نسيج جاوا في مدينة تيغال Tegal ، وفي خلال الحرب العالمية الثانية أقامت شركة Leces مصنع ورق في شرق الجزيرة .

الشكل ٦
مخطط جاكرتا



ويمكن القول أن الصناعة الأندونيسية الحالية لاتزال تستند في معظمها على هذا الأساس .

المواصلات

الملاحة البحرية : نظراً لشدة اتساع الأرخبيل الذي يمتد على مسافة تعادل امتداد الوطن العربي من المحيط إلى الخليج ، ونظراً لشدة تقاطيع الأراضي ، تلعب المواصلات دوراً أساسياً في حياة البلاد . وتكون المواصلات البحرية هي المسيطرة لأن ٦٠٪ من النقلات من الأطنان الكيلومترية تتم بواسطة السفن . ولهذا يكون لتجهيز الموانئ ، وتنظيم الأنهار ، وصيانة وتحديث الأسطول التجاري الأفضلية المطلقة على عناصر البنية التحتية infrastructure الأخرى . غير أن التجارة بين الجزر ، بما في ذلك نقلات الساحلة Coasting trade = Cabotage التي تتم انطلاقاً من نقاط في الجزيرة ذاتها ، لم تكن تتجاوز في عام ١٩٦٥ مقدار ٥,٥ ملايين طن . ويدل هذا الرقم على ضعف درجة اندماج

مختلف الجزر على المستوى الاقتصادي . وتم هذه التجارة بالأساس بواسطة شركتين وطنيتين هما : بلني ، وباخترا عظيفونا ، اللتين قامتتا على أنقاص الشركة الهولندية القديمة وهي شركة KPM . ويجب البحث عن الأسباب التي تفسّر هذا الضعف وحتى في قدرة النقل في قلة التجهيزات المخصصة لصيانة الأسطول كالاقتدار إلى أحواض إصلاح السفن ، وإلى قطع الغيار ، ونقص الخبرة لدى الموظفين العاملين في مختلف العمليات الضرورية لتشغيل السفن بصورة اعتيادية ، حتى أصبحت أكثرية وحدات الأسطول التجاري الأندونيسي بحاجة لإبدالها بسفن أجنبية ، وقد غرقت إحدى هذه السفن في ١٩٨٢ وذهب معها أكثر من ٢٠٠ ضحية من المسافرين .

وفضلاً عن ذلك فإن أدوات التفريغ والنقل والتخزين كالمجنوقات والرافعات والأرصفة العائمة والأرصفة والمستودعات ، قليلة بشكل رهيب أو أصبحت غير صالحة للاستعمال أو لا يمكن بلوغها بسبب الإطماء الذي تشكو منه غالبية الموانئ . ويفسّر هذا الوضع الكارثي وجود العديد من السفن الشراعية ، ولكن من عمر قديم ، تعيش وتخلّد نط ملاحية غير معاصرة وغير مزامنة ، وتقوم بنصيب لا بأس به من التجارة ولا سيما نقل الأخشاب وجوز النارجيل . أما الملاحية المحيطية التي تحقق المواصلات مع الأقطار الأجنبية فتم أساساً بواسطة عملاء أندونيسيا التجاريين ، من سفن إنكليزية ويابانية وأمريكية ونروجية .

وإذا كان عدد موانئ أندونيسيا يناهز ٥٠٠ ميناء موزعة على سواحل الأرخبيل فإن هناك ٦٠ ميناء فقط مجهزة بمياه عميقة مما يسمح لسبعة عشر ميناء منها بأن تكون مفتوحة للتجارة الدولية ، وأخيراً هناك ثلاثة موانئ لها نشاط يتجاوز الأهمية الاقتصادية لظهيرها .

- فهناك ميناء تانجو تغيريوك الذي لا يقوم بخدمة العاصمة فحسب بل بمجل القسم الغربي من الأرخبيل .

- وميناء تانجيمغ پرساك ، وهو ميناء مدينة سورابايا الذي يلعب الدور نفسه بالنسبة للقسم الأوسط من أندونيسيا ، أي شرقي جاوا ، مادورا ، جزر الصوند ، وجنوب كليمتان .

- ماكسار ، وهو الميناء الرئيسي لجزيرة سيليب ويجمع كل تجارة أندونيسيا الشرقية .

وأخيراً هناك بعض الموانئ ذات العلاقات المباشرة مع الخارج ، وذلك إما لقربها من العالم الأجنبي مثل ميناء بيلوان قرب ميدان Medan الذي يواجه سنغافورة وماليزيا ، أو للنوعية الفريدة للمادة الأولية المصدرة مثل ميناء بالامبانغ وهو ميناء تصدير النفط المستخرج من جنوب جزيرة صومطرة .

الملاحة النهرية : وتلعب دوراً ثانوياً نسبياً ، بسبب ضعف قابلية الأنهار للملاحة ، ولقلة طولها وعمقها ، وكثيراً ماتظهر الجنادل في سررها التي تمنع أي صعود في النهر . ولكن لبعضها أهمية خاصة لفقدان أية وسيلة نقل أخرى كما في كاليمنتان وفي صومطرة وفي إيريان .

النقل الجوي : ولا يزال في حالة جنينية لأن شركة GIA غارودا أندونيسيان آيرواي ، وهي الشركة الوطنية الكبرى ، وتملك بضع عشرات من الطائرات ، تختلف طاقاتها وعمرها كثيراً لأن أفضل الطائرات هي المخصصة للخطوط الدولية وهناك شركات أخرى خاصة مثل ميرپاتي ، زمرود ، وتملك كل منهما ١٢ طائرة تحقق بالتعاون مع شركة غارودا الاتصالات الداخلية .

وفي عام ١٩٧٠ قطعت طائرات غارودا ١٥ مليون كم ونقلت ٣٥٠٠٠٠ مسافر و ٥٠٠٠ طن شحن .

المواصلات الأرضية : وتتصف بدورها الضئيل نسبياً وتقوم بنسبة ٤٠٪

من مجموع حركة النقل . وتقوم السكك الحديدية بمقدار ١٥٪ و ٢٥٪ على الطرق وذلك لتفاوت نموها على المستوى الإقليمي .

ويشهد وضع الخطوط الحديدية مثل شبكة الطرق ، بكل أمانة ، على مظاهر الاقتصاد الاستعماري .

وهكذا تحوي صومطرة قرابة ٢٠٠٠ كم من خطوط حديدية متباينة من حيث صفاتها التقنية ومواقع قيامها . والواقع ليس هناك من شبكة حقيقية بل عدد من القطع ذات الوظيفة المحلية أقيمت لخدمة مؤسسات تعدينية أو مزارع رأسمالية عصرية . أما جاوا فتتملك شبكة حقيقية طولها ٦٦٤٠ كم تصل العاصمة مع مدينة سورابايا في شرق الجزيرة بواسطة طريقين متميزين : الأول يواكب السهول الساحلية الشمالية والثاني يتلوى بين البراكين ومحاذي الساحل الجنوبي . ولا تكون الشبكة والعربات وسائر التجهيزات قديمة فحسب بل تشكو من تلفها الناجم عن غياب الصيانة .

وعلى الرغم من الجهود المخلصة لصيانة شبكة الطرق فإن ٢٥٪ فقط تعتبر في حالة مرضية ، و ١٥٪ في حالة متوسطة ، والباقي في حالة رديئة جداً . أما عدد السيارات فهو رغم قلته في تزايد ولا سيما بسبب استيراد عدد كبير من السيارات النفعية كسيارات الجيب .

المبادلات الخارجية :

وتشهد مثلما تشهد المواصلات على عدم اكتمال الجهاز الاقتصادي في البلاد . وهي تدل على شدة اختلال في طبيعة المواد المتبادلة فالتصدير يقتصر على المواد الخام . ويحتل البترول بينها مكانة سامية والخامات المعدنية ولا سيما القصدير اللذان يقدمان لوحدهما نصف العملة الصعبة للبلاد . أما باقي العائدات فتأتي من بيع المحاصيل الزراعية التي تباع بحالة قريبة من الخام ، في حين يكون الاستيراد مؤلفاً من مواد مصنوعة أو منتجات استهلاكية .

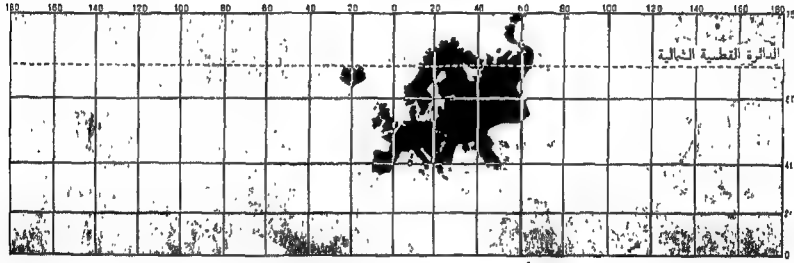
وفي عام ١٩٧٧ بلغت قيمة الصادرات ١٠,٨ مليارات دولار كان النفط يؤلف ٦٠٪ من قيمتها ثم المطاط ، ومسحوق النارجيل (الكوپرا) ، والقصدير والتبغ وزيت النخيل والشاي والقهوة ، أما استيرادات العام ذاته فبلغت ٦,٢ مليارات دولار كانت سلع التجهيز تؤلف ٦٢٪ والمنتجات الغذائية ٨٪ .

الميزان التجاري لعام ١٩٦٩ بملايين الدولارات

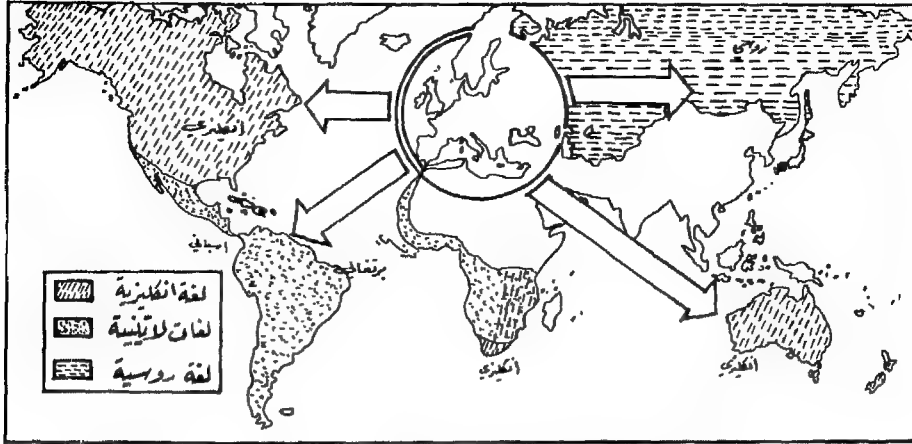
الصادرات	٨٣١	الواردات	٦٩٧
منتجات زراعية	٢١٨	مواد أولية ومنتجات صناعية	
		أساسية	٢٤
منها المطاط	١٨٠	سلع تجهيزية	٤٩٩
قهوة	٤٧	سلع استهلاكية	١٠٦
نفط خام	٣٣٣	متنوعات	٦٨
منتجات مكررة كالمصدير	٤٠		

وفي ١٩٨١ بلغت قيمة الصادرات ٢٢٢٦٠ مليون دولار والواردات ١٣٢٧٢ مليون دولار .

ولكن المعضلة الكبرى في أندونيسيا لا تختلف كثيراً عن مثيلتها في الكثير من دول العالم المتخلف ؛ وهي الفساد في الجهاز الحكومي ، أو الرشوة التي تتخذ شكل وباء .



الشكل ١ موقع أوروبا حسب مرتسم مركاتور



الشكل ٢ انتشار اللغات الروسية في العالم

الفصل الخامس

أوروبا^(١)

الصفات الأصيلة لقارة أوروبا

أو البر الكبير عند الجغرافيين العرب

أولاً - لقد حظيت أوروبا بدور وموقع لا بديل لها ولا مثيل :

١ - تحتل أوروبا في قلب العالم مكانة متميزة (شكل ١) :

آ - إن أوروبا هي عقدة المواصلات الكبرى في « نصف الكرة القاري » :
ففي مقابل الواجهة المحيطية للكرة ، والتي تتألف على الخصوص من المحيط الهادي
الفسيح ، نجد « نصف الكرة القاري » الذي يجمع كل الأراضي اليابسة تقريباً .
ولما كانت أوروبا تقع ، على وجه الدقة ، في وسط نصف الكرة هذا ، لذا تكون
أوروبا إذن ، عقدة المواصلات الكبرى ، أو « قطب » العالم الأرضي . وهكذا
تشابك فيها الطرق البحرية والجوية الرئيسية العالمية على شكل شبكة خيوط
شديدة الكثافة . وهي في وضع طيب لاستقبال البضائع من سائر الجهات فضلاً
عن أكثر تيارات الأفكار تنوعاً ، وهي بالتالي المكان الممتاز في عالمنا ، حيث
تستطيع أن تتمخض ، في إثرتماس وتفاعل أكثر المؤثرات تنوعاً ، أقول : أن
تمخض وتنطلق بكل سهولة تلك « الشرارات » الخلاقة التي تتولد عنها أنشطة
اقتصادية جديدة أو ثقافية (شكل ٢) .

(١) أوروبا هي كلمة ناتجة عن تحريف لكلمة فينيقية ، أي كنعانية قديمة وهي إيرب Ereb ومعناها مغرب الشمس .

وعلى خلاف ذلك فهي تتمتع أيضاً في وضع طيب كي تنشر في سائر أنحاء العالم ابتكاراتها المادية والفكرية . وهكذا يبدو دورها العالمي مسجلاً في الطبيعة ولا يمكن انتزاعه منها . ولقد شهد العالم كله ذلك ، فبعد أن تعرضت أوروبا للدمار في أعقاب حربين عالميتين متقاربتين للغاية ، واعتقد الآخرون باحتضارها ، سرعان ما نهضت أوروبا وقد تجدد شبابها ، وبكل عنفوانها ، بشكل أثار الإعجاب ، وخرجت من بين الأطلال لتنبعث أكثر قوة وأكثر إيماناً بدورها العالمي .

ب - كما تتمتع أوروبا بأفضل بقاع الأرض من حيث الشروط الطبيعية : فعلى الرغم من صغر مساحتها التي لاتزيد عن ١٠ ملايين كيلو متر مربع ، أو خمسة ملايين فقط ، إذا استبعدنا الاتحاد السوفياتي منها ، أو ما يعادل ٣ ٪ من مساحة اليابسة ، فإن هذا « الرأس المتقدم من قارة آسيا » يحوي مالا يقل عن ٥٠٠ مليون نسمة (عدا الاتحاد السوفيتي) ، أو ما يعادل ١٢ ٪ من سكان العالم . وتكون أوروبا إحدى الأمكنة المتميزة في العالم حيث كانت الطبيعة أكثر كرمًا . فهي تقدم لسكانها قائمة طويلة من الموارد ، وهذا على خلاف القارات الأخرى ، إذ تكاد تكون قابلة للسكنى في كل أرجائها ، ذلك أن أبعد تقاطعها شمالاً ، هو رأس الشمال ، يقع على عرض ١٠, ٥٧° ، كما أن أبعد نقطة فيها باتجاه الجنوب هو رأس ماروكي (أي المغربي) في إسبانيا ، المطل على مضيق جبل طارق ، أو بحر الزقاق ، والواقع على درجة عرض ٣٦, ٥° . وأبعد النقاط باتجاه الغرب هو رأس روكا في البرتغال على خط طول ٣٠, ٥٩° غرب غرينيتش ، وهكذا لا تملك أوروبا أكثر من ثلاث حزم ساعية مقابل ١١ في الاتحاد السوفياتي . وهكذا تقع كلها في النطاق المعتدل .

ومن ناحية أخرى إذا نظرنا إلى أبعادها ، وتوزع عناصرها الطبيعية وجدناها أفضل بقاع العالم من حيث كونها على « مقياس الإنسان » . ولعل أحسن أوراقها الراجعة هي أنها أكثر بقاع العالم سماحة للبحر بالتسلل

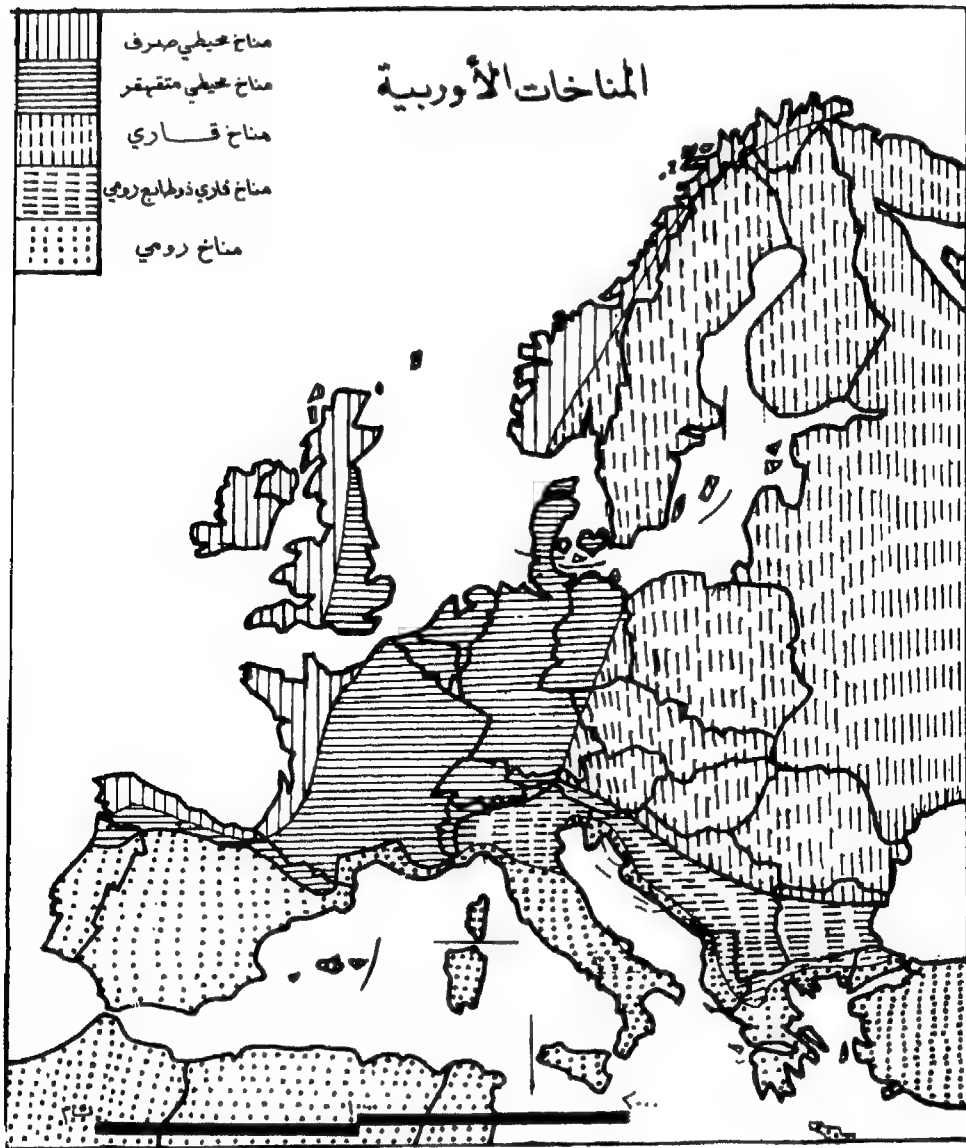
وبالنفاذ إلى داخل أراضيها بعمق . وهكذا نجدها من الشمال ومن الغرب ومن الجنوب ، تعرض ثلاث واجهات تكون تسنّاتها العريضة مواتية للنشاط البحري .

وهكذا يبلغ طول سواحلها ٣٧٩٠٠ كم ، كما أن المحيطات والبحار التي تتوغل في القارة وتنتهي على شكل بحار داخلية وخليجان. عميقة تعمل على تقطيع القارة إلى جزر وإلى أشباه جزر ، عملت منذ أبعد العصور التاريخية السحيقة ، على أن تمنح أوروبا مِيزة لامثيل لها .

أما المناخ فهو ميزة أخرى في أوروبا ، فإذا استثنينا الشمال الأقصى أو الجنوب الأقصى ، فإن درجات الحرارة تظل محصورة ضمن قيم وسطى ولا تفرض على الإنسان وعلى أنشطته أي عائق حقيقي . وعلى كل ذلك فإن المناخ الأوروبي يقدم بفضل تنوعه تنوعاً في الإمكانيات ، ولا سيما الزراعة منها ، والتي يبدو حشدتها في مثل هذه الرقعة المحدودة ظاهرة استثنائية في العالم (شكل ٣) .

لقد تم تسجيل أعلى درجة حرارة مطلقة في اشبيلية وكانت ٥١ درجة ، أما الحرارة الدنيا فقد سجلت في أوست تسيلا حوالي - ٥٧١ . أما الحرارة الوسطى المثوية فنجدتها بالتالي إلى جانب متوسطات الأمطار :

اسم المدينة	الحرارة الوسطى السنوية	متوسط الأمطار السنوية (مم)	اسم المدينة	الحرارة الوسطى السنوية	متوسط الأمطار السنوية (مم)
أثينا	١٧,٧°	٣٤٩	براغ	٩,٢	٤٩٠
روما	١٥,٤	٨٠٣	صوفيا	٩,١	٦٥٠
نيس	١٥	٨٥٧	برلين	٩,١	٥٧٠
استانبول	١٤,٣	٧٣٣	أوسلو	٥,٨	٦٤٥
مدريد	١٣,٣	٤١٩	ريكيافيك	٣,٩	٨٧٠
بلغراد	١١,١	٦١٩	موسكو	٣,٩	٥١٣
بودابست	١٠,٦	٦٣٨	هامبرغ	٢,١	٥٥٨
فيينا	٩,٦	٦٨٠	أرخانجلسك	٠,٣	٣٨٧



الشكل ٣

كما تبدو أوروبا متمتعة بطبيعة تضريسها ذاته . فقد تعرضت جبالها القديمة الشمالية العائدة للالتواءات الكاليدونية ، وجبالها المركزية الناجمة عن الالتواء الهرسيني ، تعرضت لحتّ érosion شديد ، سواها أكثر من مرة ، أو تعرضت إلى انهدامات ، بحيث لا تخلق أية صعوبات جدّية في وجه المواصلات . ومن ناحية أخرى تنفتح هاتان الزمرتان من الجبال على سهل فسيح يتجه من الغرب نحو الشرق ، يؤلف طريقاً ممتازاً بين أوروبا الغربية ، وبين أوروبا الشرقية (شكل ٤) . أما جبالها الجنوبية الناتجة عن الالتواء الألبّي (شكل ٥) ، والتي تؤلف ارتفاعاتها أحياناً عائقاً أمام المواصلات ، فإنها تكون في أكثر الأحيان « مهواة » بأودية عريضة وعميقة كيّفتها الجوديات الرباعية ، والتي تستغلها طرق المواصلات بكل سهولة . ونجد أخيراً أن السهول هي المتفوقة على نطاق واسع ، وتمثل بالحوض الباريسي والسهول الجرمانية البولونية الكبرى حيث تمتد الأراضي الزراعية الغنية المؤلفة من أحواض رسوبية ومن سهول لحقية ، في حين نجد في الجنوب سهول مقدمات السلاسل الألبية والمتمددة بين السلاسل الجبلية العالية مثل : سهل الإيبر ، وسهل البو ، والسهل الهنغاري الخ ، ولهذا تندر الأراضي العقيمة ، وحتى في الجبال ، كما يكون تنوع المشاهد غير محدود .

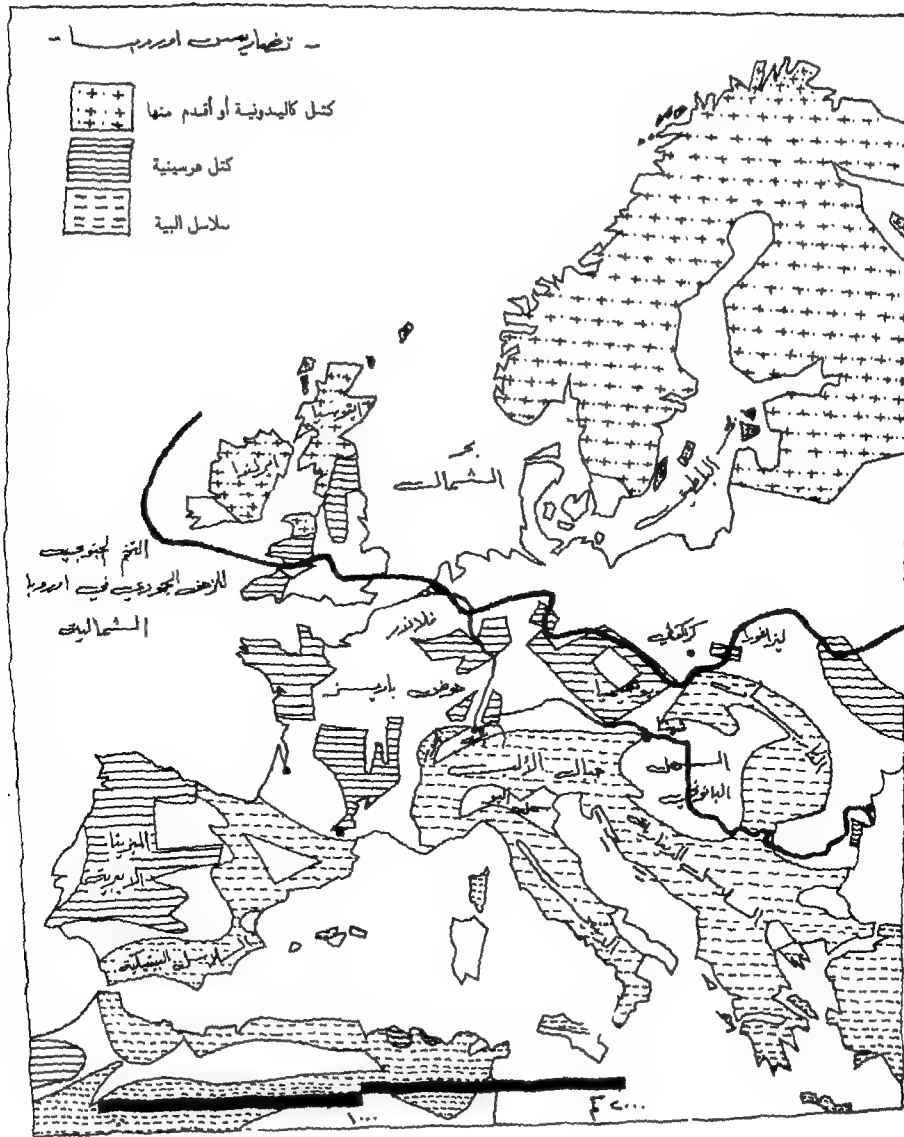
وأخيراً إذا كانت أوروبا تفتقر إلى البترول ، باستثناء حوض بحر الشمال ، فإن علاقاتها البحرية قادرة على تلافي ذلك بكل سهولة ، كما أصبحت تستغل منذ القرن التاسع عشر مكامن غزيرة من الفحم ، مثلما تملك قدرة كهربائية كامنة عظيمة . وهكذا استطاعت أن تكون رائدة تلك المدنيّة الميكانيكية ، أم الرخاء والثراء ، والتي يجهد العالم قاطبة سعياً إلى بلوغ مثلها .

٢ - هذا كما تكون أوروبا « منفتحة على العالم » من حيث طبيعتها ومن حيث حاجتها : فبينما ظلت المدينتان الكبيرتان في العالم الآسيوي ، أي الهندية والصينية ، مقتصرتين على الإطار الأرضي الضيق نسبياً ، الذي نشأتا فيه ولم

الخريطة أوروپا القروسطية



الشكل ٤



الشكل ٥

- تضاريس أوروبا -

تخرجاً منه ، فإن المدنية الأوروبية كانت مدنية فاتحة توطدت دعائها فوق كل القارات ، وإن كان ذلك بصورة متفاوتة .

فقد عمل الفكر الأوروبي ، وريث العقلانية الإغريقية ، على تجريد قوى الطبيعة من أية صفة خارقة أو سحرية ، فأصبحت خاضعة لقوانين ، وما على الإنسان إلا أن يكتشفها كي يروضها ، وليخضعها وليجعلها في خدمته . ومن هذا نستخلص ثلاثة ملامح نوعية في « العبقورية الأوروبية » وهي :

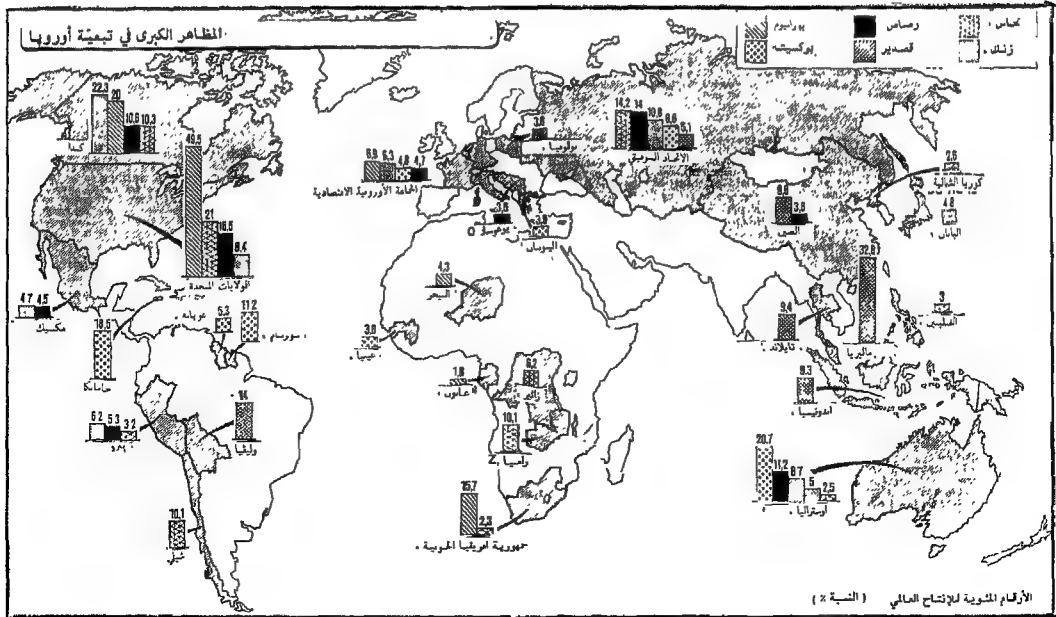
- حب الإكتشاف .

- الميل إلى العلوم التطبيقية .

- ذوق التنظيم والانضباط .

وقد كان من جراء تحالف هذه الملامح المذكورة مع النزعة البحرية التي منحتها الطبيعة لقارة أوروبا ، أن حدث ذلك التوسع الاستعماري المذهل بين نهاية القرن الخامس عشر على أيدي البرتغاليين والإسبان ، وحتى فجر القرن العشرين على أيدي الإنكليز والفرنسيين والذي عمل على إخضاع معظم أجزاء العالم لسيطرة أوروبا تدريجياً من الناحية السياسية ، ذلك الاستعمار ، الذي لاتزال ذيوله الاقتصادية والفكرية والمادية ماثلة حتى الآن ، ويمنح تقليد أوروبا في أزيائها وأنماط معيشتها ، وقبل كل شيء في سفاسفها ، نحو الاستفحال لدى الشعوب التي خضعت سابقاً لأوروبا ، ولا سيما في الأمور التي لاتتطلب جهداً عقلياً عنيداً ، كوسائل الترفيه والترف والمتعة الرخيصة ؛ إذ يقول (غاستون بوتول) ، العالم الاجتماعي الفرنسي الكبير : « من السهل على الشعوب المتخلفة استيراد ثمار الحضارة الأوروبية بكل سهولة ، ولكنها تعجز غالباً عن استيراد بذورها » .

ولكن بعد أن حكمت أوروبا العالم ، أصبحت في حالة تبعية له بعد تحرره سياسياً (شكل ٦) .



الشكل ٦

اقتبست الإحصائيات المذكورة أعلاه والمشار إلى كل مادة أولية منها بنسبة إنتاجها المئوي العالمي من « حولية الفلزات والمعادن » لعام ١٩٧٢ ولم نذكر في كل حالة سوى الأقطار المنتجة الرئيسية . وهي تغطي بالنسبة للتصدير ٨٥,٤% من الإنتاج العالمي . ومن الرصاص ٧٤% ، ومن البوكسيت ٨١,٥% ، ومن الزنك ٧٨,٦% ، ومن النحاس ٨٢,٩% . أما فيما يتعلق بالأورانيوم فإن إحصائيات البلدان الاشتراكية غير معروفة لهذا اقتصرنا الإحصاءات على إنتاج العالم الغربي . أما مقدار ١٣٨٠ طن في الجماعة الاقتصادية الأوروبية والتي تمثل ٦,٩% فتصدر عن المناجم الفرنسية . وهنا نلاحظ التفوق الذي تتمتع به الأقطار الأربعة التالية في العالم وهي : الولايات المتحدة ، كندا ، استراليا ، والاتحاد السوفيتي والتي تملك علماً مروحة واسعة من المواد الأولية التي أصبحت نادرة أكثر فأكثر وعلى خلاف ذلك نجد تبيعة أوروبا صارخة واضحة .

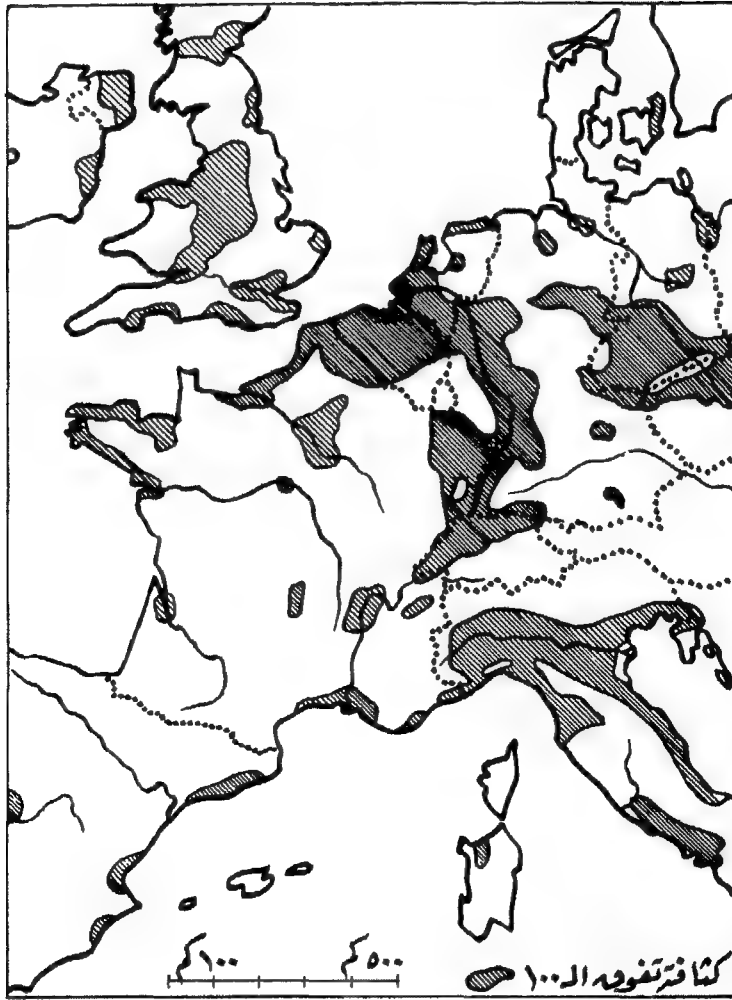
فبعد أن أقامت اقتصادها على أساس من المبادلات بين القارات ، لم تعد قادرة اليوم أن تستغني ، بعد زوال السيطرة الاستعمارية المباشرة ، عن المواد الأولية ولا عن أسواق التصدير الواقعة فيما وراء البحار ، ذلك أن خسي التجارة العالمية العابرة للمحيطات إنما تتم بين أوروبا وبقية العالم . ولكن إذا اقتضت أوروبا على موارد أرضها فحسب ، فإنها سرعان ما تسقط في وضع ميؤس منه ، ولكنها تستعويض عن فقرها الطبيعي بغناها التكنولوجي وبسموها العلمي .

٣ - غير أن أوروبا ليست متجانسة : ففي الجنوب والشرق لاتزال تحتفظ ببعض سمات التأخر :

والواقع لم تكن الحيوية الأوروبية لتتفتح وتنتشر إلا في أوروبا الشمالية الغربية وأوروبا الوسطى ، إذ لم تشارك أوروبا الجنوبية والشرقية أبداً في إبداع هذه المدنية ونشرها ، إلا بصورة غير منتظمة ومحدودة جداً .

آ - وتتركز قدرة أوروبا في أوروبا الوسطى والشمالية والغربية . فعلى طول محور يمتد من بريطانيا إلى بوهيميا في أوروبا الوسطى ، تتجمع أكثر الكتل السكانية كثافة (شكل ٧) ، وأكثر الزراعات غنى ، وأكثر الصناعات والموانئ فعالية ونشاطاً ، وأكبر عدد من المختبرات والأبحاث والاختراعات . ويمتد النشاط العظيم هذا جنوباً ، ليغطي على القسم الأعظم من فرنسا وعلى إيطاليا الشمالية ، وتتطاول نحو الأقطار الاسكندنافية حيث يكون الثراء والمدنية الراقية إلى جانب كثافة سكانية ضعيفة .

ب - أما أوروبا المتوسطية ، أو الرومية ، التي كانت تؤلف الواجهة النشيطة من أوروبا في العصور القديمة وفي العصر الوسيط ، فقد أصيبت بالركود لمصلحة الواجهة الأطلنطية من أوروبا ، وذلك ابتداءً من الاكتشافات الجغرافية الكبرى في القرن السادس عشر ، ولم تسترد أكثر من فاعلية ضامرة ، حتى بعد فتح



الشكل ٧

أوروبا الغربية نطاق الكثافات الشديدة

قناة السويس . ولما كان هذا القسم من أوروبا يفتقر إلى الفحم ، فهو لم يساهم في الثورة الصناعية الكبرى خلال القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من كثرة السكان في أوروبا الجنوبية ، وذلك في الأرياف على الأقل ، فإنها لا تزال تحمل ، كما في

جنوب إيطاليا مثلاً ، بعض الملامح التي تتصف بها الأقطار المتخلفة^(١).

جـ - أما أوروبا الشرقية فهي أقل أجزاء أوروبا انفتاحاً على البحر . فهي تمتد تدريجياً في هذه الكتلة القارية الكبرى ، أي تتوغل في أوراسيا ، مما جعلها تتعرض في الماضي ، أكثر من مرة ، لغزوات جحافل البرابرة الأشداء ، القادمين من سهوب آسيا الوسطى ، ابتداءً من عصر آتيل سنة ٤٣٤ م حتى زحف جنكيزخان وتيولرنك في مطلع القرن الخامس عشر . وقد كانت تعيش في بنية اجتماعية شديدة التسلسل حيث كان يهيمن كبار ملاكي الأراضي ، إلى أن ظهر النظام الشيوعي في أعقاب الثورة البلشفية في ١٩١٧ في روسيا والذي انتشر ليشمل سائر أقطار أوروبا الشرقية بعد عام ١٩٤٥ . أما من وجهة النظر الاقتصادية ، فلم تكن أوروبا الشرقية أكثر من خزان بشري ، ومصدر للمواد الغذائية أو للمواد الخام والتي كانت أوروبا الغربية والوسطى تستمد منها حاجاتها . ولا تزال تحوي بالتالي ، حتى الآن ، ملامح من تخلف لم تتخلص منها تماماً إلا منذ فترة قريبة جداً .

ثانياً : بعد شرور وأضرار الحربين العالميتين تسير أوروبا نحو الوحدة :

بعد أن ظلت أوروبا ، ولعدة طويلة ، دون منافس في العالم ، خامرها اعتقاد في أنها قادرة على الانهك ، دون عقاب ، في نزاعات داخلية وانقسامات . فلم تتعرض أية قارة لمثل الحروب التي شنتها أقطار أوروبا على بعضها بعضاً حتى كادت تشرف على الموت في أعقاب الحربين العالميتين الأخيرتين ، كما فرضت

(١) أو الأقطار الناقصة النمو ، أو النامية ، أو السائرة في طريق النمو ، أو دول العالم الثالث ، أو عالم الجنوب ، أو الأمم الكادحة ، أو الأمم المتأخرة .

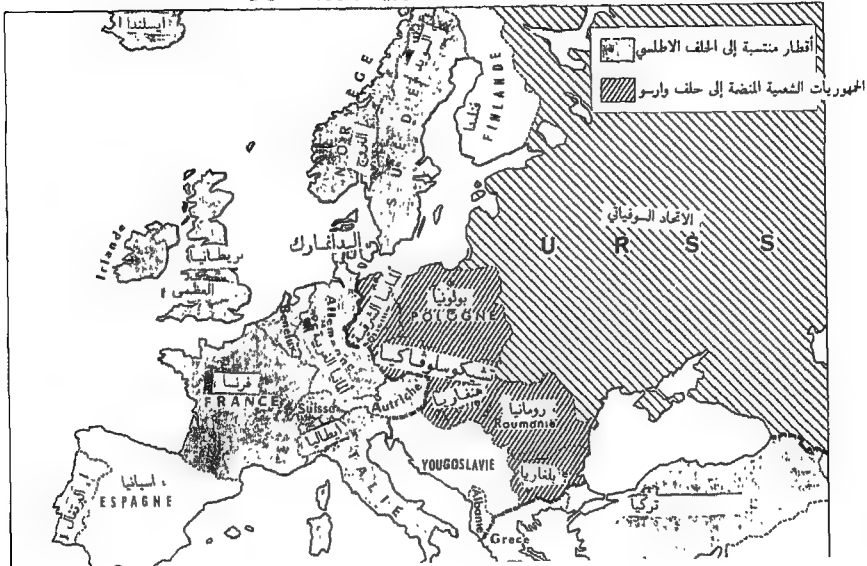
الحرب العالمية الثانية عليها « الستار الحديدي » ، وهو أكبر شرح عميق شهدته في تاريخها كله . وفي هذا العصر الذي أصبحت فيه القوة من نصيب دول ذات أبعاد كبيرة ، فإن تجزئة أوروبا سياسياً جعل منها « محمية » أو أحياناً « تابعة » للولايات المتحدة من ناحية وللاتحاد السوفييتي من ناحية أخرى . ونتيجة هذا الظرف الفريد نشأت محاولات التجمع .

١ - لقد أراد الكوميكون تجميع أقطار « الديمقراطية الشعبية » :

لقد أصبحت كل أقطار أوروبا الشرقية ، فور انتهاء الحرب العالمية الثانية ، عبارة عن « ديمقراطيات شعبية » كان النظام الشيوعي فيها منقولاً حرفياً عن النظام المعمول به في الاتحاد السوفياتي . وامتدت رقعتها نوعاً ما لتشمل سيليزيا البولونية وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا ، أي على أوروبا الوسطى (شكل ٨) ، التي سبق لها أن ازدهرت فيها الصناعة الحديثة . ولكن إذا استثنينا هذه القطاعات الهامشية ، فإن الديمقراطية الشعبية ورثت الجزء الأكثر تأخراً في أوروبا . وهنا بذلت جهود كبيرة في سبيل التحديث الاقتصادي .

الشكل ٨

أوروبا الغربية وأوروبا الشرقية



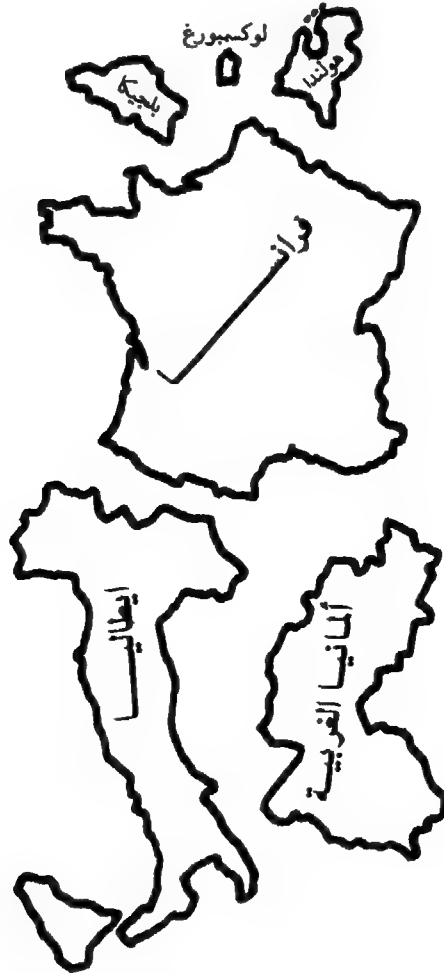
وقد قادت صلة النسب بين هذه الأنظمة أو الأهداف التي تسعى إليها منذ ١٩٤٩ ، إلى أن تشكل ، بتوجيه من الاتحاد السوفياتي ، مجلس التعاون الاقتصادي المتبادل ، الذي غلبت عليه تسمية الكوميكون اختصاراً . وقد استهدف هذا الكوميكون ، عن طريق التنسيق بين مخططات كل قطر ، ومن خلال تخطيط المبادلات بين سائر أعضائه ، إلى نوع من تخصص في كل قطر من أقطار أوروبا الشرقية حسب قدراته وحسب حاجات الدول الأخرى . غير أن هذه المؤسسة تعرضت إلى محن متنوعة ، وتعطلت أنشطتها بسبب يقظة القومية مجدداً في أوروبا الشرقية ، وعجزت عن إقامة سلطة فعالة . ولم تستطع أبداً أن تقترب من « اندماج » حقيقي كالذي تحاول بلدان السوق المشتركة أن تقيمه في الغرب .

٢ - أوروبا الست : محاولة اندماجية :

وعلى خلاف ذلك ترمي الدول السبع وهي : ألمانيا الاتحادية ، وفرنسا ، وإيطاليا ، ودول البينولوكس الثلاث ، إلى انصهار اقتصادياتها بصورة تدريجية وثابتة (شكل ٩) .

آ - منذ ١٩٥١ أقامت الجماعة الأوروبية للفحم والفلاد : « أ » ج . أ . ف . ف . C. E. F. A » نظام حرية الانتقال ، دون أي رسم جمركي على مجمل أراضي الدول الست ، وذلك بالنسبة للفحم وخامات الحديد والصهير (فونت) والفلاد ، والذي تنتج منه قرابة ١٠٠ مليون طن ، أي ما يعادل إنتاج الاتحاد السوفيتي ذاته . ولأول مرة أصبحت كل دولة تحول جزءاً من سيادتها إلى منظمة فوق قومية ، أي إلى السلطة العليا ، التي تتخذ من لوكسمبورغ مقراً لها ، وتنطبق حرية الانتقال هذه على الأشخاص أيضاً ، وهذا بين دول كانت متعادلة

سابقاً ، فتي تتوصل الدول العربية « الشقيقة » لمثل هذا المستوى ؟ بل متى تكف
عن الاحتراب^(١) ؟



الشكل ٩
دول السوق الأوروبية المشتركة

(١) كقول الباحثي
إذا احتربت يوماً ففاضت مائتها تذكرت القرى ففاضت دموعها

ب - أما الجماعة الاقتصادية الأوروبية : (ج . أ . إ) أو C.E.E والتي تدعى عادة « السوق المشتركة » فقد ظهرت في عام ١٩٥٧ نتيجة لمعاهدة روما ، وامتدت منظومة « ج . أ . ف . ف » لتشمل كل اقتصاد دول أوروبا الست . وألغيت رسوم الجمارك على مراحل ضمن منظومة « ج . إ . أ » ، في حين كانت التعرفة الجمركية باتجاه الخارج تقوم تدريجياً ، بيد أن « ج . إ . أ » ليست عبارة عن اتحاد جمركي ، بل تحاول التقدم كي تجعل الشروط الاجتماعية والمالية والتشريعية في الإنتاج متماثلة في كل الأقطار المنضمة إليها ، ولتحقيق حرية تنقل الأيدي العاملة ورؤوس الأموال . إذن ترمي الجماعة إلى اندماج حقيقي وكلي لاقتصاد الدول الست ، في الوقت الذي تسعى فيه لإقامة سوق يضم ٢٢٥ مليون نسمة .

هذا وتكون « ج . إ . أ » شأن « ج . أ . ف . ف » تحت إدارة منظمة فوق قومية *supranational* ، هي اللجنة الأوروبية ، ومقرها في بروكسل .

وتمثل السوق الأوروبية ، فوق رقعة أكثر ضيقاً بكثير ، قدرة زراعية وصناعية تقف على قدم المساواة مع قدرة كل من الاتحاد السوفياتي أو الولايات المتحدة الأمريكية . وقد ظهرت آثاره عن طريق النتائج الناجحة في ميدان المنافسة وعن طريق الاتفاقيات الدولية بين الشركات ، وعن طريق سوق فسيحة متوفرة أمام كل مؤسسة ، هذا بالإضافة إلى نجاحات اقتصادية سريعة .

غير أن السوق المشتركة التي حققت إنجازاً متقدماً جداً على المستوى الصناعي ، تعاني ، على عكس ذلك ، من مصاعب خطيرة في سبيل توحيد زراعة الدول الست ، ذلك أن مزارعي كل قطر يتمتعون بدعم وتوجيه مختلف عن القطر الآخر وذلك حسب سياسة الدول الوطنية . كما يجب أخيراً التصدي في

يوم قريب لمشكلة العملة المشتركة ، التي ستكون تنويعاً لهذه المساعي ، ولعل الأورو دولار هو أحد مظاهر هذا الاتجاه .

ج - أما الأوراتوم ، ويعني الجماعة الأوروبية للطاقة الذرية ، فقد تأسست بموجب معاهدة « ج . أ . إ » ذاتها . وترمي هذه المؤسسة ، عن طريق المشاركة في البحث النووي ، وفي الموارد من المواد المشعة ، إلى تسهيل ازدهار إنتاج الطاقة النووية ، التي لا يزال استخدامها في الطاقة بعيداً عن متناول الأمم الصغرى ، ولتوفير تسهيلات لأوروبا الست مماثلة لتلك التي يتمتع بها كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، ولتحسين حصيلتها الطاقية التي جعلها فقر حقولها النفطية تشكو من العجز ومن التبعية .

د - انصهار المنظمات الثلاث : وقد ظهر ذلك أمراً محتوماً منذ نهاية الستينات ، وكان ذلك تجسيدا لنجاح مجمل عملية الاندماج الاقتصادي الذي سبق لنا ذكره .

٣ - من أوروبا « الست » إلى أوروبا « التسع » في ١٩٧٣

لما كانت السوق المشتركة عبارة عن خير وبركة على أعضائها ، وشوكة في حلق الدول التي لم تشترك فيها ، فقد دفعت الضرورة إلى توسيع مجاله عن طريق انتسابات جديدة ، حتى لقد انضمت إليه اليونان وتركيا ومختلف أقطار أفريقيا السوداء . غير أن إمكانات توسيعه تتعلق قبل كل شيء ببريطانيا العظمى ، التي تظل الدولة الأوروبية الكبيرة التي ظلت بعيدة عنه .

فبعد أن كانت إنكلترا مرتابة بل ومعادية ، وذلك بسبب تقاليدها و « جزريتها » وبقوة مصالحها غير الأوروبية ، ردّت على تشكيل « ج . أ . إ » بأن شكّلت في ١٩٥٩ « التجمع الأوروبي للتجارة الحرة » ولم يكن ذلك

أكثر من رد فاتر ومحدود ، بشكل ضيق في المجال التجاري ، على نشاط
« ج . أ . إ » .

ولكن قررت المملكة المتحدة وإيرلندا والدانمارك في ١٩٧١ العزوف عن
سياستها السابقة والتفاوض في سبيل الانتساب إلى « ج . أ . إ » وانتسبت فعلاً
في الأول من كانون الثاني ١٩٧٣ .

وتؤلف هذه الكتلة الأوروبية « التسع » قوة تزيد عن ٣٢٥ مليون نسمة ،
تنتج ٤٢ مليون طن من القمح وتملك ٧٥ مليون رأس من الأبقار ، و ٢٧٥ مليون
طن من الفحم ، و ٨٠٠ مليون طن من القدرة على تكرير النفط ، وتنتج أكثر
من ١٢٠٠ مليار و س من الكهرباء وتنتج حوالي ١٥٠ مليون طن من
الفولاذ ، فضلاً عن ١٣ مليون سيارة في العام .

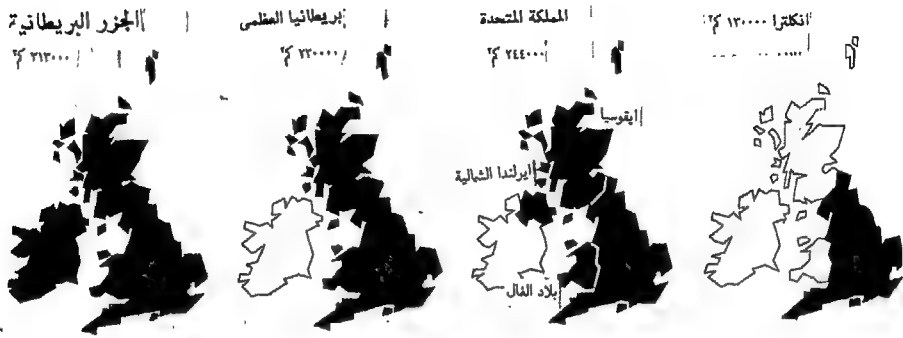
وهكذا تبدو قدرة أوروبا « التسع » معادلة إحصائياً بصورة محسوسة
للأرقام المماثلة في الولايات المتحدة ، وبل وتتجاوزها أحياناً ، غير أن قوة
أوروبا « التسع » تتعلق بالواقع بدرجة تأخذها ، مما يجعل الحفاظ عليها
ودعمها ، بالتالي أكثر صعوبة ، كلما كان عدد الأعضاء المنتسبين أكبر عدداً . ومنذ
١٩٧٤ أخذت بريطانيا تعيد النظر في قضية انتسابها لاعتبارات سياستها
الزراعية ، كما أن المصاعب الاقتصادية العالمية لا تعمل على تقوية اتحاد التسع ،
بقدر ماتدفع بالأحرى نحو « ليعمل كل حسب مصلحته » .



الجزر البريطانية

تبلغ المساحة الكلية للجزر البريطانية ٢١٣٠٠٠ كيلومتر مربع ، وتضم جزيرتين رئيسيتين : جزيرة بريطانيا العظمى ، ذات الشكل المثلثي الكثير التعاريج ، والتي ينفصل عنها عدة أرخبيلات : في الشمال جزر شتلاند ، وجزر أوركاد ، وجزر هبريد ، وفي الغرب جزر مان وجزر أنكليسي ، وفي الجنوب جزر سيللي ، وجزيرة وايت ، والجزر الأنكلو النورماندية ، وأهمها جيرسي وغيرنيسي القريبة جداً من سواحل فرنسا . وتبلغ مساحة هذه المجموعة ٢٣٠٠٠ كم^٢ . أما جزيرة إيرلندا ذات الشكل الرباعي ، فلا تزيد مساحتها عن ٨٣٠٠٠ كم^٢ (شكل ١ وشكل ٢) .

وتتجمع الجزر البريطانية فوق عتبة قارية تغمرها مياه البحر على عمق



الشكل ١



حدود بريطانيا العظمى

لا يزيد عن ٢٠٠ م ، وتنفصل عن القارة بمضيق بادوكاليه ، الذي لا يزيد عرضه عن ثلاثين كيلومتراً ، غمرته المياه في مطلع الدور الرابع . ولا زالت هذه الجزر تحتفظ بأهم الصفات الطبيعية الأوروبية ، كما تتميز بتعقيدها الأثنوغرافي الناجم عن تعاقب الفتوحات عليها ، فقد سكنها السلتيون والجرمان بالإضافة إلى التجزؤ السياسي الناجم عن تاريخها المعقد .

فالمملكة المتحدة ومساحتها ٢٤٤ ألف كم^٢ ، تضم إنكلترا ومساحتها ١٣٠٠٠٠ كم^٢ ، وإيقوسيا ومساحتها ٧٩٠٠٠ كم^٢ ، وبلاد الغال ٢١٠٠٠ كم^٢ ، وجزيرة مان والجزر الإنكلو النورماندية ، ويؤلف المجموع ما يسمى بريطانيا العظمى ، كما تحتفظ بإيرلندا الشمالية أو أولستر ومساحتها ١٤٠٠٠ كم^٢ . أما ما تبقى من جزيرة إيرلندا ، فيؤلف جمهورية إيرلندا ومساحتها ٧٠٢٨٠ كم^٢ ، وقد انفصلت عن المملكة البريطانية عام ١٩٢١ .

وبعد أن كانت المملكة المتحدة أول دولة عالمية في القرن التاسع عشر ، أصبحت في القرن العشرين إحدى كبريات الدول المغلوبة اقتصادياً أمام الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي واليابان ، ولكنها تقاوم هذا التقهقر بعناد وبشكل ناجح ، وفي عام ١٩٧٦ كان الدخل الفردي في إنكلترا ٤٠٧٠ دولاراً مقابل ٦٣٥٠ في فرنسا و ٦٨٧٠ في ألمانيا الغربية .



أسس القوة البريطانية

نستطيع أن نميز من خلال تعقيد التقنية والتجارية والرأسمالية في هذه الدولة ، التي تعتبر أقدم قلاع الحضارة الغربية ، ثلاثة عناصر تؤلف أسس هذه الدولة ، التي لا تزال تحتل المكانة الثالثة بالعالم وهذه الأسس هي : علاقاتها ومواصلاتها ، غنى إنتاج الطاقة ، وأخيراً البنية المهنية والتوزيع الجغرافي لسكانها المتكاثفين .

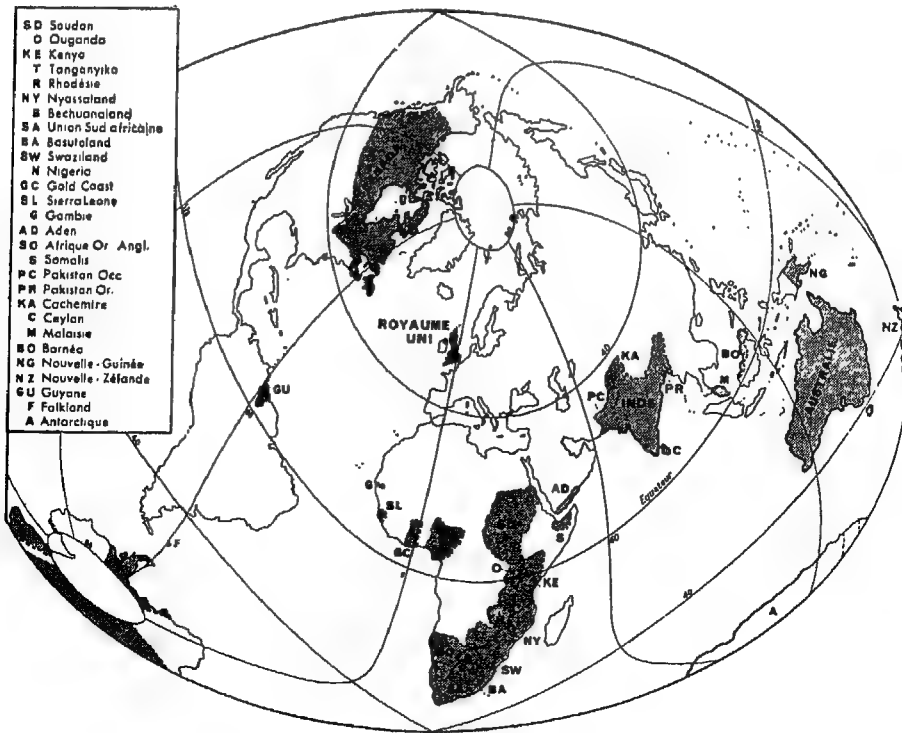
أهمية علاقاتها ومواصلاتها :

فهي تملك أسطولاً تجارياً ، يؤلف أداة المبادلات المتناسبة مع الامبراطورية البريطانية ، ومع تماسك منطقة الاسترليني ، مما يجعله ذا مقياس عالمي لأنه يحتل المرتبة الثالثة .

أ - الامبراطورية البريطانية : إن الاكتشافات الجغرافية الكبرى في القرن السادس عشر ، وتطور وسائل المواصلات في القرن الماضي ، هي التي تفسر سبب كون الامبراطورية البريطانية أكبر إمبراطورية عرفها تاريخ العالم . فهي تغطي مساحة قدرها ٢٧ مليون كيلومتر مربع ، أو خمس مساحة اليابسة ، وتضم أكثر من ٩٢٥ مليون نسمة ، أو ربع سكان الأرض ، في حين لا تؤلف مساحة الجزر البريطانية سوى ٠,٨ ٪ من مجموع مساحة هذه الامبراطورية ، كما أن عدد سكان بريطانيا يؤلفون أقل من عشر سكان هذه الامبراطورية .

هذا وتكون الكيانات السياسية متنوعة جداً في هذه الامبراطورية

(شكل ٣) . فأكثر الأقطار تطوراً ، تؤلف دولاً مستقلة أو دول الدومينيون ، والتي تقف على قدم المساواة مع المملكة المتحدة ، كي تشكل الكومنولث



الشكل ٣

الامبراطورية البريطانية في ١٩٤٥

البريطاني الذي ظهر للوجود عام ١٩٢٦ ، والذي كان مقتصرًا على دول ذات سكان من أصل أوروبي وذوي حضارة أوروبية أيضاً ، مثل كندا وأستراليا ونيوزيلندا واتحاد جنوب أفريقيا (الذي انفصل عن الكومنولث في عام ١٩٦٠) وبعد الحرب العالمية الثانية ، انضمت إلى رابطة الشعوب البريطانية دول جديدة وهي : الجمهورية الهندية والباكستان التي انفصلت في مطلع السبعينات

وسيلان ، ثم تلاها اتحاد ماليزيا وغانا ونيجيريا وسيراليون وقبرص وجامائيك وغويانا البريطانية^(١) .

وهكذا تتناثر الأقطار المتضامنة حول المملكة المتحدة من المحيط الأطلسي ، حيث ترتصف على طول السواحل الأمريكية حتى المحيط الهادي ، وبذلك تحصر في داخلها المحيط الهندي . وكانت تحرس طريق السويس قواعد بحرية وجوية تمتد من جبل طارق إلى مالطة وقبرص وعدن وعمان والبحرين ، وتمتد هذه القواعد إلى الشرق الأقصى ، بواسطة قاعدتي سنغافورة وهونغ كونغ . والواقع هو أن تماسك هذه الامبراطورية المبعثرة ، يبدو على الصعيد المالي والمعنوي أكثر منه على الصعيد الإداري . ومع أن سكان الكومونولث فقدوا صفة المواطنين البريطانيين ، فإن السكان من ذوي الأصل البريطاني البحت - لأن حوالي ١٠ ملايين ، غادروا خلال القرن الماضي والحالي جزيرتهم ليستوطنوا ما يسمى اليوم بالكومونولث ، بالإضافة إلى النخبة المحلية التي تعلمت في الكليات البريطانية - تحتفظ ، بالإضافة إلى اللغة ، بالروح وبطراز الحياة الإنكليزية ، فضلاً عن نوع من عبادة العظمة البريطانية ، التي تلت « العصر الفيكتوري » . وقد أثبتت الحربان العالميتان ، مدى الولاء للتاج من كندا إلى أواسط أفريقيا . وإذا كانت المؤتمرات الامبراطورية لا تعوض تماماً فقدان البرلمان الامبراطوري ، فإن كل الدول التي كانت تحت حكم بريطانيا ونالت استقلالها ، انضمت إلى رابطة

(١) يتألف الكومونولث البريطاني من الدول الآتية :

أ - في أوروبا : المملكة المتحدة . مالطة . قبرص .

ب - في أمريكا : باهاما . بليز . برمودة . كندا . جامايكا . ترينيداد وتوباغو . برباد . غويانا . غرناطة .

ج - في إفريقيا : بوتسوانا . غانا . زامبيا . غامبيا . كينيا . لوسوتو . نيجيريا . سيراليون . أوغندا .

تانزانيا . مالاوي . موريس . سوازيلاند أو (نغوانا) .

د - في آسيا وأوقيانوسيا : أستراليا . نيوزيلندا . فيجي . الهند . بنغلادش . ماليزيا . نورو . پاپوازيا . غينيا

الجديدة . ساموا الغربية . سيشل . سنغافورة . سيرلانكا . تونغا .

الشعوب البريطانية ، باستثناء جمهورية إيرلندا ، وفلسطين ، وبورما ، وجمهورية السودان والباكستان ، وعمدت بريطانيا إلى متابعة سياسة التنازلات البناءة في أقطار أفريقيا الجنوبية الشرقية ، تاركة السياسة الاستعمارية التقليدية لأشكال أخرى من الهيمنة الاقتصادية ، حتى أنها ألغت وزارة المستعمرات في ٣١ تموز عام ١٩٣٣ ودمجتها في وزارة الكومنولث .

ب - منطقة الإسترليني : إن سياسة الأفضلية الامبراطورية على الصعيد الجمركي ، واتباع منهج الحماية ابتداء من عام ١٩٣٢ بالنسبة لسائر مناطق العالم ، وهي من أشكال الانطواء الاقتصادي البريطاني ، أقول إن هذه السياسة قد زادت في المبادلات في داخل الامبراطورية ، التي تمتص ٤٤ ٪ من قيمة صادرات المملكة المتحدة ، والتي تغذي ٣٩ ٪ من استيراد الدولة المذكورة . وفي عام ١٩٣٩ ، أوجدت بريطانيا تديراً مالياً لمقابلة التفوق الأمريكي بالاستعانة بمراقبة النقد ، بحيث أصبحت الدولارات الناتجة عن تجارة رابحة ، كتجارة ماليزيا المصدرة للمطاط إلى الولايات المتحدة ، تحت تصرف الجميع ضمن منطقة الإسترليني^(١) ، التي كانت تضم الامبراطورية البريطانية باستثناء كندا ، الداخلة في منطقة الدولار ، وإيرلندا وبورما ومصر .

وإذا كانت منطقة الإسترليني تضطر لأن تشتري : القمح والقطن الخام والسكر ، والتبغ ، وفلزات الحديد ، والمواد التجهيزية ، فإنها تنتج بالمقابل ، وذلك على مقياس تجاري عالمي ، كل مادة الجوت (من بنغلادش) وتسعة أعشار الشاي (الهند وسريلانكا) وحوالي ثلث المنغنيز (غانا) وأكثر من ثلث صوف العالم (أستراليا) والكاكاو (غانا ونيجيريا) وحوالي نصف المطاط والقصدير

(١) لقد اقتبست عبارة الجنيه الإسترليني من كلمة إسترلين ، وهي وحدة نقدية كانت مستعملة في القرن الثاني عشر .

(ماليزيا) والكروم (زيمبابويه) وسدس رصاص العالم وعشر التوتياء ، والبذور الزيتية المدارية ، والبوكسيت (غويانا) كما يعتبر الذهب (غانا وأستراليا) من أهم ثروات رابطة الشعوب البريطانية . وإجمالاً تهين منطقة الإسترليني على ربع التجارة العالمية .

جـ - الأسطول التجاري : يلعب الأسطول التجاري البريطاني دوراً رئيسياً في اقتصاد المملكة المتحدة ، سواء عن طريق تخفيض ثمن الكلفة أو عن طريق « الصادرات اللامرئية » التي تنتج عن استخدامه بواسطة الأقطار الأخرى .

وقد نشأ الأسطول التجاري على أثر صدور صك الملاحة الأول عام ١٦١٥ ، والصك الثاني في عام ١٦٥١ وأخذ ينمو بسرعة منذ القرن الثامن عشر مع نمو التجارة الاستعمارية . غير أن تطوره وهيئته الحقيقيتين يعودان للثورة الصناعية في القرن الماضي ، فقفزت حملته من ٢,٢ مليون طنّة (الطنّة tonneau في مقياس السفن يعادل حجم ٢,٨٣ م^٣) في عام ١٨١٠ إلى ٦,٦ مليون طنّة عام ١٨٨٠ وإلى ٩,٣ مليون طنّة في عام ١٩٠٠ وإلى ١٨,٦ مليون في ١٩١٤ . ولكن زال هذا التفوق على أثر الأزمة الأوروبية في القرن العشرين . وهكذا بعد أن كان الأسطول التجاري البريطاني يمثل في عام ١٩٠٠ (٥٦ ٪) من الأسطول التجاري العالمي أصبح يمثل في عام ١٩١٤ (٤٤ ٪) منه ، وثالث الأسطول العالمي عام ١٩٣٨ وكانت حملته ١٦ مليون طنّة . وبعد أن تعرض لأضرار كبيرة أثناء الحرب العالمية الثانية . أعيد بناؤه مجدداً فبلغت حملته في عام ١٩٧٩ مقدار ٣٣ مليون طنّة ، ولم يكن يفوقه سوى أسطول اليابان ، وحملته ٤٠ مليون طنّة ولكن من حيث النوعية ومن حيث فعاليته يعتبر أول أسطول تجاري بالعالم .

ويدل على أهمية الأسطول التجاري الإقليمي البريطاني ، ويعادل عشر حمولة الأسطول الكلي ، امتداد السواحل البريطانية ذاتها وارتباط الموانئ

بالنقلات الداخلية ، سواء أكانت بالسكك الحديدية أو بالطرق . ولا تؤلف سفن الترامب Tramps التي تماثل سيارات الشحن العامة من حيث نشاطها ، أكثر من عشر الأسطول التجاري ، وتبدو كأنها شكل غير متناسب مع عصر السرعة والتخطيط في القرن العشرين . ولكن تشكل سفن اللينرز Liners وهي بواخر تسير على خطوط منتظمة ، نصف الأسطول وتخص أهم الشركات الملاحية العالمية مثل « شركة أشباه الجزر الشرقية » ، التي تشرف على ٣٠٠ باخرة تسير على خطوط آسيا وكندا وشركة « كونارد » التي تملك السفن الجبارة أمثال « كوين ماري » و « كوين إليزابيث » وشركة « رويال ميل » . كما أن نحو الأسطول البترولي بسرعة بفضل شركة الناقلات البريطانية B.P. وشركة البترول الأنكلوسكسونية أو « شل » ، جعل هذا الأسطول يمثل ثلث الأسطول البترولي العالمي ، ويحتل المكانة الأولى ، بعد ليبيريا والنرويج من حيث الحمولة الصافية أو ١٠ ملايين طنة . وهكذا يؤمن الأسطول البريطاني ٦٠ ٪ من النقلات بين موانئ المملكة المتحدة و ٥٠ ٪ من النقلات مع موانئ الكومونولث و ٣٠ ٪ من النقلات بين بريطانيا العظمى والأقطار الأجنبية ، وتأتي ١٥ ٪ من أرباح هذا الأسطول من قيامه بالمبادلات بين الأقطار الأجنبية . وهكذا يظل الاقتصاد البريطاني مستنداً على الهيمنة على البحر أو « الثالوقراطية » .

قوة الإنتاج الطاقى :

يتصرف المواطن في المملكة المتحدة بنسبة من الطاقة ، تعد من أكبر أمثاله في العالم .

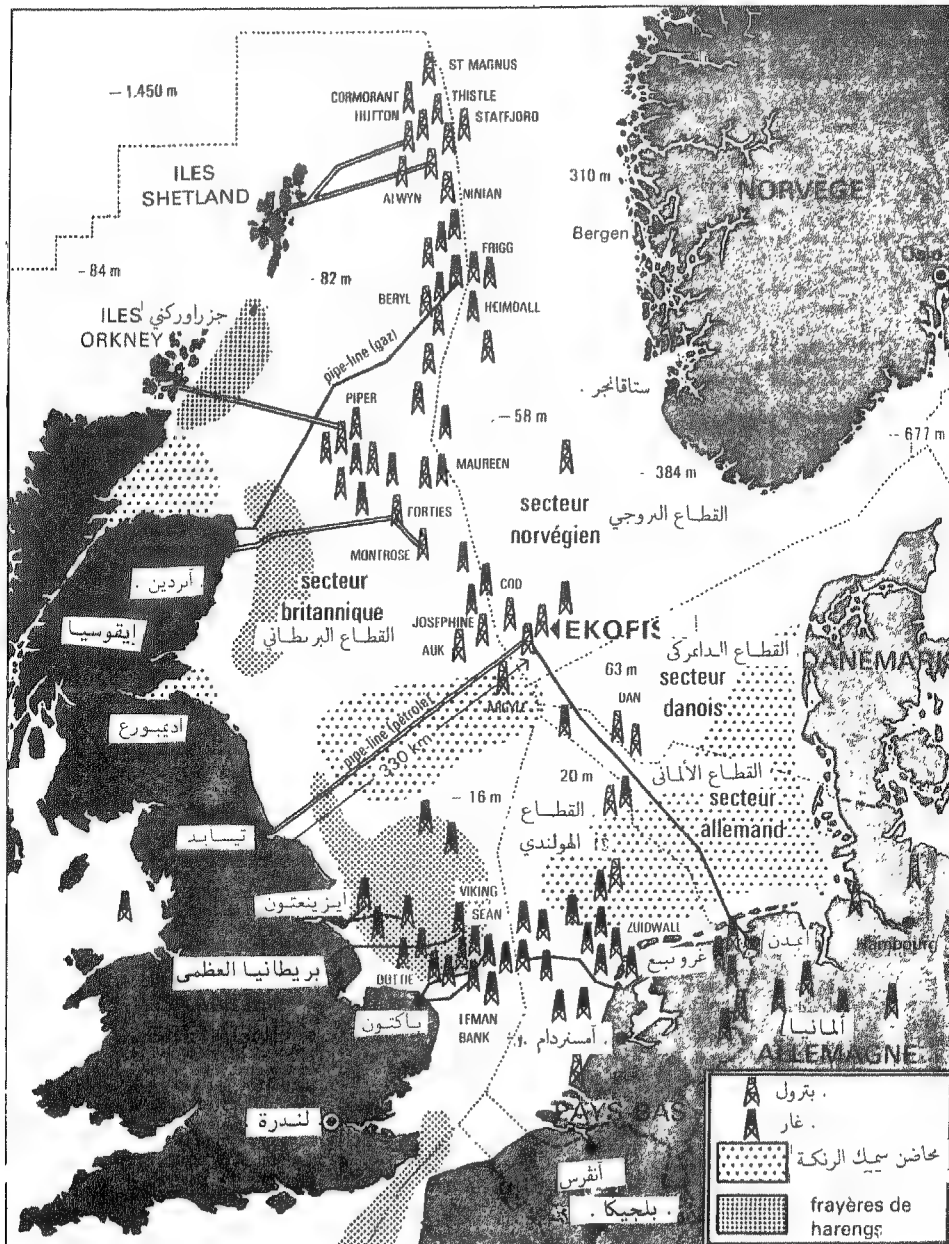
فالنسبة الفردية للطاقة تبلغ ٤,٦٥ طناً من الفحم أو ما يعادلها من حيث القيمة الحرارية من المنتجات البترولية ، أو من القوة الكهربائية أي يقف خلف المواطن الهولندي الذي يستهلك ٥,١٢ أطنان ، وهي أكبر نسبة في أوروبا الغربية . ولكن أكثر من النسبة السويدية وهي ٣,٨٤ أطنان أو البلجيكية

البالغة ٣,٧٥ أطنان ، والألمانية وهي ٣,٢٨ أطنان ، والفرنسية وتقدر بـ ٢,٣٤ من الأطنان . كانت مشكلة الطاقة تعتبر من أخطر المشاكل التي تواجه المملكة المتحدة ، التي سبقتها الولايات المتحدة ، والتي يستهلك الفرد فيها ٨ أطنان أو في كندا ٦,٨ طن وذلك قبل دخول حقول نفط بحر الشمال مرحلة الإنتاج في ١٩٦٧ (شكل ٤) .

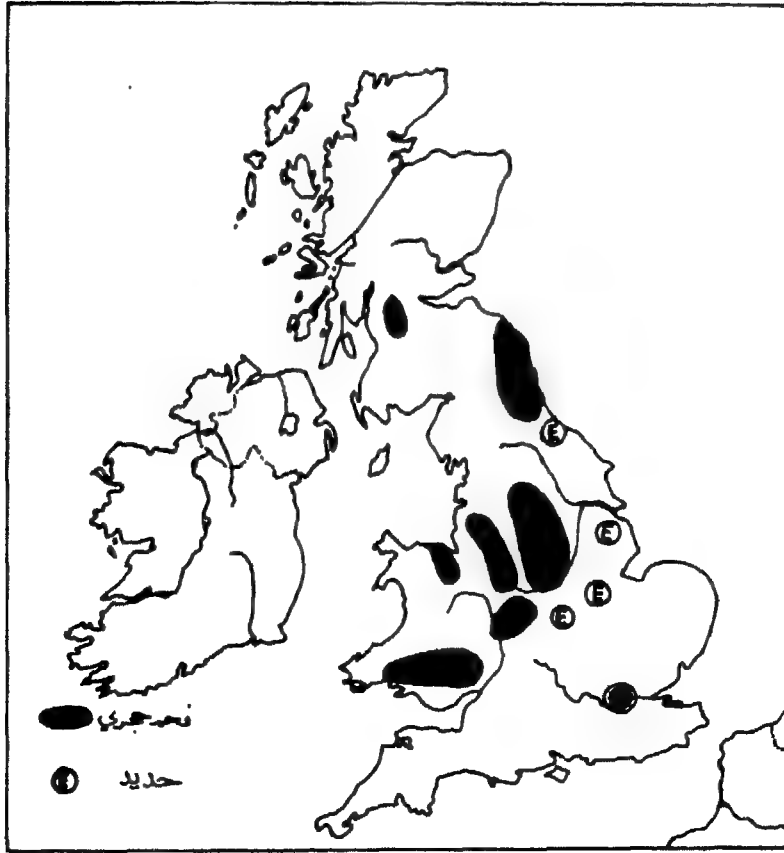
أ - أهمية وتطور الثروة الفحمية : يقدم الفحم الحجري حالياً ٨٧ ٪ من الطاقة البريطانية . وبفضل استخدام الفحم لوحده في بريطانيا في المراكز الحضرية ذات المردود العالي ، والتي حلت مكان المكائن البخارية ذات المردود الهزيل ، ارتفع إنتاج الكهرباء في هذه البلاد إلى حوالي ٣٠٠ مليار كيلواط ساعي أو ستة أمثال إنتاجها عام ١٩٤٦ رغم إهمالها التام تقريباً لثرواتها من الفحم الأبيض ، ولكن عثرها من أصل نووي .

ولكن مشكلة الفحم لا تزال حادة جداً . فالإنتاج الذي ضرب الرقم القياسي عام ١٩١٣ حيث بلغ ٢٨٧ مليوناً من الأطنان ، والذي كان يسمح بتصدير ٩٣ مليون ، انخفض إلى ١٨٠ مليون طن في عام ١٩٤٥ ، وإلى ١٢٨ مليون طن عام ١٩٨١ ، حتى ان بريطانيا أصبحت مستوردة للفحم منذ عام ١٩٧٤ (شكل ٥) . ورغم تزايد الإنتاج بعد الحرب العالمية الثانية ، فلا يزال الإنتاج غير كاف ليس فقط لوجود تصدير مرغوب جداً من أجل دعم التوازن المالي بل وحتى لسد حاجات الاقتصاد البريطاني من هذه المادة لأن الإنتاج الصناعي زاد بحوالي ٦٠ ٪ بالنسبة لعام ١٩٣٨ .

ومع أن الطبقات الفحمية القريبة من سطح الأرض ، وأكثرها ثخانة والتي اتجهت إليها صناعة استخراج الفحم بالبدء ، قد نضب معينها نوعاً ما ، فإن المصاعب نجمت أيضاً عن تأخر تجهيز وتناقص اليد العاملة . فعلى الحرب العالمية الثانية كان القانون الإنكليزي الذي يعطي للمالك الأرض ملكية ما تحتها ،



الشكل ٤



الشكل هـ

حقول الفحم والحديد في بريطانيا

قد أوجد عدداً كبيراً من المناجم الصغيرة العاجزة عن تحسين وسائلها وزيادة إنتاجيتها . ومن جهة أخرى ظلت أجرة العاملين في المناجم في مستوى منخفض جداً ، فكانت تقل بمحوالي الثلث عن أجرة العمال في الصناعات الأخرى . لهذا انخفض عدد العاملين في المناجم والراغبين في ذلك حتى ضمن العائلات التي يعمل أبناؤها في المناجم منذ أجيال . وأصبح الوضع خطيراً بعد الحرب العالمية الثانية ، لأن عدد العاملين في المناجم لم يزد عن ٧٠٠٠٠٠ مقابل ١١٠٠٠٠٠ في عام ١٩١٣ ،

وكانت أعمار ٤٤ ٪ من هؤلاء تزيد عن ٤٠ سنة ، كما كانت الآلات قديمة وسيئة الصيانة كما كان مردود العامل دون مستوى قبل الحرب الثانية .

وقد أدت ضرورة إعادة تنظيم الصناعة المنجمية ، وتوظيف رساميل ضخمة إلى تأميم يخالف التقاليد البريطانية . وهكذا قامت هيئة الفحم القومية في عام ١٩٤٧ فارتفع الإنتاج إلى ١٩٣ مليون طن أو ١٠ ٪ من إنتاج العالم من الفحم . وقد أمكن الحصول على ذلك بفضل جعل العمل ميكانيكياً إلى حد كبير ، ولكن دون مستوى مناجم فرنسا أو ألمانيا ، ولكن هذا الجهد يدل على أن الإدارة المالية رديئة في معظم أحواض الفحم ، فلا يزال التصدير في تناقص (٥ ملايين طن) والاستيراد (١٠ ملايين طن) في تزايد . ومع أن هناك إمكانية لاستمرار صناعة استخراج الفحم حسب النسق الحالي خلال مدة تتراوح بين ٥ و ٦ قرون قادمة ، فإن هذا الفحم خسر دوره العالمي إلى الأبد . كما أن دوره الداخلي المتفوق في اقتصاد المملكة المتحدة يتناقص بالنسبة لمصادر القدرة الأخرى .

ب - حصة المملكة المتحدة في الإنتاج العالمي للبتترول : لم تكن المنتجات البترولية تمثل حتى قبل ١٥ سنة أكثر من ٢٤ ٪ من الطاقة البريطانية ، كما لم تكن الامبراطورية تنتج الكثير من البترول . لهذا كانت تدين المملكة المتحدة إلى أسطولها وإلى رساميلها ، التي تلعب دوراً هاماً جداً بالنسبة لهذه المادة الحيوية . فهناك شركتان كبيرتان تستخرج من مختلف حقول النفط بالعالم ١٧ ٪ من الإنتاج العالمي في الأقطار غير الاشتراكية . وهما شركة رويال دوتش شل (وهي شركة إنكليزية هولندية تشكل الرساميل البريطانية ٤٠ ٪ فيها) ، التي تستحوذ على ١١ ٪ من الإنتاج العالمي ، وشركة البترول البريطانية B.P التي تقدم ٦ ٪ من الإنتاج العالمي .

فشركة رويال دوتش شل وهي أكبر تروست أوروبي ، تضم ٤٠٠ فرع في

مختلف الدول ، وتستخدم ٢٥٠.٠٠٠ شخص في أقطار مختلفة حيث تستخرج وتشتري وتصفى البترول . ففي عام ١٩٦١ حصلت على ٥٠ مليون طن تقريباً من أقطار أمريكا الجنوبية وخاصة من فنزويلا وكولومبيا وعلى ١٥ مليون طن من أندونيسيا (من جزيرتي كالينتان وسومطرا) وعلى ٣٠ مليون طن من الشرق الأوسط ، حيث كانت تحصل على ٢٣,٧٥ ٪ من إنتاج شركة بترول العراق قبل ١٩٧٠ و ١٤ ٪ من إنتاج إيران الذي كانت تشرف عليه مجموعة شركات عالمية . كما تستخدم شركة شل أسطولاً من الناقلات حملتها ٨,٦ ملايين طن - منها سفن حملتها ٣ ملايين طن تعتبر ضمن ملكيتها الخاصة - من أساس أسطول عالمي من الناقلات البترولية حملته ٤٨ مليون طن ، كما تملك أيضاً حوالي ٢٨٠٠٠ كيلومتر من الأنابيب الناقلة للنفط . كما أن مصافيها البالغ عددها ٤٨ مصفاة ، عالجت في عام ١٩٧٩ مقدار ١٤٨ مليون طن من البترول أو حوالي ١٤ ٪ من بترول الأقطار الرأسمالية مثلما تزداد مكانتها أكثر فأكثر في مضار الصناعة الكيماوية . أما شركة البترول البريطانية فهي محدودة بالأساس في الشرق الأوسط ، فهي تملك ٤٠ ٪ من إنتاج مجموعة الشركات العالمية التي حلت محل شركة الأنكلو إيرانيان عام ١٩٥٤ بعد تأميم البترول الإيراني على يد الدكتور (محمد مصدق) ، كما كانت تملك ٥٠ ٪ من إنتاج الكويت و ٢٣,٧٥ ٪ من إنتاج شركة البترول العراقية قبل تأميمها . وتبلغ حولة أسطول ناقلات البترول الخاص بهذه الشركة ٢ مليون طن أو ٤ ٪ من الأسطول البترولي العالمي كما تملك ميناءين في غرانجهاوث وفي جزيرة غرين Grains Ile de de هما الوحيدان في بريطانيا والقادران على استقبال أضخم ناقلات النفط (شكل ٦) .

ولكن الوضع تغير تماماً منذ ١٣ سنة إذ أصبحت حقول نفط بحر الشمال تغطي حاجة بريطانيا من الغاز بل وأصبحت هذه الدولة تصدر النفط بعد أن أصبحت تنتج ٤٥ مليار متر مكعب من الغاز و ١٠٠ مليون طن في ١٩٨١ من البترول .

وهكذا تظهر شركة شل وشركة البترول البريطانية أهم الشركات الإنكليزية إلى جانب شركة الصناعة الكيماوية Imperial Chemical والشركة الإنكليزية الهولندية للزيوت النباتية Unilever والتي تلعب جميعاً دوراً جوهرياً في الاقتصاد البريطاني . فمن ناحية ، تقدم شركة شل وشركة البترول البريطانية ، البترول مع حق الأفضلية ، بالجنهيات الاسترلينية . ومن ناحية أخرى فإن المبيعات التي تقوم بها هاتان الشركتان بالعالم - لأن العائدات الصافية لشركة شل ارتفعت في عام ١٩٨٠ إلى عشرة مليارات من الجنهيات - تؤلف واردات مالية تزداد قيمتها لأنها تدفع بالدولارات ، كما أنها أوجدتا في بريطانيا صناعة بترولية هامة .

فقدرة المصافي البريطانية البالغة ١٤٨ مليون طن بالعالم ، والتي تضاعفت ثلاثين مرة منذ عام ١٩٣٨ ، والواقعة خاصة في ميناء فاولي Fawley حيث توجد أكبر مصفاة بترول في أوروبا وفي ميناء غرانجهاوث ، تجعل بريطانيا تحتل المكانة الثالثة بالعالم خلف الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وقبل فنزويلا وكندا . هذا وتستهلك بريطانيا حوالي ٣٥ مليون طن من البترول وتعيد تصدير حوالي ١٣ مليون ، ثلثها من أجل استهلاك السفن . وقد شيدت مصفاة في ميلفورد هافن Milford-Haven في بلاد الغال فضلاً عن ميناء يستطيع استقبال الناقلات الجبارة التي تأتي عن طريق الكاب .

ج - ملامح الطاقة الذرية : تحاول بريطانيا أكثر من أية دولة أخرى ، تنظيم إنتاج ذري لأغراض صناعية ، فهناك برنامج كبير يقضي إنجاز بناء « نطاق ذري » ، يشتمل على ١٩ مركزاً تقع عند مصبات الأنهار الرئيسية ، تمثل طاقة إجمالية تتراوح بين ١٤٠٠٠ ميغاواط ، أي ضعف البرنامج الأمريكي ، وهذه الطاقة ستمثل ربع الإنتاج الكهربائي البريطاني في عام ٢٠٠٠ .

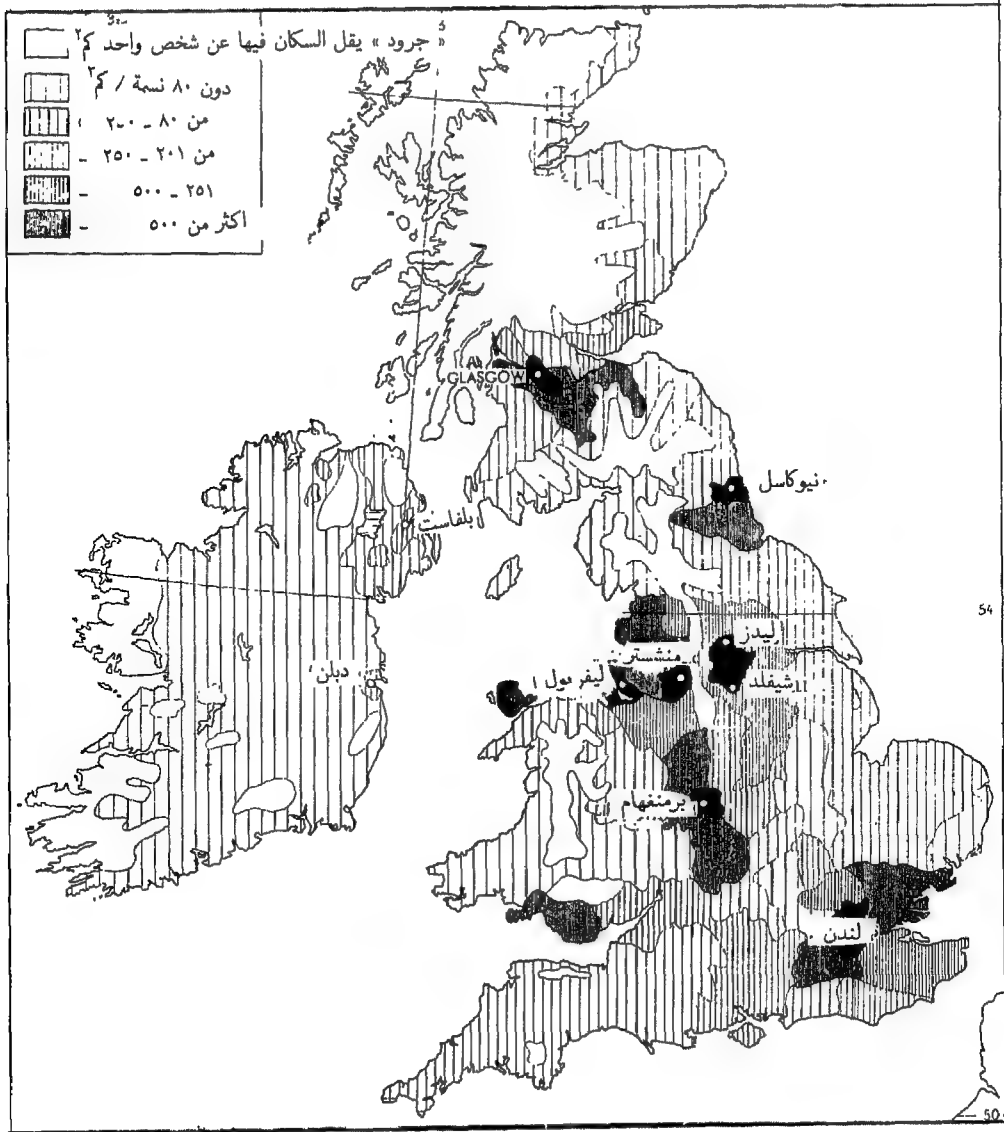
وتتم في الوقت الحاضر معالجة فلزات الأورانيوم المستوردة من اتحاد جنوب

أفريقيا ، استناداً إلى الدراسات التي تمت في هارويل ، قرب مدينة ريدينغ ، وفي مدينة سبرينغفيلد في مقاطعة لانكشاير . كما يصنع البلوتونيوم في ويندسكيل في مقاطعة كمبرلاند ، كما يحول (أورانيوم ٢٣٨) إلى (أورانيوم ٢٣٥) في كابنهورست ، وسيعقب بناء أول مركز في كالدربول في مقاطعة كمبرلاند وقدرته ٥٠ ميغاواط بناء مركز أنان Annan في إيقوسيا . وهكذا تتطلب أكثر دول أوروبا تمسكاً بالتقاليد من هذه الثورة بالطاقة مستقبلاً أكثر مجداً وازدهاراً .

الشعب البريطاني :

لا يمكن فصل النهضة الديموغرافية البريطانية عن الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر . فبعد أن كانت التقديرات تشير إلى أن عدد سكان بريطانيا عام ١٧٥١ لم يتجاوز ٧,٥ ملايين ، ارتفع هذا العدد إلى ٢١ مليون بعد قرن من هذا التاريخ ، وإلى ٣٠ مليون عام ١٨٨١ ، وإلى أكثر من ٥٤ مليون عام ١٩٦٦ ، وإلى ٥٦ مليون في ١٩٨٢ . ورغم أن بريطانيا قدمت خلال هذه الفترة حوالي ٢٠ مليوناً من المهاجرين فقد تضاعف عدد سكانها ٤ مرات في مدة ١٥٠ سنة بينما لم يزد عدد سكان فرنسا في هذه الفترة أكثر من ٦٠ ٪ واستقبلت ٣ ملايين مهاجر . ويبلغ عدد سكان المملكة المتحدة حالياً ٥٦ مليون نسمة ، أي كثافة تقارب ٢٣٠ نسمة في الكيلومتر المربع ، أو ثلاثة أمثال الكثافة في فرنسا . أما في إنكلترا التي يبلغ عدد سكانها ٤٧ مليون نسمة فترتفع الكثافة إلى ٣٢٥ نسمة في الكيلومتر المربع ، أو أربعة أمثال الكثافة في فرنسا (شكل ٧) . غير أن نسق التزايد الديموغرافي الذي بلغ أقصاه عام ١٨٨٠ ، قد أخذ بالانخفاض تدريجياً حتى الحرب العالمية الأولى ، ثم بسرعة بعدئذ . ولكن الحرب العالمية الثانية أدت إلى توقف هذا التناقص وهكذا كان التزايد الطبيعي في المملكة المتحدة دون ٤ بالألف ، أي من أخفض أمثاله بالعالم شأن نسبة التوالد فيها . ويبدو أن نظرية الاقتصادي

الإنكليزي مالتوس ، الذي نادى في عام ١٧٩٨ بخطر تزايد النوع البشري ، قد
لاقت في بريطانيا ، أكثر من أية منطقة أخرى في أوروبا الشمالية الغربية ، أهمية



الكثافة السكانية الحالية في الجزر البريطانية

الشكل ٧

جديدة . وتبلغ نسبة التوالد حالياً ١٢ بالآلف والوفيات ١٢ بالآلف ، أي هناك توقف ديموغرافي ، وتهبط نسبة وفيات الأطفال الذين هم دون العام إلى ١٤ بالآلف ، والأجل المرتقب ٧٢ سنة .

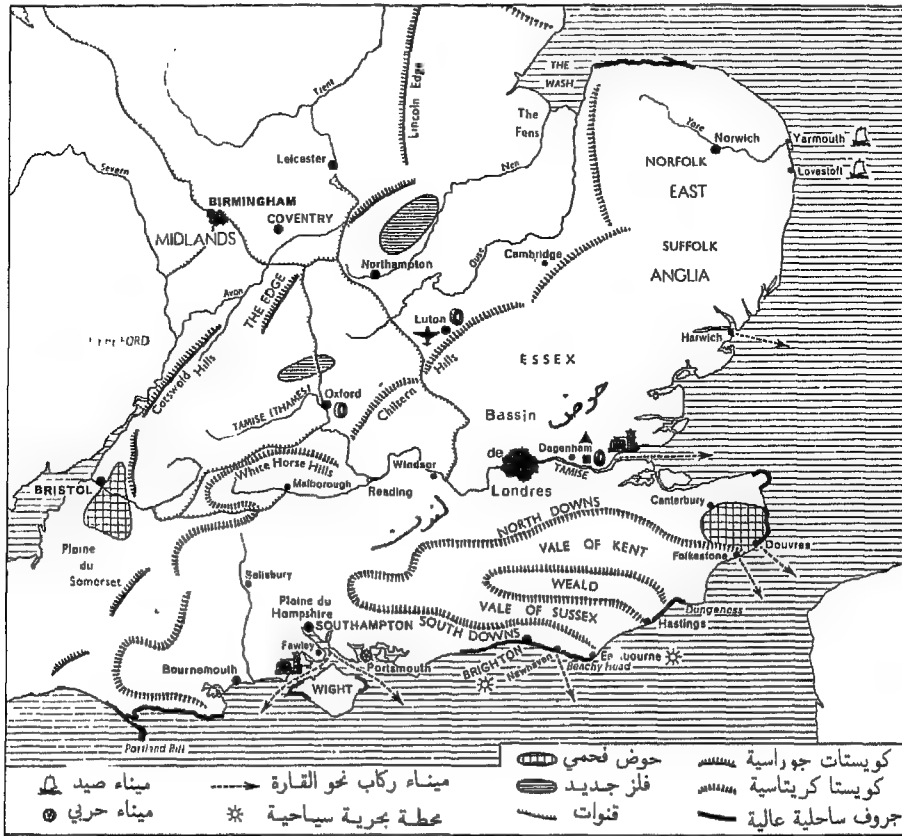
أ - تركز سكان المدن : يبدو تركز السكان في المملكة المتحدة أشد أمثاله بالعالم فتضم المدن ٨٥ ٪ من السكان ، بينما لا تزيد النسبة في فرنسا عن ٦٥ ٪ . ولا تحتوي المدن التي تضم أقل من ١٠٠٠٠ نسمة ، على أكثر من ١٦ ٪ من سكان المدن مقابل ٤٨ ٪ في فرنسا . بينما تضم المدن التي تحوي أكثر من ١٠٠٠٠٠ نسمة ٤٨ ٪ من سكان المدن مقابل ٢٧ ٪ في فرنسا . وتحاط كل مدينة كبيرة بنثير من المراكز الصغرى التي تتعلق بها اقتصادياً . وتؤلف المدينة مع هذه المجموعة مناطق عمرانية حقيقية تسمى في بريطانيا Conurbations أو المدن الجسمية . ويعيش ٤٠ ٪ من البريطانيين في ٧ مدن جسمية ، تضم كل منها أكثر من مليون نسمة . فمدينة لندن الكبرى لوحدها تحوي على ٨,٤ ملايين نسمة أي أن سكانها يفوق عن عدد سكان الريف البريطاني كله . وتعتبر ثامن مدينة في العالم من حيث عدد السكان .

وتحتوي بريطانيا على بنية اجتماعية فريدة جداً لا تترك أكثر من ٥ ٪ من مجموع السكان للقطاع الزراعي المسمى « القطاع الأولي » مقابل ٢٠ ٪ في فرنسا و ٥٠ ٪ في سورية و ٧٠ ٪ في تركيا ، ويشغل في « القطاع الثاني » أي المنجمي والصناعي ٤٧ ٪ من السكان مقابل ٢٨,٨ ٪ من السكان في فرنسا و ١١,٨ ٪ في سوريا . ويشغل الباقي أي ٤٧ ٪ من السكان في « القطاع الثالث » ، أي القطاع غير المنتج مباشرة مقابل ٣٥,٧ ٪ في فرنسا و ٣٦ ٪ في سوريا . ويعمل في هذا القطاع الأخير في بريطانيا ٧ ٪ منهم في النقل و ١٣ ٪ في التجارة . وبالإضافة إلى هذه الصفات المذكورة يبدو هذا الاختلال في التوازن بين مختلف القطاعات كنموذج مثالي للحضارة الصناعية والتجارية « الغربية » .

ب - الفروق البشرية في هذا القطر القديم : تحتوي الجزر البريطانية على تباينات كبرى على الصعيد البشري . فقد اجتاحتها بالماضي موجتان رئيسيتان من السلتيين (بروتون وغايل Gaëls) قدموا إليها في الفترة الواقعة بين القرن الرابع والأول قبل الميلاد ، والذين طردوا فيما بعد نحو الغرب على يد الجرمان (انكلوسكسون واسكاندينافيين) ، وجاء الفتح الروماني في عهد يوليوس قيصر ، فشم إنكلترا الحالية حتى جدار هادريان ، وتلاه الفتح النورماندي في عام ١٠٦٦ فعملا على خلق الحضارة البريطانية الأولى وأدخلا تعديلاً طفيفاً على الأساس البشري الذي تمخضت عنه ثلاثة شعوب متميزة هي : الإيرلنديون وهم من أصل سلتي بحت ، والإيقوسيون ويغلب عليهم الطابع السلتي أكثر من الطابع السكسوني ، والإنكليز وهم من أصل أنكلوسكسوني . وإذا كان العنصران الأوليان قد قدما أكثر الشخصيات لمعاناً في تاريخ هذه الجزر ، فإن الشعب الإنكليزي ، المتصف بهدوئه ، ولكن بعناده وواقعيته ، هو الذي ضرب للعالم المثل عن الحرية الحالية من الفوضى ، وأوجد نموذج الرجل الراقى « الجنتلمان » المتصف بروح دينية محترمة للتقاليد ، تحتفظ منذ تخرجها من المدرسة بعادة ضبط النفس . وذلك الرجل الذي يقاوم المناخ القاسي بممارسة ضروب الرياضة الوطنية بالإضافة إلى حب « المنزل » والذي لا يتأثر كثيراً بأشكال الحضارات الأخرى المحيطة به بالخارج فيحمل معه إلى أي مكان « العظمة البريطانية » .

كما تشير تباينات الكثافة السكانية إلى هذا التفوق الإنكليزي . فالكثافة في جمهورية إيرلندا تبلغ ٣٣ نسمة بالكيلومتر المربع ، وتصل إلى ٦٧ في إيقوسيا وإلى ٩٨ في أولستر ، أي إيرلندا الشمالية الشرقية ، و ١٢٥ في بلاد الغال ، ولكنها تقفز إلى ٣١٥ في إنكلترا ، ولا تفسر هذه الكثافة المتفاوتة بالصفات العرقية بقدر ما تفسر بالتفوق الاقتصادي المتعلق بالإطار الطبيعي . فالأراضي المرتفعة الغريبة والسهول الإيرلندية المتصفة جميعاً بالترب الفقيرة

المعرضة للرياح الرطبة والبعيدة عن المنطقة الحية المجاورة لبحر الشمال ، تحتفظ
 سكان من أصل سلفي ، يعيشون في أنماط معيشة أقل تطوراً فلا تزيد الكثافة
 عندهم عن ١٠ أشخاص في الكيلومتر المربع . أما السهول الإنكليزية ، وإلى حد ما
 شريط الأراضي المنخفضة الإيقوسية ، فتمتع بمناخ أكثر شمساً وبأراض أكثر
 خصباً تشرف من الشرق على بحر الشمال ، وتطيف بها من الغرب المناطق الفحمية
 لذا ترتفع الكثافة فيها إلى ٤٠٠ شخص في الكيلومتر المربع ، وتضم بالإضافة إلى
 أكثرية السكان مجموع الثروة والقوة البريطانيتين (شكل ٨) .



سهول جنوب شرق انكلترا

الشكل ٨

المناطق الناقصة النمو

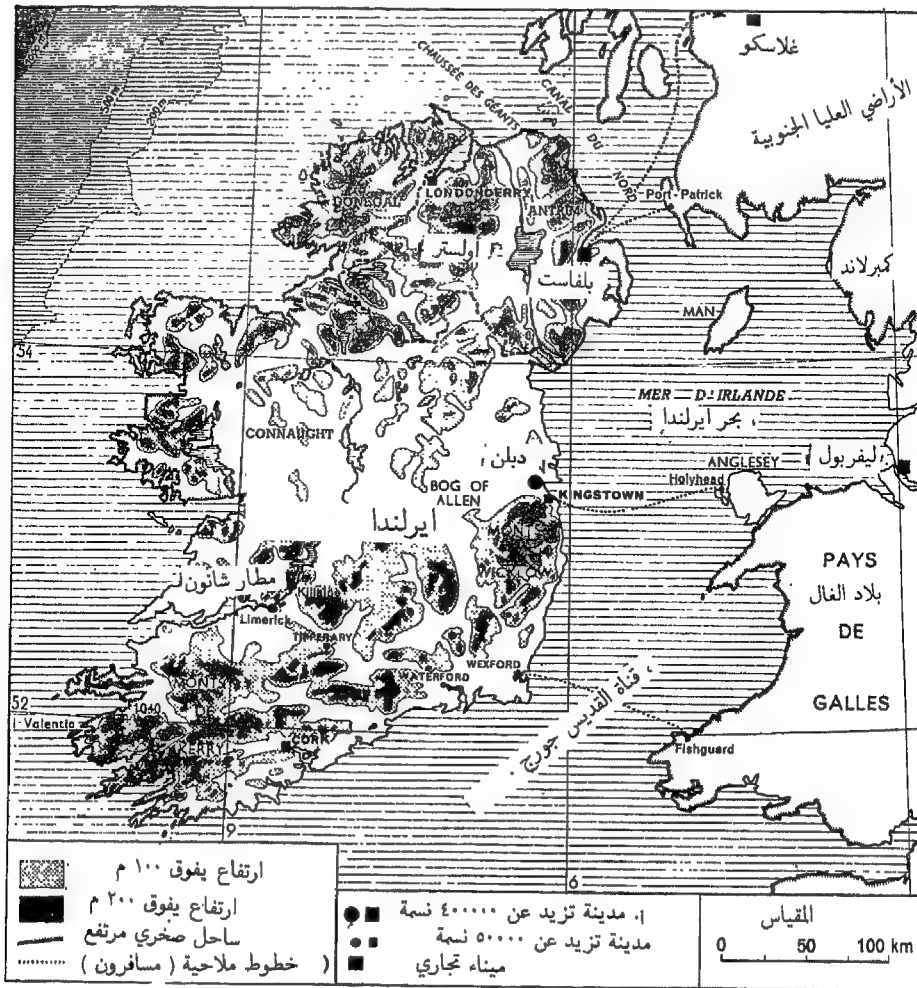
على خلاف جزيرة بريطانيا العظمى التي يتنافر فيها فقر الكتل الجبلية مع غنى الأحواض الصناعية التي تطيف بها في أغلب الأحيان ، فإن إيرلندا جميعها من جبال وسهول ، تنتسب إلى أقل المناطق البريطانية تطوراً .

إيرلندا :

أ - أسباب التأخر الإيرلندي : هناك شريطان من الأراضي المتبلورة يطيفان من الشمال ومن الجنوب بالسهل الأوسط المفتوح نحو بحر إيرلندا ، أكثر من انفتاحه نحو المحيط الأطلسي ، فالكتل الجبلية الشمالية ، التي اختلطت بها التدفقات البازلتية والتي تشمل على أعمدة غريبة تدعى درب الجابرة ، سبق لها أن تعرضت للتأثير الجليدي . بينما كتل الجنوب وهي أكثر ارتفاعاً (إذ تنهض في جبال كيرى إلى ١٠٤٠ م) (شكل ٩) ، تحتوي على وديان أكثر جمالاً ، مثل وادي تيبيري Tipperary في السهل ، والمؤلف من قاعدة من الصخور الكلسية التي تغطيها تلال مورينية ، كما يؤلف نهرشانون ، وهو نهر غزير ، سلسلة من البحيرات . وتعمل الرياح والرطوبة المحيطة على جعل المراعي والأراضي البور زينة إيرلندا الخضراء نظراً لفقرها بالغابات ، وإذا كانت البحيرات ، وهي فتنة المناظر الإيرلندية ، تغطي ٢ ٪ من المساحة العامة فإن ١٣ ٪ من المساحة تشغلها مستنقعات الطورب ، حيث يكون كل شيء قائماً ، من أرض ، ومياه ، وبيوت ، والتي تعطي وقوداً غليظاً ، يخلق دخانه الحاد دائماً فوق الأمكنة المأهولة .
والخلاصة : أن إيرلندا هي قطر فقير .

غير أن التاريخ هو المسؤول الرئيسي عن التأخر الإيرلندي . فبعد أن أخضعهم كرومويل في القرن السابع عشر ، لم يستطع السلتيون الكاثوليك الإيرلنديون أن يتحرروا من سيطرة إنكلترا الأنكلوسكسونية والبروتستانية إلا في

القرن العشرين . ففي عام ١٩٢١ أصبحت إيرلندا المحرومة من مقاطعة أولستر ، دولة حرة ضمن إطار الكومنولث ، وفي عام ١٩٣٨ أصبحت دولة مستقلة . وفي عام ١٩٤٨ جمهورية منفصلة عن الكومنولث . وقد نتج عن هذا الاحتلال الإنكليزي من النموذج الاستعماري ، والذي استمر ثلاثة قرون ، أن وجدت إيرلندا

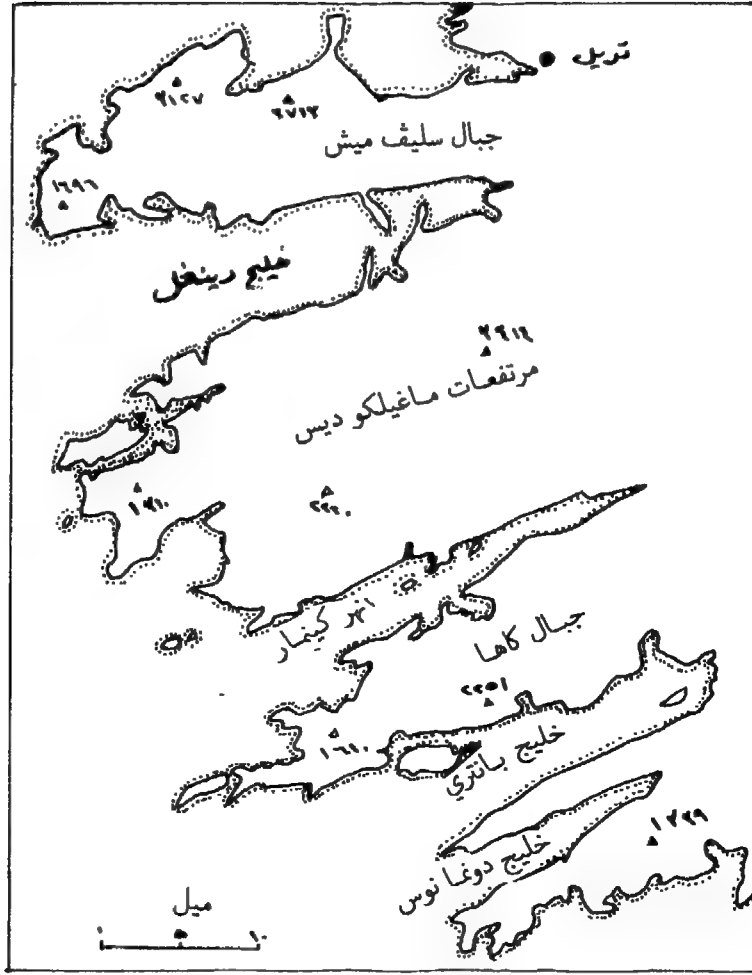


ايرلندا

الشكل ٩

نفسها في عام ١٩٢١ في أوضاع متردية ، كضعف التصنيع المقصود ، الذي كان يسمح بتصريف منتجات الصناعة الإنكليزية ، وبنية زراعية تفتت المنطقة الفقيرة بالغرب إلى ملكيات صغيرة تقل عن ١٠ هكتارات ، بينما كانت الأراضي الأكثر خصباً بالجنوب وبالشرق على شكل ملكيات كبرى متخصصة منصرفة إلى تربية الماشية أكثر من زراعة الحبوب ، فبعد أن كان عدد سكان الجزيرة قد ارتفع إلى ٨,٥ ملايين نسمة قبل قرن من الزمن ، انخفض إلى النصف بعد المجاعة القاتلة ، التي نجمت في عام ١٨٤٦ عن مرض أصاب البطاطا والتي أعقبتها هجرة اتجهت نحو الولايات المتحدة . بيد أن منطقة أولستر التي يقطنها معمر من أصل إيقوسي وبروتستان لم تتعرض لمأساة المسألة الإيرلندية إلا مؤخراً .

ب - جمهورية إيرلندا : دولة مستقلة ، ولكنها ريفية بنسبة ٦٠ ٪ ومحرومة من الرساميل ومن كل حياة بحرية ، رغم أن سواحلها كثيرة التعاريج إذا نظرنا إليها بالتفصيل (شكل ١٠) . ولم تتمكن هذه الجمهورية بعد من خلق اقتصاد مستقل عن اقتصاد المملكة المتحدة . فتحتل البراري والمراعي ٤٥ ٪ من المساحة ، أما الأراضي القابلة للزراعة فلا تزيد عن ١٨ ٪ مخصص نصفها لزراعة الشوفان وربعا للبطاطا . وتحتوي إيرلندا على قطيع من الأبقار يبلغ تعدادة أربعة ملايين ، مخصص بشكل رئيسي لإنتاج اللحم ، لأن التسمين النهائي يتم في بريطانيا (شكل ١١) ، بينما تربي الأبقار في المنطقة الجنوبية الشرقية من أجل إنتاج الزبدة ، التي تسمح فضلاتها بتربية الخنازير . كما تتم تربية الأغنام في الجبال والخيول الصغيرة من نوع بوني Poney في السهول لوحة التخصص الرعوي المعد لتموين السوق الإنكليزية . وتتم التجارة الخارجية كلها تقريباً بواسطة ميناء دون لوغهير Dun laoghaire (اسمه سابقاً كينغستون) وميناء دبلن على بواخر بريطانيا حيث توجه نحو المملكة المتحدة أربعة أخماس صادراتها ، وتتلقى منها نصف استيرادها على شكل منتجات مصنوعة وبترول وفحم ، ويكون ميزانها



الرياس يوازي البنية على الساحل الممتد - جغ ايرلند

الرياس الايرلندي . الارتفاعات بالأقدام (٣٣ سم)

الشكل ١٠

التجاري خاسراً بمقدار النصف . ويؤدي وجود مليون إيرلندي في المملكة المتحدة يتمتعون فعلاً بحقوق المواطنين البريطانيين ، وهيئة اللغة الإنكليزية ، رغم أن اللغة الغالّة أصبحت من ناحية المبدأ لغة قومية ، تؤدي جميع هذه العوامل إلى

تقوية العلاقات الإجبارية بين هاتين الدولتين المتكاملتين اقتصادياً ، والداخلتين في كتلة الجنيه الاسترليني .

وما لا ريب فيه أن تطوراً موائماً يحدث في هذه البلاد ، فقد قامت مراكز كهربائية تستخدم فحم الطورب ، كما قام مركز كهربائي في موقع كيلالو



جمهورية أيرلندا

الشكل ١١

Killaloe ، على نهر شانون ، تقدم إجمالاً طاقة قدرها ١,٥ مليار كيلواط ساعي كما تم بناء مصفاة بترول في (وايت - غايت) قرب مدينة كورك . وإذا كانت بعض الصناعات غير الحليبية تحول منتجات الأرض مثل معامل الجعة والتقطير ، لا تزال تنحصر في العاصمة دبلن ، وهي المدينة الكبرى الوحيدة التي تضم ٥٧٠٠٠٠ نسمة ، فإن صناعات أخرى أضيفت إليها مثل صناعة الأسمدة الكيماوية ، ومختلف أدوات الاستهلاك . كما قامت في مدينة كورك مؤسسة لتركيب سيارات فورد ، ومعمل آخر في جزيرة فالانسيا بالغرب لصناعة الكابلات تحت البحرية . ويستخدم مطار شانون موقع إيرلندا في النهاية الشمالية الغربية لقارة أوروبا . وقد قام في إيرلندا مركز للصناعات الكيماوية لإنتاج ١٥٠ ألف طن من الأسمدة سنوياً ، يعمل فيه ٣٠٠ عامل في بلدة (شلتون - أبي) بجوار مدينة أركلو . ولكن عدد سكان جمهورية إيرلندا البالغ ٣,٥ مليون ، أي كثافة تبلغ ٤٢ نسمة في الكيلومتر المربع ، لم يزد عما كان عليه عام ١٩٣٨ ، لأن التزايد السنوي البالغ ٢٥٠٠٠ نسمة يغذي بالفعل هجرة تحرم البلاد من عناصرها الشابة وتجعل نسبة الوفيات مرتفعة نسبياً . وتظل البلاد كلها عبارة عن قطر متخلف .

جـ - أولستر : تعادل مساحة هذه المنطقة خمس مساحة الجزيرة ، ولكن عدد سكانها يعادل نصف سكان إيرلندا ، فتبلغ الكثافة فيها ١٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع ، وهي كثافة ضعيفة بالنسبة لبقية المملكة المتحدة ، ولكنها تعادل ضعف الكثافة في بقية الجزيرة . وتكون الزراعة فيها أكثر توازناً وصناعاتها أكثر أهمية ، غير أن مدينة بلفاست التي يبلغ عدد سكانها ٤٥٠٠٠٠ نسمة تضم صناعة الكتان وهو تخصص إقليمي ، وصناعة بناء السفن وطائرات كوميت الناجتئين عن علاقاتها مع مدينة غلاسكو . وهكذا يبدو ازدهار منطقة أولستر غربياً عن جزيرة إيرلندا .

وبما أن جمهورية إيرلندا Eire تعني بنفس الوقت كل الجزيرة ، لذلك تطالب حكومة إيرلندا بمنطقة أولستر ، وذلك لأسباب اقتصادية ومعنوية . كما أن الدعم الذي يقدمه المهاجرون لهذه القضية ، حيث تضم نيويورك أكبر مجموعة إيرلندية بالعالم ، يدل على الوفاء العميق الذي يكنه لوطنه الصغير هذا الشعب المرح والمحارب ، والذي يتميز بحبه للأساطير الروائية أو المجيدة العائدة لماضيه ، وبحبه للحرية . والواقع هناك هوة من سوء التفاهم تفصل الروح السلطية عن النفسية الأنكلوسكسونية ، أدت إلى حوادث دامية واغتيالات سياسية وإضرابات عن الطعام حتى الموت ، وهذا منذ أواخر السبعينات حتى الآن .

الكتل الجبلية في بريطانيا العظمى

تتتابع الأراضي المرتفعة التي تشرف بعنف على الساحل الأطلسي ، وتنحدر بهدوء نحو السهول المطلة على بحر الشمال ، من الشمال نحو الجنوب في القسم الغربي من جزيرة بريطانيا العظمى . ولها صفات مشتركة هي : استدارة تضاريسها ورداءة تربها السيليسية المتشكلة محلياً ، أو الناتجة عن مورينات الجلوديات الرباعية ، وتؤدي قساوة المناخ إلى حصر المزروعات في الأراضي التي يقل ارتفاعها عن ٢٠٠ م ، كما أن فقر الغطاء النباتي الغابي حرم هذه المنطقة بالماضي من قيام صناعة مستندة على الخشب كصناعة أوروبا القارية . ولا زالت ثروتها من الفحم الأبيض غير مستغلة ، نظراً لأن اقتصاد بريطانيا لا يزال يقوم على الفحم والنفط مجدداً . وتكون الكثافة السكانية الريفية بالأساس ضعيفة جداً في هذه المنطقة .

أ - الكتل الإيقوسية :

تعتبر الأراضي المرتفعة التي تشغل أربعة أخماس إيقوسيا فقيرة بشكل خاص . فهي كتل متماسكة واقعة في شمال خط العرض ٥٥ وتتنسب إلى السلاسل

الكاليدونية التي عامت في مطلع الدور الأول ، مما يجعل توضع الطبقات الفحمية للزمن الكربونيفيري محصورة في الأراضي المنخفضة الانهدامية في القسم الأوسط من المنطقة .

وإلى الشمال من منطقة الأراضي المنخفضة ، تقع الأراضي العالية (الهايلاند) ، التي تضم الهايلاند الشمالية وجبال غرامبيان المنفصلة عن بعضها بمرغليني مور الانهدامي ، الذي تحول حديثاً إلى قناة تسمى القناة الكاليدونية الصالحة للملاحة .

وتقوم في هذه المنطقة قرى صغيرة جداً ، يعيش فيها فلاحون يزرعون البطاطا والشوفان وهو أساس الوجبة الإيقوسية الوطنية المسماة « بوريدج » ، ويربون الأغنام في المراعي المشاع ولكنهم يتركون معظم الأراضي على شكل أراضي بور ، يمتلكها ملاكون كبار أقوياء . ويمثل هذا التسلسل الاجتماعي ، إلى جانب تماسك « العشير » ، واستخدام اللغة الغالية من قبل حوالي خمس سكان الأراضي المرتفعة ، والعقيدة البرسبيترية ، واحترام تقاليد الأجداد ، طابع الماضي العميق .

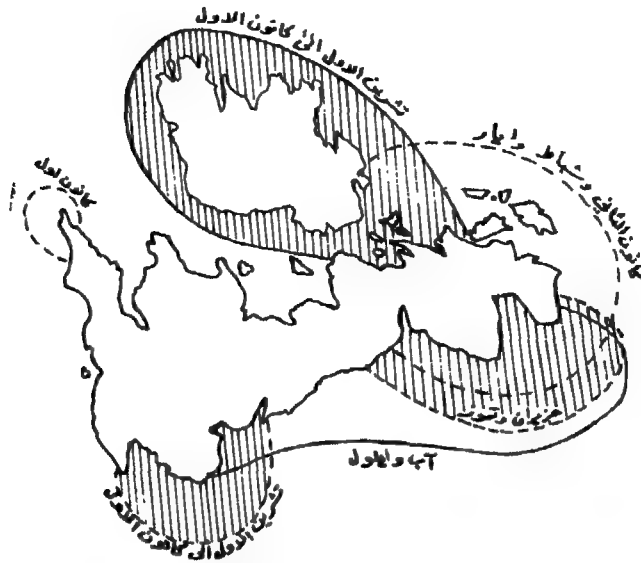
ويبعث صيد سمك الهارانغ « الرنجة » النشاط في الموانئ حتى جزر أوركاد وشتلاند ، وكل الساحل المشرف على بحر الشمال ، وأهم هذه الموانئ هو أبردين ١٨٠٠٠٠ نسمة الذي يملك أيضاً أكبر معمل للسوبرفوسفات في إيقوسيا (شكل ١٢) . وهناك نوع من تحسين ينفذ إلى القسم الشرقي من الهايلاند الذي دخلته حياة زراعية أقل فقراً كما تنشط السياحة التي يجذبها فولكلور دائم الحيوية .

وإلى الجنوب من الأراضي المنخفضة « لاولاند » تقع منطقة الآبلاند الجنوبية وجبال شيفيوت التي بنى عليها الامبراطور هادريان أسواره . وهنا تتقدم تربية الأبقار الحلوبة ابتداء من الأراضي المنخفضة نحو الحاصرة الشمالية للآبلاند

الجنوبية . كما ساعدت تربية الغنم على غو الصناعة الصوفية وأجواخ شفيوت ، كما تنتج جزر هيريد أجواخ تويد ، التي تغزل وتنسج في القرى بحيث يحافظ قدم هذه البنية الصناعية الحرفية على نوعية هذه المصنوعات .

ب - الكتل الجبلية الإنكليزية :

إذا كانت منطقة كهبرلاند ومنطقة بلاد الغال تؤلفان كتلتين جبليتين ثقيلتين ، فإن سلسلة البنين ، الضيقة والممتدة على مسافة ٢٤٠ كم ، ومجموعة كورنوايل الشديدة التجزؤ واليسيرة المواصلات ، تقع بين هذه الكتل الجبلية المختلفة . وهناك منخفضات غضارية مثل ميدلاند ، توجه أنهاراً هائلة - مثل نهري ميرسي وسيفرن - نحو مصبات عميقة مثل قنال بريستول .



الشكل ١٢

وتربية الأغنام تمارس في الكتل الإنكليزية ، كما هو الحال في كتل إيقوسيا ، ذات الأصواف الجيدة ، كما تربي العجول بفضل وجود المراعي الدائمة حيث تسمن

فما بعد بالسهول القريبة . وتجري في منطقة كورنوايل تربية الثيران المعدة للذبح . كما يقصد السواح العديدون منطقة كبرلاند الغنية بالبحيرات . وتقع الثروات الحقيقية للمنطقة الجبلية في هوامشها . فالساحل الجنوبي لمنطقة كورنواي يؤلف « إطاراً ذهبياً » مؤلفاً من مزارع الأشجار المثمرة كالتفاحيات والباكوريات ، والزهور (في جزر Scilly) وترسل حاصلاتها إلى العاصمة ، كما ترسل جزر الأنكلونورماندية حاصلاتها أيضاً ، فضلاً عن وجود موانئ صيد تختص بصيد سمك الأسقمري أو الماكرو ، وميناء حربي شهير هو ميناء بلايموث (شكل ١٣) .

الزراعة البريطانية ومناطق الزراعة الحثيثة

لا تقدم زراعة المملكة أكثر من ٣ ٪ من الدخل القومي ولا يعمل بها سوى ٢,٧ ٪ مقابل ٤ ٪ في ١٩٧٠ (شكل ١٤) أو ٦٦٠.٠٠٠ نسمة من السكان العاملين ومع أن الزراعة قد دفعت إلى المؤخرة ظاهرياً لمصلحة النشاط الصناعي والتجاري ، فإنها تؤلف مع ذلك في هذا القطر ذي الإمكانيات الزراعية المحدودة ، نوعاً من نجاح تقني رائع لأنها تقدم ٤٠ ٪ من السعرات الحرارية و ٥٠ ٪ من قيمة الاستهلاك الوطني من منتجات الأرض .

الشروط العامة :

تؤلف الزراعة البريطانية خاتمة مطاف لتطوير ريفي طويل . فبعد نظام الحقول المفتوحة الذي كان سائداً في العصر الوسيط حيث كانت الدورة الزراعية ثلاثية مع حرية الرعي فوق الأراضي البور ، جاء نظام تسييج الأراضي التي حصل عليها كبار الملاكين ، الذين استعاضوا عن البور ، بزراعات علفية ومراع اصطناعية من أجل تغذية الماشية الكبيرة . وقد نتج عن « الثورة الصناعية » في القرن الثامن عشر ، اشتداد الهجرة الريفية التي استمرت حتى القرن التاسع عشر على أثر إلغاء قوانين الحماية الجمركية على الحبوب في عام ١٨٤٦ ، وبسبب التوسع

في تربية الماشية المتمشية مع قابلية طبيعة هذه البلاد للتوسع في المراعي ، ولتزايد استهلاك سكان المدن من اللحم والحليب ، وتناقصت المساحة المزروعة قمحاً بنسبة ٤٠ ٪ بين ١٨٨٠ و ١٩٣٨ .



الزراعة البريطانية ونسبة العاملين في الزراعة لبقية السكان

الشكل ١٤

وقد نتج عن الحرب العالمية الثانية وعلى أثر تناقص استيراد المواد الغذائية بفعل حرب الغواصات ، أن توسعت زراعة الحبوب من جديد . ولكن هذا الاتجاه تباطأ بمجرد انتهاء الحرب . وعلى كل تشغل زراعة الحبوب حوالي ربع المساحة الزراعية في حين تنجح تربية الماشية للتوسع .

والقاعدة هي الملكية الكبرى في حين أن الملكية الصغرى والاستغلال المباشر هو الشذوذ ، فحوالي ثلث مساحة بريطانيا يتألف من ٩٠٠ مزرعة كبرى فقط و ٥٠ ٪ من المزارع تتجاوز مساحتها ٥٠ هكتار مقابل ٣٠ ٪ في فرنسا . وينطبق الاستغلال غير المباشر على ٧٠ ٪ من المساحات المزروعة لأن هناك متعهدين زراعيين أو Farmers ذوي مستوى معيشة وصنف اجتماعي عاليين يشرفون على العمال الزراعيين الذين يؤلفون ثلثي السكان الريفيين العاملين ، بينما لا يمثل العمال الزراعيون في فرنسا وفي الولايات المتحدة سوى خمس العاملين

بالزراعة . وبعد أن كان المسكن الريفي مبعثراً منذ القرن ١٨ يجنح الآن نحو التجمع ، بحيث يتجه الريف البريطاني الآن نحو التحضر .

وإذا تركنا جانباً المناطق ذات الاقتصاد التقليدي العتيق التي تكلمنا عنها آنفاً ، فإن الصفة العالمية للزراعة البريطانية تبدو رائعة كما أن الآلة تدخل على نطاق واسع فيها .

وهناك دورات زراعية على غاية من التعقيد تمارس في هذه البلاد بإرشاد المراكز التجريبية في روثمستد Rothmsted وتمنح الحكومة علاوات للذين يحصلون على أفضل مردود . وتعتبر كثافة الجرارات ، وهي جرار واحد لكل ٢٠ هكتار محروث ، تعتبر أعلى كثافة بالعالم بينما تكون النسبة جرار واحد لكل ٥٠ هكتار في فرنسا . كما أن تربية الماشية تخضع لاصطفاء متقدم جداً . فعروق الغنم البريطانية انتشرت في بقاع كثيرة من العالم وخاصة في أستراليا ، كما ساهمت في تحسين عروق الغنم الأرجنتينية . كما أن لأبقار درهام ولخنازير يوركشاير شهرة عالمية .

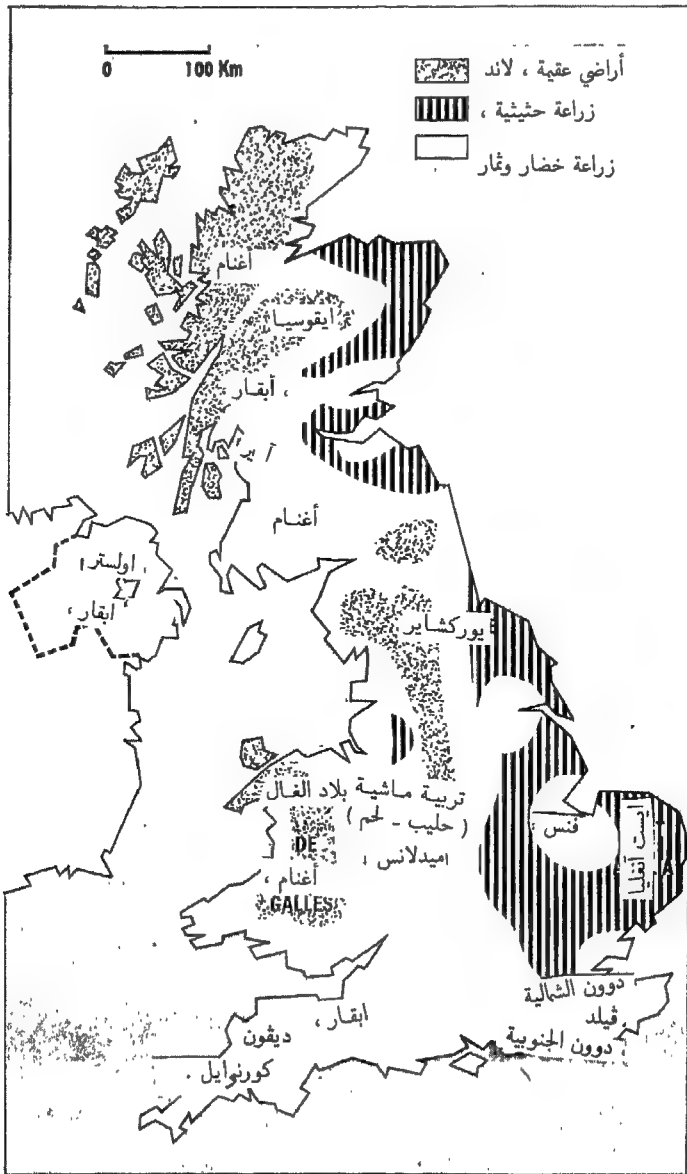
وإجمالاً يمكن القول أن السياسة الزراعية الإنكليزية ، هي أذكى سياسة من نوعها بالعالم .

المناطق الزراعية الكبرى :

على عكس إيرلندا القطر الزراعي القليل التطور ، وعلى خلاف اقتصاد الكتل الجبلية ، وهي منطقة زراعات فقيرة وتربية عجول ، نجد أن سهول بريطانيا العظمى تستقطب أهم الثروات الزراعية في البلاد (شكل ١٥) .

ففي الشمال تكون منطقة اللاولاند الأيقوسية عبارة عن حفرة ردمتها لحقيات خصيبة ، تتناثر فيها بعض التلاع البركانية . ويؤدي وجود مدينة غلاسكو إلى التخصص في تربية الماشية في غرب هذه المنطقة الرطبية ، بينما تميز الحبوب ،

التي يسود بينها الشوفان ، السهول الشرقية الغنية في منطقة فايف ولوثيان وفي السهل الشمالي الشرقي الأكثر جفافاً .



الشكل ١٥

وتؤلف السهول الإنكليزية المجال الرئيسي للزراعة في المملكة المتحدة ، لأن المراعي الفقيرة لا تشغل سوى عشر المساحة في إنكلترا مقابل ثلثي مساحة أيقوسيا وثلث بلاد الغال .

وتنحصر تربية الماشية خاصة في السهول الغضارية ولا سيما في المنخفضات المحيطة بجبال البنين ، الغنية بالمرج الخضراء الدائمة والقريبة من الكتل الجبلية ، التي تربي العجول ، ومن مراكز الاستهلاك في المناطق السوداء أي الصناعية .

وتحتل الأراضي المحروثة ذات الترب الحوارية بالشرق ، ذات المناخ الأكثر جفافاً ، حوالي ٢٧٪ من الأراضي الزراعية الإنكليزية . فنجد زراعة الحبوب في مناطق داوونز Downs إلى جانب تربية واسعة للأغنام على الذرى الجافة وتربية الأبقار في حوض لندن ، لتأمين استهلاك العاصمة كما تهين زراعة الحبوب في منطقة آيست أنغليا (شمال شرق لندن) وفي يوركشاير ، كما تتسع زراعة الخضار حول لندن وفي منطقة فنس Fens وعلى الساحل الجنوبي .

الإنتاج :

تشغل كل من زراعة القمح والشوفان ، وهما زراعات غذائية ، وزراعة الشعير المخصص لتغذية الماشية وإنتاج الجعة والويسكي ، تشغل حوالي مليون هكتار لكل من هذه الأنواع الثلاثة ويصل إنتاج القمح في بريطانيا إلى ٥,٢ مليون طن والشعير إلى ١٠ ملايين طن والشوفان إلى ٨٠٠.٠٠٠ طن . ويبلغ تعداد قطع الأغنام حوالي ٢٩ مليون رأس ، وقد تناقص عدد الأغنام قليلاً منذ حوالي ٧٥ سنة ، بينما ازداد عدد الأبقار بمقدار الضعف فيبلغ ١٤ مليون رأس . كما ساعد ازدهار الصناعة الحليبية على تزايد عدد قطع الخنازير فبلغ ٧,٦ ملايين .

كما تتوسع زراعة الشوندر السكري والبطاطا ٥ ملايين طن ، وهما من الزراعات الصناعية مثلما تزدهر أيضاً زراعة الخضار والفواكه .

ولا يكفي هذا الإنتاج لتغذية سكان البلاد . وهكذا تستورد المملكة المتحدة حوالي ثلثي القمح الذي تستهلكه وثلث اللحم وثلثي الجبن وأربعة أخماس السكر والزيوت النباتية وتسعة أعشار الزبدة المستهلكة . وتؤلف مشترياتها الغذائية خمسي قيمة استيرادها .

الصناعة والمراكز الصناعية

تحتل المملكة المتحدة المكانة الخامسة بالعالم بين الدول الصناعية بينما تحتل المكانة الثانية بين دول أوروبا الغربية . فيشتغل بالصناعة أكثر من نصف سكانها العاملين وتقدم ٤٥٪ من الدخل القومي . وقد ارتفعت قدرتها الصناعية بنسبة الثلثين منذ عام ١٩٣٨ ، كما يمثل تصدير المنتجات المصنوعة خمس الصادرات العالمية من السلع الصناعية .

تطور الصناعة ومواطنها :

تدين المملكة المتحدة بأسبقيتها في الميدان الصناعي ، التي حصلت عليها في القرن الثامن عشر ، والتي حافظت عليها حتى مطلع القرن العشرين ، إلى الفحم الحجري . كما تدين بذلك أيضاً إلى اختراعات خبراءها التقنيين ، كاكشاف الفرن العالي العامل بفحم الكوك في عام ١٧٠٩ ، والمكانة البخارية عام ١٧٦٩ ، ونول النسيج وآلة الغزل .

وقبيل الحرب العالمية الأولى ، كان معظم المراكز الصناعية البريطانية متركزاً في البلاد السوداء أو « بلاك كانتري » وهو اسم يدل بأن واحد على الفحم الحجري ، وإلى اللون الأسود والوسخ الذي يميز كل المدن الصناعية الإنكليزية (شكل ١٦) .

وبعد الحرب العالمية الأولى نتج عن أزمة الصناعات التقليدية وتزايد إنتاج الكهرباء ، التي هي عامل تبعثر القوة المحركة ، أن تناقص سكان بعض المناطق الفحمية مثل جنوب بلاد الغال ونورثمبرلاند . في حين أدى نشوء صناعات جديدة كإيوان وميكانيكية إلى توسع واضح في مدينة لندن وفي مدن السهل أي البلاد الخضراء . غير أنه على أثر الحرب العالمية الثانية منحت الصناعات الحربية الحياة للمناطق القديمة التي تناقص سكانها وقد استمرت حيوية هذه المناطق بعد عام ١٩٤٦ على أثر انصراف العامل الحربية نحو فعاليات السلم (شكل ١٧) .

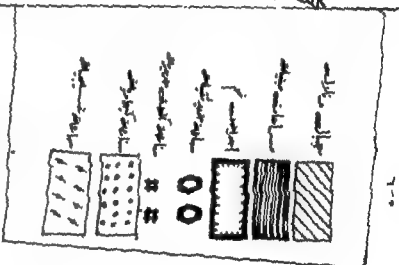
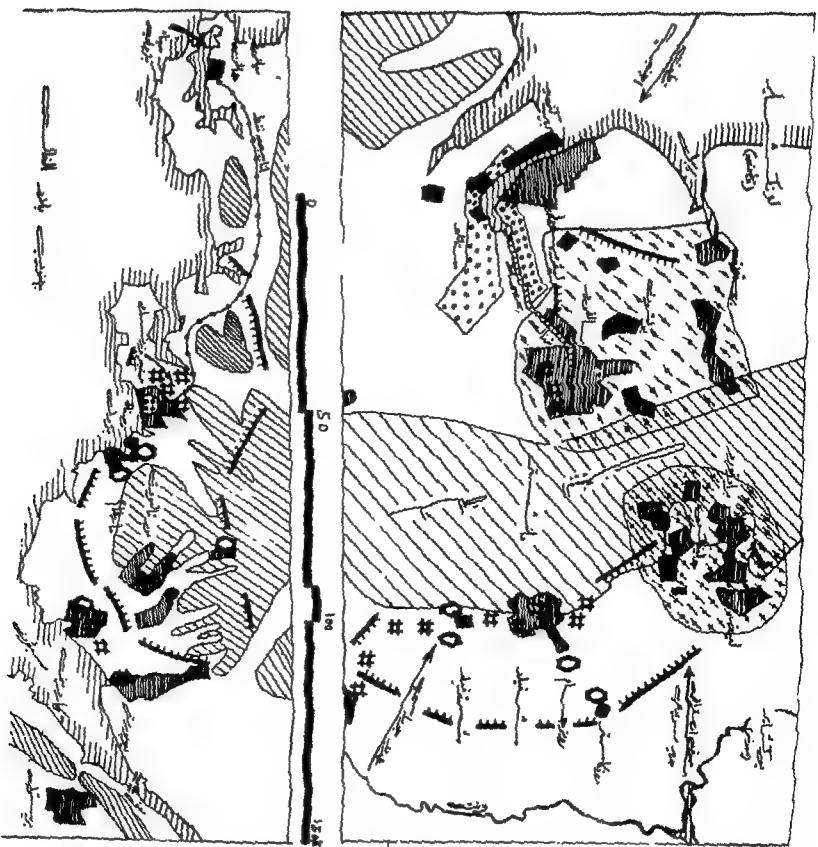
وحالياً يميز في بريطانيا العظمى نموذجان للمناطق الصناعية : من جهة عند قدم الكتل الجبلية أو « البلاد السوداء » التي لا تطمس فعاليتها الجديدة تفوق الصناعات التقليدية ومن جهة أخرى المنطقة اللندنية التي قامت فيها صناعات حديثة انتشرت في سهول الجنوب الشرقي الخضراء .

الآحواض الفحمية :

ينتج حوض يوركشاير حوالي ٨٠ مليون طن فحم ، أو ما يقارب ٤٠٪ من مجموع الإنتاج ، ويفسر توضع طبقات الفحم المنتظمة في مقعر عند أسفل جبال البنين وحدثة توسع استغلال الحوض نسبياً تفوق الاستخراج الميكانيكي ، وارتفاع إنتاجية العامل ، بحيث يكون ثمن كلفة طون الفحم المستخرج أخفض من أي منطقة أخرى .

أما باقي الآحواض ، فتتصف على العموم بقديم استغلالها مع كلفة استخراج عالية جداً .

وفي منطقة ثمبرلاند ، يمتد حالياً استخراج الفحم باتجاه الشرق من طبقات أكثر عمقاً تقع أحياناً تحت مياه البحر . وينتج هذا الحوض ٤٥ مليون طن أو ٢٠٪ من المجموع البريطاني . كما لا تنتج المنطقة الغالية الجنوبية التي كانت منطقة



تصدير كبرى حالياً أكثر من ٢٥ مليون طن مقابل ٥٧ مليون عام ١٩١٣ ، مثلما لا تقدم أحواض الفحم الثلاثة في ميدلاند سوى ٢٥ مليون طن شأن الأحواض الايقوسية التي كانت تنتج ٤٢ مليون طن في عام ١٩١٣ ، ولا ينتج حوض لانكشاير سوى ٢٠ مليون طن .

الغاز الطبيعي :

هناك ١٦ شركة تبحث حالياً عن الغاز الطبيعي في بحر الشمال ، واكتشفت بضع مكامن بجوار الساحل الشمالي الشرقي البريطاني . ففي ١٦ / ٥ / ١٩٦٦ اكتشفت شركة « كانسيل » الإنكليزية حقلاً قابلاً للاستغلال من الغاز الطبيعي . ويقع هذا الحوض على بعد حوالي ١١ كم من مدينة سكاربورو في مقاطعة يوركشاير . وتقدر إمكانيات هذا الحوض الإنتاجية بين ٥ - ١٠ ملايين قدم مكعب باليوم .

وحتى عام ١٩٧٠ لم يكن في بريطانيا سوى مكنين للغاز ، أحدهما يستثمر في Eskdale في يوركشاير والآخر قرب أديمبورغ في ايقوسيا . ومع هذا الاكتشاف الجديد في بحر الشمال ستقدر الطاقة التي سيقدمها الغاز بما يعادل ١٦ مليون طن فحم . وسيستغل قسم من الغاز لإنتاج الطاقة الكهربائية وأهم حقول الغاز هو حقل فرينغ Frigg وأهم حقول النفط هي حقل ايكوفيسك وحقل ستانفيورد في شمال شرق جزر شتلاند .

الصناعة الحديدية البريطانية :

يعمل في هذه الصناعة ٤,٧ ملايين عامل أو حوالي نصف اليد العاملة في الصناعات التحويلية مقابل ٣٠٪ في سنة ١٩٣٨ ، وتغذي من حيث القيمة نصف الصادرات تقريباً مقابل الثلث عام ١٩٣٨ .

أ - فالصناعة الحديدية البحتة تمنح المملكة المتحدة المقام الثامن في العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وألمانيا الغربية واليابان والصين وإيطاليا وبولونيا .

فقد ظلت مناطق الميادلاند وايقوسيا وبلاد الغال تستغل حتى أواسط القرن الماضي « البلاك باند » ، وهي طبقات غنية بالفحم وبفلز الحديد المتطبق خلالها . ولكن نضب معين هذه الطبقات . فانتقلت الصناعة الحديدية عندها نحو الأحواض الفحمية الساحلية التي تستطيع استيراد الفلزات المستوردة بجرأ ، من جهة أخرى نحو الكويستا الجوراسية ، الغنية بالفلزات الفوسفورية المماثلة لفلزات اللورين الفرنسية ، والتي أصبح استغلالها ممكناً ابتداء من عام ١٨٧٨ بفضل اكتشاف (توماس وغيلكريست) لوسائل نزع الفوسفور من جهة أخرى .

وتقدم منطقة الكويستا الجوراسية حالياً معظم الإنتاج البريطاني من فلزات الحديد البالغ ١٥ مليون طن من الحديد البريطاني ، وخاصة حول مدينة نورثامبتون .

وتستورد الأحواض الفحمية الساحلية ١٠ ملايين طن من الفلزات العالية النسبة من السويد ، ومن أقطار المغرب ، ومن إسبانيا ، وفرنسا ، وسيراليون ، وكندا . ويتفوق إنتاج الفونت على الفولاذ في منطقة النورثمبرلاند ، والفولاذ على الفونت في جنوب الغال وايقوسيا . ويعادل هذا الإنتاج الساحلي بالإضافة إلى إنتاج المراكز الثانوية في جنوب بلاد الغال وكبرلاند والمنطقة اللندنية حوالي ٥٠% من الفونت و٦٠% من الفولاذ البريطانيين .

وتختص الأحواض الفحمية الداخلية في إنتاج أنواع الفولاذ الممتازة كما في منطقة ميادلاند ويوركشاير الوسطى وبعد أن كانت بريطانيا تنتج نصف الفولاذ العالمي قبل ٨٠ عاماً إذ بها لا تنتج حالياً أكثر من ٧% منه غير أن إنتاجها

ارتفع بين عام ١٩٣٨ وعام ١٩٧٣ من ٧ ملايين طن فونت إلى ١٥ ومن ١٠ ملايين طن فولاذ إلى ٢٦,٧ . وقد بلغ الإنتاج عام ١٩٧٣ / ١٦,٦ مليون طن فونت و٢٦,٧ مليون طن فولاذ وهبط في ١٩٨١ إلى ٩,٦ مليون طن من الفونت وإلى ١٥,٥ مليون طن من الفولاذ .

المعادن غير الحديدية : بعد أن نضبت المناجم الإنكليزية أصبحت المملكة المتحدة تستورد هذه الفلزات وتصفيها بمجوار الموائى ، كما في ليفربول ولندن وسوانسي فاحتلت بذلك الدرجة الثانية في مضمار تصفية القصدير والثامنة في تصفية النحاس في منطقة الميدلاند وخاصة في بيرمنغهام وفي منطقة يوركشاير (في مدينة شيفلد) وفي جنوب بلاد الغال (مدينة سوانسي) . وتكون صناعة الألمنيوم أكثر أهمية لأنها تنتج حالياً ٣٠٠٠٠٠ طون من الألمنيوم اعتماداً على الألومين المستورد في معامل متفرقة في منطقة الهايلاند .

ب - للصناعات الحديدية التحويلية أهمية تمنح المملكة المتحدة مكانة عالمية من حيث بعض الاختصاصات التقليدية ، ومن ناحية تنوع المنتجات الحالية . فصناعة بناء السفن تكون ناشطة خاصة في ترسانات نهر الكلايد حول مدينة غلاسكو ، حيث تبني عادة أضخم السفن مثل كوين ماري وكوين اليزابيث ، وفي مصبات أنهار النورثمبرلاند ومصب التاين (نيوكاسل) ونهر تي (ميدلسبرو) ونهر وير (سندرلاند) حيث تبني سفن الشحن وناقلات النفط . غير أن التفوق البريطاني يبدو في هذا المضمار مهدداً ، لأن المملكة المتحدة لم تنزل إلى البحر سوى ١٥٪ من السفن العالمية التي تم بناؤها عام ١٩٦١ مقابل ٦٠٪ عام ١٩١٣ بينما أنزلت اليابان للبحر في عام ١٩٦١ / ٢٣٪ من السفن المبنية في تلك السنة ، وأنزلت إلى البحر في عام ١٩٨١ سفناً بلغت حمولتها ٣٣٩٠٠٠ مليون طنة مقابل ٨,٨ مليون طنة في اليابان في حين تفوقت تاوان على بريطانيا في هذا المضمار .

هذا وتحتل صناعة السيارات المكانة الرابعة بالعالم وراء اليابان والولايات المتحدة وألمانيا الغربية ، ويعمل في هذه الصناعة ٣٠٠.٠٠٠ عامل . وتنتج وسطياً ٢ مليون سيارة بالسنة يصدر منها للخارج حوالي ٤٠٪ من الإنتاج . ولكن هذه الصناعة تقف تحت التهديد الياباني والألماني والأميركي ، لأن شركات السيارات الأميركية أقامت فروعاً لها في ضواحي لندن ، وقد بنت في ١٩٧٧ مقدار ١,٣٢ مليون سيارة سياحية (في برمنغهام وكوفنتري) مقابل ٣٨٧.٠٠٠ سيارة نفعية للاستخدام العام .

ونذكر من بين الصناعات الميكانيكية التقليدية ، صناعة بناء قاطرات وعربات السكك الحديدية التي تحتل المكانة الثالثة بالعالم ، وتصدر نصف إنتاجها ، وصناعة المكائن الزراعية (في سهل الجنوب الشرقي) وصناعات ماكينات النسيج في منطقة لانكشاير ووست ريدينغ .

هذا وتتقدم الصناعات الحديثة : مثل صناعة الطائرات التي تمثل الدرجة الثالثة بالعالم ، ويأتي نصف إنتاجها من منطقة سهول الجنوب الشرقي . وصناعة آلات الضبط مثل الأجهزة الكهربائية وخاصة في منطقة لندن .

ج - النماذج المختلفة لمناطق الصناعات المعدنية :

وقد نتجت عن توسع صناعة راقية جداً في بريطانيا مع مشاهد حضرية فريدة وهي :

مناطق الصناعات المعدنية الساحلية : أي في غورثمبرلاند ، وجنوب بلاد الغال وبجوار نهر الكلايد ، وتختص بالصناعات المعدنية نصف الجاهزة ، وفي صناعة بناء السفن وقاطرات السكة الحديدية وفي المعادن غير الحديدية . واستقر عدد سكان بعض المدن الكبرى القديمة في القرن ١٩ أمثال كارديف ونيوكاسل ، بحدود ٣٠٠,٠٠٠ نسمة . أما غلاسغو فتوسع قليلاً وعدد سكانها ١,٧ مليون نسمة

ما عدا برستول ذات الصناعات المتنوعة والتي ارتفع عدد سكانها بمحدود الثلثين منذ عام ١٩٢١ فوصل إلى ٤٥٠,٠٠٠ نسمة .

ومن المناطق الصناعية المعدنية الداخلية نذكر الميدلاند ، التي انحطت فيها الصناعة المعدنية المحلية ، فاختصت منذ مطلع القرن ١٩ بصناعة معدنية شديدة التنوع كالأنابيب والبراغي وأسلاك النحاس والسيارات والأدوات المنزلية والآلات الصانعة والأدوات الكهربائية . فتحوي بيرمنغهام وسكانها ١,١ مليون نسمة ، على مركز تجاري وإداري تقوم حوله أحياء تضم مؤسسات صناعية وأحياء عمالية تسود فيها كآبة الهندسة خلف منطقة منجمية ذات أرض مقلوبة ، تكثف فيها برك الماء ، وتهين عليها تلال أتربة المناجم وفضلات صناعة المعادن ، وأبنية المعامل المهجورة الواقعة بين أحياء العمال والمعامل والمحطات . وتلحق بها مدن تابعة بحيث يربو سكان المجموع على المليونين . ونجد نفس الفعالية الاقتصادية في شيشاير (Crewe) وفي يوركشاير الجنوبية كما في مدينة ذربي ذات الصناعات الميكانيكية العديدة التي تتراوح بين حصادة المرج وسيارة رولزرويس الفخمة .

وبمقابل ذلك نجد الصناعة المعدنية في البلاد الخضراء في الجنوب الشرقي حيث تتبعثر الصناعات الشديدة التخصص ، مثل صناعة السيارات والطائرات والصناعات الكهربائية بين مدن السهل الصغرى ، وأهمها معامل سيارات موريس في أوكسفورد .

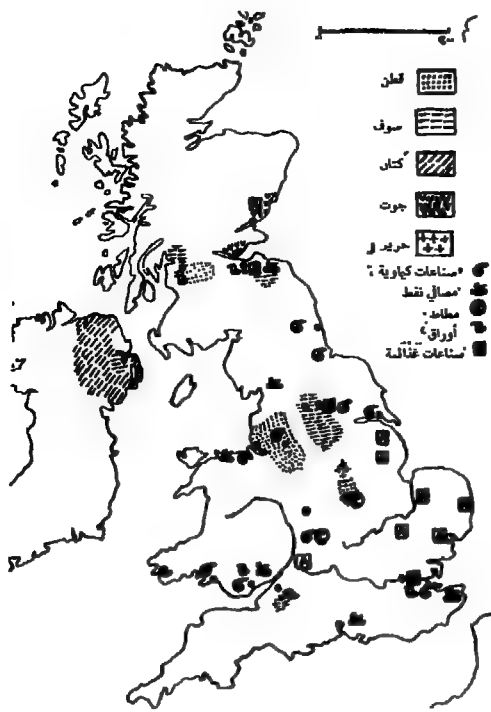
الصناعة النسيجية ومناطقها :

تتعرض الصناعات النسيجية ، التي كان دورها أساسياً في الاقتصاد البريطاني ، إلى أزمة خطيرة . فهي لم تعد تؤمن العمل لأكثر من ٨٪ من الأيدي العاملة ، ولا تحتل في التجارة أكثر من ٩٪ .

وتتركز الصناعة القطنية في لانكشاير بسبب رطوبة المناخ المواتية لغزل الألياف ، ولنقاوة مياه نهر ميرسي ، ولوجود حوض فحمي ومنجم ملح صخري

شيشاير (وهي مادة ثمينة للصباغ) ولسهولة الاستيراد بواسطة ميناء ليفربول وبواسطة قناة مانشستر . وتؤلف منطقة الكلايد المركز البريطاني الثاني لهذه الصناعة (شكل ١٨) .

ويغزل القطن في جنوب شرق لانكاشاير (في مدينتي بولتون وأولدهام) وينسج في الشمال الشرقي (في مدينتي بلاكبون وبريستون) . ولكن لا تزال الآلات قديمة . وهكذا لم تصدر مانشستر ، التي هي المركز الكبير لتوزيع المنسوجات المنتهية ، أكثر من ربع الإنتاج الذي انحدر إلى المكانة السابعة في العالم بعد أن كانت تصدر ٨٠٪ في عام ١٩١٣



الشكل ١٨

الإنتاج الصناعي الخفيف في بريطانيا

وتتركز الصناعة الصوفية خاصة في الويست ريدنغ (يوركشاير الشمالية) ، وتنسج قسماً من الصوف الذي تستورده لندن ، بينما تنسج مدينة وكيفيلد الصوف الذي يستورد بواسطة ميناء هل (Hull) . وينسج الصوف المشط وهو اختصاص بريطاني بحت في مدينة برادفورد وعدد سكانها ٣٠٠,٠٠٠ نسمة بينما ينسج الصوف المندوف والحشن في مدينة ليدز وسكانها ٥٠٠,٠٠٠ نسمة . وهكذا يحتل إنتاج منطقة ويست ريدنغ المكانة الثانية بالعالم .

ويصنع الجوت في دندي Dundee ، والكتان والقنب في بلفاست ، والحريير في دربي ، وهي صناعات نسيجية ذات أهمية ثانوية ، ولكن تزدهر المنسوجات الاصطناعية كصناعة الفيبران التي تحتل المكانة الرابعة بالعالم ، وصناعة الحرير الاصطناعي ، والنايلون التي تحتل المكانة العالمية الثالثة .

الصناعات الأخرى :

تحتوي بريطانيا على كل الصناعات المعروفة تقريباً .

فالصناعات الكيماوية التي ظلت بالمقام الثاني مدة طويلة تضاعفت قدرتها ثلاث مرات منذ عام ١٩٣٨ تحت إشراف شركة « الصناعات الكيماوية الامبراطورية المحدودة » وقد قامت هذه الصناعات بالبداية قرب مانشستر فوق ملح منطقة شيشاير ، ثم توسعت في مناطق الصناعات الحديدية مستفيدة من فضلات صناعة فحم الكوك كما في نورثمبرلاند ومن جوار مصافي البترول بعدئذ . وتشرف شركة (أونيلفر) على صناعة الزيوت النباتية والصابون والمطاحن كما تقوم مصانع الاسمنت قرب التاميز ، المكانة الثانية في التصدير العالمي . وتتوزع الصناعات الغذائية في السهول الزراعية والموانئ . وتصنع مدينة ليستر Leicester الأحذية ولندن الألبسة .

الموانئ البريطانية

لا يفوق نشاط الموانئ البريطانية إلا موانئ الولايات المتحدة واليابان . ولكن المملكة المتحدة تأتي بعد هولندا وبلجيكا من وجهة النظر إلى نسبة هذا النشاط إلى عدد السكان .

العوامل الملائمة :

إنها قبل كل شيء شروط الموضع الناجمة عن كثرة تعرجات السواحل وكثرة

المصبات بحيث لا توجد في بريطانيا نقطة تبعد عن موجة المد البحري أكثر من ١٢٠ كم .

أما شروط الموقع فهي أكثر مناسبة أيضاً ، نظراً لغنى الأقطار الأوروبية والأميركية التي تتوسط الموانئ البريطانية بينها ، بالإضافة إلى الاقتصاد الحثيث السائد في ظهور هذه الموانئ والذي يتصل معها بسهولة ويسر .

وتتم المواصلات بواسطة الأتنية النهرية ، التي حفرت في القرن ١٨ والتي تؤلف منطقة ميدلاند عقدتها الوسطى ، ولكن تتفوق على الأتنية المواصلات بواسطة الخطوط الحديدية ، التي يعادل نشاطها ضعف مثيلتها في فرنسا . وتحتل كثافتها المكانة الثالثة بالعالم بعد بلجيكا وهولندا ؛ وتلعب الطرق المعبدة دورها رغم كثرة تعرجاتها ، وتم تنفيذ مشروع لبناء ثلاثة طرق كبرى (أوتوروت) بين لندن ويوركشاير ولانكشاير من جهة ، وبين موانئ بحر المانش . كما ترتبط الموانئ ببعضها بواسطة السفن الساحلية التي يؤلف نشاطها ٣٦٪ من نشاط الأسطول التجاري البريطاني .

النماذج المختلفة للموانئ :

إن الموانئ المتخصصة هي موانئ الفحم الحجري ، والموانئ العسكرية مثل بروتساوث وبلايموث وموانئ سفر الركاب .

وهكذا نجد أن موانئ الصيد تتناثر على طول بحر الشمال . فالموانئ الايقوسية العديدة تمارس صيداً حرفياً كصيد القشريات والقواقع وصيد سمك المارانغ في عرض البحر ، وتبلغ ما تصيده ثلث الإنتاج البريطاني من الأسماك . أما الموانئ الإنكليزية وموانئ منطقة بلاد الغال ، فتمارس صيد الأسماك في بحر الشمال عدا موانئ غريمسي وهول وفليتوود التي يتجه صيادوها نحو المحيط

الأطلسي . وتقع في موانئ الصيد المذكورة شركات الصيد الكبرى مثل ميناء غريسي الذي يحتل المكانة الأولى بالعالم .

وتؤمن بعض موانئ المسافرين العلاقات بين الجزر ومع القارة الأوروبية ، وتقع أكثر هذه الموانئ على بحر المانش ومنطقة بادوكاليه كميناء دوفر ، ولا تتلقى هذه الموانئ ، عدا المسافرين ، سوى البضائع الخفيفة أو السلع القابلة للفساد المرسلة إلى لندن . غير أن الموانئ ذات الفعاليات المتنوعة هي التي تؤمن المواصلات عبر المحيطات ، فن ميناء ليفربول تنطلق السفن الكبرى باتجاه الولايات المتحدة ، كما أصبح ميناء ساوثامبتون ميناءً كبيراً لتوقف السفن العابرة للمحيط .

أما الموانئ ذات الفعاليات المتنوعة ، فهي موانئ إقليمية تخدم مدينة معينة أو منطقة اقتصادية يفوق نشاط مينائي هل وغلاسكو من حيث القيمة أو الوزن نشاط مينائي كارديف أو نيوكاسل ، وهما يعملان لخدمة مناطق صناعات حديدية فقط .

ويؤمن ميناء ليفربول العلاقات مع إيرلندا ، مثلاً كان ميناء استعاريّاً خسر دوره كمستودع دولي للمنتجات المدارية ، ويرتبط ميناء مانشستر مباشرة بنهر ميرسي بواسطة قنال شيب ويقوم باستيراد القطن المصري وبتصدير الأقمشة القطنية . ويظل ميناء ليفربول المصرف الوحيد لمقاطعة لانكشاير ، فيستورد القطن الأميركي والمواد الغذائية والمواد الأولية المتنوعة ويصدر المنتجات المصنوعة بفضل ارتباطاته مع منطقة الميدلاند واليوركشاير .

ويعتبر ميناء ليفربول ثاني ميناء بريطاني من ناحية وزن البضائع المنقولة ١٧ مليون طون ومن ناحية النظر إلى قيمة السلع ، ولعلاقاته مع القارة الأميركية . ولهذا الميناء علاقات متفرعة تعادل علاقات ميناء لندن .

لندن الميناء والمدينة :

ميناء لندن : لقد نتج موقع ميناء لندن عن وجود مخاضة ويستمينستر التي كانت تسمح للطريق الذاهب من الجنوب للشمال باجتياز نهر التاميز في مكان كانت تصعد إليه موجة المد . وبعد أن كان أول ميناء بالعالم في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، أصبح الآن في المكانة الخامسة بعد نيويورك وروتردام وهامبتون رود والكويت .

وقد أمكن تنظيم مجرى التاميز بحيث أصبح عمقه في وسط النهر ٩,١٥ م في حالة الجزر ، كما تم حفر أحواض أو « دوك » تدريجياً باتجاه سافلة النهر ، ضمن اللحقيات ، وذلك على مسافة تقارب ٤٠ كيلو متر . وتستقبل الأحواض الواقعة قرب نواة المدينة القديمة « السيتي » الحاصلات التقليدية التي تعتبر لندن سوقاً عالمياً لها مثل الصوف ومشروب الروم والسكر ، وباتجاه السافلة ، تتلقى اللحوم والحبوب وقرب المصب الإسمنت والأخشاب والبتروال الخام ، الذي يصفى في مصافي شل هافن وفي « ثامسهافن » .

- نشاط الميناء : تبلغ المحولة الصافية ٥٨ مليون طن ، مما يجعل هذا الميناء أول ميناء بريطاني ، إذ يقوم بربع التجارة الخارجية البريطانية وبسُدس التجارة الساحلية في المملكة المتحدة . ويكون حجم الاستيراد ضعف التصدير .

وتستقبل لندن من مجموع استيراد المملكة المتحدة من المواد الغذائية ما يعادل : ثلثي الشاي ونصف السكر والكافا واللحم والزبدة . أما بالنسبة للمواد الخام فتستقبل نصف المطاط ، وثلثي الصوف ومعجونة الورق .

وإذا كانت لندن قد خسرت دورها كعنبر عالمي للبضائع الثمينة ، وإذا كان دورها كميناء وطني للتوزيع في تقهقر ، فإن لندن أصبحت على الخصوص ميناء

يعمل لخدمة كتلة بشرية تزيد عن ثمانية ملايين نسمة وميناء إقليياً للسهول الجنوبية الشرقية .

لندن الكبرى : كانت لندن تضم في القرن السابع عشر ٦٠٠٠٠٠ نسمة ، في الوقت الذي كانت فيه بريستول وهي ثاني مدينة في المملكة حينذاك ، لا تحوي سوى ٣٠٠٠٠ نسمة . أما اليوم فإن كوتية لندن تضم ٣,٤ ملايين نسمة فوق مساحة قدرها ٣٠٠ كيلومتر مربع ، بينما تضم لندن الكبرى أكثر من ٨,٤ ملايين نسمة .

- وظائفها العمرانية : وأهم هذه الوظائف الوظيفية التجارية ، والوظيفة المالية ، ومقرها السيقي التي تتفرغ ليلاً ويوم الأحد من محتواها البشري . بينما تضم في أوقات العمل ، نصف مليون نسمة ، وفيها نجد سلطة الميناء ، وأسواق البورصة والسمرة على عينات البضائع ، والبنوك وشركات التأمين وهنا يقع قلب منطقة الاسترليني والقوة البريطانية . أما في عالية السيقي فنجد المركز الإداري والمركز السيامي . حيث يقع قصر بكنغهام الملكي ، وقصر البرلمان . ويكون للمركز الثقافي (الجامعة) الواقع في شمالي المدينة ، أهمية تقل نسبياً عن أهمية جامعة باريس . أما على الضفة اليمنى فيقع الحي السكني الذي تقطنه الطبقات الوسطى من مستخدمين وموظفين ، وعلى الضفة اليسرى يقع حي الويست آند ، وهو حي الطبقات الغنية ويمتد تدريجياً نحو الجنوب والغرب .

- أما الوظيفة الصناعية : فتقوم في شرق المدينة . قرب الميناء حيث تقطن طبقة عاملة كثيفة مزدحمة في المساكن الرديئة أو Slums في أحياء إيست آند . وتقع الصناعات التقليدية مثل صناعة الألبسة والموييليا والطباعة ، وصناعة الفراشي ، والمحفوظات قرب مركز لندن . وتتركز صناعة الورق والإسمنت قرب كريفزاند Gravesend ، بينما تقوم الصناعات الميكانيكية مثل صناعة الطائرات والسيارات والأدوات الكهربائية ، والصناعات الكيماوية ، في الجهة الجنوبية

الشرقية والشمال الشرقي ومجدداً في شمال غرب لندن . وتقوم خلف لندن الكبرى الصناعات في المدن المجاورة مثل ريدينغ ، كما تتحول القرى إلى (مدن مهاجع) ، ينتقل سكانها يومياً إلى أعمالهم بواسطة السيارات والقطارات أكثر من القطارات الأرضية (المتروبوليتان) .

ويضيف جو لندن ذو السماء الرمادية ، وذو البيوت المصنوعة من القرميد ، الذي تحول الرطوبة نحو اللون الأسود مع الزمن ، تأثيره إلى رتابة مناظر المدينة ولكن إذا افتقرت لندن من الجمال فهي تملك جوها الخاص الذي هو عبارة عن خليط يعسر وصفه ، مؤلف من الضباب والدخان ورائحة تبغ فرجينيا ، ومن سخام تخرقه بعض النفحات البحرية .

التجارة البريطانية

تمثل المبادلات التجارية التي يستند عليها كل اقتصاد المملكة المتحدة من حيث القيمة ١٢٪ من صادرات العالم و ١٠٪ من استيراده .

الدور الحيوي لهذه المبادلات :

ففي مجال الاستيراد تمثل الحاصلات الغذائية : كاللحوم والحبوب والشاي ، والقهوة ، ومنتجات الألبان ، والسكر والتبغ حوالي ١٦٪ مقابل ٤٩٪ في عام ١٩٣٨ والمواد الأولية : كالفلزات المعدنية والصوف والخشب والقطن بنسبة ١٠,٣٪ والمنتجات المصنوعة (وثلاثها من المعادن المنتهية) بنسبة ٢٣٪ والوقود بنسبة ١٨٪ لأن استيرادها من الفحم الحجري في تزايد ، وأصبحت من الدول المصدرة للبترول . ويلاحظ في قائمة الصادرات ضعف الدور الذي تلعبه المنتجات الغذائية التي لا تمثل سوى ٦,٥٪ والمواد الأولية ٣٪ منذ أن انخفضت فعالية إعادة التصدير والتوزيع ، وضعف صادرات الوقود وهي ٥٪ منذ أن

توقفت بريطانيا عن تصدير الفحم للخارج ، مما سمح بارتفاع نسبة تصدير المنتجات المصنوعة التي أصبحت تمثل ٤٠% وتتألف هذه بنسبة النصف من آلات ميكانيكية فصادرات المكائن الكهربائية ، التي تتجاوز صادرات المنتجات المعدنية ، وتعادل تسعة أعشار المنتجات الكيماوية وثلاث المصنوعات النسيجية .

وإذا كانت المملكة المتحدة لم تعد بعد اليوم مستودع سلع العالم ، لأن المواد التي تصدرها ثانية لا تمثل أكثر من ٥% من مبيعاتها ، فإن تجارتها تقدم لها ثلاثة أخماس غذائها ، و١٣% من وقودها ، و٥٠% من فلزات حديدتها ، وكل معادنها غير الحديدية تقريباً ، وخشبها وصوفها ، وكل قطنها . إذن فتجارتها هي التي تمون صناعتها إلى حد بعيد والتي يذهب ربع إنتاجها للتصدير .

والعجز التجاري البارز ، سواء من ناحية الوزن أو القيمة ، وهو من ظواهر الأزمة الأوروبية في القرن العشرين ، أصبح من نصيب بريطانيا منذ عام ١٩٣٥ ، إذ بلغ عجزها ٤ مليارات جنيه استرليني في عام ١٩٧٧ ، وفي الوقت الحاضر ، يبدو العجز خفيفاً بالنسبة لمنطقه الاسترليني وبالنسبة لأقطار أوروبا الغربية . ولكن عدم التوازن التجاري يكون أكثر وضوحاً تجاه الأقطار غير الاسترلينية مثل أمريكا الجنوبية ، التي تصدر اللحم لبريطانيا ، وأقطار البحر المتوسط التي تصدر الفواكه ، والكتلة الاشتراكية . ولكن نصف العجز الكلي ينتج عن علاقات بريطانيا مع أقطار منطقة الدولار حيث تستورد المملكة المتحدة منها القمح والقطن والسكر والتبغ .

بيد أن ميزان المدفوعات يمثل في السنين الأخيرة ، فائضاً محترماً جداً ، أي أن العجز التجاري يتسدد وزيادة بفضل مختلف « الصادرات اللامرئية » التي أخذت تلعب دورها منذ القرن الماضي ، (وأهمها أرباح الأموال الموظفة بالخارج وأرباح الأسطول الخ) . غير أن هذه الصادرات تناقصت خلال الحرب العالمية

الثانية ، لأن المملكة المتحدة التي بذلت جهداً خارقاً خلال الحرب المذكورة قسرتها الحرب على سحب ربع أموالها في الخارج .

هذا وقد اضطرت المملكة المتحدة من أجل إعادة بناء مدنها المتهمة وبناء أسطولها إلى الاستدانة ، حتى ان احتياطياتها أقل بكثير من مطالبات دائياتها . وهكذا يظل التوازن المالي البريطاني متقلباً .

ملاحح اتجاه الاقتصاد البريطاني

لقد عمدت المملكة المتحدة إلى تخفيض استيرادها الذي بلغ ١٨٪ من استيراد دول العالم ، و١٢٪ في عام ١٩٥٦ ، كما انخفضت صادراتها التي بلغت ١٠٪ من صادرات العالم عام ١٩٣٧ وظلت كذلك في ١٩٥٦ . ويفسر هذا النجاح النسبي بتوسع صناعاتها وبسياسة التقشف التي سلكتها .

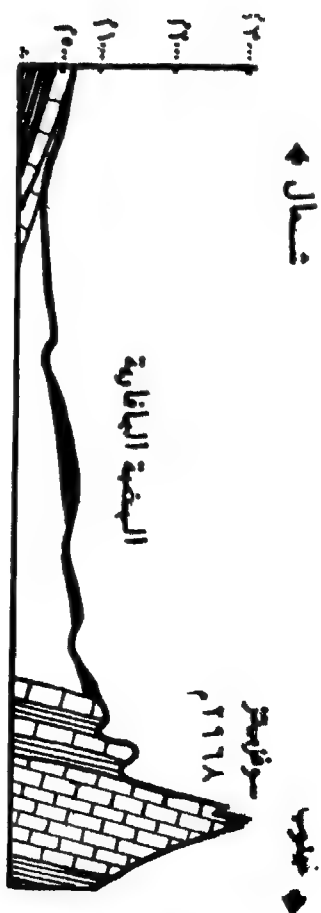
غير أن التوازن البريطاني يتعلق بتاسك منطقة الاسترليني . فالمملكة المتحدة تجد في هذه المنطقة ٤٥٪ من وزن صادراتها واستيرادها . كما تستورد منها ٣٩٪ من استيرادها ، وترسل إليها ٤٤٪ من صادراتها . فهي تستمد من هذه المنطقة كل الفائض الغذائي كما تشترك مع كندا في شراء كل الفائض المعدني ، كما تصدر لهذه المنطقة ، وخاصة نحو أفريقيا ، أكثر شطر من منتجاتها الصناعية . كما تستفيد بريطانيا من أن منطقة الاسترليني التي يتوازن ميزانها بصعوبة ، تملك فائضاً من الدولارات ، على خلاف المملكة المتحدة . وقد أصبح الهم الرئيسي للعاصمة البريطانية ، لا سيما وأن تصنيع الدومنيون صار أمراً لا يمكن مقاومته ، هو حماية المنطقة الاسترلينية من دخول رؤوس الأموال الأميركية ، وهذا ما يفترض ثبات التوظيفات الإنكليزية وكفايتها .

كما يظهر التنافس بين الجنيه والنقد النادر ، وخاصة الدولار ، بشكل أوضح في بقية أنحاء العالم . وتتجه لندن نحو توسيع علاقاتها التجارية مع الأقطار

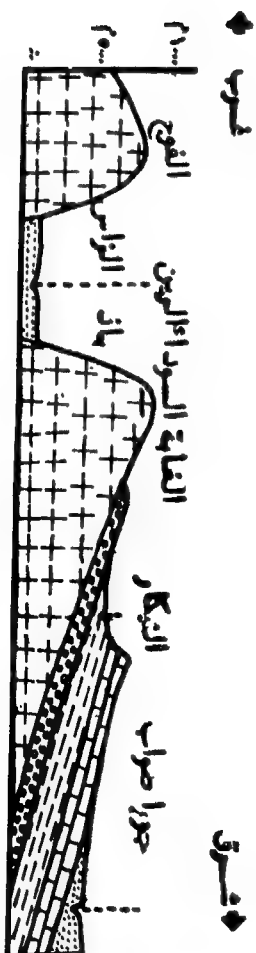
الاشتراكية ولا سيما الصين والبلدان النفطية العربية . كما يخلق نشاط السوق المشتركة الأوروبية مشكلة خطيرة بالنسبة للمملكة المتحدة ، كما تثير مسألة انتساب المملكة المتحدة للسوق المشتركة هياجاً في الرأي العام البريطاني ، ولدى الدول الأوروبية إلى أن انتسبت إلى هذه السوق في السبعينات على مضض . فتجارة هذه السوق أصبحت تعادل تجارة منطقة الدولار أو تجارة منطقة الاسترليني . فالتجارة الألمانية التي كانت تعادل نصف التجارة البريطانية في عام ١٩٥٠ أصبحت لا تقل عنها حالياً ، وهكذا أصبحت الصادرات الألمانية تقدم ١٦٪ من الصادرات العالمية من المنتجات المصنوعة مقابل ١٩٪ لبريطانيا و ٢٥٪ للولايات المتحدة .

غير أن العلاقات تتجه نحو الانسجام بين المملكة المتحدة والقارة الأوروبية . فتراطب الشبكة الكهربائية الإنكليزية الفرنسية ، الذي ابتداءً في عام ١٩٦٠ ، يفيد من تأخير ساعة بين حدي الاستهلاك الشديدين ، كما يبدو أن النفق الذي سيمر منه الخط الحديدي تحت بحر المانش سيتحقق قريباً . وهكذا نجد أن المملكة المتحدة التي توثق علاقاتها مع منطقة الاسترليني والكونولث ، تتخلى تدريجياً عن عزلتها بالنسبة لباقي أوروبا وتعمل جاهدة لدعم كيائها الاقتصادي في منظمة السوق الأوروبية .

☆ ☆ ☆



كلس
 غصارة
 مرميات



لحيات
 كلس
 مرميات

الشكل (١١)

ألمانيا

تعتبر أوروبا الوسطى منطقة « ضغط ديموغرافي » واقتصادي مرتفع .
فهي مكان تلاقي شعوب ، يمثل السلاف والجرمان بينها أكثر المجموعات اللغوية أهمية . ويؤلف الألمان شعباً في حالة مسيرة ، شعباً غني بالتناقضات ، يبحث بصورة دائبة عن وحدته مثلما يبحث عن حدوده .

١ - مقدمة عن أوروبا الوسطى الجرمانية

تشتمل أوروبا الوسطى على ثلاث مناطق طبيعية هي : النطاق الألي بالجنوب ، النطاق الهرسيني في الوسط ، وأخيراً السهل الجرمانى البولوني الكبير .

وتؤلف أوروبا الوسطى ، التي تعتبر إقليماً انتقالياً ، امتداداً ملطفاً للمناطق المجاورة . فهي أقل تجزؤاً - على شكل جزر وأشباه جزر - من أوروبا الغربية . وهي أقل قارية من الاتحاد السوفييتي المتلاحم الأجزاء . كما أن طبوغرافيتها تبدو ذات مظاهر أقل تنوعاً من الأقطار المطلة على البحر المتوسط . غير أن تضاريس أوروبا الوسطى تحوي عدة مجموعات طبيعية كبرى .

أولاً - ففي الجنوب تؤلف كل من جبال الألب والكاربات قوساً جبلياً ، مؤلفاً من كتلة هائلة من الصخور الرسوبية ، التي نهضت والتوت خلال الدور الثالث ، وتعرضت بعدئذ للحت الجودي والنهري فضلاً عن العوامل الجوية الأخرى .

هذا ويمتد القوس الألبى على مسافة ١٣٠٠ كيلومتر ، ابتداء من خليج جنوا إلى حوض فيينا ، ففي الغرب تكون جبال الألب أقل عرضاً ولكنها أكثر ارتفاعاً ، فيرتفع جبل مون بلان M. Blanc إلى ٤٨٠٧ م وهو أعلى جبل في أوروبا كلها ، وجبل سيرفان Cervin إلى ٤٤٨١ م . وتظهر جبال الألب الشرقية أكثر عرضاً وأقل ارتفاعاً إذ يتجاوز عرضها ٣٠٠ كم ، ولكن ارتفاعها يقل عن ٣٠٠٠ م .

ثانياً - وتتألف أوروبا الوسطى ، في قسمها الأوسط ، من أشباه سهول ناهضة ومتصاية^(١) بفعل الحركات المولدة للجبال التي حدثت في الحقب الثالث . وقد أدت الحركات الشاقولية ، أي التخلعات ، إلى تشكيل فسيفساء حقيقية من جبال تفصلها الحفر الانهدامية عن بعضها . وهكذا نميز من الغرب إلى الشرق الكتل التالية : الكتلة الشيستية الرينانية ، الغابة السوداء (شكل ١) ، هارز ، جبال تورنج ، الكتلة البوهيمية ، كتلة الصليب Lysa Gora . ويندر أن يتجاوز ارتفاع هذه الكتل الجبلية المذكورة مقدار ١٥٠٠ م . وتتجه خطوط تضاريسها وتخلعاتها تارة من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي (اتجاه الكتلة الشيستية الرينانية) وتارة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي (اتجاه هارز) . ويتأرجح هذان الاتجاهان الرباعيان كي يؤلفا حصناً جبلياً في قلب أوروبا الوسطى ، يدعى الرباعي البوهيمي ، الذي يعتبر موطن الشعب التشيكي . وقد نتج عن النبات الكثيف الذي كان يغطي الكتل الجبلية هنا خلال العصر الفحمي (الدور الأول) ، نشوء أحواض رسوية فحمية ، تفسر قيام النهضة الصناعية في منطقة السار ، ورينانيا ، وساكس ، وسيليزيا في الشرق (شكل ٢) .

(١) جبال متصاية : هي جبال أقي عليها الحت فواها تقريباً ثم تعرضت لحركات أنهضتها مما سمح للحت من جديد بأن يوجد فيها تضاريس من نوع جديد ، وتعتبر جبال الألباء ش نموذجاً عنها .

وبين هذه الجبال تشكلت حوضات رسوبية بفعل الرسوبات التي خلفتها البحار الطاغية على الركيزة القديمة خلال الدور الثاني والثالث . وأوسع هذه الأحواض هو حوض صوآب فرانكونيا الذي يماثل الحوض الباريسي في تكوينه ، ويقع هذا الحوض شرقي الغابة السوداء ، وشالي الدانوب وغرب كتلة بوهيميا .

وقد أضفى الحث النهري على الكتل المتصابية تقاطيع مدورة تكثر فيها الوديان العريضة . كما تكيّفت الجبال والحوضات الهرسية أيضاً بنظام الحث الجليدي Pégiglaclaire خلال مطلع الدور الرباعي . فقد أدى الانجذاب إلى تفلج الصخور . كما عمل الريح في ذلك العصر على تركيم العناصر الناعمة المورينية التي شكلت تربة اللوس الحصية . وبذلك تشكل نطاق البورد Borde الغني الذي يمتد من وستفاليا (شرقي بلجيكا) حتى غاليسيا الواقعة قرب حدود أوكرانيا . كما عملت حوادث جريان التربة على حجب السفوح وقيعان الوديان ، وتقطعت هذه الركامات فيما بعد على شكل مصاطب .

ثالثاً - ونجد في الشمال السهل الجرمني البولوني الكبير ، الذي لا يتجاوز ارتفاعه ٢٠٠ م ، وهو سهل نجم عن التركيب الجليدي . فقد حجبت المورينات التي خلفتها الجليديات الاسكندنافية الواسعة (قبعات جليدية Inlandsis) الركيزة العائدة للدور الأول وغطاها الرسوبي ، تلك الجليديات التي زحفت خلال الدور الرابع حتى جوار الكتل الجبلية في أوروبا الوسطى ، على شكل ثلاثة زحوف متعاقبة ، كانت الأخيرة أهمها . وتكون التضاريس مشوشة جداً ، مؤلفة من تلاع غضارية وحصوية يندر أن تسمو لأكثر من ١٧٠ م في ألمانيا الشرقية . وتنفصل هذه التلال عن بعضها بمساحات شاسعة منبسطة تتناثر فوقها مئات البحيرات الضحلة . وتؤلف مورينات القاع ، القليلة السماكة ، والغضارية التركيب ، أفضل المناطق الزراعية . وقد شكلت عصيات المورين الختامي تلالاً مقوسة ذات سفح شديد باتجاه الشمال ، كان الجليد يشغلها بالماضي

(شكل ٣) . وتدل الخطوط المتعرجة لهذه التلال على السنة الجوديات القديمة الكبرى . وقد عملت الأنهار التي كانت تنساب من تحت الجوديات ، على رسم سباحات البحيرات المتطاولة من الشمال للجنوب مثلما عملت على غسل وفرز الأتقاض المورينية ، فنشرت أغشية رملية وحصوية . ولما كانت مياه ذوب الجوديات عاجزة عن أن تجد لنفسها مصرفاً نحو الشمال ، بسبب إقامة القبعات الجودية ، فقد حفرت أخاديد عريضة تدعى « الوديان البدائية » ، التي كانت تصب باتجاه الغرب . وقد سلكت الأنهار الحالية هذه الأقينية التي تركتها الجوديات ، مثل نهر الإلب ، والأودر ، والفتولا مما ساعد على إقامة شبكة من القنوات الملاحية .

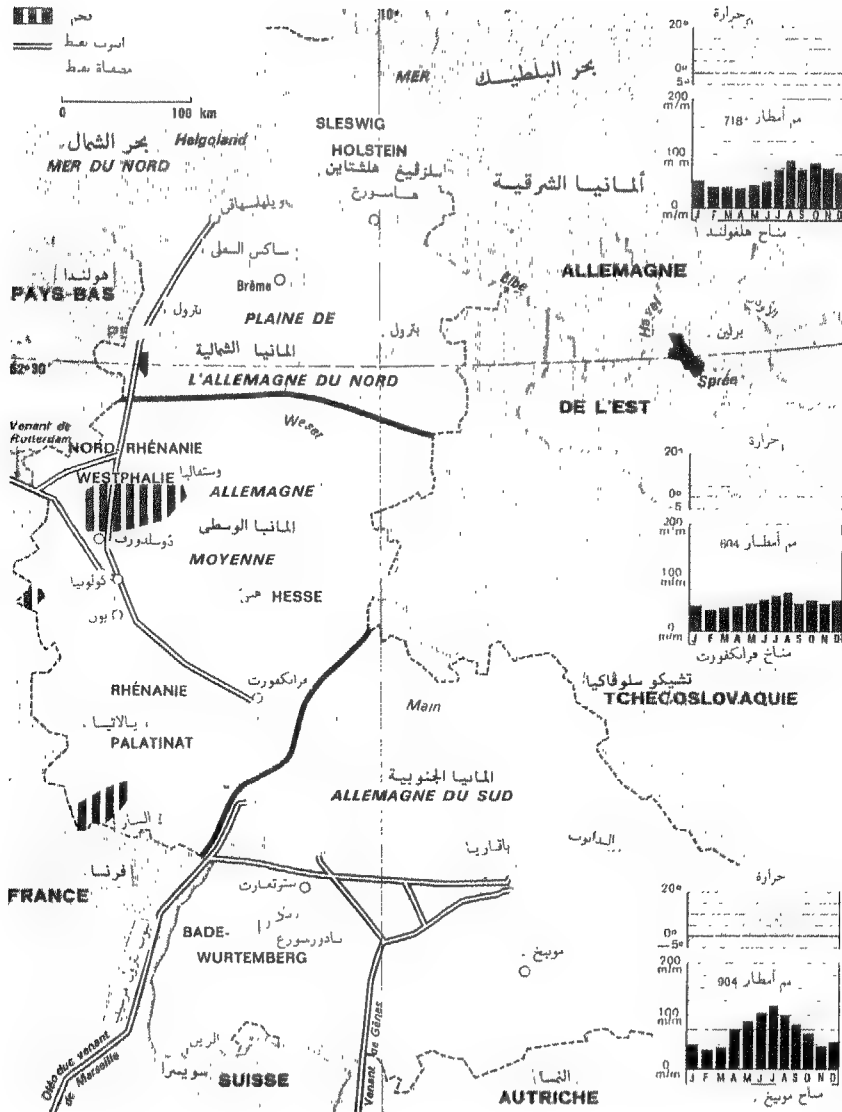
وتغلب على السهل الجرمانى البولوني الترب الرملية والحصوية ، عملت ظاهرة غسل التربة على تحويلها إلى تربة بودزول غير ملائمة للحياة الزراعية . كما أن تصريف المياه لا يزال هنا عسيراً . ويكون المناخ هنا قاسياً . فالثلج يقيم فوق الأرض أكثر من شهرين بالعام ، ولا تظهر التربة إلا في نيسان . ولكن الأمطار تكون وفيرة نسبياً إذ تتراوح بين ٧٠٠ و ٨٠٠ مم . ولهذا يكون النبات هزيراً ، مؤلفاً من غابات شاسعة من الراتنجيات والسندر . كما أن فقر التربة لا يسمح إلا بقيام زراعات فقيرة الأنواع مثل : الجاودار ، والشعير ، والشوفان والأعلاف والبطاطا ، ولكن هذه المزروعات تطورت بشكل علمي وتعطي محاصيل عظيمة ، شأن تربية الماشية كالخيول والأبقار والغنم .

وبينما كانت ألمانيا الوسطى والجنوبية مجزأة بفعل التضاريس ، فقد كان السهل الشمالى موئماً لنشوء وتطور دولة كبيرة الرقعة ، عملت كنقطة ارتكاز لنشوء دولة عظمى ، وتقصد بها الدولة البروسية . كما أن الصخور الرسوبية العميقة ، تحوي على احتياطات هامة من الحديد ، والبوتاس والملح ، وفحم الليغيت ، والنفط .

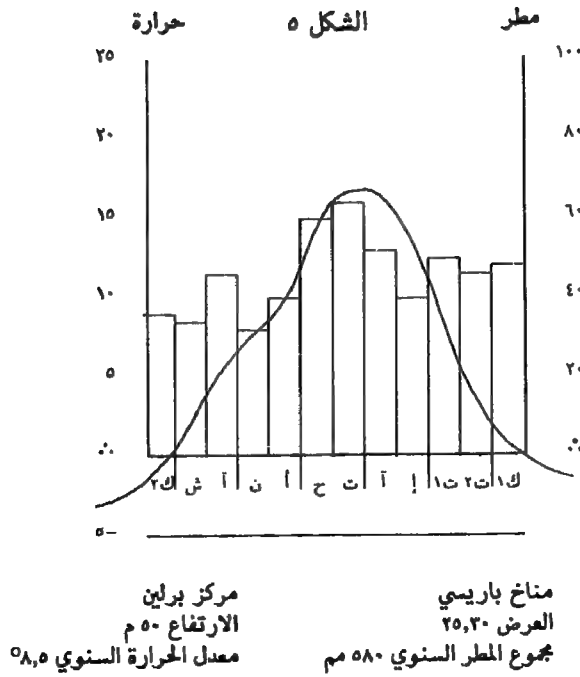
وإن لأوروبا الوسطى مناخاً قارياً يزداد شدة باتجاه الشرق ، كما تحوي على مساحات كبيرة من الغابات ، فضلاً عن طرق ملاحية ممتازة مثل : نهر الراين ، والإلب ، والدانوب .

وهكذا يحوي مناخ أوروبا الوسطى على كل المناخات الانتقالية بين المناخ المحيطي لأوروبا الغربية وبين مناخ روسيا القاري . والحقيقة هي أن عدة تيارات هوائية تتجابه في أواسط أوربا : مثل الهواء شبه المداري ، وكتلة الهواء القطبية البحرية القادمة من المحيط الأطلسي ، وكتلة الهواء القاري المندفعة من آنتيسايكلون سيبيريا . ولهذا تكون فصول الشتاء طويلة ، وقاسية ، رطبية . ويحدث الانجماد خلال ٧٧ يوماً سنوياً في برلين . ويصبح الصيف حاراً بالجنوب ، بينما يكون الربيع والخريف جافين (شكل ٤ و ٥) .

وقد عملت التضاريس على خلق العديد من الاختلافات الإقليمية . فالسعة الحرارية تستفحل في الأحواض الداخلية ، بينما تتلطف على الجبال . وتتجاوز الأمطار مقدار ٨٠٠ مم على الكتل الهرسينية وعلى السلاسل الألبية . ولهذا تكون هذه المرتفعات مجالاً ممتازاً للغابات . ولهذا تحمل هذه الجبال بالإضافة إلى أسمائها عبارة « Wald » أي « غابة » ، مثل شفارزفالد = الغابة السوداء ، وتورنغفالد = أي غابة تورننج ، وتختلط هنا أشجار الزان مع البلوط والمحروطيات . كما عمل الألمان على تحريج الكثير من المناطق المرتفعة ، بحيث تهيم الغابة على كل الجبال والأحواض في النطاق الهرسيني ، وقد انتزع السكان قسماً من أراضيهم الزراعية على حساب الغابة . كما تحتل غابة الراتنجيات وذات الأوراق النفضية مكاناً فسيحاً في السهل الجرمانى البولوني . وهكذا يكون ربع أوروبا الوسطى مستوراً بالغابة في الوقت الحاضر . والأمر الذي يلفت النظر والفريد من نوعه هو تواجد كثافات سكانية عالية مع نسبة عالية من المساحات الغابية .



الشكل ٤



٢ - ألمانيا الوسطى

تطلق عبارة ألمانيا الوسطى على مجموع الكتل الجبلية القديمة الهرسينية ، المؤلفة من هضاب فسيحة ، فقيرة دوماً ، ومن وديان ذات أكواع متعمقة تجتازها وتغوص فيها ، وفي هذه الأودية تتمركز طرق المواصلات والمدن . وتحوي الكتل القديمة في ألمانيا الوسطى على ثلاثة مشاهد مختلفة :

ففي الكتلة الشيستية الريمانية ، تحتل الهضاب كل المساحة تقريباً ، وتكون الأودية نادرة ومتعرجة . أما في منطقة هس فالهضاب تكون أكثر تجزؤاً ، والوديان أكثر عدداً وعرضاً . وأخيراً نجد منطقة تورنج التي تصبح فيها الهضاب أكثر تفتتاً ، وتعرض الوديان كثيراً ، وتصبح عبارة عن أحواض كبيرة مزدهرة .

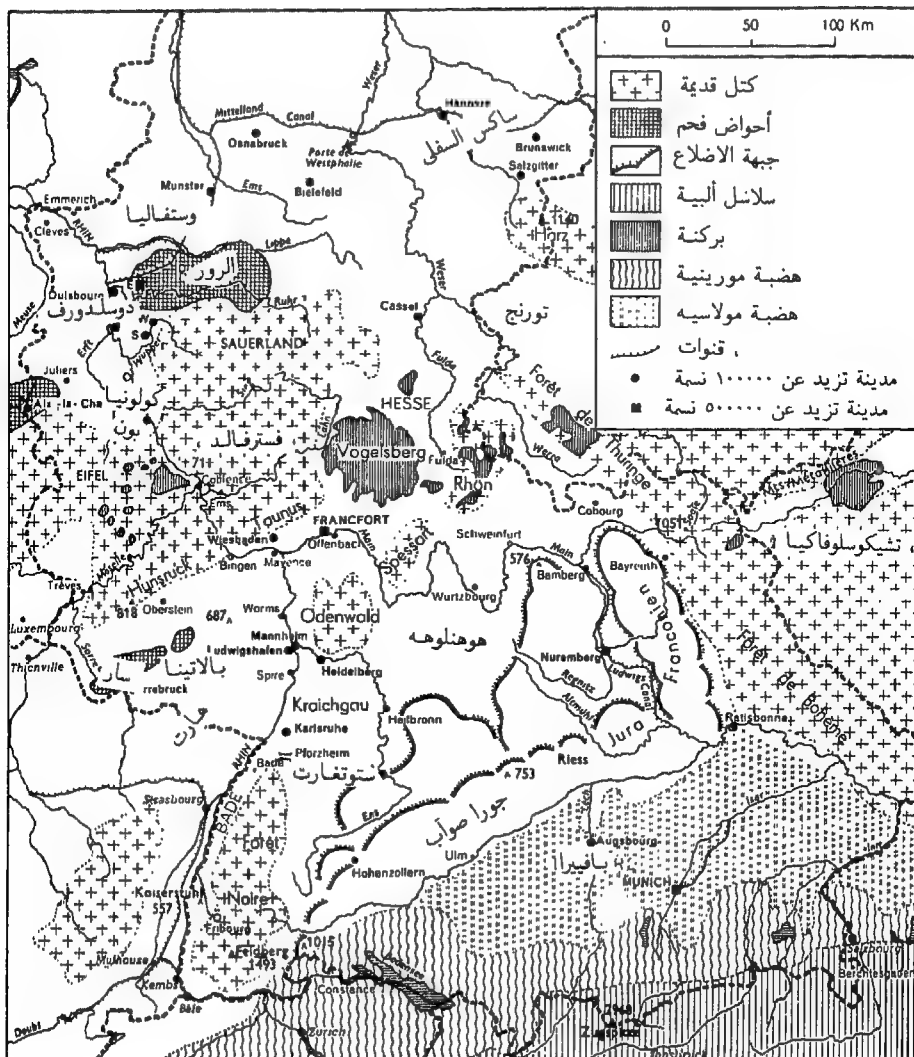
١ - الكتلة الشيستية الرينانية - تبلغ الهضاب ، في هذه الكتلة التي يجتازها نهر الراين ، ارتفاعات تتجاوز ٧٠٠ م (أعلى قمة تقع في تاونوس ٨٠ م) . ويكون المناخ هنا قاسياً جبلياً ، ويكون سطح الهضبة غنياً بمستنقعات فحم الطورب ، رتيباً وعارياً . أما الوديان فتكون مناطق موائمة لاستيطان السكان ، فقد أوجد عمقها مواقع محمية من الرياح الباردة ، كما أن السفوح المتجهة نحو الشمس في الأكواع المتعمقة تكون مستورة بالكروم . في حين تكون الزراعة نادرة فوق الهضاب والسكان قليلي العدد رغم وجود صناعة قليلة الأهمية تقوم على صناعة الجلود والورق واستغلال الحديد في وادي سينغ Sieg .

ونجد ضمن الأكواع المتعمقة سهولاً حوضية الشكل وعميقة ، كثيفة السكان ، وحماية على مدن كثيرة ، بعضها قديم . كما اعترى المنطقة حوادث -خسف في الدور الثالث فأوجدت سهولاً جميلة غنية جداً ، ومأهولة بسكان كثيرين . وقد أدت هذه الانهدامات لوجود عديد من الينابيع المعدنية مثل ايمس Ems قرب مصب نهر لاهن Lahn ، ومدينة ويسبادن Wiesbaden في أسفل جبل تاونوس قرب فرانكفورت (شكل ٦) .

وتقع منطقة السار Sarre في جنوب غرب إقليم هنسروك ، وغرب هاردت ، وهنا يقع حوض فحمي هام يقدم الوقود لصناعة حديدية ثقيلة ولعامل الزجاج والخزف ، فضلاً عن معامل البيرة والأحذية والألبسة ، مما يجعل من إقليم السار منطقة كثيفة السكان جداً ، تصل إلى ٥٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع .

٢ - وتكون كتل منطقة هيس Hesse أكثر تنوعاً وثروة من المنطقة السابقة ، لأنها أقل ارتفاعاً (غابة هيس ، وبركان فوجلسبرغ القديم) وأكثر تخلعاً بكثير ، مما جعل محاور المواصلات تخترقها على نطاق واسع . وتكون ترب الهضاب رديئة ، رطبة ، ومستنقعية وبالتالي عقيمة . وتغطي الغابة أكثر من

ثلث سطح الجبال والزراعة الموجودة فقيرة تقوم على الشوفان والجاودار والبطاطا .



الشكل (٦)
أمانة الرينانية

ولكن الوديان تسمح لخطوط المواصلات بأن تسلكها . وتأخذ هذه الوديان اتجاهين ينفتحان على نهر الراين بواسطة نهر لاهن ، ونهر الماين Main وكنزنج اللذين يقودان إلى نهر فولدا ونحو نهر الويزر . وبذلك يفتح نوع من باب طبيعي نحو سهل الشمال عن طريق مدينة غوتنجن ، وباب آخر نحو تورنج والساكس بواسطة مدينة آيزناخ Eisenach .

وتحتوي هذه الوديان أيضاً على عدد من الأحواض الخصبة الصغيرة ، فصناعة الحديد تكون هنا قديمة . كما قامت حالياً في المنطقة الصناعة الكيماوية ، والحديدية ، والخزف ، واستخراج حجارة البناء . ولكن الدور الرئيسي للمنطقة هو أنها منطقة عبور . فهنا نجد أقدم الطرق وأهمها في ألمانيا ، ومن هنا مر الرومان ومن هنا نفذت المسيحية إلى ألمانيا . وظلت المدن القديمة الواقعة على هذه الطرق ضئيلة باستثناء مدينة كاسل Cassel التي تعتبر مدينة كبرى إذ تضم أكثر من ٣٥٠.٠٠٠ نسمة وتزدهر فيها صناعة القاطرات والمكائن .

٣ - إقليم تورنج ويقع إلى الشرق من كتلة هيس ، ويتألف من أحواض زراعية مزدهرة ، تطيف بها جبال غنية بالمناجم ، وهذا الازدواج بالغنى جعل من هذه المنطقة أغنى مناطق ألمانيا .

وتؤلف هذه الجبال أربعة خطوط متوازية تتجه من الشمال للجنوب ، وتتألف جميعاً من صخور قديمة ، هي من بقايا الجبال الهرسينية القديمة التي براها الحت ، والتي نهضت بفعل الحركة الألبية . ففي الشمال ترتفع التلال شبه الهرسينية إلى علو لا يزيد كثيراً عن السهل الواقع بين برونسويك وماغديبورغ . وإلى الجنوب من ذلك تظهر منطقة هارز ، التي تؤلف تضرساً بارزاً يرتفع في جبل بروكن إلى ١١٤١ م . فهذا الارتفاع والانعزال جعلاً منه أكثر مناطق ألمانيا الوسطى رطوبة . فالجبهة المتجهة إلى البحر تنال أكثر من متر من التهطال . وتؤدي كثرة الثلوج إلى جعل الأنهار غزيرة المياه مما ساعد على بناء سدود لتوليد

الطاقة الكهربائية . وتغطي الغابة ثلاثة أرباع مساحة المنطقة وتكون الفعالية الرئيسية هي الصناعة . وتملك الحافة الشمالية والشرقية من إقليم هارز أغنى مكان نحاس ألمانيا ، في إيزلين ، ومكان بوتاس غنية جداً كانت الأولى في العالم قبل اكتشاف البوتاس في كندا ، وتوزع المدن على حواف كتلة هارز .

وإلى الجنوب من ذلك تقع غابة تورنج التي تؤلف ظهرة من جبال أكثر طولاً ، ولكن أقل ارتفاعاً ٩٨٣ م وهي عبارة عن جبال قديمة براها الحت على شكل هضاب رتيبة جداً ، ويخترقها طريق يسلك عمودها الفقري . وتظهر هذه المنطقة مستورة بالغابات لدرجة تنعدم فيها الزراعة ، وتقل أهمية تربية الماشية ، وتكون الفعالية الرئيسية للسكان هي الصناعة : كاستخراج الحديد ، وصناعة الزجاج بفضل الرمال وخاصة صناعة الأشياء الخشبية ، ومع ذلك تبدو المنطقة مأهولة جداً بالسكان ، إذ تقارب الكثافة هنا ١٥٠ نسمة في الكيلومتر المربع .

وفي النهاية الجنوبية لإقليم تورنج تظهر كتلة غرانتية تنبثق منها قمة فيختل جيبيرج ١٠٥٣ م Fichtel Gebirge ، تطيف بها هضاب فقيرة تنتثر عليها المستنقعات التوربية ، وتحتل الغابة نصف المساحة . ولكن هذه المنطقة هي مفترق طرق قديمة بين الشمال والجنوب مثل مدينة هوف على نهر سال Saale وبايروت على نهر الماين Main ، كما أن طريقاً يساير نهر ايجر Eger يؤدي إلى شمال بوهيميا .

وتظهر في الأحواض المتبعثرة بين جبال تورنج توضعات جمودية وتربة لوس مما يمنح المنطقة خصوبة ممتازة (حبوب وخضار) ، يضاف إلى ذلك عذوبة المناخ الناجمة عن الحماية من الرياح . وأغنى هذه الأحواض الوادي الذهبي أو غولدنه آويه Goldne Aue .

كما تأخذ الصناعة هنا أهمية كبيرة بفضل جوار المناجم الجبلية ، فتشتهر

المنطقة بالصناعة الكيماوية القائمة على بوتاس ستاسفورت ، والحديدية في ارفورت ، والزجاج الذي تنتج عنه صناعة البصريات (معامل بينا الشهيرة iéna) ، وتهين عليها جميعاً الصناعة النسيجية .

كما أن الوديان الخصبة والصناعية ، تعتبر محاور مرور لاسيا الجنوبية منها ، حيث يمر طريق هام جداً من الغرب للشرق أدى لقيام مدن عند كل تقاطع مع واد آخر بين مدينتي آيزناخ Eisenach وشمسنتز ، كارل ماركس شتاد حالياً ، ومدينة أرفورت وفيمار Weimar وبيننا وألتنبورغ إلخ ..

٣ - ألمانيا الجنوبية

١ - حافة سهل الراين :

لقد نتج سهل الراين عن انهدام ، معاصر تقريباً لنهوض جبال الألب ، بين أربع كتل بارزة قليلاً هي جبال الفوج ١٤٢٦ م والغابة السوداء ١٤٩٥ م في الجنوب ، وجبل الرعد Mont Tonnère ٦٨٧ م واودنفلد ٦٥٩ م في الشمال .

وقد أدى الانهدام إلى تمييز هضاب خرسانية Sandstone يكون ارتفاعها دون الجبال، السالفة الذكر ، تعرضت لخرس في أواسطها ، مما جعل منها مناطق مرور عرضانية مثل ممر سافرن Saverne على الجانب الفرنسي في شمال الألزاس ، والذي يقابل تماماً ممر كريشغاو Kraichgau في إقليم باد الألماني المقابل شرقاً . كما حدثت انكسارات جانبية أدت إلى ظهور خلجان حقيقية في خواصر الجبال المذكورة تشكل استطلاعات لسهل الراين . وهكذا ظهر في الاتجاه المهرسيني نفسه ، أي من الجنوب الغربي للشمال الشرقي ، حوض ماينس Mayence و وتراو Wetterau حيث تتلاقى الأنهار التالية: كينزيغ ، ماين ، ناهه Nahe والراين (شكل ٧) .

وتوجه الغابة السوداء نحو الغرب سفحاً شديداً ناجماً عن الصدوع ، غزير الأمطار ، وجيد التعرض للشمس مما يسمح للكرمة ولزراع الكرز أن تصعد نحو المرتفعات . وعلى العكس نجد السفح الضعيف الميل الذي يتجه نحو الشرق ، والذي ينحدر عنه نهر الدانوب ونهر النكار ، عبارة عن منطقة قاسية ، كثيرة الغابات ، يعتاش سكانه من صناعة ريفية تقوم على الحشيش وصناعة الساعات وأدوات الموسيقى ، ومن صناعة نسيج قديمة ومن سياحة نشيطة . ولكن منطقة أودنفالـد Odenwald الشمالية تبدو أكثر فقراً وشبه خالية ، ويستغل سكانها القلائل غابات البلوط والشوح ، فضلاً عن قطع الصخور .

٢ - صواب Souabe وفرانكونيا :

وتتد في شرق هذه المناطق السابقة الذكر ، وحتى الدانوب ، هضاب يخترقها نهر النكار ونهر الماين . وهي عبارة عن حوض رسوبي تتنضد فيه طبقات مائلة نحو الخارج (نحو الجنوب الشرقي) تعود للدور الثاني ، وتكون هذه الطبقات أحدث كلما ابتعدنا شرقاً عن نهر الراين .

وتعطي المقاطع القاسية لهذه الصخور جروفاً مرتصفة خلف بعضها البعض ، أي كويستات « ضلوع » متوازية تقريباً ، ومعقوفة ، مع سفح شديد يتجه نحو الغرب ، تتقدمه تلاع شاهدة ، وسفحاً ضعيف الميل يلتفت نحو الشرق . وقد اتجهت الوديان نحو الشمال الغربي بسبب نهوض جبال الألب من جهة ، وبسبب خفس سهل الراين من جهة أخرى .

وأجل كويستا هي التي تتألف من الصخر الجوراسي ، والتي ترسم جرفاً يزيد ارتفاعه عن ٤٠٠ م أحياناً ، وتبلغ ١٠٠٠ م فوق سطح البحر ، تمتد على طول مقداره ٤٢٠ كيلومتر . وتبدأ هذه الكويستا من جوار هضبة الغابة السوداء عند مدينة بال السويسرية . ويجتاز نهر الدانوب هذه الكويستا عند مدينة

دونو شنغن ، ثم تؤلف هذه الكويستا مرتفعات راوهه ألب Rauhe Alb الرتيبة المسترة ، والجافة الكثيبة ، ولكن تتوجها قصور تاريخية عند حافتها وفوق التلاع الشاهدة التي تتقدمها .

وقد تعرضت هذه الكويستا لصدوع عديدة ، أدت لوجود براكين صغيرة خامدة فضلاً عن ظهور حوض انهدامي ، هو حوض ريس Ries ، الذي استطاع بواسطته وادي فورنيتز Wornitz أن يخترق الكويستا كي يلتحق بنهر الدانوب .

وإلى الشمال من ذلك ترسم حافة الكويستا زاوية قائمة باتجاه الشمال فتشكل جبال الجورا الفرانكونية ، والتي تؤلف حافتها الشمالية شرفة عريضة تطل على مدينة كوبورغ Cobourg ، والتي يفصلها عن كتلة بوهيمية القديمة حوض بايروث ، الذي يسلكه نهر الماين .

وتكون الوديان والأحواض الحتية في هذه الهضاب والكويستات (الأضلاع) هي المناطق المفيدة ، ففي الهضاب التي يجتازها نهر النكار والدانوب ، تظهر بعض السهول الغنية بتوضعات اللوس الخصيبة ، وحيث تكثر القرى الواقعة في أواسط حقولها ، وحيث تجود زراعة القمح ، والكروم ، والأشجار المثمرة ، وحشيشة الدينار . وتكون الملكية صغيرة في هذه المنطقة . ويجعل المناخ العذب ، الذي يتمتع بحماية المرتفعات ، من هذه المنطقة إقليمياً دافئاً بالنسبة لألمان . ولكن الأهمية الأولى تنتج عن طرق المواصلات التي تخترق المنطقة ، مما أدى لازدهار المدن منذ القديم .

وأهم الطرق هنا تقع في وادي الماين والنكار . فالأول يفتح مباشرة على الدانوب بواسطة مدينة فورث Furth ونورمبورغ وراتزبون ، والذي تدين له مدينة نورمبورغ بأهميتها التاريخية ، وبروتقها الذي تحتفظ به ، وبتقدمها الاقتصادي الحديث ، إذ تقوم فيها صناعات مثل : صناعة البيرة ، والألعاب ، وصناعة المعادن ، وأدوات الكهرباء .

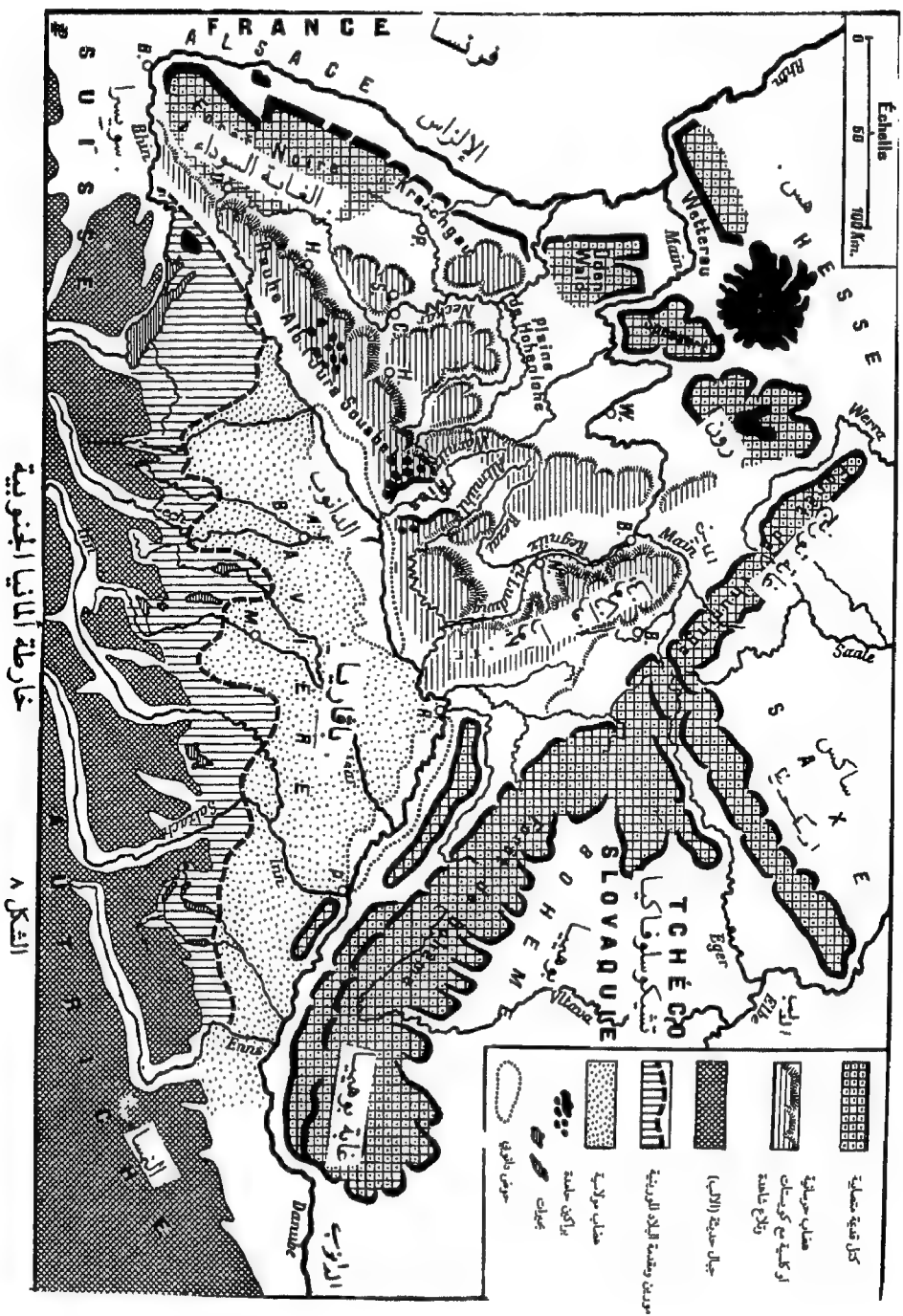
هذا ولا يسلك طريق النكار الوادي ذاته ، بل يصل مباشرة منطقة كريشغاو الانهدامية ، ماراً بمدينة كارلسروهه ، ومنطقة ريس Ries الانهدامية أيضاً . ويجتاز الطريق نهر النكار قرب مدينة شتوتغارت Stuttgart التي تعتبر مدينة صناعية تضم ٧٥٠ ألف نسمة ، وتقوم فيها صناعة نسيج ، وورق وجلود ، وسيارات فضلاً عن دورها الثقافي .

٣ - بافاريا :

ويكون العنصر التضاريسي البارز هو السلسلة الألبية رغم أن إقليم بافاريا لا يضم سوى الحافة الشمالية القصوى (قمة زوغز بيتزه ٢٩٦٠ م) . وهذه المنطقة الألبية الوحيدة في ألمانيا عبارة عن بلاد غابات ومراع وسط الأشكال المورفولوجية الجبلية (حلبات ، معالف ، بحيرات) (شكل ٨) .

وقد نتج عن ذلك قيام صناعة خشبية ريفية ، كما امتدت إلى هذه المنطقة الصناعة السويسرية القائمة على نسج القطن والتطريز . وتتجه الطرق نحو الجنوب بواسطة نهر إين Inn وتتألف من طرق معبدة ومن خطوط حديدية .

وتمتد هضاب فسيحة ، عند أقدام جبال الألب ، يظل ارتفاعها كبيراً نوعاً ما ، تتراوح بين ٦٠٠ و ٩٠٠ ، فتقع مدينة مونيخ عاصمة بافاريا على ارتفاع ٥٣٠ م . والمنطقة الألمانية المحمية بواسطة التضاريس ، والجميلة ، هي الضفة الشمالية لبحيرة كونستانس . أما الهضاب فتتألف من مورينات ومن توضعات نهريّة جمودية خلفتها جموديات الألب الرباعية ، مما أدى لوجود عدد من البحيرات الجميلة المتطاولة في الحوضات الختامية terminaux . وقد عملت لحقيات الوديان العنيفة على حجز الوديان الضعيفة مما أوجد مستنقعات يقع أهمها في سافلة مدينة مونيخ « مونشن » . ويبدو سطح الهضبة خصباً نسبياً ولكن الارتفاع يجعل مناخها قاسياً جداً . تلك هي إذن منطقة رطبة ومخضوضرة ،



غنية بالمراعي ، وبحقول الجاودار والبطاطا ، وقليلة السكان نسبياً .

وأخيراً تنحدر من أسفل الركامات المورينية ، باتجاه الدانوب ، شرطان من هضاب مؤلفة من أغطية حصوية وخرسانية (المولاس) ، وهي عبارة عن أنقاض لأول عملية تهديم لجبال الألب ، وتكون هذه الشرطان محززة بعدد كبير من الوديان المروحية التي تتصل مباشرة بنهر الدانوب ، مثل : وادي لش Lech ، وإيزار Isar ، وإين Inn قرب الحدود . وتكون هذه الوديان عريضة ، رطبة ، غنية بالتورب ، أما الهضاب فرتيبة وجافة . ولكن المجموع كثير الأحرار ، ويزرع سكان القرى القليلة المراعي الاصطناعية من أجل الماشية . كما يحوي باطن الأرض فحم اللينغيت .

ويسمح سطح الهضاب بقيام مواصلات سهلة من الغرب للشرق فوق هوامش المورينات . وقامت مدن كبرى على الطرق القديمة التي تسمح باختصار الطريق الدانوبي ، مثل مونيخ التي زادت أهميتها بعد مد الخط الحديدي باتجاه نهر Inn وممر برنر Brenner الذي يخترق الألب . ومونيخ مقر ملكي قديم ومركز حياة ثقافية وصناعية (بيرة ، صناعات متنوعة) ومن مدن ألمانيا الكبيرة ، فيها ١,٣ مليون نسمة .

وأخيراً يؤلف وادي الدانوب ، مع عقفته الشمالية ، هامشاً لكل المناطق البافارية وأداة الاتصال بين هضاب صوآب وفرانكونيا ، ومع وادي الراين ، مثلما يصل باتجاه آخر مع النمسا والسهل الهنغاري .

وقد قام هذا الوادي بين السفح اللطيف الصاعد شمالاً والعائد للهضاب الكلسية البافارية ، وبين السفح الهادئ الجنوبي الهابط من الجنوب والمؤلف من أنقاض جبال الألب . فتارة يغوص الوادي في خنادق عميقة حفرها في صخور المولاس الرخوة أو في الصخور القاسية (مثل ممر باسو Bassau) والممر الذي يقع

في عالية راتيزبون Ratisbonne ، وتارة يسير في حوضات عريضة كما في المنطقة الواقعة بين أولم Ulm واينغولشتاد .

وتكون هذه الحوضات الدانوبية مستنقعية ، حاوية على التورب ، ولكن عندما تقوم فيها مشاريع تجفيف وصرف ، فإنها تعطي ترباً غنية ، تتألف أحياناً من اللوس وتنجح فيها زراعة القمح والتبغ وحشيشة الدينار والكتان والقنب .

٤ - إقليم ساكس :

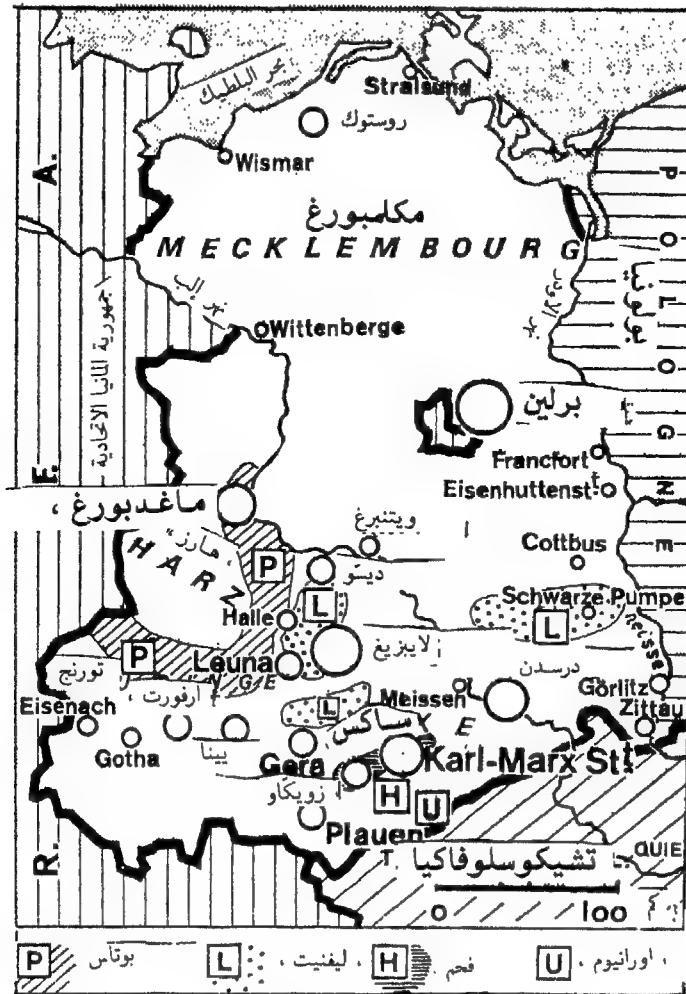
وتتميز جغرافية هذه المنطقة بتجاور مشهدين مختلفين هما المناجم ومياه أنهار الكتل الجبلية القديمة ، مما أدى لنشوء صناعة كبرى ، كما نتج عن التوضعات الحديثة في السهول الكبرى ، والمؤلفة من ترب خصبة لوسية ومن تربة سوداء تقع إلى الجنوب من التوضعات المورينية الشمالية . كما يضيف القسم الأعلى ، من الأنهار الرئيسية ، إلى هذين العاملين عنصر ازدهار آخر هو سهولة المواصلات .

هذا ويتألف السطح الجنوبي من إقليم ساكس من جبال المعادن Erzgebirge التي تسمى إلى ١٢٤٠ م . وتخترق هذه التضاريس المتصايبية المسواة عند قممها . والمدورة عند سفوحها ، أنهار مفروضة ، رائعة الجمال ، كما في منطقة سويسرا السكسونية حول نهر إلب Elbe عند مخرجه من كتلة بوهيميا .

وتحوي هذه الجبال على حوض فحمي صغير (حوض زويكَّاو Zwickau) (شكل ٩) وثروة كبيرة من الغابات ، مما أوجد صناعة تعدينية قديمة ، وصناعة زجاج ، وخزف وبورسلان ، بالإضافة إلى صناعة معادن موزعة في سائر المدن . كما اتسعت صناعة النسيج القديمة ، المعتمدة على القوى الكهربائية كثيراً لا سيما صناعة القطن والصوف لا سيما في مدينة كارل ماركس شتاد (قديماً شمينتز) التي تضم ٣٠٠٠٠٠ نسمة .

هكذا تكون الزراعة هامة على الحافة الجبلية فقد دعمت التربة بالأسمدة كي

تعطي محاصيل غذائية للسكان العاملين في الصناعة : جادار ، شوفان ، بطاطا ، بقر حلوب . كما كانت المواصلات ولا زالت كثيفة عند هذه الخافة الجبلية ، وخاصة عند تقاطع طرق تورنج ، مثل (هاله ٣٥٠٠٠٠ نسمة) ، وطريق بوهيميا . وعلى هذا الطريق الأخير ، المفتوح على وادي نهر الإلب Elbe ، تقع العاصمة الفنية والثقافية درسدن ، التي يرتفع عدد سكانها إلى نصف مليون .



الشكل ٩

وأخيراً نجد في قلب هذه المنطقة الجبلية ، مدينة تستفيد من ميزات الجغرافية ، عند أحد أكبر عقد المواصلات الألمانية الوسطى ، وهي مدينة لايبزيغ (٦٠٠ ألف نسمة) ، إذ تتلاقى فيها الطرق البرية والحديدية ، فضلاً عن كونها مركزاً ثقافياً وصناعياً (صناعة معدنية ، نسيج ، طباعة) ومقراً لمعرض سنوي قديم .

وإلى الشمال من ذلك ، أي في السهل السكسوني (نسبة إلى إقليم ساكس) تظهر الحصويات النهرية الجودية الفقيرة ، من جديد ، حيث تغطيها النباتات القصية . ولكنها تكون مستورة في بعض المناطق بغشاء رقيق من اللوس ، مما يمنحها خصوبة رائعة . ونظراً لقلة سماكة الرسوبيات الحديثة فإن باطن الأرض لا يكون بعيداً مما سمح باكتشاف ثروات معدنية مثل : بوتاس ستاسفورت وفحم الليغنيت . ولهذا تكون الصناعة متنوعة من حيث التفاصيل (قاطرات ، مصافي نفط ، معامل جعة) . وتتجاوز الكثافة الكيلومترية ١٥٠ نسمة ، كما تندعم فعالية المنطقة بتقاطع طرق المواصلات التي تفسر وجود مدن كبيرة عديدة مثل : ماغدبورغ (٣,٥ ألف نسمة) . وتقوم هذه المنطقة بتحقيق الاتصال بين السهل البحري الشمالي الكبير مع الكتل الجبلية الصناعية في الوسط والجنوب ، ومع المنطقة التعدينية الكبرى في وستفاليا ، التي يجتازها نهر الراين الذي يقوم بربط ألمانيا الجنوبية مع بحر الشمال .

الطرق الملاحية :

هذا وتنحدر أنهار أوروبا الوسطى نحو بحر الشمال بواسطة نهر الراين ، والويزر والإلب Elbe ونحو بحر البلطيك بواسطة نهر الأودر ، ونحو البحر الأسود بواسطة نهر الدانوب .

فنهر الراين الذي يبلغ طوله ١٣٢٠ كم عبارة عن نهر جبلي في مجراه الألبى حيث تفيض مياهه صيفاً . ثم لا يلبث أن يتحول تدريجياً إلى نهر محيطي ، مع زود شتوي ، ولكنه يحتفظ على مدى العام بصبيب ثابت ، ويؤلف أحد أجود

الطرق الملاحية في العالم ، إذ يعتبر الشريان الكبير في اقتصاد أوروبا الغربية .
أما الدانوب الذي يفوق نهر الراين طولاً ، ٢٩٠٠ كم ، فهو أقل فائدة ، لأنه
يتعرض للافتقار المائي عبر سهول أوروبا الشرقية حيث يستفحل الشح^(١) في
فصل الصيف . وينتهي عند مصبه بدلتا مستنقعية في بحر شبه مغلق هو البحر
الأسود . أما أنهار السهل الألماني مثل ويزر وإلب وأودر ، فهي تسلك قنوات
خلفتها الجوديات قبل أن تدرك بحر الشمال ، أو بحر البلطي . وتفيض هذه
الأنهار في الربيع في أعقاب ذوبان الثلوج فوق الجبال الوسطى . وتتجمد
خلال فصل الشتاء .

شعب ألمانيا والدول الألمانية

١ - تضم أوروبا الوسطى فسيفساء حقيقية من الشعوب : وقد
بلغ حب التوسع الجرمانى حداً جعل الألمان ، في مناسبات عديدة ، يدفعون
بحدودهم لما وراء أراضي الأمم المجاورة .

كما كانت أوروبا الوسطى أيضاً ، عبارة عن نطاق اجتياح لشعوب انتشرت
بعدئذ فوق أجزاء أخرى من أوروبا . فالسليتيون مثلاً قدموا من الشرق باتجاه
الغرب مخترقين الفسحات الغاية الطبيعية . وكانت طرق الهجرات الكبرى هي
التالية :

- في الوسط ، نطاق الأراضي الليونية بين الكتل الهرسينية والسهل الشمالي
المستور بالغابات .

- في الجنوب ، طريق الدانوب الذي يؤدي إلى الحفرة الرينانية .

(١) الشح وتقابل التحاريق في مصر والصيود في العراق أي étiage بالفرنسية و Low water mark بالإنكليزية .

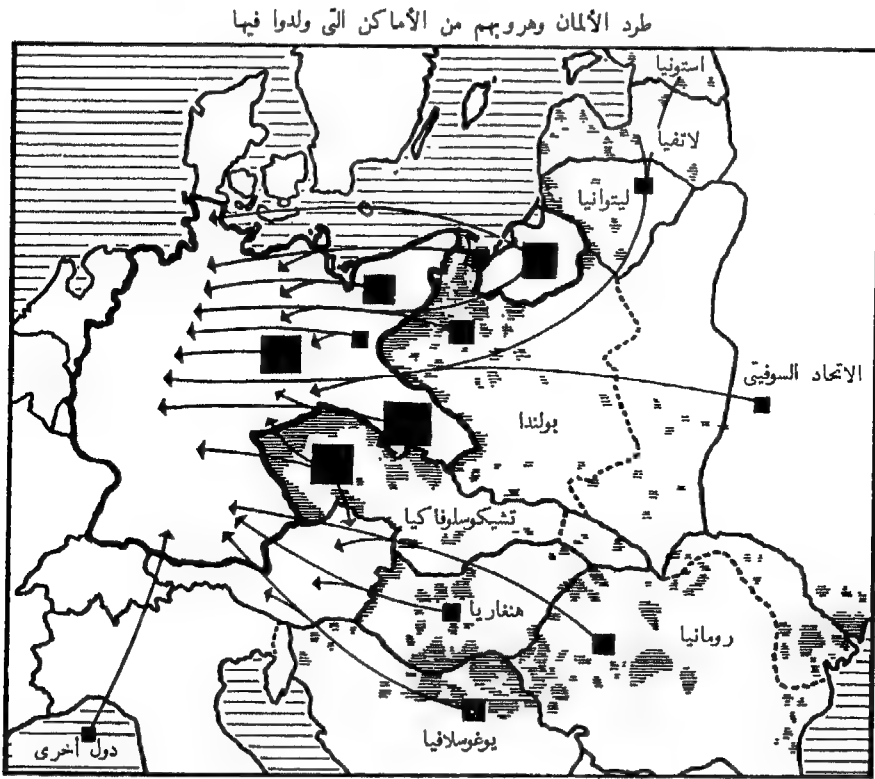
- في الشمال ، قرب بحر الشمال ، حيث يوجد نطاق اللحيات alluvions الساحلية أومارشن . وتؤلف المجموعة اللغوية الجرمانية ٩٥ مليون أهم مجموعة في أوروبا الوسطى ، التي تضم ١٦٢ مليون نسمة . ويأتي بعدهم السلاف (بولونيون ، تشيك ، سلوفاك في الشمال والكروات والسلوفين والصرب في الجنوب) والمجر والرومانيون . وقد تبدلت مواقع هذه الشعوب وحدودها باستمرار خلال التاريخ . وقد كان تكوين الأمم متأخراً جداً بالموازنة مع أوروبا الغربية . كما كان مصحوباً بحروب نشبت بين الجرمان والسلاف والهنگاريين والرومانيين . وكان التوسع الجرمانى أكثر الظواهر التاريخية الحديثة أهمية .

فقد زحف الجرمان الذين يعود أصلهم ، كما يعتقد ، للمناطق الدانمركية والفنلندية ، ببطء باتجاه الغرب . وكان السلتيون ، جيرانهم ، عبارة عن مدربين لهم على مدنية أكثر رقياً ، إذ كان الجرمان من الشعوب البرابرة التي كانت تقطن في خارج تخوم الامبراطورية الرومانية المحصنة limes . فقد كانوا يقيمون بين نهر الإلب والراين قبل أن ينفذوا في القرن الرابع الميلادي على شكل غزاة أو رعايا إلى داخل الامبراطورية . وهكذا خلفوا وراءهم فراغات سرعان ما شغلها السلاف . وياشر الجرمان في القرن العاشر عملية استرداد طويلة استعادوا على إثرها الأقطار التي احتلها السلاف في شرق نهر الإلب . فاستعمر المنقبون عن المعادن الكتل الجبلية الهرسينية . كما سلك المعمرون colons والجنود مجاري الأنهار ، فأقاموا المدن التجارية والقلاع الحصينة عند مفترق الطرق الهامة . وهكذا نتجت الدولة البروسية عن زلق حدود إقليم براندبورغ (منطقة برلين) ، وتوسعت على شكل دولة استعمارية حقيقية أصبحت فيها الروح العسكرية والوظيفية الطابع المميز للعقلية الجرمانية .

وبين ١٨٧٠ و ١٩٤٥ انهمك الألمان في البحث عن الغزو الاقتصادي أو الهيمنة السياسية على حساب شعوب أوروبا الوسطى .

بيد أن الهزيمة الألمانية في آخر الحرب العالمية الثانية قد أدت إلى تغيير الجغرافيا البشرية في أوروبا الوسطى إلى حد كبير :

١ - فقد قام السلاف بطرد الألمان باتجاه الغرب . فانكشت الرقعة الألمانية إلى ٢٥٧٠٠٠ كيلو متر مربع (شكل ١٠) .



الشكل ١٠

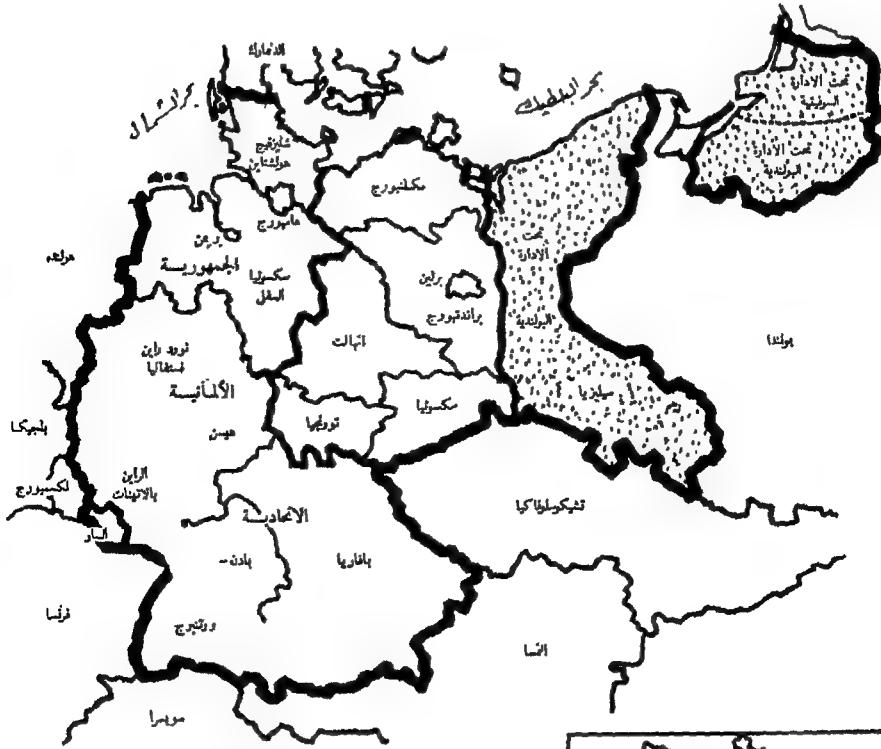
أراضي المستوطنين الألمانية في شرق أوروبا الوسطى

الحدود القومية في ١٩٤٥

الحدود القومية ١٩٣٧

٢ - كما تم إبعاد ملايين الألمان من الأقطار السلافية ، أو هربوا باتجاه ألمانيا كلاجئين .

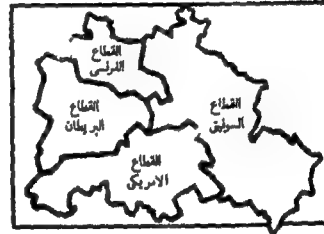
وهكذا تلاشت تقريباً كل الأقليات القومية المتسربة من ماض بعيد إلى داخل شعوب أخرى . وهكذا جعلت هذه الحركة السكانية الواسعة جداً من القوميات المختلفة شعوباً أكثر تجانساً ، بحيث تظهر الحدود اللغوية اليوم غير مختلفة كثيراً عن الحدود السياسية في ألمانيا ، والنمسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وبولونيا وهنغاريا ويوغوسلافيا ورومانيا (شكل ١١) .



حدود ألمانيا قبل وبعد هزيمة ١٩٤٥

الشكل ١١

برلين
برلين الغربية
وبرلين الشرقية



وهكذا خرج بين عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٦ ما يقرب من ٩ ملايين ألماني ، بحيث أصبح السكان الألمان في المناطق الألمانية القديمة قلة نادرة لا يزيد عددهم اليوم عن ٧٨٠ ألف شخص .

٢ - ولا يمثل الشعب الألماني عرقاً بل جماعة قومية تبحث عن حدودها :

فليس هناك من عرق ألماني ، إذ كانت أوروبا الوسطى دائماً عبارة عن ملتقى شعوب امتزجت ببعضها خلال التاريخ . فالألماني الجنوبي يختلف عن الألماني الشمالي . فهو أقصر قامته ، ويميل للسمنة ، ويعتبر الجرمان أكثر العناصر تفوقاً بين الألمان ، فلهم نموذج شمالي اسكاندينافي ، كما يوجد ألمان من أصل لاتيني في المناطق الراينانية ، أو على الأقل من الغالين الجرمان . أما البروسيون الذين يعتبرون من أعرق الألمان فيعودون لأصل اختلط فيه الجرمان والروس البيض .

هذا ويؤلف الألمان مجموعة ذات ملامح نفسية وخلقية شديدة الوضوح . ولكن شخصية الألماني كفرد ، تبدو أحياناً عسيرة التمييز ، لأنها تتمثل بالشعر والغناء والموسيقى . ولكنها تتخذ صورة دقيقة بالتجمع وفي الإطارات الاجتماعية والقومية . فالألمان يميلون نحو التعاون والتجمع ، واحترام التسلسل الاجتماعي والسياسي ، وحب التنظيم ، والعلم ، والبحث . وقد أظهر الألمان بعد أن اندمجوا في جماعة قومية ، أي في امبراطورية (الرايخ) ، أسلوباً موحداً في العاطفة والإحساس بنوع من سمو صاحبه ميل للمبالغة والإفراط . غير أن ألمانيا أعطت للعالم حكمة غوته وشمولية كانت Kant .

ويظهر الشعب الألماني فوق الخارطة وكأنه مستقبل مستديم . فليس لألمانيا مركز مثل باريس بالنسبة لفرنسا أو موسكو بالنسبة للروس . فهي دولة قارية أكثر منها بحرية ، إذ لم تستطع أن تحصل في يوم من الأيام على منفذ يطل على

موانئ بحر الشمال الكبرى ، مثل آنفرس وروتدام التي تعتبر رئة المناطق
الريمانية . ونظراً لوقوعها على محاور المواصلات الكبرى التي تصل أوروبا
الشرقية بالغربية فهي تبدو وكأنها تبحث عن حدودها ، سواء في الغرب أم في
الشرق ، أي على حساب السلاف أو سكان الأقطار الدانوبية .

- ومن وجهة النظر التاريخية ، فقد حقق الألمان قيام ثلاث امبراطوريات ،
هي الامبراطورية الجرمانية في العصر الوسيط ، والريخ البسماركي الذي تكون في
النصف الثاني من القرن الماضي ، وأخيراً الرايخ الهتلري الذي كانت تحرضه
نظريات عرقية ، والذي كان نهياً في تحقيق « المجال الحيوي » والهينة ، مما أدى
بألمانيا لكارثة ١٩٤٥ .

٣ - وقد عانت ألمانيا من تنازع الحلفاء فتمزقت . فهناك اليوم
دولتان ألمانيتان ، أو « نسران بلا رأس » :

- فقد أدت هزيمة عام ١٩٤٥ إلى انكماش ألمانيا على مساحة قدرها
٣٥٧.٠٠٠ كم^٢ ، أي خسرت مساحة قدرها ١١٤.٠٠٠ كيلو متر مربع . فأصبحت
مدينة كونيغسبرغ (كالينينغراد) والأراضي المجاورة ١٢.٠٠٠ كم^٢ ملحقة بالاتحاد
السوفييتي ، كما خسرت مناطق شرقية أخرى مثل سيليزيا وبوميرانيا وجنوبي
بروسيا الشرقية التي اندمجت في بولونيا . وأصبح نهر الأودر ورافده نهر نيسي
Neisse تحملاً لألمانيا الحالية ، أي حرمت من المناطق التي استعمرتها بعد القرن
الرابع عشر .

- كما أن الوحدة السياسية ، التي حققتها متأخرة ، بعد ١٨٧١ ، قد تلاشت .
فقد جزئت ألمانيا اعتبارياً إلى عدة مناطق في أعقاب النزاع الكبير بين الحلفاء
(مؤتمر موسكو ١٩٤٧) .

- فهناك ألمانيا الغربية أو الاتحادية ، ومساحتها ٢٤٨.٤٥٤ كم^٢ (٦٢

مليون نسمة) وعاصمتها بون الواقعة على نهر الراين ، وهي منطقة سكنها الجرمان منذ عهد طويل ، وذات اقتصاد ليبرالي أو رأسمالي ، ضمت إليها منطقة السار سنة ١٩٥٧ في أعقاب استفتاء .

- ألمانيا الشرقية ، أو الجمهورية الديمقراطية ١٠٨٠٠٠ كم^٢ (١٧,٥ مليون نسمة) ، وهي منطقة سلافية قديمة ، استعمرها الجرمان بين العهد الكارولنجي والقرن السادس عشر ، وتمتع ببنية اشتراكية على غرار الديمقراطيات الشعبية في أوروبا الشرقية .

- مدينة برلين الغربية ٤٨٠ كم^٢ وفيها ٢,٤ ملايين نسمة ، وتنقسم إلى جزئين هما صورة مصغرة من ألمانيا الغربية والشرقية . فالقسم الغربي عبارة عن جيب من ألمانيا الاتحادية ، في حين أن القسم الشرقي يشكل عاصمة جمهورية ألمانيا الديمقراطية حيث تبلغ الكثافة فيها ٤٥٠ نسمة في الكيلومتر مربع .

ولم تحصل ألمانيا حتى اليوم على معاهدة صلح يمنحها كياناً نهائياً . فلا زال الحلفاء من وجهة النظر القانونية سادة في هذا البلد المغلوب والممزق .

٤ - تضم دولتا ألمانيا ، فوق أرضهما الصغيرة الرقعة ، سكاناً متكاثفين ، فضلاً عن اللاجئين العديدين .

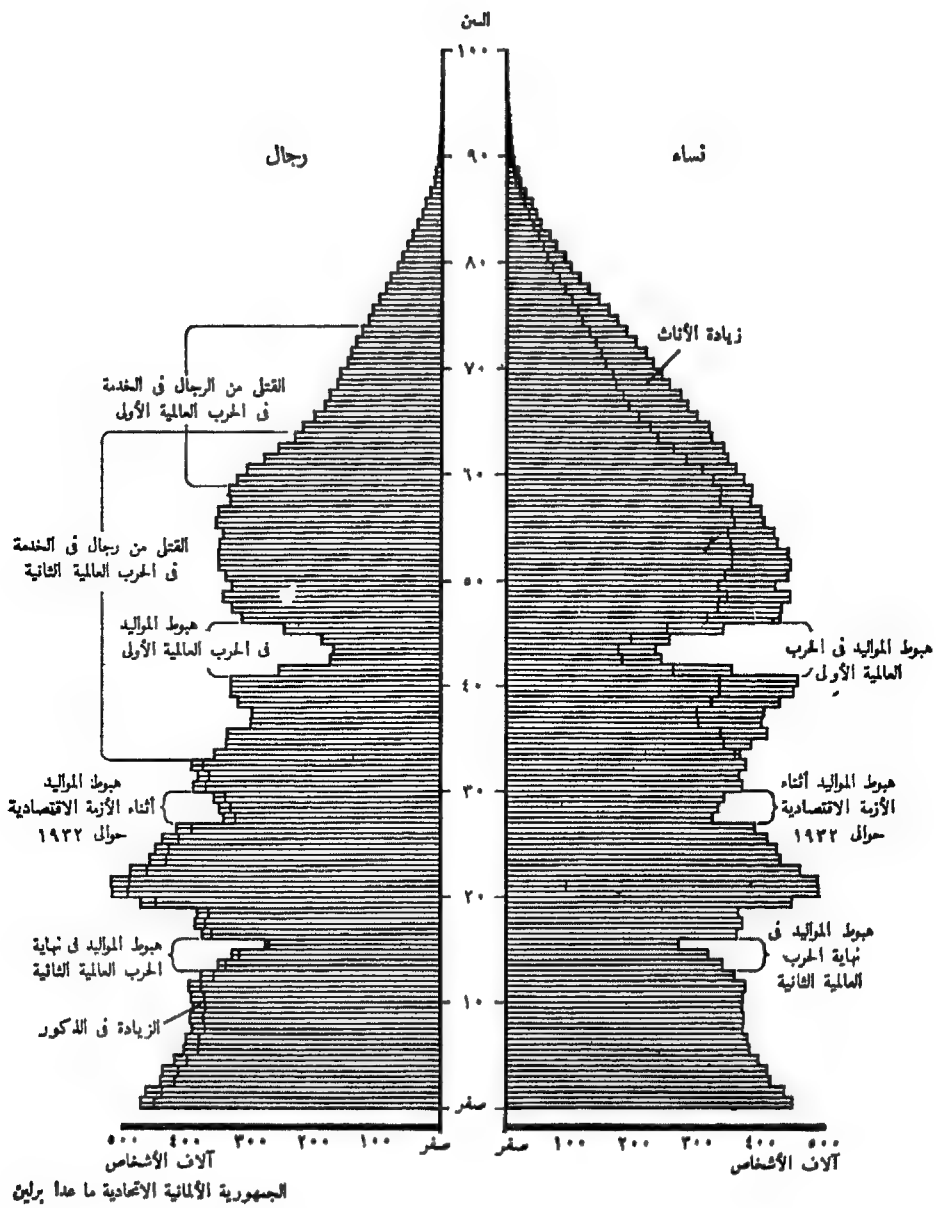
فقد ازداد تعداد الشعب الألماني بسرعة بعد تحقيق الوحدة سنة ١٨٧١ . وتدين ألمانيا المعاصرة ، في قوتها الاقتصادية وفي قوتها العسكرية ، ولحد كبير ، لاتصاف شعبها بالخصب الديموغرافي . ولنضف إلى ذلك أن هناك أقليات ألمانية قوية في البرازيل الجنوبية ، وفي الأرجنتين والشيلي كما أن الألمان ساهم لحد كبير في تكوين الشعب الأمريكي . ففي أمريكا ٢٥ مليون ينحدرون من أصل ألماني منهم ٢٠ مليون في الولايات المتحدة .

فقد كانت ألمانيا تضم عام ١٨٧١ (بما فيها الألزاس واللورين) ٤٠ مليون نسمة بينما كانت فرنسا تحتوي حينذاك على ٣٨ مليون . وفي ١٩١٣ كان عدد السكان ٦٥ مليوناً ، أي أكثر من عدد سكان فرنسا بمرة ونصف . وبعد تقليص مساحتها إلى ٤٧٠.٠٠٠ كم^٢ بعد معاهدة فرساي عام ١٩١٩ كان لا يزال فيها ٦٧ مليون نسمة في عام ١٩٣٧ . وإذا كان انكسار عام ١٩٤٥ قد أدى لانكماش رقعة مساحتها مرة أخرى فإن عدد السكان في دولتي ألمانيا كان كبيراً أي ٨٠ مليون ، والكثافة تزيد عن ٢٠٠ شخص في الكم^٢ .

من الصحيح القول أن ألمانيا خسرت أكثر من ٦ ملايين نسمة خلال الحرب العالمية الثانية ، منهم ٤ ملايين من العسكريين . وبذلك فقدت جزءاً كبيراً من فئات القادرين على العمل .

وأصبح العنصر النسائي أكبر بكثير من فئات الذكور . ففي ألمانيا الغربية لوحدها فائض من النساء مقداره مليونان . كما أصبحت نسبة المواليد ضعيفة لانتجاوز ١٨ بالآلف في ١٩٦٥ وهبطت إلى ١٠ بالآلف مقابل ١٢ بالآلف للوفيات أي أن الشعب الألماني في تناقص غير أن هذه الخسائر المربعة قد تعوضت بتدفق ١٣ مليون لاجئ تقريباً طردوا من المناطق الشرقية التي ضمت إلى بولونيا ، وبوهيميا ، وهنغاريا ويوغوسلافيا ورومانيا . فقد كان الألمان يؤلفون في أوروبا الشرقية والدانوبية جاليات احتفظت بطابعها القومي . وبعودتهم إلى وطنهم ، أوجدوا مشاكل عسيرة ، بسبب عددهم ، لاسيما قضايا السكن ، والتشغيل ، استطاع الألمان حلها بنجاح ، وهناك مجال للتساؤل فيما إذا كان طرد هؤلاء الألمان قد سبب لأوروبا الوسطى أضراراً تآثل تلك التي عانتها فرنسا بعد نفي البروتستان منها أو التي أصيبت بها إسبانيا بعد طرد العرب قسراً (شكل ١٢) .

هذا وقد أصبح السكان متكاثفين في كل المناطق ، وحتى في المناطق الجبلية مثل الغابة السوداء ، وهارز ، وغابة تورنج . وحيثما عجزت الزراعة عن التغلب على الأراضي الفقيرة ، فإن الصناعة قامت كي تجتذب السكان . وأقل المناطق سكاناً هي الأراضي المستنقعية ، وميادين التورب الواقعة في سهل الشمال الكبير . وتصل الكثافة إلى أكثر من ٢٥٠ نسمة في الكيلومتر المربع في حوض نهر الراين وفي المنطقة الممتدة من وستفاليا في الغرب حتى إقليم الساكس بالشرق ، وفي نطاق الهامش الساحلي .



هرم أعداد السكان في ألمانيا الاتحادية في ١٩٦٥

٥ - الحياة الريفية والحضارة العمرانية

تشتمل ألمانيا على عدة نماذج من القرى نتجت عن عدة مراحل من إعمار الأرض . ويعتقد الباحثون أن الفلاحين قد أخذوا في البداية ، بزراعة السهوب والغابات المفتوحة . فتميز القرى المتكتلة ذات الحقول الشريطية مناطق تربة اللوس المتجانسة التي خضعت للزراعة قبل سواها ، أما في المناطق الدانوبية وفي بافاريا والغابة السوداء فتكون الدساكر ذات بيوت منعزلة مما يدل على إعمار أقل قدماً . وتصبح المساكن مبعثرة تماماً فوق ترب البودزول في السهل الشمالي الكبير الواقع غرب نهر إلب ، وهذه تشهد على استيطان فردي فوق الأرض ، وإلى الشرق من نهر الإلب تصبح القرى التي تعود لما قبل القرن الثاني عشر نادرة ، وتتخذ القرى شكلاً خطياً ممتدة على طول الطرق التي تمت حولها عملية كسر الأرض (أي استزراعها لأول مرة) ، فنجد قرى بجوار المستنقعات ، وقرى دفاعية ذات شكل دائري . كما تدل قرى كبار الإقطاعيين البروسيين على مناطق أعمرت حديثاً .

هذا كما تبدو شبكة المدن قديمة جداً ، فنذ العصر الروماني ، ولاسيما منذ مطلع العصر الوسيط ، كانت أوروبا الوسطى تشتمل على مدن محصنة ومدن تجارة ، وخاصة مدن الجسور المرتبطة بالملاحة النهرية أو الطرق البرية ، أي مدن نجمت عن إعمار أوروبا واستيطانها باتجاه الشرق ، وقد تحول بعضها إلى مدن حرة كانت عبارة عن دويلات مستقلة حقيقية . كما أن مدناً أخرى مثل كالسروهة وفايمار أو بون حازت على أهمية خاصة بصفقتها عواصم أمارات ، أو نواب أو كمدن جامعية . هذا كما حافظ التصنيع على حيوية شبكة من مدن صغرى ووسطى خلال النصف الثاني من القرن الماضي . غير أنه عمل على تورم مراكز تجارية قديمة مثل كولونيا ، وبعض العواصم الإقليمية شأن درسدن ومونيخ

(مونشن بالأماني) . كما بعث مدناً منجمية ، لم تكن معروفة ، ومراكز نشيطة بالصناعات الكيماوية المعدنية مثل ايسن Essen . وبعد أن كانت مدينة دورتموند ولودفيغهافن ، ودوسلدروف ، لاتضم كل منها سوى ١٠٠٠٠ نسمة في سنة ١٨٠٠ ، أصبحت كل منها تحوي أكثر من المليون من السكان .

وقد تهدمت مدن عديدة خلال الحرب العالمية الثانية بفعل القنابل ، ولكن أعيد بناء الأحياء المتخرّبة بسرعة ، سواء بإعادة طابعها السابق ، أو عن طريق اتباع هندسة عمرانية وظيفية . وهكذا حلت عمارات واسعة مكعبة ، تضم مكاتب الشركات الكبرى ومخازن التجارة ، مكان أحياء تعود للعصر الوسيط في فرانكفورت حول الكاتدرائية وقصر رومر حيث كان يتم انتخاب الأباطرة . كما قامت عمارات شاهقة جعلت من قلب مدينة دوسلدورف مدينة تماثل مدن الولايات المتحدة . أما بناء مدينة هانوفر فقد أصبح أكثر تواضعاً واعتدالاً .

ويقطن تسعة أعشار الألمان في المدن . ويمكننا اعتبار إقليم الروور كمنطقة حضرية بحتة ، إذ تضم ٧ ملايين نسمة فوق مساحة تقل عن مساحة لبنان ، لأن مساحة الروور لاتتعدى ٨٣٠٠ كم^٢ ، أي أن الكثافة تزيد هنا عن ٨٤٣ شخص في كل كيلومتر مربع ، ويقطنون جميعاً في مدن متقاربة يزيد تعداد كل منها عن ١٠٠ ألف نسمة . وتحوي ألمانيا على ثلاث مدن يزيد سكان كل منها عن المليون ونصف وهي برلين وهامبورغ ومونيخ . وفي ألمانيا ٢٠ مدينة تحوي كل منها على أكثر من ٣٠٠٠٠٠ نسمة تعتبر كل منها ، من وجهة النظر الاقتصادية ، عاصمة إقليمية .

وإجمالاً كان في ألمانيا الغربية عام ١٩٨٢ (٣) مدن فيها أكثر من مليون و ٨ مدن يتراوح سكانها بين نصف مليون ومليون و ٤٥ مدينة تضم بين ١٠٠ ألف ونصف مليون ، أي أن مجموع المدن التي يتجاوز سكانها ١٠٠ ألف نسمة بلغ ٥٦ مدينة .

المدن الألمانية التي يزيد سكانها عن ٤٠٠ ألف نسمة

٥٨٦٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠	شتوتغارت	برلين الغربية
٥٦٦٠٠٠	١١١٢٠٠٠	لايبزيغ	برلين الشرقية
٥٤٣٠٠٠	١٧٠٠٠٠٠	هانوفر	هامبورغ
٥٦٤٠٠٠	١٣١٤٠٠٠	بريمن	ميونيخ
٥٧٤٠٠٠	٩٨٠٠٠٠	دويسبورغ	كولونيا
٥١٢٠٠٠	٦٦٥٠٠٠	درسدن	ايسن
٤٩٠٠٠٠	٦٠٨٠٠٠	نورمبرغ	دوسلدورف
٤٩٠٠٠٠	٦٣٣٠٠٠	ووبرتال	فرنكفورت نهر الماين
	٦١٨٠٠٠		دورتموند

٦ - حيوية الدولتين الألمانيةيتين :

لقد أصبحت دولتا ألمانيا ، بعد بضعة أعوام من انتهاء الحرب ، قوتين اقتصاديتين ، تحرضها ديناميكية رائعة ، قل أن نجد بالتاريخ أمثلة مشابهة لها . فبعد أن كانت ألمانيا دولة مقهورة ، ومقسمة ، وبعد أن انضم شطر منها إلى « المنظومة الغربية » من جهة ، واندمج الثاني في « المنظومة الاشتراكية » من ناحية أخرى ، إذ بها تنهض بسرعة مثل الكرة التي لا ترتطم بالأرض إلا لترتفع لأكثر من مستواها الأولي .

ففي عام ١٩٤٥ احتل الحلفاء ألمانيا واقتطعت منها مناطق واسعة في الشرق ، كما فقدت مؤقتاً إقليم السار بالغرب . وبذلك خسرت ألمانيا حوضي الفحم الشهيرين أي حوض سيليزيا العليا والسار ، فضلاً عن أقاليم زراعة كانت توفر الغذاء للمناطق الصناعية . وظهر الألمان وكأنهم لا يتألفون إلا من الأطفال والنساء والكهول فكان في ألمانيا عام ١٩٦١ (١١١٧) امرأة مقابل كل ١٠٠٠ رجل ، كما أن عدد اللاجئين الضخم قد رفع من تعداد العاطلين عن العمل . وكان التهديم الذي لحق بالملوكات مذهلاً . فقد تدمر ٥٣ ٪ من مساكن مدينة هامبورغ مثلاً . وتخرب ٦٤ ملايين مسكن من مجموع ١٦ مليون . وكان الدين العام هائلاً والرصيد النقدي منعماً . غير أن التدمير بفعل الطائرات لم ينل القدرة

الصناعية بشكل خطير ، إذ لم يتخرب سوى ١٠ ٪ من المؤسسات الصناعية و ٢٠ ٪ من المعامل النسيجية . ونصت اتفاقيات بوتسدام عام ١٩٤٥ على معاملة ألمانيا « كوحدة اقتصادية » بشرط نزع السلاح منها ، كما حرمت من إنتاج الصناعات ذات الهدف الاستراتيجي كصناعة الفولاذ التي تقن إنتاجها . كما تم تفكيك معامل السلاح التي استحوذ عليها الحلفاء . كما نصت اتفاقيات بوتسدام على تدمير القدرة الصناعية الألمانية وفرض غرامات تدفعها للحلفاء . أي بكلمة موجزة أصبحت ألمانيا معدمة .

ولكن أصبح العالم اليوم يعجب « بمعجزة » دولتي ألمانيا الاقتصادية ، أي معجزة في الغرب ، وأخرى في الشرق .

- فألمانيا الغربية الرأسمالية تبدو اليوم أكثر أقطار أوروبا الغربية ازدهاراً ، وأول دولة في السوق الأوروبية المشتركة ، لدرجة أصبحت تلقب « بأوروبا العمليات الاقتصادية والتروستات » . وهكذا نجد أن استثماراتها الاقتصادية التي تبلغ ٧٤٠ دولار للفرد بالعام (مقابل ٣٨٠ في فرنسا و ٣٠٠ في بريطانيا) تسمح لها بأن تسارع في تقدمها السنوي . كما ازداد الدخل القومي بمقدار ٥١ ٪ بين ١٩٥٨ و ١٩٦٣ . ويتراكم فيها القطع النادر نتيجة صادراتها الهائلة ، فبلغت موجودات البنوك من الذهب والعملية الصعبة أكثر من ٤٠ مليار مارك في ١٩٦٨ . وأصبحت سوية المعيشة فيها مرتفعة مما زاد الطلب على السلع الاستهلاكية ، إذ زاد استهلاك الورق فيها بين ١٩٥٠ و ١٩٥٩ من ١,٦ مليون طن إلى ٣,٨ مليون . وفي ١٩٦١ كان الدخل القومي يزداد سنوياً بمعدل ٧,٣ ٪ مقابل ٣,٢ في الولايات المتحدة مع أن تزايد السكان فيها كان لا يزيد عن ١ ٪ بالسنة . وبين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٦١ ارتفع الاستهلاك فيها بحوالي ٣ أمثال . ويزيد عدد البيوت الجديدة في كل القرى والمدن عن عدد المساكن التي تعود لما قبل الحرب .

- أما ألمانيا الشرقية الاشتراكية فقد راحت تنشر في معرض لايزيغ أنواعاً عديدة من المنتجات الاستهلاكية والصناعية بحيث أصبحت أكبر الدول المصدرة لمثل هذه المصنوعات بين الديمقراطيات الشعبية ، وقامت فيها صناعة ثقيلة من

العدم ، لدرجة أن دول أوروبا الغربية أصبحت تعتبر ألمانيا الشرقية الحصن الطبيعي أو « حربة الرمح » الشيوعية الموجهة نحو الغرب . كما أن ازدياد الإنتاج أخذ يسمح بنوع من تحسين في سوية معيشة الألمان الشرقيين .

بيد أن الطموح للوحدة لازال قائماً على طرفي حدود ١٩٤٥ . فالمشاهد الجغرافية التي كيّفها الإعمار القديم للأرض ، لاتزال كما هي سواء في ألمانيا الوسطى أو الشمالية والتي توزعت بين دولتي ألمانيا .

كما يبدو تقسيم برلين غريباً كما لو جزئت دمشق حسب خط يمر من شارع الميدان حتى نهاية المهاجرين ماراً بمجادة الصالحية .

بيد أن أكثر الحدود اعتبارية قد تجعل من شعب واحد أمتين غير متجانستين بسبب اختلاف التربية والمناخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي فيهما . فالتخم الذي يفصل ألمانيا الغربية عن شقيقتها الشرقية يشهد على تفوق الإنسان على الطبيعة وعلى التاريخ .

ألمانيا الاتحادية

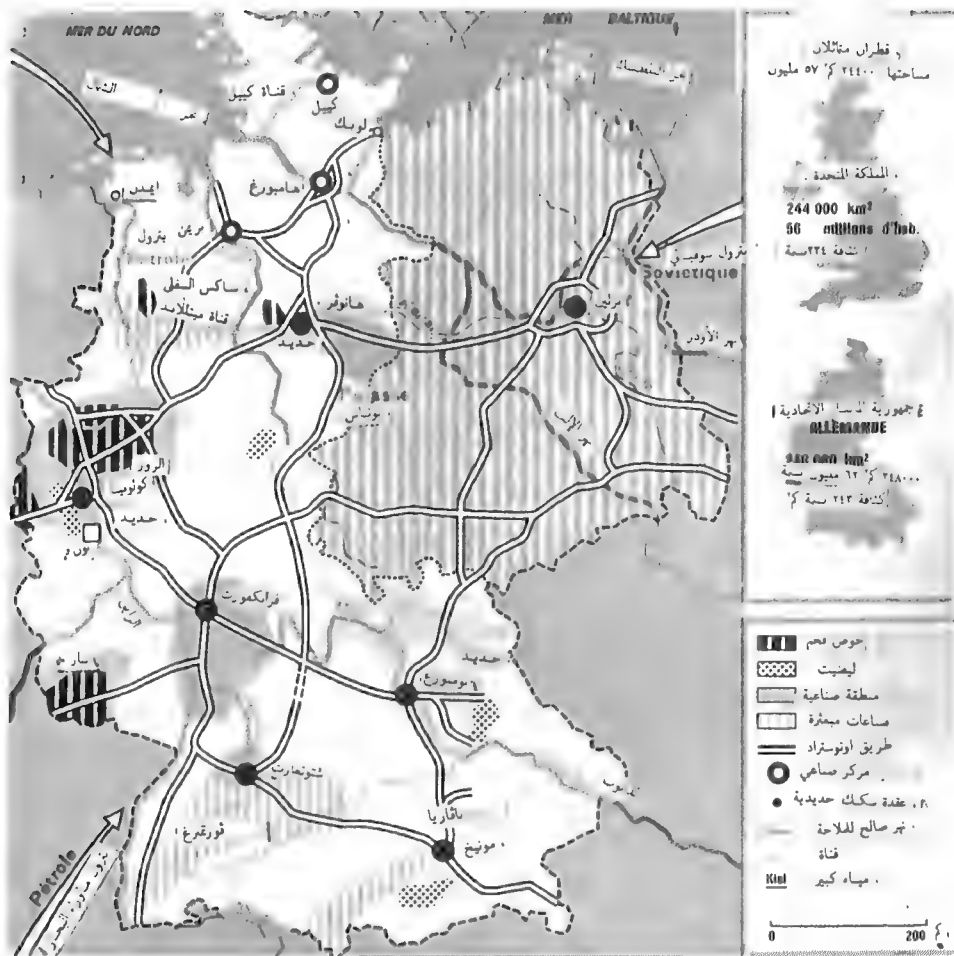
تعتبر ألمانيا الاتحادية أكثر أهمية من سائر النواحي من أختها الشرقية . إذ تبلغ مساحتها ، مع برلين الغربية ، ٢٤٨٥٢٨ كم^٢ ، وارتفع عدد سكانها إلى ٦١,٣ مليوناً في أواسط ١٩٧٩ وتبلغ كثافة السكان فيها ٢٤٦ نسمة . ونظراً لوقوعها غربي نهر الإلب ، فهي تملك في المناطق الرينانية مركز الثقل الاقتصادي والديموغرافي والثقافي للمجموعة الجرمانية .

وتماثل ألمانيا الاتحادية ، من حيث النظر إلى مساحتها وعدد سكانها ، المملكة المتحدة (شكل ١٣) ، غير أن حيويتها الاقتصادية أكبر بكثير . فقد استطاعت إعادة بناء الاقتصاد الألماني وتوفير لسكانها ، فوق مساحة متقلصة جداً ، رخاء لم يعهدوه في تاريخهم .

أولاً - كيان ألمانيا الغربية

تتألف ألمانيا الغربية من اتحاد أقاليم تتخذ بون عاصمة لها .

فقد ولدت ألمانيا الغربية من اندماج مناطق الاحتلال الأميركية والإنكليزية ، والفرنسية ، وكان تفكير المحتلين ولاسيما الأميركيين يرمي إلى جعل المناطق الغربية الثلاث سداً في وجه السوفييات ، وهكذا تخلى الحلفاء تدريجياً عن تفكيك المعامل ونقلها لبلادهم . فسمحوا لمناطق احتلالهم بأن تؤلف دولة ذات سيادة تقريباً ، ثم اعتبروها شريكاً وأخيراً حليفاً .



الاقتصاد الصناعي في ألمانيا الغربية

الشكل ١٣

وقد جعل دستور ١٩٤٩ من ألمانيا الغربية اتحاداً من مناطق :

بادن - فورتمبورغ ، راينانيا - بالاتينا ، راينانيا - فستفاليا ، هس ، ساكس السفلى ، شلزيغ هولشتاين ، برين ، هامبورغ ، التي ضمت إليها ولاية السار في عام ١٩٥٧ في أعقاب استفتاء . ولكل من هذه الأقاليم برلمانها ، ووزرائه المكلفون بالشؤون المحلية . وتمنح ألمانيا الاتحادية المركزية التقاليد الاتحادية العزيزة على بعض الولايات مثل بافاريا ، وبلدن حرة مثل برين وهامبورغ ، وقد اختارت عاصمة لها مدينة سكونية وجامعية صغيرة واقعة على حافة نهر الراين الغربية هي بون (٣٥٠٠٠٠ نسمة) .

- هذا وتحتل ألمانيا الغربية مساحة تعادل نصف مساحة ألمانيا عام ١٩٣٨ . وبعد أن تجزأت بشكل غريب اتخذت شكلاً متطاولاً بين الجنوب والشمال يمتد على ٨٠٠ كم ، أي من جبال الألب حتى بحر الشمال ، وتضيق حتى لا يزيد عرضها أحياناً من الشرق للغرب عن ٣٠٠ كم بين فرنسا وإقليم تورنج . وبينما تكون حدودها الشمالية على عرض مدينة موسكو ، إذ يحدودها الجنوبية تهبط لعرض مماثل لضاف البحر الأسود الشمالية . وهكذا تجمع ألمانيا الاتحادية كل مشاهد أوروبا الوسطى ، فتضم جبال الألب العليا إلى جبال وأحواض العالم الهرسيني ، وإلى السهل الشمالي الكبير المفتوح على بحر الشمال والبلطي . وبينما يكون المناخ تحت تأثير المحيط الأطلسي بالشمال ، يصبح قارياً بالجنوب ، وأكثر قساوة شتاء ، وأكثر تشمساً صيفاً . ويوجه كل من نهر الراين والإلب محاور المواصلات الكبرى باتجاه الشمال ، بذلك يكون كل من ميناء هامبورغ وروتردام الهولندي المنفذ الطبيعي لألمانيا الغربية ، لأن للواجهة الضيقة المشرفة على البحر البلطي أهمية تجارية ضئيلة .

- مشكلة اللاجئين واندماجهم : لقد نجحت ألمانيا الغربية في دمج ١٣ مليون لاجئ أو مبعد ، منهم ٣ ملايين قدموا من ألمانيا الشرقية ، ويؤلف هؤلاء

قراية ربع الشعب الألماني في دولة كانت غاصة بالسكان قبل قدومهم . فقد تألم هؤلاء كثيراً بعد مغادرتهم أوروبا الدانوبية وبولونيا أو ألمانيا الشرقية . وقد تم إسكانهم بالبدا في الخيمات ، وفي القرى القديمة أو في بيوت ريفية شيدت خصيصاً لهم . وأخذت الدولة على عاتقها أمر معيشة الذين كانوا عاجزين عن العمل . ولم ينجح أكثر الفلاحين في أن يصبحوا ملاكين لمزارع جديدة . ونزح الكثير من اللاجئين نحو المدن أو نحو المصانع التي كانت في أمس الحاجة للأيدي العاملة . وبعد وقت وجيز أصبح كلهم تقريباً يقيمون في منازل لائقة واندمجوا في مجتمع الجديد ، ضمن قطر خبرته الحرب ، كان يتكفل بمعيشة ٦ ملايين عاطل عن العمل سنة ١٩٥٢ .

وقد كانت هذه المعجزة الأولى ممكنة بفضل تضامن الشعب الألماني ، الذي ارتضى باقتسام الأعباء ، وأيضاً بفضل التكوين الثقافي والمهني لدى اللاجئين ومرونتهم . وهكذا شكلت هذه الطبقة الكادحة الضخمة المؤلفة من الوافدين ثروة اقتصادية أكثر منها عبئاً ثقيلاً .

وبذلك ازدادت قدرة ألمانيا الاتحادية اقتصادياً ، لأنها تضم اليوم عمالاً أكثر مما كان لمجموع ألمانيا سنة ١٩٣٩ . إذ أمكن إيجاد مجالات عمل جديدة لستة ملايين شخص منذ ١٩٥٠ رغم تناقص عدد العاملين في القطاع الزراعي ، بحيث يمكن القول أن الاندماج قد أصبح ناجزاً بعد ٢٠ عاماً من النزوح ، فتلاشى حزب اللاجئين ، كما كثرت أعداد الزيجات بين السكان القدامى وبين الوافدين الجدد أو بين أبنائهم . كما أدى ذلك الاختلاط إلى مخض في المذاهب لدرجة أن الحواجز بين البروتستان والكاثوليك قد غدت أقل وضوحاً من الماضي . كما أن كثيراً من الألمان الشرقيين الذين سبق لهم أن حصلوا على تعليم مهني طيب ، قد وفروا لألمانيا الغربية أيد عاملة جاهزة تنال أجراً عالياً ، إلى أن تم بناء جدار برلين فتوقفت عمليات الهروب تقريباً ولا سيما بسبب ارتفاع الأجور ذاتها في ألمانيا الشرقية .

- ألمانيا الغربية تصبح امبراطورية صناعية جرمانية : لقد كان ١٠٠٠٠ شخص يعالجون ، سنة ١٩٤٦ ، في مستشفى مدينة دوسلدورف بسبب أمراض ناجمة عن الجوع ، كما أصيب ١٠٠٠٠٠٠ نسمة في مدينة هامبورغ بمرض أديما Oedème الجوع . ولكن في سنة ١٩٥٢ اضطر المسؤولون الإداريون في مجلس دوسلدورف التشريعي ، إلى استبدال الكراسي بمقاعد أكثر عرضاً . . . إذ ارتفعت نسبة الإنتاج الصناعي بمعدل ٢٠٣ بالمائة بين ١٩٥٠ و ١٩٦٤ (مقابل ١٤٧٪ في فرنسا ، و ٧٧٪ في الولايات المتحدة و ٥٤٪ في بريطانيا) وتعتبر هذه النسبة من أكبر مثيلاتها في العالم . وأصبحت ألمانيا الغربية في عدد قليل من السنين أول دولة اقتصادية ومالية في أوروبا ، وثالث قوة اقتصادية بالعالم ، بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وقبل بريطانيا إلى أن حلت اليابان مكانها . وقد أفلحت جمهورية بون في بعث القوة الاقتصادية والألمانية لدى الطبقات الثرية ، أي أن ألمانيا الغربية هي دولة بوجوازية وامتداد لألمانيا السابقة .

ويمكن تفسير هذه المعجزة الألمانية الثانية بالعوامل التالية :

- حيوية الرأسمالية فيها .
- العون الأجنبي .
- السياسة الاقتصادية التي اتبعتها الحكومة الاتحادية .

- وقد تمت النهضة أولاً بتأثير الإصلاح النقدي في ١٩ حزيران ١٩٤٩ ، الذي خصم ٩٣,٥٪ من قيمة الأوراق النقدية وحسابات المصارف . وأوجدت ماركاً جديداً سرعان ما وثق به الجمهور . وخرجت المخزونات سريعاً من عنابرها وظهرت في مخازن البيع وفرة مفاجئة في السلع . وعاد الجمهور لشراء البضائع من جديد . وبعد أن كان الناس يصطفون أمام المخازن على شكل طوابير منتظمة في ١٩ حزيران ١٩٤٩ راح الحجازون يرسلون الحزب الممتاز لمنازل زبائنهم . وتبدل

المناخ المعنوي فقد احتفظت ألمانيا بثرواتها الفحمية ، وبتنظيمها التجاري والمصرفي الرائع ، وبشبكة مواصلاتها البديعة .

واستطاع جهازها الإنتاجي الذي لم يتضرر كثيراً من الحرب ، أن يحقق أرباحاً مرتفعة في سوق لا يزال بعيداً عن الإشباع . وانكب الألمان على العمل كي يخرجوا من المحنة . وعاد أرباب العمل الانضباطيون لتكوين الشركات الكبرى (كارتل) ، كما أن العمال ، الذين لا يقلون انضباطاً أيضاً ، أجلوا مطالبهم الاجتماعية . وهكذا أظهر الجميع تنظيمياً في المجهود جعل المراقبين يقولون : إن الألمان يعيشون لكي يعملوا ، وأنهم يحبون العمل للعمل .

كما كان الانبعاث الاقتصادي مدفوعاً أيضاً بفعل الإنكلوسكسون ، الذين كانوا يأملون في أن يروا منطقتي احتلالهم قادرتين على تصدير المواد المصنوعة كي تستطيع استيراد المواد الغذائية التي كانت بحاجة إليها ، وعوضاً عن أن يقدم الإنكليز ، ولا سيما الأميركيان ، الغذاء للألمان بالمجان فقد عملوا على مساعدتهم كي يخرجوا من البؤس . فألغوا الأوامر التي كانت تحد من الإنتاج الصناعي ، وردوا أخيراً المناجم والمصانع لأصحابها السابقين . كما ساعد العون المالي الأمريكي الألمان على شراء وتجديد معاملهم . هذا ودخل الرأسمال الأجنبي في كثير من الشركات الكبرى وأقيمت فروع لشركات (فسورد ، جنرال موتورز تحت أسماء سيارات وطنية مثل أوبل وتاونوس) . وظهرت ألمانيا كبلد أمين بالنسبة لرؤوس الأموال منذ أن ظهر الإصلاح السياسي مصحوباً بنهضة اقتصادية .

- وتفسر المعجزة الألمانية أخيراً بالاستقرار السياسي والاجتماعي ، وبالسياسة الاقتصادية التي اتبعتها الحكومة الاتحادية ، وكان الاقتصاد الاجتماعي للسوق الذي تبناه المستشار (ارهارد) عبارة عن ليبرالية جديدة تؤمن الرخاء للجميع . وكان همّ الحكام خلق سوق متنافس ، متحرر من المراقبة ومن الاحتكارات الخاصة أيضاً ، بحيث تتولد الوثبة الاقتصادية من المنافسة الحرة ومن حب الكسب .

وقد سمح تكديس رؤوس الأموال بتحقيق توظيفات (استثمارات) منتجة ، استفاد منها كل عناصر المجتمع . وهكذا أعقب اقتصاد الاستهلاك اقتصاد الإنتاج . ونشأت رأسمالية شعبية ، وألغى تأمين بعض الشركات ، مثل فولفسفاغن ، وبيعت أسهمها للجمهور وللعمال الذين راحوا يهتمون بحسن سير العمل ونجاعته .

ولم تقف الدولة موقفاً سلبياً فقد كفلت استقرار العملة . وشجعت أيضاً على توظيف الأموال ، والاستقراض ، وتحديث المؤسسات الصناعية . فانضمت برغبة إلى المجموعة الأوروبية للفحم والفولاذ ، وبعدها انضمت إلى السوق المشتركة . واستفاد الألمان من حرمانهم من الجيش خلال بضعة أعوام ، إذ لم يكونوا ينوون تحت وطأة ضرائب ثقيلة ، فاستطاعوا تمويل المؤسسات الصناعية ذاتياً . وشجعت الدولة أيضاً عملية فتح أسواق خارجية .

واستغل الألمان ببراعة تخفيض الحواجز الجمركية في أوروبا الغربية وسرعان ما اكتسبوا نفسية ميالة للتصدير ، وهم يعرفون بصورة عجيبة دراسة الأسواق وظهروا متماسكين أمام المنافسة . وهكذا أصبحت ألمانيا الغربية مخبراً واسعاً يطرح فيه الصانع سلع الاستهلاك والتجهيز على العالم أجمع ، كي يؤمن معيشة ٦٠ مليون ألماني ، معيشة تتحسن باستمرار وبصورة متسارعة . وأصبحت الصادرات تمثل ٢٠٪ من الإنتاج الوطني مقابل ٤٪ من إنتاج الولايات المتحدة . ويؤلف نجاح التصدير أساس القوة الصناعية الجديدة .

وعندما يسأل أحد الألمان عن أسباب نهضتهم المذهلة ، فإنهم يجيبون على العموم قائلين : « نحن لانعرف الاضرابات ولا توجيهية الدولة » ولكن النقابات العمالية ترغب إلحاح أن يكون تزايد الإنتاجية مصحوباً بتحسين موازٍ في مستوى معيشة العمال .

- الألمان والرخاء : وعلى أثر النهضة الاقتصادية ، أصبح الدخل القومي

الألماني مرتفعاً لدرجة تجاوز معها الدخل القومي الفرنسي^(١) . وأصبحت ألمانيا أكبر دولة دائنة في أوروبا بسبب تكديسها الذهب والقطع النادر . ونظراً لضمانة المارك باحتياطي الذهب ، وبفضل أرباح التجارة الخارجية ، فقد صارت العملة الألمانية صلبة مثل الفرنك السويسري : ويعتبر المارك من أوائل العملات في العالم . واستطاعت ألمانيا أن تستحوذ على نوع من هيمنة في سوق الرساميل بالعالم . فهي توظف الأموال في معظم أرجاء الأرض . واحتلت فرانكفورت مكانة سامية كسوق مالي أوروبي .

- ونتيجة لذلك فقد لحقت سوية معاش الألماني بالفرنسي وثم تجاوزته ، وأصبح أجر العامل الألماني يعادل زميله الأمريكي في ١٩٨٠ رغم ضعف العلاوات العائلية ورخص أجور النساء . وشجع تكاثر عدد سكان المدن وانتظام خدمات التوزيع فيها على زيادة الاستهلاك الذي ارتفع بنسبة ٨٠٪ خلال عشرة أعوام (مقابل ٤٨٪ في فرنسا) . وإذا كانت حظيرة السيارات السياحية الألمانية تضم قرابة ١٥ مليون سيارة فإن ٦ ملايين سيارة منها تخص العمال ، ويقضي ٥ ملايين ألماني سنوياً عطلتهم الصيف في الخارج . وتملك ٩٠٪ الأسر الألمانية جهاز تلفزيون وتملك ألمانيا عشر محطات للبث التلفزيوني . ويعتبر الألماني أكبر مستهلك للتبغ بين شعوب أوروبا الغربية .

(١) على الرغم من أن الأمم الصناعية والدول المنتجة للنفط لاتؤلف سوى ثلث سكان العالم فهي تستحوذ على أكبر شطر من الثروة العالمية . وفي ٥٠ بلداً يقل الناتج القومي الخام عن ٥٠٠ دولار للفرد بالعام . وكان الدخل الفردي عام ١٩٧٨ كما يلي في الدول الآتية : الولايات المتحدة ١٦٨٧ دولار ، الإمارات العربية ٣٠٠٠٠ ، الكويت ١٣٠٠٠ ، السويد ١٠٥٤٣ ، كندا ٨٧٣٥ ، سويسرا ١٣٣٣٥ ، فرنسا ٨٨٥١ ، ألمانيا الغربية ١٠٤١٩ ، بريطانيا ٥٥٤٥ ، ليبيا ٧٢٦٢ ، لبنان ٦٥٠ ، تركيا ١٠٥٩ ، السعودية ٨٣١٩ ، العراق ١٦٢٠ ، الأردن ٨٤٢ ، إيران ١٩٨٨ ، تونس ٩٨٨ ، البرازيل ١٦٣٥ ، المغرب ٦٥٤ ، مصر ٤٨٥ ، باكستان ٢٣٥ ، السودان ٢٠٧ ، أندونيسيا ٣٤٠ ، الهند ١٥٩ ، أثيوبيا ١٠٣ ، نيجيريا ٧١٧ ، موريتانيا ٣٥٣ ، ملاوي ١٨٤ ، استراليا ٨١٦٠ ، اليابان ٨٤٧٦ ، الاتحاد السوفياتي ٣٩٩٠ ، رومانيا ٢٦٧٠ ، فنزويلا ٣٠٢٤ ، إفريقيا الجنوبية ١٥٩٤ ، المكسيك ١٤٠٣ ، الجزائر ١١٠٠ ، كوريا الجنوبية ١٢٨٥ ، الفلبين ٥٠٦ ، الصين ٣٩٠ ، أفغانستان ١٣٠ ، فنلندا ٧١٢٢ ، سوريا ٩٥٩ .

ثانياً - المناطق الاقتصادية الكبرى

نجد في الغرب نطاقاً يتراكم فيه السكان والثروات ، يكون محوره نهر الراين ، نطاقاً يتناقض مع نطاق ذي اقتصاد ضعيف يمتد بمحاذاة ألمانيا الشرقية ، ابتداء من شلزويغ Sleswig حتى الحدود التشيكية .

وتشتمل ألمانيا الاتحادية من الشمال للجنوب ثلاث مناطق ألمانية تقليدية هي : ألمانيا الشمالية ، ألمانيا الوسطى ، وألمانيا الجنوبية .

١ - المناطق الصناعية في ألمانيا الوسطى

لقد سبق أن رأينا أن ألمانيا الوسطى هي عبارة عن فسيفساء من كتل هرسينية ، ومن أحواض ووديان ، ولكنها تؤلف المحور الصناعي في الجمهورية الاتحادية ، فألمانيا الوسطى تضم « بلاد » راينانيا والبالاتينات ، وراينانيا - فستاليا ، وهيس Hesse وتبدو مجزأة بكتل جبلية هرسينية .

ففي الغرب تظهر الكتلة الشيستية الراينانية وهي عبارة عن هضبة مؤلفة من صخور الشيست والكوارتزيت ، ذات ارتفاع يتراوح بين ٤٠٠ و ٨٠٠ م ، وهي امتداد لهضبة الأردن الفرنسية البلجيكية ، وتبرز فيها مسكوبات من اللابة ومن فوهات البراكين الانفجارية Maare التي ترقد فيها البحيرات أحياناً . ويشق نهر الراين فيها ممراً عميقاً كانت تكثر عليه الجنادل في الماضي

وإلى الشرق ، تظهر جبال هس كالجزر وهي جبال فيزر Weser وغابة توتوبورغ Teutoborg حيث تجابه الجرمان والرومان ، وجبال هارز ، وهي منطقة المناجم ، وأخيراً مرتفعات فوجلزبرغ Vogelsberg البركانية ورون Rhon .

وهناك ممرات تتسلل بين هذه الجبال مثل حوض الماين Main الأعلى ،

وحوض هيّس ، وحوض مونستر . ونجد في ألمانيا الوسطى المناطق الصناعية الرئيسية الثلاث في ألمانيا الاتحادية :

- حوض السار ومنطقة فرانكفورت ، إلى الجنوب من الكتلة الشيسية الراينانية .

المنطقة الراينانية الوسطى ، إلى الشمال من الكتلة الشيسية الراينانية .

أ - إقليم السار : ومساحته لاتزيد عن ربع مساحة لبنان أو ٢٥٦٧ كم^٢ ، وهي منطقة غنية بمناجم الفحم والصناعة الحديدية . ويتألف مظهر السار من تلال شيسية ، تغطيها المراعي ، وغابات الزان والراتنجيات . ويقع الحوض الفحمي في مقرر Synclinal موجّه من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي . ويحوي هذا الحوض على ذخّر من الفحم مقداره ١٢ مليار طن . ويترواح الإنتاج حول ١٦ مليون طن بالعام ، ونوعية الفحم تسمح بتحويله إلى فحم الكوك الذي يعتبر أساسياً في صناعة الحديد .

ويستخدم في ثلاث صناعات قديمة وقوية جداً : هي الصناعة الحديدية ، صناعة الزجاج ، وصناعة الخزف الصيني . وتهيمن على الصناعة الحديدية بضع شركات كبرى مثل روشلنغ Roehling ، التي تنتج قرابة ٥ ملايين طن من الفولاذ . أما الصناعات الكيماوية فتعالج نفايات الفحم . كما تؤمن صناعة الألبسة والأحذية ، والتبغ ، والجلّة حاجات هذه المنطقة الغاصة بالسكان ، والتي تضم قرابة مليون نسمة . بحيث تصل الكثافة إلى ٤٠٠ نسمة .

ولا يحوي إقليم السار سوى مدينة كبيرة هي ساربروك ١٥٠.٠٠٠ نسمة . وتتناثر المناجم والمعامل في الغابة . وكثيراً ما يظل عامل المنجم أو العامل في الصناعة فلاحاً ، فقسم من الأسرة يزرع حقلاً صغيراً ويربي الخنازير .

ب - إقليم فرانكفورت : وكانت الصناعة هنا بنت التجارة . فقد كانت

منطقة فرانكفورت وماينس Mayence إقليماً ذا طابع أصيل في ألمانيا الوسطى . ولا يدين بنشاطه لوجود حوض فحمي ، بل لموقعه الممتاز ولسهولة المواصلات ، ولحركية الأيدي العاملة ، وأخيراً لكثرة الرساميل ، لأن أسرة روتشيلد اليهودية وصاحبة المصارف العالمية تعود أصلاً لهذه المدينة . وتقع منطقة فرانكفورت عند أقدم جبال تاونوس Taunus وعند تقاطع طريق الراين الأوسط مع وادي نهر الماين والنكار ، في سهل غني بإنتاج القمح ، والشوندر السكري (البنجر) ، والتبغ ، فضلاً عن قطعان ماشية هامة . وتلعب المدن الصناعية هنا دور مراكز استقطاب للأيدي العاملة العديدة التي تأتي كل يوم بالقطار أو بالباصات من الأرياف المجاورة . وتستمد المنطقة مصادر القدرة من الفحم ، ومن الغاز (القادم من إقليم الرور) ومن البترول . وتكون الصناعات هنا ، القائمة على صنع الكائن ، والكيمياء ، والبصريات ، وصناعة الجلود ، والنسيج ، والمطاط ، مختصة جداً ومعتمدة على التصدير للغاية . وستزداد أهمية المنطقة بعد تحسين الاتصال بين نهر الدانوب ونهر الراين بواسطة نهر الماين الذي يحدد قناة الارتباط .

- مدينة فرانكفورت : وفيها ٧٠٠ ألف نسمة ، كانت في الماضي عاصمة اتحاد جرمانى . وتلعب اليوم دور العنكبوت في وسط شبكتها لكثرة تشعب السكك الحديدية منها ، كما تحوي أحد أكبر مطارات أوروبا ، وهي مكان التقاء طرق سيارات عديدة ، كما أنها مركز عمليات تجارية وصفقات ، ومصارف ، ومعارض مشهورة . وهي في الوقت نفسه بؤرة تحوي الكثير من المصانع الصغيرة لصناعة الثياب ، مثلما تحوي مقر معامل كبرى مثل سيارات أوبل Opel ، التي بلغ إنتاجها ٨٥٠ ألف سيارة عام ١٩٧٩ . وكانت الأحياء القديمة في فرانكفورت ، والتي عاش فيها غوته ، عبارة عن متحف لفن العصور الوسطى ، وذلك قبل تدميرها أثناء الحرب العالمية الثانية . هذا وأصبحت دارمشتاد Darmstadt التي كانت مقر حاكم إقليم هيس ، مدينة صناعية ، مثل مدينة فيسبادن الشهيرة

بماها المدينة وهيدلبرغ ذات الشهرة الجامعية القديمة . أما مدينتا مانهايم ولودفيغهافن فهما مدينتان توأمان تشتهران بالصناعة الكيماوية الكبرى ، ويبلغ عدد سكانها ٤٠٠ ألف نسمة ، وبذلك تتفوقان على مدينة ماينس الواقعة على نهر سپير Spire ومدينة فورمس Worms الفخورتين بكنائسهما الرومانية وحيث كانت تعقد المجمع الدينية .

ج - إقليم راينانيا - وستفاليا : ويضم هذا الإقليم ١٦ مليون نسمة أو ٣٠٪ من سكان ألمانيا الغربية ، فوق مساحة لا تزيد عن ٣٠ ألف كم^٢ أو أقل من محافظة دير الزور في سورية التي تزيد عن ٣٣ ألف كم^٢ . ويضم هذا الإقليم العاصمة بون كما يستحوذ على الشطر الأعظم من صناعة ألمانيا كلها .

ويستند الدور المهيمن الذي يقوم به الإقليم الرايناني الوستفالي في الاقتصاد الألماني على الأسس التالية : وجود سهول توفر الغذاء ، وجود شريان نهري كبير هو نهر الراين الذي خلق إمكانات تجارية رائعة ، وأخيراً على غنى باطن الأرض بمصادر القدرة .

- فيالي الشمال من خوانق الراين تنفتح السهول اللحقية في حوض كولونيا وحوض مونستر . فالسهول الفسيحة التي تطيف بمدينة كولونيا التي تضم ٩٠٠٠٠٠ نسمة . تشتهر بزراعة الحبوب . أما مدينة مونستر فهي مركز منطقة تهتم بالمراعي وتربي الأبقار والخنازير . ومع ذلك لا يكفي إنتاج هذين السهلين لتغذية المدن المنجمية والصناعية المجاورة كما تجود صناعة الخمر مثلاً تنجح زراعة الفواكه في جنوب المناطق الراينانية مثلاً تقدم الكتلة الشيسية الراينانية الأخشاب الضرورية لمناجم الفحم .

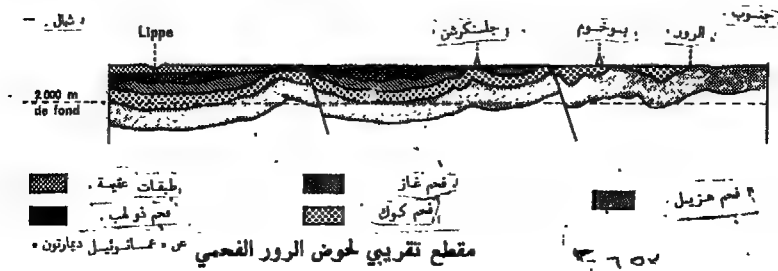
وقد مهد لقيام الصناعة قِدم المواصلات هنا وكشافتها ، على طول وادي الراين . كما كانت الصناعة أحياناً وليدة التجارة في هذه المنطقة . فهذا النهر هو

أحد أهم عناصر اقتصاد أوروبا الغربية ، وهو يعود لأصل ألي ، ويحتفظ في الكتلة الشيستية الراينية بمجرى عميق تكثر فيه العتبات الصخرية . ويصبح في وستفاليا نهراً قوياً وهادئاً . ينتج ارتفاع مياهه في الخريف والشتاء ، عن أمطار تجلبها السيكلونات المحيطية والتي تنضاف لمياه الفيض الربيعي والصيفي ، الناجمة عن ذوب ثلوج وجوديات جبال الألب والكتل الجبلية الهرسينية . ويظل صيبه قوياً على مدى العام ، فيبلغ ٢٢٠٠ متر مكعب / ثانية عند دخوله هولندا (أو ٣ أمثال صيب الفرات عند البوكال) . فضلاً عن جودة هذا النهر الطبيعية فقد رُوّضه الإنسان . فقد اغتنت شبكته بقنوات وبأنهار نظمت مجاريها ، كنهر الموزيل . وتمخر عباب مياه هذا النهر سفن أسطول تبلغ حملته السنوية ٨,٥ مليون طن ، تحمل أعلاماً هولندية وألمانية وفرنسية وبلجيكية وسويسرية . ويبلغ وزن المواد التي تنقل فوق مياهه ١٤٠ مليون طن من البضائع : للحديد ، والحبوب ، والقطن ، والبتروال والتي تذهب للمناطق المطلة على هذا النهر ، والفحم وفحم الكوك ، ومنتجات الصناعة الحديدية التي يقدمها إقليم الرور والتي تصدر للخارج لدرجة تصبح معها ضفاف النهر في إقليم الرور عبارة عن ميناء متصل . فمدينة دويسبورغ هي أول ميناء نهري في أوروبا وتعادل حركة البضائع فيه نشاط ميناء مرسيليا الفرنسي .

- فضلاً عن ذلك فإن الثروات الكامنة في المحروقات هي التي تجعل من راينانيا - وستفاليا قلب الاقتصاد الألماني . فحوض آخن Aix-la-Chapelle الصغير الواقع قرب الحدود الفرنسية البلجيكية والذي يعتبر امتداداً لحوض لياج Liège البلجيكي ، يقدم ٧ ملايين طن من الفحم بالعام . هذا ويستعمل فحم الليغنيت ، الذي يقدمه حوض كولونيا الغني ، بشكل خاص ، في مراكز توليد الكهرباء .

هذا وينتج مكن الرور لوحده ١٢٠ مليون طن من فحم ينتجه ٤٠٠٠٠٠

عامل منجم . وقد بدأ استغلال الفحم في هذه المنطقة في القرن الثالث عشر ، في الجنوب ، حيث تتكشف طبقات الانتراسيت والفحم الهزيل بجوار نهر الرور Rhur . ثم امتد الاستثمار شمالاً باتجاه ليبه حيث تهبط الآبار إلى أعماق تزيد عن ١٠٠٠ م ، كي تدرك طبقات الفحم الدهني ، وفحم الغاز ، والفحم الملتهب (شكل ١٤) وتكون طبقات الفحم سميكة دوماً والتجهيز ممتازاً . ويبدو الذخر غير قابل للنفاذ . وهكذا يستخرج حالياً من الفحم الدهني مقدار ٤٣ مليون طن من الكوك الممتاز ، مثلما يستخرج ١٠ مليارات متر مكعب من الغاز الذي يوزع بالأنابيب على كل ألمانيا .



الشكل ١٤

بيد أن أهمية الفحم في تناقص ، فبعض المناجم قد أغلقت ، والإنتاج راكد بلا زيادة . فالبترول يستورد بالسفن النهرية أو بالأنابيب كي يتم تكريره في معامل ضخمة في جوار نهر الراين (كولونيا جيلسن كيرشن) وبذلك أصبح الرور أكثر فأكثر مستورداً للطاقة .

- أهمية إقليم الرايناني الوستفالي : تعتبر هذه المنطقة أكبر تجمع صناعي في أوروبا ، إذ يقدم ٨٠% من الفحم و ٧٥% من الفولاذ ، وأكثر من نصف المنتجات الكيماوية والمنسوجات في كل ألمانيا الاتحادية . أو بعبارة أخرى يقع في هذه

المنطقة أكبر تراكم للصناعات والسكان في كل أوروبا . وهنا تقع بون ، العاصمة .
ولا تكون الصناعات متركزة في حوض الرور الفحمي ، بل تتناثر في كل
الإقليم مما يسمح بالتعرف على عدة مناطق أساسية .

- **فالقسم الشمالي من الحوض الفحمي** ، أي في منطقة ليبه Lippe هو
عبارة عن إقليم جديد لاستثمار الفحم . فقد حفرت الآبار العميقة في إقليم لا يزال
ريفياً ، ويظف بالآبار المذكورة معامل تحويل الفحم الدهني إلى فحم الكوك ،
والمراكز الكهربائية التي ترسل تيارها نحو المنطقة الوسطى . ويظف المظهر
الصناعي تدريجياً على منطقة مونستر ، التي لا تزال تحتفظ بطابع فلاحي .
وتكون المدن الكبرى نادرة هنا وأهمها : ريكلنهاوزن ، وهام Hamm التي تعتبر
أكبر محطة جديدة لتوزيع السلع واستقبالها .

- **في الوسط نجد منطقة الفحم الدهني** ، الذي بدأ استغلاله في وقت
أسبق ، لذا تعتبر منطقة **سوداء** بكل معنى الكلمة ، لكثرة دخان المعامل . وهنا
تجمعت أكبر المعامل الكيماوية التي تستمد مادتها الأولية من الفحم Carbochimie
وأقدر مجموعات معامل الحديد والفولاذ التي تنتج ٤٤ مليون طن فولاذ (أي أكثر
من فرنسا ^(١)) . ولكن تتجه هذه المنطقة أكثر فأكثر نحو صناعة أنواع فولاذ
بطريقة الأوكسجين ، وفي الفرن الكهربائي ، ونحو صناعة المعادن غير الحديدية
(وخاصة الألمنيوم) ، ونحو صناعة المكائن الثقيلة . وقد صاحب تكاثر
الصناعات تركز السكان بشدة في المدن .

(١) كان إنتاج الفولاذ في العام عام ١٩٨١ كما يلي حسب أهمية الدول : الولايات المتحدة ١٠٨.٨ مليون طن ، الاتحاد
السوفييتي ١٤٩ ، اليابان ١٠١.٦ ، ألمانيا الغربية ٤١.٧ ، بريطانيا ١٥.٥ ، أوروبا الشرقية ٤٥ ، فرنسا ٢١.٢ ،
إيطاليا ٢٤.٦ ، بلجيكا ١٢.٢ ، لوكسمبورغ ٣.٧ ، الصين ٣٥.٦ ، تركيا ١.٨ ، الهند ١٠.٥ ، هولندا ٥.٤ ،
ومجموع الإنتاج العالمي ٧٤٦ . وإنتاج الوطن العربي من هذه المادة لا يتجاوز حالياً ٥ ملايين طن في جمهورية
مصر العربية والجزائر وتونس وقطر .

فكثافة السكان تزيد هنا عن ١٠٠٠ نسمة بالكيلومتر المربع . وتندر هنا الحقول والمراعي . فعلى مسافة ١٠٠ كم من الغرب إلى الشرق لا نجد سوى غابة من المداخن والمصانع التي تنتج الغاز ، ومن خطوط حديدية تمر فوق الجسور ، ومحيطا من المنازل وتثيراً من الأحياء العالية . فقد التأمّت كل جراح الحرب ، بعد أن قامت معامل جديدة تماماً كان مقرها برلين سابقاً ، أو بواسطة شركات أمريكية مثل فورد . وبالاختصار نجد مشهد مدن صغيرة عصرية للغاية ، تنتشر فيها الحدائق العامة ، وملاعب الرياضة ، التي منحت الجمال لمنطقة صناعية سوداء كانت كثيفة جداً .

وترتصف المدن الكبرى على محاور يمتد من الغرب للشرق ، أي من نهر الراين حتى دورتموند . فيتجاوز عدد سكان كل من أيسن ودورتموند ٦١٧٠٠٠ نسمة ، مثلاً يزيد عدد سكان كل من دويسبورغ ، وجلسن كيرشن وبوشوم عن ٣٠٠٠٠٠ ولم يكن في أي من هذه المدن المذكورة أكثر من ٦٠٠٠٠ نسمة عام ١٨٧١ أي قبل قرن كامل من الزمن .

- وفي جنوب الرور ، تكون الصناعات أقل ارتباطاً بالفحم . فقد كانت الأيدي العاملة العديدة والخبرة تعمل منذ القديم هنا في صناعة الخشب وحديد سيغرلاند Siegerland أو كانت تنصرف لصناعة الغزل والنسيج . وقد ازدهرت صناعة سلع الاستهلاك من جديد خلال القرن التاسع عشر والعشرين بفضل وجود سوق هامة وطرق مواصلات كبرى . فتشتهر مدينة ووبرتال في غزل القطن ونسجه ، كما تنصرف مدينة آخن لصناعة الصوف . أما مدينة كريفلد ومدينة مونشن غلاباخ فتعرفان بصناعة المنسوجات الاصطناعية مثلاً تصنع أنوال النسيج ، وصناعات الألبسة والجلد ، كما أن الصناعات الكيماوية تكون أيضاً هنا ذات أهمية ، أما مدينة سولنجن ، ورمشيد Remscheid فتصنعان الأدوات المنزلية ، والأدوات الميكانيكية ، والمكائن الصانعة . وتقع في قلب هذه المنطقة الصناعية القديمة والمتجددة مدينة دوسلدورف (٧٠٠٠٠٠ نسمة) ، وهي مدينة

صناعية ، أو عاصمة اقتصادية حقيقية ، استقرت فيها الشركات الكبرى ، والمخازن الضخمة ، والبنوك الجبارة .

- وتقع منطقة كولونيا إلى الجنوب من المنطقة السابقة ، التي غنت على ضفة الراين . فتعتبر مدينة ليفركوزن عاصمة الصناعات الكيماوية ، ولا سيما معامل باير Bayer ، التي تنتج لوحدها ربع إنتاج خيوط النسيج الاصطناعي .

وتضم مدينة كولونيا ٨٥٠.٠٠٠ نسمة ، وهي مدينة أخذت أهميتها من الجسر الذي يمر فوقه الطريق الذي يصل فرنسا بالسهل الأوروبي الشمالي ، فضلا عن وظيفتها كميناء نشيط على نهر الراين ، ومركز مالي ، ومقر صناعات غذائية وميكانيكية لا سيما صناعة سيارات تاونس Taunus التي أنتجت ٦١٣٥٧٩ سيارة عام ١٩٦٩ ولها علاقة وثيقة بشركة فورد الأمريكية .

غير أن ألمانيا الوسطى ليست الركيزة الصناعية الوحيدة في ألمانيا الاتحادية . فقد تسَلَّ التصنيع نحو الجنوب ، أي إلى منطقة بادن وورتمبرغ ، إلى الشمال ، وإلى سكسونيا السفلى ، وضاف بحر الشمال .

٢ - المناطق الريفية في ألمانيا الجنوبية

ألمانيا الجنوبية الجبلية : لقد ظلت هذه المنطقة ريفية خلال أمد طويل ، ولكنها أخذت تتجه الآن نحو الصناعة . هذا وتمتد ألمانيا الجنوبية من نهر الراين حتى جبال بوهيميا التشيكية ، وتضم إقليمين هما بافاريا في الشرق وبادن فورتمبرغ في الغرب .

وتنصرف مياه ألمانيا الجنوبية بواسطة نهر الدانوب الذي ينبع من منطقة الغابة السوداء ، وبواسطة روافده المنحدرة من جبال الألب التي تؤلف حاجزاً في الجنوب ، أما الغابة السوداء وجبال بوهيميا فهي أكثر الكتل الهرسية الألمانية ارتفاعاً .

وقد تأثرت ألمانيا الجنوبية كثيراً بالنفوذ الروماني فظلت كاثوليكية رغم حركة الإصلاح . ولا يختلف التخيم الشمالي للكاثوليكية كثيراً عن تخوم الامبراطورية الرومانية في القرن الميلادي الثاني . وتتصف هذه المنطقة بطابعها الريفى ، حيث تهيمن الملكية الصغيرة . « فالإنسان البافارى متفتح القلب مرح ، فلا نجد في أي منطقة من ألمانيا نفس الذوق العفوى لبساطة الحياة ، ونفس الحيوية المرحية . فالفن ليس احتكاراً لطبقة معينة ، بل هو من اهتمام الشعب كله . فقد كان للرقص وللموسيقى الريفية ، ولشرح القرية ، وللنحت ، وللرسم ، وللأدب الشعبي تقاليد راسخة هنا منذ القديم » .

- غير أن الصناعة تزحف اليوم نحو الجنوب في ألمانيا الاتحادية لتجنب اختناق منطقة الرور والاستفادة من الأيدي العاملة الوفيرة المؤلفة غالباً من اللاجئين . كما تجد الصناعة محلياً طاقة وفيرة تتألف من الفحم الأبيض ، والفحم الذي ينقل بواسطة نهر الراين ، والبتروال الذي يصل مدينة كارلسروه ومدينة انجولشتات (على الدانوب) بواسطة الأنابيب الأوروبية الجنوبية ، والذي يتم تكريره محلياً . ويكون هذا الإقليم الذي تكثر فيه المراعي والغابات ناشطاً سياحياً بالصيف ، وبالمترلقين على الثلوج (سكي) في الشتاء . وقد دخلت المنطقة الصناعات التحويلية الحديثة ، ليس إلى المدن القديمة أולם ويرجينسبورغ Ratisonne وانجولشتات ، أو في مدن شهيرة مثل شتوتغارت ٦٥٠٠٠٠ ، ونورمبورغ ٤٨٥٠٠٠ ، ومونيخ ١,٤ مليون فحسب بل في كل ثنايا الوديان . فكل قرية من إقليم فرتنبرغ أصبحت صناعية . وهكذا يتزايد سكان إقليم بادن فرتنبرغ بسرعة تفوق تزايدهم في الإقليم الرايناني الوستفالي .

وتحوي ألمانيا الجنوبية على مشاهد أكثر تنوعاً من سائر المناطق الألمانية ويمكننا أن نميز فيها ثلاث مناطق هي :

- الغابة السوداء وسهل بادن .

- حوض صواب فرانكونيا (شرق الغابة السوداء وشمال الدانوب الأعلى) .

- جبال الألب والهضبة البافارية .

إقليم بادن - ويقع في شرقي مرتفعات الغابة السوداء ، وهي منطقة غنية .
ففي جنوب غرب ألمانيا تهيم الغابة السوداء على سهل بادن . وتكون الغابة
السوداء عبارة عن كتلة متبلورة غير متناظرة ، تنتشر عليها غابات الشوح
القائمة . وإلى الشمال من ذلك يعود الغطاء الخرساني للظهور في تلال اودنفالده
Odenwald . ويكون السكان قليلي الكثافة ولكن السياحة نشيطة . وتنتشر
القرى مصطفة فوق درجات ترتفع قليلاً عن سهل الراين . وقد نفذت الصناعة
إلى هوامش هذه الكتلة ، وفي الوديان الجنوبية التي تنحدر نحو مدينة بال
السويسرية ، وعلى طول نهر الدانوب الأعلى ونهر النكار (صناعة الساعات ،
نسيج ، كيمياءكهربائية) .

ويتألف سهل بادن الواقع بين نهر الراين والغابة السوداء من جزء من الحفرة
الكبيرة ، التي تمتد على مسافة ٣٠٠ كم من فتحة بورغونيا في فرنسا حتى الكتلة
الشيستية الراينانية . وهنا تجود زراعة الحبوب والتبغ وحشيشة الدينار ، التي
تدخل في صناعة الجعة ، والأشجار المثمرة فوق مصاطب تربة اللوس . كما تؤلف
الغابات والمراعي شرطاناً بمجوار نهر الراين . كما تغطي الكروم الأراضي الواقعة
فوق التلال وفوق كتلة كايزرتوهل البركانية . وأهم مدينة هنا هي فرايبورغ
الواقعة عند تماس السهل بالجبل . وبعد أن كانت كارلسروه مقر محكمة العدل
الفيدرالية ، أصبحت ميناء على نهر الراين ، بفضل قناة طولها ٢ كم ، ومدينة
صناعية (تكرير نفط ، أجهزة كهربائية) ومركزاً للأبحاث النووية . وبلغت
صناعة إقليم بادن درجة من الحيوية جعلتها تجذب يومياً أكثر من ٦٠٠٠ عامل
الزاسي فرنسي .

- حوض صوآب فرانكونيا : ويحوي على منخفضات خصيبة وعلى مركزين صناعيين هامين هما شتوتغارت ونورمبورغ . فقد استطاع الحث أن يكشف في حوض صوآب فرانكونيا الرسوبي تضاريس الكويستا الكلسية والخرسانية . ويكون ظهر الكويستات عبارة عن هضاب قاحلة وغايبة . وتتكاثر الحياة البشرية في المنخفضات ذات التربة اللوسية ، عند أقدام جبهات الكويستات وفي الوديان حيث يزرع القمح وحشيشة الدينار والتبغ والأشجار المثمرة والكرمة ، وتتناثر القرى الكبيرة في الأرياف المفتوحة ، وحيث تكون الملكيات صغيرة .

هذا ويفتح كل من وادي الماين والنكار طرقاً تجارية كبرى بين بلاد الراين والمنطقة الدانوبية أو الألبية . فقد كانت هذه الطرق موائمة لازدهار المدن التجارية ، التي تحولت اليوم نحو الصناعة . فتضم مدينة شتوتغارت (٦٥٠ ألف نسمة) ، عاصمة إقليم فورتمبورغ ، صناعات متنوعة جداً ، نذكر منها صناعة السيارات من ماركة بورش Porsche ومعامل مرسيدس الضخمة ، التي أنتجت ٢٥٩٠٠٠ سيارة عام ١٩٧٩ ، وأجهزة تصوير من ماركة زايس Zeiss . وتختص أولم بصناعة السيارات الشاحنة والتلفزيونات . أما مدينة نورمبورغ ، التي تؤوي ٤٩٠٠٠٠ نسمة ، والواقعة على قناة تصل الدانوب بنهر الماين فتشتهر بمدنيتها القديمة ، التي ظلت سليمة حتى نهاية الحرب الماضية وبصناعة لعب الأطفال . وتقوم فيها معامل كثيرة للجنة ، فضلاً عن صناعات ميكانيكية (كيونات ، أوتوبوس) وكهربائية ، وصناعات الكترونية .

- بافاريا : وقد ظل هذا الإقليم ريفياً ، غير أن مدينة صناعية هامة ، وثالث مدينة ألمانية لأنها تضم أكثر من ١,٢٥ مليون نسمة .

فبين وادي الدانوب وجبال الألب تظهر الهضبة البافارية وكأنها بيونت Piémont حقيقي يعود لأصل نهري جمودي . كما أن جبال الألب البافارية وهي

عبارة عن مقدمة لكسية لجبال الألب ، تكون أحياناً جافة قاحلة ، تحزّزها الجموديات وتزدان ببحيرات تجتذب شاليهاتها Chalets (بيوت خشبية جبلية) العديد من السواح . ويلعب مركز غارميش Garmisch دور محطة لرياضة الشتاء واقع تحت أعلى قمة في كل ألمانيا هي قمة زوغتبيتزة ٢٩٦٣ م .

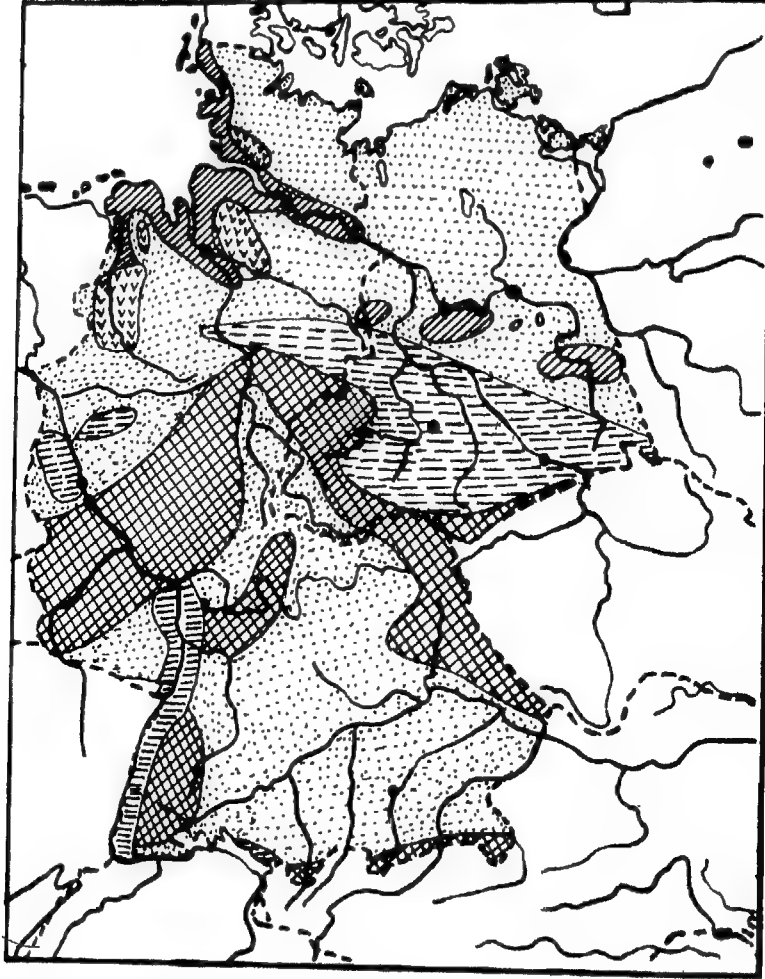
ولا تزال المنخفضات التوربية ، والأراضي البائرة والغابات (شكل ١٥) ، تحتل مساحات كبيرة ومع ذلك تربي الخنازير والأبقار ، لأن المنطقة أكبر منتج للألبان ومشتقاتها في ألمانيا الاتحادية ، كما يزرع القمح والجاودار في فسات الغابات . وقد نجح الفلاحون البافاريون على أرضهم العقيمة بفضل جدهم ، وبتكنيك متقدم . أما المصاطب اللوسية التي تواكب مجرى الدانوب وروافده فتجود فيها الأشجار المثمرة وحقول التبغ وحشيشة الدينار .

وتعود مدن بافاريا أحياناً ، في القدم ، للاحتلال الروماني . فهي تحرس ممرات الطرق التي تعبر جبال الألب (برنر Brenner) أو طريق الدانوب الذي يؤدي إلى فيينا . وقد توسعت هذه المدن بفضل التجارة ، والأعمال المصرفية ، وفي العصر الحديث بواسطة الصناعة . فقد كانت مدينة اوغسبورغ Augsburg في القرن السادس عشر ، مدينة صيارفة الامبراطور شارلكان ، ويظهر نشاطها اليوم بالصناعة النسيجية وصنع المكائن .

أما مونيخ (مونس عند الألمان) والتي تحوي ١,٣٥ مليون نسمة فهي عاصمة بافاريا ، وبؤرة ثقافية وفنية . وتقوم فيها معامل جعة شهيرة وصناعات تحويلية متنوعة جداً (تجهيزات السكك الحديدية ، أحذية ، بصريات ، مطاط تركيبي ، مصنوعات كهربائية) .

ألمانيا الشرقية والغربية

الشكل ١٥



غابة مكسورة



زراعة غنية فوق الطمي



مناطق غابية



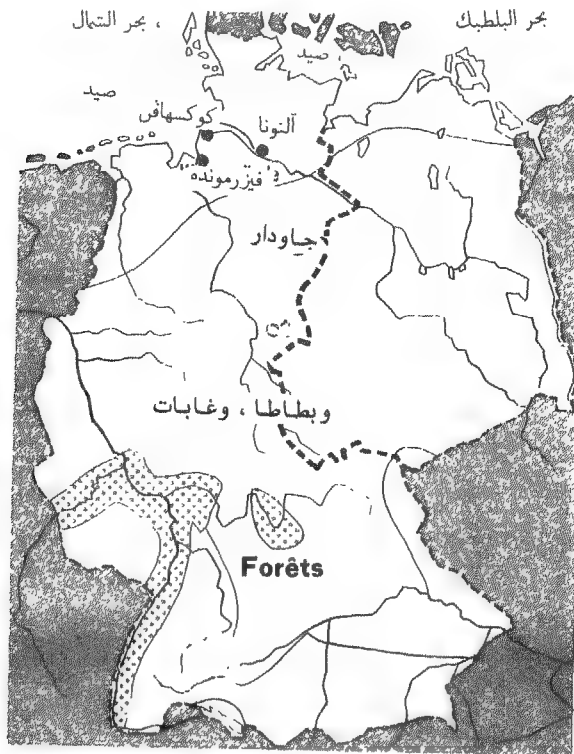
طوب و أراضي رملية عميقة



براري رطبة

٣ - المناطق الصناعية والموانئ في السهل الشمالي

السهل الشمالي : وهو سهل رتيب واسع دخلته الصناعة في منطقة سكسونيا السفلى . إذ تتألف ألمانيا الشمالية من منطقتي سكسونيا السفلى (مقاطعتي هانوفر واولدنبورغ) ومن إقليم شلزيغ هولشتاين (شكل ١٦) .
تلك هي أكثر مناطق ألمانيا فقراً وشحاً . فبين حدود هولندا وألمانيا



الشكل ١٦

0 100 km
زراعة حنيفة ، قمح وشوندر سكري
تربية أبقار ،
أشجار مثمرة وكروم

المناطق الزراعية في دولتي ألمانيا

الشرقية ، لانجد أي تضريس يلفت النظر في هذه الفيافي الرتيبة التي تشغلها نباتات الخلنج Bruyère التي ترقد فوق ترب سيليسية ، والمستنقعات ، والغابات الراتنجية . غير أننا نعثر في ولاية شلزفيغ هولشتاين الواقعة جنوب الدانمارك مباشرة ، والتي زارتها المجموديات قبل فترة تقع قبل ١٥٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ سنة ، تلالاً بحيرية تم عن مشاهد ألمانيا الشرقية . وقام الإنسان بحرق الغابة وقطع كل التورب واستصلح التربة للسيطرة على تربة عقيمة بحيث نجح في زراعة الجاودار وتربية الماشية ، والشوفان والبطاطا . وتعتبر تربية النحل المصدر التقليدي للرزق في فيافي لونيوبورغ Lunebourg الواقعة بين برين وهامبورغ .

- أما الكثافات البشرية الريفية الشديدة ، فنجدها إلى الجنوب من هذا الإقليم أي في نطاق البورده Borde الغني بتربة اللوس ، والذي يمتد على عرض مدينة هانوفر على مسافة ٢٠٠ كم وبعرض يتراوح بين ١٠ و ٥٠ كم . ويقوم الملاكون الصغار ، المجتمعون في قرى ، بزراعة القمح والشمندر السكري . وفي هذا النطاق المتميز ظهرت المراكز الصناعية . فالتطبقات الرسوبية الباطنية تحوي على ثروات معدنية كبيرة ، إذ يستثمر النفط والغاز الطبيعي في منطقة إمس Ems ، والبوتاس في منطقة هانوفر ، والحديد ، الفقير في نسبته ، والمعادن غير الحديدية بجوار منطقة هارز Harz (جنوب هانوفر) ، كما يكثر هنا فحم الليغيت إلى جانب قليل من الفحم الحجري . وتبعث الصناعة النشاط في سبحة من المدن الكبرى مثل هانوفر "التي تضم ٦٠٠ ألف نسمة ، وبرونشفايغ Brunswick وتتصل هذه المدن بالخطوط الحديدية وبالطرق العريضة وبقناة ميتلند Mittelland ، وتهتم هذه المدن بالتجارة وبصناعة الشاحنات ، أي الكيونات ، والسيارات حيث تقوم معامل فولفسفاغن ، في مدينة فولفسبورغ قرب برونشفايغ ، والتي تنتج قرابة ثلاثة ملايين سيارة بالعام ومعامل المنتجات الكيماوية ، والمنسوجات الصوفية ، والصناعات الغذائية المتنوعة . وتحتوي

مدينتا سالزغيتير Salzgitter وبينه Peine الواقعتين جنوب شرق هانوفر ، وقرب
مناجم حديد هارز ، على معامل صناعة الحديد الكبيرة .

وهكذا حققت منطقة سكسونيا السفلى ، نجاحات رائعة فصناعاتها أصبحت
تمثل الآن صناعات الرور .

- سواحل بحر الشمال : وتحتوي هذه السواحل على حقول بولدر غنية
ومصبات أنهار عميقة تؤوي مينائي برمين وهامبورغ الكبيرين . والواقع لامتلك
ألمانيا الاتحادية سوى واجهة ضيقة من سواحل تنقسم إلى جزأين لوجود شبه
جزيرة جوتلند الدانماركية .

- فسواحل بحر الشمال هي امتداد للسواحل الهولندية . وتكون منبسطة .
وقد قطعها طغيان البحر على شكل خلجان (دولارت ، جاد) وإلى مصاب
خليجية (مصب الويزر والإلب) . كما عمل البحر على عزل جزر تشكل سلسلة
تكاد تكون مستمرة موازية للساحل ، هي الجزر الفريزونية . وقد عمل الإنسان
هنا على تحويل مساحات واسعة من الوحول التي تتكشف أثناء الجزر إلى حقول
غنية خصيبة ، تدعى هنا مارشن تماماً كما فعل ويفعل الهولنديون^(١) . وتخصص
هذه الحقول ، أو البولدر ، لتربية الماشية الكبيرة ، وتكون كثافة السكان هنا
كبيرة ويقطن السكان في بيوت مرصوفة على طول الحواجز الاصطناعية أو في
قرى باتجاه الداخل .

- أما ساحل بحر الشمال فهو ساحل غربي حديث . فنجد هنا جروفاً
حوارية ، تنتشر فيها الخلجان من نوع رياس Rias كما في سواحل هولشتاين .
غير أن البحر البلطي لا يعرف الحركة التجارية الكبيرة المعهودة في أوروبا
الغربية . فموانئ البلطي ، التي تكون أحياناً ذات ماض مجيد ، مثل كييل

(١) هناك مثل هولندي يقول لقد صنع الله البحر وعلى الهولندي صنع سواحله .

ولوبك ، لا تتنع بأهمية تماثل موانئ المصبات النهرية والتي تتعرض لحركة المد والجزر الشديدة في بحر الشمال .

- وترتبط مدينة إمدن الواقعة عند مصب نهر إيس ، قرب الحدود الهولندية الشمالية ، بحوض الرور بقناة وتصرف بعض الإنتاج الألماني القادم من وستفاليا . هذا وتتلقى مدينة وهلمز هافن البترول الخام الذي يضخ إلى بلاد الراين بواسطة الأنابيب . ولا زالت مدينة برمين (٦٠٠,٠٠٠ نسمة) على نهر الويزر Weser ميناء ركاب وبضائع فضلاً عن مركب كامل في الصناعة الحديدية ، يعتمد على استيراد فلزات الحديد من الخارج .

وتعتبر هامبورغ أول ميناء وثاني مدينة في كل ألمانيا وفيها ١,٨٥٠,٠٠٠ نسمة ، ويقع الميناء على ذراع من نهر الإلب على مسافة ٨٠ كم من البحر . وبعد أن دمرتها الحرب استعادت نشاطها ، ولكن بعنفوان أكبر ، وتقوم بتأمين تصريف تجارة ظهرها التشيكي وتاجر مع أقطار الشرق والغرب . وقد نشأت الصناعة فيها عن التجارة الكبرى وعن الرساميل المتكدسة لدى بورجوازية قديمة (أهم ترسانات بناء السفن الألمانية ، معامل تكرير بترول ، مصاهر نحاس ، صناعات ميكانيكية ، وكياوية وغذائية متنوعة) . وتم الاتصالات مع غيرها بواسطة نهر الإلب وبقنوات تنطلق من النهر المذكور وبالعديد من السكك الحديدية .

ثالثاً - ديناميكية ألمانيا الاقتصادية

تتلخص عوامل قدرة ألمانيا الصناعية في أوروبا الغربية في عاملين :

- عن تنظيم اقتصادي ناجع .

- عن غناها بمصادر الطاقة .

فالنشاط الصناعي ، الذي يشمل كل أرجاء ألمانيا ، يهيم على الحياة

الألمانية . فعدد السكان العاملين الذي يبلغ ٢٨ مليون نسمة ، يعمل منهم ٣,٥ مليون فقط في القطاع الأولى ، أي في الصيد والزراعة والمناجم ، في حين أن ١٢,٣ مليون يعملون في القطاع الثاني أي في الصناعة ، و ١١,٢ ملايين في القطاع الثلاثي ، أي يزيد عدد العاملين في الصناعة أربع مرات عن العاملين في ميدان الزراعة . وبذلك يمكن مقارنة ألمانيا بكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي اللذين يملكان ثروات أكثر بكثير .

وتروي معظم الأساطير الألمانية قصص أقزام حاذقين يستوطنون الجبال . وقد ورثت الصناعة الألمانية التقاليد الصناعية القديمة : مثل صناعة الحياكة في وستفاليا ، واستثمار مناجم الهارز . بيد أن الثورة الصناعية تفجرت هنا متأخرة عن بريطانيا وفرنسا . وكان على ألمانيا أن تنتظر نشوء سوق داخلي وحيد Zollverein ، ثم الوثبة التي تلت تحقيق الامبراطورية الألمانية كي تنشأ في سنوات قليلة صناعة كبيرة تتمتع بدناميكية فريدة .

- وقد كان لدى الصناعة الألمانية دوماً هيئة أركان مؤلفة من التقنيين والعلماء . فلم تستند الصناعة في أي مكان في العالم مثلما استندت هنا على العلم التطبيقي ولم تستخدم بصورة أكثر دقة أبحاث المخابر الجيدة التجهيز . وقد كان التركيز الصناعي مبكراً جداً ، واتخذ اتساعاً مذهشاً . فما يسمى كونزرن Konzern هي عبارة عن مجموعات من مؤسسات ترتبط بالمشاركة المالية . فهي تضم إنتاج المواد الخام وصنع المنتجات المصنوعة . وبذلك تحتكر عملياً إنتاج الصناعات الرئيسية ، كما تؤمن لها قدرتها الإشراف على الأسواق . ولم يكن منع التركيز بعد الحرب العالمية الثانية أكثر من حادث عابر ، إذ لم تتبدل بنى الصناعة الألمانية الكبرى بالواقع . فقد عادت امبراطورية كروب Krupp مع هيئتها الرئاسية ، مثلما عادت سيطرة رجال الصناعة في إقليم الرور ، بحيث يعمل في مصانع كروب وملحقاتها ١٠٠٠٠٠ عامل أو ما يعادل كل الطبقة العاملة في المملكة

المغربية . ففي مجال الصناعة الثقيلة نجد أن ثمانية شركات ضخمة ، منها كروب ، تنتج ثلاثة أرباع إنتاج الفولاذ . وتحتل شركة Thyssen أول مكانة في أوروبا (٨ ملايين طن فولاذ) . وتهين شركة كروب على مؤسسات صناعة الفحم ، ومعامل فولاذ راينهاوزن ، والصناعة المعدنية المتنوعة في مدينة إيسن . وتهين شركة سينس و A. E. G. على الصناعات الكهربائية ، مثلما تسيطر شركة باير وباديش آنيلين على الصناعات الكيماوية . فتملك شركة باديش آنيلين في مدينة لودفيغهافن أكبر معمل في العالم ، معمل يتألف من ١٥٠٠ بناية صناعية و ٢٠٠ كم من الخطوط الحديدية ، و ٢ مليون طن من المواد الأولية ، و ٤٦٠٠٠ عامل ومستخدم ، وتصنع هذه الشركة ٣٠٠٠ مادة (أصبغة ، أسمدة ، لدائن . . .) وتصدر أكثر من ثلث منتجاتها الكيماوية ، البالغة مليون طن ، إلى الأسواق الخارجية .

أما شركة فولكسفاغن فتنتج ثلاثة أمثال إنتاج رينو الفرنسية . وهكذا تجنح المؤسسات الصناعية الألمانية لاتخاذ أبعاد أميركية .

- ويعتبر اقتصاد ألمانيا الغربية قائماً على الفحم . بيد أن إنتاج الفحم الذي بلغ ١٤٠ مليون طن بالإضافة إلى ١٠ ملايين طن من الليغنيت في ١٩٦٥ ، يجنح الآن للتدني فهبط إلى ٨٨,٥ مليون طن فحم و ١٢٣ مليون طن ليغنيت في ١٩٨١ ، لكننا لا نجد فوق القارة الأوروبية ثروات مماثلة من الوقود الصلب إلا في بريطانيا وأوكرانيا . وتطيف مكامن الفحم بالكتل الهرسينية فيقع حوض السار والرورجنوب وشمال الكتلة الشيستية الراينانية ، أما حوض سكسونيا السفلى الصغير فيقع في السهل الشمالي . وإذا كانت القدرة الحرارية للليغنيت تعادل ثلث قدرة الفحم الحجري^(١) فإن توضع هذه المادة ، وهي

(١) تعني عبارة TEC (طمف) طن معادل فحم حجري . وهي وحدة لقياس الطاقة التي تسمح بموازنة مختلف

مصادر الطاقة بين بعضها حسب المعادلة التالية :

١ طن فحم = ١ TEC أي طمف أو ط م ف .

بقايا غابات واسعة تعود للدور الجيولوجي الثالث ، مدفونة تحت الرمال والوحول البحرية ، واللاغونات أو في المصببات النهرية الواسعة ، تظهر هذه التوضعات على شكل طبقات ثخينة تتراوح بين ١٠ و ٩٠ م ، تستغل أحياناً تحت السماء في السهول الرسوبية .

ولم تهمل ألمانيا موارد القدرة الأخرى كالفحم الأبيض والنفط ، فقد بنيت سدود في جبال الألب البافارية وفي شمال الكتلة الشيستية الراينانية . وأنتجت ألمانيا الغربية من الكهرباء في ١٩٦٥ ما يعادل إنتاج بريطانيا تقريباً أي ١٧٠ مليار كيلو واط ساعي منها ١٢ مليار من أصل كهربائي كي يرتفع إلى ٣٦٨,٧ مليار ك و س في ١٩٨١ . كما تم التنقيب في باطن الأرض بشكل نشيط بحيث أصبحت منطقة هانوفر وحوض نهر إمس Ems وجوار الحدود الهولندية ، تقدم قرابة ٤,٥ ملايين طن من البترول في ١٩٨١ . وتستورد ألمانيا النفط بواسطة موانئ بحر الشمال (روتردام الهولندي ، وللمزهافن وهامبورغ) وعن طريق موانئ البحر الأبيض المتوسط (مرسيليا ، جنوا) حيث يضخ النفط بواسطة الأنابيب الطويلة نحو معامل التكرير التي تواكب مجرى نهر الراين ، مثلما تمتد من حدود هولندا حتى كارلسروهه .

وتكرر ألمانيا الغربية ١٥٢,٩ مليون طن من النفط بالعام والذي يؤلف ٥٠٪ من الطاقة التي تستهلكها مقابل ٤٠٪ للفحم . وتبدو احتياجات ألمانيا من الغاز الطبيعي عظيمة ، ويقدر الإنتاج بحوالي ١,٩ مليار متر مكعب بالعام . وهكذا يبدو الفحم عرضة لمنافسة قاسية لدرجة تدعو لضرورة دعم إنتاجه بشكل اصطناعي والرضى بشرائه بسعر عال .

= ١ طن ليفنيت = ٠,٦ TEC (طمف) .

١ طن منتجات نفطية = ١,٥ TEC (طمف) .

١٠٠٠ م^٣ غاز طبيعي = ١,٢ TEC (طمف) .

١٠٠٠ ك و س = ٠,٦ TEC (طمف) .

ويتكشف باطن الأرض في سكسونيا السفلى عن مقادير ضخمة من البوتاس والملح الصخري . كما تعتبر ألمانيا بلداً منتجاً للمعادن المتنوعة منذ القديم ، غير أن مكامن الرصاص والتوتياء والفضة في إقليم هارز ، وفي الكتلة الشيستية الراينية التي استغلت منذ أمد طويل ، قد شارفت على النفاد . كما يعتبر إنتاج فلزات الحديد في منطقة هارز وسيفرلاند وبافاريا (٣ ملايين من المعدن الصافي) غير كاف بأي حال من الأحوال . لذا تلجأ ألمانيا إلى صهر الخردة التي تشتريها وإلى استيراد فلزات السويد الغنية ، وفلزات لا برادور ، وأمريكا الجنوبية وموريتانيا بمقادير ضخمة لسد حاجة الصناعة الحديدية الألمانية .

ألمانيا الغربية رابع دولة صناعية في العالم :

تنتج ألمانيا الاتحادية ١٢٪ من الإنتاج الصناعي في العالم مقابل ٣٠٪ في الولايات المتحدة و ٢٢٪ في الاتحاد السوفياتي و ١٨٪ في اليابان . فقد ولدت صناعة المعادن في ألمانيا في العصر الوسيط في الجبال الهرسينية الغنية بالمعادن والتي كانت تقدم غاباتها الوقود اللازم . ثم انزلت في القرن الماضي نحو الأحواض الفحمية ، كي تنتشر في القرن العشرين في سائر أرجاء البلاد . وهكذا تستطيع ألمانيا أن تنتج قائمة طويلة من المنتجات المعدنية ، بدءاً من الصهير والفولاذ حتى أكثر الأدوات تعقيداً (الكترولنيك بشكل خاص) ومكائن صانعة ، وأكثر المكائن الصناعية تنوعاً (رولمانات ، سيارات مثل أوبل ، وديملربنز ، وهانوماغ وهنشل ، ومان) ، بحيث صدرت في عام ١٩٦٩ (٢,٠٥٠,٠٠٠) سيارة أي ٥٧٪ من إنتاجها من السيارات فأصبحت أول دولة مصدرة للسيارات في العالم إلى أن تفوقت عليها اليابان في ١٩٨٢ ، فضلاً عن سيارات فورد (تاونس) وفولفسفاغن ، مثلما تصدر قسماً كبيراً للأسواق الخارجية فضلاً عن سوق داخلي قدير ، لأن في ألمانيا سيارة لكل ٣ أشخاص مقابل ١٢٣ مليون سيارة في الولايات المتحدة عام ١٩٨١ مقابل ٢٣٠ مليون نسمة . ويبلغ مجمل إنتاجها من أنواع

السيارات السياحية ٤ ملايين سيارة و ٣١٣٠٠٠ سيارة نفعية في عام ١٩٧٧ .
وتنتج ألمانيا ٤٦ مليون طن فولاذ ، كما أن ترسانات بناء السفن فيها دون مثيلاتها
في اليابان وبريطانيا . وهكذا تبدو المنافسة الألمانية قوية في كل الاختصاصات .

- أما في ميدان الصناعة الكيماوية فقد ظلت مدة طويلة بلا مثيل
وتحتفظ بالمكانة الأولى في أوروبا . وتدين بمكانتها هذه إلى علمائها الكيماويين
الذين عرفوا أن يستخرجوا من الفحم عدداً من المنتجات الثانوية ، وأن يوفرُوا
لألمانيا منتجات تعويضية Ersatz عديدة . وتخرج من معامل البترو كيمياء
والفحمي كيمياء منتجات عديدة مثل الأصبغة والدهانات ، ومواد التصوير
والصيدلة ، والمواد البلاستيكية ، والمذيبات ، والأسمدة والمطاط التركيبي .

- أما الصناعات الأخرى ، فلا تتعلق كثيراً بالثروة الفحمية . فعلى صناعة
النسيج أن تستورد موادها الأولية من قطن وصوف ، ولهذا تستعمل ألمانيا
الألياف الاصطناعية والتركيبية أكثر فأكثر . ولا تكون شهرتها بالنسيج كبيرة .
غير أن الغابات التي تغطي ٢٨٪ من رقعة ألمانيا الغربية تغذي العديد من
الصناعات الخشبية ، كصناعة الألعاب ، وعجينة الورق . كما ساعد إنتاج السيللوز
على تطوير الأنسجة الاصطناعية مثل الرايون ولاسيا الفيبران . وتقوم
صناعة البناء بإعادة تشييد المساكن حسب نسق سريع ، فهي تقيم شقة في كل
دقيقة . وقد بنت ألمانيا ١٣ مليون شقة منذ ١٩٤٥ . كما تحتفظ صناعة الزجاج
والبصريات والطباعة بشهرتها القديمة .

- ولا تزال المعامل متجمعة في منطقة الرور التي تحتفظ بتفوق لا ينازعها
عليه منازع ، غير أن اللامركزية الصناعية أصبحت شعاراً ، لأن الصناعة راحت
تنتشر في منطقة الراين الأوسط ووادي الماين ، وسكسونيا السفلى والسار ، مثلاً
أصبحت تستقر في المدن ، ذلك لأن بعثرة المؤسسات الصناعية ، والأيدي العاملة
في الأرياف يطبع مجموع البلاد بطابع الاقتصاد الصناعي .

الزراعة :

تتخذ الزراعة طابعاً علمياً ، فرغ فقر التربة ، فهي تكفي لتغذية الشعب الألماني مدة ٨ شهور بالعام . والواقع لم يضح الألمان بزراعتهم كما فعل الإنكليز في القرن الماضي . فقد حاولوا أن ينتجوا من أرضهم القسم الأعظم من تموينهم رغم جذب تربهم الحامضة غالباً أو من نموذج بودزولي . غير أن كثافة السكان تفرض الحصول على إنتاجية زراعية عالية ومردود مرتفع وتغطي الأراضي الزراعية ٤٥,١٪ من مساحة البلاد ، والأراضي العقيمة ١٤,٧٪ .

وللزراعة الألمانية طابعاً تقدماً بسبب شدة استخدام الأسمدة الكيماوية وباستعمال العديد من المكائن الزراعية (مليون جرار) ، ويزيد على ذلك من حيث الأهمية التعليم الزراعي . ففوق مساحة واحدة تستعمل ألمانيا ضعف ماتستعمله فرنسا من أسمدة وجرارات . كما تكثر معاهد الأبحاث الزراعية والتعليم الزراعي . ففي إقليم بافاريا مستشار زراعي واحد لكل ١٠٠ مزارع كما يتم اصطفاء الماشية بدقة حسب القواعد المتبعة في الدانمارك وهولندا^(١) .

هذا ويسيطر الاستغلال المباشر والملكية الوسطى والصغرى في بلاد الراين وفي بافاريا . ولا تزال حيازات كبرى في السهل الشمالي . ولكن اللاجئين حصلوا على قطع من الأرض ومن أملاك الدولة ومن غابات الدولة . وهنا بقيت الحيازات الكبرى كي تستطيع إنتاج مواد غذائية بمقادير كبيرة . ويؤلف اللاجئين واحد من ١٢ من جملة المزارعين . وهكذا تبدو الأرياف الألمانية اليوم مفرطة سكانها . وفي ألمانيا ١,٦ مليون مزرعة تمتد كل منها على رقعة مساحتها ٨ هكتارات فقط . وعلى هذه المساحات الصغيرة تؤدي المكننة وتكثيف الزراعة

(١) تنتج البقرة الحلوب مقدار ٥٠٠٠ لتر بالعام في الدانمارك مقابل ٤٥٠٠ لتر في هولندا ، و ٢٩٠٠ لتر في الولايات المتحدة و ٢٩٠٠ لتر في بريطانيا و ٢٩٠٠ لتر في فرنسا و ٢٠٠ لتر فقط في الهند .

أحياناً ، إلى استئانة المزارعين الذين يلجؤون للقروض أو يتركون الأرض^(١) .

- وتنطبق الأقاليم الزراعية على الصفات الطبيعية للتربة . فلا زالت الغابة والأراضي الرديئة البور تغطي مساحات كبيرة على الجبال وفوق السهول الرملية الشمالية . ويسود القمح والشوندر السكري على ترب اللوس في ألمانيا الوسطى (نطاق البورد) ، ويبلغ مردود القمح الوسطي ٤٠ كنتالاً بالهكتار مقابل ٨ في البلدان العربية . وتكون زراعة الجاودار والبطاطا مصحوبة بتربية الخنازير في السهل الشمالي . أما أراضي الجنوب الطيبة ، ذات المناخ الأكثر لطفاً ، فوجود فيها زراعة القمح والبرسيم وخاصة حشيشة الدينار والتبغ والأشجار المثمرة ، كما تكثر الكروم على سفوح الوديان المعرضة للشمس .

ويؤمن الإنتاج الحيواني للمزارعين ثلاثة أرباع دخلهم ، ويخصص ثلثا إنتاج الحبوب (شعير ، شوفان) لتغذية الماشية الكبيرة . كما تغطي المراعي حقول البولدر والمستنقعات المجففة عند هامش بحر الشمال ، والمناطق الجبلية كالألب والغابة السوداء والسفوح البافارية .

أما زراعة الخضار والثمار فتتميز المناطق المحيطة بالمدن الكبرى .

- هذا ويستمد الألمان غذاءه بالدرجة الأولى من البطاطا التي يبلغ إنتاجها ١٢ مليون طن ، وبالدرجة الثانية من لحم الخنزير ودهنه ، وبالدرجة الثالثة من الحبوب ، إذ يبلغ إنتاج الجاودار ٣,٦ مليون طن والقمح ٧,٢ مليون طن ، وأخيراً من سكر الشوندر ٢,٩ مليون طن . وقد ازداد استهلاك لحوم الأبقار والأغنام والحليب والبيض والطيور والثمار (تفاح وهي أول دولة أوروبية منتجة ، كرز ، خوخ) بشكل يلفت النظر : ويحاول المزارع الصغير إرضاء حاجات سكان المدن

(١) ينتج كل ملاح أمريكي ما يكفي لإطعام ٤٦ شخصاً ، والفرنسي ٢٥ شخصاً . والسوفييتي ١٥ شخصاً والأفريقي شخصين .

المتزايدة . هذا ويؤمن الصيد البحري ، الذي يمارس من أساطيل تنطلق من كوكسهافن ومن آلتونا ومن فيزرمونده ، غذاءً إضافياً ذا قيمة عالية .

- هذا وتدعم الدولة المزارعين بتحديد أسعار بيع عالية ، مما يجعل المنتجات الزراعية الألمانية غير منافسة في الأسواق الخارجية . وهناك « المخطط الأخضر » الرامي إلى تشجيع إنتاج اللحم والألبان . ويؤدي تجميل الأراضي إلى القضاء على انخفاض مداخيل الفلاحين بالنسبة للتي توفرها الصناعة . فالزراعة التي يعمل فيها ٨٪ من السكان العاملين لا تقدم سوى ٦٪ من الدخل القومي في ألمانيا الغربية . وهي تؤمن ثلثي الحاجات الغذائية للبلاد في حين يحصل البريطانيون على نتائج مماثلة بنصف العدد من المزارعين .

المواصلات :

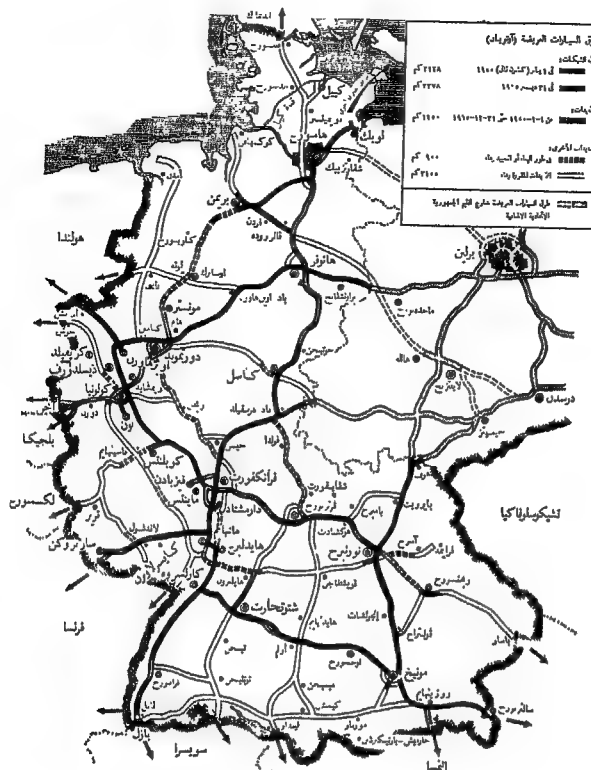
لقد تحقق توازن رائع بين مختلف وسائل النقل : من خطوط حديدية وطرق مائية وبرية . فالشروط الطبيعية مواتمة لإقامة شبكة مواصلات . فالعتبات والسهول الانهدامية قد هيأت نقاط التقاطع في ألمانيا الوسطى والجنوبية . أما السهل الشمالي فلا يحوي على عائق ذي بال . وتكون مجاري الأنهار هادئة وغالباً صالحة للملاحة ، وتتلاقى الطرق الدانوبية الجنوبية مع محور الراين مثلما تتصل به طرق السهل الكبير المجرودي في الشمال . ولكن الإنسان هو الذي نظم ونسق هذا التجهيز البديع .

فليس للملاحة النهرية أهمية بالعالم كالأهمية التي تكسبها هنا ، اللهم إلا في هولندا . فهي تقوم بثلاث نقلات البضائع ، وتتصرف بطرق ملاحية طولها ٦٠٠ كم تكون أحياناً قابلة لتحمل سفن نهريّة حولتها ١٥٠٠ طن . وقد تم تنظيم معظم الأنهار تقريباً على يد الإنسان فقد قطعت أذرع نهر الراين كما نسفت العتبات الصخرية الضحلة . وتصدع في هذا النهر سفن تتراوح حولتها بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ طن وتعادل حركة السفن فيه الحركة في البحيرات الكبرى الأمريكية .

وتعتبر مدينة كارلسروهه ومانهايم وكولونيا ودوسلدورف ودويسبورغ من أكبر الموانئ النهرية في العالم .

وتربط قناة ميتلاند سهل ألمانيا الشمالي بنهر الراين والإلب لمصلحة ميناءي برين وهامبورغ ، كما يربط نهر الموزيل بعد تنظيم مجراه منطقة الرور بمنطقة اللورين الفرنسية . كما ساعد تنظيم مجرى نهر النكار على نهضة مدينة شتوتغارت . هذا وقد أصلحت الاتصالات المائية بين الراين والدانوب بواسطة نهر الماين فأصبحت فرانكفورت وريجنسبورغ عبارة عن ميناءين نهرين كبيرين .

- وتملك ألمانيا نصف طرق السيارات العريضة في أوروبا « اوتوبان » (شكل ١٧) ومحور الشبكة هو طريق هامبورغ - فرانكفورت - بال . وبعد أن



الشكل ١٧

تم بناؤه لأغراض استراتيجية في العهد الهتلري ، لم يعد الآن كافياً لحركة السيارات الكثيفة عليه ولا سيما بالنسبة للشاحنات الثقيلة .

- ولا تفوق الشبكة الحديدية الألمانية التي يبلغ طولها ٣٥٠٠٠ كم من ناحية الكثافة إلا الشبكة البلجيكية . ولكنها أقل مركزية من الشبكة الفرنسية . وتعتبر كولونيا وهانوفر ومونيخ عقدة طرق حديدية مثل برلين . وإذا كانت سرعة القطارات أقل من فرنسا واليابان فإن الخطوط الحديدية الألمانية تؤمن نقلات عظيمة للركاب وللمنتجات الثقيلة كاللحم ، ولا سيما على مسافات قصيرة . وتبدو كهربة الخطوط متقدمة جداً .

- ويكون النشاط الملاحي البحري متركزاً ، على الواجهة البحرية الضيقة ، في بضعة موانئ كبيرة على بحر الشمال مثل : ايمدن وفيلهلمزهافن وبريمن (١٦ مليون طن منقولة سنوياً) وهامبورغ (٣٦ مليون طن) . وتحتكر هامبورغ لوحدها نصف التجارة البحرية الألمانية فأصبحت أحد أكبر موانئ أوروبا . وقد تم حفر قناة كييل سنة ١٨٩٥ لتحاشي المرور بالمضائق الدانغركية ، وتزفيتها كل سنة سفن يبلغ مجموع حمولتها ٦٠ مليون طن . وتبلغ حمولة الأسطول التجاري الألماني الغربي ٨ ملايين طنة وعاد للظهور على كل بحار العالم . أما شبكة خطوط الطيران الألمانية (لوفتهانزا) فتشع من فرانكفورت ودوسلدورف على مختلف أرجاء العالم .

هذا ولا تتوقف طرق المواصلات عن التحسين . فتتدد طرق « الأوتوستراد » دوماً وبكثافة أكبر من الشمال للجنوب ومن الغرب نحو الشرق . كما أن قناة كييل التي غطيت جزئياً لم تعد تشكل عائقاً أمام المواصلات البرية بين ألمانيا والأقطار الأسكندنافية . كما تتصل ألمانيا بالدانمارك بواسطة السفن الناقلة للقطارات والسيارات .

التجارة الألمانية :

لقد احتلت ألمانيا الغربية المكانة الثانية بالعالم في ميدان التجارة . فهي بحاجة إلى استيراد مقادير عظيمة من المواد الغذائية ومن المواد الأولية (معادن ، بترول ، منسوجات) . وتعرض إنتاجها الوطني في معارض هانوفر وكولونيا وفرانكفورت ، وتسهل رخص أسعار منتجاتها المصنوعة ، وتميز وسائلها التجارية ، والمهارة التي يظهرها السامرة الألمان ، فتح أسواق عديدة لمنتجاتها ، وحتى في أوروبا الشرقية .

وهكذا تصدر ألمانيا ٥٥ ٪ من إنتاجها من السيارات ، وثلاث ماكنات الخياطة ، وأكثر من نصف الألعاب ، ونصف إنتاجها الكيماوي ومكائنها الصانعة . وتظهر سياراتها الشعبية (فولغسفاكن) في كل طرق العالم . وتصدر ألمانيا الغربية لوحدها ١٣ ٪ من الصادرات العالمية .

وقد خسرت قسماً من زبائنها في أوروبا الشرقية والدانوبية ، ولكنها تزيد في تجارتها . أولاً : مع فرنسا التي أصبحت أهم زبائنها ومع باقي أقطار السوق المشتركة (٣٠ ٪ من مجموع تجارتها) . ثانياً : مع الولايات المتحدة . ثالثاً : مع البلدان المتخلفة في أمريكا اللاتينية وأفريقيا والشرق العربي وتركيا والشرق الأقصى بما في ذلك الصين ، حيث تقوم الشركات الألمانية بعد استعانتها بحكومتها بتنفيذ مشاريع كبرى وتقدم أدوات تجهيزية . ويدخل عملاؤها إلى مكاتب المهندسين والدوائر التي تنكب على تنفيذ المخططات الحكومية . ويكون بحثها عن الأسواق من مقياس عالمي كما أن ميزانها التجاري رابح دوماً .

المشكلات الألمانية :

لقد أوجدت ألمانيا الاتحادية مجتمعاً يتصف بقوة الاستهلاك تماماً كما فعلت الولايات المتحدة . فتعاقبت على البلاد بضع « موجات » من التهافت على

الاستهلاك : غذاء ، مسكن ، كساء ، أدوات منزلية ، سيارات ، أسفار ورحلات . وهكذا خلقت ألمانيا الغربية مجتمعاً مستقراً متمتعاً بالرخاء قبل توحيد دولتي ألمانيا . ولا يتعلق مصير برلين الغربية بها بقدر ما يتعلق بالدولتين الجبارتين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

وبلغت « المعجزة الألمانية » درجة جعلت من العمال الألمان الذين كانوا بالواقع محققي الانتعاش الاقتصادي ، يشتركون هم أيضاً في الازدهار والرخاء العام ، ويجنحون اليوم لتأليف طبقة وسطى . وترتفع الأجور بسرعة تفوق زيادة الأسعار ، بحيث تستحوذ الأجور على ٦٠ ٪ من الدخل القومي ، وأصبح الفقر نادراً . كما أدى توقف الهجرة من الشرق إلى استنفاد كل احتياط الأيدي العاملة . وقد يؤدي انكماش أرباح العمل إلى تحديد الاستثمارات وكبح جماح التوسع الاقتصادي .

وللاقتصاد الألماني أساس زراعي ضيق . فليس لألمانيا سوق داخلي مماثل لسوق الولايات المتحدة لتصريف إنتاجها الصناعي لأن أمريكا لا تصدر أكثر من عشر إنتاجها . كما لا تماثل إنكلترا التي تعتبر قلب امبراطورية كبرى هي الكومنولث . وهكذا يبدو الازدهار الاقتصادي الألماني تحت رحمة التجارة مع العالم الأجنبي ، لأنها بحاجة ماسة إلى التصدير . وقد نجحت في ترسيخ أقدامها في أسواق بعيدة في أمريكا وآسيا ، وتنتظر الكثير من السوق المشتركة الذي تؤلف أحد أركانه . ولكن هبة الصادرات على الواردات يؤدي لتراكم رؤوس الأموال لديها ، مما يؤدي لافتقار زبائنها للمال السائل مما يدفعهم لعقد اتفاقات تجارية مع دول أخرى . وهكذا يبدو الاستقرار الاقتصادي الألماني قابلاً للزعزعة ويعرف الألمان ذلك جيداً وفي مطلع الثمانينات أخذت ألمانيا تعاني من البطالة التي تصيب عشر الطبقة العاملة تقريباً .

وإذا ما تناقصت الصادرات ، فيمكن مع ذلك الحفاظ على الرخاء بفعل

فعالية صناعة البناء والصناعات الملحقة بها ، أو عن طريق زيادة نفقات الدفاع واستهلاك الأفراد .

والخلاصة يمكن القول : ان ألمانيا الغربية دولة كبرى تعتمد على التصدير الصناعي بالدرجة الأولى شأنها شأن بقية الدول المتقدمة العالية التصنيع .

وهذا على خلاف الدول المتخلفة التي تعتمد على تصدير المواد الخام لضعف التصنيع فيها أو انعدامه مثل :

الدولة	المنتجات	قيمتها بالنسبة للصادرات الكلية
غانا	كاكاو	٪ ٦٣
إيران	البترو	٪ ٧٥
السودان	قطن	٪ ٦٠
النيجر	خامات الالورانيوم	٪ ٩٠
موريتانيا	خام الحديد	٪ ٨٠

ألمانيا الشرقية

أو (جمهورية ألمانيا الديمقراطية)

١ - تعريف

لقد أصبحت منطقة الاحتلال السوفياتية السابقة جمهورية ديمقراطية شعبية . وتبلغ مساحتها ١٠٩٠٠٠ كيلو متر مربع يقطنها ١٧ مليون نسمة (كثافة ١٥٥ نسمة في كم^٢) . وتقل مساحة هذه الجمهورية عن نصف مساحة ألمانيا الاتحادية ، ولا يزيد تعداد سكانها عن سكان ولاية راينانيا - وستفاليا ، ولكنها تعتبر ثاني دولة صناعية في العالم الشيوعي . وتبلغ نسبة التوالد فيها ١٤ ٪ مقابل ١٢ ٪ للوفيات ، والعمر المتوسط ٧٢ سنة ويعيش ٧٧ ٪ من السكان في المدن .

دولة قامت لتبقى :

لقد كانت الجمهورية الديمقراطية الألمانية عبارة عن كيان عرضي ولكنها استطاعت أن تبني لها كياناً صلباً قابلاً للبقاء . فبعد القطيعة التي وقعت بين الحلفاء في عام ١٩٤٧ اتخذت السياسة السوفياتية اتجاهاً آخر في منطقة احتلالها . فبعد أن كانت عمليات تفكيك المصانع ناشطة في فترة ١٩٤٥ - ١٩٤٦ مثلما كانت المؤسسات الصناعية الألمانية تتحول إلى شركات سوفياتية (حتى عام ١٩٥٣) ، سرعان ما عزفت روسيا عن هذه السياسة تماماً . وهكذا شكلت المناطق الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي جمهورية ألمانيا الديمقراطية في ٧ تشرين الأول ١٩٤٩ (شكل ١٨) .



- وتمتد الجمهورية الديمقراطية من بوهيميا جنوباً حتى بحر البلطي . وفي الشرق يفصلها نهر الأودر ورافده نهر نبيسّه عن الأقطار السلافية . وفي الغرب يفصلها خط طوله ١٤٠٠ كم عن ألمانيا الفيدرالية . وتحتوي هذه الدولة الجديدة على قسم كبير من حوض نهر الإلب وروافده ، مثل : نهر سالة Saale وهافل Havel ، غير أن مصب نهر الإلب الذي تقع عليه هامبورغ لا يخصها ، وكذلك مصب نهر الأودر حيث خسرت مدينة ستيتن Stettin الواقعة غربي النهر المذكور . وتبلغ مساحتها ضعف مساحة سويسرا ، ولكن لا تزيد عن ربع مساحة دولة ألمانيا عام ١٩٣٩ . ويمكن مقارنتها مع جارتها تشيكوسلوفاكيا ، من ناحية أبعادها ، وقدرتها الاقتصادية ، ومن وجهة النظر إلى بنيتها الاقتصادية والاجتماعية .

- وقد كان الاستيطان الجرمانى في هذه المنطقة الألمانية حديثاً نسبياً ، فالاستيطان الألماني الذي أعقب القرن العاشر ، لم يستطع أن يطغى تماماً على السكان السلاف السابقين ، ففي إقليم لوزاس Lusace ، الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من البلاد ، لا زال السوراب يحتفظون بلسانهم السلافي ، كما أن إقليم فلامينغ المجاور يوحى دائماً بإعمار الأرض من قبل الفلمنك Flamands أقرباء الهولنديين . وتسود الديانة البروتستانتية على ألمانيا الشرقية لحد كبير ، رغم قدوم ألمان كاثوليك نزحوا من إقليم سيليزيا الذي ألحق ببولونيا ، بينما يتوازن الكاثوليك والبروتستانت في ألمانيا الغربية . ولا زالت مدينة فيتنبيرغ Wittenberg التي نشر فيها لوثر تعاليمه والواقعة على نهر الإلب مركز الإيمان الإنجيلي . ورغم فصل الكنيسة عن الدولة لا تزال البروتستانتية تؤلف إحدى القوى المعنوية في الدولة الجديدة .

- وقد اتخذت ألمانيا الشرقية شكل دولة موحدة ، فقد حل مكان الولايات القديمة ، وهي : براندبورغ ، مكلنبورغ ، تورنجيا ، ساكسونيا ، سكسونيا

اينهاالت ، خمس عشرة محافظة دون تقاليد سياسية . وبعد أن كانت السلطة المركزية تقيم بالبدء في ضاحية بانكاو Pankow ، أصبحت تستقر الآن في برلين نفسها .

- هذا وقد اندمجت ألمانيا الشرقية في أسرة الديمقراطيات الشعبية . وتعتبر أكثر الدول الاشتراكية تصنيعاً بعد الاتحاد السوفيتي ، فهي التي تملك أكبر نسبة من العمال الصناعيين بين السكان ، وتتفوق في تجارتها الخارجية على بولونيا . وإذا كانت ألمانيا الغربية تبني في أعين الأميركيين دولة نموذجية من الأسلوب الرأسمالي ، فإن ألمانيا الشرقية تظهر في عيون السوفييات كدولة اشتراكية نموذجية .

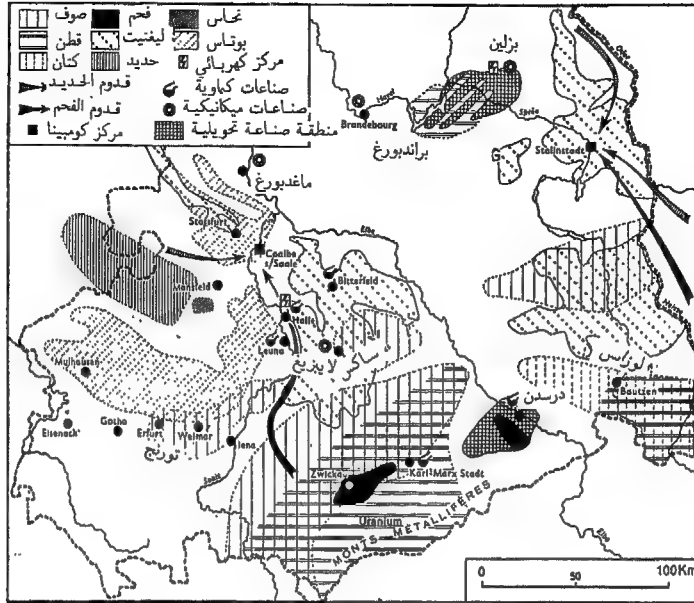
فوق مساحة مقدارها ١٠٩٠٠٠ كم^٢ ، لا يتجاوز عدد السكان ١٧ مليون نسمة بما في ذلك برلين الشرقية . وبذلك تبلغ الكثافة في ألمانيا الشرقية ١٥٥ نسمة ، أي أقل من الكثافة في ألمانيا الغربية . رغم قدوم بضعة ملايين من اللاجئين أو المبعدين ، الذي غادروا المناطق المنضمة إلى بولونيا أو منطقة السودان التشيكية . وتماثل ألمانيا الشرقية وضع إيرلندا في أنها خسرت مادتها الحيوية عن طريق الهجرة ، ف منذ عام ١٩٥٠ غادر ٤٢٥٠٠٠ ألماني ألمانيا الاتحادية باتجاه ألمانيا الشرقية ، مقابل ٢,٦ مليون شخص لاجئ من ألمانيا الشرقية باتجاه الاتحادية ، وتيار هذه الهجرة معروف قبل ١٩٣٩ ، ولكن التقسيم السياسي لألمانيا بعد الحرب ، أدى إلى استفحال هذه الظاهرة التي جعلت وجود وكيان ألمانيا الشرقية كله في خطر . وقد لعبت أمريكا عن طريق الإذاعة والإغراء ، دوراً كبيراً في هذه العملية الاستنزافية . ومنذ ١٩٦١ وبعد بناء جدار برلين ورفع الأجور في ألمانيا الشرقية ، توقفت هذه الهجرة التي كانت تنال الأيدي العاملة والخبراء ، ولكن المشكلة هي أن تزايد السكان السنوي لا يزال ضعيفاً .

٢ - القسم الجنوبي من ألمانيا الديمقراطية

تضم ألمانيا الشرقية في الجنوب نطاقاً هرسينياً مؤلفاً من كتل ومن أحواض .
وتعتبر منطقة تورنجيا وسكسونيا مناطق صناعية تقليدية تنصرف للصناعة
التحويلية (شكل ١٩) .

وهكذا تشتمل ألمانيا الديمقراطية على إقليمين طبيعيين : أي جزء من العالم
الهرسيني في الجنوب ، وجزء من السهل الأوروبي الشمالي الكبير . ويكون المناخ
قارياً في جميع أنحاء البلاد بالشمال ، وأكثر تشمساً في الجنوب . فيتألف النطاق
الهرسيني الجنوبي من منطقة هارز ، ومن حوض تورنجيا ، ومن كتل تورنجيا
وسكسونيا ، والسهل السكسوني . وقد أدت ترب اللوس في السهل ، وموارد
الغابة والمعادن غير الحديدية في الجبل ، إلى تثبيت عدد كبير من السكان منذ
القديم في هذه المنطقة ، كانوا يتألفون من مزارعين ومن نساجين ومن معدّنين .

المناطق الصناعية في ألمانيا الشرقية



الشكل ١٩

وعلى الرغم من إقامة مراكز صناعية ثقيلة إلى الشمال من هذه المنطقة ، فإن إقليمي تورنجيا وسكسونيا لا يزالان المنطقة الاقتصادية الأساسية في ألمانيا الديمقراطية .

- ويتألف إقليم تورنجيا أو تورنج من حوض رسوبي يخترقه نهر ساله بين غابة تورنج وبين هارز .

- أما غابة تورنجيا فهي عبارة عن ظهرة من صخور متبلورة ممتدة من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي ، وتغطيها الغابة في كل مكان . وقد جذبت الثروات المعدنية الأقوام الجرمانية في الماضي والتي نضبت مناجمها اليوم . غير أننا نجد في منطقة سهول Suhl (الواقعة في أقصى الجنوب الغربي من الجمهورية) أن هناك أكثر من ٥٠,٠٠٠ عامل مختص في الصناعات الدقيقة جداً كالأسلحة النارية ، والدراجات النارية ، والساعات والأدوات الكهربائية . ويرتفع جبل هارز ١١٤٢ م عند حدود ألمانيا الغربية ، ويعتبر آخر جبل هرسيني باتجاه الشمال ، ولا تزال غابات الشوح المظلمة تخفي فيه الأنفاق القديمة التي هجرها عمال التعدين . وبين هذه الجبال التي تصفها الرياح ، والتي استغلها الإنسان ، نجد حوض تورنجيا المؤلف من هضاب كلسية وخرسانية ، ولكنها لا تخلو من سهول اللوس المزروعة منذ القديم والتي تدعى حقل الذهب Goldene Aue . وتنتشر في هذه المنطقة القرى الكبيرة ، وكانت المدن القديمة هنا عبارة عن أسواق ، ومقر قصور الأمراء ، وذلك قبل أن تظهر فيها الصناعات الحديثة . وهكذا ترتصف هنا مدن غوتا وارفورت ٢٢٥٠٠٠ نسمة فيمار وبيننا Iéna من الغرب باتجاه الشرق ، وقد حصلت هذه المدن على شهرة قديمة في الصناعات الميكانيكية . وقد ولدت صناعة الزجاج وصناعة البصريات في مدينة بينا (شركة زايس) من استغلال الرمال والملح الصخري . وأكبر مدينة هنا هي هاله Halle ، التي تضم ٢٨٠ ألف نسمة ، تقع عند التماس مع السهل الشمالي .

- ويؤلف إقليم سكسونيا المنطقة الصناعية الرئيسية في ألمانيا الشرقية . ولكنه لا يستطيع أن يلعب دوراً مماثلاً للدور الذي يلعبه الرور في ألمانيا الغربية . فبينما يتميز الرور فعلاً بهيمنة الصناعات الثقيلة ، نجد أن سكسونيا هي منطقة الورشات ateliers ، حيث تسود الصناعة الخفيفة بتأثير بيئة بشرية قديمة التكوين .

ويتأخم إقليم سكسونيا بلاد بوهيميا ، أي تخترقه مياه نهر الإلب . فإلى جانب وجود جبل فقير هو جبل المعادن Erzgebirge ١٢٤٤ م بالجنوب ، تمده شرقاً هضاب الخرسان في سويسرا السكسونية ، نجد أن إقليم سكسونيا يضم أيضاً سهلاً لوسياً غنياً^(١) في الشمال يشتهر بالزراعة الحثيثة . ولكن كثافة السكان تكون عالية في جميع الأنحاء ، إذ تزيد عن ١٥٠ نسمة في الكيلو متر المربع ، وهذا يعود لشدة انتشار الصناعة . فلا نجد أي جبل بالعالم كثيف السكان مثل جبل ارزجيرغه .

وتقوم الحياة الصناعية على وفرة الأيدي العاملة المترسة الماهرة من قديم أكثر مما تقوم على الثروات المعدنية أو على موارد الطاقة . فحوض زويكو الصغير لا ينتج أكثر من بضعة ملايين الأطنان من الفحم . كما أن مناجم الرصاص الفضية في منطقة فريبيرغ قد شارفت على النضوب . ولا تتركز الصناعة في المدن الكبيرة فحسب ، بل تتناثر في المدن الصغرى وفي وديان الجبال . ولا يزال الكثير من المؤسسات يحتفظ بطابع حربي . كما أن الصناعة المنزلية لا تزال باقية بفضل انتشار الكهرباء . ويشتهر إقليم سكسونيا بصناعة الخشب (أثاث وألعاب) وبغزل القطن ونسجه ، وبصناعة الألياف الاصطناعية والتركيبية (بيرلون) ، وذلك حول منطقة كارل ماركس شتاد^(٢) ، التي تضم ٣٠٥

(١) تربة اللوس Loess هي تربة من أصل ريحي وخصبة جداً ، وتوجد في الصين الشمالية وأوكرانيا وبصورة متفرقة في ألمانيا وفرنسا ، وبولونيا .

(٢) كان اسمها شمينتر وتغير اسمها عام ١٩٥٢ .

آلاف نسمة وتشتهر بالدانتيل مثلما تشتهر مدينة بلاون Plauen بالتطريز وبالدانتيل وبالأقمشة المزركشة . كما تقوم هنا صناعة المكائن الدقيقة والمكائن الصانعة والأصبغة اللازمة لصناعة النسيج . وتحوي مدينة ميسن Meissen (قرب درسدن) على معامل بورسلان وخزف صيني مشهورة . وراحت الصناعة تزحف نحو الشمال ، أي نحو مناجم الليغنيت ، الذي يستخرج من بين حقول القمح والشوندر السكري في السهل السكسوني . وقد قامت معامل لاستخراج البنزين التركيبي والمنتجات الكيماوية قبل ١٩٣٩ في مدينتي لونا (غرب لايبزيغ) وفي بوهلن (شكل ٢٠) .

هذا ويضم إقليم سكسونيا مدينتين كبيرتين واقعتين عن مفرق طرق أوروبا الوسطى : وهما درسدن ٦٢٥,٠٠٠ نسمة ، على نهر الإلب ولايبزيغ على نهر إلستر Elster . فمدينة درسدن التي تحوي أكثر من نصف مليون نسمة ، هي عاصمة مملكة سكسونيا القديمة ، تحتوي على صناعات تتطلب خبرة تقنية عالية (أجهزة تصويرية ، وسينائية ، وتلفزيونات ، ومكائن مكتبية) .

أما لايبزيغ ٦٠٠,٠٠٠ نسمة فهي شهيرة بمعارضها التجارية ذات النشاط الكبير والتي تعود للقرن الثاني عشر . وقد نتجت الصناعة التي تنتشر في ضواحي المدينة عن وظيفة لايبزيغ التجارية : كصناعة الورق والطباعة ، والألبسة ، والصناعات الميكانيكية ، وعلى كل ليس لمدن سكسونيا بهجة مدن ألمانيا الجنوبية ولا الطابع الفني البارز في مدن حوض الراين .

٣ - السهل الشمالي

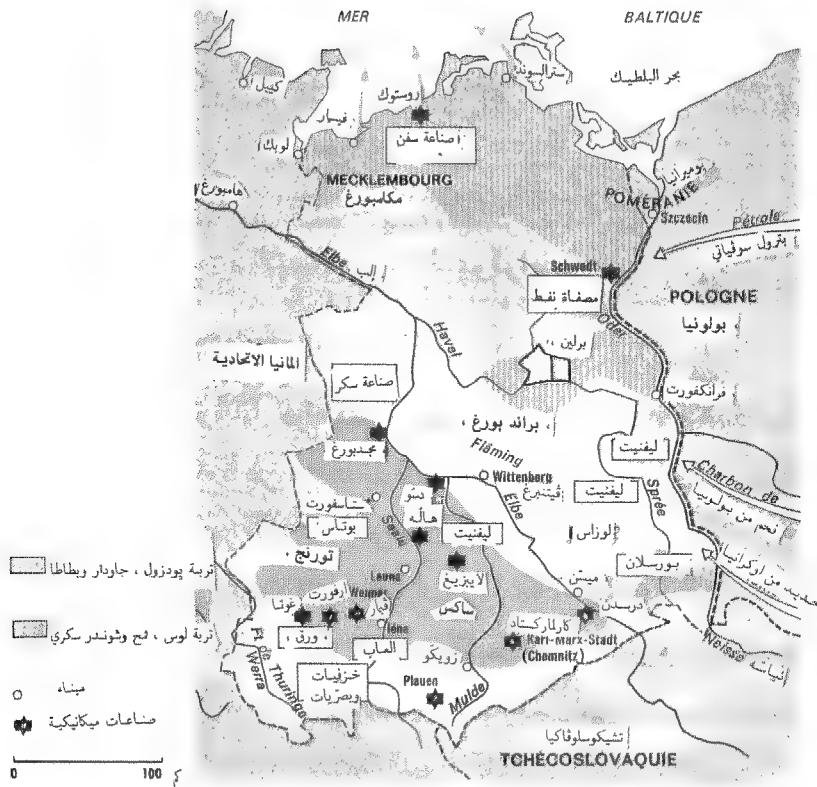
وتتألف منه معظم أراضي جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، إذ يقع فيه إقليما براندبورغ ومكلنبورغ . وإلى الشمال من سكسونيا وتورنجيا يمتد ، بين نهر الإلب والأودر ، سهل رتيب تحتفظ أرضه السيئة الصرف بكثير من ملامح الزحوف الجمودية الرباعية . ويتخذ هذا السهل في ألمانيا الديمقراطية مظاهر خاصة . فبعد أن يكون ضيقاً في غرب نهر الإلب بفعل تقدم الكتل الهرسينية نحو الشمال ،

يأخذ بالاتساع عرضاً في شرق النهر المذكور ، ولا تزال الأشكال المورفولوجية الجمودية محتفظة بكثير من مظاهرها الأصلية . بيد أن المناخ يصبح أكثر قساوة وجفافاً بسبب الحاجز التضريسي المؤلف من جبال هارز وسلاسل الفيزر Wezer . لهذا تكون القرى في الشرق أقل عدداً من الغرب . وكان كبار الملاكين النبلاء يؤلفون ، حتى الحرب العالمية الثانية ، نوعاً من طبقة استغلالية ، حيث كان العمال المياومون والعمال الزراعيون يزرعون حقول النبلاء . غير أن طبيعة التربة تخلق مع ذلك بعض التنوع .

- فنطاق البورده الواقع في الجنوب ، في منطقة ماغدبورغ ، ينتج القمح والشوندر السكري بصورة تكاد تكون صناعية ، فوق تربة اللوس . لكن استغلال الليغنيت والبوتاس سمح بإقامة معامل كياوية . وبعد أن كانت مدينة ماغدبورغ ٣٠٠,٠٠٠ نسمة تقوم بحراسة ممر على الإلب وبالاحتفاظ بسوق تجاري هام ، أصبحت بؤرة حديثة للصناعات الميكانيكية الثقيلة .

وقد أوجدت منطقة براندبورغ ، الواقعة في قلب الجمهورية الديمقراطية ، بالماضي ، دولة متماسكة حققت الوحدة الألمانية ، هي الدولة البروسية . وقد تكونت دولة براندبورغ بين الوديان البدائية التي كانت تجري فيها مياه ذوب الجوديات الرباعية ، في منخفض مركزي يقترب فيه نهر الإلب ونهر الأودر من بعضهما . وكان إقليم براندبورغ « بلاد الرمال » في ألمانيا أيام فريديريك الثاني . فكانت المستنقعات والمراعي الرطبة وغابات الصنوبر لا تزال تغطي مساحات كبيرة . وكان نمو الدولة الحديثة مصحوباً بإخضاع تربة عقيمة تدعى جيست ، تحوي على أفق قاس وكتيم كما في ترب البودزول . واستدعى الأمر استدعاء معمرين أجانب ، وقلع التورب وحرقه ، وتصريف المياه ، وقطع الغابات ، وجلب كميات هائلة من الأسمدة المتنوعة . وتنتج منطقة براندبورغ الجاودار والبطاطا ، كما تربي الأبقار الحلوبة والخنازير ، وتزرع الخضار في ضواحي

برلين . وقد كان غو برلين بركة على الاقتصاد الريفي ، ولكن العاصمة حالت دون غو أية مدينة هامة بجوارها (شكل ٢١) .



المانيا الشرقية

الشكل ٢١

- وإلى الشمال من ذلك كانت تراكمت مورينات القاع عظيمة في مكلمبورغ وبوميرانيا ، التي تحتفظ ألمانيا الشرقية بجزء منها . وتتبعثر بين التلال المورينية بحيرات عديدة هي زينة المساحات الغابية . وقام الإعمار الجرماني باستصلاح الترب الغضارية التي تنجح فيها زراعة الحبوب التي تغذي الخنازير والأغنام .

- وقد نجم ساحل البحر البلطي عن تغريق حديث نسبياً : فهو عبارة عن ساحل مسنّن لكثرة المصبّات النهرية ، والبروزات الصخرية والخلجان العميقة . وتظهر أمام الساحل جزيرة حوارية تدعى روغن Rugen ، وعلى هذا الساحل الجزأ بالحدود السياسية لم تقم موانئ هامة ، لأن ميناء فيسمار وستراسوند أقل أهمية من ميناء روستوك ٢١٠,٠٠٠ نسمة ، الذي تم بناؤه عام ١٩٥٨ .

٤ - اقتصاد ألمانيا الديمقراطية

الثروات المعدنية :

تعتبر ألمانيا الشرقية أول دولة منتجة لفحم الليغنيت بالعالم أو ٢٥٨ مليون طن في ١٩٨٠ و ٥٠٠,٠٠٠ طن من الفحم فقط ، أي تتقدم على الاتحاد السوفييتي وعلى ألمانيا الغربية . فهي تنتج أكثر من ثلث الإنتاج العالمي من هذه المادة . وتنتج منطقة لوزاس (الزاوية الجنوبية الشرقية من الجمهورية) ٤٥,٣ ٪ من الليغنيت الألماني (إحصاء ١٩٦٤) . ويقدم الليغنيت ٨٢ ٪ من الطاقة ، كما أصبح وبصورة متزايدة مادة أولية في الصناعة الكيماوية . أما بالنسبة للبوتاس ٣,١ ملايين طن ، فتحتل ألمانيا الشرقية الدرجة الثالثة بالعالم في إنتاجه بعد الولايات المتحدة وألمانيا الغربية . وبعد أن كانت أهم مناجمه تقع في شمال الهارز ، قرب مدينة ستاسفورت ، أصبح معظم الإنتاج اليوم يأتي من حوض تورنج ومن وادي ويرا Werra جنوب غرب تورنج . هذا وتنتج ألمانيا الشرقية النحاس في شرقي الهارز ، والرصاص والزنك والفضة من منطقة ارزغبرغه ، فضلاً عن استغلال النيكل والمنغنيز والولفرام من عهد قريب .

الصناعة :

تعتبر الصناعة أهم عامل في الثورة الاجتماعية ، لهذا تقوم ألمانيا الشرقية ببناء صناعة ثقيلة جديدة بكل ما في الكلمة من معنى . لأنها تريد أن تكون « دولة العمال والفلاحين » . وينتسب الجهاز السياسي في البلاد إلى الحزب الاشتراكي الموحد ، وهو حزب الطبقة العاملة حصراً . وهدف الدولة هو بناء الاشتراكية ، أي الانتقال « من الفردية الأنانية إلى التفكير الجماعي أي نحن » ، عن طريق التخطيط ، وهو القانون الرسمي للنظام القائم . وتشرف على تنظيم الاقتصاد برامج خمسية أعقبتها برامج سباعية ، وتحدد منحى النمو في الإنتاج الزراعي والصناعي ، وتحاول أن ترفع المستوى التقني والعلمي عند المنتجين .

لقد كان للصناعة قواعد راسخة في برلين ، وفي تورنجيا وسكسونيا ، قلعة الصناعة في ألمانيا الشرقية . وكانت تتصرف بوسائل مواصلات حديدية وبرية ممتازة ، ولكن هذه الصناعة كانت تحويلية بالأساس . وكانت المؤسسات الصغيرة والوسطى ذات الطابع العائلي هي السائدة ، وكان التركز الصناعي أقل وضوحاً من سائر أنحاء ألمانيا . وقد تقلص التجهيز الصناعي كثيراً بفعل الحرب ، لأن القسم الأعظم من درسدن قد تخرب عام ١٩٤٥ خلال بضعة دقائق بسبب الغارات الجوية البريطانية الأمريكية ، ثم بسبب تفكيك المصانع لمصلحة السوفييات . وأخيراً عملت الحدود الجديدة على قطع ألمانيا الديمقراطية عن حوضي الفحم في سيليزيا وفي الرور مثلما حرمتها من فلزات الحديد ومن المواد الأولية .

تحويل بنية الصناعة جذرياً :

أولاً : إن كل المصانع الهامة هي « ملك للشعب » . فالدولة تعين مدير المصنع . كما أن التنظيم النقابي يحتوي العمال الذين يتجمعون في فرق الإنتاج .

ثانياً : ونظراً لاندماج ألمانيا الديمقراطية في عالم اشتراكي يجهد في تقسيم العمل ، فقد أخذت على عاتقها تقديم آلات التجهيز التي يحتاجها الاتحاد السوفيتي والديمقراطيات الشعبية ، وذلك بفضل الأيدي العاملة الخيرة المتوفرة لديها . واستطاعت هذه الجمهورية الديمقراطية خلال بضعة أعوام ، وبعد جهود جبارة وتضحيات عظيمة ، أن تحصل لنفسها على تجهيز أساسي رائع (إنتاج الطاقة ، الصناعة الحديدية الثقيلة ، وتجهيز الموانئ) ، بحيث أصبح إنتاجها الصناعي الحالي يعادل إنتاج الصناعة الألمانية أيام هتلر .

- وقد أصبح الليغنيت « الذهب الأسمر » في قطر فقير بالفحم ومحروم من النفط ، ركناً اقتصادياً وتعم رائحته المعهودة في الهواء فوق كل البلاد تقريباً . فهذا الفحم الفج ، المشبع بالمياه ، يكثر في السهل السكسوني ، وفي براندبورغ ، ولاسيا في منطقة لوزاس السفلى . وتستخرج ألمانيا الشرقية منه ٢٥٨ مليون طن أو ٣٥ ٪ من الإنتاج العالمي . وبعد كبسه في قوالب يباع هذا الفحم من أجل التدفئة المنزلية ، كما يؤلف وقود المراكز الكهربائية الحضرية ، بحيث يوفر القسم الأعظم من إنتاج الكهرباء البالغ ٩٢ مليار كيلواط ساعي . كما أصبح المادة الأولى في الصناعات الحديدية والكيمياوية . وبالفعل وبعد بحوث صعبة وعسيرة استطاعت معامل الكوك القائمة على الليغنيت ، لاسيما المعمل القائم في لاوخهامر في منطقة لوزاس ، أن تنتج فحم كوك يستخدم في الأفران المنخفضة (وليس في العالية) لتحاشي الضغط المفرط . وتنتج هذه المعامل زيوت وقود تركيبية من الليغنيت ، فضلاً عن زيوت التشحيم ، وكل المادة الأولية لصناعة الكربوكيمياء ، وأدى لقيام مدينة جديدة حديثة يبلغ عدد سكانها ١٠٠ ألف نسمة تدعى بومبنوار .

- وراح البترول المستورد يزاحم الليغنيت ، بعد أن قام « أنبوب الصداقة » بنقل ٥ ملايين طن من النفط إلى مدينة شويدت Schwedt على ضفة الأودر ،

وهو نفط قادم من منطقة باكو الثانية في الاتحاد السوفيتي . وتقدم معامل البتروكيماويات القائمة في المدينة المذكورة المواد الأولية لشبكة واسعة من المعامل الكيماوية وتبلغ طاقة المصافي في ألمانيا الشرقية ٢٠ مليون طن .

- غير أن ألمانيا الشرقية أقامت أساساً من الصناعة الحديدية . فقد انبثقت كومبينات لصناعة الحديد ، مصحوبة بمدن جديدة يزيد سكان كل منها عن ٢٠ ألف نسمة قرب الأنهار . فتتلقى مدينة آيزنهوتنشتاد « مدينة المصاهر » الحديد الأوكراني والكوك من سيليزيا البولونية . كما تستخدم مدينة كالبه Calbe الواقعة على نهر السال ، كوك الليغنيت وفلزات الحديد الفقيرة والحامضة (كثرة الرمل السيليسي) القادمة من هارز . كما قامت معامل لإنتاج الفولاذ في مدينة ريزا Riesa في سكسونيا وفي براندنبورغ قرب برلين ، بعد أن أعيد بناؤها وتوسعت . غير أن هذه الصناعة الحديدية ، التي قامت فوق قواعد سريعة العطب ، أو بعيدة ، لا تكفي أبداً للحاجات المحلية ، ولا يكون تطورها يسيراً ، لذا لا تنتج ألمانيا الشرقية حالياً سوى ٧ ملايين طن من الفولاذ ، أو أقل من نصف إنتاج بلجيكا . غير أن صناعة المعادن غير الحديدية ، الموروثة من تقاليد تعود للعصر الوسيط ، والتي يشجعها وجود فلزات منطقتي هارز وارزغبرغه ، تتعرف على ازدهار ملحوظ . كما تعتبر مناجم اليورانيوم في ارزغبرغه والتي تستثمرها شركة سوفياتية ألمانية وهي شركة ويزموت ، أكبر مثيلاتها في أوروبا وأكثرها إنتاجاً . أضف إلى ذلك أن مناجم النحاس في هارز تتطور بسرعة تثير الاهتمام .

- وأخيراً عملت ألمانيا الشرقية على تجهيز واجهتها البحرية بالموانئ ، وبنت أسطولاً تجارياً حمولته ١,٥ مليون طن . وبعد أن كان ميناء روستوك عبارة عن ميناء صيد صغير عام ١٩٣٩ ، أصبح ميناءً عالمياً يتصل بالبحر البلطي بقناة عميقة ويبلغ نشاطه السنوي ١٠ ملايين طن .

وقد استحوذت هذه الأعمال الإنشائية الكبيرة على طاقة ورسميل ألمانيا الشرقية .

الصادرات الألمانية الشرقية :

تجري ألمانيا الديمقراطية مبادلات تجارية عظيمة ولا سيما مع الاتحاد السوفييتي الذي يمتص نصف تجارتها الخارجية ، كما تزود العالم الاشتراكي بمنتجات صناعاتها المتنوعة .

هذا وتقدم الصناعات الميكانيكية أكثر من ٥٥% من الصادرات . هذا وقد اتخذت صناعة المكائن الثقيلة والخفيفة ، والقاطرات ، والشاحنات ، وأجهزة البصريات ، وتجهيزات المكاتب ، والراديو ، والتصوير ، والمتعة جميعاً بمستوى تقني عال ، اتخذت أهمية كبيرة في برلين الشرقية وماغدبورغ وفي سكسونيا (إقليم لايبزيغ ، كارل ماركس شتاد) ، وفي تورنجيا (هاله ، ارفورت) . كما تتميز موانئ البلطي بورشات بناء السفن .

وتؤلف الصناعات الكيماوية العمود الثاني في هيكل الصناعة الجديد في ألمانيا الشرقية . وقد ساعد على ذلك ثروات باطن الأرض الهائلة في مادة الليغنيت ، والملح الصخري ، والبوتاس (ثالث منتج عالمي) والتي بدأ استغلالها منذ ١٨٥٢ في منطقة ستاسفورت . وتقوم الصناعات المذكورة بجوار هذه المكامن في السهل السكسوني عند مدينة لونا وشكوباو Schkopau وفي منطقة لايبزيغ (في مدن بيترفلد ، وولفن ، بوهلن) ، حيث نجد كومبينات ضخمة تنتج مواد أساسية من ناحية (حمض الكبريت ، كربور الكلسيوم ، بنزين تركيبى ، مواد أولية بلاستيكية) ومنتجات متنوعة لا حصر لها ، مثل أفلام التصوير ، آلفا ، والمطاط الاصطناعي (بونا ١٥٠,٠٠٠ طن) والألياف التركيبية (أول دولة في إنتاج هذه المادة وفي استهلاكها بالنسبة للفرد) من جهة أخرى ، وأنتجت في ١٩٧٧ أكثر من ١٦٧٠٠٠ سيارة .

- أما الصناعات التقليدية الخشبية ، والجلدية ، والزجاجية ، والطباعة ، والمنسوجات فتحتفظ بأهميتها القديمة بمنطقة أرزغرغه ، وفي سكسونيا تورنجيا ، ولكنها لا تتقدم بسرعة .

الإنتاج الزراعي :

وهو لا يكفي لسد الحاجات المحلية ، وتظهر الاشتراكية على المشاهد الريفية في ألمانيا الشرقية ، فبينما تكون الأراضي الزراعية مجزأة إلى قطع صغيرة ، هي ملكية المزارعين المستقلين ، فإن الحقول تظهر بالشرق متكثلة وتمتد بلا حدود حول القرى التعاونية .

- فالإصلاح الزراعي الذي جرى في فترة ١٩٤٥ - ١٩٤٨ ، قد قضى على الملكيات التي تزيد مساحتها عن ١٠٠ هكتار ، التي كانت تغطي ربع الرقعة المزروعة . فقد زالت الأريستوقراطية الأرضية ، التي كانت تتألف من ١٢٠٠٠ أسرة ، كانت عماد الدولة البروسية ، زالت من الوجود . فقد تجزأت مزارعها الفسيحة وتوزعت على ٥٦٠,٠٠٠ أسرة من فلاحين فقراء ، ومن لاجئين ، ومن عمال زراعيين . وهكذا تم الانتقال من الديموقراطية الزراعية إلى النظام التعاوني بين ١٩٥٢ و ١٩٦٠ . وبذلك أصبح الفلاحون أعضاء في تعاونيات الإنتاج الزراعي ، من مختلف النماذج ، بحيث جمعت أراضيهم في مستغلات شاسعة تعاونية ، تتراوح مساحتها بين ٢٠٠٠ هكتار وأكثر . وتم الأعمال على أيدي فرق الإنتاج مثلما يخضع الإنتاج لتعليمات الخطة . غير أن الفلاح التعاوني يحتفظ بمزرعة صغيرة خاصة به تؤمن شطراً كبيراً من الاستهلاك العائلي ، ولكن النظام القائم يعمل على تطوير التربية السياسية والتكوين المهني للقضاء على كل مظهر من مظاهر الاختلاف في سوية الحياة بين المدينة والريف ولتحقيق « النهضة الريفية » . غير أن مزارع الدولة لا تغطي أكثر من ٦٪ من المساحة المزروعة .

يبد أن إقبال الفلاحين على النظام السائد يبدو عسيراً . فبعضهم يشكو من

ثقل مطالب الدولة ، كما يكثر التغيب عن العمل ، كما تبدو الأيدي العاملة الريفية قليلة ، ذلك لأن النظام التعاوني سبق المكننة ، ومع هذا يتزايد عدد الجرارات بسرعة .

وتملك ألمانيا الشرقية في الجنوب أراضي طيبة لوسية ، أما الأراضي الفقيرة المتوسطة الخصب في الشمال ، والأراضي الفقيرة فقد تشبعت منذ زمن طويل بالأسمدة البوتاسية والأزوتية التركيبية . غير أن كمية المحاصيل تبدو مستقرة ، وإذا حذفنا مفعول التقلبات المناخية فإن الإنتاج الزراعي يتراوح بين ٣ مليون طن من القمح و ٢ مليون و ١.٦ مليون طن من الجاودار ، و ٧ مليون من البطاطا و ٠.٧ مليون طن من السكر أو ٩ ملايين طن من الشوندر . وعلى الرغم من التقدم الحاصل في ميدان تربية الماشية ، فإن الإنتاج الزراعي بالنسبة لكل فرد يقارب إنتاج ١٩٣٨ . فالبلاد لا تكفي نفسها من الفواكه فتستورد الحبوب والبدور الزيتية واللحم ومنتجات الألبان .

المشكلات الاقتصادية :

مما لا شك فيه هو أن فكرة القادة في ألمانيا الشرقية هي أن الاقتصاد الاشتراكي سيؤدي للحياة الأفضل . فسقطف العامل ثمة جهوده في أعقاب تطوير الجهاز الإنتاجي . فستوى حياة الفرد في جمهورية ألمانيا الديمقراطية كان سيعادل أو سيتجاوز مثيله في ألمانيا الاتحادية قبل ١٩٦٥ . وقد كانت النتائج المادية مثيرة للإعجاب فعلاً . فقد تضاعف الإنتاج الصناعي الإجمالي ثلاث مرات منذ ١٩٥٠ . وكان التقدم الصناعي متعادلاً في الدولتين الألمانييتين . وبذلك أصبحت ألمانيا الديمقراطية خامس دولة صناعية في أوروبا . فالمستوى التقني فيها عال ، كما يرتفع مستوى الاستهلاك الفردي .

هذا وتصب أنهار ألمانيا الشرقية الكبرى ، أي نهر الألب والأودر ، تصب

خارج حدود الدولة ، أي في ميناء هامبورغ التابع لألمانيا الغربية وفي ميناء ستين التابع لبولونيا . كما أن كثيراً من المواد الخام يجب استيرادها من الخارج ، كالبتروك والحديد والكوك والقطن . غير أن ثمن كلفة الفولاذ الناتج من المواد المحلية كالليغنيت والحديد الرديء النوعية يبدو عالياً ، وهكذا تحتاج الصناعة الحديدية ، التي أقيمت بصورة اصطناعية ، لعون الدولة ولأسواق تقبل بالمرعاة . هذا كما أن إنتاجية العمل ونوعية الإنتاج لا تزالان دون المرغوب فيه ، مما دعا المسؤولين إلى تشجيع المبادرة الفردية ، والتخفيف من مركزية البيروقراطية .

وينصب الاهتمام على إنتاج الآلات التجهيزية التي تصدر في معظمها إلى الأقطار الاشتراكية وإلى الأقطار النامية . وتكون حركة البناء أقل أهمية من ألمانيا الغربية باستثناء العمران في مدينة برلين العاصمة . وحالياً يتم بناء قرابة ٨٠,٠٠٠ مسكن بالعام . كما أن صناعة السلع الاستهلاكية كالسيارات السياحية التي يبلغ إنتاجها ١٦٧٠٠٠ سيارة بالعام ، لا تحظى باهتمام كبير ، بحيث يظهر فارق محسوس بين تقدم الإنتاج الكلي وبين تطور الأجور والاستهلاك الفردي ، ولكن يعوض ذلك أهمية النفقات الاجتماعية كنوعية التعليم وديموقراطيته ، والضمان الصحي والرياضة .

- وتساعد المصاعب الاقتصادية على فهم المشكلات البشرية . وقد اعترف المسؤولون بأن تزايد معدلات الإنتاج دون ارتفاع مواز في الأجور كان أحد أسباب تمرد العمال سنة ١٩٥٣ ، الذي استغلته دول الغرب أسوأ استغلال . وتشكو ألمانيا الشرقية اليوم من قلة الأيدي العاملة والخبراء ، نظراً للنهضة الصناعية . والواقع فإن فائض الولادات على الوفيات يبدو قليلاً لمعالجة مشكلة نقص السكان . وقبل ١٩٦١ كانت العناصر المناوئة لقيام الاشتراكية (أطباء ، مهندسون ، جامعيون ، خبراء) تلجأ بتشجيع من الدعاية الغربية إلى برلين الغربية ، ومنها إلى ألمانيا الاتحادية . وقد أدت هذه الهجرة والهروب إلى الاعتماد

على الأيدي العاملة النسائية ، بحيث أصبح عدد النساء العاملات معادلاً للرجال العاملين .

هذا ولا تستطيع رؤوس الأموال الألمانية الشرقية أن تمول لوحدها المنجزات الصناعية الكبرى . ولكن لما كانت الصناعة الكيماوية الكبيرة في ألمانيا الشرقية ، تعمل لتقدم خدمة جليلة لاقتصاد الاتحاد السوفيتي ، فإن السوفييت لم يقصروا في تقديم المعونة الاقتصادية لألمانيا الديمقراطية لمساعدتها في بناء الاشتراكية .

٥ - برلين

لقد أصبحت برلين ، التي قامت بين المستنقعات والمورينات والغابات ، إحدى أكبر العواصم ، ولكنها إحدى أكبر النقاط الانفجارية في العالم . وتبلغ مساحتها ٨٨٤ كم^٢ ، ويسكنها ٣,٣ مليون نسمة منها ٤٨١ كم^٢ تخص برلين الغربية ، التي تضم ٢,٢ مليون نسمة بكثافة تبلغ ٤٤٤٦ نسمة كم^٢ ، وهي جيب غربي واقع في قلب الجمهورية الديمقراطية ، ويحكمها مجلس شيوخ . وبعد مصاعب سياسية معقدة بين الاتحاد السوفيتي ودول الاحتلال الثلاث أي أمريكا وبريطانيا وفرنسا ، أمكن التوصل لاتفاقية ٣ يوليو ١٩٧١ لأول مرة منذ نهاية الحرب ، بعد مفاوضات استمرت ثمانية عشر شهراً ، وهي حدث تاريخي هام . هذا وتعجز الجغرافية الطبيعية عن فهم اختيار موقع برلين ، مثلما لا تفسر ازدهار هذه المدينة . فليس هناك أي مرتفع يستحق الذكر ، كما لا يمر فيها نهر صالح للملاحة مثل نهر التايمز أو السين . وهكذا يزحف نهر سبريه Sprée بين البحيرات الصغرى والسهول الرملية والغابة التي تعني السلطات بها ، كي تكون حدائق طبيعية للسكان (شكل ٢٢) .

والواقع لقد كانت برلين عبارة عن تكوين سياسي . فقد ولدت المدينة في القرن الخامس عشر فوق جزيرة في نهر سبريه بين نهر الإلب والأدور . وظلت

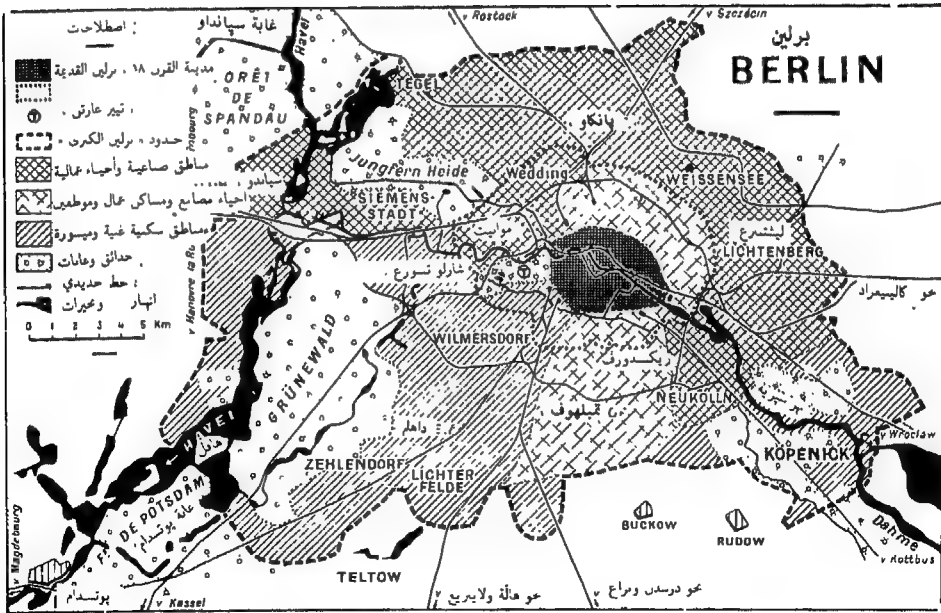
مدة طويلة عبارة عن سوق وحصن . ونالت بعض الأهمية في القرن السابع عشر والثامن عشر على أثر ظهور نفوذ نواب إقليم براندنبورغ وتدفق البروتستانت الفرنسيين اللاجئين ، بعد اضطهادهم ببلادهم ، وأسسوا حياً خاصاً بهم هو حي موآيت . وبلغ عدد سكان برلين ١٧٠,٠٠٠ نسمة سنة ١٨٠٠ ، ولم تصبح مدينة كبيرة إلا في القرن التاسع عشر ، كعاصمة لدولة بروسيا ، ثم لألمانيا الموحدة سنة ١٨٧١ . وتوسعت المدينة بشكل خاص في اتجاه الغرب عند ظهور الأحياء الصناعية والسكنية . وأصبحت مساحتها أكبر رقعة من باريس بثاني مرات ، وكان سكانها سنة ١٩٣٩ قد بلغوا ٤,٣ ملايين .

وتعتبر برلين ذات أهمية تجارية ومالية وصناعية . فهذه المدينة هي عقدة طرق حديدية وطرق برية ومائية وخطوط جوية ، ففيها مطار تيمبلهوف في الغرب وشوينفلد في الشرق . وتشتمل منطقتها على أربع قنوات جعلت منها ميناء نهرياً نشيطاً . وتملك برلين العديد من الصناعات التحويلية ، التي ساعد على قيامها وجود أيد عاملة غديدة وسوق استهلاكية ضخمة (صناعة الأدوات الكهربائية ، صناعة كهربائية كإلكترونية ، ميكانيكية ، غذائية ، وصناعة الألبسة) . وتكون الدوائر الإدارية ، والفعاليات الثقافية والفنية نامية فيها أكثر من أية مدينة ألمانية أخرى .

وقد ظهرت هذه المدينة الضخمة المحرومة من الفن ، ومن الماضي ، وكأنها قد حكمت بالإعدام عندما أصبح سكانها متكدرين في ملاجئ تحت الأرض ، بين أطلال العمارات الكبرى المائدة للعهد الهتلري (وزارات . دوائر حكومية) ، أو بين عمارات القرن الثامن عشر .

ولكن برلين عادت اليوم بؤرة حياة ثقافية وفنية واستعادت حيويتها الاقتصادية ، وكانت عملية البناء سريعة جداً ، وخاصة في القطاع الغربي حيث وضع الغريون ، ولا سيما الأمريكيان ، كل ثقلهم على شكل مساعدات مالية .

أما في القطاع الشرقي ، فقد أعيد البناء حسب طراز حديث يماثل مدن الاتحاد السوفيتي ، ولا



الشكل ٢٢

سيا شارع كارل ماركس الشهير . ويحاول القطاع الغربي أن يتخذ هندسة بناء أميركية الطراز ، مع واجهات لماعة ، ومخازن ذات واجهات مغرية تم عن كل الملامح الرأسمالية . ففيها مخازن ضخمة وتلمع شوارعها ليلاً بإعلانات النيون الدعائية .

غير أن الصناعة الثقيلة لا تستطيع أن تنمو فيها لأن المواد الأولية تحتاج لنفقات عالية جداً بسبب تكاليف النقل من بعيد . ولكن تظهر الصناعات التحويلية ، التي تقدم لها حكومة بون العون المالي ، والتي تستفيد من جودة الأيدي العاملة ، مزدهرة بشكل اصطناعي . أما في القطاع الشرقي فتقوم صناعة الأجهزة الكهربائية والألكترونية ، والعنفات ، كما تزدهر صناعة الملابس ، كما قامت صناعة الفولاذ والتصفية في براندنبورغ أي إلى الغرب من برلين قليلاً .

غير أن المدينة تشكو من تقسيمها إلى أربعة قطاعات . وقد حرمت من نافذتها البحرية وهي ميناء ستيتن الذي أصبح تابعاً لبولونيا . ولم تستعد برلين مكانتها السامية في ألمانيا ، بحيث تظهر كمدينة لا معقولة ، أو صورة مصغرة عن ألمانيا ، تم عن روح الشقاق الأوروبية والعالمية . وتمتد حدودها على مسافة ٤٥ كم

من الشمال للجنوب . هذا ولا تتصل برلين الغربية مع ألمانيا الاتحادية إلا بواسطة ثلاثة طرق سيارات وأربعة خطوط حديدية ، وثلاثة ممرات جوية وتنفصل عن برلين الشرقية . والخلاصة تظهر برلين اليوم كظاهرة سياسية ، ويأمل العالم والألمان تحسن الوضع السياسي والاقتصادي بعد اتفاق أيلول ١٩٧١ الذي سبق ذكره .

مدينة برلين بالأرقام :

برلين الغربية : مساحتها ٤٧٩ كيلو متر مربع .

السكان : ٢,٤ مليون منهم ٧٣٪ بروتستانت ١١,٤٢٪ ، كاثوليك ، ٠,٢٪ يهود
نسبة الولادات ١٠ بالآلف ، نسبة الوفيات ١٩,٩ بالآلف ، الصادرات ٨٣٪ نحو
ألمانيا الاتحادية ، ١٤٪ نحو البلاد الأجنبية ، ٣٪ نحو ألمانيا الشرقية .

الاستيراد : ٨٨٪ من ألمانيا الاتحادية ، ٩,٦٪ من الخارج ، ٢,٤٪ من ألمانيا
الشرقية ميزانيتها : ٧,٤ مليار مارك ١٩٧١ .

عدد الذين زاروا برلين الشرقية ٩٤,٢٦٧ نسمة .

برلين الشرقية : مساحتها ٤٠٣ كم^٢ ، سكانها ١٠,٨ مليون نسمة (منهم ٧٠٪
منهم بروتستانت و ١٠٪ من الكاثوليك . نسبة الولادات ١٤,٥ بالآلف ، ونسبة
الوفيات ١٦,٤ بالآلف) .



الطبغرافية الإيطالية

الشكل ١

إيطاليا

البيئة والناس

الإطار الطبيعي

تنقسم الرقعة الإيطالية البالغة مساحتها ٣٠١٠٠٠ كيلومتر مربع ، إلى مجموعتين شديديتي الاختلاف . فإيطاليا القارية عبارة عن سهل فسيح تحاصره جبال الألب ، أما إيطاليا الرومية ، أي الممتدة في البحر الأبيض المتوسط ، والتي تكون مصحوبة بجزيرتين كبيرتين ، هما سردينيا وصقلية ، فتتألف من شبه جزيرة طويلة تشكل سلسلة جبال الأبين عموها الفقري (شكل ١) . ويقوم المناخ بدعم هذا التناقض القاسي الذي يخلقه التضريس في جغرافية إيطاليا الطبيعية .

وهكذا تقوم جبال الألب والقسم الشمالي من السلسلة الأبينينية بحصر سهل الپو من جهاته الثلاث ، والذي يدين بوجوده للعمل الإطائي ، الذي قام به نهر الپو وروافده . وقد أدت أرجحية الروافد الألبية على الأنهار الهابطة من جبال الأبينين ، على زحزحة الجذع الرئيسي لنهر الپو باتجاه الجنوب . وتتعاقب بين حضيض جبال الألب وبين نهر الپو ثلاثة نطاقات متوازية هي :

- تلال مقدمة الألب ، وهي مؤلفة من مورينات جمودية .

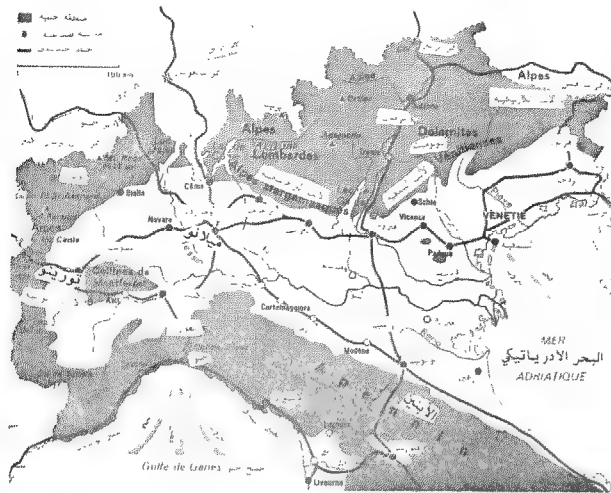
- مصاطب تتألف من أنقاض خشنة ، قليلة الخصوبة ، ولكن تنبجس منها باتجاه السافلة مياه باطنية ، على شكل خط من العيون يدعى فونتانيلى .

- السهل الإيطالي أو « اللحي » ، وهو خصيب ولكنه يتعرض للفيضان في أكثر أجزائه انخفاضاً (شكل ٢) .

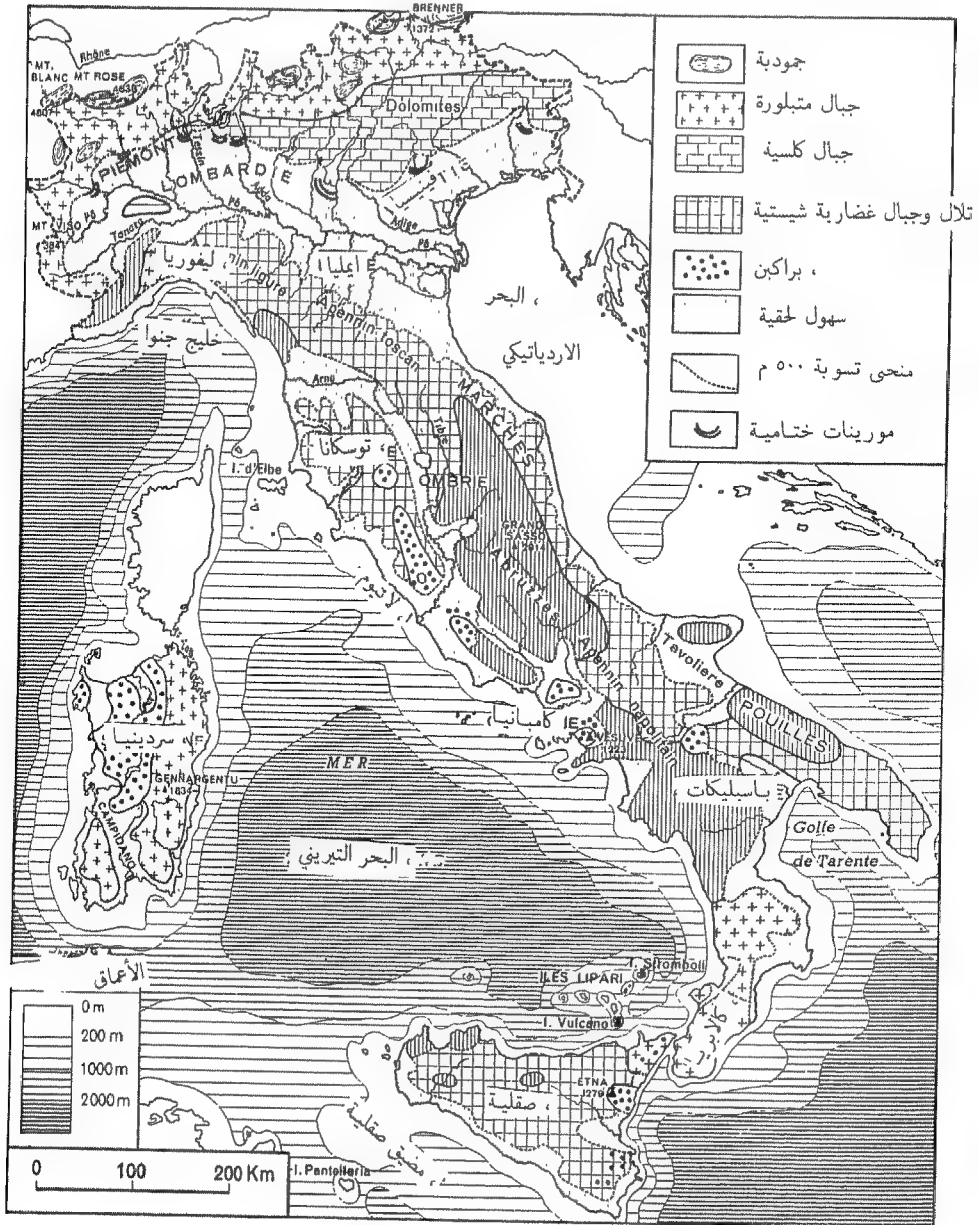
ويزداد عرض السهل باتجاه الشرق ، ويجري نهر الأديج بموازاة نهر الپو ، بحيث تختلط لحياته alluvions مع لحيات نهر الپو ، كي يؤلف دلتا فسيحة محفوفة بلاغونات . أما جبال الألب الإيطالية ، فتلب دوراً هاماً بما تقدمه من مياه غزيرة ، وبما تحويه من دخلات مؤلفة من سهول لحيية ، تقود إلى فجوج تشكل ممرات تنشط بها حركة المرور الكثيفة .

إيطاليا الشمالية: مقطع من الحدود السويسرية إلى خليج جنوا

الشكل ٢



وتؤلف جبال الأبينين هيكل شبه الجزيرة الإيطالية . ولكن مرتسم
السلسلة لا يكون متوازياً مع مرتسم السواحل . فبينما ترسم الجبال منحى محدباً

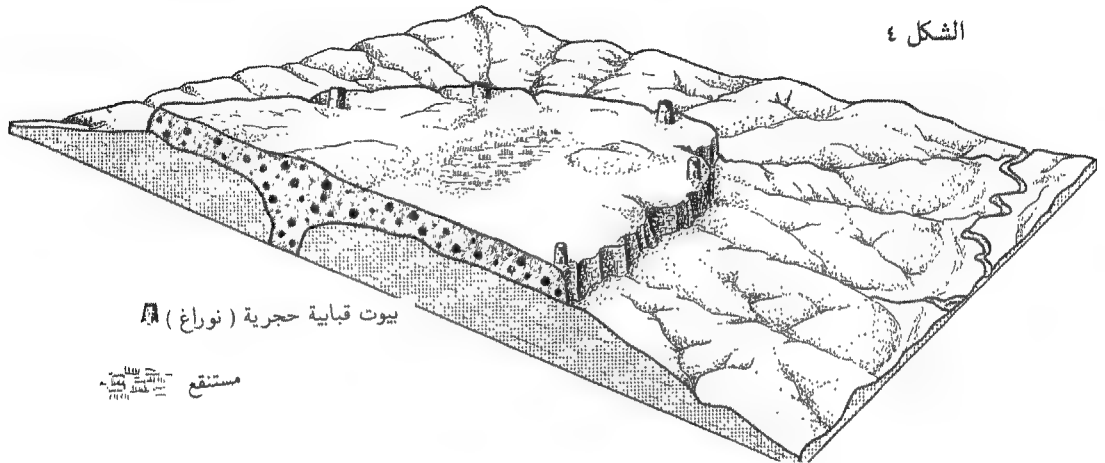


بنية وتضريس ايطاليا

الشكل ٣

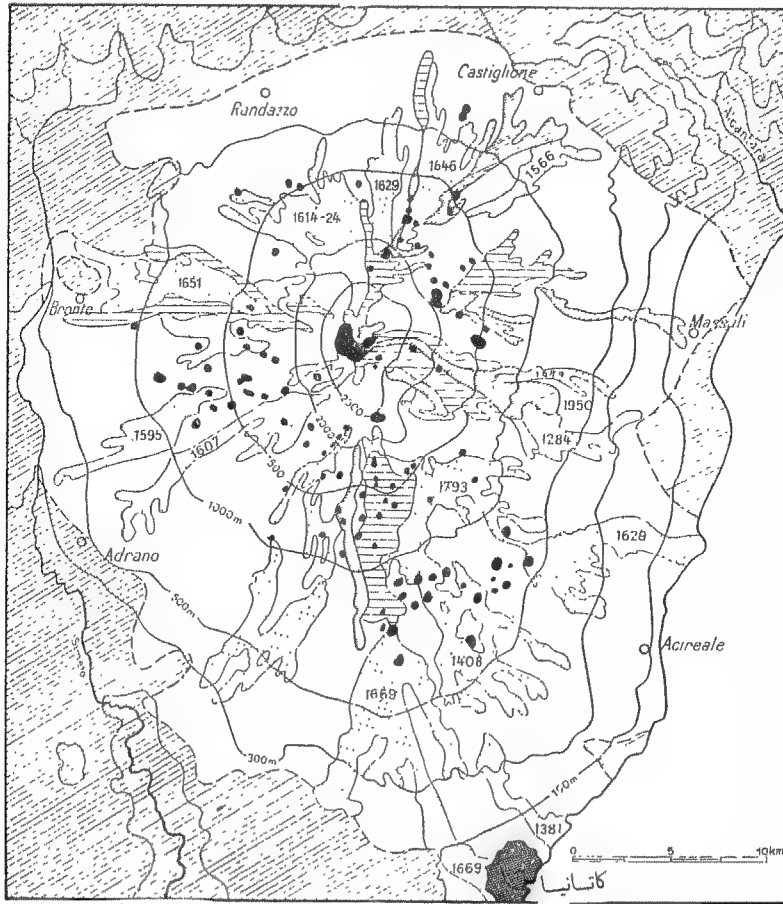
نحو الشمال الشرقي ، نجد السواحل تتحدّب نحو الجنوب الغربي ، بحيث تقوم جبال الأبين بمحصر ساحل الأدرياتيك في الشمال ، في إقليم المارش Marches ، وساحل البحر التيريني في الجنوب ، وفي إقليم كالابريا . وهكذا تتسع السهول الغربية من توسكانيا حتى كامبانيا ، في حين تتسع سهول الشرق في الجنوب فقط ، أي في منطقتي بويليا ولوكانيا . ولكن كل هذه السهول الإيطالية المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، بما في ذلك سهول صقلية الساحلية وسهل كامپيدانو السردينية ، لا تمثل جميعاً من حيث المساحة ثلث سهل البو . وهكذا يكون لشبه الجزيرة الإيطالية تضرساً شديداً الاضطراب ، مثل صقلية ، التي هي عبارة عن امتداد لشبه الجزيرة ، ما عدا سردينيا التي يتألف معظمها من كتلة قديمة ، كيفها الحت على شكل هضاب كبيرة ، على درجة لا بأس بها من الارتفاع ، والمتدرجة والمتقطعة بوديان عميقة .

وتلعب الصخور البركانية إلى جانب الصخور الكلسية والغضاريات ، دوراً هاماً في الجنوب الإيطالي ، وهي شواهد عن نشاط تكتوني كان شديداً جداً في الماضي . وتحوي سردينيا موائد بازلتية واسعة (شكل ٤) ، وبراكين صغيرة



بيوت صخرية قباية فوق مائدة بازلتية في سردينيا

خامدة . وترتصف بعض البراكين الناشطة بين فيزوف وإتنا (شكل ٥) ، كما لا تزال فوهات الميادين الفليغرية ، إلى الغرب من ناپولي ، تنفث دخانها وتستغل الأبخرة الحرارية الأرضية في إقليم توسكانا ، لتشغيل مراكز كهربائية في موقع لارديرللو Larderello . وهناك براكين تبدو اليوم خامدة ، سبق لها أن نفثت رماداً استطاع أن يحجز فيها تلال روما السبعة .

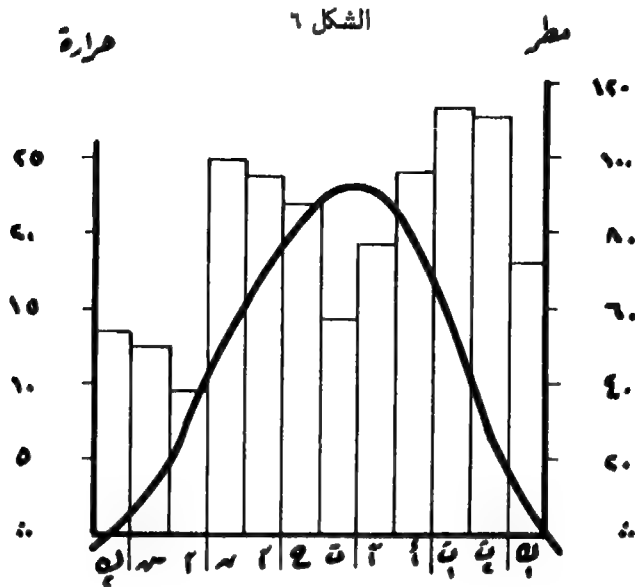


الشكل ٥ بركان إتنا وسكوبات اللابة خلال التاريخ

وبما أن شبه الجزيرة الإيطالية هي أرض فتية ، فهي غير مستقرة ، وبالتالي عرضة للزلازل . وقد أدى زلزال مسينا في عام ١٩٠٨ إلى هلاك ١٠٠,٠٠٠ نسمة ، مثلما تعرض القسم الشرقي من شبه الجزيرة إلى التخريب في عام ١٩٦٨ ، مثلما يتعرض إقليم فريول لزلازل متواصلة منذ بضعة أعوام .

هذا كما يعمل المناخ بدوره على تقسيم شبه الجزيرة إلى شطرين :

فسهل البو يتمتع بمناخ قاري ، رغم بعض المؤثرات الرومية « المتوسطة » . ففي الشتاء تكون درجات الحرارة في ميلانو (شكل ٦) وفي تورينو أشد قساوة



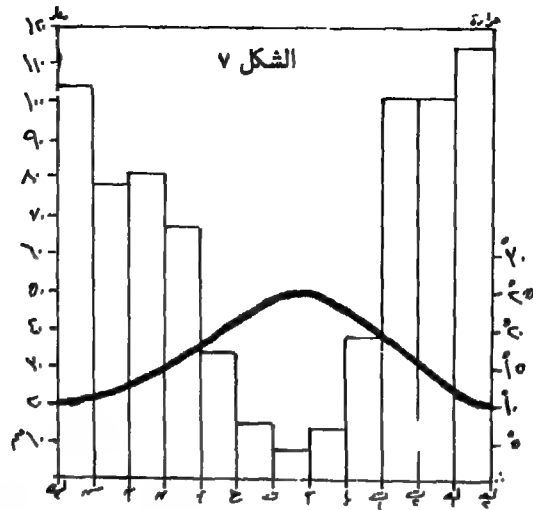
مناخ دانوني - باريسي مريز ميلانو

المرتعة ٤٥,٢٨ الارتفاع ٥٠ م

مجموع المطر السنوي ٩٩٧ مم معدل الحرارة السنوي ١٢,٥°

مما هي في باريس ، مثلما تكثر فيها حوادث الانجماد . غير أن التسخن الربيعي يكون سريعاً ، كما تكون حرارة أشهر الصيف مماثلة لصيف الجنوب الإيطالي . هذا ويكون فصل الصيف رطيباً لوقوعه بين فصلي ربيع وخريف مطيرين جداً ، في حين يكون الشتاء قليل الأمطار ، كثير الضباب .

هذا وتكون الفوارق الحرارية أقل من ذلك في المناخ الرومي السائد على شبه الجزيرة والجزر الإيطالية . فإذا كان الصيف حاراً جداً في كل الأمكنة ، فإن الشتاء يكون أكثر عذوبة كلما تقدمنا من توسكانيا باتجاه صقلية (شكل ٧) . وعلى عكس ذلك تكون الفصول متباينة جداً من حيث نظامها الحراري . فجفاف الصيف شامل ، حتى لقد يبلغ الأمر به أن يمتد على الشطر الأخير من الربيع والأول من الخريف ، لاسيما وأن الأمطار غالباً ما تهطل على شكل وابل



المركز: بالروم (صقلية) المرمية: ٣٨,٨° ارتفاع: ٧٠ م
نموذج المناخ: برتغالي هسباني معدل الحرارة السنوي: ١٧,٣°
معدل أقصى الحرارة: ٥,٥° معدل أدنى الحرارة: -١,٩° المطر السنوي: ٧٥٦ مم

كارثي ، يضيفي على الأنهار سمة سيلية ، ويؤدي إلى انزلاقات أرضية في الصخور الغضارية وانهيارات كتلية تدعى فران Frane .

ويؤدي هذا التضاد المناخي بين الشمال الإيطالي والجنوب إلى تنوع في نسق الحياة الزراعية الفصلي . ففي الشمال يعمل الحر والرطوبة خلال الصيف على تكثيف الأنشطة الزراعية . أما في الجنوب ، فتنتهي الحياة الزراعية في نهاية الربيع ، بعد مرور شتاء عذب يساعد على نمو المحاصيل وقبل اليبوسة الصيفية .

البراكين والزلازل

يحتوي بركان أتنا الواقع في شرقي صقلية ، على ثلاث بيشات متباينة كلما ازداد الارتفاع . وهكذا نغز بكل وضوح ما يلي :

- جزء مزروع يمتد من مستوى سطح البحر حتى ارتفاع ١٣٠٠ م ، حيث ينبت الزيتون والقطن وكل الأشجار المثمرة المميزة لجزيرة صقلية كالبرتقال والليون والرماني .

- وفوق ذلك نجد قسماً حراجياً حتى ارتفاع ٢٠٠٠ م .

- وأخيراً وفيما فوق ذلك نجد الصخر العاري ، الذي يؤلف جدراناً عالية ، ومخاريط ، وفوهات جانبية تنبثق منها معظم الثورانات ، والفوهة المركزية التي ترتفع حتى ٢٣١٢ م . ويغطي الثلج المخروط خلال بضعة أشهر . ولهذا قامت هناك محطة سياحية كبرى ورياضة شتوية . ورغم تحذيرات الأدلاء والمرشدين فقد أدى تهوّر البعض إلى وقوع عدد من الضحايا على أثر ثوران بركان أتنا خلال صيف ١٩٧٩ .

وعندما تقع الزلازل في مناطق فقيرة ، كما حدث في تراپاني في صقلية أو فريول في إقليم البندقية ، فإن الدولة تضطر لأن تأخذ على عاتقها أمور الإسعاف وإعادة البناء . ورغم مرور بضعة أعوام على وقوع كارثة إقليم فريول ، فلا زال الآلاف من المتضررين يعيشون تحت الخيام .

البيئة والسكان

الديموغرافيا

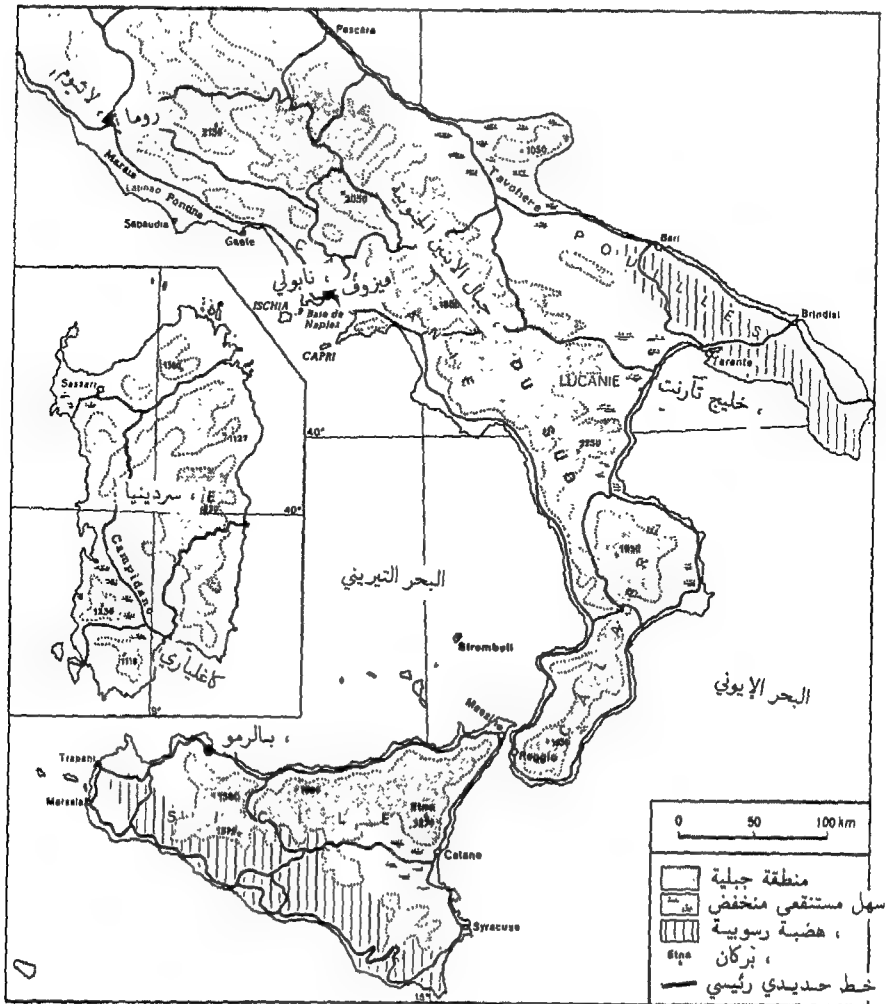
إيطاليا بلد وفير السكان ، فقد تضاعف سكانها تقريباً منذ قرن واحد ، كي يبلغ ٥٨ مليوناً من الأفراد (٥٦,٢ في ١٩٧٦) و (٥٧,٢ في ١٩٨١) . وهذا التقدم العددي ، الناجم عن المواليد ، كان أكبر من ذلك ، بل وخيفاً ، لو لم تقم الهجرة النهائية ، في الوقت ذاته ، بانتزاع قرابة ٧ ملايين من الوطن الأم ، غادروا وطنهم كي يستقروا في الخارج .

وبعد أن ظل النمو الطبيعي مرتفعاً لمدة طويلة ، أخذ بالتباطؤ حالياً . ولما كانت نسبة التوالد تبلغ ١٤ بالآلف ، والوفيات ١٠ بالآلف ، أي كمثلتيهما في فرنسا ، فإن الفائض السنوي لا يتجاوز ٣٠٠,٠٠٠ نسمة أو ٤ بالآلف . ولكن الفوارق الإقليمية تكون كبيرة بالنسبة لهذا المعدل . فبعض المناطق الشمالية أصبحت عاجزة عن أن تعوض الوفيات بالمواليد ، في حين نجد في الجنوب مناطق يرتفع فيها النمو السكاني الطبيعي إلى ١٥ بالآلف ، لأن للعائلات النابوليتانية أو الكالابرية أولاداً ؛ يبلغ ضعف أو ثلاثة أضعاف أبناء العائلات في ميلانو أو تورينو .

ويمثل عدد السكان بالنسبة لسائر أرجاء البلاد كثافة تبلغ ١٨٢ نسمة في الكيلومتر المربع ، مع اختلافات تتراوح بين ٦٢ في سردينيا و ٢٨٨ في كامبانيا في جنوب شرق نابولي .

غير أن رقعة البلاد الإيطالية تمثل مسرحاً لهجرات عديدة داخلية ، وهي هجرات يتعرض لها كل قطر آخذ بأسباب التصنيع ، وتتخذ شكل هجرة ريفية

نحو المدن الكبرى . ولكن تحدث في هذه البلاد ذات الطابع الجبلي الشديد ، حركة هبوط عامة نحو الوديان والسهول والسواحل ، أي تتفرغ الجبال من محتواها البشري . وأخيراً ولما كان التزايد الطبيعي على أشده كلما كانت المنطقة قليلة الحيوية الاقتصادية ، فإن هجرة تنطلق من الجنوب الفقير (شكل ٨) ، أي من إقليم ميزوجيورنو Mezzogiorno نحو الشمال .



إيطاليا الجنوبية وجزرها

الشكل ٨

وقد تكون هذه الهجرات فصلية ، لأن موسم الحصاد في إقليم تافوليره Tavoliere ، أو موسم جني العنب في منطقة پوي Pouilles ، يؤدي لاجتذاب سكان المناطق المجاورة ، في حين أن أعمال زراعة الشوندر السكري في إيميليا Emilie وشتل الرز وحصاده في سهل البو ، تؤدي لانتقال أيد عاملة من مناطق بعيدة ، ولكن أكثر الهجرات كثافة هي الهجرات النهائية ، التي يقوم بها الجنوبيون بحثاً عن الوظائف والأعمال الحضرية في روما وفي ليغوريا أو لومبارديا أو منطقة الپيمونت المؤلفة من السفوح الدنيا لجبال الألب . ويتكون هؤلاء من عائلات فقيرة تحتاج للمسكن وللترية وللتدريب على أشغال جديدة . ويتألف ثلث العمال في معامل شركة فيات في تورينو من الجنوبيين^(١) .

ولقد نتج عن اكتظاظ السكان هجرة ظلت ، ولدة طويلة ، أمراً لا بد منه للحفاظ على توازن البلاد الاقتصادي . وبعد أن ظلت هذه الهجرة متواضعة حتى عام ١٨٨٥ ، ومتجهة على الخصوص نحو المناطق الصناعية في أوروبا ، أخذت أبعاداً كبيرة لدى انفتاح الأقطار الجديدة بين ١٩٠٠ و ١٩١٤ ، وهكذا يعيش ٥,٢ ملايين إيطالي في الخارج . غير أن هذه الحركة تقلصت في الفترة الفاشيستية أيام حكم موسوليني والحرب العالمية الثانية ، أي بين ١٩٢٥ و ١٩٤٥ ، كي تعيد سيرتها بشكل معتدل ولكن منتظم ابتداء من سنة ١٩٤٥ . وإذا كانت لا تزال نابولي نقطة انبعاث هجرة نحو الأمريكتين وأستراليا ، فإن الأقطار الأوروبية عادت فأصبحت مناطق الجذب الرئيسية . وهكذا راح الكالابريون ، والصقلّيون ، وأيضاً الپينتيون ، والبنادقة ، يقصدون سويسرا -بلدان الجماعة الاقتصادية الأوروبية ، حيث يكون دخول الطليان حراً . وهم يتواءمون بشكل طيب ، ويستقرون نهائياً بعد استقدام أسرهم . وهكذا تؤدي الهجرة الموقته الناجحة إلى هجرة نهائية .

(١) تتألف كلمة فيات من أول حرف لأربعة كلمات هي : فابريكا ، إيطاليانو ، أوتوموبيله ، تورينو . أي المصنع الإيطالي للسيارات في مدينة تورينو .

هذا وقد . خفضت نسبة العاملين المؤوية من السكان ، فهبطت من ٥٩ ٪ في عام ١١ . ٣٥ في الوقت الحاضر وفي ذلك إشارة إلى التقدم والتنمية . ولكن هذه الأعداد في زاييد . وتجري عملية إعادة تكوين البنية الاجتماعية المهنية بصورة جذرية . فقد كانت الزراعة حتى عام ١٩٥١ تنصدر الأنشطة إذ كان يعمل فيها ٤٢ ٪ من الطليان مقابل ٣٢ ٪ في الصناعة . وفي عام ١٩٧٨ هبطت نسبة العاملين في المجال الزراعي إلى أقل من ١٥ ٪ . ولكن نسبة العاملين في الصناعة كانت ضعف هذه النسبة أو ٣٠ ٪ ، في حين يظل للقطاع الثلاثي الأثرية المطلقة ، أو ٦٥ ٪ .

إحصائيات مجالات العمل في ١٩٧٨ بالآلاف

المجموع ٢٠٥٠٠

يعمل منهم في الزراعة التي تقدم ٩,١ ٪ من الدخل القومي ٢٩٥٠ ألف

يعمل منهم في الصناعة ٥٨٣٩ ألف

يعمل منهم في البناء ١٧٠٥ ألف

يعمل منهم في التجارة ٦٧٢٢ ألف

يعمل منهم في خدمات غير تجارية ٢٨٣٤ ألف

مواقع المساكن المعلقة :

تشتهر إيطاليا بكثرة المواقع السامقة ، المثبثة فوق قم الروابي ، أو التلال ، أو فوق خطوط ذرا التضاريس الوعرة . ويمكن تفسير هذا الاختيار عادة في أن الاهتمامات الدفاعية هي الدافعة لاتخاذ مواقع كهذه . ولكن الأكثر صحة هو رد ذلك إلى سهولة السيطرة على المساحات المزروعة ، الممتدة على منحدرات التلال ، تلك الرقع الزراعية التي تندر في المنخفضات الرطبة الكثيرة الأحراش أو الوحية لتفشي البرداء ، ولا سيما في قيعان الأودية ، التي تحتلها سرر الأنهار الفضفاضة أو السيول الأينية .

وفي عصر قريب منا ، وعلى أثر عمليات استصلاح الأراضي ، وقيام الصناعات في المناطق المنخفضة ، أو على أثر تحسين شبكة المواصلات ، فقد ازدوجت المواقع المعلقة نوعاً ما ، بعد أن دفعت بأحياء جديدة باتجاه الأسفل . وهكذا ظهر الكثير من المدن الساحلية الناشئة عن استطالة مواقع داخلية ، أو بعبارة أخرى لظهور مواقع « بحرية » .

د . غريبودي . جغرافية إيطاليا الاقتصادية . دار بورداس

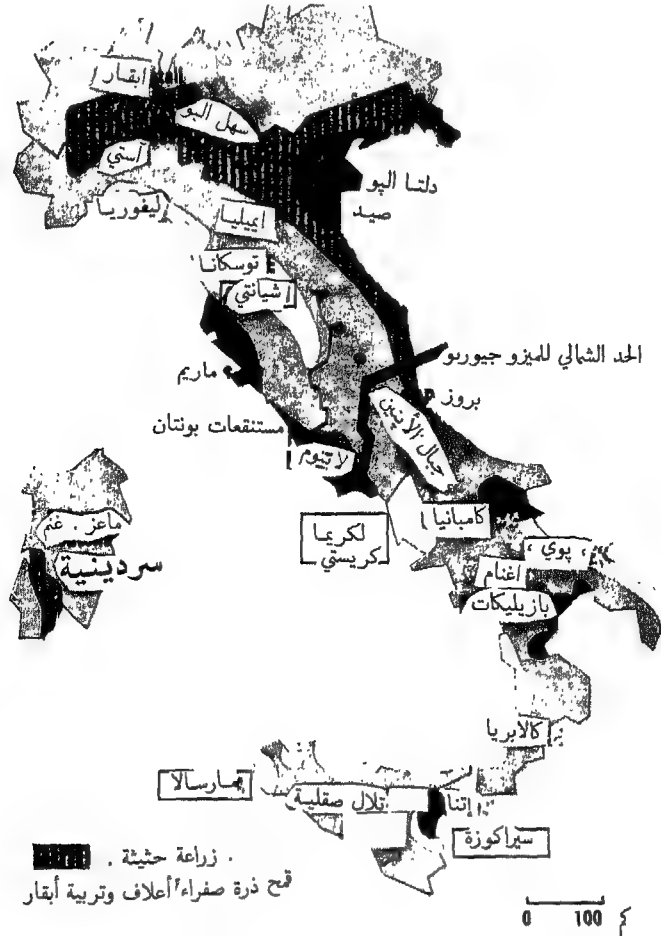
الحياة الزراعية

تتألف رقعة الأرض الإيطالية من سهول تشغل نسبة تقل عن الربع ، أو ٢٣ ٪ ومن تلال ٤٢ ٪ والباقي هو ٣٥ ٪ عبارة عن جبال . ولكن هذا لا يمنع من أن تبلغ المساحة الزراعية المفيدة امتداداً يصل إلى ١٧,٥ مليون هكتار أو ١٧٥ ألف كيلومتر مربع ، أو نسبة تقارب ٥٨ ٪ من مساحة البلاد . وهكذا يتجلى الجهد المبذول خلال القرون العديدة الماضية ، للتغلب على الشرائط الطبيعية العسيرة ، كتطرف المناخ وفقر الترب الزراعية (شكل ٩) .

وهكذا يتخلى الجبل عن سكانه تدريجياً ، فترك الزراعة مكانها للأحراش التي تبلغ مساحتها ٦,٣ ملايين هكتار أو ٢٠ ٪ ، كما لم تعد المراعي الجبلية التي تؤلف ١٣ ٪ من مساحة البلاد ، تستقبل القطعان المنتجة صيفاً . وعلى خلاف ذلك فإن استغلال السهول يزداد إتقاناً فيكون الاستصلاح منهاجياً . فتم عملية التجفيف أولاً ، ثم يجري صرف مياه المستنقعات ، ثم تبنى الحواجز النهرية الجانبية للوقاية من الفيضانات ، وأخيراً يتم تحسين الأوضاع الصحية في المناطق الوبئة . وقد شرع بتنفيذ هذه المشاريع في أيام جمهورية البندقية في القرن الثامن عشر ، كي يستأنفها كاثور في نطاق البيوننت ، والبابوية في كامبانيا المجاورة لروما ، ومن ثم تعممت هذه العمليات الاستصلاحية . أما استصلاح الأحواض الجبلية ، فيرمي للوقاية من أضرار انجراف التربة ، وذلك بكسر حدة السيول . أما الاستصلاح المتكامل فهو عبارة عن تمازج الأسلوبين السابقين ، لأن حماية السهل لا يمكن أن تكون مضمونة إلا في الإشراف على الأنهار في حوض العالية . ويشتمل الاستصلاح أيضاً تنفيذ كل أشغال شبكة الطرق ، وبناء

القرى ، وجر المياه النقية ، والكهرباء ، الضرورية جميعها ، لاستغلال الأرض بصورة حثيثة عقلانية .

ويتوج الري عملية الاستصلاح ، ومع أنه يكون لزوماً في الجنوب ، حيث



الشكل ٩

. الزراعة الايطالية

تكون فترات الجفاف الصيفي أكثر طولاً ، فإننا نجده وقد اتسع نطاقه في الشمال مثل قناة نايفيليوغراند في لومبارديا ، التي حفرت في القرن الثاني عشر ، وقناة كافور التي ظهرت بين عام ١٨٦٣ و ١٨٦٦ ، اعتماداً على نهر تيسان الهابط من جبال الألب السويسرية ، وقناة فيرجيل ، وقنوات مينشيو ، ومياه شريط فونتانيلي ، التي تروي مساحة ١٠٠,٠٠٠ هكتار ، مما يحصر ثلاثة أرباع الأراضي المروية في سهل بادو ، جنوب غرب البندقية ، غير أن أشغال الري تتوسع مع ذلك في الجزء الواقع في نطاق البحر الأبيض المتوسط .

وإلى جانب ذلك يتسارع التقدم التقني . فقد أصبحت الزراعة عصرية أكثر ، لأن كل ١٠٠ هكتار من المساحة الزراعية المفيدة ، تتصرف بمقدار ٤,٥ جرارات ، كما تعمل في إيطاليا ٢٦٠٠٠ حصادة درّاسة ، و ٧٠,٠٠٠ محطة للحلب الآلي ، كما يكون استهلاك الأسمدة في تقدم مضطرب لأن كل هكتار من المساحة الزراعية المفيدة أصبح ينال ٨٥ كيلوغرام . ونتج عن ذلك ارتفاع تظاهري في مردود الهكتار ، فبين ١٩٥٠ و ١٩٧٥ ، ارتفع هذا المردود من ١٦,٥ كنتال / هكتار إلى ٢٦,١ كنتال ، في حين زاد مردود الذرة الصفراء من ١٥,٥ كنتال إلى ٥٦,٧ ، على أثر انتشار الأنواع الهجينة . وقفز مردود البطاطا من ٦٣ إلى ١٦٠ ، بينما ارتفع مردود الشوندر السكري من ٢٥٧ إلى ٣٩٤ .

وهكذا تمكنت إيطاليا من تحسين درجة استقلالها في مضار المواد الغذائية . فإذا كان إنتاج الرز الذي يصل إلى ٧٠٠ ألف طن ، يفيض عن حاجة الاستهلاك بنسبة ٢٢٨ ٪ ، فإن القمح الذي يصل إنتاجه إلى ٩,٣ ملايين طن لا يغطي سوى ٨١ ٪ من الاستهلاك المحلي والذرة الصفراء ٥٠ ٪ ، مع أن إنتاجها يبلغ ٦,٥ ملايين طن . وتضطر إيطاليا لاستيراد ١٠ ملايين طن في العام من الذرة ، لتكامل حاجاتها الاستهلاكية . غير أن تربية الماشية في حالة تقدم مدهش ، ويبلغ تعداد القطيع البقري ٨,٢ ملايين رأس ، والأغنام ٨ ملايين ،

والخنازير ٩ ملايين رأس ، بحيث تتغذى الحاجات المحلية من الحليب بمعدل ٩٦ ٪ و ٧٤ ٪ في مجال اللحوم . أما إنتاج الخضار ، كالبندورة ٢,٨ مليون طن ، وسكر الشوندر ١١ مليون طن ، والثمار ، والحمور التي يصل إنتاجها إلى ٦٤ مليون هكتولتر ، كي تحتل المرتبة الثانية في العالم ، وزيت الزيتون ٣٣١٠ طن ، حيث تحتل الدرجة الأولى في العالم ، فيزيد عن الحاجة ، وتحسنت أسواقها الخارجية بفضل السوق المشتركة الزراعية .

ويكون كل ذلك مصحوباً بتحولات اجتماعية كبيرة . ولكن أبعاد الحيازات لا تزال صغيرة ، لأن ثلثها يقل عن خمسة هكتارات . ولكن ثلث المساحة الزراعية المفيدة (م ز م) ، يستغل حالياً بواسطة مؤسسات تزيد مساحة الواحدة منها عن ٥٠ هكتاراً . وهكذا تتناقص أعداد الأيدي العاملة الزراعية ، كما أن نظام مؤاجرة الأرض أخذ بالتلاشي ، كما تتحسن أوضاع العمال الزراعيين المأجورين . وعلى العموم أدت تدابير الإصلاح الزراعي إلى تحول عميق في بعض مناطق البلاد على الصعيدين الاجتماعي والتقني .

إحصائيات ١٩٧٨		١٩٨١
القمح	٨,٧٦٤,٠٠٠ طن	٨٩٢١٠٠ طن
ذرة صفراء	٦,٠٤٠,٠٠٠ طن	٧٠٧١٠٠ طن
خمر	٦٥,٠٠٠ مليون هكتولتر	٧٦٥٠٠ مليون هكتولتر
خضار	٣,٠٠٠,٠٠٠ طن	---
أبقار	٨,٨٠٠,٠٠٠ رأس	٨٧٣٤٠٠٠ رأس
أغنام	٨,٧٠٠,٠٠٠ رأس	٩٢٧٧٠٠٠ رأس

الإصلاح الزراعي : لا تكون عمليات الإصلاح الزراعي محصورة في الجنوب . ولكن ٦٩ ٪ من عمليات توزيع الأراضي تمت في منطقة ميّزوجيونو ، أو المناطق الفقيرة الواقعة جنوب خط عرض روما ، وفي هذه المنطقة جرت أوائل عمليات الإصلاح الزراعي ، والنص الأصلي للإصلاح هو قانون سيغني الصادر في عام ١٩٥٠ .

وفي بعض المناطق التي تسود فيها الملكية الكبرى أو latifundia ، حدثت مصادرة أراضي كبار الملاكين التي تزيد عن ٣٠٠ هـ أو عن ٢٠٠ هـ في صقلية . أما للملاكون من أصحاب المزارع النموذجية ، أو الذين تعهدوا بتحسين أساليب استغلال أراضيهم ، فقد نجوا جزئياً أو كلياً من مصادرة أراضيهم . وقد جرى التعويض على الملاكين السابقين بسندات على الدولة لمدة ٢٥ سنة ، استناداً لقيمة أراضيهم في عام ١٩٤٧ .

وقد أخذت تسع دوائر إقليمية على عاتقها إعادة توزيع الأراضي . وكان المقصود من هذا التوزيع تكوين مستغلات صغيرة تؤمن معيشة أسرة متوسطة مؤلفة من ستة أشخاص . ومعنى هذا أن الرقعة تتعلق بخصوبة الأرض ، بحيث تتفاوت المساحة الموزعة بين ١,٤٤ هكتار فوق أراضي البولدر المستصلحة فوق أراضي بحيرة فوسينو Fucino السابقة ، والتي صودرت من مزرعة أمير تورلونيا البالغة ١٤٠٠٠ هكتار ، وبين ١٣ هكتاراً في جزيرة سردينيا .

وعلى كل منتفع أن يستند قيمة المزرعة المبدئية خلال ٣٠ عاماً ، هذا فضلاً عن ثلثي قيمة التحديث . ولضمان نجاح عملية الإصلاح ، قامت مؤسسات إقليمية بتنظيم الرقعة الزراعية بأكملها ، كمكافحة الحت (انجراف التربة) وإنشاء مزارع جيدة التجهيز ، وجر المياه الثقيلة والكهرباء ، ومدّ الطرقات وإنشاء الأبنية التعاونية . وهكذا أصبح على كل مستفيد أن يخضع لانضباط دقيق ، وعليه أن يبرهن عن مقدراته خلال ثلاثة أعوام ، قبل أن يتسلم سند تملكه ، مثلما يجب عليه أن يخضع للأنظمة التعاونية . وعليه أن يتعهد بالامتناع عن بيع أرضه أو تقسيمها خلال ثلاثين عاماً . وكان نجاح هذا المشروع هو توطيد ١٠٠,٠٠٠ عائلة فوق ٧٠٠,٠٠٠ هكتار . ولكن « الجوع إلى الأرض » يتناقض مع الهجرة الريفية ، لأن الإلحاح ينصبّ الآن على التحديث .

تنوع الأرياف الزراعية :

تتفوق المزروعات الحقلية الوحيدة في إيطاليا الشمالية والاستثناء هو حدائق الزهور في ليغوريا ، وكروم العنب في مونتيفيآ ، ومزارع الأشجار المثمرة في منطقة ترانتان . هذا وتكون الذرة الصفراء « الشامية » قاعدة الدورة الزراعية في شمالي نهر الپو ، في حين يلعب القمح الدور ذاته في الجنوب ، أي في إيميليا ورومانيه Romagne . وعلى أساس الدورة الزراعية الثلاثية تتعاقب مزروعات تربية الماشية ، أي الأعلاف ، ثم النباتات المعزوقة كالشونسدر السكري ، وأخيراً الذرة والحنطة . بيد أن الحقول تكون مزروعة بالأشجار ، وعلى الخصوص فوق الترب الجافة الواقعة حول السهل . حيث تنتشر مزارع التفاح والدراق ، ابتداء من بولونيا إلى تورينو وحتى برغامه ، إلى جانب صفوف دوالي الكرمة العالية . وتتفوق زراعة الرز والمروج الطبيعية فوق الأراضي الثقيلة والرطبة في قلب سهل پادو . كما تهين زراعة الرز عند تخوم البيونت ولومبارديا ، في حين تسود المروج كلما اقتربنا من البحر الأدرياتيكي . ويستأثر السهل بثلاثي قطيع الأبقار ، والتي تجد في المروج الجبلية الألبية المجاورة أجود المراعي الصيفية (شكل ١٠) .

أما إيطاليا الجنوبية فتحوي على اختلافات أكبر في طرائق استغلال الأرض ففي المناطق الأقل تطوراً يعيش السكان المتجمعون في قرى ضخمة من زراعة القمح ، ومن تربية الأغنام الواسعة التي ترعى الحصيد في السهل وفي مراعي المرتفعات . وفي سردينيا لا تزال تربية الأغنام بقصد صنع الجبن هي التي لا تزال سائدة رغم التوسع في الري مؤخراً ، والذي يوائم الزراعة الكثيفة .

وتجعل الزراعة المتعددة في السهول ، والتي تكون شديدة التنوع ، وحيثية أكثر ، تجعل المنطقة الممتدة من توسكانيا حتى كامبانيا ، عبارة عن مشهد زراعي نكاد نعتز فيه على كل أنماط الزراعة . فتوفر محاصيل الحضار والفواكه والحبوب والماشية والخمر وزيت الزيتون المداخل لعالم ريفي شديد الكثافة . وتظهر المزروعات الصناعية في سهل لاتيوم ولا سيما الشوندر السكري ، وفي كامبانيا



حيث تسود زراعة التبغ والقنب ، وفي صقلية حيث القطن ، مثلما نجد زراعة الحمضيات المتسعة في صقلية وفي كالابريا ، عدا الكروم الشاسعة في بوليليا ، وحول الباكوريات في كامبانيا ، والتي تكون أكثر مناظرها حداثة وأكثرها تسويقاً هي الواقعة في الجنوب .

مزرعة كبيرة لإنتاج الألبان

تلك هي مزرعة سانتا مارياديل كامبو ، الواقعة على مسافة ١٠ كم من كريبونا (على نهر البو شرق ميلانو) ، والتي تبلغ مساحتها ١٠٠ هـ منها ٧ هكتارات تشغلها الأبنية القديمة والحديثة . وفي ١٩٥٠ كان نصف أراضيها عبارة عن مراعي ، وربع مخصص لزراعة الحنطة والربع الأخير لزراعة الذرة الصفراء . وكانت تمارس فيها تربية دودة القز . وكانت تعمل فيها ٣٠ عائلة ، منها ٢٧ أسرة كعمال زراعيين . وحدث انقلاب كامل بين ١٩٥٠ و ١٩٧٠ ، فقد حلت المكائن محل الإنسان وتغيرت طبيعة الإنتاج . وفي ١٩٧٨ لم يبق سوى ٦ عائلات و ٨ عمال زراعيين ، ولكن كان هناك ٩ جرارات وعشرة آلات . وأصبح ثمانية هكتاراً مخصصة للذرة الصفراء ، المشتركة مع السليم والشعير (محصولان سنويان) ، أما الباقي فيخصص للعلف الأخضر السنوي . وزاد عدد القطيع ليبلغ ٤٠٠ رأس ، ويكون المردود عالياً جداً . وتخصص كل المحاصيل لإطعام الماشية . ومهمة المستغلة الأولى هي إنتاج الحليب الذي يباع لشركة صناعية ويؤلف ٧٥ ٪ من دخل المزارع الذي يبيع من ناحية أخرى ، الثيران الصغار وعشرين بقرة في كل عام .

وقد تم مؤخراً تجميل المقاسم الزراعية ، وقد جرى تكييف الأبنية القديمة بزرائب كبيرة عصرية ، وبقاعة يمكن حلب ١٥٠ بقرة فيها خلال ثلاث ساعات ، وعناصر لتخزين العلف ، وخزان للاحتفاظ بالحليب إلخ .. ولكن معونات الدولة وقروضها هي التي سمحت بإنجاز هذه الإنجازات .

ويتناول العمال أجورهم شهرياً ، والتي تتراوح بين ٤٥٠ ٠٠٠ و ١ مليون لير ، ويتمتع كل منهم بسكن مجاني وبمديقة .

عن ل . تيرون

شروط الحياة الصناعية

كانت إيطاليا تعاني ، خلال الفترة التي كانت تحقق فيها وحدتها ، من تأخر صناعي كبير ، بالموازنة مع الأقطار الأوروبية الأخرى . ولم تكن الصناعة تمارس أي جاذبية على الرساميل كي تستثمر في الصناعة ، كما يمكن تفسير ذلك بفقدان الحديد والفحم .

وقد تم الإقلاع في عام ١٨٨٥ ، كما تمخضت الحربان العالميتان عن جهد كبير في هذا المضمار . ولكن بعد عام ١٩٤٥ بشكل خاص ، ساهمت المساعدة الأمريكية والانضمام للجماعات الاقتصادية الأوروبية المختلفة ، والنهضة في إنتاج الطاقة على أثر تجهيز القوى الكهربائية واكتشاف الغاز الطبيعي ، وحيوية المؤسسات الحكومية الكبرى الخاصة ، أقول ساهمت في تحقيق ما أمكن تسميته المعجزة الإيطالية . وقد وفرت الصناعة فرص العمل لثلث القادرين عليه ، وساهمت بنسبة ٥٠ بالمائة من الدخل القومي الخام P.N.B ولكن سرعان ما مرت فترة الرخاء والازدهار ، ففي السبعينات أخذت الأوضاع الاجتماعية بالانحطاط ، وضاعت بعض الأسواق الخارجية ، سواء بسبب العدوانية الاقتصادية أو بنوعية المنتجات ، وأصبحت التبعة البترولية عائقاً ينوء بكل ثقله أكثر فأكثر .

وأدى الوضع الصناعي إلى ظهور ما يلي :

- أيد عاملة وفيرة ، هي أكثر من عرض مجالات الاستخدام ، لأن إيطاليا تحوي حالياً أكثر من مليوني عاطل عن العمل ، وأكثرهم من الشبان . ويؤثر هذا الوضع على مستوى الأجور ، غير أن « كيان الشغيلة » ، يتحدد بموجب القانون رقم ٣٠٠ الصادر في ٢٠ أيار ١٩٧٠ ، وذلك في كل المؤسسات التي تستخدم أكثر من

١٥ عاملاً ، أقول يحدد نواظم التوظيف بصورة دقيقة جداً ، وتجعل من المستحيل تسريح العامل أو تطبيق الساعات الإضافية .

- المؤسسات الكبرى ، وهي رائدة في فروعها ، وإذا كانت شركة فيات هي الأكثر شهرة ، ولا سيما في مجال سياراتها ، فإن هناك مؤسسات ذات وضع مسيطر أيضاً في ميادينها الخاصة بها ، مثل شركة مونتيديسون Montedison في ميدان الصناعة الكيماوية والكهرمعدنية ، وشركة سنيا فيسكوزا في حقل المنسوجات الكيماوية ، وپيريللي في صناعة المطاط ، وأوليفيتي في صناعة المكائن المكتبية .

- قطاع حكومي أساسي : إذا استثنينا الدوائر الحكومية الخاصة بالدولة ، والتي تنتسب إلى القطاع الثلاثي ، كالخدمات العامة والخطوط الحديدية ، فإن الدولة الإيطالية تشرف على شطر كبير من الصناعة . فهناك مؤسسات عامة تستغل المعادن والفحم في جزيرة سردينيا . ويتعلق البحث عن النفط واستخراجه بمؤسسة اينى Eni وتفرعاتها . هذا ويكون لمؤسسة أ. ر. ي (معهد التعمير الصناعي) ، التي أنشئت في عام ١٩٣٣ ، بعد أن أخذت الدولة على عاتقها إدارة رؤوس أموال المشاريع الصناعية ، التي كانت تشرف عليها بنوك على شفير الإفلاس ، والتي أصبح وضعها الحالي منتظماً بقانون عام ١٩٤٨ ، لتنمية الاقتصاد القومي ولإنعاش الجنوب ، أقول يكون لهذه المؤسسة فروع عديدة تضم ١٣٠ مؤسسة صناعية ، يعمل فيها ٣٠٠,٠٠٠ عاملاً . ويؤلف هذا القطاع سلاحاً قديراً ، فعلاً ، في يد الدولة ، ولكنه يؤلف عبئاً ثقيلاً عليها .

- وتلعب المؤسسات الصناعية الصغرى دوراً هاماً ، لأنها تقدم ٩٠٪ من إنتاج الأثاث و ٧٠٪ من الألبسة والأحذية . وتكون الإدارة هنا حرة والأيدي العاملة غير مصرّح عنها تماماً ، مما يجعل الأعباء الاجتماعية خفيفة ، لأنها تعيش على هامش القانون رقم ٣٠٠ ، وتكون هذه المؤسسات فضلاً عن ذلك منضمة

إلى ٢٥٠ رابطة توفر لها محاسن المركزية دون عوائقها .

أما فيما يتعلق بالتوين بالمواد الأولية ، فإن لإيطاليا موارد معدنية متنوعة ولكنها قليلة المقادير (شكل ١١ و ١٢) . وهكذا لا تقدم فلزات الحديد المستخرجة من جزيرة إلبه سوى ٢٪ من الحاجات المحلية . ويأتي الزنك والرصاص من سردينية والبوكسيت من غارغانو والزئبق من توسكانيا وكذلك البيريت . وكما هو الحال بالنسبة للطاقة فإن هناك حاجة ماسة للاعتماد على الاستيراد بصورة كثيفة ، كي تستطيع تأمين المواد الأولية للصناعة .

هولندغ الدولة : لقد كانت هذه المؤسسات إحدى دوافع التوسع الصناعي الإيطالي خلال الخمسينات . فقد أنشئت الأولى العملاقة ، وهي « آ. ر. ي » و « اينبي » بعد الحرب ، فوق أسس تجارية بحتة كشركتين بقصد الربح . وقد كانتا بالنسبة للدولة ، التي تعتبر في بلد أخذ بأسباب النمو ، أول مصدر لرؤوس الأموال ، وسيلة عملية لتحويل الأموال نحو الصناعات الأساسية ، دون التعرض لظاهرة الإخفاق التي كثيراً ما تصاحب المؤسسات الحكومية . وكان امبراطور شركة « آ. ر. ي » في فترة ما بعد الحرب ، هو غيزيب پتريلي ، وفي شركة « اينبي » هانريكو ماتّي ، اللذان كانا يديران شركتين كأمرين مستقلين ، ولم يكونا عرضة لأي تدخل من طرف الحكومة ، باستثناء الإيعاز بخصوص الاستثمار الصناعي في اتجاه الجنوب الإيطالي . وقد بدأت الموم تظهر عندما أصبح الاقتصاد الإيطالي هدفاً للمصاعب والأزمات خلال الستينات . فأنشأت الحكومة شركتين جديدتين من نوع « هولندغ » ، هما « ايغام » Egam ، من أجل ضمان الشركات النسيجية والتعدينية التي تعاني من المصاعب ، وشركة « ايفيم » Efim ، لذيد المعونة للشركات الخاسرة في مجالات عديدة من القطاعات الصناعية . وكانت الفكرة هي جعل هذه الشركات مزدهرة من جديد ، كي تحصل بعدئذ على إدارة خاصة بها . ولكن ظهر ذلك مستحيلاً ، لأن الأزمة الاقتصادية لم تتوقف عن التفاف ، لهذا جرى التوسل بالحاح إلى « آ. ر. ي » و « اينبي » أن تتحاشى تصفية القطاعات التي تعاني من الأزمة ، والذي كان ذلك سيؤدي لا محالة إلى تسريحات في صفوف العمال ، ولكن أدى إبقاؤها على قيد الحياة إلى تحويل أرباح صادرة من قطاعات أخرى ، وهكذا بادرت شركة « آ. ر. ي » لنجدة أكبر شركة كياوية إيطالية ، تعاني من المصاعب وهي شركة موتيديزون . وقد أدى تفاقم الأزمة الاقتصادية مع التدخل السياسي ، إلى خسارة شركة « آ. ر. ي » مبلغ ٥,٨ ملايين دولار ، وارتفع مجمل ديونها إلى ١٥,٥ مليار في أواخر عام ١٩٧٦ ، في حين كانت ديون شركة « اينبي » ٤,٧ مليارات ، كما صعدت ديون شركة موتيديزون إلى أكثر من ٣ مليارات .

مجلة المسائل الاقتصادية - ٥ تموز ١٩٧٨



الشكل ١١

الطاقة والصناعة :

لإيطاليا حصيلة طاقية قليلة أصلاً. وبما أن إيطاليا دولة فقيرة بالفحم، لأن إنتاج الانتراسيت من قال داوست ، وفحم كاربونيا الايوسيني لا يزيد عن مليون طن ، فإنها تضطر لاستيراد أنواع لا غنى عنها للصناعة الحديدية فيها . وعلى كل لا توفر أنواع الوقود الصلب أكثر من ٧,٤٪ من الطاقة . وتقدم الكهرباء الأولية ما يزيد قليلاً عن ٨,٦٪ . وتعتبر المراكز الكهربائية المصدر الرئيسي ، ويقع ٧٠٪ منها في جبال الألب ، التي تقدم على الخصوص الإنتاج الصيفي ، وتقدم شبه الجزيرة ٢٨٪ ذات الإنتاج الشتوي . ويتحقق ترابط هذه الشبكة أيضاً بواسطة المراكز الحرارية ، والطاقة الحرارية الأرضية في الارديرللو في توسكانيا والمراكز النووية الأربعة . غير أن الوقود السائل هو الذي يوفر القسم الأعظم من استهلاك الطاقة ، حيث يقدم النفط ٦٨,٥٪ والغاز الطبيعي ١٥,٥٪ ، وبالرغم من إنتاج غاز الميثان وطنياً ، فإن التبعة تظل كبيرة ، كما أن صعود أسعار النفط في أواسط السبعينات كان شديد التأثير وتستورد شطراً كبيراً من الغاز الجزائري بواسطة أنبوب بحري ينطلق من ميناء الصخيرة التونسي .

أما الفروع الرئيسية الصناعية فهي :

- وتأتي المنسوجات والألبسة في رأس القائمة ، نظراً لرسوخ قدم هذه الصناعة في التاريخ ولعدد العاملين فيها . وتكون صناعة القطن هي الأكثر نمواً ، ويقع ٩٥٪ منها في الشمال . أما الصناعة الصوفية ، فتعتمد جزئياً على تربية الماشية المحلية ، وتكون أكثر تبعثراً ، فنجدها في البيوننت وفي إقليم البندقية وفي توسكانيا . ولقد كان الحرير الطبيعي أحد أكبر الاهتمامات في مدن الحافة

الألبية . أما المنسوجات الكيماوية التي لحقت بالحرير ، بتأثير الشركات الكبرى مثل سنيافسكوزا بالنسبة للحرير النباتي ، ومونتيديزون بالنسبة للناليون ، فقد انضمت في مصانع ضخمة حول ميلانو .

- أما الصناعة الحديدية ، فهي حديثة النشأة ، فإيطاليا المحرومة من فحم وطني ، والفقيرة بالحديد ، لم تستطع أن تصبّ أول سكب من الفونت إلا في ١٨٩٩ . ولقد ساهم دخولها في الجماعة الأوروبية للحديد والفولاذ وتمركز شركاتها الصناعية ، وعلى الخصوص مؤسسة فينيسيدر Finsider والموقع الساحلي ، أقول ساهمت جميعاً في رفع الإنتاج الحالي إلى ١٣ مليون طن من الفونت (الصهير أو الحديد الزهر) ، و ٢٤,٦ مليون طن من الفولاذ في ١٩٨١ . وتعمل الأزمة الحالية على الحيلولة دون استخدام مصانع الحديد في الجنوب ، في إقليم تارنت ، بكامل طاقتها .

- أما الصناعة الميكانيكية فهي أحسن تواءماً في قطر غني بالأيدي العاملة ، والذي يستطيع تصنيع منتجات الصناعة الحديدية . وهكذا نجد أن صناعة السفن ، تخلق حيوية ترسانات جنوا وترستا ولاسبيزيا . غير أن فرع صناعة السيارات ، يظل أكثر شهرة على المستوى العالمي . وإذا كان إنتاج السيارات يبلغ وسطياً ١,٨ مليون سيارة ، فإن شركة فيات تقدم ٩٠% من هذا الإنتاج ، وتأخذ شركة ألفاروميثو على عاتقها إنتاج قسم من الباقي ، ولا سيما جميع سيارات رينو الفرنسية . وتتدخل صناعة المركبات ذات العجلتين ، والصناعات الجوية والمكائن الزراعية والأدوات المكتبية ، والكهربائية المنزلية ، أو المنتجات الألكترونية في توفير العمل أيضاً لأكثر من ٩٠٠,٠٠٠ نسمة .

- أما الصناعات الكيماوية ، فتكون منضمة لمجموعات قوية ، تكون البتروكيما هي الأصل أحياناً . وعلى خلاف ذلك تكون الصناعات الغذائية شديدة التنوع والتبعثر ، فهناك ١٥٠٠ معمل للمعجنات الغذائية ، ولتصبير

الخضار والفواكه ، ومصانع السكر ، ومعاصر زيت الزيتون، وصناعة الألبان في الشمال . ولم يعد لصناعة البناء والأشغال العامة تلك الحيوية التي كانت لها خلال الخمسينات والستينات ، لأن صناعة البناء لا تقدم أكثر من ١٦٠,٠٠٠ مسكن في العام ، كما أن عصر بناء طرق السيارات العريضة Autoroutes قد مضى .

إحصائيات ١٩٧٨	١٩٨١
الكهرباء ١٦٧ مليار كيلواط	١٨١ مليار كيلواط
غاز طبيعي ١٣,٣ مليار م ^٣	١٤ مليار م ^٣
فونت ١١,٤ مليون طن	١٢,٤ مليون طن
فولاذ ٢٤,٢ مليون طن	٢٤,٦ مليون طن
السيارات	
السياحية ١,٥١٠,٠٠٠ سيارة	١,٢٥ مليون سيارة
السيارات	
النفعية ١٤٧,٠٠٠ سيارة	١٦٤٩٠٠ سيارة

فيات لقد تأسس المعمل الصناعي للسيارات في تورينو FIAT في عام ١٨٩٩ ، على يد تسعة من مواطني تورينو ، منهم السنيور أنييلي التي لا تزال عائلته تدير المؤسسة ، مع ٥٠ عاملاً في ذلك الوقت . أما اليوم فتملك الشركة ٣٠ مصنعاً منها ١٨ في تورينو ، وفي منطقة البيونتي ، والتي توفر العمل لقرابة ٢٠٠,٠٠٠ نسمة ، وأكثر من ٣٧ مصنعاً آخر في خارج إيطاليا . وتنتج شركة فيات ، التي تحتل المكانة الثانية بين منتجي السيارات في أوروبا ، بعد « سيارة الشعب » فولكسفاغن « والخامسة في العالم ، مقدار ٤,٣٪ من السيارات العالمية ، أو ١,٦ مليون سيارة في العام ، إلى جانب ٤٥٠٠ جرار « تراكتور » وعربات السكك الحديدية ، ومحركات السفن ، ومحركات طائرات ، ومكائن صانعة .

ويمكن تفسير مثل هذا النجاح بأساليب صناعية مؤتمنة للغاية . فإليك مصنع ميرافيوري في البيونتي مثلاً مصاهر حديد خاصة به ، وتكون كل سلسلة تجميع متخصصة في نوع من السيارات . ولتجميع ٤٠٠٠ قطعة ضرورية لبناء كل نموذج ، يكون من اللازم وجود ٢١٦ كيلو متر من الناقلات الهوائية ، و ٢٥ كيلو متر من الخطوط الحديدية ، و ١٣ من الأنفاق الباطنية والعديد من الطرق .

ويتحقق التكوين المهني للعمال منذ عام ١٩٢٢ في مدرسة مركزية لتدريب عمال فيات ، حيث

يُضطلع بمهمة التدريس ١٢٠ مهندساً . وينصرف الكثير من الكوادر أيضاً إلى البحث الذي يمتص ما بين ٣ إلى ٤ ٪ من ميزانية الشركة .

ويتحقق الشطر الأعظم من التنمية عن طريق التمويل الذاتي ، بحيث لا يمثل الاستقراض أكثر من ٦ إلى ٧ ٪ من ميزانية الشركة . وقد اتبعت فيات في الوقت ذاته سياسة تكامل عمودي ، ففي العالية لديها معامل فولاذ خاصة ومصانع التصفيح منذ ١٩١٧ ، وفي السافلة تقوم بتنمية وبتوسيع شبكة مبيعاتها وورشة التصليح والصيانة ، سواء في إيطاليا ، حيث يبلغ عدد مراكز التصليح ٤٥٠٠ ، أو في الخارج حيث تملك ٥٣٠٠ مركز صيانة موزعة على ١٥٢ قطراً ، كما عقدت اتفاقات مع الاتحاد السوفييتي لإنتاج طراز لادا الروسية ، ومع بولونيا ، وراحت اعتباراً من ١٩٧٢ تنشر مصانع التجميع في البلاد الأجنبية . وأخيراً تعطي الإدارة اللامركزية المرونة التي لا غنى عنها ، بفضل ست إدارات مختصة بالإنتاج ، وتتبع باستقلال ذاتي واسع .

أهمية الوقود السائل

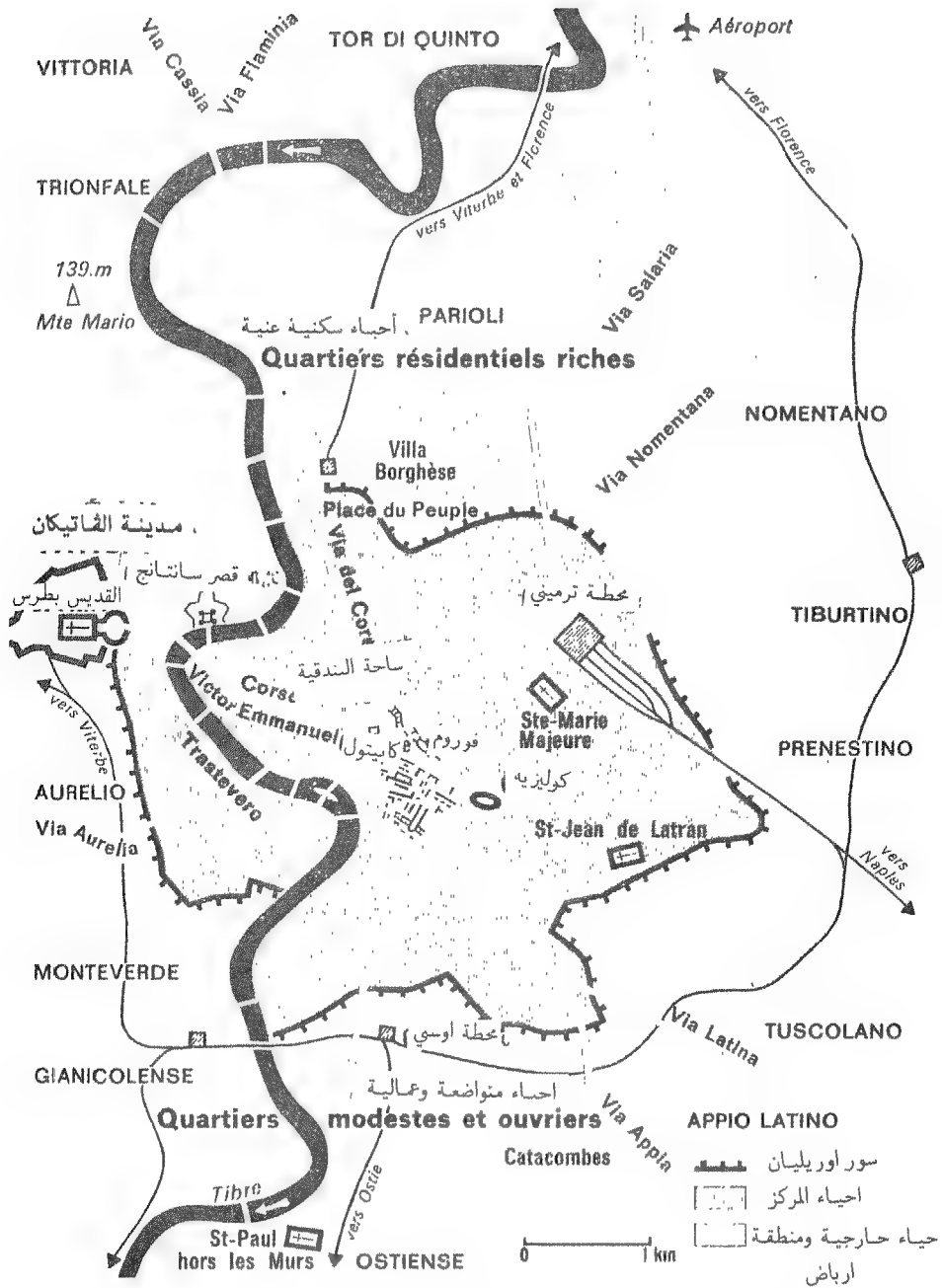
يتجاوز استهلاك إيطاليا من النفط المئتين مليون طن ، ولكن الإنتاج الوطني لا يعطي أكثر من مليون طن ، يستند على الخصوص من آبار صقلية ، من حقلي جيلا Gela و راقوزة ، أي في وضع يائثل وضع اليابان تقريباً بالنسبة للطاقة . ولقد حصلت شرابيني على امتيازات استغلال في أقطار الشرق الأوسط وفي المغرب ، وتقدم لبلادها النفط السوفييتي المكرر مقابل الأنابيب . ولتأمين حاجاتها المحلية وللتصدير ، تملك إيطاليا طاقة تكرير تبلغ ٢١٢ مليون طن ، تتوزع مصانعها على الخصوص على السواحل ، وأصبحت ذات فائض تصديري كبير منذ الأزمة النفطية في ١٩٧٣ .

وصعد إنتاج الغاز الطبيعي - بتحريض من شركة إنّي - منذ الحرب العالمية الثانية . وهكذا تنطلق من مكامن كورتيا عجيوهر وكافياغه قرب مدينة بولونيا أنابيب طولها ٦٠٠٠ كم ، توزع غاز الميثان على سائر إيطاليا الشمالية . وقد اكتشفت مكامن جديدة في الجنوب وفي المياه الإقليمية على ساحل الأدرياتيكى تجاه رافين . ولكن إيطاليا تعتمد أكثر فأكثر على استيراد غاز الصحراء الكبرى ، بواسطة ناقلات الغاز المميّج ، وبعد قليل ستمتد أنابيب تنقل الغاز من تونس وصقلية والغاز السوفييتي والهولندي بواسطة قنوات ضخمة .

مدنية حضرية

بعد أن كانت المدنية العمرانية نامية على نطاق واسع منذ العصر القديم، راحت تزدهر في العصر الوسيط . وهناك القليل من الأقطار التي تحتفظ مثل إيطاليا بطابع المدن القديمة ، ذات الأحياء الحاوية على شوارع ضيقة محفوفة بجوانيت الباعة العتيقة والتي تتلاقى في ساحة مركزية ، حيث تقوم الكاتدرائية والقصر اللذان يجسّدان ثراء العمارات الهندسي . وتكون هذه المدن عديدة ، لأن تجزؤ البلاد الطبغرافي ، قد ساعد على الاحتفاظ بالتجزؤ السياسي لمدة طويلة : وكثيراً ما نجد الأسوار ماثلة ، أو تتخلى أحياناً عن مكانها لشوارع عريضة دائرية. فلا تزال في إيطاليا « نفسية التحزبات المحلية » والتنافس بين الأحياء حتى أيامنا هذه (البابليو في مدينة سيّان Sienne) الواقعة بين روما وفلورنسا .

هذا وقد كانت الطفرة الديموغرافية متأخرة في المدن : فقبل قرنين من الزمن لم يكن في نابولي سوى ٣٥٠,٠٠٠ نسمة ، وروما ١٦٠,٠٠٠ نسمة ، وكل من بالرمو والبنديقية ١٤٠,٠٠٠ نسمة وميلانو ١٣٠,٠٠٠ نسمة . وقد منحت الوحدة الإيطالية مدن العواصم القديمة حيوية جديدة مثل تورينو ، وبعدها فلورنسا وأخيراً روما . أما الدعم الصناعي للمدن فلم يظهر مفعوله إلا منذ ٩٠ سنة . ويعيش ثلثا الشعب الإيطالي في أيامنا في ٨٧٥ بلدة ، يزيد عدد سكانها عن ١٠,٠٠٠ نسمة . وتضم المدن التي تحوي أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نسمة ، وعددها ٤٧ ، أكثر من ١٦ مليون نسمة . وهناك أربع مدن مليونية هي روما (شكل ١٤) وميلانو ونابولي وتورينو . هذا ولا تبدو المدن الشديدة الحيوية قادرة على ضبط نموها .



الشكل ١٤

مخطط روما وتلاها السبعة

وهناك « عائلات حضرية » تتفرد بشكل صريح :

- فتحت إيطاليا الشمالية ثيراً كثيفاً جداً من المدن ، مع هيكل عمراني جيد التسلسل ، حيث تهين المدينة العملاقة ميلانو ١,٨ مليون نسمة ، والمدينة الصناعية تورينو ١,٢٥ مليون ، والمدينتان الهامشيتان وهما جنوا ٩٠٠,٠٠٠ ، والبندقية ٤٠٠,٠٠٠ نسمة . وتتضافر كل العوامل هنا لتحقيق شرائط التفتح العمراني ؛ كسهولة المواصلات في نطاق سهلي فسيح ، واتصالات ميسورة مع العالم الخارجي ، سواء عن طريق البحر أو عن طريق البر لوجود الممرات الألبية ، وتماس مناطق متكاملة نظراً لوجود مدن حضيض الجبل على الهوامش ، والأسواق الزراعية في قلب السهل ، والثروات الطاقية الجديدة لوجود الطاقة الكهربائية في الألب ، والغاز الطبيعي في المناطق المنخفضة ، ولوجود تقاليد اريستوقراطية عريقة ومن ثم بورجوازية ، وغنى المنطقة بدوي المباديات والرساميل ، ووجود وضع اقتصادي مسيطر منذ مدة قرن من الزمن .

- وليس لإيطاليا الوسطى صناعات حديثة مماثلة . فالمدن هنا تتخذ بالأحرى سماء مدن متاحف ، مما يزيد جاذبيتها السياحية ، وتشذ فلورنسا عن هذه القاعدة ، ٥٠٠,٠٠٠ نسمة ، نظراً لأن إشعاعها يتجاوز إقليم توسكانيا ، وكذلك شأن العاصمة روما ، التي تضم أكثر من ٣ ملايين نسمة بفضل وظائفها اليومية .

- هذا وتكون مدن الجنوب عبارة عن بؤر فقر . فهي عبارة عن جزر محافظة اجتماعياً ، ومقر بؤس الجنوب أو الميزوجيونو ، ولا تؤمن صيانة عمائرهم إلا بصعوبة كبيرة ، كما لا توفر المسكن لسكانها إلا بصعوبة ، بعد أن تعرضت لتدمير الحرب العالمية الثانية ، تواجه جميعاً ، حتى أكبرها وهي نابولي ، ١,٣ مليون نسمة ، وبالرمو ، ٧٥٠,٠٠٠ نسمة ، مشكلات خطيرة على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي .

ميلانو : مدينة عملاقة (متروبول)

ميلانو هي أكثر من مدينة ، إنها منطقة حضرية مؤلفة من ١٧٠ ناحية ، تضم قرابة ٤ ملايين نسمة . وهي عاصمة إيطاليا الاقتصادية . ففيها تستقر شركات صناعة الحديد الكبرى مثل بريدا ، فالك ، والميكانيكية مثل ألفا روميثو ، واوتوبياتشي ، والكهرمعدنية والكيمياوية مثل مونتيديزون ، بيريلي ، سنيافيسكوزا ، والغذائية مثل مدتا وآليانتا ، حيث تضم ميلانو إداراتها المركزية ومصانعها ، شأن شركة « ايبي » في حي ميتانو ، ضمن تلك العمارات الشائقة ، التي تعتبر تجسيدا لمجد إيطاليا الحديثة في المضمار الهندسي . وهنا أيضاً يقع أول مركز تجاري في البلاد مع معرضها الدولي حيث تعقد فيها ٣٠٪ من الصفقات التجارية ، وكذلك السلاسل الكبرى لتجارة التجزئة ، مثل شركة ستاندا ويناشنته ، وأكبر مركز مالي مع مصارفه وبورصة الأسهم . وهي أول بؤرة ثقافية : من لم يسمع بمسرح سكالا ، وبالجامعات وبدور النشر ، التي تشكل الإشعاع الدولي لهذه المدينة الكبرى ؟

غير أن تنظيم هذه المدينة لم يزل دون الرغبة ، إذ لم يمكن بعد السيطرة على غوها العمراني . فهناك نطاق عمراني جرى تنظيمه قبل الحرب العالمية الثانية ، والذي كان محصوراً ضمن شارع عريض دائري ، وهو يغطي ٣٠٠٠ هكتار ، ويضم ٦٠٠,٠٠٠ نسمة . ويميز في داخله « المركز التاريخي » ، الذي يسكنه ٢٨٩ نسمة ، والمحدود بشارع يواكب مجرى القنوات القديمة . ذاك هو قلب المدينة مع الكنيسة الكبرى وقصر البلدية ومسرح سكالا . ويتحول هذا الحي إلى « سيتي » ، وتمتد حول المركز التاريخي وحتى الشارع الدائري الثاني ، أي شارع باستيوني ، أو الجدار الإسباني ، أحياء سكنية أو الخدمات الحضرية . ونجد فيما وراء ذلك مجموع كبير من مساكن تكاد تكون متاثلة مع بعض الأحياء المتخصصة مثل : « مركز الإدارة » قرب المحطة المركزية ، ناطحة سحاب شركة بيريلي . ونجد بعدئذ حي « أطراف » ميلانو ومساحته ١٥٢١٢ هكتاراً ويضم ١,١٢٦,٠٠٠ نسمة .

وقد نشأت مشكلات عديدة عن هذا التقدم العمراني ، كاختناق المواصلات رغم وجود المترو ، وتلوث الهواء والماء ، والمضاربة العقارية الشديدة . وقد ظهر مخطط عمراني بين النواحي المجاورة ولكن تنفيذه بطيء .

دلاسو وزملاؤه . المدن الإيطالية .

دار نشر لاروس ١٩٧٧

روما : يبدو أن روما التي تعتبر رأس إيطاليا ، ورأس النصرانية ، والتي تضم قرابة ثلاثة ملايين نسمة ، يبدو أنها استفادت فائدة ضخمة من وضعها المركزي ، سواء في شبه الجزيرة ، أو في مجمل البحر الأبيض المتوسط . ولكنها لم تستفد أحياناً وفي الوقت ذاته من هاتين الميزتين . فقد كادت هذه العاصمة

القديمة التي كان عدد سكانها يتجاوز المليون في العصر الذهبي للإمبراطورية الرومانية ، أقول كادت أن تتلاشى ، وأن تتعرض لحكم الفناء لولا استمرارية وظيفتها الدينية . ففي عام ١٨٧٢ لم تكن أكثر من مدينة متواضعة ، يسكنها حوالي ٢٤٠٠٠٠ نسمة ، وكانت شبه ضائعة في ريف روماني معزول ووخيم ، على مسافة ٥٠ كيلو متراً من مصب نهر التيبر المستنقي . وكان عليها الانتظار حتى إنجاز الوحدة الإيطالية ، كي تسترد من جديد دورها كعاصمة سياسية . وهكذا عادت روما ، ببطء في البداية ، وبسرعة أكبر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، عادت مدينة كبيرة جداً . وتعتبر وظيفتها السياسية والإدارية جوهر وجودها . فلم تفلح هذه المدينة في أن تصبح بؤرة صناعية مرموقة ، فهي لا تستخدم أكثر من ٨٪ من سكانها العاملين في مصانعها وفي النقل ، بل هي عبارة عن مؤسسات ترتبط بمركز استهلاكي كبير ، وبذلك تتألف صناعاتها من صناعة الأجهزة التلفزيونية ، والأدوات المتعلقة بالأشغال العامة وصناعة البناء ، وصناعة النسيج التركيبي والمنتجات الصيدلانية ، وصناعة السجائر والجمعة ، أو هي عبارة عن أنشطة خفيفة وذات إشعاع واسع كالسينما . ولا تظهر الوظيفة السياسية بالمشاهد الهندسية العمرانية فحسب ، بل بتكوين وظائف عمل جديدة وعديدة : ففي كل شهر يند آلاف من أهل جنوب شبه الجزيرة إلى العاصمة التي لا تتوقف عن التوسع .

أما الوظيفة الدينية ، التي لا تنحصر في دولة الفاتيكان ، فإنها تساهم في دعم هذه العاصمة المهيبة . فلدى الفاتيكان الكثير من السفراء المعتمدين من قبل العديد من الدول الأجنبية ، وحتى من قبل الجمهورية الإيطالية ذاتها . وتعتبر كنيسة القديس بطرس قطب جذب للحجاج والسياح ، الذين يكونون شديدي التأثر بتكاثر الأبنية والمواقع التاريخية ، فوق أرخبيل عمراني مؤلف من سبعة تلال من صخر الطف البركاني ، التي تشرف من علو لا يتجاوز بضعة أمتار ، فوق سطح البرية الرومانية المنبسطة ، وتتحكم من قرب في المنخفضات التي يقوم فيها الفوروم وميدان مارس . غير أن هذه المدينة التي لم يكن لها ربح حقيقي أبداً ، تمتد اليوم لما وراء سور الامبراطور أوريليان القديمة ، أي فوق السهل الواقع إلى الجنوب من المدينة ، وعلى الهضاب الشمالية والشمالية الشرقية على ضفتي نهر التيبر .

المدن والمناطق وحدة ومفارقات

نظراً لتأخر إيطاليا في تحقيق وحدتها السياسية ، فقد اتخذت لنفسها بُنى متركزة ، وجعلت من روما عاصمة رمزية منذ عام ١٨٧٠ .

فهناك وحدة لغوية شبه شاملة ، لأن الإيطالية هي لهجة توسكانية قديمة ، ولكن اللغة الإيطالية تتجاوز الحدود إلى سويسرا ، لأنها هي السائدة في كانتون تيسان Tessin ، هذا بينما يتكلم سكان إقليم فال داوست Val d'Aoste الفرنسية ، في الوقت الذي يتكلم سكان التيرول الجنوبي الألمانية . ولا يزال في قلب البلاد جيبان صغيرا الأبعاد هما جمهورية سان ماران^(١) ، التي تعود إلى القرون الوسطى ، ومدينة الفاتيكان التي تُولف كياناً رمزياً بعد اتفاقيات لاتران عام ١٩٢٩ ، التي تحد من سيادة البابوية الأرضية . هذا ويكون للجزيرتين الكبيرتين ، سردينية وصقلية ، أكثر من طابع خاص ، ولا سيما على الصعيد الاجتماعي ، مثل جماعة المافيا الرهيبة ، والناجمة عن بنى إقطاعية قديمة .

وقد كرس الدستور الجمهوري لعام ١٨٤٨ ما يلي :

- البنى الـوحدوية مع مستويات إدارية مختلفة وحياة سياسية : ٨٠٠٠ ناحية (كومون) ، ٩٢ إقليم ، ٢٠ منطقة والسلطة المركزية .

(١) أوسان مارينو : جمهورية صغيرة ضمن شبه الجزيرة الإيطالية ، مساحتها ٦٤ كيلو متر مربع وسكانها ٤٠٠٠ نسمة ، وتقع إلى الشرق من فلورنسا قرب ساحل الأدرياتيكي ، عاصمتها سان ماران ٢٢٠٠ نسمة ، أرضها خصبة ، يقال : إنها تأسست في القرن الرابع عشر على يد سان مارينو ، وقد احتفظت دائماً باستقلالها . ويمارس السلطة التنفيذية فيها قائدين وصيّن يتم اختيارهما لمدة ٦ شهور ، بواسطة المجلس الكبير العام الذي يتم انتخابه مباشرة لمدة ٩ سنوات ، وقابل للتجديد بنسبة الثلث في كل ٣ أعوام .

- الإقليمية : فبين المناطق العشرين ، توجد خمس مناطق ذات كيان ذي استقلال ذاتي .

والحقيقة هناك القليل من الدول الأوروبية التي تحوي مثل إيطاليا من مفارقات جوهرية إقليمية .

فهناك مفارقات اقتصادية عظيمة بين الشمال والجنوب . فالجنوب يحتوي على الخصوص مجالات عمل زراعية ، في حين يضم الشمال لوحده ثلثي العمال الطليان من ذوي الأجور الصناعية ، وحتى لو صرفنا النظر عن عدد مجالات العمل ، فإن إنتاجية العمل ذاته تكون أشد قوة بكثير في الشمال مما هي في الجنوب . وهكذا تكون الزراعة عصرية جداً في الشمال ، كاستعمال الأسمدة والميكنة ، في حين نرى في الجنوب مواكب العمال الزراعيين البؤساء ، مما يشكل دليلاً على نظام ريفي عتيق .

هذا ويتباين مستوى المعيشة لدى السكان بنسبة واحد إلى أربعة . فبعد المنطقة اللومباردية البيونتيية حيث تمخض التصنيع عن رخاء عام ، نلاحظ أن الوضع يأخذ في التدهور باتجاه البحر الأدرياتيكي ونحو وسط شبه الجزيرة والجنوب . ولا تزال إيطاليا الوسطى حاوية على مدن نشيطة وأرياف بهيجة ، توفر مصادر رزق عائلية على مستوى لائق . ولكن إلى الجنوب من روما تبدأ بالظهور مناطق يكون الفقر العام فيها هو القاعدة ، وتبلغ حدها الأقصى في بازيليكات (لوكانيا) ، أي عند بطن قدم الجزمة الإيطالية ، وفي مرتفعات كالابريا وفي غربي صقلية .

ويزيد من حدة هذه الاختلافات الوضع الديموغرافي والبطالة . ففي منطقة الميزوجيورنو Mezzogiorno ، أي جنوب خط عرض روما تقريباً ، يكون النمو الديموغرافي هو الأكثر سرعة ، وهو طابع مميز للأقطار الناقصة النمو

و ذات اقتصاد تغلب عليه الصفة الريفية ، وهذه المناطق هي التي تتعرض لأشد المصاعب . وفي الوقت الذي تتقهقر فيه البطالة كثيراً في الشمال ، لا يزال الجنوب يحتفظ بشكلين مألوفين من البطالة هما : البطالة الكلية التي تصيب أكثر من مليون نسمة ، والبطالة المقنعة ذات المشاهد العديدة ، مثل العمال الزراعيين الذين لا يعملون أكثر من ١٠٠ أو ١٥٠ يوماً في العام ، وصغار الفلاحين المحرومين من الأرض ، وصغار الحرفيين ، والباعة المتجولين في الأرياف ، أو في الشوارع من ذوي الكسب غير المنتظم ، وهكذا يكون الميزوجيرونو هو المجال الكبير للذين يتلقون العون الاجتماعي .

المشكلات الإقليمية :

لقد كان الكفاح ضد الاختلافات الإقليمية ، هو الاهتمام الأول لدى السلطات العامة الإيطالية ، منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، ولا سيما العمل المستمر لفائدة الميزوجيرونو .

والواقع لقد كانت قوانين الإصلاح الزراعي لعام ١٩٥٠ ، تتخذ أبعاداً وتنوعات متوائمة بشكل خاص مع أوضاع الجنوب . ولكن جاء إنشاء صندوق الجنوب في عام ١٩٥٠ على الخصوص ، وهي مؤسسة ذات استقلال ذاتي قامت لمدة ١٠ سنوات ، ولكنه استقلال أصبح دائماً بصورة عملية ، ويستفيد من حصص في الميزانية الخمسية ، أقول : جاء ليضيف لتوظيفات الوزارات قوة تدخل اقتصادي أصيل .

وقد استطاع هذا الصندوق أن يحصل على مصادر تمويل خارجية على شكل قروض من البنك الدولي ، ومن البنك الأوروبي للاستثمارات ، ولا سيما منح من اعتمادات عون التنمية الإقليمية ، التي تساعد المناطق الأخرى ، ضمن الجماعة الاقتصادية الأوروبية .

وقد اتجه عمل الصندوق في البداية نحو البرامج العقارية ، والتحديث الزراعي ، والبنى الأساسية في زمن كان الاهتمام فيه منصرفاً نحو ترجيح الكفاح ضد بطالة الريفيين ، والعزلة بالنسبة لبقية البلاد . وابتداءً من عام ١٩٥٧ انصرف الاهتمام نحو التصنيع ، ولا سيما إقامة وحدات كبيرة في بؤر التصنيع ، فأصبح إلزاماً على هولندغ الدولة أن يحقق ٤٠ بالمائة من استثماراته الجديدة في الجنوب . ففي تلك الفترة قامت مصانع مونتيكاتيني في برنديزي ، وشركة ايتالسيدر في تارنت ، وفيات في باري Bari ، وألفاروميثو وأوليغتي في نابولي ، وأنيك في جيلا Gela في جنوب صقلية . وقد أصبح التنظيم الإقليمي منذ عشرة أعوام أكثر اتساعاً ، فأصبحت السياحة تلعب دوراً أكثر أهمية ، وأصبح على الجنوب أن ينمو بصورة مستقلة أكثر من أن يحاول تقليد الشمال كي يلحق به .

وقد كانت النتائج مشجعة ، فقد أمكن استصلاح وري ٥٠٠,٠٠٠ هكتار في القطاعات المستصلحة بدعم الصندوق خلال ٢٠ سنة ، ولا سيما في سهول كاتان في صقلية ، وفي فلومندوزه في سردينيا ، وفي قولتورنو قرب نابولي ، وفي فورتوره قرب فوجيا . وإذا حسبنا التقدم بالعملة الثابتة ، وجدنا أن قيمة الإنتاج الزراعي قد تضاعفت في الجنوب ، ولكن النجاحات كانت متفاوتة ، فقد كانت أكثر من ٧ ٪ في العام في السهول المستصلحة و ٢ ٪ في المناطق الأخرى .

وقد سمح قيام شبكة طاقة جديدة من غاز طبيعي وخطوط كهربائية ، فضلاً عن ٢٠٠٠ كيلو متر من الطرق الرئيسية والخطوط الحديدية ، والموانئ العصرية ، أقول : سمح للجنوب بتحقيق ١٧ بالمائة من الناتج الصناعي الإيطالي ، وكانت حصيلة التوظيف / التسريح في مجال الاستخدام إيجابية ، إذ زادت مجالات العمل بمقدار ٢٥٠,٠٠٠ بين ١٩٥١ و ١٩٧١ ، هذا على الرغم من أن الشركات الكبرى الصناعية لم تستطع أن تخلق مجالات عمل جديدة بسبب الأتمتة

automatisation المتقدمة ، مثلما لم تتمكن من إيجاد فئة صغار المقاولين التي كانت تطمح إليها كثيراً . ولا تعمل كل هذه المصانع التي أقيمت من أجل مرحلة توسع اقتصادي بكامل طاقتها ، بحيث أصبح الاهتمام بعائديتها ، أو بمجداها الاقتصادية ثانوياً ، ولا تزال البطالة مستفحلة . ترى ما هو الوضع لو لم تستمر الهجرة التي نقلت نحو الشمال أو نحو الخارج مقدار ١,٨ مليون نسمة بين ١٩٥١ و ١٩٦٠ ومقدار ٢,٣ مليون بين ١٩٦٠ و ١٩٧٠ ؟ وهكذا يظل وضع الجنوب هشاً رغم كل الجهود ، وهذا على الخصوص في فترة المصاعب الاقتصادية ، كما هو الحال بعد عام ١٩٧٤ ولا سيما في مطلع الثمانينات .

كيف يمكن تفسير تأخر إقليم الميزوجيورو ؟

لا تفسر العوامل الطبيعية كل شيء ، وإن كان من الصحيح القول بأن الجنوب ظل يحتفظ بسهولة مرزغية وخيمة لأمد طويل ، وبجبال شديدة التخديد ، كما كانت المواصلات فيه عسيرة ، ولا تقل موارد باطن الأرض فقراً عن موارد سطحها . ولكن للشمال أيضاً نطاقاته المعرضة للفيضان ، ومناطقه الوخيمة البيئة وتربة الهزيلة . هذا كما لا يتوزع حظ الجنوب التعيس في كل شبه الجزيرة الممتدة في البحر الأبيض المتوسط ، رغم وحدتها الطبيعية التي لا جدال فيها ، لا يتوزع بشكل منسجم ، كما لا يتمتع الشمال في سائر مناطقه بنفس المستوى من الرخاء .

هذا مثلما لا يعود ذلك لعاهة موروثية ، ففي خلال العصور القديمة كانت صقلية ومردينيا من غابر قح القرطاجيين ، ومن ثم الرومان من بعدهم ، وكانت كل من نابولي وبالرمو في مطلع القرن العشرين ، أكثر أهمية وازدهاراً من روما وميلانو .

ويلعب ثقل البنى الزراعية دوراً كبيراً ، فقد عملت القرون العشر التي سبقت من التاريخ على جعل الجنوب بلاد الملكيات الواسعة . فنذ العصور القديمة الرومانية ، كان تملك الأراضي العامة من قبل أعضاء مجلس الشيوخ ، قد أوجد بنية الأملاك العقارية الواسعة المستغلة بصورة واسعة extensive . وقد عمل النظام الإقطاعي في فترة الحكم النورماندي والنظام "روتيني الإسباني على توطيد هذه الأوضاع . وجاءت أوائل محاولات الإصلاح الزراعي لتؤدي إلى استفحال الوضع ، وذلك بالقضاء على حقوق الاستغلال . وجاء إلغاء أملاك رجال الكنيسة ، ليزيد من ثراء بعض أغنياء أبناء المدن أو بعض المضاربين العقاريين اليقطين . أما في المناطق التي كانت الملكية الواسعة لا تسيطر لوحدها ، فإن

الملكيّات الفلاحيّة المتفتّحة بفعل تقسيم الإرث قد أصبحت من الصغر بحيث لا تؤمن معيشة أسرة عديدة بشكل لائق . ويستثنى من ذلك منطقة كامبانيا حول نابولي ، حيث كانت الملكيّات الصغرى مستغلة بصورة حثيثة .

وجاءت أسرة الساقوا الملكيّة ، التي ألغت الجمارك الداخليّة وجعلت من إيطاليا دولة متركزة على النمط الفرنسي ، لتعمل من حيث لا تدري على اختلال التوازن الإقليمي . وهكذا انطلق الشمال الذي كان في أوج التحويل الاقتصادي ، والذي تميز ببورجوازية نشيطة وجيدة التسليح برؤوس الأموال ، انطلق لفتح الجنوب ولتوسيع أسواقه مستفيداً من حماية جمركية قوية (تعريفه ١٨٨٧) ، والتي كانت تعارض بالمقابل تصريف محاصيل الجنوب الزراعيّة في الأقطار الأوروبيّة الأخرى .

وأخيراً لم يكن التاريخ الحديث موافقاً أبداً لإقليم الميزوجيورو ، فعلى الرغم من بعض الإنجازات الكبرى والتي لم تكن ذات تأثير كبير على الصعيد الاجتماعي ، فإن الحكومة الفاشيستية لم تعمل الكثير لتحسين مصير الجنوب بصورة جذرية . وقد كان البؤس الذي يطرد الرجال دافعاً طيباً للمرشحين لاستعمار أفريقية ، والذي كان يدعو إليه نظام الحكم القائم . وكانت الحرب العالميّة الثانية شديدة الضرر على الجنوب . يا لها من بقعة تتلقى شتى ضروب المصائب بما في ذلك المافيا التي تزدهر على حساب بؤس وترويع الصقليين ! .

حياة الاتصالات

وسائل المواصلات والتجارة الخارجيّة

تمنح الشرائط ، التي يفرضها التضريس والمناخ على وسائل المواصلات الإيطالية ، مشاهد ذات أصالة .

فهذه البلاد لا تملك طرقاً مائية صالحة للملاحة باستثناء سهل الپو ، ويبلغ طول الشبكة المائيّة ٢٠٠٠ كيلومتر من المقياس الصغير ، ولا تنقل أكثر من ثلاثة ملايين طن . ويكون بناء الخطوط الحديديّة مرتفع الكلفة ، لكثرة الأشغال الفنيّة من أنفاق وجسور ، وهذا ما يحد من استغلال الخطوط الحديديّة ذات المحاور العريضة . وقد كان نمو الشبكة الحديديّة متأخراً ، فزاد طولها من ٢٠٠٠

كيلومتر عند تحقيق الوحدة الإيطالية إلى ٢٠,٠٠٠ كيلومتر حالياً . وتستغل الدولة مباشرة أربعة أخماس هذه الخطوط . وإذا استثنينا بعض الخطوط الكبرى التي جرى تصحيح مسارها ، فإن التحديث ينال أسلوب الجر على الخصوص ، ذلك لأن ثلاثة أرباع النقل يتم فوق خطوط مكهربة .

وهكذا يكون الطريق البري إذن أكثر وسائل النقل الداخلي شمولاً . فقد أضيفت إلى الطرق القومية ، منذ افتتاح وصلة ميلانو فاريزه ، مجموعة من طرق سيارات عريضة امتدت على ٥٠٠٠ كيلومتر ولاسيما باتجاه الجنوب . وهناك منظمة عامة هي آناس A.N.A.S ، التي تقوم ببناء محاور الطرق العريضة المجانية في منطقة الميزوجيورنو ، في حين تقوم شركات حكومية بمد طرق دولية « أوتوستراد » أو شركات خاصة تتقاضى عليها رسم المرور .

وتتربط الخطوط الحديدية وطرق السيارات العريضة بالشبكات الأوروبية ، بواسطة إنجازات هندسية رائعة هي الممرات الألبية . وفي سبيل تيسير مرور القطارات ، تم في البداية فتح المحاور الكبرى نحو فرنسا ، انطلاقاً من تورينو وميلانو (نفق جنيس) ، أو نحو سويسرا وألمانيا من خلال ممر سمبلون وسان غوتار . ولقد استدعى اتساع واستمرار النقل البري بالشاحنات بعد الحرب العالمية الثانية فتح ممرات خاصة بها ، مثل ممر مونبلان وممر سانبرنار الكبير . وتكون الطرق المتجهة غرباً هي الأكثر حركة . وكذلك يعتبر ممر البرينر الطريق المباشر من ألمانيا إلى إيطاليا عبر التيرول النمساوي ، وهو عبارة عن شارع عريض للسيارات وللخطوط الحديدية . وهناك أنابيب تجتاز الجبل لتوزع النفط المفرغ في الموانئ الإيطالية ، وهكذا تنقل الأنابيب العابرة لجبال الألب T.A.L مقدار ٣٥ مليون طن من الوقود السائل من تريستا إلى ألمانيا .

وتجعل سماء البلاد الجغرافية من الضرورة بمكان الاعتماد على المواصلات الجوية الداخلية بين الشمال والجنوب ، كما أن اتساع انتشار خط الساحل يهيئ

البلاد لحياة بحرية . وهكذا تملك إيطاليا أسطولاً تجارياً تزيد حولته عن عشرة ملايين طن حمولة خام tjb ، وحسن التجهيز بناقلات النفط والغاز الحديثة ، والتي تخص مجموعة فينماره Finmere المدولة étatique أو تتبع شركات خاصة . وهناك العديد من الموانئ الإيطالية ، غير أن عشرة منها ، تستأثر بمعظم الحركة البحرية نذكر منها جنوا وتريستا وأوغوستا ، والتي تقوم فيما بينها مواصلات بحرية ساحلية هامة . وتسمح الاتصالات فيما بين الجزر ، والاتصالات مع اليونان وتونس ، أو الاتجاهات الأخرى الأكثر بعداً ، والتي يقصدها السياح أو المهاجرون ، أقول تسمح بقيام مجال فسيح لسفن الركاب أو البواخر المختلطة .

أما في مجال التجارة الخارجية ، فإن إيطاليا تبيع على الخصوص منتجات صناعاتها الميكانيكية والنسيجية فضلاً عن السلع الغذائية من باكوريات وخبز وفواكه . أما في مجال الاستيراد فتكون المواد الأولية الضرورية للحياة الصناعية هي الغالبة ، مثل النفط وخامات المعادن وخردة الحديد Ferrailles والألياف النسيجية ، ولكنها تترك مع ذلك مجالاً واسعاً للمنتجات الغذائية أو المصنوعة . وتتعامل بصورة رئيسية مع بلاد السوق المشتركة على الصعيد التجاري . وبينما تترك المبادلات مع بلاد الجماعة الاقتصادية الأوروبية رصيداً إيجابياً ، نجد أن نسبة التغطية مع الأفطار المصدرة للنفط لا تتجاوز ٦٤ بالمئة . ويكاد يكون الميزان التجاري خاسراً باستمرار ، ولكن يبدو أن العجز مستقر على حجم ثابت .

إحصائيات النقل والتجارة ١٩٧٨ و ١٩٨١	
الأسطول ١١,٥ مليون طن حمولة خام	١٠,٦ مليون طن حمولة خام
الاستيراد بـمليارات الليرات ٤٧٨٣٦	١٠٣٦٧٥ مليار ليرة
التصدير بـمليارات الليرات ٤٧٤٨٨	٨٨٠٧١ مليار ليرة
نسبة التجارة الخارجية إلى الناتج القومي الخام ٢٣,٤ %	

السياحة وميزان المدفوعات

تتمتع إيطاليا بجاذبية سياحية كبيرة ، كعذوبة المناخ وطول مدة الشمس ، وروعة جمال المشاهد الساحلية أو الجبلية ، ولا سيما المحمية منها في أربعة منتزهات قومية ، وذكريات لا تحصى من التاريخ ، والأوابد ، ومرح الطبع الإيطالي ، والثروة الحرفية ، وجودة وتنوع مطاعها . وقد بذل الطليان كل جهد ممكن ، وتفننوا في استغلال هذه الهبات الطبيعية والفنية . وظهرت مؤسسات خاصة في البداية ، مثل نادي السياحة الإيطالي منذ عام ١٨٩٤ ، ونادي السيارات الإيطالي في ١٨٩٨ ، والتي تشرف عليها مؤسسات الدولة مثل اينيت E.N.I.T وفروعها الإقليمية . هذا كما لجأت الحكومة إلى دعم ازدهار بني الاستقبال بالتجهيزات والتمويل ، وهكذا تحوي إيطاليا ٤٠,٠٠٠ فندق ، فضلاً عن الموتيلا على طول المحاور الكبرى للطرق ، هذا عدا عن السلاسل الفندقية .

وتكون الثروات السياحية الإيطالية متنوعة ، وتجد تحت تصرفها إمكانات استقبال في كل الفصول .

- ففي محطات جبال الألب ، وبالدرجة الثانية محطات جبال الأبينين ، فصل رياضة شتوية غاية في النشاط ، كما في سستريار Sestrières ، وفي كورمايور ، وكويتنا دامپيزو ، وفصل صيف تحتلط خلاله جماهير الطليان المصطافين مع السفار الأجانب المشتركين في رحلات جماعية ، عند انطلاقهم من بولزانو وميرانو باتجاه جبال دولوميت .

- وتضم السياحة الساحلية فضلاً ثانوياً شتوياً في الريفيرا الليغورية ، وإلى الجنوب من نابولي ، وفي تارومين أو في البندقية ، وفصلاً صيفياً رئيسياً حيث تتخذ بلاجات توسكانيا الفسيحة viareggio ، أو على سواحل الأدرياتيك

(ريميني) كل فتنها وسحرها ، وكذلك الحال على ضفاف البحيرات اللومباردية .

- محطات الحمامات المعدنية والاستشفاء ، والتي تتخذ أحياناً شهرة دولية مثل (أبانو ، سالسوماجيوره ، ومونتكانتيني) .

- هذا وتؤلف المدن الفنيّة أخيراً ، إلى جانب المعابد القديمة والكنائس والقصور والمتاحف الحديثة ، مجموعة أثرية قلما تفتقر منطقة إيطالية إليها .

وكانت إيطاليا تستقبل قبل ١٩٣٩ سنوياً حوالي ٣ ملايين زائر أجنبي ، ولكن هذا الرقم أصبح يتجاوز الآن ٤٠ مليوناً . وإذا استثنينا أولئك الذين تقل مدة إقامتهم عن ٢٤ ساعة ، أي أتباع الرحلات ، والطلبان المقيمين في الخارج ، والذين يأتون لقضاء العطلة مع أسرهم ، فيبقى هناك حوالي ٢٧,٥ مليون سائح يقيم لفترة ما ، كما لوحظ ذلك في عام ١٩٧٧ . ويأتي هؤلاء غالباً بواسطة السيارة ، وتبلغ نسبتهم ٧٣ ٪ في حين تقل نسبة الذين يأتون بالباخرة يوماً بعد يوم ، ويؤلفون ١,٢ ٪ والطائرة ١٠,٣ ٪ . ولكن القطار يتفوق بنسبة تبلغ ١٥,٥ ٪ . ويأتي الألمان في المقدمة من حيث العدد ، فبلغ عددهم في السنة المذكورة ٧,٥ ملايين ، مثلما يتفوقون من حيث عدد ليالي المبيت ، يليهم الفرنسيون والسويسريون الذين يقارب عددهم ٦ ملايين ، ويأتي بعدهم النمساويون ٣,٧ ملايين ، وسكان البينيلوكس ٣,٢ ملايين والبريطانيون ١,٧ مليون . وعلى الرغم من بعد الشقة على الأمريكيين ، فإن عددهم يصل إلى ٢,٣ مليون من الذين يمكثون في إيطاليا ، من خلال تجوالهم في أوروبا ، مدة ٣ أيام وسطياً .

وتأتي إيطاليا في الدرجة الأولى بين الأقطار الأوروبية من حيث العائدات السياحية ، التي بلغت في ١٩٧٧ مقدار ٤٧٦٢ مليون دولار مقابل

٤٣٧٧ مليون في فرنسا . ويعتبر فائض مداخيل السياحة البالغ ٢٨٦٨ مليون دولار في العام المذكور ، وسيلة جوهريّة لتوازن ميزان المدفوعات في البلاد . أما في السنوات العجاف ، كما بين ١٩٧٤ و ١٩٧٦ ، فقد ساعد هذا الفائض مع مدخرات العمال الطليان العاملين في الخارج على تلافي شطر من العجز . كما ساعد منذ عام ١٩٧٧ بالإضافة للعون المالي الأجنبي على تثبيت وضع اللير الإيطالي بفضل تدفق العملة الصعبة .

البندقية : وهي بلا ريب أكثر المدن الإيطالية الكبرى إثارة للعجب ، ولكنها أكثرها عرضة للتهديد في الوقت ذاته . فهي تتميز بنشاطها ذاتها . فعلى أثر زخوف البرابرة ، التي علت على سقوط الامبراطورية الرومانية ، وجدت الأقوام الفينيتية ، ومنهم اشتق اسم فينيسيا ، أي البندقية ، ملجأ لها في الجزيرات التي تتناثر تجاه ساحل البحر الأدرياتيكي ذي اللاغونات lagunes . وكان أحد أكثر هذه النوايا أهمية هو أرخبيل ريالتو ، الذي حكمه في عام ٦٥٧ حاكم أو dux وهو جد الدوج . وفي ٨٢٨ سرق البنادقة بقايا جثث القديس مرقس من الإسكندرية^(١) ، ومن ثم أصبحت البندقية دولة عظيمة بحرية في البحر الأبيض المتوسط ، وفي كل عام ، خلال الفترة الواقعة بين ١١٧٣ وحتى ١٧١٧ ، كان يجري مهرجان كونويو ، عند حلول عيد الصعود ، فيصعد الدوج متن طراد حربي اسمه بوسنتور Bucentaure ويرمي بخاتمه في البحر ، وهو رمز زواج مدينة البندقية مع الماء .

ولقد أغنى هذا التاريخ الطويل مدينة البندقية بروائع فنية ، وبالكنايس وبالقصور وبالمناحف وبالعمارات شأن أقل منزل فيها ، والتي قامت فوق غابة من الأعمدة الخشبية المغروسة في الوحول . وتتلاحم ١١٧ جزيرة بواسطة ٤٠٠ قنطرة التي تتخللها القنوات ، إذ يتم كل انتقال من مكان لآخر بواسطة المراكب ذات المحرك ، وحتى جمع القمامة ، ونقل المرضى والموتى ، وكذلك تكون حركة تدخل رجال الشرطة والإطفاء بواسطة مركب الجندول . ويظل أهم طريق في المدينة هو الطريق المائي المسمى القناة الكبرى . غير أن هذا الموقع الجزيري يعتبر اليوم مصدر قلق ، فالمياه تتلوث بسرعة أكبر من سرعة تجدها ، مثلما فسد جو المدينة بسبب الدخان المتصاعد من المعامل الواقعة في الرض القاري في حي مسترو وپورتومرغيرا . ويؤلف انكباس subsidence القيعان البحرية تهديداً خطيراً للمدينة ، لأن ساحة القديس مرقس تتعرض أحياناً في حالة المد الأعظم إلى التفريق ، أي أن العنصر الذي يؤلف سحر البندقية قد يكون سبب فنائها .

(١) انظر وصف أفريقية تأليف الحسن الوزان « ليون الأفريقي » ، الذي صدر في الرياض في عام ١١٧٩ وترجمه عبد الرحمن حميد .

فرنسا

جمهورية أوروبية تمتد على مساحة ٥٥١٠٠٠ كيلو متر مربع بما في ذلك البحيرات التي تشغل رقعة ٧٠٠٠ كيلو متر مربع ، يسكنها ٥٣,٢ مليون نسمة في ١٩٧٧ ، بعد أن كانوا ٤٦ مليون في ١٩٦٣ و ٤٢ مليون في ١٩٣٦ .

الموقع :

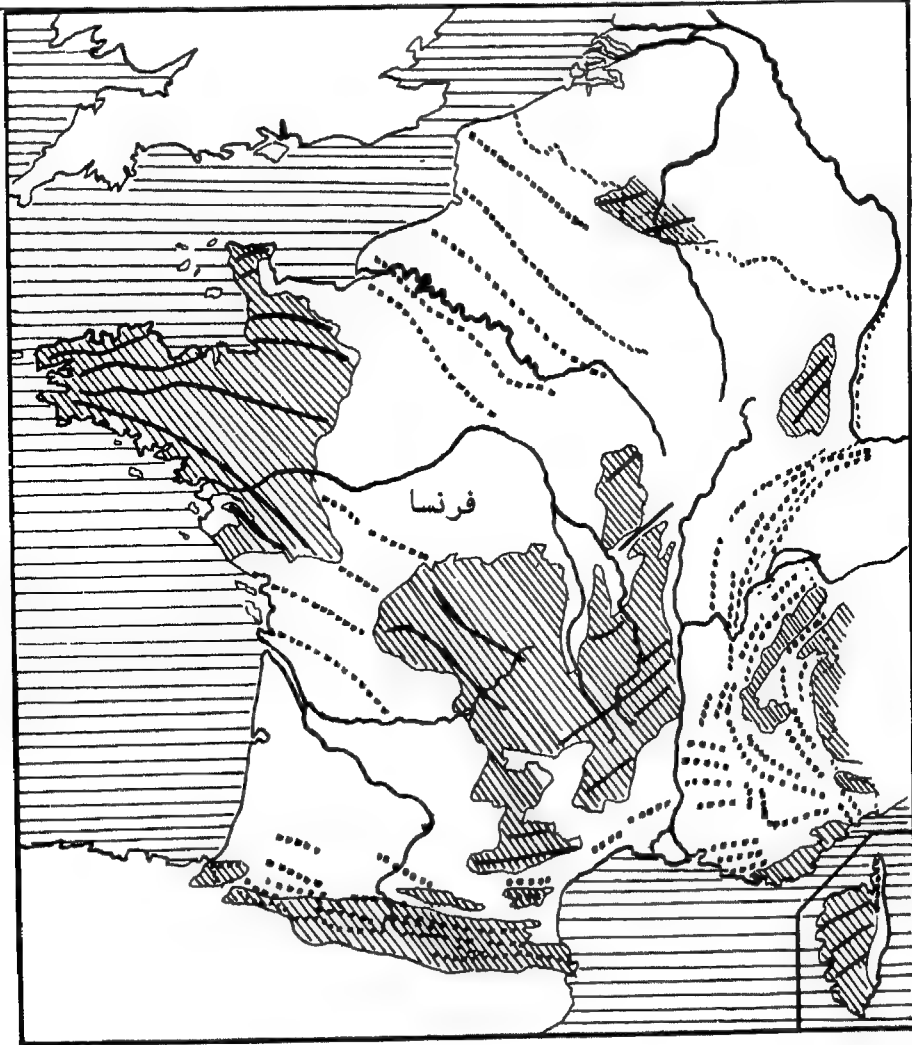
بما أنها تؤلف إحدى دول أوروبا الغربية ، فهي تقع بين درجة العرض ٤٢,٢ درجة و ٥١,٠٥ درجة شمالاً ، وتتخذ شكل سداسي الأضلاع ، ثلاثة أضلاع بحرية ، وثلاثة قارية ، بحيث لا تتعدى أية نقطة فيها مسافة ٥٠٠ كم عن البحر . وتطيف مياه بحر المانش ، وبحر الشمال ، والمحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط بسواحل تمتد على ٣٢٠٠ كم ، كما تمتد حدودها البرية ، التي تلامس بلجيكا ولوكسمبورغ وألمانيا من الشمال الشرقي ، وألمانيا وسويسرا وإيطاليا من الشرق ، وإسبانيا من الجنوب الغربي على مسافة ٢١٠٠ كم . فهي دولة قارية وبحرية ، أطلنطية ومتوسطية « رومية »^(١) في آن واحد .

كما تقع على مسافة واحدة بين القطب وخط الاستواء ، لأن خط العرض ٤٥ يمر من بوردو ومن فالنس ، أي تقع في قلب النطاق المعتدل ، مثلما تحتل من جهة أخرى أكثر البرازخ الأوروبية ضيقاً التي تفصل بين البحر الأبيض المتوسط وبين المحيط الأطلسي . وبفضل هذا الموقع الفريد ، فقد كانت خلال التاريخ طريق مرور في السلم وفي الحرب ، ومكان التقاء مدنات قادمة من البحر الأبيض المتوسط ومن الشمال .

(١) أي على بحر الروم وهو اسم البحر الأبيض المتوسط عند الجغرافيين العرب .

تشكل الأرض :

لقد تمخض الالتواء الهرسيني في نهاية الحقبة الأول ، عن ظهور كتل جبلية فوق الموقع الحالي لفرنسا ، والتي كانت حتى ذلك العصر مغمورة بمياه البحار ، كتل كانت طياتها متجهة في الغرب من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي ، ومن



الشكل ١ ————— التواءات من الدور الأول (هرسينية)
 التواءات أو تموجات من الدور الثالث (ألبية)

الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي في الشرق ، أي كانت تتخذ شكل رقم ٧ ضخمة . وقد هاجم الحت erosion هذه السلاسل ، بعد أن ظهرت للوجود وحوّلها مع الزمن إلى شبه سهل . أما في الحقب الثاني ، فقد دخل البحر في منخفضات هذه السلسلة ولم يترك منها سوى أجزاء منعزلة ، هي الكتلة المركزية « الماسيف سنترال » ، والكتلة الآرمورية في شبه جزيرة بريطانيا ، والآردن قرب حدود بلجيكا ، وجبال القوچ ، والتيرينيد في أقصى الجنوب الشرقي ، وتشكلت حوضات كبيرة تكدست فيها طبقات رسوية سميكة . واستمر الترسيب خلال الحقب الثالث ، ومن ثم وعلى أثر تقهقر البحر ، عامت هذه الأحواض ، التي تؤلف الحوض الباريسي والحوض الأكتاني ، والفلاندر . وقد عمل الالتواء الألب في نهاية الحقب الثالث على انبثاق سلسلة جبال البيرينيه وسلسلة جبال الألب من أحد هذه الأحواض ، وهو مقعر حوض البحر الأبيض المتوسط ، الذي كان أحد أجزاء بحر التيتيس . وكان رد فعل الالتواء أن نهضت الكتلة المركزية وهضبة الآردن ، كما انفصلت جبال القوچ عن الغابة السوداء بانهدام وادي الراين . أما التيرينيد فقد انهار وخلف كتلة جبال المور ، أي « جبال المسلمين المغاربة » في جنوب شرق فرنسا ، وجبال ايسترل ، وجزيرة كورسيكا ، وتشكل ممر نهر الرون والساوون . أما في الحقب الرابع فقد استقرت الجموديات في جبال الألب والبيرينيه والماسيف سنترال والقوچ ، حيث عملت على تكييف التضاريس .

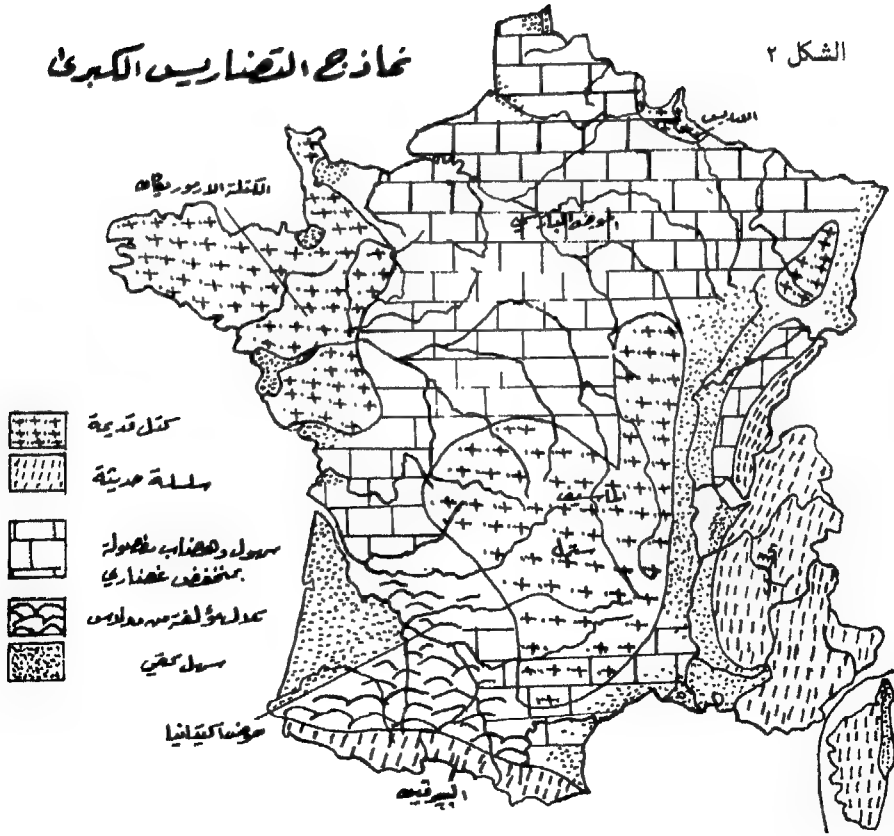
التضاريس :

تضم فرنسا تضاريس شديدة التنوع ، ففيها الجبال والتلال والهضاب والسهول إلخ ... ولكن ارتفاعها المتوسط يظل ضعيفاً لا يتجاوز ٤٣٢ متراً ونستطيع أن نميز فيها ما يلي :

أولاً : الكتل القديمة : وهي عبارة عن أجزاء من السلسلة الهرسينية

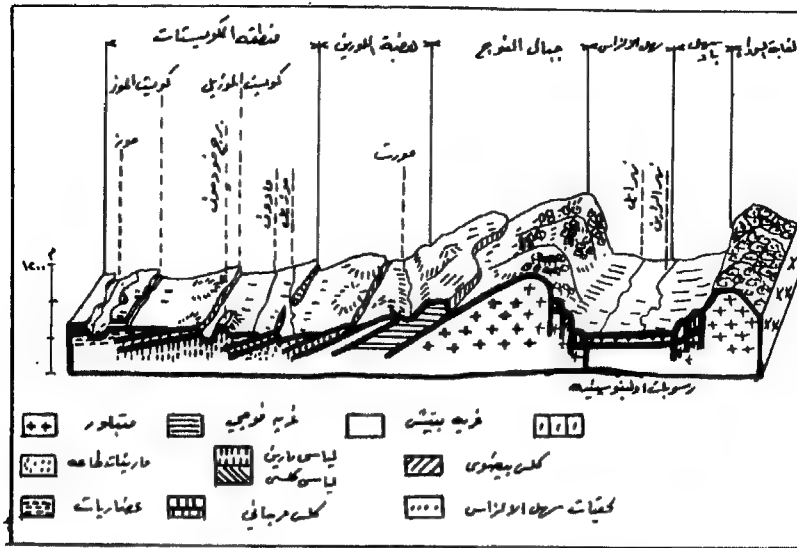
نماذج التضاريس الكبرى

الشكل ٢



(شكل ٢) . وتتخذ الكتلة الأرمورية شكل مثلث ، ترتكز قاعدته على الحوض الباريسي ، ويتجه رأسه نحو المحيط . وقد تحولت إلى حالة شبه سهل ، فلا تحوي بالتالي سوى مرتفعات متواضعة في ارتفاعها مثل جبال آريه Arrée والجبل الأسود ، ولاند مينيه Méné ، والتي تطيف بمنخفضات مثل حوض شاتولان وحوض رين Rennes . أما الماسيف سنترال فتتألف في الغرب من هضاب مثل جبل ليوزان ، كومبراي ، مارش ، ليوزان الأدنى ، والتي تخترقها أودية عميقة . ونجد في الوسط وفي الشرق جبالاً ضئيلة الارتفاع ، مثل مورقان ، شاروليه ، بوجوليه ، ليونيه وقيفاريه على الحافة الشرقية ، ومرتفعات فوريز ، فيليه ، مارجرید ، جيغودان ، وجبال اوفيرنيه البركانية ،

إلى جانب أحواض مثل ليانيه ، يوي ، فوريز ، وروان ، التي تفصل بين هذه الكتل . وإلى الجنوب نجد هضاباً كلسية مرتفعة تدعى « القوص » تفصل ما بين كتل سيفين وهضاب رويرغ المؤلفة من صخور متبلورة ، وسيغالا ، ولاكون ، واسبينوز والجيل الأسود . أما جبال الفوج في الشرق ، فتتيز بأشكالها الثقيلة والمدورة ، وبسفوحها غير المتناظرة حيث تكون الشرقية شديدة الانحدار . وتنقسم إلى جبال فوج عليا متبلورة في الجنوب وفي الشرق (شكل ٣) ، وإلى جبال فوج سفلى ، ذات صخور رملية في الشمال وفي الغرب . أما الأردن فهي هضبة قليلة الارتفاع ، تخترقها أودية ضيقة ومتعرجة . أما جبال المور وإيستل فهي من بقايا كتلة التيرينيد التي غاصت تحت مياه البحر الأبيض المتوسط .



مقطع تقريبي من نهر الموز حتى الرين

الشكل ٣

ثانياً : الكتل الشابة : وهي بقية الالتواء الألبى ، ولجبال البيرينيه تضريس مثلّم ، وتتألف من زمرة من أرتال جبلية تتجه من شرق الجنوب الشرقي

لاند شافت فرنسا



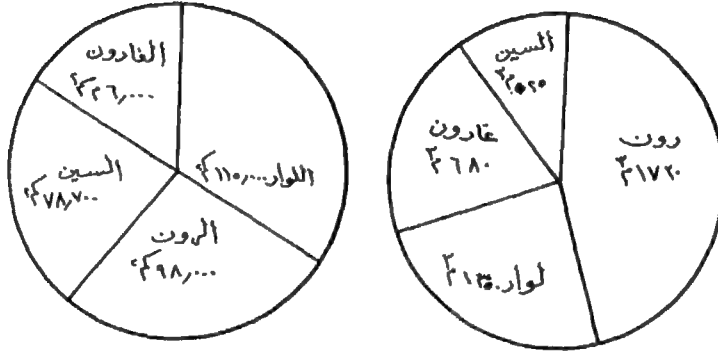
أما جبال الألب ، فتؤلف أكثر مناطق فرنسا ارتفاعاً . ويكون التضريس جريئاً رشيقاً بارزاً ، كما يكون وضع ارتصافها منتظماً . وغيز جبال الألب الشمالية الواضحة التجزئة ، وهي مقدمة الألب « البريئالب » والأخدود الألبى والكتل المركزية ونطاق ما بين الألب . أما جبال الألب الجنوبية فتكون ذات تضريس أكثر غموضاً . أما جبال الجورا فتضم قسماً التوائياً وأكثر ارتفاعاً ، يدعى الجبل في الشرق والهضبة في الغرب .

ثالثاً : وتحتل السهول والهضاب أكثر من نصف مساحة فرنسا ، ويمتد الحوض الباريسي بين بقايا السلسلة الهرسينية ، ويشكل حوضاً واسعاً تكون طبقات الصخور الرسوبية فيه مرتفعة على شكل هالات متوحدة المركز . ويميز فيه من الشرق تضريس أضلاع « كويستا » ، مثل أضلاع اللورين وأضلاع إيل دوفرانس وسهول ، مثل سهل شميانيا ، مثلما يتألف الشمال من هضاب مثل بيكارديا ونورمانديا . أما من الجنوب فيظهر تأثير الماسيف سنترال ، كما في بلاد اللوار ، ويتميز إقليم الوسط بسهوله الواسعة مثل سهل بري ، وسهل بوس Beauce ، وبتلاله وبأوديته . هذا ويميل حوض أكيثانيا باتجاه المحيط الأطلنطي ، وهو منطقة تلال تتصل مع الحوض الباريسي بواسطة عتبة پواتو . ويضم هضاباً في الشمال وبقايا بيرنيه في الجنوب وميزاباً أوسط . ويجب أن نضيف إلى السهول منطقة الألزاس ، وهي حفرة انهدامية (شكل ٥) بين جبال القوچ وبين الغابة السوداء في ألمانيا ، وسهول الساؤون ، والرون ، وسهل الشمال ، وسهول الجنوب المطلة على البحر الأبيض المتوسط .

السواحل : وتحوي أكثر النماذج تنوعاً . فيكون الساحل على بحر الشمال منخفضاً ، منبسطاً ومحفوفاً بكثبان . أما على بحر المانش ، فتسود الجروف الساحلية الحوارية حتى نهر السين . ثم يصبح الساحل أكثر تنوعاً بين بلادكو

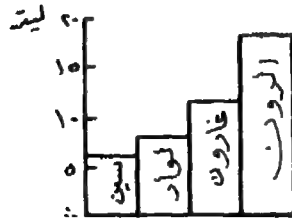
Caux وشبه جزيرة كوتنتان . أما بين كوتنتان ونهاية فينيستير فيتميز الساحل بكثرة التسنّات ، وبتعدد الرؤوس والخلجان والجزر . ويكون الساحل على المحيط الأطلنطي شديد التقطع حتى نهر اللوار ، ثم يصبح منبسّطاً ومحفوفاً بالكثبان في إقليم فاندييه Vendée ، ثم يتحول إلى سهل منخفض ، ورملي حتى مصب نهر الآدور ، حيث يعود صخرياً . ويكون الساحل البيرييني على البحر الأبيض المتوسط متقطعاً ، ثم يكون ساحل الروسيون واللانغدوك منخفضاً ومحفوفاً باللاغونات . ويتصف ساحل البروفانس بشدة التضرس ومستنأً بجونات عميقة . ويكون ساحل كورسيكا الغربي مرتفعاً ومتقطعاً ، بينما يكون الساحل الشرقي منخفضاً رملياً .

الشبكة الهيدروغرافية : وهنا أيضاً يسود تنوع كبير ، بدءاً من النهر الهادئ المنتظم حتى السيل الهدار على ساحل البحر الأبيض المتوسط . وتنحدر الأنهار من جبال البيرينيه ومن الألب ومن الفوج ومن هضبة لانغر ومن الماسيف سنترال ، ومن مرتفعات فرنسا الغربية لتتلاقى في الحوض الباريسي ، وفي الحوض الأكيثاني ، وفي الأجزاء المنخفضة في الغرب . وأنهار فرنسا الرئيسية هي : نهر السين وهو طريق مائي كبير صالح للملاحة ذو نظام منتظم ويصل صبيبه المتوسط إلى ٥٢٠ م^٢ / ثا . أما نهر اللوار فهو أطول أنهار فرنسا وأقلها انتظاماً ، ويصلح للملاحة في مجراه الأدنى ، ويكون مصحوباً بقناة في مجراه الأعلى ، ويصل صبيبه المتوسط السنوي إلى ١٣٥٠ م^٢ / ثا . ويكون نهر الغارون عبارة عن سيل بيرييني ، ثم يصبح نهر سهل أكيثانيا ، ويتخذ اسم الجيروندي بعد مقرنه مع نهر دوردوني ، وهو صالح للملاحة في القسم الذي تصعد فيه موجة المد ، وهو أغزر أنهار فرنسا ، لأن صبيبه يصل إلى ٧٠٠ م^٢ / ثا ، أي يقارب صبيب نهر الفرات في سورية . وينتهي نهر الرون على شكل دلتا ، والملاحة عليه عسيرة ويصل صبيبه إلى ١٧٢٠ م^٢ / ثا أي يعادل ثلاثة أرباع صبيب نهر النيل تقريباً ،



المساحة المقارنة للأجزاء الخمسة في فرنسا

الشكل ٦

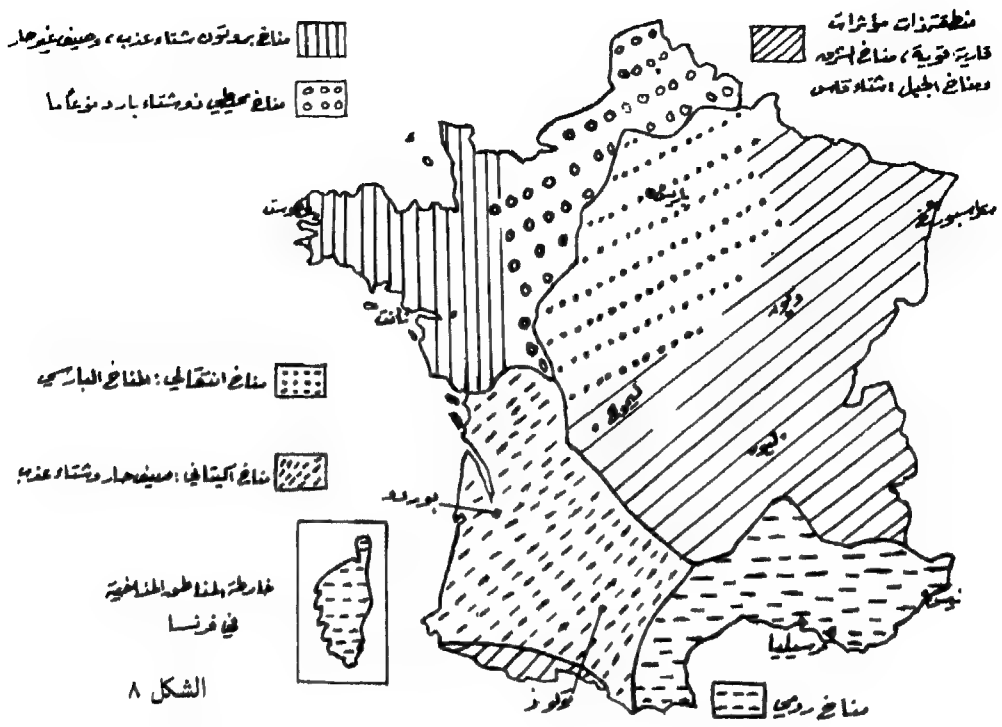
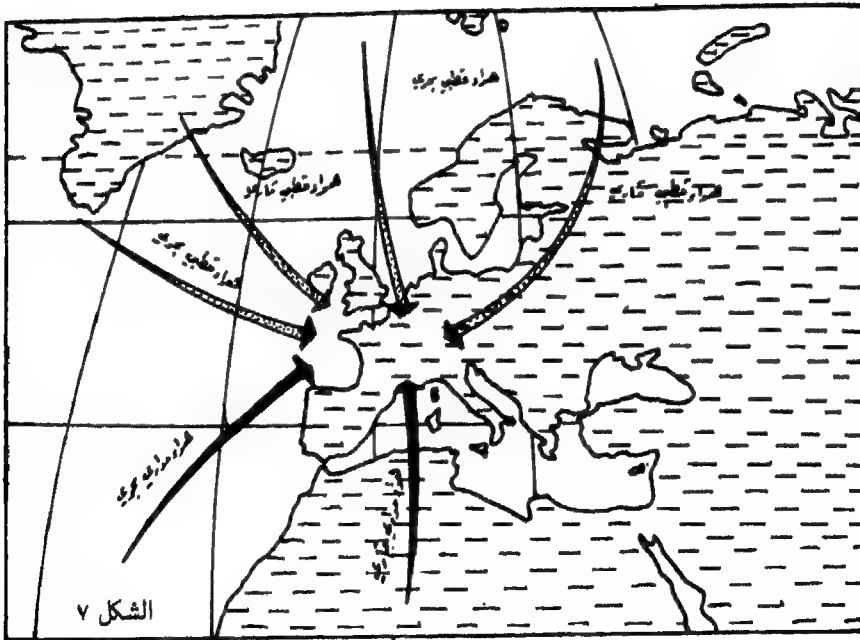


الجدول النسبي للأجزاء الخمسة في فرنسا
في اندازة الأهمية الكبرى في فرنسا
(النسبة النسبية في المائة)

ولكن نهر الراين يشكل حدود فرنسا على مسافة ١٨١ كم ، ويشكل طريقاً ملاحياً ممتازاً ، وصيبه الوسطي ٢٢٠٠ م / ثا ، أي يزيد عن نهر الرون (شكل ٦) .

المناخ : تتمتع فرنسا بمناخ معتدل ، تدين به لموقعها على درجات العرض ، أي على مسافة متعادلة بين خط الاستواء والقطب الشمالي (شكل ٧) ، ولتأثير البحار التي تخفف درجات الحرارة المتطرفة ، ولوضع وتوجه تضاريسها التي تسمح للرياح الغربية أن تمارس تأثيرها بعمق في داخل البلاد .

ويميز في فرنسا المناخ البريتاني ، المحيطي ، الرطب ، والعذب (شكل ٨) ، ونموذجه مدينة برست (شكل ٩) ، التي يكون متوسط حرارتها في كانون الثاني (يناير) ٧ درجات ، أي تعادل مدينة حلب في الشهر ذاته ، مع أنها واقعة على عرض يقل عن عرض مدينة برست بحوالي ١٢ درجة عرض ،



ومتوسط الصيف ١٧ درجة . وتصل أمطارها إلى ١١٥٠ مم ، ويبلغ عدد أيام المطر ١٥٠ يوماً في العام مقابل ٣٧٥ مم في حلب موزعة على ٤٥ يوماً .

وهناك المناخ الأكييتاني المتميز بشتائه اللطيف وبصيفه الحار العاصفي الكثير الأمطار ، والمناخ الباريسي المعتدل البرودة والرطب خلال الشتاء والحار نوعاً ما في الصيف (شكل ١٠) . ومناخ الأوفيرنيه ، وهو قاس ورطب ، كثير الضباب . والمناخ القاري وشتاؤه قاس وثلجي ، وصيفه حار وجاف ، ففي ستراسبورغ يكون متوسط كانون الثاني - ٢ ، ومتوسط تموز ٢٠ درجة ، ويصل عدد أيام الانجماد إلى ٩٥ يوماً ، ويتساقط الثلج مدة ٢٠ يوماً ، ويبلغ مجمل التهطال السنوي ٦٢٠ ملم (شكل ١١) . هذا ويكون المناخ الرومي ذا صيف حار جاف ، وشتاء عذب رغم هبوب الرياح العنيفة والباردة ، مثلما يتميز بفروق الحرارة . ففي مدينة ايكس آنبروفانس أو مرسيليا يكون متوسط كانون الثاني ٦ درجات ويصل إلى ٢٣ في تموز ، وتكون الأمطار فجائية عنيفة في الخريف والربيع ، ومجموع المطر ٥٥٠ مم ، ويصل عدد ساعات الشمس إلى ٢٥٠٠ وربما إلى ٣٢٠٠ ساعة (شكل ١٢) . وهناك أخيراً المناخ الألبني المتصف بقساوته وكثرة ثلوجه في الشتاء ، مع اختلافات شديدة في الحرارة بين الليل والنهار .

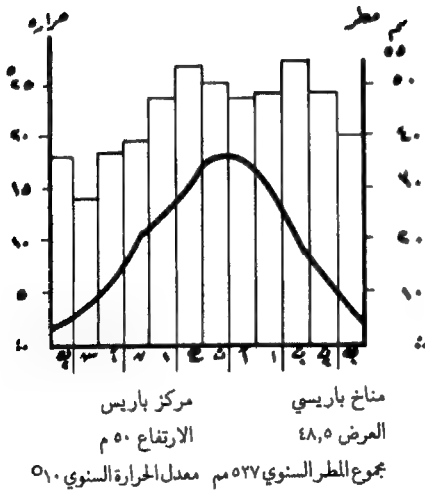
السكان :

بلغ عدد سكان الجمهورية الفرنسية ٥٤,٤ مليون عام ١٩٨٣ ، بعد أن كان ٤٦ مليون عام ١٩٦٠ و ٤١,٩ مليون في عام ١٩٣٦ . وأصبحت الكثافة العامة ٩٩ نسمة في الكيلومتر المربع مقابل ٨١ نسمة ١٩٦٠ . ويتصف الشعب الفرنسي بضعف التوالد لأن هذه النسبة تبلغ ١٤ بالآلف والوفيات ١٠ بالآلف ، أي أن نسبة النمو تبلغ ٠,٤٪ في العام ، أي يحتاج الفرنسيون إلى ١٥٠ سنة كي يتضاعف عدد السكان ، في حين يكتفي العرب بمدة ربع قرن فقط كي يتضاعف عددهم ، وتبلغ نسبة وفيات الأطفال ١٣ بالآلف مقابل ١٤٠ في الجزائر . ويصل العمر المتوسط

إلى ٧٣ سنة مقابل ٥٧ سنة في سورية . أما نسبة الذين تقل أعمارهم عن ١٥ سنة فتكون ٢٤٪ مقابل ٤٨٪ في الجزائر ويؤلف الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٦٤ سنة ٦٢٪ مقابل ٤٩٪ في سورية ، ويشكل الذين تزيد أعمارهم عن ٦٥ سنة ١٤٪ مقابل ٣٪ في الجزائر . وأكثر المناطق سكاناً هي المنطقة الباريسية ، والمراكز الصناعية في اللورين والماسيف سنترال ، والسهول الزراعية في الشمال وفي الإلزاس ، وعلى سواحل بريتانيا ، والبروفانس جنوباً ، وأودية الأنهار الكبرى ، ومناطق الزراعة المتخصصة مثل اللانغدوك وكونتا الخ . . وفي مقابل ذلك تكون الكثافة ضعيفة في الجبال ، كالماسيف سنترال وجبال البيرينيه وكورسيكا والسلاسل الألبية ، وفي المناطق ذات الترب الفقيرة ، كمنطق القوس الكلسية ، وشمبانيا البويوز ، وبورغونيا العليا ، وسولوني الخ . .

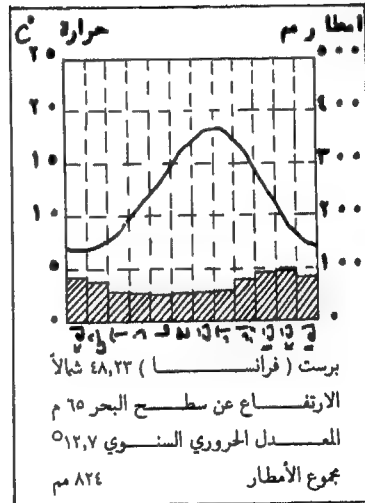
وقد أخذ عدد سكان الأرياف بالتناقص باستمرار منذ أواسط القرن التاسع عشر لفائدة سكان المدن . فبعد أن كان ثلاثة أرباع سكان فرنسا من الريفيين قبل قرن من الزمن ، أصبح هؤلاء يمثلون الثلث في ١٩٦٠ وحالياً ٣٠٪ فقط .

وبعد أن كان عدد المدن ، التي يتجاوز عدد سكان كل منها ١٠٠,٠٠٠ نسمة ، ٢٥ مدينة في ١٩٦٠ أصبح عددها في ١٩٨٠ ، ٥٦ مدينة ، وأهمها باريس العاصمة وسكانها مع ضواحيها ٨ ملايين نسمة ، ومرسيليا ١ مليون ، وليون ١,٢ مليون ، بوردو ٦٢٢,٠٠٠ ، نيس ٤٠٠,٠٠٠ ، تولوز ٤٤٥,٠٠٠ ، ليل ١٧٢,٠٠٠ ، نانت ٤٦٠,٠٠٠ ، ستراسبورغ ٣٤٠,٠٠٠ ، سانتتيان ٣٤٠,٠٠٠ ، الهاغر ٢٧٠,٠٠٠ ، تولوز ٣٥٠,٠٠٠ ، روان ٣٩٠,٠٠٠ ، نانسي ٢٦٥,٠٠٠ ، رانس ٢٠٠,٠٠٠ ، روبيه ٩٥٠,٠٠٠ ، كليرمون فيران ٢٦٠,٠٠٠ ، ديجون ٢١٥,٠٠٠ ، غرينوبل ٤٠٠,٠٠٠ . ليموج ١٥٠ ألف ، رين ٢٠٠ ألف ، لومان ١٧٠ ألف ، نيم ١٣٠ ألف ، برست ١٧٠,٠٠٠ ، آنجيه ١٧٠,٠٠٠ .



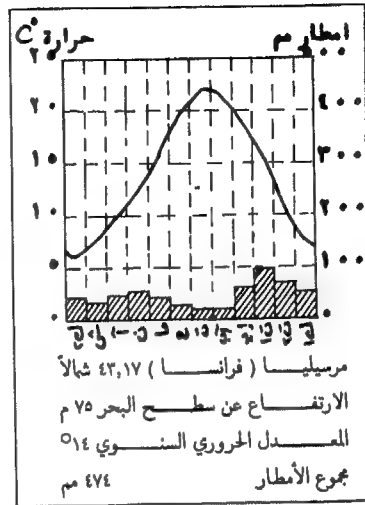
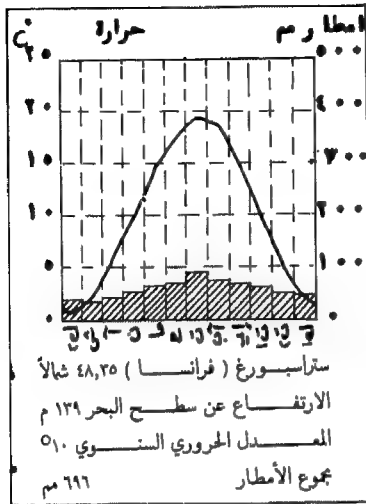
الشكل ١٠

الشكل ١٢



الشكل ٩

الشكل ١١



الاقتصاد

تبدو التقنيات الزراعية والصناعية ، وهي وريثة تقاليد طويلة ، تحققت خلالها نوعيات الأيدي العاملة ، تبدو الآن هدفاً لتحويلات عميقة . وإذا كانت مصادر الطاقة أو المواد الأولية متنوعة ، فإنها تظل ، باستثناء الحديد والبوكسيت ، دون حاجة البلاد . بيد أن المنظورات المتوفرة بعد تنمية الطاقة النووية والبتروكيميا ، تكاد تقلب المعطيات التقليدية رأساً على عقب ، وتضع حركة التمرکزات الكبرى ، في المؤسسات ، فرنسا في عداد المجلّين بين الأمم الصناعية .

هذا ويتوزع السكان العاملون ، وعددهم ٢١,٣ مليون فضلاً عن مليون عاطل عن العمل ، يتوزعون كما يلي :

١ - القطاع الأولي = الزراعة ، الغابات ، الصيد البري والبحري ، ويعمل فيه ٢,١ مليون أو ٩,٩٪ .

٢ - القطاع الثنائي = أي العاملون في الصناعة التحويلية وعددهم ٧,٩ ملايين أو ٣٧,٢٪ .

٣ - القطاع الثلاثي = أي قطاع الخدمات ويعمل فيه ١١,٢ مليون أو ٥٢,٧٪ .

الزراعة :

تعتبر نسبة ٩,٣٪ من أراضي فرنسا أراضي عقيمة . وتقدم الزراعة بفضل تنوع الترب والمناخات ، وبفضل البنية الاجتماعية وبسبب تفوق الملكية الصغرى ، تقدم منتجات متنوعة جداً . وعلى كل تتوزع نسبة الأراضي كما يلي :
أراض قابلة للحراثة ١٧ مليون هـ أو ٣١٪ ، والمساحة المغطاة دوماً بالأعشاب (مراعي) ١٣,٣ مليون هـ أو ٢٤,٣٪ ، مزروعات ثمرية ٣٠٠,٠٠٠ هـ أو ٠,٥٪ ،
الكرمة ١,٢ مليون هـ أو ٢,٣٪ ، وغابات وأحراش ١٤ مليون هـ أو ٢٦,٥٪ ،

مزروعات الخضار والزهور والحدائق العائلية ٣١٧,٠٠٠ هـ أو ٠,٥ ٪ ، مزروعات متنوعة وأراض زراعية غير مزروعة ٢,٧ مليون هـ أو ٠,٥ ٪ ، مستنقعات مستغلة ١٣٠,٠٠٠ هـ أو ٠,٢ ٪ ، أراض غير زراعية ٥ ملايين هـ أو ٩,٣ ٪ .

ويزرع القمح في سائر الأمكنة ، حتى أن حقوله تغطي ١٠ ٪ من رقعة البلاد ، ولكنه يتفوق خاصة في سهول الشمال وفي الحوض الباريسي ، والحوض الأكيثاني ، وتحتل فرنسا المكانة السادسة في العالم في إنتاجه ، ولكن ليس لدى فرنسا فائض كبير للتصدير ، ويزرع الجاودار في بريطانيا وفي الماسيف سنترال ، والشوفان في كل مكان تقريباً ، والشعير في الشمال وفي الشرق ، والذرة في الجنوب الغربي ، واختصاراً تحتل الحبوب ٩,٢ ملايين هـ أو ٥٤,١ ٪ من المساحات المزروعة . وتنو البطاطا في كل مناطق فرنسا وحتى في المناطق الفقيرة . وتنتشر زراعة الخضار قرب المدن ، وفي الجنوب ، وفي منطقة تور وفي بريطانيا الخ . .

أما الكرمة فتنتشر في اللانغدوك ، وفي منطقة بوردو ، وفي بلاد اللوار وشمبانيا ، وبورغانيا والألزاس ، حتى أن فرنسا تنتج ثلث إنتاج العالم من الخمر . أما المحاصيل الزراعية فتتمثل بزراعة الشوندر التي تسود في إقليم الشمال ، بيكاردي ، وجنوب باريس . وتنتشر زراعة حشيشة الدينار التي تدخل في صناعة الجعة في الألزاس واللورين ، والتبغ في أكيثانيا ، والكتان في الشمال وبيكاردي ، والقنب الخ . .

وعلى كل تنتشر النباتات المعزوقة على ١,٣ مليون هـ أو ٧,٢ ٪ من المساحة ، والبقول الجافة ٧٤,٠٠٠ هـ أو ٠,٤ ٪ ، والمزروعات البقولية الحقلية ٢٠٠,٠٠٠ هـ أو ١,٢ ٪ ، والمزروعات العلفية ٥٢ مليون هـ أو ٣١ ٪ ، والبرور ٢٣٣٠٠٠ هـ أو ١,٤ ٪ ، والمزروعات الأخرى ٤٨٧٠٠٠ هـ أو ٢,٨ ٪ .

وتكون مقادير الإنتاج الزراعي بملايين الأطنان كما يلي : القمح ١٧ ، الشعير ١٠,٢ ، الشوفان ١,٩ ، الجاودار ٠,٣٧ ، الذرة الصفراء ٨,٦ . الرز ١٨٠٠٠

طن ، والشمندر السكري « البنجر » ٢٤,٥ مليون طن ، والسكر ٤ ملايين طن ،
والبطاطا ٦,٤ مليون طن ، والخبث ٥٢ مليون هكتولتر ، والجمعة ٢٢ مليون
هكتولتر ، والكتان ٤٢٠٠٠ طن ، والتبغ ٥٣٠٠٠ طن .

تربية الماشية :

وتكون متطورة جداً ، فتربى الخيول في بريطانيا ، وفي بولونيه ، وپرش ،
ومنطقة تارب ويقارب عددها ٤٠٠,٠٠٠ رأس ، والأبقار في منطقة شاروليه ،
أوكسوا ، ليوزان ، اثيرنيه ، نورساندي ، شارنت وپواتو . ويبلغ عددها ٢٣,٨
مليون رأس . أما الأغنام فتربى في اللانغدوك ، الپروفانس ، القوس ، شمبانيا ،
پيرى ، ويبلغ عددها ١١,٢ مليون رأس ، والخنازير ١١,٥ مليون رأس . وتنتج
البلاد حوالي ٢٩ مليون طن من الحليب و ٥٦٠٠٠٠ طن من الزبدة ، ومليون طن
من الأجبان ، و ٣,٥ مليون طن من اللحوم . وتربى الطيور الأهلية على
الخصوص في منطقة بريس Bresse .

الغابة :

وتستغل الغابات في منطقة اللاند قرب مصب الغارون ، وفي الجبال ،
وتنتج البلاد ٢٨ مليون م^٣ من الخشب الجذوع ، و ١١ مليون م^٣ من الخشب
المنشور .

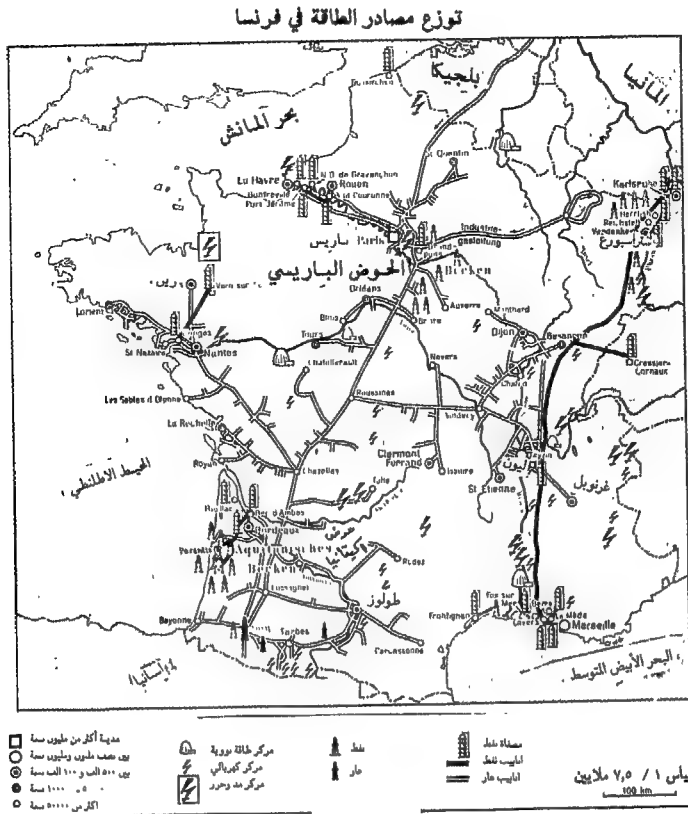
الصيد البحري :

ويكون هذا نشيطاً قرب السواحل وفي عرض البحر . ويبلغ إنتاج البلاد
٧١٢,٢٢٧ طن في سنة ١٩٧٧ ، وأهم موانئه بولونية ، لوريان ، كونكارنو ،
فريكان ، لاروشيل ، ديبب .

الطاقة :

لا يكون إنتاج الفحم الفرنسي ، الذي تقع مناجمه في منطقة الشمال

والكتلة المركزية ، واللورين كافيًا . وقد بلغ إنتاجه ١٨ مليون طن عام ١٩٧٧ .
وتنتج منطقة الشمال ومنطقة بادوكاليه ٢٧٪ واللورين ٤١٪ . وتستورد البلاد
مقدار ٢٣,٧ مليون طن ، منها ٥ ملايين من ألمانيا الغربية ومثلها من بولونيا ،
و ١,٨ مليون طن من الولايات المتحدة ، وتصدر منه مقدار ٥,٥ مليون طن .
أما إنتاج البترول فضعيف ، ويصل إنتاجه إلى مليون طن ، ويستغل من
حوض أكيثانيا ، والحوض الباريسي والألزاس . ولكن حوض أكيثانيا يقدم
مقادير متزايدة من الغاز ، فقد أنتجت البلاد مقدار ٦٤,٨ مليار وحدة حرارية
من حوض لاك وسان مارسيه (شكل ١٣) .



هذا وتستورد فرنسا مقدار ١٢٠ مليون طن من النفط ، منها ٨٩ مليون طن من أقطار الشرق الأوسط ، وتقدم ليبيا ٢,٣٪ ، والجزائر ٤,١٪ ونيجيريا ٦,٧٪ ، والاتحاد السوفييتي ١,٢٪ وفنزिला وبحر الشمال . ويصدر من منتجات البترول بعد تصنيعها ١٣,٦ مليون طن .

وتقع المصافي الكبرى في السين الأدنى ، وطاقتها ٥٦,٢ مليون طن (غونفر فيل) ، ومرسيليا بيّر ٤٣,٥ مليون طن ، والألزاس ٨,٨ مليون طن ، وجيرون ، وجرانوي ، ودونج ، وتبلغ الطاقة العامة للتكرير ١١٩ مليون طن .

الكهرباء :

وبلغ إنتاجها الكلي ٢٦٥,٩ مليار ك و س ، وتؤلف الطاقة الحرارية في الشمال والمنطقة الباريسية ٥٥٪ . ولكن إمكانات فرنسا من الفحم الأبيض كبيرة في جبال الألب والبيرينيه والماسيف سنترال والألزاس . وقد تمّ بناء سدود كبيرة في جينيّسيا ، ودونزير ، وشامبون ، وسوتيه ، لاتروير ، ماريج ، ليغل ، بور ، شاستانغ ، بروما ، ايجوزون ، وكب . وتتجه البلاد لاستغلال المزيد من الطاقة الكهربائية ، وعلى كل تقدم جبال الألب ٥٥٪ من الفحم الأبيض ، والماسيف سنترال والبيرينيه ٢٦٪ . وهناك المراكز النووية التي تقدم حالياً قرابة ٢٠ مليار ك و س ، من مركز شينون ، ماركول ، موندازيه ، سان لوران ديزو أو مايعادل ٣٨,٧٪ من انتاج الكهرباء الفرنسية .

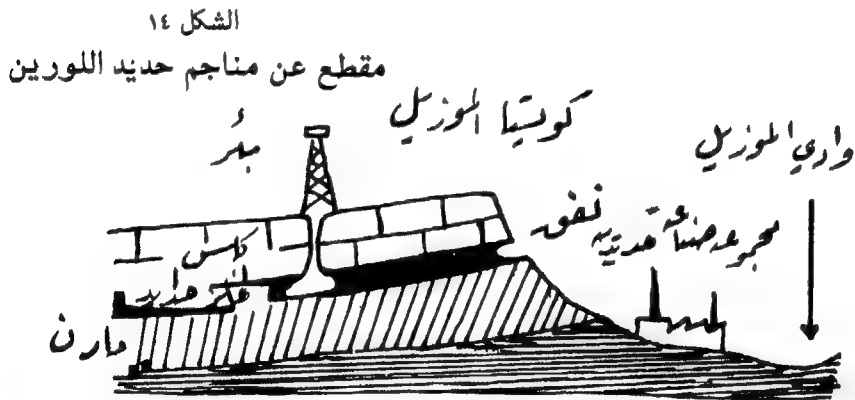
الصناعة :

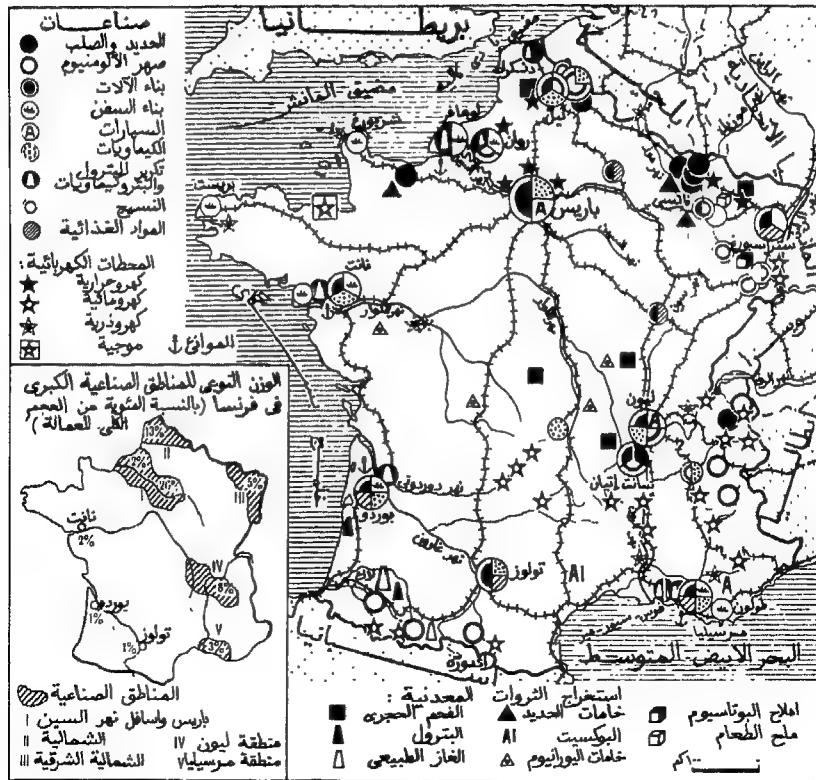
تحتل فرنسا المكانة الأولى بين الدول الأوروبية في استخراج خامات الحديد بفضل مناجم اللورين (شكل ١٤) . فقد استخرجت في ١٩٧٧ مقدار ١١ مليون طن من المعدن الصافي . وهي أول بلد في العالم في إنتاج البوكسيت الذي تقدمه مناجم الجنوب ، ويبلغ إنتاجه مليوني طن . أما إنتاج المعادن الأخرى فهو

ضعيف ، باستثناء مكامن البوتاس في الألزاس ، وهكذا تنتج البلاد مقدار ٤٢,٠٠٠ طن من معدن الزنك و ٣٢,٠٠٠ طن من الرصاص ، و ١,٧ مليون طن من البوتاس ، و ١,٩ مليون طن كبريت ، و ١٣٠,٠٠٠ طن من الملح .

وتتركز الصناعة الحديدية في الشمال ، وفي اللورين ، والماسيف سنترال والنورماندي . أما الصناعة الكهرومعدنية فتتركز مع الكهركيما في جبال الألب والپيرينيه . وعلى كل تملك فرنسا ٣٩ فرنأً عالياً و ١١ مقلب توماس وثمانية أفران مارتان ، و ٦١ فرن كهربائي ، و ٢٦ منشأة لصنع الفولاذ على الأوكسجين . وقد أصابت أزمة عام ١٩٧٩ الصناعة الحديدية بقساوة . وتستخرج فرنسا ٣٦ مليون طن من خامات الحديد تحوي ١١ مليون طن من المعدن ، وتصدر ١١,٨ مليون طن من خامات الحديد نحو دول البينيلوكس وألمانيا الاتحادية ، وتستورد ١,٢ مليون طن من خامات الحديد من أفريقية . وكان إنتاجها في عام ١٩٨١ يتألف من ١٧,٢ مليون طن من الصهير (الفونت) و ٢١,٢ مليون طن من الفولاذ (شكل ١٥) .

أما المعادن غير الحديدية فقد كان إنتاجها عام ١٩٨١ يتألف من ١,٨ مليون طن من الألمنيوم ، و ٢٣٨,٠٠٠ طن من الزنك الصافي و ١٨٤,٠٠٠ طن من الرصاص الخالص .





الصناعة فرنسا	الإنتاج			مصادر الطاقة الأولية
	١٩٨١	١٩٧٤	١٩٦٠	
	١٨,٥	٢٥,٧	٥٨,٣	الفحم (ملايين الأطنان)
	١,٦	١	٢	النفط الخام (ملايين الأطنان)
	١,٥	١,٤	٢,٨	ملايين تيك ^(١)
	—	—	—	تكرير المنتجات النفطية (مليون طن)
	٧	٧	٢	غاز طبيعي (مليون م ^٣)
	٢٧٦	١٨٠	٧٢,١	كهرباء هيدروليكية وحرارية (مليار ك و س)

(١) تكون معامل التحويل المتعارف عليها كما يلي : طن واحد من النفط الخام = ١,٤ تيك (طن معادل فحم) .
منتجات نفطية : ١ طن = ١,٥ تيك ، غاز : كل ١٠٠٠ وحدة حرارية = ٠,١٥ تيك . كهرباء : كل ١٠٠٠ ك و س = ٠,٤ تيك .

أما الصناعات الميكانيكية ، فكانت تتألف من إنتاج السيارات الذي بلغ ٢,٩ مليون سيارة سياحية عام ١٩٨١ ، وبذلك تحتل المرتبة الرابعة في العالم . وتقع مصانعها في باريس « رينو » ، لومان ، رين ، فلان ، سوشو ، هذا إلى جانب ٤١٤,٤٢١ سيارة نفعية في مدينتي ليون وفينيسيو .

أما صناعة السفن فقد قدمت ما حولته ١,١٩٥,٣٠٠ طنّة في موانئ اللوار الأدنى ، دنكرك ، لوسيتا . وتقع الصناعات الجوية في باريس وطولوز . وهناك صناعة البناء الكهربائي والألكتروني والمكائن الزراعية في فييرزون ، بوثيه ، سان ديزيه ، وصناعة المكائن النسيجية في الشمال ، بلفور ، مولهوز ، ومكائن السكك الحديدية في كروزو ، ليل ، والمكائن الصانعة والأدوات المطبخية والساعات في الجورا ، والسكاكين في تيه ، لانفر .

أما الصناعات النسيجية فتقع في الشرق والشمال ووادي السين الأدنى والأوسط . وتعدّ هذه الصناعة من أقدم صناعات فرنسا ، وتشكو من عتق آلاتها الموروثة من العصر الحرفي : كتبعثر المؤسسات وصغر أبعادها . ويجري تحديد بني هذه الصناعة مثلما تجري محاولات نحو التمرکز . أما الصناعات الغذائية فتقوم في المناطق الزراعية . وبلغ إنتاج فرنسا من الصوف المشط ٧٢,٢٠٠ طن ، ومن الألياف الاصطناعية والتركيبية ٥٠,٠٠٠ طن ، ومن غزول الصوف ١٤١,٥٠٠ طن ، ومن منسوجات الصوف ٦٢,١٠٠ طن . هذا كما أنتجت في ١٩٧٧ مقدار ٢٢٩,٢٠٠ طن من غزل القطن و ١٨٥,٨٠٠ طن من أقمشة القطن والكتان والخليط ، مثلما أنتجت ٢٤,٧٠٠ طن من خيوط الجوت ، و ١٣,٦٠٠ طن من منسوجاته ، و ٣٣,٧٠٠ طن من السيزال .

وتتوطن الصناعات الكيماوية الأساسية ، أي الصناعة الكيماوية الثقيلة ، بجوار مصادر التوین أو في الموانئ . وتوفر المحاجر الصخور الكلسية والجص من المنطقة الباريسية ، ومن وادي الرون ، والصودا من اللورين ، والملح من ممالح

الساحل كما في كامارغ وسواحل الأطلسي ، والبوتاس من الألزاس ، والكبريت من منطقة لاك قرب آبار الغاز . هذا وتنمو إلى جانب الأحواض الفحمية في الشمال وبجوار معامل تكرير النفط الصناعات الجديدة ، أي الكربوكيمياء ، والبتروكيمياء . أما الصناعات الكيماوية المتنوعة فهي أكثر تبعثراً .

وقد أنتجت فرنسا في ١٩٧٧ مقدار ٦٤٥,٠٠٠ طن من البوليفينيل ، و ٣٧٦,٠٠٠ طن من الميثانول ، ومن الأمونياك ١,٧٨١,٠٠٠ طن ، والأسمدة الآزوتية التركيبية ١,٤٦٩,٠٠٠ طن ، والحامض النتريكي ٦٨٢,٠٠٠ طن ، ومن السوبرفوسفات ٨٧٥,٠٠٠ طن والحامض الكبريتي ٤,٥ مليون طن ، والحامض الكلوهيدريكي ٦٧٤,٠٠٠ طن ، و كربونات الصود ١,٣٦٥,٠٠٠ طن ، والصودا الكاوية ١,٢٠ مليون طن .

المواصلات :

في مطلع عام ١٩٧٧ كانت فرنسا تملك ٣١,١٩٩ كم من الطرق البرية القومية ، و ٤٢٨٣ كم من طرق السيارات العريضة ، وحوالي ٣٨٠,٠٠٠ كم من طرق المحافظات و ٤٢٤,٠٠٠ كم من الدروب القروية . ويصيب كل ثلاثة مواطنين سيارة واحدة ، إذ كان في العام المذكور ٢,٤ مليون سيارة شحن و ١٦,٣ مليون سيارة سياحية والنسبة ذاتها من الدراجات النارية والعادية . وتعتبر فرنسا من أكثر أقطار أوروبا حركية بالمواصلات الآلية motorisé .

وفي البلاد ٣٥١٨٠ كم من الخطوط الحديدية منها ٩٣٥٦ كم مكهربة ، وتصل الحركة إلى ٥١,٥ مليار مسافر / كم ، و ٦٨,٧ مليار طن / كم .

وبلغت حمولة أسطول البحرية التجارية ١٩٧٦ مقدار ١١ مليون طنة . أما حركة الموانئ فبلغت ٢٩٨ مليون طن بضائع ، منها ٨١ ٪ للمستوردات ، ويمثل البترول ٢٠٢ مليون طن ، والمسافرون ١١,٣ مليون . وأهم الموانئ حركة في ١٩٧٦

كانت مرسيليا ١٠٤ مليون طن ، الهاقر ٨٠ مليون طن ، دنكرك ٣٣,٥ مليون طن ، روان ١٥,٦ مليون طن ، نانت سان نازير ١٥,٣ مليون ، بوردو ١٢ مليون ، سات Sète ٧,٤ ، لاروشيل ٣,٧ مليون طن .

أما الملاحة النهرية فتمتد على ٣٢٠٠ كم على الأنهار و ٤٤٠٠ كم على الأقنية ، التي لا تستعمل كثيراً لأن المراكب من المقياس الأوروبي من حمولة ١٣٠٠ طن لا تجري إلا على نهر الراين والموزيل والسين في سافلة باريس .

هذا وقد بلغت حركة الطيران في ١٩٧٧ ٢٧,٥ مليار مسافر / كم ، وحمولة ١,١ مليار طن / كم و ١٠٧,٢٠٠ طن / كم من البريد . وأهم مطارات فرنسا هي أورلي ، لوبورجيه ، رواشي آن فرانس ، مرسيليا ، ونيس .

وتؤلف السياحة إحدى أوائل الأنشطة الاقتصادية الفرنسية وتوفر للبلاد في كل عام أكثر من ٢٠٠٠ مليون دولار من عائدات السواح الأجانب ، الذين بلغ عددهم ١٣,٤ مليون سائخاً عام ١٩٧٦ . ويقضي ٥٢ ٪ من الفرنسيين ٢٢ يوماً وسطياً عطلة في خارج منازلهم .

في عام ١٩٧١ كان ٥٩ ٪ من العائلات الفرنسية تملك سيارة واحدة على الأقل ، و ٨٠ ٪ تملك ثلاجة ، و ٧١ ٪ منها تملك جهاز تلفزيون و ٥٤ ٪ تستعمل غسالة كهربائية و ٤٠ ٪ تملك مسجلة وكان هناك ١,٢ مليون أسرة تملك مسكناً ثانوياً في الريف أو على ساحل البحر أو في الجبل .

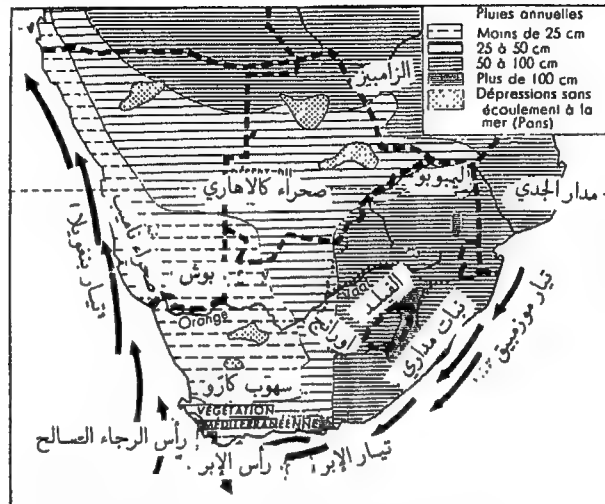
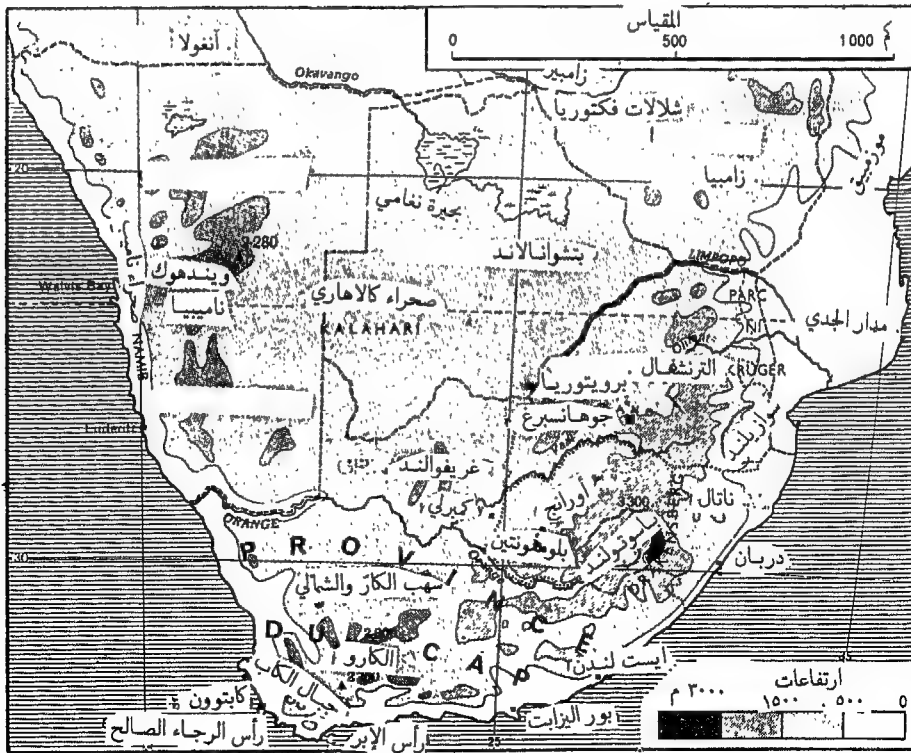
وتصدر فرنسا منتجات الترف والمنتجات الكيماوية والحديد الخام والبوكسيت ، والخبور العالية النوعية ، والفواكه ، ومنتجات الألبان ، والسلع المصنعة من أقشة ومكائن ، وتستورد المواد الأولية كالفحم الحجري والنفط والقطن والحريز والكتان والفلزات والمطاط والبذور الزيتية ، والمنتجات الغذائية كالحبوب واللحوم وبعض السلع المصنوعة .

وقد بلغت صادراتها في عام ١٩٨١ مقدار ٥٥٣ مليار فرنك ، كانت المنتجات المنتهية تؤلف ٢٦,٣ ٪ منها ، والمكائن ومعدات الخطوط الحديدية ، والطائرات « كرافيل وميستير » ، وسيارات ومنتجات خام ٢٨,٨ ٪ منها خامات الحديد والألياف النسيجية ، والمنتجات الزراعية ١٤ ٪ .

أما زبائنها فهي ألمانيا الاتحادية ، بلجيكا ، لوكسمبورغ ، إيطاليا ، إنكلترا ، هولندا ، والولايات المتحدة . أما استيرادها فقد بلغت قيمته ٦٥٨ مليار فرنك ، وتؤلف مستوردات الطاقة ٢١,٤ ٪ من حيث القيمة ، ولكن أربعة أخماس الوزن ، وهي البترول والخام والفحم ، ومنتجات منتهية ، و سلع تجهيز ١٧,٦ ٪ (كطائرات البوينغ و سلع من كل صنف) والزراعية ١٢,٥ ٪ ، كالخمر والثمار والباكوريات والمنتجات المدارية ومنتجات خام ٢٨,٨ ٪ ، وتتألف من قطن ومعجونة ورق ، ومطاط وفلزات غير حديدية . أما الدول المصدرة لفرنسا فهي : ألمانيا الاتحادية ، بلجيكا ، لوكسمبورغ ، إيطاليا ، الولايات المتحدة ، هولندا ، وبريطانيا .

تضريس افريقيا الجنوبية

الشكل ١



المناخ والنبات في افريقيا الجنوبية

الشكل ٢

الفصل السادس

جمهورية جنوب أفريقية

تشير عبارة أفريقية الجنوبية ، في المعنى الجغرافي البحت ، إلى كل الجزء الجنوبي من القارة الأفريقية الواقع جنوب خط العرض ١٠ جنوب خط الاستواء . وهكذا يمكن اعتبار جمهورية زيمبابوه ، وناميبيا ، وزامبيا ، وموزمبيق ، وبوتسوانا ، وسوازيلاند ، ولوسوتو ، وحتى أنغولا كأجزاء من أفريقية الجنوبية . غير أن من المؤلف أن يخلط الكتاب بين عبارة أفريقية الجنوبية وبين اتحاد جنوبي أفريقية ، لأن أهمية هذا الاتحاد تتجاوز إلى حد بعيد أهمية الدول المجاورة ، والواقع علينا أن نغيز ما يلي :

١ - جمهورية جنوب أفريقية وتضم إقليم الكاب ، الناتال ، ولاية أورانج الحرة ، الترانسفال ، والتي تبلغ مساحتها جميعاً ١,٢ مليون كيلومتر مربع أو ما يعادل مساحة مصر وسورية وفلسطين . وقد ظلت هذه الدولة المستقلة ، حتى عهد قريب ، عضواً في رابطة الشعوب البريطانية .

٢ - جنوب غرب أفريقية أو ناميبيا ، ومساحتها ٨٣٥,٠٠٠ كيلومتر مربع ، وهي مستعمرة المانية سابقة ، وعهدت جمعية الأمم في عام ١٩٢٠ للجمهورية جنوب أفريقية بإدارتها ، فاعتبرتها جزءاً لا يتجزأ من أرضها ، وتعارض استقلالها بضراوة .

ويحدّ جمهورية جنوب أفريقية من الشمال الشرقي سوازيلاند ، وموزمبيق ، وزيمبابوه ، ومن الشمال بتسوانا وناميبيا .

وتتصف هذه الجمهورية بأهمية مزدوجة : فتقدم هذا القطر وغوه يجعل منه أقوى دولة اقتصادية في القارة الأفريقية ، مثلما تختلف عن سائر دول أفريقية السوداء بارتفاع نسبة السكان البيض ، كما تتخذ العلاقات بين البيض والسود وغيرهم من الأقوام الملونة كالمهود ، في هذه الدولة ، مدلولاً لا يخفى على إنسان في عالمنا الحالي ، وهو ما يدعى بالتمييز العنصري الذي تحتل مشكلته حيزاً هاماً من مناقشات أروقة هيئة الأمم المتحدة ، ويتجلى من حين لآخر على شكل مصادمات دامية بين السود من أبناء البلاد وبين المستوطنين البيض .

أولاً - الصفات العامة لأفريقية الجنوبية

التضريس :

تؤلف العتبات الأفريقية ، المنخفضة في أواسط القارة ، والمنهضة باتجاه السواحل ، الهيكل الجوهري لتضريس المنطقة .

ففي إقليم الكاڤ نجد عدة سلاسل جبلية تتجه من الغرب إلى الشرق ، وتتجاوز في بعض الأماكن ٢٠٠٠ م ارتفاعاً . وقد نتجت عن سلسلة نشأت تدريجياً خلال الحقب الجيولوجي الأول ، فكثيراً ما نجد طبقات رسوبية قديمة جداً لا زالت أفقية ، كجبل المائدة Table ، الذي يطل على مدينة الكاڤ . وتمتد بين جبال الكاڤ هذه هضاب الكارو Karros ، التي تزداد عرضاً باتجاه الداخل حتى ضفاف نهر الأورانج (شكل ١) .

وإلى الشرق من جمهورية جنوب أفريقية يظهر نمط من تضريس تشترك فيه كل أقطار أفريقية الشرقية . وهي أن الترس Shield القديم ، الشديد النهوض ، قد اعترته كسور تتخذ اتجاهاً شامياً جنوبياً ، ويطل على شكل شفا ، أو جروف هائلة escarpements على سهول المحيط الهندي الساحلية .

وهكذا ترتفع جبال دراكنسبرغ إلى ٣٣٠٠ م ، والتي تنصب فوق سهل

الناقال جروفاً تثير الدّوار ، في حين تقوم أودية نهر الأورانج العليا وروافده ، في إقليم لوسوتو ، الرائع الجمال ، بتقطيع شرفات corniches وتلاع شاهدة من المسكوبات البركانية ، وهي دفقات بركانية لايّة معاصرة للتواءات الكاپ .

أما الهضاب العليا في إقليم الأورانج والترانسفال فلا تحوي على أكثر من سطوح هادئة ، تتراوح ارتفاعاتها بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ م ، لا تهين عليها سوى أرومات من تضرّيس أطلالي تدعى كوجيس Kopjs ، أو راند Rand ، وهي صفوف من ارتفاعات ناتجة عن سلسلة متتابعة مؤلفة من صخور قاسية .

ولا تنهض عتبات Plate formes جنوب أفريقية المائلة من كل جانب باتجاه حوض كالاهاري الأوسط إلا في حافة المحيط الأطلنطي في إقليم ناميبيا (جنوب غرب أفريقية سابقاً) .

الأوضاع المناخية والمشاهد النباتية

تحتل جمهورية جنوب أفريقية في نصف الكرة الجنوبي درجات عرض ماثلة لأقطار المغرب العربي والصحراء الكبرى في النصف الشمالي من الكرة الأرضية .

هذا ويكون للهامش الجنوبي من إقليم الكاپ ، مناخ مماثل لمناخ المرتفعات الساحلية أو « التل » في كل أقطار المغرب العربي (شكل ٢) ، أي ذات صيف حار جاف وشتاء عذب مع زخات مطر تجلبها الرياح الغربية . وهنا يمكن لمزروعات البحر الأبيض المتوسط التقليدية أن تزدهر .

ولكن ما ان نجتاز أوائل الحواجز الجبلية ، حتى تفرض القحولة نفسها في هضاب الكاروتاماً ، كما نجد في الهضاب الجزائرية المرتفعة ، إذ لا نجد هنا سوى نباتاً سهبياً ، وتتحول مجاري المياه إلى أودية حقيقية ، لا تجري إلا بصورة عَرَضِيّة كي تصب في منخفضات هي مستنقعات ملحية تماثل الشطوط في المغرب العربي أو السبخات في المشرق . .

أما ناميبيا فتخضع لجفاف يماثل جفاف سواحل موريتانيا ، وهكذا يكون الساحل الأطلنطي أسوأ حظاً أيضاً حيث نجد صحراء ناميب . فوق تيار مياه بنغويلا البارد ، يكون التبخر ضعيفاً للغاية ، كما تتكاثف رطوبة الهواء القادمة من عرض البحر على شكل ضباب ، ولهذا تقتحم الرياح الغربية إقليم ناميبيا على شكل هواء مجفّف . وتمتد صحراء كالا هاري على مساحة تبلغ نصف مليون كيلومتر مربع ، وهي حوضّة داخلية تسير نحو التجفّف .

لا نجد هنا أشجاراً منعزلة في هذه السهول ، حيث تقوم الرياح بزيادة القحولة استفعالاً ، وكذلك بسبب قساوة الشتاء وشدة قيظ الصيف . كما أن النبات العشبي ذاته يشكو من ذلك ، فلا نجد سوى باقات من أعشاب جافة سرعان ما تتحول إلى اللون الرمادي ، الذي يماثل لون التربة الهزيلة التي تحملها . والنباتات الوحيدة التي تبدو متوائمة مع هذه الأوضاع هي الفرييونيات ، والنباتات الشحمية الأخرى ، والتي تقع في ظل الحجارة والقشرات crusts ، لتحمي نفسها من التبخر بدرعها الشوكي . ولم ندخل بعد في الصحراء ، بل ما زلنا في هضاب الكازو ، وهي عبارة زنجية تحولت إلى اسم مميز لهذه المناطق .

ويؤلف نهر أوكافانغو القادم من مرتفعات أنغولا ، هنا دلتا ، داخلية . وكان يفدّي في القديم بحيرة نغامي التي كانت أكثر اتساعاً لدى اكتشافها على يد ليفنغستون في ١٨٤٩ ، مما هي عليه الآن ، إذ أصبحت بقية باقية من بحيرة تعادل بحيرة تشاد . ويؤلف المجرى الأدنى لنهر أوكافانغو متاهة معقدة من أذرع ومن أذرع كاذبة ، وتكون حافاتها بعد موسم الأمطار مأهولة بالزرافات والنعام ، ولكن الجفاف يحولها إلى غدران تننة ، تحوم حولها سحب من البعوض تنشر الحميات الرهيبة . ويجري المجرى الرئيسي مياهها لتفيض في مستنقعات مالحة ذات سراب خداع .

ج . ويلرس

أما على المناطق الشرقية من جمهورية جنوب أفريقية فتتغير الأوضاع المناخية بشكل جذري ، إذ تحمل إليها رياح الشمال الشرقي ، وهي موسميات الصيف الجنوبي ، ورياح الأليزة (التجارية) الجنوبية الشرقية ، المستفحلة بالشتاء ، تحمل إليها هواءً مدارياً مشحوناً بالرطوبة بفصل التيارين الدافئين وهما تيار موزمبيق في الشمال الشرقي وتيار الإبر في الجنوب . وهكذا يكون

لسهول الناتال الغزيرة الأمطار نبات مداري وغابات كثيفة ، تصعد لتسلق مرتفعات دراكنسبرغ المؤلفة من عقبات abrupts حادة .

أما على هضاب الأورانج والترانسفال المرتفعة فتقوم الفوارق الحرارية ، بالإضافة إلى قلة الأمطار ، على جعل الأحراج عبارة عن دغلات غابية صغيرة تطوّق المرتفعات الصغيرة المسماة كوجيس Kopjes ، أو تستقر في قيعان الراند Rands . أما في المناطق الأخرى فينتشر القلد Veld الرتيب ، وهي المروج الخضراء أو الرمادية حسب الفصل . غير أن القلد يتحول في المناطق المنخفضة الأكثر حرارة ، والواقع على تخوم الترانسفال الشمالية الشرقية ، إلى سافانا مشجرة . وهنا تقع حديقة كروجر الوطنية الشهيرة .

ويمتد هذا البارك Parc على طول الحدود بين الترانسفال وموزمبيق على مسافة ٢٢٠ كم ، ويغطي مساحة ٢٠٨٠٠ كم^٢ أو ضعف مساحة لبنان . ويمكن للإنسان أن يتجول فوق شبكة الطرق الممتدة على مسافة ١٤٠٠٠ كيلومتر بالسيارة ، وأن يرى على مسافة بضعة أمتار من سيارته الأسود واللبوات التي لا تبدي أي أكتراث بالإنسان ولا بالماكنة التي تحملها . ويقصد هذه الحديقة ٤٠,٠٠٠ زائر في كل عام ، كي يأخذوا صوراً لمناظرها ، وكي يمنحوا أنفسهم وهماً بأنهم كادوا يلامسون ملك الحيوانات .

ج . آ . لوسور ١٩٥١

ثانياً : التطور الاقتصادي في جمهورية جنوب أفريقية

لقد احتلت جمهورية أفريقية الجنوبية مكانها بين الدول العصرية منذ مطلع القرن العشرين . وتدين بالكثير من نهضتها المدهشة إلى اكتشاف الذهب ، وكذلك أيضاً إلى استقرار البيض فيها منذ زمن قديم نسبياً وبوصولهم إلى القيلد .

ففي القرن السابع عشر والثامن عشر ، قدم معمرّون هولنديون انضم إليهم فيما بعد الهوغنوت الفرنسيون Huguenots ، وهم من أتباع مذهب بروتستانتية كالثني ، وألمان استوطنوا منطقة الكاب ، التي أصبحت تابعة لإنكلترا في عام

١٨١٥ . غير أن الكثير من المزارعين ومن مربّي الماشية البوير Boers ، وهم بروتستان من أتباع مذهب كالّفن المتشددين والمتميزين بحياة قاسية أبويّة ، رفضوا قبول الوصاية البريطانية ، وفي خلال القرن التاسع عشر ، انتشروا في الناتال ، الذي ضمته إنكلترا إليها في عام ١٨٤٣ ، وفي الأورانج الذي أصبح دولة حرة منذ ١٨٣٦ ، ثم الترانسفال الذي تأسس عام ١٨٤٤ . وقد أدت هجرات البوير إذن إلى استيطان أبيض في قلب الفيلد ، أي شمال نهر الأورانج ، وذلك قبل أن تحاول دول أوروبا الاستيلاء على داخل القارة السوداء .

وقد عمل البوير على مضايقة السكان الوطنيين ، أو طردهم كي يقيموا في أجود الأراضي ، إلى أن اعتبروا أنفسهم أهل جنوب أفريقية الحقيقيين ، كشعب أفريقي أفريكانر Afrikaner ، بينما كان المهاجرون البريطانيون في نظرهم عبارة عن دخلاء .

وقد أدّت حرب البوير التي استمرت من عام ١٨٩٩ و ١٩٠٢ إلى دخول الأورانج والترانسفال مع إقليمي الكاب والنتال في اتحاد جنوب أفريقية ، الذي نشر دستوره في عام ١٩١٠ وأصبح عبارة عن دومينيون بريطاني .

الاستيطان الأبيض وتجاوز أنماط الحياة :

لقد كان التطور الاقتصادي من صنع البيض وكان يتم لمصلحتهم وهم الذين لا يزيد عددهم عن ٥,٣ ملايين أو ١٧,٨ ٪ من مجموع السكان . وإذا كان الأفريكانر يسيطرون على أكثر الأنشطة الزراعية وتربية الماشية ، فإن الإنكليز يشرفون غالباً على التجارة والمناجم والصناعة . أما الزنوج وعددهم يقارب ٢٤ مليون ، والآسيويون من هنود وباكستانيين وسيلانيين ، وعددهم قرابة المليون ، فلا يحتلون سوى الوظائف الدنيا ، كخدم ، أو كعمال زراعيين ، وفي المناجم ، أو عمال في المصانع ، أو أصحاب حوانيت أو موظفين من الدرجة الثانية .

ولا يزال الكثيرون من الزنوج يعيشون ضمن قبائلهم حياة شبه بدائية ضمن محتجزات خاصة réserves ، أو حظائر بشرية .

وقد كتب جاك ويلرس ، الجغرافي الفرنسي الشهير ، في عام ١٩٢٤ يقول : تكاد تكون جغرافيتنا التقليدية هي جغرافية بيضاء فنجد أن أصغر قرية ، لا تضم أكثر من بضعة مئات من المعمّرين ، قد ذكرت بعناية على أطلالنا ، ولكننا نجهل حتى اسم القبائل التي تضم بضعة مئات الآلاف من الأنفس . ومع هذا فإن الجغرافيا السوداء هي التي تقفز أكثر من سواها إلى عيون السواح والسفّار .

فهنا في أراضي البيض ، نجد قرية أوروبية ، مؤلفة من مزارع قد تكون إنكليزية أو هولندية ، أو تقدم لنا التناظر المألوف والمميز في الأقطار الجديدة . فنجد الكنيسة وبرج جرسها ، والبلدية وساعاتها ، والعنابر ومزارع الأشجار المثمرة ، والكروم والمكائن الزراعية .

وعلى مسافة بضعة كيلومترات من ذلك نسقط في قلب بلاد قبائل الكافر Caffres ، ويكون تبدل اللوحة على غير انتظار ، حتى لتتصور أنفسنا في مشهد زنجي تم تشكيله بناء على رغبة أحد استوديوهات هوليوود . فنرى حول أكواخ الطين البائسة ، ذات السقف المخروطي المصنوع من القش ، الأطفال ذوي البطون المنتفخة يلعبون في جو من الغبار والعراء ، أما النسوة المؤترزات بالأقمشة الملونة فيذهبن إلى الينبوع ، وهن يحملن على رؤوسهن القرعات « اليقطين » التقليدية ، أو نراهن قابعات على الأرض وهن يجرشن بعناد حبات الذرة البيضاء القاسية بين ألواح حجرية منبسطة وخشنة .

الاستغلال الزراعي

لا تغطي الأراضي الزراعية أكثر من رقعة محدودة ، أو ٥ ٪ من رقعة البلاد ، بسبب الجفاف وضالة إمكانات الري .

فالنطاق الساحلي الضيق الواقع إلى الجنوب من إقليم الكاب ، يكون مقراً لزراعة متعددة غنية . فتنتج أكبر المزارع الأوروبية القمح المزروع بعلأ ، كما تسمح حقول البرسيم بقيام تربية ماشية حثيثة ، كحيوانات الذبح والأبقار الحلوبة . وقد بلغ إنتاج البلاد من القمح في عام ١٩٧٧ ١,٨ مليون طن ، كما بلغ

عدد الأبقار فيها ١٣ مليون رأس . غير أن كروم العنب ومزارع الأشجار المثمرة هي التي تمنح جمهورية جنوب أفريقية دوراً هاماً كدولة مصدرة للخمر ، لأن إنتاجها من الخمر بلغ ٦,٣ ملايين هكتولتر ، فضلاً عن الحمضيات والفواكه الأخرى ، والشوفان ١١٢٠٠٠ طن .

أما في الناتال فقد نظم البيض مزارع قصب السكر والتبغ وأنواع الثمار المستوردة كالأناناس ، كما نجحت زراعة الشاي فوق التلال ، ولما عجز هؤلاء عن تعبئة ما يكفي من الأيدي العاملة الزنجية المحلية ، استقدموا أيدي عاملين هنديين خلال النصف الثاني من القرن العشرين .

أما هضاب الداخل المؤهلة لتربية واسعة للماشية ، فوق مساحات شاسعة ، فنجد فيها نموذجين من أنماط الاستغلال الريفي :

يقوم الزوج ضمن محتجزاتهم ، من كافرين وزولو بزراعات غذائية إلى جانب تربية ماشية واسعة . ولا يملكون سوى وسائل بسيطة ، وتتألف قرام ، أي كراال Kraal ، من حلقة أكواخ ذات جدران مشيدة بالحجر الغشم ، ومتوجة بسقوف من قش ، بحيث تشكل رقعة مسورة يمضي القطيع الليل في داخلها . أما المزارع الأوروبية فتتصرف بمساحات واسعة ، في إقليم الكازو على الأخص . وتربي كل مزرعة منها بضعة آلاف من رؤوس الأغنام الجيدة الأصواف والتي ترعى في السهب ، ويحتاج كل رأس من الأغنام لمساحة نصف هكتار من المرعى . ويستخدم أصحاب المزارع رعاة من الزوج ، أو كخدم ، أو كعمال زراعيين مع عائلاتهم . ويقم هؤلاء الزوج في معزل ضمن معسكر يتألف من بضعة بيوت صغيرة غالباً ، أو على شكل دشرة hameau في حالة المستغلات الواسعة جداً . أما في السهب فتتباع المزارع بمسافة بضعة كيلومترات عن بعضها البعض . أما المدن الصغرى أو dorps فتتباع عن بعضها بمسافة ١٠٠ كيلومتر ، ويسكنها ما بين ٢٣٠٠ و ٤٠٠٠ نسمة ، وهي مراكز تجارية وإدارية وثقافية ، وهي عبارة عن واحات صغيرة لأن الري يتخذ فيها بعض الأهمية .

وهكذا نجد أن تربية الأغنام من عرق مرينوس تؤلف ٨٠ ٪ من القطيع الذي يقارب تعدادده ٣٢ مليون رأس ، مما يجعل من أفريقية الجنوبية دولة عالمية كبرى في تصدير الأصواف الناعمة التي يبلغ إنتاجها ١٥٠,٠٠٠ طن بالعام .

أما في الثلد في أورانج ، ولاسيما في ثلد الترانسفال ، فإن المزارع الأوروبية تكون قادرة على تخصيص مساحات أكبر من الأراضي للزراعة ، فهناك تنتج الذرة الصفراء التي يصل إنتاجها إلى ١٠ ملايين طن ، بالإضافة إلى القمح والتبغ والفواكه ، مثلاً نجد المراعي الاصطناعية مما يسمح بظهور تربية أبقار كثيفة .

الثروات المعدنية :

لقد كان اكتشاف الألماس ، ثم الذهب خلال أواخر عقود القرن التاسع عشر ، واستغلال اليورانيوم حالياً ، عبارة عن أحداث حاسمة بالنسبة لاقتصاد جنوب أفريقية ، لأن هذه الثروات المعدنية تقدم للبلاد الشطر الأعظم من العوائد ، وتجذب إليها الرساميل وتعجل عملية تجهيز البلاد . وتقع مناجم ألماس قرب كيمبرلي في إقليم الكاب ، وفي بريتوريا وفي الترانسفال ، حيث يستخرج من الصخر المحلي وحق أعماق كبيرة ، مقادير جسيمة من الفلزات التي تخضع للعديد من العمليات الصناعية (شكل ٣) . ويتطلب استغلال هذه المناجم توظيفات مالية جسيمة أكثر مما هو الحال في زائير ، حيث لاتعمل الورشات أكثر من جرف سماكات قليلة من اللحقيات . وهناك شركة بريطانية قوية هي شركة دوبيرز De Beers تشرف على سوق الألماس العالمية بفضل إنتاج جنوب أفريقية الذي



الشكل ٣

يغلب عليه الماس المجوهرات ، ويشكل ٦٥ ٪ من الاستهلاك العالمي ، وقد بلغ الإنتاج في عام ١٩٧٤ مقدار ٧,٥ ملايين قيراط و٧,٧ ملايين في ١٩٨٠ .

ولمناجم الذهب في الترنسفال دور أكثر أهمية . فهي تتطلب إنشاءات صناعية عظيمة وتستخدم جواهر غفيرة من العمال . وقد استطاعت أن تجعل من ويتواترستراند Witwaterstrand المشهورة باسم راند اختصاراً ، أول منطقة صناعية ، مثلاً جعلت من مدينة جوهانسبرغ التي يسكنها ١,٧٠٠,٠٠٠ نسمة ، العاصمة الاقتصادية لكل جنوب أفريقية . وتشكل خامات الذهب من نوع من خرسانة « صخر رملي » ذات حصباء مغلقة بملاط كوارتزي قاس جداً يضم وريقات وتبرتن ما بين ٥ غرامات و ١٠ غرامات بالطن الواحد ، و ٢٥ غراماً في أحسن الحالات . وترتصف هذه الكونغلوميرا على شكل عدة طبقات محصورة بين طبقات الحقب الأول ، والملتوية على شكل مقعر يتجه من الشرق إلى الغرب . ولما كان الأمر يستدعي استخراج الكونغلوميرا أو banket كان لابد من حفر آبار وأنفاق مناجم تهبط إلى عمق يزيد مرتين أو ثلاث عن أعماق مناجم الفحم في شمالي فرنسا . ويجب رفع خامات تزن ملايين الأطنان كل عام ، وتهشيها ، ثم طحنها ، واللجوء إلى عملية الغسل للتوصل إلى تركز الذهب أو تثبيته بعمليات إرجاع كياوية ، ومن ثم تصفية المعدن الثين في مصنع جرميستون الشهير ، قرب جوهانسبرغ والذي يعالج نصف إنتاج ذهب العالم . ويمكن تصور قدرة مثل هذه الصناعة والمشكلات التي يقتضي الأمر حلها ، وقد أنتجت جمهورية جنوب أفريقية في عام ١٩٧٦ ٧٠٠,٠٠٠ كغم من الذهب ، أو ٧٠٠ طن مقابل ٦٥٥,٧ طن في عام ١٩٨١ .

أما مشكلة الأيدي العاملة فقد أصبحت حادة ذلك أن مناجم الراند تستخدم حالياً قرابة ٢٥٠,٠٠٠ عاملاً منهم ٣٠٠,٠٠٠ زنجي . وقد أنشأت إدارة المناجم مؤسسة مشتركة تقوم بتجميع الشفيلة السود وتوزيعهم . وتوظف المؤسسة العمال بموجب عقد يمتد على ١٨ شهراً وسطياً ، وتوفر لهم الغذاء والسكن في مجتمعات compounds لا تكون بالضرورة عبارة عن ثكنات شنيعة . ويتبع الزنوج

بكل حريتهم في هذه المجمعات ، ولكن عليهم أن يخضعوا لنظام منع التجول ليلاً . ويأتي عمال المناجم السود من السافانا ومن أنحاء الجمهورية ، مثلما يأتون من الأقطار المجاورة ، ويتكلمون لغات شديدة الاختلاف . وفي منتصف ١٩٨٢ طردت حكومة جنوب أفريقية أكثر من ١٧٠٠٠ عامل موزمبيقي دخلوا البلاد بصورة غير شرعية للعمل فيها ، وغالباً ما يكون المنجم بالنسبة لهم أول فرصة للتماس مع المدنية البيضاء ، وبمجرد وصولهم تبدأ تهيمتهم لحياتهم الجديدة ، ويدربون على تعلم لهجة مساعدة ، ولكن أصبح تطويع العمال أكثر صعوبة ، لأن الأجور لازالت منخفضة ، ولا تزيد عن ٥ دولارات باليوم أو ٣٠ ليرة سورية تقريباً ، هذا علماً بأن أجرة العامل المخصص في اليابان والولايات المتحدة تتجاوز ٢٥ دولاراً بالساعة الواحدة . كما أن الصناعات التحويلية أصبحت توظف عمالاً من الزنوج بأعداد متزايدة ، فضلاً عن أن استقلال الدول المجاورة مثل أنغولا وموزمبيق جعل التعاقد مع العمال الأجانب أكثر صعوبة ومشقة .

كما أن مشكلات المردود تزداد استفحالاً ، هذا فضلاً عن أن نفقات التجهيز والاستغلال بلغت حداً جعلت تناقص نسبة محتوى الخامات تقود أحياناً لإغلاق بعض المناجم . وفي هذا الوقت أصبحت منطقة الراند القديمة ، الشرقية ، والوسطى والغربية ، تعطي أمارات النضوب ، وأصبح المردود في تناقص ويقتضي استخراج مقادير متزايدة ، وصلت إلى ٣ ملايين طن ، وكان محتوى الطن في حالتين يتراوح بين ٥ إلى ٦ غرامات بالطن .

غير أن فتح مناجم ذهب جديدة ، ذات مردود أفضل ، ولاسيما بعد أن جاء إنتاج اليورانيوم المستخرج من شوائب خامات الذهب ، ليفتح أمام شركات الراند منظورات وآفاقاً جديدة .

أما مناجم الفاروست راند وأورانج ، فقد بدأ التعرف عليها عشية الحرب العالمية الثانية أو فيما بعد . ويكون المحتوى من الذهب في خاماتها مرتفعة ، كما أن استخراج اليورانيوم يزيد أيضاً من الأرباح التي يمكن أن تحقّقها .

وقد كتب مراسل جريدة لموند الفرنسية بتاريخ ٢٧/١١/١٩٥٢ وهو نيدرغنف يقول : « قمت بزيارة أحد هذه المناجم التي يستخرج منها الذهب واليورانيوم ، ويطلق على المستغلة التعدينية اسم (المنظور المرح) ، والتي لا تختلف عن كثير من مثيلاتها في منطقة الراند ، وتتميز بشيلائها الباسمة التي يقطنها المهندسون و (بقريتها) الزنجية التي يعيش فيها ١٥٠,٠٠٠ عامل زنجي ، ومنشأتها السطحية التي لا تختلف كثيراً عن كثير من منشآت مناجم الفحم ، وعلى عمق ٢,٠٠٠ م يصبح الاختلاف على العكس محسوساً . فالحرارة تكون خائفة والرطوبة كبيرة جداً . وهناك ثلاث ورديات تتناوب العمل جغرافية الدول الكبرى (٥٠)

كل ٨ ساعات في أنفاق الاستخراج ، حيث تلمع المصاييح الجبهية التي يحملها العمال ، والتي تثير بريق الكوارتز الحاوي على الذهب . وهناك أنفاق أكثر عمقاً من ذلك حيث يعمل العمال في أعماق تصل إلى ٣,٠٠٠ م تحت الأرض .

وتمنح شدة الطلب على اليورانيوم أفريقيا الجنوبية مكانة جديدة في القضايا العالمية . ويبدو أن صادراتها من اليورانيوم أصبحت تعادل صادراتها من الذهب من حيث القيمة ، إذ بلغت مبيعاتها من هذه المادة ٤٠ مليون جنيه استرليني خلال عام ١٩٥٦ . والولايات المتحدة وكندا هما الدولتان الوحيدتان اللتان تنافسان أفريقية الجنوبية في هذا الإنتاج ، وكذلك جمهورية النيجر ، ولكن على مقياس أصغر بكثير . وبفضل العون المالي الذي قدمته الدولتان المشتريتان الرئيستان وهما الولايات المتحدة وبريطانيا استطاعت أفريقية الجنوبية بالفعل أن تجهز وتقيم المصانع التي تسمح لها باستخراج اليورانيوم في الوقت ذاته الذي تستخرج فيه الذهب وبلغ إنتاجها من اليورانيوم ٦٧٠٠ طن في ١٩٨١ .

ولما كان الإنتاج العادي المصحوب بإنتاج الذهب لا يسد الطلب ، فقد عمدت الشركات أيضاً للبحث عن اليورانيوم في أكاداس تلال النفايات التعدينية المسماة دامبس Dumps ، والتي اندمجت مع تقادم الزمن في طبيعة المشهد الجغرافي ، ويعطي « استغلال البقايا » هذا فكرة عن المكانة التي احتلها إنتاج اليورانيوم إلى جانب استغلال الذهب .

وهناك مستغلات أخرى تنتج الذهب بكميات زهيدة ، كما في الترنسفال الشمالية ، والألماس من ناميبيا ، وتحتل جمهورية جنوب أفريقية الدرجة الثانية في العالم في إنتاج البلاتين بفضل مناجم الترنسفال .

وإلى جانب ذلك أنتجت جنوب أفريقية في عام ١٩٨٠ قرابة ١٨,٤ مليون طن من خامات الحديد و ١٨٥,٠٠٠ طن من النحاس ، و ٥٢٥٨ طن من المنغنيز ، و كمية من المانيزيت ، و ٣٨٠ طن من الأميانت و ٢٩٠٠ طن من القصدير .

هذا وتملك جنوب أفريقية شبكة خطوط حديدية تعتبر أكثف وأنشط شبكة في القارة السوداء . كما أن موانئها مؤهلة لحركة تجارية واسعة . ويخدم ميناء دربن الذي يضم ٥٠٠,٠٠٠ نسمة إقليم الترنسفال ، الذي يجد مصرفاً لسلعه

في ميناء لورنزوماركيز في موزمبيق . أما ميناء پوراليزابت وفيه ٤٥٠ ألف نسمة ، فيقوم بتصريف أصواف منطقة الكارو . وتحتل مدينة الكاپ وفيها ٢,٥ مليون نسمة موضعاً ممتازاً لتوقف السفن التي تمر من رأس الرجاء الصالح ، وكذلك بالنسبة لكل تجارة أفريقية الجنوبية ، وقد استفادت كثيراً من أزمة إغلاق قناة السويس بعد حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ بين العرب والكيان الصهيوني .

وتبدو النهضة الصناعية في جمهورية جنوب أفريقية سريعة جداً ، ذلك أن إنتاجها من الفحم الحجري الذي يناهز ١١٥ مليون طن يؤمن شطراً لا بأس به من إنتاج الكهرباء ، أو ٩٥,٧ مليار ك و س في ١٩٨١ ، لأنه يتعذر تنمية مواردها من الطاقة الكهربائية في الناتال وفي إقليم الفال Vaal والتي تؤلف ٢٪ لا غير . وإذا كانت البلاد تفتقر للنفط فإن صناعة الحديد في تقدم ، إذ تقع مناجم حديد قرب بريتوريا وتؤمن حاجات مصانعها الحديدية التي تنتج ٨,٧ ملايين طن من الفولاذ ، مقابل ٢,٤ مليون طن فقط عام ١٩٦٠ . هذا وتعالج خامات النحاس التي تستخرج من إقليم الكاپ ومن ناميبيا والذي يبلغ إنتاجه ١٧,٠٠٠ طن ، والكروم التي تقع مناجمه في الترنشفال ، والذي يبلغ إنتاجه ١٠٦٩ طن وتحتل بذلك المرتبة الثانية في العالم ، والمنغنيز من منطقة الكاپ وتعالجه في مصاهر محلية . ولدى هذه الدولة صناعات نسيجية ، وصناعة إسمنت تقدم ٧,٦ ملايين طن بالعام .

هذا وتصنع جنوب أفريقية حالياً قاطرات ومكائن وسيارات ، فضلاً عن الصناعات الغذائية والكماوية التي تتطور بسرعة . وتشمل الصادرات الصوفية على نسبة متزايدة من أصواف ممشطة أو مغسولة ، وتقوم مصانع پوراليزابت بغزل ونسج أصواف تسد حاجات السوق المحلية من الأقمشة ومن الملابس الصوفية .

هذا ولدى جمهورية جنوب أفريقية صناعة صيد بحري متقدمة لاسيما على

سواحل إقليم الكاب وسواحل ناميبيا حيث التيار البارد والهائمات «البلانكتون» ، وتصل كمية صيدها إلى ٦١١,٠٠٠ (١٩٨١) طن من الأسماك ،
مثلاً صادت ١٨١٧ حوت بالين في موسم ١٩٧٣ - ١٩٧٤ .

نمو المدن :

تقع مدينة جوهانسبرغ في الترانسفال ، وهي أكبر مدينة في جمهورية جنوب أفريقية ويسكنها حوالي ١,٧ مليون نسمة ، وهي عاصمة البلاد الاقتصادية ، ورابع مدينة في قارة أفريقية بعد القاهرة والاسكندرية والدار البيضاء . أما برييتوريا : فهي العاصمة الإدارية ويربو عدد سكانها على ٦٠٠ ألف نسمة . وهي أكثر هدوءاً وتتركز فيها معظم الهيئات السياسية والإدارية في الجمهورية .

لقد كانت جوهانسبرغ معسكراً تعدينياً تحول إلى مدينة عملاقة حديثة . فحول ناطحات السحاب الناصعة البياض في الوسط ، تقوم تلال نفايات المناجم terrills ، التي لاتتوقف عن التضخم والتعاظم . وتثور في أواخر الفصل الجاف ، أي في آب وإيلول ، عواصف رملية حقيقية تجتاح الشوارع المستقيمة . وقد قال أحد الظرفاء اللاذعين يوماً ما : « إن جوهانسبرغ هي المدينة الوحيدة في العالم التي يمكن للإنسان أن يصاب فيها بمرض الرئة الصواني دون أن يهبط إلى قعر منجم » . والواقع يعني هذا بالطبع نكتة مفرطة ، ولكن من الصحيح القول ان هذه التلال العالية المؤلفة من فضلات خامات الذهب المعالجة ، تطرح منذ فترة طويلة مشكلات عسيرة الحل أمام مهندسي المدن .

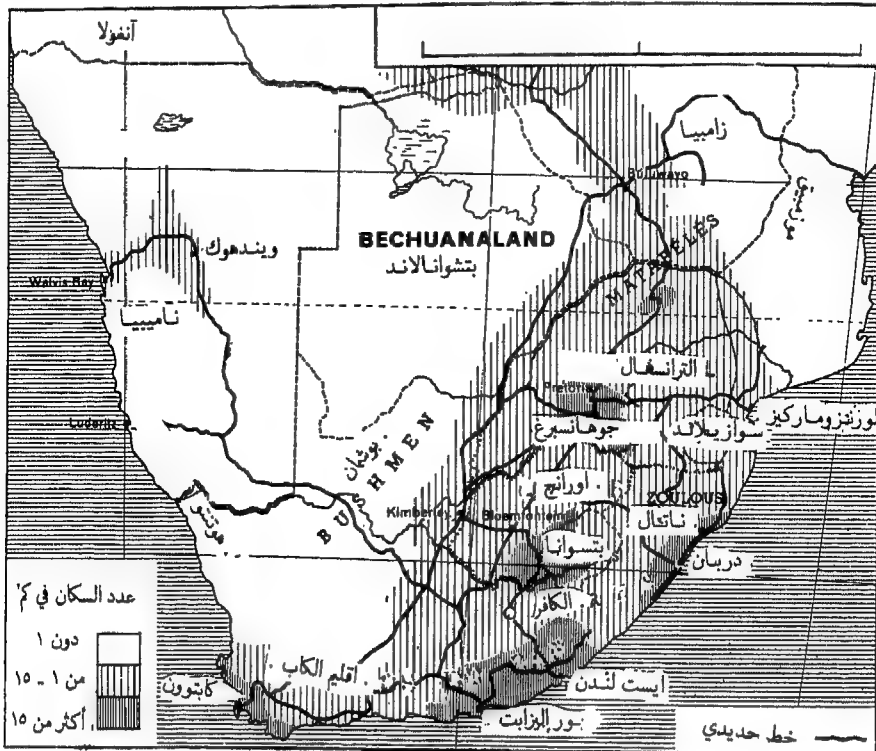
لموند : نيدرغنف ١٩٥٣/١٢/٣

أما في إقليم الناتال فتضم دربن قرابة ثلاثة أرباع المليون من البيض والسود والهنود . وتحوي مدينة الكاب ، وهي المدينة القديمة الاستعمارية التي تحتل موقعاً بديعاً ، حوالي ١,٢٥ مليون نسمة ، وهي العاصمة التشريعية ، ويسكنها البيض والزنج والماليزيون ونسبة عالية من الهجاء . أما بقية مدن جمهورية جنوب أفريقية مثل بوراليزابت وسكانها ٤٥٠ ألف نسمة ، وايست لندن وفيها

١٥٠ ألف نسمة في إقليم الكاب ، ومدينة كيمبرلي وبلومفونتين ويسكنها ١٦٠,٠٠٠ نسمة وهي عاصمة إقليم أورانج ، فتتوسع أيضاً رغم وظائفها الاقتصادية المحدودة نسبياً .

وتتقسم البلاد إدارياً إلى أربعة أقاليم هي : الكاب ، ناتال ، ولاية أورانج الحرة ، والترانسفال (شكل ٤) .

الاستيطان والمواصلات في اتحاد جنوب افريقيا



الشكل ٤

ثالثاً : المآسي الإنسانية في جمهورية أفريقية الجنوبية

يبدو أن قوم البوشمان وقوم الهوتنتوت ، الذين ينتسبون نوعاً ما إلى أقزام أفريقية الوسطى ، هم أقدم الذين استوطنوا أفريقية الجنوبية ، كما يعمل

اختلاط الهوتنتوت مع بيض منطقة الكاب ، في الماضي ، ومع الزواج فيما بعد ، وعمق بؤس البوشمان البدائيين ، على تلاشي هذين العرقين تدريجياً .

يعيش البوشمان في سافانا بتشوانالاند بصورة بائسة ويتغذون بنوع من بطيخ صغير وبعض الدرنات التي يقتلعونها من الأرض مع عدد قليل من رؤوس الماعز ويصطادون بالاستعانة بكلاهما بعض الحيوانات . ولا يعرفون الأكواخ بل يقطنون في كهوف كانت تسكنها الوحوش . ومع ذلك كان أجدادهم يعرفون فن الرسم على جدران المغاور ، وأصبح بعضهم رعاة ممتازين وحق صيادي بحر مهرة . ولكن المدنية التي يتحاشونها والتي تغلفهم ستقضي قريباً على الآلاف القليلة الباقية منهم .

« جاك ويلرس » .

أما البانتو الذين استوطنوا تدريجياً شرقي أفريقيا الشرقية ، فقد طردوا البوشمان والهوتنتوت نحو صحراءي كالا هاري وكارو . وجاءت أقوام شديدة المراس من البانتو ، مثل الكافريين ، والزولو ، والماتاييليه ، وقاوموا تقدم البوير ، الذي يؤلفون اليوم ثلثي البيض من سكان جنوب أفريقيا أو أكثر من ثلاثة ملايين ، مثلما تصدوا للتقدم البريطاني فيما بعد . ولا زال الكثير من هؤلاء الزواج يعيشون في المحتجزات ، ويؤلفون قرى « كرال » أو قبائل . ولكن أكثرهم يعيشون في تماس مع البيض وفي أوضاع متدنية .

ويظهر هذا الوضع الأدنى بشكل صارخ في قضايا السكن والمواصلات . وهكذا يقسر التمييز العنصري آلاف زنوج مدينة جوهانسبرغ على الانتظار خلال ساعة أو ساعتين عند « مواقف باصات الوطنيين » ، ريثما يصل الأوتوبوس الذي سينقلهم إلى حيهم البعيد ، في المدن أو المساكن التي تقيها البلدية لهم خصيصاً أو إلى أحياء القصدير ، التي تدعى مدن شانتي Shanty حيث تتنازع الأكواخ الكثيفة حتى مسافة ٢٥ كم عن المدينة الكبرى فوق الأراضي الجرداء .

هذا ويتقاضى الزواج الذي يقارب عددهم المليون ، من الذين يعملون في الصناعة ، أجوراً أفضل نوعاً ما من ٥٠٠,٠٠٠ عامل منجم ، بيد أنهم لا يتمتعون بالسكن ولا بوسائل النقل . ولكنهم جميعاً ينالون أجوراً تقل عن زملائهم البيض . ويعمل الزنوج كعمال زراعيين أو كخدم ، ويبعدون عدد الخدم الملونين في أفريقيا الجنوبية مدهشاً ، ويعيشون في أوضاع لا تختلف في شيء عن أوضاع الرقيق .

ويؤلف الآسيويون والهجناء أقلية لا تشعر بأنها أقل من الزوج قهراً وإذلاً . ويجتمع الهنود في الناطل ، ويقارب عددهم النصف مليون ويشكلون ٣٪ والصينيون ٢٠ ألفاً ، وماليزيو الكاڤ ١٢٠,٠٠٠ نسمة ، كما لا يستطيع هجناء الكاڤ الذين يقارب عددهم المليون ونصف أن يحتلوا أكثر من وظائف ثانوية . ولما كان الآسيويون عبارة عن منافسين للأوروبيين في المجال التجاري ، فقد صدر قرار في عام ١٩١٥ يحول بينهم وبين دخول البلاد .

انقسام البيض :

لا تزال الخصومة بين الأفريكانر وبين بريطاني جنوب أفريقية قضية قائمة وإن كان الطرفان متحدين في عدائهم وازدراثهم للملونين . ولقد استطاعت حكومة الجمهورية أن تضع على قدم المساواة اللغة الأفريكانية المشتقة من الهولندية ، واللغة الإنكليزية ، وذلك في عام ١٩١٠ ، كما استطاعت أن توجد راية وطنية تفرق إلى جانب العلم البريطاني في ١٩٢٧ ، مثلما تمكنت من التصرف بذهبها بحرية ، دون أن تتعلق بلندن في ١٩٤٧ ، ومع ذلك استمرت المطالب « القومية » ، وذلك قبل أن تنفصل نهائياً عن رابطة الكومونولت البريطاني بسبب مشكلة التمييز العنصري .

ويحتل الأفريكانيون مكانة متزايدة الأهمية في الدولة دون التخلي عن نفسيتهم المتفردة .

وإذا كان لا يزال الناس الأصل الإنكليزي يلعبون دوراً مسيطراً في الاقتصاد ويستحوذون على ٨٠٪ من الثروة القومية في أفريقية الجنوبية ، فإن تفوق الأفريكانر العددي هو البارز ، لأنهم يؤلفون ثلثي البيض . كما يتمتعون بشدة توالد تزيد دوماً في نسبتهم المئوية في مجمل السكان ، مثلما يتميزون باستعمال اللغتين الإنكليزية والأفريكانية ، في حين أن الإنكليز لا يرتضون لأنفسهم تعلم الأفريكانية التي لا تصلح للاستعمال في خارج البلاد ، كما أن لهم ثقة شبه صوفية بأن لهم الحق على هذه الأرض التي كانوا أول من استقر بها ، ويتوافدون في كل يوم بأعداد متزايدة للاستقرار في المدن وشغل الوظائف الإدارية والتوصل إلى المراكز العليا . غير أن المطالب التي ينادي بها أكثر الأفريكانر تطرفاً

تثير قلق إنكليز جنوب أفريقية ، وتشوش دوماً العلاقات السياسية في داخل الجمهورية . كما يكون لهاتين الجماعتين المتبذبتين من البيض موقفاً مختلفاً تجاه الهجرة الأوروبية ، فالبيض يحبذون قدوم الإنكليز ، بينما يرجح الأفريكانر مجيء الألمان والمولنديين .

هذا كما لا تخلو الرغبة في التوسع الأرضي من ضغوط خارجية معاكسة ، ذلك أن أفريقية الجنوبية لا تعترف بحق الأمم المتحدة في إدارة شؤون ناميبيا ، لأن جمهورية جنوب أفريقية تفضل إلحاقها تماماً بأراضيها ، حتى أنها لاحقت ثوار ناميبيا لداخل أراضي أنغولا في عام ١٩٨١ .

أما اليوم فقد أصبحت أفريقية الجنوبية جمهورية مستقلة تماماً ، حرة من أية علاقة سياسية مع المملكة المتحدة والكومنولث ، كما تبنت عملتها الوطنية وهي الراند ويزيد سعره قليلاً عن الدولار ، والذي حل محل الجنيه البريطاني .

التمييز العنصري :

لا يزال حاجز اللون ينوء بكلكله على حياة أفريقية الجنوبية . ففيما عدا الاحتكاكات التي لا غنى عنها بين البيض وأتباعهم الملونين ، فإن الأوروبيين يتجاهلون ويريدون تجاهل السود .

ويخشى الأفريكانر أكثر مما يخشى البريطانيون ، من نتائج الاندفاع الديموغرافي السريع جداً ، والذي يميز الجماعات الملونة . وإذا كان عدد البيض يناهز الخمسة ملايين تجاه خمسة وعشرين مليوناً من الزنوج ، ومليونين من الهجناء ، و ٦٠٠,٠٠٠ آسيوي ، ففي نهاية القرن قد يصل عدد البيض إلى ٦ ملايين ، مقابل ٣٥ مليوناً من الزنوج و ٤ ملايين من الهجناء ومليون آسيوي .

ترى هل سيتمكن المد الملون من إغرات المدينة الأوروبية في أفريقية الجنوبية ، كما يفكر البيض المتعصبون ؟ ولا يرى هؤلاء إلا حلاً واحداً لمشكلة تعايش العروق ، وهو التمييز الصريح ، أو نظام العزل apartheid .

وإليك فكرة أحد أعضاء الحكومة ، الذي كان في السلطة بين ١٩٤٨ و ١٩٦٠ : « ستقول لي انه ما از يتمدّن الملونون حتى يرفعون إلى رفض البقاء تحت وصاية البيض طبعاً ، ولكن لا يعني هذا أن علينا أن نتخلى عن حكم أفريقية الجنوبية أمام الملونين . أليس من الطبيعي أن يتسكّ البيض بالحفاظ على هويتهم ، وثقافتهم وعلى مكانتهم في هذه القارة ، وألا يتصوّروا احتلال طردهم أو تهجينهم ؟ »

وترمي سياسة العزل إلى إسكان كل عرق في مناطق متيزة ، حيث يمكنهم التطور حسب حركيتهم الخاصة بحيث تكون المدن مقسومة إلى أحياء موزعة حسب المجموعات العرقية المختلفة .

ولكن سياسة العزل التي تدخل حيّز التطبيق ستؤدي وتؤدي حالياً إلى تسميم العلاقات المتوترة بمجد ذاتها بين العروق القاطنة في أفريقية الجنوبية ، وستظهر بالضرورة ، في أعين الملونين ، كتعبير تعسّفي عن سيطرة البيض .

ففي جوهانسبرغ مثلاً اضطر ١٠٠,٠٠٠ نسمة من الملونين إلى الزواج عن مساكنهم تطبيقاً لقوانين التمييز . كما أن ستة مناطق حضرية مخصصة للبيض أصبح واجباً على السود أن يغلوها ، كما أن على ٢٢٠٠٠ هندي أن يتركوا دكاكينهم ومساكنهم لسكنى الحي المخصص لهم على مسافة ٢٠ كم عن قلب المدينة .

وهكذا تنوء مأساة العروق ، مأساة هذين « العالمين اللذين يتقابلان في الشوارع دون أن ينظر أحدهما في عيني الآخر » تنوء بثقلها أكثر فأكثر على مصير أفريقية الجنوبية أكثر مما تنوء على نجاحاتها المادية .

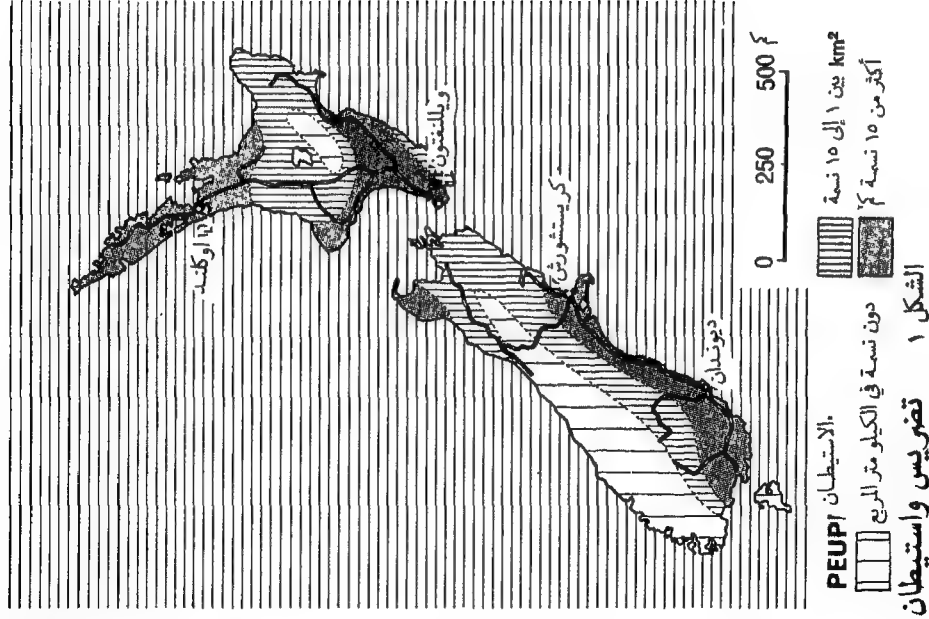
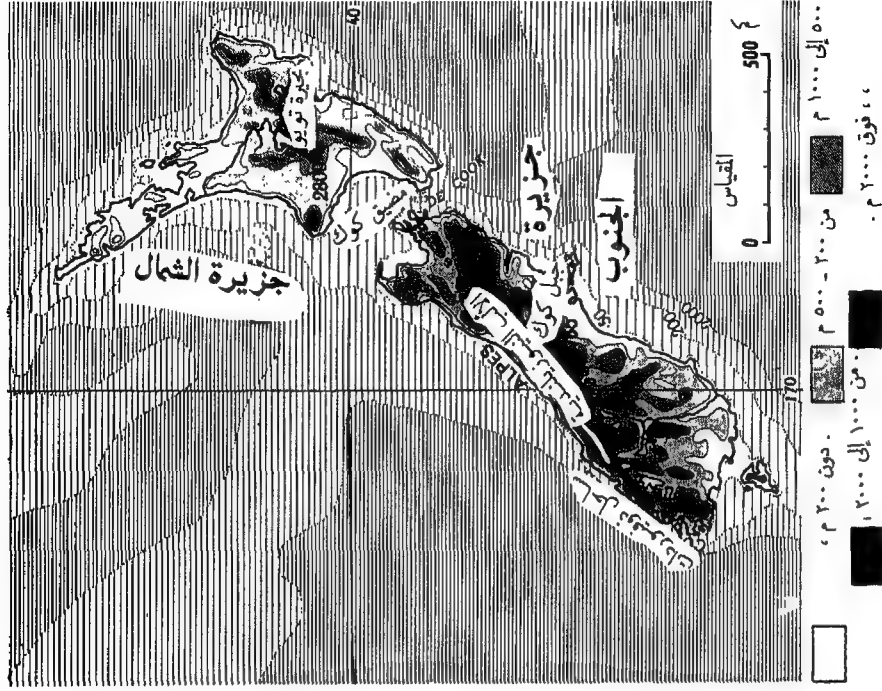
جمهورية جنوب أفريقيا في مطلع الثمانينات

يبدو وضعها عسيراً ، فبعد اضطرابات سويتو في ١٩٧٦ جاءت المشكلة العرقية الجديدة لتثير العنف والتفرد . يبدو أن مستوى معاش السكان البيض لم يكن في أي يوم مضى يثقل هذه السوية من الارتفاع . فقد انخفضت الضرائب ، وخفضت الضرائب على الأرباح من ٤٦ ٪ إلى ٤٢ ٪ ، وتوزع شركات تعدين الذهب أرباحاً سنوية تبلغ ٢٠ أو ٢٢ ٪ من قيمة الأسهم ، مثلما زادت الرواتب والمعاشات التقاعدية . ويتصف الميزان التجاري بفائض كبير بفضل ارتفاع سعر الذهب ولتحسن وضع الصادرات الأخرى كالنفط والكروم والنتفخيز . غير أن الوضع لا يخلو من الغيوم ، فيزانية عام ١٩٨٠ خصصت ١٢ ٪ زيادة على مصروفات الدفاع الوطني أو ما يعادل سدس الميزانية ، مثلما أدخلت زيادة على نفقات النقل والمناجم بموالي ٣٦ ٪ في حين خفضت القروض المخصصة للصناعة بمقدار ٢٢ ٪ . هذا

ويزيد قلق الأوساط الدولية بسبب مصاعب التمييز العنصري ، وراحت الاستثمارات المباشرة تنكش كما أصبح الحصول على القروض الخارجية أكثر صعوبة ، مثلما راحت الهجرة البيضاء من البلاد تتفوق على الهجرة إليها . كما أوقفت إيران صادراتها من النفط إلى جنوب أفريقيا تماماً بعد أن كانت أكبر دولة مصدرة للنفط لهذه الجمهورية . وقد انخفض المستوى المعاشي الإجمالي بصورة خفيفة خلال السنوات الأربع الأخيرة . ويستقر التضخم فوق ١٢ ٪ سنوياً ولا سيما وأن البطالة أصبحت أساسية بين الجماهير السوداء وبلغ عددهم المليون أو ٦٠٠,٠٠٠ في مناطق سكنى البيض ويتقدم في كل عام ٢٠٠,٠٠٠ شخص جديد لسوق العمل .

هذا كما يلاحظ وجود بطالة وافتقار إلى الأيدي العاملة الماهرة بين ظهراني البيض . وتبدو تبعية الطاقة خطيرة رغم العثور على بدائل ثانوية إذ لم يعد النفط يمثل سوى خمس الحاجات إلى الطاقة نظراً لتوفر الطاقة الكهربائية والفحم في مكان هامة . وهناك برنامج ضخم للتوسع في إنتاج الكهرباء فقد قامت ثلاثة مراكز طاقة حرارية وتمّ بناء سد في غرب مقاطعة الكاب . بيد أن النفط يظل مادة لا غنى عنها في مجال النقل والمواصلات والدفاع والزراعة . وعلى الرغم من التنقيب المكثف عن النفط لم يمكن العثور على أي بئر منتجة . وهكذا اضطرت البلاد إلى اللجوء لبعض التدابير ك شراء النفط من السوق الحرة بأسعار أكثر ارتفاعاً وإقامة غزونات استراتيجية تكفي لمدة ثلاثة أعوام على الأقل وربما خمسة وتقتن شديداً في ٧١ تهلاك اعتباراً من حزيران ١٩٧٩ واستعمال الفحم المسيل في مصانع ساسول Sasol لأن مصانع ساسول رقم ١ لا تنتج ٥ ٪ من الحاجة إلى الوقود السائل وقدم ساسول رقم ٢ ٢٥ ٪ في عام ١٩٨٠ لولا أنه تعرض لعملية تخريب ، ويتم بناء مصنعين مماثلين من النفط نفسه ، وأفريقيا الجنوبية هي القطر الوحيد في العالم الذي يمارس بانتظام إقامة هذا النوع من المؤسسات ، وتفكر البلاد في استعمال الإيثانول ethanol انطلافاً من منتجات نباتية كالذرة الصفراء والخشب والشوندر السكري . وهناك تفكير بالحصول على ما بين ١٥ و ٢٠ ٪ من الوقود السائل من إنتاج الميتانول والإيثانول مقابل ٤٧ ٪ انطلافاً من محروقات سائلة مستمدة من الفحم . وقد بلغ الإنتاج التمديني مستويات قياسية من الأسعار أو ١٢ مليار دولار (+ ٢٧,٥ ٪ عن ١٩٧٨) . ويعود هذا في معظمه للارتفاع المذهل في أسعار الذهب وهو المادة الرئيسة في صادرات جنوب أفريقيا . وقد بلغت المبيعات ٧ مليارات مقابل ٤,٥ في ١٩٧٨ وزادت أيضاً أثمان مبيعات الفحم ، الذي شهد ازدهاراً كبيراً منذ ظهور أزمة الطاقة ، وتصديرها إلى أوروبا والشرق الأقصى بحيث أصبحت جنوب أفريقيا ثاني دولة تصدر الفحم إلى فرنسا (٦٠٠ مليون دولار) ، وصادرات النحاس بقيمة ٢٣٣,٧ ملايين دولار ، ومبيعات ضخمة من الألماس على يد شركة دويبر De Beers بلغت ٦٧٠ مليون دولار . وتعتبر أفريقيا الجنوبية أكبر بلد مصدر للأقطار الغريبة بالنسبة للعديد من المواد الاستراتيجية كالنغز والكروم والأورانيوم . ويتمركز أربعة أخماس الإنتاج الصناعي في أربعة مراكز عمالية هي : جوهانسبورغ -

بريتوريا ، الكاب ، دربان ، بور الزابت . أما الزوج القاطنون بين ظهرا في البيض home lands والذين يؤلفون ثلث مجموع السكان فلا يقدمون أكثر من ٢,٥ إلى ٣ ٪ من الناتج القومي الخام . ويبذل جهد كبير في سبيل التخلص من مركزية الفعاليات الاقتصادية ولكن دون نجاح يذكر . وهناك رغبة لدى الحكومة في توسيع دور الدولة ولكن ذلك لا يحظى بالإجماع . وتعاني أفريقيا الجنوبية من تبعية كبرى في التجارة الدولية التي تمثل ٥٠ ٪ من الناتج القومي الخام (٢٥ ٪ مع اليابان ، ٤١ ٪ مع ألمانيا الاتحادية و ١٤ ٪ مع الولايات المتحدة) . وتبلغ نسبة التجارة الخارجية مع ستة أقطار أكثر من الثلثين وهي : المملكة المتحدة والولايات المتحدة وألمانيا الغربية واليابان وفرنسا وإيطاليا . وتتقدم ألمانيا بشكل مدهش في هذا المجال . وتصدر أفريقيا الجنوبية بالأساس الذهب والمنتجات الزراعية والمواد الأولية المعدنية والمنتجات نصف المصنوعة ، وتستورد سلع الاستهلاك بنسبة ٢٠ ٪ والمواد التجهيزية ٥٠ ٪ والمنتجات الخام وشبه المصنوعة ٣٠ ٪ . وتقوم في البلاد ٢٢٠٠ مؤسسة صناعية واستخراجية وزراعية منها ١٢٠٠ بريطانية أي النصف و ٤٥٠ ألمانية و ٣٥٠ أمريكية ولا تتجاوز نسبة مبادلاتها مع الأقطار الأفريقية ١٠ ٪ .



أستراليا ونيوزيلندا

لقد جرى إعمار قارة أستراليا وجزيرتي نيوزيلندا ، المنفصلتين عن بعضهما بمسافات محيطية يتراوح عرضها بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ كيلومتر ، والتائهة في قلب البحار الجنوبية ، والمتقاطرة antipodes مع قارة أوروبا ، على أيدي البريطانيين ، وذلك مند مطلع القرن التاسع عشر .

فعلى الرغم من الاستقلال الكامل لهاتين الدولتين ، فإن كلاً منهما يؤلف دوميينيون ناء ومنعزل ، ولا زالا أكثر أعضاء الكومونولث تشبثاً به ، ويؤلفان أكثر قواعد النفوذ البريطاني متانة فيما وراء البحار ، ذلك أن كلاً من أستراليا ونيوزيلندا يحتفظان بالسمة البريطانية بكل حذافيرها . وقد ساعد على ذلك عزلة السكان وطبيعتهم . غير أن الأستراليين والنيوزيلنديين يتميزون جميعاً بتعلقهم الغيور بالمدنية البريطانية ما داموا يخشون مغبة جوار الجماهير الآسيوية الكثيفة .

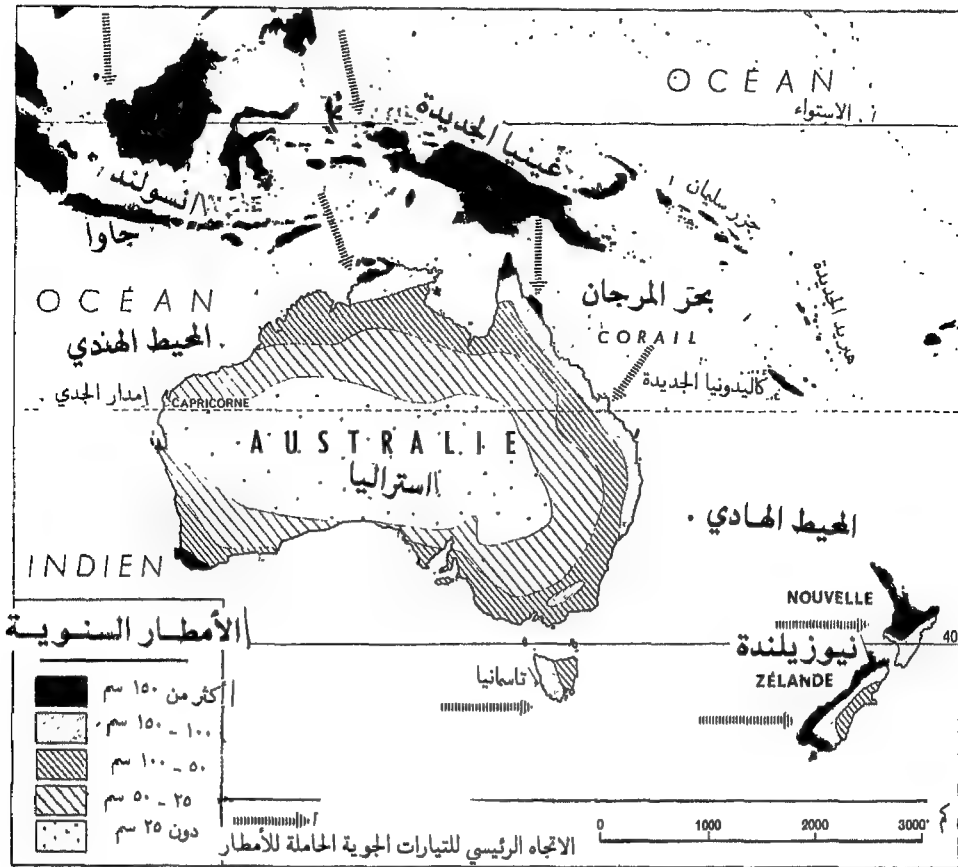
لقد اتخذت نيوزيلندا كل ملامح بريطانيا العظمى ، فتبنت كل تقاليدها ، حتى تلك العقلية التي أصبحت متراخية في إنكلترا القديمة ذاتها . ففي يوم الأحد يشاهد السائح فوق مروج الساحات البلدية ، وذلك في كل أرجاء الجزيرتين ، كيف ينهمك اتباع لعبة البولنغ ، ولاعي الكروكيت ، وهم بلباسهم الأبيض ، ويقبعاتهم المريضة ، في هذين النوعين من الرياضة التقليدية ، المريحة ، بجوار المزارع الصغيرة التي تمتد بجوار المدن ، مثل مدينة أوكلاند ، لمسافة ٥٠ كيلومتراً ، وذلك ضمن ديكور بريطاني بحت .

« ب . لوران »

أولاً : الشروط الطبيعية

أستراليا ذات القلب اليابس

الكتلة القارية الأسترالية : تكاد أستراليا بمساحتها البالغة ٧,٦٨٦,٨١٠ كيلومتر مربع تعادل مساحة أوروبا ، فهي أصغر القارات وأكبر جزيرة في العالم . فهي تمثل في نصف الكرة الجنوبي ، بين المحيط الهندي والمحيط الهادي ، كتلة قارية حقيقية ذات حواف صلبة ، ذلك أن السواحل فيها تكون فعلاً نادرة الفجوات الساحلية : (شكل ١ و ٢)



الشكل ٢

الوضع الجغرافي والمناخ في أستراليا ونيوزيلانده

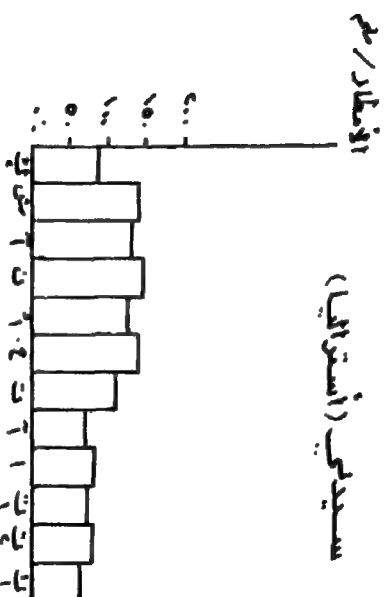
ففي الشمال الشرقي تؤلف أرصفة الحاجز الكبير المرجانية « جداراً » يمتد على طول ١٦٠٠ كيلومتر ، ويبتعد عن الساحل مسافة تتراوح بين ١٠ و ٢٠٠ كيلومتر ، ويتوسط خليج كاربنترى بين شبه جزيرة يورك شرقاً وشبه جزيرة أرnhem غرباً .

وفي الجنوب يظل الخليج الأسترالي الكبير شديد الانفتاح في حين يتسلل خليج سبنسر ، وخليج سان ثنسان بعمق أكبر في داخل الأرض . هذا ويقوم مضيق پاس بفصل أستراليا عن جزيرة تاسمانيا .

المناخ وقحولته : نظراً لوقوع القارة الأسترالية بين خطي العرض ١٠ و ٤٠ جنوباً فإن المدار يخترقها تقريباً من وسطها ، مثل وضع الصحراء الكبرى في نصف الكرة الشمالي . وهكذا تخضع لتأثير الضغوط العليا شبه المدارية والتي تفرض الجفاف على مثل هذه العروض ، ولا ينجم من هذه القحولة المهيمنة سوى المناطق الهامشية ، فتجلب الرياح الموسمية على شمال القارة وشرقها خلال الصيف الجنوبي هواء صادراً من جزر آنسولندة ومن بحر المرجان ، والمحيط الهادي . وهكذا يستفيد المناخ الحار ، من النمط المداري ، من فصل أمطار غزيرة . ولكن المناخ يصبح معتدلاً في النهايتين الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية ، وكذلك جزيرة تاسمانيا ، ذلك أن درجات العرض المحصورة بين ٢٥ و ٤٣ جنوباً ، بالإضافة إلى تأثير الرياح الغربية الكبرى Westerlies هي التي تفسر وجود فصل لطيف شتاءً ، وهطول أمطار محيطية (شكل ٣ و ٤)

ولكن يظل ثلاثة أرباع مساحة أستراليا في الداخل قاحلاً . فهنا يسجل الترمومتر درجات حرارة شديدة الاختلاف . فبينما يكون النهار شديد الحر تتعرض الليالي لبرد قارس وتكون الأمطار عبارة عن زوايع قصيرة تنصف بعدم وجود أي نظام لها .

الشكل ٤



منوزج المناخ : صيفي

المعرض : ١٥, ١٩ جنوب خط الاستواء

الارتفاع : ٢-٣

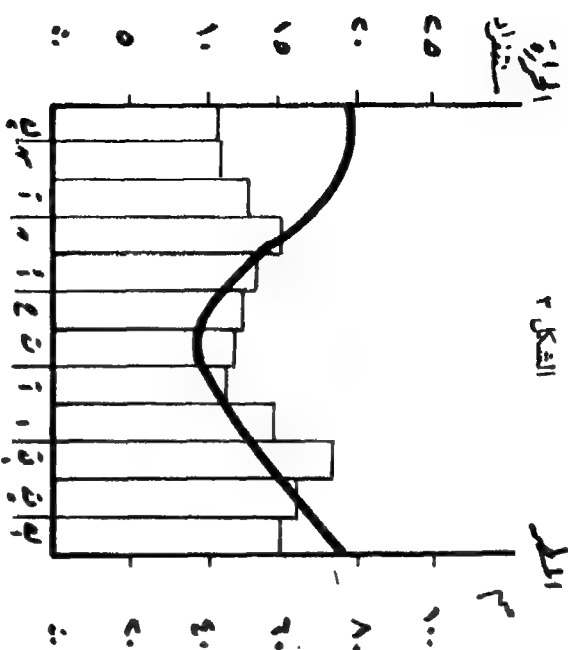
المعدل السنوي للحرارة : ١٧,٢

معدل أحرر شهر كانون ثاني ١٩,٩

معدل أبرد شهر تموز ١١,٢

الأمطار السنوية ١٢٦٥ مم

الشكل ٣



مركز سبيرة (استقيا)

مناخ برياني

الارتفاع ٤٠ م

المعرض ٤٧,٥ ج

معدل الحرارة السنوي ١٦,٧

معدل الأمطار السنوية ١٢٦٥ مم

ارتصاف التضاريس

هناك تاج من الأراضي المرتفعة يطيف بالمنخفض الأوسط ، ذاك هو شكل التضريس الأسترالي ، مما يساهم في استفحال جفاف الداخل .

وتتألف أستراليا من ركيزة قديمة ، تسترها غالباً صخور رملية ظلت تؤلف طبقات أفقية ، ولم تتأثر بأكثر من انعطافات خلال الحقب الجيولوجية ، فهي عبارة عن عتبة متفاوتة في ارتفاعاتها ، وهكذا لا تحوي أستراليا أية سلسلة جبلية حقيقية .

وتنبثق من هضبة أستراليا الغربية الفسيحة التي يتراوح ارتفاعها بين ٤٠٠ و ٥٠٠ م ، بعض سلاسل من مرتفعات تتجاوز الألف متر ، مثل جبال ماكدونل وموسغريث في قلب القارة الأسترالية . وفي الوسط تظهر سهول ركامية تحتل أطراف خليج كارينتاريا في الشمال ، ومنطقة بحيرة آيره ، التي تهبط عن سوية البحار بمقدار ١٢ م ، وعلى أطراف حوض دارلنغ . وقد عملت بعض الصدوع في هذا المنخفض المركزي على انبثاق الركيزة القديمة في بعض الأماكن ، مثل جبال فليندرز ، الواقعة في شمال مصب نهر موراي .

وتظهر في الشرق سلسلة الكورديلير الأسترالية ، المؤلفة من قبة من الصخور القديمة ، ذات خصرة شديدة الانحدار من طرف السهول الساحلية ، ولا يتخذ تضريسها بعض العنف إلا في الجنوب ، كما في الجبال الزرقاء ، وجبال سنوي حيث ترتفع إلى ٢٢٤٠ م في قمة كوسيو سكو ، وذلك بتأثير كسور حدثت في الحقب الثالث والتي تحكمت في توجيه جبل غامبييه ، ومضيق پاس وجبال تاسمانيا التي تسمو إلى ١٥٤٥ م ، من الغرب نحو الشرق .

المشاهد النباتية والهيدروغرافيا

يعمل المناخ والتضريس في أستراليا على حصر المناطق الرطبة والخضوضرة في

هامش ضيق . ففي هذه المناطق الواقعة في الشمال وفي الشمال الشرقي تنتشر غابات مدارية وسافانات ، أما في الجنوب الشرقي وفي الجنوب الغربي فنتشر مروج فوق السهول ، وغابات متدرجة فوق المرتفعات الغزيرة الأمطار . وهكذا تنحدر من الجبال الزرقاء ، ومن جبال سنوي أنهار جيدة التغذية أهمها نهر موراي وطوله ١٩٥٠ كم ، ونهر مورمبيدجي ، رافد موراي ، ونهر دارلنغ رافد موراي .

ولكن سرعان ما يأخذ النبات في الانحطاط والمزال باتجاه الداخل . وهنا ندخل مجال البوش busch ذي الشجيرات العقدية والقميئة ، مبعثرة فوق أرض متجففة ، دون عشب . وقد نصادف أيضاً مناطق أشد فقراً عندما يتفوق السكروب Scrub ، وهي دغيلات متراسة لا يمكن التوغل فيها ، مؤلفة من شوكيات عديدة الأوراق ، ولكنها مسلحة بأشواك تكون أحياناً سامة .

وإذا كانت البقاع المحرومة من أي نبات لا تحتل سوى القليل من الأمكنة فإن قلب أستراليا « الميت » يضم صحاري لا تقل رهبة عن أسوأ فيافي الصحراء الكبرى .

ويؤدي التبخر وتجفف التربة إلى الحيلولة دون وجود أي جريان مائي في الأودية . وهكذا تظل سرر الأودية creeks الحصوية جافة على الدوام تقريباً ، ولكن نجد على ضفافها نباتات شحمية تشهد على وجود الماء المتسرب نحو أعماق اللحيات alluvions . وهكذا تنهمر على أثر العواصف المطرية كميات كبيرة من المياه الوحلية في هذه الأودية الجافة وتجري لمسافة ١٠ أو ٢٠ كم وأحياناً أكثر من ذلك ، ولكن سرعان ما ينضب معين هذه الموجة العارمة . كما أن نهر دارلنغ نفسه ، الذي يتحدّر من سلسلة الكورديلير « السراة » الشرقية ، يفقد صبيبه الأصلي عند اختراقه المنخفض الأوسط ، وعند النصف الأدنى من مجراه لا يكون أكثر من وادٍ سيلي هزيل . وتنتهي الأودية الوقتية ، أو كريك ، في سهول تحجب تربتها الغضارية أحوال خطيرة والتي تكون منخفضاتها مشغولة بسبخات ذات ضفاف متبدلة .

ويعتمد سكان هذه المناطق على أغشية المياه الباطنية للحصول على الماء الذي لا حياة لهم

بدونه . وهكذا تم حفر ٤٠٠٠ بئر عميقة في الحوض الأرتوازي الكبير ، والتي تنتج ماء شديد التعتد لا تستسغ شربه سوى الحيوانات ، ولكن من أجل سقي المزروعات يجب الاعتد على أغشية مياه أقرب من سطح الأرض ، والتي تكون بالتالي ذات مخزونات محدودة ، لأنها عبارة عن احتياطات جيولوجية لا تتجدد على المدى القصير .

أرض غير مضيافة

لقد ظلت أستراليا المعزولة ، والخاضعة لشروط طبيعية غير موائمة ، ظلت حتى القرن التاسع عشر أرضاً بدائية لا تملك سوى القليل من الجاذبية أمام الإعمار والاستيطان .

وإذا كانت بعض النباتات المحلية مثل الأوكالبتوس^(١) والسنت تقدم بعض الموارد ، فإن الكثير منها كان ضاراً بالإنسان وبالتربة ، لهذا كان من الضروري أقلمة كل النباتات المزروعة تقريباً .

أما العالم الحيواني ، الوحيش ، الأسترالي الذي كان مقطوعاً عن بقية العالم ، فقد كان يحوي على بعض أنواع الثدييات الدنيا التي تلاشت منذ بضع عشرات الملايين من السنين من القارات الأخرى ، كالكنغر مثلاً . وهكذا اضطر أوائل المعمرين البريطانيين إلى استقدام الحيوانات الأهلية . غير أن هذه المبادرات لم تكن دائماً موفقة ، وهكذا تكاثرت الأرانب والكلاب بأعداد مذهلة في مناطق الدغيلات « بوش » حتى أصبحت تؤلف عنة مخيفة أمام تربية الأغنام .

إذن كانت أستراليا ، أكثر من أية بقعة في العالم ، بلداً جديداً وكان على الإنسان أن يصنع فيه كل شيء .

لقد ظلت جزيرة الكنغر التي تمتد على طول ١٧٠ كم ، والتي تمتد في مواجهة خليج سان فنسان ، ظلت حتى أواسط القرن العشرين عبارة عن منطقة عاجزة عن توفير معيشة أكثر من ١٠٠٠

(١) ويسمى خطأ الكينا في سورية والكانور في مصر .

نسمة . فلم تكن تنتج سوى القليل من الشعير ، والقليل من صمغ المشاب ، والقليل أيضاً من دهن الأوكاليتوس . أما باقي نباتها فكان يماثل النجيل الذي تصنع منه الكناس . وظل المزارعون قابعين في سهول الطرف الشرقي من الجزيرة ، وهو الوحيد الحصب تقريباً . وكانت كل محاولاتهم لاستزراع المناطق الأخرى عرضة للفشل .

وعندما فكرت الحكومة ابتداءً من عام ١٩٤٥ في منح قطع من الأراضي للجنود المسرحين ، قررت أن تقيم مزارع جديدة فوق المناطق الشاغرة من الجزيرة ، ولكن العملية لم تكن ميسورة فقد اضطرت إلى اقتلاع أشواك العليق بواسطة سلاسل ضخمة تسحبها الجرارات ، وقامت الجرارات بتسوية الأراضي ، وأعقبتها الماريث التي غرست فيها سككها لمق نصف متر ، ثم تلتها عملية تمشيط الأرض لصنع الأتلام التي تلقت بذار نبات المراعي المقبلة ، وقامت طائرات عديدة بنثر أطنان الأسمدة فوق الأرض .

وهكذا أمكن استصلاح ٥٠,٠٠٠ هكتار وتم تمديد ٤٠٠ كيلومتر من السياجات لتحديد الحيازات الجديدة الممنوحة للمعمرين الجدد ، ولبناء حوالي ١٠٠ مزرعة نموذجية بكامل تجهيزاتها . وفي عام ١٩٤٦ أصبحت الجزيرة تؤمن المرعى لقطعان بلغ تعدادها ٨٥,٠٠٠ رأس ، وفي ١٩٥٢ أصبحت أعدادها ١٥٠,٠٠٠ رأس ولكن البرامج تستهدف رفع عدد القطيع إلى مقدار ٥٠٠,٠٠٠ رأس .

نيوزيلنדה

وتتألف الجزيرتان من قوس جبلي في المحيط الهادي الجنوبي ، ولا تزيد مساحتهما عن ٢٧٠,٠٠٠ كيلومتر مربع ، أي ما يعادل مساحة سورية والأردن . ولهذا لا يكون لهما الطابع القاري الذي رأينا في أستراليا ، التي تزيد مساحتهما أكثر من ٣٠ مرة عن نيوزيلنדה . وتنفصل جزيرة الشمال عن جزيرة الجنوب بمضيق كوك ، فتمتدان على شكل قوس طوله ١٥٠٠ كم ولا يتجاوز ٣٠٠ كم عرضاً في حده الأقصى . ويكون التضريس عنيفاً والمناخ رطباً مما يجعل الشروط الطبيعية أفضل بكثير مما هي في أستراليا .

وهكذا تنتصب في جزيرة الجنوب جبال الألب النيوزيلندية وهي سلاسل من أعراف ومن جموديات عند حافة الساحل الغربي الذي يبدو مفرّضاً بالفيوردات ، ويصل ارتفاع هذه السلسلة ذات التكوين الحديث إلى ٣٧٦٥ متراً

في جبل كوك . وتطل سفوحها الشرقية على بحيرات قابعة في قعر الأودية
المجودية السابقة ، هذا فضلاً عن سهول ساحلية تتفاوت في اتساعها .

أما جزيرة الشمال ، أو الجزيرة « المدخنة » كما يسميها السكان الوطنيون من
المأووري Maoris فقد انتابتها انكسارات حديثة جداً ، لا تزال قادرة على الحركة
في أعقاب الزلازل . ونجد بين الحافتين الجبليتين ، في الشرق وفي الغرب ، حفرة
متوسطة تحتلها بحيرة توپو ، وتضم عدداً من البراكين النشطة ، وبراكين وحل ،
ونافورات مياه حارة geysers .

هذا وتسكب الرياح الغربية على الجزيرتين مقادير ضخمة من التهطالات
الغزيرة مع حد أقصى شتوي نظراً لهيمنة المناخ المعتدل المحيطي . غير أن الجزيرة
الشمالية التي تقع على درجة عرض تماثل البرتغال في نصف الكرة الشمالي تتصف
بصيف حار وبشتاء عذب وتختلط في نبات غاباتها عناصر رومية « متوسطة »
كالسنديان مع نباتات مدارية كالنخيل .

أما جزيرة الجنوب ، ذات الصيف اللطيف الحرارة ، والشتاء الواضح ،
فتكون ذات جبال مستورة بالمخروطيات ، في حين تتلقى السهول الشرقية ،
الواقعة خلف حاجز جبال الألب النيوزيلندية المكثفة للأمطار ، أقل من متر
واحد من المطر السنوي ، وتنتشر فيها المروج العديمة الأشجار .

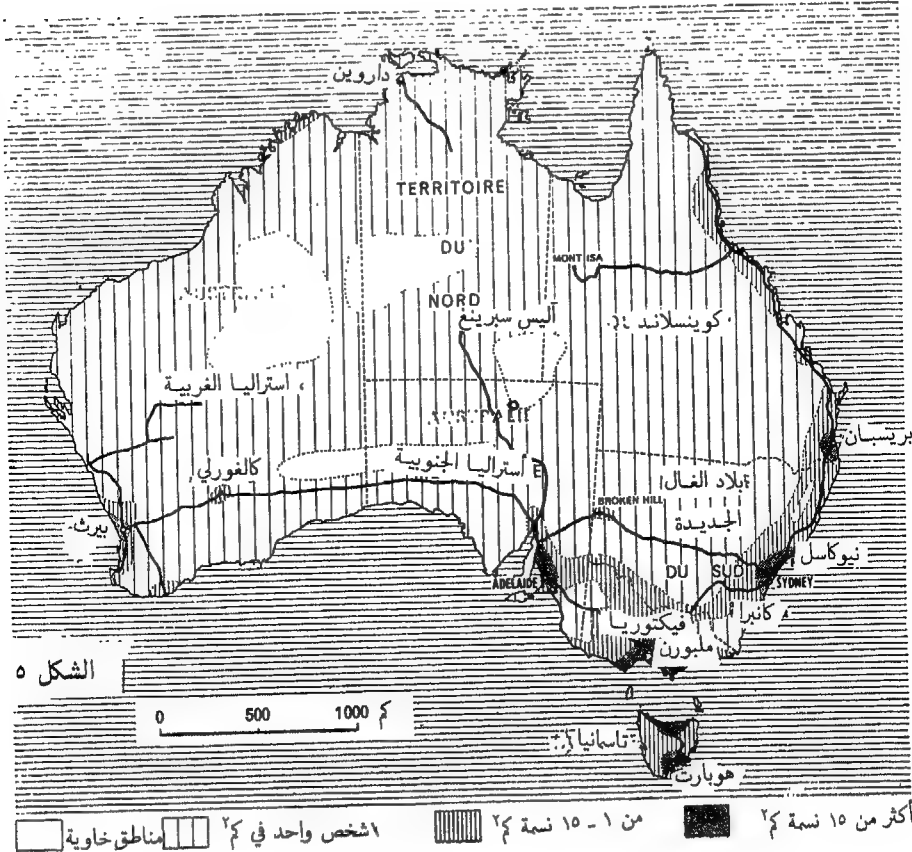
ثانياً : السكان والاستيطان

يتجاوز عدد سكان أستراليا حالياً ١٥ مليون نسمة ، وكانوا حسب تقديرات
١٩٧٧ ، ١٤ مليوناً و ١٢,٩ مليوناً بعد إحصاء شهر آذار ١٩٦٢ ، في حين يبلغ عدد
سكان نيوزيلندا ٣,٥ ملايين نسمة ، وكانوا ٣,٢ ملايين في عام ١٩٧٧ و ٢,٤
مليون في ١٩٦١ .

وتكون ندرة الناس فوق هذه الأراضي ، حيث لا تزيد الكثافة الأسترالية

عن شخصين في الكيلومتر المربع ، مقابل ١٢ نسمة في نيوزيلندا ، تكون محسوسة أكثر لشدة التناقض القائم بين سكان الأرياف المتخلخلين والمبعثرين ووجود مدن كبرى في أقصى توسعها وازدهارها (شكل ٥) .

استيطان استراليا والخطوط الحديدية الرئيسية



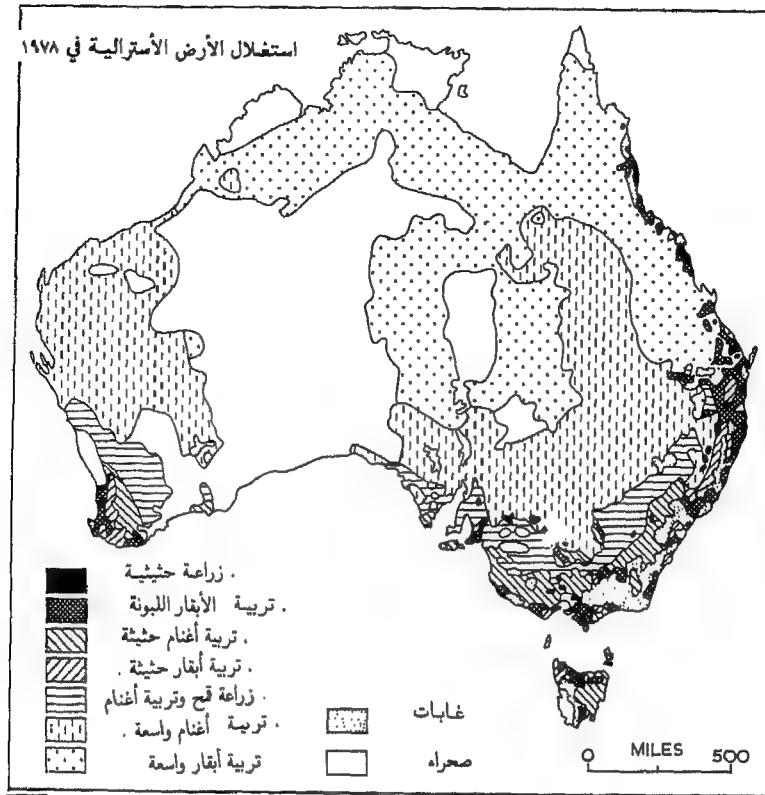
ففي استراليا لا تزال مساحات شاسعة في قلب القارة خاوية من السكان . أما مناطق تربية الماشية الواسعة extensif التي تغطي معظم مساحة البلاد فلا تتجاوز الكثافة فيها شخص واحد في الكيلومتر المربع . بيد أن سيدني تضم أكثر من ٣ ملايين نسمة مقابل ٢,١ مليون قبل عشرين عاماً ، وملبورن ٢,٢ مليون ، بريسيبان ٧٠٠,٠٠٠ ، وأديلايد ٩٥٠,٠٠٠ نسمة ، وپرت

٨٠٠,٠٠٠ ، وهوبارت ١٧٥,٠٠٠ . وهكذا تستأثر عواصم الولايات الأسترالية بحوالي نصف سكان القارة (شكل ٦) .

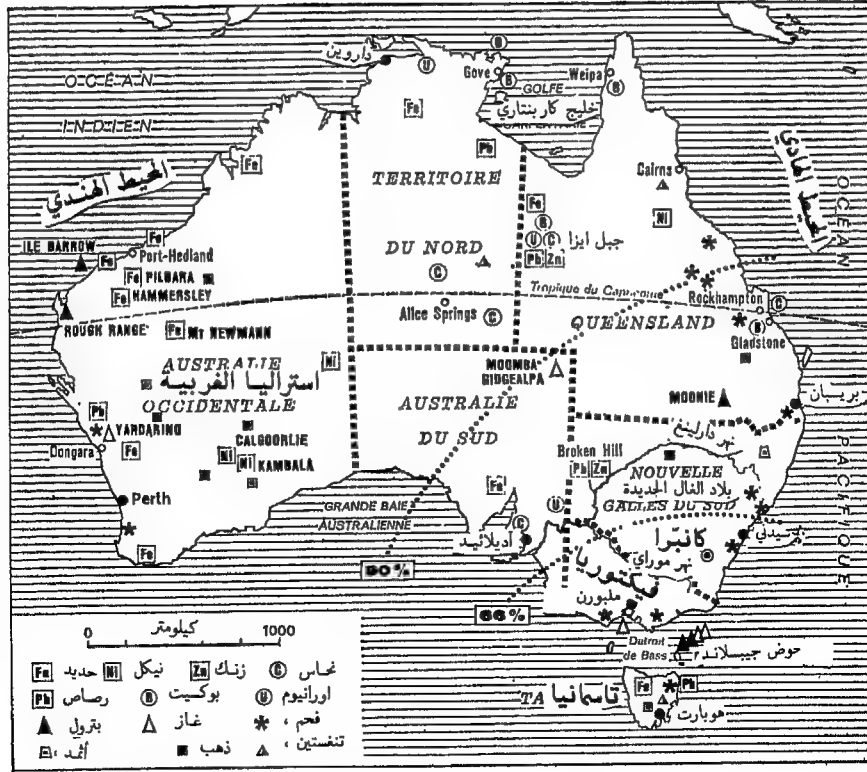
هذا ويحوي جنوب شرق الجزيرة مع العاصمتين المتنافستين ، أي سيدني وملبورن وفيها ٢٥٠,٠٠٠ نسمة ، مع أكثر المناطق الزراعية استغلالاً ، ثلثي سكان البلاد (شكل ٧) .

وعلى كل تقسم البلاد إلى ست ولايات ومنطقة واحدة ودائرة واحدة .

١ - أستراليا الغربية : ومساحتها ٢,٥ مليون كم^٢ ، سكانها ١,٢ مليون ، عاصمتها بيرث ، ومن المدن الهامة فيها فريماتل ٢٥٠٠٠ نسمة ، وكالغورلي ٢٢٠٠٠ نسمة ، وبونبورغ ١٦٠٠٠ نسمة .



الشكل ٦



الشكل ٧

نجد فوق هذه الخارطة مواقع أهم الثروات المعدنية . وإذا كانت المناجم مبعثرة فوق مجمل رقعة البلاد فإن السكان ، على العكس ، شديدو التركيز . لأن ٦٦٪ من الأستراليين يعيشون في مدن الجنوب الشرقي الأقصى و٩٠٪ في « القرن » المؤلف من ولاية فيكتوريا ، وبلاد الغال الجديدة وجزء من كوينزلاند ومن أستراليا الجنوبية

٢ - أستراليا الجنوبية : ومساحتها ٨٠١,٤٠٠ كم^٢ ، سكانها ٤,٥ ملايين ، عاصمتها سيدني ، ومن مدنها الهامة نيوكاسل ٢٦٠,٠٠٠ ، ولونفونغ ١٥٠,٠٠٠ ، سسنو ٣٧,٠٠٠ .

٣ - كوينزلاند : ١,٧ مليون كم^٢ ، يسكنها ٢,٣ مليون نسمة ، عاصمتها بريسمان ، ومن مدنها الهامة تونسفيل ٦٠,٠٠٠ ، توومبا ٥٥,٠٠٠ ، وايسويش ٥٤,٠٠٠ وروكهامبتون ٤٧,٠٠٠ .

٤ - فكتوريا : ٢٢٧,٦٠٠ كم^٢ ، وفيها ٣,٧٥ ملايين ، وعاصمتها ملبورن ومن مدنها الشهيرة جيلونغ ١٢٠,٠٠٠ ، وبالآرال ٦٠,٠٠٠ ، وينديغو ٤٤,٠٠٠ .

٥ - منطقة الشمال : ومساحتها ١,٣ مليون كم^٢ ، وسكانها ١٠٠,٠٠٠ نسمة ، عاصمتها داروين .

هذا وتصل نسبة التوالد الأسترالية إلى ١٧ بالآلف والوفيات ٨ بالآلف ، ونسبة وفيات الأطفال ١٤ بالآلف ويصل العمر المتوسط إلى ٧٢ سنة ، وترتفع نسبة سكان المدن إلى ٨٦ ٪ .

أما في زيلنده الجديدة فتكون الكثافات السكانية الوسطى أعلى مما هي في أستراليا ، غير أن جبال الجنوب ووسط جزيرة الشمال يظلان خاليين من السكان تقريباً ، ويعيش في مدينة أوكلانده ٨٥٠,٠٠٠ نسمة مقابل ٤٠٠ ألف قبل عشرين عاماً أو ٢٠٠,٠٠٠ في ويللنغتون العاصمة ، و ٣٥٠,٠٠٠ في كريستشورس ، و ١٣٥,٠٠٠ في دوندين ، أي يعيش في المدن ٨١ ٪ من السكان ، ولكن نصف السكان يتركزون في هذه المدن الأربع الكبرى .

وتبلغ نسبة توالد سكان نيوزيلنده ١٨ بالآلف ، مقابل ٨ بالآلف للوفيات أي بزيادة سنوية تعادل ١ ٪ أي يحتاج السكان لمدة سبعين سنة لكي يتضاعف عددهم ، ولكن يصل العمر المتوسط عند ٧٢ سنة مثل الأستراليين مقابل ٥٥ سنة وسطياً في الأقطار العربية .

ولقد ظلت أستراليا ونيوزيلنده حتى مطلع القرن التاسع عشر منعزلتين عن الطرق البحرية الكبرى وخاليتين من السكان فعلاً .

أما الأستراليون الأصليون ، فكان عددهم لا يتجاوز بضع عشرات الآلاف ، وظلوا في مستوى العصر الحجري ، ولا يحسب لهم حساب في تعداد سكان أستراليا ، ويقدر عددهم حالياً بحوالي ٧٠,٠٠٠ نسمة . ولا تزال تعيش في أراضي الشمال بعض مجموعاتهم حياة بدائية ضمن الأحراش ، أما في باقي المناطق فقد أمكن استخدامهم رعاة غنم . وقد وفدوا إلى هذه الجزيرة منذ ٤٠,٠٠٠ سنة من قارة آسيا نتيجة طردهم من قبل أقوام أقوى شكية أو نتيجة ضغط ديموغرافي . أما جماعات الماؤوري في نيوزيلندا فقد كانوا يقطنون الجزيرة الشمالية فقط ، وهؤلاء الوطنيون الذين ينتسبون إلى العرق البولينيزي قاوموا في البداية استيطان العمرين البيض الإنكليز . أما الآن فيشكلون أقلية صغيرة يبلغ تعدادها ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ، أو أقل من عشر السكان وأصبحوا يمثلون المدينة الأوروبية الحديثة بسرعة .

أما العنصر الأنكلوسكسوني : فقد وصل البيض الإنكليز لأول مرة لهذه البلاد بتاريخ ٢٦ كانون الثاني ١٧٨٨ بعد رحلة محفوفة بالأخطار استغرقت تسعة أشهر ، وعلى متن السفينة ١٠٣٠ شخصاً ، يتألفون من بعض الإداريين والجنود والباقي من المحكومين من رجال ونساء نتيجة جرائم صغرى أو جرائم سياسية ، حكم عليهم بالنفي لمسافة تزيد عن ٢٠,٠٠٠ كم عن وطنهم كي يقضوا في المنفى مدة تتراوح بين ٧ و ١٤ سنة أو مدى الحياة ، ثم تلاهم الباحثون عن الذهب الذين تدفقوا على البلاد حتى نهاية القرن التاسع عشر ، ثم سار على خطاهم المعمرون الذين اعتمدوا على تربية الماشية فوق الأراضي التي منحتهم الدولة دون سند تمليك أو squatters ، أو المزارعون الذين استأجروا أو اشتروا مزارعهم .

أما في نيوزيلندا فكان التشريع العقاري يشجع على إنشاء مزارع ذات مساحة متوسطة .

أما في أستراليا فلم يكن الكادسترو يغطي سوى رقعة صغيرة من مساحة

البلاد . ولكن يسمح لمحطات تربية الماشية أن تقوم فوق « أراضي التاج » وأن تمتد على مساحات تعادل مساحتها إحدى المحافظات السورية الصغرى .

وظل التطور الديموغرافي حتى عام ١٩٤٠ ناتجاً عن التزايد الطبيعي لدى السكان الأستراليين والنيوزيلنديين ، حيث كانت نسبة التوالد عالية نسبياً مع نسبة وفيات منخفضة ، بالإضافة إلى نسبة محددة من المهاجرين الذين لا يمكن أن يكونوا إلا من البيض . ولكن الأفضلية كانت للبريطانيين . ولما كانت رغبة الأستراليين والنيوزيلنديين في أن يظلوا من الشعوب البيضاء ذات المدينية البريطانية فقد منعوا أي هجرة آسيوية قد تؤدي إلى نشوء أقلية تعتبر غير قابلة للتمثيل وإلى تدهور الأجور ، وإلى انخفاض مستوى المعيشة . وقد استقدم الأستراليون بضع مئات من الأفغان عملوا في تربية الإبل التي كانوا بحاجة إليها لارتياح مناطق أستراليا الداخلية ، ولكن هؤلاء جاؤوا بدون نسائهم ، وتزوجوا من النساء الإنكليزيات فانصهروا ولم يعد لهم أثر حالياً .

وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، وبدأ خطر الاجتياح الياباني تراءى للعيان خطر قلة الاستيطان . وهكذا لجأت الحكومتان إلى تشجيع الهجرة إلى البلاد ، مع منح الأفضلية دوماً للأنكلوسكسون ، فاستقبلوا بترحاب أكبر الأوربيين من كل جانب مثل الهولنديين والألمان والطلبيان مع التشديد على تحقيق التمثيل السريع .

لقد استقبلت الحكومة الأسترالية منذ فترة ١٩٤٧ - ١٩٦٠ ما بين ١٥٠,٠٠٠ و ٢٠٠,٠٠٠ مهاجر في كل عام مما تجاوز وتيرة الهجرة بين ١٩٢٤ إلى ١٩٢٩ حيث كان معدل الهجرة السنوية يتراوح بين ٤٠,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠ نمة ، مثلما تجاوزت نسبة السنوات السابقة التي كانت أكثر ضعفاً ونسبة فترة ١٩٢٩ حتى ١٩٤٦ حيث كانت الهجرة متوقفة تماماً .

وهكذا تبدو الهجرة إلى أستراليا أكثر سرعة بمرتين مما كانت عليه الهجرة إلى الولايات المتحدة ، هذا إذا أخذنا نسبة السكان المقيمين بعين الاعتبار . فبعد أن كان عدد سكان أستراليا ٧,٦ ملايين في ١٩٤٧ قررت الحكومة رفع عدد السكان إلى ١٤ مليون نمة حوالي العام ١٩٧٥ ، أو بمعنى آخر مضاعفة

سكان البلاد في خلال جيل واحد وهذا ما أنجزته بالتام . والواقع أن مثل هذا البرنامج الجريء كان أمراً مفروضاً لأن أستراليا تفتقر للأيدي العاملة وتخشى نتائج اكتظاظ سكان قارة آسيا القريبة . ولقد صرح وزير أسترالي في الخمسينات قائلاً : « إن الهجرة على المستوى الذي اخترناه تبدو مخاطرة عظيمة ومغامرة كبرى ، ولكنها مخاطرة يجب التسليم بها إذا أردنا لأنفسنا البقاء » .

وفي ١٩٦١ كان عدد سكان أستراليا قد تجاوز ١٠,٥ ملايين . وراحت الهجرة إلى أستراليا تتزايد خلال الستينات بمعدل قدوم ١٠٠,٠٠٠ نسمة في العام مع حد أقصى بلغ ١٨٥,٠٠٠ نسمة في موسم ١٩٦٩ - ١٩٧٠ . ولكن كانت غالبية القادمين في هذه المرة من البريطانيين بسبب تعرض بلادهم لأزمات اقتصادية .

أما الهجرة الآسيوية ، التي كانت تمثل ٢,٥ ٪ من المهاجرين في ١٩٦٨ - ٦٩ ، فقد بلغت ٢٩ ٪ في عام ١٩٧٩ بعد تبني سياسة عدم التمييز في العرق واللون والقومية في ١٩٧٣ . وكانت هذه الظاهرة تشكل انقلاباً كاملاً في السياسة الرامية إلى قيام (أستراليا بيضاء) . ومنذ ١٩٧٠ أصبح الآسيويون يؤلفون أكبر زمرة من المهاجرين . وفي ١٩٦٩ طرح تدفق المهاجرين التساؤل التالي :

هل تستطيع أستراليا إدماج كل هذه الجماهير الوافدة ؟ هل يوجد ما يكفي من فرص العمل والمساكن ؟

وظهر الاهتمام بإمكانات النمو المستمر ، وباختناق المدن ، وبالتلوث ، وببنوعية المعيشة كما ظهرت الدعوة إلى تطبيق « قرائن » في اصطفاء المهاجرين .

وفي عام ١٩٧٥ - ٧٦ أدى رد فعل الحكومة تجاه الرأي العام وأمام تناقص في وتائر النمو الاقتصادية ومجالات العمل إلى هبوط عدد الوافدين إلى ٥٢,٠٠٠ نسمة وهو أدنى رقم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

بيد أن أستراليا تحولت مرة أخرى إلى أرض استقبال اللاجئين من آسيا ومن لبنان . ففي عام ١٩٧٩ وفد ٢٢,٠٠٠ لاجئ قدموا من معسكرات اللاجئين في تايلاند ، كما جاء ١٣,٠٠٠ نسمة من الذين هربوا من جحيم الحرب الأهلية في لبنان ، كما رحبت أستراليا بدخول اللاجئين من الأنغوليين ومن الأحباش ، ومن السوريين ومن يهود الاتحاد السوفياتي .

غير أن بعض الذين وفدوا على أستراليا لم يستقروا فيها نهائياً . فعاد بعضهم إلى بلادهم الأصلية لمسائل عائلية ، أو لتألمهم من الغربة ، أو لصعوبة توائهم مع البيئة الجديدة والانسجام معها ، ولكن يبدو أن ٨٠ ٪ من الذين قدموا منذ ١٩٤٥ اتخذوا من أستراليا وطناً لهم .

وقمارس نيوزيلندة سياسة مماثلة ، فقد استهدفت رفع عدد سكانها من ١.٧ مليون في ١٩٤٧ إلى أكثر من ٣ ملايين في ١٩٧٥ ، وهذا ما بلغته بصورة كاملة .

التنظيم السياسي والاجتماعي

تؤلف كل من أستراليا ونيوزيلندة دولة كاملة الاستقلال ضمن إطار الكومونولث البريطاني . وتشكل الولايات الأسترالية الست مع منطقة الشمال منذ ١٩٠١ الاتحاد الفيدرالي الأسترالي وعاصمته كانبرا ، وهي مدينة جديدة ، قامت في ناحية اتحادية ويسكنها ٢٥٠,٠٠٠ نسمة بعد أن كان عدد سكانها لا يتجاوز ٢٦,٠٠٠ في ١٩٦٠ .

أما العاصمة النيوزيلندية ويللينغتون فتقع في الجزيرة الشمالية على مضيق كوك الذي يفصل بين الجزيرتين .

ويفتخر الأستراليون والنيوزيلنديون بمستوى معاشي يمكن مقارنته بمستوى معيشة الأمريكيين . ويحتل هذان الشعبان الفتيان والنشيطان مكاناً متميزاً بين الأمم الديمقراطية والعصرية .

لقد تبنت نيوزيلندة منذ عام ١٨٩٨ - وهي القطر الذي سبق الوطن الأصلي ، أي بريطانيا ، وكل الأقطار المتقدمة في أوروبا - أقول تبنت مبدأ معاشات الشيخوخة وشملت كل مواطنها بسرعة بنظام الضمان الاجتماعي الكامل .

ولقد اقتبس البريطانيون أنفسهم من النيوزيلنديين عدداً لا بأس به من إصلاحاتهم الاجتماعية ، ولا سيما اشتراكية الطب . أما التنظيم العالي فهو متقدم جداً والانتساب إلى النقابات إجباري . أما نسبة عدد السيارات لعدد السكان فتحتل أستراليا الطليعة في الإحصائيات العالمية بحيث تقف على قدم المساواة مع الأمريكان .

المواصلات

تضطر كل من أستراليا ونيوزيلندة ، أكثر من أي قطر في العالم ، إلى التغلب على المسافات والتباعد . وكل المدن الكبرى هي عبارة عن موانئ . ويحقق

الأسطول البريطاني القسم الأعظم من الاتصالات البحرية ، ومع ذلك تملك
أستراليا أسطولاً تجارياً ارتفعت حمولته في عام ١٩٧٥ إلى ١,٢٠٥,٢٤٨ طنة . كما
طراً تطور عظيم على المواصلات الجوية مع أوروبا ، وأمريكا ، وآسيا .

وإذا كانت نيوزيلندة تملك شبكة كثيفة من الطرق الجيدة تمتد على
٩٢٠٠٠ كم ، ومن الخطوط الحديدية تصل إلى ٥٤٠٠ كم ، فإن أستراليا تشكو من
عجز شبكة طرقها التي تمتد على مسافة ٩٠٠,٠٠٠ كم وخطوطها الحديدية التي
لا تتجاوز ٤٢٠٠٠ كم (شكل ٨) . بيد أن الطائرة أصبحت فيها وسيلة النقل
المألوفة .

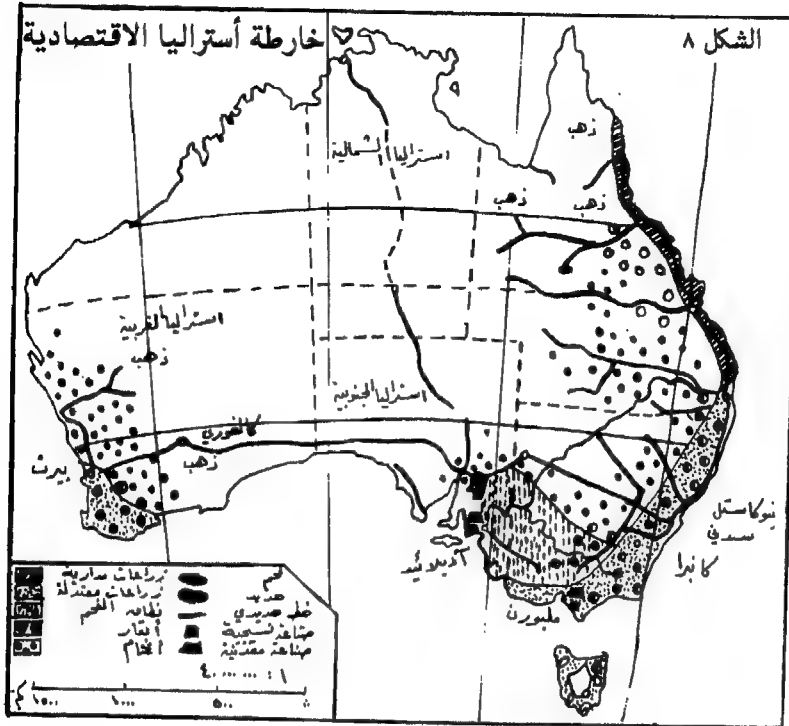
لقد تم مد السكك الحديدية بسهولة : وهكذا فإن الخط الحديدي الذي ينطلق من آديلايد إلى
برث يجتاز سهل نيلابور الصحراوي بخط مستقيم طوله ١٠٣١ كم . ولكن لم يتم بناء سوى زمرة من
خطوط نفوذ تنطلق من الساحل كي تبلغ المناطق الزراعية الرئيسية ، ومناطق تربية الماشية أو المراكز
التعدنية . وترتبط هذه الخطوط بواسطة الخط الأسترالي العابر للقارة الذي يربط العواصم الخمس
فيها بينها ، ولكنه يحتوي على أربعة طرق ذات مقياس مختلف . فقد أقامت كل ولاية طرقها الخاصة
دون أن تهتم بتنسيق على مستوى اتحادي « فيديرالي » . ويؤدي عجز الشبكة الحديدية إلى شلل تطور
بعض المناطق . ففي كوينزلاند مثلاً ، وخلال الجفاف الكبير في ١٩٥١ ، كانت آلاف الأبقار تنفق من
العطش ومن الجوع على مسافة بضع عشرات الكيلومترات من المراعي الطيبة ، والتي كانت شدة ضعفها
وهزالتها تجعلها عاجزة عن بلوغها سيراً على قوائمها .

وقد أخذت الطائرة على عاتقها نقل كل الركاب تقريباً ، إذ تقوم بين المدن الكبرى عدة
رحلات يومية ، مثلما يمكن طلب طائرات تكسي . وقد أصبحت الطائرة في مراكز تربية المواشي في
الداخل وسيلة الحياة التي لا غنى عنها ، وبفضلها يمكن الذهاب إلى المدينة المجاورة الواقعة على مسافة
٢٠٠ أو ٣٠٠ كم من المسكن . وفي حالة المرض يمكن استدعاء « الطبيب الطائر » بواسطة اللاسلكي ،
الذي يأتي لإسعافك في الحال ، كما يمكن ذبح المواشي علماً وإرسال لحمها بالطائرة ، وعوضاً عن خطوط
حديدية جديدة ، تعتمد أستراليا الآن أكثر فأكثر على الطائرة الشاحنة .

ثالثاً : التطور الاقتصادي

تؤلف نيوزيلندة مزرعة بريطانية ، في متقاطعاتها ، أي في الطرف المقابل من الكرة الأرضية . وتأتي أهم موارد نيوزيلندة من مزارعها التي تستغل ٦٠٪ من أراضي البلاد . وهكذا يقدم المزارعون النيوزيلنديون ، المجهزون بأدوات عصرية ، بالإضافة إلى قطيع جيد الاصطفاء ، تعمل تحت تصرفهم مؤسسات تعاونية ضخمة ، ويقدمون منتجات ممتازة قادرة على منافسة أفضل السلع الأجنبية في أسواق إنكلترا .

وهكذا تنتج الزراعة المختلطة mixed farming فوق أراضي السهول الغنية ، التي تقوم فيها زراعة المحاصيل المتنوعة والمروج الرعوية ، تنتج الحبوب والفواكه ، كالحضيات في الجزيرة الشمالية ، والتفاح في الجزيرة الجنوبية ، ولاسيما الحليب



وحوانات الذبح ، من أبقار وخنازير (شكل ٩) . أما فوق الأراضي الأقل جودة فوق التلال والجبال ، فقد تحولت المروج الطبيعية والأراضي المستصلحة إلى مراعي تحتل في نيوزيلندا مساحة تفوق المساحة المخصصة للزراعة بعشر مرات ، وتسمح تربية الأغنام الواسعة ، التي تكون غالبيتها من العرق المتصالب الذي يعطي الصوف واللحم في الوقت ذاته . وهكذا تشكل الأراضي المخصصة لتربية الماشية ٩٠٪ من رقعة الأراضي المستغلة .

وتضم البلاد ٩,٧ مليون رأس من الأبقار و ٥٦ مليون رأس من الأغنام و ٠,٥ مليون من الخنازير . وتنتج نيوزيلندا مقدار ٦,٥ ملايين طن من



الشكل ٩

توزيع الأبقار
في زيلندة الجديدة

كل نقطة في الشكل ترمز
إلى (١٠٠٠) رأس من البقر

الحليب ، و ٢٥٧٠٠٠ طن من الزبدة و ١٠٤٠٠٠ طن من الجبن و ٣١١٠٠٠ طن من الصوف وأكثر من مليون طن من اللحم .

أما زراعتها فتقدم حوالي ٥٠٠,٠٠٠ طن من القمح و ٤٥٠٠٠ طن شوفان و ٣٦٠,٠٠٠ طن من الشعير و ٢٥٠,٠٠٠ طن من البطاطا .

وبعد أن كان استغلال الغابة في الماضي تخريبياً أصبح الآن خاضعاً للتنظيم وأوجد صناعة خشبية نشيطة ، ولا سيما صناعة الورق في مدينة كاوران بالجزيرة الجنوبية وتقوم مصائد الأسماك الساحلية بدور لا بأس به في إنتاج الأسماك .

غير أن الموارد المعدنية في نيوزيلندا لا تسمح بقيام صناعة ثقيلة . وتنتج البلاد مقداراً من الذهب بلغ في عام ١٩٨٠ ٢١٨ كغم ، كما تنتج نيوزيلندا أكثر من ١,٥ مليون طن فحم وحوالي ربع مليون طن من فحم الليغنيت ، هذا فضلاً عن كمية من الفضة والتنغستين هذا كما تنتج نيوزيلندا أكثر من مليون طن من الأسمدة فضلاً عن ٢٠٠٠٠ طن من غزل الصوف .

بيد أن إمكانيات التجهيز الكهربائي تظل واسعة جداً ، ولا سيما في وسط الجزيرة الشمالية وفي جبال الألب بالجزيرة الجنوبية . ويناhez إنتاج نيوزيلندا حالياً ٢٢ مليار ك و س معظمها من الفحم الأبيض ، هذا فضلاً عن قيام مراكز كهربائية تعتمد على الطاقة الحرارية الأرضية ، géothermique التي تقتنص الأبخرة الساخنة من النافورات الحارة « جيّزر » في منطقة بحيرة توپو ، مما سيزيد من إنتاج الطاقة والتي كانت لا تزيد عن ٧,٢ مليارات ك و س في ١٩٦٠ ، والذي سيسمح بالتوسع في الصناعات التحويلية كصانع الألبان والأجبان .

الزراعة وتربية الماشية في أستراليا

تنتظر أستراليا مستقبلاً اقتصادياً مشرقاً للغاية ، هذا على الرغم من الشروط

الطبيعية العسيرة . فالمناطق الخضراء « greens » تظل محدودة بسبب الافتقار إلى الماء ولقلة الرجال ، ومحصورة بنطاق ساحلي غير متصل ، يمتد من أستراليا الغربية إلى كوينسلاند ، ولا يشكل سوى ٧,٥٪ من مساحة أستراليا . وهنا نغيز ثلاثة نماذج من المستغلات الزراعية :

١ - هناك مزارع الزراعة المختلطة ، التي تكون كثيرة على الخصوص في بلاد الغال الجديدة في الجنوب ، وفي ولاية فكتوريا ، في أقصى الجنوب الشرقي ، وفي جزيرة تسمانيا ، وتقوم هنا مزارع متوسطة الأبعاد ، تنتج الأعلاف الخضراء والحبوب من أجل تربية ماشية حلوبة ، ولتسمين الثيران والخنازير . وتكون هذه المزارع مختصة أحياناً بزراعة الفاكهة ، فقد أقامت كروم عنب واسعة في منطقة آديلايد بشكل خاص ، تنتج عنب المائدة والزبيب والخمور التي تقارب ٤ ملايين هيكتر ، ولقد سمح التوسع في الري في وادي موراي ورافده مورومبيدجي على قيام مستغلات زراعة متعددة الإنتاج ، ولتربية ماشية حثيثة ، وقد أقيمت سدود كبيرة على الأنهار في جبال سنووي مما سمح بتوسع كبير في المساحات المروية .

٢ - مزارع القمح : وتحتل المناطق الأكثر جفافاً ، حيث تختلط زراعة القمح الواسعة والمكثنة ، حيث يصل الإنتاج السنوي وسطياً إلى ١٠ ملايين طن ، أو عشرة أضعاف الإنتاج السوري ، مع زراعة البرسيم من أجل تغذية الأبقار والأغنام ، ويصل إنتاج الشعير إلى ٣,٣ مليون طن والشوفان إلى ٩٠٠,٠٠٠ طن والذرة الصفراء إلى ٢٠٠,٠٠٠ طن ، والبطاطا ١ مليون طن .

٣ - المزروعات المدارية في كوينسلاند ، حيث تعتمد على مساحات واسعة وعلى مكائن راقية جداً ، وتستخدم فرقاً من العمال البيض ، وهو أمر شاذ في مناخ مداري ، ولا سيما زراعة قصب السكر ، حتى إن إنتاج السكر فيها

أصبح يفوق إنتاج فرنسا من هذه المادة أو ٣,٤ ملايين طن ، مثلما تقوم بتجارب واسعة لإنتاج القطن وفستق العبيد (الفول السوداني) .

أما فوق المساحات الكبرى القاحلة في الداخل ، فلا نجد مزارع حديثة ولا مزارع بل محطات التربية الواسعة للمواشي ، التي تعتمد على المراعي الطبيعية التي تبذر بالبذور العشبية المحسنة وعلى موارد المياه المصانة بعناية فائقة . وتتألف هذه من ينابيع ومن خزانات سطحية على الأودية ، وآبار في الحوض الأرتوازي الكبير . ويكفي وجود عدد قليل من الرجال من أجل مراقبة القطعان والعناية بها ، ويتألف كل قطيع من آلاف الرؤوس ، بيد أن فترات الجفاف تؤدي إلى فناء أعداد كبيرة من القطعان . وإجمالاً تؤلف الزراعة وتربية الماشية قاعدة الاقتصاد الأسترالي ، ويبلغ عدد رؤوس الأغنام ١٣٣ مليون رأس في ١٩٨١ ، مقابل ١٨٠ مليون في ١٩٧٠ من نوع مورينوس ، وهو أول قطيع غنم في العالم كما ونوعاً .

أما في شمال أستراليا فتقوم محطات لتربية الأبقار من أجل اللحم والجلد . فانعدام الشتاء في المناطق المدارية لا تسمح بنمو الصوف ، ولهذا ينحصر نطاق الأغنام في المناطق الجنوبية . ويبلغ عدد القطيع البقري ٢٥ مليون رأس ، وقد أوجدت محطات تربية الماشية المراعي ذات الحواجز الشائكة . وتستخدم أحدث التقنيات لوقاية القطيع من الآفات العديدة ، وهكذا استطاعت استئصال النباتات الضارة والقضاء على ملايين الأرانب التي تتلف الأعشاب باستخدام فيروس myxomatose وبالعناية بصحة الأغنام عن طريق إقامة مغاطس تقضي على الطفيليات . وهكذا يؤلف قطيع الأغنام الأسترالي أول قطيع في العالم في إنتاج الصوف الممتاز ، وهي أصواف المورينوس الحريرية فضلاً عن الأصواف الناتجة عن الأغنام المهجنة . وهكذا يصل إنتاج أستراليا إلى ٦ ملايين طن من الحليب و ٣ ملايين طن من اللحم و ٧٠٠,٠٠٠ طن من الصوف . وهي أول دولة

منتجة لهذه المادة ، ويعتبر الفرد الأسترالي أول مستهلك في العالم من اللحم ، إذ يصل ما يستهلكه الفرد بالعام إلى ١٢٠ كغم مقابل ٧٥ كغم في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية وإلى ١٠ كغم فقط في البلدان العربية باستثناء ليبيا ودول الخليج^(١) .

ويبدو أن الأستراليين أنفسهم قد أصابهم الدهشة من الثروة الخارقة التي تقدمها لهم أغنامهم ، التي أصبحت تقدم ٢٨ ٪ من الصوف العالمي و ٦٦ ٪ من أصواف موريнос . وفي منتصف القرن الحالي كانت الأصواف تمثل نصف قيمة الصادرات الأسترالية ، بينما لا تمثل حالياً سوى ٨ ٪ من قيمة الصادرات . ولا تزال تؤلف محطات الأغنام بالداخل قطعاناً قد يصل الواحد منها إلى حوالي ٥٠,٠٠٠ رأس أو أكثر . أما في المناطق الخضراء greens فإن ثلاثة أرباع مزارع تربية الأغنام لا تحوي أكثر من ١٠٠٠ رأس . ويتطلب جَز الصوف المزيد من الأيدي العاملة . ويعمل الكثير من القاصين بالتعاقد مع مربي الأغنام ، ويكون هؤلاء العمال المتجولون فخورين بمهارتهم ، إذ يتمكن الواحد منهم أحياناً من جَز صوف ٣٠٠ رأس غنم في اليوم . وبعد الجز تتم عملية الفرز ، وتوسم ثم تضغط في بالات تتعهد شركات خاصة ببيعها ، والتي تقوم مرتين في العام ببيع الأصواف في ملبورن وفي سيدني بالمزاد العلني ، ويأتي المشترون من سائر أطراف المعمورة .

النمو الصناعي في أستراليا

لم تعد أستراليا ، كما كانت في القرن التاسع عشر بلد الباحثين عن الذهب والمغامرة ، فقد احتلت مكانها بين الدول الصناعية الكبرى . هذا ولم يعد لمناجم

(١) يرى الدكتور خوزيه كاسترو مؤلف كتاب « جغرافية الجوع السياسية » أن نقص التغذية لدى الأمهات يزيد قدرتهن على الإنجاب لعجز الكبد ولشدة إفرازه مادة الجريبين folliculine التي تزيد الخصوبة ، وهكذا تتصف الشعوب « النباتية » بالتكاثر المفرط ، بينما يقل ذلك لدى الشعوب « اللاحمة » وقديماً قال الشاعر العربي :

بفـث الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقـلات نـزور

وينطبق هذا على النباتات الرديئة التغذية أو العطشى ، فاللبنونة العطشى تكثر بذورها على خلاف ثمرة الليون الريانة التي تكاد تخلو من البذور ، هذا فضلاً عن أن الشعوب الجائعة تتصف بسرعة الانقراض لأنها تعاني من صوم مزمن ، فتكثر فيها الحروب الأهلية والثورات المتكررة وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي . وهكذا قيل : ماضرب الله عباده بسوط أوجع من الفقر .

الذهب بين المصادر المعدنية أكثر من دور ثانوي ، لأن إنتاجها الحالي لا يزيد عن ١٧ طناً ، مقابل ٣٣ طناً في ١٩٦٠ و ١٠٠ طن في مطلع القرن الحالي . ويعود ذلك لنضوب مكامن الذهب في ولاية فيكتوريا ، كما أن استغلال مناجم كالغورلي في أستراليا الغربية يكلف غالباً ، لأن الماء يجلب إليها من مسافة ٦٠٠ كم . أما في الوقت الحاضر فقد أصبح إنتاج مناجم الحديد يتجاوز من حيث القيمة إنتاج مناجم الذهب ، لأن إنتاج أستراليا من « معدن الحديد » يبلغ حالياً ٨٥ مليون طن من موقع يامبي ساوند ، بعد أن كان لا يتجاوز ٣ ملايين طن من خامات الحديد في ١٩٦٠ . وتقع أهم مناجمه في ولاية بلاد الغال الجديدة الجنوبية ، ومن خليج سبنسر ، ومن أستراليا الغربية . أما استخراج المعادن غير الحديدية كالرصاص فإن إنتاجه ٢٤٠,٠٠٠ طن وهي ثاني منتج عالمي ، والزنك ٥٠,٠٠٠ طن ، والفضة ٧٨٠ طن ، والنحاس ١٧٦,٦٠٠ طن ، فتقوم به شركات قديرة ، ولاسيما في ناحية بروكن هيل ، في ولاية بلاد الغال الجنوبية الجديدة ، وفي جبل إيزا في ولاية كوينسلاند . وقد دخلت مكامن هامة من أوكسيد اليورانيوم مرحلة الإنتاج في أستراليا الجنوبية ، وكوينسلاند ، وفي أرض آرنهم وبلغ ٢٦٠٠ طن . وفضلاً عن ذلك تنتج أستراليا ٢٦ مليون طن من البوكسيت و ٤٠٠٠ طن قصدير و ١,٥ مليون طن من التنغستين وثلاثة من الإثمد .

أما في مجال الطاقة فتضطر أستراليا قبل كل شيء إلى الاعتماد على مواردها الفحمية ، فقد أنتجت عام ١٩٦١ مقدار ٢٤ مليون طن من الفحم و ١٠٠ مليون طن حالياً من إقليم نيوكاسل ، وارتفع إنتاجها من الليغنيت من ١٦ مليون طن في عام ١٩٦١ إلى أكثر من ٣٣ مليون طن حالياً ، وقد أضيفت حالياً مناجم فحم في أستراليا الغربية وفي أستراليا الجنوبية ، كما يتطور حوض الليغنيت بسرعة في ولاية فيكتوريا . وتقدم المراكز الحرارية الشطر الأعظم من الطاقة الكهربائية المستخدمة في البلاد ، وقد قفز إنتاجها من ٢٥,٤ مليار ك و س في عام ١٩٦١ إلى

١٠٣ مليار سنة ١٩٨١ . أما المراكز الكهربائية التي توسعت كثيراً في منطقة جبال سنوي ، فلم تقدم سوى ٢٠ ٪ من الطاقة الاجالية أما البترول فقد عثر عليه في عدة أماكن ، ولا سيما في مضيق پاس ، وفي شمال غرب أستراليا من أحواض بحرية وبلغ إنتاجه ١٨ مليون طن ، أي يقل عن إنتاج مصر ، ولكن طاقة أستراليا على التكرير يتجاوز ٣٥ مليون طن .

هذا وتتطور الصناعة الأسترالية بسرعة . وقد شهدت صناعة الحديد فيها نهضة سريعة . فبعد أن كان إنتاجها ٤ ملايين طن من الفولاذ في عام ١٩٦٠ بلغ ٧,٦ ملايين طن في عام ١٩٨١ . وتقع أهم مجمعات الصناعة الثقيلة على الساحل قرب نيوكاسل وسيدني ، وفي خليج سبنسر وپرت ، حيث تتبعثر الأفران العالية ومصانع الفولاذ ، ومصاهر المعادن غير الحديدية ، والترسانات البحرية ومصافي النفط ومصانع الأسمدة والإسمنت . وتصفي البلاد مقدار ٢١٩٠٠٠ طن من النحاس و ٤٣٣,٠٠٠ طن من الرصاص و ٥٠٠,٠٠٠ طن من الزنك عدا القصدير . وتقوم الصناعات التحويلية في العواصم التجارية ، التي أصبحت مراكز صناعية ، وتأتي في الطليعة ملبورن وسيدني ، وتتلوها أدلايد وبريسبان ومدن أخرى أقل أهمية . ويتم في هذه المدن تحويل منتجات الزراعة وتربية الماشية ، كما قامت في أستراليا صناعة سيارات أنتجت في عام ١٩٨١ مقدار ٣٥٨,٦٠٠ سيارة سياحية و ٤٠,٠٠٠ سيارة نفعية ، مثلما تبنى أستراليا الطائرات والمكائن الزراعية والتجهيزات الميكانيكية والكهربائية . وتنتج الصناعات النسيجية الأقمشة من القطن المستورد ، مثلما تقوم بغزل ونسج قسم لا بأس به من الصوف الخام الذي تنتجه .

وأخيراً فإن الصناعة النووية القائمة على مراكز أبحاث وتجارب تفتح أمام أستراليا تطلعات صناعية جديدة ، مثلما تمنحها دوراً سياسياً متنامياً باعتبارها قلعة الكومنولث .

التجارة الخارجية

لا تختلف أستراليا عن نيوزيلندة في أنها قطران جديدان في طريق التجهيز ، بحيث تلعب التجارة بالنسبة لهما دوراً حيوياً . وهكذا تلعب هاتان الدولتان دوراً هائلاً في المبادلات الدولية ، لأن تجارتها من أكثر تجارات العالم نشاطاً بالموازنة مع عدد سكانها .

وهكذا بلغت صادرات أستراليا عام ١٩٨١ مقدار ١٩,٣ مليار دولار أسترالي ، وكان الصوف يؤلف ٨,٧ ٪ والقمح ١١,٩ ٪ ، واللحم ٤,٨ ٪ فضلاً عن السكر والحامات المعدنية .

أما الاستيراد فقد بلغ في العام نفسه ١٧,٨ مليار دولار أسترالي ، وكان يتألف من المكائن والعربات ، والمنتجات البترولية والكيماوية . أما نيوزيلندة فبلغت صادراتها عام ١٩٨١ ٦,٤ مليار دولار نيوزيلندي ، وعلى رأسها الزبدة ، لأنها أول دولة مصدرة لها في العالم ، واللبن والصوف واللحم . أما استيرادها فكان ٦,٦ مليار دولار نيوزيلندي ، وكان يتألف من سلع مصنوعة ومكائن وسيارات ومنسوجات . وتجدر المنتجات الأسترالية والنيوزيلندية سوقها الرئيسية في بريطانيا العظمى وكذلك في أوروبا أكثر مما تبيع إلى الولايات المتحدة . وهكذا تكون العلاقات التجارية والمالية مع المملكة المتحدة أساسية على الرغم من النفوذ الأمريكي المتصاعد .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
بين يدي الكتاب	٥
المقدمة	٧
الفصل التمهيدى	١١
أولاً - العالم في ١٩٨٠	١١
ثانياً - الكتل العالمية الكبرى	١٥
تقلبات الظروف في أوروبا	٢١
الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية	٢٥
مستويات التنمية	٣٠
العلاقات الاقتصادية الدولية	٣٨
عالم متعطش للطاقة	٤٣
الذهب الأسود يفرض قانونه	٤٧
المستقبل الطاقى	٥٢
الفصل الأول : أمريكا الأنكلوساكسونية أو أمريكا شمال ريو غرانده	٥٧
البيئة والقسم المناخي الأمريكى	٦٢
الإعمار السكانى	٦٥
الحدود	٦٩
الولايات المتحدة	٧٣
الولايات المتحدة كفارة	٧٤
الشرائط المناخية العامة	٧٩
المناخات	٨١
البحيرات والأنهار	٨٢
الزحف نحو الغرب	٨٣
المدن الكبرى	٨٤
أسلوب الحياة الأمريكية	٨٦

الموضوع	الصفحة
المواصلات	٨٧
المناطق الطبيعية	٩٠
الولايات المتحدة كدولة اقتصادية عظمى	١١١
كندا	١٣١
الموارد الطبيعية	١٣٤
الصناعة والمواصلات	١٣٧
الكنديون	١٤٠
الإنسان الكندي	١٤٤
أمريكا اللاتينية	١٤٧
البرازيل	١٥٣
المناطق الطبيعية	١٥٨
البرازيل : بوتقة عرقية	١٦٢
استيطان الرقعة البرازيلية	١٦٦
الاقتصاد والمجتمع	١٧٠
الفوارق الإقليمية وتنظيم استغلال الرقعة	١٧٣
مشكلة المواصلات والطاقة	١٧٩
البرازيل : زراعة مدارية	١٨٣
البرازيل والمضاربات الزراعية	١٨٨
البرازيل قطر حديث العهد بالتصنيع	١٩٣
الأرجنتين	١٩٧
البيئة والسكان	١٩٧
الأرجنتين : اقتصاد قيد البناء	٢٠٥
الفصل الثاني : الاتحاد السوفيتي	٢١١
أولاً - التضاريس	٢١٤
ثانياً - المناخ	٢٢٠
ثالثاً - النبات	٢٢٩
رابعاً - الأنهار والبحار والبحيرات	٢٣٣
سكان الاتحاد السوفيتي وطريقة العمل فيه	٢٣٩
أولاً - شعوب الاتحاد السوفيتي	٢٤٠

الصفحة الموضوع

٢٤٠	تنوع الأجناس وتنفوق الروس
٢٤٣	سياسة القوميات
٢٤٥	الأوضاع الديموغرافية
٢٥٥	ثانياً - إطاراقتصاد السوفيتي
٢٥٥	المبادئ
٢٥٦	أساليب التطور الاقتصادي
٢٥٨	تنظيم القطاعات الاقتصادية الكبرى
٢٦٢	المناطق الإنتاجية الكبرى في الاتحاد السوفيتي
٢٦٢	أولاً - تطورات روسيا القديمة
٢٦٩	ثانياً - المناطق الصناعية الجديدة
٢٧٥	ثالثاً - البلاد الهامشية
٢٨٦	قوة الاتحاد السوفيتي الاقتصادية
٢٨٦	أولاً - الإنتاج الزراعي
٢٩٠	ثانياً - الإنتاج الصناعي
٢٩٨	ثالثاً - وسائل النقل والمبادلات التجارية
٣٠١	مشكلات الاقتصاد السوفيتي الحالية
٣١٧	الفصل الثالث : الشرق الأقصى - الصين واليابان
٣١٧	بيئة طبيعية متناقضة
٣٢٠	النموذج الياباني والطريق الصيني
٣٢٣	الصين
٣٢٣	تضريس على شكل درجات
٣٢٦	الصين أرض النكبات الطبيعية
٣٣١	الصين : إحصاء عسير
٣٣٤	تفاوت الإعمار السكاني
٣٣٨	الشعب : الهان والأقليات القومية
٣٤١	المدن : بكين وشنغهاي
٣٤٤	ثورة في الأرياف
٣٤٧	الكفاح ضد النكبات الطبيعية
٣٤٩	المناطق الزراعية

الموضوع	الصفحة
المنتجات الزراعية	٣٥٣
المواصلات	٣٥٩
مصادر طاقة كبيرة	٣٦٣
السياسة الصناعية	٣٦٩
البنى الصناعية وأماكن توطئتها	٣٧٥
الصناعات الثقيلة والصناعات الخفيفة	٣٧٨
بعد ثلاثين عاماً من الثورة : حصيلة إيجابية	٣٨٣
أبواب الصين : هونغ كونغ ، تايوان ، ماكاو	٣٨٦
تايوان أو (فورموزة)	٣٩٠
اليابان	٣٩٥
أولاً - الإطار الطبيعي	٣٩٥
البحار والسواحل	٣٩٨
المناخ	٣٩٨
النبات	٤٠١
ثانياً - سكان اليابان	٤٠٢
تزايدهم	٤٠٣
توزيع هؤلاء السكان	٤٠٧
الأرياف والمدن	٤٠٧
الحضارة اليابانية	٤٠٨
ثالثاً - المناطق الكبرى	٤١٠
١ - هوكايدو	٤١١
٢ - شمال جزيرة هونشو « هونشو »	٤١١
٣ - وسط هونشو	٤١٢
٤ - جنوب هونشو وسيكوكو	٤١٥
٥ - جزيرة كيوشو	٤١٦
رابعاً - الاقتصاد الياباني	٤١٧
التحديث	٤١٧
الزراعة	٤١٨
الصناعة	٤٢١
التجارة ووسائل النقل	٤٢٥
ملامح المستقبل	٤٢٨

الموضوع	الصفحة
الفصل الرابع : العالم الهندي	٤٣١
إفراط الطبيعة وقسوتها	٤٣١
الهند وشبه القارة الهندية	٤٣٣
أولاً - تضاريس الهند	٤٤٠
ثانياً - كثرة الناس وتنوعهم	٤٤٤
ثالثاً - تقسيم العالم الهندي	٤٤٩
رابعاً - تخلف شبه القارة الهندية	٤٥٢
دول العالم الهندي	٤٥٨
جمهورية الاتحاد الهندي	٤٦٠
فسيفساء بشرية	٤٦٠
الهند في مواجهة المشكلة الديموغرافية	٤٦٤
عيوب المجتمع الهندي	٤٦٨
مشكلة الأرض الزراعية	٤٧١
الزراعة : نجاحات متفاوتة	٤٧٤
الزراعة الغذائية والتجارية « النقدية »	٤٧٨
أسس الصناعة في الاتحاد الهندي	٤٨٣
الاتحاد الهندي : دولة صناعية عظمى مستقبلية	٤٨٩
الاتحاد الهندي في طريقه إلى التنمية	٤٩٣
الباكستان	٤٩٦
بنغلادش	٥٠٣
أندونيسيا	٥٠٦
أولاً - الملامح الطبيعية الكبرى	٥٠٦
ثانياً - السكان والتطور السياسي	٥١٢
ثالثاً - الاقتصاد	٥١٤
الفصل الخامس : أوروبا	٥٢١
الصفات الأصلية لقارة أوروبا	٥٢٩
الجزر البريطانية	٥٤٧
أسس القوة البريطانية	٥٥٠
أهمية علاقاتها ومواصلاتها	٥٥٠

الموضوع	الصفحة
أ - الامبراطورية البريطانية	٥٥٠
ب - منطقة الاسترليني	٥٥٣
ج - الأسطول التجاري	٥٥٤
قوة الإنتاج الطاقى	٥٥٥
أ - أهمية وتطور الثروة الفحمية	٥٥٦
ب - حصة المملكة المتحدة في الإنتاج العالمى للبترول	٥٥٩
ج - ملامح الطاقة الذرية	٥٦٢
الشعب البريطانى	٥٦٣
أ - تتركز سكان المدن	٥٦٥
ب - الفروق البشرية في هذا القطر القديم	٥٦٦
المناطق الناقصة النمو	٥٦٨
ايرلندا	٥٦٨
الكتل الجبلية في بريطانيا العظمى	٥٧٤
أ - الكتل الإيقوسية	٥٧٤
ب - الكتل الجبلية الإنكليزية	٥٧٦
الزراعة البريطانية ومناطق الزراعة الحثيثة	٥٧٧
الصناعة والمراكز الصناعية	٥٨٣
الموانئ البريطانية	٥٩٣
التجارة البريطانية	٥٩٨
ملامح اتجاه الاقتصاد البريطانى	٦٠٠
ألمانيا	٦٠٣
١ - مقدمة عن أوروبا الوسطى الجرمانية	٦٠٣
٢ - ألمانيا الوسطى	٦١١
٣ - ألمانيا الجنوبية	٦١٦
شعب ألمانيا والدول الألمانية	٦٢٦
ألمانيا الاتحادية	٦٤٠
أولاً - كيان ألمانيا الغربية	٦٤٠
ثانياً - المناطق الاقتصادية الكبرى	٦٤٨
١ - المناطق الصناعية في ألمانيا الوسطى	٦٤٨
٢ - المناطق الريفية في ألمانيا الجنوبية	٦٥٦
- ٨٣٠ -	

الموضوع	الصفحة
٢ - المناطق الصناعية والموانئ في السهل الشمالي	٦٦٢
ثالثاً - ديناميكية ألمانيا الاقتصادية	٦٦٥
ألمانيا الشرقية	٦٧٩
١ - تعريف	٦٧٩
٢ - القسم الجنوبي من ألمانيا الديمقراطية	٦٨٣
٣ - السهل الشمالي	٦٨٦
٤ - اقتصاد ألمانيا الديمقراطية	٦٩٠
٥ - برلين	٦٩٨
مدينة برلين بالأرقام	٧٠١
إيطاليا	٧٠٣
البيئة والناس - الإطار الطبيعي	٧٠٣
البيئة والسكان - الديموغرافيا	٧١١
الحياة الزراعية	٧١٥
تنوع الأرياف الزراعية	٧٢٠
شروط الحياة الصناعية	٧٢٣
الطاقة والصناعة	٧٢٨
مدنية حضرية	٧٣٣
المدن والمناطق ، وحدة ومفارقات	٧٣٨
المشكلات الإقليمية	٧٤٠
حياة الاتصالات - وسائل المواصلات والتجارة الخارجية	٧٤٣
السياحة وميزان المدفوعات	٧٤٦
فرنسا	٧٤٩
الموقع	٧٤٩
تشكل الأرض	٧٥٠
التضريس	٧٥١
المناخ	٧٥٨
السكان	٧٦٠
الاقتصاد	٧٦٣

الموضوع	الصفحة
الفصل السادس	٧٧٥
جمهورية جنوب إفريقيا	٧٧٥
أولاً - الصفات العامة لإفريقية الجنوبية	٧٧٦
التضريس	٧٧٦
الأوضاع المناخية والمناخات النباتية	٧٧٧
ثانياً - التطور الاقتصادي في جمهورية جنوب إفريقيا	٧٧٩
الاستيطان الأبيض	٧٨٠
الاستغلال الزراعي	٧٨١
الثروات المعدنية	٧٨٣
غوا المدن	٧٨٨
ثالثاً - المآسي الإنسانية في جمهورية إفريقية الجنوبية	٧٨٩
أستراليا ونيوزلندا :	٧٩٧
أولاً - الشروط الطبيعية	٧٩٨
أستراليا ذات القلب اليابس	٧٩٨
ارتصاف التضاريس	٨٠١
المشاهد النباتية والهيدروغرافيا	٨٠١
أرض غير مضيافة	٨٠٣
نيوزلندا	٨٠٤
ثانياً - السكان والاستيطان	٨٠٥
١ - أستراليا الغربية	٨٠٧
٢ - أستراليا الجنوبية	٨٠٨
٣ - كوينزلاند	٨٠٩
٤ - فكتوريا	٨٠٩
٥ - منطقة الشمال	٨٠٩
التنظيم السياسي والاجتماعي	٨١٣
للمواصلات	٨١٣
ثالثاً - التطور الاقتصادي	٨١٥
الزراعة وتربية الماشية في أستراليا	٨١٧
النمو الصناعي في أستراليا	٨٢٠
التجارة الخارجية	٨٢٣



تصميم الغلاف : السيدة فاطمة الطرابيشي
تم رسم الخارطة على أجهزة CTT السوبرية